

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الرسالة الاولى :

### تاريخ الإسلام منذ فجر الإسلام إلى اليوم

( إسطار البحث )

ظهر الإسلام بعد انهيار الحضارة الرومانية التي أوشكت على الانحلال عام ٤٤٠م فما كادت كلته ترن في الآفاق حتى أخذ مكان القيادة في العالم كله خلال مائة عام ، فقد نشأ في الجزيرة العربية ولكنه لم يلبث بعد اثني عشر عاما من الهجرة أن وسع نفوذه إلى العراق و فارس إلى الشام ومصر وأفريقيا حتى بلغ الأندلس عام ٧١١م ثم بلغ السند وما وراء الهند وأشرف على أوروبا وأوغل في فرنسا وجنوبي إيطاليا حتى أوقفه اتساع الدائرة التي امتدت من دمشق إلى بواتية حاضرة هذه الألوف من الأميال في معركة بلاط الشهداء ( ١١٤ هـ - ٧٤١ م ) . وقد امتدت هذه الدولة من حدود الصين إلى حدود فرنسا في أقل من مائة عام وبلغت من السعة الضخمة في هذا المدى القصير من عمر الزمن ، الواسع في الامتداد الجغرافي على غير نحو مسبق في الحضارات والامبراطوريات كاللولة الرومانية وغيرها . ولا شك أن القيم والمبادئ التي يحملها الإسلام تفسر هذا التوسع والتطور ، لم يكن يبدأ القرن الثاني الهجري حتى كان الغرب قد بدأ الصراع مع القوة الجديدة محاولا إيقاف مدها في معركة بلاط الشهداء .

هذه للمركة التي قادها كارل مارتل والتي عدها بعض المؤرخين الغربيين تجميدا لنفو الإسلام واتساعه . ولقد اهتمت الكثير من المؤرخين النصارى بأن معركة بواتية ( بلاط الشهداء ) كانت شرآ على أوروبا ، وأنها أوقفت الحضارة الجديدة الإسلامية عن النمو والامتداد سبعة أوثمانية قرون . هكذا نظرت أوروبا إلى الإسلام ، وقد وسعت هذه النظرة من بعد فحسبت أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا كانت كلها تابعة للدولة الرومانية ، وأن الإسلام قد انتزحها من الغرب وأن من حق الغرب أن يستعيد هذه الأرض ويرد الإسلام إلى الجزيرة العربية . وفي خلال قرن ونصف قرن توالت الحملات الصليبية ( ثمان حملات من ٤٤٨م إلى ١٩٠٦م إلى ١٢٤٤ - ١٢٥٣م ) لم تتوقف ، وجاءت حملة لويس بعد هذا التاريخ بعشرين عاما على تونس وهي ما يطلق عليها المؤرخون الحملة

الصليبية الثامنة ، وكانت هذه هي قمة الضغط على الإسلام ومحاولة تمزيقه والقضاء عليه . وقد مضت أوروبا من طريق بيزنطة لا تتوقف عن مهاجمة حدود عالم الإسلام تترقب الفرصة بعد الفرصة للتوغل والسيطرة على هذا للدخل الحيوى ، وظلت القوة الاسلامية ترددها وتبدل منها حتى هزمت بيزنطة في معركة ملاذكرد ، وأحس الغرب بأنها لم تعد قادرة على تحقيق مطامعها ، هناك قذف الغرب عالم الاسلام بالحملات الصليبية للتتوالية وأقام المملكة اللاتينية في قلب عالم الاسلام . وظلت تمتد حتى برز صلاح الدين فاتصر في حطين عام ٥٨٣ - ١١٨٧م واسترد بيت المقدس . وكانت حملة التنار التي اجناحت « عالم الاسلام » منذ عام ١٢٤٩م فاستطاعت أن تستولى على بغداد ٦٥٦ - ١٢٥٨م وأن تنوالى توسعاتها حتى ردها المسلمون في عين جالوت ٦٥٩ - ١٢٦٠م . وكانت معركة تصفية الأندلس من العرب والاسلام قد بلغت ذروتها عام ٨٩٨م ١٦٠٩م باتفاق فرديناند وايزابيلا ، واستطاعت في خلال مائة وعشرين عاما أن نجلى للمسلمين نهائياً عن الأندلس وأوروبا فتم ذلك عام ١٠١٨م - ١٦٠٩م غير أن حملات الغزو على عالم الاسلام لم تتوقف إلا بقدر ما أتيح لأوروبا استعادة الأندلس ومن ثم انطلقت البرتغال وأسبانيا إلى تطويق عالم الاسلام في حركة ضخمة سيطرت على سواحل أفريقيا وحولت بحرى التجارة الأوروبية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي على العالم الاسلامى وأضعافه اقتصاديا ، وقد وصلت عمية التطويق إلى الهند وتجاورتها إلى اللابو ومهدت « لمصر الاستعمار » الذى بدأ في أوائل القرن التاسع عشر بالحلة الفرنسية على العالم العربى كقمة للسيطرة على العالم الاسلامى كله وقد بلغت ذروتها في نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ . وهكذا تبدو صورة العالم الاسلامى في معركة مستمرة بينه وبين القوى للمعادنة له ، المنذفة إلى السيطرة عليه في عمليات غزو متصلة ، خرج منها الاسلام ظافراً منتصراً لم ينوقف خلال هذا التاريخ عن الامتداد والاتساع بقوته الذاتية ، فإذا كان قد انحسر نفوذه من أوروبا من ناحية المغرب والأندلس ، فإنه امتد إلى قلب أوروبا من ناحية الشرق هندما سيطر العثمانيون على القسطنطينية ٨٥٨م ١٤٥٢م ومدوا نفوذهم حتى بلغ أسوار فيينا ١٠٩٥م ١٦٨٣ في قلب أوروبا ويمكن القول بأن ما بلغه العالم الاسلامى في فترة الحكم العثمانى من ضعف إنما جاء نتيجة عدة عوامل أبرزها « دورة التاريخ » ذات الحكم الذى لا مرد له ، نتيجة التوسع الجغرافى من ناحية والامتداد الزمنى من ناحية ، غير أن العامل الحاسم في حركات الجزر إنما ترجع بقدر أكبر من الأهمية إلى العوامل الخارجة إلى العمليات الخارجة وهى عمليات الغزو التي جرت على فترات متوالية خلال هذا التاريخ الطويل ، وأبرزها عملية الغزو الاستعمارى الحديث التي بدأ عام ١٧٩٨ - ١٢١٣م . وإذا كان النفوذ الغربى الذى سيطر على العالم الاسلامى وامتد حتى اليوم خلال القرنين ١٣ و ١٤



المجربين قد حقق بعض النتائج في مجال الاستعمار ، فإن الاسلام — الذى سقطت دولته في برائن الاحتلال الفرنسى البريطنانى الاسبانى الابطالى — لم يوقف أمرين : ( الأول ) الفكر الاسلامى الذى ظل حياً متحركاً قوياً ممتداً ، والذى تعمق خلال هذين القرنين الأخيرين وتوسع وكشف عن نفسه غطاء الجود والتخلف والتقليد وبدت ماله أشد وضوحاً وأكثر إشراقاً مما كانت في فترة الضعف التى سيطرت على العالم الاسلامى . ( الثانى ) توسع الاسلام نفسه بالانتشار في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، بالرغم من سيطرة الهيئات التبشيرية المختلفة المسنودة بالحكومات والاحتلال ، فقد استطاع الاسلام أن يحقق من طريق التوسع الذاتى انتصاراً ساحقاً يمكن أن يوصف بأنه أضاف للإسلام أكثر من خمسمائة مليون مسلم .

والظاهرة الواضحة في تاريخ الاسلام لم يتوقف في أى مرحلة من مراحلها من تقديم بناء الدول وقادة الفكر ، وكان جرياً على ناموس الحياة يمر بمراحل القوة ، ثم يمر بمراحل الضعف ، ثم يعود مرة أخرى إلى القوة من خلال الدول المتجددة ، والبناء الذين يقومون على هذه الدول ، ومن خلال الفكر الاسلامى العربى المتجدد وقادته ، الذين لم يتوقفوا يوماً عن إتاحة الفرصة للنمو الانسانى والحضارى ، وفتح الطريق لالتقاء الاسلام بالحياة والحضارة ، كاشفاً عن قدرة الاسلام على الالتقاء الدائم ، والحركة المتصلة في العلاقة بين مجتمعه وبين مختلف الحضارات والثقافات والمجتمعات مع القدرة على الأخذ والعطاء ومع المحافظة الدائمة على مقوماته الأساسية . ويمكن النظر إلى تاريخ الاسلام كوحدة تامة منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وتمثل صورته شاملة كاملة في مجاليه الواسعين . ( ١ ) مجال بناء الحضارة . ( ٢ ) مجال بناء الفكر ولا يمكن — حين إلقاء النظر نحو أحدهما دون الآخر — أن تكون الصورة واضحة أو تكون النظرة صحيحة ، فقد كان بناء الحضارة وتطور الفكر يجريان في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية في آن واحد . فمن خلال الجاهة الاسلامية الأولى التى كونها الرسول : محمد ﷺ أمكن تعميق مفهوم الاسلام الذى حملته هذه الجماعة ومضت تشق به وجه هذا الكوكب شرقاً وغرباً منطلقاً من قلب الجزيرة — ذلك المنطلق الذى قام موجات بشرية متعددة من قبل — حتى بلغت حدود الصين وحدود فرنسا . وإلى الذين يعجبون من قدرة الاسلام — التى توصف بأنها خارقة — على التوسع في خلال هذه الفترة القصيرة ذلك المدى ، أن يذكروا أثر عملية البناء التى أجراها ( محمد ) الرسول بتعاليم ( القرآن ) لهذه الجماعة الصغيرة من أتباعه حين سيطر مفهوم جديد للحياة ، يحمل طابع التوحيد لله والايان بدهوته والانقطاع في صدق لنشرها في آفاق الأرض ، وبذل النفس والنضحية

بالروح في سبيل هذه الرسالة ، وهذا التحول النفسى في جماعة المسلمين الأولى التى كانت من العرب أساساً ، هو المصدر الحقيقى لذلك التوسع السريع الشامل ، وقد كان دور العرب في هذا العمل ضخماً وشاملاً ، وحين توقف التوسع على هذه الجبهة من أفريقيا وآسيا بما أطلق عليه ( عالم الاسلام ) كانت المرحلة التالية هى أخطر مرحلة : مرحلة الانصهار الاجتماعى والفكرى بين الأمم والنباثل والشعوب والأجناس ولا ننسى أن نذكر أن مفهوم الإسلام وأيدلوجيته قد استكملت مفهومها قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأهلئ ، وأنه لم تجر إضافة أى شئ جديد إلى « مقومات الاسلام بعد ذلك » ، وأن الخطوط العامة والأسس الأولى كانت قد رسمت فعلاً خلال حياة الرسول ومن خلال النص القرآنى الثابت على النحو الذى يكفل للإنسانية صورة رسالة إنسانية عالمية خالدة تمتد مع التاريخ والبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في ضوء هذه المفاهيم وبعيداً عن النظرة التقليدية يمكن تقسيم تاريخ الإسلام إلى عصور ست ( الأولى ) عصر بناء الجماعة الإسلامية التى بناها الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً في مكة والمدينة التى قام بها مجتمع موحد في الجزيرة العربية كلها ، وإلى هذه الجماعة تميز تلك القوة التى وصفت بأنها معجزة في سبيل إذاعة الإسلام في أطراف الأرض . ( الثانئ ) توسع الاسلام وامتداده ، وهى تمثل للرحلة التى بدأت بعد اختيار الرسول للرفيق الأهلئ ، حتى تم للإسلام امتداد عالم من حدود الصين إلى أطراف فرنسا وهى مرحلة تمتد إلى عام ١٩٤ تقريباً من الناحية التاريخية وإن كانت امتدادات الاسلام لم تتوقف إلا بعد فترة طويلة . ( الثالث ) مرحلة بناء الفكر الإسلامى في مواجهة محاولات تحريفه ، وبناء الحضارة الإسلامية وهى مرحلة مزدوجة النمو في مجال الثقافة والمدنية معا وفيها ظهر بناء الدول وقادة الفكر ، ويمكن أن توصف تاريخياً بأنها تمتد من بدء حركة التدين إلى الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ م ٥٤٨٩ . ( الرابع ) مرحلة أزمة الإسلام والغزو الخارجى : حين واجه عالم الإسلام غزوات الصليبيين والتتار ومؤامرات الباطنية ( الحشاشون ) وفي هذه المرحلة قامت المماليكة اللاتينية في قلب العالم الإسلامى ثم تقلصت ، وانتهت غزوات المغول ، وفيها توسع الاسلام بالكلمة ، وحيث تسقط الخلافة في بغداد ، ويتقلص النفوذ الإسلامى في الأندلس ، يقتحم الإسلام آفاقاً جديدة في جنوب شرق آسيا وقلب أفريقيا وتمتد هذه المرحلة تاريخياً إلى قيام الدولة العثمانية ٦٩٦ - ١٣٠٠ واندماج القوة العربية معها في عام ٩٢٧ ١٥١٧ . ( خامساً ) ظهور مرحلة الوحدات الثلاث في عالم الإسلام : ( ١ ) الدولة العثمانية في منطقة آسيا الصغرى والعالم العربى ( ٢ ) الدولة الصفوية في فارس ( ٣ ) دولة المغول في الهند وتمتد هذه المرحلة تاريخياً حتى عام ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م وهو

تاريخ الاحتلال الفرنسى للجزائر بعد أكثر من ثلاثين عاماً من وصول الحملة الفرنسية إلى مصر والشرق . ( سادساً ) مرحلة اليقظة العربية الإسلامية . وتبدأ هذه المرحلة بالدعوة إلى التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وحيث تجرى مرحلة الاحتلال الغربى لعالم الإسلام ، وهى مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام تتمثل في نهضة الفكر والحضارة التى تحمل لواءها الأمة العربية مرة أخرى . وقد صار تاريخ الإسلام فى خطوط متساوية مقسارحة : \* خط التوسع والامتداد ، ونمو الفكر الإسلامى وتطوره . \* خط للمقاومة لمحاولات هذا الفكر الإسلامى ومقاومة الهجوم الخارجى . \* قيام بناء الدول وقادة الفكر فى كل المراحل التاريخية وفى كل أجزاء عالم الإسلام . \* بناء الحضارة وتطورها فى مجالاتها المختلفة ، وتطور المجتمع \* أثر الإسلام فى العالم الخارجى من توسع عقدى ونمو فكري .

## ( ١ )

### « الإسلام والتاريخ »

التقى الإسلام والتاريخ منذ بزغ نوره ، وظل هذا اللقاء ممتداً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، متصلاً مؤثراً بعيد المدى والأثر ، فما من حدث من أحداث العالم والإنسانية إلا والإسلام متصل به ومؤثر فيها ومتفاعل به . تلك حقيقة فى حاجة إلى بيان فكيف بدأ التقاء الإسلام بحركة التاريخ ؟ منذ بدأ الانسان يتصل بالحياة ويترك بصماته على أحجارها ويعرف الكتابة والنار فقد بدأ عصر التاريخ . وتكدس تجميع التحقيقات العلمية على أن ذلك كان قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة . هنالك سارت الحضارة والأديان فى موكب واحد ، لترسم للبشرية طريقها إلى حياة أفضل ، وقد التقى التاريخ فى مسيرته الطويلة بأديان وحضارات وقادة فى محاولة بناء السكبان الإنسانى وترقية البشرية وتحقيق رسالة السكائن الأسمى . وفى خلال هذه المسيرة التقى التاريخ بقمم عالية وأحداث ضخمة ما تزال هلامات كبرى فى تاريخ الإنسانية . ولقد كان الإسلام واحداً من أكبر هذه القمم ، ولكن ميزته أنه جاء بعد أن مرت البشرية بحضارات وأديان ومواقف أتاحت لها أن تنصقل وتسمو وترتفع عن خشونتها وبدواتها لتتقى فى طريق الارتقاء .

ومن خلال حلقات الحضارة الفرعونية وحضارة حورابى والحضارة الفينيقية والحضارة الفارسية والحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية . ومن خلال الديانات العبرية والزرادشتية والهندوكية والبوذية والبكنفوشيوسية والمسيحية التقى التاريخ بالإسلام . كانت هذه المدنيات

علامات على الطريق إلى الحضارة والنور والعرفان ونمو العقل والفكر ، وكانت الأديان علامات على الطريق إلى ضياء القلب وصفاء النفس حتى جاء الاسلام جامعاً في مزيج دقيق للطريق « العقل والقلب » معاً في تناسق يمكن أن يطلق عليه (رسالة حياة) . ولقد كانت البشرية في خلال تطورها ومراحل نموها المتصل الطويل ، تلتقي من خلال موكب التاريخ بالحضارات والأديان ، وبالأنبيا والرسل والمهداة على مراحل ، وكانت الأديان مصادر للحضارات ، وكانت رسالات السماء ودعوات المصلحين كلها تهدي البشرية إلى الطريق ، ولكنها كانت « جزئية » تقوم في قطر أو أمة أو شعب وتختص به ، وقد يقوم أكثر من هادئ في وقت واحد ، في قطرين متجاورين . كانت كل رسالات السماء ودعوات المصلحين إذ ذاك ، دعوات مرحلية وجزئية وزمنية ترتبط بالانسانية في مسارها الطويل ، ليظل مشعل ضيائها موقداً ، فهي عمدة بالزيت بين حين وحين ، ولما كانت الانسانية لا تزال لم تبلغ رشدتها ، فقد توالى الدعوات والرسالات فككاً طال بها الزمن وانحرفت عن مسيرتها جاءت دعوة أخرى لتصحح المفاهيم وتردها إلى الدعوة الأصلية : دعوة التوحيد والايان بالله وحده ، وإحلال « الانسان » مكانه في الأرض بوصفه سيد هذا الكون تحت ظل الله . ولقد كانت اليهودية قبل ألف ومائتي عام من ميلاد المسيح رسالة السماء ، رسالة إلى أمة العبرانيين فلما انحرفت وغلبت عليها المادية جاءت المسيحية تصحيحاً لها وتكميلاً ، جاءت لنفس الأمة والشعب في خلال فترة اليهودية والمسيحية ، كانت هناك البوذية والسكتنفوشوسيه والزرادشتيه ولها مجتمعاتها وأممها ونموها ولكن هذه الأديان البشرية كلها قد خلت من روحها ودخلت إليها انحرافات وزیوف كثيرة ، وفقدت سلطانها وأثرها في البشرية ، وتحولت إلى وثنية ونحلل ، اضطربت معها المجتمعات أما الحضارات السائدة إذ ذاك ، حضارة الفرس في الشرق وحضارة الروم في الغرب فقد شاخت كلانها بعد ذلك الصراع العنيف والمعارك الدامية والاضطراب البالغ الذي استأثر بمصادر البناء والقوة والحركة فيهما . ومن هنا سقطت روما في القرن الخامس وبقيت بيزنطة تعاني شيخوخة وعجزاً ، ولعل المؤرخ الكبير جيبون صاحب كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية هو أصدق من يرسم صورة بيزنطة في هذه الفترة : يقول : في أواخر القرن السادس وصلت الدولة الرومانية في ترديها وهبوطها آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحه عظيمة ، كانت أُمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً . ويقول درابر : لما بلغت الدولة الرومية عن القوة الحربية والتنفيذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدرجات . بطر الرومان

معيشتهم وأخذوا إلى الأرض واستهنروا استهتاراً وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتنمتع بالنقل فيها الإنسان من نعم إلى ترف ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت مواعيدهم تزدهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر يخفف بها خدام في ملابس جميلة خلافة ، وهاديات رومية حسناء ، ويزيد من نعمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريماً ، وقد أدرك هؤلاء الفانخون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو « القوة » . أما الفرس فقد كان الأكاسرة ملوك فارس يدهون أن دما الهيا يجري في عروقهم ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة فوق القانون وفوق البشر وقد استحوذت على الناس في الامبراطورية الرومانية — حياة الترف والبذخ ، وكان لسكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسين ألف جواد . وكانت عبادة فارس : النار والشمس ، أما الجوسية فقد اضطربت واشتبكت فرقها في صراع متواصل ، وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه انحلال السلطنة الفارسية وقع الصراع بين الفرق المسيحية حول طبيعة المسيح ، وبلغ الجدل قتله والخلاف غاية « وأصبحت البوذية بالانحطاط وابتلعها البرهمية فتحوات إلى «وثنية» تحمل معها الأصنام أينما سارت تبني الهياكل وتنصب التماثيل . وانتقلت الأديان من بساطتها ويسرها إلى التعقيد والجدل وسيطرت عليها الفلسفات والوثنيات المفرقة ، وانقلبت المشاحنات المذهبية إلى فنن ومناجح ، ومع صراع الأديان كان صراع الامبراطوريتان السكسريان : « فارس وبزنطة » ، وقد اشمكتما في صراع مستمر دائم كل منهما تطمع في السيطرة على العالم وقيادته ، وبالجملة فقد كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح « من أخطر أدوار التاريخ بلا خلاف حيث ساد الانحلال والفوضى وسوء النظام وحسف الحكم ، حيث بلغت الوثنية أوجها ، وسيطر نظام الطبقات الجائر ، وبلغ ظلم الحكم والباطرة والأكاسرة غايته ، وانحط مركز المرأة ، وسيطر الربا على معاملات الاقتصاد ، وسيطرت الإباحة على حياة المجتمع ، وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها ، وغلب الحمر ، والانحراف الجنسي ، والطمع وشهوة المال ، وأصبح الأقباط والرهبان أرباباً من دون الله ، ووأد الناس الأولاد وقتلهم . وبدأ عالم متدهاى قد شارف النهاية ، وكانت الأحداث كلها تتمثل في تطلم كبير ، التطلم إلى رسالة جديدة ودعوة جديدة ترد البشرية إلى الحق ، إلى التوحيد ، إلى عقيدة سمحة بعيدة عن تعقيدات الفلسفة ، وظلام الوثنية ، وزاد هذا التطلم اضطراع الفرق في مختلف الأديان ، حتى فقد الناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات ، وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول . هكذا وصلت البشرية في أكبر مظهر من مظاهرها : الحضارات والأديان إلى أبعد مهاوى الاضطراب والضعف ، مما ينذر بسقوط

كثير من النظم والمعتقد ، التي فشلت في هداية الإنسانية إلى الحق ، وكان لابد من دهوة يتمثل فيها الرشد الإنساني ، من خلال مرحلة جديدة تتيح تقبل رسالة عالمية إنسانية شاملة ، بعد أن انطوت مرحلة الدهوات والرسالات والنبوات المحدودة والجزئية والإقليمية والزمنية ، رسالة جديدة تعيد صياغة الفكر الإنساني والحضارة وفق مفهوم التوحيد وتحمل في أعماقها طابع الشمول والتكامل ومن هنا كان النقاء التاريخ بالإسلام التقاء حاسماً ومؤثراً وبعيد المدى وكانت بؤرة اللقاء هي : « الجزيرة العربية » بوصفها منطقة عذراء بعيدة عن تأثيرات الحضاريين الفارسيين والرومانيين فضلاً عن « أن العرب بوصفهم جماعة » لم يخضعوا كثيراً للأديان والحضارات السابقة ، ولا شك كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية كدهوة عالمية ورسالة إنسانية هو أول علامات الظفر والقوة التي حققتها هذه الدهوة ، إذ لم تكن منطقة ظهوره غارقة في تبعية فكرية للوثنية أو المسيحية أو اليهودية ، ولم تكن متحضرة قد هدمتها الحضارة وأصابها بالانهلال ، ولم تكن تطويها عقيدة واضحة أو نزعة سالفة عميقة الأثر ، وكانت إلى ذلك فقيرة وغير مسرفة في الثراء ، وبذلك كله أصبحت قادرة على أن تحمل لواء دهوة جديدة دون عناء من تبعات المعتقد أو الحضارة .

فإذا ألقينا نظره على « الجزيرة العربية » وجدناها قبائل متصارعة ، ضعيفة ، تعيش على هامش الحياة تنطلع إلى الفرس والروم على أنهما مظهر القوة القادرة والثراء البالغ والترف الواسع ، وهي من دون ذلك معزولة ضعيفة ، لا تقوى إلا على التجارة في أطراف الجزيرة ، رحلة الشتاء والصيف ، غارقة في الوثنية مضطربة بين الربا والبغاء ، والتفكك والصراع القبلي ، وإن كانت قریش على قدر من الثقافة والبلاغة تقول الشعر ، وتقيم أسواق الجدل وحلبات السجال ، ولم تخل من طوائف من الموحدين زهدوا في الوثنية ، وأحرار ضاقوا بظلم الطغاة والأثرياء يترقبون ساعة الخلاص . كانت الجزيرة العربية « بؤرة الرسالة » كانت تعيش بعيدة عن الأحداث وتحركات الدولتين المتصارعتين ، إلا ما تنأثر به أطرافها ، مبقية على وثنيتهما ، لا تبلغ من صراع الأديان ما يدفعها إلى أن ينخلص من سلطانها ، فالكعبة في مكة قاهضة الوثنية ، ولكل قبيلة صنم تعبد ، اللات لثقيف ، ومناة للخزرج ، والعزى لسكنانة ، وأساف ونائلة لأهل الصفا والمروة ، وسواع لبني هزيل ، وبغوث لبني مزحج ، ويعوق لهمدان ، ويسر الذي البكلع ، ومن الكعبة ثلاثمائة صنم . و « مكة » بعد مقر النفوذ الوثني الضخم يجمع إليها الناس من كل مكان ، ثم هي مقر التجارة مع العالم كله شمالاً إلى الشام وجنوباً إلى اليمن ، ومن هنا فهي متأثرة بأحداث الصراع السياسي والمعتقد ، يجري فيها الجدل حول المجوسية والمسيحية واليهودية ، ويصطارع الخلاف حول أفق الفد ، الذي تفرقه البشرية ،

وقد نبت فيها قبل البعثة رأى عام منقف ، حمل لواء الخصومة للوثنية ودعى إلى شجب عبادة الأصنام قوامه ورقة بن نوفل أعلم أهل عصره ، وهشام بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو ابن نفيل ، واسكن قريشاً كانت تصر على وثليتها باعتبارها مصدر النفوذ والسلطان ، فهم صندة البيت ، ولهم امتيازات السكينة وفي حسابهم أن الوثنية هي مظهر الزعامة والسياسة للجزيرة كلها ، غير أن الأحداث لم تلبث أن هزت مجتمع مكة والجزيرة كلها ، حين زحف أبرهة من اليمن على مكة لخاصرة الكعبة ، ثم انصرف عنها منهزماً ، وقد ترك آثاراً بعيدة المدى ، كانت إرثاً خاصة للعصر والجزيرة وعلامة على ما وقع بعدها بأربعين عاماً ، وفي نفس العام . ٥٧٠ م عام الفيل ولد محمد بن عبد الله ، الذي اختاره الحق لحمل لواء هذه الرسالة التي غيرت مجرى التاريخ .

برزت دهوة الاسلام في إبان الحاجة إليها ، حاجة الضرورة والتطور ، لتعيد إلى البشرية الثقة في الانسانية وتفتح من جديد آفاق الحرية والعدل والكرامة ، رسالة جديدة في صياغتها ، قديمة في مصادرها وجذورها ، من خلال قيادة محمد بن عبد الله ومنهج « القرآن » تستهدف دفع البشرية خطوات إلى الأمام في طريق الانسانية . ومن خلال الصورة التي كانت تهيأها البشرية في القرن السادس للميلادى ، التي التاريخ في مسيرته بالاسلام ومنذ بزغ فجر الاسلام إلى اليوم وهو بالغ الأثر في حركة التاريخ وفي تطور الانسانية غير منفصل عن العالم في مسيره ومصيره . نعم . منذ ظهر الاسلام إلى اليوم في خلال أربعة عشر قرناً مازال مؤثراً في مجرى التاريخ لم يتوقف أثره في كل أحداث العالم والانسانية منذ ظهوره إلى اليوم . فالاسلام هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من رقة الظلم والاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب التي اتصلت به . ولقد كان لبزوغه في محيط الأمة العربية دلالة واضحة ، هي اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث « محمد » من أهلها ونزل القرآن باعتمادها ، فكانت الجماعة الإسلامية الأولى التي صاغها الاسلام في الجزيرة العربية ، هي القوة الدافعة التي حملت هذه الرسالة وسارت بها إلى الآفاق لتحقيق بها حركة التاريخ نحو التوحيد والأخاء والرحمة وبناء حضارة جديدة وفق مضمون إنسانى عالمي يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

( ٢ )

## « بناء الجماعة الإسلامية »

قال جعفر بن أبي طالب : « كنا قوم نعبد الأصنام وأنا كل المينة ، القوي منا يؤدي الضعيف ، لا نعبأ بحق ذوى القربى أو الجار ، إلى أن بعث الله إلينا رسولا من بيننا نعرف هراقة منبته وننقى باخلاقه وأمانته ، أمرنا بالصدق فى القول ، وتأدية الأمانات إلى أهلها ، ومراعاة حقوق ذوى القربى والجار ، واجتناب المحرمات واراقة الدماء ، كما أمرنا بعبادة الله وحده » .

يمكن أن توصف المرحلة التاريخية التى تبدأ من بعث الرسول إلى اختياره الرفيق الأعلى بمرحلة ( بناء الجماعة الإسلامية ) ففى خلال ثلاث وعشرين عاماً أمكن بناء مجتمع جديد ، بدأت فى مكة فى قلب الجزيرة العربية ، وفى دار الأرقم بن الأرقم بمكة ، ثم امتد فى مرحلتين : مرحلة مكة ( ثلاثة عشر عاماً ) ومرحلة المدينة ( عشرة أهوام ) تنوسطهما « الهجرة » وهما مرحلتان متكاملتان لا انفصال بينهما تكمل الثانية الأولى ، وتعد امتداداً ونموا ونتيجة لها . يمكن أن يطلق على الأولى ، مرحلة بناء الفرد المسلم والأخرى مرحلة بناء الجماعة الإسلامية ممثلة فى الأمة العربية التى تقيم فى الجزيرة العربية وكلتا المرحلتين تسيران فى تدرج واضح من الدعوة السرية فى مكة إلى إنذار العامة الأقربين ، ثم إعلان الدعوة وإحتمال الأذى ، والتعذيب ، والهجرة إلى الحبشة ، والمقاطعة فى الشعاب ، ثم بدأت دعوة الرسول للرافدين فى موسم الحج ، وظهور عصبية مؤمنة فى يثرب استطاعت أن تبرز بعد ثلاث مواسم فى قوة ، تباع الرسول بالحماية والنصرة له وللدعوة ، إذا هاجر إليهم ، ثم تكون الهجرة تأمينا للدعوة ، وفى يثرب « المدينة » يبدأ الرسول فى إنعام رسالته فى ثلاث جوانب ( ١ ) بناء المجتمع الجديد ( ٢ ) تأمين الدعوة بالسرايا والغزوات ( ٣ ) تشكيل « أيولوجية الاسلام » : فكراً وشرعية وديناً ومجتمعاً .

وفى مكة تبدو الأحداث خلال ثلاثة عشر عاماً كشرائط متتابع دقيق لمحاولة رائدة فى غزو فكرة جديدة مليئة بالإيجابية والسمو والتقدمية لمجتمع راكده مفلق ، فيه — شأن كل هذه المجتمعات — عنف المقاومة للجديد ، وصلابة العناء لكل ما يغيره عن أوضاعه ، بيد أن هذه الخصومة وهذه المقاومة إنما تتمثل فى الطبقة التى تسود المجتمع وتحكمه وتسيطر عليه ، والتى تجدد فى الدعوة الجديدة إنذاراً لسلطانها وزوالاً لنفوذها وتراثها . أما الطبقات الفقيرة للطبقة للغبونة ، فقد وجدت فى



الدعوة الجديدة : ضياء ونورا ، فسارع هؤلاء الفقراء والأذلاء إلى جناح الرجل الذي حمل لواء كلمة التوحيد ، وانضموا إليه ، ولم يكن هذا الرجل قادراً — إذ ذاك — على أن يحصى نفسه فضلا عن أن يحصى أهوانه والمنضويين تحت لواء الإسلام . ومن هنا بدأت عملية تعذيب واضطهاد طويلة امتدت خلال هذه الفترة أو أغلبها في أكثر من صورة ، في صورة تعذيب للموالى حتى كان يعنتقهم للوسرون من المسلمين ، وفي تخالف قريش على مقاطعة بنى هاشم فأقاموا ثلاث سنين محصورين في شعاب مكة لا يتناهون ولا يبيع لما ولا يعاملون معاملة اقتصاد أو اجتماع :

وفي دار الأرقم وفي الشعاب كان الرسول يعلم أصحابه الصبر وعدم الدعوة ويـمكن في أعماق نفوسهم لإيمان عميق يستطيع أن يندفع بعد قليل في الأرض ، وفي مرتين أتاح الرسول لأصحابه التحرر من هذا المجتمع الظالم ، كانت الأولى بالمجرة إلى الحبشة حيث هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وللمرة الثانية بالمجرة إلى يثرب وكانت هجرة شاملة بعد أن تحقق بها قيام جماعة إسلامية صغيرة حملت لواء الحماية والاستعداد لاستقبال المسلمين . وكان إسلام حمزة وخالد من أهم نقط الارتكاز في بناء هذه الجماعة ، وكانت إصابة الرسول بوفاة زوجته خديجة وعمه أبو طالب في عام واحد من الوقائع البعيدة الأثر في مسار الدعوة ، غير أن الأهوام الثلاثة هشر في مجموعها قد استطاعت أن تنقل الدعوة من مرحلة السرية إلى دعوة العلنية إلى إعلان الدعوة الشاملة ، وأن تحملها من مرحلة إلى مرحلة ، تنمو ويزداد أنصارها ، وكانت قريش تنظر إلى الدعوة أول الأمر ساخرة ، فلما بدأ هودها يورق ، وجندرها يثبت تأمرت للقضاء عليها ، واشتد الأذى على من في مكة من المسلمين وكان الرسول — وهو صاحب دعوة طلمية إنسانية — وقد أخذ يمرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة لزيارة في موسم الحج ، ومن هنا بدأ ضياء خافت من قبل يثرب ، ثم توسع خلال عامين بزيادة « الأنصار » الذين دعوا النبي من تلقاء أنفسهم ، دعوة أكيدة مألوفة ، إلى الهجرة إليهم وعقدوا معه ببيعة تعاهدوا فيها بنصرته وحمايته وحماية أتباع الإسلام بما يجزمون به أهلهم وهشيتهم ، هنالك أذن النبي لأصحابه في الهجرة ، فتجهزوا في خفاء وسر ، ووسلوا ، وكان بين أولهم وأخرم أكثر من عام ، مضوا خلاله يقرأفدون بالمال والظفر ، ويترافقون ، هنالك اشتد الخطر على قريش حين أفات هؤلاء ، فازمعو قتل حامل اللواء وصاحب الدعوة ، وتآمروا للقضاء عليه في مؤامرة جماعية يضع بهادمه بين القبائل ، واستطاع الرسول في بقعة القائد وعمق البصيرة وحماية الله أن يفلت من المؤامرة وأن يشق طريقه إلى يثرب ، حتى بلغها ، حيث أقام الجماعة الإسلامية . ولم يكن هذا آخر العهد بقريش

ولكنه كان في الحق أول العهد بمقاومة خصومتها وعدواتها وتأميرها للركز لتفويض دعائم الجماعة الجديدة بالتأمر مع القبائل المجاورة في الجزيرة خارج يثرب وبالتأمر مع اليهود داخل يثرب ذاتها .

كان بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » هو مقر الدعوة الإسلامية الأول ، حيث اجتمع النبي ﷺ آمنوا به من شباب خلال ست سنوات وهي فترة الدعوة السرية حتى أسلم عمر بن الخطاب وقد أتاحت هذه الفترة فرصة تكوين هذه الجماعة التي لم تلبث أن انداحت في الأرض بعد أقل من خمسة عشر عاما حاملة لواء الإسلام إلى كل مكان ، فكانت دار الأرقم بذلك المدرسة الإسلامية الأولى ، التي جمعت القادة والعلماء وبناء الدول من بعد ، وقد علمهم النبي ﷺ في هذه الفترة : دروس الصبر والإيمان والثبات والإثبات ، فقد بنى بالقرآن أمة وسطا ، فأقاموا مجتمعها صغيرا بعد أن انفصلوا عن أهلهم ، ولم يكن لأغلبهم مورد أو مال ، فكان الرسول يضم الغنى إلى الفقير ، ويرسل أحدهم هنا أو هناك يعلم القرآن ، ومن ثم شهد نظام « المؤاخاة » أول صورة له في هذا المجتمع ، ثم تحول إلى نظام للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة ، فقد خلط الجميع بين طوائفهم وشرايهم وملابسهم وأدواتهم ، فلما جهر النبي ﷺ بالدعوة بعد أن انضم إليها حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب خرجوا إلى السكبة فصلوا بها وفرضوا على مجتمع الوثنية صورة جديدة شابة : هذه المجموعة الشابة المؤمنة التي انطوت تحت لواء الإسلام حين دعاها « محمد رسول الله » تمثل أبرز صحابة النبي الذين اشتركوا من بعد الهجرة والغزوات والفتوح ، وقد برز في هذا الرعيل . علي بن أبي طالب ، الزبير ابن العوام ، السائب بن عثمان بن مظعون ، طلحة بن عبيد الله ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبد الله بن مسعود ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن مظعون ، مسعود بن ربيعة ، جعفر بن أبي طالب ، صهيب الرومي ، قدامة بن مظعون ، زيد بن حارثة ، عثمان بن عفان ، عاصم بن أبي وقاص ، السائب بن مظعون ، طليب بن عمير ، خباب بن الأثر ، عاصم بن فهيرة ، مصعب بن عمير ، للقداد بن الأسود ، عبد الله بن جحش ، عمر بن الخطاب ، أبو هيبدة بن الجراح ، هبة بن عزوان ، أبو حذيفة ابن هبة ، بلال بن رباح ، عمر بن سعيد ، خالد بن سعيد ، عباس بن أبي ربيعة ، عاصم بن ربيعة ، نعيم بن عبد الله ، عثمان بن مظعون ، أبو مسلمة بن عبد الأسد ، عبد الله بن عوف ، عمار بن ياسر ، أبو بكر الصديق ، حمزة بن عبد المطلب ، عبيدة بن الحارث ، أبو ذر

كما أسلمت سند بدء الإسلام : خديجة بنت خويلد ، أم أيمن ، أسماء بنت أبي بكر ، فاطمة بنت الخطاب ، أسماء بنت عميس ، أم سلمة بنت حذيفة ، أسماء بنت سلامة ، أمينة بنت خلف ، فاطمة

بنت صوان ، ليلي بنت أبي حيثم . وقد جمع الإسلام في مجتمعه الأول : بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ، فتمثل بذلك رمز الطابع الإنساني في دعوة الإسلام ، وبدأت نقطة الامتداد من الجزيرة العربية إلى العالم كله من خلال مختلف الأجناس والشعوب . وقد كان هذا الجيل مقدمة لجيل ثانٍ تسكون من خلال سنوات استعلان الدعوة والهجرة وما بعد الهجرة ، وقد ربي هذا الجيل في أحضان هذا الرعيل وظل ينظر إليه نظرة الإعجاب بالسبق ، وكانت للمشاركة في « بدر » رمزاً للمدرسة الأولى ليندل النفس والإسهة شهادة فأعطى أهل بدر درجة مميزة في تاريخ الإسلام . ومن أبرز شباب الجيل الثاني الحسن بن علي والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن العباس وعائشة .

### الجماعة الإسلامية في مكة

\*\*\*

مرت الدعوة الإسلامية في مكة خلال (١٣ عاماً) بمسيرة مواقف حاسمة :

١ — عندما هبط الوحي على محمد في غار حراء في سن الأربعين بالقرآن ( ٦١٠ م )

كان ذلك نقطة البدء في مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإنسانية من أزهى هذه المراحل وألعبها أثراً ببناء الحضارة الإنسانية ، وإعطاء البشرية هداية إنسانية قوامها : التوحيد والمساواة ،

وكان محمد بن عبد الله « النبي » الذي حمل هذه الرسالة ، إنساناً ممتازاً ، وقد هيأته عوامل كثيرة لكي يكون أقدر الناس على حمل هذه الأمانة ، أبرز هذه العوامل أنه لم يكن منتمياً إلى دين سابق أو إلى عبادة الأوثان ، وكان في تقدير الجماعة التي أختير لتبليغ الإسلام إليها غاية في الأمانة والشرف ، ملتصقاً بذلك من مكانة أسرته وقبيلته ومن سلوكه الشخصي والاجتماعي ، وكان إلى ذلك تاجراً عارف الرحلة ، ومعاملة الناس ، وانسجمت آفاق فكره وحياته . وقد مرت الدعوة في ثلاث سنوات : [ الدعوة السرية ، وإعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، ثم الجهر بالدعوة للناس جميعاً ] ، وقد واجه هذه المراحل بأصرار وثبات ، وصادف من البيئة جوراً ومعارضة تمنلت في ردود فعل مختلف ، أقلها تعذيب أتباعه ، ثم محاولة قتله بوضعه صاحب الأرواء فإذا سقط انتهت دعوته .

وكان جهر محمد بالدهوة إعلانياً واضحاً بالمعارضة لكل مفاهيم قريش وقضاء على السيادة القبلية وهي أبرز مفاهيم العالم في ذلك الوقت ، كانت دهوته تحمل بذور أمرين خطيرين يمثلان المقاومة والشجب للمفاهيم التقليدية التي يفرضها سلطان الرؤساء ونفوذ الطبقات الحاكمة . (١) عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأوثان ، وفي هذا مقاومة لاوثنية وللهوات المنحرفة باسم بعض الأديان وقضاء على نفوذ سدنة الكعبة (٢) المساواة بين الناس جميعاً ، لا أبيض ولا أسود ، ولا فقير ولا غنى ، وفي هذا هدم لنظام الطبقات التي تفرض للسادة نفوذاً وسلطاناً وتجهل بمن دونهم عبيداً وخداماً لاحق لهم في شيء ما . وقد تابع النبي في دهوته : العبيد والضعفاء لأنهم وجدوا في صيخته وسيلة إلى تحررهم وقد واجه الرسول والذين أتبعوه من المستضعفين والفقراء حملة متصلة من الاضطهاد ، لم تزدحم إلا صلابه وثباتا على ما آمنوا به واحتمل العبيد الأذى في سبيل ماوهمهم الاصلاح من حرية وقاوموا إلى أمد حد ، واستطاع للمسلمون بعد قليل أن يجتمعوا في دار الأرقم ابن أبي الأرقم بحسبانها أول جامعة لتسكين الفرد المسلم وبناءه عقلياً وروحياً ، وعذب بلال وخباب ابن الإثري ومات ياسر وهو يعذب وطعنت زوجته ، وتعرض لإيذاء قريش أبو بكر وهمان والزبير وأبو هبيدة . ولم يكن أمام المسلمين إلا الصبر والانتظار حتى يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم . فلما ازداد الأذى بالمسلمين أذن الرسول بالهجرة إلى الحبشة فكانت هجرة الحبشة علامة على مفهوم الدهوة الإسلامية في الحركة ، وفي رفض الجلود على موقف الذل ، وترك البيئة التي لا تهتق الأمن لأفرادها ، ولا النمو للدهوة وكانت نتيجة لما أهميتها في سير الدهوة ، فقد كشفت عن جوهر الاسلام في آفاق جديدة وفتحت الطريق لهجرة أكبر من بعد ، لقد ضمت الهجرة إلى الحبشة هتمان بن عفان والزبير ابن العوام وهبذ الرحمن بن عوف وجعفر ابن أبي طالب وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين ( ابن هشام وابن القيم في زاد الميعاد ) وحاولت قريش أن تسترد المسلمين فكان ذلك مجالاً للحوار واسع مع النجاشي حول مفاهيم الإسلام ، كشف عن جوانب جديدة للصورة أكدت نبوة النبي ، وصدق ما جاء به وكان إسلام عمر رأس مرحلة جديدة ، فقد أتاح للمسلمين الخروج من « الاختباء » في دار الأرقم إلى « جبهة » الدهوة والصلاة في الكعبة ، وكان عمر بعد حمزة علامة على التطور الطبيعي للدهوة التي استطاعت أن تكسب من محيط جديدة غير محيط الضعفاء ، وأن توسع نطاقها وآفاقها . وحاولت قريش الضغط على الرسول وأغرائه بالعروض وفي هذه المناسبة قال كلمة الحرية الخالدة « والله لو وضوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أتترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » وما لم يجدي الأغراء بالناسب والمال والجاء

بدأت حملة المهجور والإيذاء والتهديد، هنالك كان لابد أن تضغط قريش بقوة ، ففرض المقاطعة على المسلمين ، هنالك تحالفت قريش على مقاطعة بن هاشم فأقلعوا ثلاث سنوات محصورين في الشعاب لا يبيعون ولا يشترون ، فقد وقعت بذلك قريش « وثيقة » التزمت بها مكة كلها ، وكانت تلك قمة الاضطهاد ، كجزء من خطة الضغط السياسي من جانب قريش ، وكانت مقاومة المسلمين حلقة من تجربة التكوين النفسى أو الروحى والاجتماعى الذى أعده الاسلام المؤمنين به ، وهى المرحلة التالية للاضطهاد الفردى ، تتمثل فى الاضطهاد الجماعى ، غير أن صدور المسلمين - والرسول على رأسهم - قدوة ومعلم - كشف عن فشل هذه المحاولة ، وجمع للمسلمين قلوباً جديدة ، وفتح الباب مرة أخرى أمام المسلمين لمرحلة جديدة وكان حدث نقض الصحيفة لإنفتاح للطريق أمام الدعوة الإسلامية إلى نصر جديد ثم بلغت ذروة المساء والاضطهاد عام ٦٢٠ . وكلاهما كان سنداً قوياً لمحمد أضف إلى ذلك ما لاقى من أهل الطائف إذ دعاهم إلى الإسلام فردوه رداً غير جميل ، هنالك فتح الله لمحمد الطريق إلى نهج جديد عريض هو عرض دعوته على القبائل فى موسم الحج ، ولم يكن هذا الطريق يسيراً ، فقد سار وراءه عمه عبد العزى ابن عبد المطلب ( أبو لهب - ) أينما سار يرد الناس عنه ، ويسكذبه ويحرض الناس عليه أينما ذهب ، وكان لذلك رد فعل عكسى ، هو اتجاه الناس إليه ومحاولة استكشاف كلفته . وصمد محمد لهذا النهج ، وزاد عليه أن زار بعض قبائل العرب فأنى « كندة » فى منازلها وكلبا وبني حنيفة وبني هاشم بن صمصمة ، وردوه جميعاً رداً غير جميل . وكان حادث الاسراء بالرسول امتحاناً جديداً لأصحابه وخصومه على السواء وكانت هذا الحزن والأحداث كلها غربة لا بد منها للتأبين للإسلام والموازين لمحمد حتى يستضىف جماعته على تلك التماذج التى عرفت من بعد فالبطولة والنبيل والتصميم . وكان ثبات محمد على دعوته رغم كل مالتيه ، هو مصدر النصر ، ذلك النصر الذى تمثل فى إيمان جماعات أهل يثرب بدعوة الاسلام ونصرة رسوله فى مراحل ثلاث ، فقد قدم فى السنة الحادية عشرة للبعثة نفر من الخزرج يريدون الحج فاستقبلهم النبي ودهامهم إلى الله فأمنوا وعادا ، فاذا هو ذلك بين قومهم ، وتنافس الأوس والخزرج فى الاستقبال إلى الإسلام ، وفى السنة التالية تمت بيعة العقبة الأولى وكانت فى اثني عشر رجلاً ومعهم امرأة « هفراء بنت هبيد » قدموا إلى رسول الله واجتمعوا به عند العقبة « وعاهدوه : ألا نشارك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل ولا نأذى بيننا نفقريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصينك فى مكره » وأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الصلاة ، وقد هز مصعب يثرب وجمع إليه رؤساءها فاستمع الناس إليه وانضوا تحت لواء الدعوة الجديدة ، وفى السنة الثالثة

عشرة للبعثة تمت البيعة الثانية وكانت في ثلاثة وسبعين رجلا وأمرأتين قدموا من يثرب ودهوا رسول الله إلى الهجرة وبايعوه زعيا ونبيا، وعاهدوه أن ينصروه ويحمونه ويحاربون لأجله الأبيض والأحمر من الناس، قال العباس لو قد بيعت العقبة الكبرى: أشمخنا منا كما علمتم، وقد منعناه من قومنا فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم فإذا كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه وما دعوه ممن خالفه، فأنتم وما حملتم في ذلك، وإن كنتم أنتم مسلحوه وخزله فمّن الآن فدهوه. قال الوفد: «تسلكم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت من العهود وللوائيق»، قال الرسول: «أبايعكم على أن تمنعوني بما تمنعون منه إساءكم وأولادكم، فبايعوه على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال في كل حال».

(٢)

### الجماعة الإسلامية في المدينة

لم تكن «الهجرة» إلا مرحلة طبيعية من مراحل تطویر الدهوة في سبيلها إلى غايتها، كانت مرحلة مكة في أهوامها الثلاثة عشر تمهيدا طبيعيا للكلمة، وإعدادا لمعنتيها، وهذا المجتمع مكة حتى يلتقي بالاسلام بعد الهجرة بسنوات، وحتى يكون ذلك مقدمة لوحدة الجزيرة العربية كلها خلال الأهوام الثلاثة والعشرين. فتصبح «الجماعة الإسلامية الأولى» هذه التي كونها الرسول، هي قائدة التوسع الاسلامي إلى الآفاق، وحاملة لواء الحضارة والفكر إلى الفرس والترك والبربر. وقد كانت الهجرة تطبيقا حقيقيا لمفهوم الاسلام، وهو: الحركة، وتغيير الوطن إذا استمعى إلى الفكرة انطلقتها إلى غايتها أو أصاب صاحبها الاضطهاد، لقد كان لقاء الرسول لوافدين إلى مكة في موسم الحج من مختلف الأقطار، وعرض الاسلام عليهم، هو منطلق الاسلام إلى الإنسانية كلها، وهو انجاء الرسول بالاسلام إلى وطن جديد أكثر تقبلا لفكرته، حتى إذا وجد تجاوبا وقبولا من أهل يثرب، سارع فدما أتباعه إلى الهجرة إليها، تخليصا لهؤلاء المؤمنين الضعفاء الفقراء من اضطهاد أهل مكة، فلما قامت الجماعة الإسلامية في المدينة، كانت نموذجاً للمجتمع الإسلامي الأمثل، من حيث بقاء السكان الداخلي على مستوى الترابط المكاني بالمسجد والترابط الفكري بالقرآن والاجتماعي بالاخاء. ثم التماقد مع أهل الوطن بوثيقة مكتوبة تقوم على أساس المشاركة في العمل الاجتماعي والوطني، وبقي بعد هذا — لاستكمال إطار الجماعة — حماية هذا المجتمع من الغزو الخارجي، وكانت

قريش التي حاربت الدعوة وحالت بينها وبين أن تقوم في مجتمع مكة ، ثم حاولت القضاء على صاحب الدعوة بعد إذنه لأصحابه بالهجرة ، قد توعدت هذه الدعوة بالقضاء عليها في مجتمعها الجديد ، فكان لا بد للجماعة الإسلامية أن تدافع عن نفسها ، وأن تدل من خصوصياتها ومن ثروتها لقاء ما صادرت من ثروتهم . وقد تمت بيعة أهل يثرب للمسلمين ، على مراحل ثلاث في سنوات ثلاث ، ونمت البيعة الكبرى حين تقدم اليثريون للرسول داهين إياه وقومه إلى إرتضاء بيثرب مكاناً لدعوتهم ، وقد اشترك فيها النساء مع الرجال ، وكان تمهيدهم فيها واضحاً ، أنهم يحمون النبي والمسلمين بما يحمون منه أهلهم وأبنائهم ، وكانت دعوة الإسلام خلال ذلك قد انتشرت في المدينة واتسع نطاقها ، ومن هنا قامت الجماعة الإسلامية على دعائم وطيدة ، وقد جرى نماء الجماعة الإسلامية في المدينة من نقطة « الهجرة » منطلقاً حتى تمت بوحدة الجزيرة العربية كلها للإسلام وإذاعتها بالولاء له . كقوة موحدة ضاربة ، استكملت عوامل القوة النفسية القادرة على العمل من أجل إذهاب الإسلام ، تحمل إيماناً لأحد لثمة بصدق الدعوة ، وتحمل بيعة كاملة تقدم أرواحها مستشهداً في سبيل النصر والتوسع .

ولا شك كانت مرحلة « بناء الجماعة الإسلامية التي بدأت من خلال مجتمع مكة المضطرب التي اهتزت قواعده ، حين انفصل عنه هؤلاء الذين والوا الدعوة الجديدة ، وقد استمر نمو هذه الفئة القليلة المستضمة في مجال الاضطهاد ، وبين عوامل الانتصاح حتى تمت الهجرة التي كانت تعبيراً صليماً جليهاً على قدرة الدعوة على الحركة ، لاستنفاد نفسها من الاضطهاد والفناء ، وإتاحة الفرصة للمستضعفين في جو مؤمن قادر على حمايتهم ، وكثيرة بدء لبناء مجتمع جديد في أرض أشد خصوبة وأوفر قدرة على استقبال الدعوة ونموها في يثرب .

وكان بناء المسجد ، هو الخلية الأولى للبناء الإجتماعي الأسرة والجماعة ، بوصفه أداة صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة ، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة . فالمسجد هو مكان الندوة العامة ، ومجال المشاورة ، ومقر عقد الأولوية للجيوش وإرسال البعث . فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها ، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكامل في مختلف جوانب الدين والسياسة والإجتماع . ثم قام في الوقت نفسه تنظيم الحياة الإجتماعية والإقتصادية للمسلمين الذين يتنقلون في المهاجرين القادمين من مكة ، والأنصار الأوس والحزرج ، وقد تم ذلك على مرحلتين : « المرحلة الأولى » هي دعم الوحدة بين الأنصار واصلاح ما بينهم والقضاء على خلافاتهم ، وإذابة العوامل القديمة والتقليدية في بوتقة الوحدة ممثلة في كلمة « الأنصار » ثم اجراء عملية صهر كبرى بين الجماعة الجديدة (الأنصار) بوصفها المستقبلية للمهاجرين على أرضها ،

عملية صهر كبرى بين هذه الجماعة الجديدة ( الأنصار ) بوصفها المستقبلية للمهاجرين على أرضها ، وبين ( المهاجرين ) وقد أظم النبي نظام الإخاء أو المواخاة حين عقد رابطة أخوة قوامها رجلان أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، وقد بدأت هذه الرابطة على نحو إيجابي يتمثل في تحقيق للعيشة والعمل لهما معاً ، وكان المهاجرون الذين تركوا أموالهم في مكة لا يملكون شيئاً ، فاقسم الأنصار أموالهم معهم على نحو آخر ، وكان تصرف الأنصار في هذا الموقف مثلاً عالياً من المروءة والكرم والإيثار ، فلم يلبث المهاجرون أن شاركوا في التجارة وعملوا في مزارع الأنصار على نظام المؤاجرة ، أو المزارعة ، ولم تلبث أن انتظمت حياتهم الاقتصادية ، كما انتظمت حياتهم الاجتماعية بإقامة أمر جديدة ، والإصهار إلى الأنصار ، وقد حققت هذه الخطوة « انصهار الجماعة الإسلامية » في وحدة شاملة على أساس رباط العقيدة بعد أن كانت الروابط تقوم على أساس المفهوم القبلي .

ثم يلبث الرسول أن عقد مع مختلف الأطراف في المدينة عقداً ، هو أشبه بدستور دولة ، وقد دخل في هذه « الصحيفة » — كما أطلق عليها المؤرخون — مختلف القبائل والبعاطون والعشائر ، حيث أقر الدستور لكل من الأطراف الثلاثة : شخصيتهم ودورهم في بناء وعمارسة الحياة في المجتمع الجديد ، وقد أبرز هذا العقد « أمة الإسلام » لأول مرة أمة واحدة ، يجمعها رباط التعاون والتضامن والتكافل ، كما رسم الروابط بين المسلمين وبين اليهود في نظام الجماعة اليتيمية لكل . وكان في مجوهه صورة تطبيقية لمفهوم الإسلام في إقرار نظام سياسي واجتاهي يشترك فيه المسلمون وغيرهم على سنة المساواة والتعاون ومراعاة حقوق الجوار . وبعد هذا العقد أول نظام مكتوب قامت على أساسه دولة منذ أول تكوينها ، كما يمثل تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع والسياسة ، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم ، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الانصار ، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة في المدينة ، إلى أمد ، ولأول مرة بحكم القانون ، حيث ترد الأمور إلى الدولة ويرجع بالرأى الأخير إلى رئيسها ، وبذلك بدء قيام مجتمع جديد على مفاهيم جديدة ، بعيداً عن القيم القبلية ، ومن خلال تغيير شامل وتحول سريع يطوى صفحة اجتاهية طابعها القبلية ، ويفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية وأقرب إلى التراط والتكافل والوحدة الفكرية تنمو خلالها العلاقات الإنسانية وترتفع فوق مفاهيم النار والمصيبة والفردية والقبلية . وكان من أهم ما شغل الرسول في مرحلة في « بناء الجماعة الإسلامية » هو تأمين أمرين هامين - (١) أمر الجماعة وأمر الدعوة الإسلامية وفتح الطريق الآمن لتوسعها وإلهام الراغبين في اعتناقها الإحساس بالأمن والحماية



(٢) وخلق جو الهية التي يهرب خصومها فيحجمون عن الإثارة أو الانتفاض عليها . وقد فرض « الجهاد » لتأمين الدهوة الإسلامية ، وحماية حدود المجتمع الجديد ومواجهة من يقف في سبيله أو سبيلها . وأعطى إنطلاقة كبرى ، هي أن هل معتنق الإسلام والمؤمنين به رسالة متجددة على الزمن ، أن يجاهدوا في سبيل كلمة الله وإذاعتها في الآفاق ، وكان هذا العمل مقدمة لخطوة التالية مباشرة وهي : توحيد الأمة العربية في كيان نفسى وفكرى واجتماعى واحد ، غير أن « الجهاد » لم يفرض إلا بعد مرحلة طويلة من الإعداد النفسى والاجتماعى له بوصفه دفاعاً عن النفس ، وتأميناً للدهوة الإسلامية ، وأنه ليس هدفاً مسبقاً للدهوة ، بل هو آخر المراحل حين يقف خصوم الإسلام في وجهه يحاولون دون انتشاره ، أو حين يحاولون الانتفاض على بناءه وجهته . وقد أمضى المسلمون مرحلة « الإعداد والدهوة » في مكة في احتمال عجيب للأذى ، دون أن يسمح لهم الرد بالمثل ، ثم كانت « الهجرة » محاولة جريئة لتحرير الدهوة من عوامل القضاء عليها ، واستئنافها بالحركة ، وبناء الجاهة في مكان أكثر قبولاً لها وأكثر أمناً ، استعداداً لدور جديد من أدوارها ، في سبيل بناء وحدة « أمة العرب » : وحدة اجتماعية وجغرافية تمثل القوة الأولى التي ستتحرك إلى أفاق الأرض لتحمل أمانة الدهوة . غير أن انتقال الدهوة إلى « يثرب » لم يوقف خصومه قريش لها ، بل زادها رغبة في تفويض دعائهم ، هنالك كان لابد من الدفاع عن النفس . وتأمين الدهوة الإسلامية ، فأذن للذين يقاتلهم خصومهم ظلماً أن يواجهوا الموقف على مستواه في تقدير دقيق ، وهو ليس إذناً مفتوحاً بغير قيود : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » . ومن هنا كان نظام « السرايا » الذى هو أشبه بدوريات « أمن وحماية » لمجتمع المدينة وحدودها الخارجية فضلاً عن تدريب المسلمين وإعدادهم على المقاومة المسلحة ، وذلك بعد أن تم إهدادهم فكراً وتربوياً وبناء شخصيتهم الاجتماعية الصلبة في مجتمع مكة ، وقد جرى ذلك مع تقدير محسوب للدور الذى سيلقى على هذه الطلائع بمد عام الدهوة للاندفاع في آفاق الأرض من أجل أذاعة الدهوة ونحطيم العوائق التى تقف أمام نشرها . وقد كانت فريضة الجهاد موجهة أساساً للدفاع لا للهجوم ، وفي مفهوم الإسلام كله لم يكن هدف الإسلام الهجوم ، ولا هو من أساليبه ، وغاياته ، فالإسلام أساساً : « عقيدة فكر » لا يتحقق قبولها إلا بالافتناع العقلى والتقبل النفسى ، وقد حرص الإسلام على أن يترك أصحاب العقائد في حرية مع عقائدهم ، بل ومع حمايتها ، وكل وثائق الرؤساء في الحرب والحكم والقادة تحمل في تضاعيفها تأكيد هذا المفهوم في وضوح تام . وكان الرسول شديد الإيمان بأن الإسلام بوصفه توحيد الله وهدالة اجتماعية سيمجد من قلوب الطبقات المختلفة ثقيلًا وإيمانًا ، وأن المقاومة لن تصدر إلا من الآخذين

بيدهم زمام السلطة والنفوذ والمستغلين والطفلة ، هؤلاء الذين يخشون من ضوء الاسلام على مرا كزيم وثرواتهم ، والذين ، يشبهون بالقيم القديمة البالية على نفوذهم ، أما القوى الشعبية الغالبة التي تعيش حياة الظلم والفقر والاستعباد ، فانها سوف تنضوي تحت لواء الاسلام بوصفه رسالة التوحيد والعدل والاجتهاد وأنها مستنقضة ولائها لحكامها الظالمين للمستبدين ، ومن هنا فلنيس الاسلام في حاجة إلى قتال لنشر كلمته ، ولكنه في حاجة إلى أن يجد الوسيلة لا بلاغ هذه الكلمة إلى الناس وحملها إليهم أيا كانوا ومن هنا كانت فريضة الجهاد لاتعني غير الدفاع عن النفس ، وإزالة العوائق من طريق انتشار الاسلام ، مع قدر كبير من التسامح والعدل والمساواة ويبدو مضمون هذا التفسير واضحاً في آي القرآن نفسه التي فرضت الجهاد « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد فرض الجهاد في السنة الثانية من الهجرة بعد أن أتاحت الفرصة للجماعة الاسلامية أن تدرس قواعد مجتمعتها ، وتعلن نظامها ، وفق مفهوم الإسلام ، وقد كان يعني أمرين أساسيين : (١) حماية مجتمع الاسلام بوصفه دولة لها حدودها ، ولها هيئتها ضد أي اعتداء خارجي ، (٢) فتح الطريق أمام كلمة الإسلام لتشق طريقها إلى العالم كله بوصفه رسالة عالمية وإنسانية شاملة ولم تبدأ خطة الدفاع عن الدعوة ومجتمعها إلا بعد أن حدد « القرآن » خطة الجهاد « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » والاذن هنا مشروط بالدفاع وعدم الاعتداء ، وقد بدأت قريش عدوانها حين تخطت بقوافلها حدود الدولة الإسلامية ، في محاولة للاستماتة بها ، والانقضاض عليها ، فسلكن لا بد للمسلمين أن يخرجوا لمواجهة الأمر ، أما بالاستيلاء على القافلة نفسها بوصفها جزءاً من أموالهم التي صادرتها قريش عند هجرتهم إلى يثرب ، أو مواجهة الموقف مواجهة دفاع ومنذ استقر المسلمون في يثرب بدأ تكوين المجتمع الاسلامي ، وتنظيم علاقاته الداخلية بين المهاجرين والأنصار وفيها بينهم وبين اليهود المقيمين في المدينة ، وبدأت إجراءات الأمن في حماية يثرب من غارات خصوم للمسلمين — وفي مقدمتهم قريش — عليها . وتركزت أهم التنظيمات الداخلية على التنظيم الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي . وقد تم إعداد نظام اقتصادي قوامه العمل والكسب والملكية الفردية ، وشرعت الزكاة لتقريب بين الطبقات وضماناً لحق الفقير والشيخ والعاجز والمريض ، والتي الربا ، فقد أحل الاسلام البيع وحرم الربا . وكانت الزكاة إحدى أركان الإسلام الخمسة : تعطي الفقير الحق في

مال الغنى ، فهى ليست صدقة أو منحة ، ولكنها حق أكيد قائم تقوم الدولة عليه وتنفذه في وجوهه . ويتمثل في مقدار معين يدفع في وقت محدد ، ويرتبط بحاصيل الزرع والثمار والذهب وعروض من التجارة . وقد انتظم بناء مجتمع المدينة على مراحل ، ونزل التشريع على دفعات ، وامتد على سنوات ، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وأمر البيع والاجارة والربا والقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث . وكان تدرج التشريع في إلغاء الربا والخمر والزنا وغيره يعطى صورة الانتقال على مراحل ، حتى لا يصاب المجتمع باضطراب أو نكسة من جراء الانتقال الفوري ، أو الطفرة ، كما نظم الاسلام المجتمع أمور للمرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل وأمر الزواج والطلاق . بما يحقق حماية الأسرة ودعما ، وصلات الزوجين والأبناء على نحو غاية في السكال والدقة ، بما يحقق سلامة الأسرة والمجتمع . وبما يضمن نمو المجتمع الإسلامى على دعائم ثابتة وكان قضاء الاسلام على : الزنا وواد البنات وتقييده تعدد الزوجات ، تلة واسعة عن مجتمع ما قبل الإسلام ، وقد تحقق المرأة المسلمة بهذا النظام حقوقها السكاملة في حرية البيع والتصرف فى المال والاجارة والميراث وضمن لها حقها فى الزواج والطلاق والحضانة على نحو لم يكن معروفا لا فى الجزيرة العربية وحدها ، ولا فى العالم كله فى هذه الفترة . وكان ذلك دفعا لها لتكون عضوا حيا عاملا فى المجتمع الإسلامى مما أهلها لأن تخطو خطوات واسعة فى مجال العلم والحرب وبناء الأسرة وأن تبرز شخصيتها فى تاريخ الاسلام وتلمع ، وكان الرسل حريصا على أن يعقد للنساء اجتماعا وأن يوجهن ويفتح لهن الطريق ، وكانت زوجات الرسول المثل المتقدم فى هذا المجال ، وقد استطاعت طائفة وحفصة أن يكونا من رواة أحاديث الرسول ، وتحقق من بعد للكثيرات المشاركة فى ذلك . كان للمرأة المسلمة دورها الواضح فى الجماعة الاسلامية ، هذا الدور الذى تتميز فيه المرأة عن حياة ما قبل الاسلام ، كان أساس هذا الدور هو موقف الاسلام الواضح ، الذى ترتب عليه دورها فى المجتمع ، وتمثل ذلك فى شمول الخطاب القرآنى للمرأة والرجل ، والتسوية فى الحقوق والتبعات بين الرجل والمرأة وإقرار القرآن لأهلية للمرأة ، « أهلية حقيقية » الإرث والهبة والوصية والدين والتكليف والتعاقد ، والكسب ، دون أن يكون ذلك منوطا بموافقة الرجل أو إذنه ، والتسوية فى التكاليف العامة بين المرأة والرجل من زكاة وحج وصوم وصلاة ، وكما أعطى الاسلام المرأة حريتها كاملة فى أمور الزواج والطلاق والبيع وحق الإرث . وكرم المرأة بنتا وزوجة وأما ، وكرم الأم وسأوى بين المرأة الرجل ، وأكد الفرق بالبنات وتعليمهن والعناية بالأسرة فى نصوص صريحة فى القرآن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ، « لا يحمل السك أن ترثوا

النساء كرها ولا تمضوا لهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن . وفي تعاليم الرسول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، استوصوا بالنساء خيراً فانهن هوان لهن ، الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، نعم الولد البنات ، وأباح الاسلام تعدد الزوجات ولم يفرضه ووضع لهن الضمانات ما يذهب الظلم وينفي الضرر . ثانياً : شاركت المرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : أم عطية . أم عمار . نسيبة بنت كعب المازنية ، صفية بنت عبد المطلب ، ومنهم من غزت مع النبي سبع غزوات ( أم عطية ) وكن يخلفن الرجال في رحالهم ويصنعن الطعام ويدوين الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى كأُم عمار أول مبايعة للنبي فيها ، وقد شهدن مختلف الغزوات ، وكان لهن دور ضخم . ثالثاً : في مجال العلم والفصاحة والبلاغة وقد نافسن الرجال في العلم بالاسلام ، جافظات القرآن روايات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وشاركن في كل مجال ودخلن المساجد ، وشهدن حلق العلم والصلاة جماعة ، وخضن الممارك ، والقين الخطب والأشعار وكان الرسول يعد لهن في مجالسه وفي الصلاة أما كن خاصة ، واشتهر نفر من النساء غير قليل بالحديث والفقه ، حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن عائشة وأم سلمة ، وغيرهما من الصحابيات ، بل أننا نرى بعض الأحاديث تروى سلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهما رجال ، وروى عائشة عن النبي ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . وجاء في الاصابة أن عائشة أم المؤمنين كانت تجيد القراءة ، وأن حفصة كانت تحسن الكتابة ، علمتها أياها « الشفاء » بنت عبد الله بن شمس القرشية وكان لابد لمجتمع المدينة أن تبرز فيه ظاهرة الغزو والحرب والقتال . فقد كان ذلك ضرورياً لبناء الجماعة الإسلامية في المدينة أن تؤمن من الخارج ، ولما كانت قريش قد أحمت بفداحة الخطر الذي تحقق من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وقيام مجتمع جديد شاب بها ، من شأنه أن يفسد الاسلام في أنحاء الجزيرة ، وأن يعود قويا زاحفاً إلى مكة من بعد ، لما كانت قريش قد أحست بذلك إحساساً قوياً فإنها قد أخذت تتأمر للقضاء على هذه الجماعة ، لذلك كان لابد للمسلمين من إحساس دائم باليقظة والحركة ، والحراسة ، حتى لا تؤخذ الجماعة على غرة ، ومن هنا كانت السرايا ، وكان الاستعداد الدائم لمواجهة أى موقف من مواقف الغزو ، وقد تمثل هذا حين زحفت قريش بعد استنقاذ قافلتهما إلى ماء بدر قريباً من المدينة ، وكان لابد وقد أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يهاجمهم ، أن يصحدهوا مع قريش ، وأن ينتصروا مع قلة العدد والعدد ، وكان ذلك بدأ صدام مسلح وهذيان متصل شنته قريش خلال أهوام متصلة ، في غزوة أحد بعد عام واحد من بدر ، وفي مؤامرة ضخمة حشدت لها كل قبائل العرب واليهود وخصوم الاسلام

جميعاً في غزوة الخندق . غير أن الهزيمة التي منيت بها « الأحزاب » قد دفعت مجتمع الإسلام إلى القوة وأضافت إليه انتصارات ومكاسب جديدة ، فقد ذاع الإسلام في الجزيرة ، ورجحت كفة « الجماعة الإسلامية » بانضمام قبائل جديدة إليها ، وكان لابد أن يتجه المسلمون إلى السكبة : البيت الحرام في مكة ، وقد استوى مجتمعهم ، معتمدين ، فقد كان الحج فريضة من فرائض الإسلام ، وقد ساقوا أمامهم الهدى علامة السلم لا الحرب ، والحج لا القتال ، واستطاعت قريش أن ترى قوة الإسلام والتي أصبحت وشيكة أن تدخل مكة ، فلم تلبث أن عقدت مع النبي « صلح الحديبية » الذي كان أول علامات « نصر الله والفتح » وعاد الرسول والمسلمون ليرجعوا في العام القادم يؤدون عمرة القضاء . وفي خلال ذلك أخذ النبي والمسلمون يوسدون المجتمع ويقاؤون مؤامرات اليهود بمحاصرتهم في خيبر ، وإجلائهم ، بعد أن تواصلت محاولاتهم للقضاء على الجماعة الإسلامية ، وكان عقد الحديبية وعمرة القضاء مقدمة لأكبر نصر في تاريخ الجماعة وهو « فتح مكة » . وحقق المسلمون في هذه المرحلة أعظم توسع سعى لهم بتضاعف عدد المنضوين تحت لواء الإسلام . وحقق فتح مكة انتصار الدعوة الإسلامية وتركزها ، وفقد أصبحت « مكة » مصدر الدعوة الأولى ، وقد دانت للإسلام ، وتطهرت السكبة من الوثنية وتقدم دعاة الإسلام الذين أوفدهم النبي إلى القبائل ناشرين لواء الإسلام ، وحاولت حنين أن تفزو مكة فبادرها الرسول في اثني عشر ألفاً ، ثم كانت الطائف هي الخطوة الثانية في تركيز الإسلام في الجزيرة العربية . والتفت الرسول إلى مشارف الجزيرة حيث « الروم » تريد أن تنقض على الجماعة الإسلامية فبادرها في ثلاث جولات متصلة ، إحداها معركة مؤتة ، ثم كانت هزوة المعصرة الشاقة التي زحف على رأسها الرسول في ثلاثين ألف من المسلمين إلى تبوك ، ولم يقع قتال ، وكان بث أسامة قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى علامة على تأمين الشمال وتأكيد الحرس على خطر انقضاخ الروم منه . وفي خلال هذه السنوات العشر في المدينة تحققت للإسلام أن ينشر ظله على الجزيرة جميعاً فانضوت تحت لواء الإسلام .

ثم أتم الرسول الحلقة ، بأفراد الحج للمسلمين فلا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت هريان . وبذلك قام مجتمع الإسلام الأول ، منتظماً الجزيرة العربية ، وقد أتم الله الرسالة ، وأكملها ، وتم نزول القرآن ، وكان الرسول قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الإسلام إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية وأرسل رسله يحملون الرسائل إلى عواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلناً إياهم ومبلغاً ، وقد استقبلها بعضهم بالقبول وبعضهم بالتحفظ ، والبعض الآخر بالنقمة ، وكان ذلك كله تمهيداً لحركة الإسلام المتصلة ، ومرحلته التالية في التوسع والانتشار وتكوين الجماعة الإسلامية الكبرى ،

وقدست الوفود من أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها مبايعة أطرافها مبايعة الرسول بالإسلام ، وأذن رسول الله في القبائل بالحج الأكبر فاجتمع مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة في ركب الرسول ، وفي هرات أعلن رسول الله أمر الله بتمام الرسالة: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» فكان ذلك إيذاناً باكتمال المرحلة الأولى من بناء الإسلام ، ولم يلبث رسول الله أن اختار الرفيق الأهلí وكانت كلمته الأخيرة «اتقوا بعث أسامة» . وباختيار الرسول الرفيق الأهلí كانت «رسالة الإسلام» في أيولوجيتها السكاملة قد تمت واستكملت ، ولم تدخل عليها أى إضافات أخرى من بعد ، وقد دار الفكر الإسلامى بمختلف مقاهيمه وحركاته وتطوراته من بعد ، وحق اليوم في إطار مفهوم الإسلام — كإرسائه القرآن وطم عليه الرسول — سنة وتطبيقاً ولم يخرج عنه ، وإنما كان الفكر الإسلامى تديراً وتحليلاً وتوسيعاً لآفاق الالتقاء بين الإسلام والحياة .

#### ( ٤ )

### « تسكامل مفهوم الإسلام »

كانت فترة « الثلاثة وعشرين عاماً » منذ بزوغ فجر الإسلام إلى اختيار الرسول الرفيق الأهلí هى فترة بناء « مفهوم الإسلام » . وتكوين « القاعدة » التى اندفع منها إلى العالم كله ، وبناء النواذج القادرة من القادة المحاربين وبناء الدول وقادة الفكر . وقد اكتملت مقومات الإسلام ومقاهيمه في حياة النبي من حيث هو دين ومدنية ومجتمع . وتم وضع الخطوط العامة لها ، هذه الخطوط التى لم يدخل عليها بعد إلى إن يرث الله الأرض ومن عليها أى إضافة جديدة ، فكان كل ما جاء من بعد تديراً لها وتوسيعاً لآفاقها ، وتحليلاً لدقائقها ، مستمداً من جوهرها القابل للحركة والتطور وعلى النحو الذى أتاحته في صميم مقوماتها من سعة وحيوية ومرونة ، جعلتها قادرة أبداً على مسيرة الحياة والاسان والحضارة على اختلاف البيئات والأزمنة . فقد استطاعت أن تخرج بالثقافات والحضارات المختلفة وتعهدها في بوتقتها وتحولها إلى طابعها ، وتقبل من أساليب الفكر الانسانى ما يزيد بها قوة على البقاء والحياة والتجدد دون أن يفقدها أصالتها ، وقد ظل الإسلام إطاراً ثابتاً للثقافة والحكم والاجتماع والحضارة ، تتحرك صورته وفق مجريات الزمن وتطورات الأحداث ، دون أن يخرج عن طابعه الأصيل ومقوماته الأساسية .

و « الاسلام » بمفهومه الأصيل هو دعوة التوحيد مع التكامل والوسيلة بين جوانب السياسة والاجتماع والحضارة والاقتصاد والثقافة ، تلتقى هذه الجوانب من خلال الاسلام وتنهجر ، قوامها العقل والقلب ، والدين والعلم ، والمادة والروح ، والدنيا والآخرة ، ومن خلال الاسلام لا تبدو هذه الجوانب متصارعة ، ولا يتعطل في لقائهم ثنائية بل تنظم في امتزاج وتكامل ، وقد أعطى الاسلام للحياة في المجتمع الجديد رسالة ، أسمى من الصراع القبلي ، وهذا أكبر من المطامع الدانية . أما القرآن فهو : « الوثيقة الاسلامية الخالدة » التي لم يصعب تحريف أو يتغيرها نقص بوصفها للنهيج السكامل ، لمقومات الاسلام والفكر العربي ، ومفاهيمه ، والأرضية السكاملة له ، وللمناطق ، وقوام جندوره الأساسية .

« ومحمد بن عبد الله » هو رسول الله بالاسلام إلى الانسانية كافة ، وهو التطبيق العملي البشري لمفهوم القرآن للانسان ، والدافع للقيم الانسانية إلى التفاعل مع الحياة ، وقد عاشت سيرته نموذجاً حياً لتطبيق « أخلاق القرآن » وظلت سنته مصدراً حياً لتقديم النموذج الانساني السكامل بوصفها تفسيراً للقرآن وتطبيقاً له . وقد كانت حياة النبي نموذجاً كاملاً رفيحاً للانسان في أسمى صورته ومفاهيمه وتصرفاته ، فقد وصفت ذلك السيدة عائشة بدقة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

٢ — ولقد كانت الجماعة الاسلامية الأولى محاولة لتطبيق « مفهوم الاسلام » في بناء المجتمع والحضارة لتظل صورة مثلى أمام التاريخ كله ، تمتد بالقوة والنموذج والمثل العملي كلما افتقر الناس إلى فهم مضمون الاسلام في مجالى الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، في خلال هذه الثلاثة وعشرين عاماً اختصرت صورة كاملة لتحول أمة من النقيض إلى النقيض عن طريق مفهوم الاسلام ، كان القرآن فيها هو الدستور وكانت السنة هي للذكرة التفسيرية ، وتطبيق القرآن على النموذج الأول « محمد » حامل لواء الدعوة .

وقد مررت هذه للرحلة من حياة الجماعة الانسانية الأولى بمرحلتين (١) مرحلة الدعوة . (٢) مرحلة بناء الجماعة التي حملت لواء الدعوة وانطلقت بها إلى أطراف الأرض ، كانت للرحلة الأولى في مكة منع الدعوة في محاولة التحدي الكبير لاجراج مجتمع من أوضاعه القائمة للورثة إلى أوضاع جديدة أكثر تقدماً وإيجابية وإخاء ووحدة . ولقد قاوم المجتمع التقديم بكل قوته في سبيل المحافظة على قديمه ، وصادم بكل وسائله وأدواته الدعوة والداعي بكل ما استطاع أن يصل إليه من أسلحة . إلا بضعة نفر من الفقراء والضعفاء تبعوا الداعي وآمنوا بدعوته ووهبوا أنفسهم للدفاع عنها

ثم كانت « الهجرة » نتيجة لظهور مجموعة من المؤمنين بالدعوة في يثرب سموا ( ثلاث سنوات منوالية في أهداد متزايدة إلى مكة موسم الحج ليلتقوا بالداعى ، ثم عاهدوه على أن ينصروه إن هاجر إليهم ، وأن يحفظوه مما يحفظون به أبنائهم وذويهم ، فكانت الهجرة إلى المدينة هي « حركة الاستجابة » لنجدى مكة خلال ثلاث عشر عاماً ، ومن ثم بدأ مجتمع الدعوة الجديدة يتسكون ويمارس حياته ووفق أنظمة الدولة ، ويمضى ليقر هذا النظام في الداخل ويث الدعوة إلى أطراف الجزيرة العربية كلها ، فكانت بذلك هي الطاقة للشعة ، والأمة الحاملة لدعوة الاسلام إلى العالم كله والجماعة الأولى التي تلقت الأمانة واستطاعت بما قدمه لها الاسلام من قيم ومفاهيم أن تغير نفسها وتحول إلى أمة موحدة ، وتسعى لتنتشر الاسلام في الأرض .

هذه هي أمانة « الأمة » ممثلة في الجماعة العربية الاسلامية الأولى التي تسكونت في خلال عشر سنوات في مجتمع المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من صراع مع القوى المسيطرة المتحكمة . وفي خلال هذه السنوات العشر استطاعت الجماعة الاسلامية التي قامت في المدينة أن تسيطر على مجتمع مكة وأن تذيبه في الاسلام ، وأن تصهره في بوتقة الدعوة الجديدة ، وتشده معها في كفاحها ونضالها من أجل إعلاء كلمة الاسلام في الأرض . ومن هنا كان مفهوم الاسلام نفسه هو الحكم والقياس ، فهو الذى استطاع أن يبني هذا المجتمع ، وأن يكون هذه النماذج القادرة من أبطال القادة وبناء الدعوة والمفكرين ، ووفق مفاهيمه صيغت هذه العقليات والنفوس التي أصبحت به خلقاً آخر . فكانت لها هذه القدرة المعجزة التي أدهشت للباحثين خلال أيام التاريخ الاسلامي كله من استطاعتها تحقيق بناء التوسع خلال مائة عام . ومن هنا تبدو أيضاً سلامة المقاييس التي لا تخفى في الحكم على الأحداث فيما بعد ، فكلمنا قربت الأحداث من مفاهيم الاسلام كانت مندفعة في الطريق الصحيح ، وكلمنا انحرفت من هذه المفاهيم الأولى كانت المازات والأزمات والهزائم .

إنه مقياس لم يحيط به خلال أربعة عشر قرناً كاملة ، الارتباط بمقومات الاسلام ومفاهيمه هي الصحة والسلامة والنصر والقوة على البقاء والحركة ، والانحراف عنها هو الخطأ والهزيمة والضعف والعجز عن الحركة والبناء . وفي كل نهضة نهض بها « بناء الدول » في عالم الاسلام يبدو هذا للمعنى واضحاً ، وكلمنا لإنهارة دولة أو حركة كان مصدر الانهيار هو الانحراف عن معنى الاسلام بدعوته إلى الاخوة والقوة واليقظة .

٣ — كان المجتمع الاسلامي الذى كونه الرسول خلال عشر سنوات في المدينة ونجرة دعوته



خلال ثلاثة عشرة سنة في مكة هو بؤرة الدعوة الإسلامية كلها ، وفيه انصهر ذلك الفريق من صحابة الرسول الذي أطلق عليه اسم « الصحابة » وكان تكوينه وانصهاره في مجالات احتمال الأذى والاعتراب على التعذيب والايان بالرأى والاصرار عليه في مكة ، والسكر والغر والقتال والاشتراف في السرايا والغزوات والبعوث في المدينة ، إيماننا بالاسلام وبيعة الروح لله في سبيل نصر الاسلام ونشره والدفاع عنه والشهادة في سبيله . وكانت حياة الرسول هي النموذج الأعلى لذلك الايمان ، باحتمال الأذى والنضال في سبيل ومقاومة خصوم الاسلام ، فقد كان هو المثل الذي لا يرقى إليه مثل في هذا المجال ، يتقدم أهوانه في القتال حتى لا يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ويصرف الأمور في حكمة واتزان ، وهو صاحب الكلمة المشرفة والنفوس المتسامية على الحقد والهوى واللطماع . ومن حوله هذا الرعيل الأول قد صهر الاسلام « دخوله إلى قوة جارفة بالحقيقة التي لا تجادل : « احرص على اللوث توهب لك الحياة » وبالفكرة العليا التي تستغرق هذه النفوس ، وهي إذاعة الاسلام في العالمين ، والنضحية بمناع الدنيا والمال والنفوس في سبيل هذه الغاية ، وكل عجب بوجه إلى إنتشار الاسلام في أقل من مائة عام من الصين إلى الأندلس ، يجب أن يرد تفسيره إلى عملية التكوين والبناء والتربية التي قام بها محمد رسول الله لهذه الجماعة المسلمة في مجتمعي مكة والمدينة .

٤ — إنما أقبل على دعوة محمد في أول الأمر الفقراء والمستضعفين والعبيد ، وأولئك الذين كانوا يحسون الضعف والمهانة ، وكانوا يترقبون في ظل الاسلام عزة وكرامة ، هم المستضعفون والفقراء والعبيد في كل مكان ، هؤلاء الذين ترقبوا دعاء الاسلام حين أقبلوا عليهم فانضموا تحت لوائهم طامعين في التخلص من الطغيان والذل والحرمان . وهؤلاء الضعفاء الذين التفتوا حول « محمد » هم الذين حملوا من بعدايات الاسلام إلى كل مكان . بعد أن صهرتهم الأحداث من تعذيب واضطهاد ومساءه ، خلال سنوات مكة القاسية ، وخلال سنوات المدينة المليئة بحركات الدفاع عن المجتمع الجديد من سرايا وقتال وبعوث .

٥ — كان على الجماعة الإسلامية في يرب أن تنظم نفسها على مفهوم الاسلام : ديناً ودولة ، ومجتمعاً وحضارة ، ولتكون نموذجاً تطبيقياً ، وأن تنشر الدعوة إلى الاسلام في شبه الجزيرة كلها حتى تصبح في نهاية عهد النبي « أمة موحدة » وجماعة كاملة ، وأن تكون متأهبة للسكفاح والاندفاع في الأرض لنشر الاسلام وإذاعته وإقامة مجتمعه الكبير . وقد استطاعت فعلا هذه السنوات العشر أن تذيل من خصوم الاسلام في الجزيرة ، وأن تحقق انتصارات متعددة : أبرزها دخول الرسول مكة

فانحأ واستسلامها ، ثم استسلام القبائل المتعددة التي دخلت في الاسلام واعتنقته ، وكان على الرسول ﷺ أن يتم دعوته بأن يبعث إلى الملوك والباطرة والأمراء في شتى الأنحاء من حوله داعياً إليهم جميعاً الاسلام كعلامة على الطريق الذي سيسلكه الاسلام من بعد وكان أبرز قوتين تجاوران الجزيرة العربية هي : فارس الروم .

٦ — ولا شك كان إرسال الرسل إلى مختلف الشعوب والأمم بالدعوة إلى الاسلام علامة على « عالمية الرسالة » وبحسبانها ليست للعرب وحدهم ، ودلالة على الطريق الذي يسلكه الاسلام بعد في اندفاعه إلى العالم كله . وقد فهم المسلمون في الجماعة الاسلامية الأولى تلك الصفة الانسانية وذلك الطابع العالمي لرسالة الاسلام . وهذا هو ما عبر عنه الفقهاء بمعنى « عموم الرسالة » باعتبار أن الاسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين ، وقد حمل القرآن آيات كثيرة تثبت عالمية الاسلام . وقد أرسل الرسول الكتيب إلى الملوك والأمراء في السنة السادسة من الهجرة ( ٦٢٨٨ م ) إلى هرقل قيصر الروم ، كسرى فارس ، وحاكم اليمن ، وحاكم مصر ، ونجاشي الحبشة . ولقد كان مقتنعاً منذ اليوم الأول لرسالته بمفهوم عالمية الرسالة وإيمانيتها معاً ، وأن تركيز دعوته في الجزيرة العربية ونحويلها إلى مجتمع واحد ، وأمة واحدة ، إنما كان يهدف إلى تكوين القوة التي تستطيع أن تحمل لواء هذا الدين وتندفع به خارج الجزيرة العربية إلى العالم كافة ، وكان ذلك يتمثل في قوله أن بلالا هو أول نمار الحبشة ، وصهيباً هو أول نمار الروم وأن سلمان أول نمار الفرس ٧ — ومنذ تكونت الجماعة الاسلامية واكتمل بناؤها ثم اكتمل بناء الاسلام في حياة النبي . بدأت في التاريخ صورة جديدة ، ذات طابع جديد . وبرز مفهوم جديد للحياة من خلال « رسالة » ، وجهادة تقوم على « فكرة » قد قهرت خلافتها المصعبية والقبلية ، وتجمعت لنشق في التاريخ خطاً جديداً ، منذ ذلك الوقت بدأ تأثير الاسلام في التاريخ ، حين مضى يدك صرح الامبراطوريتين العظيمتين : فارس والروم ويديل منهما ويقم بنسائه الجديد الضخم على امتداد هريض متصل من الصين إلى الأندلس في مائة عام ، فيعبر الفرس والبربر والترك ويصوغ المصريين والمغاربة والهند والسوريين في بوقعة واحدة وينف لبواجه العمارع مع أوروبا والدولة الرومانية الشرقية « بيزنطة » ورثة الدولة الرومانية في روما ، بإحساس أن أرض الاسلام كانت تحت سلطان الروم الشام ومصر والمغرب ثم سيطرة الاسلام على الأندلس وهي جزء من أرض الغرب ثم محاولات السيطرة على أطراف فرنسا وروما . ٨ — أن « قوة بنسائه الشخصية » : الذي أعطاه الاسلام في هذه المرحلة الذين تنفوا حول محمد ، والنمذج الذي تمثلوه في

الرسول ، هذه القدوة الرائعة هي التي أمدت هذا الرعيل الأول بتلك الصلابة التي صارت من بعد مضرب المثل ، في الايمان بالله ، وفي الشوق للشهادة من أجله ، وفي الاندفاع لنشر الاسلام بالحق في أقطار الأرض من خلال نفوس تستعلى على متاع الدنيا وتطعم في أن تذود عن هذه الرسالة حتى تستحصد وتقوى ، هذا هو التفسير الذي يعطى مفهوم معجزة التوسع الذي حققه الاسلام في خلال فترة قصيرة على نحو أعجز الباحثين وأدهشهم . إن قوة بناء الشخصية إنما يتمثل من خلال الحياة المضطربة التي عاشتها تلك القلة في مجتمع مكة في اضطهاد لم يتوقف . ٩ — أعطى الاسلام بمجتمعه الصغير الأول ذلك النموذج الذي هـش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلاً بمحتذى وصوره شاحنة من صور المثل الأعلى للمجتمع الانساني السليم المتكامل الذي يقوم على الأخاء والمحبة والتسامح والتشكافل . ليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية ، ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الاسلام ومضمونه وأيدولوجيته ، وما تزال صورة هذا المجتمع الاسلامي الأول باتساقها وصلابتها وسلاستها في فهم مضمون الاسلام ومنهجه تعطي علامة القوة في تطبيق الاسلام ، فمن هذه الجماعة الاسلامية أنطلقت « الدعوة الاسلامية » إلى العالم كله ، فبالتصدين شرقاً والأندلس غرباً وليس صحيحاً ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران ، أو أنها توقفت على رجال يندر اجتماعهم في عصر . ١٠ — كان مجتمع مكة غير منقبلي لقيام مجتمع جديد في داخله أو على أطرافه متحرراً من الزعامة القبلية ، أو قاضياً على الصراع القبلي ، أو مجتمعاً تحت لواء محمد ، هذه الألوية القبلية التي كانت تتسكون من خلال المعصية الخاصة والسلطان والمال . أما « مجتمع المدينة » على النحو الذي كان عليه فقد كان منقبلاً لقيام هذه الجماعة ، بعد أن ذابت القوتان القويتان فيه — وهما الأوس والخزرج — في جماعة المسلمين ، ودانت بالولاء لصاحب رسالة الاسلام . ومن هنا نما مجتمع جديد له مفهوم جديد قوامه الايمان برسائله والدفاع عنها وأذاعتها في الناس . ومن هنا كان لابد للجماعة الاسلامية من تنظيم صياحي واجتماعي واقتصادي يحفظ قوام الجماعة ويرد عنها خصومها ، ويدفعها في تمامك وقوة الاندفاع برآيه الاسلام إلى أفق الأرض . وقد توسعت هذه الجماعة من بعد ، ولكنها ذابت في المحيط الواسع الكبير ولم تكن صورة الدولة ، أو الحكومة التي قامت ، إلا تطبيقاً لنظام حكم يتحرك في إطار الاسلام . ومن هنا كانت سنة الاسلام ورحابته ومرونته في فرض نظام معين يلتزم به المسلمون ، وكان الالتزام الوحيد أن يكون الاسلام هو إطار الدولة والجماعة والفكر مع قدرة كل منهما على الحركة والتجاوب مع تطوّر الزمن وتغير البيئة . ١١ — ولم يكن مجتمع المدينة كما تحاول أن تصوره مختلف كتب

السيرة ، مجتمعت حرب وغزوات وقتال . فلو أننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجرته بضعة شهور في خلال عشر سنوات . ومن هنا فإن المجتمع الإسلامي في المدينة قد قام فعلاً وبني خلافاً على دعايتين واضحتين : نظام مجتمع ونظام دولة ، كما بنى تشريعاً وقانوناً ، ثم كانت الحرب إحدى وسائله للحفاظ على بقائه ومدافعة خصومه ، ثم كانت المهمة الكبرى التي أولاهها رسول الإسلام إتمامه البالغ ، وهو نشر الدعوة إلى أفاق الجزيرة العربية . ثم ابلاغها إلى ملوك العالم القريب منه في رسائل ودعوات خلال السنوات الأخيرة من حياته ، وفي خلال هذه السنوات العشر انحصبة تشكل منهج الفكر ونظام المجتمع وتشريعهم ، وصارت الدعوة إلى غايتها في التبليغ . وكانت الغزوات لدفع العدوان جزءاً من هذا العمل الكبير ، ولما لم تكن هي كل شيء كما تحاول أن تصورها كتب التاريخ التي بين أيدينا . ١٢ — كانت مدرسة الأرقم في مكة بالإضافة إلى مدرسة مصعب بن عمير بالمدينة قد كونت تلك الطليعة التي ظلت خلال سنوات المدينة تخرج في بعوث متوالية تحمل كتب النبي إلى شيوخ القبائل العربية ، وتزامل الوفود للنوالية التي كانت تتقدم معلنة إسلامها إلى المدينة ، وفي كلا الحالتين كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام لأولئك أو تعلمها هؤلاء . وقد اتى بعض هؤلاء الدهاة ، الأعنات والتعذيب والشهادة ، وقد أرسلت بعثة من أربعين معلماً إلى قبيلة بني هاشم فقتلوا غدرًا ولم ينج إلا ثلاثة منهم ، كما لقيت هذه القبائل من محمد رسول الله تفهماً عميقاً لمشاكلهم وقضاياهم ومنازعاتهم ، ساعدت على الصلح بينهم وكانت حكمة النبي وسماحته وحسن معاملته عاملاً هاماً في تجميع الذلوب حوله . ١٣ — قبل أن يلحق محمد رسول بالرفيق الأعلى كانت القبائل المائة التي تعيش في الجزيرة العربية قد انصهرت في الجماعة الإسلامية ، تجمعها « وحدة فكر » قوامها الإسلام « وقيم أساسية » تستمدّها من القرآن و « زعامة واحدة » هي زعامة محمد ، وقد ارتقت فوق عوامل التنافر والصراع ، وبدأ لها اتجاه واضح ، وهدف محدد ، ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي واضح المعالم ، لتندفع بعد ذلك إلى مجال التوسع والنمو والتعدد في خطين واسعين : أحدهما اتجه شرقاً إلى الفرس والثاني اتجه شمالاً إلى الروم .

(٥)

## د بناء الإسلام

« لم يكن للمسلمون يحملون الناس على دينهم بالقوة ولم يكن من علمهم الحرب والقتال إلا إذا حبل بينهم وبين تبليغ الإسلام حقيقةً لعموم الرسالة فإذا قاتلوا قاتلوا وازالوا القوة المناهضة فإذا قبلوا الصلح جنحوا لها وقد ضمن الإسلام لأهل الكتاب حرية كاملة في عباداتهم وشئونهم كلها . لم تقم دعوة الإسلام على القسر بل قامت على الإقناع الذين كان يتولاه دعاة متفردون ومن أبرز الظواهر أن كتاب قليلة العدد ضئيلة العدد غلبت أقوى الجيوش هناك وجنودا » .

\* \* \*

كان « بناء الجماعة الإسلامية » في الجزيرة العربية إلى أن اختار الرسول ، الرفيق الأعلى هو نقطة الانطلاق لبناء الإسلام : أمة ودولة وحضارة . وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضرة انجهاً طبيعياً ، فبعد أن تكونت الجماعة الإسلامية في قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب ، ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها للدعوة الجديدة ، كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى الآفاق . وقد عرف الإسلام بظواهر ثابتة استمرت خلال تاريخه كما وأبرزها « القدرة على الحركة » تبدو واضحة في نشأة الدعوة ، فالدعوة التي ظهرت في مكة لم تنوقف ، حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وهتوها ، فلما واجهتها المعارضة والتحدى والاضطهاد تحركت حركات متوالية ، تحركت بالمهجرة إلى الحبشة وبالدعوة خارج مكة في طوائف ثم تحركت بالمهجرة نحو يثرب ، وفي يثرب بدأت « مرحلة جديدة » لقد انتقلت إلى أرض أكثر قابلية وأكثر يسراً ورخاءاً ، ثم عادت إلى مكة ظافرة ، ثم استطاعت أن تؤلف الجزيرة العربية في « وحدة فكر » وفي « مجتمع موحد » ، ثم كانت حركاتها في أواخر سنوات النبي إلى الشمال ، نحو الحضر ، نحو عنق الزجاجة ، نحو الفوهة التي خرجت منها المهجرات المختلفة ، وكان يدفعها إلى ذلك عاملين هامين . الأول : نشر الدعوة الإسلامية وإذاعتها والجهاد في سبيل تحقيق رسالتها . الثاني : المبادئة بالحركة والديانة وإبراز الهيبة الرادعة للخصوم المترجمين على الأطراف والذين يحاولون الانقضاض عليها . وقد أشارت تحركات الرسول في خيبر ، ومؤته ، وبعث أسامة الذي لحق الرسول بالرفيق ورآيته منصوبة أمام المسجد ، والذي كان آخر ما أوصى به « أنفذوا بعث أسامة » والذي أنفذه أبو بكر في أول أعمال ولايته ؛ كانت كل هذه الارهاصات توحى بالخط الذي يسلكه الإسلام ، وهو خط طبيعي ، فإن دعوة « عالمية الرسالة » لا بد أن تنطلق إلى الآفاق ، لأن من أقوى دعائهم الجهاد في سبيل الله لنشرها

وقد بدأ الرسول هذه الخطوة بأن أرسل رسائله إلى الملوك والأمراء، داعياً إياهم إلى الإسلام، لذلك كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى مجالته الحيوى وأن ينفذ من الجزيرة إلى دولتي الفرس والروم المتناخين للجزيرة العربية .

وكانت دولتي فارس والروم قد أحستا في السنوات الأخيرة من حياة الرسول بمخطر الدهوة الإسلامية ، فقد ألفت مجتمعت الجزيرة العربية ، وقد تجمع في وحدة فسكن قوامها التوحيد والاخاء والعدل الاجتماعي ، وبلغتها رسائل النبي بدعوتها إلى الإسلام ، فسكن لا بد أن تفكر طويلاً في أمر على الجماعة الوليدة ، ومدى الخطر الذي يترتب على وجودها ونموها . ومن ثم بدأت تتأمر حتى كانت بعث أسامة . فسكن لا بد أن يندفع الإسلام لمواجهة هذا الموقف . وكان التحاق النبي بالرفيق الأعلى هامة الطريق على الخطر وعلى خط مسيرة الإسلام نفسه . ومن هنا لم تسكن حروب المسلمين مع فارس والروم حروب غزو بل حروب دفاع ووقاية . ولم يكن من الطبيعي أن ترى دعوة الإسلام الشابة العالمية هذا الخطر يترص بها على أبواب الجزيرة ثم تتعاضد منه . ثم زاد هذا الخطر قوة حين واجه الإسلام بعد انتقال الرسول للرفيق الأعلى انتفاضاً شاملاً في شبه الجزيرة .

فارتد كثير من العرب ، وثبتت قريش والطائف ، وواجه المسلمون للموقف على هزيمة أبي بكر خليفة رسول الله ، الذي أصر على مقاومة المرتدين وكان موقف أبو بكر حاسماً ، وهو من المواقف الخالدة في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخه هو بوصفه أول حاكم بعد النبي ، فقد أصر على مقاومة من منعوا الزكاة ، وقال « والله لو منعوني حقلاً كانوا يؤذونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، والله لا جاهدتهم ما استمسك السيف في يدي » ورفض رأى بعض الصحابة الذين قالوا : تقبل منهم الإسلام ، وقال عبد الله بن مسعود : « والله لقد قنا بعد رسول الله مقاماً كدنا لك فيه لولا أبي بكر ، أجمعنا أن لا نقاتل على ابنه ليون ونعبد الله حقاً يا أيها اليقين ، فغرم الله لأبي بكر على قتالهم ، ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر ، وقال عمر : والله لقد رجعت إيمان هذه الأمة في قتال أهل الردة ، والله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر لقتال حتى هرفت أنه الحق » . .

وكان أبو بكر قد تقلد سيفه وأزمع أن يخرج وحده لقتال المرتدين ، من هنا فقد حقق قتال أهل أهل الردة « وحده الجزيرة العربية » . ذلك الدور الذي لعبه الفرس في حروب الردة : فقد تأمر الفرس وتآمر الروم مع بقايا اليهود في شمال الحجاز ، بل لقد جدد انتفاض الجزيرة العربية « حركة الردة » — جدد الأمل عند الفرس والروم — على محاولة القضاء على الإسلام ، هنالك قدمت الفرس

والروم لمصوم الاسلام هوامل الإغراء للانتفاض ، وكانت في هذه المرة بعض المساعدات العسكرية كما آوت للمتمردين ، لذلك فما كاد المسلمون يعيدون وحسدة الجزيرة حتى قرروا الزحف نحو الشمال لمراجعة العدوين الكبير المتربصين بالاسلام .

ثم كان إنفاذ بعث أسامة من علامات التماسك والقوة ، فقد رضى أبو بكر تأخير جيش أسامة ، وكان قد جهزه النبي وأمره أن يسير إلى اللوزع الذي استشهد فيه أبوه « زيد حارثة » وأمره أن يوطئ الخليل تحوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارف الشام ، وقد أوصى النبي قبل اختياره الرفيق الأعلى : « انفذوا بعث أسامة » . وكان أول أعمال أبي بكر هو انفاذ هذا الجيش ، وقد عارض الصحابة حين سمعوا أخبار الردة وانتفاض العرب فقال : لو طننت أن السباع تخطفني ، لأنفذت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله ، فلم يلبث أن بث الجنود في بلاد قضاة وأغار وقتل وغنم ورجع لأربعين يوماً . وقالت العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه . والحق أن اختيار المسلمين لأبي بكر خليفة للنبي ، كان عملا بعيد المدى في تطور الدعوة الإسلامية واجتيازها الجزيرة العربية ودعم قواها في خلال الفترة القليلة التي أمضاها واليا لأمر المسلمين خلال عامين استطاع أن يحقق ثلاث موافق حاسمة في تاريخ الإسلام . (١)بيعة السقيفة وجمع كلة للمسلمين على ولاية الأمر . (٢) مواجهة خطر « الردة » بالحسم . (٣) دفع الإسلام إلى آفاق الانطلاقة الكبرى . وقد سار الإسلام بعد أن خرج من الجزيرة العربية في مرحلتين متتابعتين ، هما مرحلة «الإبماد والأعماق» . كانت مرحلة الإبماد تعنى التوسع والامتداد الجغرافي ، حيث حمل العرب رسالة الإسلام من الجزيرة العربية فاطلمتوا بها إلى آفاق الأرض فأقاموا بناء الدولة الإسلامية في ثلاث موجات : للموجة الأولى (١) من ١٢ — ٦٢ هـ إلى العراق ودمشق وفارس ومصر والقدس وطرابلس الغرب . للموجة الثانية (٢) من ٤٠ — ٥٠ هـ في شمال أفريقيا . للموجة الثالثة (٣) ٨٣ — ٩٣ هـ إلى الأندلس غربا والسند شرقا . ولم تلبث للنهضة كلها من حدود الصين إلى حدود فرنسا أن رفعت راية للإسلام ، ولكن حركة الإسلام لم تتوقف منذ افتتحت قارة أوروبا من الأندلس حينما كانت تلج على نفس القارة من الشرق بحصار القسطنطينة . ومن هنا بدأ الصدام بعالم الفرنجة والغرب والمسيحية ، وهو صدام لم يتوقف حتى اليوم ، وكان على الإسلام أن يواجه هذا الخطر من طرفين أساميين : خطر البيزنطيين على حدود الشام وخطر الفرنجة على حدود الأندلس ( أسبانيا ) واستولى عليها ٩٣ هـ — ٧١١ م . منذ ذلك اليوم بدأت معركة ذات صراع وهول بين عالم الإسلام وعالم الغرب ، وبين الإسلام نفسه كرسالة ونظام وفكر وبين الغرب وفكره

وحضارته التي قامت أساساً على المنهج التجريبي الذي ابتدعه من حضارة الإسلام ، وقد وصل  
المصدام إلى مداه في معركة بلاط الشهداء ١١٤ — ٧٣٢ غير أن ذلك لم يوقف التوسع الإسلامي في  
فرنسا وإيطاليا وسواحل أوروبا . أما حركة « الأعماق » فتتمثل في بناء المجتمع الإسلامي بالانصهار  
والفسك الإسلامي بالتبلور وهي مرحلة تالية لمرحلة بناء الإسلام وتوسعاته .

## ( ٦ )

### « حركة التوسع »

في الموجة الأولى من حركة التوسع ، تقدمت القوات الحربية الإسلامية إلى حدود الشام والعراق ،  
في مواجهة نفوذ الدولة الرومانية وإلى حدود العراق لمقاومة نفوذ الدولة الفارسية . فقد وجه أبو بكر  
إلى الشام : أبو عبيدة إلى حمص ، ويزيد ابن أبي سفيان إلى دمشق وعمرو بن العاص إلى فلسطين  
وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن ، وقد بدأت حركة التقدم في أرض العراق ، على يد المنى  
بن حارثة الشيباني ، فلما بلغت مرحلة دقيقة أنجده الخليفة بـ « خالد بن الوليد » فتقدم إلى الحيرة  
فالأنبار فعين التمر ، وأهم مواقعها ذات السلاسل .

وبينا كان خالد في تقدمه في قلب العراق ، دهم إلى إنجاد قوات الشام وارتد جيش المنى إلى  
أطراف الجزيرة العربية . وأعطيت حركة التوسع في الشام بذلك مداها ، وكان اهتمام المسلمين بفتح  
الروم هو بالدرجة الأولى ، لتخليص شعب الشام وفلسطين من احتلال الروم . وقد واجه الروم قوات  
المسلمين بزحوف ضخمة ، اضطرتها إلى توحيد قواتها ، وانجى خالد من العراق لمساندتها ، إذ قطع  
المفازة بين العراق والشام في رحلة أسعورية ، ثم جمع القادة الحسة على خطة موحدة . وواجه المسلمون  
الروم في معارك ( اجنادين ) في ٣٠ ألف مسلم في مواجهة مائة ألف ، وفي معركة ( دمشق ) دخل  
المسلمون المدينة من ناحيتين ، دخل خالد من الباب الشرقي قسراً ، وأبو عبيدة من باب الحبازية سلماً  
( ١٤ هـ ) وعزل عمر بن الخطاب خالد من الرئاسة بعد معركة ( اجنادين ) وتبقى خالد عزله راضياً ،  
وعمل جندياً تحت قيادة أبي عبيدة ، وقال عمر : أتى لم أعزله من ربيبه ولكن الناس عظموه فخشيت  
أن يقتلوا به ، وكان هذا الموقف من عمر غاية في تجرير الفسك الإسلامي من عبادة الفرد ، وكانت  
استجابة خالد بتقبل عزله عن ميدان الحزب كلية ، مثلاً هالياً أعمق مفهوم الإسلام في نفسه ، وسلامة  
شخصيته ، وقد وصف تصرف عمر فوق ما صورده هو ، بأنه براعة سياسية ، فقد كان أبو عبيدة في



تقديره أقدر من المسألة . وفي معركة « اليرموك » كان المسلمون في ٢٤ ألفا بقيادة أبي عبيدة ، والرومان في مائتي ألف بقيادة جبلة بن الابهيم آخر ملوك الفساسنة ، وقد انتصر المسلمون في كل هذه المعارك بالرغم من تفاوت العدد والعدد ، وتوالت الانتصارات حين استولى أبو عبيدة وخالده على حصن وحماه وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستولى عمر بن العاص وشرجيل على هكا وحيفا ويافا وغزة ، ودافع الروم عن بيت المقدس دفاعا شديداً ، فلما اشتد حصار المسلمين له ، طلبوا الصلح على أن يتم ذلك على يد الخليفة نفسه ، ليكتب معهم عهداً وقد قدم عمر بن الخطاب في رحلة ذات طابع هجيب وكتب بنفسه كتاب الأمان : ثم استسلمت مصر لقوات الاسلام ، وقد سارع المصريون إليه خروجاً من ظلم الرومان ، بعد أن جرت المعارك في أكثر من موقع ، وهزم جيش الرومان ، وتم الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس ( ٦٢٩ هـ ) على دفع الجزية وحرية العبادة ورحيل حامية الروم ولاشك قد رحب السوريون والمصريون بالمسلمين وهم هرب من بني جنسهم ، تخلصاً من الغاصبين . وفي فارس استأنف المسلمون الزحف على فارس ، وكان معركة القادسية ( ٦٣٦ هـ ) بقيادة سعد بن أبي وقاص والمسلمون في عشرة آلاف ، في مواجهة قائد الفرس : رستم ذا الحاجب في مائة وعشرين ألف مقاتل ، ونصر أبو محجن الثقفي قوات المسلمين فتداعى الفرس ، وركب البلقاء فرس سعد . وفي معركة المدائن على ضفتي نهر دجلة انتصر المسلمون على قلة هددتهم ، وسقطت العاصمة ( ٦٣٦ هـ ) وفي معركة جلولاء التي أعيد يزدجرد العظيم الفرس فيها آخر محاولاته وكانت من أعنف معارك فارس ، وصفها البلاذري فقال : أن المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا السيوف حتى انثنت ، وثبت المسلمون وكتب لهم النصر ، وفي معركة نهاوند ( ٦٣٩ هـ ) تم النصر النهائي فأطلق عليها ( فتح الفتوح ) وكان الفرس في مائة ألف بقيادة الفيرزان والمسلمون بقيادة النعمان بن مقرن المزي الذي ولاه عمر بعد عزل خالد ، وسقط النعمان في مطلع المعركة وخلفه خديفه بن النعمان على القيادة ، ثم استولى المسلمون على الأهواز ، وقم ، وكاشان . من هذا العرض السريع تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس ، وقد كللت كلها بالنصر ، وكان المسلمون فيها غاية في الكفاية والجدية والبطولة والقدرة على الاستشهاد والانتصار بالعدد القليل وكانت نتيجة هذه المرحلة أن دانت امبراطوريتان كبيرتان ، وساد حكم الاسلام العراق وفارس ، والشام والقدس ومصر .

غير أن هذا النصر لم يكن ليستقر أو يستمر دون حراسة وبقظة دائمة ، فقد كانت عوامل الانقضاض تحاول أن يجتاحه أو تنقص من أطرافه ، ومضى أصحاب السلطان المنهار في استئناس

محاولات جديدة لاسترداد نفوذهم ، أما الروم فقد هاجوا الاسكندرية بجيش كثيف ، أما خراسان فقد انتفضت في محاولة انقلاب ، وقد رد المسلمون الحركتين وأبادوها ، وكانت معركة ذات الصواري ( ٥٣١ ) اشتركت فيها قوات إسلامية في أسطول مكون من مائتي سفينة ، في مواجهة ثمانمائة سفينة رومانية بقيادة قسطنطين امبراطور الروم وكان النصر للمسلمين ثم اتصل التوسع الاسلامي مرة أخرى في خلال عهد هبمان ، وكان أبرز ما اتسمت به هذه المرحلة : بناء الأسطول الاسلامي وتولى معاوية بن أبي سفيان أمره ، وفي خلالها انضم إلى السكيان الاسلامي برقة وطرابلس وجزء من بلاد النوبة وبلاد أرمنية ، وأجزاء من بلط طبرستان جنوبي قزوين ونخعت جيوش للمسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ماوراء النهر ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابل وغزنة من بلاد الترك . وعن طريق البحرية الاسلامية دخلت ( قبرص ) في إطار الدولة الإسلامية وقد قام معارية بفزوعها ببحراً ( ٢٨ ) ثم قد توقفت هذه الاندفاعات لتعود مرة أخرى في أوائل حكم معاوية الذي أولى اهتمامه النافذة الشمالية بينه وبين الروم ، فقد كانت هذه النفرة من أخطر ما واجه المسلمون في تاريخهم كله ، وقد أولى معارية هذا الليدان اهتمامه في موالاة حصار القسطنطينية سبع سنوات متوالية وغزو بعض جزر البحر الأبيض ( الموجة الثانية ) وتجددت موجة التوسع مرة أخرى في عهد هب المالك بن مروان والوليد بن عبد الملك في امتداد جناحي الإسلام ، ( إحداهما ) استكملت الامتداد الغربى فيما بلى برقة حتى الأندلس ثم بلغت قلب فرنسا . والأخرى استكملت الامتداد الشرقى فيما بلى فارس وما وراء النهر وانقسمت إلى قسمين : ( إحداهما ) سار إلى الشمال تجاه ماوراء النهر ، ( والثاني ) مضى إلى الجنوب حيث بلغ السند واخترق الهند وبلغ حدود الصين في خلال حكم الوليد ابن عبد الملك ( ٥٩٣ هـ ) اتجه التوسع إلى الأندلس وأطراف فرنسا من ناحية وإلى السند وحدود الصين من ناحية أخرى . ثم تنهى إلى مرحلة من أعمال الولايات خلال حكم الأغالبة لتونس ، وإذا كانت في الامكان أن يقال أن القرن الأول كان عام التوسع في ظل القوات المتدفقة خلال هذا الأفق الواسع من حدود الصين إلى حدود فرنسا ، فإن هناك أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل : ( الأول ) : أن مرحلة التوسع الثانية ( ٤٠ - ٩٣ ) في خلال حكم الأمويين لم تسكن في عمق المرحلة الأولى ، فقد كانت أقل درجة في السكفاءة ولذلك فإن أغلب الأرض التي كسبتها لم تثبت طويلاً كما ثبتت الأرض التي كسبتها الجولة الأولى ( الثاني ) : أن الاسلام بعد القرن الأول لم يكن في حاجة إلى أن يجرى في ظل الحركات العسكرية ، بل بدأ خطوات جديدة مستقلة ، واستطاع أن يفتح أفقا جديدة بقوة

الذاتية . ومعنى هذا أن قيام « عالم الاسلام » على النحر الذى قام به خلال القرن الأول وعلى هذا النحر الرائع المعجيب ، وما حققه من نتائج ضخمة فى نقل سكان البلاد إليه بالدهوة وعلى أساس جوهر مفاهيمه : « التوحيد — العدل الاجتماعى — المساواة » كان ذلك كافياً لأن يدفعه دفعا ذاتياً ليحقق توسعات جديدة فى أرض لم يكن للإسلام عليها دولة أو كيان سياسى . ( ثالثاً ) كانت الجولة الثانية للتوسع الإسلامى أقل درجة من ناحية الاهتمام بمناهج الإسلام وقيمة الأسس التى رسمها « نبي » الإسلام وحرص صحابته وحلفاؤه على الاستمسك بها ( رابعاً ) كانت منهج التوسع الإسلامى فى عهد الأمويين أقل درجة من ناحية العمل على نشر الإسلام والدهوة إليه ، وكانت « القدوة » التى تمثل رأس القيادة الإسلامية أقل درجة على إعطاء المثل الأعلى للإسلام مما كانت أيام الراشدين ، فقد كانت بساطة الخلفاء الراشدين عاملاً عجبياً فى كسب غير المسلمين فى الأقطار التى تولوها الإسلام ، منها فى عهد الأمويين ، غير أننا نؤمن بأن التطور الذى بلغته القيادة السياسية كان تطوراً طبيعياً ثم دخل الإسلام فى الجولة الثانية : « الأندلس والمند » ولكنه لم يتعمق نفوس المسلمين وكان من أسباب ضعفه حرص الولاة على إيراد الخزينة العامة حتى جاء عمر بن عبد العزيز فحطم هذا القيد وألقى الأوضاع التى كانت تفرض على المسلمين ما كان خليقاً أن يرفع عنهم من ضرائب بعد إسلامهم ، فقد أوقف عمر بن عبد العزيز الجزية عن دخل الإسلام منهم فدخل الناس فى الإسلام أفواجا ، ودعا ملوك السند فقبلوا بدعوته وتبعهم شعبهم ، كما دخل الإسلام كثير من أهالى مصر والشام وفارس وهو القائل لواليه الذى أعتز به على إلغاء الجزية لأنها تنقض مال الخزانة « قبح الله رأيك ، أرفع الجزية عن أسلم ، فإن الله يمشى محمد هاديا ولم يبعثه جابيا ، وامرئى لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه » وفى هذه المرحلة ظهر من أسماء الفاتحين : طارق بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير ( الأندلس والمغرب ) وقتيبة بن مسلم ( ماراء النهر إلى حدود الصين ) ومحمد أبو القاسم الثقفى ( السند ) ويزيد بن المهلب ( جرجان وطبرستان ) ومعاوية ابن أبى سفيان ( حصار القسطنطينة ) وهبة بن نافع ( فتح أفن يقيا إلى المحيط ) وقد شمل للتوسع العسكرى الميادين الثلاثة : ( ١ ) الجرب ضد الدولة الرومانية ( بيزنطة ) ومحاصرة القسطنطينة ( ٢ ) شمال أفريقيا ، وقد أمتد حتى المحيط ثم عبر مضيق جبل طارق وأمتد إلى أسبانيا ( الأندلس ) . ( ٣ ) شرق آسيا : سار إلى ( ١ ) الشمال تجاه ماواراء النهر ( ٢ ) وإلى الجنوب فشمى السند . وقد كان قادة المعارك نماذج نادرة فى البطولة والایمان . « قتيبة بن مسلم » غزا ماواراء النهر وأغار على الصفد وفتح مدائن خوارزم صلحا وغزا سمرقند وسار إلى حدود الصين ( ٥٩٦ ) فأرسل ملكها وفداً له

يقول : ارجع ، فقد عرفت حرص من أرسلاك وقلة أصحابه قال قتيبة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيلة في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً على الدنيا من خاف الدنيا وغراك ، إما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فإسنا نسكرها ولا نخافه ، و « يزيد بن المهلب » غزا جرجان وطبرستان بجيش مكون من مائة ألف ، أما « محمد ابن القاسم التنفي » فقد حمل لواء الحرب وهو في سن السابعة عشر وجمع بين البطولة والشجاعة وسداد الفكر . ومما يجدر الإشارة إليه أن ما أورده كثير من المؤرخين من خلاف بين طارق بن زياد وموسى بن نصير لا تؤكده المصادر الأمانة ، وكل ما روى في هذا سنده ضعف ومن وضع وضاع العصر العباسي ، فقد كل أخدهما الآخر ، أرسل موسى طارق فلما تحقق النصر ودانت أرض الأندلس هبر من منطقة أخرى ليسكن التوسع ، ولبحكم الخطة ، فلما التقيا سارا آما إلى الشمال حتى وصلا جبال البرانس . وفي الجولة الثانية للتوسع الاسلامي أنشأ الأمويون الأسطول البحري ، وقد غزا معاوية في البحر واستعمل على أسطوله عبدان بن قيس كما أغرى معاوية « عقبة بن عامر » فوجهه إلى رودس ، وركب معاوية البحر إلى قبرص فافتتحها وكان معه ألف وسبع مائة سفينة للسلاح والأموال وأجرى معاوية محاولته لفتح القسطنطينية وكانت صور وحكا وطرابلس موانئ متخصصة لصناعة السفن .

### تفسير لنجاح التوسع الإسلامي

ان أبرز ما يتركز عليه مفهوم الرسالة في الاسلام هو تبليغها واذا عنتها ونشرها في الآفاق ، ذلك هو هدف الاسلام الأكبر والغاية المنشودة بكل من يعتنق الاسلام والأمانة التي يحملها كل مسلم ، فالاسلام ليس دين عبادة ، ولكنه دين ورسالة ، قد وكل الى معتنقيها أن يذيعها في أنحاء الأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، سجل ذلك القرآن حين وصف الاسلام بالعالمية ، وحين بعث محمد للعالمين نذيراً وكافة للناس ورسول الله إلى الناس جميعاً . وقد سجل الرسول ذلك في هديده من أحاديثه : « إني بعثت رحمة للناس كافة » ومن هنا كانت دعوته الى ملوك العرب وأمرائها بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ، ثم رسائله الى الملوك قبل فتح مكة فقد بعث إلى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة العربية يدهوم إلى الاسلام ، إلى هرقل امبراطور الروم وإلى كسرى فارس ( هوريز بن هرمز ) ونجاشي الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، وقد صدرت هذه الرسائل من يقين ثابت وحاس مقتد على حصد تعبير ( توماس ارنولد ) وتدل دلالة

واضحة على ( عموم الرسالة ) التي تكررت في القرآن ، وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة . وليس في طبيعة الإسلام ، ولا في خطط الرسول في دعوته ، ولا في أحوال الأمم عند مبعث الرسول أمراً لا يؤكد « عموم الرسالة » . وقد صدقت الأحداث ذلك من بعد وأبديه وقد أمر القرآن بالدعوة إلى الله باتقان ونهى عن الإكراه . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

وقد كان الإسلام منذ بدأ ظهوره « دين دعوة » ، وكان مفهوم « عالمية الإسلام » واضحاً في النماذج التي اعتنقت الدعوة الإسلامية في المدينة ، بلال أول ثمار الحبشة وصهيب أول ثمار الروم وصليبان أول ثمار الفرس ، هكذا كان يطلق عليهم ، ومن ذلك ما ذكره الرسول عن بلاد كثيرة تفتح على المسلمين ، وما أوصى به لقبط مصر ، وما أشار إلى من سيعطي أساور كسرى . ويعني هذا كله أن عالمية عالمية الإسلام ، وعموم رسالته كانت أمراً مقطوعاً به ، وأن المسلمين كانوا في جماعة الإسلام التي كونها محمد في المدينة يفهمون منطق الإسلام ، هذا المنطلق الذي بدأ فعلاً يبعث أمامه التي أعده الرسول وأمر بإتقائه وكان اتجاهه إلى عنق الجزيرة العربية ، إلى الشمال . وعلى ضوء هذا المفهوم استطيع أن ننظر إلى حركة التوسع التي قام بها الإسلام والتي حققت قيام دولة ممتدة من حدود الصين إلى حدود فرنسا . فقد كانت هذه الحركة تحقيقاً لمفهوم عموم رسالة الإسلام ودفعاً للقوة الحاضرة دون انتشاره والقضاء عليها ، مما يطلق عليه عبارة ( الفتح ) إذا جاز لنا أن نستخدم لفظ « الفتح » فإتاما يتم ذلك بمفهوم واحد هو إزالة القوة التي تقف أمام أمانة « عموم الرسالة » التي حملها المسلمون عن الرسول ، وكانت في تقديرهم : مهمة حياتهم ، يهبون لها أرواحهم ، ويستشهدون من أجلها . فالفتح هو كسر الحواجز للادية التي يحاول أن يقيسها الحكم والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ إليها الإسلام ، رغبة في تحقيق اللقاء بين الإسلام وبين هذه الشعوب للعلوية على أمرها ، الغارقة في : (١) الظلم الاجتماعي . (٢) الوثنية ، ولذلك فقد استقبلت هذه الشعوب الإسلام بغيطة كبيرة وتقدير لاحد له ، لأنه أتاح لها التحرر من مظالم الاستبداد ، وحفظ لها حقها في ديانتها وطقوسها القديمة دون أن يفرض عليها عقيدته ، وسمح لها أن تتأكد بمزيد من الحياء كيف يحقق الإسلام : العدل والمساواة ، هنالك اندفعت تحت لواء الإسلام بإرادتها الحرة ، وباقتنائها المعلى والروحي الكامل .

وفي كل خطوة من خطوات الصدام المسلح كان الإسلام متمدياً عليه أو محالاً بينه وبين إذاعة

كلمته ، ونشر دعوته ، وقد انتفضت الجزيرة العربية بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى وقطعت روابطها ، كان معنى الانتفاض ، إفراط عقد الوحدة التي كانت موضع هيبة الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية وقيد نظرم في حركة الاسلام ، لذلك كان لابد من صدام مسلح يعيد وحدة الجماعة الاسلامية ، غير أن انتفاض أهل الردة شجع الفرس والروم على العمل والقضاء على الدعوة الناشئة ، وسارعت الفرس والروم فقدمت للمتفضين مساعدتها وآوت المتمردين ، ولذلك فقد كان طبيعياً أن يتجه المسلمون إلى مواجهة الفرس والروم ، بعد القضاء على الردة ، في موقعة فاصلة ، يزولون بها هذا الخطر الذي يقف أمام نمو الإسلام وانتشاره . والذي كان يتربص به ويستعد لضربه ضربة قاتلة ، ومن ثم اتجهت القوات للسلسلة إلى أطراف الإمبراطوريتين في وقت واحد ، وفي معركة زمنية واحدة ، وكان ذلك من علامات القوة بالرغم من أنها تخالف العرف العسكري والحربي الذي يرى أن لا يشترك المحارب في معركتين معاً في وقت واحد غير أن ذلك أرهب العدوين وأدال منهما.

وتوالى الانتصارات ، حاسمة ، متتابعة في كلا المعسكرين وبرزت بطولات رائعة ، ظهر قادة أبطال ، وأعطت هذه العمليات الحربية صورة رائعة لتطبيق مفهوم الإسلام وأنصاره في نماذج حية رباها محمد وكونها خلال كفاح طويل ، وبرزت صورة من التضحية والاستشهاد والبطولة غير عادية . ولقد لغت التوسع الإسلامي نظر الباحثين فذهبوا في تحليله مذاهب شتى ، يقول لوثروب ستوارت : «كل زدنا مستقصاء باحثين عن سر تقدم الإسلام زادنا ذلك العجب العجيب بهراً ، فارتدنا عنه بأطراف حاضرة ، هرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئاً متلافياً كل صعب حتى أن قبض الله لكل دين ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الذين ثم أخذ في تأييده ، والذب عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه . فبطل النصرانية : «قسطنطين» ، وبطل البوذية : «أسوكا» وكل منهم ملك جبار أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والآيد ، إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام ، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء ، حيث القبائل الرحالة التي لم تسكن من قبل ربيعة المسكنة والمنزلة في التاريخ فليسرع يندفع وينتشر وتسمع رقعته من جهات الأرض مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى هون يذكر ، ولا أزر مشدود ، وعلى شدة المكراه فقد نصر الإسلام نصراً مبيناً عريقاً إذ لم يكدهم على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة في البرانس حتى هملايا وفي صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا ، وعندنا أث العامل الأول في نجاح التوسع الإسلامي لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثروة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب ، ولم يكن

مصدر النصر الوحيد هو ضعف هذه الدول ولكن العامل الأول في الحقيقة إنما هو عمق مفهوم الإسلام وسلامته وقربة من الفطرة الانسانية ومطابقتها، لواقع هذا المفهوم هو بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد : كانت القوة الدافعة هي إيمان هذه الجماعة لإيماننا لا يتزهدع بالاستشهاد في سبيل دفع لواء الإسلام إلى كل أرض . أما السلطان والثروة فقد كان الإسلام في أعرق مفاهيمه جامعاً بين الدنيا والآخرة ، وللمادة والروح لا يفرق بينهما ولا يفصلهما ولم تسكن الوسائل الحربية التي اتخذها المسلمون هي وحدها سبب النصر فقد كان هناك دوماً فارق بعيد في العدد والعدد بين المسلمين وخصوم الإسلام ، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو ذلك الايمان بالقاعدة الذهبية : « أحرص على اللوت توهب لك الحياة » ولقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية التقليدية التي تقول . على المحارب أن يركز قواته في ميدان واحد ، ودفعوا قواتهم في ميدانين واسمين في وقت واحد ، ومهما يكن من العوامل التي يوردها المؤرخون تفسيراً لهذا النصر الرائع ، فإن العامل الأول والأعظم ، هو ذلك الإيمان العميق بالله والثقة في نصره وطلب اللوت في سبيل إذاعة الإسلام وإبلاغه للعالمين ، والنضحية بالروح والتماس الشهادة ، هذا هو العامل الأول والأعظم من بين العوامل الممتدة . لقد كانت الامبراطورية الرومانية قد شاخت ، وبلغت المدى في الضعف والتحلل ، وكان الأباطرة الرومان قساة مستبدون ، وكانت حياة الترف والانهلال بادية ، وكان الخاضعون للروم يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين فلم يكونوا يدينون بشيء من الولاء لهذا الحكم ، وكانت مصر مزرعة قحج لروما ، أما الفرس فقد كانت الحروب مع الرومان قد أنهكتها وكان جنودهم يحاربون من غير حافز روحي ، حتى اضطر القائد الفارسي في أحد المواقع أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وذلك في موقعة ذات السلاسل . لقد ذهب البعض إلى عرض مفهوم « الجهاد » في الإسلام عرضاً غير منصف ، محاولاً أن يجعله عملاً حربياً هجوماً عدوانياً ، بينما لم يكن الجهاد جهاد حرب أو قتال عدوان ، بل كان عملاً ببناء للشخصية الانسانية أساساً والمجتمع والدفاع عن الاسلام ونشر لوائه ، فهو دعوة خالصة وسيلتها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى ، فإذا فرض العدو المعركة ووقف في طريق الدعوة كانت الحرب ، وهي في مفهومها تقوم على أساس غلبة الرحمة والعدل . والحق أن موجة التوسع الإسلامي كانت حركة عدل ورحمة ، فقد سادت أقطاراً غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد والفقر والذل ، فكانت دعوة الاسلام بمفهومها « دعوة للتوحيد والعدل والمساواة » علماً على تحرير الرقيق والعبيد والضعفاء وتخليصهم من سلطان الأباطرة . فبقوة مفهوم الحرية والعدل كانت تشق طريقها بمعزيمة وتجد في كل مكان تحمل فيه قبولاً ، لأنها كانت تزيل السلطة المستبدة الطاغية وتحل محلها سلطة جديدة قوامها العدل ، لا ترغم للناس

على دينها والسكنها تؤمن للناس حياتهم وحرية أديانهم. فقد كان المسلمون يصلون إلى الأفطار فيقيمون فيها نظامهم فيقبلهم الناس بالرضا لأنهم كانوا يحررونهم من الظلم ولا يفرضون عليهم الاسلام، ويؤمنونهم على أموالهم وأملأهم ويدعون لهم حرية دينهم. بل لقد تركوا الأرض لأصحابها على أن يدفعواخراجها بينما كان الأ كاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكا الأرض وللمالين فيها وكان المسلمون يتركون لغير المسلمين أن يحكموا قانونهم المدني في شؤونهم ، وإلى جوار ذلك كان دعاة المسلمين والفقهاء يتحدثون عن الاسلام ومبادئه وقيمه . ومن هنا أخذ الاسلام ينتشر ببطء ، وأخذت الجماعات المختلفة تتخلص من أديانها وتعتنق ، وتتخلص من لغاتها وتعتنق اللغة العربية أيضا ، حتى رجال الكنيسة في القرن الرابع الهجرى وضعوا كتاباتهم باللغة العربية . وقد سجل سلوك عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الأمم الداخلة تحت لواء الإسلام ، فلم يرد عمر أن يدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من أصحابه وطالب إلى البطريرك سفر ونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة ، وقد أعطى الأمان لسكان المدينة وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحرير العبادة على المسلمين في بيعهم ، وكذلك فعل عمرو بن العاص ، فقد منح المصريين حرية دينية تامة وعدلا مطلقا ومساواة كاملة واحتراما كبيرا لأموالهم وتبديلا للضرائب الجائرة التي فرضها قياصرة الروم . وهكذا وجد الفرس والمصريون والسوريون في الاسلام منفذا من الظلم والطغيان والاستغلال ، حين ضمن لهم حرية الأديان ، وترك الأرض لأصحابها على أن يدفعواخراجها وهو أقل بكثير مما كانت يدفعونه للأ كاسرة والقياصرة ، كما أن غير المسلمين على أموالهم وأهلبيهم ، وقد نفذ النظام الاسلامى على المسلمين وترك لغيرهم الفصل في شؤونهم وفق القانون الذى كان مصدرا لقضائهم . ولقد تابعت حركات الفتح أعمال الدعوة والتعريف بالاسلام ، فقد أثبت الفقهاء والدعاة فى كل مكان يتحدثون عن مبادئ الاسلام وقيمه ، وكانت صورة الزهد والكنوز قدوة وما التمس أصحابه وتابعوه ، من شمائل وخلق ، من العوامل الأساسية لفهم الاسلام ، وقبوله ، مما دعا الكثيرين إلى إهتئافه ، وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام إذ أصبحت لغة الجماعة وقوام الأنظمة السياسية والاجتماعية ، وفى الحق لم تسكن أعمال التوسع مجرد أعمال عسكرية تهدف إلى السيطرة أو تحقيق المجد الشخصى أو توسيع رقعة الأرض ، بل كانت أساسا تحمل دعوة الاسلام إلى كل مكان ، ولم تسكن الشخصيات التي برزت فى هذا المجال شخصيات طامعة إلى السلطة أو رغبة فى الظفر الذاتى أو المادى ، بل لقد استهدفت حركة التوسع الاسلامية نشر الاسلام أولا ، وإزالة القوى الحاكمة الظالمة المسيطرة ذات النفوذ والمصاحبة الخاصة ، لانتاحة الفرصة لأهالى الأقطار المختلفة لتحقيق قيام حكومات شعبية أهلية .



ولقد كانت كل نتائج الحروب والمعارك مفضية إلى هذه الحقيقة ، فقد كان الهدف الدينى فى الدرجة الثانية وكان هدف تضحية الروح والاستشهاد فى سبيل الغاية هو أبرز الدوافع ، إذ أن البسالة الغائقة والتضحية بالنفس لا تكون مصدراً للمطامع الدنيوية بذاتها ، ولقد كانت مختلف للواقف تشهد بأن المسلمين كانوا النصف الأقل عدداً بينما كان عدوهم يمثل نصف هدمهم أو إضعافه ، ومع ذلك كان مرجع النصر الذى يكسبونه دائماً ، إلى قوة أخرى ، غير القوى المادية وحدها . ومع هذا العامل القوى فإن المسلمين لم يتخلفوا عن الامتياز والتفنت ، والابتكار والبراعة فى فنون الحرب والقتال واصطناع أحدث الوسائل ، وأذكى الخطط ، وما تزال المعاهد العسكرية العالمية تدرس خططهم الاستراتيجية .

## (٧)

### الإسلام والحرب

لم تكن مواقع التوسع مجرد أعمال عسكرية تستهدف زيادة رقعة الأرض الإسلامية وإنما كانت تتمثل فى القضاء على المقاومة التى تحول دون إندفاع دعوة الإسلام إلى مداها بعد أن تسكنت الجماعة الإسلامية التى صنعها محمد فى الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاماً لإبلاغ الإسلام إلى العالمين . وظلت الحرب فى مفهوم الإسلام حرب دفاع لا حرب هجوم ، ورداً للعدوان وذوداً عن الحى ، وكانت القوة فى الإسلام إرهاباً أكثر منها تدميراً ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وقد صاغ الإسلام لفكرة الحرب مفهوماً يختلف عن مفهومها العدوانى ، فصانها من قتال الأطفال والشيوخ والعباد ، من أى دين ، وارتفع بها عن التدمير والابادة ولم يجعل مفهوم انتشار الإسلام مرتبطاً بالحرب ، بل عمله منوطاً بالاعتناء والتقبل النفسى ، وكان أهم ما أدخله الإسلام من تطوير لنظرية الحرب هو السمو بها ووضع مبادئ تقود المحاربين إلى النصر بالاهداد للمركة إهداداً سامياً يضمن كسبها .

وانسبت مواقع التوسع الإسلامى بالبسالة الغائقة والتضحية بالنفس ، كان المجاهد حين يقاتل يطمح فى إحدى الحسنين ، على النحو الذى علمه الرسول للجماعة الإنسانية : النصر أو الشهادة ، ولم تكن مطامع الفوز المادية منسكوره ، غير أنها لم تكن أبداً الهدف الأول كما تحاول كتابات بعض الغربيين أن تصورها . وإذا اعتبرنا أن المسلمين فى هذا المرحلة قد اعتنقوا عقيدة نشر الإسلام والسير بلوائه إلى أقصى مدى يستطيعون بلوغه فى الأرض ، فإن هذا الإيمان العميق قد فتق أذهان

وهقول هذه النخبة الممتازة إلى فنون من الحرب وابتكار أدوات للقتال وأسايب المدافع . وقد رسم الرسول قاهدة الفوز في كلمات حاسمة دقيقة ظلت دستور الاسلام في الحرب :

« أهزو باسم الله ، في سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمنلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا غائبا ، ولا منعزلا بصومعة ، لا تغرقوا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تهدموا بناء ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا يميأ إلا لما كلة ، سوف تمرن على أقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدهوم وما فرغوا له . أوصيكم بتقوى الله وبن معكم من المسلمين خيرا . وقد حقق الرسول ﷺ بوصفه القائد الأول لجيش الاسلام مبادئ عسكرية ونظريات حربية جديدة طبقها في موقعة بدر ، ثم جاء قادة المسلمين فأضافوا إليها ، وأهم هذه القواعد : (١) تقسيم مواجهة الهجوم . (٢) القضاء على القوة الرئيسية للعدو . (٣) تخصيص قوة حراسة تسمى مؤخرة الجيش . (٤) السيطرة على ممر في جبل لمنع العدو من المرور فيه . (٥) دراسة شخصيات قادة العدو . (٦) الاستعداد لمواجهة طابع وهادات وأسايب الحرب لسكل قائد منهم . (٧) تطبيق مبدأ الوقاية . (٨) ومبدأ للبادأة . كما اتخذ الرسول : خطة اختيار الموقع للملازم لجنده ، كان يخرج للقائه عدوه ، وكان يعاود الخروج ولو كان متعبا ، كما فعل بعد معركة أحد ، وكان يفرض الحصار وفقا لخطة حربية ، والسيطرة على الماء ، وحفر الخندق . وكان مع هذا لا يكل نفسه إلى القوة المددية ولا يكتفى بها بل يلجأ إلى الله ، وكان يؤمن بخطار الحرب في نتائجها بما تختلف عن بدايتها فيقول : « لا نتمنو لقاء العدو فإذا لقيتم العدو فأثبتوا » . وكان حريصا على تعرف قوة العدو وبوسيلة أو بأخرى فقد يسأل عن الجزور التي تعود ذبحها كل يوم ثم يستنتج منها عدد جيش أهدائه ، ولا يضطرب في الأزمة أو القارعة بل يثبت في صمود ، وفي موقعين غاية في الخطر ثبت الرسول ولم يضطرب ، أولها عند الفشل في أحد ، فقد ثبت بقوة ، كما ثبت بقوة في حنين بعد أن قارقه أكثر أنصاره . ولم تذهله المعركة عن واجباته كفائد لقومه ، وهو لا يمتنع عن تغيير مكان المعركة إذا وجد في رأى أهوانه صوابا ، ولا يستهين برأى أحد من رجاله ، ففي بدر غير الموقع وفي الخندق غير الخطة . وكان من أسلمته القضاء على اقتصاديات العدو ومحاصرته وذلك بالنعرض لقوافل قريش ، وكان لا يتعرض للآمنين الوادعين الذين لم يشتركوا في الحرب ، ولا يغير على قوم لم يخاصموه أو يعادوه فإذا عرف بعزيمة قوم على مهاجمته سارهم بالمجوم ، وإذا بلغه أن قوما يحملون عليه أو يهاجمون دعوته أرسل إليهم من ينصحبهم ويدهوم إلى الاسلام فإذا رفضوا حاربهم ، وكان في خط النار أقرب ما يكون إلى إلى العدو ، قال أصحابه « كنا إذا حى وطيس الحرب وحيت الخندق تنق به فلا يكون

أحد أقرب إلى العدو منه . وقد تطورت خطط الحرب بعد ذلك وتوسع نطاقها وتمددت أساليبها ولسكنها لم تخرج عن المثل الأعلى للإسلام ، فلا يتأخر المسلمون عن إداء الصلاة في واعيدها ، ولا يهاجموا غير المحاربين ، ولما صادقتهم مواقف جديدة استحدثوا لها ما يواجهها ، لما واجهتهم الفيلة ضربوا خراطيمها ، ولما واجههم النهر خاضوه بالفرسان .

(٢) ابتكر القعقاع بن عمرو فناً عسكرياً جديداً ، فقد وصل قادماً إلى معركة الفارسية من العراق في نجدة من الجنود في اليوم التالي فلما رأى قلة عدد المسلمين ، قسم جنوده ، وكانوا يعدون أنف فارس أقساماً صغيرة كل قسم عشرة وأميرهم ، ثم أمرهم أن يتواتروا إقبالا على المعركة عشرة بعد عشرة ، وأن يبدأوا الهجوم عند وصولهم فيزيدوا في قوة المسلمين ويظن الفرس أن الامدادات متتابعة فيساهد ذلك على خذلانهم . (٣) كانوا يسرون إلى الحرب يرتلون الآيات القرآنية ويكبرون عند الهجوم ويستعملون الطبول ، يقول عبد الله بن الزبير : « بتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى القرآن كدوى النحل وبات أولئك في خمرهم وملاعبهم » . (٤) كانت النساء يصحين المقاتلين وتخصص لهن أما كن وراء الجيش ، وكن يعملن مع الرجال في أثناء المعركة ، ويقمن بتحريض الرجال على الصبر والاستبسال ، وينقلن الماء ، ويستقلن بتحريض المرضى ومواساة الجرحى ، وقد وقفت النساء المسلمات خلف الجيش في معركة اليرموك وبأيديهن العمد والحجارة يضربن بها من يحاول الهرب .

(٥) برز طابع الاستقامة الخلقية في معاملة أهالي المدن المفتوحة ، فلا فساد ولا خور ، أما الجندي فلا يقيم في الجيش أكثر من أربعة أشهر ثم يسمح له بزيارة أهله ، وكان عمر قد سأل ابنته عما يمكن أن تلتظر للمرأة غيبة الرجل ، فقالت أربع شهور . (٦) عرف خالد ببراعته في خطته الحربية ، وفي « مؤتة » استطاع الارتداد بثلاثة آلاف مقاتل لما ظهر رجحان الروم عليهم ، وفي معارك الردة كان يتقدم لمبارزة قائد المعركة فيقتله ويفرق أصحابه ، وفي معارك العراق أخذ بالمفاجئة ، وفي موقعة ذات السلاسل فرق جيشه (١٠ آلاف مقاتل) إلى ثلاث فرق وواعدهم (الظفير) ، وفي معركة الوجلة حارب أعداءه في ثلث جيشه ، وأرسل الثلثين كميناً له على أن يأتوا العدو من خلفه ، وبدأت للمعركة والعدو لا يظن إلا أن خالداً في هذه القوة القليلة وأنه ظاهر عليه حتماً ، وخالد يماكر هدوه ويخائله ، حتى ظهر كمين خالد من خلف العدو فأصبح محاصراً من خلف ومن أمامه .

وكان خالد يتحرك دائماً على تعبئة ، وفي معركة (اليس) واجه خصومه وهم يتبشرون لطعامهم ، فلما رأى هدمهم وقوتهم ، تعجلهم بالسيف فشتت شملهم ، وفي (الانبار) وجد القوم قد خندقوا

واعنصموا في حصونهم فافتحم الخندق بجيش الابل الضعيفة فحرقها ورموها في الخندق ركاباً وأمر جيشه بالعبور على هذا الجسر ، وكان من أساليب القدرة على قتل جيش عدوه بعيداً عن مراكزه ، فقد عسكر في ( الخفير ) فلما تحرك هزمه قائد الجيش غادر المكان إلى ( كاظمه ) فكبده عدوه السير مسافة طويلة وواجههم وقد أضنام الثعب وكان الانتقال في الرمال والمفاوز أمراً سهلاً على العرب مهلكاً للفرس . ولم يلبث أن هاجم هرمز وقتله وبدد جيشه . وكانت أبرز مفاهيم خالد الحربية . ( ١ ) معرفة مواطن الضعف في عدوه ( ٢ ) سرعة الحركة ( ٣ ) المرونة والجرأة ، وفي البرموك كان في أربعين ألفاً وكان الفرس في مائة ألف فقسم جيشه إلى كراديس ، كل كردوس ألف فارس ليوم الروم أن العرب مثلهم عدداً .

( ٧ ) ومن القواعد التي سنها عمر بن الخطاب : أن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية دأى الجهاد في كل لحظة دفعها عن دينه وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاء معنيا . وقد حدد قادة الحرب المسلمين خطوات العمل الحربى على خمس مراحل : ( ١ ) الاستيلاء على المراكز ، ذات الخطورة العسكرية ( ٢ ) استئبار الجند عين الشمس أو الريح . ( ٣ ) كتمان أخبار الجيش في حله وترحاله . ( ٤ ) وضع الأسلاك الشائكة حول الجيش . ( ٥ ) إقامة السكين « حركة التعويق » .

وأم من هذا كله الحرص على الموت : احرص على الموت توهب لك الحياة .

× عن البلاذرى أن النعمان بن مقرن قال لرجاله في معركة نهاوند : أتى هاز لوأتى ثلاث هزات فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها ، أما الهزة الثانية فليتنظر الرجل بعدها إلى سيفه وليتهيأ وليصاح من شأنه ، أما الثالثة فإذا كانت فاحملوا ولا يلويين أحد على أحد .

× عند اقتحام دمشق بعد معركة البرموك سبيح المسلمون عبر الخندق الذي يحيط بها وكان مليئاً بالماء ، وعلى ظهورهم القرب ، ثم رموا بالحبال والأنشودة فعلمت بالأسوار فتسلقوها وفتحوا الأبواب .

وكان القادة يعملون من أنفسهم القدوة في كل آن ، فيدهون أشجع الشجعان إلى المبارزة قبيل كل معركة ، فإذا قضوا عليهم حلت المرونة بالخصوم . كان فن الحرب أول الأمر جديداً على المسلمين . وكانت أبرز مقومات غزورهم :

الايان والشجاعة والاقدام ، غير أنهم لم يلبثوا أن درسوا أنظمة الحرب فأنشأوا كتاباً منظماً .

كانو يرتقبون الاشتباك قبل صلاة الظهر ، ويحافظون على التوازن الحربي حتى المساء ، ليعودوا إلى المعركة بكتائب جديدة ، واتخذ خالد طريقة لإخراج الجيش إلى مكان بعيد وإعادته في الصباح فرقة وراء فرقة ليفت في عضد العدو ، وليزيد أصحابه قوة برفع روحهم المعنوية بامداد جديدة ، ولم تمثل الغنائم إلا دوراً ثانوياً في مفهوم المسلمين الحاربين ، وهى الاسلام بتأمين أسرار الحاربين ففرض عمر بن الخطاب راتباً للأرملة الجندي وذلك لأول مرة في تاريخ العالم . وفي مجمل الصورة تبدو ظاهرة انتصار العدد القليل من المسلمين على العدد الأكبر من خصومهم « قضية » عاودها بالبحث كثير من المؤرخين ومجمل القول فيها أن مقاتلة المسلمين كانوا من طراز خاص ، لقد أعطاهم الايمان بالله مع تضحية النفس في سبيل نصر الاسلام قوة على الاندفاع في الحرت دون خوف الموت ، ومع إكبار لهذا المعنى كانت نفوسهم تحمل الازدراء لحطام الدنيا ولا تفرص عليه . وحرص قادة المسلمون على تأمين القوى الحاربة ، وكانت صيحة الخلفاء والولاة : لا تقدموا بالمسلمين على مواقع شديدة الأهوال ، كما حقق الاسلام للداخلين فيه مشاركة على قدم المساواة في ماركه وغنائمة وقياداته ، فسكان أهل الوحدات الاسلامية دائماً غالبية الحاربين وإليهم ينسب النصر والظفر ، وفي مختلف توسعات الاسلام فيما وراء النهر والهند والمغرب والأندلس كان أهل البلاد من فرس وترك وبربر هم أهم القوى الحاربة ، ولم يكن الطمع في الغنائم هو الدافع الأول إلى انضمام هؤلاء كما يصور بعض المؤرخين ، وإنما كان الاسلام في مفهومه متكاملًا جامعًا بين نصر الاسلام وخير الدنيا : ألا نفوس هؤلاء الحاربين يقول فون كريمر : كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم ، فحرم الرسول عليهم قتل الرهبان والنساء والأطفال والمكوفين كما حرم عليهم تدبير المزارع وقطع الأشجار ، وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية ، فلم يفتحوا الحرمات ، ولا أفسدوا الزرع ، وبينما كان الروم يقدمونهم بالسهم المسمومة ، فإنهم لم يبادلوا أهداهم جرماً بجرم ، وكان نهب القرى واشتعال النار عادة درجت عليها الجيوش الرومانية في تغلبها وتراجعها ، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى فلم يحاولوا من هذا شيئاً . ولا شك كان الحرب المسلمين في جبهتين في وقت واحد انتصارهم فيهما — وهو مما لم يقع كثيراً في التاريخ — أثر كبير في تقدير المؤرخين والباحثين ، يقول ابن مويروز في كتابه ( الحرب على مصر المصور ) . لقد كان من القواعد العسكرية المقررة المنفق عليها

ألا يحارب قائد في جبهتين ، وإذا كان لا بد من حرب خصمين فليقدم أحدهما على الآخر ، ولكن العرب لم تأخذ بهذه القاعدة ففي الوقت الذي كانوا يحاربون الفرس ، أرسلوا جيشا إلى سورية لمحاربة الروم ، وظفر العرب في الحربين وقضوا على جيوش الدولتين ، وهذا من عجائب الدنيا .

### استراتيجية الحرب والمعارك

لا شك كان الأسلوب الذي اختطه للمسلمون في للمارك والغزوات والحروب أسلوبا إنسانيا بارعا ، فقد كان قوامه وسداه ولحمته « مفهوم الإسلام » نفسه ، في السلم والحرب ، هذا المفهوم الذي يستهدف نشر الإسلام والدعوة إليه بالاعتناق والحسنة والموعظة الحسنة ، فلا يلجأ المسلمون إلى القتال إلا لدفع العدوان أو إزالة أصحاب النفوذ الذين يحولون وون انتشار الإسلام وامتداد دعوته .

ومن هنا كانت معاركهم في الأغلب : « معارك دفاع » وهم لم يبدأوها إلا بعد أن استنفذوا كل وسائل التبليغ ومحاولات السلام ، فإذا اضطروا هزموا ، فكانوا قوة هجبية في كسب المعارك . إيماننا بالله وثقة بالعقيدة التي يعتنقونها ، وإخلاصا يفتق العقول والفلوب لأصاليب التغلب على العدو ، وما زالت معارك المسلمين وحروبهم ومواقعهم ، تدرس في الجامعات العسكرية في العالم كله ، كأرقى مثال لنظم الحرب ، البريئة من القدر والانتقام والابادة ، وقد كشفت هذه المواقف عن أهلام أبطال ، هم قادة المعارك الذين حملوا رايات الإسلام إلى الصين وإلى الأندلس ، كان للعرب : الأمة التي أنزل هايتها القرآن واختيرت لحل لواء الإسلام — المسكان الأول في هذه المراحل ، متمثلة في القوى البدوية الشابة الصامدة ، المنبثقة من قلب الجزيرة العربية ، تدفع معها كل مسلم من كل جنس ولون إلى مواقعها ومعاركها .

ومع ذلك فلم يكن لهذه القوة ولهذه المعارك والحروب صلة بانتشار الاسلام أو دعوته ، فقد كان هدفها تخليص الأقطار والبلاد من حكامها الذين وقفوا أمام الاسلام ، يردونه ويقاومونه ، أما البلاد التي قبل قاذتها وحكامها « الإسلام » فلم تقع بها حروب أو معارك ، وفي كلا الحالتين لم يفرض الاسلام نفسه « ديناً » على غير الذين ارتضوه واعتنقوه عن إقتناع ، وإنما سمح لكل الأديان والطوائف أن تباشر هيادتها في حرية ، وقد شهد بهذه الحقيقة المؤكدة كثير من المنصفين . فهذا روتش في كتابه ( تاريخ شارل كان ) يقول : إن المسلمين وحدهم هم الحس الذين جمعوا بين التسامح وغيره التبشير . فلما حملوا السلاح لنشر مذهب نبيهم أباحوا للذين لم يريدوا اعتناق هذا المذهب أن يبقوا متمسكين بدينهم .

ويقول ميشود في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » : منع ( محمد ) قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة ، ولما استولى ( عمر ) على بيت المقدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذه المدينة ( يعنى القدس ) ذبحوا للمسلمين بلا رحمة ولا هوادة . ويقول جوستاف لوبون في كتابه ( حضارة العرب ) : لم تسكن القوة عاملاً في انتشار الإسلام قطعا ، فقد ترك المغلوبون أحراراً في المحافظة على دينهم وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب دين دينهم ، فذلك لأن الفاتحين الجدد بدأوا أكثر عدلاً نحوها مما كان عليه سادتها السابقون ، ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان البساطة البالغة مما لم تعرفه الشعوب حتى ذلك الحين ، ولم يفرض القرآن بالقوة بل بالاقناع ، والإقناع وحده هو الذى كان يمكن أن يجلب إلى اعتناقه الأمم التى قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول .

وقد كان اتجاه التوسع الإسلامى واضحاً في الطريق إلى الشمال ، هذا الطريق الذى كان مصدر الخطر على فوهة الجزيرة العربية ، وكان يهدف إلى توسيع عالم الإسلام بإزالة سلطان الامبراطورية الرومانية عن الشام ، وقد بدأت أعمال التوسع في العراق والشام في وقت مبكراً ، أهلى نحو هدم من مبشكرات الاستراتيجية الإسلامية ، وكان مصدر النصر ، بعد أن أوقع الهزيمة في قلوب قادة الامبراطوريتين ، وقد رجح الخليفة أبو بكر أمر الشام فأرسل إلى خالد بن الوليد أن يترك موقعة في العراق إلى الشام : « إمض مخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من الجيامة وصحبوك في الطريق حتى تأتى الشام وتلقى أبو عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأت أمير الجماعة » فلم يلبث خالد أن استجاب فترك القيادة للمثنى بن حارثة ومعه نصف الجيش . وسار بالنصف الآخر إلى الشام ، وهنا تبرز عبقرية خالد ، ولما حية ، فقد اختار طريقاً قصيراً شاقاً ، ليصل في أقصر وقت ، ولينفادى القلاع الرومية في طريق وادى سرحان ، فسار من دومة الجندل ( الحوف ) إلى قراقر ، واقتحم بوابة سوريا في صحراء مجدبة خمسة أيام وأمامه دليلة رافع بن عير ، ولم يلبث أن وصل إلى أطراف دمشق في ثمانية عشر يوماً . وقد تحقق مفهوم الإسلام في الحرب على هذا النحو :

(١) في مختلف المواقع العسكرية الكبرى التى وقعت بين المسلمين من ناحية والروم أو الفرس من ناحية أخرى كانت القوة الإسلامية أقل بكثير من القوة للضادة . في اليرموك كان جيش الروم ١٤٠ ألفاً وجيش المسلمين في ٤٠ ألفاً . (٢) في موقعة فتح دمشق كانت براهة المسلمين تتمثل في البيظة ، وترقب الأحداث ، فقد سهر خالد يرقب تحركات العدو حتى شاهد غفلة من الحراس الذين غادروا أما كنهم لحضور فرح مولود جديد فاتهمز الفرصة ، وتسلى السور بواسطة سلام من الحبال ، ومعه القمعاق بن عمر ومنهور ابن عدى فقتلوا الحراس ، ونصبوا سلام أخرى من الحبال ، رقى بواسطة

أركانها إلى السور ، ثم المجدروا إلى الداخل ، حتى فاجأوا حراس الأبواب فقتلهم ، وفتحوا الأبواب ، وراحوا يكبرون ، وافتتح المسلمون الأبواب . (٣) عندما تولى عمر الخلافة هزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولاه أبو عبيدة ، هنا تبدو صورة من أروع صور مفهوم الإسلام في إنكار الذات ، جاء البريد بعزل خالد ومركة اليرموك هلى أشدها ، فاحتفظ أبو عبيدة بالرسالة فلم يعلمها لخالد ، تاركاً إياه هلى قيادة الجيش ، وهو جندى معه حتى هلم خالد بالأمر من غيره ، وخالد لا يضيق بالعزل ، بل يتقبله ويمضى بعد جنديا فى الجيش تحت أمرة أبو عبيدة ، فيحقق انتصارات جديدة . (٤) اشتركت النساء فى القتال وتضميد الجراح وتقديم الماء . (٥) سالت مدينة القدس صلحا بعد حصار شديد ، اشترط أهلها إن يسلموها إلى الخليفة عمر ابن الخطاب ، وقدم عمر بن الخطاب من المدينة إلى الجابية ، وذهب إلى بيت المقدس ، ولم يصطحب معه غير خادم ، ولم يأخذ معه من الزاد غير قربة ماء وجراب شعير وعمر ، فلما دعاه البطريق ليصلى رفض أن يصلى فى الكنيسة ، وخشى أن يتخذ المسلمون من صلاته حجة لاتقرا الكنيسة عن أصحابها . (٦) ظهر طاهرون عمواس فأباد عشرين ألفا من الجنود ، فأرسل الخليفة عمر إلى أبى عبيدة قائد المسلمين يستدعيه فى حيلة بارعة لينفذ من الوباء ، غير أن أبى عبيدة رفض عرض الخليفة . قال : أنك يا أمير المؤمنين تريد أن استبقى ما ليس باقيا . (٧) لم تكن القيادة العسكرية يوما وقفا على العرب وحدهم ، بل عقدت ألوية الجيوش إلى قادة من المسلمين : أحياشا وفرما وعجما وبربرا . (٨) استقبل الأهل المسلمين فى كل مكان بلا مقاومة . (٩) احترم المسلمون شروط الهدنة والصلح . (١٠) الجماعة الإسلامية الأولى التى كونها محمد فى المدينة وبكة هى التى حملت لواء نشر الاسلام وهلى يديها تحقق التوسع ، وهى التى واجهت سيوف الروم وفارس .

( ٨ )

«مرحلة الانصهار والبلورة»

( ١١٤ - ٤٨٩ هـ )

« كان لابد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة ، فقد دخلت خلال سنوات قليلة ، فى عالم الاسلام ، شعوب وهنصر وأمم وأجناس متعددة ، دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها لم يفرض عليها الاسلام دائما ترك لها حرية الاعتقاد ، وفى هذه الفترة تم عملين كبيرين (١) تبلور



الفكر الاسلامي بامتصاص الثقافات والفلسفات على قاعدته الأساسية . (٢) انصهار عناصر عالم الاسلام في المجتمع اسلامي متكامل .

تعد مرحلة الانصهار والبلورة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الاسلام . لقد بدأت هذه المرحلة في نفس اللحظات التي تمت فيها مرحلة التوسع الأولى في عهد الخليفة الثاني ( عمر ) هند ما سيطرت القيادة السياسية للاسلام في المدينة على فارس والعراق والشام ومصر ، وإذات امبراطورية الفرس وضمت على ما كان تحت نفوذ الدولة الرومانية من أرض الشام ومصر ثم أفريقيا من بعد ، في هذه اللحظات بدأت « مرحلة الانصهار والتبلور » لهذه العناصر المختلفة التي ضمها الاسلام تحت قيادته السياسية وقبل أن يجمعها تحت لوائه ككفر وعقيدة . وكانت الدولة الفارسية المنهارة هي أدق وأخطر هذه العناصر ، وأقواها أثراً ، بحسبكم أنها أ كثر حضارة ، وأكثر اعتزازاً بقوميتها ، وبحسبكم أنها كانت ترى العرب — قادة الحركة الجديدة — من قبل ، أقل من الفرس درجات في مجال الحضارة والسلطان السياسي والعسكري . ثم اتسمت مرحلة الانصهار والبلورة من بعد ، عندما توقفت حركة التوسع في أواخر حكم عثمان ، وبدأ أثرها الواضح في حركة الشد والجذب حول نظام الحكم إذ ذاك واستمرت سنوات من حكم « عثمان » وخلال حكم « علي » حتى انتهت إلى مرحلة جديدة : هي مرحلة الملك العضود بولاية معاوية لشئون القيادة السياسية .

غير أن هذا الانتقال من الخلافة إلى الملك العضود لم يكن هو النهاية ، فإن عملية الانصهار والتبلور كان لابد أن تكون طويلة المدى ، ولقد زادها النظام الجديد حركة وحيوية خلال فترة حكم الدولة الأموية ( ٤٠ — ١٣٢ هـ ) كله . لقد تكونت منذ أواخر عهد عثمان معارضة قوية تمثلت في فرق مختلفة ، لا تريد أن تلتزم في عرضها مناهج المؤرخين السابقين ، بل ترى أنها تتمثل في دهاء المثل الأعلى ودعاة العاطفة ، وفئة المؤامرة على الاسلام ، وقد تداخلت العناصر الثلاث تداخلاً هجيباً ، حتى لم يكن في قدرة الكثير من الباحثين الفصل بينها ، بل أن احدها قد حاول أن يفتن بقوة الآخر ، في سبيل تحقيق هدفه ، ثم ظهر من بعد دعاة العدل والمساواة . وقد استقطعت « المعارضة » أن تنغم بالتحول الخطير الذي شمل المجتمع الاسلامي كله ، نتيجة لمواجهة بالعناصر المختلفة ، واتجاهه إلى تغيير أسلوب الحكم ، ومكانه ، وتداخل الثقافات الفارسية واليونانية والرومانية والفرعونية ، وامتزاج القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة في هذا المجتمع الواسع المتضخم ، هنالك كانت تلك الأزمة الخطيرة التي ظهرت في ظل الخليفة الثالث ( عثمان )

وكان لها مقدماتها في حكم (عمر) كان أبو زر من دعاة العدل الاجتماعي والخوارج من دعاة المثل الأعلى، وأنصار آل البيت من دعاة العاطفة، وعبد الله بن سبأ من قادة المؤامرة، يتحركون جميعاً وربما تلاقوا وربما اتخذ قادة المؤامرة من منهج قادة العاطفة متاراً، وربما حاول دعاة العدل الاجتماعي أن يحسنوا الظن بالمؤمنين، فاضطربت الحياة السياسية اضطراباً أوقع ذلك الصراع بين أهل الأمصار والخليفة الثالث، وأوقع الخلاف بين المسلمين والخليفة الرابع، وانتهى ذلك كله على النحو الذي حقق قيام الملك العضود، وبدلاً للخلافة في دمشق بقيادة معاوية، هنالك بدأت مرحلة جديدة من هذا الصراع استمرت، خلال حكم الدولة الأموية. كانت الدولة الأموية بقيادة معاوية هي الحل الذي ارتضاه الواقعيون لضمان «وحدة المسلمين» واستمرار سلامة المجتمع الإسلامي، فقد نقلت النظام السياسي من الخلافة إلى الملك، ومن قلب الصحراء إلى قلب المدينة، ولكن هل حققت مطالب دعاة المثل الأعلى، ومطالب العدل، ودعاة العاطفة، لقد ظل هؤلاء جميعاً في صف خصوصها في صف المعارضة، واستمرت فئة المعارضة على الإسلام من زحزح الإسلام نفوذهم الشخصي، وسلطانهم السياسي، لقد استمرت هذه الفئة المتوترة حرباً عليه، غير أن غالبية المسلمين كانوا قد والوا النظام السياسي القائم في دمشق واعتصموا به، هؤلاء هم (دعاة الواقع) الذين كانت لهم حججهم في قبول هذا النظام ودعمه حرصاً على بقاء الإسلام نفسه ودفعاً له إلى الأمام. غير أن المعارضة كانت تأخذ على حكم الأمويين، فالاته في تأكيد السيادة العربية الخالصة وتميزها عن المسلمين من غير العرب مما خلق مشكلة طلاب العدل (الموالي)، وما استتبع استمرار هذا النظام من محاولات متوالية لانتفاض دعاة العاطفة (الشيعة) الذين آمنوا بحق آل البيت في تولي الحكم وينتشل أبرز خصوم الأمويين من دعاة المثل الأعلى (الخوارج) الذين كانوا يرون أن من حق المسلمين اختيار حاكمهم، وقد استغفلت «المؤامرة على الإسلام» كل هذه الفرق الساخطة، وكل قوى المعارضة، غير أن الدولة الأموية بوصفها القيادة السياسية للإسلام قد حققت للإسلام كثيراً إذ وسعت نطاق عالم الإسلام وأضافت إليه وعمقت آفاق الحضارة فيه. وإن كانت الدولة الأموية لم تلبث أن سارعت دعاة العاطفة، وبلغ ذلك قننه بمقتل «الحسين»، هنالك تجمعت مختلف القوى على النظام الأموي، فاستطاعت أن تسقطه.

والحق أن سقوط النظام الأموي كان تطوراً طبيعياً للمجتمع الإسلامي فقد حقق كسر القيود التي كانت تحول دون اشتراك العناصر المختلفة في المجتمع الإسلامي على قدم المساواة بلا تفرقة وفق مفهوم الإسلام ودون سيطرة العرب على سائر المسلمين أو استغلالهم، وإذا كان النظام

العباسي قد كسر هذا القيد ، وأرضى دهاة المساواة فإنه لم يحقق آمال دهاة المثل الأعلى ( البخوارج ) ولا طلاب العدل الاجتماعي ولا طلاب العاطفة وفي هذه الفترة كانت هذه الفرق المتعارضة تتصارع حول سلطان الدولة ، فقد واصل دهاة المثل الأعلى حريهم وكذلك واصل طلاب العدل الاجتماعي دهوتهم كما واصل دهاة العاطفة حملتهم ، وأفسحت هوامل الصراع الطريق لدعاة المؤامرة على الإسلام والشعوبيين جميعاً . في هذه المرحلة ظهرت حركات حملت لواء العدل الاجتماعي كالزنج والقرامطة ، وحركات حملت لواء العاطفة حاولت أن تقتصر لآل البيت الذين خاصهم العباسيون بالحكم بنى عمومهم بأقصى مما خاصهم بالأمويون ، وفي هذه المرحلة نهض الفكر الإسلامي وتمدد ووسع آفاقه في مواجهة « المؤامرة على الإسلام » ، وظهر دعاء للدفاع عنه تحت أسماء كثيرة ، تحت أسماء المعتزلة ، والأشعرية والفقهاء ، والمحدثين ، وأهل السنة . وفي هذه المراحل مضت حركات ثلاث في خط واحد ، هي :

[ (١) نمو الحضارة (٢) انصهار المجتمع (٣) بلورة الفكر ] . وقطعت في ذلك الطريق خطوات واسعة ، في عالم الإسلام كله ، في المشرق والمغرب والأندلس ، وساعد على ذلك ودفعه — إلى الأمام دفعات قوية — بروز السلطات الاستقلالية في كل قطر ووطن ، وظهور القوى القومية الخالصة في مواطنها يحمل لواء الحكم فيها « ببناء الدول » التي كانوا في الأغلب قادة مبرزون يجمعون — في الأغلب — بين الفقه والحكم ، فتربوا العلماء وشجعوا الشراء ووطدوا الحضارة وأقاموا العمارة وفي خلال ذلك اتسع نطاق التجارة وبلغ الثراء مبلغه بعالم الإسلام وامتد بين الأندلس والصين في طريق مهد أمين يستطيع أن يتحرك فيه المسافر دون أن يصده شيء . وقد استطاع المجتمع الإسلامي أن يترابط وينبسط وتنصهر فيه كل القوى وأن تجمعه روابط مفهوم الإسلام وتعمل على روابط الجنس والدم والقوميات الإقليمية ، غير أن هذا الانقسام السياسي تحت خلافت ثلاث ، وفي ظل دول استقلالية ، وغلبة عناصر الخلاف بين هذه القيادات السياسية الرئيسية ، ثم خلبه الترف ، وضعف القوى العسكرية ، وتراخيها كل ، وهذا أغرى القوى للتراسة خارج عالم الإسلام به ، فأخذت تنأهب للانقضاض عليه وغزوه . هذا الفوز الذي بدأ أول أمره هينا في جبهتين : جبهة الحدود البيزنطية وجبهة حدود الأندلس ، في محاولة الغرب الصاعدة لرد قوة الإسلام عن أوروبا والأدلة منها وتحرير شبه جزيرة أيبيريا من الإسلام أيضاً ، وحصر الإسلام في أفريقيا وآسيا ، تلك كانت خطة الغرب قامت عليها الدولة الرومانية الشرقية في شرق أوروبا ودولة الفرنجة في غرب أوروبا ، فقد ظلمنا تترقبان فرص الضعف للانقضاض على حدود عالم الإسلام من ناحيتيه ، حتى أتيسح

لها من بعد أن يصل إلى هدفها بالحروب الصليبية التي هزت عالم للشرق ، بينما كانت الحروب الصليبية في المغرب والأندلس لا تتوقف . والحق ، أن مرحلة الانصهار والبلورة قد استطاعت — بعد توقف حركة التوسع وحق أوائل الغزو الخارجي . أن تصل إلى مداها في ( ١١٤ — ١١٨٩ ) في مجالات نمو الحضارة وانصهار المجتمع وبلورة الفكر ، بالرغم مما واجه هذه الحركات من صراع المعارضة والفرق المختلفة ، ما كان فيها داهياً إلى تحرير السلطة والضيافة العليا من هوامل النقص والاضطراب ، وما كان منها متآمراً على الاسلام نفسه ، راجعاً في القضاء على دولته أو تشويه مقومات فكره . هذه نظرية بجملة لهذه المرحلة تفصلها فيما بعد : كان لابد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة منذ بدأت حركات التوسع الاسلامي وخلقها وبمدها .

فقد دخلت في سنوات قليلة ، في عالم الاسلام ، شعوب وهناس وأجناس ، متعددة . دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها ، لم يفرض عليها الاسلام وإنما ترك لها حرية الاعتقاد ، في نفس الوقت الذي بدأ فيه دعاة الاسلام يعرفون به . هنالك بدأت حركة ذات موجات عدة : (١) تحول من هذه الأديان القديمة إلى الاسلام . (٢) مقاومة ممن سقط نفوذهم السياسي أو الاجتماعي من الفرس وغيرهم . (٣) تأمر من اليهود الذين انتزع سلطانهم ونفوذهم ومن سدة الأديان المختلفة الذين أحسوا بخطار الاسلام على نفوذ معابدهم ونفوذهم الشخصي . ومن هنا كان لابد أن تتواتر الدهوات والحركات وتصارع وتتنازع في عنف . وقد استغلت هذه الحركات خلافات المسلمين حول الحكم ، واتخذ بعضها من جانب ( آل البيت ) ستاراً لهم ليث دعوتهن وإبراز شعار براق خادع هو موالاة آل على وأولاده وإدعاء التشيع .

( ٩ )

## ( حركة البلورة )

تتمثل في هذه المرحلة عدة ظواهر : قوامها . ( ١ ) محاولة « التبلور » في فكر إسلامي عربي موحد . ( ٢ ) محاولة الانصهار في مجتمع إسلامي متكامل .

وأبرز معالم هذه الفترة الالتقاء بين العرب والفرس والبربر والترك بوصفها العناصر التي جمعها الإسلام وحدة فكرية وعالم الإسلام جغرافيا في وحدة سياسية ، وقد برزت في هذه الفترة أربع ظواهر : ( الأول ) قيام عدد منوع من الدول المستقلة في مختلف أقطار « عالم الإسلام » عبدالرحمن الداخل والدولة الأموية في الأندلس ( ١٣٩ ) الأغالبة في تونس : إبراهيم ابن الاغلب ( ١٤٢ ) ادريس ابن عبد الله : الادراسة في مراکش ( ١٧٣ ) طاهر ابن الحسين في خراسان ( ٢٠٤ ) أحمد بن طولون في مصر ( ٢٥٥ ) يعقوب بن الليث في فارس ( ٢٥٨ ) الدولة الفاطمية : عبد الله بن المهدي ( ٢٩٨ ) سيف الدول في حلب ( ٢٣٣ ) السلاجقة ( ٣٤٥ ) البويهيون ( ٣٣٤ ) بنو هباد ( أشبيلية ) ( ٤١٤ ) طغرل بك في خراسان ( ٤٢٩ ) دول المرابطين ٤٥٤ ( مراکش ) .

ولقد تمثلت في هذه الدول حركات نشاط سياسي واجتماعي ، لا حد لها في تحريك الأمم وبناء الحضارة ، فاستطاعت أن تجدد شباب عالم الإسلام ، وقد قامت هذه الدول في مواجهة تحديات الحضار والسياسة .

( الثاني ) حركة التدوين والتفنين والترجمة والتأليف ، وهي حركة مترابطة ، وقد كانت هذه الحركة في مجموعها تمثل : الدفاع عن الاسلام ، ومقاومة خصومه ، ومواجهة تحديات الأديان والعقائد وللذاهب القديمة ، والوفاء من ثقافات الفرس والروم والهند والفراهنه والاغريق والرومان . وقد كان موقف الاسلام من هذه الثقافات متمثلا في أصالته وسماعته وانفتاحه على الحضارات والثقافات ، فقد استعنى الفكر الاسلامي هضارات من هذه الثقافات ، وفق مفهومه وعلى قاعدته وداخل إطاره القائم على مفهوم التوحيد والنبوة وسيادة الانسان على السكون تحت حكم الله ، ورد ما سوى ذلك عارضة ونقده .

( الثالث ) : مقاومة حركات الانقضا من الداخل : وأبرز الحركات : حركة البرابكة ( ١٨٨ ) حركة بابك ( ٢٢٣ ) حركة القرامطة ( ٢٢٧ ) .

(الرابع) : مقاومة حركات الانقراض من الخارج . وأبرزها مقاومة المسلمين للبيزنطيين (٣٣٣) وسقوط طليطلة في الأندلس كاول محاولة للقرنجة للقضاء على الاسلام (٤٧٧) والحلة الصليبية الأولى على بيت المقدس (٤٨٩) .

[ كبريات الأحداث في مرحلة الانصهار والبلورة من ١١٤ — ٤٨٩ هـ ] : في أواخر القرن الأول الهجري (٨٩٣) بلغ التوسع الإسلامي غاية مداه في أرض السند شرقاً والأندلس غرباً ، هنالك كان قد آن الوقت لمرحلة جديدة في تاريخ الإسلام : يمكن أن يطلق عليها مرحلة « الانصهار والبلورة » أو مرحلة بناء الفكر والحضارة . هذه المرحلة تستمر من خلال السنوات الثلاثين الأخيرة تقريباً للدولة الأموية التي كانت تمثل سلطان الدولة الإسلامية الموحدة ، ومن خلال الدولة العباسية التي لم تلبث أن شاركتها دول كثيرة في حكم (عالم الإسلام) . ولعل هذا هو أكبر تطور في تاريخ الإسلام السياسي ، وهو تطور طبيعي ، بعد مرحلتى المدينة والكوفة ، ومرحلة دمشق ، فقد انتهى « طابع » من ولاية أمور المسلمين تمثل في (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) وبدأ نظام جديد في دمشق امتد (٤٠ — ١٣٣ هـ) أكثر من تسعين عاماً ، كان له طابعه الواضح ، طابع الملك العضود ، بوراثة السلطة وهبوط ولادة المهدود ، وقد تمثل في هذه المرحلة طابع الحكم العربي الخالص ، وفي خلالها توسع عالم الإسلام إلى أقصى مداه الذي بلغه ووقف عنده ، حدود الصين مشرقاً ، والأندلس من شرق أوروبا ، ولما كان هذا الحكم هربياً خالصاً ، فقد استهدف الكثير من النقد والتآمر ، وكان من الطبيعي أن يتطور من ناحيتين : « الأولى » أن تشارك فيه كل الأجناس وأبناء الأوطان التي انضوت تحت راية الإسلام كالفرس والترك والمصريين والبربر « الثاني » وأن يضعف نفوذ السلطة الجامعة في (بغداد) ويبرز من كل قطر قادة يستقلون بالأمر ، ويبايعون الخلافة بالولاء أو ينفصلون عنها ، وقد أعطت هذه المرحلة تطبيق هذين الأمرين كأوسع ما يكون التطبيق ، وأضاف ذلك لعالم الإسلام مزيداً من التقدم الحصارى ، وأن أصابه بكثير من التمزق والضعف . غير أن الذي يلفت النظر حقاً ، هو ذلك التنفجر الحى للطاقات الخلافة في كل أجزاء عالم الإسلام بحيث لم تتوقف موجات النهضة ، أو التجدد ، وقد أبرزت هذه المرحلة وما تلاها من مراحل ، عديداً من بناء الدول للنوايع الذين جمعوا بين الثقافة الإسلامية والقوة الحريسية ، أو بين القدرة على الحكم ، والبراعة السياسية واستطاعت كل القوى التي ترى أنها خليفة بأن تسود سياسياً والتي تحمل فلسفة ما أو مذهباً ما من مذاهب السياسة أو الاجتماع أن تبرز انتصاراً ، بأن تلى الحكم في منطقة ما ، كالفرس ، والترك ، والمصريون ، والتونسيون ، والمغاربة ، والبربر ، والفاطميون ، والشيعة ، والمعتزلة جميعاً استطاعوا

أن ينفذوا إلى مجال الحكم والسياسة . ولم تعد سلطة الولاية العامة قاصرة على العرب وحدهم ،  
 ما عدا الخلافة التي ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد ٨٦٥٦ وكانت الصورة هي هذا النحو :

### كبرى الأحداث ( ١١٤ — ٨٤٨٩ )

- ٨٣٨٨ محمود الغزنوي ( السند ) ٩٩٨م — ٨٤١٤ بنو عباد ( اشبيلية ) : ١٠٢٣م  
 ٤٢٩ طغرل بك ( خراسان ) : ١٠٣٧ — ٤٥٤ دولة الرابطين ( مراکش ) : ١٠٦٢  
 ٤٥٦ نظام الملك : ١٠٦٣ — ٤٧٨ سقوط طليطلة : ١٠٨٥  
 ٤٥٤ دولة المرابطين ( مراکش ) : ١٠٦٢ — ٤٦٤ معركة ملاز كرد : ١٠٧١  
 ٤٧٩ يوسف بن تاشفين يهزم الفرنجة في الزلاقة : ١٠٨٦  
 ٤٨٩ الحملة الصليبية الأولى : ١٠٩٦ — ١١١٤ بلاط الشهداء : ٧٤١م  
 ١٢٣ الدولة العباسية : ٧٥٠م —  
 ١٢٩ هبة الرحمن الداخل : الدولة الأموية في الأندلس : ٧٥٥م  
 ١٤٢ الأغلبة في تونس ( ابراهيم هبة الأغلب ) — ١٧٠ هارون الرشيد ( بغداد )  
 ١٧٣ ادريس بن عبد الله ( مراکش ) — ١٩٨ المأمون : ٨١٣  
 ٢٠٤ طاهر بن الحسين ( خراسان ) ٨١٩ — ٨٢٣٣ المنوكل والسنة : ٧٤٧  
 ٢٥٥ أحمد بن طولون ( مصر ) : ٨٦٨ — ٢٥٨ يعقوب بن الليث ( فارس ) : ٨٧١  
 ٢٩٨ الدولة الفاطمية ( هبة الله بن المهدي ) : ٩١٠  
 ٣٠٠ عبد الرحمن الناصر ( الأندلس ) : ٩١٢  
 ٣٢٣ سيف الدولة وجروية ضد البويهيين : ٩٤٤  
 ٨٣٤٥ السلاجقة : ٩٥٦ — ٨٣٣٤ البويهيون في بغداد : ٩٤٥م

\* \* \*

وقد جمعت هذه المرحلة بين ظاهرتين مترابطتين : حركات بناء الدول ، وقيام الحكمات  
 المستقلة في كل أجزاء عالم الإسلام ، وظهور قادة الفكر في مختلف جوانب السياسة والاجتماع والثقافة  
 والعلوم . ولقد كانت دهوات المفكرين أحيانا بمثابة رد على تحديات السياسة ، أو تجديدا لجوانب  
 أصابها الجود ، أو تصحيحا لقضايا اضطرت مقاهيمها أو تجاوزت مع مفهوم الاسلام .

ومما يلفت النظر أن هذه الدول التي قامت ، خلال تلك الفترة ، لم تستطع البقاء والصمود فترات طويلة ، فكانت تقوم برجل أو رجلين أو ثلاثة لتموى ، لتقوم مكانها دولة أخرى برجال آخرين ، ولكن الظاهرة الواضحة أن « بناء الدول » كانوا قادرين دائماً في عهد إزدهار دولهم على البناء والنهضة ، والعمل ، وكانوا حقيقين بالعلماء والأدباء والفقهاء ، وكان طابع الاسلام وإطاره واضحاً متمثلاً .

لم يكن هذه المرحلة هي مرحلة تراخ وترف نخسب ، إذ انتهى المسلمون من أعمال الفتح والتوسع ومن هنا بدأ عهد السكلام . والصراع الفكري كما يقول بعض كتاب الغرب ، ولكن الحقيقة أن الاسلام الذي توسع في الآفاق على هذا النحو في مرحلة ( الإبعاد ) كان لا بد أن يمر بمرحلة تالية في طريق نموه هي مرحلة ( الأعماق ) ، وهي مرحلة طبيعية لا شك فيها ، فقد للنقي الاسلام الذي أقام « دولة » بتراث ضخمة وقضايا ومعضلات في مجال الفكر والقانون والاجتماع كان عليه أن يواجهها وفق مفهومه ، ومن هنا بدأت تظهر أبرز معالمه ومقوماته وهي الاصالاة للتجدة القادرة على إيجاد حلول لقضايا جديدة ليس لها سابقة في القرآن والحديث والانفتاح بالقدرة على تقبل النقائات والحضارات وإمتصاص التراث المتلى السابق على وجوده وتمثله وإذا به في كيانه كقوة جديدة دافعة إلى الحياة ، وقد واجهته في هذين المجالين أعظم تجربة ، فقد استطاع قادة الفكر أن يجددوا ويمتصوا في تجربة ضخمة من تراث اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعنة على نحو من القدرة والعمق والحرية ، فأخذوا مازادهم قوة ورفضوا مالا حاجة لهم به أو ما يختلف مع جوهر فكرهم : ثم صاغوا هذا التراث مرة أخرى صياغة جديدة في إطار قيم « الاسلام ومقوماته » ، واتخذوا منه سلاحاً ماصياً في مقاومة خصوم الاسلام .

( ١٠ )

### أزمة الحضارة

إن مقتل عمر بن الخطاب الخليفة العادل بمنجر أبي لؤلؤة ، كان علامة على ذلك التحول الخطير والأزمة العميقة التي انفجرت بعد أكثر من عشرة أعوام من حكم عثمان . هذا الموقف الذي اتصل بعثمان وأدى إلى مقتله ، واتصل بعلى وأدى إلى مقتله ، وأقام هذه المرحلة الدقيقة المعجبية منذ أواخر حكم عثمان وطوال حكم على ، إلى أن ولي معاوية سلطة الحكم الاسلامي العامة ، لا شك أن هذه الأزمة بالغة الدقة فهي ذات أطراف عديدة ، أطرافها بين عثمان وأهل الأمصار ، وبين عثمان وأهله ، وبين على والصحابية وبين على وأنصاره ، وبين على ومعاوية .



وهي تشلخص في ثورة أهل الأمصار على عثمان ثم قتله ثم ولاية هلى وخلافه مع الصحابة والاصطدام بهم ثم خلافه مع الذين خرجوا عليه ، ثم موقفه مع معاوية ، وانحسار الموقف بخروج ثلاثة ائمة على معاوية وعمره ، وقتل على ونجاة معاوية وعمره . وقد حدثت هذه الأزمة كلها في خلال خمس سنوات أو تزيد قليلا ، ولكن مقتل عمر بن الخطاب بمنجبر أبى لؤاؤة قبل ذلك بخمسة عشر عاما ، يكاد يكون علامة على الموقف الجديد الخطير الذي بدأت تواجهه سلطة الحكم الاسلامى العامة في المدينة بعد اتساع نطاق الدولة الاسلامية وإسقاطها امبراطوريتى فارس والروم ، فقد اتسع عالم الاسلام بدخول عناصر جديدة مختلفة إليه ، كانت ذات حضارات وأديان ، وقد تجرد كثير من قادتها من النفوذ والسلطان ، وفي مقدمة ذلك الجوس واليهود الذين عقدوا العزم على التناحر بالاسلام ومحاولة القضاء عليه . وقد أدى التحقيق في مقتل عمر بن الخطاب بمنجبر أبى لؤاؤة الجوسى الفارسى إلى أنه جاء نتيجة خطة دبرها ( الهرمزان ) الذى كان يقيم في المدينة بعد أن سقط نفوذه في فارس ، فتجمع ومن تأمر معه على الانتقام في شخص عمر بن الخطاب الذى ساند التوسع الاسلامى ودعمه واستطاعت الدولة الاسلامية في ظل حكمه أن تقوم .

ويعطينا حادث مقتل عمر بن الخطاب على ما عرف به من رفعة العدل ، علامة على ذلك التحول الذى بدأ يفرض أوضاعا جديدة هي أوضاع الحضارة ، وصراع الثقافات والمذنبات ، وتلاقى الأديان والمذاهب ، ومحاولات خصوم الاسلام كدين ، وخصومه كدولة ، في العمل عن طريق الدس والتناحر بعد أن سقطت أسلحة الحرب والقتال .

وقد امتد هذا التحول في عهد هيمان ووجد طريقا أشد فسحة واندفاعا ، إزاء خليفة ليس له سلطة عمر ولا قوته الشابة ، فقد كان عمر قويا على نفسه وعلى أهله ، هادلا شديد العدل ، يقظا متنبها إلى تطورات الأمور ، حتى لا تبغته ، وقد هاش عمر أيام التوسع وهاش عثمان وأواخرها ، إذ امتد التوسع في هذه وبلغ غايته في المغرب والمشرق ، غير أن السنوات الطويلة في خلافت الرجل الثلاثة التى مضت ( وهى أكثر من ربع قرن ) قد أحدثت تطورا في الفكر والحياة وأضافت مضاعفات جديدة ، وفتحت أبواب قضايا متعددة من السياسة والفكر والمجتمع نفسه وقل للتوازن بين مقر الحكم في الجزيرة العربية وبين حواضر الدولة الواسعة التى انصرف إليها الصحابة فأقاموا بها وملكوا وبدأت عملية تملوة ضخمة تريد أن تذيب المجتمع الاسلامى كله في بوتقة واحدة . هذا المجتمع الذى بدأ في الجزيرة والصحراء صغيرا ، ثم اتسع نطاقه وشمل العرب والروم والفرس والترك والبربر والفراخنة والهنود . كانت فترة حكم عثمان هي أدق مراحل للنمو والتحول من مجتمع بسيط صحراوي

إلى مجتمع دقيق مركب ، وكان هذا التطور قويا عاصفا من العسير مقاومته أو الوقوف في وجهه أو ضبطه على النحو الذي كان يضبط به حكم الجماعة الإسلامية في المدينة ولما يتجاوز الاسلام الجزيرة العربية . ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذي لاحد له ، وكانت تلك الواقف المفاجئة المتوالية التي عجز القادة عن مواجهتها وإيجاد حلول سريعة لها مما دفعها إلى التفتاقم والتضخم .

فاذا أضفنا إلى ذلك ، أن هذا التطور لم يكن طبيعيا يجري في تيار واضح محدد ، إلى غاية للرسمية ، وأن هناك قوى معينة كانت تفرض عليه إتجاهها معينة ، وأن هذه القوى من الجوس واليهود قد سمت مخططا دقيقا لتزيق جبهة الإسلام وإيجاد صدام ضخم ، وأن هذا المخطط قد حمل لوائه « عبد الله بن سبأ » وسار به سيرا دقيقا ، واستغل كل الأحداث ، واختلق مواقف بارعة ماكرة رمى بها إلى ضرب الوحدة الإسلامية وتزيق الجماعة الإسلامية ، إذا ذكرنا هذا كله عرفنا أى إلى حد كانت هذه الأزمة الداخلية الكبرى ، لقد كان عمر عيسك الصحابة في المدينة ولا يسمح لهم بمبارحتها إلى الأمصار ، حتى ضاقوا بذلك أشد الضيق وتمنوا نهايته ، فإذا سمح لهم عثمان من بعده ، تحول موضع الثقل الذي كانت تمثل « للمدينة » بصفوة أهل الرأي فيها ، كما ظهر جيل جديد غير جيل النبوة ، الذي أخذ ينقرض ، ومن هنا بدأ التحول واسعا في نظام الحكم وهناصر المجتمع ، واستتبع مواجهة شاملة بما يتلائم مع التغيير الشامل والعناصر الجديدة وإفساح نطاق البحث وإشترك الأجناس المختلفة في الحكم والسياسة ومختلف شؤون الاجتماع والاقتصاد بما يؤتم مرحلة التحول والتطور والانتقال بما يبرز فيها من مشكلات وقضايا ومعضلات .

ومن هنا كان لا بد للتيار الجديد أن يمضى في الطريق الذي رسمه له للتآمر على الاسلام ، ما لم يكن هناك ما يحول دون رده ، أو تعديله ، ومن هنا وقعت تلك الأحداث للتوالية للتصلة التي لم تتوقف إلا بأمرين خطيرين ، هما إمتداد التحول ونتيجة له : (١) نقل مقر السلطة الحاكمة الرئيسية من الجزيرة العربية إلى ( دمشق ) حيث الحضارة والمدنية (٢) تحول الخلافة إلى الملك المعزود بمراسيمه ومناهجه وأساليبه ممثلة في ( معاوية ) الذي نهج نهجا عصريا حديثا يتمثل فيه أمالوب الحاكم الناجح القادر على تركيز سلطته في وجه أنصاره وخصومه على السواء . ولكن هذا للنهج الذي كان يرسم نظاما ناجحا للحكم متخلضا من قيود كثيرة والذي نهج نجاحا مؤقتا ، لم يكن هو الأمالوب الذي يتمثل مفهوم الاسلام كاملا وأن تحرك في إطاره ، فلم تلبث بعد ذلك أن ظهرت بمعضلة المعضلات في تاريخ الاملا م كله .

تلك هي قضية « العرب وغير العرب من المسلمين » مما يطلقون عليها قضية الموالي أو قضية الصراع بين الفرس ( الموالي ) والعرب . وما أثير حول ذلك من نتائج لسياسة الأيوبيين في مواجهة « بني هاشم » وأهل البيت والعرب من غير قريش وغير العرب من الأجناس الأخرى ، وما بلغ من التفرقة بين العرب وغير العرب . مما كان عاملا في تمزق الوحدة الإسلامية .

ويمكن إطلاق اسم معركة الحضارة على الموقف الذي نبت منذ تولى عثمان الحكم ، ثم تولاه « هلى » حتى معاوية . وأن أى محاولة لتصوير عثمان بارتفاع السن أو موالاته بنى أمية ، أو بالتأمس مؤامرة عبد الله بن سبأ ، إنما هي عوامل إضافية للخطر الأكبر : خطر التحول من البداوة إلى الحضارة ، أن الأمر كله كان أوسع من ذلك ، وبمنظرة فوقية واسعة يمكن أن ترى المجتمع الإسلامى وقد اتسمت آفاته فبلغ مدى بعيدا ، ودخلته عناصر متعددة ، من اسم وديانات وأجناس وشعوب ، وترى كيف يحاول المجتمع أن ينصهر فى بوتقة واحدة ، بوتقة إطارها الإسلام ، وقواها حكمه ودولة ونظام جديد ، مغاير تمام المغايرة للنظام القديمة والسلطات الحكم الفارسية والرومانية ، وبمفاهيم جديدة ، حيث تتجمع القوى القديمة الفاقدة لسلطانها فى مؤامرات للانتفاض ، وفى محاولة للقضاء على القوى الجديدة ، وفيما تذهب « ايدولوجيا الاسلام » فى توطيد دعائمها ، والدولة الإسلامية فى بناء قواعدها ، والمجتمع الجديد فى محاولة الاستزاج والتداخل ، كان هذا الصراع لا بد أن يصفو على السطح فى صورة هزة ضخمة طويلة المدى ، ترى أن تحقق تغييرا شاملا قوامه : (١) الانتقال من الخلافة إلى الملك : (٢) الانتقال من الصحراء الى المدينة : (٣) بناء نظام سياسى واجتماعى جديد ، إطاره مفهوم الإسلام ، وتمثل فى كيانه مفاهيم جديدة من حضارات الروم والفرس والقراهنة والبربر ، تحاول أن تنصهر كلها فى حضارة جديدة « عربية إسلامية » ووفق لغة جديده هي « اللغة العربية » وفى نطاق دولة مدنية ، فسكانا التاريخ كان يجرى ويتحرك بقوة إلى دولة أوروبية عاصمتها فى دمشق كمرحلة أولى لبناء يستمر (من عام ٤٠ إلى عام ١٣٢) أكثر من تسعين عاما . كان عهد أبى بكر وعمر هو عهد بناء الدولة الكبرى ، وفتح الطريق أمام الاسلام فى إنطلاقته الجيارة ، وقد تحقق فى ظل «حكم عمر» أكبر قدر من هذا النمو والتوسع الجرى القوى . وفى ظل حكم عثمان تم ترميم فى طرف الجناحين ( الهند ) و ( المغرب ) .

## (عصر عثمان)

إنتهى عصر عمر بعد « عشر سنوات » من حكم عادل دقيق يمثل ذلك العصر العجيب ، وتلك المرحلة الدقيقة في تاريخ الإسلام كله ، المرحلة التي تم فيها قيام « دولة الإسلام الكبرى » على أنقاض الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية في فارس والعراق والشام ومصر . وبدأ ذلك التطور الخطير في بناء الأمة الإسلامية : إجتماعيا وسياسيا واقتصاديا . وجاء عصر عثمان خلال خمسة عشر عاما مختلفا كل الاختلاف مع عصر عمر وشخصيته ، فهو امتداد له ، ولكنه امتداد مغاير بحكم الزمن نفسه وبحكم شخصية الخليفة وتصرفاته ، زادت رقة عالم الإسلام خلالها وامتدت ، وبدأت هوامل للتفكير والتغيير بصورة أوضح ، فقد التفت عناصر المجتمع الجديد ، في أقطار متعددة ، تحت سلطات دولة « المدينة » في قلب الصحراء على بساطتها وحيث خرج الصحابة إلى الأمصار فأقاموا فيها ، وحيث ازداد الثراء وتدفق المال ، وبدأت معضلات جديدة تبعا لذلك التطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري . ولم تكن آثار التغيير بسيطة ، بل كانت متعددة ومعقدة ، وكانت في حاجة إلى مواجهة تقدير شامل للموقف ، كان التطور أكبر من طاقة القيادة السياسية في المدينة ، وفي هذه المرحلة برزت ظاهرتين خطيرتين (١) ظاهرة سمحة كريمة ، تمثل فيها أول صوت لدعاة العدل الاجتماعي ، تتمثل في « أبي ذر » ، (٢) وفي نفس الوقت ظهرت دعوة معارضة عنيفة مأكرة ، هي دعوة « عبد الله بن سبأ » تنسكأ على انتم آل البيت في الحكم والخلافة ؛ وكان دهاء ابن سبأ عميقا ، فقد حاول أن يفيد من دعوة أبي ذر ، فإذا لاحظنا أن خطرين كانا يحيطان بالموقف كله ، هما خطر اليهود وخطر أصحاب السلطان المنتزع من الفرس ، عرفنا إلى أي مدى أمكن للموقف أن يضطرب ؛ وكيف أمكن لهذه القوى التي تريد أن تدبيل من الإسلام نفسه ، أن تتحرك وأن تفيد من هذه الخصومة العنيفة التي تمثلت من قبل في مقتل عمر ، حين أخذت المؤامرة طريقها هادفة إلى مصارعة القيادة السياسية الحاكمة في المدينة ، في ضوء هذا كله يمكن النظر إلى حركة عبد الله بن سبأ ، فما قصد خصوم الإسلام ومن تابعهم من دعاة الشعبية والتفريب إلى التقليل من شأن ابن سبأ ودوره بل وإنكار وجوده ، فإن الاجماع منمقد على أن حركة للتأمر على الإسلام ممثلة في أصحاب النفوذ من الفرس أو المتأمرين مع اليهود ، قد وجدت فرصتها في ظل حركة التحول الفكري والنوع الحضاري التي برزت في عهد عثمان بعد توسع آفاق الجماعة الإسلامية وانبساط نفوذها . ولا شك كان لليهود والجوس : أشد خصوم الإسلام حملة عليه . فقد أطفأ الإسلام نار الحوسية بعد أنى هام وإلى الأبد ، ودخلت فارس في عالم الإسلام وقام للمسجد الأقصى على انقاض الهيكل ، فكانت الحملة على

أبي بكر وعمر، وهنّان وأبو عبيدة وخالده وسعد، ولما كان خصوم الاسلام هؤلاء لا يستطيعون أن يحاربوا في جبهة مكشوفة، فلا بد من أن يدّعو اعتناقهم الاسلام وأن يوزعوا أنفسهم بين صفوف المسلمين يشيرون الشبهات والأحقاد، وكان شعارهم الذي وجدوه وسيلة مغزية لاقتحام قلوب المسلمين هو «آل البيت». وكان عبد الله بن سبأ على رأس هذه المؤامرة «يهوديا» إدعى الاسلام ووالى عليا، ونقل إلى الاسلام مفاهيم اليهودية والجوسية حين قال بتأليه علي، وقد أنكره «علي» ونفاه وأبعد، ولسكنه مضى يث دعوته في تدرج ودهاء واستجاب له بعض الناس، وتكونت له حركة ودهاء، وفهم أهوانه أغراضه فساروا في الأقطار يحملون مفاهيمه، وقد أتاح له فرصة الخلاف إعداد نفر من الدعاة، انبوا في الفسطاط والسكوفه والبصرة، عملوا على التأثير في أبناء الزعماء وقادة القبائل. فاستجاب لهم الضملاء والسكرهون. من هذه النقطة بدأ ذلك الخط الذي اتسع من بعد وحل لواء المؤامرة على الاسلام واستغل مختلف الأحداث، وكان مؤثرا في المواقف المختلفة، وكان لهذه الحركة أثرها في موقف الثورة على هنّان، وفي تأليب الناس عليه، وفي تزوير قصة الخطاب التي أبلغ الخلاف بين وفود الأمصار وهنّان غايتها، هذا الخطاب التي كتبه باسم هنّان وأعطاه لأحد رجاله، ثم رصده من صدره منه، فأجج الموقف به اندلعت نار الثورة وقد ثبت أن الخطابات التي نسبت إلى هنّان واستند إليها خصومه في أمر قتله كانت مزورة. دعا ابن سبأ إلى الطعن في تصرفات الحكام فالتفت حوله العامة، وقد استطاع أن يعمل في البصرة وفي السكوفه وفي الشام وفي مصر، وكانت كلته هي الطعن في هنّان وولائه، والدعوة لخلافة علي بوصفة وصي الرسول. ولقد استطاع ابن سبأ أن ينفذ إلى الشيخ الزاهد (أبي ذر) وأن يستغل دعوته البريئة، وينشر آراءه في مجالسه ويفريه بالحكومة ويجرضه على الأغنياء، وكان يعمل في كل مصر وقطر: «هذا على وصي الله فانهضوا في هذا الأمر وحركوه وابدأوا بالطعن على أمراءكم»، وقد وجد في مصر مرتعا خصيبا. وكان ابن سبأ من يهود اليمن، ادعى الاسلام وقرأ كثيرا من التوراه وخطب تعالىمها بالقرآن، وأدخل إلى مذهبه مفاهيم الفرس القديمة المتمثلة في خطط الجوسية، فلما اشتد ساعد دعائه في هذه الأقطار ونما ذلك التيار بالخصومة على هنّان، وجه الثوار إلى المدينة من كل قطر وذهب هو من خلفهم يدير لهم الخطط ومن ثم استطاعت حركة ابن سبأ أن تزعزع السلطة السياسية الاسلامية. ولاشك أن كان هناك ارتباطا واتصالا بين موقف الهرمزان وأبي لؤلؤة، ومن وراءهما أسماء كثيرة أرتفعت أهلاؤها. عبد الله بن يسار، وأبو بكر السكرومي ورشيد الهجري، ومحمد بن أبي زنب وضيقان الطاق وجهم بين صفوان وهشام بن الحسك وأبو سالم الجواليقي، والأحوص أحمد بن اسحق النعمي

وكثيرون ، هؤلاء كانوا من أولياء الجوسية الحاقدين على الإسلام ، كانوا يأخذون على الإسلام أنه أخضع الدولة الفارسية للإسلام وأطاعاً نار الجوسية وأقام المسجد الأقصى على أنقاض الهيكل ، وكان الهدف هو التخلص من زعماء الإسلام وأئمة ، فأنخرطوا بدعوة إعتناق الإسلام لتنفيذ المؤامرة ، ولم يجدوا فكرة يتسرون بها ويحاربون في ظلها ، إلا فكرة آل البيت التي نجد من جواهر الناس عطفاً وتمر مشاهير وأحاديثهم ، وقاد الحركة جيمها « عبد الله بن سبأ » ، الذي كان يقول في يهوديته : أن يوشع بن نون هو وصي موسى ، فلما أسلم قال أن علي بن أبي طالب هو وصي محمد ، وهناك إجماع على أنه أول من أشهر القول بإمامة علي وأظهر البراءة من أعدائه ، ولقد عارض الإمام علي كرم الله وجهه قوله ابن سبأ ولعنه ، وطارده ونفاه ، وأنكر دعوته في مختلف خطبه على منبر الكوفة وفي قوله « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر وعمر » وقد روى ذلك عنه من ثمانين وجهاً ورواه البخاري .

وقد بلغ من دهاء ابن السوداء ، أن كان يبث دعوته في كل مكان على وجه مختلف زيادة في التآمر على صحابة رسول الله ، فكان يبث في جماعة الفسطاط الدعوة لـ . وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة ، وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير ، وهو الذي زور الكتاب على عثمان إلى حمله بمصر ، بدليل أن حمله كان يتراءى لهم متممداً تم يتظاهر بأنه يكتم عنهم لينير ريتهم . وفي اعتقادي أن هذا هو مصدر الأزمة السنية التي واجهها النظام الإسلامي في هذه الفترة ، هذه الأزمة التي أودت بعثمان ثم علي ، والتي قسمت للمسلمين وأرقت بهم ذلك الصراع الرهيب حتى استشهد الإمام علي .

أما ما نسب إلى عثمان من أمور تتعلق بأسرافه في تقريب أهله ، أو إعطائهم وإعطاء سائليه فتلك أمور لا تؤدي إلى مثل هذه المؤامرة الضخمة ولا تدفعها إلى هنا النحو الخطير البالغ الأحكام من حيث التآمر والتنفيذ ، ولا شك قد مهدت لذلك عوامل التحول التي واجهها المجتمع الإسلامي في مجال التبلور والانصهار .

فقد كان عصر عثمان عصراً جديداً تفتحت فيه آفاق الثراء وتدفقت فيه الأموال وإن ما حدث من تحول هو تحول طبيعي بدأت بوادره في أواخر عهد عمر ، وإذا كان لسبب عصر بن هبصور الخلفاء الراشدين طابع ولون يعتمد من العصر ومن مقومات شخصية الخليفة نفسه ، فإن عمر كان مظهر الزهد بينما كان عثمان مظهر الثراء والعطاء ، ولقد أعطى عثمان من ماله وأنفق ، ولم يعط أهله فقط بل أعطى الجميع ، وقد كشف عن مفهوم الإسلام وسماحته بالنسبة للحضارة والتخلص من البداوة .

## الامام على

وقد استطاع ابن سبأ أن يذيع نظرية دخيلة على مفهوم الاسلام هي نظرية الحق الالهي والوصاية حين قال : ( إن لسكن بني وصيا ، وأن علياً خاتم الأوصياء ، كما أن محمداً خاتم الأنبياء ) وهي نظرية فارسية أصلاً ، ومعناها أن علياً هو صاحب الحق الأول في الخلافة ، وقد تصدى « على » لجموع الزاحفة على المدينة وكشف لهم عن خطأ ما ذهبوا إليه ومخالفته لجوهر الاسلام وما يؤدي اليه من إضعاف لوحدة المسلمين ، وواجه عثمان الثائرين بما أقنعهم بسلامة موقفه ، حتى أنهم قتلوا راجعين وأحس أن ابن سبأ أنه أوشك على الهزيمة ، وأن الهدف الذي يعمل له سنوات قد فشل ، هناك إهتدى إلى 'الحيلة' ، فاختلق قصة الخطاب وروى أن الثائرين رأوا رجلاً يمشى على بعد منهم ، وأنه حاول أن يختفي عنهم أو يخفي شيئاً في ثيابه ، فشكروا في أمره فلحقوا به وقبضوا على وفنشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان وفي الخطاب أمر إلى وإلى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ، هناك جاشت الفتنة مرة أخرى وعاد الثوار إلى المدينة ، وقد أقسم عثمان أنه لم يكتب وثبت من بعد أن هذا الخطاب زوره عبد الله بن سبأ ، ولكن عثمان قتل وهرعت الجماهير إلى « على » تباعمة بالخلافة : وقال « على » : أن هذا الأمر ليس لسكن ولكنه لأهل بدر . وبدأت سنوات « على » الحسنة في الحكم عصبية مضطربة . كان « على » إمتداداً لحكم أبي وعمر ، بيد أنه كان بينه وبين ذلك خمسة عشر عاماً وأحداثاً وتطورات ، ولم تكن مفاهيمه المتألمة وفلسفته الأصلية قادرة على أن تمضي في الطريق .. إذ كانت مفاهيم المجتمع الاسلامي قد تطورت وتبلورت في صورة أخرى خف فيها طابع الإيمان الخالص فبدأ « على » وكأنه غريب عن مجتمعه وكان « معاوية » أكثر قدره على العمل منه ، وصر « على » بذلك المضطرب في معارك ثلاث : مع الصحابة وعائشة ومع شيعته والخارجين عليه ومع معاوية كان ينتصر في كل موقف بالحق ، ولكن التحول النفسي والاجتماعي كان يكشف عن أنه غريب عن أساليب السياسة ، كان يعمل في ظل « المثل العليا للإسلام » وكان التطور يفرض غير ما يريد فلم تكن نهايته إلا تمثلاً لانطواء منهج قد بعد عنه هصره ، وأسلوب قد مضى زمنه وكان معاوية إهلالاً لتطور جديد في الخلافة والحكم والملك . كانت قضية مفهوم السلطة السياسية العليا في الإسلام هي أولى المضغلات التي واجهت المجتمع الإسلامي ، فكانت مصدراً لظهور « حركة المغارضة » التي تمثلت في أكثر من فرقة أو حزب : أبرزها دعاة المثل الأعلى ( الخوارج ) ودعاة العاطفة ( آل البيت ) ذلك أن الإسلام لم يرسم في مجال الحكم والقيادة نظاماً محدداً ، تقديرآ لتطور الأمم

وتحول العصور . ولكننه وضع « مقومات أساسية » هي : الشورى وحق اختيار الشعوب لحكامها ، دون أن يكون هذا الحاكم من جنس معين ، أو دم معين ، وأن ينصب هذا الحاكم ما ارتضاه الناس ولو كان عبداً حبشياً . لذلك لم ينص الرسول نصاً صريحاً على من يخلفه ، وكان اختيار أبى بكر اختياراً طبيعياً قريباً إلى منطق الأمور وتطور الأحداث ، فهو صاحب رسول الله وأول المؤمنين به ، وأكبر الصحابة خبرة ، وذكاء ، وقد كانت مواقفه في خلال عامي ولايته غاية في الجسم والقوة ، فقد واجه « الردة » بمفهوم تابع به مقومات الإسلام ووحدة المجتمع الاسلامى ، كما دافع المؤامرة على الإسلام ووسع نطاق عالم الإسلام ، وكان اختياره لعمر من بعده مرضياً عنه من جلة الصحابة والمسلمين وكان امتداداً طبيعياً .

وجرى اختيار عثمان وفقاً لحظّة دقيقة ، ثم اختيار المسلمون علياً . وحين عقد أبو بكر لعمر ، لم يكن مستبداً برأيه ، بل امتنار الصحابة فيه فأثّروا عليه وأقروا رأيه في استخلافه ، وهو لم يرغم جماعة المسلمين على قبوله ، وبذلك كان اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة انتخاباً حراً شورياً ، غير أن توسع « المجتمع الإسلامى » في ظل عمر ، وانفتاح الجزيرة العربية على عالمى الامبراطورية الرومانية والفارسية الخاضعين لعالم الإسلامى ، قد خلق مضاعفات سياسية واجتماعية واقتصادية ضخمة ، امتدت أواخر حكم عثمان وخلال حكم على ، وانتهت بتحول في نظام الحكم وفى مكان سلطة الحكم جميعاً وأصبح « معاوية » رأس التنظيم السياسى فى الدولة الإسلامية ، بعد خلافة الراشدين يمثل مرحلة جديدة من النظام والحكم أقرب إلى نظام الملك المضبوط منها إلى نظام الخلافة الجمهورى ، ومن هنا بدأ « نظام حكم » مستقر فى وضع ورأى ، يتمثل فى ولاية العهد . وقد التمس المؤرخون والباحثون فى تاريخ الإسلام لمعاوية هدفاً فى هذا فى الإجراء ، ومنهم من عده تطوراً طبيعياً للأمر ، فقد كانت الأحداث المتوالية التى قضت بمقتل الخلفاء الثلاثة ( عمر وعثمان وعلي ) تتطلب إجراءات جديدة حاسمة ليس لها طابع بساطة نظام الحكم فى المدينة ، مع تعقد الأمور ، واتساع الدولة ، وتعقد العناصر ، فهو فى نظرهم اتجاه ضرورى فرضته الظروف والأحداث التى واجهها المجتمع الإسلامى إذ ذاك .

ولاشك كان أبرز تحول فى منهج السياسة الإسلامية العملية هو إقرار الحكم فى أسرة بالتوارث ، ولاشك فى رأينا كان لهذه الظاهرة دوافعها وضرورتها ، وكان لها أخطارها ونسارها وأثارها العكسية . لقد بدأ الإسلام جمهورياً شورياً ، يفتح الفرصة لاختيار الخليفة وانتخابه ثم تحول إلى نظام



ولاية العهد ، ووراثة الملك تحت ضغط ظروف معينة كانت تواجه ( معاوية ) أول من سن هذه السنة ، فقد جاء معاوية عقب صراع عنيف ، تشقت فيه فرق وخلافات ، وتمرزت فيه الدولة الإسلامية للخطر الشديد ، فضلاً عن أن نظام الدولة كان قد تحول تحولاً واسعاً من الخلافة ، إلى الملك العضود ، هنالك رأى معاوية ورأى من معه أن يأخذ بنظام ولاية العهد إبقاء على فترة استقرار أطول ، ثم توالى هذا النظام من بعد ولم يعد هناك مجال لتغييره . وقد حقق هذا النظام باستقراره نتائج كثيرة في مجال النمو الحضارى والاجتماعى والاقتصادى ، غير أن هناك عاملاً هاماً ظهر فيما بعد ، هو قيام الأنظمة الاستقلالية ، والحكومات التى يستقل أمرؤها بقطر أو بآخر ، حين يبرز فيها واحداً من « بناء الدول » فيسيطر على الحكم ويمثل الولاء للخليفة ، بل أن ( بغداد ) نفسها عاصمة الخلافة قد تمرزت من بعد لذلك ، حين ظهر نظام السلطنة ، وحيث قام بالحكم « سلطان » نيابة عن الخليفة نفسه ، وقد كان لهذا النظام الإستقلالى نتائج هامة والضخمة في نمو الحضارة وبناء الدول ، فقد كان كل حاكم من هؤلاء الحكام حريصاً على أن يعمل ماوسمه العمل في سبيل إنعاش الأمة التى وليها ، وتقريب العلماء وتشجيع للفكرين ، وإن لم يطل عمر هذه الدول أو تستمر كثيراً ، فقد كانت تنطوى صفحاتها أحياناً بانتهاء بانيتها ، فهى ما تسكاد تدخل في نظام ووراثة الملك ، حتى تدخل في مرحلة الضعف ، ثم تتلاشى لتقوم غيرها مكانها ، وأحياناً كان الذين يلون الحكم الأول أكثر منه قوة ونهضة ، وربما زادوا عما قدمه سابقهم ، ولكن هذه الدول كلها ظلت تبرز وتتألق وتنفق وتحمل محلها دول أخرى ، في مختلف أنحاء العالم الإسلامى منذ توقفت حركة التوسع ، وفي ظل الدولة العباسية ، وما بعدها في العصر العثمانى ، ومن حق أن ظهور الدول الاستقلالية كان أمراً طبيعياً لا بد منه ، لاتصاع نطلق الدول الام وتباعد الأقطار عن مقر السلطة وأنه كانت له آثاره من بعد من تمرق الوحدة الإسلامية ، غير أنه لم يكن ممكناً أن تظل الوحدة للتمثلة في إطار الدولة قائمة طوال القرون أذى على أساس سليم يقطن مفهوم الاسلام ، لا تبرز فيه مشكلات الصراع بين عناصر المسلمين ولا تستفحل : لقد حقق قيام الدول للاستقلالية المتعددة إلى نتائج إيجابية في شأن الحضارة وفي منح العناصر الإسلامية المختلفة الحق في الحكم .

ولكنه أضعف مركزية الدولة والوحدة الإسلامية الشاملة وبذلك مهد للفرو الخارجى وضرب مركز القيادة وفيه : زحف الصليبيون على الشام والتنازع على العراق والفرنجية على الأندلس والغرب . ويرى بعض الباحثين أن نظام الحكم الذى بدأه معاوية ( نظام الملك ) كان تطوراً طبيعياً من النظام

القبلى ، وأنه لم يكن من البدير قيام نظام جمهورى إنتخابى لهذه للساحات الواسعة من دولة الاسلام ، وأن نظام الشيعة إنما كان يتمثل فى الملكية فى آل البيت وأن كل الدهوات كانت تحمل لواءهم الحكم فى بيت وسلاله ( ما هذا الخوارج بالطبع ) .

### حركة المعارضه

يمكن أن يطلق على الفرق والدهوات التى وقفت فى وجه الدولة الاسلامية التى كانت تمثل القيادة السياسية العالم الاسلامى ( الخلافة الراشدة ، الدول الأموية ، الدول العباسية وما رافقتها من دولة الأمويين فى الأندلس والدولة الفاطمية فى مصر وغيرها ) هذه الدهوات والحركات - فيما هذا حركة المؤامرة على الإسلام ومؤامرات طلاب الحكم - كانت تتصل بمفهوم من مفاهيم الإسلام ، العدل الاجتماعى لنظام الحكم ممثلاً فى حركة ( أبى زر ) ، للمساواة ممثلة فى حركة للدوالى ، للمثل الأعلى لنظام الحكم ممثلاً فى حركة الخوارج ، غير أن الحركات كلها لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها ، حين حاولت فرض مفهومها بالقوة ، عن طريق حركات الانقلاب أو الانتفاض على الدولة ، أو الانضواء تحت لواء خصوم الإسلام وللتأمرين عليه ، لقد أسرف هؤلاء جميعاً فى مقاومة الدولة القائمة ونعوا أنها تمثل السكان السياسى الأكبر للإسلام وأن الانتفاض هليها من شأنه أن يفرى بالإسلام خصومة من خارج نطاق عالم الإسلام ، وهو ما وقع بالفعل بعد أن اتصلت هذه الحركات وانصهر بعضها فى حركة المؤامرة الضخمة على الإسلام التى تمثلت فى القرامطة ، والاسماعيلية ، والباطنية وغيرها . وكان أخطر ما بلغت هذه الحركات هى إصطناع مبدأ الاغتيال واستحلال قتل مخالفينهم من المسلمين ويجب أن نفرق هنا بين حركات المعارضه للحكم وبين حركات المؤامرة على الإسلام ، وبين فرق الشيعة والمعتزلة والخوارج وهى فرق مجتهده بما تراه من حق ، وبين فرق المؤامرة على الإسلام التى التست لها ستاراً من الشيعة الغالية .

ويمكن أن يقال أن صراعاً قد برز بين الحضارة ( الحكم والسياسة والمجتمع ) وبين المثل الأعلى للإسلام وأن هذا الصراع تمثل فى طلاب العدل والمساواة ( أبو ذر والخوارج ) .

وأن هناك صراعاً بين طلاب الحكم بحق الروابط التى تنصل بآل البيت وبين من يرون لأنفسهم حق الولاية ، وهناك فريق دعاء النقد الاجتماعى وكشف هيوب الحكام والمجتمع ( حسن البصرى ) وهناك قول يكاد يصل إلى الاجماع هو أن حركة دعاء المساواة ( الموالى ) كانت رد فعل لافعال الدولة الأموية فى تمثيل السيادة العربية ، مما أدى إلى قيام صراع بينها وبين المسلمين من غير العرب عن

أطلق عليهم الموالى ، هؤلاء الذين كان مفهوم الإسلام وفق أصوله — يعطيهم حق المساواة مع غيرهم . ويرجع المؤرخون ذلك إلى أن طابع الدولة الأموية كان عربيا غالبا في العروبة ، حتى أنهم فرقوا بين العرب ومن دخل الإسلام من العناصر الأخرى ، وكان أغلب هؤلاء الموالى فرسا ، وقد كان لطلاب الملك من الفرس قضية ارتبطت بمقتل عمر ابن الخطاب ، مصدرها حق الطبقة التي كان بيدها النفوذ والسلطان ، فضلا عن طابع النظرة الفارسية القديمة إلى العرب بوصفهم أصحاب حضارة والعرب أصحاب بداءة ، وقد توالت الأزمة التي عاشت أيام عثمان وهلى وكان موقف بعض الفرس فيها يحمل طابع الحق على العرب لأنهم سيطروا على دولتهم ، وفي رأى الفرس أن الإسلام هو الذى أعطى العرب هذا الامتياز ، ومن هنا بدأت حملتهم على الاسلام نفسه وقد صاحب هذا الاتجاه موقف الأمويين من الموالى فارتبط به على نحو من الأنحاء .

والحق أن موقف الإسلام من للموالى كان واضحا صريحا ، وأن مخالفة هذا للمفهوم كان مصدر « الأزمة » التي وقعت بين العرب والموالى والذي أودى بالدولة الأموية . فقد كان للموالى دورهم في زعزعة بنائها في سبيل قيام نظام يحقق لهم المساواة ، ولقد كان مفهوم الإسلام أن يحكم المسلمون عربا وغير عرب ، وأن لا يقتصر السلطان على العرب وحدهم ، وهذا ما حققه تطور الأمور في العصر العباسى . وللموالى هم خليط من المسلمين الذين كانوا موالى لمن أعنتهم ، أو أهل الأمصار الذين أسلموا وانضموا إلى العرب ونحالفوا معهم فأصبحوا موالى بالخلف ، وقد كانوا يمثلون الأيدي العاملة في الدولة ، وبما يذكر لهم أنهم كانوا أداة الجيوش ومادتها ، وأنهم قاموا بدور ضخم في توسيع عالم الإسلام وأنهم صدقوا الله اسلامهم وقدموا أرواحهم خالصة في حركة الجهاد المقدس وفي للمبارك المتوالية التي استمرت ردحا طويلا خلال حكم الدولة الأموية ، كما أتبع لهم أن يسيطروا على الحياة الاقتصادية ، غير أن الأوضاع التي فرضها الاستعلاء بالسيادة العربية تركت في أنفسهم كثيرا من الجروح والندوب ، فأحسوا بنوارق مختلفة لا يقرها مفهوم الإسلام نفسه ، وهذا المفهوم الذى سوى بين العرب وغير العرب تحت لواء الإسلام الذى فرض للقيادة السياسية الحساسة أن يحقق هذه المساواة ، وفي حكم عمر بن الخطاب بدا هذا المفهوم واضحا وهو يوضع موضع التحقيق .

وقد كان من نتائج هذا ، قيام ثورات مختلفة متعددة للموالى على الحكم الأموى ، وقد أدى ذلك إلى انصواء طائفة من المجتمع الإسلامى إلى خصومه وإلى حركات التآمر على الإسلام ، كما انضموا إلى الخوارج ، والشيعة ، وإلى كل منتفض على الدولة ، حتى تجمعت الشيعة والخوارج والموالى على هدم

الدولة الأموية ، ولا شك كان سقوط الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي إنتصاراً للموالى ، فقد حقق لهم العمل على قدم المساواة مع العناصر الإسلامية الأخرى ، ولقد إعد المؤرخون موقف الأمويين من الموالى واستغلالهم بالسيادة العربية ، من أكبر الأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم ، غير أن أخطر النتائج التي أدت إليها حركة الموالى التي في ذلك التحدى الذي فرض اتصال بالموالى بالفرس الناقبين على العرب ، إنما كان ظهور موجة الشعوبية العاصفة المنحرفة التي بدأت أول أمرها تنادى بمساواة العرب والموالى التي تطورت في العصر العباسي فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب ، ومن الحق أن يقال أن شعور الاضطهاد الذي أحس به الموالى كان عاملاً هاماً هاماً من العوامل التي دفعتهم إلى المشاركة في حركات التآمر على الإسلام نفسه رغبة منهم في إسقاط الدولة الأموية .

### دعاة المثل الأعلى (الخوارج)

وكان «دعاة المثل الأعلى» أبرز من حملوا لواء المعارضة لسلطة السياسية ، كان الخوارج يمثلون مفهوم الخلافة الحق ، الخلافة الديمقراطية التي لا تنقيد بقريش ولا بآل البيت ، وقد صاغوا من المثل الأعلى الإسلامي «نظرية» دافعوا عنها ، وبلغوا في حماسة الدفاع عنها حد العنف وسفك الدماء ، وهم في نظريتهم لا يقبلون مفهوم الواقع المنطور ، ولا الواقع الجارى ، ولا النظرة العميقة لمفهوم الأحداث وتطور الأمم ، ولو لم ترتبط فلسفة الخوارج بالانتقاض على الدولة والمقاومة الدمية ، لظلت تمثل جانب المثالية في الإسلام في مواجهة الدولة التي كانت في الأغلب نظاماً سياسياً يدور في إطار الإسلام ولا يطابق مفهومه تمام المطابقة . كانت أيولوجية دعاة المثل الأعلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، لا يقبلون مبدأ الوراثية ، ولا حق قريش في الخلافة ، وقد حدد الخوارج موقفهم في قضية الخلافة فقالوا : أن الإمامة قد تكون في غير قريش ، ويجب ألا ينظر في اختيار الإمام إلا لتوافر الكفاية والعدل واجتناب الجور ، فكل من أس فيه المسلمون هذه الخلال فلهم أن يولوه الإمامة ، ومن خرج عليها وجب اعتباره عاصياً ، وأن غير الإمام السيرة وعدل من الحق وجب هزله ، أو قتله كما أنه يجوز أن يكون الإمام هيباً وحرّاً ، قرشياً أو غيره .

وقد ظل الخوارج أشد الفرق الإسلامية معارضة للقيام الأمر والحكم الموروث وأشدّها مقاومة للملك الجائر ، ولم ينف أمرهم عند وضع النظريات بل ذهبوا في تطبيقها أبعد مدى وعرف لهم أبطال وأدب ومواقف متعددة ، وتاريخ طويل إمتد خلال حكم الأمويين والعباسيين فقد شهروا

الحرب على الدولتين ، ولبثوا يقاومونهما زهاء قرنين وكانوا مثلاً عالياً في الجرأة والمخاطرة ، غير أن أبرز ما يؤخذ عليهم أسرهم في سفك الدماء ومقاتلتهم في قتل الأطفال والشيوخ والنساء .

### دعاة العاطفة (آل البيت)

يمثل مفهوم آل البيت : « العلويون ، الشيعة » الانجاء المرتبط بالرسول ﷺ وآل البيت وهي دعوة العاطفة العميقة التي ملأت نفوس المسلمين بحب رسول الله وآل بيته في ظل مفهوم القرآن « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » . وكان حقاً لهذه الدعوة أن تنقسم في مجال رد الفعل لما واجهت من تحدى ، هذا التحدى الذى تمثل في امتناع النبي ﷺ وخليفته أبى بكر وعمر عن إعطاء سلطات سياسية أو قيادات حربية لأحد من آل البيت (آل هلى وآل العباس) ويتصل بهذا ما أورده المسعودى من حوار دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس جاء فيه قول عمر : « إني رأيت رسول الله استعمل الناس وترككم » فقال عبد الله : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه ، قال عمر : والله ما أدرى أضن بكم هن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلكم منه » ومما يروى في هذا من أن هلى والعباس قد التقيا في مرض النبي ، قال العباس لعمري : أنت بعد ثلاث عبد المصطفى وأن رسول الله ﷺ سيتوفى في مرضه هذا ، وإني لأعرف اللوت في وجوه بنى عبد المطلب ، فذهب إلى رسول الله فأسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا هلنناه ، وإن كان في غيرنا أمره فأوصى بنا ، فقال على : إئن سألتها رسول الله فنعنا إياها لا يعطينا الناس أبداً » ويتصل بهذا ما كان من أمر اجتماع السقيفة حيث دار الحوار بين الأنصار والمهاجرين حول أمر الاستخلاف بعد النبي : واتفق على أن يكون للمهاجرين هم الأمراء والأنصار هم الوزراء ، وبايع عمر بن الخطاب وأبو عبيدة لأبى بكر . ثم ما كان من أمر على وتردده في البيعة ما يقرب من ستة شهور وما وقع لسيده فاطمة بنت النبي حين قصدت خليفة رسول الله أبى بكر تسأله في أرض لرسول الله في فذلك وما أجابها به أبو بكر حين قال : أئن معاشر الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقه . من هذه الصور يتحمل الانجاء الذى كون موقف دعاة العاطفة الذين أحسوا بآل البيت وهم مبعدون بعد رسول هن مكان الحكم ، وإن لم يبعدوا هن مكان الصدارة ، فقد كان على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس هم أبرز قادة الفكر الإسلامى في هذه الفترة . وفتناء للمسلمين : حتى كان يقال « قضية ولا أباً حسن لها » . قد إمتدت هذه الصورة واتسع نطاقها حين اختير عثمان بعد أبى بكر وعمر ، وكان هلى في

مقدمة للمرشحين ، وما روى في شأن ذلك من آراء . وروايات لا حد لها ، من أبرزها ما قبل من أن الصحابة كانوا قد ضاقوا بنظام حكم عمر ، وخشوا علياً أن يكون استمراراً لهذا الحكم ، وتطلعو في عمان طامعاً أقل شدة وأكثراً انطلاقة نظراً لارتفاع سنه ، واختلاف طبيعته ومفاهيمه عن « عمر » ، الشديد الحازم .

فلما جاء دوره بعد عمان كان المجتمع الإسلامي قد بلغ غاية من الاضطراب ، وقد هلت فيه صيحات وتنافعت قضايا ، وتفرق الصحابة في الأمصار ، ووقع الخلاف بين جماعة للمسلمين ، ثم وقع الخلاف بين علي وشيعته ، ثم وقع الخلاف بين علي ومعاوية ، ثم كانت نهايته تلك الازمة الأليمة ، وما كان من تنازل ابنة الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ثم كان خروج الحسين ومقتله بيد ولاية الأمويين الذين كانوا قد جعلوا السلطة الإسلامية العليا توارثاً في بينهم ، هنالك وفي خلال هذه الظروف تكونت جماعة « دعاة العاطفة لآل البيت » قوية عنيفة ، تناهض نظام الدولة القائم ، وتحاول أن تدبّل منه بالثورات والانتفاضات ، حتى بلغت من بعد مباحثها « حركة ذات فلسفة ومفاهيم » تطبعها بطابعها .

وقد حاول خصوم المسلمين والمتآمرين عليه أن يندسوا في رحاب هذه الدعوة وأن يحملوا لوائها حتى دق الفارق — في فترة من الفترات — بين دعاة العاطفة المحيين لآل البيت وبين المتآمرين على الإسلام ، هؤلاء الذين كانوا دائماً يحملون لواء آل البيت وبدعوا باسم آل علي أو أبناء فاطمة . وقد واجه دعاة العاطفة خصومة الأمويين ، حتى إذا شاركوا في محاولة القضاء عليهم ، كان أبناء عمهم ( العباسيون ) الذين ولوا الحكم أشد عنفاً في معاملتهم والخصومة معهم ، ولسكنهم استطاعوا من بعد أن يقيموا الدول : في فارس ( البويهية ) وفي المغرب ( الدولة الفاطمية ) التي امتدت من تونس إلى الشام والحجاز واستمرت ٢٦٠ عاماً . ولقد أقام آل البيت « الشيعة » : أتباع علي وبنيه ، مذهبهم على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويختار القائم بها بل هي متصلة في آل البيت وأبناء علي وقد اهتموا في فكرهم ومفاهيمهم على أحاديث الرسول صحت عندم تعطى فلسفتهم جذورها الأسامية ، وقد ظلت فكرة آل البيت هدفاً يلتصق كل من يطلب الانتفاض على الرئاسة السياسية القائمة يلتصقها وسيلة لاستهواء الناقين والبسطاء والساخطين .

## دعاة النقد الاجتماعي

انتقلت القيادة الإسلامية من المدينة إلى دمشق من البادية إلى الحاضرة ، كان الاتجاه إلى الشمال وإلى مواطن الحضارات تطوراً طبيعياً لمقر القيادة الإسلامية ، كما كان التحول من جمهورية الراشدين إلى نظام الملك تطوراً طبيعياً لنظام الحكم ، وكان قيام دولة عربية حاصلة للسيادة والسلطان تطوراً طبيعياً بعد أزمة الخلافة ، كان هذا كله انتقالاً طبيعياً في مجتمع متعدد الأجناس والعناصر في مرحلة تفاعلها وتبلورها وانصهارها ، في محاولة صياغة فكرها من جديد في إطار الإسلام ، لم يكن من الطبيعي أو المعقول أن يتحقق المثل الأعلى الإسلامي في هذه المرحلة المبكرة ، ولذلك فقد كان النظام السياسي محاولة لتمثيل مفهوم الإسلام وأن لم تبلغها أو تحققها ، لقد كان الإسلام أيديولوجية إنسانية شاملة للناس كافة في كل عصر ومصر ، وصلاحياتها مستمرة ، وقدرتها على الالتقاء بالحضارات والأمم والأجناس والأقطار مفتوحة طبعاً ، ولقد كان من شأن النظام السياسي الإسلامي أن يحاول مجتهداً أن يقترب من هذه الأيديولوجية وأن يتناول إلى تطبيقها ، غير أنه لم يستطع ذلك على نحو يرضى الفقهاء والمفكرين والأئمة ، فقد طفق دعاة النقد الاجتماعي وطلاب المثل الأعلى لا يكفون عن التوجيه والنصح . كان طابع الملك يحمل في طياته الاحتجاب عن الشعب بالإضافة إلى نمو الحضارة وظهور نظم القصور وطوايع الترف والثراء ، مع وجود الطبقات الكادحة الفقيرة . مما حمل الفقهاء ودعاة النقد الاجتماعي على مواجهة الخلفاء والأمراء ، ويمكن أن يقال أن «أبازر» من دعاة النقد الاجتماعي غير أن أبرز مثل لذلك هو الحسن البصري ولم تكن ذهوة الحسن معارضة للقيادة السياسية ولكنها كانت نقداً اجتماعياً يتوصل بمحاولة تصحيح مفاهيم المجتمع نفسه في ظل موحية الترف والنفاق والانحلال التي أخذت تبتلعها في أواسط العصر الأموي ، وكانت علامة على نزعة الزهد التي كانت رد فعل للترف ومحاولة من بعض المشايخ لاهتزال المجتمع . وقد كان العلماء والأئمة والمفكرون على طول التاريخ الإسلامي قادرون على رد المسلمين إلى المفهوم الصحيح للإسلام ومقاومة الانحراف الفكري والاجتماعي ، هؤلاء الدعاة والمجاهدون ونقاد المجتمع الذين عارضوا دائماً الانحراف ، ومنعوا العامة أن يجرها الترف أو النفاق أو الانحراف ، وقد كانوا عاملاً سياسياً في بناء الإسلام والحفاظ على أيديولوجيته من أن يضاف إليها ما يغير مضمونها أو يحول طابعها . فقد بذلوا جهداً ضخماً في المحافظة على خصائص الأمة ، واتصال حياتها الروحية والخلقية .

ولقد ظل تيار الإصلاح الإجتماعى قادراً على مواجهة خطر اللادىة الجارفة والانحطاط الخلقى والروحى ، وإذا كان قد عرف الحسن البصرى ومدرسته : سعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والشعبي ، فقد حفل تاريخ الاسلام بهؤلاء الدعاة فى كل عصر ومكان فى عالم الاسلام وكان منهم كثير من يؤمنون بالعمل الخالص البرى من الدعاية والشهرة . والظاهرة الواضحة أن هؤلاء جميعاً كانوا من دعاة المساواة (للولى) وقد عملوا وفق منهج واضح ، قوامه : الحث على الايمان والعمل الصالح والتحذير من غرور النفس ومهاجمة القترف ، وكان الحسن البصرى وصنوه من هؤلاء الدعاة يصدعون بالحق فى شجاعة أمام رجال الحكم ، لا يخشون فى الله لومة لائم ، وقد اتسق مفهوم هؤلاء القادة السياسيين مع نقاد المجتمع فأولهم تقديراً ، وسارع كثيرون منهم إلى هؤلاء الناقدين يطلبون نصحتهم ، وكان محمد ابن سيرين والحسن البصرى والشعبي فى نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثانى فى مقدمة العاملين وبما يروى فى ذلك أن عمر بن هبيرة الفزارى ولى العراق ، فى أيام يزيد بن عبد الملك ، فدها الحسن البصرى ، وصاحبيه ، قال الحسن يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، أن الله يمنك من يزيد ويزيد لا يمنك من الله ، وأوشك الله أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة : أن الله قد جعل هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده فلا تترك دين الله وعباده لسلطان الله فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وفى هذه الفترة واجه تاريخ الاسلام حدثاً من أبلغ أحداثه ذلك هو تولى « عمر بن عبد العزيز » الخلافة خلال هامين ونصف بين سنوات حكم الأمويين ، كانت غريبة غاية الغرابة ، أراد عمر خلافاً أن يعود بالناس إلى « منهج عمر بن الخطاب » وكان ذلك هديرآ عليه كل العسر ، وكان سبباً فى القضاء عليه ، حقاً ، لقد استطاع أن يثبته للمجتمع قوماً جديدة تقرب من « المثل الأعلى للاسلام » ولكن المجتمع الذى استجاب للتحول السريع العميق ، لم يكن قادراً على حماية الخليفة الذى جمع بين صفة القائد السياسى والداعية الإسلامى . كان مخطط عمر بن عبد العزيز مغايراً للخط الذى قطعه الحضارة ، كان محاولة لتقريب النظام السياسى من مفهوم الاسلام ومقوماته ، غير أن ذلك لم يكن يسيراً بالقدر الكافى فى فترة حكمه القصير ، وربما استطاع أن يصل إلى شىء من التحول لو طال به العمر — ذلك أن للحضارة موج دافع لا يتوقف ، ولحركة التطور مراحل لا تتراجع ، ولم يكن من اليسير تغيير خطها بعد اندفاعه خلال جيلين أو ثلاثة إلا بجهد زمنى واسع لم يتح له ، غير أن عمر بن عبد العزيز ترك صفحة مضيئة مشرقة مازالت حتى الآن تهز المؤرخين والباحثين ، وترك آثاراً هامة فقد حمل لواء الدهوة الاسلام على نحو رائع أدخل أعداداً ضخمة من أهل عالم الاسلام نفسة ، فقد رفع الضرائب



عن الداخلين في الإسلام ، وأعلن أن الله لم يبعث محمد جاييا بل بعثه داهيا ، كما أرسل الولاة الممتازين إلى المغرب والأندلس على النحو الذي حقق تعميق الإسلام واتساع نطاقه ، وأجرى الحوار المفتوح مع طلاب العدل والمساواة حتى أوقفهم وأنهى صراعهم مع الإسلام وعمقه وكان دورة ليس في توسيع الإسلام بل في تعميقه ، وليس في بناء الدولة بقدر ما كان في بناء الفكرة والعقيدة وقد دعمه فعلا بالمثل والقدره ، فقد كان هو نموذجاً عالياً ومثلاً رائعاً ، صحح كل مواقف الخطأ ، في تصرفات الخلفاء ، وحفظ مال المسلمين من الانفاق في الترف واعطيات الشعراء ، وجمع إليه العلماء والخلصاء ، ونقل الناس من وضع إلى وضع فالتاس على دين ملوكهم ، وخفف أبهة الملك ، وألغى مظاهر الفخمة ، والمواكب وقد اقترب من أيديولوجيا الإسلام تطبيقاً للشريعة الإسلامية ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام فلما بلغتهم سيرته ومنهجه أسلموا وتسبوا بأسماء العرب ، كما كتب إلى ملوك ماوراء النهر فأسلم بعضهم ، ولما أقر البربر أمره إليه إسماعيل بن أبي المهاجر غلب الإسلام على المغرب ولعل منهج النقد الاجتماعي كان ثمرة لحكم عمر بن عبد العزيز القصير وكان في مقدمة تلاميذه الحسن البصري وقد انتقد الحسن البصري التفات في الطبقات الممتازة من الأمة ، وانتقد أدواء المجتمع ، ووصف العلاج ، وحقق نتائج عامة واجتمع حوله نفر كثيرون ، حيث جمع بين التوجيهية والتربية العملية والنقد البناء وقد توارث علمه خلفاء بعد وفاته ١١٠ هـ ومضى هذا الخط لم يتوقف ، هادفاً إلى المحافظة على مفهوم الإسلام وروح هذه الأمة وصلتها بالله والمحافظة على منابع الحياة الإسلامية الأساسية ( القرآن الحديث ) ومن خلال هذا الاتجاه ظهر تيار الزهد واهتزال المجتمع كرد فعل على تيار الترف والنفات والامعان في الذات الحسية ، وقد ظهر من بعد في العصر العباسي : الأوذراعي وسفيان الثوري وصالح بن عبد الجليل وابن السكك ، وكان هؤلاء مواقف وكمالات غاية في القوة بل أن بعض العلماء من أصحاب المثل الأعلى قد أهرضوا عن فرض آرائهم ومذاهبهم بسلطان الحكم ، كما فعل مالك حين اعتذر للمنصور عن نشر موطئه في العالمين دون كتب الحديث والفقه ، وقد وكان لما لك مواقفه في معارضة النفوذ السياسي .

## الواقعيون

يشمل الواقعيون المسلمون في تلك الجوع العامة التي أولت القيادة السياسية للإسلام ثقها ورأت في الحفاظ على وحدة الجماعة ضرورة والتجمع حول القيادة أهمية كبرى في بقاء الإسلام نفسه ونموه واستمراره ، وقبلوا بالولاء لنظام الدولة بوصفه قوة فائدة دافعة إلى العمل والحركة والتوسع ، ولقد كان

هؤلاء الواقعيون هم الأغلبية الغالبة أو الساحقة للمسلمين ، هؤلاء الذين تمثلوا بالتنظير وتأييده ، والتقدم وآثاره ، وهم الذين شهدوا تلك الأزمة الضخمة التي أودت بمستقبل الخلفاء الثلاثة وما أصاب المجتمع الإسلامي خلال هشرين عاما كاملة بعد وفاة عمر إلى عام الجاهلية : عام البيعة لمعاوية واستقرار الإسلام تحت قيادته السياسية : دولة أموية عربية مقرها « دمشق » .

هؤلاء الواقعيون هم الكثيرة الكثيرة من المسلمين ، يرون أن القيادة العربية ضرورة في هذه المرحلة لبقاء الإسلام واستمراره ونموه ، ولنشر اللغة العربية وهيبتها على اللسان ، وحلولها محل اللغات القديمة . لقد قبلوا بالولاء لحاكم من صحابة الرسول وبيت من بيوت الإسلام ، واستطاعت الدولة الأموية أن تبني بناءاً ضخماً في كل مجال ، بنت في مجال التوسع الإسلامي وسارت في سنة الجهاد للقدس مدفوعة إلى إضافة أرض جديدة إلى رقعة عالم الإسلام ، وبنت الأسطول الإسلامي وواجهت بيزنطة ودفعت قواتها إلى محاصرة القسطنطينية مرات .

وتواصلت توسعات الإسلام إلى حدود الصين ، وفي عهدنا أضيف السند والهند وما وراء النهر إلى رقعة الإسلام واستكمل ولا للفرب للإسلام وهجر المسلمون بحر الزقاق إلى شبه جزيرة أيبيريا وأوغلوا في أوروبا . وقدمت الأموية للإسلام طائفة من بناء الدول من أمثال : معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك . وقدمت قادة في مجال الحرب من أبرزهم : موسى بن نصير وعبد الرحمن الداخل ومحمد أبو القاسم الثقفي ، : وبنى الأمويون الحضارة ووسعوا مجال التجارة . ونشروا الإسلام بعد أن أخضعوا هذه الأرض الواسعة .

وبعد فليس شك أن الدولة الأموية كانت تواجه تحديات خطيرة ، جعلتها حريصة في نظر الواقعيين جميعاً ، وهم جماهير المسلمين ، إلى حياة استقرار ، فضلاً عن ضرورة سيطرة العنصر العربي في هذه الفترة الأولى من حياة الإسلام ، فقد كان العرب هم حملة لواء الرسالة ، نزل فيهم القرآن وظهر منهم وينهم رسول الله ، واصطفوا لحل أمانة الإسلام وإذاعتها في العالم كله ، وهم الذين اهتموا هدية الدعوة إلى الاسلام ونشره ومقاومة كل قوة تقف في طريقه ، ولذلك فقد كان طابع الدولة الأولى التي تكونت بعد جمهورية الإسلام الراشدة ، دولة عربية ، التمس من مفهوم الإسلام ما استطاعت أن تحققه كنظام للحكم . وقد كان أبرز ما اتسمت به هي قدرتها على السير برسالة الإسلام وتوسيع آفاقه وتنشيط دعامته ، ونشر الإسلام في الأمم التي دخلت تحت لواءه . وقد كان لها دور إيجابي ضخم غير منكور في دعم هذا اللواء ، هذا فضلاً عن أن مرونة معاوية وبراهته

السياسة وقدرته على فهم ماحولة من حضارات الأمم ونظمتها والاستجابة لها ومسايرتها . بحيث تبدو الدولة في موضع الهيمنة . كان ضرورياً إذ ذاك ، وكان بعيد الأثر في عملية الانهيار والبلورة ، هذا بالإضافة إلى انتقال حاضرة الدولة الإسلامية إلى دمشق حيث انصب والنماء ، وقريباً من مواقع الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الأسطول البحري والحركة السريعة في أفق عالم الاسلام الممتد ، كل هذا كان من دوافع القوة والتثبيت للعالم الاسلام .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تعليل سقوط الأمويين بأنهم كانوا أشد تعصباً للعرب واهتماماً بهم دون سواهم ، وصنع الدولة الأموية بالصيغة العربية حتى أطلق عليها اسم الدولة الأموية ، وأنها هربت الأفكار المختلفة ، بربر أفريقيا وأقباط مصر وأهل فارس والعراق كما استطاعت أن تحقق صهر مدنات الأمم الداخلة تحت لواء عالم الاسلام في بوتقة العربية . وليس في هذا كله ما يعيب إلا أن يبلم الأمر مبلغه من التعصب للعرب بما ينقص حق العناصر الأخرى من المسلمين وخاصة للموالى وقد ذهب خصوم الأمويين إلى اتهامهم بالعصبية القبلية ، وهي العصبية لبني أمية ، فوق عصبيتهم للعرب على غيرهم من المسلمين ، وقد تجدد في ظلهم انخلاف القديم بين الأمويين والعباسيين ، وبلغوا في ذلك إلى الفخر على العربية يوسفهم أهل قريش ، فضلاً عن أنهم ناصروا الفيسيين حيناً والجليين حيناً آخر .

ولاشك أن التعصب القبلي يناهض مفهوم الاسلام نفسه الذي دعا إلى نحو الجاهلية وفخرها بالآباء حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولست أتصور قيام دولة في ظل مفهوم الاسلام إلا على النحو الذي قامت على الدولة الأموية بعد مرحلة التمهيد التي تمت في امتداد العصر النبوي وقيام جمهورية الراشدين التي كانت تحتاج إلى جهود ضخمة لتتسع لنظام يصهر جميع العناصر الإسلامية فيه ، والذي قصر عنه بيئة المدينة ، وتدافع التوسع واتمام السيطرة على أغلب أراضي الأمبراطورية الفارسية والرومانية وانضواً وأنها لسيطرة حكومة المدينة ، على هذا النحو السريع قبل أن تقترب نفوس المنضوين مفهوم الاسلام أو ترتضيه معتقداً لها ، ومن هنا كانت الازمة التي حوالت جمهورية الراشدين في خلال عشرين عاماً إلى نظام هجري للطابع والصيغة قائماً على نفوذ إحدى قوتى قريش الكبيرتين ، وهي بالتصدي ليست القوة التي تحمل لاسم النبي صاحب الرسالة ، وإنما هي القوة المناهضة لها والتي أبطأت في اعتناق الاسلام ولكنها القوة التي قدمت عديداً من القادة والولاة والنوابغ في خلال أيام النبي وحكومات الخلفاء الراشدين الاربعة مما أهلها للصدارة ولطرايع القيادة السياسية على هذا النحو .

ولا شك كان انتصار الأمويين انتصاراً للطابع العربي ، الذي امتد إلى النزعة القبلية ، والذي بلغ درجة السيادة العربية ، مباحداً عن مفهوم الإسلام في إسقاط أفضلية عنصر على عنصر ، وكان لهذا ضرورته من ناحية في ظل التحدي الذي واجهه من خلال مؤامرة القضاء عليه ممثلة في عناصر الفرس والموالي والمجوس ، ومن هنا كان رد الفعل في حماية القيادة السياسية من غير العرب عملاً مرحلياً لحماية الدولة من الاضطراب ، غير أن تراخي الزمن ، وانتشار الترف وعدم تحقق المثل الأعلى الإسلامي في الحال الاجتماعي كاملاً وقد أضعف هذا النظام وأبعده عن فاعليته الإيجابية وفتح الطريق لنظام سياسي آخر يتطور من داخله يتغير موضع القيادة فيه فيسلكها إلى البيت الآخر من قریش ، ويحمل بعض الأزمات ، وأن بقي نظام الحكم ممتداً في أمرة واحدة ، ونظام واحد هو نظام ولاية العهد ، وهو الطابع الذي استمر النظام السياسي في الإسلام على أساسه فيما بعد طويلاً . لقد كان هناك قوتان للمجتمع الإسلامي : قوة المثل الأعلى وقوة التطبيق . كانت قوة المثل الأعلى والمعايير الخلقية تنطلق إلى أن يقترب النظام السياسي أكثر وأكثر من مفهوم الإسلام وكانت قوة التطبيق تحاول أن تدور في إطار الإسلام على قدر ما تمكنها ظروف الوراثة القبلية والعنصرية ، وتطور المجتمع ، والحضارة ، وقد ظلت «أيدولوجيا الإسلام» ولا تزال منهجاً سمحاً مرناً قابلاً للأخذ منه وقادراً على مواجهة تغيرات البيئات وتطورات الأزمنة ، وقد ظل يمثل في صورة هلياً لما نصل إليها قوة التطبيق بعد وإن دارت في فلسفها مجتهدة ، ومن هنا كان دور المجتهدين من الفقهاء والأئمة والعلماء ، الذين كانوا يوائمون دائماً بين الواقع وبين «أيدولوجيا الإسلام» ، بين المثل الأعلى وبين التطبيق ، وكان من رأى الواقعيين دائماً الحرص على مبدأ وحيدة الجماعة وسلامتها بول التوفيق والتسويات التي تسمح بالتوازن بين القوتين .

ومن هنا كان دور الفقهاء والمجتهدين دافعاً للمجتمع الإسلامي إلى الاقتراب أكثر من مفهوم الإسلام وتمثله ، تدرباً نحو الكمال ، ومن هنا ظلت مقومات الإسلام هدفاً متشكلاً للمحكّم والعلماء والمجتمع على السواء ، سعياً وراء العدل والمساواة . ولقد كانت كل مواقف التاريخ الإسلامي تنسم بالنصر والنجاح والقوة كلما اقتربت من مفاهيم الإسلام ومقوماته وتنسم بالضعف والهزيمة كلما بعدت عن هذه المفاهيم ، وكل معضلات تاريخ الإسلام وأزماته إنما صدرت عن تخلف عن تلك المقومات البسيطة البسيطة التي رسمتها «أيدولوجيا الإسلام» وحاول الرسول أن يطبقها في المجتمع الإسلامي القائم الرائد ، ولعلنا استعصاهت التجربة التاريخية أن تحقق بالتحول والتطور «مفهوم الإسلام» جرياً على صنن السكون في التعبير والاتجاه نحو الكمال .

ولقد تفاعلت مفاهيم الاسلام وأيدولوجيته مع المجتمع الاسلامي في درجاته المختلفة ومرحلة المتصلة وقواه المتعددة ، ومع اختلافات الناس والبيئات والعناصر ، واستطاع بأفقه الواسعة أن يحقق نتائج مرنة على توالى القرون ، لم يصطدم بالحضارة ولا بالتطور ولم تتوقف ولم تجرد ، وقد ضمت كلها ضمن إطار الاسلام الواسع . فقد كانت أيدولوجيات الاسلام ومضامينه الأساسية ، نظاما شاملا للحياة كلها على أسس التوحيد والعدل الاجتماعي والمساواة والاخاء ، وهو منطق فسيح سمح ، متقبل لمعادات الأمم وأذواقها وتقاليدها وفلسفاتها ما دامت تصاغ في إطاره وتتحرك وفق هذه الأسس ، ولم يكن الاسلام ديناً إلا من ناحية إعطاء دفعة للضمير والخلق ، أما في مجال الثقافة والمجتمع والاقتصاد والسياسة فقد كان نظماً بارانياً إنسانياً كاملاً للمجتمع ، متقبلاً للتطور ، متمثلاً لمصوّر الأمم ومتميز عن المختلفة قادراً على الحركة والحياة . مميتاً لتقبل أيدي تطوراتها حالاً لا كثر مضلاتها خطراً ، أكثر مذاهبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية خطاء . وقادراً على صهرها في بوتقته وتشكيلها في إطاره : توحيداً وعدالة اجتماعية ومساواة وبناء ضمير وخلق .

ومن هنا تبدو دعووات العدل الاجتماعي والعقل والمساواة والمثل الأعلى والمعاطفة والواقعية كلها تراث إسلامي مستمد من صميم الاسلام ومفاهيمه ما دامت لها جذور من القرآن والسنة ، وليس هذا الخلاف بين دعاة هذه الدعوات ، إلا خلافاً بين وجهات نظر تتعدد حول الفروعيات والقضايا وتنفق أساساً حول القيم العليا للإسلام وتدور كلها حول النظام السياسي والاجتماعي للمجتمع ولا عيب أن تمتدى وجهات النظر وتختلف ما دامت في نطاق الفروع ، وما دام ذلك كله يجري في إطار لاسلام نفسه وليس خارجاً عنه ، وهو علامة صحة وليس علامة مرض ، إذ تستهدف هذه الحركات جميعاً أن تصل إلى الحق والعدل ، وأن تصهر أفكارها وتبلور في مفاهيمها وهو عمل ضروري أساساً للمجتمع تسكون من عناصر مختلفة وثقافات وفلسفات وتقاليد ومقومات متعددة ، ومن هنا فإن كل هذه الدعوات ، إنما تمثل مراحل للفكر والحضارة الاسلامية ينسج لها أفق المؤرخ والباحث — والحياة الانسانية ولا شك تتطور وتتحرك في موجات متعددة ، من القوة والضعف ، والانحراف والاعتدال ، التجزئة والتكامل . ولقد كان تاريخ الاسلام يتمثل هذه الحركات والموجات وكانت تبرز فيه دوماً القوى القادرة على تصحيح الطريق ورد الدعوات إذا خرجت عن مفهوم التكامل والشمول والوسطية ، ولقد كانت كل حركات الفكر الاسلامي وكل موجات المجتمع الاسلامي ، علامات قوة وقد مضت حركات التغيير وظهور بناء الدول وقادة الفكر مستمرة دائماً لا تتوقف ، كل حركة منها ، تحقق خطوة إيجابية نحو التقدم والبناء وهي في ذاتها دفاع عن حق مضيع ، أو تصحيح لحقيقة توشك أن تفقد مفهومها في طريقها إلى تحقيق حتمية الاسلام بوصفه رسالة عالمية وإنسانية .

إن كل هذه الحركات والدعوات تلتبس من الاسلام بسبب ، وتصل به بنفس وهي الآن حصيلة فكرية وثقافية وتاريخية لا سبيل إلى الرضا عن بعضها ، ومعاداة بعضها الأخرى ، ولكنها تراها اليوم عصارة فكر حي متجدد ، وحين تفصل عنها ما أرتبطت به من عوامل السياسة ، ودوافع الصراع ونستصفى فيها تكشف عن مدى حرية الاسلام وسعة أفقه التي كانت قادرة على تعطى انطلاقا الفكر والرأى ، غير أن هذه القطاعات تمثل قطاعات الاسلام الجزئية ، وحين تلتقى تمثل شمول الاسلام وتكامله .

( ١١ )

### النظام السياسى

استمر النظام السياسى الاسلامى الذى تمثله ( الدولة الأموية ) مرحلة بلغت ٩٢ عاما تقريبا بين عام ٤٠ — وعام ١٣٢ هـ عندما سقطت لتقوم مقامها ( الدولة العباسية ) وكان مقر السلطة السياسية العليا ( الخلافة ) دمشق ، وهي سلطة شاملة ضمت تحت لوائها أقطار الدولة متمثلة فى بلاد ما وراء النهر والسند والهند حتى حدود الصين ، والشام بأجزائه والجزيرة العربية ومصر والمغرب كله ( شمال أفريقيا ) والأندلس فى جزيرة ايبيريا . كان هذا النظام للتمثل فى حكم عربى خالص ، قد أمضى دورة كاملة من دورات الدول بين الأبعاد الأربعة : نشوء ونمو ونفوج واكتهار ، استطاعت أن تحقق فيه رسوخ دولة الإسلام وامتداد نفوذه ، وتحول غالب المستبطلين بظلة إلى الاسلام واستقرار اللغة العربية وقيامها محل اللغات الإقليمية ، وانتشار كلمة الإسلام إلى أبعد مدى مستطاع ، وقيام حضارة ضخمة واسعة الآفاق بعناصرها المختلفة من فكر وعمارة وتجارة واقتصاد وبرز عدد كبير من الأعلام والقادة وبناء الدول . وإذا كان « العرب » هم الذين حملوا اسم الاسلام وشقوا به الطريق إلى هذه المنطقة الواسعة من حدود الصين فى آسيا إلى حدود إيطاليا وفرنسا فى أوروبا غير شمال أفريقيا فقد تعددت العناصر القوية التى شاركت العرب فى حل لواء التوسع ، وفى بناء الحضارة وفى الثقافة والفكر ، وفى مختلف جوانب الفكر ، هذه العناصر التى كانت تتأهب بدخولها الاسلام لتحمل لواء القيادة والسيادة فى أفكارها وأمصارها : وأكبر هذه العناصر وأكثرها نفوذاً : الفرس والترك والبربر . لقد كان الفرس هم أقرب هؤلاء العناصر إلى العرب وأكثرهم تأثيراً بالفتح وتأثيراً فى هذه المرحلة ، وكان لهم دور ضخم فى الأحداث التى بدأت بها مرحلة التبلور والانصهار ، وكان لإصرارهم وتصميمهم على المحافظة على كيانهم الخاص داخل نطاق الاسلام وإحساسهم بماضيهم وحضارتهم

وسبقهم للعرب في مجال المدنية ثم سيطرة العرب عليهم بنفوذ الاسلام ونفوذ الحكم اثره في الصراع والمقاومة وبرز روح التآمر على الاسلام بالاشتراك مع العناصر الأخرى كالفرس واليهود وقد أدى الجحوس وبقايا المذاهب الهدامة في بروز تيار قوى هو تيار (الشعوبية) . أما الترك فإن دورهم لم يكن قد بدأ بعد وهو دور ضخم بعيد المدى ينتظم تاريخ الاسلام كله من بعد ، هذا في الشرق والشرق الأقصى ، أما في الغرب فقد كان البربر أقوى القوى التي قاومت الاسلام وصارحت حكوماته العربية الخالصة ، ثم كان لهم — كما كان للترك والمماليك — بعد الأثر في نصرة الإسلام وحل لوائه والدفاع عنه في مرحلة الغزو الخارجي ، هذه المرحلة التي تلى مرحلة التبلور والانصهار . وكان تقويض الدولة الأموية بعد تسعين عاما من حكمها اتجاها طبيعيا ، بحكم أنها لم تنجح لنفسها فرصة البقاء بتوسيع قاعدة عملها السياسي على النحو الذي فعلته الدولة العباسية في أمرين هامين : الأول : أنها لم تصبغ نفسها بصبغة عربية لها طابع السيادة والعصبية بل سمحت للعناصر المختلفة أن تجرى في الفلك السياسي وأتاح لها حق المساواة والحرية ، الثانية : ظاهرة ظهور الدول الاستقلالية الذي جاء نتيجة لهذا في هصر الدولة السياسية مما يمكن القول منه أن الدولة العباسية ليست إلا إحدى نظم المرحلة التي تلت الدولة الأموية في خلال المرحلة من ١٣٢ هـ إلى عام ٦٩٩ بظهور الدولة العثمانية كبرى الدول الكبرى الموحدة لأغلب أجزاء عالم الإسلام . وعندنا أن انفلاق الدولة الأموية على السيادة العربية كان ضرورة ، ولكنه بلغ في بعض مراحله درجة عالية من الخطر ، وما كان من طبائع الأمور ونوايس الحياة أن يستمر ويبقى نظام مغلق ، ومن هنا فقد استطاعت القوى الاسلامية غير العربية أن تتجمع للانتفاض على هذا النظام السياسي والقضاء عليه جربا على سنة الحياة في ضرورة مشاركة هذه العناصر من ناحية واتجاها مع مفهوم الاسلام الذي يرفض سيطرة الطبقة أو العنصر ، ولو كان هذا العنصر هو العنصر العربي الذي نزل فيه الاسلام وكان له دورة الخالد في بناء دولة الاسلام وتوسيع آفاقه . وفي كل دولة في تاريخ الاسلام عناصر بقاءها وهوامل انهيارها ، فهي كلما اقتربت من مفهوم الاسلام وحاولت تحقيق ايدلوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة استطاعت إطالة بقاءها . وعندنا أن برز هوامل انتهاء الحكم الأموي ، هو بلوغه أبعد قدر مستطاع من تحقيق الهدف الذي قام من أجله ، فقد ثبتت قواعد النظام الإسلامي ولم يعد هناك ما يخشى منه ، لم تعد المؤامرات الداخلية قادرة على انتزاع الاسلام أو القضاء على دولته ، لقد تمكنت جنوده في الأرض ، وقامت حضارته ، وأصبح ايدلوجية إجتماعية عقلية روحية لهذه الجماعة التي أرتفعت واهتفتته ومضى وقت طويل بلغ أكثر من قرن وربع قرن على بزوجه ، وتوالت الأجيال بعد الأجيال التي ولدت في أفقه وعصره . ومن هنا حققت الدولة الأموية

أبرز أهدافها ، وهى حماية الاسلام من الأزمات الضخمة التى واجهها فى منتصف حكم عثمان والتى تأمرت فيها قوى مختلفة من اليهود والفرس والمجوس وغيرهم على اجتثاث الاسلام من جذوره ، والعودة إلى الديانات القديمة ونفوذ أسر الأباطرة ، وكذلك أمنت المداخل الشمالية فى مواجهه دولة بيزنطية التى انتزع الاسلام ما كانت تسيطر عليه فى الشام وشمال أفريقيا بعد أن أحست هيبة الدولة الاسلامية وقاعدتها الضخمة ، وبعد أن استقر حكم الاسلام فى جزء من أوروبا ، وقامت دولته متصلة بالمغرب الاسلامى .

وكان هذا الهدف قد تحقق ، هذا الهدف الذى بلغ القائمون عليه أبعد حد فى تأكيده وتركيزه وبقي عليه إتاحة الفرص للعناصر الاسلامية غير العربية ومن أبرزها العناصر الجماهيرية التى تشكل القاعدة الكبرى وهى طائفة الموالى ، هؤلاء الذين دخلوا الإسلام إيماناً بقيقه ومفاهيمه وأيدولوجيته فى العدل الاجتماعى والمساواة الذين لم يجدوا من عدل الدولة الاسلامية تطبيقاً كاملاً ، ومع ذلك فإن هذا لم يردمهم عن الإسلام ، بل دهاهم إلى ملاقاته خصوم الدولة القائمة لاستقاطها ، رغبة فى قيام نظام جديد يفسح لمختلف العناصر حرية للمشاركة على قدم المساواة فى العمل الاجتماعى والسياسى وإذا ذكرت هذه القطاعات الضخمة من المجتمع الاسلامى ذكر أفضل عناصره ، وأقواها ، وأعماها إيماناً ، وأبعدها أثراً فى هذا البناء الذى قام وتضخم ، فقد كانوا هم القوة العسكرية الضاربة التى شاركت وجاهدت واشتهدت فى سبيل الاسلام ، من مختلف العناصر من الفرس والبربر والترك ، وغيرهم من العناصر ، الذين كانوا هم القوة الحقيقية للمجتمع الاسلامى فبالإضافة إلى دورهم الضخم وتكوين الجيوش الاسلامية فى غالبيتها منهم ، فقد كانوا عماد الحركة الاقتصادية والعمالية والاجتماعية فى مختلف أجزاء عالم الاسلام ، وبهم رجعت كفة القوة للناوثة للنظام الأموى ، وهى التى أضافت إلى طلاب الحكم والمتأمرين على الحكومة الأموية قوة شعبية ضخمة فى الأطراف البعيدة حيث كانت تجري حركة الانتفاض التى شاركت فيها عناصر آل البيت ( العلوية العباسية معاً ) وعناصر الخوارج ، وعناصر الموالى ، وعناصر الناقين من خصوم الاسلام يهودا وفرسا ومجوساً إلخ وقد كان أبرز ما حملته بيانات الحركة العباسية التى أطلقت على نفسها ( الرضا من آل محمد ) إلى جوار استقطاب العناصر الشعبية المختلفة حول اسم آل البيت ، كان أبرز ما حملته دعوتهما هى إتاحة الفرصة للعناصر الاسلامية المختلفة للمشاركة فى النظام السياسى الحاكم ، وأسقاط هذه العزلة القاسية التى فرضتها ( السيادة العربية ) للشملة فى الحكم الأموى بأقصى صورها . لم تغير الدولة العباسية العمود الفقرى لنظام الإسلامى الحاكم ، بل أبقت على ما كان عليه ، حكماً قائماً وفى أسرة ونظام توارث للعرش ،بقى هذا على ما هو عليه ولكن الذى تغير أن طابع



الحكم لم يعد هربيا بل أصبح فارسيا سمح للعناصر الشعبية وأبرزها للموالى أن تشارك فيه وأن تجد حريتها وانطلاقها . وهنا تحول للوقف تحولا عكسيا بالنسبة للعرب فقد أخذوا يذوبون في السكبان الإسلامي وظهر في هذه المرحلة أدب له طابع إسلامي أكثر انفتاحا على الأدب الفارسي القديم .

غير أن هذا الاتجاه الذي غلب فيه طابع الفرس على الطابع العربي باسم إعطاء الموالى فرص الحرية والمساواة قد تحول قليلا إلى أن أصبح حملة ضارية على العرب ومن هنا برزت الحركة الشعوبية التي استطاعت تنمية هذا الاتجاه وتوسيع أفقه كجزء من جزء مخطط للتأصرة على الإسلام نفسه . وقد كان طبيعيا أن يتحول الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي فإن ذلك في ذاته امتداد للنفوذ السياسي السائد من خلال الصراع بين أمية وهاشم ، ولقد كانت صيحة المقاومة للأمويين تركز دائماً على المطالبة بعودة الحكم إلى بيت الرسول ، وهنا كان العلويون والعباسيون خصوما للدولة الأموية ، وهم للتصديرون للحكم في الدولة الجديدة فأبهم يحرز قصب السبق .

ومرة أخرى تغلب لإرادة التطور ، بما تحول في طياتها من واقعية ومرونة ، وانفتاح على الآفاق الجديدة ، وفي مقدمتها الأفق الفارسي ، وأفنى العناصر المختلفة التي تجدد في العباسيين الواجبة الإصلاح ، كانت دهوة العلويين تحمل كآل البيت ، وهي بالغة الأثر في جمع الناس حولها ، غير أن دعاة العباسيين استطاعوا أن يتقدموا خطوة أبعد مدى دلت على فكاه وسعة أفق وهي أنهم وضعوا برنامجاً سياسياً واجتماعياً أبرزوا فيه اهتمامهم بالإصلاح الاجتماعي والسياسي للطوائف المضطهدة في ظل الأمويين ، ولا شك قد كان لسنه التجول أثرها الواضح في سيطرة النفوذ الفارسي ونفوذ الموالى والعناصر المختلفة اجتماعياً وثقافياً ، وكان لابد أن يتم ذلك بالسيطرة السياسية . ولا شك كان أبرز عوامل القضاء على الحكم الأموي ، هو بلوغها مرحلة الضعف التي لابد أن تعيب أي بناء سياسي بعد جيلين أو ثلاثة أو عدة عقود من السنين ، وبذلك يمكن القول بأن قيام الدولة العباسية .

كان تطوراً طبيعياً وفق نوااميس الحياة نفسها ومن خلال إطار الإسلام نفسه ، وخطوة واسعة في مجال النظام الإسلامي إنتقلت من مفهوم غلبة هنصر ولو كان هو العنصر الرئيسي في بناء الدولة الإسلامية — على العناصر الأخرى ، وبذلك وضع مفهوم الإسلام في أنه ( لا فضل لعربي على أعجبي ولا أبيض على أسود ) موضع التنفيذ . ولا شك كان لسكس هذا القيد ، ولفتح الطريق أمام المساواة أثره البعيد في نمو الحضارة توسيع آفاق البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، فقد كان للمسلمين من غير العرب دور ضخم لأحد لضخامته في مجال الثقافة والفكر والحضارة ، قام هذا الدور ليس

باسم أجناس لها تركيب بيولوجى أو عقلى خاص بل بوصفهم عناصر انصهرت بثقافتها فى إطار الإسلام  
وجرى نموها العقلى والثقافى من خلال ايدولوجية الإسلام الفكرية وبيئة الدولة العباسية .

## الدولة العباسية

تعد الدولة العباسية تطوراً طبيعياً، ومرحلة متصلة بالمرحلة السابقة لها فى النظام السياسى الإسلامى، وغير  
صحيح ما ذهب إليه البعض من أنها نظام مستقل ، فالمجتمع الإسلامى ما زال مستمراً مطرد التطور  
والحركة ، لم يغير منه سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية إلا ( ١ ) انتقال مقر الدولة من  
الشام إلى العراق ( ٢ ) تحول القيادة السياسية العليا من الأمويين إلى العباسيين ، وإن استتبع ذلك  
تغييراً فى بعض مناهج الحكم ، أو فى تحقيق العدل لبعض قطاعات المجتمع . غير أن نظام الحكم نفسه  
ظل نظاماً ملكياً وراثياً ، قائماً على ولاية العهد ، فى أسرة من الأسر ، ولم يتحقق بها أى تعديل فى  
نظام الشورى مما يقرب للمسلمين من ايدولوجية الإسلام فى الشورى . وقد كان خصوم الدولة الأموية  
وأخصار اسقاطها هم : الشيعة والخوارج وللوالى ، أما الشيعة فإن التغيير لم يحقق لها شيئاً ، وقد ظل  
العلويون فى ظل حكم أبناء عمومتهم يقاسون نفس الاضطهاد والأبعاد عن مرا كز القيادة كما كانوا فى  
عهد الأمويين بل وأشد ، أما الخوارج فإن للمثل الأعلى الذى تطلمعوا عليه فإنه لم يتحقق .

غير أن التغيير الأكبر الذى تحقق هو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية  
وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب ، فقد قامت بنفوذ الفرس ، ومن هنا فقد انصهرت القطاعات  
العربية فى الحكم ولم بعد لها صفة قيادية وكل ما تحقق هو أن العناصر الإسلاميه قد سيطرت وأن  
السيادة العربية فى المجتمع الإسلامى قد تراجعت . وكما أن الدولة الأموية لم تحقق للمسلمين للمثل الأعلى  
الدين كانوا يتطلعون إليه ، هذا المثل الأعلى المتمثل فى العدل الاجتماعى والمساواة فإن الدولة العباسية  
أيضاً لم تحقق هذا المثل ، ومن ثم فقد واجهت انتفاضات متعددة عليها .

توقفت فى خلال حكم العباسيين التوسع الإسلامى وأسفرت الدولة الإسلامية فى حدودها التى  
بلغتها فى أواخر الدولة الأموية ، وكان أبرز معالم هذه المرحلة الرخاء والترف وبلوغ الحضارة الإسلامية  
قمة عالية ، وتوسع نطاق الفكر الإسلامى نماء وترجمة وانصهاراً ووضوحاً لا يبدلوجيته فى مجال الفقه  
والفلسفة والعلوم ويمكن القول بأن مرحلة الحكم الأموى كانت مرحلة التوسع الإسلامى ( الأبعاد )  
وأن مرحلة حكم العباسيين كانت مرحلة البناء الحضارى الثقافى ( الأعماق ) غير أنه لا انفصال بين

مرحلتين من الحكم في مجتمع ضخم واسع يضطرم بأسباب القوة والحياة في مجالات الحضارة والثقافة والاقتصاد ، وإنما يمكن أن يقال أنه تطور طبيعي ، غير المجتمع خلاله خلافة وجملة ، وأن كل البذور التي أقيمت في التربة خلال فترة حكم الأمويين قد نمت وآتت ثمارها في العصر العباسي حتى كان الرشيد يقول للسحابة المارة : أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ، وقد باغت إيرادات الدولة العباسية في هذه ( ٧٠ مليون و ١٥٠ ألف دينار ) ( مقدمة ابن خلدون ) وقد زادت في عصر المأمون عن ذلك كثيراً . غير أنه لم يكن هناك فارق كبير في أبهة الحكم أو الترف أو الاستقرارية التي كان يعيشها الحكام ، فإن انتقال الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي لم تغير من مظاهرها ولم يقترب بها نحو مفهوم الاسلام ، بل على العكس من ذلك ربما ازدادت عمقا واتساعا . كما أن المجتمع نفسه لم يتحول عن طريقه الذي كان قد حفره وسار فيه من حيث الامان في الحياة الحضورية بكل ما فيها من انحلال وفساد وذنقة وبجون والحاد وانحرافات في الأخلاق والاداب ، وقد رسم الجاحظ لتurf في العصر العباسي صورة دقيقة في كتابه الحيوان ( ج ٧ ص ٩١ ج ٥ ص ١١٥ ) وقصة عرس المأمون العباسي على بوران بنت الحسن بن سهل بالغة الحد في الترف ( وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٩ ) لم يكن هذا الترف متفقا ولا مقبولا في مفهوم الاسلام ولا ايدلوجيته ، بينما كانت الطبقات الوسطى والفقيرة تعاني الأذلال والفقر والمسغبة ، ومن هذا برزت في ظل حكم العباسيين كامتداد لحكم الأمويين حركات مناهضة تحمل لواء العدل الاجتماعي وربما كانت تسير وراءه ، مدفوعة بمخسومة التأمر على الاسلام ، ولكنها وجدت فعلا من مناصب المجتمع وعيوبه ما يدفعها إلى اتخاذ سلاحا اشهره في وجه الحكومة العباسية . ولم يكن المجتمع العباسي يجري كله في مجارى الترف والانحلال ، ولكن كان كالمجتمع الأموي جماع عناصر القوة والضعف معا ، يضم بينات الزندقة والتurf والانحلال ويضم بينات العلم والزهادة وحلقات العلماء والفقهاء والمساجد والجامعات وللمعاهد ، غير أن هذا الاغراق في الترف قد خلق در فعل يتمثل في تيار جديد توسع من بعد وعمق هو تيار الصوفية الزاهدة المنعزلة عن المجتمع ، النابذة له هذا ، إلى جوار تيار النقد الاجتماعي الذي اتسع نطاقه في خلال الحكم العباسي وبرز كثير من أهلامه الذين واجهوا الخلفاء وعارضوا الانحراف فقد كان هؤلاء العلماء والزهاد مواقف مجيدة أمام الخلفاء وفي مواجهة موجة الترف العارمة ، تحمل طابع النصيحة البارة الخلصة ، البعيدة عن عنصر التأمر ، وظهرت في نفس الوقت قوى جديدة تقاوم الحكم العباسي وتنفض عليه ، عاد الخوارج مرة أخرى إلى موقف المعارضة المسلحة ، وكذلك ذهب دعاة العاطفة من آل البيت إلى موقعهم في مقاومة الحكم العباسي لند أزدهرت الحياة السياسية

والاجتماعية في المرحلة الأولى للدولة العباسية ، حيث ظهر أعلام من بناء الدول في مقدمتهم النصور باني بغداد والرشيد والمأمون وللمتعصم ، يقول الشعالي أن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة فالفاتحة المنصورة والواسطة المأمون والخاتمة للمتعصم ، والحق أن الدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ إلى أول حملة صليبية على العالم الاسلامي عام ٤٩٨ هـ تمثل مرحلة متكاملة هي مرحلة قيام البناء الحضاري والفكري الاساسي في مجال الانصهار والتبلور وهي مرحلة تتمثل في ثلاث قطاعات متشابهة :

- (١) الانصهار في مجال المجتمع . (٢) التبلور في مجال الفكر .
- (٣) نمو المؤامرة على الاسلام وانتقالها إلى مرحلة التنفيذ : في هذه المرحلة انفتح الطريق أمام الفرس الذين كانوا يحملون على الدولة الأموية لأنها تسيطر بنفوذ عربي وتسائر بسيادة عربية خالصة ، فقد كان الفرس هم القوة الأولى والأساسية التي أهانت على قيام الدولة العباسية التي يمكن أن توصف بأنها « واجهة عربية وبناء من الفرس والموالي » كان لهذا أثره الايجابي وأثره السلبي ، الأثر الايجابي هو سهولة الانصهار في المجتمع والبلورة وامتزاج العقلية والثقافات وتبلورها في إطار الاسلام ، وأثرها السلبي في : (١) معركة هدم الأمة العربية بوصفها ميثاق الاسلام ومادته وما جرى من معارك عنيفة ذهب فيها الفرس إلى تجريد العرب من كل مقومات الأمم ، وكذلك ذهب العرب إلى الدفاع عن كياناتهم ومقاومة الفرس بنفس السلاح (٢) معركة مفهوم الاسلام نفسه ، وهي تتمثل في الحملة على مفاهيمه بإدخال مفاهيم وثنية وفارسية ومجوسية كحالة للقضاء على القيم العليا للاسلام والقضاء عليها كوسيلة للقضاء على السلطة السياسية الاسلامية هاتان المعركتان يمكن أن يطلق عليهما اسم « الشعوبية » وقد استتبع ذلك على الصعيد السياسي ، تلك المحاولات التي جرت لنقل النفوذ السياسي من القيادة العباسية العربية إلى القيادة الفارسية ، وظهر ذلك في حركتين كبيرتين بعد حركة « أبي مسلم الخراساني » : هي حركة : البرامكة في أيام الرشيد ، وحركة الفرس في الصراع بين الأمين والمأمون . فقد انهك الفرس بعد سقوط نفوذ أبي مسلم الخراساني وشيعته بوصفه مؤسس دولة العباسيين ، إلى أساليب أكثر مرونة ودقة ، حتى أحصى على « جعفر بن برمك » قوله : أننا سنحول الدولة إلى الفرس بأسلوب غير أسلوب الخراساني ، وقد وصل البرامكة في ذلك غاية الدهاء عملوا لهذا المنهج سنوات طويلة ، فخير إن القوى العربية الباقية استطاعت استئثار الرشيد حتى قضى على نفوذهم بضرية واحدة ، غير أن هذا الصراع تجدد مرة أخرى على نحو أشد عمقا بعد وفاة الرشيد من خلال الصراع بين الأمين ( وأمة عربية ) والمأمون ( وأمة فارسية ) وانتصار المأمون ، واتجاهه إلى خراسان ، ومحاولة توليه ولي هذه ( على الرضا ) أمام الشيعة الموالين للفرس ، وهذا الخلاف والحرب بين الأمين والمأمون . هي صورة أخرى من صور المؤامرة على الاسلام والخلاف بين عنصرى

العرب والفرس غير أن هذا الصراع لم يتوقف عند المحال السياسي ، بين مفاهيم الفرق المختلفة ، وكان لظهور الدهوات الفلسفية والباطنية والمفاهيم المستترة الخفية التي تحاول أن تتخذ لها واجهة من الدهوات لآل البيت ، كانت ترسم مخططا واسعا للصراع فكري واجتماعي وسياسي ضخم تمثل بعد في حركات سياسية ضخمة ، وهي ثورة الزنج ، وثورة القرامطة وثورة الباطنية وهي ثورات اتشجت بأثواب العدل الاجتماعي والدهوة لآل البيت ، وحاولت أن تقضى على السلطة السياسية العليا الممثلة في الدولة العباسية وكان هذا الصراع كله مقدمة لضعف عام ، كشف القيادة الاسلامية أمام خصوصها في منطقة الخطر الحساس ( الحدود البيزنطية الاسلامية ) حيث يمكن الخطر المتحيز دائما للانقضاض على عالم الاسلام بانتم أوروبا والغرب والدولة الرومانية التي لم تنس أن الاسلام قص جناحيها وأزال نفوذها في الشام وشمال أفريقيا .

### ( الدول الاستقلالية )

لعل من أبرز ما تنقسم به المرحلة التي تلت نهاية الدولة الأموية وخلال البناء السياسي العباسي ظهور دول كثيرة ونظم سياسية ذات طابع قيادي باسم الخلافة في مصر والأندلس . ظهرت ثلاث دول كبرى : السلجوقية في فارس والعراق ، الأموية في قرطبة ، والفاطمية في مصر والمغرب ، كما ظهر نفوذ آخر غير نفوذ الخليفة في مقر السلطة السياسية العليا هو نظام السلطنة وأمر الأمراء ظهرت دول استقلالية في فارس : الديدي والصفارية والسامانية والبويهية . وفي مصر : العلولونية ، الأخشيدي ، الفاطمية ، الأموية . وفي أفريقيا : الأغالبة ، الأدرسية ، الفاطمية ، المرابطون ، الموحدون ، النخ وفي الأندلس : الدول الأموية ، ملوك الطوائف ، دولة المرابطين ودولة الموحدين

وقد استقلت بعض هذه الدول عن الرئاسة السياسية في بغداد ، وظل بعضها الآخر على دلائق ولاء للخلافة مع الاستقلال الذاتي لها ، كان لهذا التطور أثره فإن أفريقيا الشمالية وكانت تمثل الجناح الأيسر من عالم الاسلام ، قد برزت في هذه المرحلة ذات كيان سياسي واضح ، وهي التي تحملت أكبر مسئولية في مواجهة أوروبا والغرب باعتبارها القوة الخلفية وراء دولة الأندلس التي كانت شوكة في جنب أوروبا طوال فترة بقائها ، وظلت عمليات التآمر عليها لاستقاطها خلال القرون الثمانية التي عاشتها في شبه جزيرة ايبيريا . ولعل هذا التطور الذي حدث في خلال الفترة التي تلت الدولة الأموية يسمح لنا بأن نقول أن هذه المرحلة هي مرحلة الدول الاستقلالية : هذه الدول التي كان لها بعد الأثر في توسيع نطاق الحضارة والثقافة .

(١٢)

## المؤامرة على الإسلام

لم نكن للمؤامرة على الإسلام أمراً مستغرباً ، بل على العكس من ذلك كان أمراً طبيعياً ، فإن أى قوة جديدة من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وتفرض كيانتها ، فإنما تقبم هذا الفعل على أرض الواقع ، مؤثرة في الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالإزالة أو بالتحويل ، ولم يكن في الإمكان أن يقوم هذا الفعل في فراغ ، ولذلك فقد كان لابد له من رد فعل .

ومن هنا كان للإسلام رد فعل بعيد المدى في اليبثات المختلفة ، التي سيطر عليها والأديان التي واجهها ، والقوى الحاكمة التي أزالتها ، لقد قاوم الوثنية والمجوسية وأزال إمبراطورية الفرس ، وأجلى الإمبراطورية الرومانية عن مناطق استعمارها في الشام ومصر وأفريقيا . ومن هنا كانت مقاومة الإسلام بالحرب هي العمل الأول الذي واجبه بحركة التوسع البسارعة التي أقامت عالم الإسلام في أقل من نصف قرن ، غير أن الخطر بعد توقف أعمال التوسع كان يتمثل في مقاومة ذات واجهتين .

١ — مقاومة خارجية تتمثل في أوروبا والغرب وتتمثل في دائرتين . ( أ ) مقاومة الفرنجة في الأندلس ومن حولها . ( ب ) مقاومة البيزنطيين في حدود عالم الإسلام من الشمال ، وهي مقاومة لم تتوقف طوال القرون الأربعة عشر وإلى اليوم . ٢ — مقاومة داخلية وتتمثل في القوى التي سقط نفوذها السياسي والديني من الفرس والمجوس واليهود . وقد بدأت هذه القوى عملها منذ قيام الدولة الإسلامية في عهد ( عمر ) وتمثلت أولى صور هذه المؤامرة في مقتل الخليفة الثاني بختنجر أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي .

وفي الأزمة العنيفة التي تحركت في أواخر حكم عثمان وامتدت خلال خلافة علي وهي أزمة ذات طابع دقيق ، حتى لم يكن القول بأنها قد أحدثت في الإسلام منذ ذلك الوقت صدعا لما يلتئم . فقد تحركت القوى المختلفة تناضل من أجل مفهوم النظام السياسي للدولة الإسلامية . ولم تتوقف منذ ذلك الوقت حركة الانتماض : على الدولة الإسلامية أو التأمر على الإسلام ، وقد تداخلت هذه الحركات ، بين طلاب الحكم وطلاب العدل وبين حركات استهدفت فعلا القضاء على الإسلام نفسه .

## الفرس والعرب

ويمكن القول بأن المعركة بين نفوذ العرب ونفوذ الفرس كانت أبرز معالم هذا الصراع وكانت مشاعر الأقوام الفارسية شديد الحساسية بالنسبة لسيطرة العرب ، وخضوع بلادهم للسيادة العربية ، وقد قام هذا الاحساس على أساس العلاقات القديمة بينهما ، وفي ظل الشعور الذي كان يغمر الفرس بأنهم أصحاب حضارة وسلطان ولغة وتقاليد ، ومن هنا كان عملهم الدائب لنصرة العباسيين وتأييد دعوتهم للقضاء على الأمويين .

ولاشك كان مفهوم الاسلام لا يسمح بقيام أى نوع من أنواع الاستعلاء بين العناصر التى جمعها الاسلام تحت لوائه ، ولذلك فقد كان قيام الدولة العباسية تطوراً طبيعياً لإزاء موقف الدولة الأموية الجافى لمفهوم الاسلام فى المساواة بين العرب والفرس ، غير أن قيام الدولة العباسية لم يحقق أثره فى نفوس طلاب الحكم الطامحين وللغامرين من الفرس الراغبين فى إعادة السيادة الفارسية ، ومن هنا كانت المحاولات للتولية للقضاء على الرئاسة العربية العباسية للدولة بمؤامرات التولية أبرزها : مؤامرة البرامكة ومؤامرة ولاية عهد المأمون . كما أشعل هذا الصراع فى الحلة العنيفة التى شنها الفرس على العرب واتهامهم بكل تقيصه والانتقال فى مجال الحملة من العرب إلى الاسلام نفسه كحاوله للقضاء على الاسلام « فكرة ودولة » . ومن هنا كانت مؤامرات : الزنج ، القرامطة ، الباطنية ، وهى مؤامرات استمرت باسم آل البيت كذبا ، وكان طابعا فارسيا ، والواقع أنه لا يجوز إطلاق القول فى نسبة هذه الحركات إلى الشيعة ولا إلى الفرس ، بدليل أن للدافعين عن الاسلام من الفرس كانوا يبحث لا بحصصهم العد ، مدافعين عن الاسلام واللغة العربية . وتاريخ العرب . ومقومات الفكر الاسلامى . كذلك لا يمكن أن تنسب هذه الفرق — التى تحمل شعار آل البيت والتى انخرقت فى مفهومها — إلى الشيعة ، فقد كان الفرس قوة من قوى الاسلام وما تزال بعيدة الأثر فيه ، لا تختلف مع السنة فى أى من أصول الاسلام وإن اختلفت فى بعض الفروع والمسائل وقضايا الحكم والشريعة ، فلا بد من التحرز فى نسبة مثل هذه الحركات إلى الشيعة أو الفرس بعامة .

وقد كانت أغلب هذه الحركات تحمل طابع الدعوة إلى « العدل الاجتماعى » كالزنج والقرامطة ، ولكنها كانت فى الأغلب دعوات متآمرة فى أهدافها مهما خلت من شعارات فقد نادى بها خصوم الاسلام من مجوس ويهود وأصحاب النفوذ القديم من الفرس ، ولكنها كانت تسدج جوانب من النقص كانت فى حقيقتها مجافية لمفهوم الاسلام ولو طبق مفهوم الاسلام فى العدل الاجتماعى

والمساواة بين العرب وغير العرب لضعف اتجاه الخارجين على الاسلام ولما وجدت مثل هذه الشعارات مكاناً أو قبلاً، ولو خلت القيادات السياسية من طابع التعصب والانحراف والاستئثار بالنفوذ والثراء لأولياتها، وكانت أكثر قدرة على الاستجابة لصيحات التحرر وطلاب العدل الاجتماعي لما استطاعت مثل هذه الحركات أن تجد من يستمع إليها أو أن ينضوي تحت لوائها. غير أن أغلب هذه الحركات كانت تستهدف أساساً إسقاط الاسلام بإسقاط دولته، وكانت تعلن العودة إلى الوثنية والمجوسية والنبوية والزردشية والمناوية وعبادة النار ومن هذه حركة بابك والأفشين وكانت بابك الخرمي، قد راسل ملك بزنطة وأغراه بغزو بلاد الاسلام فصار هذا الملك وأوقع بالمسلمين، وقد نقلت عن الأفشين أمور تسكيد للإسلام وتجهد في هدم الدولة، فقد كتب إلى مازيار ملك أشروسنة يقول: أن هذا الدين يعني الاسلام أن إنفقنا أنا وأنتم محونا أثره ونعود إلى دين آبائنا العجم (يقصد المجوسية). وقد قاوم المعتصم هاتين الحركتين مقاومة شديدة وأنفق في عام واحد — عام ٢٣١ — ألف ألف دينار. والخرمية حركة فارسية حاولت أن تعنم ببرامج اقتصادية لتخفي هدفها الاسامي وعن التخليص من حكم العباسيين ومن الاسلام وإرجاع مجد فارس والدين المجوسي بشكل ما. وجاءت ثورة الزنج ٢٥٦ هـ واستمرت حتى ٢٧٠ هـ. ثم اندلعت ثورة القرامطة ٢٧٧ هـ التي كانت مرحلة تالية لثورة الزنج فقد انتشرت الدعويان في محيط الفلاحين، هذه القوى التي كانت تعيش في جنوب العراق وبادية الشام وتمثلت هاتين الثورتين مقاومة النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم في ظل الدولة العباسية، كما كشفت عن قسوة الحياة التي كانت تحياها هذه الطبقات من العاملين في أراضى الاقطاعيين.

غير أن هاتين الثورتين لم تصدرا عن منهاج اسلامي أصلي يتيح لها صفة البقاء، وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية في العنف والتدمير، إذ قام الداهون إليها بفظائع لاحد لها، فقد حمل لواء الدعوتين متأمرون ادعوا الانساب إلى الشيعة واستهدفوا القضاء على الدولة. وقد دمرت ثورة الزنج كثيراً من المدن الهامة كالبصرة والأبلة، غير أن هاتين الحركتين لا تخليان القيادة السياسية للدولة الاسلامية من مسئوليتها إزاء استخدام هذا العدد الضخم من العبيد في مزارع الاقطاعيين بأجور تافهة. وقد جلبوا من شرق أفريقيا وحشد الألوف منهم في أوضاع سيئة، بما يخالف مبادئ الاسلام. أما القرامطة فقد بعثت حركتهم عن مفاهيم الاسلام بعداً أشديداً، بل حاولت أن تهم الاسلام بأنه مصدر استعباد الجماهير، ولم يكن ذلك في الواقع هو مفهوم الاسلام، ولم يكن تطبيقه هو مصدر الظلم، بل على العكس من ذلك، كان التخلف عن أيولوجيا الاسلام التي قامت على العدل الاجتماعي والمساواة، هو مصدر قيام مثل هذه الثورات. وقد صاغ القرامطة دھوتهم في



مفاهيم المجوسية والثنوية والوثنية فادعوا أن اللجنة هي الدنيا ونعيمها، واعتمد حندان قرمط في دعوته على مفاهيم حركة مزدك المجوسية التي قامت في العصر الساساني، كما استغل القرامطة تسكن أهل الحرف ووجوهه لهدم الدولة العباسية والقضاء عليها فأوقدوا فيها نار التدمير. وحملت « الحركة الباطنية » نفس مفاهيم الحركة الدابكية الخرمية، مستهدفة القضاء على حكم العباسيين وهي الاسلام وإرجاع مجد فارس القديم والمجوسية، ووجدت أرضا خصبة في الطبقات العاملة والفقيرة في سواد العراق من الأتباط والفارس والسريران ولذلك وجهت خصوصتها إلى « الدين » واعتبرته مصدر الشقاء، ومن هنا جارت مفهوم الدين اصلا واحلت بدلا منه مفهوم الفلسفة، ولما كان أهل المناطق التي وجوهوا إليها دعوتهم تؤمن بالاسلام ومن الصعب حملها على خلعه، فقد اتجهوا إلى طريقة التأويل أو علم الباطن، وكان الباطنية « قادرين » على تعديل وسائلهم بما يناسب الوسط مع الاحتفاظ بالأساس والهدف الذي يرمون إليه وهو القضاء على الاسلام معا، ودولة الاسلام، وكانت الحركة القرمطية إحدى حركاتهم وقد اتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتراف مذهبها، وذلك بدعوى أن من يموت في سبيل غايتها ينتقل إلى الجنة فكانوا يحدرون الشباب بالحشيشة ثم ينقلونهم إلى حدائقهم الجميلة فإذا استيقظوا وجدوا أنفسهم في ذلك الفردوس المصنوع، وقد خدعوا كثيرا من الشباب بهذه الوسيلة وازداد نفوذ الحشاشين قوة وخاصة في فارس والعراق، ومن أكبر معارضيهم في « قلعة الموت » قرب بحر الخزر، وقد أنهى المغول سلطانهم الذي ظل يهدد الدولة العباسية أكثر من قرن ونصف قرن. وهكذا صارت حركة التآمر على الاسلام باسم الاسمايلية والباطنية والحشاشية، بصور وأشكال متعددة، وكان أبرز وسائلها إذاعة السخط على الدولة العباسية بالدعوة إلى حق العلويين « الشيعي » في الحكم، بينما كانت تهدف أساسا إلى القضاء الاسلام نفسه وذلك بمزج مبادئ الأديان والفلسفة، واستغلالها، لخلق روح التدمير الاجتماعي مستغلة في ذلك الطوائف والعناصر غير العربية.

وينسب الدور الأكبر في تنظيم الحركة الإسماعيلية ووضع مبادئها إلى عبد الله ابن ميمون القداح وقد اتبع أتباعه وأولاده أثره في توسيع نطاق الحركة. ويؤكده مؤرخو الغرب أمثال دي ساسي وديموج بوجه خاص وجود دافع سياسي لدى عبد الله ابن ميمون القداح هو رغبته في القضاء على سلطان العرب وعلى الاسلام الذي جلب إليهم تلك السلطة وإرجاع مجد فارس القديم مرة أخرى. ويؤكد الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه العصور العباسية المتأخرة القول: بأن القداح أراد أن يقوض الاسلام فأشعل الشعور الشيعي عند الجماهير، وكون المذهب القرمطي المؤدى إلى الاتحاد

واستغل اسم اسماعيل بن جعفر (الصادق) في إثارة حركة وشعبية قوية تنقل الملك إلى أحمد أحفاده باسم « المهدي » .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة ، ( في العراق والبحرين خلال القرن الرابع ) والحشاشين والباطنية في ( سورية وإيران خلال القرن الخامس والسادس ) كانت لهم دعوة في كل زمان مفالة جديدة بكل لسان ( الشهرستاني ) وأهم مبادئهم مبدأ ( الباطن ) الذي كان من أبرع الأساليب وأدهاها وأقدرها على التأثير بين جماعات مختلفة المذاهب والأديان ، فهم يقولون بأن اسكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا ، وأن الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب . وقد تأولوا آيات القرآن وسنن النبي ، وقالوا أن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضرورية وتحتها معان هي بطونها وعليها العمل وفيها النجاة ( ابن الجوزي ) ويرى الباحثون والمؤرخون أن غايتهم الأساسية سياسية عامة ، وأن تطبيق التأويل كان خبر وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة ( الدكتور الدوري ) والأثر الفارسي القديم ظاهر في تضاميف هذه الدعوة ومفاهيم الثنوية والجوسية واضحة في جوهرها ، مما يؤكد أن هدفها كان ضد الإسلام أساسا وأنها كانت حلقة من المؤامرة على كيان الإسلام ودهوته .

وقد أكد البغدادي : أن الذين وضعوا أساس الباطنية كانوا من أولاد الجوس ، وكانوا مائنين إلى دين أسلافهم وقال « لا تجسد على ظهر الأرض مجوسيا ألا وهو مواد لهم ( أي للباطنية ) منتظر لظهورهم على الديار . وقد قاومت الشنة هذه الحركة مقاومة ضخمة ، وواجهت مفاهيمها وردت هايتها ونقضت شبهاتها وأكد للمؤرخون أنها حركة معادية للإسلام ناشئة من دين أجنبي بحسبانها حركة فارسية إيرانية ضد العرب وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالراوندية والخرمية والبابكية وامندادها . وقال الدكتور الدوري : أنها تمثل نمو مبادئ المزدكية التي تطورت بظهور الإسلام واكنسبت ثوبا إسلاميا . وقال ابن الجوزي ( أحد كبار المؤرخين للمسلمين ) أو المزدكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية « حركة واحدة » . والمعروف أن فكرة التأويل مانوية وفكرة الحلول والرجعة والتناسخ من آراء الغلاة ، والثنوية من تعاليم مزدك ، الداعي إلى استباحة الأموال والأعراض . وتعد حركة اخوان الصفا على نفس الخط ، وهي محاولة للتأمر على القيادة السياسية والإسلامية عن طريق نشر مفاهيم فلسفية تجمع بين مفاهيم المزدكية والبابكية .

ويروي مؤرخو السنة أن الباطنية كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان وخاصة عن الإسلام ليعتروا لهم الخيار في اتباع أى مذهب وخاصة للمذاهب الفلسفية والمجوسية ، وترك مراسم العبادة الإسلامية ( أى رفض الطاهر ) . ويقول الدكتور الدورى : أن الدعوة الباطنية ( الاسماعيلية ) كانت تهدف قبل كل شيء إلى أحداث ثورة اجتماعية ولما كان الإسلام هو أساس النظام القائم فقد حاولت هذه الدعوة بطريقة التأويل والتلشؤ توحيد للتدريسين من كل العناصر والأديان في جو من التعاون لتقويض المجتمع وإقامة آخر .

وقد هاجم الإمام الغزالي « الدعوة الباطنية » وما جرى على يديهما من ترويع وإرهاب وسفك دماء . وبينما كان السلاجقة يكافحون الباطنية بوصفها خطراً ميسياً كان الغزالي يكشفها من حيث أنها انحراف عن مفهوم الإسلام ومقوماته . فكشف في كتابه « فضاء الباطنية » عن بدعهم وضلالهم وفنون فكرهم ووجوه استدراجهم الناس . وقد اعتبر الغزالي : الباطنية ، والقرامطة ، والقرمطية ، والخرمية : والاسماعيلية ، والسمعية والبابكية كلها فرقاً خارجة عن مفهوم الإسلام . وعمل بعبء تلقيهم بالباطنية بأنهم يدهون أن للقرآن « باطناً » وقال أن هدفهم الأكبر هو إبطال الشرائع وهم للمسيوبون إلى حمدان قرمط ، وبابك الخرمي . وقد استطاع خط الدافع عن الإسلام الكشف عن نوايا هذه الدعوة ، في مواجهة تواطؤ المجوس والزندكية والثنوية الملحدة والاحدة الفلاسفة على هدم عقائد الإسلام ، في نفوس معتنقة ، على أن يتخذوا هذه الدعوة في إطار من السرية مستغنيين في ذلك الزكون إلى طائفة يتفق بها المسلمون وهم آل البيت ، ولما لم يكن من الممكن إعلان هذه الدعوة إلا بوسيلة خادعة للجاهل الناس ، اتخذ الباطنية منهجاً سرىا مكوناً من تسع درجات ، وقد تجمع في نطاق هذه الدهوات الموتورون الذين ملأ الحق نفوسهم من أبناء الأكاسرة والدهاقين ، والروافض والملاحدة والثنوية ومن استولت عليهم الشهوات ودفعتهم — هذه المطامع المتباينة إلى التجمع تحت لواء الحركة الباطنية التي قامت على تأويل معانى الشريعة .

(١٣)

## حركة الدفاع عن الإسلام

(١)

أبرز ما تتسم به مرحلة « البلورة والانصهار » أنها كانت المرحلة التي جاءت بعد « بناء عالم الإسلام وتوسعاته » فعندما توقفت حركات التوسع بدأت مرحلة الترسيب وحضانة القيم الجديدة ، ذلك أن الإسلام قد أزال القوى الحاكمة التي وقفت في طريق دعوته وأتاح للشعوب التي إنضوت تحت لوائه نظاما جديدا قوامه : « التوحيد — العدل — المساواة » جاءت بديلا من الأوضاع الظالمة القاسية المضطربة التي كانت تعيش فيها الأقطار والأمصار ، غير أن الإسلام لم يفرض نفسه على هذه الشعوب كعقيدة ، بل ترك لها حرية تقبله عن إقتناع أو البقاء على عقائدهم ، ومن ثم نشأت بعد توقف حركات التوسع محاورات ضخمة ومجادلات واسعة في كل أقطار الإسلام ، فقد أتاح الإسلام لأهل الأديان الأخرى من مجوسية ومسيحية ويهودية الدفاع عن معتقداتهم ، وكان المسلمون يردون على هذه المناظرات ويدخلون في مساجلات مع أصحابها على أساس فلسفي جدلي ، ومن هنا كانت الفلسفات سلاحا أخذ به أصحاب الأديان الأخرى ولم يسكن ثمة سبيل إلى تجاهل هذا السلاح للدفاع به عن الإسلام إذ كان لابد للمسلمين أن يكونوا على مستوى السجال والجدل ومن هنا ظهرت طائفة « المعتزلة » .

وكان لابد للمسلمين من علماء وفقهاء يمدون هدايات « حركة التوسع » ، من الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة — فكانت القوى التي تستمع إليهم تتعرض إلى ذكر الحجج والبراهين التي تعرفها عن الأديان الأخرى ( المجوسية واليهودية والمسيحية ) وكان كل من هذه الأديان قد تسليح من قبل بالمنطق السرياني والفلسفة اليونانية يستخدمها في الجدل ، وإذا كان عصر الأمويين هو العصر الذي تكاملت فيه حركات التوسع حتى وصلت من السند وبخارى وسمرقند إلى كاشغر على حدود الصين ، ووصلت من الأندلس إلى حدود فرنسا ، فقد كان عصر العباسيين هو العصر الذي ترسبت فيه قيم الإسلام ومفاهيمه في هذه الجماهير الضخمة التي تنوعت أديانها وتنوعت لغاتها وتنوعت أجناسها ، فبدأت تنصير في بوتقة واحدة ، هي « بوتقة الإسلام » حيث أخذت ثقافتها وفلسفتها

وعاداتها وقوانينها ونظم مجتمعاتها تتبلور في « إطار الإسلام » وتخضع لمفاهيمه وقيمه الأساسية ، وكان الإسلام بمبادئه وسعة أفقه ومرونته قادراً على تقبل خير ما في هذه الثقافات والفلسفات والقوانين وعادات المجتمع ونظمه وصهرها في مفاهيمه وفق الخطوط العامة لأيدلوجيته ، ورد كل ما يتعارض مع هذه المقومات وقد كان للنظام السياسي للدولة العباسية ، والصبغة الماشيكية المتصلة بآل النبي أثرها في تحقيق قدر كبير من النجاح في سبيل اعتناق أغلبية ساحقة من عناصر المجتمع الإسلامي للإسلام عن اقتناع ، فقد وجد كثير من الناس في الإسلام وبساطته وسماحته مآدفعهم إلى اعتناقه تحملاً من العقائد التي أصابتها الوثنية والفلسفة اليونانية بالتعقيد وما احتواها من اضطراب .

وسعى في هذا السبيل المحدثون بمناهجهم السمحة القريبة إلى القلوب ، والمعتزلة (المشككون) بأساليبهم الذهنية المقتضية للعقل ، فوجد الإسلام طريقان متعلان بالقلوب والعقول ، هذان الطريقان هما - يمثلان مفهوم الإسلام الذي يقوم على التكامل والشمول والوسطية ، ويخاطب العقول والقلوب جميعاً . وقد استعان المحدثون بالقرآن والسيرة والحديث النبوي والمغازي يعرضون تاريخاً مليئاً بالعزة والسماحة والبطولة والإيمان والعدل والمساواة ، واستعان المعتزلة بالجدل والمناظرة والمنطق ونظروا في كتب الديانات الأخرى من مجوس ونصارى ، والمذاهب من بجمرة ورافضة ومانوية وقد فوجئت هذه الحركة نجاحاً بالغ النظير فقد تحول كثيرون من أديانهم إلى الإسلام ، وأسلم على أيدي المعتزلة كثيرون ، حتى قيل أنه أسلم على يد أبي المذيل العلاف وحده وهو رأس المعتزلة أكثر من ثلاث آلاف رجل ، كما أسلم على أيدي المحدثين كثيرون ممن بهرتهم القدوة والخلاق والمثل الأعلى ، وقد أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من النصارى والمجوس واليهود ، كما كان لدعاة الوهظ والتصوف أثرهم البعيد المدى ، أمثال أبي قاسم الجنيد ، وأبي الفرج ابن الخوزي .

وكان الخلفاء العباسيين في هذا المجال دور واضح ، فقد نشط كثير منهم للدعوة إلى الإسلام ، وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان في دعوة من لم يكن على الإسلام من أهل ( ماوراءالنهر ) يستميلهم بالرغبة ، فإذا وردوا بابه شرفهم وأنعم عليهم بالاعطيات والأرزاق ، وصار المأمون لله على نفس الخطأ ، فغلب الإسلام على أهل ماوراءالنهر من السند والأشروسنة وأهل الشاش ، بل لقد كان المأمون يدعو إليه من يرتد عن أسلموا ، فيناقشهم ويحاوهم ، حتى يقنعهم ، ولم يسكره

أحد من خلفاء العباسيين أحداً ولم تسكن الجزية تؤخذ إلا من القادرين ، وكانت مرفوعة عن  
للسكنين ، والأعشى ، ومن لاحرقه له ، ومرفوعة كذلك عن الرهبان في الديارات والشيخ الكبير  
ولم تسكن تزيد عن ٤٨ درهما للفني و ٣٤ درهما للوسط و ١٢ درهما للعمال والصناع في العام ( الخراج  
لأبي يوسف ) ومن هنا لم تسكن هذه الجزية البسيرة بدافعة أصحابها إلى ترك أديانهم إلا عن إيمان  
واقتران وتفضيل .

( ٢ )

## المعتزلة والدفاع عن الإسلام

أنصور حركة التأمر على الاسلام وقد أتيجت لها الفرصة لأن تبرز في خلاف حكم العباسيين  
من خلال قضية الموالي والصراع بين العرب والفرس . لقد برز ذلك التناحر في صور متعددة من  
خلال مراحل متوالية . لقد كان للترجمة وانتشار الفلاسفة وتعدد النظريات الفارسية والجوسية  
واليونانية القديمة بما تحمل من وثنية وثنائية ، داعياً إلى ظهور المعتزلة كدفاعيين عن الإسلام  
بنفس الأسلحة ، فقد برز فريق من الذين دخلوا الاسلام مستهدين بث أفكارهم وفلسفاتهم ،  
كوسيلة لهدم الاسلام ، كان أخطر هؤلاء من أдал الاسلام نفوذهم : الفرس واليهود ، ولم تلبث  
أن ظهرت شعارات وكلمات منحرفة عن مفهوم الاسلام ، كانت هذه المعاني قد عرفت في محيط  
الإسلام منذ حمل عبد الله بن سبأ لواء الدعوة إلى بث مضامين الجوسية في الاسلام عن طريق  
الوصاية والرجعة وغيرها . وقد انتشرت هذه المفاهيم وأثارت الفتن ، حين زعم « ابن السوداء »  
أفق عليا إله وأن الجزء الالهي يحمل في الأئمة ، وقد جاهدته الامام علي ونفاه إلى ساباط المدائن ،  
وحرق بعض أتباعه ، ومن أتباع ابن سبأ ظهرت فرق الفلاة « السبيثة » وبدأ ذلك الخط الدقيق  
من المؤامرة على الاسلام ، هذا الخط الذي اتسع من بعد ، حين توسع في استخدام أفكار الفلاسفة  
والأديان القديمة ولم يلبث مثقفو المسلمين أن اصطنعوا نفس السلاح ، وظهر « المعتزلة » كأقوى قوة  
فكرية في هذا المجال ، فكان لهم فضل الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية ، وفي مقدمتهم واصل  
ابن عطاء ، والنظام ، وأبو لهذا العلاف ، والجاحظ والجبائي .

وقد كان عمل المعتزلة في هذه الفترة من صميم الدفاع عن سلام ، بإعطاء العقل مكانة في مفهوم  
الاسلام ، غير أن المعتزلة تطورت من وغالت في مكانة العقل وبعدت بذلك عن مفهوم الشمول  
والإنكامل والوسطية في الاسلام ، هذا المفهوم الذي يمزج بين العقل والقلب ، فانحرفت عن مفهوم

الإسلام الشامل الجامع ، وبلغ ذلك غاية الاضطراب حين تدخلت الدولة ففرست مفاهيم للمعتزلة على الناس ، غير أن خط الدفاع عن الإسلام لم يلبث أن تطور حين ظهر رجالات من أبرز رجاله هما : الأشعري والماتريدي . أما الجاحظ فقد كان عالماً بأساليب الكلام وطرق الجدل مع الإمام بالديانات وللذاهب الكلامية وللنطق ، فقد رد الجاحظ على للشبهة والنصارى واليهود ورحض شجاعتهم ، وهذا فضلا عن دوره في مواجهة الشعوبية والرد على دعايتها . وقد قاوم المعتزلة البدع والخرافات التي أخذت تدخل على مفاهيم الإسلام وتسيطر على عقول العامة واستأصلوها ، إيماناً منهم بخطورهم في الزحف على أصول الإسلام ومقوماته الأساسية ، وفي مجال العقائد الفلسفية للثارة ، استطاع المعتزلة أن يواجهوا جدل أهل الأديان الأخرى وأهل الفلسفات بنفس أسلحتهم ، وكان لهذه الحركة أثرها في إحاطة الإسلام بدرع قوى في مواجهة خصومه . وكان المعتزلة أول من أدخلوا الفلسفة في الإسلام محاولين التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأطلق على مناهجهم التي استعملوها « علم الكلام » أو فلسفة الدين أو علم التوحيد ، وقد ظل أهل السنة يمينين عن هذا المجال ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري الذي كان من أنصار المعتزلة ، ولم يلبث أن خرج عليهم حين انحرفوا عن الهدف الأول وقامهم بنفس أسلحتهم ونصر مذهب السنة واصطنع أساليب « علم التوحيد » في مناصرة أهل الحديث في البحث والمناظرة والاستدلال .

ولقد كان لهذا الخطر الذي امتد من المعتزلة كدافعين عن الإسلام بأسلحة الفلسفة في وجهه خصوصاً ، ثم تطورها على يد الأشعري والماتريدي إلى الدفاع عن السنة والحديث ، كان لهذا العمل أثره الذي لا حده في ازدهار الإسلام وعلومه ، كما مهد لظهور للذاهب الفقهاء . وكان أبو الهذيل الغلاف أول متكلم إسلامي تأثر بالفلسفة ، وهو من أوائل من ناقشوا أصحاب الملل الأخرى من الجوس واليهود والمسيحيين ، وكانت البصرة موطن أبي الهذيل في هذه الفترة توج بتيارات مختلفة تحاول أن ترد الإسلام وكتابه عن المسكنة التي يلفها وتدافع عن دياناتها ومذاهبها وفاسقاتها وتواجه هذا الدين الجديد بسلاح الجدل ، وكان الاسلام من قبل بسيطاً سمحاً ، وكانت الديانات القديمة قد تفلسفت وتأثرت بالفلسفة اليونانية بالذات التي انتشرت في الشرق منذ فتح الاسكندر ، وكان الفرس — هم القطاع الثاني من الاسلام بعد العرب في هذه الفترة — قد عرفوا الفلسفة اليونانية ، وكان اليهود والنصارى والجوس قد تأثروا بها جميعاً واتخذوا سلاحاً للحفاظ على ديانتهم ، ومن هنا كان اتجاه المسلمون إلى الأخذ بسلاح الفلسفة اتجاه ضرورة لا معنى عنه ، وقد أدار « أبو الهذيل الغلاف » مجالس المناظرة التي كان يعقدها المؤمنون مع أهل الديانات الأخرى ، وعرف بقوة عدله ،

وفصاحته ، فقد قرأ بدقة مختلف هذه الديانات وتبحر في الأدب العربي وحفظ كثيراً من الشعر العربي ، وكان أبو الهذيل مقتدرًا على توجيه الجدل والرد على كل الشبهات والانتصارات في النهاية ، وذلك لحض قدرته على تعمق آراء الفرق المخالفة للإسلام وعلمه بالشبه التي تنار حول القرآن والإسلام وإخام منيرها . وكان ذلك الجدل الحر المنطلق هو أروع ما عرف في سماحة دين ، يسمح في مجال حكمه وفي ظل دولته بالجدل وينتج لأصحاب الأديان والمذاهب المختلفة حرية الدفاع عن معتقداتهم ، ومن قبل أظلمهم بظلمه دون أن يفرض على هذه الطوائف الانتقال إليه قسرًا ، بل سمح لهم بأن يقيموا شعائهم في حرية ، ومن هنا وفي ظل الحرية المتاحة ، بقي كثير من أصحاب الأديان الأخرى على عقائدهم القديمة مخلصين لها .

ثم كان لهم من بعد أن يعلموا في تحويل المسلمين إليها ، وكان من المسموح به أن يتحدث خبر عن يهوديته وقبيل عن مسيحيته ، وكان أبو الهذيل يناقش هؤلاء ويجادهم ، وبلغ من أمر هذه الحرية أن ألف « يحيى الدمشقي » كتابًا يعلم فيه المسيحي الدفاع عن دينه وعمله عن طريق السؤال والجواب ، فيقول : إذا قال لك المسلم كذا فقل له كذا ، وكانت هذه الفترة — بعد أن توقفت أعمال التوسع — مرحلة انصهار واسعة وبلورة ضخمة للفكر والمجتمع الواسع الضخم ، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية وانتشارها أثرها في خلق هذا الجو الجديد ، وكثيراً ما كانت هناك محاولات لاتخاذ هذه الفلسفات والمواقف وسيلة للتأمر على الإسلام ولقد كان المعتزلة في مرحلة من مراحل حياتهم الفكرية « دعاة الدفاع عن الإسلام » وحملة لواء الذود عنه ، غير أنهم مع ثقافتهم الواسعة وبراعتهم لم يتعمقوا الإسلام ، ووقفوا منه عند حدود الجانب العقلي وأمرقوا في تقديره ، وكانت تلك نقطة الضعف : الاسراف في تمجيد العقل والايان الذي لا حد له باقتداره ، فقد رأوا أن العقل للبشرى قد منح من اليقظة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى :

هنا برزت ظاهرة التجزئة في مواجهة قانون التشكامل في مفهوم الإسلام ، هذا القانون الذي يقف في وجه كل فكرة متقدمة إذا بلغت درجة الانحراف ، لقد بانح المعتزلة درجة الانحراف حين أغفلوا تماماً جانب القلب ، والإسلام بوصفه أيولوجية يقوم على الشمول والتشكامل والوسطية ، وعلى القلب والعقل معاً ، فإن الايمان بالعقل وحده وإعلائه إنما يمثل انحرافاً بالإسلام عن مفهومه الذي لا يجعل الاهلاء لشيء سوى الله وحده ، ولقد أخذ على المعتزلة كثير من المؤرخين والباحثين أنهم حاولوا إخضاع العقائد الإسلامية للعقل وحده ، وكان هذا اتجاهًا خطراً على مفهوم الإسلام



المتكامل ، وأنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، وأن سيرهم وراء السلطان العقلي قد جعلهم قد جعلهم ينقلوا الاسلام إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ويجولوه إلى نهج فلسفي ، وليس الدين ( أقصد الاسلام ) كالمسائل الرياضية ولا النظريات الهندسية ، وإنما يجمع — دوماً — بين العقل والقلب والعلم والروح . وجملة القول أن نظام المعتزلة نظام جيد التفكير ضعيف الروح ، غالى في تقدير العقل وقصر في قيمة العاطفة ( ضحى الاسلام : أحمد أمين ) . ولا شك أن الاهتزال هو الجناح الثاني للتصوف والزهد ، وكان كلاهما يستمد من مقومات الاسلام ، ولذلك كان لا سبيل أن يسرف أحدهما فيستأثر بمفهوم الاسلام دون الآخر . ولقد بلغ أمر الاهتزال غايته في الاسراف والانحراف حين فرض نفوذا سياسيا في عهد المأمون ، وضع الناس موضع الامتحان بخلق القرآن ، وأثار أزمة سياسية وفكرية بعيدة المدى تصدى للوقوف على رأس معارضتها الامام أحمد بن حنبل بوصفه أبرز رجال الحديث والفقه . إذ قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله لا نقول عنه أنه مخلوق أو غير مخلوق . غير أن السياسة لم تلبث أن غيرت موقفها وجاء على رأس القيادة السياسية رجل أبعد المعتزلة وقرب أهل السنة ، وكان ذلك كله مقدمة لتحول خطير في صفوف المعتزلة ومفاهيمها وهو ظهور « الحسن الأشعري » وكانت موجة الاهتزال قد سيطرت واستخدمت في إثارة الشبهات في وجه السنة ، والعقائد ، وبدأ بعض دعايتها يعيثون بتفسير القرآن ، واصنعوا اتجاه تقديس العقل وتحسينه في كل شيء ، وبدأ أن ( الايمان ) يتعرض لهزاع مع العقلية ، هنالك برزت « شخصية الأشعري » كقوة دافعة جديدة لتصحيح مفاهيم الاسلام والقضاء على الانحرافات التي أنتجها تحول المعتزلة . وكان الأشعري من المعتزلة أصلاً ، ولكنه آمن بالسنة ، وكانت السنة قد بلغت درجة التقليد والجمود بينما بلغت المعتزلة درجة الانحراف ، هنالك كانت صيحة الأشعري بقطعة جديدة تخرج الاهتزال في السنة بوصفها رمز لمفهوم الاسلام الذي يقسم « بالشمول والتكامل والوسطية » فقد أعاد صياغة الفكر الاسلامي على النحو الذي يعطى للسنة أسلحة الاهتزال لتجديدها وتدافع بها عن جوهرها ، وتنشئ للفكر الاسلامي أنفاً مجدداً يقف على الجمود والانحراف معا .

### ٣- بلورة الفكر

أما وقد اتسع المجتمع الاسلامي وأخذت العناصر المختلفة تنصهر فيه : عرب وترك وفارس وبربر ، كما أخذت الثقافات والفلسفات والأديان تقبلور فيه ، فقد كان من الضروري أن يبرز تحد خطير في مواجهة مفهوم الاسلام ، ذلك هو موقف الفكر الاسلامي من القانون الروماني والفلسفة اليونانية ، ومن الحكمة الفارسية ، ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ، ومن أهداف الوثنية والجوسية والمناوية ، فن خلال الانصهار والتبلور جرت حركة التزاوج في مجالى الأجناس والأفكار وعملية التوليد : الاجتماعى والعقلى ، فكان ضرورياً فى خلال هذا البحر الخضم الذى يقذف بالثقافات والعادات والفلسفات والأديان ، أن يبرز الفكر الاسلامي واضح الحدود والمعالم ، كاشفاً عن خطوطه العامة ومقوماته الأساسية ، لتكون الإطار الذى تلتقى فيه هذه الثقافات جميعها وتنصهر ، وقد زاد هذا التحدى قوة : توسع حركة الترجمة من الفارسية واليونانية ، هذا التحدى هو الذى فرض تدوين السنة والفقه ، وتحقيق الحديث وتقنين الفقه ، وتنسيق مصادر التشريع الاسلامي .

وهناك حقيقة هامة هي أن « أبولوجيا الاسلام » قد تمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن مقومات الفكر العربي الاسلامي قد تمت قبل الترجمة من اليونانية والفارسية . وقد أتمرت هذه الحركة الضخمة عمليتين كبيرتين : ( ١ ) تحقيق الحديث والسنة على النحو الذى قام به البخارى ومسلم ومالك والترمذى وأبو داود السجستانى والنسائى وابن ماجه . ( ٢ ) تقنين الفقه على النحو الذى قام به مالك والشافعى وأبو حنيفة وابن حنبل .

ومن هنا تكونت صورة واضحة لمفهوم الاسلام ومقوماته ، محققة دقيقة ، استوعبت إراث الفكر الاسلامي منذ بدأ الرسول محمد ﷺ دعوته وما نابها من أحكام وأحاديث وقضايا واجبهها الخلفاء الراشدون وصحابة الرسول ، وما اتصل بذلك كله من أمور تتعلق بتنظيم المجتمع الاسلامي في مجال المعاملات بين المسلمين وبعضهم البعض وبين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، وقد كان خلق هذا الاطار وتكوينه ضرورة خطيرة بعيدة الأثر في هذه المرحلة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار والقضايا النابعة من فلسفات اليونان والهند والفارس ، ومن مفاهيم الديانات والمذاهب المختلفة .

كان هذا العمل الفكرى الذى يطلق عليه حركة « التدوين في الاسلام » عاملاً هاماً في مواجهة

ذلك السيل للتدفق من ثقافات الشعوب والأديان التي انطوت تحت لواء المجتمع الاسلامي ، فقد حدد موقفه منها ورسم لها للمقومات الأساسية والقيم العليا للإسلام متمثلة في ( التوحيد ، العدل الاجتماعي والإخاء الإنساني كما أيان عن أبرز مضامين الإسلام ومقوماته وهي : « الشمول والتكامل والوسطية » بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كما كشف عن طابع الإسلام الأساسي : دنيا ومدنية ، وأبرز مرونة الإسلام وقدرته على الحركة وتفتحها على الثقافات والحضارات ، ودعائه الأساسية في التجدد والاجتهاد والتطور على النحو الذي يجعله قادراً على الحياة والاستمرار مع تطور الأزمان والحضارات ، في مختلف البيئات والاقطار ، فقد جعل الإسلام « الاجتهاد والاستنباط » في مقدمة أسسه العامة حرصاً منه على مواجهة التطور ، ولم يمنع — في حدود هذه المفاهيم والأسس — من الاقتباس من مختلف النظم الرومية والفارسية والثقافات اليونانية والهندية « تنظيمات لانظما » ، مادامت لا تمس هذه القيم ولا تخرج عن هذا الاطار .

وهكذا كشف الإسلام في مرحلة التيلور والانصهار على قدرته الفائقة في تذويب الثقافات المختلفة وصهر الفلسفات والمذاهب ، وبلورة المفاهيم بحكم أنها أساساً مفاهيم إنسانية عامة تستهدف خير البشرية ، وبذلك أبان عن طابعه العالي الإنساني الشامل بوصفه « الحتمية التاريخية » التي تتطلع الإنسانية إلى بلوغها مهما وقفت العقبات في طريقها على مسار البشرية الطويل ، ومن هنا كشف الإسلام عن دوره الإيجابي في لقاء التاريخ ، ومن هنا تفتت الأسس التي استطاعت أن تلقى الضوء الكاشف على محاولات تحويل الإسلام عن مجراه ، أو تجزئته ، فهومة ، أو طاقته عن طريقة ، أو انتقاص شموله وتكامله . على النحو الذي بدا في حركات التناحر على الإسلام التي توالى في هذه المرحلة .

وقد كشف الفقهاء والعلماء والمحدثون في هذه المرحلة عن قدرتهم الفائقة ، على إعلاء الفكر الإسلامي وتوسيع أفاقه بما جعله قادراً على الاستجابة للحضارة والتطور ، وذلك باستنباط المسائل وحل القضايا ووضع الإجابات السليمة للمعضلات ، واستخراج النتائج والفناوى في كل ما يتعلق بتنظيم التجارة وشئون المجتمع ، وقد أحصى لأبي حنيفة أنه أجاب عن ٦٠ ألف مسألة منها ٤٥ ألفاً في المعاملات ( مناقب أبي حنيفة للمسكي ) وأورد مالك في المدونة ( ٣٦ ألف مسألة ) وجمعت مسائل أحمد بن حنبل في أربعة مجلدات ( الجامع لعلوم الإمام أحمد : أبو بكر الخلال ) وقد سارت هذه المدارس كلها في طريق واحد ، تتوالى على نحو متكامل وتقوم على أربعة قضايا هامة :

(١) الاجتهاد باعطاء المجتمع الحلول الفقهية لمختلف معضلاته . (٢) تصحيح المفاهيم إذا اضطرب الطريق أو خرج عن مفهوم التكامل والوسطية . (٣) الدفء عن الاسلام والرد على الشبهات الموجهة اليه . (٤) النقد الاجتهادى للمجتمع ، ومناصحة الولاء .

ولقد ظل عمل مفكرى الاسلام طوال هذه العصور ، هو « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » وتشكيله على النحو الذى تكشف عن قدرته الفائقة فى الاستمرار متفاهلاً عن التطور فى البيئات المختلفة على توالى العصور ، متقدماً نحو تحقيق الحرية والعدالة والأخوة والمساواة بين بنى البشر فى ضوء التوحيد ، ولقد كان لذلك العمل بعده إلهام بالنسبة لحركة الترجمة التى أعطاها الفكر الإسلامى تقديره وثقته ، حتى اشترط الخلفاء على البيزنطيين فى عقود المهادنة والصلح ، تقديم المخطوطات اليونانية ، وقد نقلت هذه المترجمات فلسفات ونظريات لم يقبلها الفكر الإسلامى على هلاتها بل قبل منها ورد منها فى نطاق مفهومه ، وفي إطار مقوماته الأساسية واستطاع أن يفتقم بالنطاق كلاح قد دفاع عن الإسلام فى مواجهة استعمال أصحاب الأديان الأخرى له .

وقد نبأور هذا العمل عن صياغة كاملة لأيدولوجيا الاسلام : السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد قامت هذه الأيدولوجيا على القرآن ، والحديث ، أما القرآن — الوثيقة الخالدة التى خلت من التحريف على مر العصور — فهى المصدر الأول ، أما الحديث فقد حوى ذخيرة ضخمة بالأحكام والمواقف والأقضية ، التى واجهت المسلمين كمجتمع خلال ثلاثة وهشرين عاماً فى حياة الرسول ، هذا الحديث كان فى حاجة إلى مراجعة وتنقيح ، ونفى المكذوب منه ، وقد حمل لواء هذه المهمة أعلام أبرار ، عاشوا حياتهم كلها له ، وقد اهتمبت أساماً على الصحف التى كتبت فى حياة الرسول وحفظت لدى أوائل المسلمين ، وقد كانت هذه الجوامع والمسانيد والسنن هى الأساس للتجميع وقد قطع المحدثون وفي مقدمتهم « البخارى » أعمارهم فى السفر من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه طلباً لتحقيق الحديث من أقصى المغرب إلى خراسان .

غير أن إطار الاسلام للثقافة الجديدة قد ظل واضح الأثر فى حركات التنقل والترجمة والاقتباس فإن المسلمين مع كونهم ترجموا الفلسفة والعلوم والثقافات ، فانهم لم يترجموا أى تشريع أو قانون أو نظام . وفى مجال الفلسفة فإن الفلاسفة المسلمين أخضعوا ما نقلوا إلى مفهوم الاسلام فى التوحيد والنبوة . وقد ظل دعاة الاسلام وعلمائه وفقهائه ، قادرين دائماً على المحافظة على مفهوم الاسلام

وأيدولوجيته ، وبجب هنا التفريق بين مبادئ الإسلام وتعاليمه وبين التطبيق الذي رسمه التاريخ للقيادات السياسية الإسلامية المختلفة ، فقد ظل الفكر الإسلامي قائماً حياً يُدفع من كيانه هواميل الانحراف والتجزئة والاضطراب ، ويدافع عن التطبيق ، وظلت الجماعة الإسلامية قوية حية سليمة ، فان للمسلمين لم يعودوا سيرتهم الأولى قبل الإسلام ، ولم يراجعوا عن الإسلام بعد إذ أسلموا ، وظلت طبقات العلماء والزهاد والمجاهدون والدعاة والطبقات الشعبية ، مثل مفهوم الإسلام ، لم تنحرف إلا بعض الطبقات الحاكمة والمترفة . ومع ذلك فقد ظلت الشريعة الإسلامية نظاماً مطبقاً في مختلف العصور حتى أوقفها الاحتلال الغربي ، غير أن نظام الإسلام في بعض المراحل قد أموره تطبيقه ، ولكن هذا لا يعني أنه قد أبعد نهائياً عن مجال التطبيق .

وقد مرت مرحلة الصراع بين المذاهب والأديان والأنظمة والفلسفات وتبلورت في صورة «فكر إسلامي عربي» له مقوماته المستمدة من الإسلام وله قدرته على التطور والحركة ، وقد عولجت على أساسه مشكلات الجماعة الأساسية ، وقد استطاع الإسلام أن يواجه المقتبسات من الثقافات الهيلينية والفارسية وأن يصورها في بوتقته بحيث أصبحت فكراً عربياً خالصاً . واستطاع «الفكر الإسلامي» أن يحقق نتائج هامة :

- (١) القدرة على استمرار أيدولوجيا الإسلام ، وفكره وفقهه في مختلف الأزمنة والبيئات مع استطاعته المرنه على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة وذلك لحيويته وقدرته على الحركة وإيجابيته وتقدميته . (٢) مواجهة الصراع الفكري والرد على المؤامرات الموجهة للإسلام . (٣) استمرار انتشار الإسلام وتوسعه وتمده ، ونحول العناصر المختلفة في المجتمع إلى الإسلام وفتح الإسلام لآفاق جديدة . (٤) نقد المجتمع الإسلامي ومقاومة الانحرافات من ترف وإباحة ومناحجة الحكام والولاة . (٥) تصحيح المفاهيم ، ومقاومة الانحرافات الفكرية التي تحاول تجزئة الإسلام وإقصائه من مفهوم التكامل والوسطية . (٦) إعادة صياغة الإسلام بالتجديد ورد الانحراف بكشف القيم الأساسية ودفع الإسلام في مجراه إلى الامام مع العمل على إزالة ما يحول بينه وبين الحركة ، كالتجميد أو التوقيف أو التجزئة .

(٤)

## انصهار المجتمع الإسلامي

في هذه المرحلة تمت عملية إنصهار المجتمع الاسلامي ، وقد واجهت عملية الانصهار خطوات بالغة الدقة ، فقد كانت الجماعات المختلفة في العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، تتوصل عناصر مختلفة وديانات مختلفة ، وقد تداولت عليها حضارات ومدنيات متعددة .

ولم يكن العرب حين قاموا بحركة التوسع قد عزلوا أنفسهم عن أهل هذه الأقطار ، بل أنهم إنصهروا فيها بالنزواج والتوليد ، وكانت أبرز القضايا الاجتماعية هي : الرقيق ، أو الأمري ، أو الموالي ، كما تعددت أسماؤها ، وكان بروز هذه القضية طبيعيا نتيجة لحركة التوسع وما يتصل بها من رق وولاء ، غير أن هذه الجماعات قد أخذت تنصهر بسرعة بعد أن دخلت بيوت العرب عناصر فارسية ورومانية وفارسية ومصرية وبربرية ، نتيجة للزواج أو التسرى ، فلما جاء الجيل الثاني لعصر التوسع حل معه دماء مختلطة ، وقد أتاح الاسلام لعملية الانصهار أفاقا من السعة والسماحة حققت الاختلاط والامتزاج والمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فلم يكن العرب بوصفهم أصحاب حركة التوسع مستعمرين انزلوا عن هذه الشعوب ، بل إنهم اقتداندمجوا في الأقطار منذ اليوم الأول ، مما جعل بعمله « الانصهار » ، فضلا عن أن الاسلام لم يكن يفرق بين العناصر المختلفة . كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية ، و انتظمت كل عمليات البلورة والانصهار مختلف مرافق الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ولم تفسد إلا فترة قليلة خلال نظام الأمويين الذي قام على السيادة العربية حتى انصهرت القوى العربية مع العناصر الأخرى ، وفي حكم العباسيين الذي أصبح طابعه إسلاميا شاملا تعمق الانصهار وأتيحت الفرص لكل العناصر أن تقيم دولا حكومات . غير أن هذا « الانصهار الاجتماعي » قد حفظ أمرين أساسيين له : اللغة العربية والاسلام ، قد انسجبت هذه العناصر من أديانها أولا بأول كما انسجبت من لغاتها ، إذ أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة ، ولقد كان طابع الاسلام واضح البروز في هذا المجتمع الجديد الذي امتزجت فيه العناصر المختلفة ، فقد ظهرت حركات النقد الاجتماعي ، ومناصحة الولاء والزهد كرد فعل على الانحرافات التي اضطرب بها المجتمع ، وفي مواجهة حركة اللهو والانحراف . وقد حملت بعض هذه الفرق لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفي مقدمتها حركة خالد القديس وسهل بن سلامة الأنصاري وهم من دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله . يقول الطبري أنه تبعهما خاق كثير ، وقال ابن خلدون : أن الذي دعا إلى هذه الحركة هو توافر أهل الدين والصالح على منع الفساق وكف عاديهم .

ثم كانت حركة الزهد التي قادها : هبة الله بن المبارك ، شعبان ابن عيينه ، سفيان الثوري ، الفضل بن هبة هي رد الفعل على انحراف الجمع ، وقد رفض هؤلاء عطاء الأمراء . وعندما ظهرت حركة الزندقة ( الشك والإلحاد ) قاموا العلماء والخلفاء ، يقول المسعودي أن المهدي آمن في قتل للملحدين والمداينين عن الدين ، ولما انتشر من كتب ماني وابن ديسان دسوقيون ، ومما ترجم من المارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف ابن أبي العوجاء وحماد هجرى ويحيى ابن زياد ومطيع بن إياس في تأييد المذاهب المانوية والديسانية . كما أمر المهدي رجال الكلام والمعتزلة بالبحث والكتابة في الرد على الملحدين ، وقد قاموا في ذلك بحركة واسعة وحضوا فيها شبه الملحدين . وقد اتفق الخليفة الهادي ( ١٦٩ هـ ) نفس الطريق الذي سلكه المهدي ، فقام أصحاب ماني التي وصفت بأنها « فرقة تدهو الناس إلى ظاهر حسن ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة » كما تعقب الرشيد الزنادقة ( ١٧٠ هـ ) كما واجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم الإسلام ، من أمثال هبة السكريم ابن أبي العوجاء الذي وضع أربعة آلاف حديث مكذوب ، وحماد الراوية ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد ، وابن المنعم . وقد كان دعاة الزهد ونقد المجتمع ، يواكبون هذه الحركات ويصححون المفاهيم ، ويدحضون دعاوى اللضاين ، ويمجدون تقديراً بالغا لما اتسموا به من ورع وتقوى ، وهزوف عن أصحاب الجاه والسلطان . وكان سفيان الثوري مع صلاحه وورعه يعيش من تجارته ويرفض عطاء الولاة ، وكان المعتزلة في مقدمة من تصدوا للرد على الزنادقة ، وفي مقدمتهم واصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف ، وبشر ابن المعتمد ، وإبراهيم ابن النظام وهكذا واجه الإسلام كل ما جرى له من مؤامرات لشحيمه أو أويله وبقي قادراً على الاحتفاظ بنبذة روحه وطابعه وسلامة شخصيته وعالمه . كما قاوم البدع والأفكار والأعصية والثنية كما امتحن بالذبح والترف والإلحاد والزندقة والفلسفات حتى شك الناس في قوة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات ، ولكن الإسلام لم يستسلم ولم ينهزم ، وقام خلال مختلف مراحل رجال أعلام ودعاة أبرار فضحوا الممارسين ، ورفعوا التحريف عن الإسلام ، وكشفوا عن جوهره الأصيل ، وقاوموا البدع والخرافات ودافعوا عن السنة دفاعاً حاراً ، وحاربوا الوثنية والترف وجهروا بالحق في وجه الولاة والأمراء ، وبذلك انتهز الإسلام في هذه المعركة الضخمة خلال مرحلة التبلور الفكري والانصهار الاجتماعي وصهر التراث

الإنساني كله في بوتقته ، دون أن يخرج عن أصوله ومفاهيمه وأمنه . ومضت قوى الدفاع عن الإسلام ونحريره من الزيوف وتنقيته من النقايد والبدع ، والتحريف ، وإعادة عرضه في صورته الصادقة بما يؤتم تطور المجتمعات وتحول العصور ، وظل تاريخ الإصلاح والتجديد متصلاً لم يتوقف ولم ينقطع ، فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدد ، يمارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الإسلام الحق ، ويفتح نوافذ جديدة أمام اتصال الإسلام بالحياة ، وقدرته على الأخذ والعطاء ، وما من مجدد وعالم أو مصلح إلا وقد أضاف إضافة مهما كانت صغيرة فقد كانت ضرورة في عصرها وجديدة ، وبذلك بنى المصلحون لبنات في هذا البناء الضخم كشفاً لجوهر خصائص الإسلام وتجديداً لاتصاله بالحياة وفتحاً لطريق الإسلام إلى غايته في حتمية التاريخ : نظاماً للإنسانية كلها .

( ١٤ )

## دور الإسلام في العلم

منذ كشف الإسلام عن مفهومه في تقدير العلم والعقل ، انفتح الطريق أمام المسلمين إلى أفق البحث . فقد كشف القرآن عن منهج جديد هو « منهج البحث العلمي » والجدل العلمي ، والمطالبة بالبرهان والدعوة إلى إمعان النظر والفكر كما حمل على المتلذذين الذين يعطلون عقولهم ، وأعطى الإسلام العقل قدرة ، ودعا إلى النظرة في الكون وجعل العقل أساساً للتفكير والتفكير في الطبيعة ولفت النظر إلى السماء ، والأرض ، والجبال وخلق الإنسان والنبات ، ودعا القرآن إلى إيقاظ العقل ورفع من شأن العلم والعلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وكانت نظرة الرسول إلى العقل نظرة واضحة وهو عنده أصل الإسلام وأساسه ومناط التكليف ، وأن لا دين لمن لا عقل له : فالعقل أصل دينه ، وبه يتفاضل الناس ، وقال : العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل ، وفضل الإسلام العالم على العايد ، خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت ، وطالب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وفي نطاق هذه المفاهيم كانت انطلاقة للمسلمين والعرب إلى مجال الفكر والحضارة فأصبح للعلم مقامه الإسمي في الفكر العربي الإسلامي ، وقام منهج هذا الفكر جامعا بين العقل والوجدان ، محاجة ومحاكاة ، فلا تعارض بين العقل والنقل ، وقد أخضعوا الأدب والفكر للبرهان ،



وعالجوا القضايا على أساس للنطق والدليل دون أن يخل ذلك بمفهوم التكامل والشمول في الإسلام  
« مادة وروح » مما .

وقد فتح لهم هذا « الإيمان بالعقل » الذي أمدهم به الإسلام أبواب البحث العلمي والتجربة حين  
كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى، ومن ثم أبرز الإسلام تفوقاً ملحوظاً في مجال الحضارة وساهم  
بدور فعال في مختلف عناصر العلوم والفنون : الطب والصيدلة ، الكيمياء والنبات والزراعة ،  
الرياضيات والفلك والجغرافيا ، التجارة والصناعة ، العمارة والبحرية ، الإدارة والموسيقى والفروسيّة  
واستند المسلمون قاعدة البحث العلمي من مفهوم القرآن أساساً ، وقد بدأ اتجاه العقل الإسلامي إلى  
هذا المجال مبكراً ، قبل عصر الترجمة وتبجلى ذلك أولاً في مجال الفقه والتشريع والقانون ثم امتد إلى  
مجال العلوم ، وكان يزيد بن معلوية في مقدمة من تناولوا هذه العلوم ، ثم كان للترجمات التي تمت في  
خلال خلافة المنصور الرشيد والمأمون ثمرتها في بروز العقلية الإسلامية في مجال العلوم حيث استطاع  
مجموعة من العباقرة المسلمين الانتفاع بما وصل إليه اليونان في هذا المجال والإضافة إليه والتوسع فيه  
على نحو حقق نتائج بعيدة المدى .

وقد امتد هذا القطع منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر ، لم يتوقف ، ولم يخل دونه  
الأحداث التي اضطرب لها عالم الإسلام : في مرحلة « الفزو الخارجي » ، وقد انتظم البحث العلمي  
عالم الإسلام كله ولم تقتصر وحدة من وحداته على العمل وحدها ، فمن حران والقاهرة ودمشق  
وبوزجان وخوارزم وطوس وبغداد والري وقرطبة وبخارى والبصرة ظهر ذلك العدد الكبير من  
العلماء الذين عملوا في مجال الجبر ، والتفاضل والتكامل ، والفلك والطب والرياضيات والبصريات  
والجراحة . ومنهم من جمع بين الطب والفلسفة ( الرازي ) ومن جمع بين الفلسفة والنجوم والفلك  
والحساب والهندسة والطب والطبيعيات والموسيقى ( السكندی ) ومنهم من وضع علم الجبر ( الخوارزمي )  
ومن تساوى مكانه في الكيمياء مكان أرسطو في المنطق ( جابر بن حيان ) .

في هذه المرحلة برز جابر بن حيان ومحمد بن موسى الخوارزمي والسكندی وثابت بن قرة والبتاني  
وأبو بكر الرازي والغاراني والبوزجاني وابن يونس وابن سينا وابن الهيثم والبيروني وأبو القاسم  
الزهرای . وقد حقق هؤلاء العلماء في مجال العلم بأنواعه إضافات جديدة ، تسلمها من جاء بعدهم ،  
وكانت بيئة المشرق في هذه المرحلة ذات أثر واضح ، ثم أصبحت بيئة الأندلس من بعد أكثر قوة

واهتماما ، ومنها تحولت نهضة العلوم إلى الغرب فأن كل جزء من أجزاء الأندلس كان يسقط في أيدي الفرنجة إنما كان يصبح بدراساته وتجاربه التي حققتها الحضارة الإسلامية خلال القرون المتوالية جزءا من أوروبا ، لقد تسلم المسلمون والعرب من الفكر : اليوناني والهندي مبادئ هذه العلوم ، ثم تعمقوها وقدموا عليها تصحيحات هادفة وإضافات مهمة . وليس صحيحاً ما رددته خصوم الإسلام من أن العرب لم يكونوا إلا نقلة ، تقول دكتورة سجريد هوتك : « حين أخذ العرب هذه الأشياء فانهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب ، إلا فإن الإغريق هم وسطاء أيضاً ، أن لكل عبقريّة طابعها الخاص ، وطريقها الخاص ، وإن ما أثر العرب الخالدة لنقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الإغريق ، وأن العرب هم مبدعو « التجربة » بلامعني الدقيق للكلمة ، وهم الخالقون الطبيعيون « للاستقصاء العلمي » فقد كانوا أول من جعل من الوقائع الممزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وهندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو الطريقة الإستقرائية : الطريقة العلمية الأساسية ، وأن الفكر الغربي لم يستيقظ من ذلك الخدر الذي أثقل عليه طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكي يطير ، إلا بعدما استملك المنجزات العربية في الميادين التقنية والصحية والإدارية ، بعد ما تبني هذه المنجزات على المستوى الحضاري » .

وشهدت أبحاث المسلمين في مجال العلم أنهم كانوا لا يضعون قاعدة إلا بعد تجربة واسعة تباع هشرات المشاهدات وقد قدم المسلمون في مجال العلوم كشوفات جلي : (١) في مجال النكس وحركات النجوم ، شيدو « مراقب » في مختلف العواصم وبلغوا الغاية في استقصاء السماء وتوسلوا إلى اكتشافات لا حصر لها في تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم ، بصورة متزايدة لدقة . (٢) وفي مجال الرياضيات بلغوا الغاية في حل المسائل بواسطة الحساب وهم أول من استخدموا الفاصلة للإشارة إلى الكسور ، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستيني وقسموا الدائرة إلى ١٦ درجة ووضعوا الحساب التفاضلي الذي أسسه ابن سينا وقد قادت الفارابي نظرياته في الفنون الموسيقية قريبا من اللوغاريتم ، ونظريته في المقادير المنتهية في العصر مع نظرية ابن سينا ألهمت العلماء الأوروبيين :

x ابن سينا : اكتشف الطبيعة المعدية لمرض السل ، وصف مرض الإلتهاب في الفشاء الصدري وكثيراً من أمراض الأعصاب وهو أول من كشف مرض الأنكسوما وعلامات الإصابة والقابلية لمرض السل . + الرازي : كشف عن مرض الجدري والحصبية ، عرف الطعیم واكتشف أن مركز الإبصار هو قاع العين ونادى بأن السكيا يجب أن تستغل في خدمة ألعاب وعرف كذير

من الأطباء للمسلمين فائدة السكى، وأعراض السرطان الذى يعيب المعدة، ووضعوا الجرعات للمضادة في حالات التسمم، وهو أول من وصف استخراج الماء من العين.

× ابن الهيثم: أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الأجسام إلى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف بل العكس ووضع نظرية الظل وكان سببا إلى استخدام المفرقة للاظلمة في تجاربه × جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء × أخلوا رزمى ما زال اسمه يطلق على الأهداد وهو علم الجبر × البيرونى: حدد الكثافة النوعية لكثير من المعادن والأحجار الكريمة × الزهرادى أعظم الجراحين وفي كتابه «التصريف لمن يعجز عن التأليف» وصف دقيق للعمليات الجراحية، أو من لجأ إلى استئصال حصاة المثانة من النساء عن طريق المهبل ونجح في شق القهبة الهوائية كما أجرى عملية تفتيت الحصاة من المثانة. وفي مجال الطب إكتشف علماء المسلمين: التطعيم ضد الجدري (الرازي وابن سينا)، وابن النفيس الذى إكتشف دورة الدم الصغرى قبل وليم هارفى بأربعمائة عام، وقد اشتغل بالطب عدد كبير من المسلمين بلغ في عصر واحد في عاصمة واحدة، «بغداد»: في عهد الخليفة المتوكل بالله ما يقرب من تسعمائة طبيب. والجرجاني كشف عن تضخم الغدة الدرقية وبهاء الدولة عرف السعال الديكى، ومهر المسلمون في الجراحة وخاصة في أمراض العين، وكانوا أول من طبق طريقة التخدير العام في العمليات الجراحية، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة السمكادات الحارة، وكان الأطباء المسلمون أول من استخدم المرقد (المخدر) في إجراء العمليات ووضعوا علاج اليرقان والهواء الأصفر، وأول من كتبوا في الجندام ووسائل انتقال المرض وكان لهم دورهم في الصيدلة يقول جورج سارطون: إن التشريح كان في أوروبا ممنوعا البتة، فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا في المغرب، وأعظم تقدم علمى حققه المسلمون كان في علم البصريات وفي مقدمتها أبحاث السكندى وابن الهيثم والخازن. فقد عارض السكندى كل كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الأشياء المرئية فقرر أن شكل الجسم المرئية هو الذى ينفذ إلى العين مراراً من خلال العين مراراً خلال الفتحة الشفافة (المعدة) وفي دراسات انكسار الأشعة وانعكاساتها وانقلاب الصورة المعكوسة. (٣) وفي الكيمياء لمع نجم العلماء المسلمين، وما تزال كثير من المصطلحات الكيميائية الأوربية تحمل الاسم العربى، كالكربونات والأنتيك، والقصدير، والتنور، والزرنيخ، والدائق والخميرة والزنثيق. (٤) وفي الطبيعيات درس المسلمون علم مركز الأتقال وخواص السوائل، (عبد القادر الطاهرى) والخازن له بحث في الضغط الجوى، وللمسلمين أبحاث في الجاذبية سبقوا بها نيوتن. (٥) وفي الرياضيات كانت أوروبا تجهل

استعمال الأرقام : (٦) وفي الجغرافية : ياقوت والمقدمي وابن الفقيه وابن حوقل والمسعودي والبيروني وابن بطوطة وابن جبير وابن خردزاية والاردبيلي ، ومن الظرائط التي رسمها العلماء المسلمون كون « كولومبس » فسكرته من السكر الأرضية وكان اعتقاد الأوروبيين أن الأرض مسطحة ، فغير الجغرافيون المسلمون هذا الاعتقاد وأكدوا كروية الأرض ، وقد ذخرت البحار والمحيطات بأساطيل المسلمين وما تزال مصطلحات الفلك عربية : [ القلظة ، أمير البحار ، دار الصناعة ، الطرف ، كرمي الجوزاء ، الكف ، الأرنب ، والعروقب ، سعد السعود ] والفزاري هو من أول من اصطنع الاصطراب . وهم أول من اخترعوا الكتابة البارزة للمكفوفين : ( زين العابدين الأمدي ) ، والحوالة المالية عرفها العالم الاسلامي قبل أوروبا ، وكذلك الورق والطباعة ، والقطان أهداه المسلمون إلى أوروبا . (٧) والمسلمون لهم دورهم في الموسيقى ، وقد عرفت أوروبا آلات الموسيقى التي جلبها المسلمون : العود والصقار والرباب والصنوج والغدير ، ويقول الدكتور فرانز روزينثال : أعظم نشاط فكري قام به العرب والمسلمون يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً فحبيين ، حين يلاحظون ويحصون وحيزهم ، ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد ، ولذلك فإن أساليبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيراً عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف . ويقول فرانز روزينثال : أن الغاية يجب أن تسكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع في أي بحث ، أما البحث الذي لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدي به ولا النتائج التي تسفر عنه فيجزم في الإسلام ، وحاجة هذا العلم أن يعرف الانسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدر ، لم تؤثر التأثير السوء في النشاط الفكري الاسلامي طيلة قرون عشرة ، لقد كان المؤرخون المسلمون ، كما كان العلماء يعتمدون على الوثائق المدونة ولم يكن للمعارف السنية تعتمد الذاكرة شأن في تأليفهم . ولم يكف المؤلفون المسلمون عن ذكر « الجذاذات » التي كانوا يدونون عليها الملاحظات أو يسخنوا منها المقتبسات ، وقد حتى علماء الحديث والفقه وعرفوا في الدرجة الأولى بالأمانة والدقة في ذكر المصادر المأخوذ عنها ، لأن الأسانيد في نظرهم من مادة البحث ، وكل عمل آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين « الحديث والفقه » ، تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع في درسهما ومعالجتهما ، ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم ويحترمون الثقافات منهم بإحترام ، وقد ألف العلماء المسلمون كتباً لدحض آراء معينة ، وكثيراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك ، عندما يجابهون المشاكل التاريخية التي يبحثونها ، ويعتقد الطبري أن الظن أو الحدس لا يصلح أن يكون حكماً في إثبات الحقائق وإن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة

المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا . وأوصى رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ، المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا في كل خبر نظراً عارياً عن محبة أو بغضة وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه . وقد كانت الغاية للثلي للتربية عند المسلمين أن يقرب الانسان من السكال ما أمكنه الاقتراب في كل ناحية من نواحي العلم في سن مبكرة جداً ، فإن ابن سينا يباهى بأنه كان يجيد معرفة كل هلم وفن بخطير بالبال ، ويقول الأزدى في كتابه تاريخ الممالك الاسلامية : أن الزمن لا ينف بل أن صفته الدائمة التغيير ، ولم تكن فكرة التطور الفكري المستمد من جيل إلى آخر فكرة غريبة كلياً عن التفكير الإسلامي ، وكان الرازي يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل هلى أسس وضعها الأجيال السابقة ، وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجي بعين الاعتبار في مجال الطب والكيمياء لم تكن فكرة التطور والنمو التدريجي غريبة على العلماء المسلمين ، وقد اعتبروا بلوغ السكال بمعنى أن المتأخر يتم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التي يتصف بها التطور والنمو من جيل إلى جيل .

(١٥)

### « إنتشار الإسلام »

كانت عدالة النظام الإسلامي في مختلف وحدات عالم الإسلام بعد أن تمت حركة التوسع ، عاملاً هاماً في إنتشار الإسلام نفسه وانتقال الناس إليه . فإن تخليص الإسلام للجاعات المختلفة من الجور والظلم كخظرة أولى ، ثم ما حققه من حرية لجماعاتها ودياناتها كتطبيق على الإسلام نفسه ، وفي حدود ما أذاعته تعاليمه وما رسمه عمر بن الخطاب وغيره من الولاة في العقود التي عقدوها كمقد بيت المقدس وغيره ، كل هذا أسرع بالجماعات المختلفة إلى الاسلام بعد أمد قصير ، وزاد في ذلك ما عرف من بساطة الإسلام وبمده من التعقيد وصدق توماس أرنولد حين قال : إن للقوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام ، وقد توات جماعات من العلماء والفقهاء في مختلف الوحدات الجديدة إذاعة مبادئ الإسلام وشرحها ، وكان الخلفاء يرسلون إلى كل قطر من بقعة الناس في دينهم ويحفظهم القرآن . وكانت « الجزية » التي يدفعها غير المسلمين — وهي بمثابة ضريبة الدفاع التي تفرض على غير المسلمين في مقابل الدفاع عنهم مع إعفائهم من الاشتراك في القتال — هذه الجزية كانت ترفع قور إسلام صاحبها ، وقد رد المسلمون « الجزية » لأهل حصص عندما تحولوا عنها ولم يستطيعوا أن يمنعوا أهلها . وقد كانت مغريات « الأخوة » بين المسلمين كافة عاملاً هاماً في اندفاع الناس إلى الإسلام ، وقد شهد الحرية الإرادة في أسلام المجموعات المختلفة كثير من الباحثين المنصفين ، يقول توماس أرنولد :

لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ، أو عن اضطهاد منظم قصد به إستئصال الدين المسيحى ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لا كتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها ( فرديناند وإيزابيلا ) دين الاسلام من أسبانيا ، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانى مذهبا يعاقب عليه معتقوه فى فرنسا ، وأن مجرد بقاء الكنائس الشرقية فى آسيا حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم ، والمعروف أن المسيحيين فى بداية دخول العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الاسلام فى جموع هائلة . واتسمت الفترة التى تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة ( ٩٩ - ١٠١ ) بتعميق ضخم لدعوة الاسلام وتحول واسع النطاق إلى الاسلام ونقل مجال الدعوة الاسلامية من التوسع الجغرافى إلى التعمق العقائدى ، فقد أرسل عشرات الرسائل يدعو الرؤساء والأمراء فى مختلف وحدات عالم الاسلام إليه ، وكانت شخصيته هادلا هاما فى هذه الحركة فإن الصورة التى رسمتها حياة عمر بن عبد العزيز فى سماحته وتفقهه واستغلائه على مظالم الحكم ، وعدالته المقطوعة النظير ، كانت هى أساسا مصدر ما تحقق من نجاح بعيد المدى فى هذا السبيل حتى دخلت ألوف مؤلفة من الناس إلى الاسلام عن طريق الولاة النادرين الذين اختارهم ، وكانوا من تلاميذه فكروا وعلى نهجه عملا .

كما أنه ألقى القرار الذى كان قد وضع قبلا ، فأعفى من يدخل فى الإسلام من دفع ضريبة الرأس ، ورفع ضريبة الأراضى ، واستبدلها بضريبة أخف هى ضريبة العشر ، وكانت هذه الأساليب كما يقول أرنولد : « وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحا تاما فى الاتجاه الذى كان يريد أن أثارها بحققة صاحب العقلية التى أشربت الورع والندى فبادرت جموع هائلة إلى الدخول فى زمرة المسلمين » . يضاف إلى هذا ما قام به ولاة المسلمين من عمل متصل فى الرد على الشبهات التى تُشِيرها أصحاب الأديان الأخرى وخصوص الإسلام ، والمأمون ( ١٩٨ - ٢١٨ ) مثل بارز فى هذا المجال فقد كان شديد الحساسية للجهود التى تبذل فى نشر الإسلام ، وقد أرسل إلى كثير من الأمراء ممن كانوا يقيمون فى أقصى أجزاء عالم الاسلام كبلاد ما وراء النهر وفى غانة يدعوهم إلى الاسلام ( البلاذرى ) ومنذ أن توقفت التوسع الاسلامى إلى أن بدأ الغزو الخارجى لعالم الاسلام بالهجمات الصليبية كانت عمليات البلورة والانصهار الفكرى والاجتماعى تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد وعقلية متقاربة . وكانت الأجناس العربية والفارسية والتركية والبربرية تتلاقى وتتصهر فى بوتقة عالم الاسلام بمحدوده الجغرافية لتسكون « أمة واحدة ذات عقلية واحدة » . وكانت الفلسفات والمذاهب

والنظريات والعلوم والآداب والفنون الهندية والفارسية والرومانية واليونانية والمسيحية واليهودية تحاول أن تنصهر في بوتقة الفكر الاسلامي بمقوماته الأساسية لتسكون فكر أمة واحدة . غير أن ذلك العمل كان على ضرورته خطيراً ودقيقاً ، وكان مليئاً بالتحديات ومؤامرات خصوم الاسلام ، ومن هنا بدأ ذلك الصراع للضخم بين الفقهاء والفلاسفة والصوفية ، في معركة كبرى ذات نهل وفرق ، مختلفة متعارضة ، كان قوامها سياسى في الأغلب ، غير أنها لم تلبث بعد أجيال متعددة أن تبلورت عن قيام « أسس كاملة » للفكر الاسلامي دعائمها القرآن نفسه ، وقوامها « جوهر الاسلام » كما دعا إليه محمد رسول الله ، أساسه « التوحيد والنبوة والقرآن » ، على قواعد الاسلام الأصلية ، ولم يبق الخلاف قائماً إلا في الفرعيات والقضايا والمسائل التي لا بد من الخلاف فيها نتيجة لإختلاف الأجناس والأوطان والظروف : وكانت أكبر قضية خلافية هي قضية العقل والروح : هذه التي أقامت معسكرى السنة والشيعة من ناحية ، وطبعت للفكر الإسلامى بطابع فلسفى معتزلى من ناحية وطابع صوفى روحى من ناحية أخرى . والواقع أن الإسلام في جوهره ليس إلا امتزاجاً دقيقاً وواضحاً بين العقليات والروحانيات فلا يمكن الفصل بينهما ولا يرجح أحدهما عن الآخر ، وكل ادعاء بأن جانباً بمفرده يمثل مفهوم الإسلام هو ادعاء مردود .

وقد كان رجحان العقليين في مرحلة من مراحل تاريخ الإسلام مدعاة للاضطراب ، كما كان رجحان الروحيين في مرحلة أخرى . ومن هنا كانت حتمية الاستمرار في الإسلام قادرة على تصحيح المفاهيم ورد كل انحراف ينشأ بين حين وحين ، بقيام داعية مصلح يعيد صياغة مفهوم الإسلام على أساس جوهره القائم على التكامل والشمول والوسطية .

وفي خلال « مرحلة التبلور » والانصهار ظهرت دعوات المعتزلة والفقهاء والفلاسفة ثم برزت الصوفية التي تحمل طابع الزهد أول الأمر ، وكانت رد فعل للترف والانحراف الذي أصيب به المجتمع الإسلامى في تطوره ثم تطورت الدعوة الصوفية في القرن الثالث من زهادة ملتزمة لقواعد الإسلام متمسكة بالفقر ومحاسبة النفس والتوكل على الله ، إلى فلسفة نظرية قوامها دعوة إلى وحدة الوجود والحلول والانحدار وبذلك انحرفت عن مضمونها الإسلامى الأصيل ، حين تأثرت بالفلسفات القديمة والنظريات الباطنية والمنحرفة التي كانت بعض دعوة خصوم الاسلام في سبيل إخراجها عن مفاهيمه الأصلية . وقد إتصلت بأصحاب الدعوة إلى الصوفية الفلسفية ، شبهات التآمر على الإسلام فإن كلا من الحلّاج والسهروردي قد اتهم بمؤالة حركة من حركات الانتفاض على الإسلام .

وقد قدم التصوف الإسلامى فى تياره الأول « الزهد » روحاً جديدة إلى الفكر الإسلامى تخفف من جناف الطابع العقلى الذى سيطر على دعوات الفلسفة والاعتزال والفقه ، غير أنه لم يلبث أن دخل فى متاهات فلسفية أذهبت عنه إصالحته وسماعته وبساطته المستمدة من « جوهر الإسلام » حين أخذ يبحث فى قضايا المعرفة والأحوال والمواجد والأذواق ، غير أن الإمام الغزالى فى نهاية هذه المرحلة قد استطاع أن يقضى على هذا التمزق الذى أصاب الفكر الإسلامى بانقسامه إلى فقه وتصوف ، فأعاد صياغة الفكر الإسلامى من جديد فامتزج التصوف والفقه وعادت إلى الإسلام وحدته ، وكان هذا مقدمة للوحدة الإسلامية التى استطاعت من بعد أن تواجه الغزو الصليبي ، غير أن التصوف كان قد تحول إلى مرحلة جديدة ، قوامها تكوين الفرق الصوفية ، هذه الفرق التى توسعت فى مرحلة الغزو الخارجى من بعد .

والحق إنه إذا كان « التصوف » الذى بدأ باسم الزهد إنما جاء بمثابة رد فعل على الإتراف فى الغرب الذى وقع فيه الأمراء والولاة والحاكين ، فإنه قد انحرف حين تحول إلى دعوة واسعة من مفهوم الإسلام فى التحرر من الفقر ، وهذا التحرر الذى يتم بتحويل الطبقات الشعبية إلى البسر بإحقاق العدل الاجتماعى والزكاة ، وليس باقرار الفقر وفلسفة الرضى به والدهوة إليه ، فقد ظهر فى ظل الدعوة الصوفية مفهوم التواكل والاستسلام وقبول الذل والفقر ، مما يخالف مفهوم الاسلام نفسه ، وإن كان قد قام فى خلال تلك الفترات من دعا إلى الإصلاح ومناصحة الولاة وتحرير مفهوم الاسلام من انحراف التصوف كدعوة جزئية تنسجم بطابع الروحية ولا تمثل شيئاً من الاسلام وتكملته ووسطيته التى تجمع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والعمل للدنيا والآخرة معاً . وقد خرجت الصوفية بذلك من بساطة الاسلام وفطرته وعباداته البسيطة ومظهره السمج حين تحولت إلى رموز ومعاني وانفصلت به عروة فلسفة الاسلام التى تجمع بين حصول المعرفة عن طريق القلب والعقل معاً . أبرز ما يتمثل فى هذه المرحلة بعد أن بلغت « موجة التوسع والامتداد الإسلامى غايتها هو أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توقفها أو تصدها ، وبدأ أن الموجة قد بلغت غاية امتدادها الزمنى خلال أكثر من مائة عام من ناحية وغاية امتدادها الجغرافى إلى قاف أوروبا . من ناحية أخرى فى خلال هذا التوسع كانت معركة أخرى على وشك أن تدور ، معركة من طرفين أحدهما فى الداخل والآخر فى الخارج ، وكلاهما تجمع على دحر الاسلام وتقليص ظله والقضاء عليه . وقد تنبه المسلمون لمدين الخطرين ، أما أحد الخطرين فكان قريباً ملاصقاً يتحرك فى قلب عالم الاسلام ويتمثل فى عمليتين : (١) عمل حركى ، يحمل طابع التآمر السياسى على نظام الدولة ويتمثل ذلك



في حركات الباطنية القرامطة والباطنية وغيرها . (٢) عمل فكري ، يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الاسلام ومفاهيمه ، وقد كانت أغلب هذه الحركات تجمع بين التآمر السياسي والتشكيك الفكري وتستهدف ذلك القضاء على الاسلام بالقضاء على دولته ، والقضاء على مفاهيمه . ولقد امتدت هذه المعركة طوال تاريخ الاسلام وامتدت للمقاومة ورد الفعل لهذا التحدى ، في ظل جبهة من العلماء والفكرين والدعاة يمكن أن يطلق عليهم اسم « المصلحون المجددون » يحمل لواء العمل لمواجهة هذه الحملات التي هي أشد عنف عنفا من الحملات العسكرية والحربية وقد استمرت هذه الجبهة قوية ممتدة على طول التاريخ كله لم تنوقف ، تواجه هذه الانحرافات والشبهات وتكشف محاولات الخصوم في القضاء على المفهوم الأساسى والقيم الأصلية الاسلام . وقد استطاعت هذه الجبهة أن تحقق كثيراً من النصر ، وأن تقضى على عوامل نيجزئة مفهوم الاسلام أو تحريفه أو تشويهه وقد برز هذا العمل واضحا خلال هذه المرحلة ، في مجال ترجمة التراث : اليونانى والفارسى والهندي وتداخل للمفاهيم الوثنية والاسرائيليات والشبهات إلى مضمون الاسلام . ولقد كانت هذه الحركة خلال تلك المرحلة من أبرز المعالم التاريخية لهذه الفترة التي تتجلى فيها قوى : (١) قطاع الترجمة والنقل من الفكر اليونانى والفارسى والهندي . (٢) قطاع الزهد والنقد الاجتماعى وشجب المجتمع . (٣) قطاع العلماء العاملين في مجال تقييم الفقه والسنة . (٤) قطاع المدافعين عن الاسلام في مجال العقيدة .

## ( ١٦ )

### « مرحلة الغزو الخارجى »

( ٤٩٣ - ٨٩٨ هـ )

« إذا كانت مرحلة ( التبلور والانصهار ) هي نتاج طبيعى لمرحلة بناء الاسلام وتوسعاته فإن مرحلة الغزو الخارجى هي الرد الفصلى الطبيعى لصراع الغرب مع عالم الاسلام الذى بلغ قمة أبعاده بالتوسع وأحاطه بالانصهار فكان لابد من مهاجمته من كلا طرفيه ، من طريق المشرق على ساحل الشام وعلى حدود المغرب على أطراف الأندلس ، ثم كان إن بلغت ( الأزمة الاسلامية ) قمتها بالجائحة المغولية التنجارية الملتزمة مع الصليبيين على هدف موحد هو تطويق الاسلام وخنقه غير أن الاسلام بوصفه حتمية التاريخ كان قادراً على المقاومة والدفاع عن نفسه حين انبعثت من أحشائه

القوى الثلاث البدوية الشابة : [ السلاجقة والماليك والبربر ] التي سحقت الغزوم ككائنات قدرته البعيدة الأثر في إذابة التتار والمغول في بوتقة وفرض حضارته على وفكره الغرب .

\* من تاريخ الاسلام في مراحل متداخلة فإن الجماعة الاسلامية التي انصهرت في الجزيرة العربية خلال ثلاث ودهشرين عاما لم تلبث أن حققت اندفاعا ضخمة باهرة أقامت عالم الاسلام من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا في أقل من مائة عام ، هنالك ازدهرت مرحلة الانصهار والبلورة التي كانت قد بدأت فعلا بعد قيام « التوسع » بانصال العرب بالفرس والترك والهنود وتضام الوحدات الاسلامية .

غير أن الصراع الداخلي ، في عالم الاسلام ، والانحراف عن مقومات الاسلام بالنفك والصراع والتخلف في مجال القوة والوحدة والعدل الاجتماعي قد هيا الفرصة لضربات متوالية من الغزو الخارجي ، جاء من الغرب أولا « الحروب الصليبية » ثم جاءت من الشرق « غزوات التتار » واستمرت قرنين كاملين ، لم يستطع المسلمون خلالها مواصلة التوسع لأنهم تحلفوا عن مقومات الاسلام وكانت الغنائم مصدرا من مصادر المزيمة ، ولم يستطع المسلمون مواصلة التبلور والانصهار في مجتمع واحد ففكر موحد ، كان الخلاف والخصومة والصراع بين الأمراء والملوك المسلمين المتجاورين ، وكان ائتلاف بين عناصر المسلمين أنفسهم ، عربا وفرنسا وبربرا ، كابت هذه كلها جميعا نفس مصادر المزيمة التي عدها الاسلام من هوامل الانهيار والتخلف وفي ضدها تكن هوامل النصر والقوة ، والحق أنه حين ضعف مركز السلطة والوحدة السياسية ، تمكن الفرنجة من تسديد الضربة ، ولقد حذرت « أيدولوجيا الاسلام » من هذا الضعف والتفريق ونوهت بأهمية إنضمام الصفوف وتلاحم القوى ، كما دعا الاسلام إلى القوة الحربية واليقظة في الثغور لمواجهة العدو ، وكان الفرنجة — من نافذة بيزنطية التي ظلت مركز الصراع بين الاسلام والغرب خمسة قرون كاملة — أشد من المسلمين يقظة لأخبار دار الاسلام بينما قصر المسلمون في الاحاطة بتحركات الفرنجة ، وهو نقص وصفة الاسلام بالغفلة حين أشار إلى ضرورة اليقظة في ترصد أخبار العدو . ومن هنا تعد « حركة الغزو الخارجي » لعالم الاسلام من أبرز صفحات تاريخ الاسلام فقد واجه الاسلام غزوا مزدوجا من خارجة : من طريق حملات التتار والمغول الوثنية القادمة من المشرق زاحفة على « كاشغر » ومن طريق حملات الفرنجة والغرب والأوربيين على عالم الاسلام من طريقه : حدود بيزنطية وحدود الأندلس ، أما هجمات القوى العسكرية المغولية فقد توالى وامتدت خلال قرن من الزمان وكان أبرز مواجهاتها ثلاث حملات كبرى هي حملات جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك ، غير أن الاسلام

استطاع أن يغزو من داخله هذه القوة وبحولها من الوثنية إلى التوحيد . أما القوة التي خارت  
الاسلام بعنف واصرار وشراسة فهي القوى التي أطلقت عليها : اسم القوى الغربية الفرنجية الأوروبية  
هذه القوى التي أحست منذ اليوم لظهور الاسلام ، أنه قد سيطر على مناطق كانت داخلية تحت  
نفوذها كالشام ومصر وأفريقية . ثم كانت اندفاعه الإسلام إلى أوروبا من خلال معارك القسطنطينة  
في آسيا الصغرى ومعارك شبه جزيرة إيبيريا في أسبانيا مصدراً لقيام فكرة استعمارية صليبية في عالم  
الغرب وأوروبا تهدف إلى سحق تيار الاسلام والحيلولة بينه وبين النفاذ إلى قلب أوروبا . وقد استمرت  
هذه الحركة وازدادت على الأيام قوة وعتفاً وتشكلت في صور مختلفة ، وبضمت تضعف وتقوى ،  
وتتقدم وتراجع حسبما ترى الظروف أمامها .

وقد أثبت التاريخ أن حركات الانقضاء على الإسلام من بيزنطة ومن أسبانيا استمر متصلاً  
طوال القرون ، وفق خطة لم تمت أبداً وما أظن أنها مأت حتى اليوم ، أو ستموت غداً ، ذلك الصراع  
الذي أطلق عليه : الصراع بين الشرق والغرب أو الاسلام والمسيحية ، أو ما نطلق عليه نحن :  
« الصراع بين عالم الاسلام والغرب » وإذا كانت هذه الفكرة قد بدأت منذ بدأ الاسلام بمد  
نفوذه الثقافي والسياسي إلى مناطق كانت تابعة بالاستعمار والإخضاع إلى الدولة الرومانية ، ثم حيث  
مد الاسلام نفوذه إلى الأندلس وإلى القسطنطينة ، فإن هذه الفكرة لم يلبث أن أخذت طابع الغلو  
لتسيطر على مقدرات الفكر الغربي وتكون هدفاً أساسياً ضمه ، لم يكن في ذاته جديداً ، فقد كان  
بين الغرب والشرق قديماً . وكان في آخر مراحلها يتمثل في فتح الاسكندر الأكبر للشرق ، وبه  
رجحت كفة الغرب وسيطرته ، ولكن الصراع القديم قد أخذ طابعاً جديداً أشد عنفاً وشماساً حينما  
بزغ الإسلام فأحال هذه المنطقة إلى طابع جديد من حيوية التوحيد والعدل والمساواة ، هذه القيم التي  
أيقظت المنطقة وأهلها فأحست بكيانها الانساني ، قادرة على أن تبشر مفهوم السيادة ، وأن تقف  
موقف الندد للغرب وأن تواجهه بالمقاومة الضامدة لعدوانه وغزوه ، لقد طبع هذا الموقف عالم الغرب  
من خلال مفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة بطابع النجدي الذي أطلق عليه  
« الحروب الصليبية » والتي اشتعلت فعلاً واستمرت مشتعلة طوال هذه القرون لا تتوقف ،  
منذ بلغ الإسلام القسطنطينية والأندلس ، حتى جاء اللورد النبي على رأس قوات الغرب الغازية  
إلى القدس ١٩١٨ فقال كلمته التي عبرت عن ضمير الغرب وفكره إزاء الاسلام وعالمة حين  
قال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

كانت فكرة الغزو الغربى لعالم الاسلام كامنة حية ، متحركة لا تتوقف ، تمثلت فى تلك الجولات المستمرة بين بيزنطة من ناحية وأطراف الاسلام عالم (للولصل وحلب والشام ) وفى الصراع بين الأندلس ودولة قشتاله والفرنجية من ورأها. ثم لم تلبث أن وجدت أمامها فترة ضعف فى ظل موجة السلاجقة التى تخافت ، فسكالت تلك الحملات الصليبية المتواصلة خلال قرنين كاملين فى غراف. لا تتوقف على جميع سواحل عالم الاسلام فى الشام ومصر والمغرب جميعا .

ثم لم تتوقف هذه القوة من بعد وإن ضعفت وخضعت ، وقد استطاعت أن تجلى الاسلام والعرب من الأندلس من بعد ، وأن تنصرف فى هذا القطاع فى مواجهة هزيمتها إزاء الضربة القاضية التى أوقعتها القوة الاسلامية الشابة : « العثمانية » بها بالاستيلاء على القسطنطينية بعد محاولات منهكة لم تتوقف من جانب عالم الاسلام . وهكذا يمكن أن يطلق على هذه المرحلة التى تعد من أدق مراحل تاريخ الاسلام : « مرحلة الأزمة الكبرى » فقد كان توقيتها طبيعيا بالنسبة لرسالة عمت الدنيا ل فترة قليلة من الوقت ، فكان لا بد أن تمتحن حتى تكشف عما إذا كانت جديدة بالبقاء والخلود شأنها فى هذا الامتحان شأن كثير من الدهوات والرسالات التى سبقتها وعاصرتها ، وقد كشفت هذه الأزمة عن جواب القوة وجواب الضعف فى الجمع الاسلامى وأتاحت الفرصة للمسلمين لمواجهة أنفسهم وتجميع قواهم . ولم يكن هناك مصدر للضعف إلا ذلك التناقض بين قيم الاسلام وبين أعمال المسلمين ، أو بين الأيدلوجيا والتطبيق ، فإن عوامل الانقراض لم تقع من كل جانب من خصوم الاسلام إلا بتقدير محسوب بضعف عالم الإسلام أو اضطرابه أو جهوده أو تصوره عن حماية نفسه أساساً .

وإذا كانت « أزمة الاسلام » أساساً هى الغزو الخارجى والانقراض عليه ، وكان أبرزها أن هذه الفترة : غارات الصليبيين والتتار ، فإن المصدر الحقيقى لذلك هو ضعف الجبهة الداخلية وتفككها ، وتاريخ الصراع بين الاسلام وخصومه يكشف عن حقيقة واقعة ، مازالت مستمرة ، وقائمة قوام هذه الحقيقة : أمران : « الوحدة » وهى عمل معنوى و « القوة » وهى عمل مادى فطلما كانت الوحدة والقوة استطاع عالم الاسلام أن يوجه خصومه وأن يهرب للتريصين به .

والحق أنه كان لا بد أن يمر الاسلام من أزمة ضخمة تستمر فترة طويلة يمكن أن توصف بأنها نصف قرن من الزمان ، امتدت فيها المعارك من الأطراف الثلاثة : من حدود عالم الاسلام فى المشرق الأفعى عن طريق التتار ، ومن حدودها الشمالية من حدود دولة البيزنطيين عن طريق الصليبيين ،

ومن حدودها الغربية عن طريق فرنسا وأسبانيا في عمليات الانتفاض واسترداد الأندلس . لقد بدأت عمليات غزو عالم الإسلام في أواخر القرن الخامس غير أن هذه العمليات لم يبدأها خصوم الاسلام إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الجبهة الداخلية ، وانقسام الوحدة ، وتراخي القوة ، وهي مرحلة بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

ويمكن القول أن حملة القوى الخارجية على عالم الاسلام إنما جاءت كرد فعل لفترة المد الطويل خلال خمسة قرون ، وكانت الأطراف التي امتد إليها الاسلام هي مصدر الانقضاخ : من طرفين : الأول : آسيا الصغرى ( الدولة البيزنطية ) . الثانية : غرب أوروبا ( فرنسا وأسبانيا ) . ومنذ بدأت أعمال التوسع الإسلامي حول القسطنطينية من ناحية ، وحول الأندلس من ناحية أخرى لم يتوقف الاشتباك ، فهل يمكن القول بأن اقتحام الاسلام أوروبا خارجا من آسيا وأفريقيا كان هو المصدر الأساسي لهذه المعركة التي يمكن أن يقال أنها امتدت منذ عام ١١٤ هـ حتى الآن ولم تتوقف خلال ألف وثلاثمائة عام . غير أنه لو لم يقتحم الاسلام أوروبا ، هل كانت أوروبا تتوقف عن مهاجمته في أفريقيا . أن نظرة إلى تحركات الدولة البيزنطية مترتبة فترات الضعف لتنتفض على حدود عالم الاسلام كذلك موقف الفرنجة من المسلمين على حدود الأندلس ، تكشف عن أن الموقف بين المسلمين وأوروبا كان سجالات منذ هذه الفترة البكرة في تاريخ الاسلام ، فقد ظلت أوروبا تحمل في أعماق أعماقها عصراً بعد عصر « طابع إلا دالة من الاسلام وإخراجه من أوروبا » .

ولذلك فإنه لم يكذب يصل للتوسع الإسلامي إلى مداه ، حتى كانت القوة الخارجية تعمل على الانقضاخ عليه وسنة الإنقضاخ منه وتلك سنة طبيعية ، لا تحيد عنها في تاريخ البشرية وفي نوايس الكون ، ومن هنا كانت دهوة الاسلام لأنصاره في أعداد القوة دائما ، وحماية الثغور والرباط بها واليقظة دوما « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . وطالما نفذ المسلمون هذا القانون الطبيعي من قوانين البقاء ، كانوا في مأمن من هدمهم ، وما تراخوا عنه حتى واجهوا حملات الانقضاخ والعدوان على أرضهم .

ولقد شهدت مناطق الشام وحلب تاريخاً طويلاً في المقاومة والغزو ، وكان لها دوراً بارزاً من أدوار البطولة حل لوائه سيف الدولة الحمداني في فترة من أدق فترات المقاومة .

ولإلقاء أضواء واسعة على هذه المرحلة نقول :

تاما عالم الإسلام واستكمل توسعه عام ٩٣٣ هـ تقريبا حين بلغ السند وما وراء النهر شرقا وبلغ الأندلس غربا ، ثم هذا التوسع خلال ثمانين عاما (١٢-٩٣٣ هـ) . ثم توقف في الجبهة الشرقية واستمر في الجبهة الغربية على شواطئ أوروبا في حملات متصلة مستمرة حمل لوائها الأغلبية في تونس وجروا بها شوطا طويلا (١٤٢-١٨٤٣ هـ) ولم يلبث «عالم الإسلام» أن دخل مرحلة التبلور والانصهار وهي مرحلة دقيقة غاية الدقة ، كانت مصدر صراع فكري لا حده ، غير أن أبرز ما تنسم به هذه المرحلة التي تمت فيها الحضارة هي «روح الترف» التي انخرقت بالمجتمع الإسلامي عن مفاهيم الإسلام في وسطية وتساكنه ، والتي تخلت عن طابع الوحدة والقوة واليقظة . كانت الحلقة الأولى في مرحلة التبلور والانصهار في المشرق والمغرب تسير في خط واحد تقريبا : العباسيون في المشرق والأيوبيون في الأندلس ، وقد حققت هذه الفترة نتائج ضخمة في مجال انصهار الفكر الإسلامي ، وبرز فيها عدد كبير من بناءة الدول والحضارة ثم تراخى طابع القوة بتغلب روح الترف ثم بدأت روح الضعف تسري في عالم الإسلام كله ومع ذلك فإن «الدفاع عن أرض الإسلام» لم يتوقف ، كانت دولة الأغلبية خلال أربعين عاما تواجه الفرنجة وتبدل منهم وتسيطر على شواطئ البحر الأبيض وتصل إلى سواحل إيطاليا وإلى قريبا من العاصمة «روما» . وقد تمكن المسلمون من السيطرة على جزيرة صقلية (١٢١٢ هـ) وفي جبهة الدولة البيزنطية كانت مقاومة سيف الدولة مثلا هاليا من أمثلة الكفاح ضد الغزو الخارجي ٢٣٣ هـ أما في الأندلس فقد توالى حملات المقاومة التي قادها عبد الرحمن الناصر (٣٦٦ هـ) الذي غزا خمسين غزوة انتصر فيها جميعا . وفي الشرق استطاع محمود الغزنوي أن يوضع عالم الإسلام وأن يحقق انتصارات رائعة (٣٨٨ هـ) غير أن تمزق الدولة العباسية في بغداد ، وسقوط الدولة الأموية في قرطبة ، قد أدى إلى تنمر الغرب إلى مدافعة عالم الإسلام والانقضاض عليه ، هنالك انبعثت قوتين جديدتين من أعماق الصحراء بدويتين خشتين حنيفتين تتمثلان في الأتراك السلاجقة في المشرق والبربر في المغرب ثم شلت قوة المماليك في مصر والشام .

هاتان هما القوتان الجديدتان اللتان سيطرتا على عالم الإسلام ، بعد أن ضعفت القوى للنهضة التي تخلت عن مفهوم الإسلام ، كانت قوة السلاجقة في المشرق (٤٢٩ هـ) وقوة المرابطين في المغرب (٤٥٤ هـ) بمثابة دم جديد وعلامة قوة ، فقد كانت القوى للتربعة بالإسلام من حدود الدولة البيزنطية (آسيا) ودولة الفرنج (أوروبا) قد تمحزرت من جديد انتفض ، فكانت قوة السلاجقة قادرة على الردع

الذى ظهر من بعد في موقعة ملازكرد بقيادة عماد الدين زنكى (٥٤٦٤هـ) ومركة الزلافة التى قادها يوسف بن تاشفين فى الأندلس (٧٤٩هـ) بعد أن سقطت طليطلة فى أيديهم (٥٤٧٨هـ) : وقد أخرج ظهور هذه القوى انقضاء الغرب على عالم الإسلام ، فى سنوات متقاربة هاجم الفرنجة للهدية (المغرب) بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب (٣٠ ألف مقاتل) عام ٥٤٧٦هـ ثم زحفت الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩هـ فاستولت على بيت المقدس ٤٩٣هـ غير أن الصورة الشاملة لمقدمات الغزو الخارجى لا تتم باستعراض شامل للصراع بين الروم والمسلمين على حدود الدولة البيزنطية .

## ( ١٧ )

### د ازمة الاسلام ،

هاش الاسلام بعد مرحلة التوسع والامتداد مرحلة الانصهار والتبلور . كانت المرحلة الأولى : مواجهة من موجات التوسع بلغت فى قرن من الزمان حدود الصين من الشرق وحدود فرنسا من الغرب . ثم كانت مرحلة جديدة انبثقت من أعماق هذه المرحلة ، هى تبلور هذه الجماعة وانصهارها ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، من خلال العناصر التى تكون منها عالم الاسلام : العرب والفرس والترك والبربر ، غير أن مرحلة الانصهار كانت تضطرم بالصراع السياسى والعسكرى ، يتمثل هذا الصراع السياسى والفكرى ، يتمثل هذا الصراع فى قيام الدول وسقوطها ، و بروز القادة من بناء الدول ، وظهور عديد من الدولة المستقلة المرتبطة بالخلافة أو المنفصلة عنها ، فضلا عن ظهور خلافت وحكومات منفصلة فى ظل هذا الانصهار والتبلور فى إطار الاسلام ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، برزت مؤامرات داخلية متعددة من خصوم الاسلام ، تهدف إلى القضاء على كيان الدولة أو مفهوم الاسلام نفسه ، حدث هذا التخلخل والاضطراب والانقسام وصراع الحكام والقادة ، فى نفس الوقت الذى كان الفكر الاملاى يجرى نحو الانصهار والتبلور والتوحيد . كان هذا مقدمة لخطر هو الغزو الخارجى لعالم الاسلام فى مواجهة الإستجابة لقيمة أساسية من عقومات الاسلام وهى «الوحدة» وهامل خطر هو « القوة » فإذا تمزقت الوحدة بين أطراف عالم الإسلام ووقع الصراع بين الأجزاء ، ثم ضعفت القوة الرادعة ورباط الخيل الذى يرهب العدو . إذا ما تراخى هذا كله ، كان ذلك مقدمة لتجمع خصوم الاسلام للاقتضاض عليه ، كانت صورة عالم الإسلام تتمثل فى أزمة واضحة شاملة ، فقد تراخت نظم الدولة الإسلامية ، وتمزقت الوحدة ، وغلب الترف ، وضعفت الحماية على

النفور ، وبان الخلاف بين الدول المتعددة ، وحكم نظام يعيش في إطار الاسلام ولكن لا يلتزم بمقوماته . ومفاهيمه ، هنالك ، كان لابد أن يواجه عالم الاسلام أزمة كبرى ، ومحنة عاصفة ، تقطع من حياته مرحلة لا تقل عن ( ٤٩٣ — ٨٩٨ هـ ) أربعة قرون وهي مرحلة عصبية هنيئة تداخلت فيها الأحداث على نحو عاصف ، وانتهت باسترداد العرب الأندلس ، وسيطرة عالم الاسلام على القسطنطينية . وقد اشتبك فيها المسلمون من خلال معارك طويلة بالصليبيين في حملات متعددة على مختلف الجبهات ، من حدود الدولة البيزنطية إلى فرنسا ، عبر سوريا وبيت المقدس ومصر وتونس والمغرب والأندلس ، كما اشتبك المسلمون في حملات متعددة بالنتار الذين تأمروا مع الصليبيين لإقتلاع عالم الاسلام ومحوه . وكانت الأحداث متوالية دراكا . والحق أن الصراع بين عالم الاسلام والغرب لم يبدأ يوم جاءت ( الحملة الصليبية الأولى — ٤٩٣ هـ ) وإنما كان قد بدأ قبل ذلك بأربعمائة عام ، يوم اندفعت توسعات الاسلام لتتفد إلى أوروبا من القسطنطينية مرة ومن الأندلس مرة أخرى ، وكانت أعوام ٩٢ — ٩٨ هـ حاسمة في هذا الموقف ، فقد كانت د اندفاعة الاسلام ، قد انطلقت من الشام إلى مضاب آسيا الصغرى حتى بلغت مياه البسفور وحاصرت القسطنطينية كنيسة إنطلاق الاسلام ( ٨٣٣ ) إلى أوروبا ، ثم هادت مرة أخرى إلى ذلك عام ٤٤ هـ ثم هادت مرة ثالثة عام ٩٦ هـ ورابعة ٩٨ هـ وفي هذه المراحل الأخيرة جاز المسلمون أسبانيا واقتحموا غرب أوروبا — إذ استعصت عليهم القسطنطينية — حتى بلغوا قلب فرنسا ونحو القوار ، وكان لاقتحام الاسلام أوروبا من غربها ووقوفه على حدود الدولة الرومانية للشرقية في سبيل اقتحامها من المشرق ، هالما من عوامل الصراع بينه وبين الغرب لم يتوقف منذ ذلك اليوم وإلى اليوم .

كانت غاية التوسع الأولى والكبرى هي تبليغ أوروبا دعوة الاسلام ، وكان الخليفة اشالث همان قد تصور ما يمكن أن يصل إليه الاسلام حين يتصل بين أسبانيا والقسطنطينية بخرق قلب أوروبا ، وكان موسى بن نصير ينطلق إلى أن يصل دمشق عن طريق القسطنطينية . غير أن أوروبا قد استطاعت أن تواجه هذا التيار الجديد وأن تصمد في سبيل صده ودفعه ، وأن تقاوم في ذلك غاية المقاومة . كان الصراع يجري في ميدانين في وقت واحد : ميدان الدولة الرومانية ( بيزنطة ) حيث كانت عمليات الفوز والادالة بين شمال الشام وحدود بيزنطة لا تتوقف ، خلال أربعة قرون ونصف القرن ، كان عالم الاسلام يتفالا يتردد في رد عدوان بيزنطة الذي كان يترقب أى لحظة ضعف يهجم ويحاول أن يستقطع من أطراف عالم الاسلام ، وكان الميدان الثانى هو ميدان الأندلس ، فإن دولة



الإسلام التي قامت فيه لم تتمكن من أن تلفظ أنفاسها دون صراع أو مؤامرة ، أو حركة انتفاض على أطرافها ، وقد امتد ذلك طويلا ، منتهزا فترات الضعف ليحاول الإدانة منها .

وقد امتدت حركة المقاومة لأطراف عالم الإسلام من القسطنطينية والأندلس ، حتى باغت مرحلة دقيقة ، عندما بدأت قوة جديدة من قوى الإسلام تبرز هي قوة « السلاجقة » في المشرق ثم تلحقها قوة « الموحدين » في المغرب والأندلس ، وهنا بدأت أوروبا تصارع القوتين وكانت الحروب الصليبية بمحاملها التسع قد بدأت نتيجة لتوسعات السلاجقة . أما في الميدان الشرقي ، ميدان الدولة البيزنطية فقد كانت عين المسلمين على ذلك الخط الفاصل بينهم وبين الروم ، وقد حرص المسلمون على حماية هذه الثغور . وكانت البحرية الإسلامية التي بناها معاوية في خلال خلافة عثمان وما بعدها قوة رديع ومهابة ، وقد وقع الصدام في هذا الجانب طويلا وحاصر المسلمون القسطنطينية مرات خلال أكثر من ستين عاما ، حيث اضطرت حملات الشواني والصوائف . لاني ولا تتوقف .

ثم كان ذلك التربع من أطراف عالم القرب ممتدا ، لا يفتقر ، ومستمر لا يتوقف ، ينزرب فترات الضعف ومراحل الغفلة ليتنفض ثم لا يلبث أن يدافع المسلمون عن هذه الحدود مرات في مواقع حاسمة ، ويتوغل هارون الرشيد في أرض الروم ، وينهض المعتصم لرد العدوان ، ثم يظل هذا الصراع قائما حتى نرى سيف الدولة الحمداني في ثلاثينات القرن الثالث الهجري يعاقلته المشهورة في الرد على عدوان الروم .

غير أن هذه المناطق ظلت بعد ذلك عرضة لهجمات الدولة البيزنطية طويلا . فقد كانت أوروبا ترى في هذه الجبهة قوة مدافعة عنها تحول بينها وبين سيطرة عالم الإسلام أو توسعه في أوروبا . حتى لحقت الشيكوخة الدولة البيزنطية وناها الضعف إزاء موجات الإسلام المتلاحقة ، التي لا تفتقر من موالاة الدفاع عن الثغور ، وكانت السلاجقة قوة جديد من قوى الدفاع قد اجتاحت بيزنطة وأدالت منها وكشفت عن ضعفها وعجزها عن حماية أوروبا ، هنالك كانت فكرة الحملات الصليبية بمثابة بديل من قوة بيزنطة المنهارة .

هذا في الشرق ، أما الطرف الثاني من عالم العرب فالإسلام كان قد عبر « بحر الزقاق » وسيطر على أسبانيا ومنها نفذ إلى فرنسا حتى بلغ نهر الأوار ، حيث تجمعت أوروبا لتقف أمام زحفه في موقعة « بلاط الشهداء » ، هذه المعركة التي انسحب منها الإسلام مستنفذا قواه ليعاود الكرة في إقحام أوروبا من ثغور إيطاليا .

وقد يقف المؤرخون طويلاً عند معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ - ٧٤١ هـ) ويقولون إنها نهاية التوسع الإسلامي في أوروبا، بينما تشهد وقائع التاريخ بأن حوادث التوسع لم تتوقف في غرب أوروبا عند هذا الموقف. بل امتدت حتى عام ٣٩٨ هـ، وأن دولة الأغالبة في تونس قامت في ذلك الحال بدور ضخم، إلى أن شغل المسلمون عن أعمال المقاومة والتوسع، وتراخت قبضتهم خلال قيام الدولة الفاصمية واتجاهها نحو الشرق، هنالك أخذت حركة «الاسترداد الغربية» تنأهب لجولة حاسمة في مواجهة «التوسع الإسلامي»، فيما أطلق عليه من بعد «الحروب الصليبية»، هذه الحركة التي بدأت من دور الفرنج أولاً عبر الأندلس والمغرب العربي، ثم كانت صيحة البابا أوربان الثاني للاتجاه إلى الشرق مرحلة تالية لها، وقد امتدت الحركتان معاً للأدلة من هالم الإسلام عن طريق الأندلس وعن طريق الحملات الصليبية على الشام ومصر. أما معركة بلاط الشهداء فقد هلم لها المؤرخون الغربيون بوصفها عمل حاسم في سبيل استنقاذ أوروبا من التوسع الإسلامي، وكانت تلك وجهة نظر ضيقة محدودة في تقدير موج للمدنية الزاحف في ركب الإسلام، ذلك أن عمل كارل مارتنل إنما كان في حقيقته تعويقاً للحضارة الإنسانية نفسها وأنه أخر تقدمها في قلب أوروبا ثمان قرون، وقد شهد بذلك كثير من المؤرخين في مقدمتهم العلامة كلود فارير الذي دعا أوروبا إلى تصحيح تاريخها الرسمي: فقال ليس ما أكتبه فصلاً من التاريخ الرسمي بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه، مما يجنازه من بحار أو نقطة من فياف وآفاق.

فإذا أضفنا إلى هذا شهادة هنري دي شامبيون، هرفنا إلى أي مدى صور بانطعاً والتمصب موقف الإسلام.

أما للمسلمون في الحق أنهم لم يتوقفوا عند موقعة بلاط الشهداء عن أن يصلوا إلى قباب أوروبا حتى بلغوا روما (قال كلود فارير: في هذا اليوم (٨ شعبان ١١٤ - أكتوبر ٧٢٢) تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء، ويكنى المرأ أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالابصار مما يبدو من عواطف السحر والخيال (أشبيلية، غرناطة، قرطبة، طليطلة) يشاهد الألم الغريب آخذاً منه، ما عساها تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني السلي المتساح - لأن الإسلام في مجموعة كل هذا - فخالصها من الأهويل التي لا أسماء لها، وكان من ذلك نتيج خراب غالباً القديمة التي استعبدتها أولاً لصوص أو سترانا، حدث هذا في حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوروبا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام تحت أقدام أربع دول (الأيوبية، العباسية، السلجوقية، العثمانية).

وقد ظلت مقاومة الغرب لعالم الإسلام من القسطنطينية ومن الأندلس متمسكة لا تتوقف ، ومستمرة لا تنقطع ، واستطاع السلاجقة أن يردوا عدوان بيزنطة في موقعة حاسمة هي موقعة ملازكرد (١٠٧٣م) التي كشفت عن الضعف الذي بلغته الدولة الرومانية الشرقية ، مما جعل الغرب على التنفكير في عمل آخر يقاوم به توسع عالم الإسلام ، بعد أن ظلت هذه الدولة تقاوم عالم الإسلام خمسة قرون ، وقد تمثل العمل الجديد في تلك الحملات التي تحركت خلال قرنين كاملين على القدس والشام ومصر ، أما الأندلس فقد ظلت تواجه حملات انقضاء متصلة من داخلها ومن خارجها . حيث ظل الفرنجة من خارج الأندلس والقوط من داخلها في محاولات مستمرة للإقضاء عليها ، ومحاصرتها ، لا يقف التوسع الإسلامي وإجلاء العرب والمسلمين إلى أفريقيا ، وتحرير أوروبا من الإسلام في هدف واحد محدد . وقد زاد هذا الضغط بعد موجات استنقاذ الأندلس التي قام بها المرابطون ثم الموحدون (٨٤٤٥ - ١٠٦٤م) وفيما كانت الحملات الصليبية تنوالى على المشرق وتقيم المملكة اللاتينية في القدس لم يتوقف عالم الإسلام عن المقاومة في جهة الشام ومصر لهذه الحملات وفي جهة الأندلس والمغرب ، لحملات الغزو والانتقضاء المتوالية وقد أبرز عالم الإسلام أبطالاً حملوا لواء الدفاع والمقاومة : من أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس في المشرق ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي في المغرب .

### مواقف الدفاع

غير أن هذا خطراً ثالثاً لم يلبث أن واجهه عالم الإسلام بقوة في خلال معركته مع الصليبيين في القدس ومع الفرنجة في الأندلس ، ذلك هو الاغصار « الثنرى المغولي » ، مثلاً في غزو جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك على التوالي خلال فترة (١١٩١ هـ) [من ٦١٦ - ٨٠٧ هـ] . (بدأ الغزو المغولي للعالم الإسلامي عام ٦١٦ بقيادة جنكيز خان وهاجم هولاكو بغداد ٦٥٦ وتوفي تيمورلنك عام ٨٠٨ بعد حملة سوريا عام ٨٠٤) . ولا يمكن أن ينظر في أمر هذا الغزو ، منفصلاً عن ارتباط وتدابير واتفاق بالغزو الأوربي ، ومن ثم أصبح عالم الإسلام بل الإسلام نفسه في امتحان خطير وكان لمصر دورها الحاسم في مواجهة الصليبيين والثنرى في هذه المرحلة ، وكان لدولة المماليك الدور الحاسم في القضاء على القوتين بعد معارك صلاح الدين التي تقدمتها . لقد توقفت الحروب الصليبية في جهة المشرق وانتهت بفشل هذه المحاولات ، ولكنها لم تنته بالنسبة لجهة المغرب والأندلس ، فقد اتجهت ناسمة هذه الحملات إلى تونس لتشارك في الادالة من الدولة العربية الإسلامية القائمة على

أرض أوروبا ، والتي دخلت مرحلة دقيقة من مراحل المقاومة حتى صغيت . ولكنها لم تهف إلا بعد  
أقامت موجة جديدة من موجات القوة الإسلامية ممثلة في الأتراك العثمانيين .

هذه القوة التي استطاعت أن تسيطر على القسطنطينية في نفس الوقت الذي زالت فيه الأساس  
وبدأ عالم الغرب يواجه توسعاً جديداً داخل أوروبا من فوق الأرض التي قاومت الاسلام ( أرض  
الدولة البيزنطية ) خلال ثمانية قرون . وفي هذه الفترة استطاع الاسلام أن يكسب قوة جديدة ، فقد  
تحول التتار والمغول إلى الاسلام فأعادوا بناء هذه المنطقة التي كانوا قد أزالوا منها علامات الحضارة  
في نهضة جديدة ، بل أنه وفي نفس الذي كان التتار يلحون على بغداد بالغزو انسقط في أيديهم  
كإحدى منارات عالم الاسلام يشق طريقاً جديداً إلى جنوب شرق آسيا دون معارك أو قتال ليفتح  
فتحاً جديداً من فتوحه وتوسعاته الذاتية في عالم جاوه وسومطره .

( ١٨ )

### د الروم وعالم الاسلام ،

ظلت الروم ( الدولة الرومانية الشرقية ) أو دولة بيزنطة المناخلة لحدود عالم الاسلام من الشمال ،  
هي الفترة الخطرة ذات الأهمية الكبرى على حدود عالم الغرب ، فقد كان الغرب منذ ظهور الاسلام  
وامتداداً إلى الشام وأفريقيا يهدد باستعادة ما كان تحت يد الرومان ، لذلك وقف المسلمون إزاء  
هذا الخطر في أهبة دائمة ومواجهة مستمرة ، وقاموا بمحاولات ضخمة لتطويق بيزنطة وفوز  
القسطنطينية والاستيلاء عليها ، جرى ذلك إبان حكم الخليفة الثالث : « عثمان » ثم استأنفه معاوية  
بنظم الشوائب والصوائف . ثم كانت محاولته الكبرى في الاستيلاء على القسطنطينية بعد إنشاء  
الأسطول الإسلامي والأول الذي بلغ ( ١٧٠٠ سفينة ) . زود بالصلاح واستطاع أن يسيطر على جزيرة  
رودس ( ٨٥٣ ) وأقريطش ( كريت ) ٨٥٤ ، ثم غزا صقلية وأرواد ، وفتح قبرص ، وهوى من بعد  
لمعركة حصار القسطنطينية التي استعصت وقاومت خلال سبع سنوات كاملة ( ٥٤ — ٦١ ) فلما توقفت  
هذه الحملات ، أخذ الروم في مهاجمة شعور عالم الإسلام فاستولوا على بعضها واقتحموا ساحل سوريا ،  
ثم تمكن ( عبد الملك بن مروان ) من استعادة شعور الإسلام وأخضع أرمينية ، ونظم ساحة من  
الشوائب والصوائف ودعم الحصون بالحراسة والدخائر .

ولم يلبث عام ٨٤ هـ أن غزا الروم وفتح حصن اللصبيصة ، ثم أنجبه الوليد بن عبد الملك من بعده

إلى ميدان آسيا الصغرى واستولى على حصون مرعش وعمورية وأنطاكية ، وأجرى سليمان بن عبد الملك من بعد محاولة حربية أخرى للإستيلاء على القسطنطينة التي قاومت الحصار الثاني — الذى ظل مضروبا عليها — حتى رفعه ( عمر بن عبد العزيز ) وقد برز في مجال هذه المعارك أبطال مجاهدون في مقدتهم جناده بن أبي أئين قائد الأسطول الإسلامى الأول ، ويزيد بن معاوية ، وأبو أيوب الأنصارى وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عبد الملك . وكانت هذه المحاولة مقدمة لمعارك متصلة استمرت خمسة قرون حتى استطاع السلطان محمد الفاتح أن يستولى على القسطنطينة ( ١٤٥١م — ٨٥٧هـ ) وفي خلال هذه الفترة ظلت الدولة الرومانية تواصل انتفاضاها على الأرض الاسلام منتهزة فترات الضعف والخلاف الداخلى ، وقد واصل المسلمون مقاومتها ورددها الادالة منها في مواقف متوالية شارك فيها الرشيد والمأمون والمعتصم وكان أبرز أدوار المقاومة الدور الذى قام به سيف الدولة الحمدانى ثم الدولة الحمدانية وقد استطاع هارون الرشيد أن يرغم الروم ( ١٨١هـ ) على دفع جزية بلغت ٣٠٠ ألف دينار سنويا ، وذلك بعد انتصاره في حركات غزو الروم المستمرة لأراضى عالم الاسلام ، وقد استمر دفع هذه الجزية سنوات متوالية ، ثم كان غزو المعتصم لعمورية ( ٢٢٣هـ ) حيث حقق النصر على الروم بجيش قوامه خمسة عشر ألف فارس في مواجهة جيش الروم البالغ ( مائتى ألف ) : ( النجوم الزاهرة ) ثم استطاع السلاجقة توجيه ضربه ضخمة لبيزنطة في موقعه « ملازكرد » كانت مقدمة لنقل المعركة بين عالم الاسلام والغرب من الدولة الرومانية — المستضعفة التى حثت أوروبا خلال خمسمائة سنة من توسع الاسلام — إلى اندفاعها الحملات الصليبية من قلب أوروبا إلى عالم الاسلام خلال مائتى عام . ولقد لفت هذا الصراع أنظار الباحثين حتى قال « سيد أمير هلى » : لعله لا يوجد هلى وجه الأرض مكان نشبت على أديمه معارك مروعة كهذه التى نشبت في الأرض الواقعة بين الشام والأناضول ، فقد ظلت تعزيزات الجيوش على الحدود قائمة ومستمرة ، وكانت حاميات حصن وطرسوس وأذنة والمصيصة أهم هذه الحاميات ، غير أنه بالرغم من توالى الصدام بين الروم والمسلمين ، فإن ذلك لم يمنع من قيام معاملات تجارية ، وفترات سلام تبادل فيها المسلمون والروم العلاقات الثقافية والاقتصادية ، وكان التبادل الثقافى من أهم المبادلات في هذه الفترة ، فقد جعل الخلفاء المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة بديلا للمبالغ المعروضة ، وفي أوقات السلم كانت بيزنطة — تستقبل السفراء العرب من بغداد والقاهرة ، كما كانت بغداد تستقبل سفراء الروم ، وكان الخليفة يستقبلهم رسميا في أبهة شرقية بالغة ومن خلال عروض عسكرية — وكانت مقاومة سيف الدولة الحمدانى ودولته ( ٢٩٣ — ٣٨٠ ) للروم بالغة الأثر في الإسلام فقد قامت الدولة الحمدانية بالجزيرة على حدود الروم إذ أجج سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة والمرابطة في سبيل حماية الشعوب

فسكانت ثغور مطليه والحديث ومرعش والمارونية والسكنيسة وعين زربة والمصيص وأذنه وخرسوس . معاقل صامدة للمقاومة إذ كانت مواقف سيف الدولة كلها موقف دفاع ، إزاء هجمات الروم المتوالية ، يقول ماركفارت : أن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية ، فالروم في ذلك الوقت كانوا يتربصون على أرض المسلمين ، وكان سيف الدولة يقف من غزواتهم موقف الدفاع في حالات كثيرة . غير أن المرحلة التي تلت الدولة الحمدانية لم تسكن بنفس القدوة على المقاومة مما جرد الدولة البيزنطية على مزيد من التوسع والاعتداء على حدود عالم الإسلام ، ولم يواجه هذا العدوان من المسلمين إلا مقاومة ضعيفة فاستطاعت أن تدفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب وأن تسيطر على أرمينية وأن تفرض الجزية على الأمراء المسلمين في شمال الجزيرة وشمال الشام وقد كان هذا كله مقدمة لمشروع غربي ضخم لغزو الشرق الإسلامي ، بالاشتراك مع الدولة البيزنطية لم يؤخره إلا ظهور قوة إسلامية جديدة هي « قوة السلاجقة » هذه القوة التي جددت شباب الإسلام وحلت محل القوة العباسية المنهاره . وقد استطاعت القوة السلجوقية الشابة أن تواجه الغزوات البيزنطية في صمود وأصالة وسار قادتها ( طغرل بك ، ألب أرسلان ، ملك شاه ) لرد هوان الأراضي البيزنطية وحققوا انتصارات هامة ، كان أكبرها في موقعة ( ملاذكرد ) التي أسر فيها الإمبراطور رومانوس ، الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من الروم والصقالية والفرنجة وفي أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على قوى الإسلام ، وأتجه إلى ملاذكرد ، وهي بلدة حصينة على فروع نهر مرادسو ، فحضر حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة ( ألب أرسلان ) في عدد لا يتجاوز ربع قوة هدهم ، وتقول الرواية أن قائد المسلمين إخبار الاشتباك مع الروم يوم الجمعة فصلى بجنده ظهرا ، ولبس البياض وتمنط ، استعدادا للموت وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة ، فلما رأى رومانوس مالحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ، ليتأهب للقتال في اليوم التالي ، غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك ، فضغطوا بقوة ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة ، تدافع منها الفرسان المسلمون واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاما قاتلة ، ثم إنقضوا على جيش الروم من كل ناحية فخصدوه وأسروا رومانوس وتمت هزيمة الروم ( ٤٦٣ هـ ) ونقل القيصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الذي عاتبه على رفضه طلب الهدنة الذي تقدم به المسلمون .

وصال ألب أرسلان الإمبراطور : ماذا كان بفعل لو كان هو المنتصر . وقال رومانوس : أنه كان

بقتل السلطان ويمثل به . قال أرسلان : ولكنى هزمت على العدو هناك والفداء . فافندى الإمبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقة وشيعه فرسخاً . وأرسل معه جنداً يحفظونه ومعه راية مكتوب عليها « لا إله إلا الله » . ( البداية والنهاية ) . وقد علق على هذه المعركة للأورخ ريتشارد بنوهول فقال : لقد كان الغزو الإسلامى بقيادة ألب أرسلان فى نطاق لم تشهد الإمبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، وقد مضى الروم بهزيمة منكورة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الإمبراطور البيزنطى أسيراً ، ومن ثم كانت واقعة ( ملاز كرد ) من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الشرق والغرب ، إذ كانت ضربة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فكانت عاملاً حاسماً فى اندلاع الحروب الصليبية ، ولو أن ألب أرسلان سار فى طريقه — بعد هذه المعركة — إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ولقوض أركان الأمبراطورية البيزنطية .

ومنذ معركة ( ملاز كرد ) استوطن السلاجقة ، هضاب آسيا الصغرى ، وأصبحت فى حوزة المسلمين ، ثم استولوا على ( نيقية ) ٤٧٧ هـ وبقي سلطانهم فى هذه البلاد أكثر من قرنين حتى قضى عليه المغول ٦٥٥ هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد ، وتوفى السلطان ألب أرسلان بعد معركة « ملاز كرد » بعامين ، وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة لأراضى الدولة الرومانية الشرقية حتى طوق السلاجقة آسيا الصغرى من الجنوب وبنسطوا سلطانهم عليها ، وكان لملاز كرد أعمق وقع فى أوروبا ، فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الإسلامى ينذر باقترحام الدولة الرومانية الشرقية ، والاندفاع إلى أوروبا ، هنالك تعالت الصيحات وجرى إهداد مخطط الغزوات الصليبية ، التى امتدت بجناحيها إلى المشرق وإلى المغرب ، غير أنه لم يفضى على ( ملاز كرد ) أكثر من خمسة عشر عاماً حتى استطاعت القوى الإسلامية فى المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق الفرنجىة الغازية فى « موقعة الزلاقة » ٤٧٩ هـ . هكذا كان هذا الموقف الخطير فيما بين المشرق والمغرب ، وفى طرفى عالم الاسلام بمحاذاة الدولة الرومانية الشرقية الضعيفة المنهارة ، وبمحاذاة فرنسا على حدود الأندلس ، دافعا لمخطط الحروب الصليبية التى اندلعت فى أواخر القرن الخامس واستمرت خلال القرنين السادس والسابع ، وانتهت بهزيمة ساحقة لها فى المشرق ، وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الاسلام فى الغرب .

غير أن الحروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة قوية شابة عالم الاسلام هى موجة الوحدة الاسلامية العثمانية ، التى استطاعت أن تتوغل فى أوروبا وتسيطر على أقدارها خلال خمسة قرون كاملة ، كرد فعل للحروب الصليبية التى استولت على « القسطنطينية » وأقامت فى آسيا

الصغرى إمبراطورية ضخمة امتدت ستة قرون (١٣٠٠ - ١٩١٧ م) (٦٩٩ - ٨١٣٣٦ هـ) . وإذا كان لنا أن نستعرض النتائج التاريخية والثقافية والاجتماعية لهذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية ، قلنا أن الاسلام كان بعيد الأثر في النفاذ إلى قلب الدولة البيزنطية والتأثير في مفاهيم الغرب الفكرية مما كان له أثره في حملة رجال الكنيسة على الصور والأيقونات المقدسة . كما كانت هذه المرحلة بعيدة الأثر في الأدب العربى الاسلامى حين رسمت صورة البطولة الاسلامية فى المرباطة والدفاع عن الثغور ، وبرز اسم المحارب العربى المسلم «عبد الله البطال» الذى اسجعت حول حياته قصص أسطورية حاولت أن ترسمه ، وقد وهب قوة خارقة فوق مستوى البشر وكان قد استشهد فى معركة أكرونيون فى آسيا الصغرى . كما كان لهذه المعارك آثارها فى انتقال كلمات كثيرة من العربية إلى اليونانية وبالعكس .

(١٩)

### الحروب الصليبية فى المشرق

« الحروب الصليبية » : كانت هى انطلاقة أوروبا الدينية والاقتصادية فى مواجهة عالم الإسلام ، وتوسعاته ، وقد بدأت منذ اليوم الأول لبلوغ الإسلام أطراف أوروبا ، ثم ازدادت عمقاً واتساعاً مع توالى الزمن ، فلم يسكد يصاب تماسك الدولة الإسلامية بالضعف وينالها التجزؤ والانشقاق حتى توالى هذه الحملات من طرفى عالم الإسلام اندفاعاً ، فلم تلبث أسبانيا والمغرب وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا والشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والبحرين المتوسط والأحر أن أصبحت جميعها ميادين معركة ضارية قوامها الحملة على الاسلام والعمل على سحقه والادالة منه . أن الظاهرة الواضحة الدلالة لهذا المعنى هو أن الغزو من قبل أوروبا والغرب كان عنيفاً مليئاً بروح التمصب والانتقام ، بينما كان التوسع الاسلامى فى عالم الغرب أو الدفاع عن هدوان الغرب ومقاومة غزوه كان رحباً هادلاً . وقد أجمع المؤرخون على أن الحروب الصليبية لم تبدأ يوم بدأت ٨٤٩٢ - ١٠٩٩ م بل أنها تعود إلى الوراء سنوات طويلة ، وتعتبر امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع عالم الاسلام ، وترتبط بالصراع الذى دار بين المسلمين والفرنجية فى أسبانيا وحدود فرنسا ، وأنها لم تنته يوم انتهت بسقوط هكا ٨٦٩٠ - ١٢٦١ م ولكنها امتدت بعد ذلك حتى استعادت الأندلس وأخرجت المسلمين من أوروبا وشملت — ليس منطقة الساحل الشامى وحده من القسطنطينية إلى القدس ومصر — بل ساحل البحر الأبيض المتوسط جميعاً .



## الحروب الصليبية

٥٤٩٢ م (١٠٩٩ م) الحملة الأولى :	٥٤٢ (١١٤٧) الحملة الثانية :
بيت المقدس	ساحل الشام
٥٨٤ (١١٨٨) الحملة الثالثة :	٥٩٩ (١٢٠٣) الحملة الرابعة :
ساحل الشام	القسطنطينية
٥٩٩ (١٢٠٤) (مصاببات ناهية)	٦١٣ (١٢١٧) الحملة الخامسة :
٦١٥ (١٢١٨) الحملة السادسة :	١١٦ (١٢١٩) استيلاء الصليبيين
دمياط (مصر)	على دمياط .
٦١٨ (١٢٢١) اسحاب الصليبيين	٦٢٥ (١٢٣٨) الحملة السادسة
من مصر	استعادة بيت المقدس (فردريك الثانى)
٦٣٩ (١٢٤٤) الملك الصالح أيوب	٦٤٧ (١٢٤٩) الحملة الصليبية السابعة :
يسترجم بيت المقدس	(دمياط)
٦٤٨ (١٢٥٠) هزيمة الحملة الصليبية	٦٤٨ (١٢٥٠) مقتل توارن شاه
السابعة (المنصورة)	وتولى المماليك حكم مصر
٦٨٨ (١٢٨٩) الحملة الصليبية الثامنة:	٩٦٠ (١٢٩١) سقطت عكا فى أيدي
تونس	المسلمين (الأشرف خليل)

× الحملات الأولى والثانية والثالثة والخامسة : أُنْجِثَتْ إِلَى الشَّامِ :

× السادسة والسابعة : أُنْجِثَتْ إِلَى مِصْرَ — والثامنة أُنْجِثَتْ إِلَى شَمَالِ أَفْرِيقِيَا (تونس)

× أَمَّ الحَمَلَاتُ : الأولى والرابعة والخامسة .

× كَانَتِ الحَمَلَاتُ الثَّانِيَةِ والثَّالِثَةِ والسادسة والسابعة والثامنة نَحْتَ زَعَامِهِ مَلُوكُ أَوْرُوبَا .

× مِنْذُ بَدَأَتِ الحَمَلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ الأولى إِلَى الشَّامِ ١٠٩٨ لم يَتَوَقَّفْ وَرُودُ جُوعِ صُلَيْبِيِّينَ جَدِيدَةٍ ، مُتَّصِلَةٍ ، عَلَى هَيْئَةِ حِجَاجٍ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ فِي مَجْمُوعِهَا ، أَضْعَافَ الأَرْقَامِ الَّتِي هَرَفَتْ عَنِ الحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ .

× اتصل مجرى هذه الحملات خلال قرنين كاملين ، مصر بثلاث مراحل . ( أولها ) دور ظفر الأفرنج ( ٤٩٢ هـ — ١٠٩٨ — ٥٣٩ هـ — ١١٤٤ ) . ( ثانيا ) بدأ رد الفعل الإسلامى بحركات مقاومة وصلت إلى استعادة الرها ( ٥٣٩ ) بقيادة نور الدين ، ثم بلغت قمتها بانتصارات صلاح الدين فى « حطين » واستعادته بيت المقدس . ( ثالثاً ) محاولات لمقاومة التمزق والنهاية فى مواجهة حملات المالك ( الظاهر بيبرس و قلاوون والناصر ) انتهت ٦٨٩ هـ — ١٨٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطنة لهم فى بلاد الاسلام .

× كانت جيوش الصليبيين مؤلفة من نورمانين وإيطاليين وبريطانيين وفرنسيين والماسانيين ونرويجيين وسويسريين ، ولم تكن لهذه الحملات الصليبية قيمة توسعية هامة أكثر مما حققتها .

× الحملة الصليبية الأولى ( ١٥ يوليو ١٠٩٩ ) ٤٩٢ هـ حققت الاستيلاء على بيت المقدس . أما باقى الحملات فقد كانت موالاة للبقاء ومحاولات للاستمرار .

× إستطاع الفرنجة بإحتلال بيت المقدس إقامة عدة ممالك : هى ( ١ ) إمارة الرها ( ٩٤٢ — ٥٣٩ هـ ) . ( ٢ ) أما إمارة طرابلس ( ٤٩٦ — ٦٨٨ ) : ( ٣ ) إمارة أنطاكية حتى ٦٦٧ هـ . ( ٤ ) إمارة بيت المقدس . إمارة الرها فقد استمرت من ٤٩٢ — ٥٣٩ حتى إزالتها عماد الدين زنكى ، أما مملكة بيت المقدس فقد أزالها صلاح الدين . والمعروف أن حركة المقاومة الإسلامية بدأت منذ اللحظة الأولى تغير على قواعد العدو ، ثم تطورت إلى قوة هجوم حمل لواءها عماد الدين زنكى الذى استطاع أن يستعيد ( الرها ) كبرى معاقل المملكة اللاتينية ( ٥٣٩ — ١١٤٤ ) .

وقد اهتز الغرب لسقوط الرها اهتزازاً ضخماً فكان ذلك دافعاً للحملة الصليبية الثانية ٥٤٢ — ١١٤٧

× لم تنوقف حركة انخراط أجزاء العالم الإسلامى المتناخم لجمال الغزو الغربى أما منطقة الشام وفلسطين ومصر فقد انجمدت فى ظل نور الدين محمود الذى هزم جيش أنطاكية واستولى على تل باشر آخر بقايا إمارة الرها . كان لانتصارات نور الدين محمود أثرها فى تحريك الحملة الصليبية الثالثة التى فشلت أمام دمشق :

× توسعت خطوات المقاومة وبلغت قمتها فى أعمال صلاح الدين حتى استطاعت فى معركة حطين

أن تسترد بيت المقدس (٥٨٣ - ١١٨٧) هنالك أخذت الحملات الصليبية تتوالى على مصر بوصفها المركز الأقوى الذى يقود حركة المقاومة حيث أنجبت الحملات الصليبية الخامسة إلى دمياط (١٢١٨) والسابعة (١٣٤٩) إلى شاطيء مصر فى محاولة لويس للاستيلاء على دمياط ثم هزيمته فى المنصورة وفارسكور (١٢٥٠).

× كانت الحملة السادسة قد استطاعت بعد وفاة صلاح الدين أن تستعيد بيت المقدس (٦٢٥ - ١٢٢٨) غير أنه ولم تمض على هزيمة لويس فى المنصورة إلا سنوات قليلة حتى استولى المغول على بغداد واستولوا الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى (٦٥٦ - ١٢٥٨) ثم اجتاحوا حلب واستولوا على دمشق ، وأتيح لمصر كفة أخرى أن ترد المغول فى عين جالوت (٦٥٩ - ١٢٦٠) وكانت قوة المماليك قد سيطرت منذ سنوات قليلة على السلطة فى مصر بذلك استطاعت أن ترد الحملة الصليبية (٦٤٨ - ١٢٥٠) والحملة المغولية (٦٥٦ - ١٢٦٠) فى خلال عشر سنوات ، هنالك بدأت هذه القوة الجديدة (المماليك) تسيطر على مقدرات عالم الاسلام وتحمل لواء المقاومة خلفا لنور الدين وصلاح الدين ، وممثلة فى قطز والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر ، وفى هذه المرحلة حقق المماليك ثلاث أمور هامة .

( ١ ) تصفية الممالك اللاتينية والصليبية وانهاء ممكة بيت المقدس . ( ٢ ) تصفية قلاع الباطنية فى الشام والقضاء عليها . ( ٣ ) الحفاظ على الشام ومصر من غزو المغول : وقد أمتد هذا التفوذ واستمر حتى برزت موجة جديدة من موجات المقاومة الاسلامية البدوية هى قوة العثمانيين التى سيطرت بعد ستة قرون كاملة .

## ( ٢ )

وصلت الحملة الصليبية فى الأولى إلى القدس عام ٤٨٩ هـ وسقطت آخر معاقل المملكة اللاتينية فى القدس عام ٦٩٠ هـ : وتوالى خلال هذه الفترة ثمان حملات صليبية ( منها أربع حملات على القدس وحملتان على مصر وحملة على تونس ) . ومن خلال الحروب الصليبية كانت حملات التنارت التى انتهت بسقوط الخلافة فى ( بغداد - ٦٥٦ هـ ) وقد بدأت مقاومة عالم الاسلام للفرز ومنذ وطئت قوى الفرنجة القدس ، ولم تتوقف خلال قرنين كاملين ، برز خلالها عدد من الأبطال والقادة والمجاهدين واستشهد عدد لا حصر له من المحاربين . وواجه المسلمون والعرب هذا التحدى برز فعل متصل .

برز « نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، والملك الصالح نجم الدين ، والظاهر بيبرس وقلادون وخليل » . على فترات في الشام ومصر خلال هذه الفترة ، حتى صفيت هذه المواقف ، وقضى على هذه الحملات ، وانتهت بالفشل ، وكتب المسلمون والعرب المقاومون صفحات غاية في الإشراف والقوة والحيوية ، كشفت عن البطولة في المقاومة ومواجهة أساليب الصليبيين البالغة العنف في العدوان بأساليب كريمة ، قد اندفع الفرنجة في حملتهم يسفكون الدماء على نحو غاية في البشاعة ، فلما استمكك المسلمون بالأمر لم يردوا هذا الفعل بمثله ، ولم يوغلوا في الانتقام . وقد ضرب « نور الدين محمود » مثلاً هاليا في تطبيق خلق الاسلام وطائعه ، وكان صلاح الدين الأيوبي نموذجاً رائعاً في البطولة والسماحة مما ، وكانا معاً في إطار الجهاد والمقاومة : أشبه بالشيخين أول الاسلام ، وتمثل في الظاهر بيبرس ، وقلادون وخليل وجميعهم من الممالك موجه أخرى من موجات القوى المنبثقة من أحشاء الاسلام ، تضاف إلى موجات السلاجقة والبربر ، ولهم جميعاً دورهم في هذه المرحلة في مقاومة الغزو الخارجي ، وقد كان لأبطال الممالك بعد دور بطالي السلاجقة ( نور الدين وصلاح الدين ) أثر ضخم في إنهاء المملكة الصليبية اللاتينية ، والقضاء على التتار .

وكانت « حطين » معركة فاصلة ، في سبيل استرجاع بيت المقدس ، وكان هزيمة لويس في المنصورة حاسمة في فشل الحملات وهودتها خاسرة . غير أن ذلك لم يكن هو النهاية بالنسبة لموقف أوروبا من مقاومة توسع الإسلام والعمل على دفع موجة نفوذه ، فإن فشل هذه الحملات قد أغرى قوى الفرنجة بالضبط على أسبانيا وتكتيل القوى الأوروبية في سبيل تصفية الإسلام والعرب من شبه جزيرة ايبيريا وفقاً لخطتها مؤداها : « تحرير أوروبا من شرقيها وغربيها من دفعة الإسلام » ومن ثم فقد تعمقت في هذه المرحلة خطط اقتلاع الإسلام من أسبانيا والقضاء على الدولة العربية بها .

ويمكن القول أن أبرز عوامل الحملات الصليبية هي العمل على استعادة الأرض التي في يد العرب وإعادة السيطرة على عالم الإسلام ، أو على الأقل إيقاف توسع الإسلام والحلولة بينه وبين السيطرة على أوروبا ، وقد كان ذلك مفهوماً عاش واستمر وتطور في أعماق النفس الأوروبية قروناً متصلة ، منذ وصل للمسلمون إلى أسوار القسطنطينية وسيطروا على الأندلس وبلغوا نهر اللوار وما بعده حتى باتوا قريباً من روما .

ومن هنا فقد كانت الدولة البيزنطية هي حامية أوروبا دون توسع الإسلام ، فلما هجرت عن القيام بدورها التاريخي ، كان على الغرب أن يتربص فرصة وقوع جزر إسلامي جديد لتحقيق هذا الهدف

باسم استرداد بيت المقدس . وكانت محاولة الاسترداد ممتدة على طول البحر الأبيض المتوسط من القسطنطينية إلى الأندلس ، وعلى الشام ومصر والمغرب بالذات . ولاشك كان العامل الديني متمزجا بالعاملين الاقتصادي والاجتماعي ، دون تفرقة أو تغليب لأحد منهم عن الآخر ، فهي حركة أوربية مناهضة لسيطرة الإسلام تحمل الطابع الديني في أشد مراحل عنفه وتعصبه لمقاومة نفوذ العرب للمسلمين الذي تزايد في هذه المرحلة . ثم هي حملة من مجتمع أقل حضارة ومدنية وثقافة على مجتمع حضارة وثروة ، وقد واجه الفرنجة حضارة أرقى من حضارتهم فأفادوا منها ، بينما ترك الأوربيون آثاراً بعيدة المدى لصور الجشع والتعصب والحرب والتدمير ، ما زالت تتمثل حتى اليوم ، بالرغم من محاولة الغرب رسم صورة أقل عنفا في حملته الثانية ( الاستعمار الحديث ) التي فصلتها عن الأولى ثمانية قرون هي عمر القوة العثمانية .

ولاشك أن حركة إعادة نفوذ الغرب في المناطق التي كانت تحتلها الدولة الرومانية في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط والتي لم تسكن في الحقيقة جزءاً من هالم الغرب نفسه وإن فرضت عليها السيطرة الاستعمارية ، وهي التي أصبحت بعد جزءاً من هالم الإسلام . هذه الحركة كانت قد تقدمت خلال مائة عام ونيف قبل الحملة الصليبية الأولى نتيجة لموجة الضعف التي كانت تمر بالمسلمين إذ ذاك بعد مرحلة تضخم وترف ، فكانت بعيدة الأثر في إضعاف الوحدة السياسية والقوة العسكرية مما أدى إلى القصور عن الحماية واليقظة في النفور والمناطق للكشوفة للفتو . ومن أهم اللوازم في هذه الفترة : استرداد الغرب لصقلية الإسلامية ، وإزالة الفرنجة لكثير من أجزاء الدولة الإسلامية في الأندلس بتفريق الأمراء للمسلمين والابقاع بينهم وتمزيق إماراتهم وتضام أمراء الفرنجة ودمج ممالكهم في سبيل مواجهة البقاء الإسلامي في شبه جزيرة ايبيريا . وقد كانت الحركة الصليبية في المشرق ذات مخطط واضح فهي قد اندفعت في خط ممتد من القسطنطينية إلى غزة ، ووجهت حملاتها إلى شواطئ الشام ومصر وأقامت دولة ذات أربع إمارات على الساحل الشامي خلال مائتي عام . ثم وسعت نفوذها بالسيطرة على العقبة ، وبذلك أقامت فاصلاً يحول دون إنتقاء هالم الإسلام في أفريقيا وآسيا ، واستطاعت فعلاً أن تستنزف — خلال مائتي عام — جميع القوى البشرية والمادية في هذه المنطقة حيث كانت الشام ومصر هي المستولة من مواجهة هذه القوة المتمدنية ، وقد توقفت خلال هذه الفترة أعمال البناء والحضارة كما انسم والفكر الإسلامي العربي ، بطابع المقاومة والتحدى . ورد الفعل ، وقد برز ذلك في اتجاه فكر الغزالي وابن تيمية وأصحاب الموسوعات . فمن الناحية الاقتصادية تناقصت الثروة ، وضعفت الأيدي العاملة نتيجة لأعمال الحرب التي استنفذت الموارد

الاقتصادية والقوى البشرية . غير أن هذه الحملات كانت ممبراً للحضارة والثقافة إلى أوروبا ، إذ كانت بعيدة المدى في خلق جسر واسع عريض خلال قرنين كاملين لنقل الحضارة الإسلامية العربية إلى أوروبا ، فقد نشأت على الأثر حركة واسعة في ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية وكانت أبرز مركزى هذه الترجمة : جزيرة صقلية والأندلس .

كما استطاعت « أيديولوجيا الإسلام » أن تتمثل في كثير من الحركات الثقافية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا بعد ذلك ، فالأوروبيون وإن لم يأخذوا الإسلام ، وقاوموا عالمه بعنف وشراسة ، فإنهم أخذوا « منهجه التجريبي » في العلم ومقوماته في الفكر والاجتماع والفروسية ، فقد كان الإسلام وفكره وثقافته ومفاهيمه بعيد المدى في حركات الإصلاح الديني ، قوى الأثر في الحركة العقلية وعلى الحضارة وعلى كل جوانب النهضة التي بدأها الغرب بعد ، وبذا يمكن القول بأن الإسلام أعطى وتفاعل مع كل القوى التي اصطدمت به أو حاولت غزوه ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للتجارة . ومن هنا يمكن القول أيضاً بأن الغزو الخارجي لعالم الإسلام كان هو العامل الأكبر في دخوله « مرحلة الضعف » هذا الضعف الذي تمثل في تخلف المسلمين عن أيديولوجية الإسلام عن الحركة والعمل ، بينما كانت تتوالى الوجات القوى البشرية القادرة على الدخول فيه وحمل لوائه .

هذه القوى التي تتمثل في السلاجقة والنتار والبربر والعثمانيين وهي قوى بشرية هائلة دخلت الإسلام وآمنت به وسيطرت على عالمه عسكرياً وسياسياً ، ولكنها ظلت دون القدرة الكاملة على تطبيق أيديولوجيته على نحو يكفل لها الاستمرار ، أو إقامة مجتمع العدل والحرية لجاهل المسلمين .

لعل أبرز ما يأتى النظر هو الاستجابة السريعة بالتحدى ورد الفعل على الحملات الصليبية إلى المشرق « فلا يكاد الصليبيون يفزون الشام حتى تخرج الجيوش في العراق لمنازلة الغزاة المعتدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية وطاقتها المادية لطرد الصليبيين من دمشق ، ولا يكاد أرنأط حاكم السرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الحجاز حتى تشيد السفن في مصر وتحمل على قاذب الجبال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين . ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل على رأس جيوشه في تونس حتى تتخذ

الاجراءات السريعة لدفع هذه الغارة ، وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاما بين أجزاء الوطن العربي . كانت الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وكانت رداً على توسع الاسلام بعد سيطرة الغرب لأكثر من ألف عام على أغلب المناطق التي قام فيها الاسلام والتي كانت قد أضيفت إلى الغرب بعد حركة الاسكندر الذي استطاع أن يسيطر على هذه المنطقة ، وأن يوحدها تحت سلطة الغرب ونفوذه ، ولكن هذه الحملات كشفت عن مفهوم جديد ، هو أن هذه المنطقة بعد ظهور الاسلام لم يعد من السهولة ضمه إلى عالم الغرب وفكره . لقد جاءت الحروب الصليبية بعد خمس قرون من ظهور الاسلام في محاولة لاستعادة هذه المناطق التي لم يعد من السهل إعادتها إلى الغرب . لأن مفهومها فكرياً جديداً قد سيطر في هذه المنطقة وتعمق وأصبح يمثل قوة جديدة تستطيع أن تواجه عالم الغرب ، فقد برزت حضارة وعقلية جديدتين ، وظهر أسلوب حياة مباين بحيث يمكن القول أن الحروب الصليبية هي صراع بين حضارتين وعقليتين وأسلوبين في الحياة وأنه بعد مائتي عام ، اتضح للغرب هجزه عن تكرار محاولة الاسكندر الأكبر ، ذلك أن الاسلام قد أقام أيديولوجيا جديدة عميقة الجذور ، وأن للغرب نفسه قد جاء في أفواج همجية مشردة ، لمواجهة عالمها من الحضارة المدنية يستطيع أن يعطى ، في مجال القيم الخلقية والفكرية والحضارية .

وبعد : فإن عالم الاسلام لم يواجه هذه القوى — بعد أن سيطر عليها وأحاطها بنفوذه ثم إجلاها . لم يواجه هذه القوى يمثل ماواجهته عندما غزت أرضه فأسرفت في القتل والعدوان . بل كان بها عادلاً رحيماً ، وقد بدأ يتمثل صلاح الدين الأيوبي وهو في موقف القوى المنتصر قائماً في ضوء مفهوم الاسلام وأيديولوجيته ، كريماً رحيماً عادلاً ، يتمثل مفهوم الاسلام : ( العفو عند المقدرة ) مما كان له أثره في تحول مفهوم أهل الغرب عن الاسلام وأهله بالنسبة لما كانوا يعتقدونه بالظن فيه ، لقد كانت المقارنة قادرة على الكشف عن مفهومين وعقليتين . لا يمكن أن يلتقيا ولكن يمكن أن يقتبس كل منهما من الآخر

(٣)

### معاملة المسلمين ومعاملة الفرنجة

حاول مؤرخو الغرب وتابعهم بعض المؤرخين العرب أن يبرروا الحملات الصليبية على «عالم الاسلام» ، بأنها إنما كانت مجرد حملات لاسترداد بيت المقدس وإنما تحركت لتحرير الطريق إلى قبر السيد المسيح ، وحمايته من مظالم السلاجقة الذين اضطهدوا الحجاج المسيحيين ، وأن بطرس الناسك قد زار القدس وعاد يهيج الخواطر ويثيرها على سوء المعاملة . والحق ، أن هذه إحدى افتراءات التاريخ الكبرى التي هاشت طويلا دون أن نجد من يحققها أو يدفعها ، فليس هناك أى دليل أو أى وثيقة تثبت مثل هذه الاتهامات ، وكل ما عرف في هذا المجال هو أمر الضريبة المقررة على الحجاج والتي زعموا أنها قاحشة ، أما الاعتداء على حجاج القبر المقدس فلم تتأكد بدليل واحد أو شاهد منصف ، وإذا وجدت حوادث فردية فهي مما لا تخلو منه مملكة . ومن المؤرخين المنصفين الذين عاشوا تلك الفترة وزاروا الشام : «برنارى فيس» الذى كتب في مذكراته يقول أن الاسلام ساد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أنى لو كنت مسافرا ونفق بعيرى أو حمارى الذى ينقل أمتقى وتركتهما كلها دون حارس ولا رقيب وسمرت إلى أقرب مدينة لأجابه لى بعيرا أو حمارا آخر لوجدت عند عودتى أنها باقية على ما هى عليه ، وقال المسلمة منزو : « كانت تلك الفظائع المنسوبة إلى المسلمين ممزوجة بكثير من الأقاوية «التوابل» لتوافق روح ذلك العصر الذى كان أشد توحشا من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص تلك الفظائع على علاتها ، وتجميع المصادر على أن المسلمين لم يعاملوا الفرنجة بالمثل ، بالرغم من مظاهر العنف البالغة والانتفاض والنكث بالعهود والناسك التى نفذها الأوربيون وكرروها فى أكثر من موقف

كان المسلمون فى جميع أدوار الحروب الصليبية يتصرفون فى حدود مفهوم الاسلام وأيدلوجيته رفقاً وعدلا فى دار الحرب والسلام ، ويسجل المؤرخون أن الصليبيين فى الحملة الأولى سفكوا دماء المسلمين حتى فى المسجد الأقصى بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجله دماء المسلمين الذين قتلوا ( كتاب التاريخ العام الافيس ورأمو ) فإذا نظرنا إلى أعمال الصليبيين تركنا للعلامة ميشو فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية أن يصور أعمالهم قال « إنهم قتلوا فى معركة النعمان وحدها جميع من كان من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمختفين فى السرايب وأهلكوا صبرا ( دون قتال ) ما يزيد على مائة ألف إنسان .



وقال مبشور: لقد تعصب الصليبيون في القدس التعصب الأعشى الذى لم يبق لها نظير حتى شكنا من ذلك للنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون الغرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض إلى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الأدميين وقد دام الذبح في المسلمين أسبوعا حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر الاسلامي ، فإذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس واستعادتها منهم عام ٥٨٣ هـ وكان بها ألف من الفرنجة والصليبيين (منهم ٦٠ ألف راجل وفارس) غير النساء والأطفال لوجدنا تصرفا يختلف كل الاختلاف ، لقد حفظ صلاح الدين الأيوبي حياة هؤلاء جميعا واستوصى بهم وسمح لهم أن يخرجوا بكل ما يملكون من ذهب وفضة ، واكتفى بأن فرض على كل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة وعلى كل طفل دينارين ونحمل عن هجز منهم ، فأعفا كثيرين من هذه الفدية .

وأدى للملك العادل أخو صلاح الدين الفدية عن ألف منهم ، وعومل النساء معاملة غاية في السهاحة واللفظ ، وأغضى عن كل ما حلوا معهم من غنائم . وأباح للبطريرك الأكبر أن يخرج آمنًا بأموال البيع وذخائر الجوامع التي غنمها الصليبيون في هجومهم الأول . ورفض صلاح الدين ما ذهب إليه مستشاروه من أن البطريرك سيقتوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية ، وقال : « لا أخدربه » ، كما خالف ما أشار به بعض الفقهاء الذين قالوا بمعاملة الفرنجة يمثل ما عامل به أجدادهم جمهور المسلمين يوم فتحهم للقدس .

بل لقد ذهب صلاح الدين إلى أبعد من ذلك فانه لما عقد الصلح بينه وبين الفرنجة ، دخل خلق كبير من الافرنج إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة ، لقد ألزم صلاح الدين منهج الإسلام ومفاهيمه وحاول أن يكون مثلا واقعيا للقيم الإسلامية وكان لهذا أبعد الأثر في تصحيح مفاهيم الغربيين إزاء ما ألقى إليهم من شبهة عن قسوة المسلمين وظلمهم . حتى عاد كثيرون منهم بعد انتهاء الحروب الصليبية يتحدثون عن الإسلام وعن صلاح الدين بانصاف . وقد تحدث بعض المؤرخين عن خلق صلاح الدين فقال « أيوركا » المؤرخ : « لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من الفرنجة شفقة مؤثرة ، ولا سيما على الأطفال والنساء ، ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين ، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعاية الجمهوريات

الإيطالية ليعيدوا هؤلاء البائسين من الصليبيين . وقال منرو : كان صلاح الدين محبوباً في الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ولسلوكة سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين آثار دهشتهم وعبثهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح مشهوراً بتأدبه ، ولكن هل كان في ذلك هبة أو رد بالجميل ، الواقع أن العكس هو الذي كان ، فإن الصليبيين لم يلبثوا أن أظهروا القدر بعد قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، إذ سارع رينشارد قلب الأسد مستبظاً وعداً لصلاح الدين بإرسال بعض الأمانات ، ولم يلبث أن أخذ ملك الانجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل في عكا بمرأى من جنود صلاح الدين وبقر عسكريه بطون للمقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ورغبة في الانتقام بمرأهم لينخذلونها دواء يستشفون به ( تاريخ الأمير حيدر ) . وسجل المؤرخون الغربيون كيف أسر المسلمون كثيراً من الفرنجة الذين ظلوا أمداً طويلاً في أسرم فكانوا يعاملونهم معاملة طيبة ، ويمنحونهم وأفرأ من الحرية . ( تاريخ الحروب الصليبية لمنرو ) وقد أشار هذا المؤرخ إلى أن الفرنجة قد اكتشفوا حقيقة هامة وخطيرة هي أن « اتهم المسلمين بالجن قد زال من أذهان الصليبيين لما النحمو معهم في القتال » .

## المقاومة

( أولاً ) وجدت الحروب الصليبية جبهة المسلمين وأزالت خلافتهم فأضحوا عرباً وتركاً وأكراد مجتمعين على مقاومة الغزو الغربي ، كما تلاقت الدول : الفاطمية والأتابكية ، والأيوبية ، لاهاليك . ( ثانياً ) عنى المسلمون بفنون الحرب ، وبرعوا في ابتكار أنواع جديدة منها وكانت مواقفهم واختراعاتهم الجرئية موضع إعجاب الفرنجة حين قاتلوا بالإنجرا والمنيقيات والدبابات والسكبات والوالاب والطب والسرايات وطم الخنادق ونصب السلاالم والزخوف في الليل والنهار . ( ثالثاً ) كانوا يتعاودون المعارك والمواقف ساعات من الليل والنهار فيعملون في سبيل أرزاقهم أو قانا ويخصصون للجهاد ساعات وأياماً . ( رابعاً ) أبرزت الحروب الصليبية أعلاماً في مجال السياسة والحرب : نور الدين وصلاح الدين والكمال والظاهر وقلاوون والأشرف وعشرات من الزعماء والقواد . ( خامساً ) اختلف أسلوب مقاومة الحملات الصليبية في الشرق وتطور ، كان منهج نور الدين مختلفاً عن منهج صلاح الدين ، وكان منهجها مما يختلف عن منهج الظاهر بيبرس وقلاوون . وقد ظلت مقاومة نور الدين قائمة ومستمرة في الغارات على حصون الصليبيين ، وقد استطاع أن يقض أكثرها ففتح أكثر من

خسنتين حصناً ، وكسر الصليبيين في حارم وكانت عدتهم ٣٠ ألفاً من الروم والأرمن والفرنجة ، أما صلاح الدين فقد أوقع بهم في معارك فاصلة وقد أعطى صلاح الدين الغربيين صورة باهرة للتعاليق الإسلامية للحرب والقتال والصلح أما الظاهر بيبرس فقد اضطر إلى اصطناع أسلوب أكثر عنفاً من صلاح الدين وكان لمؤامرات الصليبيين أبعد الأثر في هذا الاتجاه . ( سادساً ) ظل الشعب صامداً ومتحملاً لآلام الضيق الاقتصادي نتيجة استنزاف الموارد في معارك المقاومة ، ولكنه ظل يقظاً لا يئى موقف مهادن . فقد استنكر المسلمون صنع الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين عندما وقع مع الإمبراطور فردريك معاهدة بإزالة الصفة العسكرية عن القدس والتنازل عنها للصليبيين . ( سابعاً ) قاوم المسلمون كل محاولة لتثبيط الهمم ، فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على أبيها شمس الملوك صاحب دمشق من يقاتله لما أيقنت أنه استوهى الفرنج ليعلم إليهم الملك . ولما وقع أحد ملوك الصليبيين أسيراً في قبضة نور الدين باعه نفسه بمال عظيم أنفق في الجهاد . واقتدى أحد ملوكهم نفسه بمبلغ كبير فأخذه وبني به مستشفى عظيماً . ( ثامناً ) حاول ( أرناط صاحب السركك ) من ملوك الصليبيين فتح الحجاز ، فأنشأ لذلك أسطولاً في بحر الروم ( الأحمر ) وصار في البحر خاضعاً - صمداً - ، وأجبه نحو هيناب لاضطهاد المسلمين في تلك الأرجاء ، وأهان اسم النبي بكلمات رويت عنه ، فغلب صلاح الدين أن يقبله بيده إذا ظفر به ، وقد حقق صلاح الدين وعده بعد موقعة حطين . ( ثامناً ) في خلال الحروب الصليبية وفي معظمها ، برز « الخطر المغولي » : كانت الحروب الصليبية تشغل الشام ومصر .

أما الخطر المغولي فقد اجتاحت عالم الإسلام من حدوده الشرقية حتى وصل بغداد ، وحلب ودمشق فكانت ( حملة هولاكو ) ( ١٢٥٦ - ١٢٥٨ ) بعد الحملة الصليبية السابعة ( حملة لويس على مصر ) ( ١٢٤٦ - ١٢٤٨ ) بعشر سنوات وقد اجتاحت عاصمة الخلافة ( بغداد ) فأسقطتها ، واستطاع المماليك الذين كانوا قد حكموا مصر قبل ذلك بسنوات قليلة ( ١٢٥٢ ) ، أن يردوا هذوان التنازل على حدود مصر في موقعة فاصلة هي « عين جالوت » ، انهزم فيها التتار بعد جولة ضخمة من النصر اكتسحوا خلالها عالم الإسلام . ( عاشراً ) أثبت انهيار مملكة بيت المقدس في موقعة ( حطين ) ٤ يوليو ١١٨٧ - أن الصليبيين بعد تسعين عاماً لم يتمكنوا من توطيد أقدامهم في البيئة العربية الإسلامية وجاءت الأحداث المتوالية مؤكدة أن الأيدلوجية الغربية لا تستطيع أن تسيطر على عالم الإسلام أو يذيقه أو تقضى على مقوماته المستمدة من الإسلام ، ولم تكن الفترة التي امتد خلالها كيان مملكة الفرنجة في الساحل الشامي بالرغم من الامدادات المتوالية والحملة المستمرة إلا فترة مضطربة

عقوبة ، انتهت بالقضاء على هذا السكيان وهزيمته هزيمة منكرة ومزقته وعزيقا ، لقد توقفت الحملات الصليبية على الساحل الشامى بعد الحملة الثالثة واتجهت الرابعة إلى مهاجمة الإمبراطورية الشرقية والحملة الخامسة والسابعة اتجهت إلى مصر .

( ٢٠ )

## غزو الفرنجة للمغرب

وفي مقابل الحروب الصليبية على المشرق كانت هناك الحروب الصليبية للغربية على المغرب الإسلامى وبينهما أوثق الروابط حيث كانت أوروبا تمد جتاج الغزو إلى القسطنطينية والمشرق ، من ناحية ، وتمد جناحه الآخر إلى الأندلس والمغرب . بلغ التوسع الإسلامى أفريقيا ، ثم عبر الأندلس سنة ٩٢ هـ على يد القائد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فلم تلبث أسبانيا أن أصبحت ولاية إسلامية ودخلت عالم الإسلام ، ثم شق التوسع طريقه إلى ماوراء جبال البرنيه فأوغل المسلمون في ولايات فرنسا الجنوبية ، وسيطروا على سهول الرون وتقدموا في قلب فرنسا خلال عشرين عاماً حتى توقفوا ثمة في معركة تولوك ( تولوشة ) ١٠٢ هـ ٧٢١ م واستشهد قائدهم السمع بن مالك فارتدوا إلى أسبانيا ، ثم كانت موجة جديدة قادها ( عبد الرحمن الغافقى ) ١١٣ هـ ففضى إلى الشمال مخترقاً أراجون وناظر حتى بلغ نهر الدون فهزم الفرنسيين وطاردهم حتى بوردو ، ثم استولى على ليون ، وبلغ قريباً من باريس نحو مائة ميل ، واتجه إلى ضفاف اللوار ليم فتح هذه المنطقة فسيطر على نصف فرنسا الجنوبي ، وقد امتد خط التوسع كما يقول إدوار جييون — مدى ألف ميل من صحرة طارق إلى ضفاف اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه للمسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربي أيقوسيا ، فليس الرين بأمنع النيل والفرات ، فلو حدث كانت أحكام القرآن تدرس الآن في جامعة أ كسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة .

ثم كان اللقاء بين المسلمين والفرنجية في معركة بلاط الشهداء ( تورو بوانيه ) ١١٤ هـ هذا اللقاء الذى يقف عنده المؤرخون الأجانب على أنه حاسم ، وأنه قضى على التوسع الإسلامى في أوروبا بينما ظل المسلمون يتوسعون في أوروبا من بعد ذلك إلى تاريخ بعيد .

لم يتوقف التوسع الإسلامى في أوروبا بعد معركة بلاط الشهداء وإن كان قد انتظر ثمة ، ثم هاود من بعد حركته وكانت دولة بنى الأغلب في تونس هذه المرة ، هى التى حملت لواء التوسع بعد توقف دولة

المغرب فلم يلبث عبد الله بن الحيات والى أفريقيا أن بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة القهري عام ١٣٣ — أى بعد معركة بلاط الشهداء بتسع سنوات — إلى حدود إيطاليا .

ثم جهز زياد الله الأكبر أسطولا عام ٢٠٧ بإمارة محمد عبيد الله التميمي المنازلة سرديانية ثم أعاد عليها السكرة ٢١٢ هـ بقيادة أشد بن القرات ثم توالت محاولات التوسع في إيطاليا ٢٢٤ هـ ثم سيطر المسلمون على جزيرة أفرطش بعد موقعة هائلة مع أسطول بيزنطة ( ٢٤٠ — ٢٥٠ ) واقتحم القائد خفاجة جنوة عام ٢٥١ هـ وتقدم إلى جبال الألب وسيرت بيزنطة أسطولا ضخما لمحاربة المسلمين في شطوط أوربا الجنوبية ومنعهم من التقدم في فرنسا فواقهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة واستولى الأسطول الأغلبى على جزيرة مالطة .

وتقدم الحسن بن رباح إلى مرسيليا وفتح البروفنس ، فاستنجبت فرنسا بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا فلقية الأسطول الإسلامى في عرض بحر الروم ودارت معركة ضخمة ، وتوغلت القوات الإسلامية في فرنسا بقيادة خفاجة ن سفيان واستمرت من ٢٦٦ إلى ٢٧٢ هـ فسلمت بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا كما جهزت أفريقية أسطولا عظيما عام ٢٧٥ هـ لتعقب أسطول البيزنطيين ، فشل حركتهم عن التقدم ، وتمكنت سيادة المسلمين في إيطاليا وجانبها من فرنسا .

يقول العلامة عبد العزيز الشعالى الذى نقلنا عنه هذا العرض : لقد استمر نجم الإسلام صاعداً في أوربا بعد هذه الواقعة العظيمة والأمراء الأغلبة لا ينفكون عن تمزيق المسلمين في ولايتهم الأوربية مراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحيط كل مسمى في الانتشكاس إلى أن قامت الدولة العبيدية ( الفاطمية ) هنالك توقف التوسع الإسلامى ( أواخر القرن الثالث ) ومعنى هذا أن المسلمين ظلوا من عام ١١٤ إلى ٢٩٨ تقريباً وهم يوسعون عالم الاسلام في فرنسا وإيطاليا ، وقد اقتحم المسلمون بعض ولايات إيطاليا الجنوبية واشتبكوا في معارك بحرية في مياه أوسنيا ( نهر روما ) وهددوا مدينة روما بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يدفع لهم جزية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الفضة .

غير أن الموقف لم يلبث أن تحول بانتقال المعز لدين الله إلى المشرق ، وشعر الغرب بسرعان الضعف والانحلال في القوة الإسلامية ، فأخذوا يتواثبون في كل مكان وما زالوا يؤلبون عليهم

حتى ٣٧٢ هـ حين قاد الملك روجار النورماندى جوعاً كثيفةً لمناجزة المسلمين فى فرنسا ودارت معارك ردت الفرنجة على الأعقاب ، وقد استنفر ( روجر ) الأمم الأوربية لمحاربة عالم الاسلام فى أوربا وأفريقيا . ثم نزل الرومانديون من شمال فرنسا إلى جنوبها وشرعوا يتمقبون القوى الاسلامية ويناجزونها فى إيطاليا حتى أزالوا المسلمين من جنوب أوربا ، ثم انجسوا بعد ذلك إلى مهاجمة أفريقيا ففى عام ٤٧٦ هـ هاجموا نجر ( المهديّة ) وهو دار الملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ثلاثمائة مركب بها ٣٥ ألف مقاتل فخرقوا وخربوا وهادوا المسلمون السكرة عام ٥١٦ هـ فأقرى على بن يوسف بن تاشفين صاحب العدوتين أسطرله شطوط أوربا الجنوبية بقيادة ( أبى عبد الله ميمون ) وأعاد النورمانديون السكرة على المهديّة ٥١٧ هـ فغنى المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأمواهم ثم هادوا عام ٥٤٣ هـ فاحتلوا المهديّة ، وجعلها الصليبيون قاعدة لخراباتهم البحرية فى شمال أفريقيا إلى أن أجلاهم عبد المؤمن بن على سنة ٥٥٥ هـ .

وقد جاء هذا الصراع بين الإسلام والغرب ، على حدود إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ( مدخل أوربا الغربى ) مكمل للصراع بين الإسلام والدولة البيزنطية ( مدخل أوربا الجنوبى ) فلم ينفصل هذا فى شطريه ولم يتوقف ، وكان آنناً يتسع ويمتد فى إحدى الجناحين ، ثم يتخفف ليواصل اشتداده فى الجناح الآخر .

ولم يلبث الإسلام أن دعم وجوده فى الأندلس ، ولكنه كان وجوداً محفوظاً بالخطر ، الذى كان يجتاحه من أطرافه ، فلم تلبث أن قامت الدولة الأموية راسخة البنيان استمرت ( ٢٧٥ عاماً ) ثم اعتورها الضعف والترف والتمزق ، ولم تلبث أن تمحلت إلى ممالك صغيرة استطاع نفوذ الفرنجة المتربص أن يجتاحها وينتص منها ويفرى بعض أمرائها بالبهض الآخر ، وكان المسلمون قد تركوا إبان وصولهم إلى الأندلس جيهاً به مجموعة من الفرنجة اعتصمت بالجبال وظلت تكبر وتنمو حتى أصبحت قوة كبيرة وخطراً مهدداً ، ولم تلبث الأندلس أن تعرضت لغزو الصليبي الذى كان يفتقها من أطرافها ، لولا موجتين متواليتين ، إحداهما للرايعين ، والأخرى للموحدين ، هاتان الموجتان اللتان قادهما يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على ، قد أجلتا تمزق الأندلس فترة من الوقت ، وكانت قوة البربر التى ظهرت على مسرح الأحداث فى المغرب إحدى القوى الإسلامية الثلاث البدوية الخشنة التى نصرت الاسلام فى إبان أزمتها ، وهى الثالثة : السلاجقة والماليك .

ولقد ظل الغرب يقاوم بقاء المسلمين فى أوربا ، ويعمل على إجلائهم من مواقعهم ، وكانت

دورة الاسلام قد تراخت فلم تحقق تطلعا إلى بلوغ القسطنطينية من الأندلس ، وتحول الموقف سريرا من مرحلة التوسع إلى مرحلة الدفاع والمقاومة ، وهي مرحلة طويلة مديدة ، واجه فيها المغرب والأندلس صراعا امتد من عام ٩٣ إلى ٨٩٨م — وهو عام إسترداد الغرب — للأندلس ولم يتوقف . وقد ترابط الغزو الصليبي على الأندلس من ناحية وعلى عالم الاسلام في المشرق من ناحية أخرى وازداد ضغطا وقوة بعد فشل الحروب الصليبية في المشرق وارتدادها منهزمة ، وكانت أوروبا تنقسم المعركتين وتؤلب عليهما في كلا الميدانين : ميدان المشرق في الشام ومصر وميدان الغرب في الأندلس والمغرب ، ولقد بلغت الأندلس مكانا عاليا في مجال العلم والحضارة وازدهرت قرطبة ونافست بغداد ودمشق والقاهرة بينما كانت أوروبا على مرمى حجر منها تعيش في ظلمات البداوة والتفريق .

تقبلت أسبانيا عبور المسلمين إليهم تقبل المنقذ فقد التمس فيه النجاة من الظلم والاستبداد كما تقبلت دولتا فارس والروم « الاسلام » محررا لها وقد توالت حركة التوسع في الأندلس ممثلة في فرقة طريف الاستطلاعية ثم عبرت قوة طارق ثم عبر بعد موسى ابن نصير نفسه وكان للبربر الدور الأعظم في هذه المعارك ثم عبر جبال البرانس من بعد « الحر بن عبد الرحمن الثقفي » ( ٧١٧م — ٨٩٩ ) فاستولى على سبانيا ، ثم احتل أربونة ، التي جعلها المسلمون من بعد حصنا منيعا ومستودعا للذخائر ، ثم كانت موقعة بلاط الشهداء عام ١١٤م بعد عشرين عاما من التوسع ، فانسحب المسلمون بعد هزيمة اليوم الأول واستشهد عبد الرحمن الغافقي . وتوقف التوسع في هذا الجناح ليمبدأ في جناح آخر ، وبطابع آخر فقد استأنفقه قوى المسلمين في جناح تونس ، وإن لم يكن بنفس الدرجة ولا القوة .

ويمكن أن ينظر إلى هذه الموجة التي بدأت عام ٩٢ وتوقفت ٣١٤م على أنها موجة طبيعية قد بلغت مداها ، كان قوامها البربر والعرب معا ، وقد استنفدت قوتها ، بعد أن بمدت عن جبل طارق نقطة بداها نحو ألف ميل ، فصلا عن الخلاف الذي دب بين البربر والعرب وفضلا عن مأساة القنائم .

فكان بلوغ الزحف موقع « بلاط الشهداء » في الحق ، هو أقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة ، ومن هنا بدأت المرحلة التالية : مرحلة التبلور والانصهار وبناء الحضارة التي ازدهرت في ظل الدولة الأموية الأندلسية خلال ( ١٣٩ — ٤١٤ ) قرنين ونصف ويزيد غير أن الظاهرة الواضحة في الأندلس أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين والفرنجية حتى في أزهر العصور .

وأن بناء الدول أمثال عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وللنصور أبو عامر كانوا مجاهدين بالدرجة الأولى وكانوا يوالون تأمين حدودهم من غارات الفرنجة الذين كانوا يتربصون الدوائر بهند المملكة العربية الإسلامية التي نجحت في قلب عالم أوروبا النائم المنعصب ، المبيت النية للقضاء عليها ، ومع ذلك فقد نمت في مرحلة التبلور والحضارة وأبنت نمازها وكتبت صفحة باهرة ، فقد تأقت حضارتها حضارة المشرق .. وحملت لواء العلم والفلسفة واضطرت أوروبا أن تنصل بها وأن تأخذ منها ثم أن تمتص هذه الحضارة وتحيلها إلى كيائها وتبدأ بها النهضة الحديثة فقد كان « المنهج التجريبي » هو أعظم ما قدست الأندلس المسلمة العربية إلى الحضارة الأوروبية الوليدة ، وكانت مؤامرة سحق الأندلس وإخراج المسلمين والعرب من أسبانيا والقضاء على الإسلام واللغة العربية في أوروبا والتمنخلص من آخر عربي ومسلم في أوروبا بالإخراج أو القتل أو التنصير هو رد الفعل أو رد الجليل .

ومن عجب أن تكون قرطبة عاصمة الأندلس هي زهرة أوروبا كلها وفيها يقيم نصف مليون من السكان وكان بها سبعمائة مسجد وثلاثمائة من الحمامات العمومية وبها شقت شوارع طولها أميال كانت دائماً مضادة بقناديل حيث لا يوجد في ذلك الوقت قنديل واحد عمومي في لندن إلا بعد سبعمائة سنة ، أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك ، لا يأمن من يتخطى هتبه داره في يوم مطر من الخوض في لجة من الوحل .

(١٩)

### الغزو المغولي التتري

يمثل الغزو المغولي ( التتار ) موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام واستمرت تبحناحه بعنف على دفعات متوالية خلال أكثر من قرنين ونصف قرن . X جنكيز خات : امبراطورية المغول ( ١٢٠٠ ) X هولاكو في بغداد ( ١٢٥٦ ) . X تيمورلنك في خراسان وما وراء النهر ٧٧١ — فتوحاته ٧٨٣ في بغداد ( ١٣٩٥ ) . حملة تيمورلنك على سوريا ٨٠٤ — وحمله تيمورلنك على الدولة العثمانية . وقد افترنت غزوات التتار لعالم الإسلام بغزوات الصليبيين وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي كاشة قوامها الصليبيين والتتار الذين كانوا على صلة بالقوى الأوروبية التي تدعم الحملات الصليبية ، كما حاولت القضاء على الدولة العثمانية كقوة شابة من قوى الإسلام ، وكان للمغول والتتار في كلا المواقفين من غزو بغداد



لإسقاط الخلافة ودحر القيادة السياسية الإسلامية الإسلامية ٨٦٥٦ بقيادة هولاكو و ٨٧٩٥ بقيادة تيمورلنك ثم غزو آسيا الصغرى لإسقاط الدولة العثمانية الشابة التي تمثل قيادة الإسلام الجديدة — لا شك كان هذا مرتبطاً بإرتباطاً كبيراً بمخطط الفرنجة والغزو الغربي . غير أن الإسلام شأنه دائماً مع كل القوى المواجهة له ، كان دائماً قادراً على التأثير فيها ، فقد استطاع بقوته العقلية والروحية القضاء على تحول القنار إلى الإسلام . فلم يكذب ينقض على ظهور التنار أكثر من ثمانين عاماً حتى أعلن الامبراطور ( تاجدار أوغل ) الذي تولى السلطة عام ( ٨٦٨١ — ١٢٨٢ ) اعتناق الإسلام وأطلق على نفسه السلطان أحمد ، ووزع منشوراً بذلك على المقاطعات التي يكون فيها امبراطوريته ( هريستان . هجستان . هندستان . تركستان ) . وكان نص منشوره التي بعث به إلى والي بغداد يقول : « لقد جالست على عرش أجدادي فخذوا هملاً أننا معشر المغول مسلمون وأن حقوكم الموروثة من عهد العباسيين .

ستظل محترمة مقدسة ، وقد أمرت أن ترد إلى العراق جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكاً لهم ، واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي وابلغت نائبي لديكم أن يمشي في جميع أحكامهم على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي لأن محمد ﷺ بشرنا بالقرآن الكريم أن الدين الإسلامي هداً لنا لهذا والسلام سيظل قائماً وسائداً إلى يوم القيامة ، ونأمل الاعتقاد بذلك فالحمد لله الواحد الأبدى الذي عليكم : ( امضاء ) الخان الأعظم ملك ، لوك آسيا ( تاجدار أوغل ) .

وسار ( غازان ) ابنه في نفس الطريق ، فما أن تولى الملك حتى هاجم بلاد مغولي الصين ، التي كانت تنتمسك بالشامانية والبوذية والكنفوشوسية وحملهم على اعتناق الإسلام ، فأصبح المغول بأجمعهم والتابعون لهم يدينون بالإسلام . وقد كان هذا التطور سبباً رئيسياً في إقبال الأهالي على اعتناق الإسلام ومن تمرركز الإسلام في بلاد المغول ، ثم أمر « السلطان جاردوان » بهدم المعابد الوثنية وإقامة المساجد الإسلامية مكانها .

وما زال حادث سيطرة الإسلام على هؤلاء الفاتحين القسام الذين كانوا كالأهصار الملاحق للحضارة الإسلامية ، ما زال يعد من أحداث تحولات التاريخ الخطيرة التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث . فقد كان حادث إسقاط الخلافة العباسية في بغداد من الحوادث الفاصلة المدودة في تاريخ الإسلام كله . والتي هزت عالم الإسلام هزة عنيفة حتى قال ابن الأثير في تاريخه سنة ٨٦١٧ :

« لقد بقيت هذه سنين معرّضا عن ذكر هذه الحالة استعظاما لأمرها ، كارها لذكرها فانا أقدم إليه رجلا وأوخر أخرى ، فمن ذا الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين . ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فيأبى أن يأتى به . وقد صور توماس ارنولد قوة الإسلام فى التحدى ورد الفعل حين استطاع بعد ربع قرن من إسقاط التتار لبغداد منار الخلافة الإسلامية ، أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام . » لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول فقد انساب جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قُلل الجبال واكتسحت فى طريقها للراكر الإسلامية وأتت على ما كان لها مدنية وثقافة ، . . . ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وإطلال مجده الخالد ، كما استطاع بواسطة دعاة من المسلمين الذين الفأخمون المتبريرون ويملمهم على اعتناقه ، ويرجم الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانوا يحاولون إحراز قصب السبق فى هذا المضمار . وقد واجه للمغول صراعا حاييا بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كانت الشعوب التى اختلطوا بها على أثر فتوحاتهم تضم أهل الديانات الثلاث ، وقد تنافس دهاه هذه الديانات فى كسب الفأخمين إلى أديانهم .

ولما فتح جنكيز خان البلاد التى تسكنها قبيلة السكرايب للمسيحية تزوج كما تزوج ابنه كورلاى منها ، أما ابنه الثانى اخيائى فإنه لم يعتنق المسيحية . وكان لهذه المصاهرة أثرها فى تطلع قوى الأفرنج إلى مساعدة المغول فى حروبها ضد المسلمين فقد تمكن هيتون ملك أرمينيا المسيحية من اقناع مانجوخان ( ٦٤٦ — ٦٥٥ ) وحمله على إرسال تلك الحملة التى فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو ( ٦٥٤ — ٦٦٣ ) . غير أن الخطة التى كانت تقوم بها حملات التبشير وقوى الفرنجة لكسب المغول فكان للصراع بينها أثرا سبئا فى نفوس التتر . ومن ثم استطاعت البوذية واستطاع الإسلام أن يحتلا مراكز متقدمة فى بلاد المغول . وظل الصراع قائما حتى حسمه « بركة خان » رئيس القبيلة الذهبية ٦٥٤م ١٢٥٦م وكان أول من أسلم من المغول وكان بركة خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته وكان جيشه مسلما ، وقد دخل بركة خان من بعد فى حلف مع الظاهر بيبرس ، وكان من نتيجة ذلك أن وفد كثير من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناهم ( المغريزى ) . وكان من أبرز آثار انتشار الإسلام بين المغول بعد أن ردم الظاهر بيبرس عن سوريا أن عمدوا إلى توطيد أقدامهم فى فارس والعراق ، وانصرفوا إلى التعمير وإقامة الحضارة ، وإصلاح المناطق التى كانوا قد خربوها ، والحق أن المغول بعد هذه الحملات العاصفة على عالم الإسلام والتناقص بالاجتمع الإسلامى

قد وجدوا أنفسهم خاضعين للإسلام ، دين ضحاياهم وثفاقهم ، ويمكن القول أن أثر الغزو المغولي في ضراوته لا يقل عن أثر الحروب الصليبية ، بل إنه كان من الوجهة النفسية أسوأ أثراً حيث أسقط مركز القيادة السياسية الإسلامية التي كان دوماً موضع الإعجاب والإجلال ، وكان الغزو المغولي قد بلغ من العنف مبلغاً لا حد له ، وامتدت رقعته امتداداً شمل آسيا كلها وبلغ أطراف أوروبا ، غير أن المغول لم يلبثوا بعد أن انصهرروا في عالم الإسلام واهتفقوا ديانتهم ، أن أقاموا دولة كبرى امتدت من الصين إلى بغداد بينما أقام الصليبيون في الشريط الساحلي للبحر الأبيض تجاه الشام .

وقد نقلت غزوات التتار مقر الحضارة الإسلامية إلى مصر التي لم يسعها هذا الغزو وانسكسرت لأول مرة على حدودها ، والذي استطاع إبراز قوة حربية فنية ظلت تحمي عالم الإسلام أكثر من قرنين هي قوة المماليك ، الذين انضوا تحت لواء الإسلام وحملوا راياتهم ودافعوا عنه ، وكانوا إحدى القوى الثلاث التي ابتعثها الإسلام من أعماقه للدفاع عنه : السلاجقة الاتراك ، والبربر المتونيين ، والمماليك البحرية .

### التتار وسقوط بغداد

زحف هولوكو على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية فدمرها وقتل الخليفة المنتمص وجلة العلماء والفقهاء ، ووضع السيف في بغداد أربعين يوماً حتى زاد عدد القتلى عن ٨٠٠ ألف ( هذا الأطفال ومن هلكوا في السراديب والقتلى والآبار ) ، وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلد ملاً بها خزانة كبيرة نقلها إلى عاصمته من بغداد والشام والجزيرة .

وقد أشار ابن تيمية في مؤلفاته إلى أن من قبلهم هولوكو في هذه المعارك من المسلمين : بضعة عشر ألف إنسان وقال إن الإسلام لم ير ملحمة مثل هذه الملحمة . وقد هجرت السلطات الحاكمة في بغداد عن الوقوف في وجه الغزو المغولي الأول عام ٦٥٦ نتيجة لعوامل كثيرة توالى بها الضعف هاما بعد عام ، أبرزها التفكك الذي أصاب دولة الخلافة وسيطرة القوى المحتلة الغازية عليها : ومن بغداد اتجه المغول نحو الشام في غزو مندفع كالأعصار .

بدأ غزو التتار للشام بعد إسقاط بغداد ١٢٥٩ ( ٦٥٧ هـ ) فتدفقت قواتهم على الجزيرة واستولى هولوكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرو ، ثم أجهت القوات صوب حلب فاستولت عليها هنة ، ثم استولى هولوكو على دمشق ١٢٦٠ م ( ٦٥٨ هـ ) ووصلوا إلى غزة ثم جاء دور مصر

واستطاع قطز وبيبرس التصدي للخطر وإيقافه لأول مرة منذ زحف المغول من أواسط آسيا ، فقد هزموا هذه القوة التي لم تستطع أى قوة في الشرق الأوسط والأدنى الصمود لها ، وانتصر للصليبيون على التتار ، في موقعة « عين جالوت » وقتل « كتبغا » قائدهم الخطير وأظهر المماليك شجاعة كبيرة فقد اهتز السلطان قطز عندما اضطربت صفوف المسلمين ورمى خورزته من فوق رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه » وحمل بنفسه على العدو ، وقضى على العدو قضاءً تاماً . وتعد معركة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة في التاريخ لما ترتب عليها من نتائج خطيرة ، فلوانتصر التتار في هذه الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها ما فعلوا بالعراق ولأقاموا واستقروا في الشام ، ومن هنا لم ينقل انتصار المماليك مصر وحدها بل أنقذ الشام أيضاً ( سعد الدين عاشور : المماليك ) .

ويجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين في سبيل القضاء على قوة الإسلام : فقد كانت زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » مسيحية نسطورية ، وكان ذات نفوذ مسموعة الكلمة « وقسد » كان للقوى الصليبية في ممسكة هولاكو نفوذ بارز ، ومن هنا استطاعت هذه القوى — وفق خطة مرسومة مع القوى الأوربية — أن تخرض التتار وتستغل قوتهم في القضاء على عالم الإسلام ، وقد تحالف الأرمن ( مملكة أرمينية الصغرى ) مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام ، واستطاعت أوروبا أن تقيم صلات مع تزار فارس بلغت درجة عالية ، فاستطاعت أن تحقق بهذا الغزو التتري لمناطق الشام والجزيرة وأطراف آسيا الصغرى لنتائج هامة ، إذ هي المناطق التي تناخم المملكة اللاتينية على الساحل الشامى فلقضاء عليها وضربها لاشك يؤدي إلى إضعافها وهجزها عن مقاومة الصليبيين ، وقد كشف التاريخ عن أن ضربات التتار كانت نرداد عنفا كما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية مثل حلب ودمشق ، فقد كانوا « يسرفون في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم يقدر ما أسرفوا في تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها » .

وللعرف أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحتين ، على المذهب النسطوري ، الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على المسيحية بقدر ما قسا على المسلمين ، وقد وجدت قيادة القوى الصليبية في الشرق الأدنى وفي الغرب فرصة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فاتصلوا بهم واستشاروهم ضد المسلمين ، وفي المراجع الصليبية المعاصرة ما يثبت أن ملك أرمينيا الصغرى للمسيحي اتصل بهولاكو ورسم معه خطة هزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليسلمه المسيحيون : أما المعركة الأخرى :

التي أزر فيها التتار النفوذ الغربي الأوربي الصليبي فهي الحملة التي شنّها تيمور لنك على الدولة العثمانية الناشئة .

وكانت هزيمة التتار في « هين جالوت » هي رد الفعل الحاسم بعد هامين على تدمير بغداد ، بعد سنوات طويلة من الاندفاع للغول والانتصار النتري دون أن تقف في وجههم قوة يحسب حسابها وكانت قوة الدفاع عن الإسلام إذ ذاك قد تركزت في وحدة مصر والشام لمواجهة الغزو الصليبي ، غير أن غزو المغول وحملاتهم للتوالي لم تتوقف بعد ذلك على الشام ، فلم يلبثوا أن عادوا إليها في حملة أخرى ( ١٢٧٠ هـ ) فانتصر عليهم الظاهر بيبرس ، ثم هادوا الهجوم على الشام بقيادة غازان وكانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فأدال منهم السلطان الناصر محمد قلاوون ودارت المعركة في حصن واحة وكانت قوة التتار تمثل خمسة أمثال القوة الإسلامية ، ثم تجددت المعارك مرة أخرى ( ١٢٧٢ هـ ) وخرج الناصر من مصر على رأس جيش كبير لملاقاة التتار بالشام ودارت المعركة عند برج الصفر بالقرب من حصن وانتصرت القوة الإسلامية العربية .

ثم تجدد خطر التتار مرة أخرى برهامة « تيمور لنك » الذي اجتاحت وسط آسيا وزحف بالجموع جرارة على بغداد ، وحاصر البصرة ، وقد خرج السلطان برقوق في جيش كبير إلى الشام ١٢٧٩ هـ وبلغ دمشق وقصد منها إلى حلب وعبر الفرات ليلقي تيمور لنك على ضفته الشرقية ، وقد استطاعت القوة الإسلامية أن تدبيل من جموع التتار وأن تغنم منهم ، كما أغار تيمور لنك مرة أخرى على حلب وحصن وبعلبك ودمشق وخرج السلطان للمصري فرح لمحاربتهم فالتقى بهم عند دمشق . وهكذا توالى حركات الغزو للغول وحملت مصر لواء المقاومة واستطاعت في مختلف المعارك التي نشبت أن تدبيل من القوات الغازية وتردها .

تحول التتار ( المغول ) تحولاً بطيئاً نحو الإسلام بعد حملات هاصقة ضارية لا حد لضراوتها في القتل والتخريب . وكانت قوتهم قد ظهرت عام ١٢٠٠ هـ بعد أن تدهأت قوة الإسلام وضعفت ومزقت الحملات الصليبية كيائها وشغلت مناطق الشام ومصر بالمقاومة التي لا تتوقف . وقد امتدت مملكة جنكيزخان : من بحر الصين إلى البحر الأسود ، فاستولى على ما وراء النهر ، وخوارزم ، وخراسان ، وهرات ، وقندهار وملتان ، وأتى على حضارة الاسلام خلال ستة قرون في غزنه ونيسابور وشيراز وبخارى وسمرقند وطوس وقزوين وأصفهان ومراغه . وانتهت هذه الموجة بالسيطرة على هذه المناطق حتى جاءت الموجة التالية بعد أكثر من نصف قرن بقيادة « هولاكو » الذي وسع دائرة

الغزو فهدا إلى بغداد والشام وتوقف عند حدود مصر ، غير أن هؤلاء الذين ضربوا الحضارة العربية الإسلامية في عنف لم يلبثوا أن خضعوا لنفوذ الإسلام واستسلموا المدينة العرب وأخذتهم الدهشة من عجائبا إلى حد تحولوا إلى حام لهذه المدينة (أجوستاف لوبون) ولم يلبث للقول أن اعتنقوا الإسلام ، وقد استعان هؤلاء بنصير الدين الطوسي في بناء المراصد وإنشاء المكتاب فابتنى مرصداً في مراغة ، وأقام إلى جانبه مكتبة فسيحة الأرجاء وأخذ يجتمع بالعلماء والفلاسفة ، وخطا كوبلاي خان خطوة أخرى فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى نقل إليها المؤلفات من بغداد والقاهرة ، فانتشر الإسلام عاجلا بين شعبها وأمرائها ، فتمالت للآذان في تركستان وروسيا وتوسع ذلك وازداد في عهد « غازان » . أما تيمورلنك فقد كان مسلما تغلب على امبراطورية المغول ، وقد ساق غزوة عاصفة على عالم الإسلام كله وبغداد والشام ولكنه كان أقل عنفا فقد نهى عن التعرض لدور العلم وبيوت الدين ، وفي عصر تيمورلنك برزت نهضة علمية وصدرت مؤلفات متعددة العلماء هربا وفرسا وفي مقدمة هؤلاء الغير وزبادي مؤلف القاموس الكبير وأشار سديو إلى أن بغداد كانت ما تزال منارة العالم الإسلامي ( ٨٧٥٠ ) .

وتمثل غارات التتار ( للمغول ) « سنة » الكون « وحركة » التاريخ التي لا تتخلف ، فإذا انحدرت الحضارة وغلب الترف ووقع التفكك وتراخت الأيدي عن المقاومة والحفاظ على الشئور وضعت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، كان لابد أن يسقط هذا الملك في يد قوة جديدة بدوية شابة .

ولاشك تقع مسئولية انتصار قوى التتار المغازية على المسلمين الذين ضعفوا وتخلوا عن العوامل الثلاث للسيادة : « القوة والوحدة والإيمان » غير أن التتار لم يلتصروا على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد مقاومة صلبة على حدود الشام ومصر ردتهم عن هذه المنطقة طويلا . ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم في بوتقته فأقاموا دولا كبيرى تحت رايته كان أبرزها الدولتان الخوارزمية في منطقة ما وراء النهر والمغولية في الهند . قال أرنولد : لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة وتهزم البوزية والنصرانية ويستأثر وحده بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم . والفضل لهؤلاء الدعاة الخالصين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم وأسلوب دعوتهم ورقة مواعظهم ونجودهم من الأنانية والكبرياء ، فقد أسلم سلطان كاشغر ( تغلق تيمورخان ) عام ٨٧٤٨م ، ١٣٤٧م على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى . فقد أوثق مع جماعة من الغرباء وحلوا إليه : قال لهم تيمورخان : كيف دخلتم في حماي من غير إذن !

قالوا : نحن غرباء ولم نشعر إنا نعيش في أرض ممنوعة ، قال : حتى السكاب أفضل منكم . قال الشيخ جمال الدين : صدق الملك لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكننا أذل من السكاب .

وتحير الملك ، ومضى للصيد ، وبقيت كلة الشيخ تشغل فكره ، فلما هاد من الصيد أمر بعرضهم وخلا بالشيخ وقال : فسر لي ما قلت وأخبرني ماذا تعنى بالدين الحق . وفسر الشيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رق له قلب السلطان وصور الكفر تصويراً فزع له السلطان ، ورأى السلطان أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولي الملك وجلس على أريكة الحكم زاره ، وكانت المملكة الخيمنية قد توزعت على أمارات متعددة ، واستطاع تغلق تيمور خان أن يجمعها ويكون منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ جمال الدين إلى بلاده ومريض مرضاً شديداً ، ولما حضرته الوفاة دعا ولده « رشيد الدين » وقال له : أن تغلق تيمور سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيماً فإذا سمعت ذلك فعليك أن تزوره وتقرئه مني السلام وتذكره بما كان قد وعدني به من اعتناق الإسلام . فلما بوع تغلق تيمور بالملك وجلس على الأريكة مكان أبيه ، توجه الشيخ رشيد إلى المعسكر لينفذ وصية أبيه ولكنه لم يخلص إلى الملك فاحتال ، وبدأ يوماً يؤذن بصوت هال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر فطار نوم السلطان وغضب وطلب رشيد الدين وحضر الشيخ وبلغ السلطان بحية والده ، وكان السلطان على ما ذكر به فنطق بالشهادتين وأسلم ونشر الإسلام في رعيته وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد خبتاي بن جنكيز خان « ٥٠١ » .

### سقوط قلاع الباطنية

ظلت قلاع الباطنية في قلب عالم الإسلام أكثر من قرنين تثير الحرب على عالم الإسلام كواحدة من أبرز الحركات الهدامة ، التي كان لها أبعد الأثر في مقاومة الإسلام والقضاء على قوى المقاومة التي تكونت لمقاومة الحركة الصليبية . وإذا كانت غارات المغول على العالم الإسلامي أقصى ما مر من حملات العنف في تاريخ الإسلام حتى قال ابن الأثير : إنه « لم ينل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن ، هذا العدو الكافر ( النذر ) قد طأطأ بلادنا وراء النهر وملكوها وخرّبوها والعدو الآخر ( الفرنج ) قد ظهر في بلادهم إلى أقصى الروم بين الغرب والشمال » . وإذا كان المغول قد أوقفوا الحياة الفكرية والثقافية نحواً من قرن كامل في المناطق التي اجتاحتها إلا أنهم قد خلصوا عالم الإسلام من قوة ضارية خطيرة هي قوة « الباطنية »

فقد تمكنوا من القضاء على القلاع والمعقل الباطنية ، ذلك أن التتار قد عادوا إلى تعمير الأرض التي خربوها بعد أن صهرهم الاسلام في بوتقته ، فاعتنقه زعماء قبائلهم . يقول المؤرخ نيورسكى : لقد كان الحشاشون ( الباطنية ) أهدى أهداء أهل السنة ، وكانوا كثيرا ما يبتشون الألقام ويدبرون المكائد للقضاء على المذهب السنى بشكل منظم ، ولقد هيا المغول بالقضاء عليهم سبيلا لوحدة الاسلام وكان هذا من أهم العوامل الرئيسية في انتصار الاسلام وبقائه بالرغم مما أصابه على يد التتار من عسف وإرهاب . ولم يكن الحشاشون مهما أوتوا من بأس وقوة ليؤثروا في بقاء الاسلام في الأمصار الأخرى ، برغم أن دهايتهم كانت واسعة النطاق . ذلك أن هولاكو قد دم قلعـة « ألموت » الحصينة وقضى على دولتهم قبل أن يدخل بغداد بعامين ، بدأ هولاكو بمهاجمة الباطنية ( الاسمايلية ) واستولى على قلعـتين من قلاعهم في قهستان وهماطون وخواف ، وكان قد استعجب منه ألف بيت من صناعات المنجنىقات وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب فاستطاع هدم قلاعهم الضخمة وفي مقدمتها قلعـة « ألموت » ، في الشمال الغربى من قزوین بوصفها قاعدة لمحـين قلعـة أخرى في هذه المنطقة ، وقلعة ألموت ، هذه القلعـة الرهيبة ذات التاريخ المظلم في مقاومة الاسلام ، تقع على سـنة فراسخ من قزوین وقد استول عليها الحسن الصباح عام ٥٤٤٦ هـ وظلت خلال مائة وسبعين عاما حصنا محروفا يتحصن بها أتباع مذهبه حتى قضى عليها هولاكو ٥٦٥٣ هـ .

( ٢١ )

## « القوى التي جددت شباب الإسلام ،

( السلاجقة ، البربر ، للماليك )

وكانت حركة الإسلام بين عامين : عامل دعوة العناصر التي يضمها عالم الإسلام إلى الإسلام ، نفسه ، وذلك بالحوار المفتوح بين الأديان والمذاهب المختلفة ، وقد بلغ الإسلام في ذلك غاية السـمحة ، إذا أذن لكل صاحب دين أن يناضل عن دينه حتى يتبين الحق .

٢ — هامل الانتشار الذاتى التلقائى في المناطق التي لم تسيطر عليها دولة الإسلام .

غير أن حركة الاسلام لم تلبث أن دخلت مرحلة جديدة هي مرحلة المقاومة والغزو الخارجى . ولم يصل هذه الغزو الخارجى إلى ذروته إلا بعد أن تفككت القوى الداخلية وانسحب عالم الاسلام



من مفهوم الاسلام نفسه في مجالين من أكبر مجالى ايدلوجيته : ( ١ ) الوحدة ، وقد صاد التمزق ( ٢ ) القوة ، وقد بدأ الضعف : هنالك تحرك القوى الغربية التى كانت قد تمت وتوحدت وتسلحت إلى غزو عالم الاسلام من ناحيتين : من طريق الدولة البرزانتية التى ظلت توالى الانقراض على عالم الاسلام خلال خمسة قرون ، ثم تحولت إلى مجال لمور الحملات الصليبية خلال قرنين آخرين ، ومن ناحية الأندلس كانت قوات الفرنجة والاسبان تحاول أن تقضى على دولة الأندلس وتسيطر على أطراف المغرب . وهى معركة دارت طويلا واستمرت تاريخ الاسلام كله في القرون الثانية التى قضاهما في الأندلس . والحق أنه لم تكن حركة الاسلام لتتوقف ، وهى تحاول أن تغزو القسطنطينية من ناحية الشرق وأن تصل إلى قلب أوروبا عن طريق فرنسا ونهر الوار وأن تصل إلى قريب من روما ، تكن لتتوقف إلا لتراجع ، فهى بين المد والانحسار ، وهى ظاهرة واضحة طوال تاريخ الاسلام فن حيث انطوى تاريخ الاسلام في أوروبا على الأطراف في بزنطة وحروب فرنسا وحدود إيطاليا بدأت حركة الغزو المضادة لاجلاء هن أوروبا كلها ، بل إن هذا الاجلاء لم يتوقف من بعد : ولم يكشف بإخراج الاسلام والعرب من أوروبا ، بل أمتد في عملية انتقام واستعمار قامت به القوى التى كانت في نطاق دولة الاسلام كالأرمن والاسبان الذين نهضوا لتطويق عالم الاسلام ، وتقدموا لاكتشاف رأس الرجاء الصالح والذهاب إلى تمبكتو ، فقد واجه الفرنج تهدى الاسلام ينهدى أشد منه في القرن الثامن الميلادى على حد تعبير « تومبي » فقد استنار هجوما مضادا من جانبهم استمر عدة قرون ولم يقتصر ذلك المحكوم على دفع أتباع الاسلام بعيداً عن شبه الجزيرة العربية ولكنه تجاوز كذلك هدفه الأصل حاملا الاسبان والأرمن إلى البحار إلى قارات العالم بأسرها . وهكذا بدأ واضحا أن أبرز معالم المد في تاريخ الاسلام : القوة والوحدة وافترقاها هو أبرز معالم الجزر : والوهن والضعف . فكلما تفرق عالم الاسلام ونجزاً ووقع الخلاف بين قادته وأوليائه كلما تعرض للغزو الخارجي ، وكلما تماسك وحدة وقوة كلما توقفت حملات خصومه عليه . فقد نشأ عالم الاسلام أساساً من خلال التوسع في أرض كانت تسيطر عليها الإمبراطورية الرومانية ثم لم يلبث أن بلغ أطراف أوروبا ، وأوغل فيها بمحاصر القسطنطينية وبالنفوذ إلى أسبانيا وأطراف فرنسا وإيطاليا . ومن هنا قامت بينه وبين الغرب معركة مستمرة الأوار لم تتوقف ، وظلت محاولات الانتقاض على أطراف عالم الاسلام عن طريق دولة بزنطة في آسيا الصغرى مستمرة لم تتوقف ثم أنسلت هذه الحركة الدائبة نفسها إلى القوات الصليبية الذى تكونت بديلا لقوة البيزنطية المقيمة .

٢ - كانت قوة العرب المتبعثة من الجزيرة العربية والتى حملت لواء الاسلام قوة بدوية

تتميز بالشجاعة والقوة والصلابة — وقد أمدتها روح الإسلام بمفهوم الجهاد في سبيل الله وإذاعة الإسلام — تتطلع إلى أحد أمرين : الشهادة أو النصر . فلما ضعفت القوة العربية البدوية ، وانصهرت في مجال الحضارة ودخلت في صراع المذاهب والفرق ، بعد أن توقف التوسع الاسلامي . بدأت هوامل الضعف والانحلال نتيجة غلبة الترف والانحلال . هنالك ضعف جبهة المقاومة عن عالم الاسلام مما أغرى القوى المتربصة من أطراف عالم الاسلام : أصبانيا وبيزنطة بالإيفال الغزو ومحاولة السيطرة والتوسع . وتجمعت أوروبا الغربية لتضرب عالم الاسلام من كلا جناحيه ، اعتماداً على ضعف القوى العربية والفارسية المسيطرة ، هنالك برزت قوى جديدة من أعماق عالم الاسلام أو أحشائه ، من البداوة ، ظهرت قوة البدو وبرزت بعد أن ضعفت قوة الحضرة الفارسية العربية وظهرت القوة البدوية في أجزاء العالم الاسلامي الثلاث : السلاجقة ( وأنباهم الاتابكة والكرد ) في العراق وفارس وآسيا الصغرى ، و « البربر » في المغرب ( الموحدون ) ، وللماليك في مصر والشام كانت خشونة هذه القوات الثلاث بعد إسلامهم قوة ضخمة للإسلام ، ردت عن الاسلام عادية القوى الثلاث التي انتفضت على عالم الاسلام : الصليبيون في الشام ، الفرنجة في المغرب والأندلس ، التتار القادمون من شرق سمرقند يحتاجون عالم الاسلام .

٣ — كان موعد هذه القوى الثلاث التي برزت مطابقا للحاجة إليها ، ومطابقاً لنمو هذه القوى التي دخلت في الاسلام بعد أن اتسع نطاقه في ما وراء النهر ، وفي المغرب الأقصى وقد ظلت هذه القوى تتفاعل وتتكون ، حتى أتيت لها أن تشكل ظاهرة الانتعاش الاسلامي منذ القرن الخامس إلى القرن السابع بالقوى الشابة القادمة من خارج نطاق المدينة ، القوى البدوية التي كانت أشبه ما تكون حماسية وفتوة وبطولة ، بالقوى العربية البدوية التي خرجت من الجزيرة في القرن الأول ، وإن كانت أقل درجة من حيث عمق إيمانها بالاسلام وتمسكها بمقوماته ومناهجه في شؤون الحرب والقتال . بل إن التتار المغول الذين اكتسحوا عالم الاسلام من بعد في ثلاث حملات ضخمة : هولاكو ، جنكيزخان ، تيمورلنك ، قد صهرم الاسلام وأصبحوا من حماته . برزت هذه القوى التي دانت بالاسلام وحملت لواء الدفاع عنه حين تراخت قوى المسلمين من العرب والفرس الذين أدى الصراع فيما بينهم إلى التمزق والضعف والذوبان في الترف والرخاوة ، بل إن بعض هذه القوى لم تقف عند حماية الاسلام والرد على هوان العرب له ، بل استطاع أن يحقق مهمة أخرى هي توسيع دائرة عالم الاسلام بالدعوة والقدوة ، فقد حل البربر الاسلام إلى قلب أفريقيا ، وكان ذلك قد جرى بوسائل

منها القوى الصوفية التي تشكلت في أفريقيا . وقد كان ذلك مقدمة لموجة أخرى من موجات انتعاش الاسلام هي « موجة الوحدة العثمانية » التي استطاعت أن تسيطر على أغلب عالم الاسلام ست قرون كاملة . وإن تقيم دولتها في أرض إمبراطورية بيزنطية التي كانت خطراً متلاحقاً على الاسلام ستة قرون كاملة ، وأن تسيطر على القسطنطينية وتضمها بعد أن حاصرها المسلمون وانقضوا عنها . بل بلغوه إلى أبعد من ذلك إذ اقتحموا أوروبا وسيطروا عليها حتى بلغوا أسوار فينأ أكثر من ثلاثمائة عام .

## ( ٢٢ )

### موجة السلاجقة

وصل الإسلام إلى أرض الأتراك بعد أن تخطى ما وراء النهر ودخلت الشعوب التركية فيه منذ بلغها عن طريق قتيبة بن مسلم ثم محمود الغزنوي من بعده ، في الإسلام ، ومن ثم أصبحوا على موحد مع التاريخ العالمي لكي يلعبوا دوراً هاماً في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العالم كله ، بدأ ذلك منذ استقدمهم المعتصم وبنى لهم مدينة ( ساجرا ) ثم كانت جولاتهم الأولى في نصر الاسلام هي « موجة السلاجقة » .

وكان دورهم هذا بعيد الأثر في تغيير مجرى الاسلام وفي التأثير البالغ فيه حيث حلوا ومن بعدهم خلفائهم لواء السنة ولواء الدفاع عن الاسلام في مواجهة قوى الصليبيين . وكانوا بذلك مقدمة لدور أكثر قوة وضخامة ، هو دور الأتراك العثمانيين الذين دحروا الدولة الرومانية الشرقية وأكلموا مكانها امبراطورية عظيمة استطاعت أن تنزع القسطنطينية وأن تعبر إلى أوروبا فترفع أعلام الاسلام عليها ستة قرون . استمرت موجة السلاجقة بامتداداتها من الأتابكة والأكراد ( زنكي وأيوب ) ( ٤٥٠ - ٦٤٧ ) خلال قرنين كاملين وكانت قوة من القوى الاسلامية الشابة المجددة التي حلت محل القوة السياسية الحاكمة في بغداد عندما دخلت الدول العباسية في مرحلة الضعف : وقد أظهرت هذه القوة هدداً كبيراً من رجالها بناء الدول والمحاربين من أمثال : ظفر ليك ، الب أرسلان . ملك شاه ، والوزير نظام الملك ثم أظهرت عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي . وقد سيطرت موجة السلاجقة على المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي : فارس والعراق والشام وأحرزت تقدماً ضخماً في بحالي الحضارة والقوة العسكرية وكانت قوة ناصرة ومؤيدة للمفهوم الاسلامي الجماعي ( مفهوم السنة ) وكان وجودها نهاية لعوامل الصراع العنيف التي استمرت طوال القرن الثاني والثالث بين الفرق

والمذاهب والنحل في صراعها السياسى والدينى الطويل الذى كان يمثل فى صورة صراع بين  
الفرس والعرب ، ويهدف إلى القضاء على القوة السياسية المسيطرة فى بغداد وإزالتها من  
مكان القيادة مع العمل على تمزيق مفهوم الاسلام نفسه والقوة العربية بوصفها حاملة لواء  
الاسلام إلى العالم كله

وقد استطاعت موجة السلاجقة أن تحقق ازدهاراً مادياً وأديباً ، وإن تنصر الاسلام فى مفهومه  
الوسط والجاهى ، وأن تواجه الغزو الخارجى المتمثل فى الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود عالم الاسلام  
والتي كانت توالى المدوان على هذه المناطق وقد جرى « بناء الدول » وقادة السلاجقة على سنن  
الخلفاء فى مناصرة الآداب والفنون فاحتضنوا عدداً كبيراً من الأعلام أمثال : عمر الخيام والنظامى  
والسمعى وجلال الدين الرومى . وأحيا السلاجقة الروح الاسلامية بعد أن خمدت طويلاً ، فبعد عام  
٤٢٩ إلى عام ٥٧٠ هـ تجددت مفاهيم الاسلام فى بناء القوة العسكرية وتوحيد عالم الاسلام مرة أخرى  
والثبات فى وحدة سلجوقية وقد هارد الاسلام قوته مرة أخرى وتجمع فى بوتقة السنة ، وطارد السلاجقة  
ومن بعدهم نور الدين وصلاح الدين خصوم الاسلام وأصحاب دهورات الشعوبية والزنادقة ، وظلوا  
يعاملون اليهود والمسيحيين وأهل الذمة معاملة إسلامية مجددة بالغ من تسامحها أن طالبت جهات  
مسيحية بيزنطية الحكام السلاجقة تخليصها من حكمها ، وأصبحت دمشق وحلب والموصل وبغداد  
واصفهان والرى وهراة ونيسابور ومرو حواضر زاهرة ، فقد أظهر قلب أرسلان تقديراً للفن والثقافة  
وبرز عهد من النهضة العلمية والابتكار فى مجال الأدب والفن والفنك والموسيقى والشعر والعمارة وفى  
عهد الملك شاه ( ٨٦٥ — ٤٨٨ ) برز الوزير نظام الملك . وقد جدد السلاجقة شباب دولة الاسلام  
وأمدوها بدم جديد ، وكانو محاربين أشداء ، بدواً ذوى بأس فى القتال . أقوياء الأجسام ، بعد أن  
ضعف العرب والفرس ، وقد أهداوا للخلافة العباسية نفوذها الروحى وسلطتها السياسية وخلصوا  
العالم من الخلفات والمصارعات ولا شك كان ظهور السلاجقة مؤدنا بقوة دفاعية جديدة تواجه  
محاولات الانتقاض على عالم الاسلام من خارجه ، واستطاع السلاجقة وخلفاؤهم قهر خصوم الاسلام  
طوال مرحلة طويلة ، فى معاركها مع بيزنطة وانتصارها فى موقعة حاسمة على ملاز كرد ، وفى مواقع  
عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ( ٥٤١ ) وصلاح الدين ( ٥٦٧ ) فى مواجهة الحملات الصليبية ،  
وم القوة الأولى فى هذه المرحلة التي نصرت الاسلام وبعثتهم قوة الممالك ، وهكذا استطاع السلاجقة  
أعلاء « كلمة الاسلام » داخل عالمه ، وهزموا خصوم الاسلام والمنقذين عليه وأوجدوا مرحلة  
من مراحل بقطة المثل العليا الاسلامية تمثلت بصورة رائعة فى نور الدين وصلاح الدين : ولقد

حققت سلاجقة إيران والعراق دوراً هاماً على مسرح الأحداث ، وسيطرت فترة قرنين من الزمان ومهدت حملات السلاجقة في آسيا الصغرى السبيل أمام الأتراك العثمانيين فيما بعد للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية ، وقد كان هدف السلاجقة توحيد الرقعة الكبيرة من عالم الاسلام الممتدة من بلاد ماراء النهر شرق البحر الأبيض ، في ظل لواء السنه والالتقاء حول علم الجهاد المقدس للشعر راية الاسلام والدفاع عنه .

وقد كان دور السلاجقة في مواجهة الروم حاسماً وضحياً فقد كان للوقوف على حدود الدولة الرومانية البيزنطية ضعيفاً بعد موقعة عمورية ١٠٧١ هـ حيث لم تقم الخلافة العباسية طوال هذه الفترة بهجوم يذكر ، مما جرأ الروم على الانتفاض على العالم الإسلامي فكانت موجة السلاجقة عاملاً هاماً في مواجهة القوة الرومانية ومن وراءها من قوى تتربص فترات الضعف ، وقد اجتاز السلاجقة الثغور والمواسم وانتزعوا من الروم أرض الأناضول وحولوها لإسلامية وسيطرت قوى جديدة على المنطقة . غير أن الخلاف بين السلاجقة لم يلبث أن أضاعهم ، فانتهزت أوروبا الفرصة لتحل محل الدولة الرومانية البيزنطية التي قاومت عالم الاسلام خمسة قرون كاملة ، ولتتقدم باسم استعادة بيت المقدس في إطاء بأن الحجاج للمسيحيين قد وجدوا بعض الفتن أو الاضطهاد ، وفي غيبة من القوة العسكرية والوحدة استطاع الفرنجة إحتلال بيت المقدس ١٠٩٩ هـ . وكان ذلك عاملاً من عوامل التحدى الضخمة التي واجهت عالم الاسلام والتي برزت برد فعل ضخم في النهضة التي حمل لواءها آل زنكي خلفاء السلاجقة ، وفي مقدمتهم عماد الدين زنكي الذي استطاع أن يوجد دولة قوية ضمت دولة الجزيرة العربية وأعلى الفرات وحصن وحلب وبعلمك ومعرة النعمان ، ومضى يكيل الضربات للصليبيين ، وكانت أكبرها استيلاؤه على إمارة الرها ( ١١٠٩ ) وإزالة نفوذ الصليبيين فيها مما هز القوى الغربية ودفعا إلى إرسال حملة صليبية جديدة بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ، وقد فشلت هذه الحملة التي هاجت دمشق ثم ارتدت منهزمة . ثم كانت محاولة مملكة بيت المقدس الصليبية بالاستيلاء على مصر ، وبروز نور الدين محمود ، حيث هزمت هذه الجولة وخلفت مصر لقوة نور الدين محمود الذي حمل لواء الدفاع عن العالم الإسلامي في مواجهة الغزو الصليبي ، غير أن خلافه مع إخوته ، أتاح الفرصة للجوسين أمير الرها في استرجاعها ، هنالك توجه نور الدين من حلب في عشرة آلاف فانتزعها منه ( ١١١٤ ) هـ . ومضى نور الدين يبدل من إمارات الصليبيين ففتح عدداً من الحصون والمعاقل ، واستطاع التغلب على صاحب أنطاكية ( ريموند ) ١١٤٤ هـ كما تغلب على الحصون والقلاع التي كان يسيطر عليها الجوسين والواقعة شمالي حلب . ولم يكن نور الدين الذي حمل لواء الوحدة في مواجهة الغزو واضطجع الأسلوب

الإسلامي في المعاملة إلا مقدمة لحركة ضخمة استطاع أن يحمل لواءها « صلاح الدين » وأن يعفى بها ممقاً خطة « نور الدين » ومتجاوزاً إليها إلى أبعد مدى . فقد استطاع صلاح الدين « زعيم الصليبيين في « حطين ٥٨٣ م » واسترجاع بيت المقدس ( يوم الجمعة ٢٧ رجب ) وقت صلاة الجمعة ، حيث أقيمت صلاة الجمعة ثامن يوم الفتح لأول مرة في بيت المقدس بعد واحد وتسعين عاماً . إذا كانت مقاومة الحملات الصليبية تتمثل في أقوى صورها في موقف عماد الدين زنكي وأسامة بن منقذ ونور الدين محمود وصلاح الدين والظاهر بيبرس على الترتيب ، يحمل الراية منهم بطالا بعد بطل ، فإن لهذه المقاومة تاريخ سابق منذ وطىء العدو أرض الإسلام فما أن استقرت الحملة الصليبية في بيت المقدس حتى تحركت المنطقة المتاخمة لها في مناهضة سريعة إختفت فيها الخلافات الشخصية بين الأمراء ، فلم يلبث عدد من الأمراء المسلمين في شمال العراق أن التحموا وحملوا علم الجهاد . ولعل سيطرة الرها إحدى امارات الصليبيين ١٠٩٨ على الطرق المؤدية إلى صلب والموصل هو الذي حرك جيرانها للثورة عليها فلم يلبث ( مودود أتابك الموصل ٥٠٤ هـ ١١١٠ م ) أن أعلن الجهاد وخرج بجيش كبير وزحف على أطراف الرها وتقدم صوب طرابلس . ولم تنجح هذه المحاولة ، واسكنها فتنح العاريق لمحاولات أخرى . ومعنى هذا أنه لم يمر غير عام واحد بعد احتلال الصليبيين للأرض الإسلامية حتى بدأت المقاومة ، وزاد ذلك انتفاضة القوى الإسلامية وتجمعها ، وأخذت روح الجهاد المقدس تملأ النفوس ، ونهز المشاهر ، وتحركت جماعة كبيرة من أهيان حلب وتجارها وافتقائها إلى بغداد يستنضمون الحمم ، وانهزوا فرصة صلاة الجمعة للناداة بالجهاد ، واستشارة المشاهر ولم تلبث أن تجمعت القوى الإسلامية بقيادة مودود ( ٥٠٥ — ١١١١ م ) فأتجه إلى الرها حيث حاصر المسلمون في قل بامر ، ودبت اليقظة وبدأت تتمركز في أرض الشام ، وبدت علامات الوحدة بين الأمراء المسلمين . وظهر ( أيلغارى ) وحمل الراية بعد مودود وقاوم الصليبيين في حلب ١١١٩ حين هاجموا ، واستولى على حصن قد طاون غربى معرة النعمان . واتسع نطاق حركة التجمع والمقاومة ، وظهر بلك بن ارتق ١٠٦ — ١١٢١ وكانت وجهته الرها أيضاً . ثم ظهر البرسقى : أتابك الموصل ٥١٨ ونجح البرسقى وحاول أن يتخذ من حلب مقر تجمع يربط بها الموصل ، ثم سقط البرسقى كما سقطت الشخصيات الثلاث التي سبقته يفزو الجماعات الباطنية التي كانت تقاوم الوحدة الإسلامية . غير أن شخصية كبيرة لم تلبث أن ظهرت هي شخصية ( عماد الدين زنكي ) الذي تولى أتابكية الموصل ٥٢١ هـ ١١٢٧ م وكان من أبرع القادة العسكريين فلم يلبث أن أمن حدود ولايته واتجه إلى حلب ودمشق وزحف على حصن وحما ، واستطاع تكوين جبهة إسلامية تضم الإمارات والبلدان المتاخمة للإمارات الصليبية . وكانت خطته دفع الخطر البيزنطى من الشمال ومقاومة الفرنجة من الغرب والجنوب .

ثم إنجبه عماد الدين زنكي نحو الرها ٥٣٩ هـ التي قاومت طويلا ، حتى استنفذت كل وسائل التسليم السلمي ، هنالك نصب عليها آلات الحرب وضربها بالمجانيق وانفضها بعد حصار عنيف ، وكانت هذه هي أولى معارك الانتفاض الإسلامي على المملكة اللاتينية ، وكانت النصر فيها قويا للمسلمين رفع من روحهم المعنوية وزادهم قوة وحساسة كما دفع الأمراء المسلمين إلى التآزر والوحدة . لقد كان سقوط الرها ضربة كبرى في مواجهة القوة الصليبية ، وكان مقدمة للخطوات إلى حقها نور الدين وصلاح الدين .

### « نور الدين »

حققت هذه الخطوات لنور الدين إقامة وحدة تسكن القوى الإسلامية في وجه الخطر الصليبي على نحو أعطى حركة المقاومة قوة وحيوية . وكان لشخصية « نور الدين » أثرها البعدي المدى في هذه الحركة . فقد تمثلت فيه صورة القائد المسلم ، وأعادت سعد بن أبي وقاص وعمر بن عبد العزيز ، بل لقد حاول كثير من المؤرخين أن يضعوا إسمه مع أسماء أبو بكر وعمر .

والحق أن نجاح نور الدين كان إلى حد ما نتيجة للخطوات التي سبقته ، كما أن كان أثره بعيد المدى في خطوات صلاح الدين ، فهو حلقة مسبقة وسابقة ومرتبطة ، غير أن أثره الواضح العميق وآفاق شخصيته في معركة المقاومة للحمل الصليبية ، وبروزه في صورة القديسين والشهداء إنما يرجع إلى إنكاره للذات ، فقد جمعت شخصيته بين البسالة والزهد ، والإيمان والقوة فكانت بذلك بعيدة المدى في تحقيق وحدة المسلمين وكان أبرز ما اتسمت به حركته هو أنه أعطى السياسة قوة الأخلاق فاقترب من مفاهيم الإسلام ومقوماته إلى حد لم يسبقه إليه الكثير في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وقد كان إقترابه من مفاهيم الإسلام في محاولته لدعم الوحدة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي هو أقوى العوامل التي حققت له النصر ، حتى ليتمكن القول بحق أن نور الدين قد التمس ثلاث قوى من قوى الإسلام في سبيل عمله هي : ( القوة ، الوحدة ، الإيمان ) .

ولقد جرت محاولات لتصوير نور الدين في صورة زعماء الصوفية في عصره ، غير أن الحقيقة كانت غير ذلك تماما ، وأن « نور الدين » كان أعمق فهما للإسلام وأنه كان يجمع بين السياسة والخلق معاً ، السياسة بكياستها ومرونتها ودهائها دون أن يجره ذلك إلى القدر أو الخلد أو الانتقام وقد أعطاه ذلك ثقة من كانوا حوله ، أو اتصلوا به ، وقد أغناه هذا الوضع عن كثير من مناورات

المعاصرة وأكاذيبها وأتاح له سرعة تحقيق هذه الوحدة ويمكن له استمرارها، ودهم الضربات المتوالية التي وجهها إلى العدو .

وقد استطاع نور الدين خلال مدة حكمه ( ٥٤١ — ٥٦٩ ) أن يفتح أمرين هامين : أولاهما توحيد القوى الإسلامية مما أسماه المؤرخون « الجبهة الإسلامية المتحدة » والادالة من الإمارات الصليبية وقد شملت سوريا الشرقية وقسما من سوويا الغربية والموصل وبار بكر والجزيرة ومصر ومض البلاد المغرب وجانبا من اليمن ، وكما حصن قلاع الشام وبنى الأسوار حول مدنها ومضى مداوما للجهاد بقوة معارك المقاومة بنفسه ، لا يتوقف عن مهاجمة الإمارات الصليبية التي تسكوت في نهاية القرن الخامس الهجرى في أربع وجدات : مملكة بيت المقدس ، أمارات أنطاكية ، طرابلس الشام ، الرها وقد استطاع أن يوقف زحف الصليبيين من الشام ، وقد وصف المؤرخون ، واقفه من الصليبيين بأنها نقطة التحول في تاريخ تلك الحروب وأن نور الدين قد أعد الأساس للعمل الذي حققه من بعد صلاح الدين وكان أبرز ما حققه في سبيل النجاح خطة المقاومة هو استيلاء على دمشق ٥٤٩ هـ — ١١٦٨ م ) بعد أن تبين أن حملات الصليبيين قد اتجهت إليهم أخيراً بوصفها مصدر المقاومة . أما استيلاؤه على دمشق والقاهرة فقد قضى نهائيا على مطامع الصليبيين في التوسع فضلا عن أنه وضع الامارات الصليبية بين فكي السكاشة الإسلامية التي ظلت تصنف بقوة حتى استخلصت هذه الأجزاء واستردتها .

وقد عمل نور الدين على تخليص نصارى العرب من ظلم الصليبيين ، وأعطى مقاومة الصليبيين طابع الغزو والاعتداء وبذلك وحد « العرب مسلمين ونصارى » في جبهة المقاومة ، وأعطى ماركه طابع الاسلام : لم يمس كنيسة ولم يؤذ أحداً من أبناء الأديان الأخرى ، وكرم الرهبان والقسيسين ، وعارض منهج الصليبيين في اعتدائهم على المسلمين ، وكان خلقه الواضح في عمله السياسي يلقى المهابة في قلوب خصومه ، وقد أقام للمجتمع الاسلامى مقومات حديثة ، فقد أسقط المكوس وانطمع عرب البادية إقطاعيات حتى لا يتعرضوا للحجاج ، وقد كان من أهم ما أولاه نور الدين بالغ الاهتمام بناء القاعدة الفكرية للمقاومة عن طريق نشر الثقافة الإسلامية الموحدة البعيدة عن الخلفانات بوصفها جوهر المقاومة وتأريث الجهاد في النفوس ، فبنى مدارس كثيرة ، وبنى أول دار للحديث وبنى الخانات على الطريق ، وكان أهمل ملوك زمانه ، عارف بالفقه ، يجلس إلى العلماء كل أسبوع ويسمح لمن يشاء أن يحضر مجلسه ، وقد كان لهذا التكوين الثقافى بالإضافة إلى ما طبع عليه هدو وإيمانه وخلقه من ميزة لمصره كله وأجيال المسلمين فكانوا يتطلعون إلى دهوته للنهير العلم ، وتنثال الجوع من



لخلف الأقطار واثقة بالنصر بقيادته . وفي الوقت الذي لم تسكن الإمدادات الصليبية تنوزل من أوربا وصقلية عاملاً واحداً ، كانت قوات المسلمين والعرب تتدفق على معسكرات الجهاد المقدس ، وتلتئم في معارك المقاومة . وقد تميز نور الدين عن أفراد أمرته من السلاجقة والأتابكة تميزاً كبيراً فهو لاء الذين سبقوه قد نصروا الإسلام وأهزوه كلوك وأصراء .

أما نور الدين فقد أعزه كجهاد عسكري وقائد سياسي وهاد زاهد فقد « امتلأت نفسه بالإسلام وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام » .

ولم يكن إيمان تعصب وتشدد بل إيمان سمح بسيط تساوت أمامه المذاهب الإسلامية فلم يفرق بينها ، وكانت سماحته في معاملة المسيحيين واضحة ، وكان يحارب الصليبيين بوصفهم أجنب أعدوا على بلاده ومقدسات أمتة ، ويفضل فضلاً واضحاً بين هذا للمنى وبين أنهم نصارى ، ولذلك كان حفيماً برجال الدين مكرماً لهم لا يدخلهم في حساب مقاومته ، وقد انضم إلى صفوفه نصارى العرب في معركة المقاومة بناء على هذا الفهم الدقيق وكان الصليبيون يتدرون عمق إيمانه بالإسلام في مقاومتهم ، ووسائله فيقولون : « أن ابن القيم ( أى نور الدين ) له مع الله سر فإنه ما ينتصر علينا بسكينة جنده وغسكه ، وإنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل » . والحق أن نور الدين كان يرى في بناء الإيمان من طريق الثقافة الإسلامية عاملاً موحداً للأمة ، ودافعاً إلى الجهاد ، ومن هنا كانت انطلاقته المضخمة في بناء المدارس والمساجد والزوايا وإعداد برامج الدراسة فيها كوسيلة فعالة وأساس جذرى المقاومة . وكانت مؤاخاته لجنده ، والتحقاق بهم ومداومة المشورة معهم والتقدم أمامهم في المعارك ، من أبرز العوامل التي أكتسبته النصر ، وقد كسب تقدير الصليبيين تعصباً ، أشال وإسالم الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس فقد اعترف بفضل نور الدين وعمله . إذا كان اسم صلاح الدين قد بلغ كثيراً في مجال العدل والسماحة فإن نور الدين هو الذى بنى هذه القاعدة وترك لصلاح الدين صورة رائدة للنبل الأعلى الإسلامى في مواقف المقاومة والحرب .

## صلاح الدين

إذا كان « عماد الدين زكى » قد استطاع أن يستعيد « الزها » أولى الإمارات الصليبية ، فقد حقق « نور الدين محمود » الوحدة الفكرية والروحية في المنطقة كصلاح المقاومة الصليبية ، وبذلك استطاع صلاح الدين أن يحقق أضخم نصر في معارك المقاومة في موقعة حطين الذى مكنته من استرجاع بيت المقدس . فما كاد صلاح الدين يوحد مملكته ويؤمن مواقفه حتى بدأ معاركه مع

الصليبيين عشر سنوات كاملة ، وتحقق على يديه أضخم ضربة مع معركة حطين (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) والاستيلاء على بيت المقدس ، مما حصر الصليبيين في منطقة ساحلية ضيقة انتقلت إليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة (عكا) عاصمة لها .

وكان موقف صلاح الدين في استعادة بيت المقدس مشرفا كريما ، تجرى فيه على مفهوم الإسلام فلم يزدهيه للنصر بحيث يدفعه إلى الانتقام ، وقد سمح صلاح الدين للصليبيين بافتداء أنفسهم مقابل مقدار زهيد من المال ( ١٠ دنانير للرجل ، ٥ للمرأة ، ٢ للطفل ) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء زمنا زمنا بلغ أربعين يوما ، وخرج الصليبيون تحت حماية القوات ، ولم يدخل بيت المقدس إلا بعد أن أجلى الصليبيين عنها .

وقد أدعى الأب لا منس بأن محاسنة صلاح الدين للصليبيين كانت عجزا وخوفا فلم يعاملهم بأبذع حروب القسوة والعذاب ، وخير ما يدحض هذه الشبهة ما كتبه ول ديورانت في هذا المجال . وهناك شبه إجماع على أن صلاح الدين لم يكن قائدا بارعا أو محاربا أو شجاعا أو حاكما عادلا بقدر ما كان « إنسانا » ممثلا للأخلاق والقيم الإسلامية ، فإن هذا المفهوم وحده هو الذى جمع حوله جميع العناصر والقوى التى كانت تهدف إلى توحيد الإسلام في وجه الفزاة ، يقول هاملتون جب ، إنه لم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيتين في غالب الأحيان وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره الذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوى عن الإسلام ضد أعدائه وضد من يتمنون إليه اتهامًا اسميا على حد سواء ، كان غاية في البساطة فذا في النزاهة ، ولقد أجبر أعداءه من الأديين والأبعدين ، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم ، وأن يقوم بالألاهيبة والمناورات السياسية مثلها يفعلون ، وكان هو نفسه طبيب السريرة ولذلك لم يكن يتوقع أبدا أن يفهم فسكر الآخرين ، وقلما فهمه وذلك ضعف استغله فيه أحيانا أقرباؤه ، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصا مثله العليا إخلاصا لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزهره من مكانه . . والحق أن صلاح الدين وضع في خطة نور الدين ، خطة الإيمان بأن قيام الإمارات الصليبية إنما جاء ناتجا عن تخلف مفهوم الإسلام نفسه وانحراف عن القيم الأساسية له وفصل بين السياسة والأخلاق ، وكان المفهوم الذى بدأه نور الدين وبلغ به صلاح الدين الغاية ، مما حقق له النصر ، هو الإيمان بضرورة إعادة الكيان الإسلامى في ظل دولة موحدة ، وفق مفهوم الإسلام نفسه وعلى مستوى القيم والأخلاق التى صار عليها محمد ابن عبد الله وصحبه الأولون . وقد

أورد في بعض رسائله مقاصده الثلاث من حركة : الجهاد في سبيل الله والسكف عن مظالم عباده الله والتجمع حول قيادة سياسة قوامها الخليفة العباسي . وتكشف رسائله عن كثير من مفاهيمه الأساسية أهمها : « إنه إن يسمح بتداول الحرب بين أمراء المسلمين بدلا من اتحادهم معا في الجهاد » . يقول جب : « كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب بل هي إلى حد كبير أخلاقية نفسية وأنه إذا عاجلها على المستوى السياسي والعسكري سيعجز عن حلها ، وأدرك أنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة ، فعملية أن يدهم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية » ، ومن أجل أن يصل إلى غايته كانت عليه أن يقوى أعماله والقنوة التي يخلقها بإيجاد تيار خائفي ونفسى يسند موافقة ويكون قويا بحيث يتعذر مقاومته فكان لذلك في حاجة إلى خلفاء وبخاصة فقهاء المدارس قادة الرأي العام يومئذ . وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن السر في نجاح أعمال صلاح الدين العسكرية وظهره في معركة حطين واستعادته بيت المقدس ، إنما يرجع إلى قابلية هذه العوامل لا إلى الأعمال العسكرية .

(٢٣)

### موجة البربر

يمثل « البربر » إحدى القوى البدوية الشابة التي اعتنقت الإسلام ووجدت شبابيه ، وهي القوة الكبرى في شمال أفريقيا والتي يدين لها نمو الاسلام وانتشاره في أفريقيا كلها بالأثر البين الواضح خلال عمر الاسلام كله ومنذ دخوله أفريقيا . وقد برزت هذه الموجة تحت أسماء كثيرة أهمها : المرابطون والموحدون والمريفيون ، هذه القوى ذات المفاعلية الضخمة في تاريخ نمو الاسلام والدفاع عنه ، فقد شارك البربر منذ المراحل الأولى في عمليات التوسع ، وكانوا هم فاتحو الأندلس أصلا ، وهم القوة الإسلامية الأولى التي عبرت إلى بحر الزقاق ، وأسست « الأندلس » أول دولة للإسلام في أوروبا ، وكانت قوى البربر التي تدفقت إلى الأندلس من بعد ذات أثر كبير في عمليات التوسع والاستقرار والدفاع طوال فترة القرون الثمانية وقد ساهمت قوى البربر المسلمة بالاشتراك مع القوى العربية ، في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في قلب أوروبا ، وكان دورهم أبرز في حركات التوسع في قلب أفريقيا .

وقد ظل البربر ينظرون إلى التوسع الاسلامي على أنه سيطرة من نوع جديد تقاوموا الفاتحين

أمثال أبو المهاجر بن دينار ، وهبة بن نافع الفهري ، وحسان بن ثابت ، وزهير بن قيس حتى جاء موسى بن نصير واستطاع بشخصيته الرائعة أن يكسب البربر إلى صف الإسلام ، فقد كان داعية إلى الإسلام أكبر منه قائدا محاربا ، حيث استطاع أن يكسب قلوب البربر بالإسلام وأن ينشر الإسلام نفسه ، ويدعو اليه بينهم ويكشف لهم عن جوهره ، وأن يقف منهم وقف الأخاء لا وقف الرئاسة فقرب إليه البربر وأشركهم في إدارة بلادهم ، فتحقق لهم بالإسلام قوة جديدة ، حين لم يفقدوا سلطانهم وبفوذهم في بلادهم ، وكانت ذكاة موسى بن نصير هي التي هدته أن يكون لإمام البربر اقتناها وحبا ، فوسع آفاق الثقافة الإسلامية وأنشأ للمساجد .

هناك تأكيد البربر أن الإسلام ليس نظام استعمار شبيهة بسابقه ، أو أنه سلطة مفروضة أو أن اهتنامه أمرا ملزما لمن لا يقنع به ، من هنا كان إقبال البربر على الإسلام وتأيدهم موسى بن نصير ، على النحو الذي تحقق في خروجه إلى الأندلس في الغزوات الثلاث بقيادة طريف بن مالك ثم طارق بن زياد ثم بقيادته ، وقد كان البربر هم العنصر الأكبر والأغلب من قواته في فتح الأندلس ، وقد اشتركت صنهجة الملتزمين في قوات التوسع . وقد تم التحالف بين العرب والبربر بعد إسلامهم ، وأدى ذلك إلى دخول قبائل متعددة في الإسلام وبعد صنهجة دخلت لتونه ، وامتدت سياسة موسى ابن نصير من بعده حتى كان عصر عمر بن عبد العزيز الذي أولى نشر الإسلام اهتماما كبيرا ، وغلبه على نظام الاقتصاد والضرائب ، وكان رسوله إلى إفريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الذي وثق أفريقيا وكان مثالا هاليا من أمثلة دهاة المسلمين وقادتهم مما أدى إلى نشر الإسلام في ربوع المغرب الأقصى ، حتى لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم ( المؤرخ ابن عبد الحكم ) وكان عمر بن عبد العزيز قد أمده بصفوة من أهلام التابعين انبثوا في البلاد يحضون الناس ويصرونهم بمقاصد الإسلام . ويرى المؤرخون أن إسلام الملتزمين في القرن الثالث الهجري كان ذا أثر بالغ في تاريخ قبائل البربر ، فقد تمحضت من تحالف قوى ضم قبائل الملتزمين جميعا بزعامه لتونه ، بفضل زعامة الزعيم اليمتوني ( تيولوتان بن تيكلان ) الذي أسلم وحسن إسلامه وأكسبه دينه الجديدة القوة التي مكنته من إتمام هذه الوحدة .

غير أن قوى البربر قاومت محاولات حكام العرب إلى السيطرة مثل حبيب بن عبيدة مما أدى إلى ثورتها على نظام الحكم العربي ، وقيام جبهة من المقاومة حملت لواء الدعوة إلى أن الإمامة ليست للعرب وحدهم بل هي للمسلمين جميعا على السواء ، والمعروف أن البربرو للغاربة كانوا يعتزون

بالإسلام كقوة من قوى الحرية ، ولذلك ضاقوا بمحاولة السيطرة عليهم وثاروا على النفوذ المفروض ، وكانت هذه المواقف نهاية لسلطان العرب ومعبراً لحكم المغاربة لبلادهم . ومع هذا فقد ظل البربر أولياء للإسلام صادق الإيمان به ، فقد اندفعوا في سبيل إذاخته ونشره والاستشهاد في سبيله ، مما دفعهم إلى إبلاغ الإسلام لدير الزنوج في غانا حتى تحررت من الوثنية بزعماء زهيم صنهاجة اللغوي . كما قضى الإسلام ووحده الفكرية على الخلاف بين قبائل صنهاجة وزناته وكان العداء بينهما عنيفاً متصلاً ، تقليداً لامتداده بين البرانس والتبر ، وقد أثر البربر مذهب مالك واتخذوه مصدراً لمفهوم الإسلام على النحو الذي آمنوا به ، مستمدين منه مفهومهم في الحرية مؤكدين به إيمانهم بالزعة بالاستقلالية ، كصدر من مصادر القوة في مقاومة كل نفوذ أجنبي يحاول أن يفرض عليهم ، فقد اتسم مذهب مالك بمقاومة نفوذ الحكم المستبدين ، وظلت مفاهيمه مرتبطة في أنفسهم بإعلاء كلمة الحق والاستشهاد في سبيل العقيدة ، وأنه لا ولاية لظالم أو تسلط ، وقد تطورت هذه المفاهيم إلى إيمان له طابع الجهاد في سبيل نشر الإسلام والزهادة في المطامع الدنيوية ، هذا الإيمان الذي كان مضموماً الدعوة التي حملها المرابطون ثم الموحدين وفي القرن الخامس كانت «وجه البربر» هي أقوى موجات الإسلام في أفريقيا والأندلس ممثلة في قبائلها زناته وصنهاجة وكنامه والمصائدة ، التبر والطوارق والمشمين والبرانس وطوائفها التي واجهها الإسلام عندما بلغ أرض أفريقيا والمغرب ، وهي قوى بشرية ممتدة من طرابلس إلى السوس الأقصى ، وقد كان لهذه القبائل شأن أي شأن في تاريخ المغرب والإسلام تفوقاً في الروح الحربية ، وشخاهة (زناته) تتمثل في رجالها الفرسان الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبي هاجر حين استقدم إلى الأندلس أعداداً ضخمة قامت بدورها في مقاومة الغزو الخارجي على الأندلس .

وقد كان لقبائل للمسلمين نواة الدولة للرابطية أبلغ الأثر في نشر الإسلام في ربوع أفريقيا والسلطان المغربي فقد مضت بعد إسلامها قروناً طويلة تجاهد قبائل السودان حتى أدخلتها في نطاق عالم الإسلام ، وقد أمد الإسلام هذه القبائل بالوحدة والالتقاء بعد أن كانت تنصارع فأعطاهما اتحاداً قوة دفعتها في أقصى الصحراء ، ناشرة لواء الإسلام ، وقد بلغت سعة دولة المرابطين من منحنى النيجر في الجنوب حتى للبحر الأبيض في الشمال ثم جاوزته إلى الأندلس ، وقامت (صنهاجة) بنشر الإسلام بين قبائل السودان ، ميممة شطر الجنوب حتى بلغت منحنى النيجر ، وقد تم توحيد هذه القبائل تحت لواء «عبد الله بن ياسين» . وقد أعدت هذه المفاهيم البربر إلى التطلمع لزعماء تجمع قوام وتدفعها في سبيل نشر الإسلام حين توحدت بزعماء «عبد الله بن ياسين» ، باسم «الرباط في سبيل الله» .

بمعنى الإقامة في الثغور حيث ترابط خيل للقتالة تحمي الحدود ، وترد للمعتدين وتجاهد في سبيل الله وقد واجه للرابطون القوى المنيرة على السواحل الإسلامية التي ظلت تتعرض لغارات الأسطول البيزنطي ، من قواعده في صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا ، وأقاموا في المدن الساحلية وتحصنوا بها ، ووفد عليهم عدد كبير من المقاتلة الذين آمنوا بأن الرباط في سبيل الله ضريبة يفرضها الإسلام للدفع عن شعوره وسواحه ، وقد انتشرت أعمال الرباط من بعد على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي ومن ثم تراجعت الأساطيل البيزنطية أزاء هذه القوة الجديدة ، وظلت هذه القوة المرابطة تحرير المسلمين وتمنحهم من الرباط عبادة فإذا دم الغزاة أرض المسلمين تنادوا إلى المرابطين الذين يتدافعون لرد العدوان ويصمدون في وجه الغزاة . ثم تبلورت قيادة المرابطين في زعامة يوسف بن تاشفين ( ٤٥٤ هـ ) الذي امتد نفوذه من المحيط الأطلسي إلى الجزائر والمغرب الأسط وأنشأ « مراکش » . ولم يتردد المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين من العبور إلى الأندلس نجدة للمسلمين الذين تمزقت دولتهم بعد جهاد طويل ومقاومة ضخمة لعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، فلما ذوت الدولة الأموية وتقسمت بين إمارات الطوائف طمع الأسبانيون والفرنجة في الأندلس وأخذوا يغيرون على أطرافها حتى زلزلت دولة الإسلام في أوروبا هناك ، هب يوسف إلى الأندلس في قوات ضخمة من ، واشتبك مع الأسبانيين والفرنجة في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة ( ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ هـ ) . وقد توحدت قوى الأسبانيين تحت راية الأذفونس السادس لمواجهة القوة الإسلامية الجديدة ، وفي هذه الموقعة الحاسمة أظهر المسلمون شجاعة وقوة ونصروا الله حقاً ، فحققوا الظفر الذي رد خصومهم واستخلص لهم سر قسطه وطرطوشة وبلنسية وقد كادت أن تلتهمها القوى الغربية ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة مرة أخرى بعد عام واحد المدن الإسلامية ، اضطره إلى العبور إلى الأندلس مرة أخرى حيث قضى على ملوك الطوائف ، واستولى على غرناطة ومالقة وقرطبة وأشبيلية ، واستطاع أن يؤخر سقوط الأندلس في أيدي الأسبانيين والفرنجة فترة أخرى . ولم يلبث أن ضعف المرابطون وهاد الأوربيون والفرنجة للأدالة من مملكة الأندلس ، فاستولى الأذفونس ملك أرغونة على طليطلة ثم سر قسطه ٥١٣ هـ ومضى بمحاصر غرناطة ومالقة ، هنالك كانت المواجهة البربرية الثانية « الموحدون » قد استحصنت واستطاعت أن تعبر إلى الأندلس بقيادة « عبد المؤمن بن علي » حيث واجه الموحدون الخطر الغربي الذي تدفق على سواحل أفريقية ٥١٧ هـ في حملات النورمان الذين استولوا على سواحل طرابلس المغرب والجزائر .

وانتهت بوصول الأسطول النورمانى إلى للمهدية وقد انبعثت دعوة الموحدين في مستهل القرن الخامس الهجرى بقيادة محمد بن تومرت وكان من أعظم أنصاره عبد المؤمن بن هلى ، وقد خاف للوحدون المرابطين واستطاعوا أن ينصروا الإسلام في جولة جديدة وموجة تالية . حيث طردوا النورمان من السواحل الأفريقية ٥٥١ هـ وعبروا إلى الأندلس وضموا إليهم مدائن الأندلس ، التى أصبحت جميعها عام ٥٦٧ هـ تحت سيادة للوحدين .

ثم كان للوحدين معركة حاسمة مع الأسبان الفرنجية لإنصروا فيها انصاراً ساحقاً ، وأخضعوا المنتفضين على الأندلس ، فى معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ غير أن هذه القوة الإسلامية الفنية البدوية قد أصابها ما أصاب مختلف القوى من لقاء الحصار والتعرف ، فلم تلبث أن اضطربت وتمزقت ، وبينما كانت القوى الأسبانية والأفريقية تتسكنل وتستعيد قوتها لتشار من هزيمتها فى الزلافة والأرك كانت القوات الإسلامية قد ضعفت حتى هجرت أن تلتقى بالقوى الإسلامية المجاهدة فى المشرق ، حين أرسل صلاح الدين إلى أبى يوسف المنصور ٥٨٠ هـ ويدعوه إلى عقد الخناصر لمقاومة الحملات الصليبية فى معركة موحدة للعالم الإسلامى كله ، وفى موقعة العقاب استطاع الأسبانيون والفرنجية الأداة من المسلمين ، بعد أن توحدت القوى الغربية وتدقت سيول الصليبيين من مختلف أنحاء أوروبا حتى بلغت مائة ألف ، بينما لم تكن قوات الموحدين متحدة أو متحمسة ، فلم تلبث أن اضطربت أمام حجاجال الفرنجية سنة ٦٠٩ هـ التى حققت نهراً كافى مقدمة لاسترجاع الأندلس .

وما تزال موجات القوى الشابة تبرز وتجدد الاسلام ، تبرز قوة شابة خشنة بدوية ثم تناهيا يد الحصار والتعرف فتضعف ، لتحل موجات أخرى بديلاً لها ، لم يتوقف عالم الاسلام من إمداد الاسلام بهذه القوى فى مجال الدعوة إلا الإسلام أو الفسكر أو بناء الدول والأبطال وما تزال ، هذه القوى تتوالى وما تزال أسماء أبطالها تلمع مرحلة بعد مرحلة .

وكلها تحاول أن تستمد القدوة من المسلم الأول ( ﷺ ) ومن تجربته ومفهومه وتصرفه فى بناء عالم الإسلام وفى الحرب والسلم وفى الدعوة إلى الاسلام والدفاع عنه ولابريز ( المرابطين ومن بعدهم للوحدين ) ، دور فى تاريخ الاسلام إيجابى رائع ، فقد نشروا الاسلام فى ربوع السودان الغربى وثبتوا الشفافة الاسلامية بين الشعوب الأفريقية ونشروا اللغة العربية ، وشاركوا فى معركة الدفاع عن الاسلام وتثبيت دولته فى الأندلس ، وقد سجل تاريخ الجهاد أسماء أبطال وقادة وفرسان ، وقرن اسم يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على بأسماء نور الدين محمود وصلاح الدين ، وكان لدولة المرابطين وللوحدين

قوة جاهدت وفي البر والبحر وصمدت للفرنجية وقاومتهم وأدالت منهم . وقد كان المغاربة للمسلمين في ظل الدولتين دور ضخم في بناء القوى البحرية والأساطيل ، نافس قوى المسلمين في المشرق ، وذلك بعد ضعف القوى البحرية الإسلامية التي أنشأ موسى بن نصير مؤسس البحرية الإسلامية في غرب البحر المتوسط ، فقد عادت دور الصناعة على طول الساحل الأفريقي من برقة إلى طنجة مرة أخرى قلاعاً ضخمة عامرة ، تصعد للمغربين وتدفع الخطر الفرنجي ، ومن خلالها استطاع المسلمون تنظيم غارات متصلة بين الجزر والقواعد البحرية كما أغار مسلمو المشرق على قبرص وردودس ، وكان فضل يوسف بن تاشفين في أحياء البحرية الإسلامية سنة ٥١٧ هـ كبيراً . ويمكن القول في إيجاز :

(١) قاوم البربر توسعات الاسلام ونفوذهم حين دخل المغرب واستمروا في هذه المقاومة صويلا بحسبانه نفوذاً غريباً ، كما قاوموا من قبل نفوذ الدولة الرومانية التي امتد ألف عام ، فلما تحققت عدالة الاسلام وسماحته وأتاحته الفرصة لأهل كل وطن في حكم وطنه أقبل البربر على الاسلام في اندفاع قوية فاهتموه وجاهدوا في سبيله نشره جهاداً مشرفاً وأصبحوا أكثر أنصاره إيماناً به ودفاعاً عنه . (٢) البربر هم فاتحوا أسبانيا أصلاً ، وهم القوة الإسلامية التي عبرت إلى بحر الزقاق فأست « الأندلس » أول دولة للإسلام في أوربا ، فلما تم الفتح تدفقت جماعات كبرى من البربر إليها فأنصهرت في مجتمعا مع العرب شركائهم في التوسع ومع القوط أصحاب البلاد الأصلية . (٣) ساهمت قوى البربر بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي إمتدت في أسبانيا واستمرت طويلاً ، والتي وصلت في ظل قيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة ( صائص ) التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة كيلو ، ومن ثم أصبحت ضفاف أنهار الرون والساوون والوار تحت نفوذها . (٤) قاد المرابطون والموحدون والمرينيون أضخم معركة مقاومة مع الفرنجة والأسبانيين هي إحدى شقي معركة الغزو الصليبي ، وذلك بعد إن ضعف القوى العربية المسيطرة في الأندلس بفعل الترف والتخرف . وكان للمغرب أضخم دور في حماية الأندلس من القوى الغربية المنجمة للقضاء عليها . (٥) كان للبربر أقوى القوى الإسلامية الشابة في المغرب في مواجهة أزمة الاسلام في القرن الخامس ومن بعده ، حين بدأ الغرب تنفيذ مؤامرة الغزو الصليبي بجناحه المشرق والمغرب . وكانت أبرز دولهم دولتي المرابطين والموحدين التي امتدت ( بضعة قرون ) وقد أدى البربر مهمتين خطيرتين . ( الأولى ) نشر الاسلام في أفريقيا وتوسيع آفاقه إلى أبعد حد ممكن . ( الثاني ) الدفاع عنه في مواجهة الغزو الخارجي للأسبان والفرنجة في الأندلس فقد عبر الموحدون إلى الأندلس في خلال قرن واحد ثلاث مرات ثم غير بعد ذلك المرينيون . وقد ظهرت قوتا البربر متواليتين : المرابطين والموحدين ،



أما المرابطون فقد ظهرت قوتهم في وقتها لإبانتها ، حين اندلعت نيران الحروب الصليبية بالشرق الاسلامي ، وحين ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ، وتوقفت غزوات هبذ الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر الذي غزا الفرنجة خمسين غزوة ، فلما تقسمت الدولة الأموية إلى إمارات الطوائف في نفس الوقت الذي توحدت فيه أرجونة وقشتالة مملكتي الفرنجة في مملكة واحدة استأسدت وأخذت تدبل من أرض الأندلس ، بينما تقسم المستنمون وتصار هوا ، مما مكن الاذقوس ملك أرغونة من الاستيلاء على سر قسطة ثاني معقل إسلامي (٥١٢ هـ) بمد طليطة ، ومعنى في محاصرة غرناطة وتهديدها. وبلغ مآلقه ، هنالك كان لابد لحركة التاريخ الاسلامي أن تعلى قوة جديدة في مواجهة الغزو العنيف ، موازنة للموقف ، وإتقاذا للإسلام من الانحدار كما كانت قوة السلاجقة وخلفائهم في المشرق والمماليك من بعدهم هي عنصر الموازنة ورد الفعل والتحدى أزاء الحملات الصليبية كذلك كاتب المرابطون والموحدون في المغرب .

(٢٤)

### هوجة المماليك

حقق « المماليك » عملا ضخما في مجال المقاومة الاسلامية ، فاستطاعوا أن يردوا الهجوم المغولي والغزو التتري الذي تعرض له ( عالم الاسلام ) من سمرقند إلى حلب في موقعة ( هين جالوت ) : بقيادة قطز وببيرس بعد سقوط بغداد بعامين ، وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية التترية في زحفها الطويل خلال أربعين عاما وتوقف اندفاعها نحو البحر المتوسط ومصر .

ثم استطاع الظاهر بيبرس أن يحقق انتصارات أخرى على معسكرات الصليبيين وحصون الثنار وقلاع الباطنية ، وأتم تصفية هذه القوى الغازية . قلاوون وصلاح الدين خليل ، وكان للمماليك بحق : قوة من أكبر قوى الإسلام ذات الفاعلية في مجال الجهاد ودفع العدوان الذي تعرض له عالم الإسلام خلال القرنين السادس والسابع ، وقد هاشت دولتنا المماليك ( البحرية والجزا كمة ) ٢٧٠ عاما تولى الحكم فيها خمسون سلطانا ، وإذا كان ( الغزو الصليبي ) على عالم الإسلام قد أبرز القوى الإسلامية المتمثلة في السلاجقة وخلفائهم ( عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين ) فإن ( الغزو التتري ) قد أبرز للمماليك ( قطز وببيرس وقلاوون والناصر ) كذلك أبرز غزو الفرنجة والأسباب قوى البربر

(المرابطون والموحدون) : يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي ، وقد كان اجتياح المغول لبغداد حدثا طبيعيا ونهاية محتومة إذا ما نظرنا إلى تطور القوى في العالم إذ ذاك ، مع ضعف القيادة السياسية الإسلامية في مقر الخلافة في بغداد ، حتى ليتمكن أن يقال أن العبارات التي وجهها جنكيز خان وبتمورلنك إلى أمراء المسلمين إنما تمثل الواقع المحتوم في هذه الفترة حين وصفاهم بأنهم « ملوك وحكام ظلمة » قد أشبعوا أنفسهم وأجاءوا أمنهم وأنهم غفلوا عن مفهوم الإسلام في هدالته ووحدته وفي المساواة والحق ، ولذلك فإن الله قد ساط التتار عليهم ليفتقموا منهم ، ولأنهم آية الله على هذه القيادات الظالمة ، هذه العبارات التي أوردتها التتار في رسائلهم إلى أمراء الإسلام إنما تمثل مفهوم التطور وحركة التاريخ فما من قوة تضعف إلا ولقوة أخرى مجددة أن تسيطر عليها ، أن تحل محلها ، وأن الدول تمر بمراحل من القوة والضعف ، فإذا شاخت كان لا بد لها أن تنهار ، وكذلك كانت الدول الممثلة للإسلام من سمرقند إلى بغداد في هذه الفترة (٦١٦ - ٦٥٦ هـ) بين سيطرة جنكيز خان وهولاكو قد أصابها الفرقة والضعف والغفلة واستسلمت إلى الترف والانحلال وانطوت على نفسها فكان لا بد أن تطيح بها قوة جديدة شابة حتى يستيقظ المسلمون من غفلتهم . وقد جاءت موجة المغول الأولى ١٢١٣ هـ - ١٢١٦ م بقيادة جنكيز خان في جيش قوامه ستين ألفا ، اجتاحت هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم وتدفق ما بين الصين والادرياتيكا . ثم كانت موجة المغول الثانية (١٢٥٨ - ١٢٥٩ م) بقيادة هولاكو فاجتاحت عالم الإسلام حتى بلغ بغداد فدمرها ، واسقطت الدولة العباسية وقتل الخليفة المعتمد ، وباع الشام واستولى على حلب . وكانت معركة « عين جالوت » هي الرد الحاسم من القوة الإسلامية الجديدة التي برزت في مصر ، وهي « قوة المماليك » التي حملت لواء الدافع عن الإسلام غير أن التتار لم يلبثوا بعد نصف قرن من حكم هولاكو أن طواهم الإسلام فاعترف بركة خان صاحب الخانات وزعيم القبيلة المندجية بالإسلام ديناً لدولته ٦٥٤ - ١٢٦٥ م وكان بركة خان معاصراً لمركن الدولة الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، ومن ثم قامت محالفة بين الرجلين على مقاومة بقايا الصليبيين والتتار الوثنيين ، وكان لهذه المحالفة أثر بعيد المدى في إنتصار الإسلام والأدلة من خصومه ، وفي ظل محالفة بيبرس لبركة خان استطاع أن يكبد المغول خسائر فادحة وأن يوقف زحفهم نحو الشام ومصر والأجزاء القريبة من عالم الإسلام ولم يلبث أوزبك خان أن انضم إلى الأميرين وعرف بتحمسه للإسلام والدهوة إليه ، وكان أول من جد في نشر الإسلام في جميع أنحاء روسيا .

## (٢)

إذا كانت قوة السلاجقة وخلفائهم ممثلة في عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين قد واجهت المرحلة الدقيقة من معركة الحملات الصليبية ، فإن المماليك قد واجهوا معركة التنازل ومعركة تصفية الإمارات الصليبية . وقد كان المماليك قوة إسلامية شابة بدوية ، من الصعب أن تنسكون وتنمو وتبلغ ما بلغته من هز وقوة في غير ظل الإسلام على حد تعبير ( فيليب حقي ) فقد كان المماليك مجموعة من أرقاء مختلف الأجناس والعناصر رفهم الإسلام وأمدهم بمفهومه في الحرية والقوة فدافعوا عنه ونصروه .

سيطر المماليك على مقدرات السياسة في الشام ومصر طوال قرنين وثلاثة أرباع القرن ، في أدق مراحل التاريخ الإسلامي وفي أدق مناطق الخطر ، وأتيح لهم أن يحققوا نصرين كبيرين للإسلام : ( الأول ) إجلاء بقايا الصليبيين والباطنية وإقامة سد منيع في وجه جيوش التنازل دون غزو هذه المنطقة أو بلوغ امتدادها في البحر الأبيض وأوربا ، وكان ذلك من أدق المواقف التي يقدرها التاريخ العالمي قدرها حين يكون السؤال : ماذا يكون ميزان القوى وحركة التاريخ لو لم يكن للمماليك في هذه المنطقة وماذا يكون مستقبل آسيا الغربية ومصر ، في التعرض لموجات التنازل التي ساقوها على بغداد وسوريا وحلب . ولقد كان دور « الظاهر بيبرس » في هذه المرحلة بالغ القوة والأثر ، في معارك عين جالوت واستخلاص الإمارات التي سيطر عليها الصليبيون ، واحدة بعد واحدة ، والحملات العنيفة التي جردها عليهم حتى تزعزع مركز بقائهم في ساحل الشام مما عجل بإجلائهم من بعد . وكانت لبيبرس ، حركته العالمية الضخمة في معاهداته مع ملوك المغول وملوك أوربا واتفاقاته مع زعيم خانات المغول في وادي الفولجا ، وما حقق من دفع امتداد الإسلام في قبائل المغول ، بحيث كسب الإسلام قوتهم العسكرية للوقوف في صفه والدفاع عنه .

وكان لبيبرس تاريخ قديم قبل معركة « عين جالوت » فهو الذي هزم لويس التاسع في معركة المنصورة ٦٤٨ - ١٢٥٠ وقد أتيح له بعد سيطرته على مقدرات الحكم أن يُبني جيشاً وأسطولا قويين ، وقد كملت مختلف اشتباكاتهم مع الصليبيين بالظفر والنصر ، ومن أجل هذا يعده المؤرخون ثالث العلماء : هارون الرشيد وصلاح الدين وقد عرف بجولاته الرائعة وتنقلاته من حصن إلى حصن ومن ميدان إلى ميدان حول المملكة اللاتينية الممتدة من شمال سوريا إلى حدود مصر ، وداخلها ، وقد كانت هذه المنطقة مجال جهاد المماليك العنيف المتصل ضد الصليبيين ، فامتلات بجيوشهم وزهرة فرسانهم حتى انتزعو منهم آخر معاقلهم واستخلصوا آخر حصونهم ، كما استأصلوا شاة الباطنية والحشاشين .

وكان قلاوون وابنه الملك الأشرف من أبرز المجاهدين في سبيل الدفاع عن الإسلام ورد خصومه وإلهم انتهت آخر إقلاع الصليبيين<sup>١</sup> ، وفي عهد الأشرف سقطت حكما في أيدي المسلمين ٦٩٠ — ١٢٩١ . وكان لاستعادة حكما صدى بعيدا في المجتمع الإسلامي ، فقد كان ذلك هامة على انتهاء آخر حلقات الغزو الصليبي في المشرق الإسلامي ، وقد وصلت سلطة الممالك أقصى اتساع لها خلال القرن التاسع الهجري ( ق ١٥ م ) حين استطاعت أن تسيطر على قبرص وتحاول ضم رودس للاجهاز على ما بعد الحملات الصليبية من محاولات الحصار على عالم الاسلام كما بسطت نفوذها على الشام ومصر وعلى الفرات وأطراف آسيا الصغرى الشرقية .

ولا شك كانت هذه الفترة ، مرحلة من أقوى مراحل « استعادة الثقة » في عالم الاسلام فقد نشط المسلمون إلى عمليات المقاومة وبرهوا في أعمال القتال بالمنحنيقات والسكوش وهدم الأسوار والأبراج ، وفي هذه المرحلة كان الأدب العربي سلاحا قويا في مواجهة هذه الحملات وفي شحذ الهمم ، وتمتمة القوى الروحية والعسكرية ، وكان الزحف الصليبي والزحف النثري من بعده دافعا قويا للمسلمين إلى الوحدة والمقاومة ، وكان التتار مع الصليبيين على اتفاقات صرية وارتباطات حددت مواعيد للغزو النثري ، وذلك لوضع العالم الاسلامي بين فكي السكاشة : التتار من الشرق والصليبيين من الغرب ولكن الاسلام استطاع أن يثبت للصليبيين والمنغول ، واستطاع بيهرس وخلفائه ، أن يضربوا الصليبيين ، ويعنهم من التحالف مع التتار ، حي خرج الصليبيون مقهورين ، وامتنص الاسلام المنغول وصهرم في بوتقته ، واعتنقوا الاسلام وكونوا دولا إسلامية كبرى ، أشهرها دولة المنغول في الهند التي أسسها الملك باير . وإذا كان القرن السابع ( ١٣ م ) قد شهد تصفية الإمارات الصليبية وطرد للصليبيين نهائيا من فلسطين وساحل الشام فإن القرن الثامن الهجري ( ١٤ م ) قد شهد رد الفعل لهذه النتيجة في المعسكر الصليبي حيث قامت أوربا بالدعوة إلى مقاطعة عالم الاسلام وتحريم الأنجار مع الممالك مهددة تجار الأفرنج بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة .

غير أن الممالك كانوا من البراهنة والحنكة السياسية بحيث استطاعوا تحطيم هذا الحصار ، وتمكنوا من عقد عدة معاهدات مع الدول الأوروبية ، كما أحسنوا معاملة التجار الفرنجة ، ومن ثم أخذ الغربيون في إعداد حملة لمهاجمة مصر عسكريا ، وقد تم ذلك بالحملة على الاسكندرية التي قام بها بطرس الأول ملك قبرص ( ٧٦٧ هـ — ١٣٦٥ م ) غير أنه اضطر إلى الانساب بعد بضعة أيام — ويمثل القرن الثامن الميلادي ( ١٤ م ) مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام ذلك هو ظهور الدولة العثمانية

الفنية التي استطاعت من بعد أن تجمع أغلب أجزاء العالم الإسلامي وفي مقدمتها العالم العربي تحت جناحها ، وأن بقي المماليك يسيطرون على الشام ومصر خلال القرن للتاسع الهجرى ( ١٥ م ) حيث واجهوا غارات القراصنة الفرنجة بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاسيارية في رودس على السواحل والنغور للصربية والشامية ، مما انتهى إلى إذكاء روح الجهاد من جديد في صد الفرنجة ، حيث قام للمماليك بغزوات انتقامية ضد رودس وغيرها من جزر البحر الأبيض بالاستيلاء على قبرص في عهد ( برسباى ) .

( ٢٥ )

## انتشار الاسلام فى مرحلة العزو الخارجى

تكشف « حركة التاريخ الإسلامى » عن ظاهرة بعيدة المدى على طوال مراحلها هي : قدرة الإسلام على كسب النصر فى مجال النكسة ، وتوسيع نطاقه حين تحاول القوى الأجنبية الانتفاض منه ، وامتداد ظلاله إلى شعوب جديدة حين تنكسر قواه وتلحقه الهزيمة أو الضعف فى إحدى مراحل كونه للتقدمة . وفى مرحلة العزو الخارجى واجه عالم الإسلام هجوم ثلاث قوى :

( ١ ) هجوم الصليبيين فى حملاتها للولاية التي لم تنوقف ومعارك المسلمين معها . ( ٢ ) هجوم الفرنجة والأسبانيين على الأندلس وشواطئ المغرب . ( ٣ ) هجوم التتار والمغول فى زحفهم الضخم وانتصارات المسلمين عليها .

ولقد كان وقع سقوط بغداد فى قبضة الغزو المغولى بالغ الأثر فى المجتمع الإسلامى كله ، فقد زلزل النفوس وأصابها بالاضطراب والتشاؤم وأضفى على المسلمين روحاً من اليأس القاتل ، فقد خيل للناس من ضخامة وقع الحدث وعمق الضربة أن الإسلام قد انتهى ، حتى أن مؤرخاً كبيراً هو ابن الأثير ظل معرضاً عن ذكر الحادثة بضع عشر سنة ، بل لقد كان وقع سقوط بغداد أكثر دويماً ، وأخطر أثراً فى النفوس من الحملات الصليبية ، ذلك أنها كانت تمثل ضربة رئيسية موجهة إلى مركز القيادة السياسية لعالم الاسلام وقاعدة الاسلام بالرغم مما منيت به هذه القاعدة من الضعف وما بلغت من الانكماش والتضاؤل فى نفوذها الحقيقى .

غير أن النظرة الأوسع تكشف عن حقيقة هجبية ، هو أنه فى نفس العام ٦٥٦ هـ الذى سقطت فيه بغداد مركز القيادة السياسية الاسلامية فى يد المغول ، فى نفس هذا العام غزا الاسلام واحدة

من أضخم قبائل التتار هي قبيلة بركة خان وفتح طريقه بالسيطرة على عقول وتلوب هذه القوة العاتية التي كانت قد هزت العالم كله وزلزلت قواعده منذ أربعين عاماً قبل فتح بغداد ، وكانت موضع تطلعا الغرب الطامع في أن يضمها إلى دينه وثقافته ليجعل منها أحد فكي السكاشة في الأطباق على عالم الإسلام ، غير أن ذلك لم يتحقق فقد « كان دعاة الإسلام » البسطاء أقدر على كسب إيلخانات المغول من حملات التبشير الغربية ، ويرى توماس أرنولد أنه ليس في تاريخ العالم تغيير لتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام حيث كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الغافلين القساة .

وكانت زوج جنسكيز خان من قبيلة مسيحية ، ومن ثم تطلعت السلطانان للمسيحيين في الشرق والغرب لمساعدة التتار في حربهما الصليبية مع المسلمين ، ويؤكد توماس أرنولد أن هينون ملك أرمينية للمسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع ماينخوخان ( ٤٤٦ هـ - ١٢٤٧ م ) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو ( ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ) الذي حملته زوجته للمسيحية بما كان لها من نفوذ على أن تظهر عطفاً شديداً على للمسيحيين ، وقد ظن الغربيون أن للمغول قد تحمسوا للمسيحية وانتصروا لها فأرسل القديس لويس صغيراً من قبله إلى الخان الأدهم يستحثه على مواصلة جهوده للنشر للمسيحية غير أن ظهور الاختلافات بين للمسيحية من اللاتين والأغريق والنسطورين والأرمن وامتدادها إلى وسط معسكر للمغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلاً في إحراز نجاح أكبر ، هذه عبارة توماس أرنولد في الخطة التي دبرها الغرب مع للمغول والتي تحطمت حين دخل بركة خان وقبيلته في الإسلام ثم تحالف مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك وكان بركة خان ( ١٢٥٦ - ١٢٦٧ ) أول من أسلم من أمراء للمغول وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في روسيا ، غير أن تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كلك أرمينية والصليبيين ، ربما قد حجب الأمل في انتشار الإسلام بين المغول قليلاً ، وكان ابن هولاكو ( أباخان ) قد تزوج من ابنة إمبراطور القسطنطينية ، وكان يرسل السفراء إلى القديس لويس ملك فرنسا وشارل ملك صقلية وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين . غير أن ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذي كان يرجوه لوك أوروبا ، فإن أخوه تكودار ٦٧١ هـ - ١٢١٢ م الذي اعتلى العرش من بعده كان قد اهتمق الإسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين فلما تولى السلطة رغب في تحويل كافة التتار إلى الإسلام وأرسل نبأ إسلامه إلى سلطات المماليك في مصر « قلاوون » قال في رسالته : « لقد ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقدماً لناوس الشرع الحمدي على مقضى قانون العدل الأحدي لإجلالا وتعظيماً ، إن

الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، عفا الله عما سلف ومقدمنا بإصلاح أمور المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وأمر بتعظيم أمر الحاج ونجيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها وإنا أطقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختبارهم ، توقيع « تكودار أحمد » . وتوالى الأيلخانات المسلمين حتى كان أعظمهم شأنًا « غازان » ١٢٩٥ هـ ١٢٩٥ م سابع الأيلخانات الذي جعل الإسلام دين الدولة الرسمي في فارس . وتوالى إسلام أمراء التتار وملوكهم : أسلم طرماشبرين ملك جمعاى ٧٢٧ هـ — ١٣٢٦ م وتغلق تيمو خان ملك كاشغر ٨٤٨ هـ ١٣٤٧ م على يد الشيخ جمال الدين وعندما تولى تغلق تيمور السلطة استقبل أمراء دولته وكان أولهم الأمير تولاك : وقال له الخان: ألا تدخل الإسلام ، عند ذلك سألت هبرات الأمير وقال: قد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال الدين في كاشغر ، وأصبحت مسلمًا منذ ذلك الحين ولستى لم أصرح بذلك خوفًا منك ، وعرض الإسلام على سائر الأمراء فقبلوه جميعًا إلا واحدًا وفي هذا اليوم قص ١٦٠ ألف رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام . ولما تولى أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية ( ٣١٧ هـ ) ١٣١٣ م — ١٣٤٠ م السلطة عمل على تحويل كثير من الأهاليين إليه ، وقد وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد روسيا . وبالرغم من تحمسه لنشر الإسلام وتغانيه ، كان كثير من التسامح نحو رعاياه المسيحيين وقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء .

وفي هذا يقول تومارس أرنولد : إنه بالرغم من كل المصائب أذهن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي سلموها الخسف وجعلوها في مواطئ أقدامهم . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي ﷺ قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وحرصها بمجاهدين في طي الخفاء لجذب غير المسلمين إلى حضارة الإسلام . كما حقق الإسلام توسعًا ذاتيًا في هذه المرحلة في قلب الصليبيين أنفسهم فإن روح الإسلام وعدالته التي لمسها الغربيون عن قرب ، وما أدهشهم من شئ مثل نور الدين وصلاح الدين قد شدم إلى الإسلام ، وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالإسلام إلى تغير مفهومهم عن المسلمين ودينهم ، وبدارأيهم أقرب إلى الإنصاف بل لقد انجذب كثير من منهم إلى حظيرة الاسلام ، ويقول توماس أرنولد : يظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً حتى أن نفراً من الفرسان المسلمين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا المسيحية وهجروا قومهم وانضموا للمسلمين ، حتى أن صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس

أولئك المسلمون الذين أتروه حين طوالب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية ١٢٥٠ م كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الاسلام (جونفيل) ويتصل بهذا أن المسلمين حين استعادوا سلطانهم على بيت المقدس بسطوا على المسلمين روح التسامح التي كانت من قبل ، ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيون ، ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائياً ١٢٤٤ م رحبوا بإفئدة الجدد واطمأنوا اليهم ورضوا بحكمهم . وقد دفع هذا الشعور كثيراً من مسيحي آسيا الصغرى إلى الترحيب بمقدم السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة لاسبب نظام الضرائب المجهف وحده ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الاخرقية (توماس أرنولد) .

وقد انتشر الاسلام ذاتياً في آفاق أخرى ، هي المغرب وشمال أفريقيا وكان لتقبل البربر له أبعد الأثر في انتشاره في آفاق أفريقيا ، ويرى المؤرخون أن ظهور المرابطين كان بعيد الأثر في انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمة جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج في الامة الاسلامية (الدكتور حسن محمود) وقد ظهر في مستهل القرن الخامس «عبد الله بن ياسين» المعلم التي الذي اكتشفه يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، وكان مقدمة للنهضة الفخمة التي قادها من بعد يوسف بن تاشفين ، فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام في مختلف أنحاء قطاعات أفريقيا التي تعرف بالسودان ، وقد بنى رباطاً في جزيرة نهر السنغال حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم ألف شخص ، ثم دفعهم إلى قبائلهم وعشائرهم ، ثم زاول الدعوة في القبائل المجاورة ، واستطاعت حركة عبد الله بن ياسين أن تحقق توسعاً في قلب أفريقيا حيث أصلت قبائل كبيرة من البربر الوثنية ثم كانت حركة الموحدين امتداداً لحركة المرابطين من حيث جذبت إلى الاسلام قبائل أخرى كانت بعيدة عن الاسلام وقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين أن يكسب الكثير للاسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية وشرح قواعد الاسلام وأمر بالآذان بها .



(٢٦)

## الفكر والثقافة في مرحلة الغزو الخارجي

هل مهدت مرحلة التبليور والانصهار لمرحلة الغزو الخارجي : الواقع أن مرحلة التبليور والانصهار تميزت باندفاعات قوية نابعة من مفاهيم الاسلام . فقد استطاع الاسلام أن يحقق انتصارات ضخمة في خلال « مرحلة » التبليور والانصهار ، مستغلا من الدولة الاسلامية . ذلك أن حرية الحوار الفكري بين دعاته وبين دعاة الأديان الأخرى والمذاهب والممال المختلفة قد كشفت جوهره ، فاستطاعت بساطته وشموه وتكامله أن تنفذ إلى أعماق النفس الانسانية المتطلعة إلى قوة دافعة إيجابية تبين على البناء والتقدم والانشاء . وقد أعطى الاسلام معتنقيه هذه القوة وأنشأ نهضة ضخمة في مجال العلوم والفكر والبناء والحضارة فهو بقيمه الإنسانية من التوحيد والعدل والمساواة وسماحته في الانفتاح على الثقافات والحضارات قد استطاع أن يستوعب حصيلة ضخمة من حضارة تجارب الأمم ونهضاتها مكنه إلى الاندفاع إلى الأمام ، كما استطاعت مفاهيمه التي تقسم بالشمول والتكامل والوسيلة أن تصهر العناصر المختلفة في بوتقة « وحدة فكر » بقيت واضحة الخطوة في مجال البقاء حيث ظلت قوى الشعوبية والزندقة والإلحاد والاباحة تواصل محاولاتها في إزاحة الاسلام عن مفهومه ، أو التآلب عليه بالمؤامرة على دولته .

وطلت دولة الاسلام تشق طريقها على الذي نمتق لها ، دائرة في ذلك الاسلام ، لم تصل بعد إلى تحقيق المثل الأعلى الذي رسمه ، ولكنها وضعت تبنى الحضارة في الشام ثم في العراق وفارس ، وأصبحت القيادة السياسية في بغداد في العصر العباسي ، وقد أفسحت الطريق إلى الدول الاستقلالية حيث ظهر بنساة الدول وقادة الأفكار المختلفة وحيث استطاعت كل القوى والممال والمذاهب والعناصر أن تقيم دولا وحكومات لا فرق في ذلك بين الشيعة والسنة ، وبين القرامطة والزنج ، غير أن الصراع بين هذه القوى بدافع الخلاف بين العرب والفارس أساساً وبين محاولة الفرس في الاستقلال عن النفوذ العربي ، وبين حركات التآمر والانقضاض التي حاولت أن تحمل شعارات العلويين أو آل البيت كوسيلة لإغراء الشعوب ، هذه المعركة الحضارية في مجال الفكر وفي مجال الحركات السياسية قد أضعفت الوحدة السياسية الاسلامية بين أجزاء « عالم الاسلام » على النحو

الذى مكن القوى الخارجية من التآلب لغزو من الأندلس في حدود المغرب والدولة البيزنطية في حدود الشام هنالك دخل العالم الاسلامى فى مرحلة جديدة : هى مرحلة «أزمة الإسلام» كما نسميها وهى مرحلة الغزو الصليبي المزدوج على الشام والأندلس والغزو التبرى الذى ارتبط بالغزو الصليبي فى خطط منسقة كمحاولة ثلاثية للقضاء على عالم الاسلام . وقد استمرت هذه المرحلة : مرحلة الغزو الخارجى فترة قرنين كاملين ها ( القرن لسادس والسابع ) وفى هذه المرة ظهرت القوى الثلاث الشابه البدوية الحاربة ذات الفروسية والصرامة واللى كانت فى مستوى الأحداث وهى قوى (١) السلاجقة وحلفائهم وتابعيهم الأتابكة والأيوبيين (٢) المماليك (٣) المبربر « المرابطين والموحدين » وبعد فاذا كان شأن الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة :

كان الفكر الاسلامى فى مرحلة الانصهار والبلورة قد مر بعدة مراحل :

(١) المعتزلة : لسان الدفاع عن الاسلام فى مواجهة الفلسفات القديمة . (٢) تحقيق الحديث والسنة وتكوين مدارس الفقه فى مواجهة حملات الشعوبية . (٣) إعادة صياغة مفهوم الاملام بالعودة إلى مفهوم « القرآن » بوصفه حجر الأساس الفكر الاسلامى جامعا بين العقل والقلب فى مواجهة انحرافات (١) الاعتزال ( الأشعرى ) (٢) الباطنية (الغزالى ) وفى أواخر القرن الخامس وأوائل مرحلة الغزو الخارجى استشرت الدعوة الباطنية (١) كقوة فكرية يهدف إلى القضاء على مفهوم الاسلام فى بساطته وشموله وتكامله ووسطيته (٢) وحركة سياسة تهدف إلى اسقاط الدولة الاسلامية.

كسنت الفسكرة الباطنية خلاصة الفلسفات الجوسية واليونانية الوثنية مصاغة فى قالب ظاهرة إسلامية ، تدهو إلى اسقاط التكليف فى العبادات وتعطيل ظاهرة الشريعة ونسخه وذلك من طريق تأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلا لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق مع إنكار الغيبيات وانكار عقيدة ختم النبوة . وقد صور دهاة الباطنية هدفهم فى عبارة واضحة بث بها هب الله بن الحسن القيروانى إلى الحسن بن سعيد الجبائى زعيم القرامطة على النحو « أدع الناس بأن تقترب اليهم بما يميلون إليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فن آست منهم رشداً فاكشف له الغطاء فإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا » . والواقع أن دهاة الباطنية وفى مقدمتهم ( هب الله بن ميمون للقداح ) قد بحثوا عن أنصارهم بين الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية على حد تعبير دوزى — ولم يكن ابن ميمون يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة وإلهم وحدهم أستطاع أن يلقى بسرهم وخفى عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان ليست إلا ضلالا وسخرية وأن باقى البشر

(وكان يطلق عليهم الحر) ليسوا أهلاً لهم هذه المبادئ، وقد ظلت الباطنية تنشر دعوئها باسم الدعوة إلى آل البيت، حتى أصبحت مؤسسة ضخمة تنقض على الحكومات وتقتل الأهل من الوزراء والقادة أمثال الملك الطوسي والوزير نظام الملك وكان لها دورها الخطير في معركة الاسلام مع الصليبيين، فإن معظم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي ترصدتهم الباطنية بالقتل أو تعرضوا لمحاولات الاغتيال كما تعرض صلاح الدين. ويتصل بالباطنية جماعة إخوان الصفا ودعوتهم خليط من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ومزيج من الاسلام واللاهيات اليونانية مصنفه خاق دين آخر، وكانت دعوتهم هي «أن الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة (التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة) والمعروف أن أصحاب حركة (إخوان الصفا) قد كتبوا أسماؤهم، وهنا موضع التساؤل فيما لو كانوا مخلصين أو غير منخرقين عن فهم الاسلام ومقوماته. ومن أهم معالم دعوتهم إنكار البعث بالجساد (ج ٤ ص ٦١. رسائل إخوان الصفا) ويفسرون الآخرة والجنة والنار على نحو مغاير لما يفهمه ويعتقده المسلمون، وبالجملة فإن فلسفة إخوان الصفا هي مزيج من فلسفات اليونانية الوثنية، والمزدكية الفارسية، والمناوية، والوثنية، والسكمانية والتنجم والسحر، ويرى العلامة أبو الحسن الندوى أن هذه الدعوة كانت تهدف إلى إهداد النصوص والنقوى لحركة انتفاض جديدة، وذلك بتجميع علم ماكر يراد به عمل سيامى لهدم دولة الاسلام والاصلام نفسه.

### الغزالي : وإعادة صياغة الإسلام

هذه هي الصورة التي كانت تتحرك قبل الغزو الخارجي لعالم الاسلام، بالإضافة إلى التفرق السياسى والخلاف الضخم بين العناصر والقوى الاسلامية ومن هنا كان لا بد للاسلام أن يواجه هذا الصراع بإعادة صياغة مفهوم الاسلام على نحو يسلك الجماعة الاسلامية في وحدة فكرية وسطية متكاملة. أما من الناحية الفكرية فقد كان «الغزالي» هو حامل لواء «إعادة صياغة مفهوم الإسلام» بالإتيان نحو القرآن نفسه كمصدر أسامى وإعطاء الاسلام تسكاه وشموله بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الباطنية والفلسفات القديمة : وفي نفس الوقت كانت القوة للسلاجوقية البدوية الشابة الحاربة في المجال السياسى عنواناً لسيطرة وحدة الجماعة، فهم حملة علم الستة، وأصحاب اللواء المرفوع في وجه الغزو الخارجي، وقد استطاع الغزالي أن يعيد صياغة مفاهيم الاسلام بصياغة

جديدة ، بعد أن أوغل في دراسة الفرق وتمحيق حجج الفلاسفة والباطنية ( ٤٥٠ - ٥٠٥ ) كان جوهر الإسلام قد اختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستنصفى الغزالي الإسلام من جديد وأزال هن وجهه ذلك الغشاء الذي حجب صفاءه ، وصارع القوى التي كانت في يوم من أيام الإسلام أسلحة قوة ثم تحولت مع الزمن ومع اتصافها عن شمول الإسلام وتكامله ووسطيته لتصبیح وكأنها مفهوم الإسلام نفسه ، صارع قوى المتكلمين والباطنية والفلاسفة وواجه انحرافاتها وردّها جميعاً في صياغة جديدة ، وصيها جميعاً من جديد في « بوتقة الإسلام » ليبرز الإسلام بمفهومة الأسنى ، وقد استنصفى عناصر القوة والحياة التي تتمثل في هذه الأفكار والدعوات وإعادها إلى منابعها من الإسلام وأقام من جوهرها بناء فكر الإسلام في شترله .

فليس الإسلام فلسفة وحدها ولا فقها وحده ولا زهداً وحده ولا كلاماً وحده ، ولكنه هو الأصل الأصيل التي تلتقي فيه هذه المفاهيم على قدر لتكون شمول الإسلام وتكامله ووسطيته . وقد دعا الغزالي إلى اتخاذ القرآن نفسه أساساً لمنهج الفكر الإسلامي كاشفاً عن أن علم الكلام كان سلاحاً من أسلحة الإسلام لفترة من الفترات غلبت فيها الفلسفات القديمة فكان دفاع عن الإسلام — عن نفسه — بنفس أسلحة خصومه . وإنما يمثل الكلام أمراً جزئياً فيما يتعلق بالدفاع عن شكوك خصوم الإسلام وهو ليس دهوة شاملة ، للطباع السليمة والعقول المستقيمة « أما القرآن » فهو الغذاء الصالح والماء السائغ لكل إنسان ، ليس فيه ما في الكلام من ضرر أو خطر أو جزئية بحال الدفاع عن الإسلام والرد على خصومه فضلاً عما تعلى آراء المتكلمين من صورة الجدل مما يعمجز عنه العامي وربما يكون سبباً لظهور العناد في قلبه ، والأنعم هو الكلام الجاري كما يشتمل عليه القرآن .

« وأولية القرآن أنه مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، أما أولية للمتكلمين فهي مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستنصر به الكثرون بل إن أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوى » . أما الفلسفة عنده فهي « مجموع أفكار وقياسات وتخمينات » والغزالي لم يتهم الفلسفة بالنكير أو مهاجمها بالهجوم ، ولكنه قال « أن أغلب قضاياها برهانية ولا يخدم الإسلام انكارها ، وقال أن الإسلام لا ينهمر بانكار هذه العلوم وليس في الشرع تعرض لها بالنفي والإثبات ولا في هذه العلوم تعرض للمعلوم الدينية » ، وقال إن بعض علوم الفلسفة لها فائدتها وخاصة علوم ( الرياضة والطبيعة ) أما الإلهيات ففيها أكثر أخطائهم ، وقال إنهم ما قدروا على الوفاء بالإبراهيم على

على ما شرطوه من المنطق ، ويرجع ذلك إلى أن الإلهيات ليست كالمعلوم الأخرى ( الرياضيات والمنطق ) وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادئ ، ولذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وقال أن خطر الفلسفة على أذهان الناشئة هو أن يجدوا أصحابها مع رزاة عقولهم وغزارة هلمهم . شكريين للشرائع والنحل جاحدين لتفاصيل الأديان والملل ، ولم يهاجم الغزالي علوم الفلسفة التي لا تصادم الشريعة وناقش مسائلهم في الإلهيات وما بعد الطبيعة وبين ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم في ثلاث مسائل : (١) قدم العالم (٢) قولهم بأن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص والظواهر . (٣) بعث الأجساد وحشرها ، وقال إن هذه المسائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه ، وعلى هذا النحو بدأ القرن السادس وقد أقبلت الحملة الصليبية الأولى . وبدأت حركة مقاومة ضخمة في منطقة الشام وساحل فلسطين ولم يلبث أن برز عماد الدين زنكي بحمل لواء الوحدة الإسلامية السنية وخلفه نور الدين محمود صاحب دعوة « إعادة بناء الأخلاقية الإسلامية » كقوة أساسية لمركبة المقاومة . ثم صلاح الدين الذي أقام بخلفه الإسلام نموذجاً جديداً للعمل الأعلى الإسلامي . وقد كان لازمة الإسلام أثرها في أمرين : (١) وحدة الجماعة الإسلامية : وحدة سياسية وفكرية وبرز دعاة ومصلحون من أمثال « عبد القادر الجيلاني » ( بروز دعوة الزهد والتصوف وتجميع كتائب المرابطين في الثغور ثم نحوهم إلى جماعات تعيش في الخوانق والزوايا . (٢) ظهور أدب جديد هو أدب المقاومة للصليبيين ( الشرق ) والفرنجة ( الغرب ) والنتار . وقد كان للحملات الصليبية المستمرة أثرها في بروز دعاة السنة من السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة والزنكي والأيوبيين والمماليك أثره في النقاء الفكري الإسلامي على وحدة تتمثل في مفهوم السنة والجماعة حيث انصهرت مختلف الفرق الفلسفية والكلامية والمتصوفة والفقهاء من جديد في لقاء روي وفكري بين أجزاء العالم الإسلامي ومفاهيمه الفكرية وفي مقاومة الغزو الصليبي والفرنجي خلال القرنين كاملين ، وكما انتشرت حلقات الوعظ وحلقات التصوف وانتشرت المدارس السنية التي أنشأها السلاجقة وفي مقدمتها المستنصرية والنظامية وبدأت التربية الإسلامية تشق طريقاً حديداً قوامه « وحدة الجماعة السنية » في النقاء المذاهب الإسلامية ، كما برزت حركة الأخاء والفتوة الإسلامية ، غير أن دور الغزالي في إسقاط الكلام والفلسفة الإلهية اليونانية قد أنشأ التصوف خلال القرن السادس كله حين بلغ التصوف مبلغه من الانحراف الذي بلغته الفلسفة والكلام من قبل ، هندئذ كان الإسلام في حاجة إلى شخصية ضخمة « تعيد صياغة مفاهيم الإسلام » في مواجهة محاولة الجزئية الصوفية بفهمها الجبري حيث حاولت أن تتمثل مفهوماً كاملاً للإسلام ، ففي نحو قرن من الزمان انقلب التصوف إلى حركة فلسفية مضطربة

جمعت إليها انحرافات الفلسفات القديمة وقالت بالحللول والاتحاد ووحدة الوجود وبعدت عن بساطة الاسلام في شموله وتكامله ووسطيته . ويتمثل ذلك في أقوال الخلاج والسهروردي وابن عربي ، كما تحولت حركة الرباط في الثغور إلى حركة الدراويش المنسجبة من المجتمع والعمل والحركة والحياة إلا الاعتسكاف في الخوانق ، ومن هنا أصبح التصوف انحرافاً إلى نزعة فلسفية فكرياً وإلى جمود وهزلة وسلبية من الناحية العملية ، ودخل إلى التصوف القول بإسقاط التكليف وبذلك بعد عن مذهب السنة وقواعد الشرع ورجع الاسلام في طبيعته الإيجابية القائمة على محاربة النفس والتوكل على الله والجهاد . غير أن الحركة الصوفية من ناحية أخرى قد استطاعت أن توسع قاعدة الاسلام وأن تشر التوحيد . في مختلف أجزاء أفريقيا وآسيا . ثم لم تلبث خلال هذه المرحلة أن تقاربت السنة من الصوفية ، كما تقاربت الصوفية من مفاهيم الشيعة ، وحاولت أن تلتقي في وحدة فسكر في حظيرة الاسلام . وإذا كان « الكلام » هو محاولة إيقاف الاسلام في فلك العقل فإن « الصوفية » هي إيقاف الاسلام في فلك القلب ، وكلاهما شطري الاسلام ولا يستطيع مفهوم منهما أن يستقبل بالاسلام ، والاسلام في شموله وتكامله ووسطيته يلتقي بهما منصرفين فيه والاسلام دين العقل القلب معاً .

( ٢ )

### الحركة الموسوعية الكبرى

كان هجوم الصليبيين والفرنجة والتتار من خارج عالم الاسلام عليه في ثلاث أنجاعات متلاحقة يربطها خط واحد هو القضاء على الاسلام « دولة وفكرة » وهي حملة « عاتية » يمكن أن توصف بأنها « أزمة الاسلام الكبرى » ، كان يمكن أن تقضى على أي حضارة يحمل لواها فكرة ودولة ، غير الاسلام ، فقد استطاع الاسلام أن يخرج أحشائه من البدو المقاتلين الأشداء في ثلاث قوى : هي السلافة والماليك والبربر في مواجهة القوى الثلاث ، كانت هذه القوى طاملة على « إعادة وحدة الجماعة » في مفهوم الوسط ( السنة ) والدفاع عن أرض الاسلام ، غير أن الاسلام لم يتوقف في هذه المرحلة عند « الدفاع » بل استطاع أن يفتح فتحاً سليماً في آفاق جديدة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ويشق طريقاً مجدداً فيفروا قلوباً جديدة ببساطته وسماحته وشموله ووسطيته ، فيضيف عناصر جديدة في الوقت الذي كانت قلاع الباطنية تسقط ، والمغول للبرابرة يدخلون في الاسلام أفواجا .

وفي هذه المرحلة برزت « حركة فكرية وثقافية » بعيدة المدى ، لم تشهدها المرحلة السابقة من حيث عمقها واتساعها وشولها ، ذلك أن الغزو الخارجي قد هز نفوس الأعلام والمفكرين هزاً حقيقياً وكانت عمليات القضاء على التراث الاسلامي على النحو الذي حدث في بغداد حين فقدت مئات الألوف من مجلدات الكتب . أو ما حرق منها في ساحات حلب أو دمشق أو نقل إلى مناطق بعيدة بقصد القضاء على قوتها كفكر ، لقد هال الباحثون المسلمون الأعلام هذا الموقف ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل تأليف الموسوعات الضخمة ، تضم إليها الوان الفنون والشقاات التي كانت موزعة على كتب مختلفة . وقد نشطت من جديد دون تقدير كبير للصياغة الفنية ، وكان ذلك حماية لها من الضياع ، وإعادة لحياتها من جديد ووضعها في أيدي الباحثين .

ونظرة إلى مؤلفات الغزالي أو ابن تيمية أو ابن القيم نجد أنها محاولة لتقديم عصارات شاملة سريعة للفكر الاسلامي كله ، حتى لقد قيل في وصف كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، أنه يكفي بدلاً إذا فقد التراث الاسلامي كله ، ومهما كان في هذا القول من المبالغة فإنه محاولة لتصوير مدى هذا التحدي الذي واجبه الغزالي في سنواته الأخيرة بعد قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق واستيلائها على البيت المقدس ، وفي مواجهة ذلك الاحساس المضطرب بالخطر على الفكر الاسلامي مما كان تمرته تأليف عمل ضخيم كإحياء علوم الدين . قد اتسمت مرحلة الغزو بظاهرة عجيبة في مجال الفكر هي وجود إنتاج ضخم في مختلف مجالات الثقافة : فقه ونحو وائمة وعروض وحديث وتفسير وبلاغة وأدب وتاريخ وجغرافيا ومنطق وفلسفة وسياسة ورياضة وفلك وتنجيم ، فقد كانت هذه المرحلة في الواقع ثمرة المرحلة السابقة التي توسعت فيها دور العلم والمساجد والمعاهد والمؤسسات العلمية المختلفة في فواصم الحواضر الاسلامية ، وكانت منطقة الشام ومصر أغنى هذه المناطق حيث لم تحل الحروب الصليبية ولا الغزوات التتريية ولا غزوات الفرنجة لأطراف الأندلس والمغرب من استمرار حركة الفكر والثقافة والإدب ، وطعمتها بتجدد جديد وأضفت عليها لون المقاومة والحفاظة على التراث وظلت الجامعات الكبرى : الأزهر في مصر والقرويين في فارس والزيتونة في تونس والأعظم بالفيروان والأموى بدمشق والنخف وكر بلاء وسامرا ، ظلت قادرة على أن تحمض هذه الثقافة وأن تحميها . وهندما سقطت بغداد تحت سنايك المغول ، ظلت مقاهرة ودمشق وحلب وحواضر المغرب جميعها حافظة للثقافة منمية لها . ولعل هذا العمل هو أقوى رد على الشبهات التي كانت تتروى من أن الحياة العقلية قد واجهت في مرحلة الغزو الخارجي مرحلة انحطاط ، فضلاً عن أن الخلفاء وبناءة الدول في مصر ما قبل الغزو ( ٤٩٢ هـ إلى ٦٩٩ هـ ) - وهو فترة أول الحملات الصليبية إلى أوائل

عصر الوحدة العثمانية - هؤلاء القادة لم يترددوا في تسخير النوايا والعلماء واستقدموا إلى دوائهم هداً كبيراً من أهلهم أمثال البيروني وابن سينا وابن الهيثم .

غير أن هذا العصر ينقسم بظاهرة أشد عمقا : هو أن « الجدل الفكري الإسلامي » قد انتهى حيث تقاربت مفاهيم الكلام والسنة والتصوف وأهل البيت ، وبدأت تلتقي في وحدة فكر إسلامي له وسطية وتكامله ذلك أن أحكام هذا العصر كانوا علماء وأئمة وعلى قدر كبير من الشفافة وكان من حولهم دوماً نخبة ممتازة من أعلام المثقفين . فقد كان نور الدين محمود يتابع سياسة السلاجقة في بناء المدارس واستقدام العلماء وكذلك شجع صلاح الدين العلماء وقريبهم ، وكانت مجالسهم حافلة بأهل العلم والفضل ، حيث تطرح مذكرات واسعة ومحاورات مفتوحة حول مختلف جوانب العلوم ، وكان صلاح الدين يتسكف السعي إلى العلماء الذين لا يغشون مجالس الأمراء والسلطين ، كما بنى السكامل دار الحديث في القاهرة وناظر العلماء ، وفي كل ليلة كان يجلس إلى المفكرين ويعقد المباريات بين العلماء في حفظ الجامع الكبير وغيره من كتب الحديث ويميزه علميا . كذلك كان كاف الظاهر يبيرس بالعلماء والنوايا ، وحبه لمحاورات التاريخ الفقه ، وعلى هذه السنة كان فلاوون الذي أنشأ المدارس الكبرى وطارح الأدباء . وكانت حلقات العلم ، زاخرة في مختلف الجوامع الكبرى والزوايا ، وفي القاهرة كان جامع عمرو والأزهر والطولوني وجامع الحاكم والمشهد الحسيني وكذلك كانت جوامع دمشق وحلب ودار الحكمة في طرابلس كلها تشغل بالعلم .

وقد رحبت القاهرة ودمشق وحملت بالعلماء من مختلف أجزاء العالم الإسلامي واستقبلت القاهرة هداً من علماء الأندلس وفدوا إليها مهاجرين خلال حملات الفرنجة . وساهمت الأيرات المسلمات : روح المالك الأشرف وأختا صلاح الدين في إقامة للمدارس ، وقامت مدارس المذاهب الفقهية المختلفة : المالكية والحنابلة والشافعية والحنفية ومدارس للحديث ومدارس للقرآن ومدارس للطب . وكانت هناك خزائن السكتب المتعددة . وقد تعددت آثار الباحثين خلال هذه الفترة في مجالات الحديث والفقه والقراءات والتعبير وأصول الدين والنحو والقروض والقوافي واللغة والبلاغة والنقد الأدبي والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلوم الرياضة والكيمياء والملك والموسيقى والطب والسياسة واللغات الأجنبية وبرز أعلام متعددون في مقدمتهم : الشاطبي ، السخاوي ، القرطبي ، محبي الدين النووي . ويجمع الباحثون المنفقون على أن الحياة الفكرية في مرحلة الغزو الخارجي قد نشطت نشاطاً كبيراً وأن ظاهرة « الموسوعات » علامة صادقة على حركة التحدي ورد الفعل في مواجهة الغزو الخارجي : الصليبي والتتري في القضاء على الثقافة الإسلامية . وقد ظهرت في هذه المرحلة موسوعات : نهاية



الارب : لنويرى . صبح الأهلى : للقلقشندى ، ووضع كثير من معجمات اللغة والتاريخ ومطولات السير والأخبار ، وقد ظلت اللغة العربية هى لغة العلم والسياسة ، وقد اصطنعها السلاجقة والمماليك والبربر بوصفها لغة القرآن الكريم وكان لفاطميين والأمويين من قبل دور واضح فى رهاية الآداب والعلوم والفنون فى مصر والشام بعد أن تحولت الحركة الأدبية والعلمية إليها بعد سقوط بغداد .

(٣)

### الفكر الإسلامى يقاوم محديات الغزو

مراجعة مرحلة الغزو الخارجى ( من وصول الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ إلى نهاية الحملات الصليبية ٦٩٠ هـ ) نستطيع أن نسجل ظاهرة بعيدة الأثر فى حركة التاريخ الإسلامى ، هذه الظاهرة أن مقاومة حملات الفرنجة فى المغرب والصليبيين فى المشرق والتتار فى خلال هذه المرحلة وهى حملات متوالية لم تتوقف ، بل كانت دائماً فى اضطراب وتدقيق ، هذه المقاومة لم توقف العمل فى مجال الثقافة والفكر الإسلامى ، بل يمكن القول بأن ثمار مرحلة الانهيار والبلورة قد تحققت فى هذه المرحلة ، يظهر ذلك بوضوح فى مراجعة سريعة للأعلام الذين ظهوروا فى هذه الفترة ، وهم من المع شخصيات الفكر الإسلامى فى مختلف فنونة . الفقه والفلسفة والعلوم والدعوة والتصوف والحكم ، الغزالي وعبد القادر الجيلانى وفخر الدين الزازى ومحمد بن تومرت وابن رشد ويوسف بن عبد المؤمن وأبو فرج الجوزى وعز الدين عبد السلام ونصر الدين الطوسى وتقى الدين ابن تيمية وعجى الدين النووى ، وابن دقيق العيد ، وعجى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى . وقد اتسم بمجال عملهم الفكرى شأن الفكر الإسلامى فى مختلف تطوراتهِ ومراحله ، اتسم بمقاومة الغزو الخارجى ، وتوجيه مفاهيم الإسلام إلى العمل فى هذا المجال ، وأبرز ما توصف به آثار هؤلاء العلماء وكتاباتهم أنها كانت تهدف إلى القضاء على الدعوات والنزعات والمذاهب المنحرفة التى كانت من هوامل التخاذل ، ومن الأدوات التى ستنفذ الغزاة لتفرقة جماعة المسلمين أو بث ووح التراخى والترف والهزيمة ، وكانت هذه الآثار من ناحية أخرى تحاول أن تصوغ إيدولوجية الإسلام على نحو جديد ، جامع موحد شامل ، يمزج بين الدعوات المتفرقة ويردها إلى أصلها ويقرب بين دعائهما فى وحدة ، حتى لا تكون هذه الفرة بين الصوفية والمتكلمين ، أو بين الفقهاء والفلاسفة هاملاً من هوامل التفرق فى كيان المجتمع الإسلامى ، وكان هناك أيضاً الإحساس بالخطر من تدمير مقومات الفكر الإسلامى . ومن هنا كانت خطورة ذلك العمل الذى وصف بالتصنيف والموسوعات ، وقد لعب العلماء والفقهاء والمسلمين دوراً كبيراً فى مجال المقاومة للغزو الصليبي والتترى ، كان إيمانهم بأن مقاومة هذا

الغزو يتطلب تحرير الاسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحرير القيادة السياسية والعسكرية من الظلم والظفیان . ومن هنا كانت مواقف ابن تيمية والغز بن عبد السلام وابن دقيق العيد في مواجهة الأمراء . كانوا يوصون السلاطين بالعدالة في جميع الضرائب والمكوس ، ويطالبون إليهم أن يقدموا مالدیهم ولدی ممالیکهم أولاً من حياصات الذهب والخلی ، فإذا انفقوا هذا في الجهاد أفتی لهم الفقهاء بأخذ مزيد من مال الرعية وقد عرفوا جميعاً عن المناصب المرموقة واستعملوا على عطایا السلاطين وحين استجاب مثل ابن دقيق العيد تلميذ المزين عبد السلام إلى قبول منصب قاضی القضاة اشترط بأن لا يرد حكمة وأذاع منشوراً عاماً يدعو الجميع إلى التزام نصوص الشرع وأطراح ما يؤثر في تنفيذها من الوساطات والمحسوبیات وشدد التنكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكم . ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصيح بل شاركوا بسيوفهم في الجهاد ، شارك ابن تيمية في مقاتلة التتار . واشترك الغز بن عبد السلام في مدافعة الصليبيين في غزو دمياط ، وأشعلوا الحماسة في الصدور ، وكان ابن تيمية يوقد الحماسة في الصفوف المقاتلة ، ويقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد . وكان « ابن تيمية » يرى أن مهاجمة الجلود والتقليد الفكري وتحرير الإسلام من الشبهات والبدع حاملاً من عوامل النصر في معركة الغزو الخارجي ، هاجم أصحاب الدعوات للتحرف عن مفهوم الإسلام وفي شموله وتكامله ، وهاجم أنصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول : وناصر عقيدة التوحيد ونازل خصومه بالرأى والحجة وعقد مجالس للناظرة ، واحتمل في تبيل ذلك مؤامرات خصومه وتقبل السجن والاضطهاد في تصميم وإيمان ودما إلى إحياء روح الجهاد في المسلمين وفتح باب الاجتهاد في الفروع وإصلاح التصوف . وكتب الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس بوجهه في أمور المسلمين وهاجم المبتدعة والباطنية . وقد قام الغز بن عبد السلام بدور ضخم في الإصلاح الاجتماعي حيث أنكر بيع الخمر واصطفاة الجند وتقبيلهم الأرض بين يدي السلطان ورابط في مواجهة الحملة الصليبية السابعة للمسلمين في المنصورة بحمصهم ويحثهم على مقاتلة الصليبيين . وقد هدى قادة المسلمين : نور الدين محمود وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، بفتح مدارس الحديث كما حرصوا على وحدة العلماء والمسلمين ، فقد أجرى صلاح الدين حتماً للخلافت بين العلماء من أجل استئصال الخطر الصليبي ، وكان العلماء موضع شوري القادة ، كان الملك العادل أخى صلاح الدين يستشير الشيخ هيد الرحيم البيهاسي ( القاضي الفاضل ) في شؤون الجند والأسطول ونقل المؤن إلى ميادين القتال ، كما قدم مصر والشام خلال مرحلة تصفية الأندلس عدد كبير من العلماء حيث لم يتوقف البحث العلمي المصرف ، فقل وصل إليها عالم النبات : أبو العباس

بن الرومية من المغرب ٨٦١٣ والطبيب مذهب الدين هيد الرحيم الداخوار الطيب والأديب وألف بها مقالة عن الأهدية واشتغل بعلم الفلك واقتنى الآلات الفلكية وكانت لديه ست عشر رسالة في في الاسطرلاب . وكان بها : العلامة السكال شديد بن القاسم مدير البهارستان الناصري وأخوة رشيد الدين أبو خليفة من علماء الرياضيات والموسيقى والطب والأدب . كما اجتذبت القاهرة العالم الرياضي علم الدين قيصر تلميذ كمال الدين موسى بن يونس ، والنبأى البارغ صفاء الدين عمر ( ابن البيطار ) الذى عرف بسياحاته وأسفاره لدراسة خواص النبات فى اليونان وآسيا الصغرى ، كما شيد السلطان السكال دار الحديث السكلمية وشجع على التأليف فى التاريخ والسياسة . وألف فى « فن الدبلوماسية » تاج الدين بن حمويه كتابه عن السياسة الملوكية وألف على ابن يوسف كثيراً من كتب التاريخ . ومن لمعوا فى هذه المرحلة جمال الدين الحاجب فى النحو والصرف وزكى الدين عبد العظيم فى الحديث والطبيب أبو سعيد بن أبي سليمان الذى ألف عيون الطب والعشاب ابن البيطار مؤلف الجامع فى الأدوية . ومن أبرز ملامح هذه المرحلة أدب المقاومة المتمثل فى شعر الشعراء والخطب الحماسية والكتابة عن الجهاد والفروسية وتفسير آيات الجهاد وأحاديثه وإعادة كتابة مواقف البطولة فى التاريخ الإسلامى ، فقد أشاد الشعراء بالأبطال والحاربين وكان الشعر من أعظم الأسلحة فى معركة الصليبيين . كما لعب الفقهاء فى الأندلس دوراً هاماً فى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الغربى ولاسيما بعد سقوط طليطلة ، ومن أوائل الداعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصرته الإسلام وتوحيد الصفوف ( الدكتور حسن محمود ) .

## ( ٤ )

### الفكر لا الادب هو أداة المقاومة

حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يصفوا الفترة من ٨٥٦ بعد سقوط بغداد إلى ٨١٣ — ١٧٩٨م وهو تاريخ قدوم نابليون إلى الشرق بأنها فترة انحطاط . والحق أن هذه القرون الستة لا يمكن أن تدرس على أنها مرحلة واحدة ، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد . فضلاً عن أن علامات اليقظة فى عالم الإسلام سبقت قدوم نابليون بوقت طويل وقد انبعثت من الأعماق ولم تكن بفعل مؤثر خارجي . وأعتقد أن هذا الحكم بما قصده القائلون به قاطعاً مميّز هو « الأدب العربى » ثم انسحب على الفكر الإسلامى كله ذلك أن الدلائل المؤكدة تثبت أن الفكر الإسلامى قد واجه

مرحلة ضخمة من مراحل التحدى خلال فترة الغزو الخارجى وأنه استجاب استجابة واضحة فكان على مستوى المعركة ، وقد استمر هذا الفكر قوياً إلى مرحلة « عصر الوعدة الاسلامية للعثمانية » وأن فترة ضعفه لم تزيد من مائة عام قبل ظهور دعوة التوحيد على لسان الإمام محمد بن عبد الوهاب .

والواقع أيضاً أن الأدب ليس هو الفكر العربى الإسلامى فى هذه المرحلة ولكنه قطاع واحد منه ، ولم يكن سقوط بغداد فى الحق هو أول مرحلة الغزو ولكنه وسطها ، إذ بدأت هذه المرحلة بالغزو الصليبي وليس سقوط بغداد إلا حادثاً جزئياً ، ربما أحدث أثره فى الآداب نتيجة للهزة العاطفية التى أصابت للمسلمين بعد سقط مقر القيادة السياسية الاسلامية ، أما أثره الفكرى فلم يكن عميق الغور إذ أن مراكز الثقافة لم تليث أن انتقلت إلى الشام وعصر وللمغرب . ويمكن القول بأن « عصر الغزو والمقاومة » كان امتداداً طبيعياً « لعصر التبلور والانصهار » لعالم الإسلام فكراً ومجتمعاً ، بل أن ثمرات الفكر الإسلامى والعلوم والفلسفات كلها قد تفتحت فى عصر المقاومة ، ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف ، ولا نقول انحطاطاً ، قد جاء نتيجة مالملاحظ من توقف حملات الصراع بين المذاهب والدعوات التى اتسم بها « عصر التبلور والانصهار » ، بيد أن هذا التوقف فى معارك السجال إنما هو ظاهرة طبيعية لهذه المرحلة وليس علامة وجود فإن المذاهب التى نشأت نتيجة اختلاف مقاليم المعتزلة والسنة ودعاة الكلام والفلاسفة والتصوف كانت قد تقاربت بعد أن زال الصراع السياسى الذى كان يحمل لواءها ويستخدمها ، وبعد أن دخلت إلى الاسلام موجات ضخمة من السلاجقة والبربر والماليك وهناصر مختلفة من الأجناس والأمم وبعد أن غلبت الثقافة السنية على لواءها الأتراك فى عناصرهم المختلفة : سلاجقة وأتابكة وأيوبيين وعثمانيين من بعد وكانوا بالإضافة إلى الماليك والبربر ( المرابطون والموحدون ) جميعاً من أنصار الثقافة السنية ، بينما كانت الثقافة التى تحمل طابع أهل البيت وهى أساساً لا تختلف مع مذهب السنة والجماعة إلا فى الفروع قد انحسرت فى منطقة فارس وما بعدها وتمثلت فى الفرس والتمتار . ومن أبرز ما تنقسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجى للعالم الإسلامى ( الصليبيون فى المشرق والفرنجية فى المغرب ) هو خلية طابع التصوف على الجماعات الاسلامية وتغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع الإسلامى وتأثيرها على مفاهيم الثقافة السنية والربط بينها وبين مفاهيم الثقافة الشيعية فى الالتقاء على حب النبى وآل البيت ، مما قرب هذه المرحلة بين أهل الفقه وأهل التصوف وبين السنة والشيعية جميعاً . وقد كان لسمو التصوف الظاهرة الواضحة فى هذه المرحلة أثرها البعيد المدى فى معركة المقاومة للغزو الأجنبي فقد كانت من

هو امل القوة المدافعة لمجموعات ضخمة من الشباب بالفتوة والمراقبة في سبيل الله والانصراف إلى الجهاد والمقاومة والاعتصام بالشعور، والأنضواء تحت لواء القسوات الاسلاميه المتدفقة بقيادة عماد الدين زكي ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وغيرهم من زعماء مقاومة العزو والخرجي لعالم الإسلام . وفي هذه المرحلة كانت المعاهد الاسلامية القائمة في أنحاء العالم الاسلامي هي العامل الأكبر الذي حافظ على اللغة العربية والفكر الإسلامي، الأزهر في مصر، والقرويين في فارس، والزيتونة بتونس، والأعظم بالقبروان والأموي بدمشق، ومعاهد التحف وكر بلاء وسامرا، وكلها استطاعت أن تحتضن الفكر الاسلامي واللغة العربية في هذه المرحلة الدقيقة وتزدود عنها عادية العزو، وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والكتاتيب، وإلى الجامعات قائمة بدورها التاريخي خلال فترة اجتياح المغول والصليبيين والفرجة لعالم الاسلام . وكان دور المرأة في مجال العلم خلال هذه الفترة مضطرب النماء فقد ظهرت أسماء لها شهرتها في هذه المرحلة من المسلمات المتفقيات، كن يملن ويتحدثن في مجالس القاهرة ودمشق كما رافق حكم المماليك في مصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات وللمؤسسات الخيرية فضلا عن التأليف والأبحاث الدينية واللعوية وظلت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة.

وكان للأزهر دوره الضخم في هذه المرحلة، فقد أطلق صلاح الدين الأيوبي ٥٦٧-١١٧١م للأزهر رسالته في مجال الثقافة الإسلامية السنية، ومنذ عصر صلاح الدين أصبح الأزهر جامعة الفكر الاسلامي ومهداً للإسلام واللغة العربية، فلما جاء الظاهر بيبرس جدد شباب الأزهر، حيث هادت صلاة الجمعة . وكانت للأزهر في مرحلة العزو والمقاومة مدارس فرعية متخصصة تدرسه بالطلاب . وكانت إقامة هذه المدارس قد بدأت في عصر الدولة الأيوبية، وقد أقامها نور الدين محمود في الشام (دمشق وحلب) وفي مصر قامت مدارس مختلفة لدراسة الفقه الشافعي والمالكي والحنفلي والحنبل، وفي المدرسة الناصرية تولى شأن الدراسة ابن خلدون . وقصد الأزهر علماء كثيرون من مختلف أنحاء عالم الاسلام، في هذه الفترة منهم عبد اللطيف البغدادي (٥٨٩) وقد تولى التدريس بضعة أعوام فيه، وكان موسى بن ميمون يلقي فيه دروساً في الرياضة واللك والطب، وكان شرف الدين بن الفارض يعتقد به حلقاته الصوفية والروحية، وكذلك شهاب الدين السهروردي، وشمس الدين بن خلدكان صاحب وفيات الأعيان . وكان الأزهر في هذه المرحلة يضم أعداداً ضخمة، وكان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب، تدرس فيه سائر العلوم الدينية واللعوية، ويقوم على تثقيف العدد الكبير من الطلاب

هدد كبير من الأساتذة يقصدونه من كل بقاع عالم الإسلام ويقطن في أورقته منهم عدد كبير ، بلغ في أواخر القرن الثامن الهجري سبعمائة وخمسين طالباً ( المقرئى ) .

ومن علماء الأزهر في القرن الثامن الهجري : شمس الدين الأصمباني ( أعلام الدنيا في اللقومات ) وشرف الدين الزواوى للمالكي وكان بمصر من الأندلس العلامة : محمد بن يوسف ابن جنان النفري . والعلامة الحافظ بن حجر العسقلاني وتقى الدين للمقرئى تلميذ ابن خلدون ، والحق أن الأزهر منذ الغزو للغولى والقضاء على الحضارة الأندلسية أصبح أكبر معهد في عالم الإسلام كله ، وميزته أنه يتوسط هذا العالم وأنه قريب من الحجاز وله صبغته العربية المحضة ( د . فولرز ) ، والواقع أن هذه فترة ناضلت فيها الثقافة الإسلامية وأن ضعف الأدب ، كانت عوامل اليقظة والقوة واضحة في مجال التاريخ والقصة والنصوص . وفي تأليف للموسوعات وكان ذلك تمهيداً للضعف السياسى ، وكان مجال العلم التجريبي والفلسفة قد اتسع أفقه في الأندلس ، بينما هرفت الشام ومصر بالتقدم في مجال الفقه والنصوص . ولعل من أهم الظواهر في هذه المرحلة « ظهور الثقافة العربية » ، مقام الأدب العربى الذى لم يكن في كل هذه المراحل مثلاً للذكر الإسلامى ، وقد كفى طابع التكامل والوسطية التى اتسمت به الأبحاث في هذه الفترة أكثر إصالة من ذلك التمزق الذى حفلت به الفترات الماضية حين كان الأدباء والشعراء يذهبون إلى أبعد مدى في خدمة الأمراء وإذلال النظم لهم ، وقولهم غير الحق ، وإسرافهم في المدح والهجاء ، والمجون والإباحة والخمرات على نحو بلغ انحرافاً عن مفهوم الإسلام حدّاً كبيراً . أما « الثقافة العربية » في مرحلة الغزو الخارجى فقد كانت تفررت من خلافت المذاهب وماركها ، كما تفررت من أهواء الشعراء والنظاميين الواقفين على أعتاب الأمراء ، ومن ثم كان العلماء وهم القادة في هذه الحالة أشد الناس هزواً عن عطايا الحكم أو قبول مناصبهم ، تحرراً لفكرهم واستعلاء على قبول الظلم أو كتمان كلمة الحق ، وكان للثقافة الإسلامية في هذه المرحلة أثرها الواضح في التخلص من المحسنات البلاغية ومع جمع الفنون المختلفة والمزج بينها ، وكان التأليف الموسوعى الجاهى المنوع في هذه المرحلة يهدف إلى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة ، وكان ذلك في واقع الأمر يمثل أكبر رد فعل للغزو الصليبي والفرنجى والغولى ومادمر من مكتبات وآثار وقضى على معاهد وجامعات ، فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة ، استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الإسلامى وحفظها وتنسيقها في موسوعات ما تزال حتى الآن من الأعمال التى قامت عليها النهضة الحديثة في مجال التراجم والفقه واللغة . أما توقف الاجتهاد وغلبة التقل والتقليد فيرجع ذلك إلى طابع العصر نفسه ، فإن عصور

المقاومة والجهاد لا تنجح فرصة العمل العقلي المنظم الذي يحقق الابداع والاجتهاد ابداعاً واجتهاداً يتصل بمصور البناء ونمو الحضارات وازهار السلام كما يقوم في كنف الوحدات النامية المزدهرة ومن خلال تطور الحياة الاجتماعية ونموها بالنفاهل والتعامل .

أما في عصر المقاومة فن الحق أن ينصرف الفكر الإسلامي كله إلى شحذ أسلحة المواجهة والجهاد وإهادة صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الغزو المتصل مقوماته الأساسية. وآية ذلك أن النشاط العقلي للمسلمين لم يتوقف وإن ضعف فيه الابتكار الذي هو ثمرة حياة الادة والسلام، وبرزت ظاهرة تأليف الموسوعات التي تعد من أعمال مراحل التحدي والمقاومة ، ويمكن القول بأن هذه الفترة ليست فترة موت ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر في مجال حيطة وحماية وتجديد الفكر الإسلامي وتنسيقه على نحو جديد . وقد تنوعت الثقافة في هذه المرحلة : بين أبحاث التاريخ والجغرافيا والأدب والكلام واللغة والعروض والحديث والتفسير والفلك والموسيقى والسياسة والفلسفة والرياضة ( أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في مصر والشام في عصر الحروب الصليبية ) ويرجع ذلك إلى انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وخرائن الكتب ، وقد وصف حكاهم هذا العصر بأنهم كانوا مثقفين ثقافة ممتازة وقد أحاطوا أنفسهم بطبقة ممتازة من المثقفين، وآية ذلك مجالس نور الدين محمود صلاح الدين الحاقلة بأهل العلم ، فضلاً عن بناء المدارس .

وقد مضى المالك في نفس طريق الأيوبيين ، فكان الظاهر بيبرس يقرب التابئين في كل علم وفن ، ويقول أن سماع التاريخ أعظم من التجارب وكذلك فعل فلاوون ، وظلت المساجد خلال هذه الفترة بمحلقات العلم وكذلك الزوايا والمدارس .

وأبرزت هذه المرحلة عديداً من الأعلام :

( ٧١١ - ٦٣٠ ) ابن منظور :	{ القزويني : ( ٦٠٥ - ٦٨٢ )	مرحلة الغزو
( ٨٥١ - ٦٩١ ) ابن قيم الجوزية :	{ ابن نباته : ( ٦٨٦ - ٧٦٨ )	
( ٨٢١ - ٧٥٦ ) الفلقشندي :	{ ابن بطوطة : ( ٧٧٩ - ٧٠٣ )	مرحلة الوحدة العربية الإسلامية
( ٨٠٨ - ٧٢٣ ) لسان الدين الخطيب :	{ المقرئزي : ( ٧٦٦ - ٨٤٥ )	
ابن خلدون : ( ٧٣٢ - ٨٠٨ )		

(٢٧)

### مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية

« بعد أن أدت القوى الثلاث البدوية الشابية : « السلاجقة والماليك والبربر » دورها في مواجهة قوى الغزو الصليبي والفرنجة والتتار لم يلبث أن انبثقت مرحلة الغزو الخارجي ومقاومة عالم الإسلام له عن : مرحلة قوة ووحدة ، أما القوة العسكرية الضخمة فقد تمثلت في ظهور ( الدولة العثمانية ) التي استطاعت أن تقيم وحدة عربية عثمانية فتضم إلى الأناضول وآسيا الصغرى والبلقان أكبر قوة في الإسلام هي « الأمة العربية من الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب » .

أما الوحدة فقد تمثلت في قيام ثلاث دول كبرى في عالم الإسلام : الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس والدولة المغولية في الهند ، وكانت الدولة العثمانية ضامة إليها ( الأمة العربية ) هي كبرى الوحدات جغرافياً ، وقد حملت هذه الدول الثلاث لواء الإسلام وامتد بها الزمن حتى واجهت مرحلة الاستعمار الغربي التي جاءت في أعقاب اليقظة العربية الإسلامية .

مر الإسلام خلال قرنين كاملين ( من الحملة الصليبية الأولى إلى القدس حتى ظهور الدولة العثمانية ) ، بأدق مرحلة في تاريخه كله ، مرحلة الأزمة الكبرى ، في محاولة ضخمة من القوى الخارجية على عالمه للقضاء عليه واكتساحه ، وقد تدفقت عمليات الغزو من أطراف الثلاث : من الشمال عن طريق بيزنطة بالحمالات الصليبية ومن الشرق : بالغزو التنقري المغولي ومن المغرب : عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والأسبان ، وكان الغرب وأوروبا هو الذي يقذف الإسلام بالقوى الغازية من القلب إلى الجناحين عن طريق آسيا الصغرى وعن طريق حدود فرنسا التي ألبت التتار المغول وتأمر معهم على ضرب جناح المشرق ، غير أن عالم الإسلام لم يقف صامتاً إزاء هذا الغزو ، بل واجهه بالمقاومة والوحدة والقتال واستطاع أن يدبل من القوى الصليبية الضاربة وأن يمزقها وأن يردّها على أدبارها مهزومة وأن يصهر القوى التنقريّة المغولية في بوتقته فيحوّلها إلى الإسلام فتصبح قوة ضخمة من قواه الفاعلة . أما في المغرب فقد قاومت الأندلس ولم تستسلم ، .. هنالك كان لابد لتاريخ الإسلام أن يستقبل موجة جديدة من موجات القوة ، وقد تمثلت هذه القوة في الدولة للعثمانية الجديدة الشابية التي حملت رايات الإسلام من جديد بعد أن ضعف السلاجقة والماليك والبربر ، وأدوا دورهم في المقاومة .



كان هدف حملات الغزو هو : « القضاء على الاسلام » وقد ألحقت هذه الحملات خلال قرنين كاملين على عالم الإسلام وردت منهزمة مدحورة ، ونجا الإسلام ، غير أنه كان ضعيفا منهكا بالجراح وكان عرضة لحملات جديدة ، قد بدأت فعلا بالحصار الاقتصادي الذي ضربته أوروبا على البحر الأبيض مع اندفاع القوى الأسبانية والبرتغالية في محاولة صليبية جديدة ، هي تطويق عالم الإسلام من خارجة والسيطرة على نفس النفور والموانئ المغربية التي قاومتها ودحرتها ، هنالك استطاع الإسلام أن يبرز قوة جديدة من قواه المذخورة ، هي قوة الأتراك العثمانيين الذين اندفعوا من أطراف آسيا ، هاربين من وجه الغزو التنرى ، والذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ودخلوا في حظيرته كقوة جديدة شابة يدوية عسكرية ، هذه القوة الجديدة التي استطاعت أن تقوم بدور كبير هجرت عنه قوى السلاجقة والمماليك والبربر ، وهي القوات الثلاث الشابة البدوية المحاربة التي سبقتها والتي واجهت مرحلة الغزو التنرى الصليبي الفرنجي ومن ثم بدأ « عصر الوحدة الإسلامية العثمانية » ١٢٩٩ ( ١٣٩٩ م ) واستمرت هذه الوحدة قوية قادرة أربعة قرون ونصف القرن ، ثم ضمعت من بعد ، ولكنها ظلت تسيطر سياسيا حتى مزقتها الغزو الاستعماري الغربي عام ١٢٣٧ — ١٩١٨ أى أنها عاشت مهيمنة مؤثرة أكثر من ( ٦٤٨ عاما ) ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة : مرحلة قوى الوحدة الثلاث ، فقد قامت فيه الدول الكبرى الثلاث : ( العثمانية ) التي ضمت العالم العربي وتركيا وأجزاء من أوروبا ، و ( الصفوية ) في فارس و ( المغوية ) في الهند . ومن قلب هذه الموجة برزت الموجة الجديدة : « موجة اليقظة العربية » كقوة ذات فعالية في تجديد الإسلام ونموه ، ويمكن القول بأن عصر الوحدة الإسلامية العثمانية قد أمضى القرن الثامن والتاسع وللعاشرة في مكان القوة والصدارة . وهو دور التوسع والتوغل في أوروبا ، هذه المرحلة التي كانت في حد ذاتها رد فعل الحروب الصليبية ، التي ظلت تسيطر على الشاطئ الشرقي خلال قرنين ، حيث استطاعت الدولة العثمانية الإسلامية أن تسيطر على قلب أوروبا وأن ترفع رايات الإسلام فيها على البلقان والصرب وتصل إلى أسوار فيينا ثلاث مرات ، وفي القرن الحادي عشر ( ١٠٠١ — ١١٠٠ ) بدأت الدولة العثمانية تنقل إلى مكان الدفاع بدلا من الهجوم ، وأخذت تفقد نفوذها حثيثا وترفع يدها عن هذه الأجزاء التي سيطرت عليها في أوروبا ، في هذه المرحلة بالذات كانت أجزاء كثيرة من العالم العربي قد بدأت تستقل حيث أخذت قيادات جديدة عربية تسيطر ، غير أن البعث العربي الاسلامي كقوة روحية وفكرية قد بدأت فعلا في منتصف القرن الثاني عشر ، وحوالي ١١٥٣ — ١٧٤٠ يظهر دعوة التوحيد كقوة سياسية وروحية عربية ، تنبعث من قلب الجزيرة العربية ، مجددة دعوة ابن تيمية ، وداعية في نفس

الموت إلى ابتعاث القوة العربية كقوة جديدة شابة تلعب دورها على مسرح الأحداث في عالم الاسلام . في هذه المرحلة ( ٧٠٠ — ١١٥٣ ) هـ ( ١٣٩٩ — ١٧٤٠ ) م سقطت الأندلس في أيدي الفرنجة والاسبانيين وارتفع عنها لواء الاسلام الذي عاد إلى حدود إفريقيا ، حين أصرت أوروبا على أن تتحرر من الاسلام والمسلمين والعرب جميعا ومن ثم أجلت هذه المناسبات ، وحررت أوروبا تحريراً كاملاً من حكم الاسلام وأهلها غير أنها لم تكن قادرة على أن تحرر أوروبا من أثر الاسلام الفكري والعلمي والثقافي إذا كانت قد استوعبت حضارة الاسلام والعرب وراثتها وعلموها وفلسفاتها ، واعتصرت هذه القوة الفكرية الحية وترجمتها إلى لغاتها ومضت بها في قوة فطورتها وامتدتها بالقوة والحياة في مجال الكشف والرحلة والملاحة والصناعة والعلوم ، وإذا كانت أوروبا قد بلغت غاية التعصب حين أخذت فكر الاسلام وعلمه وفلسفاته ، ثم حملت أهلها بأقصى صنوف الاضطهاد والعنت ، فإن الاسلام بسماحته قد استطاع حين أقام في أرض أوروبا بالأندلس ثمانية عاَم أن يعطي الإنسانية علومه وحرياته ورسالته الحية التي لا تموت ، أبلغها إلى أرض الأندلس وأقرها في جامعاتها ومكاتبها وأوقد لمبها في نفوس علماءها ، حتى استطاعت أن توفد جذوة اليقظة والضيء في قلب أوروبا ، ليمضي مشغل الإنسانية مرفوعا حين تخلف المسلمون والعرب عن حمل لوائه . وإذا كان الاسلام قد طوى امتداده في أوروبا عند الأندلس من الغرب ، فإنه قد استطاع أن يحقق نصراً بالغ الأثر والقوة ، هو إمتداده إلى أوروبا من خلال البلقان من الشرق ثم وضع يده على « القسطنطينية » عاصمة الدولة البيزنطية وتحقيق له في هذه المرحلة لاسلام القبيلة الذهبية في روسيا والباكتان ، فضلاً عن توسع الاسلام بقوته القارية في أفريقيا الوسطى ، حيث دخلت الصومال في الاسلام وظل التوسع سائراً ، وظلت الدولة العثمانية تزداد باسم الاسلام قوة ونفوذاً في مجال الحضارة والتوسع ، وهي تنقسم أساساً بالسمة العسكرية ، حيث قضت أهوامها في ميدان الجهاد مؤمنة به كأساس من أسس الاسلام ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة النصر ، هذا النصر الذي تجمعت أوروبا في وجهه ، وهقدت العناصر على هزيمته وعجزت عن ذلك ، كما عجز عنه تيمورلنك الذي هاجم أنقرة في القرن التاسع ، وهدم قصر الأمبراطورية في الأناضول ، غير أن العثمانيين مالبنوا بعد قليل أن أفاقوا ، وقد أهادوا كيانهم قويا ، وحققوا بعد قليل أعظم نصر هز أوروبا كلها وهو السيطرة على القسطنطينية ، ومن خلال الصراع بين الاسلام ممثلاً في الدولة العثمانية من ناحية والغرب من ناحية أخرى ، كانت طلائع الاستعمار التي تحمل لواء تطويق عالم الاسلام مندفعة من أسبانيا والبرتغال في طريقها حيث استطاع فاسكودي جاما كشف طريق رأس الرجاء الصالح — ١٤٩٨ وإقامة محطات

على طول الساحل الشرقى لأفريقيا كمرحلة من خطة الضغط الاقتصادى على عالم الاسلام وحرمانه من من قوافل التجارة التى كانت تمر فى أعماقه . وتنفيذاً لخطة الدوران حول أفريقيا دون المرور بأرض الاسلام لفرض العزلة على العالم الاسلامى تمت القوة الاسلامية العثمانية الجديدة بين القرن السابع والقرن العاشر ( ٧٠٠ — ١١٥٣ ) فقد اندفع العثمانيون بعد أن استولوا على آسيا الصغرى وأزالوا الدولة الرومانية الشرقية إلى شبه جزيرة البلقان ، الصرب ، بلغاريا ، اليونان ، اليوسنة ، الهرسك ، أزوف ، القرم ، الجبر ، ترانسلفانيا سيطروا على هذه الأجزاء من أوروبا فى الفترة ما بين ١٣٩٩ — ١٥٤٧ ، ١٥٤٧ — ١٥٨٠ .

وحين دخل العالم العربى فى قلب هذه الوحدة الإسلامية العثمانية ، امتدت الدولة العثمانية من الدانوب إلى الخليج الفارسى إلى المغرب الأقصى وقد قامت فى هذه المنطقة وحدة سياسية إسلامية الطابع ، على أنقاض المنفكك الذى واجهه عالم الإسلام بعد ضعف قوى المماليك التى استنفدت فى الصليبيين والتتار . وفى ظل هذه الوحدة بدأت مرحلة استقرار فى عالم الإسلام ، فقد كان قيام هذه الوحدة انقذاً لهذه الوحدات من عالم الإسلام [من آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق] من سيطرة قوات المغول ، أو الحملات الصليبية التى كانت توشك على التحرك قبل ظهور القوة العثمانية الإسلامية كما أوقفت هذه الوحدة النفوذ البرتغالى من التوغل فى البحر الأبيض المتوسط وبذلك استنفذت أدق مناطق عالم الإسلام وأشدها حساسية من الخطر الأوروبى . ولاشك أن الوحدات العربية قد وجدت فى « لواء الإسلام » الذى رفعته الدولة العثمانية قوة جديدة تحمى وترد عنها الغزوات الغربية ، وكان النظام الذى وضعه العثمانيون لحكم هذه الوحدات نظاماً مرناً ، فقد أقرروا النظم القديمة وتركوا الشكل وحدة : الحرية فى تصريف أمورها ، مع ربطها بمحزام السياسة العامة والدفاع والضرائب ، وإن كان هذا النظام الذى كان مقبولاً فى فترة القسوة قد أصبح هاملاً من عوامل الخطر فى فترة الضعف ، ويمكن القول أن القوة العثمانية الجديدة كانت موجة جديدة من موجات الإسلام أمدهته بقوة جديدة ، ردت عنه الغز الخارجى وأقامت « وحدة » استمرت قوية أربعة قرون ونصف قرن ، فقد خلف العثمانيون العرب والفرس والسلاجقة والأتابكة والأمويون والبربر فى رفع راية الإسلام واستطاعوا أن يمتازوا عن القوى الإسلامية التى سبقتهم بأنهم لم يقفوا فى صفوف الدفاع والمقاومة بل أعادوا عصر التوسع الإسلامى الأول بأن اندفعوا فى قلب أوروبا وحققوا انتصارات وضموها أجزاء كبيرة منها إلى عالم الإسلام ، وإن كانوا قد هجروا أن يصيروا أهل هذه الأجزاء أو أن ينشروا فيها دعوة الإسلام . وأن كانت أوروبا قد استطاعت أن تصد الإسلام كقوة أساسية عنها من ناحية الأندلس

وفرنسا حتى نهر اللوار ، ومن ناحية البلقان حتى أسوار فيينا فإنها لم تستطع أن تصد الإسلام كفسكر وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا أن يواجهوا الغرب بالقوة العسكرية منتصرين ثلاثة قرون أخرى فإن هذا كان رد فعل للحملات الصليبية على المشرق وحملات الفرنجة على الأندلس . وكان في نفس الوقت مصدر تلك الخسومة العنيفة التي ظلت أوروبا والتاريخ الغربي يحملها للدولة العثمانية والوحدة الإسلامية ممثلة في هذه الفترة ، لقد استطاعت القوة العثمانية الإسلامية أن تخاف الموجات الإسلامية السابقة على سيادة البحر الأبيض واستطاعت أن تحيل البحر الأسود بحيرة إسلامية . كما بسطت سيادتها على البحر الأحمر وخليج فارس وأثر انتصار أسطولها على أساطيل الدول الأوروبية للتحدة والبابا ، وقد عاشت القوة الإسلامية العثمانية خلال القرون الستة بين صراع القوة والغلبة والنصر ثم في صراع الدفاع والمقاومة . وكانت مرحلة من مراحل الإسلام استعادت فيها قوته ورفع راياته في قلب أوروبا وكند وحدة شعوبه . وكانت فكرة الجهاد من أبرز العوامل التي دفعت العثمانيين إلى اكتساح الامبراطورية البيزنطية والتوسع في ممالك أوروبا . وإذا كان العثمانيون لم ينشروا دعوة الإسلام على نحو تربوي وعلمي كما فعل المسلمون من قبل ، فإن الإسلام قد اتصل بأوروبا وأثر في أسلوب الفكر والحياة والحضارة ، وأثر في جذور الفكر الأوروبي نفسه ، كما ترك العثمانيون في قلب الأوروبيين هيبة الإسلام وتقديرآ له ، حين استطاعت قوتهم أن ترد قوى أوروبا المتجمعة مرة ومرة وصرات وفي هذه المرحلة لم يكن العثمانيون متعصبين ، ولكنهم كانوا يهابون العناصر المختلفة على أساس أحكام الإسلام وقد ظل شيخ الإسلام مرجعا للسلطة في الأمور الشرعية والمدنية على السواء ، ولاشك كان طابع العثمانيين طابعا حربيا عسكريا ، وبذلك غلبت على حياتهم صورة الحرب والقتال والغزو ، مما قلل من فترات الاستقرار وبناء الحضارة . ولقد أهان على هذه الوحدة الإسلامية تحت لواء العثمانيين ، أن الفكر الإسلامي قد دخل في مرحلة غلب فيه الطابع الصوفي وصيغ بلونه السنة والفقہ والفكر جميعا ، وكان هذا الطابع هو أحد عوامل أسلمت عالم الإسلام إلى مرحلة الضعف التي قصرت فيها عن مقاومة الغزو الغربي من بعده .

## (٢)

كانت مرحلة الغزو الخارجي لعالم الإسلام مرحلة شاقة ، واجهها المسلمون بكل قوام ، وصمدوا لها وقدموا زهرة شبابهم في مجال الجهاد المقدس باسم الدفاع عن راية الإسلام وحماية أرض الإسلام ، وقد امتدت هذه المرحلة إلى قرنين كاملين وانتهت وقد استنفدت كل القوى الحية الشابة ، وخلقت المعركة وراثتها عالما مفككا مضطربا ، من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وقد

انطوت القوات القويات الثلاث : السلاجقة وتوابهم ( الأتابكة والأيوبيون ) والمماليك ، والبربر : ( المرابطون والموحدون ) بعد أن بلغت قمة قواتها وأدت دورها ، وضعت وتحتل بالخصارة والغرف ، ووقف عالم الإسلام والجلالات الصليبية تصفي موقفها من ساحل الشام بترقب قوة جديدة شابة بدوية لها طابع الغروسية والحرب تحت لواء الإسلام تحقق له وحدة تضم أجزائها المتناثرة المضطربة وتدفعه في مجال الحياة دفعة قوية . ولم يكن الغرب بعد أن فرض على بقايا قواته الغازية أن تنسحب من المشرق ، قد جعل ذلك آخر جولاته بالنسبة للصراع الثقلي الذي الدائر المستمر بين عالم الغرب وعالم الإسلام ، بل بدأ مرحلة جديدة قوامها الضغط على المسلمين في أسبانيا لتصفية دولتهم وإخراج آخر مسلم وهربي من أوروبا ، وبدأ في نفس الوقت مرحلة جديدة من مراحل الزحف لتطويق عالم الإسلام . وكانت جبهة المغرب الإسلامي قد ضعف بعد أن انهارت قوى المرابطين والموحدين والمزنيين وحيث كانت جبهة المشرق لا تزال صامدة بالمماليك البحرية وسلاجقة قونية ، لذلك كان ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية جديدة شابة بدوية مقاتلة ، تطورا تاريخيا طبيعيا على النحو الذي تطور إليه تاريخ الإسلام في مراحل المختلفة . وكظاهرة اعتيادية موافقة لنا، وس حركة التاريخ الإسلامي وعلى طريق حتميته إلى غايته الكبرى . وأبرز ما تشله هذه الظاهرة أنها حققت ، مظهرين أساسيين من مظاهر القيم الأساسية للإسلام هما : الوحدة والقوة وإن لم تحقق المظهر الثالث ، وهو ( العدل ) وهو مظهر افتقدناه طويلا على طول حركة التاريخ الإسلامي ، وتنقسم القوة الإسلامية الجديدة بطابع التكامل من حيث أنها لم تكن كالقوى الثلاث التي ظهرت في مرحلة الفزوة الخارجى قوى قادرة على المقاومة والدفاع ورد العدوان فحسب ، ولكنها كانت قادرة أيضا بالإضافة إلى ذلك على التوسع ودفع قواها في قلب أوروبا ، كتعويض عادل للإسلام على مرحلة انتقاص القوة الغربية لأرضه من خلال جداره الشمالى ، وكرد على محاولة إخراجها من أوروبا الغربية . وعلى يد القوة الإسلامية العثمانية عرفت أوروبا — بعد تصفية المملكة اللاتينية الصليبية في ساحل الشام لسبعين عاما — قوة إسلامية جديدة لم تقتصر على إيقاف توسعها في أرض الإسلام ، بل زحفت إلى أوروبا وظلت تهددها بالفزوة حتى حاصرت أسوار فينا ، وكان دور العثمانيين طبيعيا بحكم أنه دور قوة إسلامية استنطاهت أن تنمو بعد أن ضعفت القوى الإسلامية التي توالى : العرب والفرس والفرس والبربر والسلاجقة ، ولقد كانت القوة العثمانية أشد حماسة للإسلام واندفاعا في سبيل نشره .

وكان أبرز ما تنسم به هذه القوة هو الطابع الحربى العسكرى للتنطلع إلى توحيد عالم الإسلام

وتوسيع نطاقه بإضافة أرض جديدة وإبلاغه إلى القارة المستعمية عليه ، القارة التي قاومت منذ وطأ أرض الأندلس ويجمع المؤرخون على أن دور العثمانيين في بناء الاسلام هو دور طبيعي وأنه « بينا كانت الجذوة الإسلامية تضعف في نفوس قيادات الإسلام بتأثير الحضارة ، كانت تلك الشعلة تضطرم في أفئدة الترك وتدفنهم إلى أداء دور العرب في صدر الإسلام والمبادرة إلى تمثله . ويقول ليون كاهن : أن دخول الإسلام لدير الترك قلب حال العالم ، فبعد أن كان الأتراك أهداء للمسلمين وحلفاء صادقين لأوروبا ، انقلبوا هقب اسلامهم إلى خصوم لها ألداء ، وقد كرسو كل قوتهم لخدمة الإسلام ، وأنهم دخلوا إلى الإسلام بعد فترة وبسر شديد ، والواقع أن الأتراك أقبلوا على الاسلام بعد خصومة طويلة له ، فلما اعتنقوه — شأنهم في ذلك شأن البربر — انقلبوا إلى حماة له شديدي التمسك به . ولما بزوا في ميادين الجهاد ، وظهرت بوادر انتصاراتهم في حروبهم ضد الإمبراطورية البيزنطية التي وقفت أمام موجة الاسلام المندفعة إلى أوربا سبعاثة عام ، هناك علق المسلمون عليهم الآمال وأنجسوا بفلوبهم إليهم ، ووجدوا فيهم المتقد والحامي ، وكان هذا هو مصدر النجاح السريع الذي حققه العثمانيون في حركة توحيد عالم الإسلام حيث لم تقف في وجههم إلا قوة الفرس التي أقامت دولة ضخمة هي الدولة الصفوية التي حملت لواء الثقافة الشيعية وأخذتها شعاراً لها في نطاق الاسلام السجح المتقبل للثقافات المختلفة . وكان ظهور القوة العثمانية الموحدة لعالم الاسلام قد برزت بتوقيت متفق مع نوايس حركة التاريخ الاسلامي في طريقه إلى حتميته ، في خلال معركة الأندلس بين المسلمين والعرب من ناحية وبين القوى الأسبانية والفرنجية التي كانت قد أعدت خطة لإجلاء الاسلام عن أوربا . وقد استبسلت القوى العثمانية واجتازت البسفور إلى الضفة الغربية ثم أتيح لها أن تدخل القسطنطينية ١٨٠٧ هـ — ١٤٥٣ م فقضت على الدولة البيزنطية ومضت في طريقها حتى حاصرت أسوار فينا ثلاث مرات وكان فتح القسطنطينية من الأحداث الضخمة القليلة في تاريخ العالم كله ، وفي تقدير أوربا والغرب ، فقد أتاح للقوة الإسلامية العثمانية أن تزحف إلى إرومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر . وبذلك قلبت القوة الاملائية العثمانية ميزان القوى ، بعد أن كان عالم الاسلام في موقف الدفاع وعالم الغرب في موقف الهجوم ، أصبح العكس فقد وقفت أوربا منذ ذلك التاريخ إلى ثلاثة قرون متصلة موقف الدفاع في وجه الهجوم العثماني .

وعندما احتل العثمانيون القسطنطينية ( ١٨٥٧ هـ ) كان ذلك قمة الموقف بالنسبة للغرب فقد بدأت حركة إجلاء المسلمين عن الأندلس ولم يمض أكثر من أربعين عاماً ( ١٨٩٨ هـ ) حتى سقطت

الأندلس وأنطوت صفحة الإسلام بها ، وبالرغم من تجميع القوى الغربية وتوحيدها في وجه الزحف الإسلامي ، فإن القوة العثمانية الإسلامية ظلت قادرة على كسب النصر ، غير أن أوروبا لم تقف موقف المقاومة في وجه القوة الإسلامية العثمانية ، بل عمدت إلى فتح جبهة أخرى من طريق أسبانيا والبرتغال في الكشف الجغرافي لتطويق عالم الإسلام ، والاتجاه نحو أفريقيا الاستوائية والهند وأندونيسيا ، ومنذ ضعفت مقاومة الأندلس كانت فكرة الغزو الأسباني البرتغالي لعالم الإسلام قد خطلت أولى خطواتها ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى بدأ ( فاسكودي جاما ) طوافه حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند ( ١٤٩٨ — ١٤٩٩ ) وذلك لاستقطاب مراكز جديدة لتحقيق إحكام الحصار الاقتصادي لعالم الإسلام بصرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبيض وموانيه الإسلامية ولقد كانت أسبانيا والبرتغال أولى دول الكشف الجغرافي بمعنى الاستعمار كردفعها على السيطرة الإسلامية على الأندلس ، وكقوة دفعتها أوروبا لغزو عالم الإسلام الذي ظل يسيطر على أسبانيا ثمانمائة عام وكواصلة لمخطط متصل لم يتوقف بالقضاء على الإسلام والعرب في الأندلس ، بل بالزحف على أرض الإسلام نفسه والسيطرة عليها ، وقد بدأت فعلا في ذلك الوقت حركة التطويق ، غير أن نمو الدولة العثمانية وصمودها آخر ذلك أكثر من ثلاثة قرون .

( ٣ ) سجل عام ٦٥٦ هـ اجتياح التتار لبغداد واسقاط الخلافة كما سجل ( عام ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م ) نصفي الامارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائياً من ساحل الشام وبيت المقدس ، وسجل عام ٦٩٩ ظهور أول خيط في بناء الدولة العثمانية التي أصبحت من بعد قوة إسلامية ضخمة استمرت تحكم ستة قرون حتى صفاها الاستعمار الغربي بالقضاء على آخر الأجزاء العربية التابعة لها ( ١٣١٦ هـ - ١٩١٨ م ) .

في ظل هذا المواقف الحاسمة الثلاث التي سجلها القرن السابع الهجري قبيل نهايته شهدت هذه الفترة رد فعل شديد ، في عالم الغرب ، يتمثل فيما قامت به أوروبا والبابوية من الدعوة إلى تحريم الاتجار مع دولة المماليك بقصد حرمانها من الموارد الاقتصادية الرئيسية لها ، وقد تمخض اتجاه الحصار الاقتصادي عن حملة ملك قبرص لاحتلال الإسكندرية ٧٦٧ هـ - ١٣٦٥ م ثم انسحاب الحملة ، وقد تطور الاتجاه خلال القرن التاسع الهجري إلى مشروعات تخريب اللوائى للمصرية لشل الحركة التجارية ، وانتشار الفرسان على السواحل المصرية والشامية للترص بسفن التجارة الإسلامية ، وقد واجه المماليك ذلك بغزوات انتقامية على أوكار القراصنة ورووس . هذه هي الحملات الصليبية الجديدة التي كانت تتمثل في مواجهة عالم الإسلام قبيل بروز قوة الدولة العثمانية وتوحيدها العالم

الاسلامى تحت جناحها ( ماعدا فارس والهند ) لذلك فإننا حين نقول أن عالم الإسلام لم يلبث أن اندمج في الوحدة الاسلامية العثمانية بمحض إرادته وأن عملية السيطرة العثمانية على العالم العربى لم تكن فتحاً بالمعنى الذى تصوره الكتابات الغربية التى تحمل الحقد على الدولة العثمانية القادرة التى هاجمت عالم المغرب وأوقفت تقدمه وغزوه لعالم الاسلام . فقد كان عالم الإسلام في الساحل الأفريقى كله من الشام إلى المغرب يواجه غزواً جديداً في نفس الوقت الذى برزت فيه القوة العثمانية داهية إلى الوحدة الاسلامية الكبرى ، ولذلك فإن الالتقاء القوي العربية التركية إذذاك كانت رداً على التحدى الغربى المتمثل في جولة جديدة لغزو عالم الإسلام ، ومن هنا فإن اندفاعات العثمانيين للسيطرة على أوروبا كانت تواجه من عالم الاسلام كله بالاعجاب والتقدير والتأييد وأن حركة الجهاد المقدس التى حملت الدولة العثمانية لوائها في دفع رايات الإسلام إلى أبعد مدى في قلب أوروبا أدت إلى إذكاء روح الوحدة والتضامن بين المسلمين في الشام ومصر للمغرب . بدأت الدولة العثمانية ١٢٩٩هـ - ١٣٠٠م وانتهت ١٣٣٩هـ - ١٩١٨م وقد صرّت في طورين كبيرين : الطور الأول : « طور القوة » والثانى : « طور الضعف » كان طور القوة مرتبطاً بمفهوم الاسلام أو دافعاً في إطاره من حيث الوحدة والقوة فلما تخلف العثمانيون عن هذا المفهوم وحل الصراع والضعف العسكرى تحولوا من مركز الهجوم والتوسع إلى الدفاع والانتقاض ويرى الكثيرون أن مرحلة الضعف تبدأ بزعيمهم عند أسوار فيينا ١٠٩٥هـ - ١٦٨٣م أو ١١٠٩ - ١٦٩٧ . وهى نفس الأعوام التى بدأت فيها أرمصاصات اليقظة العربية التى وضعت في منتصف القرن الثانى عشر الهجرى ( القرن الثامن عشر الميلادى ) وهى المرحلة التى تمثل حركة الانتقاض حتى انتهت في أواخر الحرب العالمية الأولى ( ١٣٣٩هـ - ١٩١٨م ) وبهنا هنا أن تركز على : مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية وأن نعنى بالمرحلة الأولى : مرحلة القوة والتوسع فقد أمتدت توسعات العثمانيين في ثلاث اتجاهات : (١) أوروبا (٢) العالم العربى (٣) فارس وقد تحقق لها النصر في الميدان الأوروبى وظل شغلها الشاغل حتى مرحلة الضعف ، وقد بدأت الدولة العثمانية فعمبرت مضيق الدردنيل إلى غاليلوى وشرعت في اكتساح الأقاليم الأوربية التابعة للدولة ( الرومىلى ) الشرقية ، ومنها بدأ توسعهم في جزيرة البلقان ، وكان انتصارهم فيوقعة أنقرة قد مد نفوذهم إلى نهر الطونة . ثم إلى السلاطين غزو أوروبا حتى استطاع محمد الثانى أن يحقق أكبر نصر في تاريخ الاسلام بالسيطرة على القسطنطينية وبسقوطها في يد عالم الاسلام انتهت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وامتد التوسع إلى بلاد القريم ، وجزائر الأرخييل وخفق العلم الاسلامى العثمانى على قلعة ( أوترانتو ) في إيطاليا نفسها . ومضى التوسع إلى بلغراد حتى أصبحت بلاد المجر في يد



العثمانيين وبدأ حصار فينا ١٥٣٩ ومضت الانتصارات الباهرة متعاقبة ، حيث اكتسحت أساطيل القوة الإسلامية العثمانية شواطئ البحر المتوسط ( بحر الروم ) وجزائره إلى سواحل أسبانيا ونشر رجالها أمثال بربروسة ودراغوت وبيالة « الهيبه » على سواحل أوروبا وشمال أفريقيا واستطاعوا طرد الاسبان من بلاد الجزائر .

وقهر العثمانيون الأسطول البابوى ، وامتدت راياتهم إلى بودابست على نهر الطونة ، غير أن هذا التوسع الذى ظل ممتدا ومستمرا حتى ١٥٧١ م بدون هزيمة أو توقف ، بدأ يصاب بضربات وهزائم منذ موقعة ليبانتو البحرية ، وليس معنى هذا أن انتصارات العثمانيين قد توقفت ولسكنها أصبحت تتأرجح بين النصر فى مراع والمهزيمة فى مواقع أخرى ، فقد أضاف العثمانيون إلى نفوذهم اقريطش وجزائرى أخرى غير أنهم ارتدو عن فينا ١٦٨٣ م ، وتحطمت قوام فى موقعة ( موهكس ) فضاحت بلاد المجر من أيديهم ١٦٨٦ م .

٢ — أما للشرق فقد تضاعفت الوحدات العربية فى الشام ومصر وكرديستان وديار بكر وإلاد العرب ومكة والمدينة . ثم توالى إلى انضمام أجزاء للمغرب العربى : تونس والجزائر والمغرب إلى الدولة العثمانية . ٣ — أما بالنسبة لفارس فقد توالى حملات العثمانيين عليها دون أن تحقق نصرا واستطاعت فارس أن تحتفظ بسلطانها وأن تقيم دولة عظمى هى « الدولة الصفوية » أما الهند الإسلامية فقد نجت من حملات العثمانيين وأقامت « دولة المغول الكبرى » التى ظلت قائمة حتى أزالتها الاستعمار البريطانى للهند ، وقد بهر العثمانيون العالم بالقوة الحربية وبالبطولة العسكرية التى عرفت اسلاطينهم : هنان ، وارخان ، مراد الثانى ، بايزيد ، محمد الخامس ، سليم الأول ، سليمان ، وهم السلاطين الذين شهدوا مرحلة التوسع والانتصار وقد تمثلت قوتهم العسكرية فى التنظيم الرائع الذى أقامه أروخان للجيش والذى أطلق عليه « الانكشارية » وهو نظام عسكري اسلامى له طابع الجهاد الاسلامى بمنزلة بالزهادة الاسلامية : هذه القوة التى استطاعت أن تحقق هذه الانتصارات والتى حين تلقت الضربة الجانحة التى وجهها إليه المغول لم تسقط نهائيا ، بل استطاعت أن تسارع إلى تنظيم صفوفها من جديد ، وكان تيمور لك قد ظهر فى جنوب آسيا ، واسترعى انقباء الغزب الذى خشى أن يجتاح أوروبا ، ومن هنا اتجه المخطط الغربى إلى توجيه قواه لضرب الدولة العثمانية خصم أوروبا والغرب ، فإذا قضى عليها أزال نفوذها وإذا قضت عليه خلصت أوروبا منه . ولقد جرت بين تيمور وعالم الغرب مفاوضات واسعة فى محاولة استغلال قوته العسكرية ضد الاسلام والانتفاع بها من ناحية تجنب خطرها وتحطيم القوى الاسلامية ، وكانت « جنوه » قد تبادلت مع تيمور المراسلات والشعراء . وحرصته

على تخطيط الدولة العثمانية ، كما أرسل ملك قشتالة ( أسبانيا ) الشعراء إلى تيمور وبتحريض من أحد الرهبان الدومنيكان الذي كان صديقا لتيمور ومن دعاة المسيحية هناك .

وقد جرت أوروبا على في ذلك على نفس الحطط الذي نفذته مع هولا كو حين حررته على تخريب بغداد خدمة للملكة الصليبية القائمة في قلب العالم الإسلامي إذ ذاك ، وكخطة تحالف بين التنتر والصليبيين لفتح عالم الاسلام ، وتشهد معظم كتب التاريخ أن المراسلات دامت بين الغرب ( فرنسا والبابا ) وبين خلفاء هولا كو ، فلما تألق تيمور ، كان الخطر العثماني قد أهدق بأوروبا الشرقية وطلوق القسطنطينية ، ومن هنا حرصت أوروبا في أن تخرضه على قتال العثمانيين . يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتئذ الراهب « فرانسيسفوس » من ملك فرنسا شارل السادس ، ذلك الكتاب الذي كتب تيمور الرد عليه بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك أسبانيا إذ ذاك يهنيء تيمور في إجهازه على آل عثمان ، وقد كانت مصادمة التنتر والعثمانيين ٨٠٤هـ - ١٤٠٢م من الضربات القاتلة التي تلقتها الدولة العثمانية بصمود عجيب ، واستطاعت بعد قليل أن ترتفع بعد جراحها وأن تعيد تكوين جيشها ، وإن تقلت القوة الاسلامية النامية من الموت ، وأن تعود مرة أخرى أشد قدرة على التوسع وأن تستطيع بعد قليل أن تحقق أكبر نصر لها وهو « فتح القسطنطينية » . وقد نجح العثمانيون في بناء هذه القوة العسكرية « الانكشارية » حين أقاموها على أساس نظام الاسلام في التربية العسكرية وفق مفهوم الاسلام ، فصارت ولا مثيل لها في القوة والاقدام ، وقد استمر نظامها مثلاً عالياً في السكفاية ثلاثة قرون ثم تغير مع ضعف الدولة .

#### ( ٤ )

كان العثمانيون قد ورثوا السلاجقة في الأناضول ، وقامت حركتهم على مفهوم الجهاد المقدس ورفع راية الاسلام والدفاع عنها ودفعها إلى الأمام ، وهو نفس المفهوم الذي تبناه [السلاجقة والأتابك والأيوبيون والموحدون والمماليك] استمداداً من مفهوم الاسلام نفسه ، وعلى نفس الحط الذي سار فيه المسلمون في حركة بناء الاسلام وتوسيع عالمه . وكان هذا الأساس السياسي هو الذي دفع القوة الاسلامية العثمانية إلى العمل في هذه ميادين : الأول : « القضاء على الدولة البيزنطية » التي وقفت أمام توسع الاسلام إلى أوروبا من طريق القسطنطينية ستمائة عام . الثاني : « التوسع في أوروبا » وقد استطاعت أن تبلغ فيه بعد فتح القسطنطينية رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد البحر وأن تحاصر أسوار فيينا ثلاث مرات .

الثالث : « إقامة وحدة إسلامية » ضمت العالم العربي كله من العراق إلى المغرب إلى الحجاز والسودان . بالإضافة إلى الأناضول حيث قامت الدولة العثمانية . ولم يتخلف عن هذه الوحدة غير الدولة : الصفوية في فارس ، والمغولية في الهند وقد رحب العرب بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن ضعفت قوى المماليك والبربر وأصبحوا هدفا لحملات صليبية جديدة ، وقد وجدوا في العثمانيين منتعشا جديداً للإسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الإسلام هالية خفاقة ، وأعادت ذكرى الأبطال الأوائل ، في سبيل إهزاز الإسلام ونشره كإرحاب العرب في مصر والشام بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن تقوموا على دولة المماليك إهمالها شأنهم في المرحلة الأخيرة فحاربوا في صفوفهم . والواقع أنه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الإسلامي هو أساس الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الإسلامية الكبرى ، والحق أن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الأولى بتتمثل مفهوم الإسلام في نطاق الحكم ونمحووا من خلال إطاره . ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتنوا أثر الخلفاء في العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء والأتقياء وإشياء الجوامع والمدارس وكان عثمان مثلاً هلى ذلك فقد أطعم الفقراء بيديه وأكرم العلماء والأتقياء وظلت مفاهيم القرآن بوصفه الكتاب الكريم ، أساس السنة والتشريع الإسلامي هو طابع الحكم والحضارة والعسكر فضلاً عن احترام الترك للعرب وتقديرهم للغة العربية ، وإعلاهم للطابع العربي الشامل الذى هو طابع الإسلام نفسه . لغة وتقاليداً وقيماً ، وكانت جامعة الإسلام بطبيعتها تمتص الكثير من خلافت العناصر والأمم والأخطار على النحو الذى حققه الإسلام في تاريخه كله وبالنسبة للفرس والترك والبربر كانت وحدة الثقافة وتقاربها فى ظل مفهوم « السنة » والوسائط التى جمعت بين السنة والتصوف وكادت تمزج بينهما هاملاً أساسياً فى الالتقاء السيامى والاجتماعى ، كما حرص الحكام الأتراك على تقدير العرب ، وتأكيد معنى الرابطة الإسلامية « وقد توطد ذلك بطول المدة فعاش أهل البلاد فى جو الفكرة الإسلامية » وذلك خلال مرحلة القوة التى نؤرخها . وقد حرص العثمانيون بوصفهم أصحاب القيادة السياسية للوحدة الإسلامية على متابعة الخط الذى سارت فيه الخلافة الأموية والعباسية ، وفق التقاليد والمخططات التى رسمها الخلفاء وفى نطاق دراسات فقهاء السنة . ومهما قيل فى أمر تنازل آخر الخلفاء العباس للعثمانيين عن الخلافة ، وهو أمر شكلى محض ، فإن نظام الخلافة قد أصبح ضرورة سياسية لا محيص عنها بالنسبة للعثمانيين ، كما كان ضرورياً من قبل للمماليك بمحسبان أنه يعطى القوة الروحية المرتبطة فى نظام الإسلام بالقوة السياسية ، وقد قام منصب « شيخ الإسلام »

في الدولة العثمانية كرمز على تطبيق الشريعة الإسلامية . وكان نظاماً مقدوراً من الخلفاء الذين لم يكونوا يتصرفون في أمر من الأمور الدينية أو المدنية إلا بعد صدور فتوى للرجح الأكبر للشريعة الإسلامية ، وكان المفكرون للمسلمون والفقهاء قد صاغوا نظام الخلافة وفق حاجة المسلمين وتطور التاريخ الإسلامي ، وفي نطاق مفهوم أسمى للاجتهاد في الاسلام هو المحافظة على وحدة المسلمين ، وحماية عالم الاسلام من التفكك . وبذلك حلت السلطنة محل الخلافة في مختلف أفعالها والتزاماتها ، وقد صاغ هذه النظرية العلامة ( الدواني ) ووصل ابن خلدون إلى نفس النتيجة . وكانت عند كلا العالمين تطبيقاً لنظرية الغزالي التي كانت ترمي إلى توحيد المجتمع السني تحت لواء إمام أو خليفة أو سلطان ، أو حاكم يقود الناس إلى الكمال ويحقق لهم نظاماً صالحاً .

### (٥)

وقد حرصت القيادة السياسية الإسلامية في هذه الفترة على رعاية الأديان المختلفة وأولياها على النحو الذي رسمه مفهوم الاسلام ، وقامت العلاقة بين الدولة والعناصر غير المسلمة على تسامح كامل وإن لم تعدى تساكن المسلمين وغيرهم وتزواجهم ، وقد أعطت الدولة الحرية الدينية التامة لكل العناصر وخولتهم حقوقهم من ناحية العبادة والتعليم ، وإن ظلت هذه العناصر على عدااء للوحدة الإسلامية العثمانية ، بالرغم من هذا التسامح الذي كان فيما بعد عاملاً من عوامل التجميع للتآمر ضد الدولة وعنصر من عناصر هدمها . وقد سجل ذلك كثير من المؤرخين للنصفين ، ومن بينهم المؤرخين لا فيس ورامبو ( من مؤرخي فرنسا ) قالوا : أن محمداً فأنح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والنفول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، وكانت حكومة الأتراك لا تعارض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يسمون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية « بل إن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك فرأى أن هذه الحرية الدينية كانت من بعد مصدر ضعف الدولة العثمانية ، يقول دجوفارا : أن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية للذهبية والمدارسية الثابتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية ، وتهاجم وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية » .

وقد أشار العلامة جميل بيهم في كتابه « فلسفة التاريخ العثماني » إلى أنه لما استتب الأمر لآل عثمان عادوا إلى سياسة الخلفاء الراشدين في الفقه والحكم ، وكان يخيرون الخلع بين الاسلام والجزية

والحرب ، وأن السلطان محمد الخامس قلده بطريق الروم ، الرئاسة على قومه وثبته فيها ، وأن هذا العدل لم يكن قاصراً على الذين يرضون بدفع الجزية طوعاً ، وإنما كانت شاملة للأمصار المفتوحة قسراً وأن محمد الخامس حين دخل القسطنطينية ( ٢٩ مارس ١٤٥٣ ) أعلن حرية الدين لغير المسلمين والاحتفاظ بأموالهم وأموالهم ، وقال العلامة بهم معلقاً : أنه جرى في ذلك مجرى عمر بن الخطاب في معاملة البطريرك ( صفرينوس ) في بيت المقدس ، وفي أيا صوفيا احتفظ الروم بكنائسهم كافة وبحرية دينهم واستقلالهم . وكانو ينعمون بالسيادة والحرية ويتركون لأهل البلاد أمراً بما فيه استقلالها السياسي ، وهندما اترض على محمد الفاتح لعدم تخييره رعيته من النصارى بين الاسلام والقتل ، قال : كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الاسلام زيادة على حضرة الشارع ( يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم ) وكذلك فعل أورخان في البلاد التي ضمها فقد حافظ على سلامة أهلها وخيرهم بين البقاء والهجرة ولهم أموالهم كافة .

وكان العثمانيون قد مدوا سلطاتهم باسم الاسلام إلى قلب أوروبا ، وحقق ذلك دخول عدد كبير في الاسلام ولا سيما في آسيا الصغرى ، وأن سياسة العثمانيين إزاء هذه العناصر كانت من العوامل للشجبة لهم على دخول الاسلام ، بالرغم من هذا فإن الدولة العثمانية قد قصرت تقصيراً لا حده في الدهوة الاسلامية بين العناصر التي ضمنها الدولة خلال ستائة عام ، وأنها لو فعلت لتركت في أوروبا قوة اسلامية فاعلة . إذ فقد درج آل عثمان على التمسك بالشريعة الاسلامية منذ اليوم الأول ، وكرموا مفكرها وفقهائها ، وقد سجل هذا منصفى كتاب الغرب يقول « دوش » سواء للسلام أو للحرب أو لنظام سياسى أم قانون عسكرى كانت تركيا تلجأ إلى شيخ الاسلام طالبة فتواه ، ويقول جونين وفوتخيفر صاحب كتاب تاريخ العالم :

كان كل شيء في المملكة تحت نفوذ مفتى الاسلام لأنه نائب السلطان المطلق في الأمور الشرعية والمدنية سواء . وقد أشار كثير من المؤرخين إلى مدى عمق تأثير الاسلام في نظام الأباطورية العثمانية من حيث مفعوله بواسطة قيام سياسة الدولة على أحكامه ، ومن حيث مفعوله في أخلاق السلاطين .

( ٢٨ )

## القوى الإسلامية الثلاث

قامت في هذه للرحلة ثلاث وحدات إسلامية : ( ١ ) الأبراطورية العثمانية وتضم بلاد الأناضول والعالم العربي . ( ٢ ) الدولة الصفوية في فارس . ( ٣ ) الدولة المغولية في الهند . وقد حاولت « الدولة العثمانية » السيطرة على فارس وضمها إلى نطاق الوحدة الإسلامية العثمانية غير أنها فشلت، واستطاعت فارس في ظل « الدولة الصفوية » أن تقاوم العثمانيين وأن تقيم دولة قومية على أساس من الثقافة الشيعية الإسلامية ، بينما كانت الدولة العثمانية تنصر الثقافة السنية ، وقد كانت حواجز الثقافة الإسلامية العربية تحت سلطاتها ومن بينها المدن المقدسة الثلاث : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما « الدولة للمغولية » في الهند فقد ظلت بعيدة عن صراع العثمانيين والفرس . ويمكن القول بأن الحركة الصفوية كانت هي بذرة الدولتين العثمانية والصفوية . وأن هذين الدولتين هما من ثمرة الثقافة الصفوية الإسلامية وتجمعاتها ، وأن هذه التجمعات ذات الطابع الصوفي كان تحمل طابع الجهاد لنشر الإسلام ، كان لها أثرها من قبل في بناء دولتي للرابطين وللوحدين في المغرب ، وقد كانت هذه الحركات قد بدأت دعوة الإسلام ثم تحولت إلى دولة وقوة سياسية وعسكرية ، وكانت « فارس » قد سقطت تحت نفوذ المغول ثم استطاعت أن تتحرر من هذا النفوذ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهنا ظهرت دعوة صفى الدين أحمد شيوخ أردبيل ، حاملا لواء الدعوة إلى الثقافة الشيعية فلقبت دهوته قبولا ، وتجمعت مع القبائل ، وقد اتصل صفى الدين باوزون حسن شيخ قبيلة ألاق فيون لو ، إتصلا انتهى بامتزاج الدهوة الشيعية بالقوة العسكرية ، وقد ترك صفى الدين أساساً قويا مكن إبنه « الشاه إسماعيل » من إقامة دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والوصل وامتدت من باكو شمالا إلى شتر جنوبا ، ثم بلغت نهضة الدولة الصفوية الفارسية الإسلامية أوجها في عهد عباس الأكبر ( ٩٨٥ — ١٠٣٨ هـ ١٥٨٧ — ١٦٢٩ م ) وفي هذه المرحلة استطاع الصفويون الانتصار على العثمانيين ، يقول ( بركلان ) أن نهضة فارس قد مكنتها من استرداد شخصيتها مستقلة عن العالم الإسلامي ، وأصبح لها جيشاً قوياً منظماً بالأساليب الأوروبية في القرن الحادى عشر .

وقد وسع الشاه عباس الأكبر إمبراطوريته حتى شملت فارس كلها ، وقد قام بدور واضح في المقاومة الإسلامية للنفوذ الغربي حين حارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وكذلك قامت الدولة المغولية في شبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري فوسلت بالحكم الإسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صورته ، وبلغ نفوذ الإسلام أوسع مداه ، وذاعت الوحدة الإسلامية إلى أقصى درجات التبوع واستطاعت — بنشر الإسلام في ربوع الهند — أن تحول ملايين همة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى الإسلام ، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم ، وقد عاصرت المغولية الصفوية في فارس والعثمانية في آسيا الصغرى والعالم العربي ويمثل قادة الدولة للخلافة النثر واللفول بعد أن صهرتهم بوثقة الإسلام وتحولوا إليه ، وتحولوا من دعاة هدمه إلى دعاة نصره وإذاعته والدفاع عنه . وقد عرفت الدولة للمغولية الإسلامية برعاية العلم والعلماء رعاية صادقة وأقامت منشآت الثقافة وللندية ، وازدهرت على أيديهم الحضارة الإسلامية في الهند وخراسان وفي كثير من اللدائن التي ضربها أجدادهم من قبل ( بار توك : تاريخ الحضارة ) وقد كان ولاية الدولة للمغولية يمثلون الإسلام في معاملاتهم مع غير المسلمين ، فقد أطلقوا حرية العبادة لأهل البلاد من الهندوك وفتحوا لهم أبواب المناصب ، ما كان له أثره الواضح البعيد المدى في إعتناق عدد كبير منهم للإسلام بوصفه رسالة للمساواة بين معتنقيه ، فدخلوا فيه أفواجا ، كما كان لهم دورهم في رهاية الثقافة الهندية وتطويرها ، وقد بدأ للإسلام أثر واضح فيما حيث نشأ مزيج إسلامي هندي بلغ بالحضارة الإسلامية أرقى صورها ، وكان للإسلام أثره الواضح في مفكرى الهندوكية ومصلحيهم الذين نادوا بمذاهب جديدة خففت من قيود نظام الطبقات وأنكرت عبادة الأوثان ودعت إلى عبادة الإله الواحد ( نامديو كبير ونانك ) وقد أقام الدولة المغولية الإسلامية ظهير الدين محمد بابر حفيد تيمورلنك وجنكيز خان في أول الربع الثاني من القرن العاشر الهجري كما ٩٢٥ هـ وظلت تحكم البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزع الاستعمار البريطاني نفوذها . وكان من أبرز مظاهر الالتقاء بين الثقافة الهندية والإسلام وأداها ظهور « اللغة الأردية » أوسع لغات شبه القارة الهندية والتي أخذت أغلب ألفاظها من اللغة العربية ، ومزجتها بالألفاظ الفارسية والهندية الأصلية . وكانت الأردية لسان الزعماء المسلمين . وقد أشار الندوى إلى أن أثر الإسلام في الهند كان بالغا ، فانه فضلا عن اجتذاب الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعا لم يلبث أن دفع طائفة من المصلحين الهنالك إلى الدعوة لأفكاره في التوحيد وإنكار نظام الطبقات وزواج الأطفال .

(٢٩)

## الإسلام والاندلس

يمكن تعريف تاريخ الاسلام في أسبانيا في ثمان حلقات : \* عصر الولاة : ٩٢ — ٨١٣٨ .  
\* العصر الاموي ١٣٨ — ٤٣٢ . \* نظام الطوائف ٤٣٢ — ٤٨٤ . \* عصر الموحدين ٤٨٤ — ٦٤٠ .  
\* الحروب الصليبية بالاندلس ٦٣٥ — ٨٩٨ . وسقوط غرناطة \* عصر العرب الأخير : مرحلة الاضطهاد  
والقنصير ( ٨٩٩ — ١٠١٧ ) . \* ترحيل المسلمين نهائياً عن الاندلس ( ١٠١٨ ) .

(١)

### المقاومة والمعارك مع الفرنجة

خلال عصر الدولة الأموية بالاندلس

حين سيطر المسلمون على الاندلس، غفلوا عن منطقته جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة، هي منطقة « قنطرية » على مقربة من حدود فرنسا، وكانت جبلية وهرية، استهان بها المسلمون، واعتز بها الفرنجة وآزروها، حتى قامت بها حكومة في ( استوربارس ) التي اسهمت في إعادة أسبانيا إلى الغرب وذلك بمواصلة الحملات المتوالية على الدولة الاسلامية العربية، ولم تلبث هذه القوة إن استعادت ليون ( ٨١٠٠ ) بينما المسلمون يجتازون جبال البرانس إلى فرنسا، ثم استعفل شأن الاستوريين وأدمم الافرنج بالعتاد والامدادات حتى استطاعوا أن يسيطروا على جبلية وقشتاله واستغلوا تنازع العرب، فلما انحلت الدولة الأموية إلى الولايات، قام عليها ملوك الطوائف ازداد شعورهم بالقوة فقامت دول : نواره، ليون، قشتاله، قطلونية، أرغون، البرتغال، وإحتاطت هذه الدول بالاندلس العربية الاسلامية على هيئة هلال وقد هدت هذه الحركة الدولة الاسلامية فبدأت معركة المقاومة والادالة، واستمرت فترات طويلة، بل أنها لم تتوقف في الأغلب، قد أمضى عبدالرحمن الناصر سنوات حكمه في الغزو والمقاومة، وواصل أبو هاسر المنصور حركة المقاومة والادلة من الفرنجة في خلال فترة حكم ( ٩٧ هـ ) فانصر عليهم في خمسين موقعة وقضى حياته شهيداً.



وقد استمر هشام بن الحكم الثاني ( ٣٦٥ - ٤٠١ هـ ) حكمه على تعبئة خلال اثنين وعشرين عاماً في مواجهة ممالك ليون ونواره وقشتالة وقطالونية : هير أن الفرنجة أستطاعوا أن يمتاحوا ثلث الأندلس حين أنهارت الدولة الأموية ، وقامت الإمارات الأربع للملك الطوائف : بنو زيري ( غرناطة ) بنو هامر ( بلنسية ) وبنو عباد ( اشبيلية ) بنو هور ( سرقسطة ) وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازهاً شديداً واستعان كل منهم بالأسبان الفرنجة على خصومه ، وبرزت للفرنجة مملكة كانت نواة حركة استرداد الأندلس : هي « قشتالة » : ٣٥٠ - ٩٦١ م ثم تلاقت مع دولة ليون في اتحاد عام ٤٢٩ هـ ، فانظمنا ثملان مملكة ضخمة ، لم تلبث أن حملت لواء المقاومة والأدلة من المسلمين إلى أن تولى ألفونس السادس ملك قشتالة قاتلهم طليطلة ٤٧٨ م وأخذها قاعدة للدولة وبدأ تهديد هنيئاً لأمراء المسلمين ، دفع المعتمد بن عباد إلى مناداة ( المرابطين ) في مراکش ، وكان يوسف بن تاشفين ٤٥٣ - ٥٠٠ هـ قد جاء على رأس موجة جديدة جددت شباب الاسلام هي موجة البربر في أفريقيا فسيطر على المغرب الأقصى والأوسط وبنى مدينة مراکش ، وقد استجاب للدعاء فعبّر إلى الأندلس وهزم الفرنجة في موقعة حاسمة هي « الزلاقة » ثم لما عاود الفرنجة الهجوم على مواقع المسلمين في الأندلس من بعد ، هرب مرة أخرى عام ٣٥٧ هـ واندبجت دولة المغرب والأندلس في وحدة بقيادته لمقاومة غزو الفرنجة المتدارك . ثم لم يلبث ( الموحدون ) وهم موجة أخرى من البربر أن حلت محل الموحدين ، وكان لهم دور ضخم في مقاومة الزحف الفرنجة على مملكة الأندلس ، فقد ألقوا العرب في أوروبا فتناحرت للتجمع ، لمقاومة الموحدين وللقضاء على الأندلس المسلمة العربية ، وكان أبرز قادتهم يوسف بن عبد المؤمن ( ٥٥٧ - ٥٨٠ ) ويعقوب المنصور ( ٥٨٠ - ٥٩٥ ) . وقد استطاع المنصور أن يقتحم طليطلة عاصمة ألفونس التاسع ملك قشتالة ، وأن يعيدها إلى الإسلام ، وكانت الحروب الصليبية إلى الشرق قد آذنت بالفسح ، ومن هنا ركزت أوروبا همها على تحرير القارة من الإسلام والعرب والمسلمين ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية في الأندلس ، هنيئة عاصفة ، وحملت لواء الدعوة إلى إخراج « المراقطة » أي المسلمين من أوروبا ، وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلاب وإصرار ، وواصلوا الاشتباك مع الفرنجة في معارك فأدوا منهم ، غير أن المرتف كان في صف القوى المتجمعة على أرضها والتي ازدادت استقراراً وقدرة على مقاومة إمارات بدأ عليها الضعف والتزق والخلاف ، حتى انهمز المسلمون في موقعة العقاب ( طولوز ) عام ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ولم يلبث بنو مرين ( ١٢٧٤ هـ ) وهم موجة من موجات البربر - الذين نصرروا الإسلام - أن سيطروا على المغرب وجازوا إلى الأندلس

واشتبكوا مع الفرنجة في معارك عدة غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض ، وبين أمراء الأندلس والذين هربوا إليهم من المغرب ، واعتقد — بنو الأحمر آخر أمراء المسلمين في الأندلس على خصومهم في الانتصار على أشقائهم وجيرانهم ، ولم يلبث الفرنجة أن استولوا على هذه الامارات واحدة بعد أخرى ( قرطبة ٦٤٥ مرسية ٦٩٥ هـ ) ثم جاءت أقصى مراحل القضاء على العرب والإسلام في الأندلس ، وفي أوروبا ، عندما تضافت مملكتنا فرديناند وإليزابيلا ٨٨٤ هـ حيث لم تلبث غرناطة بعدها بضعة عشر هاما حتى أسلمت آخر أنفاسها وانطوت صفحة الاسلام والعروبة في أسبانيا .

وهذا إجمال له تفصيل : فنجد ضعفت قوى « الموحدين » أخذت قوى الأسبان والفرنجة في إثارة الاضطرابات ، وكانت مملكتي قشتالة وأرغونة تحملان لواء المؤامرة وتؤلبان على مملكة الاسلام المنقسم إذ ذاك إلى ولايات تتصارع ، وأخذت « حركة الاسترجاع » التي بدأت منذ عصر ملوك الطوائف تقوى ، وزادها قوة اضمحلال الموحدين ، الذين كانوا بمثابة الموجة التالية بعد المرابطين في إنقاذ الأندلس من الخطر المحتوم ، ولم تلبث إمارة بلنسية ٦٣٦ هـ أن سقطت في أيديهم واتجه أهلها من المسلمين إلى غرناطة جنوب الأندلس ، واستسلمت عاصمة بني أمية « قرطبة » عام ٨٦٢٣ م وانجبت قوى الغزاة إلى أشبيلة ، وتوحد ملوك أسبانيا ضد المسلمين وأبدى المسلمون بسالة لاحد لها في كل مختلف عمليات الاسترجاع فلم ينصرفوا عن موقع إلا بعد أن استنفذوا كل ما يمكن من قوى بشرية وحربية ولم يسلم المسلمون موقعا واحدا إلى الأسبانيين بدون قتال وقد حاصرت الجيوش الأسبانية مدينة أشبيلة وأمدت الحصار ثمانية عشر شهرا ، أبدى فيها المسلمون ضروبا من الصبر والشجاعة دون مدد أو مساعدة فلم تستسلم قواتهم ٨٦٤٦ ١٢٤٨ إلا بعد أن استنفذت كل قواها ولم تبق إلا مملكة غرناطة تحت إمارة بني الأحمر ، وهي رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة أيبيريا محصورة بين الوادي الكبير والبحر الأبيض ، وقد تجمع المسلمون فيها بعد أن انتزعت منهم إماراتهم ، واستمرت قائمة قرنين ونصف قرن ( ٦٣٥ — ٨٩٧ ) ولم تلبث ممالك أسبانيا الثلاثة أن اتحدت على مواجهة « مملكة غرناطة » وهرب سلطان بني مرين إلى الأندلس بجيوش عظيمة عام ٧٧١ هـ اشتبكت في معركة ( طريف ) مع الفرنجة وانتهت بهزيمتها . ولم تلبث غرناطة أن واجهت الخطر الأسباني بمفردها ، وعمل الأسبانيون على إثارة الخلافات والفتن والدسائس بين بني الأحمر ، ولم تلبث مملكة قشتالة أن استولت على جبل طارق ٨٦٨ ١٤٦٢ م بعد أن توفقت المنجندات الواردة من المغرب الأقصى وبلغ الخلاف الداخلي أوجه في غرناطة حيث

اقتسمها الأخوين ، فأصبحنا مملكتين : غرناطة ومالقة ، وقع ذلك في نفس الوقت الذي إلتحمت فيه قشتاله وأرغونه ١٤٧٩ م ، ثم توالى الخلافات والمؤامرات وتوالى الصراع بين الأسرة الحاكمة ، وبين زوجات السلطان وأبناءؤه ، حتى سيطر الأسبان على مالقة . وقد حوصرت أسبانيا حصاراً عنيفاً وثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الأشجر ، ولما علم حكام الأسبان أن سلطان العثمانيون وسلطان الماليك بمصر هما على نجدة الأندلس بادروا إلى احتلال الموانئ الأندلسية وأهمها مالقة حتى يحولوا دون وصول أى مدد إلى الأندلس . ولما طلب حكام أسبانيا إلى غرناطة التسليم ، عمدوا إلى آخر ما في استطاعتهم من قدرة على المقاومة ، ووجد الأسبانيون مقاومة جبارة ، هي مقاومة الفناء من المسلمين المحصورين في دائرة ضيقة ، وكان الأسبانيون قد أحكوا الحصار على الغرناطيين وصمد المسلمون وصبروا على طول الحصار ، وكان موسى بن أبى القاسم أبرز من حمل لواء المقاومة وقد امتنع عن الخضوع والاستسلام ولم يمت شهيداً إلا بعد قتل مئات القشتاليين ، وصبر المسلمون على طول الحصار ونفاذ الزخيرة وتفشى الجوع والمرض ، ولم تستسلم غرناطة في ٨٩٧ ( ٣ ربيع الأول ) ١٤٩٢ م إلا بعد أن أهدرت إلى الله بالمقاومة . وتقدم فرديناند وايزر ابيلا إلى غرناطة ودخلتها الجيوش الأسبانية في مظهر رهيب وبذلك أنقضى آخر مظاهر الاسلام والعروبة من الأندلس ( ٩٢ - ٧٩٧ ) بعد ثمانية قرون .

لقد سقطت الأندلس بعد أن تخلت عنها الدول الاسلامية القوية ، كالعثمانيين والماليك ، وكان حكام الأسبان قد أحكوا الحصار البحري عليها حتى لا تنسرب إليها أى معونة أو مدد من عالم الاسلام وتعهدهم الأسبانيون في « وثيقة تسليم » غرناطة باحترام أمر المسلمين في دينهم وأملاكهم وحرثهم والسباح بالمجرة لمن أراد الخروج منهم إلى ديار الاسلام ، غير أن الأسبان لم يصدقوا في عهدهم ولم يلبثوا أن اضطهدوا المسلمين رجاء تصفيتهم والتخلص منهم نهائياً . واستطاع السكردينال كيمناس أن يحمل حكام أسبانيا على نقض شروط الأمان التي منحت للمسلمين ، وبدأت دهوة جاثمة إلى تنصير المسلمين ، وفي عام ٩٠٥ هـ - ١٤٩٩ م - صدر قانون تنصير المسلمين جبراً وتحريم إقامة شعائرهم الدينية وأخلاق المساجد ، وأحرق السكردينال كيمناس كتب التراث الاسلامي في غرناطة فاشتملت النار في مئات الألوف منها . وزادت الحملة عنفاً على المسلمين . ففي ٩٠٧ هـ - ١٥٠٩ م منع المسلمون من البقاء في أسبانيا ، وثار المسلمون في جبال البشرات فقاومهم الأسبان في وصدر قانون بإكراه المسلمين ( اللوريسكو ) على ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزي الأسباني ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات والتكلم بالعربية ( ٩٥٦ - ١٥٥٥ م ) وحولت للمساجد إلى كنائس

واندلعت الثورة مرة أخرى في جبال البشرات ٩٨٦ هـ — ١٥٦٨ م بقيادة محمد بن أمية ، الذي استطاع أن يضم إليه مختلف قوى البشرات ، وقاوم المسلمون مقاومة فداء وهم يعلمون أن أمر القضاء عليهم وسحقهم لا شك أنه يسير على القوى الأسبانية ، ولكنهم لم يتخلفوا عن المقاومة ، واستشهد ابن أمية وتولى بعده ( هب الله ) .

ونار المسلمون في بلنسية وانتفضوا ، ولكن القوى الإسبانية استطاعت أن تقمع ثورتهم ، وفي عام ١٠١٧ هـ وضعت نهاية المسلمين (للوريكو) في أسبانيا حيث تقرر نفيتهم وإجلاؤهم نهائياً وحشدت لهم السفن فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والأستانة ، وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب العربي وتونس — ويقرر الطاهر بن عاشور أن عدد الخرجين بلغ (٣٠٠ ألف) ويردد قول بعض المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون ، سافر منهم إلى فاس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس (١٣٠ ألفاً) . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب ، وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف فاشترط عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا فردوا من حيث آتوا ، فاحتاروا في أمرهم وقصدوا المراسى الفراسية للسفر فمات منهم كثير في فرنسا ونجا قليل . وقد تسلط أهراق البوادي على كثير ممن خرجوا إلى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبهم ولم يسلم من ذلك إلا الذين خرجوا إلى تونس .

ولا شك تكشف هذه الصفحة الأولى عن الصمود الذي عرف به المسلمون في إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد ، ذلك أن المسلمين لم يسلموا في أي جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما في مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد ، كما تكشف عن أقصى صور الظلم والغدر التي واجهتهم . ولكن هل توقف المسلمون الخرجون من الأندلس وهل انتهى أمرهم ، « الحق أن لا » ، فإن هؤلاء الخرجين عاشوا وعاش أبناءهم من بعدهم في مقاومة متصلة للفرنجية ، فقد عمدوا إلى الانتقام من الفرنجية الذين حاولوا السيطرة على موانئ المغرب العربي ومراسيه .

ذلك أن الأسبان والبرتغال حين طردوا المسلمين من الأندلس ، لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد ، بل كانت خططهم لإقتحام سواحل المغرب والانتقام من المسلمين الذين ظاهروا الأندلس ، في مخطط طويل لتطويق العالم الاسلامي والسيطرة عليه . ومن هنا بدأ الأسبان والبرتغال في اقتحام السواحل الأفرقية كرحلة مجددة من مراحل الحروب الصليبية التي شنها عالم الغرب على

الإسلام ، لقد فشل الصليبيون بالشرق ، وسيطر العثمانيون على القسطنطينية وأخذوا يهددون أوروبا الغربية والوسطى ، كان كل هذا بالإضافة إلى السيادة البحرية في مشرق حوض البحر الأبيض بمادفع الغرب إلى التركيز على مغرب حوض البحر الأبيض ، فاندفع الأسبان والبرتغال يغزوان شواطئ المغرب والقارة الأفريقية ، وكان هنري الملاح قد أعد خطة مع ملك البرتغال للاتصال بملك الحبشة المسيحي للتعاقد والتحالف ضد المسلمين .

وفي هذا المجال كان عمل المهاجرين الأندلسيين بأسلافهم الذين قاوموا غارات السفن الأسبانية ضد السواحل المغربية ، والانتقام من الأسبانيين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وقد حملت هذه الغارات طابع الجهاد ، وشارك فيها سكان السواحل الأفريقية ، وقد بدأت على هيئة إغارات متصلة على السفن الأسبانية كانوا يهودون منها بالقنائم والأمري ، ومن ثم تكونت هذه القوة للرابطة في النفور التي تحمل لواء الجهاد والانتقام من الأسبان وتكون تحت قيادة هؤلاء المجاهدين أسطول جديد ، وبرزت أسماء عروج وخير الدين واستطاع خير الدين أن ينفذ ٧٠٠ ألف مسلم أندلسي وقطعت هذه الحركة على البرتغال والأسبان محاولة الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها ، واستطاع الإخوان عروج وخير الدين ( ٨٩٩ — ٩٣٣ ) الاستيلاء على السواحل الجزائرية واستخلاصها من الأسبان : وإذا كان سقوط الأندلس في أيدي الفرنجة بعد ثمانمائة عام من إسلامها وهروبها قد هز الشعراء والأدباء وبعض المؤرخين ، فإن النظرة العلمية وفق نواميس التطور وحركات المد والجزر في التاريخ كانت تنكشف جميعها عن قلق واضح في هذا الجزء من عالم الإسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الإسلامي قد توقف عندها ، فإن أوروبا المسيحية بكل مفاهيمها وقيمها وطبيعتها قد ظلت طوال هذه القرون الثمانية تقاوم ولا تستسلم أبداً لغزو الإسلام لها سواء من القسطنطينية أو من الأندلس ، وأنها طالوت بقاء هذه الدولة بالمؤامرات والفن والمقاومة ولم تهدأ حتى ضعف المسلمون وهزقوا ، وانقسموا على أنفسهم : وإذا كانت الأندلس مرت بكل ما عر به كل الدول من علامات التكون والقوة والضعف والانهيار بالرغم مما حملت في أعماقها من حضارة باهرة زاهرة ، فإنها كانت في الواقع أشبه بالمحصنة أو المعزولة من عالم الإسلام بحكم وقوعها في أوروبا وكان العدو أقرب إليها من أهلها في المغرب ، وكأنما كانت مملكة إسلامية منفصلة ، لها طابع واضح يجري في إطار طابع الإسلام ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوروبية والجوار والعقلية والتحديات المختلفة . ولكن الأندلس كانت من ناحية أخرى هي أذكي ثمرات الحضارة العربية الإسلامية التي تكونت وتجمعت في قلب أوروبا إيماناً بالدور الذي سيقوم به الغرب في تلقف هذه الحضارة وتنميتها ، وإذا كانت الحروب الصليبية

واتصال الغرب بالشرق قد قرب مرحلة النقل والترجمة وتبقى القيمة الحضارية العربية الإسلامية ، فإن قوة التاريخ في تحركه وتطوره ، قد نقلت مركز الثقل في الحضارة الإسلامية إلى قلب أوروبا نفسها مثلاً في « قرطبة » بوصفها البيئة المعدة والمتبينة لحل أمانة الحضارة في هذه المرحلة بحسبان أن النمو والتطور الحضارى لن يتوقف إذا ضعفت أمة عن حمل أمانته وتميمته . ولقد استطاعت أوروبا فعلاً أن ترفض الاسلام وأن تحل العرب عن أرضها ومن مداخلمها الشرقية والغربية ولكنها عجزت عن أن ترفض « فكر الاسلام » وهنالية العرب ، وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون ، وإن صاغت ذلك على نحو أو آخر محاولة أن تغضى إغضاء النأكر للجميل بالدور الاسلامى فى الحضارة هذا وقد كانت عوامل سقوط الأندلس هى نفسها امتداداً لعوامل توقف الاسلام عن التوسع فى أوروبا ، نتيجة ضعف روح الجهاد والايان بالعمل فى سبيل نشر الاسلام وتبليغه وحمله إلى أفاق العالم على النحو الذى فعل الرواد الأولون ، بالإضافة إلى طابع الترف والهدنة والحضارة والاستقرار ، ثم غلبه عنصر التزق والخلاف والقصور عن القوة واليقظة ، بينما أحرز العدو كل القوة الإيجابية للحضارة الإسلامية وفكرها فأمجد وتسليح وآمن بحقه فى استعادة أرضه ونشر دينه . ويمكن القول إجمالاً أنه لولا الموجتين البربريتين اللتين جازتا إلى الأندلس فأمدته الواحدة بعد الأخرى بقوة البقاء لا تقضى أجل دولة الأندلس قبل ذلك بكثير . ولقد كانت هذه القوى التى أعادت شباب الاسلام قوى بدوية لم تنحضر .

(٣٠)

### الثقافة فى عصر الوحدة الإسلامية العثمانية

ينتظم عالم الاسلام فى هذا المرحلة : ثلاث وحدات سياسية هى : (١) الدولة العثمانية التى قامت على إنقراض الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وقد انضم إليها العالم العربى من العراق إلى المغرب الأقصى . (٢) الدولة الصفوية فى فارس . (٣) الدولة المغولية فى الهند . غير أن هذا التغيير السياسى الذى بدأ منذ أوائل القرن الثامن واستمر فى القرن العاشر تقريباً ، لم يغير كثيراً أو قليلاً فى مجرى الثقافة الإسلامية التى كانت تضى كنهر قد عمق مجراه واتصلت روافده بين أقصى عالم الاسلام وأقصاه . قائماً على الاسلام أساساً كإطار فكرى عام بمقوماته الأساسية من التوحيد والمساواة والأخاء . وكانت مرحلة الغزو الخارجى التى سبقت هذه المرحلة قد أضاف إلى هذه الثقافة تطوراً جديداً وخلقت فنوناً جديدة من الأدب والفكر ، فدهزت أعمال الغزو نفوس المفكرين وأظمرت

فنوناً جديدة من فكر المقاومة والجهاد والتحدى حين تدافعت من في حدود أرض الاسلام من الشرق والشمال والغرب قوى الغزو الثلاث: (النتار والصلبيين والفرنجية) فقد تدافعت في سرعة وقوة إلى التجمع والتوحد بين أجزاء عالم الاسلام تحت قيادات جديدة بدوية شابة ظهرت في أوانها ، وحملت لواء « الجهاد » في سبيل الدفاع عن الاسلام ورفع رايته ودحر خصومه ، وكان لهذا أثره في مختلف جوانب الفكر والأدب والثقافة معاً . وقد برز في هذه المرحلة طابع التقاء فكري بين كبرى الحركتين الثقافيتين الاسلاميين ، وهما السنة والشيعة ، وإذا كان اللقاء والتقارب بينهما قد تم في حركة « التصوف » فإن أعمال العدوان الضخمة للمنظمة خلال القرنين السادس والسابع قد دفعت المسلمين في طريقين هما : طريق الجهاد والرباط لمقاومة العدو ، وطريق لزهد والارتفاع على ماديات الحياة ومطامعها في ظل الجملحات التي فتكت بالإهداد الضخمة من المسلمين في هجبات النتار للتواليمة ، والجملات الصليبية المنصولة ، غير أن أبرز ما تتمثل به هذه المرحلة . هو إتساع نفوذ اللغتين الفارسية والتركية إلى جوار اللغة العربية ، فقد برزت ثقافة إسلامية لها طابع فارسي منذ القرن الثالث الهجري ، غير أنها لم تلبث أن توسعت وتعمقت وحملت مضامين قومية وصوفية ، ثم كانت نهضة الأدب التركي المستمد من الأدب الفارسي أساساً والأساير في نفس خطه الصوفي ، والتميز بطابعه القومي فيما بعد ، وقد بدأ طابع الثقافة الشيعية يقلب على فارس منذ قيام الدولة الصفوية ، ويبدع فيها فكراً جديداً يتمثل في مفهوم الدعوة الشيعية وفقهها وتاريخها وبطولاتها . كما أثمرت الثقافة التركية — التي أحييت اللسان التركي وبدأت تكتب به — بطابع السنة ، للشوب بروح التصوف الفارسي ، وبرى بار تولد أن الترك لم يتخلوا عن لسانهم ومع ذلك فإن تأثير المدنية العربية الايرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية في أي مكان أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافية وحتى القرن ( ١٣٨٧ م ) كانت اللغة العربية لغة رسمية في آسيا الصغرى ، وهي أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب ، والنقوش الموجودة بالأناضول كانت تكتب حتى القرن ١٣ م باللغة العربية . وقد ظلت العربية لغة القضاء في بلاد الترك حتى كاشفر إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي .

ولا شك قد لعب الاسلام دوراً هاماً في تكوين الثقافة التركية ، التي كانت في الأساس جزءاً من الثقافة الإسلامية مطبوعة بطابع السنة بالإضافة إلى التقاليد ، والعادات واللغة العربية ، وأصطناع الحروف العربية في كتاباتهم . بالرغم من اتخاذ الدولة العثمانية « التركية » لغة ، فإنها لم تحاول أن تفرض لغتها على البلاد العربية حيث ظلت اللغة العربية سائدة ، وطل الاسلام بوصفه ثقافة عربية يفرض طابعه على بلاد الأناضول والبلقان . بل أن اللغة التركية تأثرت باللغة العربية القراآية حتى

وصفت بأن نصفها عربي ، وظهر أثر ذلك في أسماء الأسر والأفراد وحدث طوابع التقاليد الإسلامية العربية واضحة الأثر في المجتمع العثماني وفي أنظمة البيوت ، بل أن المثقفين والكتّاب العثمانيين احتفظوا باللغة العربية أساساً ، بعد أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية ، وألقوا بها كثيراً من الكتب وظل القرآن العربي والحديث العربي يتلى ويروى بأدائه وحروفه العربية ( هزة دووزه ) وهناك شبه إجماع بين الباحثين على أن العنصر التركي لم يستطع أن يصنع العرب والعالم الإسلامي بصيفته بل ، هو أن الذي تحول إلى العصبغة الغالبة : صبغة العربية والسلطان العربي الأدبي بحكم أنه طابع الإسلام أساساً . وقد ورث العثمانيون النظام الإسلامي الاجتماعي والسياسي المستمد من الشريعة الإسلامية ، وطبقوه وجعلوا من المذقي ( شيخ الإسلام ) وعدد من المذقي والفقهاء ومشايخ الطرق وخطباء المساجد هيئة تتولى الناحيتين القضائية والتعليمية في أنحاء الدولة ، وكان هذا هو مصدر محافظة العثمانيين على الثروة الفكرية والثقافة الإسلامية التي تتمثل في الفقه والتوحيد والشريعة والتصوف والفلسفة .

وبصور العلامة حيدر بامات أثر الإسلام في الأدب التركي فيقول : يبدو هند الكلام من الأدب التركية أنه من المتعذر تجرّدها من المؤثرات العربية ، فما لا جدال فيه أن هذه المؤثرات قامت بعملها خلال الأدب الفارسي على الخصوص ، وأن الأدب الفارسي لم يبلغ أوج كماله إلا بمباشرة الفاتحين العرب ، وبفضل المثل الديني الأعلى الذي كان العرب حملة لوائه . ويقول فون هامر برجستال : هرف التترك الذين لم يكن عندهم مثل ما عند العرب والفرس من هبقرية شعرية فطرية أن يجعوا ذخائر ثقافة هاتين الأمتين فبدوا تجاه العرب والفرس من هذه الناحية وغيرها كما بدا الرومان تجاه اليونان وقد ردد الشعراء العثمانيون صدى الشعر الفارسي والعربي . . وقد ظلت اللغة العربية هي اللغة الدينية والعلمية التي تكتب بها الوثائق الدولية وتتم بها المراسلات . أما اللغة الفارسية فهي لغة البلاط ، أما اللغة التركية فكانت لا تستعمل في غير الاتصال بالشعب . وقد أجمع المؤرخون على اهتمام العثمانيون بالعلوم والأدب العربية الإسلامية وولوع سلاطينهم بها ، وأن السلطان محمد الفاتح فضلاً عن أنه أسس جامعتين عظيمين : ( وكان خلفاء العثمانيين أسسوا مساجد فاخرة ) فإنه عني بالكتب وأنشأ لها الخزائن وأبقى على فوائدها وأمر بأن يكتب على أبواب المكتبات قول النبي ﷺ : طالب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد أولى اهتماماً لكتب اليونان فأمر بنقلها إلى التركية . كما برع العثمانيون في التاريخ ، فلم يكونوا رواة فحسب ، بل محللين ، وقد قدموا في مجاله بمجونا مستفيضة ( مادة وتحليل ) ومن أهم مؤرخيهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ . وكان أوائل السلاطين إلى ذلك أدباء وشعراء ناصروا الأدب وأهله ، وقدموا العلماء والأدباء كثيراً من الهدايا والمكافآت



الجزيلة التي أعانت على تقدم العلوم والفنون ، وكان منهم شعراء لهم دواوين مطبوعة ، وقد برز في  
عصور الدولة العثمانية الأولى مفكرون وعلماء كثيرون ، نقول هذا ونحفظ في أن العثمانيين لم يتأثروا  
خطي العرب إلا في أمور الشريعة والفقه وعلوم الدين ولم يظهروا ميلا إلى العربية وخدمتها على النحو  
الذي أظهره الفرس . وقد حظي في عصور السلاطين أمهالهم كثير من بالتكريم للعلم فقد تشبهوا  
بالخلفاء والسلاطين والملوك السابقين في تقدير العلماء وبناء المدارس ، وقد اتخذ أروخان ابن عثمان  
من العلماء أهل شوره وعهد إليهم إدارة المدارس التي فتحها . ومن العلماء اللامعين في حاشيته هر بشاء  
السوري ، أما الفانج فكان يتكلم خمس لغات وكان ملما بالعلوم والرياضة ، وقد أحيى في القسطنطينية  
ما وصف بمصرها الذهبي بما أنشأ من المدارس ودار الفنون وكان السلطان سليم الأول شاهراً وله  
أنار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وقد نقل إلى بلاده المؤلفات العربية واستقدم العلماء  
والأدباء ، أما السلطان سليمان القانوني فقد كان عالما بالفقه والقانون وهو الذي وضع قوانين الدولة .

### الحركة الصوفية

كان للنصوف دوره الحاسم في كلا المرحلتين : مرحلة الفزوا الخارجي ، ومرحلة الوحدات الثلاث :  
( العثمانية ، الصوفية ، المتولية ) ومنذ القرن السادس ( ١٢ م ) صارت للصوفية منظمة اجتماعية ،  
إحتضنت عدداً ضخماً من أفراد المجتمع ، وكانت في مصادرها الأولى تتمثل في مجموعة المرابطين في  
في الثغور ، والمنظورين للجهاد وقتال العدو المغير على السواحل ، والعاملين على نشر الإسلام في  
الأطراف البعيدة ، غير أن حركة النصوف لم تلبث أن ركبت وتحوّلت من ناحية إلى جماعات من  
الدرائش المقيمين في الخانقاه والتسكيا ، وغزا فكرها خليط من التصورات الفلسفية الهندية  
والمجوسية والبوذية واليونانية القديمة في مسائل الحلول ووحدة الوجود فأخترت عن مفهوم الزهادة  
الإسلامي السمح ، ومن هنا كانت معارضة ابن تيمية لها وحملته عليها ، واعتباره الحبيج الأضرحة  
والتماس العون من قبور الألياء « وثنية » تخرج عن مفهوم الإسلام البسيط السمح الذي يفتح الطريق  
بين الإنسان وربّه دون وساطة أو شفاعة . غير أن دعوة ابن تيمية إلى التوحيد الخالص ( ٧٣٩ هـ )  
ومحاربة مختلف الفرق كالصوفية والفلاسفة والمنكلمين إنما كانت تهدف إلى تصحيح مفهوم  
الإسلام في شموله وتكامله ووسطيته ، هذه الدعوة لم تحل دون امتداد النصوف وانتعاشه طوال  
العصر العثماني حتى تجددت الدعوة إلى التوحيد الخالص في ألبان يقظة الأمة العربية كقوة جديدة من  
قوى البعث الإسلامي ، وكوجة جديدة هي عنوان على « مرحلة اليقظة العربية الإسلامية » بعد أن  
ضمت « الوحدة الإسلامية العثمانية » عن حمل لواء الإسلام كقوة متطورة دافعة لتاريخ الإسلام إلى

حتميته . وكان جلال الدين الرومي قد ظهر في الأناضول ( توفي ٦٨٨م ) وعرف بأنه أعظم شعراء الصوفية وله كتاب « المثنوى » بالفارسية وهي منظومة صوفية في نحو ٣٠ ألف بيت . قال للؤرخون أنها موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض غرباً وأنها مرجع لكل من أراد إلماًاً بقصائد الصوفية . وقد كان للمثنوى أبعاد الأثر في الشعر التركي . وقد نشر جلال الرومي طريقة الصوفية في الأناضول قبيل ظهور الدولة العثمانية فانتشرت طريقته المعروفة بالمولوية . وفي أوائل العصر العثماني ظهرت « الطريقة النقشبندية » وامت أقطار الدولة العثمانية ثم توسعت الطرق الصوفية من بعد : ( أروخان — الطريقة السعدية ) . وقد تأثر الأدب العثماني بالتصوف تأثراً كبيراً . ويرى حيدر بامات أن التصوف كان من العوامل التي ساعدت على نشوء الأدب التركي وأن هذه للمبادئ الصوفية جاءت من آسيا الوسطى ، وقد كانت الأناضول مستعدة استعداداً خاصاً — بعد أن اجتاحتها الغارات المغولية الأولى — لتقبل مواعظ الدراويش الذين أدخلوا إلى الأناضول أشعار أحمد يسمري التركية فانتشر نفوذ هذا للتصوف الخراساني في جميع آسيا الوسطى وفي أذربيجان حتى سهل الفولجا وكان متصوفة الأناضول يكتبون باللغة الفارسية فيعانون نفوذ التصوف العربي الفارسي الذي ظل جلال الدين الرومي عنوانه الأعلى . وقد تأثر العثمانيون بالتصوف والسنة معا ، ويرى الباحثون أن تشدهم للترك واندفاعهم إلى العمل تحت راية الإسلام والجهاد كان نتيجة مفهومهم لعقيدة السنة والتصوف متميزين ، وأن هذا يختلف عن مفهوم الفرس الذي ينقسم بطابع الاجتهاد والعقلانية والفلسفة ، وقد كان هبة القادر الجيلاني ( ٥٦٩ هـ ) أكبر دعاة الصوفية الذين حملوا لواء الدعوة إلى إخضاع الطريقة للشريعة والتمسك بالكتاب والسنة ، فقد عارض بقوة دهور القائلين بانفصال الشريعة عن الحقيقة ودعوى أن الوصول إلى الحقيقة يسقط الفرائض والتكاليف الشرعية والفلسفة ، وقد وكان ذلك التصحيح المفهوم الإسلام سبباً في دخول عدد كبير من غير المسلمين في الإسلام وتصحيح عقائد عدد هائل من المسلمين غير أن التصوف الإسلامي لم يلبث أن انحرف مرة أخرى بتأثير تراث التصوف الفارسي القديم من الاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

## (٢)

ينسجم هذا العصر في مجال الفكر والثقافة بمظاهر هامة : الأولى : نمو البحث العلمي الإسلامي في مجال الفلك والعلوم الطبيعية ، فقد هاجر إلى المشرق كثير من علماء المغرب والاندلس الذين كانت جامعاتهم وأبحاثهم العلمية قد اتهمها الغرب حين أضاف مدنهم الحافلة بمعامل الأبحاث

والدراسات إلى نفوذه ، كما حدث في طليطلة وبالنسبة وقرطبة ، وقد اتسمت مرحلة الغزو الخارجي بالتحاق كثير من علماء الأندلس والمغرب بمحاضر مصر والشام وفي هذه المرحلة استمر هذا التدفق . الثانية : كما ظهر في مرحلة الغزو والمقاومة (٤٩٨-٦٩٨) مجموعة من أعلام الفكر الإسلامى في مجال العلوم الطبيعية لا تقل قدراً عن مرحلة التبلور والانصهار (١٣٢-٤٩٨) أمثال القزوينى وابن منظور وابن طفيل وابن رشد ، فإن مرحلة الوحدة الإسلامية (٦٩٩-١١٥٣) قد حفلت بأعلام لهم دور كبير في بناء الفكر الإسلامى وتطويره ، لعل من أبرزهم ابن تيمية ٧٢٨ وابن القيم ٧٥١ وابن خلدون ٨٠٨ ، وابن نباتة ٧٦٨ وابن بطوطة ٧٧٩ والقلقشندي ٨٢١ والمقرئى ٨٤٥ والشاطبي والبلقينى ، والسيوطى ، وقد اتصل تطور العلم في مجال الطب والطبيعات فقد كان من ألمع أطباء هذه الحقبة : ابن النفيس : مكتشف الدورة الدموية . الثالثة : طالت معاهد وجامعات الفكر الإسلامى تقوم بدورها : الزيتونة والاموى ومدارس النجف والازهر ، ومن خلال هذه المعاهد انبعثت البقعة مرة أخرى ، وظلت هذه الجامعات منارات للثقافة العربية الإسلامية ومرجعاً الدولة العثمانية في شؤون الفقه واللغة العربية ، وفي الازهر تعلم أكبر العلماء العثمانيين : شمس الدين الفنارى ، ويعقوب بن إدريس ، وعلى الدين السكافيه جى والمولى أحمد بن إسماعيل السكورانى وعديد من أعلام الثقافة الإسلامية من الأتراك ، وكان للأزهر إلى ذلك هيئته واحترامه . وفي هذه المعامل تحضنت اللغة العربية والتراث الإسلامى وغالبت لغة العثمانيين ، وفي خلال القرن الثامن الهجرى حفل الازهر بأعلام في مقدمتهم : ابن حجر العسقلانى ٨٥٢ والقلقشندي ٨٢١ والمقرئى ٨٤٥ ابن تفرى بردى ٨٧٤ بدر الدين العيني ٨٥٥ سراج الدين البلقينى ٨٦٨ وشمس الدين السخاوى ٩٠٢ وجلال الدين السيوطى ٩١١ وفي خلال القرنين العاشر والحادى عشر أبرز الازهر عدداً من العلماء أمثال : ابن الحق السنباطى والشيشينى والمناوى والصفدى والشوبرى والشبرايمى والزرقانى والبرماوى وحسن الجبرتى (والد الجبرتى) والشرنبلالى (راجع : السكواكب السائرة في أعلام المائة العاشرة) . وظل الازهر كذلك مقصداً لكبار العلماء الوافدين إلى مصر من أنحاء عالم الاسلام ومن قدم إليه خلال القرن الحادى عشر علامة المغرب : شهاب الدين المقرئى ١٠٢٧ وتوفى بها ، وكتب المقرئى في مصر : نفع الطيب وإزهار الرياحين . وظلت حلقات الازهر خلال هذه المرحلة خاصة بالعلماء والطلاب ، وبلغ طلابه في هذه الفترة نحو ألف طالب ، وفي فاتحة القرن الثانى عشر وفد على القاهرة عبد الغنى النابلسى وكتب يقول : دخلنا الجامع الازهر المعمور بالعلماء والصلحاء وقراءة القرآن ودرس العلم ليلاً ونهاراً ، كما قدم إلى مصر في هذه الفترة مرتضى الزبيدى شارح القاموس والعلامة المغربى

أبو عبد الله المربني . رابعاً : بدأت في هذه المرحلة إرغاصات اليقظة فالوزير العثماني أحمد باغور وإلى مصر ١١٦٢ ١٧٤٨ م كان من هواة العلوم الرياضية ، وقد قابل علماء الأزهر وفي مقدمتهم عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر وسأله عن العلوم الرياضية فاعتذروا بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً ، ونهى الوزير هذا النقص من علماء مصر ، وقد نال الشيخ حسن الجبرتي والد الجبرتي المؤرخ حظوه عند الوزير لبراعته في العلوم الهندسة والرياضية ، وقام الوزير بتصميم عدة مزاويل لبيان الوقت وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر وقد ظلت قائمة به إلى عصر الجبرتي .

خامساً : دارت في هذه المرحلة مساجلات فكرية ضخمة : فقد أثارت أراء ابن حجر والقلق شندي والمقريزي ، في صحن الأزهر مناقشات ، وقدم ابن خلدون نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأ الدول . وتلقاها عنه تلميذه المقريزي الذي تأثر بها في موسوعة [ إغاثة الأمة لكشف الغمة ] ودارت بين البقاعي والسيوطي ، وبين البقاعي والسخاوي وبين السيوطي والسخاوي معارك أدبية وفكرية في اللغة والأدب ، وجرى في صحن الأزهر مراجعات تحفل بها موسوعة السخاوي : [ الضوء للامع في أعيان القرن الرابع ] وكان موقف العثمانيين من الثقافة بوجه عام موقف يتسق مع طابعهم العسكري الحربي فقد كان الحكام الأول قرييون من اللغة العربية والثقافة الإسلامية ثم توسع نطاق الثقافة التركية القائمة على اللغتين الفارسية والتركية وضعف أمر الثقافة العربية الإسلامية ، ويمكن القول بأن ثقافات ثلاث شملت عالم الإسلام مرتبطة باللغات الثلاث الكبرى :

— الثقافة الفارسية الإسلامية في فارس والهند . — الثقافة التركية الإسلامية في آسيا الصغرى — الثقافة العربية الإسلامية في الوحدات العربية . هذه هي الظاهرة الأولى : أما الظاهرة الثانية فهي سيطرة الأدب الصوفي في العالم الإسلامي كله ، ولقد كان للثقافتين الفارسية والتركية أثرهما في توسيع نطاق هذا الأدب العاطفي وتأثر الأدب العربي به نتيجة لاتصال مضمونة بالاسلام نفسه . ومن ثم ضعفت في هذه المرحلة وتقلصت الدراسات العقلية في مجال الفقه والفلسفة والتوحيد . ويمكن أن يقال : أن العالم الإسلامي قد انحاز إلى الطوائف الروحية والوجدانية التي تتمثل في الصوفية للفرقة في الجبرية والإسفسلام ، وقد كان لهذه الظاهرة المنحرفة عن وسطية الإسلام أثرها البعيد المدى لمدة قرون من بعد :

الظاهرة الأولى : تقوم الثقافة التركية الإسلامية على عناصر ثلاث : ( ١ ) الثقافة الفارسية وقد ظلت هي لغة البلاط العثماني . ( ٢ ) والثقافة العربية وهي ثقافة الفقه والشريعة والدين والعلوم . وكانت العربية في أول الأمر لغة الدولة في مراملاتها ، ثم تكونت من العنصرين معاً : « الثقافة

التركية ، التي كتبت باللغة التركية وكانت في أول الأمر لا تستعمل في غير المجالات الشعبية ، فقد تأثر الترك بأثار الثقافتين الفارسية والعربية . أما الثقافة الفارسية فقد غلب عليها الشعر الصوفي ، أما الثقافة العربية فقد غلب عليها الفكر الإسلامي لعلومه ودراسته المختلفة . ولما كانت اللغتان الفارسية والتركية متقاربتان ، فقد غلب طابع الثقافة الفارسية المتمثل في اللغة التركية واصبحت لغة الدولة والثقافة معاً ، ولما كانت الثقافة التركية فارسية الطابع وليست عربية ، فقد برز دور الأزهر والزيوتنة والنخف والقرويين في حماية اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية : وتبدو هنا ملاحظات هامة :

(١) إن حدوث الثقافتين الفارسية والتركية قائمة أصلاً على « المثل الإسلامي الأهل » . (٢) إن غلب التشيع على الفرس وغلب السنة على الترك لم يمنعهما من التأثر بالتصوف ، الذي ساد الثقافات الإسلامية الثلاث بدرجات متفاوتة ، ومع ذلك فقد ظلت الثقافة العربية محتفظة بطابعها ومقوماتها الأساسية القائمة على تزكية النفس والتوحيد معاً ، على المزج بين الفقه والتصوف . وإن غلب طابع التصوف على الفقهاء . ويرجع ذلك إلى جامع الأزهر والزيوتنة الذين حفظا : الفكر الإسلامي واللغة العربية في وقت معاً . الظاهرة الثانية : ارتباط ظاهرة اتساع الحركة الصوفية بالحروب الصليبية والغارات للغولية ففي خلال القرنين — خلال معركة الغزو الخارجي والمقاومة — وتعمل التصوف في الجهاد والمقاومة ، فقد كان عمق الإيمان بالإسلام هو الدافع الأكبر لتحرر المجموعات المضخمة من المسلمين عن مطاعم الحياة واندماجها في القوى العاملة للحرب والمقاومة والقتال ، وكان ذلك يفرض على هؤلاء المجاهدين نظماً اجتماعية قوامها للرابطة في الثغور والاكتفاء بالقليل من الزاد والالتجاء إلى الله فلم يكن الزهد أو التصوف في هذه المرحلة إلا سلاحاً ضخماً من أسلحة المعركة ، التي هزف عنها الطامعون في الحياة ، الغارقون في ترفها ومتعها ، بينما أقبل عليها رغبة في الدافع من أرض الإسلام وكيان المسلمين ، أولئك الذين كانت نفوسهم قد ارتبطت بمتابعه صيحة الدعاة والمرشدين وصغرت في هيونهم رغبات الحياة ومطامعها ، وقد شملت هذه الظاهرة عالم أفق عالم الإسلام كله ، ففي المغرب وعلى سواحه كانت عمليات الغزو التي يشنها الفرنجة لا تتوقف ، وفي المشرق كانت حملات الصليبيين وإمداداتهم لا تتوقف ، وغزوات التتار الجاثمة المندفعة كانت تباغت عالم الإسلام عواصمه ، ومن ثم هاش المسلمون في مختلف هذه المناطق حياة ذات طابع غريب ، هو طابع المقاومة باط ، وهو طابع عاشت عليه أجيال متوالية ، لم ترددهن أن تهب نفسها للمعركة ، دون أن تولي اهتمامها لأمر من أمور الدنيا ، فلما توقفت الحروب الصليبية وغزوات التتار ، كانت تلك

الظاهرة التي استمرت حوالي مائتي سنة قد تركت آثارها في المجتمع والفكر ، وخلفت أثراً بعيداً المدى قوامها ذلك الطابع الجبري من التسليم والرضا بالظلم ونشأ ذلك التصور البعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام وهو : تقبل ذلك كله والاستسلام له بوصفه قدراً من عند الله لا يرد ، وكان هذا هو البعيد للدي الذي أنتج الانفصال عن مفهوم الإسلام في الجهاد وفي الحياة وفي الزهد جميعاً ، ولقد كان هذا المفهوم الجبري دخيلاً على الإسلام وليس مستمداً من مقوماته أو مفاهيمه الأساسية ، وإنما جاء من فلسفات ومذاهب قديمة طاشت طويلاً في تلك البيئات ولما تنصهر انصهاراً كاملاً في الفكر الإسلامي ، ثم استطاع الغزو الأجنبي أن يثيرها ويجدها ليجمعها عاملاً من عوامل التثبيط والاستسلام والافغان لتفوقه وسلطانه . ثم استغلها بعض الحكام والأمراء والولاة في خلال « مرحلة الوحدة » الإسلامية العثمانية ، التي كان « التصوف » الجبري طابعها الاغلب ، وإن كان الأمر لم يخل مطلقاً من قيام دعاة يفهمون الاسلام فيها سليماً يدهون إلى التحرر والتصوف ويدهون إلى ارتباطه بالشريعة وإلى تحليله من النزعات الفارسية والهندية واليونانية القديمة التي أضفت إليه نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وإذا كان « التصوف » قد كان بعيد الأثر في مرحلتي الغزو الخارجي ومرحلة الوحدة العربية الإسلامية وما بعدها في نشر الاسلام وتوسيع آفاقه ذاتياً وكسب أرض جديدة للتوحيد ، فإنه قد أضعف الجانب العقلي في الاسلام ، وأصاب المجتمع الإسلامي بعوامل الركود والضعف والاستسلام والقدرية باسم « الجبرية » التي لم تسلم منها المفاهيم الصوفية جميعاً في هذه المرحلة ، وكان من آثار الموجة الصوفية العاتية اتساع نطاق الزوايا والتكايا ، وكثرة الداعين إلى رفض الدنيا ، ومن قلب الدولة العثمانية التي كانت تقود المعارك وتقاتل وتحارب ، ظهرت هذه الدعوة وتعمقت وكان لها أثرها البعيد في مرحلة الضعف والتخلف ويرى كثير من الباحثين أن « المفاهيم الصوفية » قد تأثرت كثيراً بالفلسفات اليونانية والجوسية الفارسية القديمة . ولم يلبث رجال الصوفية أن سيطروا على القدرات السياسية في الدولة العثمانية وازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية عندما بالغ الحكام في الخضوع لهم ، وكان موقف العلماء بالنسبة لذلك يتمثل في محاولات إصلاح الصوفية وردّها عن انحرافها والانكار عليها ومن الذين أنكروا على الصوفية محمد صفي الدين الحنفي وكلهم تابعوا تقي الدين بن تيمية وابن حجر العسقلاني ، كما شكك العلماء من انتشار الجهل ، ويمكن القول بأن الصوفية كانوا يمثلون معسكرين منفصلين : الصوفية المجاهدون الذين عزفوا عن السلطان وهاموا في الأرض يدهون إلى الله والذين أسلم على أيديهم كثير من الأمراء والحكام ، والصوفية التقليديون الذين اتصلوا بالولاة فاتخذ منهم الأخيرين وسيلة لتثبيت ملكهم . ولم يستمر الانحراف في مفهومهم الصوفية إلا جزءاً من الانحراف الذي أثارته الباطنية والشعوبية وخصوم

الإسلام وأصحاب دهورات الهدم والتدمير ، وكانت كل جهود هذه الدهورات تهدف إلى الانحراف بالاسلام عن مفاهيمه الأصلية ، الاستغناء بالجزء عن الكل ، بينما يتمثل الاسلام في مفهومه الحقيقي . في خاصية الشمول والتكامل والوسطية ، قلباً وعقلاً ، قهراً وتصوفاً ، روحاً ومادة ، كان أبرز العوامل الهدامة في دهوة بعض الصوفية « طابع الجبرية والاستسلام للمقادير وغلبة النزعات الوجدانية والروحية » واعتباره الوسيلة الوحيدة لفهم الإسلام وكذلك في رفع مقام الولي إلى مقام النبي أو ما فوقه وقد حمل الشعرائي ( ٩٧٣ هـ ) على المتصوفة في عصره — وهو من أئمة الصوفية — فقد رأى أن معظم دجالون ، يمتثلون على أموال الناس ، وحذر المجتمع من حيلهم ودجلهم وأورد صوراً وقصصاً تمثل فساد أخلاقهم وتهاونهم على حطام الدنيا ووقوفهم بابواب الحكم ، غير أنه كثيراً من أعلام الصوفية ، كآبي الحسن الأشعري ، والشعرائي ، وأحمد البديوي قد حملوا السلاح في معارك مقاومة الفسز والخارجي ولا شك كان التصوف رد فعل خطير في مواجهة التحلل والانحراف والتزلف الذي غمر الجمع الاسلامي في هذه المرحلة ، وفي مواجهة طغيان الحكم والولاء والامراء .

( ٣١ )

### اليقظة العربية الاسلامية

« جرى تاريخ الإسلام على سنة الانبعاث من الداخل وأقر في مختلف مراحل حركته الطاقات قانوناً ثابتاً لا يتحول ، هو تفجير الطاقات الجديدة من قلب الطاقات القديمة وبناء الخلايا الشابة بمجرد هجز الخلايا العاملة من الحركة . وقد أتاح الإسلام بقيمة القادرة على الحياة والحركة والنماء لتاريخ الاسلام : هذه الخاصية من النماء والتحول موجة بعد موجة من خلال دورة كاملة ، ومن هنا فقد كان ضعف الدولة العثمانية الاسلامية عن حمل أمانة لإسلام ، إيذاناً ب بروز قوة جديدة تحمل هذه الأمانة ، هذه القوة هي الأمة العربية التي انبعثت من أعماقها الدعوة الإسلامية الأولى فحملتها إلى آفاق العالم وكانت لغتها هي لغة القرآن ، قالفة العربية تعود مرة أخرى بعد أن نخلت طويلاً من مكان القيادة — إلى حمل أمانة الإسلام من جديد تدهو إلى تحريره من التقليد والجبرية وترد إليه روح الاجتهاد والابتعاد وتحمل لواءه . »

في أواخر القرن السابع الهجري ، كانت الحركة الصليبية في المشرق قد بلغت غاية الضعف فلم

تلبث أن طوت أعلامها وأنسجت من عالم الإسلام مهزومة بعد قرنين كاملين من الصراع . هنالك كانت موجة جديدة من موجات الإسلام تنأهب لتأخذ مكانها على مسرح الأحداث وتلعب دورها التاريخي كحلقة متتابعة متصلة من حلقات تاريخ الإسلام . وقد بدأت هذه القوة بالفعل تأخذ مكانها في آسيا الصغرى منذ ( ٦٩٩ هـ ١٣٠٠ م ) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوروبا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الإسلامية العثمانية ( ٩١٥ هـ ١٥١٧ م ) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوروبا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الإسلامية العثمانية ( ٩١٥ هـ ١٥١٧ م ) في نفس الوقت الذي كانت الدولة الصوفية في فارس والمغولية في الهند تغطي عالم الإسلام في مجال البناء السياسي .

وكانت « الوحدة الإسلامية العثمانية » هي أقوى الوحدات الإسلامية الثلاث وأوسعها نطاقاً فقد شملت العالم العربي كله بالإضافة إلى الدولة العثمانية وإلى امتدادها في أوروبا . وقد امتدت هذه الوحدة قوية مهمة ضخمة خلال أربعة قرون كاملة ، غير أنها لم تلبث أن واجهت نقطة التنازل والضعف في القرن الحادي عشر لخلاله وخلال القرن الثاني عشر كانت الوحدة الإسلامية العثمانية تتحول من معارك الهجوم إلى معارك الدفاع ، وكانت أوروبا التي واجهت التوسع الإسلامي العثماني خلال القرون الأربعة قد أخذت تتقدم علمياً في مجال الحرب والصناعة ، حين توقفت الدولة العثمانية عن تطوير صناعاتها الحربية وأساليبها في مجال المقاومة والدفاع ، ومن ثم بدأت هزائم الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي بدأت هذه الوحدة تتزعزع ، وأخذت عوامل الضعف والاضطراب تؤثر في كيان المجتمع ، وتوسع شقة الخلاف بين العناصر والقوى والأحداث ، وحين أخذت الصوفية تجرف الفكر الإسلامي وتمحرف به ، وتسيطر عليه وكأنها وحدها مفهوم الإسلام ، بينما إنعادت تحت سيطرتها وضمعت مفاهيم الإسلام الأساسية من التوحيد والعدل والحرية والقوة واليقظة والرباط الحربي ، وحين بلغت الصوفية سيطرتها على المجتمع ووسمته بطابع التواكل والضعف والاستسلام الحقيقي : للجامع بين العقل والقلب والعلم والروح ، والدنيا والآخرة ، وإخفى طابعه الإيجابي التقدمي : طابع الشمول والتكامل والوسطية .

فإذا ما بلغت مفاهيم الإسلام هذا الانحراف ، كان لا بد أن تبرز قوة جديدة لتعيد صياغة مفهوم الإسلام من جديد ، وتصحيح المفاهيم ، وتكشف عن جوهره الذي اختفى تحت تضاهيف الانحرافات المسيطرة . شأنها في ذلك شأن الإسلام في مختلف مراحله ، وطوال تاريخه .



ومن هنا كانت « موجة اليقظة الإسلامية العربية » ، منبعثة من القوة الأصلية الأولى التي بلغت مفهوم الإسلام من النبي أول مرة في جزيرة العرب ، وحملت إلى العالم كله وظلت تحمل لوائه في مجال الفكر والسياسة خلال قرون متصلة ، تلك القوة هي « الأمة العربية » . فقد بدأت من قلب الأمة العربية أول دھوة إلى تحرير الإسلام من الزيوف والبدع والاضافات المنحرفة التي هاصرت هذه للرحلة الطويلة ، وكانت هاملا من هوامل الضعف والتخلف ، وامتد أثره من بعد ، حين انهارت الوحدة العثمانية الإسلامية وضعفت قيادتها ممثلة في الدولة العثمانية ، وكان الغرب قد أهد خططه في السيطرة على مختلف وححدات الدولة العثمانية بعد انتزاعها منها ، وبذلك وعن طريق هذا الانحراف في مفهوم الإسلام ، انهارت الدولة العثمانية كمثل . وسيطر الاستعمار على هذه الوحدات العربية .

غير أن صوت « الدعوة إلى تحرير الإسلام » من الانحرافات قد كان هاملا أساسيا في اليقظة الإسلامية الجديدة التي كانت قيادتها مرة أخرى للأمة العربية ، التي بدأ كيائها يبرز كقوة منفصلة عن الدولة العثمانية ، بعد أن صرت حركة للقاومة بمرحلة طويلة من العمل تحت لواء « الجامعة الإسلامية » ؛ هذه الجامعة التي كانت تمثل مواجهة السكان العربي العثماني موحداً لحركة الاستعمار ، ثم كان لا بد من انتقال إلى مرحلة جديدة من المقاومة باسم الوحدة العربية وحدها ، بعد أن وقع الصراع بين العثمانيين والعرب حين حل قادة العثمانيين لواء الدعوة إلى الجامعة الطورانية أو القومية التركية . وفي نفس الوقت الذي كان دور الترك بالنسبة لقيادة عالم الإسلام ينتهي ، كان دور العرب يتألق ويقوى ، فقد حملت الأمة العربية مرة أخرى لواء هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي كقوة قيادية موجبة ، حملت لواء اليقظة ، هذه اليقظة التي انبعثت من تصحيح مفهوم الإسلام « التوحيد » بينما كان انهيار القوة العثمانية يقظة للاستعمار الذي حل محلها في كل مكان ، بدأت حركة اليقظة الإسلامية ، وقد أطلق عليها حركة الإصلاح الإسلامي ، من قلب الإمة العربية وتمثلت في دھوات متتارة في إجراء العالم الإسلامي في وقت واحد ومتوالية من بعد على فترات . بدأت الحركة الأولى والكبرى والأم ( عام ١١٥٣هـ - ١٢٤٠م ) في منتصف القرن الثاني عشر ومازالت مستمرة إلى اليوم خلال أكثر من قرنين كاملين ( أو ما يقرب من ٢٢٧ سنة ) وكانت الأمة العربية هي « يورة الحركة » وإن كان قد امتد أثرها إلى الهند وأندونيسيا وأفريقيا .

وقد صحح العرب مفاهيم الإسلام في دقة ، وكان أبرز مراكزها عليه ، شجب المفهوم الفائل بأن الصوفية وحدها هي الإسلام أو أن القلب وحده هو طريق المعرفة ، وكانت دھوة اليقظة العربية

الجديدة تقول بأن العقل والفلب هما مصدر المعرفة وأن الإسلام في تكامله وشموله ووسيطته يجمعهما ويمزج بينهما وبذلك النقي الغزالي وابن تيمية في نفوس هؤلاء الدعاة والنقي المتصوف والافرنزال وقامت « السنة » من جديد وفق هذا المفهوم تفسر اتصال الإسلام بالحياة والحضارة وتكشف عن جوهره وحيويته وقدرته على الحركة والعمل في كل عصر وبيئة . وحين بدأت الوحدة العربية استلهمت قاعدتها الأساسية من وحدة الفكر العربي الاسلامي الذي يتمثل فيه فكر مختلف العناصر التي تعيش في العالم العربي ، هذه الوحدة التي كانت تحمل مفهوما واضحا هو أنه إذ ذل العرب ذل الاسلام وأن يقظة الاسلام لا بد أن تلبث أساساً من الأمة العربية التي تأملت لحل لواء الإسلام منذ أربعة عشر قرناً والتي تحمل لواء اللغة العربية : لغة القرآن . وكما كشفت هذه المرحلة من جوهر الإسلام قويا إيجابيا قادراً على الحياة فقد كشفت عن أصالة العالم الاسلامي في مواجهة الغزو الاستعماري الحديث في مرحلة عنيفة ممتدة حاول فيها الغرب السيطرة على هذه الوحدات المختلفة ، بدأت هذه الحركة بتطويق العالم الاسلامي من خلال حملات الكشف والملاحقة ، التي بدأها البرتغاليون والاسبانيون كرد فعل انتقامي لشواطئ المغرب وأفريقيا ، وكحركة تطويق العالم الاسلام ، انصلت بسقوط الأندلس ، اتصال معركة الحروب الصليبية في المشرق بمعركة الحروب الصليبية بالمغرب . وقد واجه العالم الاسلامي الاستعمار الغربي : هولندية في أندونيسيا وإنجلترا في الهند وفرنسا وإنجلترا في العالم العربي في معركة مقاومة مستمرة ، كما واجه المسلمون معركة تصفية خطيرة في التركستان وما وراء النهر من الروس . كما صمدوا أمام مواجهة ضخمة في الهند والصين ، وكان أخطر ما واجهه الاسلام سيطرة الصهيونية العالمية على فلسطين .

## ( ٢ )

بدأت علامات اليقظة العربية الإسلامية في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ( الثامن عشر الميلادي ) كان العلماء في الأزهر أول ضوء في هذه اليقظة ، فقد أخذ العلماء يواجهون الأمراء والحكام ويجهونهم بالمظالم ، يأخذون عليهم الموائيق ، هذه الظاهرة تعطي أول دلالة على « أصالة » مفهوم الإسلام في مواجهة معضلات المجتمع ، فقد كشف العلماء في هذه الفترة عن إيجابية الإسلام في مواجهة الأحرار المستبدين ، وكانت آراء « ابن تيمية » في تحرير مفهوم الاسلام ، والدعوة إلى التوحيد ، وما أفاض العلماء في الكشف عن « نصوص الشريعة » من حق الأفراد ، وواجبات الحكم ، ومن هنا بدأ « علماء الإسلام » يأخذون مكان الصدارة بعد أن ظلت هذه الصدارة فترة طويلة « لاصوفية » .

الذين كانوا موضع تقدير الحكام وتقدير الاستعمار من بعد لفاهيمهم المنحرفة التي تفرض على الناس التسليم بالواقع ، وقبول الجبرية في سيطرة الحاكم ويسجل الجبرتي أن عام ١١١٤ هـ - ١٧٠٢ م شهد موقفاً باكرآ من هذه المواقف عندما أصيب أهل الأسواق ، نتيجة لظلم الأمراء ، فانجسوا إلى الجامع الأزهر « وشكوا أمرهم إلى العلماء وأزعمهم بالركوب معهم إلى الديوان ، وقد بلغ ذلك الأمر من القوة غايته حين أُلزم العلماء الأمراء بالتوقيع على ميثاق ( ١٢١٠ - ١٧٩٥ م ) الذي يعد وثيقة محددة لمفهوم الإسلام في إلزام الحكام بمنع فرض أى ضريبة على الأهالي إلا بعد استشارتهم ويروى الجبرتي أنه عندما حكمت المحكمة على أحد الأمراء بالإذعان ، فرفض ، هنالك هب العلماء لنصرة الحق ، أرسل الأمراء له وحملوه على الإذعان ، ولم يترك العلماء الأمير بغير حق مسجل فكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء وتعهد من الحكام بالتزام ما ينص به القانون ومن هذه النقطة ، نقطة تجدد نفوذ العلماء وارتفاع صوتهم ، بدأ عامل جديد ، مضاد لعامل الجبرية الذي فرضه الصوفية والذي كان يعطى للحكام حق إذلال الرعية والسيطرة عليها باسم الإسلام ، لقد وقف العلماء مع الشعب في نضاله ضد الأمراء الطغاة كمقدمة للحد من استبداد الولاة وهكذا كان العلماء في هذه المرحلة على رأس الثورات الشعبية التي قام بها الشعب على الأمراء الظالمين ، وكان مراد وإبراهيم طاغيتين متجبرين حيث كانت مجموعات الشعب تقصد إلى الأزهر فيتقدمهم العلماء ، وفي مقدمة من شاركوا في ذلك أعلام أجلاء مالدرديري ، والعروسي ، والشرقاوي ، وكان لعمر مكرم دور كبير من بعد ، قال الجبرتي عن الشيخ الدرديري : فركب بنفسه وتبعه جماعة من المامة حتى التقى بالأمير فكلمه ، ووبخه وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ما تخافون الله ، كما التفت الناس إلى الشيخ العروسي بعد وفاة الدرديري يلتهمسون عنده الحماية من الظلم .

وقد عزل والي وولي غيره ، قال الجبرتي ، ونزل والي الجديد من الديوان إلى الأزهر وقابل المشايخ واستراضهم ، كما التفت الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوي لمخاطبة مراد وإبراهيم ، فلما كلمهم ولم يجد أنراً لسمعه ، دعا إلى الثورة ، فاجتمع له أهل القاهرة وأهل الأطراف ، هنالك « ألزم الأمراء بما شرطه العلماء عليهم واتفق الصلح » وكان القاضي حاضراً ، فكتب صحيفة بذلك ، وفي خلال الحملة الفرنسية كان موقف عمر مكرم والعلماء مشرفاً ، وقد بلغ عمر مكرم القمة في ذلك حين خاطب خورشيد الحاكم التركي الذي رفض أن يستجيب لرغبة الشعب بعزله ، قال عمر مكرم : « أن أولى الأمرم العلماء وحملتهم الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتهما ، وأن للشعوب طبقاً لما جرى به المسلمون قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة

الإسلامية الحق في أن يقيموا الولاء ولم أن يعزلوا إذا انحرفوا عن سنن العدل وضاروا بالظلم ، لأن الأحكام الظالمين خارجون من الشريعة ، فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أني لا أكتفي بذلك ما جرت عليه عادة البلاد من قديم ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم هزلة وخلعه وقد صدر « عمر مكرم » في هذا عن فهم مفهوم عميق للإسلام والشريعة الإسلامية ، — ولم يصدر كما ردده بعض المؤرخين من فهم لآراء الفرنسيين — والواقع أن علماء المسلمين كانوا دائماً ينصحون الحاكم ويواجهونه إذا سار في الرعية سيرة الظلم ، وكان عمر مكرم امتداداً لمفهوم العلماء الذين سبقوه منذ أوائل القرن الثاني عشر ، ودلالة على أن الإسلام قد أخذ يكشف عنه تلك القشرة التي حجبته جوهره خلال انتشار مفهوم الجبرية الصوفية . والحق أن صوت الإمام محمد عبد الوهاب كان قد ارتفع منذ ( ١١٥٣ — ١٧٤٠ م ) بالدهوة إلى التوحيد ومواجهة الاستبداد السياسي وظلم السلاطين والملوك ، ولم تكن دعوته إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح المفاهيم وإعادتها إلى قائمها إلا تمهيداً من الخوض لغير الله ، وقد كانت تنطوي في أعماقها على مفهوم سياسي واسع يرمي إلى مقاومة الظلم ونفوذ الأمراء المستبدين . وقد سارت ذلك في نفس الفترة حركات سياسية ، يمكن أن توصف بأنها حركات إقليمية تدهو إلى تحرر بعض الوحدات واستقلالها عن الدولة العثمانية ، مثال ذلك حركات :

على بك الكبير في مصر ، الأمير فخر الدين الممعي في لبنان ، وظاهر العمر في سوريا ، وداود باشا في العراق . ولا شك يمثل القرن الثاني عشر مرحلة دقيقة في حياة الإسلام وتاريخ العالم الإسلامي والأمة العربية والدولة العثمانية ، هي في جوهرها رد فعل واضح للتحدى الطاعير الذي واجهه الإسلام نتيجة لضعف الدولة العثمانية وغلبة عوامل التفكك في عالم الإسلام ، ومن أبرز مظاهر هذا التحول الجديد ما يتصل بالمواقف التي حاولها نادر شاه في إيران ، والسلطان محمود في الدولة العثمانية من أجل مواجهة حالة الضعف والتفكك .

وكان نادر شاه الذي ولي عرش إيران ١٧٢١ م قد قلبه إلى أن ضمت للسلمين يرجع في جوهره إلى الانقسام بين السنة والشيعة ، وأن الاختلافات للذهبية هي العامل الأول لهذا التفرق الذي مكن الاستعمار الأوربي من فرض نفوذه ، ومن هنا حاول تأكيد الالتقاء بين إيران الشيعية والدولة العثمانية السنية في محاولة لتوحيد البعنة والشيعة على أصل مستمدة من جوهر الإسلام وفي نفس

الوقت آتجه السلطان محمود في تركيا ليحمل لواء هذه الدعوة، وكان من أهم ما قام به في هذا السبيل : القضاء على قوة الانكشارية ، تلك القوة العسكرية التي ظلت تركيا تعتمد عليها جيلاً بعد جيل ، وقد أصابها في هذه المرحلة الانحلال والتفريق والضعف نتيجة لتسرب مذاهب تحمل اسم التصوف وتنحرف به عن مفهوم الإسلام . وكان قد تكشف بوضوح مدى الخطر الذي أصاب الروح المعنوية للانكشارية بعد أن انحرفت عن مفاهيم الإسلام الأساسية مما أدى إلى فرار ٥٠ ألف جندي في وجه خمسة آلاف جندي في البلقان ، وقد عمد السلطان محمود في مواجهة الزحف الغربي على عالم الإسلام إلى إجراء إصلاحات مدنية وسياسية وإدارية مستهدفاً استعادة هيبة الدولة العثمانية لنظل صامدة كسد قوى في وجه النفوذ الأوربي ، غير أن هذه الإصلاحات لم تكن جذرية ولم تنفذ وفق مفهوم الإسلام ، الذي يجمع إلى القوة التكاملي بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، والتي تهدف أول ما تهدف إلى تحقيق العدل الاجتماعي والحكومة الشورية ، وتوحيد العناصر ، وقد كانت القوة والرباط والجهاد واليقظة في مواجهة العدو ، والوصول إلى مثل قوته ودرجة كفايته الحربية والعسكرية أمراً سياسياً ، ومن أولى مفاهيم الإسلام في مواجهة العدو ، وهو ما لم يتيسر على وجه حقيقي للسلطان محمود مما عهد للنهاية المحتومة للدولة العثمانية .

(٣٢)

### تركيا العثمانية بين الرفة والانحدار

اقتصروا العثمانيون على العناية بالقوة العسكرية والجري وراء التوسع دون تركيزه واستقطابه وبلورته . واستغرقت الدولة العثمانية تاريخها كله بين التوسع والمقاومة ، ثم تطورت أوروبا بسرعة وتوقفت العثمانية وتجمدت وكان التطور في أساليب الحرب وفنونها وآلاتها هو العامل الأول الذي رجح كفة أوروبا حين ضعف لدى العثمانيين مفهوم الإسلام بعد أن ضفء تطبيعه غير أنه لا سبيل إلى إنكار دور العثمانيين الحاسم حين أعادوا وحدة الإسلام ورفعوا رايته ستة قرون كاملة ، فقد واجهوا أوروبا التي كانت تتحفز للسيطرة على عالم الإسلام فاستطاعوا صدّها ونجميدها على الأمل من طريق البحر الأبيض ، ومن هنا تبدو حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وهو أن العثمانيين لا ينالون من المؤرخ الأوربي أي أنصاف بل على العكس يواجهون حقاً وخصوصة تحول دون كلمة الحق ويمكن القول أنه في القرن الثاني الهجري ( القرن السابع عشر الميلادي ) مال الميزان ، بالدولة العثمانية وارتفع بقوة جديدة ، هي القوة العربية حاملة لواء اليقظة للفكر الإسلامي العربي .

كان الانبعاث أساساً مستمداً من مفهومين هما : التوحيد ومقاومة الاستبداد في صورة الحاكم المستبد والنفوذ الأجنبي ممّا . وكان ذلك ردّاً على تحدى خطير تمثل في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية وهالم الإسلام كله في هذه الفترة ، وهو غلبه طابع « الجبرية والتواكل » ، الذي تفاقم في مختلف قطاعات المجتمع والفكر . وهو ما أسلم تركيا العثمانية إلى مرحلة الانحدار ، وأورث الغرب الغلبة والسيطرة على العالم الإسلامي كله ، فلم يكن العجز العثماني إلا مسدداً عالياً للاستعمار ، انتهى بإسقاط للمنطقة كلها في يد « قوة غربية » تحاول أن تستعيد نفوذها القديم على الأمة العربية والوحدات الإسلامية وفق أسلوب جديد ، وقد تمثل هذا المعنى في عبارة اللورد اللنبي قائد الجيوش البريطانية حين دخل القدس عام ١٩١٨ بعد مرور ٨٣٢ عاماً على خروج الصليبيين عام ١٠٩٥ حين قال « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومعنى هذا أن كل حركات الغزو وبعناحيه في المشرق والمغرب طوال تلك هذه الفترة إنما كانت تستهدف تحقيق إسقاط العالم الإسلامي كله في قبضة الغرب . كانت سمة الوحدة العثمانية الغالبة هي : « القوة والحرب » مختلفة في ذلك عن طابع الموجات الإسلامية المتوالية التي تقدمتها ، والتي كانت تبرز بين بناء القوة وبناء الحضارة . كانت « القوة » سمة الحرب تبدو بارزة في سنوات التكوين الأولى للدولة ، ثم تكون سمة « الحضارة » هي الغالبة من بعد . أما في خلال خمسة قرون من النفوذ العثماني فقد كانت القوة والحروب هي الصورة الممتدة المتصلة ، لا تفسح للحضارة أو البلورة الفكرية أو لانصهار العناصر أي مجال ، مما قلل كثيراً من طابع الحضارة الذي يتمثل فيه الاستقرار والبناء الاجتماعي والامتزاج بين العناصر المختلفة . ومن هنا تعذرت عملية الانصهار والبلورة ، في مجال المجتمع ، كما غلب طابع الفكر الصوفي الموم ، مما أضعف من قوة الجوانب العقلية عالم الفكر الإسلامي وكان لذلك أثره في المجتمع والبناء السياسي وكيان الدولة نفسها . وكانت أقصى عمليات التدهور والاضطراب هي أن العثمانيين ضرفوا عن مجال مجدهم ومظهر دولتهم : « القوة والحرب » فقد غفلوا عن هوامل التطور والنمو والتغيير في هذا المجال بالذات فسبقهم الغرب فيه ، فكانت هزائمهم المتوالية في حروبهم مع أوروبا ، ومن هنا بدأ التدهور والضعف من قلب مصدر القوة . توقفت الدولة العثمانية إذن ، وتخذ عالم الإسلام كله في الوقت الذي تقدمت فيه أوروبا واقتحمت مجالات الكشف والملاحظة والعلم حين اتصلت بعلم المسلمين ، فسكانها أخذت أوروبا مفهوم الإسلام حين غفلت عنه القوة الإسلامية الكبرى فتألفت أوروبا وسادت وضعت القوة العثمانية وتدهورت ونستطيع أن نقف طويلاً عند مرحلة التدهور ، ويجمع المؤرخون على أن هذه المرحلة بدأت بهزيمة الدولة العثمانية عند أسوار فينا عام ١٦٨٣ حين فشل

الحصار للمرة الثانية ، ومن هذه النقطة بدأ الصراع بين الغرب وعالم الاسلام يتحول لصالح الغربيين والواقع أن هذه العلامة على التدهور لم تسكن هي نهاية المعارك بين الغرب والعثمانيين ، بل كانت علامة على الضعف الذي أصاب معسكر المسلمين في مواجهة التصاعد في القوى الغربية ، فقد توالى من بعد ذلك الهزائم وخاصة في الحرب الروسية التركية ١٧٩٨ — ١٧٧٤ . ويرى بعض المؤرخين أن علامات التدهور بدأت قبل ذلك ، حين تجمعت أساطيل الدول المتحدة لمواجهة الأسطول العثماني في موقعة (البيانات) عام ١٥٧١ . غير أنه لا بد من ربط الموقف المتصل بالواجهة العثمانية الاسلامية بالخطوات الواسعة التي خطاها الغرب منذ أزال الأندلس وأعاد أسبانيا إلى عالم الغرب وصفها من القوى الاسلامية والعربية ، وسيطر على جامعاتها ومعاملها وتراثها وحضارتها ، وبدأ في نقلها إلى لغاته ، وما تبع ذلك في خط واحد من حركات الكشف والسيطرة على البحار ، حين اندفعت البرتغال وأسبانيا في حركة رد فعل عنيف للانتقام والإدالة من أطراف عالم الاسلام ومن شواطئ المغرب وأفريقيا بالذات ، وهو ما وصفه المؤرخون في مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة « تطويق عالم الاسلام » هذه الخطة التي بدأها العالم الغربي بتطويق البلاد الاسلامية بدلا من مقابلتها وجها لوجه ، كما فعل خلال الحروب الصليبية ، يقول : وفي طوائفهم حول أفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطئ العربية للهند سابقين ببضع سنوات إلى هناك ( المغول ) آخر موجة من موجات الاسلام التوسعية . هؤلاء الذين قدروا من آسيا الوسطى بطريق البر ، وعندما حقق الأسبانيون ربط المحيطين الأطلسي والمحادي مروراً « بمكسيكو » قامت في الفلبين حواجز جديدة أسيوية هذه المرة ، بين المسيحية العربية والاسلام اللذين حتى ذلك التاريخ لم يتجاوزا إلا في الطرف الثاني من العالم في وادي الدانوب وغربي المتوسط ، وهكذا في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب أن يطوق البلاد الاسلامية ، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد ، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد هزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم ، هذه الثقة المثينة قضى عليها شيئاً فشيئاً على أثر الفشل المتوالى الذي منيت به الأمبراطورية العثمانية وباقي الدول الاسلامية وقد كبدهم إياه خضمهم بجهز بأسمحة عربية تملك التكتيك والعلم اللذين تقوم عليها الحرب الحديثة .

ولا شك كانت حركة الكشف والملاحة عاملا هاما في إضعاف الوحدة الاسلامية العثمانية ونحطيمها من الخارج ، وقد امتزجت بها حركة موازية لإضعاف هذه الوحدة من الداخل وتمزيقها ، تمثل هذه الحركة حملة الأضعاف من الداخل فيما حاولت دول الغرب فرضه على الدولة العثمانية من

الامتيازات مستغلة فترة الضعف ومتخذة من حماية المسيحيين في داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها ، وكان هذا النفوذ في أكبر خطره وأهم أمره داخل العالم الاسلامي متمثلا في إتاحة الفرصة للاراساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الاسلامي والعربي بوجه خاص ، وكانت هذه الامتيازات من هوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد ، وقد كانت مؤامرة ١٨٦٠ بين الموارنة في لبنان من نتائج هذه السياسة . عاشت أوروبا خلال فترة المد العثماني لأوروبا ( ١٢٠٠ — ١٦٨٣ م ) مرحلة خصومه وانتفاض ، لم تتوقف فيها المعارك ولم تتحول العلاقة بين الدولة العثمانية والوحدات التي سيطرت عليها من أوروبا إلى رابطة سياسية أو اندماج ، حيث لم تقم الدولة العثمانية بصهر هذه العناصر ، وإقامة نظام اجتماعي لها يؤهلها للدخول في عالم الاسلام ، كان طابع العلاقة هو طابع السيطرة العسكرية لا الترابط العقلي أو الروحي ، أو الحضاري ، ومن هنا عاشت أوروبا في احساس بالخطر العثماني المباغت ، وقامت علاقة خصومة وعداوة حملت طابع الصراع بين المسيحية والاسلام حتى أطلق على العثمانيين اسم الاسلام وحمل الاسلام تبعه تصرفاتهم وسياساتهم ومفاهيمهم . وإذا كان التوسع العثماني الاسلامي في أوروبا ، يمثل في نظر بعض المفكرين « رد فعل » للحروب الصليبية في فترة بلغت ضعف زمنها ، فإنه قد أعاد تأجيج نار الخلاف والخصومة مما دفع الغرب إلى رد الفعل في عنف لا حد له بمجرد أن ضعفت الدولة العثمانية ، فقد ساد أوروبا انجاء حاصف يحمل طابع الخصومة والانتقام وقص أجنحة الاسلام عن أن يستطيع في غده أن يمتلك القوة المادية أو الوحدة أو الايمان وهي العوامل التي تمكنه من مواجهة الغرب أو الانتصار عليه أو التحرر من نفوذه .

وكان مخطط الغرب قد أعد منها سياسيا وعسكريا وثقافيا يحاول أن يقضى على القوة المادية لعالم الاسلام وتمزيق وحدته حتى يحال في حسم شديد دون استئناف مقدراته في مجال الصناعة والتكنيك والقضاء على مقومات فكره التي تعطيه القدرة على المقاومة وتدفعه إلى الوحدة ، وذلك بالعمل على إثارة الشبهات من حول تاريخه ولفته ودينه ومفاهيمه ، وتسليط نزعة مادية وإباحية « تبشيرية » على شبابه وأجياله الحديدية حتى يحال بينها وبين العوامل الايجابية القادرة على مقاومته وهزيمته ، وذلك بالقضاء على قواه الروحية والجسدية بالتحال والتف والتزق ، وكانت هذه الحرب موجهة أساسا إلى مفاهيم الاسلام باعتبارها أبرز هوامل القوة في بناء عالم الاسلام السياسي والاجتماعي وقد كانت حملة الغرب على الدولة العثمانية هنيئة . ومستمرة ، تمثلت في هشرات المؤامرات والنسكتلات بين القوى المختلفة لتمزيق تركيا وتقسيمها ، وقد امتدت هذه المشروعات طوال فترتي القوة والضعف ، واتخذت أول الأمر سبيل مقاتلة المسلمين بالتجارة بالعواف حول رأس الرجاء



المصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي حول عالم الاسلام ، حتى إذا بدأت العثمانية تضعف ، كانت الخطة هي تحرير أجزائها الأوروبية والسيطرة على أجزائها العربية . واتصل بهذا المخطط إنشاء قناة السويس في مصر قلب العالم العربي ، كوسيلة لربط العالم الاسلامي بالعالم الغربي والسيطرة على مقدراته ، يقول دجوفارا الوزير الروماني في كتابه : مائة مشروع لتقسيم تركيا :

Cent Projets de partage de lo Tarquie مدة ستة قرون متتابعة ، كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية ، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقاليم يبيثون برامج تقسيم هذه السلطة ، مما يناهز مائة برنامج ، كانت المصالح الاقتصادية تفرق بين الملوك فإذا جاء الوقت الذي يتكلمون فيه عن تركيا ( الرجل المريض ) انتفخوا . أن السلطة العثمانية لم تسقط دفعة واحدة ولكنها تساقطت قطعة بعد قطعة ، في مدة الأعصر الطوال التي كانت أوروبا تناصبها العداء ، فما السبب ؟ الأسباب كثيرة ، منها السبب الذي نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى في العالم (١) سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة (٢) اختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها في بوتقة واحدة وصعوبة إعطائها كلها فكرة قومية متحدة (٣) فساد الإدارة وارتخاء النظم (٤) ضعف القوة العسكرية (٥) اختلاف الأديان بين سكان السلطنة .

وقد كانت السلطة العثمانية عسكرية محضة مستندة على شرع مماوى ، وكان التسامح هو الذنب العظيم عند الأتراك : فقد أعطت الدولة العثمانية المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخولتهم الحرية المدرسية ، هذه الحرية التي كفلت نوم وترقيتهم ، وقد كانت النصرانية هوية دينية وثيقة كفالت للأمم البلقانية جامعة تنأهب للمقاومة ، أقول ، ومن هنا فقد حرص الأوروبيون على هدم هذه الجماعة في عالم الاسلام حين استولوا على بلاده . قال دجوفارا : لقد كانت هداوة الأوروبيين للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الدين والحريّة الدينيّة ، قال المؤرخان لافيس ورامبو ( من مؤرخي فرنسا ) أن عمداً فأنح القسطنطينية كان كماً كثر ملاعين الأتراك والمذول بعداً عن كل اضطهاد ديني ، كانت حكومة الترك لا تعارض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يحسون امتيازات النكسيسة الأوروذكسية ثم ركز دجوفورا على هذا المعنى حين قال : إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعاتها القومية ، وتنامك وتنبض وتسير مبرراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية ، ومن خطط تمزيق تركيا : ما قدمه الرهبان وستشارو للملك من مشروعات يجعلون التجارة فيها أساساً للسيطرة ، ومعاودة العمل على استعادة بيت المقدس

والسيطرة على العالم الإسلامي ، في استئناف مخططات الحروب الصليبية ، ويرى دجوراً أن هذه المشروعات بدأت في أواخر القرن السادس عشر بعد موقعه لبيانت البحرية وكانت الخطة هي جمع كلمة أوروبا على وقف تقدم الإسلام في قلب أوروبا ، وعمل البابا ماكسيان على دهوة الملوك والأمراء على مقاومة سلطان الدولة العثمانية مجتمعين تحت زعامة البابا . وتم التحالف في ٢٥ مايو ١٥٧١ على إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي سيطر عليها الأتراك . ومن حملتها تونس والجزائر وطرابلس ، وفي موقعه لبيانت فقد المسلمون ٣٠ ألف مقاتل و ١٣٠ سفينة ١٠ آلاف أسير ، ووصفت بأنها علامة الإنحدار الأكيد للقوة الإسلامية العثمانية . منذ ذلك الوقت بدأت أوروبا تستعيد أجزاءها الملقاة الخاضعة للدولة العثمانية واستمرت عملية الاسترداد حتى عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللبني في بيت المقدس ليعلم أن الحروب الصليبية قد انتهت ، وقد نشأت في ظل هذه الحركة أجيال من أوروبا ، تحمل في عقولها ونفوسها طابع الحقد والكراهية للإسلام متمثلة في خصومتهم للدولة العثمانية ، وتحمل طابع الانتقام من تركيا وتقسيم أملاكها والسيطرة عليها وكانت في مجموعها تهدف إلى محو تركيا والإسلام بأسره ، يقول فندال : في هذه المرحلة لم يكن رجل سياسة إلا وعنده برنامج تقسيم السلطنة العثمانية ، وقد استمر ذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين قدم تاليران (١ أكتوبر ١٨٠٥) مشروعاً بتقسيم السلطنة العثمانية وقد درس نابليون مع الروس هذا المشروع . وكان يرى أن يستولى على فلسطين .

(٢) إذا كان ضعف القوة العسكرية هو العامل الأكبر في تدهور الوحدة الإسلامية العثمانية فإن عامل الانفصال عن جوهر الإسلام ومفهوم فكره ومقوماته الأساسية كان لا شك بعيد الأثر ، فقد سقطت الدول وانهارت النظم في وحدات الإسلام خلال تاريخه الطويل نتيجة هذا الانفصال أو الانحراف عن مفهوم الإسلام . كانت سلبية الصوفية واستملاء الدراويش وسيطرتهم ، عاملاً هاماً وأساسياً في حركة الجزر المندفعة في قوة ، ذلك لأن الفلسفة التي غرستها في أعماق القلوب العقول كانت سلبية جبرية تدفع إلى الزهادة والانقطاع والانصراف عن العمل والبناء ، وقوامها ترغيب الجاهيل في الفقر والمسكنة ، وبذلك قضت على أبرز مفاهيم الإسلام وهو الإيجابية والعمل والحركة ويصور العلامة نهجت الأثرى كيف كان سلطان طوائف المتصوفين في اليهود الأخير خاصة ، أقوى سلطاناً على عقول الجاهيل وكيف كان مسلحهم يجرى على هدى الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتسميهم ، فوطدت للظالم والاستبداد ، ووقعت في وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلت طاقة الأمة وقعدت بقواها عن السعي . ولا شك كانت هذه المرحلة مصدر

تأخر الإسلام وأخطاط مجتمه . بينما كانت الحركة الصوفية في خلال الحروب الصليبية وبعدها علامة قوة وتجمع ، وكانت في قلب أفريقيا وشمال شرق آسيا هاملا هاماً من عوامل توسيع رقعة الإسلام . وكانت نظام « الفتوة الصوفية » قد تحولت في الدولة العثمانية إلى قوة ذات تأثير ، وفي مقدمتها الولاية النقشبندية ، وكذلك كان نظام « الأخية » وهو ما يسمى بنظام الأخوة ، هاملا فعالا في خلق جو اجتماعي بعيد الأثر في نجدة الغرباء ، وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة ، والاحتفاء بالغرباء من الناس غير أن هذه الحركات التي كانت علامات قوة ، لم تلبث أن تراخت مع الزمن فأصبحت من عوامل الضعف .

(٣) ومن علامات الضعف تمزق الثقافة الإسلامية ، فقد كانت قوة المسلمين في وحدة الثقافة ، وقد بدا ذلك على نحو باهر في مرحلة الغزو الخارجي والمقاومة ، غير أن الثقافة الإسلامية قد تقاسمتها: اللغتين الفارسية والتركية اللتين ظهرتا إلى جوار اللغة العربية ، وكان المسلمون قد صاغوا ثقافة موحدة ، وانغمزوا بعصارة الثقافات اليونانية والهندية والفارسية والرومانية التي انصهرت في بوتقة الإسلام وتبلورت في إطاره القائم على التوحيد والنبوة والإخاء والحربة بالعدل . ولم يكن الخلاف في الفروع إلا محاولات مرنة لتوسيع مجال المعاملات في نطاق الاجتهاد الذي هو أحد طوابع الفكر الإسلامي الذي يقسم بالوصيلة والشمول والتكامل . وقد كتب الفارسي والتركي والهندي بالعربية ، ومن ثم كان هذا من عوامل تقارب المسلمين والثقافتهم ، وحماية للفكر الإسلامي من غلبة عناصر الفلسفات القديمة وتمقيدها التي تخرج الإسلام عن بساطته ومرورته وقدرته على الحركة والتطور مع الزمن . فلما توزعت الثقافة الإسلامية في اللغات الفارسية والتركية والعربية ، غلبت طوابع جديدة عليها ، كان أبرزها الطابع الصوفي الشاعري الذي ظهر في الأدب الفارسي ثم سيطر على الأدب التركي ثم بدأ بالاقاء بينهما والامتزاج ، مخالفا لمقومات الفكر الإسلامي العربي اللغة ، مباحداً من جوهر الإسلام ومقوماته ، ومن هنا غلب ذلك الطابع السلبي الذي انتمى به الأدب العثماني في مرحلة الضعف . وهو ما تلبه له مجددون ومصلحون من بعد أمثال نامق كمال ، ومحمد هالكف وحاولوا تغييره بوصفه هاملا من عوامل الضعف والتخلف . والحق أن كل محاولات الإصلاح العثماني التي جرت في مجال السياسة أو الفكر لم تحقق نجاحاً ما ، لأنها أجرت محاولاتها على السطح ولم تنمق عوامل الضعف ، ولم تحاول التغيير الجذري الذي يجب أن يعتبر أساساً من مفاهيم الإسلام .

(٤) ضمت الدولة العثمانية — في قطاها الأوربي — عناصر وشعوباً مختلفة : اليونان والبلقان

والبحر والجرمان والسلاف والعرب والرومانيين والألبان والأرناؤوط . وفي قطاعها الاملاعى العربى كانت تظميم التتار والعرب والأكراد والتركان والأرمن والموارنة والسككندان والفرس والعثمانيون والبربر . . . وبعض هذه الأجناس والشعوب تدين بالمسيحية وبعضها يدين بالاسلام وقد عاشت شعوب أوروبا خلال هذه القرون الخمسة أو الستة وهى تعتبر آل عثمان غرباء عنهم للاختلاف فى الجنسية والدين واللغة ، وآفة العثمانيين أنهم هجروا عن تدوين هذه الشعوب فى جسم الدولة السكبرى ، فظلت هذه الأمم محافظة على قومياتها . ومن هنا كانت حركة انتفاضها بمجرد ضعف الدولة العثمانية وتراجعها تراجعاً سريعاً هائلاً . وقد أهانتها هلى ذلك أنها نهضت وتجمعت العثمانيون .

٦ — أغضى العثمانيون عن عملية تصفية الغرب للدولة العربية فى الأندلس ، وكان فى استطاعتهم الاتجاه إلى أسبانيا وتحرير المسلمين فيها ، وقد طال أمر تصفية المسلمين والعرب فى أسبانيا زمناً خلال فترة تآلى العثمانيين ، بل أن بعض الأندلسيين الفارين قد التقوا بقيادة الدولة العثمانية وشرحوا لهم ما حل بالمسلمين والعرب من نكبات ، غير أن العثمانيين لم يتخذوا أى مبادرة فى هذا الشأن ، ولما علم قادة أسبانيا أمر اتصال مسلمى الأندلس بالعثمانيين ساروا إلى ترحيل المسلمين إلى خارج البلاد وقد بلغوا فى تقدير المؤرخين ٦٠٠ ألف ، وان استطاع خير الدين بربروس أن يؤازر الأندلسيين بفرض سلطانه على البحر المتوسط ، غير أن ذلك كان فى مجال التآمر بعد أن تمت تصفية الأندلس ، ولا جرم قد شن بعض الغارات الموقفة على الأسبان فى الثغور وعلى قوافلهم البحرية الذاهبة إلى الشرق . وقد أشار المؤرخ الألمانى ليوبولد زنسكى إلى موقف آل عثمان فقال « لو هاجم العثمانيون أسبانيا لما تجمعات البندقية على مساعدتها وهى تكاد تكون فى قبضة العثمانيين لاتصال الحدود بينهما ، وقد كان تعرض السلطان للبندقية فى فتح قبرص ، مما حرض فيليب الثانى ملك أسبانيا الخائف من خطر تركيا عليه ضم أسطوله إلى أسطول (البندقية) وأسطول البابا فسكان موقعة (ليبانتة) التى أضاعت سيادة تركيا البحرية ، فلما أمنت أسبانيا عقب موقعة ليبانتة من آخر لصير برحى للمسلمين أقدمت على إجلاء من لم يرض بالتنصر منهم » .

(٢٣)

## حركات اليقظة والتجديد

\* استيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع عالم الاسلام فهب أتباع محمد من مراکش  
إلا الصين ومن تركستان حتى السكونف وهبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها ، قدح الزناد في  
صحراء شبه الجزيرة ، ثم الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي . « لونروب »

\* \* \*

ظل الاسلام قادراً من طول تاريخه - كظاهرة عضوية لا تتخلف - قادراً على الانبعاث من  
داخله . حين تنحرف مفاهيمه ، أو يتخلف عالم الاسلام عن مفهوم الاسلام ، وكانت مقومات  
الاسلام الأساسية قادرة على أن تجد المجتمع الاسلامي وتقوم نظمه في مرحلة إتحاد الدولة العثمانية  
قد صدرت عن فحمد مفهوم الاسلام والانحراف عن مضمونه الأساسي بوصفه شاملاً متكاملًا وسطيًا بما.

أهوى بالوحدة الاسلامية العثمانية ، غير أن اليقظة العربية للقضاء على غلبة مفهوم الجبرية  
الصوفية لم تنح لها الفرصة الكافية لتحقيق البعث ، كانت قوى الغرب التي ارتدت مهزومة في  
الحروب الصليبية خلال قرنين والتي واجهت « المد الاسلامي » خلال خمسة قرون في قلب أوربا قد  
عاودت عملية الغزو من جديد وفق أساليب مستحدثة لا تعتمد على الغزو الجاثم المضطرب ، بل على  
منهج علمي قوامه التنظيم الحربي ، والكشف ، والتجارة ، ومحاصرة الموانئ ، وعمليات التطويق  
الاقتصادي العسكري .

ومن هنا سارت حركة اليقظة والتجديد الإسلامي مع حركة الاستعمار والنفوذ الغربي ،  
وكانت هذه اليقظة تمثل قدرة الأمة العربية على حل لواء مسيرة الإسلام وبعثه وفق مفاهيمه الأساسية  
واندفاعه كقوة مقاومة ضخمة إزاء النفوذ الاستعماري الذي كان مندفعاً للسيطرة على عالم الإسلام  
واحتخاذ أما كن الدولة العثمانية وتمزيق أواصر وحدة عالم الإسلام ووحدة الأمة العربية كسلاح أساسي  
في القضاء على مضامين الفكر الإسلامي التي كانت قادرة على إمداد أهل بالقوة على المقاومة والبناء  
والحركة . ومن هنا كانت حركة التجديد واليقظة الإسلامية تعمل في عدة مجالات في وقت واحد .  
مجال : تجديد الإسلام نفسه وإزالة عوامل الضعف والجمود . ومجال : مقاومة نفوذ الاحتلال بالحرب  
وحركات للمقاومة . ومجال : بناء حركات إصلاحية في مصر والهند والمغرب والسودان وشرق ليبيا .

ومجال : العمل الوطنى الخالص فى نطاق التنظيمات السياسية الحديثة . ومجال : الوحدة العربية بنفس مضمون الوحدة الإسلامية وهو التصدى للنفوذ الاستغارى وتوسيع جبهة المقاومة وجاهليتها ضد .

فى كل هذه القطاعات وفى كل مظاهر فوق أرض عالم الإسلام منذ بدأت حركة الغزو الاستغارى الحديث كانت فى أعماقها موجة من موجات اليقظة العربية الإسلامية مهما حمل اسمها أو مظهرها من معانى أو مسميات جديدة عصرية ، فقد تحولات هذه الحركات وتطورت من الطوابع الإسلامية الصرفة إلى الطوابع الوطنية والقومية ، ثم إلى الطوابع الديمقراطية والاشتراكية ولم تسكن فى مجموعها إلا أسلحة لها طابع العصر ، وروح التطور ، ولكنها ظلت فى أعماق أعماقها علامات طريق طويل يمكن أن يطلق عليه اسم « اليقظة العربية الإسلامية » .

وفى هذا يقول العلامة ولغرد كابنول تميث : إن الحركة القومية هى حركة مقاومة الاستعمار الحديث ، ولم تسكن حركات القومية بمطابقة الإسلام فحسب ، بل هى جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام ، فنضال الأندلسيين للمسلمين للتخلص من الهولنديين ، وكفاح السوريين ومسلمى الغرب للتخلص من الفرنسيين ، كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامى فى العصر الحاضر ، بل أن طرد الأتراك لليونانيين ١٩٢٢ والإيرانيين للقضاء على منطقة نفوذ الروس والانجليز كلها خطوات نحو إحياء الإسلام ، فكل المسلمون مسلمون إجتماعياً وسياسياً ، والصفة الإسلامية غالبية على كل الحركات الوطنية حتى فى الحالات التى يكون للقادة فيها قد تأثروا بالغرب تصبح هذه الحركات إسلامية بالنسبة للجهابذة والاتباع ، وبالجملة فإن الإسلام فى العصر الحاضر قد احتضن كل النزعات والحركات القومية .

وهندنا أن الغزو الاستغارى الجديد كان هو التحدى الكبير الذى لونه حركات اليقظة والبعث الإسلامية وأعطاهها طابع التحدى ورد الفعل والمقاومة للنفوذ الغربى الذى لم يكن تسليطاً سياسياً أو عسكرياً فحسب ، ولكنه كان سيطرة كاملة المقدرات والقيم فى مجال الفكر والمجتمع والاقتصاد والسياسة ومن هنا فقد كانت مواجهته للفكر الإسلامى بفكر آخر من أكبر تهديدات حركة التمدن الإسلامى .

( ٢ )

بدأت اليفةظة العربية الاسلامفة كفةوة حفة بدلفة للفةوة العلفمانية الاسلامفة الةف ضعفنف وأصافها للنفلفل فف مننفصف الفرفن النأف عشر ١١٥٣ هـ - ١٧٤٠ م جرفا على ناموس حنففة النفجفف ولفصففف المفاهفم؁ وهف الظافرة الةف لم تفلفلف فلال فارفخ الاسلام كله؁ سواء بالفةوة الفسكرفة على فف المصلفحن أم بالفركة السفساسفة على فف الففافة وبناة الفول؁ وفف برزت ظافرة النفجفف هفه المرة فف قلب الأمة العربية ومن ففورف فف وفف واحف : ففور « فافرة الأزهر » وففور فزفره العرب ففف انبعف الاسلام أول مرفة .

أما فف الفافرة فسكانف فحمل طابع الفففر من ظلم الأمراء والولة؁ وهو من أفرز مفاهفم الاسلام وكان ذلك على أففء العلماء الففن فزروا لأول مرفة كفةوة فائفة بمف أن كان الففوذ الاجفناهى كله فف فف زعماء الصوففة؁ وفف الفزفره كانت الفهوة فحمل طابع الفففر من الفبرفة الصوففة بفأراز مفهوم الاسلام الأصفل : الففوفف . وفف فلال سففن هاماف منف ظهرت فهوة الفرففف بففافة الامام مففف بن عبف الوهاب فف فففف فف وفصول الفلفة الفرفسفة إلى مصر كانت الفافرة ففوف بفركة العلماء فف مقاومة نفوذ الأمراء باسم مفهوم الاسلام؁ وفف أوائل الفرفن الفالف فشر المفرفى كانت اليفةظة الاسلامفة الةف فاففها الأمة العربية سنة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م فف اففففف فففف وهفها فف الففالفن : ففرفر العفففة بالففوفف وففرفر الأمة بالفرفة؁ ولم ففكن مفهوم الففوفف فف الاسلام إلا فلفماف للعبوافة والفلة لمن سوى الله وففه .

ومن هنا كانت الفهوة إلى الففوفف نففس؁ سلافا أسامفافاً لمقاومة الاسفبفءاف؁ فف امفف المففى واففف بمقاومة الففوذ الأفففف والاسففار؁ وكان هفا المفهوم فف فصفف فلال سففن هاماف فف ففأ أفرف واضفافاً فف مقاومة أول فزو اسففارف مفافر؁ بمف مرفلة الكففف والاسففار المبففن بالفجارة فف شوافف أفرففقا والفزفره العربية والففف وأرفففل الملافو وهف مرفلة ( ١٦٠٠ هـ - ١٧٩٨ م ) .

وكان وفصول الفلفة الفرفسفة إلى مصر ففذا ففأ مرفلة الفزو المسكرفى السافر لعالم الاسلام والفركفز ففوف فافف على « الأمة العربية » بمففانها البقة الففبفة الةف فحمل لواء اليفةظة فف سففل مقاومة (١) فبرفة الصوففة الةف كانت طابع المرفلة السافقة من الاسلام للظلم (٢) مقاومة اسفبفءاف الأمراء ونفوذ الفرف الفزافف وباسم مفاهفم الاسلام الأصفلة الةف فحملها العلماء؁ كانت مقاومة مصر

للحملة الفرنسية ١٧٧٩ ، وللحملة الإنجليزية بعدها ١٨٠٧ وللاولى العثمانى خورشيد ، ثم لظالم محمد على من بعد ، وكان عمر مكرم رمزاً على هذه المرحلة كلها ومعه عديد من العلماء .

(٢) ثم تطورت حركة اليقظة الإسلامية وتأقلت في طوايع مختلفة ، كان أبرزها حركة السنوسى في طرابلس ثم حركة المهدي في السودان وهاجر كنان مستمدتان أساساً من مفهوم الاسلام ، وتعتبران استمراراً لحركة التوحيد . وقد كانت الحركة السنوسية بمثابة رد فعل للنفوذ الاستعماري بعد احتلال فرنسا للجزائر وهو أول استعمار مركز على الأرض العربية ، وقد واجه المسلمون ذلك بميلين متوازيين : (١) العمل العسكري الحربي بقيادة الأمير عبد القادر وقد استمرت أعمال المقاومة سبعة عشر عاماً . (٢) العمل التربوي الاسلامي بقيادة الامام محمد على السنوسى للقيام بحركة إسلامية شاملة لمواجهة الاستعمار الغربي للمحضر للانقراض على العالم العربي . ثم كانت حركة محمد احمد للمهدي ( ١٢٨٧ — ١٨٧٠ ) حركة سياسية تحريرية للتخلص من النفوذ للسيطر وقد قضى عليها الاستعمار البريطاني بعد احتلال مصر .

(٣) ثم انبثقت من قلب هذه الحركة موجة أخرى هي حركة الجامعة الإسلامية التي قادها جمال الدين ( ١٢٨٨ هـ — ١٢٧١ م ) والتي تبناها بعد ذلك السلطان عبد الحميد واصطدمت في آخر أيامها بحركتي الجامعة الطورانية التركية والوحدة العربية . ( ٤ ) ومن خلال حركات اليقظة ظهرت ثورة الهند ( ١٨٥٧ ) وثورة فارس ( ١٨٩٥ ) وثورة مصر بقيادة عرابي ١٨٨٢ . ( ٥ ) حركة الإصلاح الدستوري والاجتماعي ويتمثل في دعوة خير الدين التونسي ١٢٧٨ — ١٨٦٠ م وحركة مدحت في الدعوة للدستور التركي ١٢٨٤ — ١٨٦٨ . وحركة اسماعيل اللويلحي في الدعوة للدستور المصري ١٢٩٧ — ١٨٧٩ .

ولم تلبث حركة اليقظة العربية الإسلامية أن تبلورت في منهج علمي فكري ثغافي في حركتين متجاورتين : حركة محمد عبده وحركة عبد الرحمن الكواكبي ، وقد توسعت حركة محمد عبده إلى آفاق المغرب كله وتبلورت في الحركة السلفية التي قاومت النفوذ الاستعماري الفرنسي ، وهكذا حفل القرن الثالث عشر الهجري بحملات متتابة وموجات متوالية من عوامل اليقظة في مختلف ميادين المقاومة والتجديد والإصلاح . فإذا أضفنا إلى هذا حركة تطويع الفكر بالترجمة والتأليف التي قادها رفاعة الطهطاوي وهلى مبارك وحسن العطار وحسن الطويل لعرفنا إلى أى مدى أمكن تعميق حركة اليقظة . وأبرز ما اتسمت به هذه المرحلة :



( ١ ) حركات مقاومة الاستعمار مقاومة عسكرية في الجزائر ( الأمير عبد القادر ) ، وفي مصر ( عرباني ) وفي السودان ( التعايشي ) وفي القوقاز ( شامل ) وثورة المسلمين في الهند . ( ٢ ) حركة فكرية تحولات إلى دولة في نجد ( ١٤٧٠ — ١٨٩٣ ) . ( ٣ ) حركة سياسية في مصر أقامت إمبراطورية عربية ( مصر والشام والجزاز ) .

وقد استطاع النفوذ الأجنبي المندفع في حركة الغزو الاستعماري الإدالة من هذه الحركات وفرض نفوذه العسكري والسياسي ، غير أن الملاحظ بوضوح أن المسلمين والعرب لم يسلموا إلا بعد قتال مرير وبعد أن استنفذوا كل وسائل المقاومة ، وإذا كانت حركة للمقاومة العسكرية توقفت ، فإن حركة البقطة العربية الإسلامية وهي في أحد شقيها حركة مقاومة بالكلمة لم تبايأس ، حتى بعد سقوط الوحدات المختلفة لعالم الإسلام في قبضة نفوذ الاحتلال ، فقد تعمقت حركة جديدة من المقاومة عن طريق الفكر وتصحيح مفاهيم الإسلام والكشف عن جوهره ، ومحاربة النفوذ الاستعماري من خلال القيم الأساسية للإسلام والفكر الإسلامي العربي .

### ( ٣ )

وإن مفهوم حركات البقطة والتجديد في تاريخ الإسلام كله تتمثل في هذه القاعدة « إن الإسلام مهدد دائماً بالاضمحلال ، لما يتطرق إلى أسسه من بدع تغطي وجهه الحقيقي ، وتوجب مفهومه الأساسي وأهدافه وقيمه العليا . وأنه لا بد من تطهير مجرى الإسلام أولاً بأول والحيلولة دون انحرافه عن مفاهيمه الأساسية وهن جوهره للتمثل في : « الشمول والتكامل والوسطية » ووفق هذا المفهوم بدأت حركة التوحيد وتابعتها حركات تصحيح المفاهيم والمقاومة والجامعة الإسلامية والوحدة العربية .

١ — قاد حركة التوحيد : الإمام محمد بن عبد الوهاب وكانت أبرز أهدافه .

( ١ ) ضياغة شعار الإسلام في كلمة التوحيد دون شواها ( ٢ ) تنقية الإسلام من البدع والأردان

التي خلقت به ( ٣ ) التحرر والاستقلال ورفع يد الاستغلال والظلم عن ديار العرب ( ٤ ) إيجاد وحدة سياسية إسلامية . ويقدر الباحثون أن « دعوة التوحيد » كانت رد الفعل الطبيعي لانحراف حركة الصوفية عن مفهوم الإسلام ، وأنها كانت محاولة لتصحيح الجوهر بعد أن غلبت الصوفية في فترة الانحدار والضعف مفهوم « الجبرية » والاستسلام للظلم والاستبداد . وليس شك أن الحركة الصوفية استطاعت أن تحقق في مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية نتائج ضخمة في كسب مجموعات كبيرة من

الوثنيين وتحويلهم إلى الاسلام . حيث استطاعت أن تعد الاسلام الفكرى لا السياسى إلى أجزاء واسعة في شمال وغرب ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، غير أن هذه الجماعات الاسلامية الجديدة كانت مفاهيمها قاصرة على المفهوم الروحى الخالص وهو شطر الإسلام وليس الاسلام كله .

وقد كان أهم ما أبرزته دعوة التوحيد أمران هاما هما جماع مفهوم الانبعاث في الإسلام ( أولا ) باب الاجتهاد مفتوح وأن لكل مسلم الحق في أن يجتهد لفهم دينه . ( ثانياً ) ضرورة القيام بفريضة الجهاد .

وقد ركز الإمام محمد بن عبد الوهاب على اعتبار أن الكتاب والسنة هما دستور الإسلام الوحيد ونادى باتخاذ أسلوب الفطرة في فهم الإسلام بعيداً عن تعقيدات للتكلمين والفلاسفة والصوفية . ويرى بعض المؤرخين أن « دعوة » التوحيد التي أطلق عليها « الوهابية » والتي تحولت إلى « حركة » حين اتصلت بأمير سعود ، لم تحقق لها أن تحيط دعوتها بأسلوب من البراعة السياسية ، وللرونة ، لاستطاعت أن تسكب القلوب إليها ، وعندنا أن طابع هذه الدعوة مستمد من بيئتها وتكوين دعائها النفسى والاجتماعى ، وأنها في مواجهة مد عنيف من الجبرية والضعف والاسلام الذى فرضته الصوفية ، قد اقتضت — شأن كل الحركات والدعوات التي تقوم في مواجهة محمد كبير — أن تصل نفس المبدى من الشطرف في الجانب الآخر ، وهذا سر ما وصفت به من طابع هسكرى أو تشدد ، أو عدم المرونة في قبول وجهة النظر الأخرى ، أو المساومة ، أو ماجرت إليه من تصنيف للمسلمين بحيث اعتبرت هدداً كبيراً منهم ممن نجب محاربتهم ، ويتصل بهذا ما دعاها إلى القصور عن طابع المعاصرة في الحرب والتسليح أو ميدان الصناعة أو غيرها ، وعندنا أن أهميتها لم تكن في مجال « الحركة » وإقامة الدولة بقدر ما كان في بعث النفس العربية وإيقاظ العقل الإسلامى وإعادة النظر في مفهوم الإسلام ، ونحريره من الجزئيات والانحرافات والبدع وتصفية العقيدة وتطهير الفكر الإسلامى من الانحرافات والأوهام وذلك هو أثرها البالغ العميق في كل حركات اليقظة والتحديث والإصلاح الإسلامى التي تلتها . وبالجمله فإن دعوة التوحيد ( الوهابية ) كانت ثورة على الاستبداد والضعف والانحلال الذى آل إليه عالم الإسلام ، وأول مواجهة عربية حقيقية لحل لواء الدعوة الإسلامية بعد ضعف الدولة العثمانية عنها وقد استمدت مفهومها من نفس الأسس التي أقام عليها ( ابن تيمية ١٣٢٨هـ ) وتلميذه ابن قيم الجوزية دعوتهما قبل أربعة قرون ، وكانت دعوة ابن تيمية قد ضعفت ولكنها لم تتوقف ، فقد ظل العلماء يعتنقونها ، ويتوالى ظهورها ، جيلاً بعد جيل ومن السابقيين لمحمد بن عبد الوهاب : عثمان النجدى سنة ١٠٩٦ في نجد وإسماعيل الصنعائى في صنعاء ( وهو مؤلف كتاب تطهير الاعتقاد )

وقد ترك محمد ابن عبد الوهاب بحق أثرآ في يقظة الإسلام أكبر مما كان يتطامح إليه ابن تيمية . وقد دخلت الحركة الوهابية فعلا في صراع مع الشيعة وللتصوفة وصل إلى القتال المسلح على حدود العراق.

## الحركة الصوفية

ظلت الحركة الصوفية منذ القرن الثامن الهجري توسع آفاق الإسلام وكانت حركة ابن تيمية ومن بعده ابن القيم في تصحيح مفاهيمها ، متصلة مستمرة في هديد من تلاميذها ، وإن ظلت خافتة الصدى إزاء استقلال الأمراء والولاة للحركة الصوفية بوصفها وسيلة إلى تأصيل التواكل والتسليم والقبول بجزرية الظلم ، وقد بلغ أمر الصوفية قننه في الانحراف عن مفاهيم الإسلام حين انضم الفقهاء والمعلماء إلى المنظمات الصوفية وانصهروا فيها ، غير أنه منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري بدأت يقظة العلماء والفقهاء ، وقد اشتد تأثير مفهوم ابن تيمية لجوهر الإسلام سيطرة على نفوسهم ، وأخذت كتابات ابن تيمية نحيما من جديد على أقلام بعض أتباعه حتى كانت صيحة محمد بن عبد الوهاب أقوى هذه الصيحات ، ويرى « جب » أن الحركة الصوفية قد أكتبت الإسلام حيوية كبيرة ، غير أن غلبة مفاهيم الأدب الفارسي والأدب التركي المستمد منه والقائمة على طوابع صوفية مفرقة في الانحراف فهو الحلول ووحدة الوجود ، قد أبعد مفهوم الصوفية عن شمول الإسلام وقصره على جانب القلب وحده ، ومن ثم كان لا بد كرد فعل لا يتحلف في تاريخ الإسلام ، أن تبرز حركة لتصحيح المفاهيم والسكشاف عن جوهر الاسلام وحقائقه وفق أسسه الأولى ، ممثلة في حركة التوحيد التي حمل لواثها محمد بن عبد الوهاب ، وأهمية هذه الحركة ليس في تأسيس دولة يقدر أهميتها في خلق نقطة تحول جديدة من محاور الروحية الصوفية الذي ركز المسلمون عليه أكثر من خمسة قرون إلى مفهوم الاسلام الأسامي : متكاملا شاملا جامعاً بين العقل والقلب ، مهاجما أشد الهجوم مفهوم « الجبرية » الذي لا يمتزج الاسلام به ولا يقره ، والذي كان مصدراً من مصادر الضعف الذي عرض عالم الاسلام لأزمته المتمثلة في تدمير الغرب للوحدة الاسلامية العثمانية . وتطويق عالم الاسلام كله وتمزيقه بالاحتلال والسيطرة . ومن هنا كانت أهمية « حركة التوحيد » في أنها تمثل طلائع اليقظة العربية الاسلامية قبل وصول الحملة الفرنسية من ناحية ، وإيقاظ عالم الاسلام لمواجهة الغزو الغربي ، وقد كان أثرها واضحا في حركات : شريعة الله وسيد أحمد ضد سلطة المفلول والسيخ والبريطانيين وحركة أحمد خان ( الهند ) والسنوسية ( طرابلس الغرب ) والمهدية بالسودان وحركة جمال الدين في الهند وفارس ومصر ، وحركة محمد هبده وصحيفة المنار ورشيد رضا . كما امتد نفوذ حركة

التوحيد (محمد بن عبد الوهاب) إلى قلب الأقطار البعيدة مثل نيجيريا وسومطرة وكان لها دورها في تأريث الحركات الثورية . وكان اتجاه الحركات الإسلامية كلها واضحا في مواجهة النفوذ الغربي ومقاومته وفي نفس الوقت ، وفي ضوء مفهوم التوحيد الجديد ظهرت حركات ذات طابع صوفي ، كانت بعيدة الأثر في نشر الاسلام وتربية الشخصية الإسلامية وبنائها كشخصية مثقفة ومحاربة في نفس الوقت ، وكانت الحركة السنوسية تمثل هذا المفهوم على خير وجه كما تمثل الحركة المهدية . وكان لنشاط الطرق النيجانية والقادرية والمرغنية الصوفية في مجال التبشير بالاسلام أبعد الأثر ، فقد قامت بدور كبير خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر في كل من الجزائر ومرا كيش ، وفي صحراء أفريقيا الغربية ، وقامت في الهند حركات مماثلة تحت قيادة الفرق الصوفية . غير أن بعض هذه الفرق الصوفية قد انحرفت من بعد مرة أخرى ، في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي حاول استغلالها فشكلت الحركة السلفية المغربية حركة مقاومة لها .

### السنوسية (١١٤٧ هـ - ١٨٣٤ م)

تمثل « السنوسية » الحلقة الوسطى بين دهوة التوحيد وبين الجامعة الإسلامية ، وتجمع في نفس الوقت بين الدعوة والحركة ، وترتبط بين التوحيد والتصوف وقد انبعثت السنوسية كرد فعل لاحتلال فرنسا للجزائر وكان محمد بن علي السنوسي جزائري الأصل ، فدفعته للصدمة المذهلة إلى الطواف بالعالم الإسلامي بحثا وراء محاولة جهادية إسلامية للمقاومة ، ثم استقر رأيه على العمل في الصحراء على دعامين أساسيين . ( أولا ) بناء أجيال من شباب المسلمين بالتربية الإسلامية والعسكرية في نفس الوقت . ( ثانيا ) نشر الاسلام في مجاهل أفريقيا . وقد رسمت السنوسية مفهومها على أساس أن تحرير عالم الاسلام سياسيا من الغزو الغربي يجب أن يسبقه « إنعاش روحي ومعنوي عميق للمسلمين » توطئة لتحقيق وحدة الشعوب الإسلامية وقد قامت على أصول ثلاثة : الدين والاجتماع والسياسة . قد انتشرت السنوسية في السودان الغربي وأواسط أفريقيا ، وقد كان الامام السنوسي مجتهدا مزج بين المذاهب ( الأربعة ) السنية المعروفة ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنن والمذاهب وأجلها في مذهب واحد . وقد بلغ عدد الزوايا السنوسية ١١٩٧ هـ - ١٨٨٤ م مائة منشرة بين برقة وطرابلس وفزان وطريق مصر وطريق واداي وشبة الجزيرة العربية والجزيرة بتونس ومراكش ، وتوسع نفوذ السنوسية في أفريقيا الغربية ولما ولي محمد المهدي بعد وفاة والده ١٨٩٥ عمق الدعوة ، ودهم نفوذها . فلم السنوسيين استعمال الأسلحة التي كانت تهرب من ميناء

طبرق ، ومن هنا بدأ نفوذ السنوسيين يزحف الاستعمار الأوربي ، ويهدد نفوذه في قلب أفريقيا :  
واسم نطاق الحركة سياسيا فبلغ من الحدود المصرية شرقا إلى شواطئ الأطلسي غربا من خلال  
ليبيا وبرقة وطرابلس وفزان وصحراء الجزائر ومنطقة تشاد وكان للسنوسيين من بعد دور ضخم  
في مقاومه الاحتلال الايطالي سنة ١٩١١.

## الجامعة الإسلامية

ظهرت الجامعة الإسلامية كرحلة متقدمة لدعوة التوحيد ، ولملت كمحاوله سياسيه للتجمع  
لمواجهة الغزو الاستعماري ومقاومته كوحدة ، وكان مفهوم جمال الدين الأفغاني للجامعة الإسلامية مفهوما  
تقديميا قائما على استخلاص أكبر قدر من الحضارة لمواجهة الاستعمار بنفس أسلحته ، والإقبال على  
العلوم الأوربية وأساليب الحكم المصرية ، وتطهير الإسلام من الشوائب ، وتضامن المسلمين وتوحيد  
كلتهم والنضيق على استبداد الأمراء بالحكم الدستوري والشورى واستكمال أسباب القوة المادية  
ونبذ الخلافات الجاهلية والمذهبية ، وقد كانت دعوة جمال الدين الأفغاني أقوى موجة من موجات  
مفهوم اليقظة العربية الإسلامية ، وكان إيمان جمال الدين بأن الأمة العربية هي التي تستطيع أن تحمل  
لواء اليقظة هو مادفه إلى أن يترك الأفغان والهند وفارس وأن يختار مصر لبث دعوته ، وقد تابعه  
مجموعة ضخمة من المفكرين الذين برزوا أوائل القرن الرابع عشر : محمد عبده ورشيد رضا ومصطفى  
الغلاييني وشكيب أرسلان .

وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يدمج دعوة جمال الدين بعد أن تحررت الأجزاء الأوربية  
من الدولة العثمانية وانفصلت عنها ، وحين التقى جمال الدين والسلطان عبد الحميد تبين مدى الفرق  
بين الفكرة التي يحملها الأفغاني في سبيل غاية محدودة ، والفكرة التي يحملها السلطان في سبيل دعم  
الدولة العثمانية فقد واجبه جمال الدين بمشروع يرمي إلى إنشاء خديويات على غرار خديوية مصر تصبح  
مستقلة ذاتيا وتابعة لسلطنته ، فاذا تحقق ذلك أمكن أن تتم خطوة تلقائية تالية لذلك ، بأن تنتظم  
إيران وأفغانستان والهند تحت لواء السلطة ويصبح الإسلام قوة منيعة يرهب الغرب جانبها وتستطيع  
أن نواجه الزحف الاستعماري . ويتحقق قيام جامعة إسلامية لا تضم تركيا والعالم العربي وحده بل  
تضم العالم الإسلامي كله .

ولا بد لنجاح للمشروع من استعرا ب الأتراك وجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية « لو استعرب  
الأتراك لرأسوا ذلك الملك وهدلوا في أهله » غير أن السلطان عبد الحميد لم يكن حين دعا إلى  
مشروعه ليستهدف مثل هذا العمل وذلك فقد انطوى مشروع جمال الدين .

وقد صور جمال الدين مفهومه لإيقاظ الإسلام في عبارات واضحة صريحة حين قال : « العالم النصراني على اختلاف أعمه وشعوبه هرط وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم والإسلام هلى الخصوص » ، لجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية متعلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، ومنتشياً في كل هرق من هروقتها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى للمقوت تنتحل الدول النصرانية إعداراً لها في كسرها وهجومها وعدوانها على للممالك الإسلامية وإذلالها وإكرامها بقولها أن للممالك الإسلامية هذه إغماهى من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شئون نفسها ، وفوق جميع هذا فهى النصرانية عينها لم تقفأ تعمل هذا من ناحية وتندرج بألوف الذرائع من نواحي أخرى حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب أن يتحد اتحاداً دافعياً عاماً مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الدياد عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء للمقبل والوصول إلى هذه الغاية الكبيرة إنما يجب عليه اكتناء تقدم الغرب والوقوف على قدرته وقدراته . وبالمجلة فإن جمال الدين كان يرى أن ضعف المجتمع الإسلامى هو علة تأخره ، ومن أجل هذا طاف بالبلاد الإسلامية ( الهند ، إيران ، أفغان ، مصر ، تركيا ) يلهب حماس للمسلمين ويدكرهم بأبجاد الماضى ، ويدعو إلى أمرين : مقاومة النفوذ الأجنبي والقدرة على كسب علوم الغرب وثقافته . وكان طابع للمقاومة للجبرية واضحاً في كلماته حين دعا إلى أن يغير المسلمون ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم وذلك بالعمل وشجب الجمود . وتمثل حركة محمد عبده إمتداداً طبيعياً للعمل السياسى الذى قام به مع جمال الدين الأفغانى ومنطلقاته منه إلى مفهوم جديد ، ربما جاء نتيجة لأن أهداف جمال الدين الأفغانى لم تتمحقق ، وربما لطبيعة تكوين محمد عبده ، ذلك هو تبلور إيمانه في حقيقة واحدة ، هى أن التربية والعلم هى المجال الوحيد لليقظة ومقاومة الاستعمار . وقام مفهوم السكوا كى لليقظة الإسلامية على أساس أن العرب هم القوة الوحيدة لجمع الكلمة وأن يقظة الإسلام انبعثت أساساً من الأمة العربية ، فقد أكدت كتابات السكوا كى مفهوم قدرة الأمة العربية على حمل لواء يقظة الإسلام ، وإذا كان جمال الدين قد هاجر إلى مصر بوصفها قلب الأمة العربية والعالم الإسلامى كله في هذه الفترة ، وإذا كان جمال الدين يدعو إلى تجميع المسلمين في وجه الغزو الأجنبي أساساً فتكون قادرة على أن تحمل

لواء المقاومة والتجمع ورفع راية الإسلام والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه . وقد هاجم السكوا كبي التصوف الزائف الذي حله بعض دعاة الجبرية، ممن كانوا يبنون في الناس روح الاستسلام والاستكانة للحاكم المستبد وللغزو الغربي ، وكان يرى أن انحدار الدولة العثمانية وأزمة عالم الإسلام في هذه المرحلة تنبأت أساساً من فرض « جبرية » ليست من الإسلام أساساً ، استطاعت أن تشل العزائم ، ولذا فقد كان إيمانه منصبا على إيقاظ مقومات الإسلام الأصيلة وهي : الحرية والقوة والوحدة والعلم ، وكان أبرز ما دعا إليه السكوا كبي مقاومة الاستبداد والمستبدين . وقد حمل السكوا كبي في كتابه « أم القرى » أسباب الضعف والتأخر ، وقال إن مرجعه إلى ضعف الدولة العثمانية في السنتين سنة الأخيرة وحمل على « الأحرار المستبدين ، والعلماء المدلسين وجهل المنصفين » ويرى السكوا كبي أن موجة الاستعمار الغربي الحديث قد انصبت بأكبر قدر منذ فاتحة القرن التاسع عشر ( الثالث عشر الهجري ) على العالم العربي .

### الحركة السلفية

ومن خلال مفاهيم الإمام محمد عبده التي تبلورت بعد الثورة العربية وبعد هودنه من المنفى ( ١٨٨٦ تقريباً ) وبعد انفصاله عن السيد جمال الدين الأفغاني وعلى أساس الخطة التي حملت لواءها « المنار سنة ١٨٨٩ » وقادها تلميذه « رشيد رضا » تكونت مدرسة في شمال أفريقيا ، وقد تمركزت هذه المدرسة في المغرب الأقصى الذي لم يتج للشيخ عبده زيارته حين زار تونس والجزائر . ويرجع العلامة دلال الفاسي جذور هذه الحركة إلى ابن حنبل وابن تيمية والشاطبي ، وإلى دهوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي حملت لواء « تجديد عقائد التوحيد وتخليصها من شوائب البدع والعودة إلى الإسلام في معنيته الأولى : الكتاب والسنة . ولقد قامت الحركة السلفية في المغرب وفي الجزائر كرد فعل لما نشأ من انتشار الشاذلية في بلادنا مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقية ، إذ ترتب على ذلك ازدهار شأن طلبة من المشايخ والمرابطين ، أصبحوا يملكون زمام الأمر في الأمة ويسيطرون في الأنحاء الذي يرون ، ورأى الأتراك أن يستغلوا لاستمرار سلطتهم في الجزائر ، أما في المغرب حيث لا نفوذ للسلطان العثماني فقد أمكن خروج هذه الدهوة ، فقد دعا السلطان مولاي سليمان العلوي إلى السلفية الأولى ومقاومة الطرق وتشعباتها . ويرجع العلامة الفاسي تحول الانقباء إلى القوة العسكرية والعمل السياسي كنتيجة لهزيمة المسلمين أمام قوات الاستعمار في الجزائر مما دفعهم إلى التفكير في : « التجديد الفكري والاجتهادي » .

فقد كتب أحد علماء المغرب كتاباً أسماه كشاف الغمة في أن الحرب للنظامية واجبة على هذه الأمة ، وقال : أن الأوربيين تطوروا في أساليبهم العامة بينما نحن لازلنا نواصل الأساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا . وكان أول من تصدى للشردعوة اليقظة والإصلاح وهي ما يطلق عليها في المغرب الدعوة السلفية : الشيخ عبد الله السنوسي ، أحد علماء القرويين الذي سافر إلى المشرق واتصل بأقطاب الدعوة وصدع بدعوته داخل الجامعة القروية ثم تلمذ عليه «محمد بن العربي العالوي» ثم ظهر الخضر الشنقيطي وأبي شعيب الدكالي ، وقد كان للعروة الوثقى التي أصدرها الأنفاي وعبد في باريس ، ثم المنار أثرها البعيد المدى في تأريث مفاهيم تحرير العقيدة وارتباط ذلك بمقاومة النفوذ الأجنبي ، وقد اتخذت الحركة السلفية في المغرب خطوات أشد حسماً وحنفاً عندما استغل الفرنسيون بعض مشايخ الطرق ، مما أدى إلى الحكم على رئيس الزاوية السكتانية بالإعدام وتنفيذه ، وصدرت رسائل وكتابات هنيئة في مهاجمة السكتانيين وغيرهم من رجال الطرق ووسعت الحركة نطاقها بمقاومة الشيوخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لأغراضهم الشخصية ، واستطاعت هذه الحركة من بعد ومع الزمن أن تحل محل التصوف ممثلة قوة الإسلام وسلامة مفاهيمه .

#### ( ٤ )

### اليقظة في عالم الإسلام

لم تكن حركات اليقظة التي ظهرت في القاهرة ونجد هي أولى حركات اليقظة في عالم الإسلام ، فقد شهدت « الهند » الإسلامية في خلال القرن الحادي عشر دعوة أحمد عبد الأحد السرهندي الذي ظهر في حكم « جلال الدين أكبر » .

وقاوم دعوة أكبر إلى ما ادعاه من دين جديد أطلق عليه « الدين الإلهي » وكان السرهندي من تلاميذ الطريقة النقشبندية ، وقد استطاع أن يواجه هذا الانحراف ويقاومه ، وأن يقاوم حكم إبنه وأن يبث دهوة الإسلام الصحيح في رجال دولته وجيشه وأن يستنهضهم لخدمة الإسلام كما قاوم طائفة الصوفية الذين تأثروا بفلسفة البراهما وهاجم فكرة « وحدة الوجود والحلول والاتحاد » التي كانت قد تغلغلت في التصوف والأداب ، وقضى على فكرة استقلال التصوف عن الشريعة ، وهاجم كثيراً من العقائد والأفكار والعادات التي تسربت إلى المسلمين ودعا إلى التصوف الإسلامي الخالص من منابع القرآن كما هاجم أباطيل العلماء الخاضعين للأمراء ودحض ما ابتدوه ونسبوه إلى الإسلام ونصح الأمراء والحكام وحارب المظاهرات والبدع ( توفي سنة ١٠٣٤ هـ — ١٦٢٥ م )



وكانت حركة شاه ولي الله المتوفى (سنة ١١٧٦ هـ - ١٧٦٣ م) نملاً لمفاهيم حركة التوحيد التي حل لوايتها محمد بن عبد الوهاب ثم ظهر أحمد عيد الرحيم الدهلوى ١١٧٦ هـ، الذي دها إلى تصحيح مفهوم الاسلام والاتصال المباشر بالكتاب والسنة، ونشر علم الحديث وبيان أساليب الاسلام واسسه في تنظيم الحياة والمجتمع، وأبرز آثارة كتابه «حجة الله البالغة» وقد ظهر الدهلوى بعد ذبوع دهوة التوحيد (الوهابية) وقد تأثر بها، ثم ظهر الامام أحمد بن عرفان الشهيد وبدأ دعوته ١٢٣٦ هـ وقد دها الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ومحاربة البدعة، وتمكن أصحابه من إنشاء دولة في (بشار) طبقوا فيها نظام الاسلام وجمعوا بين العبادة والجهاد واستشهد ١٢٤٦ هـ.

وقد كان لهذه الحركات أثرها في ثورة الهنود المسلمين على الانجليز (١٨٥٧ م - ١٢٧٤ هـ) هذه الثورة التي جالدها فيها المسلمون النفوذ البريطاني، وفي أعقاب انتصار البريطانيين تحولت شركة الهند الشرقية إلى احتلال بريطاني سافر، وكان لهذا الحدث أثره البعيد المدى في نفوس المسلمين بعد استكمال السيطرة البريطانية على الهند وتكوين الامبراطورية البريطانية، هذه السيطرة التي أبعدت المسلمين حتى هذه الفترة عن مكان القيادة وعزلتهم تماماً عن الحكم والتعليم، وقدمت الفئات الأخرى عليهم، مما أثار روحاً من اليأس في نفوس المسلمين وأضفى على مستقبلهم لونا من فقدان الثقة، وقد زاد في هذا الجو المكفر ما عمدت إليه بريطانيا مع دفع مجموعات من المبشرين في القرى والمدن في حماية سلطانهم ليشنوا حملة ضخمة على الاسلام: «شريعة وهقيدة» وعلى نبي الاسلام، بالإضافة إلى الدهوة إلى المذهب الطبيعي والمادية والحاد، وكان الحال الضخم لسحب الأرض من تحت الاسلام بالتركيز في مجال التربية والتعليم، فقد حرص الاستعمار البريطاني على إنشاء مدارس تحمل لواء الهجوم على الاسلام والأديان والقيم الاسلامية الفكرية والتاريخية والاجتهادية، بهدف خلق أجيال جديدة من المسلمين مادية له، وقد واجهت حركة اليقظة هذا الموقف بفتح المدارس العربية الاسلامية والمعاهد الدينية الاهلية، التي استطاعت أن تكافح خطر الغزو الفكري الغربي.

واستطاع المسلمون تخريج دهاة للاسلام وشرشدين يقاومون تيار الحاد والتزييب العنيف، وكيان في مقدمه العاملين في هذا الميدان مولانا محمد قاسم النانوتوى الذي أنشأ مدرسه ديونيه ومولانا سعادت على الذي أسس مدرسه مظاهر العلوم في سكتنو ١٣١٢ هـ بزهامة مولانا محمد على المونسكبى واستطاعت أن تخرج علماء وفقهون يجمعون بين الثقافة الاملامية والغربية، وقد ركزوا على العبوة النبوية والتاريخ الاسلامى كدفاع في مواجهه حملات دهاة النشرية والمبشرين وفي

مقدمة لإعلام هذه المدرسة : شبلى النعماني وسليمان الندوى ومسعود الندوى الذى أصدر مجلة الضياء العربية ١٣٥١ - ١٣٥٤ . وقد كان أبرز مفاهيم حركة الباطنة الإسلامية فى الهند إن الأمة العربية هى وهاء الاسلام ولسانه وأنها القادرة على حمل رسالة العمل الإسلامى فى هذه المرحلة بعد ضعف الدولة العثمانية .

وقد ظهر فى هذه المرحلة السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة ، داعيا إلى التعليم المصرى الذى حجب الاستعمار الانجليزى عن المسلمين عمداً . ودفع إليه غيرهم ، وكالت كلية عليكرة (١٢٩٣) تطورا لتيقظة الاسلامية على نحو المصالحة مع النفوذ البريطانى ومنه أيضاً انطلقت دهوات أخرى باسم الاسلام أخذ عليها انحرافها عن شمول مفهوم الاسلام وتسكاه . وقد هد كثير من الباحثين حركة أحمد خان من حركات الاصلاح الإسلامية ، مفضين عن تحريفاته فى تفسير القرآن ، من نفي المعجزات واعتبارها خوارق غير طبيعية ، وتقريره بأن النبوة غاية لإنسانية يصل إليها المرء بالرياضة النفسية والمجاهدة مما مهد لظهور المذهب القاديانى فى الهند وقيام غلام أحمد بدهوته . وفى أواخر القرن الثالث الهجرى ألقى الانجليز بثقلهم فى أولى محاولات التغريب وإثارة الشبهات (١٨٨٠ - ١٢٩٨) بتوسيع نطاق الدعوة التى أطلقوا عليها « نيتشر » وحث وحدات أوده وبنجاب وبنجال والسند وحيدر أباد مساجلات ضخمة فى هذه المفاهيم ، وقد واجه جمال الدين هذه الحركة وألف بالفارسية كتابه المعروف الذى ترجمه الشيخ محمد عبده « الرد على الدهريين » وقال أن الدهرية نزعة ظهرت فى بلاد اليونان فى القرنين الثالث والرابع قبل المسيح وأن هدف هذه النزعة نحو الأديان ووضع أساس الاباحة والاشراك فى الأموال .

(٣٤)

## الإسلام والغرب

لم يتوقف اتصال الاسلام بأوروبا منذ بزغ فجره ، حين اتصل بعالم الغرب عن طريق الأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ثم اتصل مرة أخرى بالحروب الصليبية ، ثم اتصل عن طريق القسطنطينية والبلقان بعد أن وضع الاسلام آفاقه إلى أسوار فينا . ومن هنا فقد امتد اتصال الاسلام بأوروبا سياسيا وثقافيا دون توقف . ويمكن القول بأن الضياء الذى ألقاه الاسلام إلى العالم منذ بزوغ فجره ، قد تطور واتسعت آفاقه فى مجال العلوم والطب والفلك كامتداد للحضارة الإنسانية ، وكان دور الاسلام

في هذا المجال إيجابيا وقويا ، فقد أضاف إضافات أساسية إلى حركة العلوم . وطبعها بالطابع الإنساني وجعلها حقا مباشرا للبشرية بعد أن كان طابعها ارسنقراطيا ، ولقد أعطى الإسلام للمعلم إلى ذلك طابع الأخلاقية والخير والإخاء وتسكريم الانسان والاستعلاء على الغلظ والغدر وأعطاهما تربية الضمير .

وحين كانت أوروبا تمر بأقسى مراحل التآجر ، كان عالم الاسلام يزخر بحضارة واسعة الآفاق ، عميقة الأثر ، في مجال العلم والحضارة والفن والعمارة . وقد التقى الغرب بحضارة الاسلام في معارك الصليبيين حين هزوا الأضعف حضارة الأقوى ، فكان ذلك مقدمة لاقامة الجسور الكبرى التي نقلت الحضارة والفروسية وقيم الفكر الإسلامي إلى مجتمع حضارة الغرب وثقافته . وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضم مجتمع الأندلس بجماماته ومعاهده العلمية ومخزائنه كتيبه وآثار حضارته وثقافته إلى الغرب انضماما نهائيا ، وأجلى العرب والمسلمين عنه وحرروهم من آثار علمهم ، هنالك نقلت أوروبا جذور الحضارة الاسلامية والثقافة العربية إلى لغاتها ، وتمد ذلك اليوم كانت كل خطوات النهضة ذات اتصال وثيق بالفكر الإسلامي والحضارة الاسلامية ، بل كانت كل الخطوات التالية استكمالاً لما أتمه المسلمون والعرب وحققوه في مختلف ميادين العلم والفن والفلسفة والأدب والعمارة . وهكذا لا يموت التقدم العقلي الإنساني بل يلتقل حين تضعف الدول وتضطرب السيادة . ومثل في هذا مرحلة من أدق مراحل حركة الحضارة الانسانية التي نشأت على ضفاف النيل والفرات . ثم انتقلت إلى يونان ورومان ، ثم تحولت مرة أخرى إلى عالم الاسلام ، ثم تحركت مرة أخرى إلى أوروبا بعد مرحلة خضبة أمتدت أكثر من ألف عام ، منذ سقوط روما في القرن الخامس إلى أن بدأ عصر الريلسانس في القرن الخامس عشر ، غير أن الأثر الإسلامي للحضارة والثقافة قد ظل قويا بعيد الأثر في البقعة الأوروبية في مختلف مجالات الحضارة والثقافة ، مهما حاولت أوروبا أن تنسكه أو تزيل مظاهر آثاره ، فقد ظل بارزا في معالم الفلسفة وفي مجال الطب والفلك والكشف البحري لا يمكن أن ينسكه . بل في مجال الفكر للمسيحي نفسه وإذا كان الفكر الإسلامي قد توقف في عالم الاسلام نتيجة المنن التاريخ وظواهر السكون ونوميس الزمن ، فإنه قد تحرك في أوروبا من خلال النهضة ولم يستطع المؤرخون للنصفون إنكار نتائجها . وقد كان عمل ابن رشد بعيد الأثر في الفكر الفلسفي الأوربي إلى حد يمكن أن يقال معه أنه كان نقطة تحول ، وأن مفهوم الإسلام للحرية والمكرامة الانسانية والمساواة ، كان بعيد الأثر من بعد في كل كتابات الفلاسفة أمثال روسو وديدرو وفي الحركات السياسية كالثورة الفرنسية وغيرها وكانت دعوة الفكر الإسلامي إلى « تحرير العقل » بعيدة المدى في انهيار نفوذ الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة ، بل أن حركة لوثر وكالفن

كانت أثراً من آثار الفكر الاسلامي ، ومن قبل كانت حركة إبطال عبادة الصور ورفعها من المعابد في بيزنطة نتيجة لمفهوم الأملاك ، حتى ليصل بعض المؤرخين في هذا المجال إلى القول بأن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية في القرون الوسطى كان صراعاً بين المسيحية والفلسفة الإسلامية بأسرها ، وقد كان الرهبان الفرنسكانيون أنصاراً أقوياء للفكر الاسلامي وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن دهوة الإصلاح في أوروبا لم تبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، وذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الاسلام ( رسالة التوحيد ) . وقد ظل العلماء في أوروبا منذ القرن الخامس الهجري والحادى عشر للميلادى يعملون على نقل العلم العربى والفكر الاسلامي ، وقدمت الثقافة الاسلامية مادة ضخمة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وكما ترك ابن رشد أثره الفاسفى فقد ترك الغزالى طابعه العقلى على الباحثين الغربيين فاستغلوا براهينه في مسائل اللاهوت ، كما أثر النصوص في الفكر الغربى ( ج مور : تاريخ الأديان ) كما ترجم القرآن السادس ( الشافى عشر للميلادى ) وكان لابن حزم أثره البالغ المدى في الفكر الغربى وقد بقيت آراؤه وأسمنر الخلاف حولها إلى ما بعد وفاته بنحو قرن وخاصة آراءه في اليهودية والمسيحية ، وقد أشار [كتاب تراث الاسلام ج ١ ص ٥٤ ] إلى هذا المضمون حين قال « استغرق تأثير الاسلام كل مرافق الحياة في أسبانيا في القرن العاشر حين سقطت طليطلة وانتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوروبا ذلك أن ( طليطلة ) كانت قد أصبحت شيئاً فشيئاً مركز الثقافة الاسلامية في القرن الحادى عشر بعد أن خرب البربر قرطبة . وكان توماس الأكوينى بالغ التأثير بكتابات الغزالى وابن رشد ، وكان للقرآن بعد أن ترجم بالغ الأثر في صيحة لوتر بعد أن قرأ ما كتبه ابن رشد وابن سينا والفارابى عن نبى الاسلام « محمد » نما دفعه إلى أن يقول عن المسلمين : أن نشاطهم الدينى مثل يحتذى ، وكذلك حكومتهم الرشيدة ، وقوانينهم وصدق أخلاصهم ، وهم يتركون الناس يعتقدون الدين الذى يميلون إليه ولا يكرهون أحداً ولا شك كان حادث الإصلاح البروتستانتى المسيحى من الأحداث البارزة في تاريخ الأديان ، فقد ارتبطت بأصول الاسلام وعلوم الاسلام ، وقد أشار أمين الخولى في رسالته [ صلة الاسلام باصلاح المسيحية ] إلى أن التأثير الاسلامى كان في أوروبا قويا واضحا وبخاصة في البيئة الجرمانية ، ومن هنا كان أثر الاسلام الواضح في تحرير العقل الأوروبى ، وفى مقدمة هذا الأثر : إلغاء وساطة الكنيسة بين الله والناس ، والثورة على الأصنام والصور ومخطيمها .

(٢)

في تقدير كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوروبا عن مصادر مختلفة ، غير أن الجزء الأكبر قد انتقل عن طريق « الأندلس » ، ويقدر بأربعة أخماس هذه الحضارة ، فقد كانت موطن استقرار للحضارة والثقافة الإسلامية ، وتزاوج واختلاط بين المسلمين والعرب من ناحية وبين الأوربيين من ناحية أخرى خلال ثمانية قرون ، والواقع أن الحضارة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي لم ينتقل من عالم الإسلام إلى أوروبا ، ولكن الأرض التي كانت تحملها الحضارة هي التي نقلت وذلك باسترداد الفرنجة والأسبانيين وحدات المملكة الإسلامية « الأندلس » جزءاً بعد جزء خلال فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولعل أبرز ما نقلت الحضارة إلى أوروبا « المساواة » ، كان القانون الإسلامي يطبق على الجميع ، يقف الفقير والغني أمام القاضي . ومن هنا كانت هذه أبرز الأفكار الإسلامية الأساسية التي قامت عليها حركة النهضة وفلسفة الثورة الفكرية التي كان لها أكبر الأثر في أوروبا . ومن أعظم ما نقلته النهضة عن طريق الأندلس « الفلسفة الإسلامية » بطابعها المختلف كل الاختلاف عن الفلسفة اليونانية أو الهندية أو غيرها وأهم ما تمثلته الفلسفة الإسلامية : المقارنة والتوفيق بين الإيمان والعقل وبين العلم والدين . فقد كان أبلغ ما وصل إليه مفكرو الإسلام وفلاسفته استعداداً من مفاهيم الإسلام نفسه ، التقريب بين مجرى الإيمان والعقل وبين الدين والعمل والتأليف بين أجزائها بعد أن كانت الفلسفات السابقة تفصل بينهما ، وقد بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس مبالغاً عالياً وضخماً بالمقارنة بينها وبين أوروبا ، فقد كانت قرطبة وعدد سكانها نصف مليون نسمة بها ثلثمائة حمام وسبعون داراً للكتب وفيها من الطرق الموصوفة المضادة ليلاً ما يبلغ في جملته أميالاً كثيرة ، في نفس الوقت الذي كانت لندن وباريس في حالة تأخر شديد ، وفي قرطبة أنشئت الجامعة الإسلامية الكبرى التي استقدم لها عبد الرحمن الثالث العلماء من المشرق ، وأنشأ بها ست وعشرون مدرسة مجانية ونقل بها مئات المؤلفات من المشرق ، غير أن الفرنجة لم يلبشوا أن انتزعوها مملكة طليعة الإسلامية من المسلمين عام (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) ومن ذلك بدأ ريموند رئيس الأساقفة ترجمة الفلسفة والعلوم العربية ، وظلت هذه الحركة مزدهرة فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاماً وقد اتسعت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري (١٣ م) وعن طريق هذه المؤلفات العربية الإسلامية المترجمة تجمعت مصادر الفكر الغربي الحديث مستخلصة من حضارة الفكر الإسلامي والمعارف والثقافة العربية وقد درس في معاهد الإسلام في طليطلة كثير من أعلام

الفكر الغربي وعن طريق حقلية تمت حركة مماثلة ، وقد شملت هذه الحركة العمارة البحرية والفلك والتنجيم والرياضيات والطب والزراعة والتجارة والصناعة والفلسفة والادارة والموسيقى والألعاب والغروسية . وهكذا انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوروبا عن طريق بالرمو (صقلية) طليطلة (الأندلس) بالترجمة ، وانتقل إلى اللغات الأوروبية بواسطة هذه الترجمات وأمثالها عديد من المصطلحات والألفاظ العربية الصغيرة ، ويختلف آثار ابن رشد والفارابي والخوازمي ، وابن سينا والرازي وما تزال مصطلحات الفلك حتى اليوم عربية ، وكان للمسلمين دورهم الطليعي في مجال البعريات والرياضيات والفلك والموسيقى والطب .

( ٣٥ )

## الغرب والإسلام

ذلك كان دور الإسلام في أوروبا فإذا كان دور أوروبا في الإسلام ، الحق أنه كان دوراً مليئاً بالعقوق والكراهية والتعصب ، فإن الغرب لم يلبث أن استيقظ على فكر الإسلام وحضارته حتى استأنف الغارة على عالم الإسلام وبدأ مرحلة جديدة من مراحل الغزو ، أشد عنفاً من الحروب الصليبية ، وكان البرتغاليون والأسبانيون أبعد الناس تأثراً بالفكر والثقافة العربية الإسلامية والحررون لذلك التراث الضخم ، هم حملة لواء حملة العقاب لعالم الإسلام ولشواطئ المغرب أولاً ، وأصحاب فكرة «تطويق عالم الاسلام» بالالتفاف حوله . وقد فعل الكتاب والباحثون والمؤرخون طويلاً في آثارهم ومؤلفاتهم التي عرضت لحركة السكشوف الجغرافية حول شواطئ العالم الاسلامي أو في قلب أفريقيا من بعد ، غفلوا عن أنها حركة استعمارية وليست علمية ، وأنها كانت تخفي وراءها مطامع الحروب الصليبية القديمة ، وأنها كانت تستهدف السيطرة على عالم الاسلام ، مورداً للخدمات ومصدراً للإنتاج ، ولا يمكن تفسير أعمال هنري الملاح أو ماركوبولو ، وكولبس إلا في ضوء مرحلة جديدة من مراحل استرداد عالم الاسلام نفسه بحسبانه في تقديرهم كان ملكاً للأباطورية الرومانية ، وأن تصفية الاسلام والعروبة من أوروبا بالقضاء على دولة الأندلس ، كان في نظر الغرب يستتبع السيطرة على المغرب ومصر والشام بوصفها كانت تحت نفوذ عالم الغرب قبل الاسلام ، وهو مفهوم استعماري متعصب ، بعيد عن الفهم النزيه لتطور التاريخ وحركته ، يقول جورج كيرك : «لقد كان هدف هنري الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الاسلام حربياً وتجاريّاً وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين والاتصال في جنوبي

الصحراء بمحور نجاى الحبشة للتعاون معه على مهاجمة للمسلمين من الجنوب ، ومن هنا بدأت فى أوائل القرن التاسع الهجرى ( الخامس عشر الميلادى ) وخلال القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والاسبانيون ، فى الاستيلاء على موانى شاطئ أفريقيا ( مرا كش والجزائر ) : سبته وطنجة ومليلة والمرسى الكبير ، ثم اتصفت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بتصد محاصرة الأساطيل العربية فى البحر الأحمر والخليج الفارسى .

وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧ واستطاع القونسو البوركى إقامة دولة فى الشرق واستولى على مدينة هرمز ثم سيطر البرتغاليون على الخليج الفارسى خلال القرن السادس عشر ، وأبحر فاسكو دى جاما إلى موزمبيق ، وفى عام ١٥٠٥ خرج البرتغال أسطول تعداد ٣٠ سفينة ( ١٥٠٠ بحارب ) فاحتلوا سفالة وكوه ومباسا ، وبلغوا مسقط وهرمز عام ١٥٠٩ ، وفى عام ١٥١٩ احتلوا السواحل الأفريقية وأتزعجوها من أيدي العرب .

غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمع فيه فقد أوقمتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التى استطاعت أن تقف عليها ، فقد ظهر العثمانيون فى مياه الخليج ١٥٨٥ وقابلهم أهل الساحل بحماس شديد ولا سيما أهل مباسا ، كما دخلت دولة المالك مع البرتغال فى حروب بحرية ، ثم خلف الفرنسيون والهولنديون والانجليز ، البرتغال وأسبانيا وخطوا خطوات واسعة كان أبرزها إستيلاء هولندا على أرخبيل الملايو وفرنسا وانجلترا على أفريقيا واستأثرت إنجلترا بالهند ، كما ناض الانجليز البرتغاليين وأرسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام ١٦١٦ واستقبل الشاه عباس أول بعثة تجارية انجليزية . وقد استطاع العثمانيون انقاذ العالم العربى من الغزو البرتغالى الاسبانى الذى استهدف خلق التجارة العربية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الأسمى للاهارة عليه وضربه ، هناك سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ما عدا مرا كش ، واستطاعوا مواجهة الأسبان فى حوض المتوسط وجزائره وسواحه وأدالوا منهم وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تقف على النفوذ البرتغالى الاسبانى وأن تحفظ شاطئ البحر الأبيض المتوسط للعروبة والاسلام ، غير أن الاستعمار لم يلبث أن استأنف حركته باسم بريطانيا وفرنسا وهولندا للسيطرة على البحار الإسلامية منذ ١٦٨٣ .

واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا وشمال المحيط الهندى فى مطلع القرن الثامن عشر ( الثانى عشر الهجرى ) فأرهب ذلك الأوروبيين وأزهد إنجلترا وهولندا ، واستطاع

أحمد بن سعيد عام ١٧٤٠ أن يقف في وجههم في عمان ، هنالك فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة .

وقد كانت عمان بسد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام ١٠٠٠ إلى ١٢٥٠ هـ وقد استولت على نفور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي وأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة البحار المعطى الثلاث ، وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع النفور الهندية والفارسية والأفريقية ، ولقد كان الأسطول العثماني مؤلفاً من ثلاثمائة قطعة من بارجة و فرقاطة ونسافة وحراقة ، قبل أساطيل المماليك والدولة العثمانية ، ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا فعملوا في مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها وضرب الأسطول البرتغاني مدنها بالنابيل (ك . حياة للشرق) .

وقد بدأت حملات هولندا إلى جزر الهند الشرقية عام ١٥٩٩ واستطاعت أن تركز نفسها من بعد ، أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد بدأت عام ١٦١٢ وفي حوالي عام ١٧٨٠ تركز الاستعمار الهولندي في أرخبيل الملايو وتركز الاستعمار البريطاني في الهند . ولا شك كان هدف الاستعمار الغربي أساساً هو القضاء على الإسلام كقوة لوحدة والمقاومة كخطوة تنف أمام توسع النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي في السيطرة على المنطقة .

يقول الدكتور حسين مؤنس : أن أوروبا لم تسكف عن التفكير في الإسلام والأخذ بنارها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين ١٢ و ١٤ ( السابق والثامن الهجري ) سمعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الإسلام بين دولتين مسيحيين . ثم كيف انصلت الأسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الإسلامية في مصر ، ثم كيف بدأت تنجبه إلى الغرب للوصول إلى الهند وللوصول إلى بلاد الإسلام ، ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد ، بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم من آخره ، نعم ، تلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لاصحابه في الخيال صورة آميا وأوروبا المسيحية تحصران الإسلام بينهما فلا تصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن اسبانيا وفي جانب من شرق البحر الابيض : ذلك أن خانات فارس دخلوا الإسلام ١٣١٦ م



وأسلم أهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) . وترىبت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ - ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصليبيين في وجه التجارة الأجنبية فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية وانسأها بعيداً في رقعة الإسلام الذي أدرك شأواً بعيداً من الانساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولكن أملاً جديداً ترائى للقرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً في أكبر إنقلاب عرفه التاريخ ، وتساعل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر ، لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حلوا الصليب على صدورهم ، واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة ، هكذا كان مفهوم القرب للفوز الجديد وللمرحلة الجديدة للحروب الصليبية ، التي أطلق عليها اسم « الاستعمار الحديث » . وقد كان اختلال بريطانيا للهند وهولندا الجاوة وأرخييل الملايو هو الخط الأول لتطويق عالم الإسلام ، وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدئوا فكرة استعمار عالم الإسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٢ .

وأسس الهولنديون عام ١٦٠٠ م الشركة الشرقية وأسسوا شركة الهند الغربية عام ١٦٢١ م فامتلكوا غينيا وسورينام وركاب وسيلان عام ١٦٥٣ وجزائر ملقة وفي ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارة (أهل حضرموت) قد هاجروا قبل ذلك بأربعمئة عام إلى جزائر الهند الشرقية ونشروا فيها الإسلام . وبعد أن تمت حركة التطويق نجحت شركات هولندا وانجلترا إلى استعمار صريح . لم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الإسلام : « الامبراطورية العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من ١٦٨٤ إلى ١٨١٨ م خلال مائة وأربعة وثلاثون عاماً وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة وفي مقدمتها القضاء على القوة الشابة في مصر التي قادها محمد علي وإبراهيم . واستطاعت بالضغط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية ، وفي الخارج باقنطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمتها روسيا (حين هربت القوقاز وبسطت سلطانها على أوامط آسيا) وبريطانيا وفرنسا ، وتمثل في هذه الحركة الضخمة « أزمة الاسلام الكبرى » للسلطة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتي لم تتوقف أكثر من ثلاث قرون تضاعفات - ولا نقول توقفت - في أواخر القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجري) . وقد تمثل ذلك في عدة خطوات : (١) تطويق العالم الاسلامي .

(٢) السيطرة على الهند وأرخبيل الملايو . (٣) تمزيق الدولة العثمانية من الداخل . (٤) اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية . (٥) تنازع السيطرة على فارس . وكان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه إليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر . يقول الدكتور مصطفى الحفناوى : إنه فى سنة ١٤٩٨ م حدث تحول خطير فى التاريخ الانسانى ، ذلك أن الملاحين البرتغاليين ( فاسكو دى جاما ) استطاع أن يصل إلى الهند طوافاً حول رأس الرجاء الصالح واستعان فى ذلك بمجماهة من الملاحين العرب أبرزهم ( أحمد بن ماجد ) . وكانت قدرته إلى ملك فرنسا هام ١٢٤٩ ( ١٦٤٧ هـ ) وثيقة تطالب بشق قناة برزخ السويس لتكون ملسكاً للعالم الغربى كجزء من خطة الحروب الصليبية ، ثم توالت المشروعات التى تستهدف إنشاء طريق فى برزخ السويس ، وفى ١٥ مارس ١٩٧٢ رفع الفيلسوف ليبنتز إلى لويس الرابع عشر مذكرة قال فيها « أريد أن أتحدث فى مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة فيها على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، أنسكم حين تغزون مصر ستقضون على الامبراطورية التركية القضاء للبرم ، إذا غزوتهم مصر ستظفرون بعين الارتياح والرضا لهجومكم على المسلمين الخ ، ثم كان مشروع المركيز دى سنبلاوى بشق قناة فى برزخ السويس تصل النيل بالبحر الأحمر ، وقد كادت الدبلوماسية الفرنسية أن تغفر بموافقة السلطان العثمانى ، غير أن الحركة القومية المصرية التى قادها العلماء وقفت دون المشروع سداً منيعاً . وفى نفس الوقت توسعت حركة النفوذ الاستعماري فى قلب الدولة العثمانية من طريق الارساليات والسكليات الدراسية التبشيرية ، وعن طريق خلق طليعة مثقفة من غير المسلمين تحمل لواء الحملة على تركيا ويكون من نفوذها البالغ إنشاء الصحف فى مصر والمغرب وأوربا لهجوم عليها وتركيز الحملة عليها بوصفها « صورة الاسلام » بحسبان كل أخطاء الدولة العثمانية هى « أخطاء الاسلام » نفسه ، وكان هذا من التوجيهات الضخمة التى اصطلتها الاستعمار كسلاح خطير فى وجه « اليقظة العربية » التى حاولت أن تحمل لواء نمو الاسلام وحيويته .

## الإسلام والغرب

مرت العلاقة بين الإسلام والغرب في ثلاث مراحل :

( الأولى ) مرحلة العطاء : قدم الإسلام إلى الغرب كل حصيلته من الحضارة والعلم والثقافة فكانت مبعث النهضة الحديثة في أوروبا في القرن الخامس عشر . ( التاسع الهجري ) .

( الثانية ) مرحلة الجحود من الغرب ، فقد أنكر فضل الإسلام ، وازدري بأثر الثقافة الإسلامية ، واستعملها سلاحاً لضرب الإسلام وبهائه ، والقضاء عليه كقوة ، واستغل مختلف قوى العلم في السيطرة والظلم مغلغاً فكره بالتعصب والاستعلاء الجذبي ومقاومة فكر الإسلام ودينه ومقوماته .

( الثالثة ) مرحلة التحول : وهي مرحلة دقيقة تتمثل في آراء عديد من الباحثين المنصفين — غير المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب المتصلين بدوائر وزارات الاستعمار والمستعمرات — هؤلاء الذين يحسون بالحاجة إلى مقومات جديدة للفكر الانساني بعد أن بلغ الفكر الغربي غايته في الانحياز للماديات ، فقد تكشف للعلماء والباحثين المجريين عن الغايات الاستعمارية ، أن العقل الانساني قد كبر وتضخم بينما روح الانسان قد ضعفت ، ومن هنا كان تطلمع الباحثين إلى الثقافات الانسانية ، وكان الرأي هلئ أنه إذا كان الفكر الغربي (الأوربي) قد بلغ إلى مرحلة المادية الحالية ، فإن الفكر الشرقي مطبوع بطابع الروحية الخالصة ، بينما ينسجم الإسلام وفكره بطابع الشمول والتكامل والوسيلة في الجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة . ومن هنا يبرز تيار جديد في الفكر الانساني يحمل لواء النظم إلى الإسلام كحل نهائي وحاسم للمعضلات البشرية وكوسيلة للقضاء على الأزمات وحل الخصومات والتخالفات المتراكمة في عالم الغرب . هذا التيار قد حقق بعض النجاح ولكنه لا زال ضعيف الأثر والحركة بالنسبة للتيار الضخم الذي يتصدره الاستعمار في سبيل إثارة الشبهات والقضاء على مقومات الإسلام وذلك في سبيل العمل على خلق وحدة فكر عالمية قوامها الفكر الغربي — ينصر فيها الفكر الاسلامي ويذوب ، ولقد استطاع الإسلام أن يواجه هذا الخطط وأن يتحداه ، ويدبل منه ، وليس أدل على قدرة الإسلام في مرحلة الية فلة أنه في خلال الحسين سنة الأخيرة من القرن الرابع عشر (هـ) قد صارع الفكر الرأسمالي والماركسي والصهيوني جميعاً ، واستطاع أن يقاوم القوى الاستعمارية الجبارة ذات السلطان والنفوذ ويواجه الأسلحة والقوى المختلفة التي حاولت أن تؤثر في مقوماته أو تقضي عليها ، ولا شك سينتصر الإسلام

في أزمة الفكر الأحمي وسيخرج من محنة الفكر الرأسمالي ( الغربي ) وللماركسي والصهيوني ظافراً منتصراً مؤكداً ذاته وقيمه بحسبانها أصبح القيم لعالم الإسلام والانسانية .

( ٣٦ )

## إنتشار الاسلام

اتسمت هذه الفترة بأن جمعت بين : حركتين : (١) حركة يتنظها داخلية استهدفت تجديد الإسلام وتصحيح مفاهيمه و (٢) حركة انتشار للإسلام ذاتيا خارج دائرة عالم الإسلام ، وقد عمل المسلمون على نشر الإسلام في بلاد غربي إفريقيا وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيليبين . وصمد لهذه الحركة عدد كثير من التجار والحجاج والعلماء على اختلاف الأجناس . وكان للبشرى السنوسيين دور ضخم ، هؤلاء الذين أخرجتهم زوايا الصحراء ، وهم يمدون بالآلوف ، فقد قاوا بحولات واسعة في غربي إفريقيا ووسطها ، وصف المؤرخون والباحثون نتائجها خلال القرن الثالث عشر ( ١٩ م ) بأنه عجيبة من العجائب الكبرى وكتب أحد الباحثين ١٩٠٦ يقول : إن الإسلام ايفوز في أواسط إفريقيا فوزا خطيرا حيث الوثنية تخفت أمامه اختفاء الظلام في فاق الصبح ، وليس ظفر الإسلام في إفريقيا مقصوراً على الوثنية فحسب بل على الأديان الإفريقية الأخرى . ولم يتوقف هذا التوسع الذاتي للإسلام عند إفريقيا وحدها بل امتد إلى بلاد النهر في روسيا وفي الصين ( قبل أن يصاب فيهما بأزمة القضاء عليه خلال القرن الرابع عشر ) وقد أشار زويمر إلى أن مصدر انتشار الإسلام هو : فريضة الحج والطرق الصوفية : وليس عجيباً أنه خلال هذه المرحلة — حين كانت اليةطة العربية الاسلامية تحمل محل الوحدة الاسلامية العثمانية التي آلت إلى الضعف ، والتي كانت في نفس الوقت تواجه أعظم تحد لها ، وهو النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف في غزو جديد ، فجد الإسلام يشق طريقه ذاتيا في قلب إفريقيا وغربها بسرعة مذهلة ، ويحقق انتصارات جديدة في أرخبيل الملايو وشمال شرق آسيا . فقد سجل الإسلام على طول تاريخه كله هذه « الظاهرة » من التحدى ورد الفعل ، فحيث تظهر قوة تحاول أن تقضى منه ، يظهر الإسلام وهو يكسب أرضا جديدة ، وحيث تبدو علامات الضعف والانهيار في وحدة من وحداته ، تظهر علامات البعث واليقظة في وحدة أخرى ، فلا يستطع الراء أبداً ، فإذا ضعفت اليمد التي تحمله ، امتدت يد أخرى فابقته عرفتوها ، ظهر هذا واضحا في « الغزو الصليبي والغزو اللاتري » . كما ظهر حين بدأت القوة الاسلامية العثمانية تضعف حيث حلت

محلها بقظة عربية إسلامية هارمة . وحيث يواجه الإسلام في هذه المرحلة غزوا غربيا جديدا ، يسيطر على مقدرات عالم الإسلام في الهند وأرخيل الملايو ، والعالم العربي ، يندفع إلى مناطق جديدة في إفريقيا وجاوة .

وتبدو صورة التوسع الإسلامي في قلب إفريقيا في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع الهجري يرميها كاتب تيلر في تقريره الذي ألقاه في مؤتمر الكنيسة الانجليزية ( ١٨٨٧ م ) والذي نشرته جريدة التيمس ١٨٨٧/١٠/٢ يقول : إن الإسلام اليوم يمتد من مرا كش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو في داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة وقد خطى بنفسه وثبت أقدامه في السكونفو وزامبيزي وأصبحت أوغندا — أقوى البلاد السودانية وأشدها بأسا — إسلامية بأجمعها ، أما في الهند فإن التمدن الغربي الذي يهدم أركان الوثنية قائما يهدد الطريق للدين الإسلامي لا غير ، وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون ، وليس هذا بأول تقدم للإسلام يلزم بيانه ، والبحث عن سرعة انتشاره ، بل هو هدم الخلط والخطب في أصوله وتبلياله ، الأمر الذي جعل له مكانا ثابتا في قلوب أهل وكل من يدين به ، أجل : فقد اعتنق الإسلام أمة بمخذا فبرها في إفريقيا صفقة واحدة ، ولم ترند إلى الوثنية قط ، والإسلام أقاد التمدن أكثر من أى دين آخر ، فقد نشر راية المساواة والأخوة ، وهذه الأدلة نذكرها ننالا عن تقارير المؤرخين من الانجليز ، — هذه النتائج التي تنتج عن الإسلام ، فانه عند ما تدين به أمة من الأمم السودانية ( الأفريقية ) تختفى من بينها في الحال عبادة الأوثان ، وتحرم أكل لحم الانسان ، وقتل الأولاد ، وواد الأطفال ، وتصرب هن الكهانة وتأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحب الطهارة ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الأمور المنوعة ولعب الميسر والازلام محرمة ، والرقص القبيح ومخالطة النساء إختلاطا دون تمييز منعومة ، وتصبح هفة المرأة عندهم من الفضائل ، فالإسلام هو الذي يعمم النظافات ويقمع النفس عن الهوى ويحرم إراقة الدماء والقسوة بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة عن ذلك فالإسلام هفيف بالكلية عن الشركات الدينية التجارية ، وفي هفي هنها بالمره ، والتجارة الأوربية تهمل وسائل المسكرات وتسوم الشعوب خسفا ، وإذلالا ، والإسلام ينشر لواء المدنية القائمة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وهزة النفس . — ويكشف الرحالة جوزف تومسون في تقرير له لشرفته التيمس ١٨٨٧/١١/١٤ جوانب أخرى من حركة إنتشار الإسلام ذاتيا في افريقيا فيقول : إذا بلغنا غربى إفريقيا والسودان الاوسط

نجد الاسلام كجسم قوى تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتنحرك فيه عوامل الحماسة والأقدام ، كما كان في أيامه الأولى ، فترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا ، وتقبل عليه بأقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى فيه أشعة لوره منبعثة من شوارع سيراليون ، وأخذته في إنارة بصائر القبائل للمنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه ، كانت على يد جماعة سلميى الطوية منخفضة الجناح ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجرا ذاهمة وإقدام يدهى ( هو إذا أولوية ) كان ذلك الراعى يجهد نفسه نشر لواء ديانتة من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الأتلانتيكي ، ونتج عن ذلك أن اشترقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت في أواخر القرن الماضى عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم إلا رئيس يحمى زمامهم ، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض لهم في بدء هذا الجيل رجلا يسمونه ( فوديو ) لم يمض غير زمن قليل حتى ساد الاسلام وامتد جناح سلطانه بسرهة غربية في بلاد شناسة وانتشرت سلطته على القبائل للتبريرة فأصاب فوزاً عظيماً . إن زعيم الإسلام في هذه السنوات هو التاجر السودانى ( الأفريقى ) الذى كان يعتمد في مهنته على تقواه ، ويستعين بها على أعماله ، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة عن بلده ويخاطب بالوثنيين المنبريرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم في طعام واحد ، وكان أينما حل أو ضار لا يألو جهداً فى توسيع نطاق ديانتة وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس ، والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة أن الفرائض والسنن التى يفرض بها لا يتيسر فهمها على أخية الوثنى ولا تخرج عن قوة إدراكه ، هذا التاجر كان يقيم تارة معهم شهراً وطوراً ستة أشهر أو سنة وفي خلال هذه المدة تراه موضع التمجيد والاستحسان لنظافة ملابسه ولذلك ينسكب الناس الذين حوله على تقليده واتباع طريقه وليس فى ديانتة شيء يشكل عليهم معرفته ، وعلى هذا انفرست بذور اللدنية فى عدة قبائل همجية ونما الاسلام بينها نمواً هائلاً إلى حد بلغ فيه المدى فى هذه البلاد وملاً الآفاق .

## ( ٢ )

ما زال الاسلام يشق طريقه فى قلب القارة الافريقية بالرغم من القوى المضادة التى تحمل لوائها هيئات التبشير باعتماداتها الضعفة وبقواها السيامية والعسكرية وترجع أسباب تفوق الاسلام إلى أنه أكثر بساطة ، وأبعد عن التعقيد من الأديان الأخرى ، فهو خلو من الأسرار للذهبية أو التعذيب الضمير ، فلا هتقاد بإله واحد وبمحمد نبيها هما الشرطان الأساسيان فى الإسلام ، فضلاً عن أن الاسلام

يجيز تعدد الزوجات واقتناء العبيد والجوارى وهو من هذه الناحية مآلماً للندسية الأفريقية، كما اقترن الإسلام في أفريقيا بمقاومة الاستعمار وشعب التمييز العنصرى، يقول نعيم قداح : أن الاستعمار في غرب أفريقيا كان نهاية للحقبة للزدهرة التي توهجت فيها الثقافة الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية التي قامت في تلك الأصقاع، وقد اتهمت نيران جيوش الاستعمار في مدن أفريقية العربية كثيراً من المدارس والمكتبات وأتى المستعمر على كل أثر على هند ما قطع التيار الحضارى العربى الإسلامى القادم من شمال أفريقية ومصر، ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للأفريقيين بصورة عامة، وجد كثير منهم أن الإسلام هو الذى سيخلصهم من ظلم المستعمرين، ولذلك تضاعف عدد معتنقيه فى مدى نصف قرن، واقترنت الدعوة للدين الحنيف بمجهود فردى لإعادة أبحاد الثقافة العربية الإسلامية، وقد بدأ الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا منذ ١٢٧٤ ١٨٥٧٨ م يقضى على الإسلام واللغة العربية، فهو لم يحاصر اللغة العربية فى شمال أفريقيا والجزائر وحدها بل حاصرها أيضاً فى قلب أفريقيا، فانقرضت المدارس الإسلامية لأنها لم تستطع الحصول على إعانات، ولم تبق إلا الزوايا للتعليم القرآنى، وقد كان تعليم القرآن هو المنطلق الأول فى التعليم العربى هناك، وإن كان الذين تعلموا فى الأزهر قد أنشأوا عدداً من المدارس الإسلامية عندما عادوا إلى بلادهم، غير أن المستعمرين سرقوا الكتب الإسلامية ونقلوها إلى بلادهم وأغلقت المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين بينما توسعت مدارس التبشير والاستعمار، على الرغم من ازدياد عدد الذين اعتنقوا الإسلام فى تلك الفترة، وتضخم بصورة واضحة.

وفى المناطق التى احتلتها الأنجليز حالوا بصورة عامة بين المسلمين والنعام، إذ كانوا يشترطون على المسلم أن يغير اسمه إلى اسم «لاتينى» ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ودراسة التاريخ الاستعمارى، ووجد المسلمون أن أمامهم أحد طريقين، أما أن يعمدوا إلى تغيير ديانتهم ليدخلوا مدارس المستعمرين، وأما أن يمتثلوا على المستعمرين فيتعلموا ثم يعودوا إلى دينهم، بعد أن تشبعوا بأراء وتوجيهات الاستعمارين.

وقد صور توماس أرتولد إنتشار الإسلام فى أفريقيا فقال . كانت الأساليب السلمية هى الطابع الغالب على نشر الدعوة الإسلامية فى أفريقيا، كان التجار المسلم عربياً كان أم أفريقياً يجمع بين نشر الدعة وبيع سلعته، حتى إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوءه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التى يبدو فيها وكأنه يخاطب كائناً خفياً وما يتحلى به هذا الرجل من سموه على وخاقي كان يفرض احترامه وثقة الأهالى الوثنيين به . ويدعش المؤرخون والباحثون من أن الإسلام قد

انتشر بصورة ضخمة في أفريقيا في نفس الوقت الذي وطد الاستثمار أقدامه في قلب أفريقيا ومعنى ينشر حملات التبشير والشبهات حول كل ماهو إسلامي . وبالرغم من ذلك فقد واصل الإسلام فتوحه وكان للصوفية وأبناء القارة الهندية من التجار المسلمين الذين هاجروا إلى أفريقيا دور فعال . ويرجع ذلك إلى بساطة الإسلام وسماحته ، وقدرته على ملاقة الفطرة أو التقاليد أو العادات المحلية دون أن يصادمها ، وهو ما أطلق عليه بعض الباحثين « الاندماج » أو « الامتزاج الصحي » ، وقد كان لمبدأ « المساواة » بحسبانه المبدأ الأساسي في الإسلام أثر مباشر وعلى في ترحيب شعوب أفريقيا به والمساهمة إلى اعتناقه ، وإبرز ما ينسجم به في نظر الأفريقيين هو أن الذين يتحولون إلى الإسلام يعطون نفس الحقوق التي يتمتع بها أى عضو آخر في المجتمع الاسلامى حتى قيادة الجيوش وتولى أعظم مناصب الحكم .

ويرجع « هوبيرديشان » : الفضل في نشر الإسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية « فقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الإجتماعى ، وما يتمتعون في ظله من يسر وأمن في أسفارهم للتجارة » ويركز على أن إنشاز الإسلام تم بمجهود الطرق « القادرية » : التي نشأت في العراق وتوسعت في جنوب أفريقيا والسنغال و « التجانية » في فاس وتميز بشدة مقاومتها للوثنيين ، وقد كان لحرركة « الأحمدية » دورها في نشر الإسلام في أفريقيا ، كما كان المرابطون المغاربة وأغلبهم من اتباع الطريقة القادرية والتجانية — دورهم في نشر الإسلام ومد نشاطه من السنغال إلى غينيا والسودان حتى سواحل البعاج ومستعمرة النيجر . ويرجع ذلك في نظر هوبيرديشان إلى : أن الإسلام دين فطرة سهل التناول لا تعقيد فيه ، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف ، ويقول : لقد بدل الإسلام مظاهر البقاع التي دخلها وأشاع النظافة التي يتميز بها المسلم عن بقية الناس « لباس فضفاض » و « تحريم لحم الخنزير » ويتسم الإسلام في أفريقيا بطابع صوفى ، وربما اختلطت به بعض العادات الوثنية التي لا تزال باقية . ولعل أبرز أثر للإسلام في أفريقيا إختفاء أقيج الرزائل وهى أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قربانا ووآد الأطفال أحياء ، لقد حول الإسلام المرأة إلى لابسين ، والذين لم يغتسلوا قط إلى الطهارة ، وأعان على اندماج القبائل فأصبحت أمما ، وفتح باب ازدياد المعرفة والثقافة . وقد أمر الإسلام الأفريقيين بالنشاط والعزة والاهتمام على النفس وقضى على الحروب الصليبية . ولعل أبرز ما أعان على انتشار الإسلام في أفريقيا ما صورده أحد الباحثين الأجانب حين قال : أنه من السهل على الزنجى أن يصير مسلما ، فيكفيه أن ينطق شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ليندمج حينئذ



في مجموعة اجتماعية هائلة وسلسلة من تعاضد على مسافة الآلاف الكبيرة من الكيلومترات ، وأن الزنجي المسلم سيجد عند أخيه في الدين دائماً الطعام والحصير للنوم ، هذا بالإضافة إلى روحه التحريرية للأفرد والجماعة وقد حاول الاسلام ضرب حركة إنتشار الاسلام بإثارة الشبهات حوله واتهامه بأنه قائم على مفهوم الغيبيات والتواكل ، غير أن اندفاع الاسلام بهذه الصورة بالرغم من كل قوى التبشير التي تواجهه قد تكشف عما يتميز به جوهره من بساطة تعاليمه واسجاعامه وطبيعة الفطرة الاسلامية المتحررة من التعقيدات ، ولا شك أن انتشار الاسلام في هذه المرحلة من مراحل الفوز الاستعماري يبين عن جوهر الاسلام وقدرته على التحدي ورد الفعل . وفي أرخبيل اللابيو استطاع مصارعة البرتغال والهولنديين والفرنسيين والإنجليز واليابانيين .

( ٣٧ )

### بين العرب والترك

حين أخذ نجم العثمانيين والترك في الضعف ، تألق نجم «العرب» كقوة جديدة للاسلام وان لم تكن القوة هذه المرة في مجال الحرب والتوسع ، أو المقاومة العسكرية ، ولكنها كانت قوة فكرية ميامية تمثل « مرحلة جديدة » من مراحل حركة تاريخ الإسلام ، ولقد كان من الضروري على هذه القوة الجديدة أن تتحرر من سلطان الأتراك السيامي والعسكري وكان عليها في نفس الوقت أن تواجه نفوذ الاستعمار للسكاسج للندفع للسيطرة على ميراث الدولة العثمانية التي كانت تمر بمرحلة « الرجل للربض » ، والحق أن الخلاف بين القوة الإسلامية الجديدة المتألفة وبين القوة الاسلامية التي أدت وسائلها واستكملت دورة التاريخ كان مركزاً ، في مفهوم واحد هو مفهوم ( إعادة صياغة الإسلام ) صياغة مجددة في مجال بعثه كرد فعل على عوامل الضعف والتأخر التي مني بها المسلمون نتيجة الانحراف عن تكامل مفهوم الاسلام الجامع بين العقل والقلب ، وغلبة للتصوف كمفهوم روحي وجسداني له طابع الجبرية والتواكل .

ومن هنا كانت الیقظة العربية الإسلامية تقوم على حركات متوالية ، متتابعة ، تمثل في مجموعها تطور الفكر الاسلامي في مجال التجديد والاصلاح والتحرر من عوامل الجود والتخلف والضعف ، وكانت الدعوة إلى التحرر من ( الجبرية الصوفية ) هي في نفس الوقت دعوة للتحرر من نفوذ الاستبداد السيامي والجود الاجتماعي .

وفي مجال التاريخ الإسلامي بدأت « حركة اليقظة » بعلامتين كبيرتين : تقدم العلماء مرة أخرى لحل لواء للنصحة للحكام والأمراء وقيادة الحركات للمطالبة بالإصلاح والعدل الاجتماعي ، وكانت أبرز هذه العصور ، قد انبثقت من الأزهر في القاهرة ، لمواجهة ظلم الأمراء : إبراهيم ومراد ، وفي نفس الوقت كانت الدعوة إلى « التوحيد » التي حل محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية دعوة إلى التحرر من مفهوم العبودية السياسية والروحية والاجتماعية كافة . ومن هنا بدأ الصدام بين هذه القوة الجديدة الشابة وبين الدولة العثمانية التي كانت خاضعة لنفوذ الصوفية الجبرية ، غير أن قوة جديدة في مجال السياسة لم تلبث أن ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر بقيادة محمد علي في مصر ، وكانت تحمل طابع القوة العسكرية ، وتستهدف إقامة إمبراطورية تحمل محل القوة العثمانية للنهارة ، وبذا أصبح على المسرح في ذلك الوقت قوى أربع :

\* النفوذ الغربي للممثل في الغرب للندفع للسيطرة على العالم الإسلامي وتقسيم ميراث الوحدة الإسلامية العثمانية . \* الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها بين مؤامرات الاستعمار ومحاولات الإصلاح . \* القوة السياسية الحربية ممثلة في مصر ومحمد علي \* القوة الإسلامية السياسية ممثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب والأمراء السعوديين . ولما كان الاستعمار للتصارع على مناطق النفوذ ، متفقا في القضاء على الدولة العثمانية وتمزيق ممتلكاتها وتقسيمها فيما بينه ، فقد استطاع أن يوعز إلى الدولة العثمانية أن تضرب القوتين ببعضهما ببعض ، وقد حدث ، فاستعان السلطان بقوة مصر العسكرية الحديثة في القضاء على قوة الجزيرة العربية ، ثم استطاع الانتصار من بعد أن يقضى على قوة مصر وبذلك انفسح أمامه الطريق مرة أخرى لتحقيق غايته في السيطرة على العالم الإسلامي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ له . غير أن القوة الإسلامية التي انهارت ، ظلت قوة فكرية متألفة . وكان مفهومها هو لباب مختلف حركات الإصلاح والتجديد الإسلامي من بعد . وكان القرن الثالث عشر الهجري ( التاسع عشر الميلادي ) مجالا خصبا لعوامل اليقظة التي بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بستين عاماً ، من هنا بدأ وجه الغرب من جديد في أولى خطوات الفوز الاستعماري الغربي الحديث ( ١٣١٦ هـ — ١٧٩٨ م ) والتي امتدت خلال القرن الثالث عشر باحتلال : الجزائر ومصر وتونس والخليج العربي ، وذلك مقدمة للسيطرة التامة على العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها . وكانت الهند وأندونيسيا قد سقطتا في قبضة النفوذ الاستعماري في منتصف القرن التاسع عشر وبذلك تم السيطرة على العالم الإسلامي بعد ثلاث قرون من حركة تطويقه وفي عام ١٩١٨ تمت الحلقة الأخيرة بانتهاء الحكم العثماني على العالم العربي بعد أن سقطت وحداته تحت نفوذ الاستعمار الغربي .

( ٢ )

## مراحل الخلاف،

مرت العلاقة بين العرب والعثمانيين في عدة أدوار : ( الدور الأول ) للرحلة التي بدأت ( ٨٩٢٣ - ١٥١٧ م ) وذلك باندماج العرب والعثمانيين في وحدة إسلامية شاملة ، بعد أن ضعفت القوى العربية وقوى للمالك والسلاجقة حين بدأت الوحدات العربية تتعرض للهجوم الغربي وخاصة في مناطق البحر الأبيض المتوسط وهي المناطق التي واجهت الغزو والحصار الاقتصادي بالانغلاق حول رأس الرجاء الصالح ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى ظهرت محاولات الانتفاض في وحدات عربية مختلفة على الحكم العثماني : خاصة في مصر ( علي بك الكبير ) وسوريا ( ظاهر العمر ) لبنان ( فجر الدين المعني ) ثم ظهرت حركة عربية إيدولوجية ذات طابع فكري إسلامي هي دعوة التوحيد : التي كانت تحمل في مضمونها لواء المقاومة والانتفاض لطابع الحكم العثماني الذي بلغ غايته في الضعف والجود ، ومن هنا بدأت اليقظة الإسلامية تنبعث من قلب المنطقة العربية ، وبدأت القوة العربية تستعيد مكانتها كقوة إيجابية في مواجهة عوامل الانهيار لتحمل لواء اليقظة والنهضة في العالم الإسلامي كله ، وكان ذلك إيذاناً بأن الوحدة الإسلامية العثمانية ، قد وصلت إلى نهاية المد ودخلت مرحلة الجزر ، وأكملت دورتها في مراحل التسكون والتألق والانحدار : وقد وقع هذا في ( ١١٥٣ - ١٧٤٠ م ) في نفس الوقت الذي بدأت فيه الدولة العثمانية تتحول من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع بالنسبة لوحدها في قلب أوروبا والبلقان ، غير أن اليقظة العربية ظلت فترة طويلة في مرحلة « الشرنقة » . ( الدور الثاني ) المرحلة التي بدأت في أول حكم السلطان عبد الحميد ، والتي كان يقودها دعاة الحرية على المفهوم الغربي ، وفي مقدمتهم « مدحت » والتي استطاعت أن تقيم نظاماً سياسياً جديداً ( ١٢٩٣ - ١٨٧٦ ) قوامه الدستور ، بيد أن هذه الحركة لم تستكمل عناصر البقاء ، ولذلك فإنها سرعان ما انهارت ، ودخلت الدولة العثمانية في دور صراع فكري خلال مرحلة استمرت حتى عام ١٣٢٦ - ١٩٠٨ حينما استعادت الدستور العثماني مرة أخرى . في هذه المرحلة كان « جمال الدين الأفغاني » قد بدأ دعوته إلى الجامعة الإسلامية التي نؤرخها بوصوله إلى القاهرة عام ١٨٧١ وذلك بحسبان أن مذهبه الفلسفي كان قد تمهد بعد سنوات السكفاح التي قضاها بين فارس والهند وتركيا ، وبحسبان أن مصر - في تقديره - قلب العالم الإسلامي وأشد مناطق الأمة العربية حساسية ويقظة ، هي أصلح موقع لاطلاق دعوته التي تمثل تطوراً للحركة اليقظة العربية الإسلامية التي

تقدمه بأكثر من سبعين عاماً ، وفي ضوء حركات التحرر والإصلاح في الدولة العثمانية والوحدات العربية وخاصة فيما يتصل بحركة مدحت وأتباعه الاتحاديين في قيام دستور نيابى وتقييد سلطات الولاة والامراء ، وهو ما شارك فيه من بعد عندما وضع دستور فارس ، وعندما أشار على سيد « الماين العثمانى » من قيام نظام الولايات ، وما ناقشه مع توفيق وهباس من حكم مصر .

ومن هذه الدعوة ظهرت حركة السلطان العثمانى عبد الحميد التى كانت تعمل من أجل « وحدة المسلمين » ولقد تبين من بعد صلة الاتحاديين باليهود الدعوة وبمخططات الاستعمار بينما استطاع السلطان العثمانى أن يجعل من دعوة « وحدة العالم الإسلامى » سلاحاً يواجه به النفوذ الغربى المضطرب الغزو لعالم الإسلام ، وقد جاءت حركته فى أعقاب تحرر الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية ولاشك كان للحركة أثرها ومفعولها وامتدادها بعد سقوط عبد الحميد عام ١٩٠٩ فقد ظل نصرائها يحملون لواثها إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ثم تطورت بعد إلى منهج آخر وأسلوب جديد .

غير أن الخلاف كان واضحاً بين دعوة الجامعة الإسلامية التى يدعو إليها جمال الدين الذى توفى عام ١٨٩٧ وبين حركة الجامعة الإسلامية التى قادها السلطان العثمانى من ناحية وبين حركة الجامعة الطورانية التى كان قيادها فى أيدى الاتحاديين ، غير أن هذا الصراع لم يتكشف إلا بعد عام ١٩٠٩ فقد استطاع الاتحاديون أن يفرضوا نفوذهم عام ١٩٠٨ وأن يحققوا إصدار الدستور فى نفس اليوم ، هذا العام الذى يعد من الأهموم الحاسمة فى تقدير المؤرخين لحركة اليقظة ، فقد استقبل فى هذا الدستور فى مختلف أجزاء عالم الإسلام ووحداته العربية بالذات باهتمام كبير ، غير أن هذا الجو من التفاؤل لم يلبث أن تضائل بعد إسقاط عبد الحميد ١٩٠٩ . فقد كشف الاتحاديون عن هدفهم فى إعلان الدعوة « إلى الجامعة الطورانية » وأخذوا فى تنفيذ مخطط تبريك العناصر فى الدولة العثمانية وواجهوا الأمة العربية بأقسى ألوان الاضطهاد ، حين أصر العرب على الحفاظ على كياناتهم القومى ولغتهم العربية ، ووقعت سوريا بالذات فى خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قادتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح الذى قاوم الوحدة العربية أهتف مقاومة .

( الدور الثالث ) ومن هنا بدأ الانقسام بين الوحدة العثمانية العربية المتمثلة باسم الإسلام فى الدولة العثمانية ، كانت الحركة العربية فى أول أمرها حريصة على بقاء الوحدة العثمانية العربية ، على أساس قيام نظام لامركزى يحفظ للوحدات العربية كياناتها ولغتها ، غير أن أصرار الاتحاديين

على تحريك العناصر ، والدعوة إلى الجامعة الطورانية التي تعارضت في أسلوب الدعوة مع مفهوم الإسلام ومع مقومات الجماعة العربية ، هنالك انفصمت الوحدة ، وبرزت الدعوة إلى الوحدة العربية مافرة ، غير أن الأحداث العالمية كانت بعيدة الإثر في تحديد موقف العرب والترك ، حين قامت الحرب العالمية وانضم الأتراك لألمانيا وأغرت بريطانيا العرب بوعود مكتوبة على إقامة الدولة العربية بعد الحرب شريطة مساعدتهم لها ، هنالك بدأ الصدام بين العرب والترك في الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا ولبنان على النحو الذي تحقق معه النصر للحلفاء (الإنجليز والفرنسيين) في الحرب العالمية ، وهزيمة ألمانيا وتركيا ، غير أن بريطانيا لم تلبث أن غدرت بالعرب وتكرت في هبدها لهم وتعاهدت مع فرنسا على تقسيم الشام (فلسطين وسوريا ولبنان) والعراق . وانتهت الحرب باحتلال إنجلترا للعراق وفلسطين واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان مع صدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وفي نفس الوقت احتل (الحلفاء) العاصمة العثمانية وأجزاء من الدولة ، هنالك برزت حركة التنوير التي قادها (مصطفى كمال) ومنحت عربونا لولائها لإجلاء الحلفاء واليونان من (آسيا الصغرى) وهي القسم التركي الباقي من الدولة العثمانية بعد انزعاج الوحدات العربية منها . (الدور الرابع) حققت الحرب العالمية الأولى للاستعمار الغربي الوصول إلى استكمال عملية الغزو التي بدأها عسكرياً منذ بدأت حملة نابليون ١٨٠٨ ووقف اللورد اللانبي (القائد البريطاني) في بيت المقدس وقال كلمته الحاسمة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل « الأقلية الضيقة » في مختلف أجزاء العالم الإسلامي تحاول أن ترجع هذه الوحدات إلى ماضيها قبل الإسلام لندعو إليه من جديد ، ففي مصر ظهرت الفرعونية ، وفي سوريا ولبنان ظهرت الفينيقية وفي العراق ظهرت الآشورية ، وفي المغرب ظهرت البربرية ثم بدأ تمزق مصرى وفكرى ودينى بين العناصر المختلفة ، قوامه مسيحي ومسلم ، وكردى وعربى ، وشيخى وسنى ، ومارونى ودروز ، وبدأت حركة الأقلية الضيقة تستعلى وترتفع صيحاتها حتى يحال بين عالم الإسلام وبين التجمع في وحدة فكرية ، واتصل ذلك باللغة العربية التي جهدت ، وباندفاع اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى السيطرة الثقافية في العلم الإسلامى كله ، كما اتصل ذلك بالشقاات والبطولات وتاريخ وأجداد الدول المحتلة لتصبح أجزاء أساسية في مناهج التربية والتعليم ، وذلك لحجب الطابع الإسلامى الذى كان مسيطراً على الفكر قبل هذه المرحلة ، وبدأت الوحدات صراها داخلياً عنيفاً مع المحتلين ، أحوجها إلى مرحلة طويلة حتى هادت إلى املاك أسلحتهم وقواها في الوحدة والإيمان بترائنها ومقوماتها .

أما تركيا الإسلامية - فقد انجذبت نحو الحضارة الغربية اتجاهها قوياً وحاداً ، فألفت كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية الإسلامية ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، وكان ذلك كرد فعل للعوامل الضخمة التي أوقعت الدولة العثمانية في الاضطراب والتفكك والهزيمة في الحرب العالمية ، وكاستجابة لنتائج مرحلة ضعف طويلة استمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، ومن طبائع الأشياء أن تتحرك القوى المتغلبة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لمرحلة اندفاع أولى ، ثم تعود مرة أخرى إلى التوازن والتعادل بعد أن تمر بمرحلة الانفجار أو التنفيس ، فقد شجبت تركيا الإسلام واللغة العربية كلية وحجبت تراثها الإسلامي والعربي الثقافي كله ، وبدأت تكتب لغة تركية جديدة منفصلة عن اللغتين العربية والفارسية ، واستعملت الحروف اللاتينية ، وقاومت الطابع الديني كلية في الحياة الاجتماعية واندفعت في التحرر إلى أقصى مدى ، في الزى ، وفي البيت ، وفي المدرسة ، وربطت نفسها بعالم الغرب ثقافياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً على نحو أحدث هزة ضخمة ، ثم تابعتها إيران ، وجرت مثل ذلك محاولة في أفغانستان ، وواجهت الأمة العربية هذه التجربة مواجهة لا حد لدقتها ، فقد كانت « حركة التغريب » التي يحمل لواؤها الاستعمار والتي تهدف إلى فصل المسلمين والعرب من مقومات فكرهم وكيانهم ( التي هي إسلامية أصلاً ) بوصفها من عوامل المقاومة للغزو والاستعمار والنفوذ الأجنبي ، كانت تحاول أن تتخذ من حركة تركيا تجربة ناجحة وتدهو إلى تقليدها ، وقد أحدثت ذلك هزة نفسية بالغة في مختلف مقومات الفكر العربي الإسلامي ، غير أن العرب بحسبانهم حملة لواء « حركة اليقظة » التي بدأت قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وعمقت آثارها في البيئة العربية استطاعت أن تقاوم . لقد ربطت حركة اليقظة الإسلامية العربية بين تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجود ، وبين مقاومة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقدمت كل الأسلحة لمقاومة الشبهات الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا عجزت حركة التغريب عن ضرب الإسلام في المنطقة العربية .

( الدور الخامس ) : بدأت حركة الوحدة العربية تحمل لواء مقاومة النفوذ الاستعماري ، بعد أن تمزقت جبهة الوحدة الإسلامية العثمانية التي التفت حولها كثير من المفكرين العرب والمسلمين بحسبانها قوة قائمة فعلاً ، تعمل على دفع الغزو الغربي ، فلما رزق الاستعمار « عالم الإسلام » ، قامت حركة الوحدة العربية كعلامة على العمل الواقعي لمواجهة الغزو وتوسيع جبهة المقاومة . وقد بدأت فكرة العروبة مرتبطة بالأساس الفكري بالإسلام ، غير أن الاستعمار الذي قاوم أي وحدة ، حاول أن ينير في أعماق هذه الدعوة الشبهات والتمزقات وذلك حين ظهر تيار يرمى إلى نقل الوحدة العربية من

مفهوم الفكر العربي الإسلامي ومن أرضيته الطبيعية إلى «مفهوم القومية الوافدة» منفصلة عن أرضية الإسلام ، منفصلة عن مقوماتها الأساسية : من العقائد والقيم ، وكانت مؤامرة الاستعمار في محاولة خلق صراع بين أهل الإسلام لتضرب الروابط بين العرب والوحدة الإسلامية من ناحية ولتجزئة الفكر العربي الإسلامي ، بإثارة خصومات سياسية وفكرية بين مختلف العناصر.

( ٣ )

### الحرب الصليبية الجديدة

يمكن أن توصف الفترة التي بدأت بإعلان دعوة التوحيد ( ١١٥٣ هـ - ١٧٤٠ م ) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ( ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨ م ) بأنها مرحلة متكاملة في مجال اليقظة الإسلامية فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت في عديد من الموجات والدعوات التي حمل لواءها : محمد بن عبد الوهاب والشوكانى ، والسنوسى والمهدى والبرهندي والدعلاوى ، وجمال الدين ومحمد عبده والسكاكبي ورشيد رضا . كما تمثلت في ثورات متوالية على الانجليز في الهند ( ١٨٥٧ ) وعلى الفرنسيين في الجزائر ( ١٨٣٠ ) وعلى الانجليز في مصر ( عرابي ) ١٨٨٢ وعلى الانجليز في السودان ( ١٨٩٨ ) وعلى الروس في القوقاز وعلى الانجليز في فارس وتمثلت في هذه الحركات العسكرية والسياسية والفكرية مختلف أساليب : اليقظة والمقاومة وتصحيح المفاهيم والوحدة السياسية والفكرية والاصلاح الاجتماعي ، ويمكن القول بأن ( اليقظة الإسلامية ) قد واجهت مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الأولى لها طابعها وتحدياتها المختلفة ومن هنا ويمكن القول بأن هذه الحركة حققت نتائج بالغة الأهمية في مقدمتها :

\* بعث أمجاد العرب والمسلمين ، والرد على مختلف الشبهات التي حمل لوائها المبشرين ودعاة الاستعمار والتغريب \* هز عالم الاسلام وبعث « خط جديد » قائم على تكامل الاسلام وشموله : بالربط بين العقل والقلب ، ومستمد من امتزاج مفهومى الغزالي وابن تيمية للاسلام \* حاولت التوفيق بين الاسلام وحاجات العصر ، وأعطت الأعمال السياسية والوطنية طابع الاسلام \* رسمت مفهومها في أبسط صورة : العمل بكتاب الله وسنة رسوله مع مسايرة مقتضيات العصر ، بحيث لا تقبل نظرة إلا إذا أقرها التوحيد وصادق عليها الاسلام ، وفهم الاسلام على أساس أنه يعتمد على القيم ونواميس السكون وتطورات الزمن في العبادات والعبادات \* غلب الطابع السياسى على حركة اليقظة في بلاد

العرب وطلب الجانب العقلي الاجتهاد على الحركة في الهند وجمعت المغرب بين الاتجاهين \* ناضل المسلمون في المغرب ضد رجال الطرق الموالين للاستعمار وضد الغزاة الأجانب \* مزجت حركة اليقظة الاسلامية بين مقاومة الانحلال الداخلي ومقاومة السيطرة الأجنبية \* تصفيه التنافس الجزيئية والمخاطنة التي وضعت في فترة الضعف \* إعادة الحرية الفكرية \* الدعوة إلى دراسة الكتب العلمية الغربية وإن كان مؤلفوها غير مسلمين ، أو كان فيها ما يخالف القرآن المرد عليها \* الدعوة إلى استنصاف الشريعة شرحا وتطبيقا .

إذا قلنا أن مرحلة الغزو الغربي على عالم الاسلام في العصر الحديث بدأت مرة أخرى بعد أن توقفت الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة . فأنما يكون ذلك القول بمثابة نظرة جزئية ، إلى الحروب الصليبية التي إنتهت فعلا في المشرق عام ١٢٩١ م ، أما بالنسبة لعالم الاسلام كله فيمكن القول بأن الحروب الصليبية لم تتوقف وإنما دخلت في دور جديد من ثلاث مراحل :

(١) مرحلة تطويق عالم الاسلام التي بدأت بمحملات البرتغال وألمانيا بعد تحقيق هدف من أضخم أهداف الغرب وهو تخليص أوروبا من سيطرة المسلمين والعرب — هذا في نفس الوقت الذي كانت أجزاء البلقان قد وقعت تحت سيطرة المسلمين والترك منذ ٧٥٩ هـ — ١٣٥٧ م أي قبل سقوط غرناطة بما يقرب من قرن ونصف قرن — وقد كانت الأندلس منطلق حملة تطويق الاسلام حوالى عام ١٦٠٠ تقريبا إلى شواطئ المغرب وشواطئ إفريقيا ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى ١٧٩٨ وقد قاومت الوحدات الاسلامية خلالها مقاومة كبرى وانتهت بقيام استعمار اقتصادى بواسطة شركتين إحداهما هولندية في أرخبيل الملايو وبريطانية في الهند ، ثم بدأت رحلة الاحتلال العسكرى ( حملة نابليون ١٧٩٨ ) وانتهت هذه المرحلة ١٩١٨ ( نهاية الحرب العالمية الأولى ) سيطرت هولندا على أندونيسيا عام ١٨٠٠ واحتلت بريطانيا الهند ١٨٥٧ واحتلت بريطانيا الأمة العربية عام ١٨٣٠ الجزائر ، وهام ١٨٣٩ عدن ، وهام ١٨٨١ تونس وهام ١٨٨٢ مصر ، وهام ١٨٩٧ السودان ، وهام ١٩١١ ليبيا ، وهام ١٩١٢ المغرب ، وهام ١٩١٧ سوريا وفلسطين والعراق .

ويمكن القول أنه بانتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الاسلامى كله قد سقط في قبضة الاستعمار الغربي ما هذا : إيران وأفغانستان وإن كان الاستعمار معهما ومع أجزاء من الجزء العربي معاهدات ، وبذلك انتهت عملية الغزو الاستعماري الغربي الحديث ، الذي ظل ممتداً في بعض أجزاء المغرب والأندلس منذ الحروب الصليبية ولم يتوقف . وفيما بعد الحرب العالمية الأولى بدأت مرحلة ما تزال ممتدة هي مرحلة الاستعمار الفكرى ( الغزو الثقافي والتغريب ) والاستعمار الاقتصادى لعالم الاسلام ،



وقد تمثلت في هذه المرحلة استمرار عملية المقاومة في مختلف أجزاء عالم الاسلام : هذه المقاومة لم تنوقف ، منذ بدأت عمليات الغزو العسكري والسياسي ، غير أنها اختلفت في فترة ما بين الحربين هنا في المرحلة السابقة لها ، فقد غلب عليها الطابع السياسي والدبلوماسي ، حيث استطاع الاستعمار أن يقيم حكومات موالية له ، وظلت القوى الوطنية تقاوم بالسكامة والتجمع وبالثورات .

وأبرز ما تنقسم به مرحلة ما بين الحربين : « طابع الثورات » ، بينما كان طابع للرحلة التي سبقتها يتمثل في « حروب المقاومة » وقد تفاوتت هذه الثورات طولا وقصراً ، وكان أكثرها شبيها بحروب المقاومة : ثورة الريف التي قادها الأمير عبد الكريم الخطاطبي ( ١٩٢٦ ) . وثورة عمر المختار في ليبيا ١٩٣٠ أما أجزاء العالم العربي فقد اندلعت فيها الثورات متوالية ومتصلة لم تنوقف : مصر ١٩١٩ ، العراق ١٩٢٠ ، والسودان ١٩٢٤ ، سوريا ١٩٢٤ ، فلسطين ١٩٣٥ . أما الهند وأندونيسيا وتركيا وإيران وأفغانستان فقد توالى الثورات ، والانقلابات ، بالإضافة إلى ثورة تركستان ، وفي خلال هذه الفترة أثبتت في تركيا وإيران وأفغانستان محاولات تميل وتغير قامت تحت سلطان التجديد والتغريب ، غير أن العالم العربي كان أقل تأثراً بهذه الحركات وظل أكثر أصالة في مفهومه الاسلامي للتفصيل بماضيه وقيمه ، وكانت تركيا أقوى هذه الوحدات الاسلامية جرياً وراء تيار التغريب وقد اتخذها الاستعمار « نموذجاً » للتجربة التي نجح عالم الاسلام من آثارها الهادفة إلى القضاء على طابعه الاسلامي ، والتوغل في عملية التحول والتغريب ، والانفصال عن مضمون الاسلام الفكري والاجتماعي والسياسي .

وتمثل مرحلة ما بين الحربين ، أدق مراحل المقاومة والصراع ، ليس في مجال المقاومة العسكرية أو السياسية تجاه الاستعمار ، بقدر ما كانت في مجال مقاومة التغريب والتبشير والشعوبية في مجال هدم مقومات الفكر الاسلامي في نفوس المسلمين وإثارة الشبهات حول الاسلام والقرآن والنبي محمد والتاريخ والتراث واللغة العربية . وقد ركز الاستعمار في هذه المرحلة تركيزاً ضخماً على « الأمة العربية » باعتبارها بدت وكأنها الطليعة الجديدة لقيادة الاسلام ، وبوصفها قلب عالم الاسلام وأقوى القوى للدفاع عن السنة والمفاهيم الأساسية التي كانت دعوة اليقظة في خلال أكثر من ١٧٧ عاماً قد استطاعت من خلال حركات متعددة تحمل طوابع التوحيد الاسلامية والاجتهاد وتحرير العقل إلى إقامة كيان فكري ضخم قادر على المقاومة لم يكن من اليسير القضاء عليه أو تدميره .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية استطاع النفوذ الاستعماري أن يركز دعامه الفكرية والثقافية

في العالم الاسلامي ، وينتخلى عن قواعده العسكرية ومن ثم بدأت بعد الحرب حركات جلاء واستقلال لمعظم وحدات العالم الاسلامي تحت ضغط القوى الوطنية التي حملت لواء المقاومة .

ومن أبرز انتصارات الاسلام استقلال أندونيسيا وقيام دولة الباكستان الاسلامية منفصلة عن الهند ، ومن أظهر هزائمه ، وأقصى ما أظهر من حركات الاستعمار في هذه المرحلة ، عملية زرع دولة صهيونية في قلب الوطن العربي في فلسطين ( ١٩٤٧ ) وقد كان رد الفعل في مواجهة إسرائيل هو ذلك التحول السيامي والعسكري والاجتماعي الذي شهده العالم العربي والذي تمثل في أكبر وأخطر مواجهة لإسرائيل ، وإذا كان لنا أن نستعرض في كلمة سريعة موقف الاسلام . قلنا إن مرحلة الحرب العالمية الأولى حققت تقسيم العالم العربي وتمزيق الدولة العثمانية بعد انقسامها لألمانيا وهزيمتها ، ثم انتقاض تركيا على الاسلام وإلغاء الخلافة ، كقدمة لحركة غزو ضمهم للغة والدين والتراث .

أما بعد الحرب الثانية فكانت أبرز الأحداث . قيام إسرائيل وبروز نقطة هربية جديدة قوامها الوحدة العربية لمواجهة الاستعمار والصهيونية معاً . ثم بروز اتجاه تقارب بين العرب وعالم الاسلام بعد فترة من الوحشة والانقسام ، هذا فضلاً عن تقارب في الفكر الاسلامي ارتقى فوق خلاقات للذاهب ، وحاول الارتقاء في مواجهة الغزو الغربي ومن خلال إيمان بالحفاظ على مقومات الاسلام كقوة مدافعة في وجهه حملة الاستعمار العربي ويمكن أن يطلق على مرحلة ما بين الحربين طابع مرحلة الغزو العسكري والتفريب للقضاء على المقاومة وإحلال طابع محاسنة الاستعمار والالتقاء به ، غير أن هذه الفترة قد زحزت باهلام تابعوا دعاة اليقظة العربية الاسلامية على الطريق وبلوروا أسلحة مقاومتهم مع تطور العصر ، ومع ظهور شبهات جديدة ، ومحاولات جديدة للغزو العسكري والتفريب . في هذه المرحلة برزت مؤسسات عربية واسلامية ضخمة في مختلف أنحاء عالم الاسلام اتخذت من تصحيح مفاهيم الاسلام وإجلاء جوهره سلاحاً لمقاومة الاستعمار والاحتلال والتفريب ومقاومة حركات التبشير والشعبوية وكان من أبرزها :

\* مؤسسة الإصلاح والتجديد في مصر وقوامها رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وفريد وجدي وتلاميذهم .  
\* تدوة العلماء في لاسكنو وقوامها شبلي النعمان وسليمان النددي ومؤسسات أخرى قوامها مولاي محمد علي وسيد أمير علي .  
\* مؤسسة النجف وقوامها الإمام كاشف الغطاء ومحمد جواد معنية .  
\* إتباع دعوة النوحيد في العراق (الألوسي) وفي سوريا (المعري والقاسمي والبيطار)

\* السلفيون في المغرب وفي مقدمتهم الدكالي ، ومحمد العربي العلوي وتلاميذهم . \* حركة التجديد في الجزائر بقيادة عبد الحميد بن باديس وبشير الابراهيمى \* حركة التجديد في أندونيسيا :

وفي خلال هذه المرحلة لم تتوقف حركة المقاومة . في قطاعاتها الثلاث : الاجتماعية والسياسية والفكرية ، ويمكن أن يقال أن الاستعمار قد واجه عالم الإسلام بأقصى حملات الغزو وحملات الدم التي لم تتوقف ، وقد رد عليها عالم الإسلام بالمقاومة والثورات المتوالية ، وقدم فيها المسلمون في مختلف الوحدات شهدائهم وأبطالهم الذين رفضوا الأسلام ، وواجهوا القوى الغاصبة ، بالأجساد المتراصة وتلقوا رصاص الغزاة في صدورهم ، ففي ثورة الهند المسلحة على الإنجليز ١٨٥٧ ، وفي ثورة الجزائر ١٧٣٠ — ١٨٤٧ بقيادة الأمير عبد القادر التي استمرت سبعة عشر عاما ، وفي ثورة تركستان بقيادة شامل في مواجهة القوى الروسية ، وثورات المسلمين في جزائر الهند الشرقية في مواجهة الاستعمار الهولندي وفي العالم العربي بمختلف أجزائه لم تتوقف الثورات ، بل توالت فترة بعد فترة ومرحلة بعد مرحلة ، قاوم السنوسيين في ليبيا سنوات طويلة استمرت من ١٩١١ إلى ١٩٣٢ تقريبا ، وهرقت مصر ثورة عرابي ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ .

#### ( ٤ )

حرص الاستعمار في مرحلة الغريب والغزو الفكري على تمزيق جبهة الإسلام بالتفرقة بين العرب والترك ، ثم بين الترك والفرس ، ثم تمزيق جبهة العرب ، ثم استغلال الحركات القومية في شجب مفاهيم القوميات الإسلامية والعربية الجندرية والقضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة لعالم الإسلام بوحدة الفكر . ومحاولة إذابة المسلمين والعرب في بوتقة حضارة الغرب وفكره ، والسيطرة عليه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وقد سعى الاستعمار إلى ذلك بعدة وسائل اتخذ لها خططا حاسمة ( أولا ) تجميد اللغة العربية في العالم الإسلامي كله ، وإيقاف ثقافتها ، ومحاولة إحياء اللغات القومية وتغليب لغة المستعمر ( الفرنسية أو الإنجليزية عليها ) ودفع اللغات القومية إلى طريق جسد بد بكتابتها بحروف لاتينية كما حدث في تركيا وأندونيسيا ( ثانيا ) فرض المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات بمنهجها ولغاتها والقضاء على المدارس الوطنية وإيقافها ، واعتبار لغة الاستعمار هي اللغة الأولى ، مع فرض تاريخ الغرب وإبطاله ومذهابه وثقافته أساساً ، وذلك للقضاء على مقومات الفكر الإسلامي وتاريخ الإسلام وإبطاله . ( ثالثا ) التبشير بالديانات التي تمثلها ثقافات المحتل ، وذلك عن طريق المدارس والمستشفيات والصحف والأندية والكتيب والإذاعات ومختلف الوسائل

(رابعاً) تغيير العقائد وأنظمة الاجتماعية والقوانين ، وتجميد الشريعة الإسلامية وأحكامها وأنظمتها وإحلال القوانين الأوروبية المستمدة من بينات الغرب وأديانه وحاجاته على القيم الإسلامية والعربية الأساسية . (خامساً) فرض مظاهر الحضارة الحديثة في الفنون والمجتمع وأدوات العمل ، والقصاص المكشوف ، والمسرحيات ذات الطوايع المنحلة ، وذلك بهدف القضاء على مقومات المجتمع وأخلاقياته وبث روح الإنحلال في الشباب ، وتمزيق وحدة الجماعة والقضاء على كيان الأسرة (سادساً) إذاعة الدعوات التنريدية المنحرفة والمذاهب الهدامة ، وضرب الفكر الإسلامي بقضايا وأفكار وأراء تقوم على الألحاد والإباحة والتحمل بما يقضى على مقومات الإسلام والفكر الإسلامي وأخلاقياته والتفيل من الدين والروحية والقيم الإنسانية والمعنوية .

(سابعاً) ضرب العروبة بالإسلام ، ومحاولة دفع تيار العروبة إلى منهج منفصل من مقومات الفكر العربي الأساسية في اللغة والتاريخ والتراث ، وذلك لتفسيخ مقومات الوحدة العربية بحسبانها عاملاً هاماً في تركيز مفاهيم الفكر العربي الإسلامي وجذوره ، وفي هذا يقول الأستاذ محمد هاشم الغنيتي : لقد حرص الاستعمار منذ الحروب الصليبية على القضاء على البعث العربي في أية صورة من صورته ، باعتبار أن ذلك في رأى الغرب بالإضافة إلى أنه يشكل في ذاته خطراً جسيماً على سياسته : فإنه متى تحقق كان المقدمة التي تجر وراءها حتماً وتلقائياً « البعث الإسلامي » فإن بعث القومية العربية في نظار ساسة الغرب هي الطاقة القومية التي متى انبعثت ، كان من الحتم أن تدفع المسلمين أمامها إلى التجمع من جديد على الصورة القوية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل القومية العربية دون سواها من الحركات الإسلامية ولم يفرق الغرب بين القومية العربية والتجمع الإسلامي ، أو بين العروبة والإسلام ، ففي العروبة تمثل أمام ساسة الغرب : « الإسلام » فلهذا فإن الغرب يتهيب دائماً من خطر التجمع الإسلامي ويراه كامناً في العروبة حينما كانت لا في الإسلام حينما كان « ثامناً » إقامة قواهد عسكرية ذات طابع منهصري تحمل فلسفة خاصة تكون هاملاً أساسياً في ضرب حركات التحرر وفي الحلولة دون القيام الوحدة العربية التي هي حامل أساسى في تحقيق جانب القوة للإسلام ، وقد حرصت دول الغرب مجتمعة على تعميق هذه القاعدة وإبلاغها أقصى مدى من القوة ، دون تقدير لتفريد العرب أهل المنطقة (تاسماً) إثارة الاتهامات الباطلة والشبهات المخللة حول الإسلام واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، ومحاولة بناء ادعاءات كاذبة حول هذا المعنى مستمدة من مرحله الضعف التي مر بها عالم الإسلام في أواخر عصر الدولة العثمانية . والواقع أن الإسلام محبوب بالمسلمين ، وأن انفصال المسلمين عن مفاهيم الإسلام كان العامل الأساسى في ضعفهم وهزيمتهم أمام الغزو الغربى .

(٥)

## الاسلام والغزو الاستعماري الحديث

انسمت مرحلة « اليقظة الإسلامية » ، بطابع الإسلام بكل مقوماته ، واستكملت ملامحها على النحو الذي استكملت له للراحل المتصلة للتلاحمة ، حلقة وراء حلقة ، لا يفصل بينها شيء ، فكل منها يتم ما قبله ، ويهيئ لما بعده ، فحيث يبدو عامل الضعف في وحدة من وحدات عالم الإسلام ، يبدو عامل اليقظة في وحدة أخرى ، وحيث ينحرف مفهوم الإسلام ، يظهر المصلح المجدد الذي يكشف عن جوهر الإسلام فيصحيح المفاهيم ، وحيث تسيطر فكرة جزئية محاولة أن تمثل الإسلام ، يشرق من جديد ضوء الإسلام في تكامله وشموله ووسطيته ، وحين يقوم الظلم أو الجور أو الانحراف والتدخل في مجتمع يبرز الآمرون بالمعروف ، والناصحون للولاء ، والدعاة الحق ، وهكذا يعطى الإسلام بنقاء جوهره وقدرته على الحركة والحياة ، قوة مجددة على الاستمرار والفاعلية والحيوية ، وإعادة تشكيل نفسه وصياغة مفاهيمه على النحو الذي يجري مع كل زمن وفي كل عصر لا يتخلف ولا ينحرف وتنسم هذه المرحلة بسمات واضحة :

( أولاً ) قدرة الإسلام على مواجهة الغزو الاستعماري والكشف عن أصالة جوهره وإيجابيته بعد أن تعرف على أسباب تأخر مجتمعه وتخلفه ، وقد تبين أن التخلف لم ينتج عن الإسلام نفسه فالإسلام بفاعليته وديناميكيته الحية قادر على إعطاء القدرة الدائمة على المقاومة والقوة والحياة ، إنما نتج التخلف عن انفصال المجتمع الإسلامي عنه ، بينما كانت قيم تراث الإسلام ، وحدها من أكبر مصادر النهضة التي ظهرت في الغرب ، حيث العدو الذي ظل يستعد للسيطرة والانقضاض .

( ثانياً ) أبرز الإسلام في هذه المرحلة قادة فكر وقادة عمل ، واستطاعت حركات المقاومة أن تستمد وقودها من الكلمات المضيفة التي جهر بها قادة الفكر واستمدوها من القرآن والسنة أصلاً ، فقد كانت قدرة الإسلام الجوهرية تتمثل خلال الأزمات الكبرى في التماس عوامل النصر من المناهج الأصلية : القرآن والسنة النبوية ( حديثاً وسيرة ) وأن تعبر عن مراحل الفكر الإسلامي كله مستمدة من « الأصول » و « الجذور » بوصفها أصدق إمداداً ، وأعق أثرآ ، وأقرب إلى العزائم ، وأبعد عن الزلل أو الرخص .

( ثالثاً ) برزت في هذه المرحلة قوى مقاومة عسكرية قادرة ، لا تقل في إيمانها بالاسلام والدفاع عنه عن قوى السلاجقة والبربر والماليك وقد تمثلت هذه القوة في الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر والقوتازيين بقيادة شامل ، والمصريين بقيادة عمر مكرم وأحمد هراي ، والسودانيين بقيادة المهدي والتعايشي والهنود في ثورة ١٨٥٧ بقيادة ابن هرطان وغيرها ، وكذلك العمانيون والسواحليون والأزارقة في مواجهة البرتغال والأسبان والانجليز ، وكذلك السنوسيون بقيادة السيد أحمد الشريف وبين المغاربة جملة على شاطئ المتوسط وبين الفرنجة ، كما قاوم الجاويون هولندية .

كانت هذه الحروب غير متكافئة حيث دارت مع المسلمين والعرب وهم في آخر مراحل الضعف ، بينما كان الغرب في أول مراحل القوة ، واستمرت هذه الحروب طويلاً ، حتى يمكن أن يقال أنها لم تتوقف ، وفي الجزائر استمرت سبعة عشر عاماً وتوالت ، وفي كل هذه المعارك لم يكن النصر فيها الاستمرار — رغم هدم التكايف العسكرية والحربي — ، نصر ميدان بل كان نصر هدر وتآمر ، وقد كتب المسلمون في هذه المرحلة صفحة مشرفة لا تقل كفاءة عن صفحات مرحلة الغزو الخارجي التي سبقت عصر الوحدة الإسلامية العثمانية ، وبالقطع كان هذا الغزو الجديد امتداداً لها . وبسيطرة الاستعمار الحديث على عالم الاسلام تمزق السكان الموحد ، حيث سيطرت حكومات جديدة أقامها الاستعمار وبدأت بينها وبين القوى الوطنية معارك مقاومة ، وبذلك دخلت وحدات عالم الاسلام في مرحلة جديدة هي مرحلة « المقاومة بالكلمة » وهو الدور الوطني الذي إزداد اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى . وقد تنوعت وسائل الاستعمار الذي أخذت صورة احتلال مسلح ، وسيطرة كاملة على المقدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع تنفيذ برنامج كامل في مجال التربية والتعليم والثقافة والصحافة تهدف إلى قتل مصادر القوة في المجتمع والأسرة وتمزيق القوى المعنوية وبث روح من الاتحاد والاباحة والتشكيك والانحلال في القوى الشابة ، حيث سيطرت هذه القوى المحتملة بمختلف وسائل القضاء على القوى الاقتصادية والمعنوية واستغلت الامتيازات الأجنبية لانتزاع الأراضي وتحقيق أكبر قدر من الضغط والافساد وإتاحة الفرصة للرساليات الأجنبية وبعثات التبشير ، وتمزيق الوحدة الوطنية ، وإثارة الخلافات بين المذاهب والأديان وابتعاث الدعوات المنصيرية القديمة كالفرهونية والأشورية والبابلية والفينية ، والبربرية ، وغيرها وفرض قوى ضخمة للسيطرة على مجارى الفكر بحيث يتحقق الجهد بهذه الدعوات مع إثارة الشبهات حول الاسلام ورسوله وقيمه وتاريخه وحول القرآن واللغة العربية والتراث مع ارتفاع هذه الأصوات وجهارتها عن طريق الصحف والمجلات الضخمة المسنودة بمالهم ونفوذهم ، بينما لا تستطيع أن ترقى كلمات المقاومة والرد على هذه الشبهات إلى نفس المستوى في التعبير أو الذبوع .

ومن هنا مهد الاستعمار في هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر عنفا وشراسة في تدمير القيم الأساسية للإسلام بوصفه العامل الضخم الذي أعطى المسلمين القوة على مقاومة الغزو الأجنبي واستطاعت قوى الغزو الأجنبي والنفوذ الأجنبي واستطاعت قوى المبشرين والمستشرقين أن تعد حملة ضخمة بدأت سنة ١٨٣٠ ( وهو نفس العام الذي احتلت فيه الجزائر ) بإذاعة الشبهات التي أثارها خصوم الإسلام في عصوره المختلفة بمداواة صياغتها من جديد كوسيلة للتشكيك في قدرة الإسلام على الحياة واستغلت هذه القوى ما وجه إلى المسيحية الغربية من اتهامات في أوائل عصر النهضة للهجوم به على الإسلام على بعد الفرق بين مواجهة الإسلام للحضارة وموقفه من العلم وموقف غيره من الأديان .

وفي الهند حيث كان للمسلمون يحكمون الهند قبل الاحتلال البريطاني أبعدت بريطانيا المسلمين عن مجال الثقافة ومراكز القيادة السياسية وقدمت غيرهم وحجبتهم جيلا كاملا عن التعليم ، حتى هب قادتهم لمقاومة هذا الانحياز بإنشاء المعاهد والجامعات ، وفي الجزائر حاولت فرنسا أن تقضى على اللغة العربية قضاء نهائيا وأن تعتبر الجزائر جزءا من فرنسا ، وفي مصر عمد الانجليز إلى نشر اللغة الانجليزية وإضعاف اللغة العربية ، كما كانت الخطة الرئيسية للاستعمار الفرنسي والانجليزي الذي سيطر على القارة الأفريقية كلها في هذه الفترة هو حجب اللغة العربية وتجييدها وإيقافها عن النمو والانتشار ونشر لغته ، واعتبارها أساس الثقافة والتعليم ، وكما فرضت بريطانيا في الأجزاء الإسلامية بالهند اللغة الإنجليزية ، ثم شجعت اللغة القومية « الأوردو » قضاء على اللغة العربية كذلك فعلت هولندا في أندونيسيا حيث فرضت الحروف اللاتينية على الأندونيسية بعد أن كانت حروفها عربية .

## معالم أساسية في تاريخ الإسلام

من خلال تاريخ الإسلام تبدو حركة الإسلام في محورين :

(١) محور الأهماق على مشارف العالم كله بالانتشار الذاتي . (٢) محور الأبعاد على مدار للتاريخ من خلال النفس الإنسانية مع دورة الحضارة . وقد حقق تاريخ الإسلام من خلال المحورين عملا ضخما متصلا، وحيث كانت هناك معالم أساسية تواتر عملها خلال مرحلة التاريخ، كان من الضروري متابعة تطورها للكشف عما استطاعت تحقيقه خلال أربعة عشر قرنا من عمر الإسلام .

(٣٨)

## « السنة والشيعه »

هناك خلافان في تاريخ الإسلام وقعا في المجتمع الإسلامي :  
(أولاً) الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين حول مفاهيم الاسلام وهو خلاف واضح الجذور ،  
إذ أنه مهما تسنر بصوره أو أخرى أو مذهب آخر فقد كان بطبيعته يختلف مع أصول الاسلام :  
« التوحيد ، النبوة ، فرضية العبادات ، والمعاملات ، والمعاد والقبلة والقرآن » . وهذا الخلاف يفرق  
بين الاملاَم وغيره .

(ثانياً) الخلاف بين المسلمين أنفسهم : « وقد انصب ذلك على الفرعيات وهي ماسوى الأصول  
الثابتة للإسلام ، وقد أطلق عليه بعد اسم « المذاهب الفقهية » : التي استقرت في خمس مذاهب :  
المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية والجعفرية . وهو خلاف مقبول لأنه يتصل بالمسائل الفرعية  
وحدها ولا يرقى إلى الأصول الثابتة . وقد قامت في صدر الاسلام نحل ومذاهب سياسية أساساً  
له مذاهبها الفكرية الذي تعدد بها موقفها من القيادة السياسية التي وليت الحكم في الاسلام بعد  
الخلفاء الراشدين الأربعة . وتمثلت في الأغلب في الدولة الأموية والدولة العباسية .

والمعروف أن القوى الثلاث الكبرى التي تصدرت للقيادة السياسية في عصر الراشدين كانت  
تمثل في الأمويين ، والهاشميين — والهاشميون يمثلون (١) العلويين (من آل سيدنا علي بن أبي  
طالب رضى الله عنه) — (٢) والعباسيين (من آل العباس بن عبد المطلب) ، وقد كان العلويون  
هم القوة الوحيدة في القوات الثلاث التي لم تنصهر للحكم أو التي حرص الأمويون على إبعادها مع  
الهاشميين جملة ، ثم حرص العباسيون على إبعادها أيضاً . ولم يكن الخلاف قائماً أول الأمر حول مفهوم  
أحقية أهل البيت في القيادة السياسية بوصفهم أهل النبي ﷺ ، وإنما كان الخلاف قائماً حول  
تحرير مفهوم الاسلام في الحكم بوصفه شورى يتولاها أى مسلم مؤهل لذلك ، ولو كان هبداً حبشياً  
وقد كان الإمام على في مقدمة رجال القيادة السياسية التي كونها النبي ، وكانت له بطولاته ومواقفه  
وخلفه وفقهه ، حتى قيل « قضية وأبا حسن لها » غير أن النظام السياسي الذي وافق عملية بناء عالم  
الإسلام قد أحدث عدداً من التحديات الخطيرة كان في مقدمتها مقتل الخلفاء الثلاثة : عمر ، وعثمان ،  
وعلى ، وفي عهد عثمان وقع الخلاف بين المسلمين اضطرتهم إلى إقرار نظام ورأى يدور في فلك الإسلام . ولكن



لا يمثل مفهوم الاسلام في الشورى ، ومضى هذا النظام واستمر . وفي خلال ذلك كان تبلور المسلمين المسلمين في مجموعتين كبيرتين . أهل السنة والشيعة ، ولم يكن اختلاف بينهما جذريا ولكنه كان في الفروع . كانت الأصول الأساسية للإسلام قائمة شاملة لا خلاف فيها ، وإن اتسمت الشيعة بسمه هي ذلك الحب القوي لآل البيت والارتباط الروحي والفكرى بالنبي وأهله ، ومن هنا كانوا « دعاة العاطفة والحب والولاء » وكانت تلك هلامة بارزة في فكرهم جميعاً .

وقد تحقق للشيعة الصدارة في مجال القيادة السياسية في دول كثيرة فيما وراء النهر « الساسانية والبيوتية والصفارية » ثم قامت الدولة الفاطمية الباذخة باسمهم في المغرب ومصر ، ثم قامت في القرن العاشر الهجري الدولة الصفوية في فارس وما زالت فارس تمثل الدولة الشيعية في عالم الاسلام الحديث .

وقد كان تاريخ الإسلام حافلا بالخلافات والمساجلات الفكرية وبالصراع السياسي بين السنة والشيعة ، وقد حرص الغزوا والخارجي الممتد منذ الحروب الصليبية إلى اليوم أن يغذي هذا الخلاف وأن يعمق آثاره حتى لا تلتئم وحدة عالم الاسلام ، وكانت حركة التغريب حريصة على الدس والإيقاع بين السنة والشيعة ، وتفريق كلمتهم وإذكاء الخصومة بينهم ، وقد تنبه السنة والشيعة ، جميعا لهذه المؤامرات وعملوا على تضيق شقة الخلاف ، وإلى التقارب . والحق أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يزيد عن أن يكون خلافا بين المذاهب الأربعة ويمكن القول بأنه ليس إلا خلافا بين المذاهب الأربعة والمذهب الجعفري :

أما مصدر الشبهة التي ما تزال سلاحا في يد التغريب والشعوبية وخصوم الغرب والإسلام جميعاً فهي ما يحمل التاريخ من فرق انتسبت إدهاء إلى الشيعة وهي « فرق الغلاة » .

ومن الحق أن يكون الباطن يغطا في التفرقة بين الشيعة والغلاة ، هؤلاء الذين هاجمهم أئمة الشيعة أنفسهم وحذروا مما يدسونه . فانخطأ الأكبر الذي يحترز منه ، هو القول بأن « التشيع » كان مأوى إليه كل من أراد هدم الإسلام ، إذ الواقع أن الشيعة كانوا أساساً ملتزمين مع أهل السنة في الأصول ، وإن اختلاف لم يقع إلا في المسائل الفرعية التي ليست إلا رحمة والتي هي نوع من الاجتهاد من اجتهاد فأصاب فله أجران ومن اجتهاد فأخطأ فله أجر واحد ، وقد أكدت النصوص الصحيحة أن الشيعة بعدت عن التنازع والخلول والتجسيم ، وأنهم قاوموا أقوال الغلاة وحتموا ألا يقبلوا حديثاً إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وقد دعا الإمام علي بن موسى الرضا صراحة إلى رفض ما يخالف القرآن وقبول ما وافق القرآن والسنة .

فكل فرق الغلاة : كالرافضة والباطنية وما اتصل بأفكارهم من الحاد كالقول بتحريف القرآن وكتبان بعض آياته ، ومن راجت فيهم الباطنية البهائية ، هؤلاء ليسوا من الشيعة الاصلاء الذين هرفوا بالزيدية والأثنى عشرية ( الإمامية ) وقد دعا جمال الدين الأفغانى كما دعا كثيرون إلى جمع كلمة للمسلمين والتأليف بين فرقهم التى يجمعها الايمان بالقرآن ومحمد والتوحيد وقالوا إن السياسة كانت السبب الأول لهذا التفرق الذى البس بعد ذلك لباس الدين .

( الشيعة الإمامية أكثر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ويسمون الأثنى عشرية ، وتبلغ الإمامية سبعين مليوناً من العراق وإيران والهند وباكستان وروسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان وسوريا والحجاز واليمن والصين والتبت والصومال وجاوة والألبان وتركيا والبحرين والكويت ) .

والحق أن الشيعى والمولى والدرزى والاسماعيلى والسنى كلهم منضوون تحت كلمة الاسلام ، والخلاف بينهم فى الفروع لا يفرقهم ، لما أتاح الإسلام من حرية المذهب الذى لا يؤدى إلى تزيق وحدة المسلمين ، وقد علم الإسلام أتباعه أن يكونوا على يقظة كاملة فى مواجهة خصوم الإسلام ، وأن لا تكون خلافاتهم المذهبية سبيلاً إلى الفرقة ، ومن هنا فليس فى وسع أحد أن يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة والحق أن مذاهب الشيعة ( آل البيت ) الجمعوية وما تفرع منها : وأعلامها الامام جعفر الصادق وسيدنا زيد واسماعيل بن جعفر هى عصارة العقل الإسلامى فى اجتهاده وتحقيقه وهى وحدة متكاملة مع ما قدمه مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل والأوزاعى والظاهرى وغيرهم من الأعلام وما تزال تمثل معركة فكرنا وفقهنا فى مواجهة التطور والحضارة .

ويجمع الباحثون المنصرون للتقريب بين السنة والشيعة على أن : الإسلام هو إتباع القرآن . والأخذ بما صح من كلام النبي وأقواله وتقريراته ومآداه وفروع مذهبيه واجتهادات الأئمة ، وكل ما توخوه فى اجتهادهم إنما قصدوا به أن يصيبوا مقاصد الاسلام ، ومن الخطأ التعصب لإمام دون إمام . وأن المغلاة فى العصبية لإمام من الأئمة واجتهاداته هى خروج على روح الاسلام المتسامح والرافضة غير السنة والشيعة : والراض هو ترك ما جاء به الوحى والرجوع إلى أساطير الوثنيات ، ودسائس اليهود ويشير الكثيرون إلى الدور الذى لعبه « هبده الله بن سبأ » زعيم الرافضة الذى دخل الاسلام وهو يحمل فى أعماق وراثياته إسرائيليات وأساطير كثيرة ، ظهرت فى عقيدته الجديدة ، وقد اندس الرافضة ( السبئية ) أتباعه بين الشيعة وبين أهل السنة وبانت هذه الفرق الرافضة ٧٣ فرقة وهى غير الشيعة أصلاً : كما أن هناك شبهة لا يلفت إليها السكوترون فى الفرق

بين الإمام « جعفر الصادق » وبين الرافضى « جعفر بن حرب » فقد اختلط الرأى على بعض الباحثين فلم يفرقوا بين الإمام الجليل ، والرافضى ، وقد فند البغدادي هذه الشبهات في كتابه « الحرب على جعفر بن حرب » متقصيا خرافاته وأباطيله ، كما تناولها أبو منصور البغدادي في ( الفرق بين الفرق ) ولا شك كان سيدنا جعفر الصادق منارات الاسلام والرافضة اسم أطلقه الامام زيد على الفرقة السبئية التى اندست بين جاله ، ومن هنا جاء الخطأ المتصل فى الصاق الرافضى بالشيعه الوحديين المحبين لآل البيت .

وجملة القول أن الفروق المذهبية بين الجعفرية والمذاهب الأربعة السنية لا تسكاد تذكر وهى تتمثل فى مسائل فرعية دها إليها الاجتهاد فى الرأى . ومن جهة أخرى فإن حب آل البيت والرسول الكريم إنما يمثل حقيقة سنية وشيعية واحدة ، وربما كان الخلاف فى الدرجة ، ويقول العلامة الشيعى « جواد مغنية » إن الشريعة لها أصول مقررة ، وأن الخلاف والجدل بين المذاهب حصل فيما ينزاع عن تلك الأصول وما يستخرج منها ، وإن فى كتب الشيعة الإمامية اجتهادات لا يعرفها أهل السنة ولو أطلعوا عليها لقوت ثقتهم بالشيعة ومفكرها وكذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة ويصور العلامة جواد مغنية موافق الشيعة من الغلاة فىقول : الغلاة هم المنظاهرون بالاسلام الذين نسبوا إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب والأئمة من ذريته الألوهية والنبوة ووصفهم بما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد فهم ضلال كبار .

ويشير العلامة مغنية إلى أن كتابات المستشرقين كانت دائماً من هوامل الوقعة بين السنة والشيعة وآية ذلك كتاب المستشرق رونالدس « عقيدة الشيعة » والهدف منه إيقاع الفتنة بين المسلمين ، فقد دم هذا الدس بشقى الأساليب ، وفى مقدمة ما أثاره من شبهات ما أمماه : تحريف الشيعة للقرآن ، وقال مغنية : إن الإمامية دافعوا عن القول بتحريف القرآن وأنكروه ، وكل الخلاف بينهم وبين السنة فيه : إن السنة تقول أنه كلام الله والإمامية تقول أنه محدث وليس بقديم ، وقال مغنية : إن الشيعة الإمامية إذا أودوا أن يستخرجوا حكماً شرعياً لمسألة تعرض لهم ، بحثوا فى نصوص السكتاب والسنة وأقوال العلماء باذلين الجهد ، فإذا وجدوا نصاً خاصاً أوجاهوا وقتلوا عنده وإذا لم يجدوا لجسأوا إلى العموميات والتواهد السكائية التى وردت فى نصوص السكتاب والسنة

(٢)

لقد كان « النجف الأشرف » على طول تاريخ الاسلام مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية شارك الأزهر والزيوتنة والفرابين الحفاظ على الاسلام واللغة العربية والتراث الاسلامى والشيعة أهلام عظماء خدموا الاسلام وكانوا من كبار رجاله : أشاله عمار بن ياسر وسليمان الفارسى والأحنف بن قيس وسعيد بن المسيب والفرزدق والسكيت وابن الرومى وأبى تمام والبحتري ومهيار الديلمى وأبى هانى الأندلسى وأبو فراس الحمدانى والطغرائى والثريف الرضى ، هم اليوم من أعلام الفكر الاسلامى والسنة والشيعة والدرور جميعاً أهل كلمة التوحيد وليس الخلاف فى أساسه خلافاً فى نظرية الحكم وفى الفرعيات ، وهو دليل على عظمة « الشريعة الإسلامية » وقدرتها على الخلود والاستيعاب وهو خلاف محصور فى بعض مسائل لاصلة لها بأصول الاسلام وقواعده . وإذا كان الشيعة قد اتسموا بكبار آل البيت ، فإن أهل السنة يحبون آل البيت ويقدرون فضلهم وقد اقتربت النظرة حول حب الرسول وآل البيت بين مختلف المذاهب الإسلامية ، بين مفهوم « التوحيد » بصورته الأولى وبين « التصوف » إلى الحد الذى قرب الصلة بين السنة والشيعة قرباً كبيراً .

ولا تثير الخلافات القديمة حول فضل الإمام على ودرجته فى الخلافة وحول خلاف السيدة فاطمة مع أبى بكر حول ميراث النبى فى فدك ، وهى ليست من المسائل الرئيسية التى تتصل بأصل من أصول الاسلام ، وهو خلاف طبيعى فى هذه المرحلة من حياة الاسلام ، أما الخلاف حول مسألة الرجعة أو زواج المتعة أو مسألة الامامة ، فهى اجتهادات فى الفرعيات ومثلها خلافات كثيرة بين مذاهب السنة نفسها ، وهى لا تحول دون « وحدة المسلمين » فى الأصول العامة ، والواقع أن أهل السنة والشيعة لا بد أن يلتقوا بعيداً عن الأطراف وأن يتعارفوا ، وقد تحقق جانب كبير من هذا حين ضم الأزهر دراسات المذهب الجعفرى إلى المذاهب الأربعة ، ويقول الدكتور سليمان دنيا فى مواجهة الخلاف بين السنة والشيعة .

« إن مذهب التشيع أشبه بشعر الدولة الإسلامية وهو أشد بقاع الملكية الإسلامية كلها قرباً من المدو ، وهو لهذا السبب المنفذ الذى يحاول أهداء الاسلام الدخول منه إلى بلاد الاسلام لغزوها ،

فواجب حماية هذا الثغر أشد من واجبات غيرهم ممن يوجدون في أماكن نائية عن العدو فإن لم تكن حامية هذا الثغر نقطة منتبهة اقتحم العدو الثغر واقتحم قلب الدولة الإسلامية عن طريقه .  
ويقول : إن أئمة الشيعة قد أهلنوا براعتهم من الغلاة ، وعن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله « يا كمالو فينا ، قولوا . إنا عبيد مربيون وقولوا في فضلنا ما شئتم ، وقوله : اللهم إني بريء من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى ، اللهم أخذهم أبدا ولا تنصر منهم أحدا .  
ويروى عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم أنه قال : « أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يجلس إلى غال فيستمع إلى حديثه ويصدق . ويقول : إن أبى حدثني عن أبيه عن جده عليهم السلام أن رسول الله قال : صفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام : الغلاة والقدرية . »

وقال : إن أهل السنة وإن كان من رأيهم عدم القول بمصمة الأئمة ، فإنهم مع هذا يحملون للأئمة حبا يجري في دماهم ويتمكن من سويداء قلوبهم ، فإن هؤلاء الأئمة من الصالح وحسن السيرة إلى جانب إلتحاقهم إلى الدوحة الشريفة الطاعرة ما يجعل أهل السنة يكتفون لهم كل حب وإجلال وأكبار .

(٣٩)

### « العرب مادة الإسلام »

منذ بزغ الإسلام ارتبط بالأمة العربية أوثق ارتباط . وقد كان النقاء الإسلام بالأمة العربية النقاء بعيد المدى في نمو الإسلام وتوسعاته وفي بناء الأمة العربية ذاتها فالأمة العربية هي التي حمت الإسلام إلى العالم أجمع ، وكانت اللغة العربية — لغة القرآن — هي أداة فكره وثقافته وحضارته .  
والإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي من أطوار تكوين الأمم ، إذ جعلها أمة ذات حضارة وفي نفس الوقت ذات رسالة إنسانية وعالمية . ومن هنا فإن تصور الإسلام منفصلا عن العروبة والعروبة منفصلة عن الإسلام هو تصور مبتور وناقص وغير قادر على إعطاء الحقيقة في بناء الإسلام وفي كيان الأمة العربية ، وفي مجالين كبيرين كالأمة والتاريخ لا يمكن فصل الإسلام عن العرب فقد ظلت اللغة العربية هي قوام الثقافة الإسلامية حتى في فترات الضعف وفي مراحل اتساع اللغتين الفارسية والتركية وظل تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب في بطولاته وواقعه وتوهماته وإثارة البعيدة المدى .

فالفكر الديني كونه اللغة العربية بالارتباط بالإسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً ، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي خالص أو فكر إسلامي صرف ، وكذلك الحضارة ويمكن القول بحق بأن الفكر : فكر عربي إسلامي والحضارة حضارة عربية إسلامية . ومكونات هذا الفكر هي : « اللغة العربية والإسلام » ، وقادة الفكر سواء كانوا عرباً وغير عرب فهم مسلمون أساساً صدرت مقدراتهم الفكرية من مضمون الإسلام ومقوماته الأساسية وبيئته ، وكان إبطال التوسع وبناء الدول كقادة الفكر ، قد استمدوا مجال بطولاتهم ومقوماتها التي بهرت الدنيا من مقومات الإسلام . وقد ورث الأسلاف ثقافات الأمم والأديان والحضارات السالفة من فارسية ورومانية ويونانية وهندية وفرعونية ، هذه الثقافة التي انصهرت في بوتقته وتشكلت من جديد على أساس مقوماته ومفاهيمه .

ولقد كان للعرب دور بناء الإسلام وتوسعاته ، هذا التوسع الذي بدأ في نظر الباحثين والمؤرخين غربياً ، ولكنه في الحق لم يكن كذلك ، فإن طابع الإسلام وإيدولوجيته ، هي التي عمقت إيمان العرب الذين رباهم محمداً ، فحملوا لواء الإسلام وآمنوا بمفهوم الإسلام « حب الموت لأجل الحياة » كانوا — أي العرب هم أصحاب القيادة السياسية خلال مرحلة طويلة ، استمرت متصلة حتى نهاية الدولة الأموية ومشاركة مع العناصر الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية وفي ظل الدولة الأموية في الأندلس ، وكان لهم دورهم في مقاومة الغزو الصليبي والتتري والفرنجي حيث شاركوا مشاركة ضخمة مع السلاجقة والمماليك والبربر ، ثم اختفوا من مسرح القيادة خلال عصر « الوحدة الإسلامية العثمانية » غير أنهم سرعان مابرزوا في مجال القيادة خلال دور اليقظة العربية الإسلامية ففي الحق كان « العرب مادة الإسلام » طوال تاريخ كله ، وكانوا حملة ، مفهوم الإسلام البسيط الوسط البعيد عن التعصب الفلسفي والغيبية الصوفية .

ويؤكد كثير من الباحثين بأن « عروبة العرب » ظلت حية خلال تاريخ الإسلام في مختلف جماعات وادي النيل والسودان وفي مختلف الدول في أفريقيا : الجندية ، وبنى حود ، والأغلبية والفاطمية وبنى مزين وبنى هلول والدولة السعيدية وبنى شابة والدولة الشريفة ، وفي الشام : الننوخيون والدنادشة وبنو العظم وبنو حمدان وبنو مرداس ، وبنو المصيب ، وقد ظلت الجزيرة العربية تغدق موجاتها طوال هذه العصور ، فقد كانت كذلك قبل الإسلام ثم كانت موجة الفتح الإسلامية هجرة واسعة النطاق لتبائل عربية بأكملها إستقرت في البلاد المفتوحة ، ثم توالى الهجرات من بعد فلم تتوقف .

غير أن العرب في كل مكان من حدود الصين إلى حدود فرنسا قد انصهروا في الأجناس والأمم ، وقام الاسلام بأضخم عملية بلورة بين المسلمين عرباً وفرنساً وفرنجة وتركاً ، وهي عملية طبيعية لم يكن للعرب فضل فيها ، بل كان الاسلام — الذي لم يكن العرب مستعمروه أو فاتحوه ، بل ناشروه ودهانته — هو الذي دفعهم إلى الامتزاج بالمصاهرة والنسب والاندماج في الأجناس والأمم امتزاجاً كان على مستوى الاجناس وعلى مستوى العقول .

فقد امتزجت ثقافات هذه الأمم المختلفة التي كانت معهم قبل الإسلام بالاسلام نفسه وانصهرت فيه ، ونحى الإسلام ما لم يتفق مع روحه وطابعه ومقوماته ، وبلورها على النحو الذي أصبحت به ثقافة إسلامية خالصة ، وأن ظلت بعض آثار للمذاهب والثقافات القديمة تقاوم ونجد من يفديها من أجل مقاومة الاسلام وتمزيق وحدته ، وكذلك تبلورت التقاليد والعادات والطبائع المحلية كلها في إطار الاسلام وتعاليم القرآن ، ولم يقف الزواج والمصاهرة عند المجتمع بل واقتحم مجال الفكر أيضاً .

٣ — وسارت اللغة العربية مع الاسلام ، فقد أخذت لغة قريش تسود غيرها من اللهجات العربية فهي التي نزل بها القرآن ومن ثم أخذت مكان الصدارة ، في الكتابة والأدب والتخاطب وظهرت اللغة العربية على كل اللغات الاقليمية ، وأصبحت هي بالدرجة الأولى لغة الثقافة والتعامل ، ثم كان إبرازها للثقافة الإسلامية عاملاً في قيام الامتزاج الثقافي والاجتماعي الذي أزال كثيراً من الفروق العقلية والاجتماعية في مختلف وحدات عالم الإسلام ، وعندما ضعفت اللغة العربية عن أن توحد عالم الإسلام ، وغلبت اللغات الفارسية والبربرية والتركية كان الإسلام هو الرابطة الحقيقية ، وعندما ضعفت الوحدة اللغوية زادت « وحدة الفكر » قوة واختفت الخلافات المذهبية وتقاربت للمفاهيم بين السنة والشيعة والفقهاء والصوفية ، ومن هنا يمكن القول أن الإسلام كان الإطار الفكري والعقلي للحضارة والثقافة الاسلامية .

## ( ٢ )

لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجر الاسلام إلى قيام الدولة العثمانية وفي خلال التاريخ عندما نحلى العرب عن الصدارة السياسية ظلوا أصحاب القيادة الفكرية ، فقد وجد الفكر الاسلامي في « عالم العربية » أكبر عوامل نموه وأقوى عوامل الحفاظ على جوهره ، وقد كان الاسلام بمفاهيمه ولغته هو الذي حال دون ذوبانها حتى في أشد فترات الضعف . وقد انبعشت نقطة عالم الإسلام في العصر الحديث من قلب الأمة العربية وظل عالم الاسلام ينظر إليها كمرکز قيادة .

وبالرغم من اندماج « الأمة العربية » في الوحدة الإسلامية العثمانية فقد ظلت محتفظة بطابعها الاسلامي البعيد عن التعقيد الفلاسفي أو الصوفي ، بينما تحول الاسلام في مفهوم الثقافات الأخرى إلى جبرية صوفية ، ونصوص تقليدية وبالرغم من توسع اللغة التركية بوصفها لغة الدولة وامتدادها على آفاق الأمة العربية فقد ظلت اللغة العربية خلال مرحلة الوحدة العربية الإسلامية ( ٩٢٣ — ١٣٣٦هـ ) هي السائدة ، بل إن الاسلام الذي دان به الأتراك كان عربى الطابع ، وكانت نصف كلمات لغتهم وأسماء رجالهم وأسماهم عربية .

وبذلك كانت التقاليد التي طبقتها في حياة البيت والمجتمع إسلامية ذات طابع عربى ، بل أن اللغتين الفارسية والتركية كانتا تكتبان بالحروف العربية ، وقد ألف بالعربية كثيرون في فارس وتركيا وظل القرآن والحديث يتلى بأدائه وحروفه العربية ، وكان لقوة حيوية اللغة العربية وامتزاجها بالإسلام أبعد الأثر في الثبات والصمود عندما أراد الأتراك إلزائها ، بل استطاعت هي أن تطعمهم بطابعها ، وكان الإسلام هو الإطار الأكبر الذي تعلق العرب فيه بأملهم القومية حين انهارت الخلافة الإسلامية باختفاء السلطة العثمانية . وللمعروف إن مجموعات كبيرة من عناصر الترك : التتر والتركان والشركس والكردي لم تلبث أن دمجها الإسلام في الأمة العربية واسيت لغاتها ومقوماتها العنصرية ، واتخذت « الثقافة العربية » أساساً لفكرها ونبع منها شعراء وكتاب . هذا فضلاً عن أن هجداً كبيراً من العلماء والمؤلفين في مجال الفلك والرياضة والفلسفة واللغة والتفسير من غير العرب أتقنوا اللغة العربية وألفوا فيها كما كتب كثير من أعلام الترك باللغة العربية .

( ٣ )

## الاسلام فكرة والعرب جنس

ومن هنا كان الإسلام أهم . وقد اهتمت الإسلام أجناساً كثيرة غير العرب بوصفه إنسانى النزهة ، عالمى التركيب ، وقد كان دور العرب فيه دور الطلائع القادرة على توسيع رقعته ، وهو وإن صيغ الفكر الإسلامى بصيغته العربية نتيجة لأنها قدمت للأمم والشعوب في وهاء اللغة العربية غير أن موجة اللغة وموجة الإسلام لم تلبس أن انفصلتا ، فتوقفت اللغة العربية عند حدود محدودة : هي « الأمة العربية » وغلبت اللغات الأصلية على الفرس والترك والهند فلم تستعرب هذه الأمم ، وإن كتب بعضها بالحروف العربية . ولذلك فقد ظل الرباط الأسامى والأوسع والأشمل هو « الفكر



الإسلامي ، لتستمد من القرآن والسنة ولقد أتيح للوحدات غير العربية أن تترجم القرآن إلى لغاتها وأن تؤذن وتصلى بلغاتها ، وأن تقيم ثقافات قومية مرتبطة بلغاتها أساسها ، وإن ظل الإسلام جوهرها غير إن دار الإسلام ظلت داراً واحدة لا تفصلها حدود أو سدود ، وكان أهلها ينفقون في رحابها دون قيد ، كما تحورت كثير من هذه الوحدات من حكم العرب لها وأقامت حكمها كما فعل الهبر ، والفرس والترك : الذين سيطروا حاكين على بعض مناطق عربية ثم استنطاع الأتراك أن يصلوا إلى مركز الخلافة . بل وقد كان دور غير العرب من المسلمين بعيد المدى في مجال الفكر والثقافة : فلسفة وفنّها وعلومها طبيعياً . بل لقد استنطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية الفعلية بدلا من مفهوم المساواة الإسلامي ، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة ، في مختلف المناطق التي وصل إليها حملة الاسلام ، وإن كان الاسلام لا يلزم أحداً باعتناق ديننا فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح في مجال الفكر العربي الاسلامي ، جنباً إلى جنب مع المسلمين . ويمكن القول أيضاً في هذا المجال أن « القرآن » هو الذي حفظ العربية طوال أربعة عشر قرناً من التمزق إلى لهجات محلية ، فقد مرت بعالم الاسلام فترات ضعف قاسية كادت أن تؤدي بالفصحى ، وتمزقها « لولا أن وقف القرآن سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة » وقد جرت محاولات تعريبية وشعبوية متعددة في هذا المجال غير أن « القرآن » وقف حائلاً دون تحقيق ذلك ، فقد ظلت المعاهد الاسلامية كالأزهر والزيتونة وغيرها حافظة للفصحى حتى مرت « أزمة الضعف » واستطاعت اللغة أن تنبعث من جديد في عصر اليقظة الاسلامية العربية قادرة على مواجهة الحضارة . وبفضل « القرآن » استطاعت اللغة العربية أن تسيطر في كل الوحدات ، وأن تزيل اللغات الاقليمية حتى أن العرب النصارى إضطروا إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية وصارت صلواتهم في كنائسهم بها . ويرى المستشرق جب : أن اللون العربي الذي التصق بالاسلام أتى من القرآن العربي . وأن القرآن كان المرجع الأخير فيما يخص اللغة العربية وتوابعها ، وأن الاتجاهات القومية العربية تؤكد على أن اللغة العربية هي حجر أساس الوحدة العربية .

غير أن اللغة العربية قد توقفت عند حد محدود ، بينما استنطاع « القرآن » أن يوسع نطاقه في فارس وتركيا والهند وأفريقيا وأرجيبيل الملايو . إذ استنطاع أن الإسلام أن يشق طريقه إلى هذه المناطق في القرون الأخيرة ، دون أن تنتشر اللغة العربية ، وتولدت في هذه الوحدات لغات مختلفة تفهم الاسلام والقرآن ، كما انتشر الاسلام في آسيا الصغرى وفي بلاد البلقان دون أن تنتشر اللغة العربية .

وكذلك لعب الاسلام دوراً هاماً الى توسيع نطاق «العروبة» فإن انتشار اللغة العربية على يديها قد وسع نطاق «الأمة العربية» ، وكذلك صار «الاسلام» القوة الواقية التي أكتسبت «اللغة العربية» عامل للنهضة ضد هوامل التفرع والتفتت وصانت بذلك الأمة العربية من الانشاز (ساطع الحصرى) .

ولكن الاسلام واسانه العربى «القرآن» قد طبع للمسلمين جميعاً بطابع عربى وثقاً للقاعدة الأساسية التي رسمها محمد ﷺ : «لبست العربية بأحدكم من أب وأم ، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى» ، بمعنى أن من إتخذ «اللسان العربى» منطلقاً له فهو عربى مهما اختلفت الأصول التي انحد منى والدماء التي تجرى فى هروقه : وقد غلبت خلال القرن الرابع عشر الهجرى «دعوة» نسبت إلى العرب كل اللقومات والتراث الحضارى والفكرى المشترك بين الاسلام والعروبة ، ودأب كثير من كتاب الغرب على العمل ببحث للفصل بين الأمة العربية وبين الاسلام كفكر وثقافة وحضارة ، محاولين تصور حضارة عربية وثقافة عربية وتاريخ عربى منفصلاً عن الإسلام كأساس أصيل لها . وبالرغم من دور العرب الضخم فى بناء الحضارة الإسلامية فإنه من الظلم أن ينكر دور الأجناس غير العربية التي شاركت فى التاريخ والحضارة والثقافة والتراث ، والواقع أن كل من كلفى «عرب وإسلام» قد حلت إحداها محل الأخرى دون فهم دقيق ، والواقع أن التاريخ العربى لا ينفصل عن التاريخ الإسلامى ، إلا فى فترات دقيقة لا تستطيع وحدها أن تمثل قائماً بذاته :

والحق أنه إذا ذكرت «العرب» فى مجال الحضارة والفكر ، ذكر ذلك الأصل الذى قامت عليه الحضارة ، وذلك الفكر ولكن هو «الاسلام» فالعرب أمة والإسلام فكر وحضارة ومجتمع ودهوة إنسانية عالمية ، والعرب هم الأمة التي حملت لواء الاسلام وشقت به الطريق إلى أقصى المشرق والمغرب ولكن الفكر الذى حملة العرب فى الرحلة الطويلة كان «إسلامياً» فى جذوره مستمداً من مفاهيم واضحة أصيلة ، هذه المفاهيم هي التي دفعت العرب إلى النهضة والحضارة شاركهم فى ذلك عقليات للمسلمين من مختلف الأمم من غير العرب ، ولذلك فإن نسبة الحضارة والفكر إلى العرب وحدهم ليست صحيحة تماماً إلا إذا قصد إلى أن اللغة العربية كانت وعاء هذه الثقافة .

بل إنه يمكن القول بأن البقطة العربية الحديثة «ظاهرة إسلامية» ، فإن الاسلام هو الذى أيقظ العرب مرة أخرى ودعاهم إلى التماس الحرية والمقاومة بسلاحه . ويرى بعض الباحثين ومنهم (الفريد كاتول سميت) إن الاسلام هو الدين الوحيد فى العالم الذى ملأ نفوس معتقية فخرًا وإعجاباً

وهم ينظرون إلى أمتهم بوصفها « الأمة » التي اختارها الله لظهور دينه ، وهي الأمة التي يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الاسلام ديناً له ، ولسنا نحن مع الذين يرون أن قوة الاسلام تتمثل في عصر « الجاهة الاسلامية » أو أنها تنتهى بسقوط بغداد أو دولة الأمويين في الأندلس أو فتح العثمانيين لمصر سنة ١٥١٧ .

بل الرأي عندنا أن تاريخ الاسلام متكامل ، في هرويته وإسلاميته وفي قوته وضعفه ، وأن هذا الجزء من تاريخ الإسلام الذي نما بعد الحروب الصليبية إنما هو امتداد طبيعي لعصر إسلامي قوى استطاع أن يحمل لواء الاسلام حتى عاد العرب ليحملوه من جديد ، غير أننا نذكر أن الاسلام ظل في موجة العثمانيين أقل عمقا منه في أيدي العرب . وفي مرحلة الغزو الغربي الحديث ، كان الاستعمار حريصاً على أن يقضى على هذه الموجة العربية الجديدة المتصدرة حتى تضعف عن حمل لواء الاسلام ، أو تحوّلها إلى النزعات الإقليمية أو الوطنية أو القومية لصرفها عن المفهوم الأوسع ، غير أنها استطاعت أن تلتفم بكل هذه النزعات المستحدثة وصاغت من جديد وفق مفهومها الاسلامي وقد استطاعت هذه الموجة أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ومن بين ضرباته ، وأن تحقق نصراً في (١) مجال الحرية الوطنية والوحدة العربية (٢) مجال انتشار الاسلام (٣) مجال تصحيح مفاهيمه وقد فرض على الاسلام سلاح الضغط الاقتصادي والقوة العسكرية والشعبوية والسيطرة على التعليم والصحافة ، وخلق طبقة من المثقفين الذين اعتنوا ومبادئه واتخذوا أسلوبه في الحياة وفكره وقيمه ، غير أن أغلب هؤلاء — ما عدا صناعته ، قد أحسوا بأنهم خدعوا فدادوا أقوى مايكونون دقاها عن قيم العرب والاسلام . وقد برزت في خلال القرن الرابع عشر الهجري (٢٠ م) حركات ايجابية كالفت في سبيل الحرية واليقظة واستطاعت أن تواجه عوامل الغزو الفكري والتفريب التي تمثلت في عوات شعبية متعددة المظهر متحدة المهدف تخاضع العرب والاسلام مما أدى إلى هدفين : (١) القضاء على الشعور القومي والاهتزاز بالتاريخ الاسلامي (٢) القضاء على الاسلام باعتباره الاطار العقائدي للوحدة العربية في مجال نشاطها وحركتها وحيويتها .

والحق أن الاسلام في مختلف دورات التاريخ قد احتضن « الوحدة العربية » بكل قوة ونماها واتخذ منها منطلقاً له ، وقد استطاع الاسلام القيام بهذه المهمة ولا يزال ، والأمة العربية أعمق وحدات الاسلام عميقة وأقدرها على فهمه فهما صحيحاً ، والدفاع عنه والدعوة إليه . ولا شك كانت الحركة « اليقظة » في مفهومها الاسلامي القدرة على مقاومة محاولات الغزو الاستعماري والتفريب والشعبوية جميعاً .

(٤٠)

## « انتشار الاسلام ذاتيا »

يقسم الاسلام بسمتين واضحتين: « الأولى » هي توسعات الاسلام وانتشاره عن طريق التحركات العسكرية التي كانت تحمل طابع المبادرة بالقضاء على مديري خطط العدوان للقضاء على الاسلام الوليد في شبه الجزيرة وتمثل هذه « المرحلة الأولى » في حركة توسع امتدت شرقا وشمالا وغربا ، فاستطاعت أن تبلغ في عصر الخلفاء حدود الهند وأفريقيا ، ثم كانت موجتها الثانية في عصر القيادة السياسية الأيوبية وقد بلغت إلى حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا ، بعد أن اقتحم المسلمون أوروبا وأقاموا دولة الأندلس العربية المسلمة ثم توالت موجات ذات طابع محلي تتمثل في تحركات محمود ابن مسككين في الهند وما جرى من محاولات للتوسع في إيطاليا وقلب أوروبا الغربية ثم كانت حركة القيادة السياسية العثمانية في قارب أوروبا من ناحية البلقان . « الثانية » توسعات الاسلام ذاتيا وهي الحركة التي اتصلت في تاريخ الاسلام كله ولم تنصل بأعمال قادة عسكريين أو سياسيين ، وإنما كانت من عمل التجار والعلماء والصوفية . وقد كسبت هذه الحركة توسعات تزيد عما حققته أعمال التوسع السياسية الأولى .

غير أن هناك حقيقة أساسية يجب أن لا تغيب عن الباحث عن حركة انتشار الاسلام هي أن الوحدات التي سيطرت عليها القيادة السياسية الاسلامية لا يمكن أن توصف بأنها أصبحت مملكة بين عشية وضحاها ، فقد كان الاسلام حربا على ألا يفرض عقيدته على أحد من سكان الأرض الاسلامية وأن يترك لأهل هذه الوحدات الحرية المطلقة في ممارسة أديانهم ، بل وحماية مقدساتهم وإتاحة الفرصة الكاملة لهم للأمن الشامل في مجال العقائد والمجتمع ومختلف عوامل التعامل ، ومن هنا فإن « انتشار الاسلام » في هذه الوحدات إنما يتم بالاتفاق وبمطلق الحرية ، فقد قامت على أثر سيطرة القيادة السياسية الاسلامية على هذه الوحدات ، جماعات من العلماء والفقهاء للدعوة إلى الاسلام وشرحه والرد على ما يعرض له أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى وما يطلبون تفسيره وما يثيره خصوم الاسلام من شبهات ، ومن هنا فإن تعمق الاسلام وتقبله واعتناقه لم يتم بمجرد السيطرة السياسية على هذه للمنطقة الفسيحة من حدود الصين إلى حدود فرنسا وإنما تم ببطء شديد وبناء على إقتناع كامل . وقد بقيت وحدات إسلامية على طابعها السابق للإسلام فترة تتراوح

بين قرن وثلاثة قرون ( الشام و فارس ) ولم يتم انتصار الإسلام في المغرب إلا في القرن الخامس الهجري على يد المرابطين ، ومن هنا وبالإضافة إلى حقه التجارة والدعاة في المناطق التي لم يفرض الإسلام عليها سلطانه السياسي يمكن القول بأن الإسلام قد انتشر ذاتياً . وقد استطاع الإسلام بقوة الذاتية أن يحقق فتوحاً بعيدى للدي كان من أهمها : دور عمر بن عبد العزيز ، وهو دور خطير وبعيد للدي ، وهو يتمثل في أكثر من عمل : (١) الكتابة إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانت سيرته نبزاً لهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . (٢) ولي بلاد المغرب أحسن الولاء سيرة : اسماعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر فسار في البربر أحسن سيرة ، وكتب عمر كتاباً لهم يدعوهم إلى الإسلام فقبلوه . (٣) كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم كثير منهم . (٤) خفف أثقال الخراج على النصارى وأوقف الجزية عن دخل الإسلام . وقد كان لدخول الأبرار في الإسلام في العصر العباسي وبالأخص في خلافة المعتصم بعد اتخاذ بعض أجناده أعوان له ، أثر كبير في كسب جماعة ضخمة كان لها أبعاد الأثر في تاريخ الإسلام خلال عشرة قرون كاملة فقد استطاع الإسلام بواسطة دعائه أن يجذب إليه أولئك المناهجين ويحملهم على اعتناقه ويرجع الفضل في ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها المناهضة منافسين عظيمين هما : المسيحية والبوذية . كما اجتذب الإسلام إلى مجال اعتناقه عدداً من الصليبيين وكان هؤلاء قوادراً وأمرأاً وقد سجل توماس أرنولد أن سنة من أمرأ مملكة القدس اعتنقوا الإسلام بغير أن يضطروهم أحد ، كما أسلم عدد كبير من الأسبانيين بعد القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس . وقد بدأ الإسلام توسعاته في أفريقيا باعتناق البربر أهل المغرب الأصليين الإسلام ، وكان عقبة بن نافع قد بلغ واحة السكوار في الجنوب ، حيث أكد له سكانها أنه لا يوجد بشر جنوب منطقهم فلما نزلت جماعة من العرب والبربر إلى جهة بحيرة « تشاد » وفي القرن الثاني الهجري — حيث مفترق جنوب الصحراء — نتج عن هذا الاتصال الأول من الصحراء بين العرب والمسلمين وبين السودانيين اعتناق عدد من ملوكهم الإسلام وتأسس عدد من الممالك المزدهرة : كاتم ، ستراي ، غانا وتوالي اعتناق الملوك الأفارقة الإسلام مع المبادلات التجارية بين غانا والمغرب الأقصى على أيدي قبائل الطوارق ، ولم يلبث هؤلاء الملوك أن جلبوا عدداً من العلماء والفقهاء ليعلموا شعوبهم أصول الإسلام . وتوالي تأسيس الرباطات التي أسفرت من بعد عن ظهور ( المرابطين ) في القرن السادس الهجري بعد أن انتشر الإسلام في قبائل صنهاجة فأسسوا مملكتهم الإسلامية الممتدة من أسبانيا إلى السنغال . دفعت دولة المرابطين الإسلامية بقوة بين رعيا امبراطورية غانا الأفريقية الوثنية الكبرى

التي امتدت رقعتها فشملت مناجم الذهب في السنغال الأعلى ، وفي القرن السابع الهجري ( ١٣ م ) كانت ( تمبكتو ) مركز الثقافة الاسلامية ، ثم صادف التوسع قوة دفع جديدة عندما تأسست دول ( سوكوتو ) وأخضعت أغلبية السودان الغربي لها بمساعدة الأخوة الصوفية المراكشية مريدى الطريقة التيجانية . وفي السودان الأوسط على محاذة بحيرة تشاد دخل الاسلام في أوائل القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) أما السودان الشرقي المتأخم لحدود مصر الجنوبية فقد ظل على نصرانيته مدة طويلة بعد أن أصبحت مصر ولاية إسلامية في القرن الأول بعد الهجرة وفي القرن السابع الهجري ( ١٣ م ) اعتنق النصارى والوثنيين من أهل الاسلام دين الاسلام من اقتناع ، ونتيجة لزوح قبائل هديدة من المسلمين والعرب عن مصر . وقد دعى البيت الحاكم في السودان الشرقي « الفونج » في القرن ١٢ — ١٨ هـ ثم اتسع نطاق الاسلام في أفريقية الغربية على أيدي الملوك والتجار وبواسطة الحج إلى مكة واستقدام العلماء وإدخال اللغة العربية والقرآن ، ومن أبرز الملوك في هذا المجال : كنيكان موسى أعظم ملوك مالي ( ١٤١٢ — ١٣٣٥ ) وأسيكا محمد ( ١٤٩٣ — ١٥٢٨ ) . وفي القرن الثالث عشر ( ١٩ م ) نشط الاسلام بعد فترة ركود استمرت ثلاثة قرون وتأسست هذه امبراطوريات إسلامية بإفريقية الغربية من أهمها امبراطورية ( همان دان فوديو ) وامبراطورية ماسينيا وعلى رأسها الشيخ أحمد وابراطورية الحاج عمر وقد جاهدوا جميعاً لادخال أفواج كبيرة من الوثنيين في الاسلام ثم ظهر « ساموري » في مالي فقاوم توغل الاستعمار الفرنسي وحارب الغزو الأجنبي ١٨٩١ — ١٨٩٦ م وفي عهد الناصر ابن قلاوون ( ٥٧٤١ هـ ) أسلم ملك دنقلة فانتشر الاسلام بين سكان البلاد من المسيحيين على أيدي التجار .

ودخل الاسلام الحبشة عام ٧٠٢ هـ ثم توسع في القرن الحادي عشر حتى بلغ المسلمون ثلث سكان البلاد . ومنذ اعتنق الاسلام نصارى التوبة دخله السنغاليون والسواحليون في زنجبار وقبائل الصحراء ثم ازداد انتشاره في السودان حيث أسست ممالك إسلامية قوية . وفي القرن الحادي عشر الهجري نهض الاسلام نهضة قوية على أيدي الدهاة ومشايخ الطرق ، وكانت الدهاة المسيحيون : الكاثوليك والبروتستانت قد نشطت في أفريقية أواخر القرن الثاني عشر الهجري ( ١٨ م ) غير أن الاسلام اندفع بقوة ، من أبواب الزوايا الصوفية في المغرب وبلاد فارس ومراكش واخترق بلاد الادار بجمهة السنغال وكانت زوايا اتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني في تمبكتو وزوايا التيجانية ( أحمد بن محمد التيجاني ) ( ٧٢٨ ) التي اتسعت حول مجرى نهر النيجر وزوايا السنوسية ( محمد بن علي السنوسي ) في الجنوب وغدامس متجهة نحو بحيرة تشاد ومن أهم مراكزها وادي وبورنوا . ومن

خريجي الأزهر امتد خط آخر إلى كردفان ثم إلى أوغنده وكان لتجار المسلمين الذين كانوا يقطنون المسافات بين مصر وطرابلس ودارفور أثر كبير ، وكان أقوى نفوذ للتجار الذين يذهبون من زنبار إلى إقليم البحيرات الكبرى ثم عبر نهر الكونغو إلى بلاد البانتو ، أو من ساحل أفريقيا الشرقي داخل البلاد إلى مدغشقر .

### أرخبيل الملايو

يرجع انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا إلى التجار العرب الذين وصلوا هذه البلاد في القرن الأول للهجرة ، واستطاعوا أن يوسعوا تجارتهم حتى كانت تجارة جزيرة سيلان كلها في أيديهم خلال القرن الثاني ، ثم راجت تجارتهم مع الصين وراجا هظيا . وكانت « كانتون » أكبر مركز لهم ، وظلت لهم السيطرة التجارية حتى القرن التاسع الهجري حين ظهر البرتغاليون وتطلعوا إلى هذه الآفاق . وقد أسس المسلمون مستعمرات تجارية في أكثر من موقع في جزء أرخبيل الملايو وكانت لهم مستعمرة على ساحل سومطرة الغربي ويرجع الأثر الحقيقي في الدعوة للإسلام في هذا القطاع إلى الدعاة المسلمين الذين وفدوا إلى أرخبيل الملايو من جنوب الهند والذين حملوا الإسلام إليها مما أثمر جذوره في جاوه وسومطره . كما كان لإصهار التجار المسلمين إلى سكان البلاد أثره البعيد فقد كونوا بذلك النواة الحقيقية للجماعة الإسلامية التي ظلت أعدادها تتزايد ، مما طبع المنطقة بطابع إسلامي واضح ، ثم امتدت الدعوة إلى الإسلام التي حملها وجاهد في سبيلها كثير منهم إلى سومطرة وسيام وبرنيو . ثم انتقل تيار الإسلام من سومطره إلى شبه جزيرة الملايو ، فأصبحت إحدى معاقل الإسلام . وفي جاوه الشرقية استطاع المسلمون القضاء على الامارة الهندوكية وامتدوا منها إلى جاوة الغربية في القرن العاشر الهجري ، ويمكن القول بأنه منذ منتصف القرن السابع الهجري استطاع « ضوء الإسلام » أن يكسب جولة جديدة في ربوع الأرخبيل الأندونيسي وشبه جزيرة الملايو وحزائر الفيليبين . وقد قاوم الاستثمار الهولندي في مطلع القرن العاشر الهجري حركة توسع الإسلام الذاتية ، وبذل جهوداً ضخمة لتحطيم جهود الدعاة المسلمين واستئصالها وطمس الصلات التي ربطت بين مسلمي أندونيسيا وسن قوايين صارمة وفرض ضرائب دخول فادحة على المهاجرين القادمين إلى أرخبيل الملايو من الهند أو جزيرة العرب .

وقد حفظ تاريخ انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو أسماء كثير من المجاهدين الأعلام الذين قاوموا بدور ضخم في سبيل الدعوة إلى الإسلام وجعلوا من منازلهم معاهد ومدارس لا يواها المرء بين والبلاد

والقيام بتكاليف معاشهم وتعليمهم عقائد الاسلام والواجبات والمبادئ ثم بت المتخرجين في مختلف النواحي والقرى ، لاقامة المعاهد والمصليات لتعليم القرآن والأحكام . وقد أهان على انتشار الاسلام في أرخبيل الملايو أمران هامين : الأول : كان أغلب سكان هذه المناطق على الفطرة فوجدوا في بساطة الاسلام وسماحته ما جعله متقبلا لديهم . الثانى : مرونة الدعوة وصدق إيمانهم وصبرهم وقوتهم الحية . وقد استطاع الاسلام بمسماحته أن يتقبل في مرونة ويسر طابع أفراسهم وأنشيدهم وأغانهم وأضاف إليها مفهومة ، ثم استطاع أن يحول أبطال الأساطير إلى أبطال من قادة الاسلام ، كما حول الصور المجردة إلى معانى إنسانية . ويرى بعض الباحثين أن بساطة الاسلام امتنطاهت أن تسيطر في مواجهة الدعوات المتعددة التي كان ينشرها معتصبو ديانتي شيوا ووشنوا ، وما كان بين البوزيين والحيثيين وبينهم من خلاف وخصومات ، وقد أتاح هذا الجو المضطرب الفرصة لنشر الاسلام بسماحته وبساطته التي تشمل في الايمان المطلق بالله ، والمساواة بين البشر وحرية العقل والرأى في الحياة العملية بما ألقى حواجز الالوت أو المنصب أو النسب بين الناس . وقد كان عمل التجار العرب في مجال الدعوة إلى الاسلام بارعا ودقيقا ، فقد نالوا تقدير أهل البلاد يتعلم لغتهم وعاداتهم ، وقد بدأوا أولا بضم النساء اللاتي تزوجوا منهن إلى الاسلام كما جعلوا كل من يتصل بهن يعتنق بالاسلام ، ومن ثم أخذوا يندمجون في هامة السكان ولم ينفصلوا عنهم بدافع الفرور أو الكبرياء وأخذوا يواصلون نشر دينهم مستخدمين في ذلك ذكائهم الفائق وحضارتهم العظيمة وأظهروا مقدرة فائقة في تفسير الأصول والعادات المتعلقة بدينهم بحيث يفسر أمره لمن يراد جذبهم إليه .

## ( ٢ )

صور هاملتون جب حركة إنتشار الاسلام على أنه تم بسلسلة من القفزات السريعة د في مدة لا تتجاوز القرن إلا بقليل بين هامي ١٠ — ١٣٣ هـ ( ٦٧٢ — ٧٥٠ م ) امتنطاهت جيوش الخلافة أن توسع رقعة الحكم الاسلامى من أواسط آسيا شرقا حتى مرا كش وآسبانيا في أقصى المغرب ، وظل الاسلام محصورا في هذه الرقعة إلى قرابة القرنين ونصف القرن ، امتد بعدها حتى شمال غربى أفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمال الهند وكان ذلك بين هامي ( ٤٠٠ — ٥٠٠ هـ ) حوالى ١٠٠٠ و ١١٠٠ م وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع إندفعت صوب شبه جزيرة اللبلاقان ومنحدرات روسيا وسبيريا وباقي أرجاء الهند إلى أندونيسيا ، وهكذا أضحت خريطة



العالم الإسلامي في مطلع القرن التاسع للهجرة (١٤٠٠ م) من الاتساع كما هي الآن باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة ايبيريا و صقلية ، متغلغلة في بعض المناطق على نطاق ضيق لاسيما في أفريقيا ، واستطیع أن نضيف إلى عرض هاملتون جب القول بأن الإسلام قد وسع رقمته وما زال في أرخبيل الملايو وفي وسط أفريقيا وغربها على نحو هو موضع الغرابة من الباحثين والعلّاقين الذين يتصورون أنه سيتضاءف قوة في خلال القرن الخامس عشر الهجرى . والحق أن انتشار الإسلام في خلال وجاته المتوالية قد كشف مقدرة أشبه برد الفعل أزاء تحديات الغزو الخارجى ، حتى يكاد استمرار هذه الظاهرة وتواليها أن يكون أشبه بقانون على ، أو ناموس طبيعى . يقول : توماس أرنولد : هنما تعضمت قوة الإسلام السياسية ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع ، وهنما ضربت جموع المفلول بغداد (٦٥٦—١٢٥٨) وعندما طرد فرديناند ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦م في هذين الوقتين كان الإسلام قد استنوت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة وكان يشق طريقه إلى تقدم ناجح في جزيرة الملايو . (٢) يقدر جملة الذين أسلموا في البلاد التي كانت تحت سلطان القيادة السياسية الإسلامية بمائة مليون بينما يبلغ الذين أسلموا بانتشار الإسلام ذاتياً أكثر من خمسمائة مليون وهم من أسلم في الهند والصين وأرخبيل الملايو ووسط أفريقيا . (٣) شارك في نشر الإسلام مختلف عناصر المسلمين : بربر وفرس وترك وزنوج ، وعلى مختلف مذاهبهم : سنة وشيعة ، ولم تكن المساجلات التي دات بين المسلمين حائلة دون الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل نشره ، وقد حاول كثير من الباحثين الكشف عن السر في انتشار الإسلام على هذا النحو من القوة وخاصة في القرنين الأخيرين الثالث عشر والرابع عشر في مواجهة حملات التبشير الغربية المزودة بالمال ، وأن تتم هذه القدرة في التوسع على يد التجار والعلماء والصوفية . وليس هناك من سبب أصيل سوى أن الإسلام دين الفطرة وأن بساطته ومماحته قد نقلت قلوب هذه الجماعات البدائية البسيطة من الوثنية إلى تقبله ، فضلاً عن أنه بالمقارنة مع غيره ، لبس فيه اسرار مذهبية أو تعذيب للضمير ، كما أنه من المرونة بحيث يتقبل المادات والادآب الاجتماعية والإيجابية ، ويجيز تعدد الزوجات واقتناء الجوارى والعبيد ، وأبلغ أثر يتركه في نفوس معتنقيه هو المساواة والإخاء وشجب التفرة العنصرية وأعطاء معتنقيه صفة الحرية والكرامة .

وقد اعترف هو يرديشان مؤلف كتاب الديانات في أفريقيا السوداء ( وكان حاكماً للمستعمرات الفرنسية ) بأن انتشار الدعوة الإسلامية — في غالب الظروف — على حد عبارته — لم يعم على القهر والتسلط ، بل قام على الإقناع ، لأن الذين قاموا به كانوا شيوخاً متفرقين ، لا تمحوظهم قوة

أو نحميهم دولة ، وإنما كان الإخلاص هو دافعهم إلى إظهار محاسن الاسلام وسماحته ، وقد يسر انتشار الاسلام — في تقدير المؤلف — أنه دين فطرة سهل التناول خال من التعقيد ، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة ، بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين ، لذلك كان التجار المسلمون يحملون بذور الدعوة في هدوء ويسر .

## (٤١)

### مفهوم البطولة في تاريخ الإسلام

يزخر تاريخ الاسلام بأحداث البطولة ، وهي تمتد عبر مراحل المنصاة ، دون توقف ، وهي في صورها القريبة لا تنفصل في مفهومها عن صورها الأولى ، وكلها تستمد وجودها من مفهوم أساسي واضح ، هو القيام بدور خلاق في سبيل دفع الأمة الاسلامية إلى الأمام نحو الحرية والقوة والمجد ، وتنقسم البطولة الاسلامية بطابع على إيجابي ، وحيث يكرم البطل إنما يكرم عمله أساساً ، وليس شخصه أو ذاته ، تقديرًا لحظوة التي حققتها ، والدور الذي قام به ، ومن هنا كان «البطل» دائماً خائماً لمجتمعه وفكرته وأمنه ، يؤمن حق الايمان بأن عمله مقدور في ميزان العمل الصالح على تعاقب الأجيال ، ومن هنا فهو لا يتطلع إلى الجزاء المادى أو المغم والشهرة . وقد عرف تاريخ الاسلام أبطالاً قاموا بأدوار على قدر عظيم من الأهمية دون أن يكشفوا عن شخصياتهم ، أو ييؤخوا بأسمائهم وقد سجل التاريخ هذه المواقف تحت أسماء مجهولة ، ومن هؤلاء «صاحب النقب» هذا البطل الذي استطاع أن يفتح ثغرة في سور دمشق ، بعد أن حاصرها المسلمون طويلاً وحاولوا مرات متعددة أن يشلوا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إتمام هذا العمل ، فقد كان لا يكاد يتطابق أحدهم نحو الهدف حتى تنفاسه السهام والنبال ، فترغمه على العودة مرة أخرى دون أن يصل إلى السور ، غير أن هذا البطل الذي لم يعرف التاريخ اسمه ولم يكشف هو عن شخصيته ، وقد اندفع فجأة — بعد أيام طويلة ظل القائد يجرس خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور — اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشة من كل مكان دون أن يتوقف أو يرتد حتى بلغ الجدار فأحدث فيه ثقباً ثم اخترقه إلى داخل السور وكبير ، فكبر المسلمون وعبروا إليه ، فلما انتهت الموقعة ، طن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن «صاحب النقب» سوف يتقدم إليه دون جدوى ، هنالك نادى في الجيش أن يتقدم ، فلم يتقدم أحد ، ووعدتم هدد ، وبينما هو جالس في خيمته تقدم منه رجل ضامر نحيل ، فقال له : أيها القائد :

هل تريد أن تعرف صاحب النقب . قال : نعم ، قال : أنا أدلك عليه ، إذا أعطيتني العهد أن لا تسألني عن إسعى ، فقال القائد : محمد بن مسلمة : لك عهد الله أن لا أسألك عن إسئلك ، قال : أنا هو : وانطلق خارجاً من خيمة القائد . ومعنى هذا أن « مفهوم البطولة في الإسلام » لم يكن الإعلان والشهرة ، والنظلم إلى الحظ العاجل ، والأجر السريع ، ولكنه كان إيماناً صادقا من أعماق النفس بأن الله وحده هو الذى يجزى على العمل . ويزخر تاريخ الإسلام ببطولات كثيرة مجهولة ، قام أصحابها بالعمل ، دون أن يكشفوا عن هويتهم التماس الرضاء الله وحده ، وانصرفوا عن مطمع الظهور والإعلان والشهرة ، وكان هذا هو مفهوم « الزهادة » التى تتمثل فى إخفاء العمل وتحريره لوجه الله وإخلاصه للحق وحده . ويجمع الإسلام فى معنى البطولة قطاعات عدة : بطولة المفكر والمصلح — وبطولة القائد المحارب — وبطولة بناء الدول وخدام الحضارة . والبطل فى الإسلام خادم لقضية وهدف ، ولا يقل عمل المصلح الذى يصحح المفاهيم عن المحارب الذى يرد العدو ، وينساوى مداد العلماء بدم الشهداء ، وفى مجال الحرب تتمثل البطولة — ليس فى أعمال القتل وحرق المدن — بل فى البراهة فى كسب المارك بأقل تضحيات ممكنة .

والبطولة أساساً : بطولة بناء ونمو وامتداد ، تتمثل فى مجال العقل مع إضافة الجديد ، وقدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة ، والمرونة فى تحقيق التجديد والاجتهاد ، وتنكشف فى قدوة العالمين فى مجال الحضارة والبناء والتعمير ، وفى مجال المربين وبناء الأجيال ، وفى العالمين على إضافة كشوف جديدة . وتتركز البطولة الإسلامية فى العمل نفسه ، لا فى « الفرد » من حيث هو من أسرة معينة أو بلد معين .

فلمست بطولة عمر بن الخطاب أو خالد ابن الوليد أو صلاح الدين مستمدة من ميراثه الفردى أو العائلى ، بل مستمدة من مفهومه وعمله . وكانت مفهوم البطولة دائماً هو دفع الجماعة إلى الأمام ، وتحريرها من الاستعباد وتخليصها من أسار الغزو ، وإتاحة الفرصة أمامها ، للحركة والتقدم . ولقد كان تاريخ الإسلام قائماً دوماً على القدرة المتجددة فى أن يبتعث البطل الذى يقود المعركة ويواجه الازمة ، وكلما تجمعت التحديات فى وجه المسلمين برز القائد الذى يحمل اللواء . ويقود الجماعة فى معركة مقاومة ، وكانت الأحداث والأزمات دائماً قادرة على أن تدفع الأمة إلى الوحدة ، والتجمع والتشكل والنضحية حتى يتحقق النصر ، ولقد هرف عن تاريخ الإسلام عدداً من النكسات ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر المظفر والهزيمة الساحقة للعدو . فقد كانت الجماعة دائماً قادرة على مواجهة الخطر

مهما بلغ من الشراسة والعنف بالناسك والتجمع والتضحية . ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطلوة جعلها دائماً في مواجهة المسلمين ، لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم ، وكل الأبطال الذين عرضهم (القرآن) أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يخنون رؤوسهم للعدوان ، ولا يخافون ، بل يقفوا دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس ، فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة «التقدم والبناء» ومن هنا هجرت دائماً قوى العدوان ، عن أن تقتلهم أو تقتصر عليهم . وكانت المقاومة عندهم إيمان في أعماق النفس وسلاح في اليد ، يعملان معاً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة . لقد كان البطل دوماً في مفهوم الاسلام « استجابة » لحاجة الأمة والمجتمع ، ينبعث في وقت الأزمة ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل ، على وجه موجة من موجات التقدم . لقد كان الرسول ﷺ هو « النموذج الاسلامي الأهل للبطل » وكانت صورته دائماً وتجربته وعمله ، موضع القدوة والمثل طوال فترات التاريخ الاسلامي ، ومراحل ، وما تزال حتى اليوم موضع القدوة من كل بطل وقائد . فهو الذي إذا اشتد للبأس اتقى الناس به ، فما يكون أقرب إلى العدو منه ، وهو الذي وجده الناس عائداً من مصدر الصوت على فرس عري عندما خرجوا يلتمسون الخبر ، وهو الذي وقف في « حنين » كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجمة مفاجئة من العدو ، ينادى الناس « إلىّ إلىّ .. » وهو الذي كان يفرق دائماً بين موقفه في النار ولا قوة معه ، ويلتمس نصر الله ، وموقفه في بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة فهو وجل من أن يكفه الله إلى القوة ، فهو يلتمس نصر الله مجرداً ، وهو البطل الذي لم تذهله الأحداث ، والقائد الذي لم يهزم قط ، وقد علم خلال السنوات الثلاث عشر في مكة جيلاً من القادة واللغاوير ، وربما هم على البطلوة والتضحية والايمان فسكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل ذلك الرهيل موضع إعجاب الأجيال المتصلة المتوالية . ومن ثم اتصلت في تاريخ الاسلام روح البطلوة والتضحية وللموت من أجل الحياة ، وكانت مقاومة الظلم ، هي أبرز صفحات السكفاح في مواجهة كل باغ وظالم ومعتد ، على أرض الاسلام ، ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطلوة ولعل السر في تقدير الفرنجة لصالح الدين قربه من مفهوم النبي وأسلوبه ، بل لعل هذا كان هو مصدر النصر الذي كسبه لصالح الدين . وقد شملت البطلوة العربية الاسلامية في الشجاعة والمروءة والأريحية والكرامة والآباء ، مع قوة الارادة ووجاعة الرأي ، في ميادين الحرب والعلم والحضارة على السواء . وقد جمع المسلمون بين بطولة الفسك وبطلوة الحرب ، فقد كان العلماء كلهم قادة معارك ، يحملون السلاح في مواقف الجهاد : ابن تيمية والعز بن عبد السلام ، حتى المتصوفة تركوا زواياهم واندفعوا يحملون السيوف ويقاتلون في معارك مقاومة

المغول والصليبيين ، ويحرضون المجاهدين ويملئون قلوبهم شجاعة واندفاعاً . ومن قبلهم الحسن البصرى شارك فى مواقع الفزو ، كما شارك القاضى أسد بن الفرات . وبطولة الاسلام تقوم أساساً على إنكار على الذات ووفق قيم الأخلاق والأريحية : « لا تجرّز على جريح ، ولا تقتل صبياً أو هجوزاً أو امرأة أو تتعرض لما يبدى فى صومعته » . ولقد كانت بطولة العلماء فى الدعوة إلى الاستمسك بالقيم ، وإذاعتها فى الأمة ، خاصة فى فترات الحن على أنها أعظم أسلحة النصر ، فإذا استطاع للمغول أو الصليبيون أن يهدموا أو يمسكوا شبراً فإنهم لا يستطيعون أن يمسكوا النفوس الحرة ، ولا أن يهزموا القوى المذخورة فى أعماقها ، ومن هنا كانت بطولة المؤمنين تدفع فى طريقها كل ظلم ، وتحطم كل عدوان ، وكانت قادرة دائماً على رد العدو وسحق الفزو .

وقد كانت بطولة العلماء دائماً فى أن يبنوا فى نفوس الأمة أن تكون متأهبة لخطر العدو الذى يتحين الفرصة ، ويتربح لحظة الغفلة ، وبطولة بناء الدول إنما تتمثل فى بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل ، ليس هذواناً ولكن إتقاء للعدوان « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن ذلك قول الرسول : « إلا أن القوة الرمي ، إلا أن القوة الرمي ، من رمى بسهم فى سبيل الله فهو له هدى محرر » وقول عمر : « هلموا أولادكم السباحة والرمية وركوب الخيل » . ولقد كانت للمركة مع العدو ، هى معركة للمسلمين جميعاً ، يشارك فيها الرجل والمرأة ، والشاب ، وفيها تخرج الزوجة بغير إذن زوجها والخادم بغير إذن سيده . ومن خلال القيم التى ترسخها البطولة الإسلامية وجد المسلمون دائماً القوة على العمل ، ومن هنا كانت محاولة الفزاة والخصوم تدمير هذه للمقومات أو صرف الناس عنها . ولقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والفنوة من المجد الفردى والقبلى إلى مجد الأمة والدفاع عن مبدأ ورسالة . ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططاً واضحاً قوامه « الموت من أجل الحياة » فنرى عمر ابن الخطاب يرسل إلى أبى عبيدة بن الجراح يستقدمه وقد خشى عليه وباء الطاهون فنرى أبى عبيدة يرفض ويقول : دهنى يا أمير المؤمنين بين جندي ، ويخشى عمر ما عرفه الناس من بطولة خالد والمثنى الخارقين فيعزلها فى أوج نصرهما عن مكان القيادة فى الجيش . ويقول : خشيت أن يوكل الناس إليهما وأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، فلما علم بعض الناس هذا الخلاف أو عز إليه بالشادة ، فإذا خالد يقول : أما وعمر حتى فلا . . . أننا نسمع ونطيع لقادتنا ، ويذهب عقبة بن نافع فاتحاً حتى يصل المحيط الأطلس على شواطئ المغرب فيفرس حافر فرسه فيه ويقول : « والله لو أعلم أو وراء هذا البحر أرضاً لذهبت فاتحاً فى سبيلك » ويرى أبو محجن الثقفى ميمنة جيش المسلمين فى معركة « القادسية » تنسكسر ، وهو معتقل فى محبسه فيطلب إلى زوج سعيد

ابن أبي وقاص أن تطلعه ويماعدها على أن يعود إن لم يستشهد ، وينظر سعد محارباً يقاتل فيزلزل كالصواحق ويدعش العدو ، ثم يعلم بعد المعركة أنه أبو محجن الذي اعتقله لأنه شرب خمرآ ، فيرسل في طلبه ويقول : والله لن أضربك الحد أبداً مهما شربت الخمر ، فيقول أبو محجن : وأنا والله لن أضربها أبداً ، فقد كنت أشربها أففة حتى لا تقول العرب أنى أخاف الحد ، وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا : « خاف الله » ولقد حقل تاريخنا بهذه الصور ، بطولة في خلق ، وإنكار للذات مع طلب الموت ، وجمع بين بطولة الحرب وبطولة الفكر ، على نحو صورة الجندي المجهول في رده على سؤال المقوقس « رأيت قوماً للوت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » .

## (٢)

### بطولة الحرب

في تاريخ الإسلام تنكشف البطولة في ثلاثة أبعاد : (١) بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة : (٢) بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم . (٣) بطولة بناء الدول في مجال الحضارة . وهي بهذا تسكاد تسبطر على تاريخ الإسلام كله الذي يجري في هذه الأبعاد الثلاث ، والواقع أن الإسلام قد رسم « أيدلوجيا جديدة » لها طابعها الخاص ، تنقسم بالإيمان بالله وقوامها الجهاد في سبيل كلفته وإقامة حياة الأفراد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الإنشاء والحضارة ، ومن ثم فإنّه من خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة إلى الحياة والمال والموت والجزاء . ومن ثم برزت « البطولة » التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الإسلام في الدعوة إليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه ورد عادية خصومة عن قيمه وعن أرضه ، ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » الذي لا يتوقف عند الحرب وحدها ، والذي يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الإنساني كله ، ما دام هدف الحياة الإنسانية الأساسية هو تحقيق رسالة الإسلام ودعوته . هذا هو التغيير الخطير الذي أدخله الإسلام على مفاهيم الأمة التي بزغ فيها ضوؤه ، وهي أمة مهيأة بالفطرة لتحمل رسالة هظمى كنهه الرسالة ، ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل في أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة إعداداً نفسياً وبشياً وورائياً لحمل رسالة معينة ، ومن خلال هذه الجماعات تبرز بطولات الأفراد التي تحطو بالعمل خطراته المتوالية ، فإن الأمة بطبيعتها تسكوينها وبشنتها وورائياتها ، وهي تعيش في هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة

عن حضارة الرومان وحضارة الفرس ، والتي بعثت هن معابر الفزاة ، وحركات الغزو ومعارك القتال وتيارات الحضارة والفكر وللذاهب والأديان ، إنما كانت معدة إهداداً خاصاً لتأني رسالة ضخمة إنسانية عالمية ، تحمل لواثها ، بكل هذه العوامل النفسية المكونة لجماحتها وأفرادها ، وقد التقي مفهوم الإسلام بطبائع العرب فتحقق بذلك تحول خطير في قيم العرب وفق مقاصد الإسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير في دقة ويسر ، واستطاعت أهوام لا تزيد عن نيف وعشرين عاماً هي حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثه إلى وفاته ، أن تحقق هذا التحول . فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم والمقاتلة والصبر والصمود والبذل ، وتلك كلها صفات يرضيها الإسلام ، غير أنها قبل الإسلام كانت موجهة في سبيل الغاية الفردية والمجد الشخصي والفخر وفي سبيل الاستئطالة والاستعلاء والظلم ، فكان أن حولها الإسلام إلى مفهوم إنساني رفيع ، وجعلها أداة في سبيل تحقيق هدف ، ووسيلة من أجل غاية عليا قوامها الإنسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية وأحاطها بسياس متبن من الضوابط ، فعدل أنجاسها ، وبالتالي هدد أنجاس النفس الإنسانية العربية وجعل هزيمتها الصارمة قوة لا حدها في سبيل إذاعة كلمة الله في الآفاق ، وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها ، ما دامت قوة هدوانية أو أداة تسلط أو ظلم ، وفق مفهوم القرآن : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» ومن هنا ترى النماذج الخطيرة التي كانت تعد من جبايرة الجاهلية تصبح أبطلالاً يهز اسمها التاريخ ، ويصل أثرها إلى أبعد مدى في أعمال عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد في مجال بطولة الحرب وعمر بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان في بطولة بناء الدول ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود في مجال الفكر .

وهكذا رسم الاسلام ٥٠٠ سنة على ، استبطن معالم القوة والبطولة في الشخصية العربية وحولها إلى هدف أعلى ، فبرزت تلك النماذج من البطولة من خلال سنوات التدريب والاعداد . في مدرسة «الأرقم بن أبي الأرقم» التي عاش فيها المعلم الأكبر «محمد» بعد هذه النماذج وبعد من خلالها أمة كاملة لا تلبث بعد قليل أن تنفصاح في الأرض فتبلغ في سنوات قليلة لا تزيد عن عمر الدهوة في عهد النبي إلى حدود فارس وإلى حدود أفريقيا مكتسحة الامبراطورية الفارسية ، وما تسيطر عليه الدولة الرومانية من أرض الشام وأفريقية وهذا هو سر ذلك النصر في معارك التوسع وسر تأني الناس في مختلف هذه الأقطار للمسلمين ، فاتحين لهم صدورهم ، يوصونهم بخلصين من الظلم ، داهين إلى العدل والحق والحرية ، لا يفرضون دينهم ، واسكنهم يدهون إليه بالافتناع والحجة . ومن هنا نرى ذلك التحول الغريب في المفاهيم ، رجل يقدم ماله كله ورجل يقدم نصف ماله ، وابن يحارب

أباه ، ورجل يترك بنيه وأهله وماله مهاجراً ، ورجل يقسم ماله وما يملك بينه وبين مهاجر إليه ، ونرى أيضاً اختلاف الموازين المادية بحيث تكون القوة العددية هي مصدر الانتصار ، تتغير هذه « القيمة » ويصبح النصر في الأغلب للقوة العددية الأقل ، وفي مختلف معارك المسلمين والعرب خلال مائة عام كان النصر للقوة الأقل أمام القوات الضخمة التي يتضاعف عددها مرة ومرتين وهشمرات ويرجع السر هنا ، ليس إلى عدد الجيوش ، وضخامة القوى الحربية ، بقدر ما يرجع إلى العقيدة التي يحملها هذا الطرف أو ذاك ، كانت قوات المسلمين دوماً هي الأقل — عدداً وعدة — ولكنها كانت تحمل مفهوماً « معنوياً » ضخماً بعيد المدى في كسب المعارك وذلك هو مفهوم « البطولة » على المعنى الذي أهداه بها الاسلام والقرآن ومحمد . فالمسلمون يقاتلون في سبيل غاية هلميا هي تحقيق كلمة الله ونشر الاسلام والدفاع عنه ، وهم لا يطعمون في نفحة مادية بالدرجة الأولى ، وهم في أعرق أعماقهم قد خرجوا على مفهوم واضح في نفوسهم ، هو النصر أو الشهادة ، وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أكبر نصر ، فهو قد قدم روحه في سبيل القتل لأنه وطد نفسه على أن يموت ، فلا بد أن ينصر الكلمة التي آمن بها أولاً ، ومن هنا فإنه يلتصق ولا يموت ، تحقيقاً لمانون صادق وهو « أطالب الموت توهب لك الحياة » وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين كثير ، بل قتل الكثيرون ، وليكنهم ماتوا شهداء ، مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله في سبيل إيمان آمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم . وقد هاش هذا المعنى في نفوس المسلمين طويلاً ولا زال ، حياً نابضاً بالحياة فهم يتمثلون في كل خطوة ، ذلك المعلم الأول والقائد الأول « محمد رسول الله » ، ما نزل صورته الواضحة الدقيقة المباشرة في كتب السنة ، في مختلف تصرفاته ، تواجههم وتلاً قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي ، فقد كان ﷺ هو التطبيق العملي لفكرة الاسلام ومقاصده وأهدافه ، وكان تجسيداً كاملاً لتعاليم الانسان الحق ، والأسوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن وقد وصفه الحق بقوله : « وإليك اعلى خلق عظيم » . هذا النموذج الرائع ، قد كون جيلاً ، من القادرين على احتمال أقصى صنوف العذاب والجهاد والحرب ، بصبر وجلد ، منهم بلال الذي كان يخرج كل يوم إلى الهاجرة يتعذب ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، ومنهم كثيرون وجههم الرسول في السرايات والغزوات ، ووصفهم بأنهم صبر على الجوع والعطش ، ومنهم من يقاتل بسيف ورمح ، ومنهم من كان يصارع هدوءه بضربة واحدة وقد تمثلت البطولة في هذه المرحلة في مواجهة « الردة » التي أصبحت الجزيرة العربية هلميا بعد اختار النبي للرفيق الأعلى وفيها عداثيف وقريش ارتدت سائر العرب . وكان موقف الصديق رائعا ، فقد أصر على المقاومة ورفض الاستسلام ، وأنفذ أحد هشر جيشا في يوم واحد فاستطاع أن يستأصل الردة في معارك



متعددة أكبرها « معركة اليمامة » وسرعان ما أبرزت هذه المعركة الأساسية في ميزان بقاء الاسلام بطولات في مقدمتها بطولة البراء من ماله ، فقد زحف للمسلمون حتى ألجئوا المرتدين إلى حديقة أطلق عليها فيما بعد « حديقة الموت » وفيها مسيلة مدعى النبوة ، فقال البراء يا معشر المسلمين القوني عليهم في الحديقة ، قتل له : لا تفعل . قال والله لتطرحني عليهم فيها ، فاحتمل حتى أشرف على الحديقة من الجدار فافتحم مقاتليهم عند باب الحديقة حتى فتحها للمسلمين . وغير الإسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرها لدى الرجل ، فقد جاهدت المرأة في الحرب وقائمت ، وقدمت حليها وشعرها ، وفي معركة اليرموك قاتلت النساء في جولة . فخرجت جويرة بنت أبي سفيان ومعها زوجها فقائلا قتالا شديدا .

وبدا أثر التحول في فكر المرأة ومفاهيمها ، متمثلا في النساء اللاتي قدمن الأبناء ثم قدمن الأبناء والأزواج ، راضين متقبلين شهادتهم بالرضا ، إيمانا بالعقيدة والهدف والغاية غير جزيين للصير من بعد ، قالت امرأة من النخع لبيها الأربع الذين شهدوا القادسية : « والله أنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، انطلقوا فأشهدوا أول القتال وآخره . ويتمثل هذا التحول في موقف أخصاء من مقتل أخيها قبل الإسلام ومقتل أبنائها بعد الإسلام ، وكيف استقبلت هذا وذاك . ويبدو هذا التحول في مواجهة المسلمين لليلة في حرب الفرس ، والبحر في فتح المدائن ، وكيف استطاعوا التغلب على كل عقبة يدفعهم إيمان جارف ، وحس للموت ، ومنهم من غزا خمسين غزوة شاتيه وصائفة كما فعل هب الله بن قيس الحارثي . وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة في صورة من أدق صورها مستمدة قوتها من مفهوم الإسلام نفسه ، وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت نمة في العام ١١١٤هـ بصورة عامة فإنها ظلت حية تتمثل في حركة المقاومة التي لم تتوقف في جبهات الحدود الإسلامية البيزنطية والحدود الأندلسية الأوربية والأسبانية ، وفي حدود العالم الإسلامي من الشرق ، فقد امتدت معارك المقاومة منجمة ، على مراحل وفترات ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير هي الإدالة من العالم الإسلامي أو الحيلولة بينه وبين التوسع ، ثم برزت ثلاث معارك ضخمة هي : الحروب الصليبية في المشرق ، وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب ، والغزو المغولي للتتري ، وفي خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الاسلام في المقاومة بصمودها وبمناحتها في الوقت نفسه ، وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي مع صور خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص ، وتلمس الآخرون أخلاق الاسلام ومفاهيمه وحاولوا أن يكونوا على مستوى الرهيل الأول حماية للزمار ومقاومة للعدو وهذا وسماحة ، وقد كان سر نجاح خطة نور الدين وخلفه صلاح

الدين الأيوبي هو إعادة بناء « مدرسة تربية الضمير والخلق » كقوة روحية ذاتية دافعة إلى النصر ، وكانت بطولة الزهاد والصوفية المرابطين في الشفور من أبرز وجوه المقاومة في هذه المرحلة . وكانت مفهوم الاسلام هو « السلاح الأول » في معارك رد عدوان التتار والصليبيين معا ، وكان لجولات الظاهر بيبرس ويوسف بن تاشقين ومحمد بن توهرت والمنصور بن أبي عامر في المشرق والمغرب أثرها في رسم صورة البطولة الحربية في صورة المقاومة في هذه المرحلة ، غير أن البطولة في مجال المقاومة تختلف عنها في مجال التوسع ، فلا شك كان لتخلف المسلمين عن مفهوم الاسلام في خلال القرنين السادس والسابع عشر الهجري من الشرق والشمال والمغرب جميعاً ولو انتمس المسلمون مفاهيم الاسلام وقيمه في حياتهم لما استطاعت قوة عادية أن تقزوم ، تلك هي مفاهيم « الوحدة والقوة والايماث » .

### « بناء الدول »

وفي مجال بناء الدول والحضارة نرى عشرات من نماذج عالية في المهمة والقوة والحبوية من القادة والأمراء والحكام الذين صنعوا حياة مليئة بالعمل والبناء والتشيد ، على نحو رائع وعجيب ، وهو ما يدحض كل ما وجه إلى الاسلام من أنه يحض على الرهبانية أو الزهادة أو إنكار الدنيا وكرهيتها . ويؤكد مفهوم الاسلام في أنه روح ومادة ، وقلب وعقل ، ودين ودنيا ، وبناء وعبادة . فهؤلاء الأبطال : في مجال الدول معاوية والرشد والتناصر والمنصور و نظام الملك . هؤلاء يجمعون بين سمات العلماء وسمات الحكام ، فهم بارهون في الثقافة لا يقلون فيها عن العلماء المتخصصين ، ثم هم بناء بشيدون الحضارة في مجالات البناء المختلفة ، المساجد للعبادة والجامعات للعلم ، والقصور للسكنى ، والأبراج والقلاع للحرب ، والمراصد للفلك . ولم ينف الأمر عند هذا ، بل بنى هؤلاء الأبطال مدناً كاملة . بنى يوسف بن تاشقين ( الدار البيضاء ) والكمال بن أيوب ( المنصورة ) وعبد الله المهدي ( المهدي ) وجوهر الفائد ( القاهرة ) وأحمد بن طولون ( القطائع ) وإبراهيم بن الأعلب ( العباسية ) والمعتصم ( سر من رأى ) والسمح بن مالك الخولاني ( قرطبة ) والمنصور ( بغداد ) وعبد الرحمن التناصر ( الزهراء ) والمنصور بن أبي عامر ( الزهراء ) وأبي يوسف بن تاشقين ( منارة أشبيلية ) والمهدي ( الرصافة ) والحجاج ( واسط ) وسليمان ابن عبد الملك ( الرملة ) وهبة بن نافع ( القيروان ) وسعد ابن أبي وقاص ( الكوفة ) وسيف الدولة ( قلعة حلب ) .

## تسكريم العلماء

وقد أضاء هؤلاء الأبطال مسلحهم بالجامعات والمعاهد والمنشآت العظيمة ، وجعلوا بلاطهم محط رجال الشعراء والأدياء والعلماء ، وكان تسكريم العلماء مناسبات إيمانهم ، فالرشيد يصب الماء على يد أبي معاوية الضربير ويقول له : هل عرفت من صب الماء على يدك ، فيقول لا : يقول الرشيد : إنما فعلته إكراماً للعلم . وقد أقاموا المجالس ليقدموا إليها العلماء ويناقشونهم ويساجلهم في مختلف فنون الفكر والثقافة . وكانت مجالس المأمون مشهورة مذكورة ، حافلة بكل مفكر وناطقة ، وليس الشعراء وحدهم الذين كانوا يجالسون نهباء الدول ، وكذلك مجالس سيف الدولة التي كانت تجمع في بلاطه بين الفارابي والفيلسوف وأبي فراس الحمداني وابن نباتة الفاروقى والمثنى والسلافى ، وابن خالوية النحوى . وكان محمود الغزنوى يستضيف الغنى المؤرخ والبيرونى العالم والفردوسى صاحب الشاهنامه . أما ألب أرسلان فقد أظهر تقديره عظيماً لنواحي الثقافة والفن ، وقد رتب معاشاً كبيراً لعمر الخيام الفيلسوف الذى ترك في مجاله العلمى آثاره الخالدة وإن نسب إليه الشعر وحده ولم يذكره أحد في مجال العلم الذى كان عمله الأكبر . أما ملك شاه فقد عقد مؤتمراً من الفلاسفة في مرصد الفلاسكى وطلب إليهم أن ينقحوا التقويم . وكان نظام الملك وزير ملك شاه من المفكرين والباحثين .

كانت أيامه خلال ثلاثين عاماً أيام أهل العلم والابحث وقد أنشأ المدارس والجامعات وكان إلى ذلك باحثاً ومؤلفاً وله كتاب في سياسة الدولة وقد جهد ( بناء الدول ) في إنشاء الجامعات والمساجد والقصور حتى بلغوا في ذلك الغاية ، بنى الناصر مدينة الزهراء في أربعين عاماً يتوسطها قصر الزهراء الذى يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام ، ويزينه أربعة آلاف عمود من المرمر ويضم بين جدرانها أربعمائة غرفة ومقصورة ، وقد جند لها وأوقف على عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لها من روما والقسطنطينية وأفريقيا أعمدة الرخام الملون ، وقد كانت شوارع قرطبة مضاعة بالقناديل في حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عموى إلى ما بعد سبعمائة سنة ، وقد كان كل إنسان في قرطبة قادراً على أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مضاييح الشوارع وبين صفتين لا ينقطعان من المبانى وكان في قرطبة وحدها مائة وسبعين جارية تعمل في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة . وإذا ذكرت المساجد ، ذكر مسجد قرطبة وجامع الزيتون وجامع القيروان والجامع الأموى الذى بناه الوليد بن عبد الملك واستمر بناؤه عشر سنوات وبلغت نفقاته خمسة ملايين و ٦٠٠ ألف دينار وعمل في بنائه ١٢ ألف عامل ، قال الوليد : إذا كان أهل دمشق يفخرون بأربع : بمائهم وهوائهم وفلكهم

وحاماتهم فقد أحييت أن أزيدم خمسة في هذا المسجد وقد رصع محرابه بالجوهر وصور فوقه بالفسيفاء .

ويعد مسجد قرطبة أروع مثل للعمارة العربية ، فله تسعة عشر دوراً وتسعة عشر باباً يتسع بيت الصلاة والبهو منه لما يقرب من أربعين ألفاً ويمتد من بيت الصلاة أكثر من ستمائة هكتار وله مئذنة ضخمة . وبني المنصور ببغداد وأمضى أهواؤه يراقب البناء بنفسه ، وكان في بغداد ستون ألف حمام وحيال كل حمام خمسة مساجد ، وكان في دجلة ثلاثين ألف زورق .

( الجامعات والمدارس ) : أما في مجال المدارس والجامعات فقد بنى نظام الملك المدرسة النظامية التي تخرج منها أبو اسحق الشيرازي وأبو حامد الغزالي ، وبني المستنصر : المدرسة المستنصرية التي بلغ ما أوقف عليها من المقارنات أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً . وأسس المأمون مدرسة ببغداد وسماها بيت الحكمة . وبني « المعز لدين الله » الأزهر ودار الحكمة في القاهرة ، وبني عبد الرحمن الثالث في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية . وبني نور الدين وصلاح الدين في دمشق والقاهرة عشرات المدارس والمكتبات وكانت جامعة قرطبة مدرسة الفقه والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفية والفلك وفي مجال العلم بنى أول إرساد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع ، في جند سابور ودمشق وبغداد وجيزت تلك المراصد بآلات فيها مقياس الارتفاع والأسطرلاب والساعة والساعة الشمسية وفي بغداد كانت المترجمين والفساخ ومجالس أبي حنيفة ودكاكين الوارقين . وكان للحكم الثاني مكتبة في قرطبة فيها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرساً تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والاسفانة وبها ٨٠ مدرسة يرد لها الطلاب من جميع أنحاء العالم درس بها البابا سلفستر الثاني ، وكان الحكم بطلاً محارباً ، وحاكماً قادراً . وكان إلى ذلك عالماً بالأدب والتاريخ ضليعاً في معرفة الأنساب محباً للعلماء يستقدمهم من البلدان النائية فيدارهم هم العلم . أما المأمون فقد أتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو فاختار مهره التراجمة لنقلها إلى العربية ، وقرب العلماء والعقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة والأنساب والشعر وكان فصيحاً مفوهاً واسع العلم . ومن قبل ذلك عبد الملك بن مروان الذي نزل الدواوين بن الفارسية إلى العربية وضبط الحروف بالنقط والحركات . وهو أول من صك الدينانير في الإسلام وكان يحدث العلماء والشعراء وقد بلغ في ذلك أنه ما ذكر أمامه حديث ولا شعر إلا زاد فيه . أما عمر بن عبد العزيز فقد نشر الإسلام بالدعوة إليه وبالقدرة

الصالحه وحل المشاكل ودفع الجزية ، وناقش الخوارج وأقنعهم بالحسنى ، وهكذا يبدو كل واحد من  
بناة الدول وهو عالم مثقف ، يناقش العلماء ، يجمع إلى بطولته في ميدان القتال ، حصافته في مجال  
الحكم ، إلى تفوقه في مجال تكريم العلماء وبناء المدارس والجامعات والمساجد والمعاهد والمراسد ،  
إلى صاحب مجلس علم ، إلى ناصر للإسلام بالافتناع إلى مؤمن للتجارة والطرق ، فاتجبا الطريق للرحالة  
العرب يجولون بين أطراف معالم الإسلام بالافتناع إلى مؤمن لجواز سفر ، مكرما أصحاب الأديان الأخرى ، دافعا  
لهم إلى كبريات المتناصب . مستقبلا لشعراء الدول الأجنبية ، هلى نحو غاية في الهيبة والعظمة ويذكر  
هذا المجال المرض الذى أقامة الخليفة للمقتدر لاستقبال رسل الأمبراطور قسطنطين ، فقد  
مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وسبعة آلاف راجل وسبعمئة حاجب  
ونحو مائة أسد .

وقد بلغت الثروة غاية الغايات فكان الرشيد يقول للسحابة المسارة « أمارى حيث شئت  
فسأتيبنى خراجك » وكانت موارد عبد الرحمن الناصر اثني عشر مليون ديناراً من الذهب ، يقول  
ديورانت أنها كانت تفوق إيرادات حكومات البلاد اللاتينية مجتمعة . وهكذا تتمثل البطولة في جانب  
« بناة الدول » بطولة الأفراد الممتازين يخرجون من قلب مجتمعتهم ثم هم يغيرون المجتمع ويزيدونه  
قوة وحيوية .

ولا شك كانت البطولة في ميدان البناء والحضارة والإنشاء والحكم أكبر مسؤولية من بطولات  
الحرب والمقاومة ، فهى تتطلب الجهد الدائب للبدول في كل لحظة على مدى الأيام والسنوات ، في  
نفس الوقت الذى تحصن فيه الحدود وتؤمن الثغور ومع إثارة روح العمل الخلاق في مجالات التجارة  
والصناعة والأدب والفن . وقد ظل تاريخ الإسلام دوما حافلا بهؤلاء البنائين للدول ، يتوالى ظهورهم  
في وحدات عالم الإسلام ، مرحلة بعد مرحلة ، ووحدة بعد وحدة ، يحملون اللواء ويحمون الحضارة ،  
حتى إذا ضعفت قوة الدفع بمدعهم للنشء الأول ، أو الثانى لكل موجة ، ظهر قائد جديد يحمل  
اللواء ، وكان ظهور الدولة المختلفة في أجزاء عالم الإسلام عامل تنافس وقوة ، ولم تكن عامل ضعف ، فقد كان  
الأمراء يتنافسون على تكريم العلماء وبناء الجامعات والمساجد ، وكانوا يحاولون أن يكونوا على  
مستوى مقر القيادة السياسية في بغداد أو دمشق أو قرطبة .

( ٤٢ )

## « المرأة في تاريخ الإسلام »

إن أدق وصف لموقف المرأة قبل الإسلام هو ما هبر عنه « عمر بن الخطاب » حين قال : « والله ما كنا في الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله لمن ما أنزل وقسم لمن ما قسم » . هذا في قالب الجزيرة العربية ، أما في أوروبا فقد انعقد « مجمع ما كون » ( ٥٨٦م ) لبحث هل للمرأة إنسان وكانت قرارات المجمع تتلخص في أن للمرأة ليست إلا خادمة للرجل . في نفس هذا المقصر قال رسول الإسلام « محمد » كلمته الخالدة : « إنما النساء شقائق الرجال » وبذلك منح للمرأة للمساواة ، وقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وبذلك كرم الأمومة ووضع ركيزة بناء الأسرة .

وأبرز ما يمثل مكانة للمرأة في الإسلام : ١ - شمول الخطاب القرآني للمرأة والرجل .  
٢ - أعطائها الأهلية الكاملة للارث والهبة والوصية والدين والتملك والتعاقد والاكتساب دون أن يكون ذلك مرتبطاً بموافقة الرجل وإذنه .

(٣) الذنوبة بين الرجل والمرأة في التبعات والتكاليف العامة من زكاة وحجيج وجهاد وصوم وصلاة . وبذلك برزت « شخصية المرأة المسلمة » في المجتمع وهي ذات كيان واضح مستقل ، له خصائصه بالنسبة للرجل في حدود القاعدة الأساسية : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » . ومن هنا بدأت مشاركتهن في المجتمع الإسلامي الجديد حاضرات بحاس النبي ، شاركات في الحرب ، ومهاجرات ، وحافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وقد دخلن المساجد وشهدن حلقات العلم والصلوة الجامعة ، وكان الرسول يعد لمن في مجالسه وفي الصلاة أما كن خاصة .

واشتهر نفر من النساء غير قليل براوية الحديث حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن « عائشة » . « وأم سلمة » وغيرهما من الصحابيات ، بل لقد رويت بعض الأحاديث سلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجل وروت « عائشة » وحدها عن النبي ألفين ومائتين وعشر أحاديث وشاركت للمرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : « أم هانئ » ، « وأم حمارة » . « نسبية بنت كعب » : « للزانية » . « وصفية بنت هبيل اللطب » ، وفيهن من غزت مع رسول الله سبع غزوات

« كام عطية » ، وكن يخلفن الرجال في رحالهن ، وكن يقاتلن ويصنعن الطعام ويداوين الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى ، « كام عسارة » أول مبايعة للنبي وثانية اثنين شهدتا العقبة الكبرى ، وكان لهن في فتوح الروم والفرس مواقف مشهودة .

قال إدوار جييون : — إن الشجاعة التي أظهرت منها المرأة المسلمة في موقعة اليرموك وفي فضول حصار دمشق لأهظم مما يتناولها التقدير . ووصف المؤرخون بطولات « خولة بنت الأزور » السكندرية و « الخنساء » التي استشهد أولادها الثلاثة في موقعة واحدة فاستقبلت استشهادهن بإيمان صادق . بينما كان لها موقفها العاصف في الجاهلية عندما مات أخوها صخر . وكما غير الإسلام مفهوم المرأة الإنساني في أمر الحياة والمجتمع والأسرة فقد أعطى الإسلام للمرأة حرية الفكرية حتى استطاعت امرأة أن تواجه « عمر » وتعارضه في المسجد الحرام حين دعا إلى تحديد المهور ، وهدم زيادتها من أربع مائة درهم ، فقامت من قالت : ما يحل لك هذا والله يقول : « وآتينكم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » وأجاب عمر في صراخه للعبيدة : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وفي أيام لدولة الأموية زاحمت المرأة للسلمة الرجل في مجال الثقافة والعلم ، وشاركت في مجال الفقه والحديث والأدب والبيان وأحاطت بجميع فروع العلوم وأنفذتها ، وفي هذه المرحلة قامت النساء بتربية البنات وتنشئتهن فكن يعلمن في البيوت : القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية وأسرار اللغة العربية . وامتد دور المرأة المسلمة في تربية البنات وتنشئتهن وفي رواية الحديث حتى بدت هوامل الاضطراب في المجتمع الإسلامي ، هنالك انجبت للمرأة إلى التصوف وهكتفت على العبادة ، وإن لم يعدم تاريخ المرأة المسلمة نماذج مختلفة على خلال العصور في مختلف الحواضر يعقدن الحلقة في المساجد ويحدثن في الفقه والحديث وقد سجل « العقد الفريد » المناورات التي نسبت إلى معاوية والوافدات من أنصار على كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمار وأُم سنان بنت حشمه ورامية الحجونية وهي تسكشف عن صراحة وجراة وكانت عمره بنت دريد بن الصمه . وهائشة بنت طلحة التميمية زوج مصعب بن الزبير ، وكلناها تهب هبة الملوك ، وقد أفرد ابن حجر في كتابه ( الإصابة في أعلام الصحابة ) مجلداً خاصاً أسماه ( كتاب النساء ) وهو الجزء الثامن في ٢٩٢ صفحة من القطف الكبير ، سجل فيه أسماء ونراجم ١٩٤٥ سيدة من راويات الحديث الصحابيات ، وحوى الإصابة لابن حجر والنسوة اللامع للسخاوي وأعلام النساء لسبحالة عدداً ضخماً من البارزات في مجال الفكر والثقافة والتصوف على طول العصور ، بين هابذة ومحدثه وأدبية وراوية ، ومن ربات الرأي والعقل والنفوذ والسلطان .

وليس في صدر الإسلام وحده بدأ شأن المرأة للسلمة حالياً ، بل في مختلف العصور ، فإذا كان « مرحلة بناء الإسلام » قد شهدت أمثال عائشة وزينب بنت جحش وأم سلمة وفاطمة وعكرشة بنت الأطرش وأم الخير بنت جريش والزرقاء بنت هدي ، وبكاره الهلالية وهند بنت زايد فقد توالى أسماء البارزات تظهر ، فظهر من بعد أصحاب الندوات أمثال عمره الجمحية ، وخرقاء وعمره ابنه أبي وهب وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وكل جمعاً يعقدن المجالس ، ويمضين إلى الحرب لابسات الحديد ، يساهدان أخوتهن وأزواجهن في الدفاع عن المعقل والقلاع ، كما هرفت المرأة بالطبابة في صدر الإسلام بعد أن نهى الإسلام عن السكينة ، وإذا كان الإسلام قد نهى عن الخلوة بالنساء إلا أن ذلك لم يمنع المرأة من الخروج إلى مجالس العلم والمساجد وفي فتح العراق إشتهرت خزاعة بنت خالد بن جعفر ، خاضت مع سعد ابن أبي وقاص المارك وحضرت فتوح الحيرة .

ثم كان عصر الانهيار والتبلور ( ١٣٢ - ٤٩٠ ) وإلى ما قبل الغزو الخارجي حافلاً بالمنافع المتعددة الشبائل . فاطمة بنت خليل الدمشقي محدثة سمع عليها العلامة السخاوي كتاب الشبائل الترمذي ، فاطمة بنت هبة الله تجلس في مجلس أمير المؤمنين المهدي ، فاطمة تولت مشيخة رباط الظاهرية في مكة . ولعبت دور للمرأة دوراً ضخماً في المجال السياسي ، كان للخيرزان فضلاً في حياة للمهدي فإن معاهد التعليم كانت منسوبة إليها وكان لزيدة زوج الرشيد دور هام ، وفضلها في توصيل المياه العذبة بين مكة ومنى وجر للياه إلى بيروت ما زال مذكوراً وكان لزيدة مائة جارية يحفظن القرآن . وأنشأت أم للفتنر مستشفى خصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار وكانت الولاة بنت المستنقي في القرن الخامس للهجرة نجاس الرجال وتحاورهم ولعبت « ست الملك » دوراً هاماً في التاريخ ، فقد تواتر الملك قرابة أربع سنوات ، وعرف عنها العدل والإنصاف ، وأنشأت والده السلطان الأشرف « بركة » مدرسة مجانية ، وعمرت فاطمة بنت المحدث « المقرئ » الدمشقي مدارس ومارسيتين وتنكياً وأوقفت لها الأوقاف ، ولشجرة الدر في حرب الصليبيين ومقاومة الغزاة دور جسيم في الفترة التي حفلت بالغزو الصليبي والتتري وكان عالم الإسلام حافلاً بنماذج من النساء العالمات ، في مختلف وحداته : أم الواحد وأم السلام في بغداد ، كريمة بنت محمد حاتم في مكة ، خديجة بنت محمد في بغداد ، وفي القرن السابع والثامن نرى عائشة بنت أحمد ابن هبة الله وفي نيسابور عائشة بنت الحسن في أصبهان ، فاطمة البغدادية أم الفضل ، ليقة بنت أبي الفرج في دمشق ، رقية بنت العفيف في الحجاز ، فاطمة بنت علاء الدين ( سمرقند ) فاطمة بنت أحمد الرافعي ( العراق ) زينب بنت الشمري ( نيسابور )



وفي القرن السابع والثامن ترى هائشة بنت أحمد بن عبد الله وفي نيسابور هائشة النيسابورية ، وفي المغرب : هائشة الشريفة ، وزينب بنت اسحق النصرانية التي تزوجها يوسف بن تاشفين . وفي مصر سارة بنت الشمس البالي المصري ، وفي دمشق شمس الملوك شهيدة بنت أحمد العامري ، وشهيدة الدينورية ، ولدت في بغداد وروى عنها ( ابن الجوزي ) كتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل ، وشهيدة المصرية ، وشهيدة بنت عمر الحلبي ، وهناك من هاجر في طلب العلم أمثال سارة الحلبي وصفت بأنها شاعره أدبية وطيبة ماهرة كانت تتعاطى كثيراً من الصناعات ، وكتبت الخط الجيد ، أصلها من الشام ، وفدت على تونس ثم ارتحلت إلى الأندلس ومراكش ، ورأست الأدباء والشعراء وتأطرتهم وظهرت على بعضهم .

وإلى القرن الثالث عشر الهجري لم ينقطع ظهور مسلمات في مجال العلم والفقه أمثال قرة العين بنت صالح القزويني المتوفية ١٢٣٠ هـ كانت محدثة وأدبية وشاعرة وعالمة بصيرة بالكلام ، حافظة للقرآن عالمة بتفسيره وتأديته ، عارفة بأسرار التنزيل تعقد الحفلات والجمعيات وتخطب وتعظ الناس ، عرفت بركة لهجتها فاشترأت لها الأعتاق . وقد شاركت المرأة المسلمة في العلوم وخاصة حركات السكواك ، فقد روى أن هائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك وسمرت عنده مع شيوخ بني أمية فلم يذكروا شيئاً من أخبار العرب وأيامهم إلا شاركهم فيه ، وما طلع نجم أو هار إلا فكرت اسمته . قال لها هشام : أما الأول فلا أنسكه أما النجوم فمن أين لك ، قالت تعلمتها من خالتي هائشة أم المؤمنين . وكان للمرأة في مجال الشعر دور ، فقد ظهرت مئات من الشواعر : صمد بن زيادة . وولادة بنت المستكفي . وعليه بنت المهدي ودنانير وهائشة الباهونية ورابعة العدوية وأحصى المؤرخون في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ستون ألفاً من الشاعرات وكان أكثرهن في غرناطة . وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن النساء المسلمات لم تخل لهن مشاركة في العلوم ، وكانت مهنة المعلمات والطبيبات ، ومن الطبيبات الشهيرات : أخت الحفيدة زهر ، وابنتها وقد نوه باقتدارها صاحب طبقات الأطباء ولاسيما في الأمراض النسائية وقيل كان في الأندلس ستون ألف حافظة للقرآن الكريم ترفع كل واحدة قنديلاً فوق باب بيتها بالليل تمييزاً لها عن غيرها .

أما وقع للمرأة المسلمة في فترة الضعف فإنه لا يجب حسابه على مقاييس الإسلام ولا ينطبق على قيمه ومفاهيمه ، هذه المفاهيم التي اضطرت المرأة أن تحتجب عن المجتمعات وتعتصم بدارها ، وتمكف عن العبادة والتصوف بعد أن ساد المجتمع الإسلامي بعض عوامل الانحراف ، ومن الحق

ان لا يحاكم « الإسلام » إلى فترة الضعف فإنها لا تمثل تعاليمه وما سر المرأة من انخفاض لمركزها ، لم يكن إلا نتيجة التخلّف عن تطبيق تعاليم الإسلام وقيمه ، كان انفصال المجتمعات عن مفاهيم الإسلام وهو ذلك الجو العاصف من توسع نطاق الاماء والجوارى على نحو لا يدانيه جو من الشبهة والشكوك والاضطراب مما دفع المرأة إلى التخلّي عن مكانتها في المجتمع ، فلما أرادت تنهض قبل أوائل هذا القرن كانت « قيم الإسلام » هي الأساس الذي اعتمدت عليه في هذه النهضة ، فرغمة الطهطاوى قبل قاسم أمين بأكثر من ستين عاماً ، اعتمد دعوته إلى تحرير المرأة ، ليس على مفاهيم الغرب وإنما على مفاهيم الإسلام أساساً فلم يكن ما رآه في الغرب دافعاً له على الاقتباس بقدر ما كان داعياً إلى إعادة النظر في مفهوم الإسلام للمرأة والعودة إليه بعد الانفصال عنه ، وكذلك فعل « قاسم أمين » الذي ضمن كتابه نصوصاً كثيرة من القرآن الكريم والسنة قبل أن الشيخ « محمد عبده » هو الذي اختارها وأضافها . والواقع أن المسلمة بعامة والعربية بخاصة لا تستمد قواعدها نهضتها من فكر الغرب وإنما تستمدّها من انبعاث قيمها الأساسية التي « القرآن » رسمها ودعا إليها « الإسلام » بفتح الطريق أمام المرأة على أساس من مقومات الكرامة والخلق وبناء شخصية المرأة على أساس الايمان والتربية دون أن يضطرب بها الطريق ، فلبست المرأة في مفهوم الإسلام أداة ولا متعة ، وإذا كان الغرب قد أخرجها من أجل ظروفه الاقتصادية أو الحرب فإن اليقظة العربية الاسلامية اليوم ترى أن بناء شخصيتها على مفهوم الدين والخلق هاماً في قدرتها على مواجهة الحياة العاملة بنجاح وعق . إن المرأة المسلمة حين اندفعت طوال تاريخ الإسلام في مجال العلم والعمل كانت تحمل معها قيم الإسلام نفسها ولم تنخل منها ، وبذلك استطاعت أن ترسم صورته من أشرف الصور لدور المرأة في الحياة الانسانية والمرأة المسلمة تستطيع أن تجد مكاناً عظيماً ضامناً إيجابياً في نهضة العصر ما استمسكت بتلك القيم ، ووازنت بين حاجة بناء الأمرة وحاجة العمل نفسه ، ودورها الطبيعي الفعال في تكوين كيان الأمة .

(٤٣)

## د عوامل التآخر ودوافع التقدم ،

نخلص كثيرون عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في ثمان نقاط : (١) الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك والتزهيد في الإمارة ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحنة الشعوب والدول . (٢) الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ، ولا حياة ، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله والجمود والتعصب والآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء . (٣) الانغماس في ألوان الثرف والنعيم والإقبال على المنعة والشهوات ، حتى أثر هن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم . (٤) انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة والممالك والأترك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن الكريم لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

(٥) إهمال العلوم العلمية والمعارف السكونية وصرف الأوقات وتصنيع الجهد في فلسفات نظرية عميقة وهولم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر في السكون وإكتناء أسرار الخلق .

(٦) الغرور بسلاطنتهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غره ، وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة .

(٧) الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم وظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم مما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والحفاظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد .

ويرى كثيرون أن أبرز مرحلة الضعف هي غلبة « عقيدة الجبرية » التي نشرتها الطارق الصوفية وقد حاول الكثيرون تناول عقيدة القضاء والقدر الإسلامية وتحويلها على أنها تعبير عن « حتمية » لا مناص منها ولا يمكن التحرر من أحداثها ، ولذا فلا محل لبذل المحاولات للخروج من آية نسكة تنزل بنا ، يضاف إلى هذا انحطاط المدارك وميلها إلى تصديق الخرافات والأباطيل وقعدان المعية البرهان وتحكيم العقل وغلبة مفاهيم العاطفة والغيبيات . ويرى « أتيان دينية » أن السبب الأول في تدهور المسلمين هو الخروج عن مبادئ المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهد خلال سني حياته في فرضها والتي كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . والسبب الثاني هو التخلي عن إحدى المميزات الأساسية للإسلام وهي التوافق التام بين العقيدة وبين ضرورات المنعاق . فقد

أخذت حماسة الروح الإسلامية العلمية شيئاً فشيئاً ، مكنتها بالنتائج الباهرة التي حصل عليها المسلمون . ويرى شكيب أرسلان أن أهم هوامل تأخر المسلمين هي :

(١) ترك المسلمين عزائم القرآن التي قام بها سلفهم . (٢) إغراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدانهم أعظم قوة مادية . (٣) الإكتفاء من الزين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب (٤) اليأس من رحمة الله وفقدان الثقة في النفس . (٥) استخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقدان أكثرهم هزة الإسلام القومية . (٦) موطأة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياهم . (٧) فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوربية . (٨) عدم اقتداء المسلمين بالأوربيين في تأليف الجمعيات والشركات . (٩) فساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة . (١٠) فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات . (١١) تفوق الأوربيين في العدد وطمعهم في مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين . (١٢) تخييم الجهل على الأمم الإسلامية . (١٣) عدم تجديد برامج التعليم واستيلاء الجلود على الفقهاء . (١٤) كثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة . (١٥) الدعايات الاستعمارية التبشيرية .

ويلخص عبد الرحمن الكواكبي ضعف المسلمين في عدة هوامل : (١) العقائد التي أقنعت على الإسلام وفي مقدماتها العقيدة الجبرية . (٢) الجهل . (٣) تحول الحكومات الإسلامية من نيابية ديمقراطية إلى ملكية مطلقة . (٤) جهل أمراء المسلمين . (٥) حرمانهم من الحرية وفقدان الحرية من أسباب موت النفوس وضعف الهمم وتعطيل الشرائع وإخلال القوانين . (٦) إهمال الدين ، لأن يدهو لعدم الفل لغير الله . (٧) انحلال الرابطة الدينية ، والإسلام مبني على أن لا ولاء فيه لغير المسلمين . (٨) تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين . (٩) الانحلال الذي أصاب السلطة القانونية لسبب فسادها أو بسبب تغلب الأهواء الشخصية عليها . (١٠) اقتصر علماء المسلمين في بحثهم ودراستهم على العلوم الدينية وعلى قليل من العلوم الرياضية وأهملوا ما هذا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوا وصارت نسباً منسباً . (١١) شعور المسلمين باليأس وعدم القدرة على مبالاة أهل الغرب . (١٢) عدم وجود تربية قومية تنشئ شعباً له رأى هام لا ينقسم على نفسه ولا يتخذ نل أمام هدوه . (١٣) الفقر مصدر كل شر وعيب فنه جهلنا وفساد أخلاقنا وانقسامنا . (١٤) عدم وجود الجمعيات المختلفة من سياسية وغيرها . (١٥) تكبر الكبراء وميلهم إلى العلماء المتحلقين الذين يتواضعون أمامهم ويتذللون لهم . (١٦) الدين بوضعه الحالي ، فقد نشأ الدين من أصل صحيح يسير على معتنقيه ثم طرأ عليه التأويل ودخل فيه التحريف والزيادات .

## لماذا تأخر المسلمون

هذا هو السؤال الذي أُلح على المفكرين والباحثين خلال الأهوام المائة الأخيرة وحاول الكثيرون الاجابة عليه كل من وجهة نظره ، ومن الزاوية التي يراها العامل الأهم من عوامل الضعف والتأخر ، والحق أن عوامل التأخر طبيعية ولا بد من وقوعها اعترافا بسنن السكون وطبيعته النواميس ، ودورة التاريخ، والأمم شأنها شأن الكائنات الحية تنشأ وتنمو وتزدهر وتضعف وتزول ثم تعود مرة أخرى إلى الحياة . وقد جاءت مرحلة الضعف في تاريخ الاسلام بعد دورة ضخمة طويلة المدى استغرقت أكثر من عشرة قرون ، ثم لم تلبث أن انحسرت بعد قرن واحد حتى لم يكن أن يقال أن عالم الاسلام لم يمر إلا بمرحلة قصيرة قبل أن يقتب من جديد ويأخذ في عوامل اليقظة والقوة ، أما أنه لم يصل بعد إلى مكانه الطبيعي مرة أخرى حتى الآن فإنما يرجع ذلك إلى عوامل جديدة ضاغطة مازالت تحول بينه وبين استعادة مكانته ، هذه العوامل تتمثل في القوى الأجنبية التي استطاعت خلال فترة الضعف أن تصع قيوداً تغلغل في المجتمع الاسلامي والفراسد الاسلامي إلى حد النخاع وبات التحرر منها أمراً بالغ العسر ، ومن هنا يمكن القول أن مرحلة اليقظة الاسلامية ، لم تسكن في الحق إلا محاولة لفك هذه الأغلال وتطهير هذه القيود ، ومن هنا طال الصراع بين عوامل التأخر ودوافع التقدم ، وتأخر عالم الاسلام طويلاً عن الأخذ بمدراته التي تمكنه من التماس مكانه الطبيعي .

وعندنا إن أبرز عوامل التخلف إنما جاء من الانفصال عن القيم الاسلامية الاسلام ، هذه القيم التي تدهو إلى القوة والايان والوحدة ، فحين تخلف عالم الاسلام عن هذه القيم حل بالضعف والتفكك والتخلف عن ركب الحضارة ، واستطاعت القوة الأخرى المواجهة أن تسكب الجولة وأن تسيطر على مقدرات العلم التجريبي التي حققها الإسلام ، وأن تسير بها إلى ميادين الكشف والاختراع ، وكانت القوة العسكرية والحربية والبحرية هي العامل الأول في انتصار الغرب على المسلمين والسيطرة على عالم الاسلام واحتلاله وتطويقه .

ولقد ظلت الحرب سجالات بين أوروبا وعالم الاسلام منذ بزغ ضوء الإسلام ، وكان عالم الاسلام في موقف المقاومة الصمود بعد مرحلة التوسع الأولى ، وقد ظلت الموجات الاسلامية البدوية المتوالية ممثلة في السلاجقة والبربر والماليك . ثم في الأتراك العثمانيين تقاوم الغزو الغربي حتى ضعفت قوة العثمانيين في القرن الحادي عشر الهجري ( ١٧ م ) واستطاعت أوروبا أن تزحف لتطوق عالم الاسلام

ثم لا تلبث في القرن الثالث عشر (١٩ م) أن تطبق عليه في حركة احتلال ضخمة . والحق أن عالم الإسلام في خلال تاريخه الطويل كان يمر دوماً بمثل هذه الأزمات : أزمات التخلف والضعف والاضطراب ، نتيجة انفصاله عن قيم الإسلام الأساسية ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إلى القوة والوحدة ويجدد كيانه ، وأنه كان قيناً بأن يفعل ذلك في هذه الأزمة لولا أن القوة المواجهة كانت قد بلغت قدراً من القوة ، واستطاعت أن تستثمر نتائج المنهج العلمي الإسلامي في أسلحة جديدة لمواجهة الإسلام والتوسع الإسلامي بعد مرحلة الدولة العثمانية التي سيطرت على أوروبا خمسة قرون . ومن هنا لم تكن « أزمة التخلف » قضية منفصلة عن القوى الغازية المضاعفة التي كانت تحمل معها مفهوماً جديداً هو : القضاء على مصادر القوة في عالم الإسلام بحيث لا يستطيع — إلى أمد ما — التمكن من السيطرة على بقائه خيفة الزحف على أوروبا مرة أخرى ، ولم تكن هوامل القوة هذه إلا عملة في الإسلام نفسه ، ومن هنا كانت الحرب : حرب فكر وتغريب وتبشير وشعبوية تثير هوافص الشبهات والشكوك والانقراض من الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث على نحو منظم ومن خلال أجهزة قادرة مسيطرة يملكها الاستعمار في مقدمتها المدرسة والصحافة والكتاب ، هذا في اعتقادي هو العامل الأساسي في استقالة مرحلة التخلف ، وعجز المسلمين عن استرداد القوة القادرة على أن تقيمهم مرة أخرى على طريق التقدم ، ولقد حاول الغربيون أن ينسبوا أسباب تأخر المسلمين إلى الإسلام نفسه ، وإلى مبادئه في محاولة للقضاء على مقاوماته وتدوين عالم الإسلام في مفهوم الفكر الغربي القائم على جماع الوثنية والمادية ، وجرى على هذا المنهج كثير من أتباعهم ، وغفلوا عن أن المسلمين استطاعوا بالإسلام بناء حضارة باذخة ، وحققوا تقدماً ملموساً في مجل العلم التجريبي والقانون والفلسفة ، وكانت هذه الحصيلة الضخمة هي حجر الأساس في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وأن الإسلام هو الذي أمد الفكر الإنساني بأصول للمنهج العلمي والاتجاه نحو الكشف بتحريره أتباعه بالنظر اليه السكون واكتناه أسراره ، وتحريرهم من أغلال الوثنية وإطلاقها بالتوحيد ، وبناء النهضة على أساس الإيمان والحق وصياغة مفهوم الإنسان على نحو يجعله سيداً لا يكون تحت حكم الله ، قد أتيحت له كل طيبات الأرض ودقائقها خالصة له .

ولاشك أن دوافع التقدم هي التحرر من هوامل التأخر .

وبعد فإن هناك قضيتان كبيرتان : من أبرزهما إياها تاريخ الإسلام معارضاً في هذه الدراسة بالاجمال في حاجة إلى تفصيل واسع ودراسة عميقة ، هما ( أولاً ) علاقة الإسلام بعالم الغرب وهي علاقة بدأت منذ بزوع فجر الإسلام وعلى حدود الدولة البيزنطية وقد استمرت هذه العلاقة في مد وجزر قروناً متصلة حتى

حسمها السلطان محمد الفاتح بدخول القسطنطينية ثم دخول العثمانيين أوروبا وإقائهم فيها بضمة قرون ثم انحصارهم عنها ، ( الثانية ) علاقة الدولة العثمانية كبرى دول الاسلام فى القرون الخمسة الأخيرة مع العرب منذ انماز العرب إلى حناج الدولة العثمانية فى الشام ومصر والمغرب هن رضا وقبول وفى مواجهة أخطار الحروب الصليبية التى أخذت تتجدد مرة أخرى بعد انتهائها .

هاتان القضيتان تتناولهما بالتفصيل فى رسالتين تاليتين فى هذا الجلد .

( ٤٤ )

## فلسفة تاريخ الاسلام

مقومات الاسلام الأساسية هى مصدر القوة فى حركة تاريخه وهى مصدر الضعف إذا تخلف المجتمع الاسلامى عنها . وتاريخ الاسلام منذ ظهوره إلى اليوم مؤثر فى التاريخ الانسانى متفاهل معه ، لم يتوقف أثره . وحركة الاسلام فى التاريخ هى حركة نحو الحرية والتوحيد والعدل :

وتتمثل أبرز نوااميس تاريخ الاسلام وقوانينه فى قدرته على مواجهة التحدى ، والتجدد من الداخل ومرونته الفائقة فى تصحيح مفاهيمه وتجديد فكره . فهو مفتوح على الثقافات والحضارات ، قادر على الأخذ والعطاء والحركة فى مرونة وحيوية دون أن يفقد مقوماته الأصلية .

(أولاً) : أتمثل فلسفة التاريخ الاسلامى فى هذا النحو : مبدأ تاريخ الاسلام «جماة» لها منهج تستمد منه من « الاسلام » وقد سارت به من قلب الجزيرة العربية حتى بلغت به أطراف العالمين تندفق فى مجرى تمتد (قوامه منهج واحداث وقادة ) ظل يعمق ويتسم . هذه الجماة «كونت المجتمع الاسلامى» وبنت «الحضارة الاسلامية» وفق مقومات فكر أساسية ، قوام فكرها دهوة إنسانية للعالمين : إلى الحرية والعدل والحق والمساواة . فى طريق هذه الحركة إلى غايتها ، واجبت مرتين (أولاً) معارشات قوية ، وقوى مصادمة تحول بينها وبين طريقها للرسوم . (ثانياً) : هذا الجرى يصيبه بين الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه ، وتلك سنة الحياة : قوة من بعد ضعف وضعف من بعد قوة . «ومنهج» هذه الجماة هو منطلقها ، فإذا تخلفت عنه بلغت موقف الضعف والتخلف ، وانتصر عليها معارضها ، فإذا عادت إلى مقوماتها واستمسكت بها انتصرت بعد هزيمة ، وقويت بعد ضعف ،

وصفحات التاريخ الإسلامى خلال أربعة عشر قرناً تجرى على هذا النحو : تتدفق فى مجرى ممتد قوامه « منهج : وأحداث : وقادة » وفق ناموس واضح لا يتخلف . ولقد كانت القيم الأساسية للإسلام هى مصدر القوة واليقظة ، فإذا انحرف المجتمع عنها بدأت مرحلة الضعف والتخلف فإذا أهاد الأمة قائد أو مفكر إلى هذه القيم برزت نهضة جديدة وتجدد شباب التاريخ . (ثانياً) : هذه رؤيا جديدة للإسلام من خلال التاريخ الانسانى ، يتمثل خلالها « تاريخ الاسلام » فى صورة مجرى طويل ممتد بدأ منبعا من بحيرة واسعة هى الجزيرة العربية ، ثم مد فروعه أحدها إلى المشرق حتى بلغ الصين والآخر إلى المغرب حتى بلغ الأندلس والثالث إلى الجنوب حتى بلغ قلب أفريقيا . وما زال هذا المجرى يعمق ويقسم حتى شمل القارتين « آسيا وأفريقيا » وأوغل فى أوروبا من طرفها فبلغ نهر اللوار من ناحية الغرب وأسوار فيينا من ناحية الشرق ثم هو منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطور الانسانية ، غير منفصل عن العالم فى مسيره ومصيره ، تأثيراً وتأثراً .

والاسلام فى مفهومه الصحيح « منهج حياة » ، وإطار واسع لأيدلوجية شاملة متكاملة يرتبط فيها الانسان بالله وبالكون والحياة . ليس الاسلام فى حركة التاريخ هو الدولة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية أو الأمة العربية ، إلا بقدر ما يتصل ذلك بالاسلام نفسه . والاسلام يبدو من خلال تاريخه فى صورة « كائن حى » له جناحان : فسر وحضارة متجددات لظلالهما ، يمر بمراحل القوة والضعف ، حركته الدائبة وخطوه للتصل الدافع إلى الأمام ، شأن السكان الحى ، كلما تقاص طرف منه استرد قوته فى طرف آخر ، وكلما أصابت أحد أجزائه هزيمة أتيحت له الانتصار والامتداد فى الجانب الآخر أبرز ظواهره ، ظاهرة التجدد والتغيير وتصحيح المفاهيم « من خلال إطاره الجامع » يتصل ذلك فى كلا جناحيه : جناح « الفكر » بتجدد بظهور أهلام الفكر وقادة الرأى وجناح « الحضارة » يتحدد بظهور بناء الدول وصناع الأحداث : « المفكرون » يجددون الجوانب العقلية ويهيئون صياغة للنهضة ، ويدحضون شبهات الانحراف « والقادة » يبنون الجهة الداخلية ويردون القوى الخارجية وحركة التاريخ الإسلامى تجمع دوماً بين الخط المستقيم والدائرة فهو من حلال الخط المستقيم ينتجه نحو التقدم إلى الأمام ، ومن خلال الدائرة يتحرك ولا يقف ، وأحياناً تبدو حركة التاريخ أمامية ورائية فهى رجعة إلى الوراء قليلاً من أجل التقدم إلى الأمام : لم يجمد « الاسلام » أمام حركة « التاريخ » خلال العصور أو تطور الحضارات وللدنابات ولم يتوقف عن مدها فى إيجابية وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها بل ربما سبقها خطوات .

ومن أبرز سنن التاريخ الإسلامى : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس



جوهر القيم الأساسية . فكما ضعفت حياة « المجتمع » وانحرفت ، ظهرت « قوة شابة دافعة » تحمل  
 اللواء وكلما تحول منهج « الفكر » واضطرب ظهر مصلح مجدد يردّه إلى الجادة ، وهكذا عاش تاريخ  
 الاسلام بين « التحدى » ورد الفعل ، تعتوره الأحداث قوة وضغطاً ، ولسكنها لا تقضى عليه ، تهاجمه  
 القوى من الخارج فتؤثر فيه حثيثاً ولكنه لا يلبث أن يتأسك في مواجهتها ، فيتنصر عليها ويذيبها في  
 بوتقته . وتصارع القوى من الداخل فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى وقادرة على إعادة صياغة  
 الحياة . والاسلام في التاريخ حركة أوسع من الأمة العربية أو الدولة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية ،  
 وأعمق من الحدود التي تربطه بالسياسة أو تقصره على الحضارة والثقافة ، أو تقف به عند قيام الدول  
 وسقوطها أو الفتوحات والحروب ، وإنما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتتشابك . فالاسلام في الحق  
 هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من ريقة الظلم ، وإقرار حقوق الأفراد والجماعات  
 وتحريرها من الاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب التي اتصلت  
 به ، سواء من دانت له أو أصاغت فكرته ومقوماته . لقد كان إبروغة في محيط الأمة العربية معنى  
 واضح الدلالة ، هو اصطفاء هذه الأمة لحل رسالته ، ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ  
 الاسلام منذ فجر الاسلام إلى اليوم ، فنذ بزغ الاسلام ارتبط بتاريخ العرب أوثق رباط ، لقد ظهر في  
 الأمة العربية أولاً وفي حياة الرسول دانت الجزيرة العربية له ، فسكانت البحيرة التي امتدت منها  
 روافده وفروعه ، كما انبعثت منها للوجات للتوالي المختلفة التي تحركت شرقاً وغرباً وشمالاً ، فحملته  
 الأمة العربية إلى العالم أجمع وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته . فالفكر الذي كونه  
 الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً بحيث لا يمكن  
 أن يوصف بأنه فكر عربي محض أو فكر اسلامي خالص وكذلك الحضارة ، بل هو فكر عربي  
 اسلامي وحضارة عربية إسلامية شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانية :  
 فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية ، تبلورت جميعاً في إطار الاسلام وفق مفهومه ومبادئه ،  
 شارك في هذه المرحلة العرب وغير العرب ، شاركوا في الحضارة والفكر والحكم . وقد رسم  
 الاسلام مفهوم الوحدة بين معنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر لا على أساس الجنس ، ووسع  
 دائرة الأخاء الانساني وأسقط المصيبة والتفرقة العنصرية ، وجعل أساس التبريز والتفوق والفاضل  
 مستمداً من العمل لا من الفرق ، ومن الشخصية لا من الوراثية .

### ٣ - تكامل مفهوم التاريخ الإسلامى

وقد التفت كثير من كتاب الغرب إلى مفهوم «تكامل» التاريخ الإسلامى واستقلالية منطقته : يقول ولغرد كانتول سميت « إن للمسلم بحس إحساساً جاداً بالتاريخ » على نحو يختلف عن فهم البوذى والمسيحى والماركى . « فالرجل الهندى لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول أبداً بعالم الروح ، عالم اللاهوتية ، ومن ثم فكل شيء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب ، أما للمسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط . (١) للثل الأهل غير قابل للتطبيق . (٢) والواقع البشرى للطبق فى واقع الأرض منقطع عن للثل الأهل المنشود ، هذان الخطان يسيران فى نفس متجاورين أو متباهدين ولكن على غير اتصال . « التاريخ فى نظره هو نقط ضعف البشر وهبوطه وانحرافه » . أما الماركى فهو مؤمن بمحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن بهذا العالم إلا بالذهب الماركى وحده ، وكل شيء هباء باطل ، والماركى يتبع مجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها . « أما المسلم فإنه يحس إحساساً جاداً بالتاريخ . إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبئ تحقيقه فى واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق . « والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور ، فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخاص المسلم من غير تكلف ولا اصطناع وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلماً باهتاً من بواهب الحمد تسمعه من جميع المسلمين ، وأن الغربى لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره . ويقول التلامذة تريتون فى كتابه : الإسلام : عقيدته وعبادته : إذا صح فى القول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً فى تحليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبيتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع

رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة  
الفريدة ، فرأوا أنها تقع في هذا الشرع الجديد إلا وهو « الإسلام » .

ويقول البيان وايدغراى فى كتابه « تفسيرات التاريخ » : إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة  
بنائه ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي القرآنى فإن إرادتها حينذاك تنطبق وإرادة  
الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الإخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم  
أنه لا مرد لإرادة الله . ويشاهد بوجه هام تيارين يتنازعاان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ  
المسلمين: المفهوم الحركى والمفهوم القدرى ، وكلها تظهر بوضوح فى تفسير تعليلات القوى الاجتماعية ،  
وهى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهندود قد قطعوا كل صلتهن بكل ما هو وفقى وفورى وقدموا  
تعاليم انهمازية وانعزالية ، وبالنسبة لبوذية والهندوليس التاريخ إلا وهما . وإذا كان مفهوم المسلم لمنطق  
التاريخ يختلف عن مفهوم غيره ، فإن وجهة التاريخ الإسلامى قد سارت فى طريق يختلف عن وجهة  
التاريخ الأوروبى . من حيث حركته الخصبية السريعة فى التوسع ومن حيث أثره فى الأمم والشعوب  
التي اتصل بها ويصور هذا المعنى هاملتون جب فى عبارة دقيقة ، حين يقول أن التاريخ الإسلامى سار  
فى وجهه معاكسة للتاريخ الأوروبى على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على إنقراض الإمبراطورية  
الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلا ، فبينما خرجت أوروبا على نحو  
متدرج لا شعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، إنبثق الإسلام ابتداء  
مفاجئاً فى بلاد العرب وأقام بسرعة تسكاد يمز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان . إمبراطورية  
فى غربى آسيا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية ، وأقام نظاماً سياسياً شمل جميع  
المناطق المتسعة ومن ضمنها فارس ، وواجه مهمة أخرى هى إدخال هذه المناطق فى نظام ثقافى دينى  
مشترك قائم على مفهومه العالمى الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك أن يقاوم تأثير المفهوم العالمى  
السابق (المسيحية) فى غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر المتوسط ويضممه إلى أقصى حد  
ممكن ، ويعطى الزرادشتية والديانات التنعية فى فارس وبين النهرين وأن يقيم حاجزاً فى وجه انتشار  
البوذية فى أواسط آسيا .

#### ٤ — قانون التاريخ الإسلامى مستمد من طابعه

ولقد اتسم تاريخ الإسلام بسبب جملة له طابعه ومفهومه :

ذلك أنه لما كان الإسلام هو دين وفكر ومجتمع وحضارة ، فإن « التاريخ السياسى » فى تاريخ الإسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية وعظمة ، حيث تبدو الجوانب الضخمة الحافلة بالأجناد فى تاريخ الإسلام الفكرى والعلمى والعقلى ، وفى مجال الدراسات العقلية والفقهية والفلسفية الاجتماعية ، وأبرز جوانب التاريخ الإسلامى تتمثل فى القادة والأعلام وللفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الإسلامى مستمدة من « القرآن » ، أولئك للصلحون والمجددون ، وحلة لواء اليقظة وتصحيح المفاهيم الذين حفل بهم تاريخ الإسلام خلال مراحل وأدواره المختلفة . فى هذا المجال نجد طبقات الأطباء والحكام والنفذة والرواة والأدباء ، وطبقات الأدباء والفلاسفة والمؤرخين الاجتماعيين وتاريخ أعيان كل عصر ، فليس تاريخ الإسلام إذن تاريخ سياسى فحسب ، وليس التاريخ السياسى إلا جناح من أجنحته ، بل ربما أقلها خصوصية وعمقاً وأثراً فى حركة التاريخ ونموه وتجدده ، ولكنه تاريخ شامل قوامه تاريخ فكر متحرك فى مجالات الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتربية . ومن هنا تسقط تلك الشبهة التى يرددها دعاة التغريب من اقتصار تاريخ الإسلام على حياة الخلفاء والملوك ، بل تتناول مختلف مظاهر حياة المجتمع والحضارة ، وقد حفلت كتب الأنساب والطبقات والوفيات وموسوعات الأصفهائى والحصرى والجاحظ وأبى حيان التوحيدي بإفاضة ، بأخبار المجتمع بسائر طبقاته ومختلف قطاعاته وفى مفهومى أن التاريخ فى جوهره ليس سرد وقائع وحروب ودول تذهب ، وأحداث سياسية بل هو تطور شامل متصل وحركة اجتماعية يدفعها مفهوم وعقيدة فى مختلف ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وهندنا أن دراسة تاريخ الإسلام فى هذه المرحلة من حياتنا ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها ، لفهم الأحداث وتطور المجتمع ، ولعرفة مكاننا فى العالم الإسلامى والأمة العربية من الحضارة العصرية ، فإن نظرنا إلى الأحداث لا تصدق إلا إذا قامت فى ظل مفهوم شامل وفى إطار تاريخ الإسلام نفسه ، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم على مفهوم مرحلة ، هى رد فعل لمرحلة سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الإسلام وإنما قامت قواعدها على المنهج التجريبي الإسلامى وعلى بناء صاغة علماء العرب والمسلمين ، فنحن حين نتصل بها اليوم لا يكون غرباء عن جذورها ، فهى ملك البشرية كلها التى صاقتها وشاركت فى تكوين جوانبها المختلفة ، لقد

قدم الفكر العربي الاسلامى لهذه الحضارة علومه وفلسفاته ومعامله وجامعاته وبنى قاعدتها العريضة فى الأندلس فهو متصل بها غير منفصل عنها حين يقتبسها اليوم .

وأبرز ظواهر تاريخ الاسلام : تكامله وشموله وترابطه ، والحق أن تاريخ الاسلام ليس دوائر منفصلة ولكنه نسيج كامل ، فالحدث السياسى لا يفهم إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، أنها خيوط واحدة تكون « نسيج التاريخ » ، كل خيط له قيمته وأثره ، للتمثل فى مدى التحامه مع سواه . والتاريخ الاسلامى تاريخ حضارة مكتملة الدائرة ، وليس تاريخ شعب أو قومية معينة ، والقوميات كلها حلقات يطبعها طابع موحد ، وهو تاريخ مضمون إنسانى قوامه الحرية والعدل والتوحيد والمساواة ، وتاريخ العرب كافة لا ينفصل عن تاريخ الإسلام كفكر كلى شامل ، هذا الشمول يضم مختلف أوجه النشاط الإنسانى : الاقتصاد والدين والعلم والفلسفة والاجتماع . ومن هنا فإن نظرة الباحث الغربى قد تقصر ولا تصل إلى أعماق هذه المفاهيم ، نتيجة تأثره بمفهومه الغربى الخالص للتاريخ ، وهو غير مفهوم المسلمين والعرب للتاريخ ، والباحث الغربى بعيد بفطرته ومفاهيمه عن روح الفكر الاسلامى وقيمه ومناهجه التى قامت عليها أعمدة التاريخ الإسلامى ، ومن حيث أنه يحكم فيه انطاعة مرتبطة بمفاهيم قواها تراث يونانى ورومانى مسيحي غربى ، أضيفت إليها فلسفات مادية موهلة فى الانفصال عن الروح ، بل خاصة للاديان والتوحيد والغيبيات خاصة خاصة ، وهى نظرات تقوم من خلال فكر « يؤمن بتجزئة الكون والطبيعة ، والفصل بين العلم والدين » أما مفهوم الفكر الدين الإسلامى الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية ، وسار عليه مسار التاريخ الإسلامى فقام على أساس التوحيد ووحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وهو النظام الوحيد الذى يحقق هنا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الإنسان ، والعبادة والعمل فى نظام الحياة ، والدنيا والآخرة فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظام الكون . « أحمد نصيف الجنابى مجلة الأهرام ١٩٦٦ » .

ومن هنا يجىء الخلاف فى النظرة ، نتيجة للخلاف الجندى بين للقيم الأساسية للفكر الغربى والفكر الإسلامى ، وهو خلاف بعيد المدى ويبدو من غير الطبيعى دراسة تاريخ الإسلام أو الحضارة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى منفصلاً عن الإسلام ، بحسبان أنها جميعاً تقوم فى ظل مفاهيمه وقيمه . والتاريخ فى الحق هو حركة الزمن ، من خلال المجتمع ، ولقد كان التاريخ الإسلامى منفصلاً بالجرى الرئيسى لتاريخ الإنسان مؤثر فيه متأثر به ، وكانت تحدياته دوماً هى تحديات الشكوبية

والقوى الخارجية وتحريف النص ، وتقوم التاريخ الإسلامى حول فكرة وهوية وثقافة ، على أساس فكره لمطاطبها المميز ، الذى تلتقى فيه جميع مظاهر الحضارة والمجتمع بحسبان أن « التوحيد » هو الفكرة العامة التى تحتضن جميع مظاهر الفكر الإسلامى .

« فالفكر » هو أساس التاريخ الإسلامى ، والعامل للوحد بين المسلمين ، وأساس كيان المجتمع الإسلامى الذى ما زال قائماً ومستمراً ، والذى أخذ هديداً من صور الوحديات السياسية الكبرى: كالخلافة أو الدول الكبرى أو الدول القومية ، هذه التشكيلات السياسية فى مختلف صورها ينظمها روح واحد وفكر واحد وثقافة موحدة الجذور ، هى الرابط للشترك الأعظم بينها ، مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، وهى جميعاً تستمد أصلاً من القرآن الذى يمنحها القالب الذى تتشكل فيه كل أقطارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . والإسلام هو جماع للنهل العليا التى أمدت الحضارة البشرية فى خلال ألف وأربعمائة عام بصياغة جديدة مميزة للقيم تجمع بين العقل والقلب وللاادة والروح والدنيا والآخرة .

## ٥ - البطل فى تاريخ الإسلام

وأبرز ما ينسجم به تاريخ الإسلام وضوح وقائه وملامح شخصياته وتفاصيل حياته، وضوحاً يكاد يكون كاملاً مع تعدد هؤلاء القادة فى مختلف المجالات وتفاعلهم فقد كان تاريخ الإسلام دوماً عملية تفاعل بين المجتمع والفرد الممتاز من بناء الدول أو قادة الفكر . وإذا كانت حركة التاريخ تتمثل فى أمور ثلاثة : « منهج وأحداث وأبطال » فإن البطل دائماً هو المحرك الأساس للأحداث ، والقادر على تجديد المنهج إذا انحرف المجتمع عن مفهومه الأصل ، قد طغقت القوة الشعبية الإسلامية الجماعة قادرة على تخرج القادة والمجددين والمصالحين ، وهى التى قدمت نماذج حية ، متصلة لم تتوقف ، فى مختلف المراحل ، وفى مختلف الوحدات ، والمجالات ، قادة ومفكرين ومصالحين ، كلهم يلتصقون قدوتهم من بطل الأبطال « محمد رسول الله » ﷺ ومن مفهوم « القرآن » وقد أعطت هذه القوة الدافعة الأبطال والمجددين فى وقت الحاجة إليهم . لقد ظلت صورة الرسول محمد بنى الإنسانية وفى مختلف شتمائه وتضاريفه وحركاته وأعماله ، قدوة لكل قائد ومفكر وبناء من بناء الدول فى تاريخ الإسلام كله ، لم تمحجب هذه الصورة مطلقاً ، ولم ينخلف قائداً أو مفكر دون النظر إليها والتماس الخبرة ، كما ظلت صورة الرهيل الأول من الأبطال والأعلام مثلاً ومصدراً وقد تمتثت البطولة فى (١) المجددين: مصححي المفاهيم . (٢) الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر . (٣) علماء الرياضيات والفلك .

( ٤ ) بناء الدول . كان البطل دائماً هو قائد البقطة ، ، مثلاً في بناء الدول وفي للفكرين والمصلحين وهم جميعاً يستمدون قوتهم من المجتمع نفسه ، ويكونون استجابة لوجوه الحاجة إليهم ، حين يلتصقوا في قوة جديدة شابة ، ثم يبرز البطل بعد ذلك محققاً للأهداف مستمداً قوته من أمل المجتمع وحاجته ثم لا يلبث أن يمضي خطوة أوسع فيقود الجماعة إلى مرحلة جديدة أكثر قوة وإيجابية . وقد كان أبرز التحديت الداخلية التي واجهها الاسلام : « محاولة تحريف النص » أو القضاء على مقوم من مقومات الاسلام ، هذه المحاولات المنحرفة ، قد استطاع المصلحون والمجددون دوماً القضاء عليها ، وإبراز مفهوم الاسلام على حقيقته والكشف عن جوهر الاسلام وإعادةه إلى مكانه الحق بعيداً عن التجزئة والانحراف والجمود ، شمولاً وتكاملاً وتوحيداً ، فقد أعاد المصلحون الفكر الاسلامي إلى الاتصال المباشر بجوهر الاسلام بعد أن بلغوا متاهات الجدل في ظل غزو العقائد والمذاهب المختلفة وحرروا الاسلام من شكليات الصنعة والحرفة .

والحق أن تاريخ الاسلام في جميع مراحل — حتى في أشد عصوره تخلفاً وضعفاً — لم يخل من للمصلحين الأحرار الذين كانوا يتوافون مرحلة بعد مرحلة ، فقد ظلت الجماعة الاسلامية قوية صلبة لم تنحط ، وظلت تخرج القادة والمجددين والمصلحين ، وظل جوهر المجتمع الاسلامي حياً ، نعم أعطت الجماعة الاسلامية هؤلاء الأبطال والمجددين وقت الحاجة إليهم .

وقد كان تاريخ الاسلام يمثل تطلعات المجتمع الاسلامي ومصالحه ، ممثلة في بطولة ، كان الأبطال الذين هم استجابة لمجتمعهم ، يدفعون هذا المجتمع إلى الأمام خطوة ، حتى يمكن القول بأن موجات التاريخ الاسلامي كانت تمثل اندفاعات موالية لقوى ممتازة فائدة على طريق تحقيق حتمية الاسلام ، والممتازون في تاريخ الاسلام كانوا استجابة لحاجات عصرهم ، توافوا إليه مع الضرورة التاريخية ، ثم كانوا من بعد دافعين له إلى الطريق الصحيح الذين يكون قد انحرف بالموجة السابقة لهم ، والحق أنه لا يمكن بدون القادة أن تكون الأحداث ذات فاعلية ، ولا يمكن تصور التاريخ بدون قادة ، « والتاريخ باعتباره مجموعة حوادث ناتجة عن فعاليات البشر يزودنا بتتيجه عملية هامة هي أن حوادث التاريخ ليست مستقلة عن إرادة البشر » .

كانت مهمة القادة في تاريخ الإسلام هي دفع العجلة ، ذلك أن حركة التاريخ كانت تجري في مجال مفهوم الاسلام وأيدلوجيته وقيمه ، وأن قائداً مهما بلغت براعته أو ذكاؤه لم يكن يعمل إلا في إطار الإسلام .

والحق أن تاريخاً ما ، من تواريخ الأمم والأديان والحضارات لم يضع قاداته وحكامه وملوكه على مائدة التشريح ، ولم يرضهم للنقد ابتداء من الخلفاء الراشدين أنفسهم كتاريخ الإسلام .

(٦)

## حركة التاريخ الاسلامي وغائيته

حركة التاريخ الإسلامي منذ فجره إلى اليوم ، حركة تقدمية متكاملة ، تتمثل فيها القدرة على الحركة والصمود والاستمرار وتعميق المجرى ، ومقاومة كل محاولة للتوقيف أو التوقيف ، ويتمثل في تاريخه طابع القدرة على الانفتاح الدائم الواعي على الحضارات والثقافات ، وهو إذا ما توقف سياسياً بالفرز الخارجي من داخل عالم الإسلام ، شق له طريقاً في الأرض الجدياء ، وأضاف أمماً جديدة تعتنقه وتؤمن به ، فهو حركة دائبة نحو التقدم والبقاء وإشاعة الروح الانساني ، ومنذ أن ظهر الإسلام إلى اليوم وكل حدث عالمي مرتبط به على نحو من الأنهاء .

وغائية التاريخ الإسلامي تتمثل أنه منهج الفند للانسانية فالاسلام دهوة إنسانية إيجابية قادرة على الحياة والتأثير في مجرى الزمن والأحداث والحضارات ، في نظره عالية منسقة الأفاق وهي قادرة دوماً على أن تقدم للبشرية الحل الإيجابي لأزماتها وقضاياها ومشاكلها . وغائية الإسلام في مجراه التاريخي هي الوصول إلى عموم الرسالة بحسبانه القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة الإنسانية ، والمعدل والمساواة والحرية .

## أبرز ظواهر تاريخ الإسلام

١ - المقاومة : أبرز مظاهر حركة التاريخ الإسلامي تتمثل في مقاومة القضاء عليه وشجبت كل محاولات التآمر والانتفاض بالانتصار على القوى الغازية أو تذويبها في بوتقة . وحركة للمقاومة في تاريخ الإسلام تمثل جزءاً هاماً في كيانه وطبيعته الأساسية ، ومنها يتمثل مفهوم الجهاد بوصفه : اليقظة والاستعداد الدائم المستمر في مواجهة العدو ، والمثل الأعلى في الجهاد : « الاستهانة بالموت والحرص عليه ، بحسبانه مصدراً للحياة » وإعداد القوة أساساً لإرهاب العدو لا الحرب . وقد هاش الإسلام تاريخه كله ، حياة مقاومة مستمرة لم تتوقف ، متصلاً بالأحداث والأزمات والمعضلات البشرية . وقد قام الإسلام في مختلف أدواره على « التحدي ورد الفعل » متجهاً إلى تحقيق الوحدة الإنسانية .



على أساس العدل والابمان والحرية ، قادراً على إزاحة القوة المانعة من الوحدة ، أو المفهوم الصحيح ، وكانت تعقت كل عملية خارجية مرحلة يقظة وقوة وتجميع وانفعاضة نحو المقاومة . ٢ - التفاعل : ومن مظاهر حركة التاريخ الاسلامى . قدرته على التفاعل المستمر فهو فى طريقه للتطوير لم ينفصل عن التيار الانسانى وسار فى الخط الايجابى المتفاعل المؤثر .

٣ - تصحيح الانحراف : ومن ظواهر حركة التاريخ الاسلامى قدرته على تصحيح اذا جرى انحراف فهو يعيش سلسلة متصلة من حركات التجديد والإصلاح وتصحيح المفاهيم . وقد كان فكر الإسلام قادراً ولا يزال أن يعدل بالاجتماع عن الطريق المنحرف إلى الطريق الصحيح ، وكلما وقفت موجة ونجمرت اندفعت موجة أخرى إلى الأمام تحمل نفس الهدف بصورة أخرى . ٤ - الاستمرار : ومن ظواهر تاريخ الإسلام القوية « الاستمرار » فلم يكن من الملفت للنظر قيام هذا المجتمع الضخم وهذه الحضارة الكبرى فى هذا الوقت القصير ، بل العبرة بقدرتها على البقاء والاستمرار والامتداد والتأصل ، ولولا هذه القوة القادرة لما استطاعت أن تصمد أمام حملات الغزو الخارجى التى استمرت تنقض عالم الإسلام ولما كانت قادرة على تمزيق هذه الجماعة لولا صلابة مضمون الإسلام الذى حفظ لها قدرتها على الاستمرار ، ولقد كان المجتمع الاسلامى قادراً بقوة فذكره ووضوح مفاهيمه الأساسية على أن يرتفع على الصربات التى كان يتعرض لها كالفزوات والسكرات . واستطاع فى إبان حركات الغزو أن يتجمع ويتوحد ويدفع من أعماقه قوى جديدة قادرة على أن تكون على مستوى للمركة ، وهو فى مختلف أزماته لم تطل به فترة الوجوم والذهول ، وسرعان ما يستجمع نفسه ويتحدى الضربة ويقاوم بشدة ويتخلص من ركوده ويسترد حيويته . ٥ - الاتصال : ولم تسكن الوقائع فى تاريخ الإسلام منفصلة إحداها عن الأخرى ، بل متصلة دوماً ، لم يكن هناك انفصال بين اللوجات للتوالية ، بل كانت كل موجة استجابة لتحدى سابق لها ، أو تحدياً لمرحلة ضعف ، أو مدأ لحالة جزر ، لقد كان الحادث الواقع فى تاريخ الإسلام استجابة لحادث سابق فى سلسلة متصلة من التحديات والاستجابات . ٦ - وحدة الفكر : ووحدة الفكر هى أبرز علامات حركة التاريخ . قد انتظم مختلف وحدات التاريخ الاسلامى ودوراته وموجاته فكر واحد وثقافة واحدة ، هى الرابط المشترك الأعظم بينها مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، هذا الفكر هو روح الجماعة والحرك الأساسى والقالب الذى تتشكل فيه مختلف أفكارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولعل أبرز ما يتجلى فى الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية هو « الأصالة » فقد قاما على أسس جديدة لاصلة لها بالحضارة المبرانية والفارسية أو اليونانية ، قوامها التوحيد والنبوة والمساواة والعدل .

٧ — التـكـامـل : طوابع الشمول والتشكـال والوسـيطة والحركة والوحدة هي أبرز مظاهر حركة التاريخ الاسلامى فإذا بدت عملية تجرؤ قابليتها حركة تكامل ، وإذا بررت حركة تراخى قابليتها حركة يقظة . وقد ظلت عملية التجرؤ والتكامل في الفكر والتراخى واليقظة في المجتمع مستمرة لا تتوقف .

وحركات القوة والضعف والتراخى واليقظة حركات طبيعية ، غير أن عامل الأزمة الحقيقي كان مثل دائماً في الغزو الخاضع ، وقد جاء دوماً نتيجة فقدان الوحدة والقوة واليقظة وحراسة النفور والحركة مع الزمن والتطور مع الحضارة وكل الأجزاء التي سقطت إنما سقطت بفعل « قوة خارجية نتيجة التخلي عن القوة العسكرية والحربية وكان الانحلال الخلقى والاجتماعى في المجتمع عاملاً قوياً من من عوامل ضعف المقاومة والمعجز من الدفاع . غير أن عملية غزو خارجية للإسلام كانت تتبعها عملية رد فعل وتمحدي ، حيث تبرز قوة جديدة شابة تحمل لواء اليقظة والوحدة والنجم والاندفاع نحو المقاومة . وقد ظهر ذلك واضحاً في تاريخ الإسلام بظهور السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك والبربر والعثمانيين .

### مفهوم التكامل

« التكامل من أبرز طوابع تاريخ الاملايم : وتاريخ الاسلام — شأن الاسلام نفسه — لا يفهم إلا على أساس الشمول والتشكـال . فهو وحدة متصلة الحلقات مهما تعددت جوانبه ، وهو « كل متصل » لا يتفصل أبداً مهما بدا من مظاهر التعمدد والانقسام . فالتاريخ السياسى والتاريخ العسكرى ، التاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الاجتماعى ، والتاريخ الثقافى ، كل متكامل لا ينفصم أبداً مهما بدا الانفصال ظاهراً فيه ، كل جانب من هذه الجوانب يتصل بالآخر ويعتمد عليه اعتماداً تاماً ، وهى جميعها تشكل الاطار العام للحضارة . ولم تكن حركة التاريخ الاسلامى قاصرة على الأمة التى حملت لواءه ولا الدولة التى قامت باسمه ، ولكن ذلك التيار الضخم الحى المتحرك المتدفق الذى يبرز من وراء كل ظواهر المجتمعات والحركات والثقافات والمذاهب ، فالإسلام ليس هو الدين وحده ، ولكنه ذلك الطابع الذى يصبغ الحياة كلها فكراً وثقافة ومجتمعاً ، ويعطيها مفهوماً شاملاً متكاملًا : قوامه الروح والمادة فردية واجماهية والعقل والقلب . والواقع أنه لا سبيل للنظر إلى تاريخ الاسلام إلا « كوحدة تامة » منذ بزوغ فجره إلى اليوم حيث تتمثل صورته شاملة وكاملة في مجالين واسعين (أولاً) بآء الفكر (ثانياً) ببناء الحضارة . وهما مجالان متكاملان لا ينفصلان ، فقد سار بناء

الحضارة وتطور الفكر في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجود والانحراف ومقاومة القوى الخارجية والداخلية في آن .

وتاريخ الاسلام بمثابة الاطار الواحد الذى تتكامل عناصره وتنسق فيه الوقائع والحقائق ، بحيث لا يمكن أن ننظر فيه إلى موقف أو حدث زمنى نظرة منفصلة عن سابقتها أو ما بعدها ، كما لا يمكن أن ننظر إليه نظرة إقليمية جزئية ، فهو متصل الحلقات والمراحل ، كل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها وكل مرحلة متولدة من المرحلة السابقة لها ، وليس مصدر الخطأ فى المواقف والوقائع إلا ناتج من النظرة الزمنية أو الإقليمية الجزئية .

وتبدو مظاهر التكامل فى تاريخ الاسلام فى أمرين : « كل موجة » من موجات اليقظة أظهرت قوة جديدة بدوية تولت مقاليد القيادة السياسية ، لم تتخلف قوة واحدة عن العمل ، جنساً كانت أو مذهباً : العرب ، لافرس ، السلاجقة . البربر ، كذلك السنة والشيعة . و « كل عاصمة » جاء عليها دور اليقظة والقوة : بغداد ، قرطبة ، القيروان ، دمشق ، فاس ، القاهرة ، حلب ، أصفهان ، غزنة ، الرى ، بلخ ، وكل عاصمة أخرجت علماء وقادة .

وكانت حركة التاريخ تتمثل فى ظهور القوة فى وحدة من وحدات عالم الاسلام ، فى نفس الوقت الذى تظهر فيه مرحلة الضعف فى وحدة أخرى ، ثم لا تلبث أن تضعف الوحدة القوية ويتجدد كيان الحضارة والمجتمع فى الوحدة الضعيفة . ومن أبرز مظاهر التكامل : أن تاريخ الاسلام كله حفل بالقوة والحركة وظهور الأعلام والمصلحين . ولم تكن عظمة الاسلام قاصرة على مطالمة الأولى وحدها ، بل لقد ظلت مضطردة فى تاريخه كله وفى كل مراحلها ، وظل مفهوم الاسلام قادراً على الحركة طوال التاريخ وليس فقط الصف الأول ولا الفساد الأول ، ولا الرعيل الأول هو وحده الذى كان يمثل مفهوم الاسلام فى المجتمع والحكم ، ولكن على مدى العصور ، كانت تظهر الشخصية ذات الطابع الاسلامى فى كل مجال ، مجال بناء الدول ، مجال الدعاة والأئمة والقادة .

ومن أبلغ مظاهر التكامل فى تاريخ الاسلام أن قوة وحدها من قوى المجتمع لا تستطيع أن تمثل عصرها ، فلا يمكن أن يقال أن الفقهاء وحدهم أو الشعراء وحدهم هم صورة العصر ، ولكن القوى المختلفة كانت جميعها تتفاعل وتتحرك : العلماء والأمراء ، والفقهاء ، والصوفية ، والشعراء . الخ .

## سنن الضعف والقوة

تتمثل سنن الضعف والقوة في تاريخ الإسلام في الاقتراب أو الابتعاد عن قيمه الأساسية ، فلم يضعف الإسلام في مرحلة من مراحل تاريخه إلا حين تخلف مجتمعه عن مفاهيمه وانحرف نحو مفاهيم أخرى ، أو انحرف عن تكامل مفهوم الإسلام ووسطيته ، بالانحراف عن : القوة أو الوحدة أو الإيمان .

وتبدو سنن الضعف الطبيعية في دورات التاريخ ، فكلما وقفت موجة وتجمدت وضعفت هن العمل اندفعت موجة أخرى إلى الأمام . غير أن ظاهرة الغزو الخارجي الواضحة في تاريخ الإسلام من خلال حركات انقضا ضديدة ، هـى مغزوة أساساً إلى التـخلف عن مفهوم الإسلام نفسه من حيث الغفلة عن القوة ، أو تمزق الوحدة ، أو غلبة الترف والانهلال في المجتمع . ولكن سرعان ما كان للمسلمون يستردون حريتهم عندما يلتـمسون قيمهم الأساسية ، هـى القسادة درما على إزاحة « القوة الغازية » ودحرها أو تصفيـتها أو امتصاصها ، وقد استطاع الإسلام على طول تاريخه وما زال قادرا على مقاومة كل قوة حاولت القضاء عليه أو السيطرة : (الصليبيون ، التتار ، الفرنجة ، الاستعمار) وكما قاوم كل قوة تحاول تغيير مفهومه أو صهره في مفاهيم فكر أو حضارة أخرى . ففي الداخل حتى تطور الحركة الفكرية ودفعها إلى الأمام ووصلها بالحضارة والمعصر وصحح كل انحراف طرأ هـاها . لقد ظل الإسلام بمد المجتمعات والحضارات في عالم الإسلام بطابعه وظل قوة قادرة حية على الحركة والتفاعل ، وظلت قيمه خلافة بنائه متولدة قادرة على مواجهة التحدى والتغلب عليه . أما نزاعات التاريخ الإسلامى المحلية فهذه لابد منها في كل مجتمع حتى ، أنها لم تسكن تؤثر على خط السير الحضارى إلا إذا مزقت هامل الوحدة ، ولم يكن ضعف المجتمع الإسلامى ، بعد قوة ، إلا ظاهرة طبيعية لسكل مجتمع ، غير أن فاعليته الإسلامية وقدرته كانت دوما قادرة على بـعث الحياة في المجتمع الإسلامى بعد هبوطه وانحداره ، بالتماس مفهوم الاسلام مستمداً من القرآن . ويتمثل في تاريخ الإسلام في القدرة على الاستمرار ، والقدرة على تعميق مجرى الحياة ، ومقاومة كل محاولة للتوقف .

وقد ظل جوهر المجتمع الإسلامى حيا بالرغم من مختلف وجوه الاضطراب والانهلال ، فاستطاع إخراج القادة والمصلحين والمحدثين جيلا بعد جيل وموجة بعد موجة ، ومن هنا تتأ كد الظاهرة التى يكشف عنها تاريخ الإسلام كله هـى : أنه لم يتخلف المسلمون عن الحضارة والقوة إلا حين تخلفوا عن التمسك بقيمهم ومفاهيمهم . وقد ظل تاريخ الاسلام خافلا باستمرار التجدد والتنويع ، فهو في كل يوم يكسب أرضا جديدة ، وفي نفس الوقت يتجدد باقصاء عناصر الانحراف والتجزئة والزيوف هن

معدنه والكشف عن جوهره الأصيل وقيمه الأساسية . وقد تفوق المسلمون عندما استطاعوا « صهر » ثقافات الأمم وفلسفاتها في قوالب فكرهم وفي إطار التوحيد وأهدر المسلمون عندما استطاعت هذه الثقافات والفلسفات أن تسيطر على قيمهم الأساسية وتضعف فاهليتها .

وقد ظلت « المقومات الأساسية » ثابتة بالرغم من قدرة الفكر الإسلامى على الحركة ولا تزال هى العوامل الأكيده فى بناء النهضة ، فإذا انصرف عنها المسلمون أهدروا ودخلوا فى مرحلة الأزمة والغزو الخارجى . وهذه المقومات هى : التوحيد ، الوحدة ، النبوة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، العدل ، الحرية . فالاسلام أساساً : دين وفكر وحضارة ومجتمع ، فى منهج قوامه : هديده ومعاملات وأخلاق ، فالمجتمع الإسلامى صيغ أساساً والدين جزء منه ، وقامت فيه القيم على أساس الالتقاء بين العقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، والروح والماده والجماعة والفردية فإذا تخلخل أساس من هذه الأسس حلت مرحلة التخلف ، وإذا التمت هذه المفاهيم بدأت مرحلة « اليقظة » .

### تحرك التاريخ فى إطار الإسلام

كان المجتمع الإسلامى دوماً يتحرك مع التاريخ ولا يتحرك ضد التاريخ لأنه لم يحقق المثل الأعلى الذى رسمه الاسلام وما زال منطلقاً إلى تحقيقه . لقد تحرك المجتمع الإسلامى فى إطار الاسلام واستكنه لم يطاول مفهوم الاسلام . فالاسلام فى ذاته مقومات أساسية كلية مرنة ، وليس خطوطاً محدودة مرسومة أو ثابتة ، أو بالأحرى « ثابت الاطار متطور المضمون والمفهوم » ، تتمثل الصور فى تعددها مشتقة منه ، دائره فى فلسفه ، قريبه منه آنا أو بعيدة آنا آخر ، وهى بقدر اتصالها به والتماهى منه وأخذها منه تكتب له الحياه ، فإذا تخلفت وبعدت ونحلت بدا ضعفه وبدا اضطرابها . وقد كانت الدول والمجتمعات تنفاوت فى اصطباغها به وفى تحركها فى إطاره ، وهذا هو السر فى بقاء الاسلام مع تغير الدول .

( ٧ )

### تاريخ الاسلام والتاريخ الإنسانى

تاريخ الاسلام — لاشك — شطر من التاريخ الإنسانى متصل به لا ينفصل عنه وإن كان له طابعه المتميز فى منطقه ومنطقه ومفهومه . كما أن « تاريخ الاسلام » ماده أساسية وجزء أصيل من « تاريخ الإنسانية والعالم » فهو متفاعل مع هذا التاريخ مؤثر فيه حتى ليكن أن يقال أن تاريخ الغرب كله منذ ظهور الاسلام هو تاريخ الصراع مع الاسلام .

وهو متصل بالأمم والحضارات والثقافات مفتوح عليها ، يأخذ منها ويعطى ، ولقد ظل تاريخ الإسلام متصل بالتاريخ العالمى مؤثراً ومتأثراً وظلت النظرة إلى الإسلام من خلال العالم والنظرة إلى العالم من خلال الإسلام متصلة ، وإذا أمكن أن يقال أن هناك علمين : عالم الإسلام وعالم الغرب ، أمكن القول بأن الصراع لم يتوقف بينهما من بزوغ الإسلام إلى اليوم ، وهو الصراع بين فكرين مختلفين أساساً ، فقد كان الشرق منذ مطالع فجره ، وهو أرض النبوات والرسالات ، والإيمان بالله ، وكان الغرب أرض الفلسفات الحرة للمنطلقة ، التى تؤمن بالصراع بين البشر وبين الآلهة ، فلما غزت المسيحية أوربا ظل مفهوم الغرب قائماً على أصوله الأولى لم يتغير إلا قليلاً ، فهو لم يقبل المسيحية على سماحتها وبساطتها ولكنه أدخلها فى إطار من وثنية اليونان وقوانين الرومان ثم بنى بها جميعاً حضارته الحديثة ، وظل على موقف الخصومة للإسلام ، يصارعه من بيزنطة ومن الأندلس ، ويفزوه بالحروب الصليبية ثم يطوق عالم الإسلام ويسيطر عليه بحركة الاستعمار الحديث ، والإسلام فى خلال هذا التاريخ كله يقاوم الغزو ويتمدد فى أرض جديدة ويعمق رسالته فى العقول والقلوب فى حركة دائبة ولم تتوقف ولم يزددها الصراع إلا قوة وصقلاً . ظل تاريخ عالم الإسلام رمزاً على الصمود فى وجه اللزو الخارجى فى حملاته المتصلة التى تحاول أن توقفه عن الانتشار وترده عن الامتداد ، فهو لا يلبث أن يضعف تحت ضغط العدوان المسلح حتى يسترد قوته وأرضه ، ثم هو من الناحية الأخرى يتوسع ذاتياً ويضيف ملايين جديدة إلى معتنقيه دون حرب أو قتال . وأما تاريخ فكر الإسلام فقد ظل قادراً على التجدد ، معيداً لصياغة مقوماته وفق روح العصر ، لا يتوقف عن الحياة والحركة وقد عجزت الحملات المتوالية عن القضاء على عالم الإسلام أو إضافته إلى الحضارة الغربية إضافة النابغ .

كما عجزت حملات الغزو الفسكرى أن تحطم مقوماته أو تضيف إليها ما ليس منها ، أو تؤكد الشبهات أو الشكوك المثارة ، بل على العكس من ذلك ، كان هذا التحدى هاملاً هاماً فى تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والنمى الأساسية للإسلام مستمدة من القرآن ، قاضية على الانحرافات والاضافات والبدع والجهرية ، مما أصاب الفكر الإسلامى فى مرحلة الضعف ، نعم استطاع الإسلام أن يصحح مفاهيمه وأن يبرز نقياً وأن يكشف عن جوهره قادراً على لقاء مختلف تطورات الحضارة ودعوات الفكر على نحو من الاستقلال ووضوح الشخصية والقدرة القادرة على الهضم والاساغة والاقباص من مختلف الثقافات والحضارة بما يزيده قوة وحيوية . وقد واجه حملات الغزو العسكرى فى الشرق ، التتار والصليبيين فى الشمال والغربية فى الغرب ، ثم واجه حملة الاستعمار الحديث ، ومعها حملات التنفريب والتبشير والشعوذية وقد حاربت الإسلام قوى كبرى ثم زالت وانتهت بزوال

البرتغاليين والأسبان وانصهرت المقول والتتار وانحسر ظل بريطانيا وفرنسا . ويمكن القول أن في تاريخ الإسلام اتجاهين أساسيين : اتجاه الانتشار والتوسع واتجاه التطبيق وتاريخ الإسلام لا يزال يمثل تاريخ الانتشار الذي بعد الانتشار في المرحلة الأولى بالتوسع . أما اتجاه التطبيق فلا يزال في مراحله الأولى . فالمجتمع الإسلامي لم يستطع بعد أن يحقق مفهوم الإسلام كإلا في إطاره . مفهوم الإسلام بالنسبة للأجناس والألوان هو المساواة التامة الصريحة ، غير أن الموالى لم يجدوا تطبيقاً لهذا المفهوم وهذا سر ثورتهم ، وظهرت نزعة التفاضل بين الأجناس والصراع بينهم وهي مما لم يقره الإسلام . ودعا الإسلام إلى العدل الاجتماعي غير أن الطبقات الدنيا لم تجد طوال هذا التاريخ ما يحقق لها هذا العدل ، وظلت الطبقات الحاكمة بمنزلة عن الشعوب ودعا الإسلام إلى الاعتدال ، غير أن الترف اجتاحت الطبقات العليا مما نتج عنه رد فعل في ظهور مؤامرات الانقراض وحركات الزهد والانزوال عن المجتمع أقول هذا وأنظر إلى العصور : الأموية والعباسية والعمانية وقد بدت بإشراق التحول في البقعة العربية الإسلامية الأخيرة .

## والخلاصة

( أولاً ) حركة تاريخ الإسلام في مختلف مراحله تنبع من الحرية والعدل والتوحيد والمساواة بهدف « تحرير الإنسان من رتبة الظلم والاستعباد » وتحرير فكره من القيود والتقليد والمحاولات التي تريد أن تقصه عن التوحيد والحرية والعدل ( ثانياً ) عاش تاريخ الإسلام نظرية التحدى ورد الفعل في مجالين : X مجال قيام بناء الدول ودعاة التوحيد وقادة الحركات الإصلاحية كلما ضعفت القوى العاملة أو انحرف مجراها . X في مواجهة كل حركة غزو خارجية حيث تظهر قوى جديدة قادرة على رد الغزو . ( ثالثاً ) كانت حركة التاريخ الإسلامي حركة دائرية لولبية : ( تجمع بين الخط المستقيم والدائرة ) الخط المستقيم الذي يوحى بالتقدم إلى الأمام ، والدائرة التي يوحى بالحركة اللولبية ومعناها حركة أمامية وحركة ورائية راجعة إلى الوراء قليلاً من أجل التقدم إلى الأمام . ( رابعاً ) التطور حركة تقدم وتراجع ، ونهضة ونكسة . التاريخ الإسلامي كالسكن الجماعي له صفه أساسية هي قدرته على نزع الأعضاء الضعيفة في كيانه واستبدالها بأعضاء أقوى وفي دفع هوامل المرض والفناء . ( خامساً ) مومات الإسلام هي حامل القوة في تاريخه . التوحيد ، الوحدة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، الإيمان ، العدل ، الحرية ، فإذا ضعفت انحدر ، فإذا هاد إلى جوهر مفاهيمه دخل مرحلة القوة . وبالجملية فإن تاريخ الإسلام :

(أولاً) قاوم القوى الداخلية للنحرقة . (ثانياً) واهم بين الفكر الإسلامى والتطور .  
(ثالثاً) قاوم القوى الخارجية الغازية . (رابعاً) صهر خصوم الإسلام فى بوتقته . (خامساً) كسب  
أرضاً جديدة بعد مرحلة التوسع (سادساً) دفع الحضارة البسرية إلى الأمام خلال ألف عام .  
(سابعاً) أعطى المرحلة الأوربية من الحضارة دالً للنهج التجريبي (أساس العصر الحديث .

## أبرز وقائع تاريخ الاسلام

٢	١	٢	١	٢	١
١٣٩ — ٧٥٥	عبد الرحمن الداخل	١١٤ — ٧٣٢	بلاط الشهداء	٦٢٢ —	الهجرة
٤٥٦ — ١٠٦٣	الب أرسلان	٤٧٨ — ١٠٨٥	تسقوط طليطلة	٦٣٢ —	وفاة النبي
٥٠١ — ١١٠٧	محمد بن تومرت	٤٧٩ — ١٠٨٦	الزلاقة (هزيمة الأسبان)	١١ —	الراشدون إلى
٥٤١ — ١١٤٦	نور الدين زنكي	٣٦٤ — ١٠٧١	موقعة ملاذكرد	٦٦١/٤١ م	
٥٦٢ — ١١٧١	صلاح الدين	٤٩٣ — ١٠٩٩	الصليبيون فى القدس	٤١ —	الدولة الأموية إلى
٦٦٥ — ١٢٦٦	الظاهر بارس	٥١٥ — ١١٧١	هزيمة فرنسا فى ديمياط	١٣٢ — ٧٤٩	
٨٥٥ — ١٤٥١	محمد النافع	٥٤٢ — ١١٤٧	الحملة الصليبية الثانية	١٣٣ — ٧٥٠	الدولة العباسية
٩٠٨ —	إسماعيل الصفوى	٥٨٦ — ١١٩٠	الحملة الصليبية الثالثة	٢٩٧ — ٩١٠	الدولة الفاطمية
١١٥٣ — ١٧٤٠	عبد الوهاب	٥٨٣ — ١١٨٧	خطابين (استعادة بيت المقدس)	٣٤٥ — ٩٥٦	الدولة السلجوقية
		٥٩٣ — ١١٩٦	معركة الأرك	٣٤٩ — ٩٥٢	الفاطميون فى مصر
		٦٥٩ — ١٢٥٨	سقوط الخلافة فى بغداد	٤٨٣ — ١٠٩٠	دولة الرابطين
		٦٥٩ — ١٢٦٠	عين جالوت وهزيمة المغول	٥٤٥ — ١١٥٠	دولة الموحدين



« تابع » أبرز وقائع تاريخ الإسلام

٢	١	٢	١
١٢٢٠ — ١٨٠٥ محمد علي	٦٩٠ — ١٢٩١ نهاية الحروب الصليبية	٦٤٥ — ١٢٥٤ المماليك في مصر	
١٢٥٩ — ١٨٤٣ محمد بن علي السنوسي	٨٥٧ — ١٣٥٤ العثمانيون يفتلون القسطنطينية	٦٩٩ — ١٣٠٠ الدولة العثمانية	
١٢٨٧ — ١٨٧٠ المهدي في السودان	٨٩٨ — ١٤٩٢ سقوط غرناطة ونهاية الأندلس		
١٢٩٣ — ١٨٧٦ السلطان هبة الجعيد	١٠١٨ — ١٦٠٩ ترحيل المسلمين من الأندلس		
	١٢١٣ — ١٧٩٨ الحملة الفرنسية		
	١٢٤٦ — ١٨٣٠ احتلال الجزائر		
	١٢٩٩ — ١٨٨١ احتلال تونس		
	١٣٠٠ — ١٨٨٢ احتلال مصر		
	١٣٣٠ — ١٩١٢ احتلال طرابلس		
	١٣٣٦ — ١٩١٨ تقسيم الدولة العثمانية		
	١٣٤٣ — ١٩٢٤ نهاية الخلافة العثمانية		

## ( الرسالة الثانية )

### عالم الاسلام وعالم الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم : وللمسلمون يستشفون مرحلة جديدة من حياتهم من طريق القوة والنهضة فإن أولى الأمور التي تحتاج إلى اهتمام عميق هو معرفة موقعهم من القوى العالمية التي اتصلت بهم منذ أول يوم وما زالت توالى اتصالها على نحو أو آخر ، وأن يجري استعراض هذا التاريخ في إنصاف ودون تعنت بالدليل والبرهان ، حتى لا تحول الدعوات المختلفة ولا التيارات الوافدة أن تظلل نظرتهم بأى لون أو اتجاه وليعلموا أنهم « أمة » لها طابعها وذاتيتها وكيانها الخاص أقامها الله تبارك وتعالى في هذه المنطقة الحساسة من العالم وأعطاهامقادير الثروة والقوة لتحمل رسالته إلى العالمين وليظل أهلها قادرين على أن يكونوا جند الله الغالب : المجاهدون للرابطون اليعتقون الواعون الذين يأخذون حذرهم دائماً ، فإذا غلبهم متسلط أو غاز استداروا إلى منهمجهم الأصيل فعرفوا أنه هو المصدر الوحيد القادر على إعطائهم النصر وأن أى منهج آخر لا يستطيع ذلك ، إذن فلا بد من هذه الدراسة في هذه الفترة الدنيئة التي يمنح فيها للمسلمون بالمال والطاقة والتفوق للبشرى ، لينبشوا إزاء قيمهم وهنيتهم فحول للمقدرات للادية دون الحفاظ على وجودهم الذاتي وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامى ، وأن يكونوا إلى ذلك قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة للمادية لتكون « مواداً خاماً » يصنعونها داخل إطار فكرهم وقيمهم وبذلك يصنعون الحضارة القادمة : ( حضارة القرن الخامس عشر الهجرى ) : الذى أوشك أن يهل هلاله والذى يتطلع إليه المسلمون كعلامة على عصر جديد تعود السكرة فيه مرة أخرى إلى أيدي العرب والمسلمين . إن أخطر ماواجه الحضارة الغربية الحديثة وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخائقة والصراع بين القوى مع ما امتلكتته من أسباب التقدم المادى هو أنها « كسرت » الإطار الدينى والأخلاقى : الذى هو الحاجز الحامى لكل نهضة من التمتع والتصديق ، ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمى ظهرها ، أو نور يضيء طريقها ، وبذلك صرعتها المادية الغالية وانحرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتقليب التعريف والمفادات والشهوات فأنتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج ، وهى أزمة الإنسان الحديث وصراعه وتمزقه وغربته وضياحه ، كل هذا الذى قاساه ويقاسيه من أهوال هو نتيجة غيبة

المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصعد النفس وتمزق الكيان الإنساني وفقدان الهوية والهدف والقصور عن فهم الرسالة والأمانة والغاية والمصير الإنسان المتخلف في هذه الأرض . فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وتراثها التكنولوجي والعلمي والميكانيكي أن تستوهمهم هذه الحضارة أو تحتويهم ، في إطار هذا الفهم المدمر القاصر ، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر ومن اللغة العربية فينقلوا إليها كل معطيات العلم ، ومن الإيمان بوحدة البشرية والأخاء الإنساني والعدل والرحمة باعتبارها هي معطيات الاسلام الإنسانية وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه فيخضعون العلم الاخلاق والتقوى ، ويعملون بمقدورات البشرية للناس جميعاً وليست لفئة مستعلية أو مسيطرة على أقدار العباد ، وبذلك يحققوا إرادة الله في بناء المجتمع الإنساني الحق الذي تنطلق إليه الدنيا جميعاً بعد أن عاشت في الظلم والاستبعاد عصرأ طويلا شقيت به وليطلع المسلمون الدنيا جميعاً على أنهم يمتلكون منها قادراً على إسماع البشرية حقاً ، ووردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمينها من القلق والتمرد .

## ( ٢ )

ولاريب أن أخطر التصريحات التي صدرت في العصر الحديث : ذلك التصريح الذي أعلنه الدكتور بيرون في المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية الخامس الذي عقد في مدينة ( أوسلو ) عاصمة النرويج في ١٤ آب ١٩٢٩ حين قال : إن ظهور الاسلام كان خاتمة العصور القديمة وبداية إيقاظ الإنسانية في أول عصورها المتوسطة حيث بدأت أوروبا الغربية مدنية جديدة وحياة جديدة يجب معها اعتبار هذا الحادث العظيم هو بداية العصر الوسيط . فإزلنا نقصر عن فهم هذه الحقيقة ، والتركيز على هذه العلامة المميزة على مفترق طرق التاريخ ونجربى وراء متمصبي الغرب الذين يتجاهلون ظهور الاسلام كأعظم حادث تاريخي في العالم كله . لقد تقدم الاسلام بعد ذلك شرقاً وغرباً حتى فتح الهند والصين وقسم كبيراً من فرنسا في سرعة مذهلة أدهشت علماء الغرب حتى أطلقوا على هذه الحادثة التاريخية « المعجزة العربية » ثم كان « العلم » هو أعظم ما قدمته الحضارة الاسلامية إلى العالم الحديث . وقد سجل بريفولت في كتابه ( بناء الإنسانية ) هذه الركيزة الثابتة في الوجود الاسلامي العالي حين قال :

: لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الاسلامية وأن ما يدين به علمنا لم المسلمين ليس ما قدموه لنا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة الاسلامية بأكثر من هذا :

إنه يدين لها بوجود نفسه ، فضلا عن ذلك فإن الغربيين لم يقتنبوها لميراثهم القديم من الحضارتين اليونانية والرومانية إلا بعد ما كشف عنه المسلمون وجلوه وتقوده .

### ( ٣ )

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام فقد شكل لونه المميز على خريطة العلم ، عالم مستقل له طابعه المفرد ونظريته السكاملة المتجددة بالتوحيد والإيمان بالله والإلتزام الأخلاقي في تفسير الكون والحياة للمسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يجحدوا عنها تهوى إليها قلوبهم وحقولهم بالإيمان والفكر ، بالقلب والعقل جميعا ، ومنذ ذلك اليوم لم يكن لهم قبلة أخرى ، وماتزال الكعبة البيت الحرام وستظل مركز الدائرة في أرض الإسلام . ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والآدالة منه ثم لما هجرت عن ذلك ، حاولت احتوائه وإذابته وصهره في بوتقة الأمية ، ولكن مازال الإسلام قادراً بتركيبة الرباني وتشكله القائم على الفطرة والحق والعدل أن يقاوم كل محاولات ضربه : سواء عن طريق الحروب الصليبية أم للغزو الاستعماري أم الاحتلال الصهيوني أم محاولات الماركسية والمادية الوجودية والفرويدية وغيرها .

والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن يكون موضع نظرها وتقديرها دائماً بحيث لا تغيب عنها ، تلك هي أننا ( نحن المسلمون ) نعيش في ظل تحد قائم كبير ، في منطقة داخلة بالطاقة والثروة والتفوق البشري ، كانت ولا تزال وستظل — مصدر مطامع الغرب وتطلعاته إلى الغزو والسيطرة رغبة في استنزاف الثروات وامتصاص الموارد ، وأن هذه المطامع جاءت في ثوب الحروب الصليبية لاستعادة قبر السيد المسيح مرة ثم عادت في ثوب تمديد البشرية باسم الاستعمار الغربي ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد ، عاشت هذه الأمة موضع طمع الطامعين والغزاة قروناً طويلة ، يشتهزون فرصة ضعفها لينقضوا عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ، وما تزال القدس هي خط الدفاع الأول عن المقبلة المقدسة : ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو في حطين وفي هين جالوت وفي الزلاقة وفي الأرك واستجاشت أرض الإسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التي حملت اللواء واستشهدت في سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية الدين . واليوم يواجه عالم الإسلام ثلاث قوى : الاستعمار والصهيونية والشيوعية ، والمسلمون في موقف الدفاع يشبثون دائماً ويستمدون قوتهم من هقيمتهم التي كانت مصدر النصر لهم في كل أزمة وموقع ،

وسوف لا تستطيع القوى الفازية أن تنزهم من حصنهم هذا الحصين : وم لا يمدون الغرب ولا يطمعون في السيطرة والاستعلاء ولكنهم طلاب شحاحة ورحمة وخير .

يقول الفريد كانتول سميت : أن الغرب كان ولا يزال يخاف القوة للعنوية السكائمة في عالم الإسلام المتجانس الذي تجمه وحدة التوحيد الخالص ، يخاف هذه القوة ويخشها ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها والقضاء عليها وعزيقها وبث الخلاف والفرقة والعراع والخصومة والتناحر بين أجزائها ، ولعل حقاة الغرب في مقاومة هذه القوة هو الذي دفعها على الالتقاء والتوجد والتجمع كتلة واحدة . ولم يستطع الغربيون خلال هذه المدة الطويلة أن يكسبوا ود المسلمين بل حصلوا على شعور جماعي بالكرهية ، نقول وقد زاد هذه الكراهية قوة أن الغرب استعمل عمليات التبشير والتفريب والغزو والثقافة وسيلة الإذلال إلى جوار السيطرة الاقتصادية والمادية وكان شعور القوة والعنف والحقد والتعصب إزاء كل ما هو عربي أو إسلامي ، وتجمع الغرب كله لإخراج المسلمين من أوروبا ، تضافرت القوى من ناحية الأندلس وتضافرت من ناحية البلقان ، وجاء رجالهم بعد ثمانمائة عام ليقولوا : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

#### ( ٤ )

لم يتوقف الإسلام من الانتشار منذ بزوغ فجره وبلغ عدد الذين اعتنقوه اليوم ألف مليون على أقل من التقديرات منها ٩٠٠ مليون مسلم دخلوه بالانتناع والإيمان وبقوة الإسلام الذاتية وبفضل مبادئه التي تحمل التوحيد والكرامة ، وقد وجد الإسلام من الملونين والمستعبدين قبولا حررم من كل عوامل الظلم والعبودية وما زال الإسلام يفتحهم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن وفي مؤخر لندن الإسلامي ( مايو ١٩٧٦ ) أعلن أن عدد المسلمين في أوروبا يباغ حالياً ٣٥ مليوناً و ٣٠٧ ألف نسمة تقريباً وأن عدد المسلمين بالدول الأوروبية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و ٩٣٠ ألف نسمة بنسبة ١٨٧ في المائة من عدد السكان أما عدد المسلمين بالدول الأوروبية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليوناً و ٢٧٧ ألف نسمة أي بنسبة ١٨ ٪ من مجموع السكان ولا يدخل في هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفيتي . وهكذا نجد أن الإسلام الذي لفظته أوروبا من الأندلس ومن البلقان يعود سلماً ويصل إلى كل مكان ، ليس في أوروبا وحدها ولكن في الغرب كله . وفي أمريكا لا يطلع الصبح يوماً إلا على مسلم جديد وقد سقطت تلك القاعدة البالية التي كانت تقول في الغرب : إن على المسلمين أن يتهوا من أوروبا بالهجرة أو بالتعصير من ناحية الأندلس أو ناحية

البلقان . ويقول الأستاذ ابراهيم بولسكى : منذ هرفت أوروبا الاسلام ناصبته العداء وهرفت أن في وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهي مستعدة لأن تفهم الاسلام وتقبل وجوده بعد أن هرفت أنها تعتمد في وجودها الاقتصادى على الدول الاسلامية ، ولقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الاسلام كان شيئاً فى الماضى وانتهى ، وينتظرون بلمهة ذلك اليوم الذى سينتصر فيه الاسلام ، لقد كان الاسلام صاحب الجولة الأولى فى العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب حولة ثالثة بإذن الله ، أن من يعيش فى الغرب يستطيع أن يعيش انمحطاط المجتمع الغربى ومحو المجتمع الاسلامى والمسلمون فى غرب أوربا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعى لا يقاربه نظام وقيمون فاصلا بين الحياة فى ظل الاسلام وبين الحياة فى ظل الاسلام وبين الحياة فى ظل فوضى الغرب وتفسخه وتشير الأبحاث الاقتصادية الغربية إلى أن العرب فى طريقهم إلى حدث جديد فى حياتهم وهى الثروة والطاقة التى سوف تمكنهم من التنمية ومن مواجهة الأخطار وإمكانيات القوة والثراء ، ونضيف إلى هذا أن الفكر الغربى قد انبثق هن تيار جديد يريد أن يفهم الاسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصالح البشرية وأن الغرب لن يجد المجتمع السليم إلا إذا اعتنق « أسلوب العيش الاسلامى » وقد ورد كثير من هذا المعنى من بينهم « برناردشو » وغيره وهناك من أشار إلى أن الاسلام وحده هو القادر على حل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة وهناك من يرى أن الغرب حامل بالاسلام وسوف يلد قريبا .

ويكتب « مونجرى وات » فى جريدة التيمس تحت عنوان .

### « الاسلام قوة فى انتظار كلمة »

أشار فيها إلى الاسلام الذى ينطلق الآن وينتظر زهامة إسلامية عملاقة تنسلح بتعاليم الاسلام الخالصة ، فإذا قدر لهذه القيادة أن تظهر فسيصبح الاسلام أحد القوى الأساسية الكبرى فى العالم ويؤكد ما ذهب إليه مششرق آخر هو ( هاملتون جب ) باحتمال ظهور الاسلام وإعادة بناء نفسه كقوة عالمية . ومن قبل قال لامارتين ، فى كتابه ( تاريخ تركيا : ) فى الاسلام قوة كاملة أصيلة تابعة من أن هذا الدين فهو وحده الذى استطاع أن يفى بمطالب البدن الروح معاً دون أن يعرض المسلم لأن يعيش فى هذاب الضمير الذى يعيش فيه الغربيون ، إن المسلمون بالقرآن وحده شئ يختلف هن الأديان الأخرى لأنه لا يعبد الأشخاص ولا ريب أن التوحيد والتنزيه هو موضع القوة فى الاسلام المؤمن . ويقول الأستاذ بريتون فى كتابه « الاسلام » : إن الاسلام يعطى كلا من العالمين — الدنيا

والآخـره — حقهما وفي وسع المسلم المعصرى أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح ولا يزال. والمسلمون يجتهدون اليوم لينبتوا أن الانسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى أرفع تعبيراتها فى شريعة الاسلام وأحكامه .

( ٥ )

واجه المسلمون الحروب الصليبية فى الشام ومصر وحروب الفرنجة فى الأندلس والمغرب وهرقوا فى العصر الحديث الاستعمار والصهيونية والشيوعية وهى قوى جبارة تواجه الاسلام والمسلمين وقد صمدوا لكل ذلك والنموا من مفاهيم الاسلام وإصلاحاته القوة على المواجهة والمرابطة فى سبيل كلمة الله وحماية هذا الكيان الذى تشكل باسم الله على الحق إلى العالمين . وسوف ينتصرون على الأخطار التى تواجههم اليوم ما استمسكوا بكتاب الله نبراساً وضياءاً وتطبيقاً فى حياتهم الاجتماعية ، وسوف يخرجون من الأزمة كما يخرج الذهب من النار أشد نضاعة وضياءاً ، ولعل هذه الدراسة تكشف لهم عن عامل الصمود والقوة الفادرة على دحر أعدائهم وغزواتهم واقتعاد مكانهم الحق فى هذا السكواكب ، هذا العامل الأصيل الوحيد هو لن يكون القرآن منطلق حياتهم وقانون مجتمعهم وإطار وجودهم كله والله من وراء القصد .

( ١ )

## الاسلام يقتحم أوروبا من جبهتي الأندلس والبلقان

### ١ — الموجة الأولى على جبهة بيزنطة

كانت رسائل النبي ﷺ إلى الملوك بعد صلح الحديبية الذى عقده مع قريش علامة على دخول الدعوة الاسلامية فى مرحلتها العالمية تأكيذاً لطبيعتها التى كشفت عنها منذ إنشائها : « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » . وجهت هذه الرسائل إلى هرقل بصرى لروم وإلى الموقس حاكم مصر وإلى الخارث الساساني وإلى كسرى الفرس وإلى نجاشى الحبشة: حملها اليهم سفراء من الدولة الاسلامية فى المدينة نذيراً وإبلاغاً وعلامة على طريق الدعوة الاسلامية . وفى خلال السنوات الباقية من حياة الرسول وقبل النعاقه بالرفيق الأعلى تنامت الحركة العسكرية على حلق الزجاجة : ذلك الطريق الخطير

بين الجزيرة والروم والذي كان يفزع منه العرب من قبل في صيحتهم المشهورة: «هل جاء الروم» أنفذ النبي ثلاث حملات: الأولى عام ٦٢٩م مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى حدود الروم لنحازوا إلى قرية مؤتة وقد وصفت بأنها حملة ذات طابع استطلاعي كقصد هذه الوجهة وقد أرسل لهم هرقل مائة ألف مقاتل في بعض الاقوال وفي هذه المعركة قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب واستطاع خالد بن الوليد أن يعود بالجيش وفي عام ٦٣٠م خرج الرسول بنفسه إلى حدود الروم في غزوة تبوك حيث صالح أهل حراء وأذرح ومضا . وصالح يوحنا ابن روثبة صاحب أيلة في خليج العقبة وكتب له عهداً بأن أهل أيلة لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ودفع يوحنا مقابل ذلك ثلاث مئة دينار جزية يدفعها كل عام وعاد النبي إلى المدينة بعد أن أقام في تبوك أسبوعين وفي عام ٦٣٢م أعد النبي جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، بقيادة أسامة بن زيد الذي غط أبوه في معركة مؤتة وقد لحق النبي بالرفيق الأعلى ورأى أسامة منصوبة أمام المسجد ، وتحرك الجيش بعد وفاة النبي فغزاً ووصل إلى أيلة ( العقبة ) وجبال الترك وسلم وغنم وعاد في أربعين يوماً ، ونهض في السنة نفسها خالد بن سعيد إلى بلاد الروم وأوغل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق وعاد إلى المدينة : كل هذا كان أرهاصاً بالرجة والهدف والمنطلق .

وفي خطاب الرسول إلى هرقل قيصر الروم : قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ( أسلمت لم يؤتلك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك أثم الاريسيين . وقد فسرت عبارة ( الاريسيين ) بأنهم أتباع أريوس الذي رفض تأليه الرسول هبسى ودخل معركة حامية مع الدولة الرومانية من أجل هذا المعتقد وقد عاش الاريسيون مصطهدوزوم مصروف على عقيدتهم تيوارثونها حتى مجيء بعثة الرسول ﷺ . والدولة البيزنطية هي الدولة الأوروبية الآسيوية التي اصطدمت بالفنوح الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، كانت تسيطر على أغاب شواطئ البحر المتوسط وجزره وخاصة بها بيزانطة أو القسطنطينية وتشمل أملاكها الممتدة على سواحل البحر الشمالية شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها وآسيا الصغرى ومن الشرق تتبعها سوريا وفلسطين ومن الجنوب مصر وشمال أفريقيا ومنذ ذلك الوقت نشأ ما يسمى بالجهة البيزنطية . نشأت بعد فنوح الشام وميطرة المسلمين على الجزيرة العربية التي كانت خاضعة لدولة الروم بينما تقلص النفوذ البيزنطي إلى الشمال وأحمر من الشام والعراق وكان أهلها قد خضعوا للروم وقاسوا الدل من نظام القيصرية ولذلك فقد رحبوا بالفنوح الإسلامي الذي خلصهم من العبودية . غير أن الروم ماكدوا يرون الدولة الأموية تنشغل ببعض الأمور حتى أخذوا في مهاجمة الساحل السوري ، ولكن سرعان ما قطع عليهم معاوية خط الرجعة



فنزاً صقلية عام ٩٦٩ وبدأت طلائع جيش المسلمين تصل إلى القسطنطينية عام ٩٧٤ لمهاجمة عاصمة الروم من البحر وتوالى الحصار في الربيع والخريف وسمى بعد ذلك بالشوأنى والاصوائف ، واستمر أوبع سنوات موائية مما اضطر الروم إلى توقيع صلح مع المسلمين مدته ثلاثون عاماً ، غير أنه لم يلبث إلا قليلاً حتى زحفت جيوش الروم عام ٩٨٣ عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجالت العرب عن مرعش ٩٨٣ ومازال الروم ينقضون العهد ، وعندما أرسل عبد الملك دنانيره الأولى ٩٩٢ وعليها الآية الكريمة : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، رفض الامبراطور قبول الدنانير ونحرك فى جيش لجب إلى الحدود الإسلامية حيث اصطدم مع جيش المسلمين ٩٩٣ وخسر الروم أرمينية وعاد المسلمون إلى الاصوائف ككرة أخرى .

ولما اضطربت الأمور بعد وفاة الرشيد احتبل البيزنطيون الفرصة حيث شجعوا طائفة الخرمية اتباع بابك الخارجين على الخلافة العباسية ، فلما جاء المأمون عمه إلى مواجهة الخطر البيزنطى ، فهاجم الجزء الشرقى من آسيا الصغرى وأستولى على بعض الحصون وأثار جو هاصفاً من المقاومة اضطر الامبراطور البيزنطى إلى طلب الصلح ، وتوفى المأمون ( ٢١٨ / ٨٣٣ م ) أثناء حروبه لغزو الروم ولما آلت الخلافة إلى المعتصم بعد وفاة أخيه المأمون حاول الامبراطور البيزنطى الاتصال ببابك الخرمى لمعاونته فى ثورته على الخلافة العباسية ، وأرسل بابك يحرض الامبراطور على غزو الدولة الإسلامية فزحف البيزنطيون إلى بلاد أرمينية ثم أغاروا على حصن ( زبارة ) وخرّبوا المدينة تخريباً تاماً ، هددت دول المعتصم على أن يفعل بممورية ما فعله الرومان ببطره . وكانت عمورية تعتبر مفتاح القسطنطينية فخرج المعتصم فى ثلاثة جيوش هربهم طرطوس واقتحم بهم أبواب قليقلية وكان هو على رأس جيش فى ٣٠ ألفاً ( عام ٨٣٧ ) فوصل عمورية بعد سبعة أيام ولم تلبث قواته بعد أن حاصرتها لثني عشر يوماً أن اقتحمت المدينة وأدالت منها وهى المعركة التى قال فيها أبو تمام قصيدته المشهورة . « السيف أصدق إنباء من السكتب » . كذلك جهز المعتصم أسطولاً لغزو القسطنطينية فى أربعمائة سفينة .

ثم جاءت تلك المرحلة الذهبية : حينما أسس سيف الدولة مملكته فى حلب عام ٨٣٩٧ والى دامت إلى ٩٠٠٣ م فقد امتشق سيف الدولة حسام الإسلام فى وجه الروم إن أن توفى ٩٦٧ حيث تحول القتال الرئيسى بين الروم والمسلمين من جهة أرمينية إلى خط قتال جديد امتد من قليقلية إلى ديار بكر ، وكانت الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة مجهولة على الفرات فوق سمساط . وظلت المارك متصلة ، وكما وجد الروم من أحوال الدولة الإسلامية ضعفاً أو تفككاً حاولوا اقتحام الحدود

الإسلامية والاندفاع في أرض الشام ، بل أن بعضهم وصل إلى دمشق وطبرية حتى حاء ذلك النصر الحاسم الذى حققه المسلمون في ( ملاذكرد ) عام ١٠٧١م حيث استقر المسلمون في أرمينيا نهائيا ، وتطلّعوا إلى الرها وانطاكية . وكان أرسلان قد استولى على آنى الأرمينية عام ١٠٦٣ ودخلت جيوشه بلاد الروم من الشرق والجنوب عام ١٦٠٧ فاحتلت قليقلية وقيصريّة . ومنذ [ ملاذكرد ] دخل المسلمون آسيا الصغرى واستقروا فيها وكان ذلك مقدمة لفتح القسطنطينية من بعد . وكما كانت ملاذكرد مقدمة للحروب الصليبية ، فقد كانت أوروبا ترى في الدول البيزنطية السياج الحاجز الذى يحول بين الإسلام وبين اقتحام أوروبا فلما هزمت الروم في هذه المعركة الفاصلة ، كان ذلك إيذانا بالتماس أسلوب آخر في مقاومة الإسلام .

## ( ٢ )

### الجولة الثانية على جبهة الاندلس

حاصر المسلمون أوروبا من ناحية القسطنطينية وارتدوا عنها ، ولم يتوقف بعد ذلك الصراع بين أوروبا وبين الدول الإسلامية على حدود الشمال ، ثم افتحم المسلمون من أوروبا من المغرب ، حيث أخذت طلائع الزحف الإسلامى تعبر مضيق جبل طارق إلى أوروبا إلى شبه جزيرة أيبيريا التى سرعان ما استسلمت للقوة الإسلامية التى سيطرت على أغلب أجزاء الأندلس إلا من جيوب قليلة كانت مصدر اللانقراض من بعد على الدولة الإسلامية . دخل المسلمون أوروبا عام ٩٢ هجرية ( ٧١٠م ) وفتح الفتح بوسع نطاقه حتى توقف ثمة بمعركة بلاط الشهداء ١١٤ هجرية ( ٧٣٢م ) ولكن لم يلبث أن امتد بصورة أو أخرى على شواطئ فرنسا وموانئ إيطاليا دون أن يحقق السيادة على أوروبا . ولم تكن معركة بلاط الشهداء ( تور وبواتية ) التى انتصر منها كارل مارتل في تقدير المؤرخين والباحثين على بعد إلا بمثابة تعويق للخطوة الحاسمة التى خطاها الإسلام لتحضير أوروبا وهما بدا في في أول الأمر من أنها عمل قويم في مدافعة العرب الزاحفين غير أنه النظرة المنصفة قد كشفت عن أن ذلك العمل قد أوقف سعى الحضارة ، شهد بذلك : كلورد فارير ومارك ستنوف وجيس يريسيه وهنرى دى شامبون وهم من مختلف الأجناس الأوروبية . يقول كلود فارير : لقد أناخت على الانسانية بعد التسعمائة للميلاد كارثة املها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ففي ٧٣٣م حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الانفجائات التى انقضت على الانسانية في القرون الوسطى وكان أن غمرت العالم الغربى مدة سبعة قرون أو ثمانية ، هذه هى معركة بواتية : برابرة الحاربيين من الأفرنج بقيادة شارل مارتل ،

تخبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية ، قبل أن تظهر النهضة : هذه السكارة هي النصر المائل الذي أحرزته في بواتيه جماعات المركاس المتوحشين يقودها شارل مارتل على فرق من الغرب ، في مثل هذا اليوم للشثوم تقمقرت أوروبا ثمانمائة سنة ، وكان يمكن أن تصل إليه فرنسا لو أن الاسلام النشيط الحسم المازق الرحب المتسامح — إذ أن الاسلام هو هذا كله — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فطائع لأتجد لها إسما .

ويقول جيمس برستد : إن النصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوروبا ، وإن انخزال المسلمين في أسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية . ويقول مارل ممنوف لو لم يوقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم ١١٠ هـ فإن الشقافة العالية التي امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيون بالسكفار والوثنيين إحتقاراً لهم كانت أثرت قبل الوقت في أوروبا الغربية وفي المدينة الأفريقية الرومانية .

ويقول هنري دى شامبون : لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجى على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت من وصمة محاكم التفتيش ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية الإنسانية ثمانية قرون .

ولقد أقام الاسلام في أسبانيا ( الأندلس ) دولة باذخة ودخل الاسبانليون في دين الله أفوجاً ، وأعند الاسلام من عام ٩٢ هجرية إلى سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ ، وفي خلال هذه القرون الثمانية واجهت الاسلام والمسلمون حرباً لم تنوقف ثم تجمعت للقوى الأوروبية كلها لتعمل على تدمير هذا السكيان السامق الذي حمل لواء الحضارة والعلم إلى القارة الأوروبية .

أما أن الأندلس الإسلامية هي التي قدمت إلى أوروبا الحضارة والعلم فذلك أمر لم يعد مجال الاختلاف الآن . فقد صدرت عشرات الكتب الأوريبية المنصفة التي قدرت هذا الفضل الذي ظل منكورا فترة طويلة ، فقد حمل المسلمون من أقصى الأرض إلى أقصاها علومهم وخبرتهم وتجربتهم فكانت جامعات الأندلس تحمل خلاصات العلم في أرقى مراحلها ، ولذلك فإن مؤامرة اقتطاعها وأخراج أهلها المسلمين منها والسيطرة على هذا الميراث الضخم كان بمثابة أضخم مؤامرة على الاسلام والمسلمين . فقد تجمعت أوروبا البابوية بكل قوتها لتسحق هذا السكيان الاسلامي التي بلغ أرقى درجات المدنية والذي كان مناراً للغرب كله حيث لم تستطع عوامم فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو إيطاليا أن

ثصل إلى مثل ذلك القدر من الرق الحضارى أو العلمى حينما كانت الأندلس مؤمل العلماء والباحثين من كل أطراف أوربا .

لقد كان فتح أسبانيا مقدمة لتحضير أوربا كلها والوصول إلى دمشق عن طريق روما فالقسطنطينية وكانت فسكره موسى بن نصير أن يعبر - بعد السيطرة على الأندلس جبال البرانس - إلى فرنسا (أرض غاليا) ومنها يسير شرقا إلى فتح روما ثم إلى فتح القسطنطينية ، وظلت هذه الفسكره ماثلة فى نفوس خلفاء موسى بن نصير: السمج بن مالك الخولافى الذى غزا ولاية سبتامية التى تطل على البحر للتوسط جنوب فرنسا ، فقد هجر جبال البرانس ونزل أرض غاليا ( فرنسا ) كما يحدثنا محمد عبد الله هناك من معطفا نحو الغرب حيث مجرى نهر الحارون . حتى وصل إلى ( طولوشا ) فحاصرها واستولى عليها ، وجاء من بعد عتبسة بن سليم السكبي الذى سار على الساحل حتى وصل إلى نهر الرن ففتح بذلك إقليم بروفانس واستمر فى السير على النهر شمالا مستوليا على ليون حتى وصل ( أوتان ) فى أهالى نهر الرن ثم جاء العافقى الذى أعلن الجهاد فى سبيل الله فى الأندلس وفى أفريقيا ، فجهاده المتطوعون من كل مكان حتى تجمع لديه جيش كبير هجر به جبال البرنيه إلى أوبونه ثم إلى مجرى الحارون وواصل الزحف حتى وصل بورو عند مصب النهر ثم اندفع شمالا فى السهل الواسع الذى يحده نهر الوار وجنوبا نهر الحارون ، هنالك أحست أوربا أن الزحف الإسلامى كاد أن يحقق إنطلاقته الحقة ، ومن ثم تجمعت التجهذات بقيادة شارل مارتل فى معركة تور وبوتيه المشاه ( بلاط الشهداء ) وكان المسلمون قد وصلوا إلى مسافة سبعين كيلوا مترا من باريس : قال جيبون : لو انتصر العرب فى تور وبوتيه لكان القرآن يتلى ويفسر اليوم فى كسفورد وكبردج . ولم يتوقف المسلمون بعد هزيمة بلاط الشهداء ١١٤ هـ الموافق ٧٣٢ م ولسكنهم حاولوا مرة بعد مرة ، وعاد شارل مارتل مرة أخرى فطاردهم إلى حدود سبتانة وانتزع منهم إقليم بروفانس ، أما سبتاية فقد انتزها منهم شارلمان وبذلك لم يبق للعرب من أملاك فما رواء جبال البرانس .

وفى ذلك الوقت استولى المسلمون على سقلية عام ٨٢٧ م وحزر البليار ٩٠٢ م وقورسيقه وسردينية وأمنوا شرق البحر للتوسط وسيطروا عليه .

ومن ثم شهد البحر الأبيض نشاطا بحريا إسلاميا فى المياه الايطالية وجنوب فرنسا حيث هاجروا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخلوا سويسرا ، واستولوا على أريس ثم فتحوا افينون واتحكموا وادى نهر الرن حتى ليون وهاجروا إقليم روما وتابولى وأغاروا على نيس وفى خلال أربعين عاما

كانت بضمتهم واضحة في مختلف هذه المناطق الساحلية وقد ظل جنوب إيطاليا بأيدي المسلمين الذين أقاموا في أماره باري حتى عام ٨٨٦ م . وتيجول الأسطول الاسلامي من خليج نابولي إلى خليج سالرنو ، هذه الجولة على البحر المتوسط من ( ٦٥٢ إلى ٩١٦ ) م يصورها ول ديورانت يقول : أدرك زعماء الاسلام بعد فتح الشام ، مصر أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول وسر هائل ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العماثر البيزنطية ثم احتلوا قورسة وسردينيا واقريطش ( كريت ومالطة ) وبدأ عام ٧٨٢ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية فأرسل الأغالبه أمراء القيروان الحملة فلو الحملة وتقدموا إلى فتحها فسقطت الروم وممسينا وسرقوسة وتارمينيا ، وأصبح للمسلمين السيادة على البحر المتوسط ( ٦٥٢ إلى ٩١٦ ) وأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة في جنوبي شرق إيطاليا حيث شرعت أساطيل المسلمين ومعظمها من تونس وصقلية تهاجم النفور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي فاستولى المسلمون عام ٨٤٩ على ( باري ) القاعده البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا ، وفي العام التالي انتفضوا انتفضاً سريعاً على إيطاليا وفي عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتين من المسلمين في استيا وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار روما وبذل العرب ٧٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على العاصمة المسيحية في الغرب فقاتلهم الأسطول الإيطالي المنحد وهزمهم ، ولكن غارتهم لم تنقطع وظلت إيطاليا الوسطى في أيديهم جيلا من الزمان فأغاروا ٨٧٦ وهدموا واضطر البابا أن يؤدي لهم جزية سنوية ٢٥ ألف منقوص : حتى هرم العرب على نهر كرجليانو عام ٩١٦ وانتهى بذلك عصر الفتوح الاسلامية في إيطاليا وهو العهد الذي دام مائة عام كادت فيها أن تصبح ملكا للعرب ولو أن روما سقطت في قبضتهم لزحفوا على البندقية ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان اسلاميتان عظيمتان وبعد فقد كان مسرح الحوادث خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر الاسلام حافلا بالأحداث فإننا نجد أن الحكم الاسلامي قد استقر في الأندلس ، بينما كانت جهة البحر المتوسط تواجه هذا الصراع الشديد ، وقد مضى الاسلام يسيطر على أطراف الدول الرومانية وإن لم يتمكن بعد من الوصول إلى القسطنطينية حتى جاء القرن الخامس الهجري الحافل بثلاث من أعظم الأحداث حيث بدأت النفرة الأندلسية تنسجم فتنهط قرطبة في أيدي المرينج ، وحيث جاءت ملاذ كرد هامة لآخر حصون الدول البيزنطية ومقدمه لها وقع بعد عشرين سنة من تحريك جموع بطرس الناسك إلى عالم الاسلام .

(٣)

## أوروبا قبل اقتحام الإسلام لها

كانت أوروبا في أول أمرها وثنية وكانت اليونان موئل الفلسفة الهيلينية قبل للمسيحية بستة قرون هذه الفلسفة التي برزت في عصور موابية وتبلورت في رجالها الثلاث : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان هذا الفكر كله من نتاج المشرق ثم تشكل بصورة جديدة في أرض يونان ولم يكن هذا الفكر بعيداً عن مبادئ النبوة وتراث الأديان الخنيفية منذ دين إبراهيم وما عرفت بابل واليهودية وتراث المجوسية : ذلك الزكام المضطرب الذي اختلط فيه وحى السماء بالفكر البشرى. وقد ورثت الدولة الرومانية هذا الفكر اليونانى الملبى الذي هو تراث أوروبا الذى مازال ممتداً خلال الامبراطورية الرومانية والذي جذبه أوروبا في عصر النهضة وعبرت عن أنها امتداد له وما تزال تؤمن بذلك حتى اليوم ، هذا التراث الذى يقوم على الوثنية وعبادة الفرد قامت عليه الحضارة الرومانية التى عمرت أكثر من ألف عام التى سيطرت على سواحل البحر الأبيض وكانت الشام ومصر بلاد المغرب كلها تحت سلطان الرومان ، وقد ضمت الامبراطورية الرومانية جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور ترجان ٩٨ - ١١٧ بعد الميلاد فقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غرباً حتى الفرات شرقاً فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغالبا وليبيريا وإيطاليا فضلاً عن شمال أفريقيا من المحيط الأطلسى حتى طرابلس وشمل الجزء الشرقى من الامبراطورية : البلقان وآسيا الصغرى وأعلى بلاد النهرين فضلاً عن الشام ومصر وبقية . وقد امتد نفوذها الفكرى إلى ما وراء حدودها السياسية واستوعبت شعوباً عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونان .

وقد عاشت الامبراطورية الرومانية حتى عام ٤٧٦ بعد المسيح وقاومت المسيحية طويلاً بعد ظهورها حتى اعتنقها ديناً رسمياً للدولة عام ٣٢٥ بزعامة قسطنطين الذى وضع حداً للاضطهاد الذى عانته المسيحية منذ هجرت إلى الدولة الرومانية . ولقد بدأت أوروبا تدخل المسيحية بعد هذا التاريخ واستمرت حركة التنصر خلال القرون الثالث والرابع والخامس والسادس حتى ظهر الإسلام وعبر إلى الأندلس وفي الوقت الذى كانت أسبانيا تدخل في الإسلام كانت هناك أجزاء من أوروبا مازال تدخل في المسيحية ، فقد بقيت أمة شرق أوروبا إلى القرن العاشر حتى تنصرت . يقول توينبي : أن الأمم الأوروبية تنصرت في القرن الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها طوال

عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الاسلام بمعتقديه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الأول للهجرة فلم يكن الاسلام سبب تأخر المسلمين ولم تسكن المسيحية سبب تقدم أوروبا فقد كانت الأمم الأوربية مثل الاغريق والرومان من أرقى أمم الأرض قبل اعتناق المسيحية . ولقد هاشت الامبراطورية الرومانية ثلاثة عشر قرناً حتى استولى القوط الغربيون عليها عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم البيروليون الذين قوضوا أركان الامبراطورية الرومانية ها ٤٧٦ . ولقد كان دخول المسيحية إلى أوروبا بعد عبورها من المشرق مقدمة مرحلة جد خطيرة من تاريخها ، لقد اضطرت أن تنصهر في إطار الدولة الرومانية ولم تستطع أن تنشئ مجتمعا جديداً ، واضطرت أن تقبل من أديان الوثنية وعقائدها ما يمكنها من البقاء حتى صدق عنها قول توينبي : أنها كانت تركيباً متألفاً جسوراً للاهوت اليهودي والفلسفة الاغريقية .

ثم كان « الفكر الغربي » بعد دخول المسيحية ، تركيباً من الفلسفة اليونانية والقانون الروماني واللاهوت المسيحي ولكن الأمر الذي هو موضع التقدير : أن المسيحية نقلت أوروبا من الوثنية ومن اليهودية ومن الاستعلاء والظلم والقتل والقسوة - فترة من الزمن - إلى معرفة الله وإلى الرحمة وإلى السباحة غير أن هذا التحول لم يلبث أن تطور إلى طابع من طوابع الزهد والاهتساف في الصوامع والرهبانية والانصراف عن الحياة والعزلة عن الحركة على نحو فلسفي قاس يكره المرأة ويحتقرها ويرفض العمل والاتصال بالناس ، وقد ظل هذا الطابع يحكم الغرب حتى عبر الاسلام إليها فألقى إلى الفكر الغربي مفاهيم المسئولية الفردية والعمل والتجريب والتحرر من الوساطة بين الله والانسان ورفض صكوك الغفران وعبادة العصور .

ولاريب أن هذا التحول من الوثنية اليونانية إلى اللاهوت المسيحي ، كان خطوة واسعة وعميقة نحو التحول الخطير الذي أحدثه الاسلام الذي قبلت أوروبا فكره ونتاجه وتحفظت إزاء عقيدته هذا الأمر الذي كان بعيد الأثر في نشوء الحضارة الغربية الحديثة التي قامت أساساً على التجريب الاندمازي ولذلك فإن رأى جيبون لم يكن يمثل النظرة المنصفّة أو الصادقة .

وإنما يمثل النظرة المتعصبة ، حين يقول أن المسيحية كانت المول المدام لسكانة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية «للامبراطورية الرومانية» وأن اعتناق قسطنطين للمسيحية قد عجل بالخطاات الامبراطورية وإن كان قد اعترف بعد بان دين قسطنطين المنفصر قد عمل على تهذيب وحشية الفاتحين . ولاريب أن أن المسيحية كانت هاملاً هاماً في تهذيب شعوب أوروبا وكانت قاضية على قدسية

الامبراطور ، وطريقاً إلى زلزلة عرش العبودية والنظام العبودي غير أن المسيحية لم تستطع أن تحرر المجتمع الأوروبي تحريراً كاملاً لأن الصورة التي نقلت بها إلى الغرب لم تكن صادقة أو سليمة ، وإنما كانت خاضعة لتفسيرات لم تستوعب حقيقة الدين المنزل ، فضلاً عن سيطرة مفاهيم الأديان الوثنية الموجودة في البيئة الرومانية بعد تسربها إليها وقبول الدعاة لها رغبة في كسب الجماهير الوثنية بتقديم مفهوم قريب من اعتقاداتهم ولو أن المسيحية المنزلة عبرت إلى أوروبا صحيحة لسكانت تمهيداً طبيعياً لاعتناق أوروبا للإسلام : عقيدة ونظاماً .

يقول جيون : أن تعاليم المسيحية ( التي يرى أنها كانت عاملاً على سقوط الأمبراطورية الرومانية ) كانت مشبعة للمم الاقتصادية بدعوتها إلى الكفاف أو الرزق اليومي في أبسط أشكاله ، ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات ، والحق أن هذه المفاهيم من الكفاف والرهانية لم تكن من أصول المسيحية المنزلة فضلاً عن هذا التطاحن الذي لم يكن من أصول الدين : أي دين . وهناك إجماع على أن الفضل يرجع للمسيحية في تهذيب بربرية أوروبا .

والحق أن أوروبا قد عاشت صراها شديداً بين الامبراطورية الرومانية والفكر الهليني من جهة وبين المسيحية من جهة أخرى ويقدم لنا ( ول ديورانت ) هذه الصورة لهذه المرحلة :

« إن إدخال المسيحية أو على الأقل إساءة إستعمالها كان له بعض التأثير في انخراط الدولة الرومانية وسقوطها ، فقد نجح رجال الاكليروس في التبشير بأنها تدعو إلى الصبر وإيثار الجبن والواقع أنها لم تشجع الفضائل التي تبعث على النشاط في المجتمع ، ودفعت بقايا الروح الحسرية في الأديرة وإلى جانب كبير من الثروة العامة والخاصة التي أوقفت لمطابخ البر والورع المموهة وكانت رواتب الجنود توزع في إمراف على جماهير من الرجال والنساء لآخر فيهم وليس في استطاعتهم سوى أن يشربوا بمزايا الزهد والتشف وفضائل العفة والطهارة والإيمان والحساسة والفضول ، وكذلك فإن نوازع الحقد والضغينة أشعلت نيران الخلاف اللاهوتي وشغلت الكنيسة بل الدولة باخلافات الدينية التي كان النزاع حولها في بعض الأحيان دموياً ودائماً لا نهياً حدثه . لا ريب أن أوروبا سقطت خلال هذه الفترة في مرحلة الزهادة والأديرة ، التي كانت بعيدة الأثر في جمود المجتمع الغربي ونساده حتى جاء الإسلام فخر أوروبا من هذا التحدي الخطير . أما الأمبراطورية الرومانية فإنها سقطت بعامل التحلل والتفرد وبواث الرخاوة والتخلف التي كانت السبب المباشر الذي أهجر أهل روما عن صد غارات القبائل الهمجية على حدود دوائهم كما يعبر عن ذلك المؤرخ جيبون حين يقول :



إن التعرف والتخنيث الذى تبعه هما سبب سقوط الأمبراطورية ، وذلك أن الفساد الذى نشأ فى البلاط وشاع فى المدن نقت السموم فى معسكرات الفياتلى مما أوجد هدم القدرة على الثبات فى مواجهة الشدائد التى أصابت الفياتلى الرومانية التى كان تفشى التعرف فيها هو السبب المباشر فى تدهور الأمبراطورية وسقوطها . هذا بالإضافة إلى فقدان العدالة فى توزيع الضرائب الضيق الذى عاناه الشعب من جراء قسوة الأغنياء والمياسير ، والإمراء . أن هذه هى علامات سقوط الأمم والحضارات ولكن المسيحية — التى تحولت إلى دين عالمى لم يكن ذلك من خصائصه — هجرت عن إعطاء أوروبا مفهوما كاملا سواء فى العقيدة أو العلم أو المعرفة لأنها كانت فى أصلها الأصيل ديناً مكملاً لرسالة موسى وخصوصاً بنى اسرائيل ، وهى بالجانب الأخلاقى فيها — وحدة — استطاعت أن تعلم القبائل الهمجية العدالة والرحمة والصدق والعدالة على حد قول جيبون ، ولكنها هجرت أن تحصل دون سقوط أوروبا فى هذه الزهادة والرهبانية والإقامة فى الأديرة واحتزال الحياة وقد امتدت هذه الفترة حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ولم يخرج أوروبا من هذه التجربة الخطيرة إلا الإسلام الذى آذن بدهوته إلى تحرير إرادة الفرد ، والدهوة إلى العمل ، والتجريب الذى كان الإسلام رائد منهجه إلى البشرية كلها .

ولقد كان سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب عام ٤٨٦ م مقدمة لسيطرة المسيحية ، التى لم تلبث أن أقامت فى روما كنيسة الكاثوليكية الكبرى التى حكمت أوروبا حتى عصر النهضة وكانت حاملة لواء الحرب العنيفة المقدسة التى شنتها على الإسلام فى جناحيها الأول ممتداً إلى الأندلس لاجلاء الإسلام منها ، والثانى للمحتد إلى الشام بالفتو الذى قاده الحروب الصليبية مدى قرنين كاملين . فقد كانت البابوية الرومية هى التى تحمل لواء هذه المعركة الممتدة شرق البحر المتوسط وغربه .

لقد انتقلت القيادة من قصور الأباطرة السياسية إلى أروقة اللاتران ( الكنيسة ) إذ غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية فى إيطاليا ، كما سيطرت الكنيسة على مختلف نواحي الثقافة مما كان له أهمق الأثر فى حياة المجتمع الأوروبى ، ومن ثم بدأ بدأت مرحلة ( العصور الوسطى ) المظلمة فى غرب أوروبا وقد حددها المؤرخون بالفترة الواقعة بين ذلك العام ( ٤٨٦ م ) وبين نهاية القرن التاسع الميلادى ومطالم القرن العاشر .

وقد أخذت المسيحية تشق طريقها فى العالم الهلبنى لتقيم نظاماً اجتماعياً ونفسياً مخالفاً لما كانت عليه الحضارة الهلنيزية والرومانية : كانت الديانة الهلنيزية تؤمن بتعدد الإلهية فإذا بالمسيحية تدهو إلى

فكرة جديدة قوامها التليث والخطيئة والصلب التي ستكون بعد من أكبر التحديدات في وجه الفكر الأوربي ، يقول توبيقي : أنه بالرغم من أن للمسيحية قد اكتسبت الهلينية سعراً طاهياً كان كفيلاً بأن يأسر النفوس الهلينية ، فإنه لم يكن في وسع المسيحية ذاتها بعد حملة تشق طريقها في العالم لو لم تتخذ لنفسها « ثياباً هلينية » مثلما فعلت الديانات التي قصدت لمنافستها ، وهذا اعتراف من المؤرخ الكبير بأن المسيحية اعتمدت تفسيرات من خارج أصولها الأولى .

ومن الحق أن هذه الأفكار الثلاثة التي بثتها المسيحية الغربية وهي [ التثليث والخطيئة والصلب ] كانت تحمل بها الأديان البشرية العديدة التي تملأ العالم إذ ذاك وخاصة الديانة الهندوكية والديانة المندية التي كانت تعيش في قلب أوروبا . كانت اليهودية قد تأثرت بالديانات البشرية البابلية وغير كما تأثرت المسيحية بالهلينية وسيطرت عليها الفلسفة اليونانية مما تشكل بعد من خليط عجيب باسم ( الأفلاطونية الحديثة ) التي شارك فيها اليهود والمسيحيون متأثرين بأرسطو وأفلاطون . ولعل الأمر الوحيد الذي استطاعت المسيحية أن تحول أوروبا عنه هو فكرة عبادة القديس ، وكان الهلينيون يؤلهونه : أما المسيحية فقد أقنعت الهلينيون أنه ليس في استطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويفلت من القصاص ويسكن المسيحية لم تستطع أن تتحرر تماماً من عبادة الإنسان حين أقامت قاعدة التثليث وجعلت للسيد المسيح رسول الله الإنسان جانباً الهياً يعبد .

وقد ظل طابع الفكر الهليني مسيطراً على المسيحية التي حاولت التمايش مع مجتمع الحضارة الرومانية ولذلك فإن أوروبا لم تنقل نقلة واسعة بعد أن سمحت لأن القانون الروماني ومفاهيم الثقافة والاجتماع الهلينية ظلت مسيطرة ، لقد صارت المسيحية الوثنية ثلاثمائة سنة تقريباً حتى استقرت وسكنها لم تسكن إلا مفهوماً مغايراً للمسيحية وخليطاً مضطرباً ، لم يستطع أن يقضى على الوثنية أو العبودية الرومانية قضاءً نهائياً ومن ثم لم تعد المسيحية إلا عنصراً من عناصر ثلاث ، وقد عاشت المسيحية مرحلة مضطربة قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام وهجر إلى أوروبا من الشرق ومن الغرب وآثار تأثيرات كثيرة في نفس الوقت الذي كانت أوروبا تمتشق الحسام لتحول بين الإسلام وبين السيطرة على الغرب كان الفكر الإسلامي يؤثر ويغير في أعماق أفكارها ومجتمعاتها فإنه ما كادت أمم الغرب المسيحية تستعيد طليطلة الاسلام عام ١٠٨٥م حتى أخذت تستوهب الفكر الاسلامي وتنصهر فيه فقد بدأت ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة القشتالية ومنها إلى الانجليزية والفرنسية واستمرت زهاء قرن كامل ، وهتبت بالدرجة الأولى بمؤلفات العرب في الطب والفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة،

وقد قامت هذه الحركة في طليطلة تحت إشراف الأسقف ( ريمون ) وجاءت وفود من روما ومنهم جيرا الكريونى الايطالى الذى لمع اسمه فى روما ١١٤٩م وبعد الأب الحقيقى للحركة العربية فى أوروبا فقد ترجم أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً وقد اشتهرت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية واللاتينية قائمة فى أسبانيا إلى أن سقطت غرناطة فى يد المسيحية عام ١٤٩٢ وبسقوطها طرد العرب نهائياً من أسبانيا وأرغم من بقى على التنصر وقد لقى التراث الإسلامى اضطهاداً بالغا من بعد أن حجزت كتب الطب والعلوم أضرمت النيران فى كتب المسلمين ولم يعد الغربيون يذكرون المسلمين بأى فضل أو أثر . وكان هذا التراث الإسلامى هو الذى هز أوروبا من أعماقها ودك معقل الوثنية الرومانية والرهبانية المسيحية وفتح الطريق تماماً أمام ما يسمى بعصر النهضة . يقول ول ديورانت : أحدثت هذه التراجم كلها فى أوروبا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر كما أحدثت تطورات خطيرة فى النحو وفقه اللغة ووسعت نطاق المناهج الدراسية وأسهمت بنصيب فى إنشاء الجامعات . وكان هجز المترجمين أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدى المعانى التى يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذى أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية فى اللغات الأوروبية ، هذا وقد أدخل المسلمون إلى أوروبا أخطر ثلاث ركائز كبرى للحضارة : (١) الجبر (٢) علامة الصفر (٣) النظام العشرى فى الحساب هذا إلى علوم الطب .

( ٤ )

## أوروبا فى الإسلام

وقفت أوروبا ممثلة فى الكنيسة المسيحية موقفاً صارماً عنيداً وركزت تركيزاً شديداً على مقاومة وجود الإسلام وذلك بالمقاومة والعدوان عن طريق الحدود بالميزنطية الإسلامية من ناحيه . والوجود الإسلامى فى أسبانيا وظلت أوروبا تحس بالآثر العميق الذى تركه استيلاء الإسلام على المناطق العربية التى سيطرت الدول الرومانية عليها أمداً طويلاً ، ثم ظلت أوروبا المسيحية تنظر بهتد إلى نمو الإسلام وتستشعر الخطر فى داخل الفكر الغربى نفسه ، يقول تويجى : « عندما كانت حضارة الغرب تنحدر إلى الهاوية فى القرن السابع المسيحى ظهرت الحضارة الإسلامية الفتية ، أصابت الغرب لوبة هستيرية لظهور هذا الخطر الجديد وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المسادة لا يتنفع فى دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية ، ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى قادتها البابوية ودهت إليها ملوك أوروبا لمؤازرتها فى مواجهة الإسلام وصدته عن أوروبا ،

أولا بالقضاء على وجوده في أسبانيا وفي نفس الوقت باقتحام حدوده من دولة بيزنطية كركة بعد أخرى، ثم بإعلان الحروب الصليبية. ولقد كانت البابوية من الناحية الرسمية هي التي تنطق بلسان الدين للمسيحي وكانت للكنائس والأديرة أملاك ضخمة واسعة، وكان عدد من الأساقفة ينحدرون من أسر النبلاء فسكان يديرون أملاك الكنائس على النمط الذي يدير به أمراء الإقطاع أقطاعاتهم. كان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جامعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم ويقسمون منه قطائع وكان أخطر رجال البابوية جريجوار السابع والبابا أرويان الثاني والأول دوره الخطير في تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوروبا على اختلاف أقطارها وكان لها آثارها البعيدة في حياة أسبانيا الإسلامية، أما الثاني فكان له الدور الأول في إنتقال الحروب الصليبية إلى شواطئ البحر المتوسط من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وهذا الدور وحده يمثل أصدق تمثيل النفوذ المسيحي للكنيسة داخل الحياة الأوروبية ذاتها. وقد كان للبابا جريجوار السابع الذي تولى البابوية ١٧٠٣ م نفوذه الخطير حتى قيل: إن انتصار البابوية قد تجاوز كل تصور، لقد بدت الكنيسة وكأنها الحاكمة بأمرها في الدنيا. ومن قبل جريجوار السابع كانت خطة حرب الإسلام في الأندلس قد تم إقرارها ففي عهد البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣ اندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة من النورمانديين إلى أسبانيا وانتزعوها (حصن بريشير) من أيدي المسلمين بعد مذبحة هائلة. أما جريجوار فقد تجاوز التمهيد إلى الدعوة الصريحة بوجهها للبابا نفسه إلى الأمراء يحضهم على المشاركة في الحرب للقعدة ويعلم مقدما سيادتهم على الأراضي التي يشترهونها من المسلمين وقد كان من ثمرة ذلك سقوط مدينة طليطلة (٦ مايو ١٠٨٥) بعد حصار هامين وهو الحدث الذي كان مقدمة لنصفية الأندلس: الفردوس الإسلامي. في القرن العاشر للمسيحي والإسلام ما يزال غضا لم يكمل العقد الخامس بعد، مدت أوروبا كلتا يديها بالعدوان على الإسلام في قرطبة بأرض الأندلس وفي الحروب الصليبية على جبهة للشرق ١٠٩٦. وقد تناول كثير من الباحثين موقف البابوية من مجتمع الغرب الأوربي حيث يقول مؤلف تراث المعصور الوسطى (كوب — جا كوب) أن البابوية بلغت أوج سلطانها في زمن البابا أنوسلت الثالث الروماني للعز برومانته المعروفة، الذي رفع شأن البابوية وسلطانها إلى أعلى هليين، إذ فرض الكنيسة الرومانية فرضا على القسطنطينية وكنيستها الأرثوذكسية وأنزل الحرمان الديني بأفجلترا وفرنسا وبدأ أعظم الحروب الصليبية الأسبانية نجاحا ضد دولة المسلمين وعمل على إثارة ملوك أوروبا لمساعدة الفونس الثامن ملك قشتالة في حملة صليبية أوربية ضد اللوحدين أصحاب أسبانيا الإسلامية، هذه الحملة الصليبية التي انتهت بهزيمة الموحدون

في موقعة لاس نافاس دى تولوز عام ١٢١٢ م وبذلك خضعت الملكية في أوروبا البابوية ، وحيث أصدر قراراً بحرمان البارونات من رحمة الكنيسة وأخذ يمين الأباطرة ويمزلم وفقاً لشروط ملائمة للكنيسة وقد وصفت بابوية أنوسنت الثالث بأنها ثيوقراطية استبدادية ، وذلك لاهتفاده العرفي بأن البابوية خليفة المسيح في الأرض وأن البابا ملك في الأرض وأن البابا ملك في أمور الدين والدنيا وله السلطة المطلقة في كل شيء ومن حقه أن يكون اختيار الأباطرة وفقاً على مشيئته . كذلك فإن البابوية أعلنت حرباً بمساعدة ملك فرنسا ضد إيطاليا وأسبانيا عام ١٢٨٤ هذه الحرب حرمتها عن مواصلة الحرب الصليبية في الأراضي المقدسة وأعاق مشروع تحالفها العسكري مع المغول للأطباقي على العالم الإسلامي من أجل تخليص الدولة الصليبية وقد كان لانشغال البابوية في معمة السياسة الأوربية المصارعة في إيطاليا أثر كبير في إتهيار الدولة الصليبية نهائياً ١٢٩١ وقال اللورد كونون أن البابوات في القرنين ١٣ ، ١٥ وصنعوا نظاماً للاضطهاد المنظم ، هذا الاضطهاد وهو أبرز الوقائع البابوية في العصر الوسيط وأنه لا يمكن تجاهل الشدة ووجود حجرة التعذيب والقائمة التي يشد إليها من يحرقونه . لقد اكتسبت أوروبا عنفها من ميراثها الروماني القديم الذي جاءت المسيحية لتزيله فسكات في نشرها المسيحية كذلك عنيفة مدمرة وكات في صراعها بين الفرق قاسية دموية ، فقد كان الملوك يسوقون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس إلى مذاهبهم بالقوة ، ونزوى في ذلك قصص هديدة منها ما حدث في فرنسا على يد البارون (سيمون رى مونفور) الذي توجه بأذن البابا على رأس لفيق من البارونات الفرنسية ومهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج روك لاستئصال الديانة الجوسيه فأحرقوا الإقليم كله في أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من الجوس ، أين هذا من سماحة الإسلام الذي لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، ويفسر هذا الاتجاه الأوربي بعد المسيحية ما ذهب إليه القاضى هيد الجبار حين قال : ما تنصر الروم ولكن النصارى تروموا ، إذ بدأت في روما نصرانية لا يعرفها السيد المسيح وهي التي تولد عنها من بعد صكوك القفران وكرسى الاعتراف ، أما بالنسبة للإسلام فقد كان الموقف هنيئاً . فنذ أن توحدت أوروبا أو انضمت جزء كبير منها تحت قيادة شارلمان عام ٨٠٠ ميلادية أهدت أوروبا لتسكون قلعة صليبية تمنع انتشار الإسلام . يقول برناردشو : لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان ، والواقع أنهم يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويمدون خصماً للمسيح ، أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الانسانية وأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته . والواقع أن أوروبا لم تقبل مزاحمة الاسلام لها وهي التي وضعت قاعدة لم تتخلف قوامها أن على المسلمين أن ينتهوا من أوروبا بالهجرة أو بالتنصير أو بالإبادة .

## (٢)

كانت غلمطة للمسلمين أن تركوا تلك الثغرة الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة والتي تعرف باسم ( إقليم جليقية ) دون السيطرة عليها ، يقول ول ديورانت : أن العرب لم تطمع في امتلاك هذا الإقليم لغقره وبرده فأنحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين ونمت فيه بذرة الدولة الأسبانية التي ما تزال باقية حتى الآن . وقد ظلوا يترقبون الفرص لتوسيع رقعتهم فلما كانت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبين البربر ؛ انتهز هؤلاء النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويره واحتلوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم وأصبحت مملكتها تسمى مملكة ليون ، وظل أمرها على هذا الحال وهي تنقسم رويداً رويداً في المنطقة التي خلت بزوح البربر إلى الجنوب أو هودتهم إلى أفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب حتى إذا ما وصلوا إلى عصر ملكهم الفواسو الثالث نجد هذه الإمارة تحتل مدينة سموره ، وقد أصبحت حصن إمارة ليون للمواجهة للمسلمين عند غزوم لبلاد النصارى وقد هاجمها المسلمون وخربوها مراراً حتى سميت ( سمورة الخراب ) أما من ناحية الشرق ونعني به الممالك النصرانية التي قامت وظهر أمرها فيما يلي الثغر الأندلسي الأهل فيما بين نهر أبرو نهراته وجبال البرانس . فقد نشأت كلها في الجبال نظراً لاشتداد الخطر العربي من الجنوب ومن الجبال امتدت في البسائط شمالها وجنوبها أي أن جبهتها الشمالية كانت متاخمة ( لأوروبا النصرانية ) وجبهتها الجنوبية متاخمة ( لأسبانيا الإسلامية ) وهذا الاتصال بين الإمارات النصراني جعلها أقرب إلى تيار الحضارة كما جعلها على صلة بالبابوية والعلم الكاثوليكي وقد ظلت هذه الممالك تتقدم في أرض الأندلس . ومنذ سقوط الخلافة الأموية وقيام عصر ملوك الطوائف استجمع نصارى الشمال قوتهم للوثوب حيث وحد الأذفواس ( القولسو السادس ) تحت أمرته ( استوريا - ليون ، قشتالة ) وقد ظل يستولى على الحصون والأقلاع واحداً إثر الآخر حتى وثب وثبة حاسمة استولى بها على طليطلة الإسلامية عام ١٠٨٥ م . وبينما كانت البابوية تغذى هذه للأمر في أسبانيا الإسلامية كانت تغذى مؤامرة أخرى على سواحل الشام ، حيث بدأ عصر الحروب الصليبية التي توالى على المشرق الإسلامى خلال قرنين كاملين . سقطت ( طليطلة ) عام ١١٧٨ م واقتحم الصليبيون القدس ١٢٩٣ م وبينهما خمسة عشر عاماً وكان ذلك بداية عصر من التحدى الخطير قوامه الصراع بين الإسلام وأوروبا للمسيحية على كل من الجبهتين في وقت واحد . حيث بدأت في أسبانيا ما أطلق عليه حركة الاسترداد Reconquista التي امتدت إلى سقوط

غرناطة ٨٨٩٨ م ١٤٩٢ م . وكانت موازية لما في الشرق الحروب الصليبية التي انتهت ١٢٩٠ م ١٢٩١ م بالهزيمة الساحقة للغرب بينما جلى آخر مسلم عن الأندلس إلى المغرب بعد ذلك بقليل . وكان هذا مقدمة لما بعده ، فقد سيطر العثمانيون واستطاعوا أن يحتلوا القسطنطينية قبل سقوط غرناطة بقليل عام ١٢٥٤ م ٨٥٧ م وأن يزحفوا ليحوم البحر الأبيض المتوسط من المتوسط من الغزو المعاكس الذي بدأتها البرتغال وأسبانيا بعد إجلاد المسلمين عن الأندلس والذي استمر ثلاثمائة عام تقريباً على جبهة (الجزائر تونس - المغرب) والذي أطلق عليه حرب الثلاثمائة عام والذي لم يلبث أن تحول إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة للاحتلال الأوربي لمصر وتونس والسودان وغيرها بعد أن كانت هولندا وبريطانيا قد سيطرتا على جزر الملايو والهند قبل ذلك وهكذا نجد أن المعركة لم تتوقف ، وأن أوروبا منذ ظهور الاسلام وهي تحشد لمقاومته في أوربا ثم هي لا تلبث أن تنسحب وراء الاسلام إلى أرضه لنطوقه وتشد الحصار ثم تسيطر عليه مما لا تزال إثارة قائمة إلى الآن .

( ٥ )

## اجنحة المعركة : من الأندلس إلى الشام

( على جبهة الأندلس )

بدأت المعارك على الجبهتين : جبهة الأندلس وجبهة في الشام في وقت واحد . أما في جبهة الأندلس فقد سقطت طيطلة الاسلامية في يد القوط ٨٤٧٨ م ( ١٠٨٥ م ) بعد ثلاثة قرون إلا قليلاً . فكانت نذيراً للوجود الاسلامي كله في الأندلس بالؤامرة عليه ، مما دفع ملوك الطوائف إلى الاستنجد بمسلمي المغرب حيث هب يوسف تاشفين إلى الأندلس وهاجم الفرنجة في معركة ( الزلاقة ) الحاسمة التي كبدت الفرنجة خسارة فادحة وكتبت الأندلس عمراً جديداً امتد نحو قرنين من الزمان ويقول ول ديورانت : كانت غارات المسلمين على أسبانيا عام ٧١١ م قد دفعت من لم يفلحوا من القوط والسويبي والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي والسكان من سكان شبة الجزيرة إلى جبال الكنتبريان في الشمال الغربي من أسبانيا وطاردتهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة هزمتهم عند ( كفاذ نجا ) ٧١٨ م وأسست المملكة الأسبانية وعلى أثر هزيمة المسلمين في ( تور ) امتدت الحدود من استوريا إلى جليقية ولوزينايتا وإسكايثا ضمت ليون . وإلى شرق استوريا ، وفي جنوب جبال البرانس مباشرة تقع ( نبره ) وقد أفادتهم جبالهم منعة في حماية استقلالهم من المسلمين والفرنجة

والأسبان . وفي الفترة ما بين ٩٩٤ / ١٠٣٥ م استولى ملك ( نبره ) هلى ليون وقشتالة وأرغونة حيث قامت مملكة أرغونة التى استطاعت أن تدفع المسلمين إلى الجنوب وقد سميت قشتالة نسبة إلى قلعها ( كاستل ) التى كانت تواجه الأندلس الإسلامية وتنفذ حياتها فى التأهب للحرب ، ثم كان سقوط خلافة قرطبة ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها الفونسو السادس ( الأذفنى ) ملك قشتالة فاستولى هلى طليطلة بمعونة المعتمد ملك اشبيل ١٠٨٥ واتخذها عاصمة للملك وعامل للمسلمين معاملة سيئة . يقول : كان القتال بين الممالك المسيحية فى الشمال والدولة الإسلامية فى الجنوب إلى أن ظهرت مملكة قشتالة التى خلقت أسبانيا خلقاً فاضطلعت بالحرب وخاصة فى القرن الثانى عشر كما اضطلعت بتوحيد أسبانيا بعد ذلك فى القرن الخامس .

هذه المملكة المسيحية الصغيرة التى لم تمت ، والتى تمت خلال فترة لا تزيد هلى قرنين والتى حملت لواء الغزو ضد المملكة الإسلامية الأسبانية وكان دورها فى سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الدائم على الإسلام ، هذا الخطر الذى أحس به ملوك الطوائف . وتقابل هذه الفترة مرحلة تركزت فيها الجهود للقضاء على الوجود الإسلامى فى الأندلس هى فترة الحملات الصليبية للتوالية على بيت المقدس وسواحل الشام ومصر . وفى العام التالى مباشرة لسقوط طليطلة ( وفى ١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ ) عبر يوسف تاشفين قائد المرابطين وحاكم المغرب إلى الأندلس فى جيش ضخم فنزل بأرض الجزيرة الخضراء ، قرب مدينة بطليوس فى بسيط فسيح بالزلافة حيث اشتبك فى واحدة من أعظم المواقع الفاصلة التى جرت بين المسلمين والأسبان قتل فيها معظم جيش العدو ويقدر بمائة ألف شخص وكسرت شوكة الأسبان . وكان الأسبان قد أجمعوا أمرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأندلسية بعد أن تمزقت وحدة الحكم فيها وظهر ضعف ملوك الطوائف وكانت المعركة فى ١١ رجب ٤٧٩ ( ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ ) حيث سلم الملوك على يوسف بن تاشفين باسم أمير الملوك الذى كر عائداً إلى مرا كش تاركاً لهم الغنائم وفى ٨٠ هـ جاز إلى الأندلس جوازه الثانى برسم الجهاد حيث حاصر حصن لبط مليبا نداء استنجد أهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطه ، وترك جيشاً لحاية الثغور ومطاردة العدو ، ثم جاز الأندلس جوازه الثالث ٨٣ هـ حيث نازل طليطلة فحاصرها والفونس بها فهتكها وقطم نمارها وخرب ناحيتها إنتقاماً لما فعله فعله جيش الفونس بالمسلمين . وفى هذه المرة لم يأت أحد من ملوك الأندلس ، فلما شفى نفسه من طليطلة سار إلى غرناطة وكان صاحبها قد ظاهر الفونس فأخذها من يده ، وهى مائة . ولم يلبث أن صفى ممالك الطوائف . بعد أن رد أسباب الخذلان والهزيمة إلى حياة اللهو والاستمتاع التى كان يحياها ملوك الطوائف ، قال ابن خلدون : توافق ملوك الطوائف هلى قلع المدد هن هسا كر أمير



المسلمين فساء نظرم فيهم وافتاه الفقهاء وأهل الشورى بخلعهم وانزع الأمر من أيديهم . وتابعت دول الموحدين ما بدأت دول المرابطين من الجواز إلى الأندلس وتلبية نداء المسلمين ، فقد قاد الخليفة المنصور بالله بن يعقوب بن يوسف حملة كبرى إلى الأندلس ٥٥٨٠ م ( ١١٩٥ م ) وانصر على الأسبان في موقعة الأرك ، وأهقها انكسار المسلمين في موقعة العقاب ٥٩٠٦ م ١٢١٢ م . لم يتوقف المغرب المسلم عن مناصرة مسلمي الأندلس ومقاومة الحملة الصليبية على شاطئ البحر المتوسط فقد قام الحفصيون في تونس بمقاومة الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع الذي انهزم في معركة المنصورة قد كلفه الأفرقة في تونس حياته كلها وقامت قوات الجزائر بدورها الحاسم في معركة على أرض قرطاجنة مما أدى إلى هزيمتها ٦٩٩ هـ ١٢٧٠ م . وكان ذلك مقدمة لما قامت به قوات الجزائر في مقاومة القراصنة الأوربيين الذين ما فتئوا يهاجمون السواحل الجزائرية وموانئها وقامت مدينة بجاية بدور كبير في حركة المقاومة لرد العدوان الأوربي واقتحام مراكز القراصنة في موانئ أوربا نفسها كأسبانيا والبندقية وجنوة وصقلية . ولم يبق للمسلمين بعد هذه المعارك إلا مملكة غرناطة التي استمرت منذ ٦٣٣ هـ ( ١٢٣٥ ) إلى ٨٩٨ هـ ( ١٤٩٢ ) م ، هذه الدولة الوحيدة التي بقيت قائمة ما يزيد عن القرنين ونصف القرن حتى كانت معركة السنوات العشر ( ٨٨٨ — ١٤٨٢ م ) إلى ( ٨٩٨ هـ ١٤٩٢ م ) التي شنها الملك الكاثوليكي فرناندو والمملكة إزابيلا صاحبي عرش مملكتي قشتالة وإراجون تؤيدهما بالمال والسلاح والرجال كل القوى المسيحية في أوربا إطاعة لأمر البابا الذي فرض على الدول ضريبة دهاها ( ضريبة الصليبية ) وفي هذه المرحلة ظهرت البطولة المضحية التي امتدات في سبيل الحفاظ على ما بقي من أرض الإسلام يقودها موسى بن النسان الذي وقف ضد الاستسلام قائلا : أي باعث نبأ إلى لباس فإن دم الأبطال عرب الأندلس فاتح هذه الديار يجري في عروقنا وهندنا قوة وافرة وجيوشاً معودة بحربة في الواقع لا ترتاب في إقدامها ولدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم ، ومن الحق أن مملكة غرناطة لم تستسلم ولكنها قاومت بكل ما تملك ، لم يتوقف المسلمون لحظة عن البذل والتضحية في سبيل وجودهم ولكن سلطات الحكم كانت قد تمزقت وغلبها الخلاف ودمرها الترف .

يقول واشنطن أرفنج : أن هذه الحرب ( حرب تحطيم مملكة غرناطة ) حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر بما تخللها من باهر الثبات والإصرار فإن النكبات توالى فيها على المغاربة ( أهل الأندلس ) عشر سنوات دون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى وأفنت رجالهم قتلا واسرا ، فقد قاتلوا هن كل مدينة وبلده وحصن وبرج ، بل هن كل صخرة كأنما هم يتظرون الفتح ،

ولم يجدوا مكاناً يثبتوا فيههم أقدامهم ولا جداراً يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به  
ينازعون العدو ووطنهم المحبوب حتى لم يبق إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها كل مدد غير طامة في أى غوث  
يتنزل عن أسوارها ، أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها كأنما هم يترقبون معجزة . « وبقي  
فردنيانندو مدينة كاملة تجاه مدينتهم إشعاراً لهم بأنه لن يرجع عنها أبداً ، وبدأ للشبان والمجاهدين  
تحت قادة موسى الثبات والموت إلى آخر رجل تحت سنابك الخيل إذ لم يبق هناك إلا أحد أمرين :  
الاستسلام أو الهلاك المحقق في معركة لا تقاذ الشرف . ولكن أهل غرناطة ( ٥٠٠ ألف نسمة )  
خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات وتشتت الشمل وفقدان المال فقرروا الاستسلام بعد مقاومة  
بطولية ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل احترامها بدينهم » . ١٠ .

وقالت عائشة الخيرة لولدها آخر السلاطين أبو عبد الله :

« أهلك مثل النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال » .

ولم يكن سقوط غرناطة هو خاتمة المطاف ولكنه كان بدأ معركة ضخمة من أقصى معارك  
مقاومة الإسلام ، فقد جرى تدافع الأسبانيون على أذلال البقية الباقية من المسلمين سنوات طويلة  
لإخراجهم من الإسلام ثم لإخراجهم من بلادهم . ثم كانت الحملة الصليبية الأسبانية البرتغالية على  
هلى المغرب : هذه المعركة التي استمرت ثلاثمائة سنة وامتدت ما بين نهاية الأندلس وبدأ الاحتلال  
الفرنسي . ( ١٤٩٢م — ١٨٣٠م ) وقد جرى فيها تطويق العالم الإسلامي كله . يقول الأستاذ أحمد  
توفيق المدني : أن الأسبان الذين تمكنوا من تخطيط مملكة الأندلس شاحنة التي شغلت في التاريخ  
٧٨٢ سنة بقوا يثقل كرون ولم ينسوا أبداً ثلاثة أمور : ١ — أن جنود الفتح الإسلامي لأسبانيا قدمت  
من بلاد المغرب . ٢ — عندما كانت الممالك الإسلامية الأندلسية تنهار تحت ضربات الأسبان الفناكة  
وتحت هوامل الفتننة والانتقام جاثما النجدة بما يشبه الفتح الجديد من بلاد المغرب العربي وفي شخص  
بن تاشفين والمرابطين وفي شخص عبد المؤمن بن هلى والموحدين : ٣ — أن المسلمين الذين اضطرتهم  
الانتصارات الأسبانية إلى ترك أوطانهم أموالهم وممتلكاتهم إنما لجأوا إلى بلاد المغرب العربي المختلفة  
يستغيثون أهلها ويحثون في صفوفهم دعوة الجهاد المقدس ووجوب إرجاع بلاد الإسلام ، من أجل  
هذا كانت حملة الأسبان على بلاد المغرب .

( ٢ )

عندما قبل المسلمون وهود ( فرنياندو - إيزابيلا ) هل وفي هؤلاء المسلمين ؟ لقد هذبوا بما طهروا أبو عبد الله عليه « إذ ما كاد للملك الأندلسى يفادر غرناطة حتى قارب الأسبان المسلمين ظهر المحن فأسلت المدينة إلى حكم الرعيان حتى نصر الراهب فرناندو في يوم واحد ثلاثة آلاف من سوقة المسلمين بدعوى أن أبائهم كانوا من النصارى . أما الكاثوليك ( جيمينين ) فقد أقنع الملك والمملكة بنقض العهد وأعلن : « أن على مسلمى غرناطة ، أما هتناق المسيحية أو مغادرة البلاد فخرجوا هائمين لا يحملون من متاعهم إلا الثنر اليسير يلتجئون إلى جبال البشرات » التى بقيت فى أيدي المسلمين ويبعثون عن مركب ينقلهم إلى بلاد الإسلام ، حيث التقى التاريخ بالبطلين العملاقين التركيين : هروج وخير الدين على رأس عمارة القرصان التى كانت تقاثل الدول النصرانية الحاربة للإسلام فأخذنا من تلك الحنة القتالة ما يزيد على العشرة آلاف نسمة ، وبقي المستضعفون وأجبروا على التنصر وأقفلت مساجد المسلمين « وحولت إلى كنائس » . وأعدت للمسلمين محاكم التفتيش الرهيبة « التى هى سبة فى وجه أوروبا والغرب ووصمة عار فى وجه المسيحية وأصبحت مدن أسبانيا كلها محارق فليمة تستحيل فوقها رماداً بقايا المسلمين » . وقد خلفت الحنة شعباً يبلغ زهاء المليونين أطلق عليه باسم ( الموريسكيون ) هم بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة وهم من أزعجهم أسبانيا على التنصر بعد أن سقطت فى يدها [ غرناطة ] آخر القواعد الإسلامية بالأندلس ونحوها - كما يقول الأستاذ محمد عبد الله هنان - بفعل الضغط والاضطهاد من أمة مسلمة إلى طائفة نصرانية كاثوليكية أطلق عليها اسم الموريسكيين MORISCOS أى العرب المنتصرين ، وقد لبث هؤلاء يرزحون تحت لئير الأسبانى المرهق زهاء مائة عام وهم يماونون أروع ما يعانى به الشهداء من حروب الاضطهاد والمذلة تطاردهم السلطات المدنية والدينية ولا سيما محاكم التفتيش الشهيرة بأقصى أنواع المظالمة وترغمهم تباهاً على ترك مآداتهم وتقاليدهم الإسلامية ولغتهم وأصنامهم وثيابهم العربية ، حتى تقضى بذلك على تراثهم الدينى والحضارى وعلى أخص مقوماتهم المادية والمعنوية . وبالرغم من أنهم كانوا فى الظاهر نصارى يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية فقد كانوا فى سرائرهم مسلمين متعلقون أشد التعلق بعقيدتهم الدينية الأصلية ويزاولون شعائر دينهم من الصلاة والصوم وتلاوة القرآن خفية : وكانت أسبانيا تنظر إلى وجودهم فى أرضها بعين السخط العميق وتعتبرهم عنصراً دخيلاً بغضباً يحجب التخاص منه : « وقد عمدت الحكومة الأسبانية تحت ضغط الكنيسة إلى التخلص نهائياً من المسلمين

الموريسكيين وقررت إجلأهم من أراضيها وذلك عام ١٦٠٩ في عهد الملك فليپ الثالث حيث صدر مرسوم النفي للنهائي مشيراً إلى إخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم أو ضمان ولائهم وتقرر نفي مجوهمهم إلى بلاد البربر ( المغرب ) وأن يرحلوا في خلال ثلاثة أيام مع أولادهم من المدن والقرى إلى الثغور التي تعينها لهم الحكومة ولهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطيعون حمله إلى ظهورهم وبدأ خروجهم وفقاً لهذا القرار من مختلف الثغور الأسبانية في رجب ١٠١٨ هـ ، أكتوبر ١٦٠٩ م في مناظر قاسية من البؤس والمهانة والجوع وقد ألفت السفن بهؤلاء المنفيين إلى ثغور المغرب المختلفة ، نزل بعضهم بنطوان وسلا والرباط ووهران وتلمسان وطس والجزائر والثغور التونسية ويقدر عدد من غادر أسبانيا من الموريسكيين المنفيين نحو ستائة ألف هلكت منهم جموع كثيرة من الجوع والمرض . يقول الأستاذ هنان : أن مائة عام من التنصير المنصوب والإرهاق المستمر لم ينجح جذوة الإسلام في نفوسهم .

### ( ٣ )

ولارب خسرت أسبانيا خسارة كبرى باخراج المسلمين الذين لم يكونوا عرباً مهاجرين ولكنهم كانوا أسبانيين لهم جذورهم التي استمرت في التربة ثمانية قرون فقد كان المسلمون في أسبانيا أحذق الصناع وأمر الفلاحين وأكبر أصحاب رموس الأموال ولذلك كان لاضطهادهم وتقريعهم وتشيت شملهم أكبر الأثر في انهيار الصناعة والزراعة ، فضلاً عن انحطاط الثقافة والأخلاق والتسامح الديني ، بعد أن غلب التعصب الشديد ، حتى أن ينابيع الفكر جفت بعد طرد المسلمين وتدهورت الصناعة . ولا ريب أن أكبر دليل على قوة العقيدة الإسلامية في أسبانيا هو ما إبداه المسلمون من المقاومة الباسلة تجاه الموقف الذي قابلهم به الحكام النصارى . وقد بدأ هذا التعصب بعد سقوط غرناطة في يد المسيحيين منذ ١٤٩٢ م حتى صفيت الأندلس عام ١٦٠٩ م في خلال ذلك جرت عمليات التنصير وأحرقت المساجد واضطربت النار في المخطوطات والكتب النفيسة . ولما صدر المرسوم الذي يجزهم بين التنصير والرق ثارت ثائرتهم وقد منعوا من الهجرة خارج أسبانيا وأشتعلت حينئذ الثورة في ( فالانس ) وصعد المسلمون إلى الجبال . وهاجموا القرى وبدأ القتل حامياً ، وتأمرت قوى أوربا مجتمعة على ضرب المسلمين . وكانت القراصنة المسلمون يتوغلون داخل أسبانيا وينظفون هجرة المسلمين إلى أفريقيا الشمالية . والذين لم يستطيعوا الهجرة أدوا مكرهين أقل ما يستطيعون أدائه من أمور الدين الذي فرض عليهم فإذا هادوا إلى بيوتهم أقاموا همود زواجهم وفق سنن الشريعة الإسلامية .

واستطاع المسلمون دفع أموال باهظة في سبيل مغادرة أسبانيا وكانوا يتوجهون نحو تركيا هرباً  
البندقية ، أو إلى أفريقيا ، ونظمت حركة سرية تهريب الآلاف من المسلمين إلى يد البحارة للغاربة  
وقد أجرت أسبانيا محاولات كثيرة لحجزهم لأنهم كانوا يؤدون دوراً في ازدهار اقتصاد البلاد ولذلك  
فقد أصيبت غرناطة بالخراب والقتل بعد ذهاب المسلمين غير أنهم قرروا عام ١٦٠٩ طرد جميع  
المسلمين وبدأت هجرة المسلمين الجماعية حتى شهر مارس ١٦١٠ حيث هاجر نصف مليون مسلم وتقول  
بعض الروايات أن عدد المخرجين من المسلمين واليهود والموريسكيين ما بين سقوط غرناطة ١٤٩٢  
حتى الجلاء الأخير ١٧١٤ يبلغ من ثلاثة إلى خمسة ملايين وأن الذين خرجوا في مستهل القرن السابع  
هشر بلغوا مليوناً من المسلمين ، غير أن هؤلاء الذين نفوا عادوا إلى الإسلام بالرغم من مرور أكثر  
من قرن على تنصيرهم ولم تنطفئ جذوة الإسلام في صدورهم من بالرغم من العسف والأرهاب الشديد  
والتعذيب المستمر وقد هاجروا قارين بدينهم تاركين وراءهم أموالهم وممتلكاتهم . ومنذ سقطت  
غرناطة ١٤٩٢ وإلى عام ١٧٩٢ وفي خلال ثلاثمائة سنة بدأت حرب جديدة اجتاحت المغرب كله  
وشاطئ البحر المتوسط وقد تركزت بقوة على الجزائر وكانت جولة خطيرة من جولات مقاومة الغرب للإسلام .

#### ( ٤ )

ماذا كان موقف الغرب بعد سقوط الأندلس : للمرة الثانية بعد هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء  
١١٤٥ و ٧٣٢م تنهقر الحضارة الإسلامية في أوروبا عام ٨٩٨ و ١٤٩٢م بعد أن دام سلطان الإسلام  
أسبانيا ثمانية قرون ، ثم انحسر عنها بعد أن ترك معطيات العلم والتجريب والتراث الإسلامي كله .  
وكانت معاملة أوروبا للمسلمين قاسية بينما كانت معاملة المسلمين للصليبيين في الشام والقدس حين استباحهم  
كريمة ورهينة وبينما أغرق الأسبانيون مراكب المسلمين قام صلاح الدين بفرض نفوذه على مراكب  
أوروبا لإهانة الصليبيين : يقول ناجي معروف في كتابه عن الحضارة ( بتصرف ) : لقد كان المسلمون  
نبلاء سمحاء من أهل الأديان ومع معابدهم ، فقد حافظوا على بيع النصارى وكنائس اليهود ولم يخربوها  
سواء في أسبانيا والبرتغال إلى سائر جزر البحر الأبيض المتوسط وباقي البلاد النصرانية التي استولوا  
عليها أما الأسبان والبرتغاليون وغيرهم فقد عمدوا إلى محو آثار المسلمين فأنهم حاولوا إلا ببقوا  
أمام الأجيال القادمة شواهد تدل على رقي حضارة المسلمين المغلوبين وليبرروا ما قالوا به من أعمال  
وحشية في تنصير المسلمين وقتلهم وأحراقهم أو نفيهم وليشيدوا وليفخروا بالظفر الذي أحرزته  
النصرانية على الإسلام . بهذه الصلة أدرك رئيس أساقفة أسبانيا السكردينال ( أ كزيمس ) أن حرق

الكتب العربية سوف يحو آثار العرب الفكرية والثقافية من أسبانيا فعمد إلى حرق ٨٢ ألف كُتات هربي في ساحة غرناطة بعد سقوطها عام ١٤٩٢ بسنين قلائل . ويملق جوستاف لويون على هذا فنقول : لقد هدم الأسبان أكثر المساجد الإسلامية للعظيمة وأزالوا معالمها وحولوا كافة المؤسسات الإسلامية إلى مؤسسات مسيحية على الرغم مما تنطق به الكتابات العربية التي لا يزال بعضها في جامع طليطلة وجامع قرطبة وجامع أشبيلية وغيرها من المنشآت الإسلامية التي تتخذ اليوم كنائس عظيمة أرادوا بعد أن قرروا تنصير الملايين من المسلمين بالحديد والنار، ألا يرى المنتصر أنراً إسلامياً سواء أكان مسجداً أم مدرسة مما يذكره بأعجاز الإسلام ، ومن الناحية الأخرى غالوا في تصميم الكنائس وأبراجها وفي زخرفتها وحليها وملئها بالتماثيل والتماوير لتبرهن عقول هؤلاء المسلمين المنتصرين وأبنائهم وليوحوا إليهم أن هذه الكنائس المسيحية خير من المساجد الإسلامية ولقد بلغ التعصب بهم والإسراع في تعميم التنصير وبحو كل أثر الإسلام درجة كبيرة بحيث أهدروا كثيراً من القوانين الصارمة تباهاً خلال قرن وربع منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢ حتى ١٦١٤م) وكانت شروط تسليم غرناطة تتكون من ٦٧ شرطاً وكانت على تسامح مع كثير من العرب غير أن الأحرار لم ترق لهم الشروط فظلوا يلحون على الملكة الكاثوليكية (فرناندو وإيزابيلا) طالبين إليهما السعي في سحق طائفة محمد في أسبانيا وأن يخبر الذين أن يزيدون البقاء في البلاد بين التنصير وبين بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب. وأتبعته الكنيسة العنف والشدة في تنفيذ هذه السياسة وحرقت نصوص المعاهد نصاً نصاً.

## ( ٥ )

ولقد كشفت التاريخ هن نتائج هذا العمل الخطير في كثير مما سجله الكتاب والشعراء ، يقول الشاعر الأسباني فلا سبازا : د ونحن الأندلسيين على الرغم من لباسنا الحديث وأهالنا لغة أسلافنا العرب ما نزال حنونة أولئك البدو الذين تعودوا في وخشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم تعود أمام خيامهم المنسوجة بشعر الإبل ، وكما أننا لو انزعنا بعض الكس من جل كنائسنا وجدنا نحن لما منذهب لإسم الله الأقدس المحفور بالحروف الكوفية . وكذلك لو خدشنا بشرتنا الأوربية الصفراء ، لبرز لنا من تحتها بشرة العرب الحمراء أن قوميتنا الأوربية ما هي غير الغرض الظاهر ، أما العربية فهي حقيقةنا الخالدة ، أن كل ثوارتنا الأوربية القديمة والحديثة لم تكن في الغالب غير أثر للروح العربية التي تغافر من أفتنا محتجة ناقة ، لا بد أن ابن الصحراء المتجرد الحر الذي تعود

الهواء للطلق تحت نور الشمس ( لا في كوة مظلمة لا يقوى على الحياة خلف القضبان للتراسة في الأقفال المظلمة ) للثقل جرها بكثافة القواعد للمنطقية وللناهج اللغوية . . ويمضى المستشرق الأسباني فيلاسازا فيمبر عن وجهة نظر الجيل للعاصر كله حين يقول : لقد حجب الغرب أنوار المسيحية وبذل ما في المسيحية من موااساة وحول فلسفتها إلى أحاج ومعميات ، أن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمة واحدة ، ولا خلق ابتسامة واحدة ، وليس أجدر من أمم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة العربية والقاعة على إذاقتها بوضع حدنهاى لتدهور الغرب المشثوم إلى هوة التوحش الاقتصادى ، ليس فى طاقاتنا نحن الأندلسيين المعتنقين بإيمان ثابت دين المسيحية أن نحمد دين أسلافنا فلئن كان الأول مستقراً فى ضماثرنا فإن الثانى ( أى الإسلام ) ما برح مستقراً فى نظرة قوميتنا المزدانة بالبدايم تلك هى الأندلس التى أخرج منها المسلمون لإخراجها المسلمون من أهلها الذين اعتنقوا الإسلام بمائة عام ، وأجلى العرب عن لغتهم وجامعاتهم وعلومهم التى ورثها الغرب وعاش قرنا كاملا يترجمها إلى لغات اللاتين لتكون أرهاص النهضة وأساس الحضارة .

( ٦ )

## اجنحة المعركة : من الشام الى الأندلس

( على جبهة الشام )

لم تتوقف المعركة البابوية المسيحية ضد الإسلام عند جبهة الأندلس الإسلامية وحدها داخل أوروبا ، ولكنها تابعت المؤامرة بالزحف على أرض الإسلام نفسه وذلك عندما تنادت إلى الحروب الصليبية باسم استخلاص قبر المسيح ، هذا الزحف المتصل الذى لم يتوقف خلال قرنين كاملين فى حملات ليست هى الحملات الصليبية المعروفة وحسبها . ترجع فكرة الحروب الصليبية إلى وقت بعيد ، أبعد كثيراً من تاريخها المعروف فقد كانت أوروبا ترقب نمو الإسلام وتقدمه فى فاق شديد وتحاول بقدر ما تستطيع أن توقف هذا الزحف الذى امتد على جبهة القسطنطينية حينها ، لم يتحقق له دخول أوروبا ، ثم حين اقتحم الإسلام أوروبا من المضيق الذى أطاق عليه من بعد إسمه فاتح أوروبا « جبل طارق » وظلت الدولة البيزنطية حصن المسيحية والغرب فى جبهة الشرق فلما تهاوت هذه الجبهة لم تجد أوروبا بداً من الاندفاع إلى اقتحام عالم الإسلام من خلال هذه الثغرة . يصور الأستاذ

محمد هب الله عنان هذه المرحلة فيقول : كانت تعاليم محمد تنذر في فاتحة القرن الثامن بامتلاك إيطاليا وغالياً ، والوثنية بالامتداد إلى ما وراء نهر الرين ، وأخذت الجيوش تندفع ظافرة إلى الأمام لتكتسح كل قوة تغالبها مؤهلة على قول الشاعر الإنجليزي سوزي أن تخضع أوروبا النصرانية إلى صولة الإسلام حتى يصبح الغرب المقهور كالشرق يطاقاً الرأس لإجلالاً لمحمد ، ولكن سبيل الإسلام ارتد أمام جيوش الفرنج في سهول تور ، واعتبرت أوروبا النصرانية ( شارل مارتل ) حاميتها ومنقذها من قبضة الإسلام ومن نير القرآن المبدي وأسبغ شارلمان على الفكرة لونا واضحا فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على سكسونيا وبوهيميا ولو مبارديا ورد المسلمين إلى ما وراء جبال البرنية . وكانت النصرانية تنفع بالدفاع عن نفسها بادي الأمر ، فلما تفككت عرى الدولة الإسلامية واحتالت في القرن العاشر إلى ممالك وأمارات واضمحلت شأن القبائل الوثنية في شرق أوروبا ، استطاعت النصرانية أن تتحدى الدول الإسلامية وبدأت بين الصليبيين والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك وقد بدأت النزعة الصليبية في أسبانيا بعد مقاومة المسلمين لأسبانيا النصرانية تحت لواء المرابطين ثم الموحيدين من بعدهم ، فقد أثار هذا الانفجار ارتياح الإمارات النصرانية وبعث إليها نزعة مضاعفة من التعصب الديني ، وكان واحداً من العوامل التي أزكت نار الصراع المستعربين أسبانيا النصرانية وبين المسلمين ، وهذه نفسها هي التي حولت فكرة الحروب الصليبية نحو المشرق .

## ( ٢ )

تعد معركة ملاذكرد العامل المباشر للحروب الصليبية : يقول ديورانت في ( قصة الحضارة ) أول سبب مباشر للحروب الصليبية ، هو زحف الأتراك السلاجقة وكان العامل قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى . وكان السلاجقة قد ظهروا عام ٩٥٦م واعتنقوا الإسلام على مذهب السنة ونزحوا من بلاد القزغير في التركستان وحلوا منطقة بخارى ووصل طغرل إلى أطراف خرسان ، ثم كان على أبواب بغداد عام ١٠٨٥م وأصبحت بلاد غرب آسيا عبارة عن مملكة إسلامية موحدة في السلاجقة ، وكان ذلك في حد ذاته نواة السيادة التركية على العالم الإسلامي فيما بعد ، هذه القوة الإسلامية الجديدة التي جددت شباب الإسلام ، واستطاعت أن تواجه التحدي البيزنطي في صمود وأصالة وسار قادتها طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه لرد هدوان البيزنطيين على الأراضي الإسلامية فحقوا انتصارات حاسمة كان أكبرها فيوقعة ملاذكرد ٤٦٣هـ



الموافق ١٠٧١ التي أسر فيها الامبراطور رومانوس الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من (الروم والصقلية والفرنجة) في أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على الاسلام، واتجه إلى (ملاذ كرد) وهي بلدة حصينة على فرع نهر (مرادسو) فحضر حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة ألب أرسلان في عدد لا يتجاوز ربع قوة همدوم : وقد أختار قائد المسلمين الاشتباك مع الروم يوم الجمعة فصلى بجنده ظهراً ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدوا قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة ، فلما رأى رومانوس مالحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ليتأهب للقتال في اليوم التالي ، غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك فضغطوا بقوى ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة تدافع منها الفرسان المسلمون ، واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهماً قاتلة : ثم انقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه ، وأسروا رومانوس ، وتمت هزيمة الروم ٤٦٣ هـ ونقل القيصر الأسير إلى حيث التقي بالسلطان ألب أرسلان الامبراطور :

ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر . وقال رومانوس : أنه كان يقتل السلطان ويمثل به .

قال أرسلان : ولكني هزمت على المعفو هنك والفداء . فاتفق الامبراطور نفسه بألف دينار وخمسة ألف ، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقة وشيعه فرسجا ، وأرسل معه جنداً يحفظونه ومعه رأي مكتوب عليها « لا إله إلا الله » وقد ملق على هذه المعركة المؤرخ ريتشارد ينوهول فقال : لقد كان الغزو الاسلامي بقيادة ألب أرسلان في نطاق لم تشهد الامبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، وقد منى الروم هزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الامبراطور البيزنطي أسيراً ، ومن ثم كانت واقعة (ملاذ كرد) من الوقائع الفاصلة في تاريخ الشرق والغرب إذا كانت ضربة قاصمة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فسكات عاملاً حاسماً في إندفاع الحروب الصليبية ولو أن ألب أرسلان سار في طريقه — بعد هذه المعركة — إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ولقوض أركان الامبراطورية البيزنطية . ومنذ معركة ملاذ كرد استوطن السلاجقة هضاب آسيا الصغرى وأصبحت في حوزة المسلمين ، ثم استولوا على (نيقة) ٤٧٧ هـ وبقي سلطانهم في هذه البلاد حتى قضى عليه المنول ٦٥٥ هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد وتوفي السلطان ألب أرسلان بعد معركة ملاذ كرد بعامين وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة (لأراضي الدولة الرومانية الشرقية حتى طوقوا آسيا الصغرى من الجنوب وبعثوا ساطنهم عليها .

وكان للملاذ كرد أعرق وقع في أربا ، فقد بدأ للغرب أن سبل التوسع الاسلامى تنذر باقحام الدولة الرومانية الشرقية والاندفاع إلى أوروبا ، هناك تعالت الصيحات وجرى أهداد مخطط الحروب الصليبية التى أمتدت بجناحيها إلى المشرق والمغرب غير أنه لم يعض على ( ملاذ كرد ) أكثر من خمسة عشر عاما حتى استطاعت القوى الاسلامية فى المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق قوى الفرنجة الغازية في موقعة الزلاقة . كذلك فإنه لم يعض على ملاذ كرد خمسة عشر عاما حتى جاءت جموع بطرس الناسك زاحفة تقتحم عالم الاسلام وتصل إلى بيت المقدس . وكان بطرس الناسك قد زار بيت المقدس وأدهشه ما رأى من ضعف بلاد الاسلام فعاد إلى الغرب ونبه أذهان البابوية إلى ضرورة انتهاز الفرصة السانحة ( فإن بلاد المسلمين في حالة يرئى لها من الضعف ولا بد من الاسراع بمحملات عسكرية لاستخلاص الأراضى المقدسة من أيديهم ) ثم ذهب إلى فرنسا وأخذ يطوف ببلادها داعيا في حماس شديد إلى الإصرار بحرب المسلمين وقد حمل بطرس الناسك إلى أربان الثانى من سمعان بطريق أرشليم ما سماه برسالة استغاثة . ولقد ذهب البابا أربان الثانى إلى أبعد من ذلك فقد دعا إلى الحرب للافوز بمدينة واحدة فحسب ، ( بل للفوز بأقاليم آسيا بحملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى ) . حيث قال : فسيروا نحو القبر المقدس وخلصوا الأرض المقدسة من أيدي الفاسقين وملكوها أنتم من دونهم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبننا وعسلا . وقد سارت هذه الجحافل إلى المشرق تحمل صيحة متمصبة . ياشعب الفرنجة : جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أبناء مخزنة تعلن أن جيشا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد . بلاد المسيحيين وخربها بما نشره فيها من أعمال الساب والخراتق وهم يهدون المذابح في الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم . »

وما كان ذلك صحيحا لا في جملته ولا في تفصيله فقد كان السلاجقة من أكرم الحكام وأكثرهم إيمانا بمفهوم الإسلام في معاملة أهل الذمة . وقد ظل أربان عامين كاملين ينتقل في بلاد أوروبا داعيا إلى الحروب الصليبية حتى وصلت إلى أنطاكية ١٠٩٨ الحملة الصليبية الأولى ثم وصلت جموع الصليبيين ( ١٠٩٣ ١٠٩٨ م ) فيما أطلق عليه الحرب الصليبية الأولى .

وهكذا اكتملت الحلقة في ضرب الاسلام في جناحيه : جناحه فى الأندلس وجناحه داخل العالم الإسلامى عن طريق البحر المتوسط والشام وقد اقتحم الصليبيون الأسوار وقتل من المدافعين نحو ٧٠ ألف مسلم ، وبدأ إنشاء مملكة بيت المقدس الصليبية ثم أكمل الصليبيون احتلال طراباس

عام ١١٠٩ وأنشأوا فيها الإمارة الصليبية الرابعة ثم ملك الصليبيون الساحل كله وجزءاً كبيراً من أراضي الشام وفلسطين شمالى القدس وأعلى الفرات .

## ( ٢ )

منذ اليوم الأول لوصول الصليبيين تداعت القوى وتفاوت الأقطار وخرج المسلمون من كل مكان لمواجهة . يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عن الحروب الصليبية « وظهر قادة الكفاح المنظم وبدأ حرب التحرير سلسلة من الأبطال ، من شرف الدولة مودود إلى صلاح الدين وحطمت حصون المعتدين ، ولم يتقدم الصليبيون من شمال آسيا الصغرى إلى جنوب القدس إلا على أجساد الشهداء ألوف بعد ألوف من العرب قتلوا مدافعين عن أنطاكية وطرابلس ومعرة النعمان وصور وصيدا والقدس وغيرها ، ولم يسكنف المنطوعة من الاغارة على طوابير القوات الصليبية في الطريق فخطفوا رجالها ورومهم بالسهم المصمية وبرزت جماعة الغدائين المقاتلين الذين يسميهم مؤرخونا بالتركان : والترك كان هم الذين علموا العرب والمسلمين فن القتال على الحفر العميقة والرمي بالسهم وراء كل صخرة أو شجرة ، وفي كل بلاد العراق والشام ظهرت جماعات المستنفرين يخطبون في المساجد وعلى قوارع الطرق والأسواق يهيبون بالناس أن يحملوا السلاح وينفروا لتحرير البلاد ، وذهبت جماعات إلى بغداد وحاصرت قصر الخليفة العباسي وأرغته على الظهور فقاتلوه قتالاً شديداً ، وظهر رجال أفذاذ وعملوا على توحيد الصفوف وتكوين قوات عسكرية للجهاد والتحرير منهم نجم الدين أبلقاري بن ارتق صاحب ماردين ونور الدين بلك وآق سنقر البرمقي ، وكان عماد الدين زنكي عام ٥٣١ هـ أول من تمت على يده أول خطوة حاسمة من خطوات التحرير وهي القضاء على أماره الرها الصليبية في أعلى البحار ٥٢٩ وتوفي عماد الدين ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م وخلفه نور الدين محمود ، ابنه الذي أمضى ٢٢ سنة في الميدان حطم فيها قوات الصليبيين تحطياً وقضى على الحملة الصليبية الثانية ووحّد الشام والموصل في جبهة النضال ، وقضى على الفاطميين في مصر وضم مواردها إلى معسكر الجهاد وتوفي نور الدين شوال ٥٦٩ هـ ١١١٤ م وجاء صلاح الدين الذي حقق نصر ( حطين ) ربيع الثاني ٥٨٣ - يوليو ١١٨٧ واستعاد بيت المقدس وقضى نهائياً على مملكة بيت المقدس وقد هز استعادة المسلمين بيت المقدس الغرب كله فتوالى الحملات ولم تتوقف .

ليست هناك حملات صليبية تسمع كما يقولون ولكن هناك تدفق مستمر متفاوت الهجوم ولما هجرت الحملات أن تحقق شيئاً . استندارت إلى مصدر للمقاومة الحقيقي ، يقول جرن بول رو ( بينا

كانت الحملات الصليبية الثلاث التي استهدفت القدس قد تبددت قواها على الشاطئ الفلسطيني ، تغير الاتجاه فقرر البابا أنوسنت ١١٩٨ أن ركّز القوة الإسلامية ليست في فلسطين بل في مصر وكان صلاح الدين قد استولى على الحكم خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ( السادس الهجري ) وأسس سلطة قوية ، وهزم البابا على أن يوجه الضربة إلى صلاح الدين ، غير أن الحملة الصليبية الرابعة انحرفت عن هدفها واستأثرت بالقسطنطينية وتبنت الفكرة الحملة الصليبية الخامسة التي حاصرت دمياط ، ودخلتها ١٢١٧ ، لقد ذهب للمسيحيون إلى مصر للقضاء على القوة الإسلامية وكان على لويس التاسع ألا يعتمد على نفسه فلما فشل في مصر وأسره المصريون حاول أن يضرب الإسلام في مكان أقرب إلى أوروبا وهكذا رأس آخر حملة معدودة من الحملات الصليبية . نعم : على شواطئ مصر انكسرت الحملتان الصليبيتان الخامسة والسادسة ١٢١٥ ١٢١٨م — ١٢٤٧ ١٢٤٩م . تقدم الصليبيون في الأولى حتى استولوا على دمياط ، ونجّمت قوات المجاهدين من شتى نواحي مصر في شرق الدلتا وفي مقدمتهم اتباع الطريقة الشاذلية وكان رجال أبي الحسن الشاذلي يقاتلون في سبيل الله في نواحي المغرب الأوسط وعندما انتشرت الطريقة في مصر أصبح رجالها من المصريين من رجال الجهاد ، هؤلاء هم الذين قطعوا جسور النيل ليفرقوا قوات الصليبيين وأمام طوفان الماء بدأ الصليبيون يتراجعون نحو الشمال حيث كان المجاهدون هناك في انتظارهم فتخطفوهم من كل جانب . أما في الحملة السابعة التي قادها لويس التاسع فإن « الذي قضى على الصليبيين هو ثبات المجاهدين في شمال شرق الدلتا ، لقد تولى المعركة بعد ذلك بيبرس البندقداري ، رئيس المماليك ، ومماليك الصالح أيوب ، الذين قادوا الهجوم المنظم بعد أن كان المتطوّهون المصريون قد انهكوا قوى العدو أنهاكاً تماماً ، وعندما فتح المصريون جسور النيل مرة أخرى تقرر بصورة نهائية مصير الحملة الصليبية السابعة ، فاضطر الأعداء إلى التسليم ووقع لويس التاسع في الأسر ، وتشجع بيبرس بهذا النصر ، وكان همه بعد أصبح سلطاناً هو القضاء على بقايا الصليبيين في الشام وفي يده سقطت إمارة أنطاكية ( ١٢٦٦ هـ ١٢٦٨م ) أما سيف الدين قلاوون فقد استولى على طرابلس في نفس السنة وسقطت هناك في يد الأشرف خليل ابن قلاوون ( ١٢٩١ ١٢٩٩م ) وبسقوط هناك تمت تصفية العدوان الصليبي .

( ٤ )

هذه المعركة الضخمة بين الشاطئين : الشرق والغرب ، بين أوروبا المسيحية وبلاد الإسلام حيث تدفقت الملايين في حقد وغضب وطمع إلى بلاد المسلمين كيف عادت وقد رأت أن سماحة المسلمين وحضارتهم وثباتهم وإيمانهم وكيف كان أثر ذلك في الغرب كله ، وكيف اهتزت له الكنيسة

فقاومته وقضت على كل من يتحدث بخير عن الإسلام ، هذه الجولة الضخمة أنها من أكبر مواقع الصراع الذي شنته أوروبا المسيحية خلال قرنين كاملين لم يتوقف ، بل توالى يوماً بعد يوم ، كان هذا الشاطئ الإسلامي هو مرعى بصر هذه القوات ، التي لم تسكف حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية يقول جان بول ريو في كتابه الإسلام في الغرب : لقد اعتدنا أن نتحدث عن ثغامي حملات صليبية الأولى بدأت منها ١٠٩٦م والأخيرة انتهت عام ١٢٧٠ غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوباً كثيراً مع الواقع ويمكننا أن نزيد هذا المدد إذا أخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التي وجهت إلى الشرق ، وما أن أنشئت مملكة لاتينية في القدس حتى باتت من الضروري الدفاع عنها وبالتالي إرسال النجيدات المتتالية لحمايتها . وقد لوحظ سريماً بأنه حتى يكون الاحتلال مسيطراً فإنه يجب القضاء نهائياً على القوى الإسلامية . « أنها محاولة بقاء الدولة اللاتينية الصغيرة في الشرق بمثابة رأس جسر للعالم المسيحي في عالم الإسلام باللغة الإزهاج بالنسبة له لأنها في قلبه نفسه وما دامت الحرب مستمرة فإن الضغط الإسلامي الرئيسي لا يمكن إلا أن ينصب عليها قبل غيرها . يجب ألا ننحدر من الاهتقاد القائل بأن هذه الحملات الثماني الشهيرة هي وحدها تشكل حروب المسيحية الخارجية ، أن هذه الحملات في الواقع ليست سوى مرحلة هي أكثر المراحل تأثيراً ، وحقة هي أشد الخبث عنفاً في تاريخ هذه الحروب ، لقد كان أمل هذه المغامرة ضئيلاً بالنجاح فقد قذف بملايين الأوربيين إلى شواطئ الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن أجل الوصول إلى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق ، وقد تصلب الأوربيون في عنادهم طيلة قرنين من الزمان وملكية قبر المسيح أصبحت رمزاً للنصر والثبات أكثر منها قضية إيمان . تلك هي وجهة نظر كاتب غربي اليوم : لقد تصلب الأوربيون عناداً ولسكنهم هادوا مهزوين ، وإن كانوا قد استفادوا كثيراً حين تلقوا معطيات الفكر الإسلامي والعلوم التجريبية فكانت هذه الحروب هزيمة عسكرية ونصراً فكرياً وحضارياً ، لقد كشف المسلمون عن جوهر طبيعتهم الصاعدة القوية في الحرب قتالاً ، وفي معاملة أهل الكتاب سماحة وكرماً وحفظ التاريخ ولا يزال يروى صفحات السماحة والبطولة معا ، وكيف هامل صلاح الدين الصليبيين بعد استعادة بيت المقدس .

فن مركز القوة رفض صلاح الدين أن يقتصر ممن قتلوا سبعين ألفاً في معركة دخول بيت المقدس وأكرم العائدين وسمح لهم بحمل كل ماخرجوا به وفرض على المراكب الإيطالية وغيرها إعادتهم إلى بلادهم ، وأكرم كل من ورد من حجاج المسيحيين وشرع في مد العمام

لهم وعندما مرض رينشارد أرسل إليه الأطباء والأدوية والثلج ، وقال أن ديننا لا يسمح لنا إلا بحسن المعاملة .

( ٥ )

لقد غيرت سماحة الإسلام موقف الصليبيين تماماً . وسجل المنصفون منهم تقديرهم لصلاح الدين ، وكشفوا عن الفارق البعيد بين المغيرين للفتصبين وبين أصحاب البلاد المتناضلين في ميادين الحرب دفاعاً عن بلادهم ودينهم ، الرحمة بعد انتهاء الحروب ، يقول هذا ريك فان لون للمؤرخ الهولندي : أن الصليبيين بدأوا القتال وهم يضربون أشد البغض للمسلمين وأعظم الحب للشعوب النصرانية في الدولة الرومانية الشرقية ، ولكنهم حين عادوا كانت قلوبهم قد تغيرت تماماً .

( ٦ )

### نظرة الغرب إلى الاسلام أبان الحرب الصليبية

لم يكن الواقع في أرض القدس هو مآسوه الذين حملوا لواء التحريض على الحروب الصليبية . بل كان الواقع عكس ذلك تماماً . ولم يكن الواقع كما صوروه المائدون من الحروب الصليبية هو ما حاولت الكنيسة أن تقنع به أهل الغرب ولكنه كان عكس ذلك تماماً . ولذلك فقد كان لابد من تكبير كثير من الأفواه وهزل كثير من المائدون من المجتمع حتى لا يتبين أن كل هذه الحركة الضخمة التي استمرت قرنين من الزمان لم تكن إلا مؤامرة وهمية خطيره ، فاما قبل الحروب الصليبية فقد كان الكتائب الفرنسي « برنادي وست » في القدس وكتب في مذكراته يقول : إن السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أنني كنت مسافراً وهاك بعيري ، أو حماري الذي ينقل أمتعي على الطريق وتركها كلها في مكانها دون حارس أو رقيب وسرت إلى أقرب مدينة لأطلب لى بعيراً آخر لوجدت بعد رجوعي أنها باقية على ما هي لم يمسه أحد ، ولكن البابا جريجوريوس السابع عام ١٠٧٥ م لواء الحملة المسلحة إلى القبر المقدس ، وبدعوى أن الأتراك أسروا وقتلوا وهدمت الكنائس وانتشرت شائعة بأن شعباً من مملكة الفرس قد اكتسح أراضى النصارى وأباد سكانها بالسيف والنار ونهب منازلهم . ولم يكن شيء من ذلك كله صحيحاً .

الغاية : هي إثارة هواطف المسيحيين لكي يسيروا إلى مقاتلة المسلمين ، وعلى حد تعبير

كارلتون ونرو المؤرخ الأمريكي : هذه الفظائع المنسوبة إلى المسلمين كانت ممزوجة بكنثير من الأقاوية لتوافق روح العصر وخاصة الرسالة الملتقة للنسوبة إلى الأمبراطور الكيسوس الأول ، وقد لجأ الغربيون إلى أنواع أخرى من الدعاية ضد المسلمين — يقول كارلتون ونرو — فقد أنهموم بعبادة الأصنام ، في كتب ذلك العهد انتشر كثير في الغرب الاعتقاد أن بأن المسلمين يعبدون محمداً كآله ، وإنه كان لهم آلهة وأصنام أخرى قد ، ووجد في السكتب الراجعة إلى عهد الحروب الصليبية أنها كثير ما تذكر هذا الاعتقاد بالوهية محمد عند المسلمين . والمعروف أن الهدف من هذا هو شجب الأثر الذي أحدثه الإسلام في مجموعات القوى المدفوعة إلى الحرب وقد ظهر من بعد ما يعارضه تماماً إذا كشفت هذه القوى إن المسلمين إنما يعبدون الله الواحد القهار ، كذلك فقد أشار الباحثون الغربيون إلى أن الدعاية التي روجها للمتعصبين بأن المسلمين جبناء : هي شبهة تبددت تماماً بعد أن قدموا إلى أرض الإسلام حيث وجدوا أن المسلمين لا يعبدون الأصنام وأنهم مثل حال في البطولة ، صبر في الحرب قادرون على سحق أعدائهم ، وقد اعترف بشجاعة المسلمين ومهارتهم الحربية وفروصيتهم وكرم أخلاقهم هديد من المؤرخين في مقدمتهم جـ بـ ر . ويقول البعجيث كتاب ( GSSTA ) المجهول : أنى سأنكلم عن الحقيقة التي لم يجرؤ واحد على إنكارها : وهي أنهم لو نبتو في دين المسيح وفي المسيحية المقدسة لما كان باستطاعة أحد أن يجد محاربين أقوى وأشجع وأهمر منهم . ويقول المؤلف ( دانا كارلتون ونرو ) الذي نقل عنه : لم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الإعجاب بشجاعتهم بل تجاوزه إلى تحاملات أخرى عليهم ، فقد احتك الصليبيون في سوريا وفلسطين احتكاكاً دائماً متصلاً بأهل البلاد في الأعمال الزراعية وبناء القلاع وقلمما كانوا يميزون بين المسلمين وهرطقة التصارى ويقول : وقد أسر كثير من الأفرنج ظلوا في القيد أمداً طويلاً ، وكانوا عادة يعاملون معاملة حسنة ويمنعون قسماً وافراً من الحرية بحيث أصبحوا يعرفون المسلمين عن كثب والتجارة التي كانت من ضروريات الأمانة الصليبية كانت من عوامل التعارف بالمسلمين وكانت نساء الأفرنج قليلات فأدى ذلك إلى التزاوج بين الفريقين ، وكان المسيحيون يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتقديمهم على أطباء للمسيحيين ، وهكذا نرى أن الحروب الصليبية بعد أن انتهت كشفت زيف الدعاوى التي وجهت إلى الإسلام والمسلمين وتبين أنه لم يكن هناك حدث خطير يستدعي هذه الحملات المتصلة خلال قرنين من الزمان ، إلا التعصب والمظالم ثم كشفت أيضاً زيف الادعاءات الموجهة إلى عقيدة المسلمين وأخلاقهم ، ولما عاد الصليبيون كاز الأمر غاية في القسوة بالنسبة للكنيسة صاحبة الدعوى الباطلة ولذلك فقد أخذ الدعاة أسلوباً جديداً يصنفه الدكتور

(رانا كارلتون منرو) حيث يقول : بدأت الدعاية ضد الاسلام تأخذ شكلا جديداً فبطرس الحترم رئيس دير كايي فكر في إتخاذ خطة جديدة هي تنفيذ تعاليم الاسلام إذ أن الغربيين كانوا يتوقون إلى الوقوف على تعاليم أصدائهم المسلمين ومعتقداتهم ، فقد يكون وصل إلى الغرب خبر البعض من المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ولكن يظهر أن التأثير الأكبر كان لسفرة قام بها بطرس المذكور إلى أسبانيا عام ١١٤١ م ، فهناك شاهد ( تقدم المسلمين وقوتهم ) فعزم على معرفة محتويات القرآن لتنفيذ تعاليمه فاستخدم مسيحيين ثلاثة وجعلهم يشتغلون بالإشتراك مع رجل عربي في ترجمة القرآن تحت إدارة كاتبة ، وقد كلفته هذه الترجمة كمية كبيرة من الدراهم . ولكنها لم تكن مع الأسف ترجمة صحيحة بل كانت فاسدة جداً على أنها هي الترجمة الوحيدة التي عرفها أهل الغرب حتى أواخر القرن ١٧ ، وقد طلب بطرس من برنارد اليكرفوس أن يضع رداً على القرآن فأبى فاضطروا نفسه إلى القيام بهذا العمل وبدأت تظهر كتب حوالية في اللغات الأوروبية المختلفة عملت على إشاعة المعتقدات الفاسدة عن محمد والإسلام وهي التي تنقلها مصادر القرن الثالث عشر والقرون التي تعاقبت .

وهكذا نجد أن الغرب قد حشد نفسه لمقاومة دخول الإسلام إلى الغرب وبدأ يثير الشبهات حوله ويقوم بحملة مضادة هي ما تولى الاستشراق أمره لتزييف مقاهيم الإسلام لدى المسلمين وقد كان من آثار الحروب الصليبية : إندلاع حرب السكلمة والتبشير وبناء ذلك الجهاز الضخم من الإرساليات التي زحفت على بلاد الإسلام واستقرت في لبنان ومنها أمنت إلى استنبول والقاهرة وكل بلاد المسلمين ونذكر في هذا الصدد وصية لويس التاسع الذي هزم في المنصورة ودعا للغرب إلى اتخاذ حرب السكلمة مع المسلمين بدلاً عن حرب السيف ، ولكن هل استطاعت تلك المحاولات أن تعزل الغرب عن فهم حقيقة الإسلام وأخلاق المسلمين وخاصة تلك الصورة الزاهية : صورة صلاح الدين الأيوبي : الحقيقة أنها لم تستطع فإن كثيراً ممن زاروا بلاد الاسلام في هذه الفترة قد كتبوا فصولاً ضافية مازالت مرجعاً تاريخياً ، ومما يذكره المؤرخ الغربي الذي نقل عنه (دانا كارلتون منرو) ذلك البحث الذي كتبه BURCHARD برشارد نحو عام ١١٧٥ ونقله (أرنولد أف لبيك) في تاريخه ، وكان برشارد قد بعث بعثة من قبل الإمبراطور فردريك بارياسا إلى صلاح الدين ، وهنا يصف لنا معتقدات المسلمين وصفاً حسناً ويطرى روح التسامح عندهم ، فيذكر أن في الأسكندرية عدة كنائس مسيحية وأن كل قرية في مصر لا تخلو من كنيسة ، ويشهد أن كل إنسان حري في إتباع دينه الخاص ، وأن أكثر المسلمين يكتفون بزوجة واحدة ، وهو يخبر عن مداومهم على الصلاة وعلى اعتقادهم بأن الله هو خالق كل الأشياء ، وأن محمداً هو رسوله الأقدس ، وصاحب الشريعة



وأن العذراء المباركة خلقت من نفحة روحه وبقيت عذراء بعد ولادة المسيح ، وأن ابن العذراء هو نبي وقد نقله الله لنفسه بأعجوبة إلى السماء . والمسلمون ينكرون أنه ابن الله وأنه تعمد ، وصلب ومات وقام ، ويؤمنون بأن الرسل هم أنبياء ويقدمون الكثير من الشهداء وللمؤمنين ، وتحدث عن صلاح الدين فقال : إن صلاح الدين كان محبوباً في الغرب لسلوكه الرعوف وكرمه بعد استيلائه على أورشليم الذي يخالف تماماً سلوك الصليبيين عام ١٠٩٩ وقد أثار دهشة الصليبيين وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح وقد سمح أن يكون المسيحيين اللاتين راهبان وشماسان في كل من أورشليم وبيت لحم والناصرية وأن يقوموا بطقوس دينهم بكل حرية ، وكان مشهوراً بتأدبه وقد أنشأت بينه وبين ريتشارد قلب الأسد علاقات ودية عديدة وقد وصلت حكايات رأفته وكرمه إلى الغرب ، وقد أشار وليفر في كتاب له : إن للمسلمين اهتموا بالمسيح نبياً وليس إلهاً ، ويشكرون آلامه وموته واتحاد الطبيعيتين الإلهية والإنسانية فيه والثالث الأندلس ، وقد ظهرت في هذه الفترة كتابات كثيرة يجادل بها اللبشرون الغربيون دعوة المسلمين إلى دينهم في محاولة لاستغلال بعض نصوص القرآن ، ومن ذلك وليفر ، هذا ، وجو كست ، ويرجع الباحث الأمريكي هذا الاتجاه إلى الاستعانة بالكتاب الذي كتبه وليم الصوري عن المسلمين ، وقد حاول بعض المبشرين المسيحيين في هذه الفترة استغلال بعض نبوءات كاذبة عن قرب نهاية الإسلام ، ومنها أنبياء صرح الخلافة الإسلامية في بغداد - على يد هولاء - ولو أنهم علموا ما حدث بعد ذلك من توسع وثبات الإسلام وقيام الدولة العثمانية واتساع الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا لندموا على هذه الأوهام . ويقول ( دانا كارلتون ، نيزو ) : أنه بالرغم من كل هذه المحاولات فقد بقيت نظرية أكثر أهمية على ما هي عليه ، وهي ما كانوا يشعرون به من أنه من المستحيل إستمالة المسلمين إلى الدين المسيحي . وقد أثارت مخاوفهم كثرة المسيحيين الذين اهتمتوا بالإسلام ، حتى أن البابا جريجوريوس العاشر عام ١٢٧٤م عمل على وجوب تحريم مديونة المعونة من أرتد من فرقة الداوية وفي معاهدة عقدت مع المسلمين ١٢٧٣م أرغم الإفرنج على التعمد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي : وكان البابوات يعملون لحرب صليبية جديدة وينشطون الدعاية ضد الإسلام . وبالجملة فإن محاولات الغرب في مواجهة الإسلام ، هذه المحاولات القائمة على التعصب والحقد والبغي فقد فشلت جميعها وتبين للغرب نور الإسلام وعظمته ألحقه في ذلك التعامل لمدي قرنين كاملين بين المسلمين والمسيحيين الغربيين الذين جاءوا تحت لواء الحروب الصليبية مفزراً بهم وقد تكشف لهم فساد ما نقل إليهم عن الإسلام نفسه وعن أخلاق أهله فوجدوا الحقيقة السكبري : سلاماً وإيماناً ورحمة .

(٨)

## أجنحة المعركة : بين الجزائر وأسبانيا

بعد أن سقطت الأندلس [وقد بدأت بسقوط (طليطلة) ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)] وانتهت بسقوط (غرناطة) (١٤٩٢ م)] وكانت الحروب الصليبية قد انتهت بهزيمة الغرب (٩٩٦ هـ ١٢٩٩ م) ونشأت الدولة العثمانية في نفس أعوام هزيمة الصليبيين، وارتفعت في سماء المجد حتى فتحت القسطنطينية ٧٥٤ هـ ١٣٥٣ م أي أن آخر معادل الاسلام في الأندلس سقطت بعد استيلاء المسلمين على القسطنطينية بأقل من أربعين سنة، في هذه الفترة التي أخذت الدولة العثمانية تتسع وتنبو كانت هناك حركة خطيرة تزاو لها دولتي الاستعمار الأوليان : أسبانيا والبرتغال بعد أن تحررتا من النفوذ الاسلامي، هذه الحركة ترمي إلى الانتقام من الاسلام في الشاطئ الجنوبي وكان التركيز الأكبر على الجزائر حيث دارت معركة الثلاثمائة عام، وهي الجولة التي سبقت احتلال فرنسا للجزائر من بعد والتي استمرت ثلاثين ومائة من الأعوام لم يكتف الغرب باسترداد الأندلس وإذلال أهلها المسلمين من قتل وتعذيب وتهجير خلال تلك السنوات الطويلة للتخلص من المسلمين نهائياً في شبه جزيرة ايبيريا ومن أهل البلاد أصلاً، ولسكنهم أرادوا ملاحقة هؤلاء المسلمين في بلاد المغرب والانتقام منهم ومن أهل المغرب الذين هربوا مرتين إلى الأندلس لاستنقاذ الملكة الأندلسية نعم (كما يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني) : لم تكتف أسبانيا النصرانية أو تقنع بسحق الأندلس المسلمة واستعادة آخر نقطة للإسلام في أسبانيا بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسعها وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صحيفة حياتها وأن تدفن ذلك الماضي الجيد إلى الأبد، والمعروف أن البرتغال هي التي أخذت بادرة ما أطلق عليه من بعد اسم الاستعمار والكشف الجغرافي وتبعتها أسبانيا وكانت للضربات الأولى موجهة إلى موانئ الجزائر وامتدت إلى تونس والمغرب وليبيا . وقد حملت منذ اليوم الأول روح التعصب والحقد الصليبي وكان قادتها الأول ممن أطلق عليهم اسم المستكشفين بالفئ الكراهية للإنسانية ومندفعين في الانتقام والعنف، وكانت كل محاولات اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حول أفريقيا تستهدف انتفاض الكيان الاقتصادي لعالم الاسلام حتى يكون هاجزاً عن الجهاد والمقاومة، وكانت تحاول أن تحقق ما أطلق عليه اسم تطويق عالم الاسلام من الخلف، حيث كانت الدولة العثمانية إذ ذاك مهيمنة على شرق البحر المتوسط كذلك فإن خطة الغرب المقاومة كلها للإسلام : فسكراً وسياسة، إنما كانت تحاول أن تحول بين أهل أوربا وبين فهم الاسلام فهما صحيحا

ثمة بأنه من اليسر بحيث يدخل في القلوب بغير استئذان، ولذلك كانت تلك الحركة العنيفة التي تفضي إلى صلاكم الحكام التنقيش وهي القضاء على قوة المستعبرين العائدين من الشرق بعد فشل الحروب الصليبية والذين أعلنوا بكل قوة أن ما أذاعته أوروبا عن الإسلام كاذب، وإن معاشرتهم للمسلمين كشفت عن سماحة ورحمة وخلق رفيع، لقد قضوا على هذا الرعيل حتى لا يشكك الأوروبيون في أكاذيب الصليبيين التي هي مبرر حملاتهم على الشرق، كذلك كانت السياسة الإسبانية تعمل على «أن تهبج آثار العصر الإسلامي وتخفيها عن كل باحث ومتطلع كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الإسلامي في تفكير أسبانيا النصرانية وهي لم تدخر وسعاً في مطاردة هذا الروح وقتله»، وقد ظل هذا الانحياز زمناً حتى جاء الوقت الذي ظهر فيه الحق فكشف النقاب عن الحقيقة التي تبرز كرامة الإسلام وسماحة المسلمين. وفي نطاق هذه الخطة كانت تلك الحملة المذهورة على الشاطئ الإسلامي للبحر الأبيض والتركيز على الجزائر بالذات، فبدأ هذا الزحف مبكراً حينما استولت البرتغال على ميناء سبتة سنة ١٤١٥ م، ثم دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح واكتشف كولمبس القارة الأمريكية بعد شهور من سقوط غرناطة بأيدي النصارى الأسبان ١٤٩٢ وفي ١٤٩٧ صار فاسكودي جاما فاستدار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل إلى (موزمبيق) و (مالندي) حيث الحكم العربي الإسلامي، ثم شق طريقه إلى (قالتةوط) ثم عاد إلى لشبونة سالكا نفس الطريق الذي بدأ من قبل. وأنشأ البرتغاليون المستعمرات على ساحل أفريقيا الشرقية، ونمسينا ما بين ١٥٨٢ — ١٥٠٩ من إنهاء السيطرة الإسلامية على شرقي أفريقيا والمحيط الهندي وإقامة ثلاث مستعمرات رئيسية «كاو — موزامبيق — سوخالو».

ثم بدأ تنافس الدول الأوروبية واضحاً بعد زمن قصير من تحرك البرتغال فتمحركت فرنسا ١٥٢٩ وإنجلترا ١٥٨٠ (وهو نفس العام الذي بدأت البرتغال تفقد فيه مستعمراتها بعد ضمها إلى أسبانيا) ثم جاءت هولنده ١٥٩٥، وكان لانكشير الإنجليزي قد وصل إلى الهند عام ١٥٩١ سالكا نفس الطريق البرتغالي القديم حيث أسست شركة الهند الشرقية ١٦٠٠، وقد قام البرتغاليون باستعمار شرق القارة الأفريقية في أقل من عشر سنوات، ثم هبت الدول الأوروبية تنافسهم السيادة الأوروبية في آسيا وأفريقيا، ولم تلبث البرتغال وأسبانيا أن سقطتا وانسحبتا من ميدان الاستعمار، وكان أخطر أدوارها هو حرب الجزائر التي استمرت ثلاثمائة عام أذاقها فيها المسلمون صنوف العقاب والمقاومة، فلم يمكنوها أن تحقق شيئاً مما كانت تأمل فيه.

(٢)

خرج الشرق الإسلامي من الحرب الصليبية مضعضع القوى ، وكانت المعركة في الأندلس على أشدها ، وهي معركة لم يكتف فيها الغرب بالسيطرة على أسبانيا بل امتدت للقضاء على المهاجرين ومعاينة الشاطئ الإفريقي العربي الإسلامي الذي عاونهم وساندتهم والانتقام منهم ، وكانت هناك المحاولات المتصلة لمهاجمة الشواطئ الجزائرية ، وموانئها حيث تكونت في موانئ أوروبا قواعد للقرصنة في أسبانيا والبندقية وجنوة وصقلية . وقد هاجمت هذه القوى معظم سواحل المغرب الأقصى واحتلت مدن وهران ومستغانم والقلمعة المقابلة لمدينة الجزائر وموانئ من تونس ومراكش ، وكان ذلك مقدمة لخطّة شاملة للسيطرة على الإسلام ، وشن الغارات على المهاجرين من الأندلس ومدها إلى مواطنهم الجديدة في شمال أفريقيا ، ولقد اشترك في مقاومة هذه الحملة الحفصيون في تونس والزنايون في الجزائر والمرينيون في المغرب الأقصى ، وقد جاء دورهم في الجهاد بعد دور الموحدين والمرابطين . ومن ثم بدأت الجزائر تدخل المعركة الكبرى التي جاءت بعد سقوط الأندلس بعشرين عاماً تقريباً والتي بدأت ١٥١٤ وظلت ملتهبة الأوار حتى تهاوت بالهزيمة الكاملة عام ١٨٣٠ ( ٩١٨ - ١٢٤٦ هـ ) كانت يد الاستعمار المسيحي الأوروبي قد طمعت في السيطرة على المغرب وأخذت تدق أبوابه بشدة ، وكان الأسبان قد سيطروا على مدينة تطوان عام ١٤٠٠ م ، حيث حطموها وقتلوا نصف سكانها وساقوا الباقي أهلها أسرى إلى أسبانيا وامتدت يد البرتغال إلى مدينة سبتة ١٤١٥ ، وإذا كانت المعركة قد توقفت في المشرق فإنها ثقلت في المغرب وأتسع نطاقها ودخل المسلمون في تجربة أريد بها « السيطرة » على الإسلام من هذه الناحية ، سيطرة قائمة على مفهوم التبشير والغزو الفكري أساساً وإذا كانت موانئ الشاطئ المغربي ( الجزائر وتونس والمغرب ) قد سقطت بين أيدي البرتغال ( سبتة وطنجة وأصيلا وأزمور والصويرة وأسفي ) والأسبان ( صخرة باديس الحربية ومدينة سبتة وبلدة أفني إلى يومنا هذا ) فإن ذلك لم يحدث إلا بعد حروب ومعارك قاسية عنيفة أبلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن بما عرف عنهم من قوة إيمان . وإتقاء لخطر اتحاد إسلامي موسع في أفريقيا ضد الصليبيين الإسبانين أرسل فريناند ١٥٠١ بعد سقوط غرناطة وأثناء اشتداد الحنة وفداً إلى العاصمة: عاصمة الماليك بطلب عقد معاهدة صداقة ، كذلك فإن الراهب ( خيخيفس ) الذي قاد الحملة الصليبية على الجزائر كان يدهي أنه يعمل جهاداً في سبيل الله ، وكان البابا في روما قد أصدر أمره إلى جميع البلاد المسيحية الأوربية أن تضع كل إمكاناتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك أسبانيا من أجل

إخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم والدين المسيحي أخيراً وكان ذلك كله رد فعل الخوف الذي ملأ قلوب الغربيين والأسبانيين على المخصوص بعد إخراج المسلمين من أفريقيا من أن تزحف موجة جديدة على رأسها قائد مثل يوسف بن تاشفين أو عبد المؤمن وكان الأسبان يخافون أن يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ، وكان ظنهم أن يعتسلم لهم المغرب فريسة طيبة وخاصة الجزائر ، ولكن الأمر لم يكن كما تصوروا فإن الأمة الإسلامية التي كانت قادرة دائماً أن تستجيش من أعماقها بالقوة القدرة على المقاومة والردع في الوقت المناسب سرعان ما أخرجت هروج وخير الدين فتغير وجه التاريخ وتحولات المواقع من هزيمة إلى نصر ، وسجل التاريخ للجزائر دوراً بطولياً في هذا العصر وفي إبان شراسة الاستعمار البرتغالي والأسباني لا يقل قوة عن دورها من بعد في مواجهة الاستعمار الفرنسي : فقد حشدت الجزائر كل منحوزها الروحي والمادي ضد العدو المهاجم ، وأقامت دولة الجزائر : دار الجهاد ١٥١٦ التي ظلت تقاوم إلى ١٨٣٠ . وظهر هروج وخير الدين في الميدان ودخلا في الأسطول العثماني ، وبقي هروج أسيراً في يد قراصنة مملكة البندقية وهدمما أطلق صراحه بعد تعذيب وتنكيل قرر أن يكرس حياته لمقاومة القراصنة واستبال اليه أخاه خير الدين حيث كان الصراع على أشده بين القراصنة الأسبان ومسلمي شمال أفريقيا والقادرين من الأندلس فشاركوا في تهريب الناجين والفارين منهم إلى شمال أفريقيا وبلاد الشرق واتفقا مع الأمير الحفصي بتونس أن يكون ساحل تونس وميناء حلق الوادي بالذات مؤثلاً ومركزاً لقوتها البحرية لقاء خمس مايفتمونه من الأعداء ومن « جيجل » بعد افتكاكها من الإيطاليين أخذوا يشن الغارات على القراصنة ، وكرروا المحاولات ضد الأسبان في ثغر ريجايه ، وقد استطاع هروج وخير الدين ومن وراءهم الجموع المجاهدة الكثيفة من الاستيلاء على الجزائر وطرد الأسبان ووسعا مجال السيطرة حتى تلمسان وأقرت الدولة العثمانية هذا الوضع وقد دخل العرب الإسلامي في الدولة العثمانية عن رضا وطواهييه واستطاع خير الدين من بعد الحملة الأسبانية الكبرى على الجزائر ١٥١٩ أسر ثلاثة آلاف جندي من مدينة جيجل وواصل نشاطه سبع سنوات متصلة فاستطاع أن يسيطر على الملاحه في المتوسط وإخضاعها لسيطرة الأساطيل الإسلامية ، كذلك فإنه استطاع اقتحام قلعة الأسبان المواجهة لمدينة ( برج الفناار ) وضمها عام ١٥٢٩ م وتوالت حملات الأسبان ولكنها هزمت شر هزيمة . ثم اختير خير الدين بعد ذلك عاماً قائداً للبحرية العثمانية ولما حاولت أسبانيا وألمانيا وإيطاليا الوقوف في وجه النفوذ العثماني والسيطرة على بلاد شمال أفريقيا زحف خير الدين في قوات كافية ودخل إلى تونس ١٥٣٤ وقد زحف شارل الخامس بعد ذلك في أربعمائة سفينة ، و ٢٨ ألف جندي واحتل حلق الوادي

والتخذ جامع الزيتونة اسطبلًا ولم يلبث خير الدين أن رد عليه بهجوم مفاجئ على جزر البليبا واسترق منها ٦ آلاف شخص وعاد بهم إلى الجزائر وتولى قيادة البحرية الجزائرية (حسن أغا) الذي واجهه القرصنة الأسبانية، حيث أعاد شارل الخامس ١٥٤١ الكرة وقاد حملة بحرية في ٣٦ ألف جندي و١١٦ سفينة وقد سجلت الجزائر انتصاراً عظيماً على أكبر حملة في القرن السادس عشر وضد أكبر دولة ولم يرتدع شارل الخامس وحاول تنظيم حملات انتقامية منذ عام ١٥٤٣ ولكنها فشلت كلها كما فشلت حملته في نفس العام على تلمسان. ولم تغلح مؤامرة شارل الخامس (الذي كان امبراطور أسبانيا) في الإتصال بالأمير إلى العثماني خير الدين حيث عرض عليه الاستقلال لبلاد المغرب تحت حمايته، ولما أحس الأسبان بمساعدة فرنسا لهم، نزّلوا ضد العثمانيين في تونس ولكن درغوث التركي تمكن من النزول في تونس ودخل في صراع عنيف مع قوات أسبانيا في البحر المتوسط وكانت طرابلس في يد فرسان القديس يوحنا منذ عام ١٥٣٥ تسلموها هدية من الامبراطور الأسباني شارل الخامس، وكان الأسبان قد استولوا عليها ١٥١٠ فلما استنجدت طرابلس بالسالمطان العثماني بعث إليهم نجدة بقيادة مراد أغا، فلما استعصت عليه طرابلس جاءته نجدة من سنان ودرغوث الذين قدما جميعاً إلى طرابلس وفكوها من الفرنسيين وطردهم نهائياً ١٥٥١ م وجمع درغوث قوات بحرية كبيرة وحاصر جزيرة مالطا وتصارع من جديد مع فرسان القديس يوحنا واستشهد وهكذا نجد أن الغرب المسيحي مثلاً في البرتغال وأسبانيا قد انطلق انطلاقة عنيفة حادثة إزاء المغرب كله ولكن الدولة العثمانية كانت مع مجاهدي المغرب حونا على ضرب هذه المؤامرة ولما رأى البابا أن القوى الإسلامية صامدة وقادرة على رد الاهتداء بقوة، ألف حلفاً مسيحياً ضد الدولة العثمانية اشتركت فيه البندقية وأسبانيا، وقد التفت قوات هذا الحلف بالأسطول العثماني في معركة (ليبانتو) الشهيرة عام ١٥٧١ على مدخل خليج كورنث باليونان وتغلبت، ولكن الأتراك أهادوا تونس أواخر ١٥٨٣ ضربوا الحصار على حلق الوادي حتى أرغوا الأسبان والأمير الحفص على الفرار إلى تونس ثم لاحقهم هناك والنحوا معهم في معركة فاصلة وهزمهم ولم يتوقف الأمر بعد على البرتغال والأسبان بل أخذت الدول الأوروبية جميعها تتصارع على الشاطئ الإسلامي الأفريقي، وبدأ هصر القرصنة الأوروبية المسيحية وقد واجه للمسلمون في تونس وطرابلس والجزائر هذا الخطر باتخاذ قوات بحرية للدفاع عن كياناتها وشواطئها ضد الحملات والحروب الصليبية التي كانت تشنها الدول الأوروبية، وقد واجه المغرب الإسلامي التحدي الصليبي (كما فعل أهل المشرق بالحروب الصليبية) بأعنف الوسائل التي تمتثل في إنشاء أساطيل وإعداد قوات بحرية ضخمة لتحث أطباع

دول وممالك أوروبا وظاهر الأسطولين الفرنسي والانجليزى على أنقاض التركى والأسباني وكانت هذه بداية مرحلة جديدة .

#### ( ٤ )

ولقد كانت القرصنة الأسبانية البرتغالية أشد ما تكون هولاً وفضاهة ، تفنك بالمسلمين فتسكا ذريعاً ، وتعمل على استئلال رقابهم ، لولا أن الأتراك العثمانيين كانوا قد وطدوا فى المشرق أقدامهم ، وشيدوا أسطولا هتيداً واشتهر رجال البحر هروج وخير الدين وكانا قد تطوها بنقل المسلمين من الأندلس إلى سواحل المغرب ، ثم تعاقدوا مع الأمير الحفصى التونسى على أن يجعل قاهدة أعمالهم البحرية فى جزيرة ( جربة ) وأصبح النفوذ الأسباني يزداد فى البحر والأسبانيون يتسكالبون بكل جرأة على للمسلمين ، ثم أرسل الجزائريون إلى بربوس خير الدين يستنجدون به فقدم وجعل مدينة الجزائر عاصمة مملكة ، ولما أرسل خير الدين إلى السلطان يشعره بدخول الجزائر نحت لوائه أمد السلطان الجزائر بمجنذ وأسطول وأصبح الأتراك يقفون وجهاً لوجه أمام الأسبان الممتدين . وأذاق بربوس الأسطول الأسباني أصر العذاب ودمره شر تدمير فى عدة مواقع كبيرة وأمتد ميدان المعركة بين الغرب والإسلام من تلمسان إلى البحر المتوسط وكان للحكم التركى أثره الكبير فى إنقاذ الجزائر - والمغرب كله - من شر الاحتلال الأسباني وكانت ولاية الجزائر تتمتع باستقلال داخلى تحت سيادة الباب العالى الاسمية وأقامت الجزائر فى مواجهة القرصنة الأوروبية وهاد من الجهاد الذى يسفر عن الحرب مع الدول البحرية التى لم تربط علاقاتها التجارية مع حكومة الجزائر ، وكانت تحسن معاملة الأسرى المسيحيين وتسمح لهم بإقامة معالمهم الدينية علناً فى نفس الوقت الذى كانت أسبانيا تقوم فيه بحرق المسلمين أحياء . ولقد انكسرت الدول الأوروبية وخاصة الأسبان أمام الجزائري مراراً ومرات ، وحاولت أسبانيا أن تنال مع الجزائر ، ولكنها كانت أعظم مدينة حصينة بالبحر المتوسط كله ، وكان بها من المواقع الضخمة ما يفوق فى رمية وقوته مدافع أوروبا وكان الأسطول الجزائرى مؤلفاً من ٧٢ قطعة بحرية يحمل كل منهما ٣٠ مدفعاً إلى ونحو من ١٤٠ سفينة من ذات العشرين مدفعاً .

#### ( ٥ )

ولقد حاول الغرب فى العصر الحديث وهو يكتب التاريخ أن يزيف كثيراً من الوقائع ، ومن ذلك محاولة الإدعاء بأن المسلمين كانوا يمارسون القرصنة على النحو الذى هرف عن للغرب نفسه والواقع أن ما كان يمارسه الغرب فى مواجهة أساطيل المسلمين وفى وجه هجرة الأندلسيين ، إنما يسمى بالقرصنة كذباً وعموها ولكنة فى الحقيقة يسمى باسم لصووية البحر Course أما القرصنة Firaterie فى مفهومها الصحيح فهى نوع من أنواع الحروب البحرية التى تقع بين الدول المتعادية التى كانت الغاية

منها ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه والواردة إليه وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية وقد كانت الحكومات تسلم أوراقا رسمية للقراصنة تكسبهم بذلك صبغة مشروعة تميزهم عن لصوص البحر وتجعلهم شبه جنود ومتطوعين أحراراً يعملون فوق البحر ، كذلك فالمعروف أن القراصنة لا يعملون إلا مدة الحرب فحسب ولقد نشطت القرصنة الاسلامية بهذا المفهوم داخل القيود المشروعة وفي نطاق القرصنة العالمية في ناحيتين : ( الأولى ) ناحية الشرق حيث كانت السلطنة العثمانية أيام هنفوان قوتها تحارب كل الدول الأوروبية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط فألى جانب أسطولها الضخم الذى كان يدوخ البحر وتحتل الجزر والموانئ وينقل الجنود والعتاد ، أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولا للقرصنة النظامية يحارب من حارب سلطانهم ويسالم من سلمه ، وعظم شأن هذه القرصنة فأصبحت تجارة وأرزاق الدول المعادية فى الصميم . واشتهر من قراصنتها أبطال عمالقة لعبوا فى التاريخ الاسلامى أدواراً سجلت أسماءهم فى سجل الخالدين أمثال هروج وشقيقه خير الدين وأمثال قالش على وطورغود ، وسنان وإسراهم . ( الثانى ) فى بلاد المغرب الاسلامى حيث نشأت القرصنة الاسلامية أول ما نشأت ببلاد الأندلس وكانت مدينة ( المرية ) مركزها الأكبر ، فكانت بأعمالها الواسعة فى البحر المتوسط وفى المحيط وفى مضيق جبل طارق تشارك فى ذلك الصراع الاسلامى المسيحى الرهيب وتتصدى لسفن الأسبان وحلفائهم . وذلك بينما كان للأسبان والبرتغال قرصنة فى ذلك الحين من أولى القوة والبأس يعترضون فى كل البحار سير السفن الاسلامية وخاصة على سواحل المغرب الاسلامى وإزدادت هذه القرصنة على السواحل المغربية جرأة وعدواناً عندما حم القضاء بمسلمى الأندلس وأخذت بقيامهم وفلولهم تخترق البحر ، فارة بدينها وشرفها وبقايا متاهها وأموالها إلى سواحل الشمال الأفريقى فكانت سفن القرصنة الأسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الاسلامية وأسبي من فيها من رجال ونساء وتأخذ ما معهم من متاع ، وقد اشتد غضد المسلمين فى المغرب بمن جاءهم من مهاجرى الأندلس الشفريين العارفين بالملاحه وفنونها الماهرين فى صناعة السفن فأخذت المدن الساحلية تنشئ سفن القرصنة دفاعاً وتقابل العدوان بالمثل وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا ، ووهران وشرشال والجزائر ودلس وبجاية وحيجبل ، تخرج جريئة إلى سواحل أسبانيا تقاتل فيها العروان بمثلهم فتخرب معالم العدو وتأخذ ما استطاعت أخذه من خيراته ، وأرزاقه ، وتسبي ما استطاعت سبيبه من رجاله ونسائه وتمتد يد الاهانة والمساعدة للمنسكوبين البائسين من رجال الاندلس ، وكان لمدينة وهران فى مستهل القرن ١٦ ( ١٢ سفينة ) قرصان بلغ قوتها وجراتها أنها هاجمت سواحل الشى واليكانتى وأخذت منها القنائم والأسلاب ثم صارت ست منها إلى مرسى مدينة مالقه الأسبانية فاقنعتهم وأحرقت داخلها كل السفن المعادية التى كانت بها .



يقول الأستاذ ف. ا. بروديل : أن القرصنة لم تسكن في غرب البحر المتوسط بالشئ الجديد فبند قرون عديدة كان المسلمون ، وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر ، ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ ، فإن القراصنة المسيحيين كان عددهم كبير جدا خلال القرنين ١٥ ، ١٦ . بهذا البحر المتوسط خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك ، لكن القرصنة الإسلامية زادت ضراوة في الشمال الأفريقي بعد إبعاد مسلمي أسبانيا واضطرارهم إلى الالتجاء لهذا الشمال .

( ٦ )

ولا ريب أن القرصنة قد انطلقت من أوروبا ومن أسبانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، وبريطانيا والدنمارك والسويد وبلجيكا وغيرها من الدول الأوروبية ، أما الدفاع فبدأ من المغرب الإسلامي ، إبتداء من ١٥١٠ بتدخل هروج وأخيه خير الدين بعد أن كانت القرصنة الأوروبية المقرونة بالصليبية شائعة دائمة سائدة في البحر المتوسط ، هذه القرصنة بدأت في أوروبا بالهجوم وكانت احتلالا صليبيا وكانت أيضا قرصنة بقصد الأغراض الدينية ، بقصد السكسب والسلب والنهب ، ولم تسكن من المغرب الإسلامي إلا دفاها عن النفس ، وقد أنقذت هذه الحركة الجزائرية كثير من الأندلسيين من أسبانيا ، وإذ ذاك فقط قويت البحرية الجزائرية إبتداء من عام ١٥٣٠ ووصلت سفنها إلى سواحل ابرلندا وإنجلترا والدنمارك ، وفي القرنين ١٧ ، ١٨ أصبحت قوية فعلا وقلبت الموازين وسادت البحار طول القرون التالية حتى عام ١٨٢٧ كانت البحرية الجزائرية مجرد دفاع عن الشواطئ والسيادة ضد حركة صليبية جديدة خطط لها على مستوى عالمي ، وبدأ تنفيذها « فرديناندو السكاتوليكي » على سواحل المغرب والجزائر ونائب ملك صقلية على سواحل تونس وطرابلس . وكانت القرصنة الصليبية الأوروبية تمتد وتبسط نفوذها وتنطلق بعيدا ، وفلا ذهبت بعيدا إلى الفلبين وإذ امتدت أسبانيا حتى الفلبين امتدت هولندا إلى أندونيسيا فلما جاءوا إلى الجزائر هزموا شارل الخامس شر هزيمة ، وقاومت حملات أوروبية أخرى عديدة وخاصة فرنسية إبتداء من عهد هنري الرابع قامت بها البحرية الأوروبية ولكنهم نكصوا كلهم على أعقابهم مدحورين أمام شواطئنا تاركين وراءهم أسلحة وعتادا وأمري في المعارك التي لا تكاد تحصى كما مضى الأسبان والبرتغال في المغرب بهزيمة شنيعة في معركة وادي المخازن المعروفة .

( ٧ )

ولا ريب أن قيام الامبراطورية العظمى في التاريخ الاوربي ١٥٢٠ م وهي امبراطورية شارل الخامس أو شارلكان كانت أكبر من حل أحقاد الصليبيين الغربية على المسلمين ، وكان شارل قد جمع بين يديه أسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقلية وطيطة وسردينيا وناپولي وجزءاً من ألمانيا وأغلب البلاد الأمريكية المعروفة ، وأصبحت هذه الامبراطورية تنف أمام الامبراطورية العثمانية ودولة الجزائر ، وقد لقيت الاندحار فوق أرض الجزائر وأنهار الامبراطور مكسيميليان نمت ضربات الأتراك العثمانيين الذين تحالف معهم ملك فرنسا فرنسو الأول . ومما وقع فيه شارلكان : احتلال عاصمة ألبانيا ١٥٢٥ وانتهاك حرمتها بواسطة جنوده من ألمان وأسبان واحتلال تونس ونهبها وانتهاك حرمة سكانها ١٥٣٥ .

( ٩ )

## اوربا والغرب بين المسيحية والاستعمار

### ١ — أوربا للمسيحية

هزت المسيحية : دين الله المنزل بالحق على عيسى بن مريم إلى أوربا الرومانية الوثنية التي كانت تعيش سنوات انحلال الامبراطورية العتيقة ، وكان ذلك على يد « بولس » الذي ظهر في السنة الثامنة بعد المسيح ، وكان من أكبر أخبار اليهود المعروفين بالعلم والذكاء ، وكان في أول أمره من أهداء للمسيح وأشد المنكرين على تعاليمه مع أنه لم يجتمع به قط ، ثم عاد فادعى إن المسيح هبط عليه وهداه الحقائق وأمره بإعلانها فظهر للناس في طوره الجديد . ولد في طراطوس بآسيا الصغرى ، إسمه الأصلي ( شاول ) روماني الجنسية درس في القدس وكلف من رئيس السكنايس اليهودي بالذهاب إلى دمشق لمقاومة المسيحية قال : أنه في طريقه رأى نوراً ساطعاً يدعو إلى الإيمان بالمسيح وقد ادعى أنه تلقى للمسيحية من المسيح نفسه لا عن طريق الحوارين . وقد ثار عليه اليهود بعد اندماجه في المسيحية وقبض عليه في أورشليم فسجن عدة سنين قبل أن يرسل إلى روما ومن هنا أدخل للمسيحية إلى عالم الغرب وهو في نظر كثير من المؤرخين الغربيين : المؤسس الحقيقي للمسيحية الحالية فقد وضع قواعد جديدة اختلفت بها عن الرسالة المنزلة وأمامنا وثيقتين أحدهما للعالم الغربي ( بيري ) والأخرى لافيلسوف ( ويلز ) يقول بيري [ جاء شاول وهو يهودي روماني من المفريسيين أحد طبقات اليهود

العلما لم يرى عيسى ولا سمعه يبشر الناس ، وقد لعب شاعول هذا دوراً كبيراً أنقذ به للمسيحية بعد أن أوشكت أن تدخل عالم النسيان الذي ضم كثيراً من أشمال هذه الحركات ، وكان شاعول في هذه أكبر أعداء للمسيحية أوقع بأهلها ألواناً من الاضطهاد والقتل والتنميب واسكننا فجأته حول إلى للمسيحية واستجدم تجاربه ومكانته لينفع المسيحية وينفع بها . وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبداً ولكن شاعول كون المسيحية على حساب عيسى ، فشاعول الذي سمي فيما بعد بولس — هو في الحقيقة مؤسس المسيحية وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار ، أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود ، أدخل صوراً من فلسفة الأفريقى ليجذب له أتباعاً من اليونان فبدأ يذبح أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة ، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق اليهودية فأنجازوا إلى ديانة بولس ، وعهد كذلك ليرضى المستضعفين اليونان فاستمار من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة ( فيلون ) أو ابن الإله أو الروح القدس — بدأ بولس ديانته في أنطاكية حيث نشأ لأول مرة التمييز الشهير المسيحية Christian وبدأت تنتشر هذه الديانة في المدن حيث تسكن الحاجة والفقير . فبولس هو المؤسس الحق للديانة المسيحية وقد طور فكرة « المسيح » من الناحية اللاهوتية والناحية الإنسانية وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ القديمة فقدم آداباً مستحدثة في طابع قديم مألوف ، وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية . ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية بل على العكس اقتبس كثيراً من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين وليبعد ديانته عن أن تذوب في اليهودية ومنها أنه جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد ، وأهل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود كما غير أيام الأعياد .

وعيسى أصبح ابن الله حملت به أمه العذراء حملاً غير طبعي واحتلت صورة العذراء والمسيح مكاناً مقدساً أحتلته قديماً صورتنا حورس واوزيريس ووضعنا في كل الكنائس . وعلى الرغم مما أخذت المسيحية من الوثنية لم تصبح المسيحية وثنية في روحها بل ظلت منهكة بتحفظها الدينى الذي ورثته عن اليهودية كما حافظت على ابتعادها من الناحية الجسدية الشهوانية . أما الفيلسوف ( ه . ج . و ) فيقول : كان القديس بولس من أعظم من أنشأ للمسيحية « الحديثة » ، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس ، وكان اسم بولس في الأصل شاعول وكان في بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفته الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس وقد أوتي ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة كما كان شديد الاهتمام بمحركات زمانه الدينية فتراه على — لم

عظيم باليهودية والليبرالية، وديانة ذلك الزمان الذي تعنتها الاسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتميمتها وهي فكرة ملكوت السموات ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح للوجود فقط، بل أنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر، فوته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشر (مع ملاحظة أن الاسلام لا يقر هذا المفهوم ويقرر أن عيسى رسول الله وليس ألهاً ولا أبى إله وأنه لم يصلب كما لا يقر نظرية الخطيئة) وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالتقيس الخلق وتقديم الذنور والهباء كل والشموع والتراتيل والتماثيل التي كانت لعقائد متراس والإسكندرية بل تبنت أيضاً حتى عبارتها في عبادتها وأفكارها اللاهوتية، وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاتية إلى أن شأن عيسى كشأن أوزيريس : كان ربما مات ليبعث حياً ولينجح الناس المخلود .

من هذين الوثيقتين التاريخيتين اللتين كتبهما رجال مسيحيون من خبرة مفكرى الغرب نرسم الصورة التي عبرت بها رسالة السيد المسيح — التي جاءت ختاماً لرسالات أنبياء بنى إسرائيل — عبرت إلى الغرب، وكأنها ديانة مستقلة، وديانة دهوة، وقد تحررت تماماً من أكثر صلاحيات السماوية وارتباطها التاريخي، وانصهرت في مجتمع مشكل مكون له حضائوته وثقافته وقانونه ونظامه فكان من العسير عليها أن نجد مكاناً إلا بعد مشقة شديدة . وقد وجدت في سنوات انتقالها الأولى معارضة شديدة، ولكنها لجوهرها الرباني استطاعت أن تشق طريقها إلى النفس الإنسانية الغربية الوثنية التي كانت غارقة في الشهوات والآثام فوجدت للمؤمنين بها الذين واجهوا بعد ذلك أشد أنواع الاضطهاد والتعذيب حتى اعترف (قسطنطين) بها كديانة للدولة عام ٣٢٣ م وكان عهد دقلديانوس ٢٨٤ م من أقسى عهود التعذيب والاضطهاد . ولقد كانت فكرة بولس قائمة على استرضاء كل العناصر الوثنية وللمدينة وغيرها حتى تنفذ المسيحية إلى المجتمع الذي كان في ذلك الوقت يعيش حياة مريرة من العبودية القاسية، والسيطرة الحاكم الشنيع، وحيث يسيطر الحكام ويتأملون، ويعيش المجتمع كله حياة القتل والحرمان، وعندما دخلت الدولة الرومانية في عهد قسطنطين المسيحية تحوت الصورة نعمة: فقد حمل الناس على الدخول في المسيحية بالسيف فدخل الناس في الدين حاملين معهم عقائدهم الوثنية الموروثة التي عز عليهم أن يتحرروا منها لشدة التصاقهم بها فخلطوا بينها وبين دينهم الجديد فكان هذا أول ما طرأ على الديانة من الانحراف ومن هنا فقد أصبح أتباع المسيحية فريقان: فريق الشرقيين الذين نزلت فيهم الديانة والذين يؤمنون بأن المسيح عليه السلام نبي مرسل من ربه، وفريق الغربيين

الرومانيين الذي شكل فكرهم بولس ، والذين يقولون بألوهية المسيح وقد وقع الصراع بين الفريقين وكان عنيفاً فقد كان (أريوس) وأتباعه يعارضون المذهب الروماني ويعلمون موقفهم واضحاً بالتمفرقة بين الألوهية وبين النبوة وقد عقدت مجتمعات متعددة لمناقشة هذا الخلاف وحسمه وقد حسم أخيراً لحساب المذهب الروماني فلاريب كان لدخول المسيحية إلى الغرب مصدراً من مصادر التغيير ، ولكنهما وقعت في برائن الفلسفة اليونانية فاحتدم الجدل بين اللاسفة والنصارى وبين النصارى وأنفسهم ، وكان الخلاف حول طبيعة المسيح ، ولم يكن للنصارى الأول من العلم ما يمكنهم من مقاومة الفلسفة اليونانية فتنقلب العنصر المسيحي اليوناني على العنصر المسيحي المركب من بسطاء اليهود فاختلطت وتغلّبت مسائل الفلسفة اليونانية على تعاليم الديانة المسيحية . وقد ظلت فكرة (أريوس) مسيطرة زمناً ، القائلة ببشرية المسيح ، وأنه ليس بآله ، وكان المذهب الأريوسي شريعياً وقد ظل مسيطراً ، حتى عام ٣٦١ عندما ثار الأساقفة الغربيون ونادوا بمذهب ألوهية المسيح ، وأصدر الملك تيودور سيرس (الذي جاء بعد الملك قسطنطين) قراراً بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا المقاتل بألوهية المسيح ومن يخالف ذلك هرطقياً مرزولاً ومسنوجياً لأشد العقوبات . وكان الأسقف أنفيلوك هو الذي أقنع الأمبراطور تيودورسودرس بهذا الاتجاه ومن ثم استقرت فكرة ألوهية المسيح . ويرى توينبي : إن المسيحية هي نتاج لامتزاج الحضارتين اليهودية واليونانية . ويقول : إن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة عالمية موجودة ، آنذاك ، هي الأمبراطورية الرومانية ، واستغرق تسميح هذه الأمبراطورية من الكنيسة الكاثوليكية ثلاثمائة سنة .

ويقول العالم المسيحي (أرنست دي دينسين) في كتابه :

#### ISPAM OR TRUE CHRISTIANI

إن المسيحية انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار البوذية واليونانية على يد بولس : وإن العقيدة والنظام الديني الذي جاء به الإنجيل ليس هو الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع بين المسيحيين اليوم وبين مفهوم الإسلام ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس : ذلك المآزق اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتثليل ، وملئه الصحف بالنبوات والأمثلة ، أن بولس في تقليده لأسطفانوس راعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، أنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوى عليها الإنجيل اليوم والتي تعرض المسيح بصورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً ، ليس

المسيح هو يولس ، والذي جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس العقيدة المسيحية والأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً . ويرد الكثير من الباحثين الغربيون : الفكرة الأساسية فى المسيحية : « التثليث » إلى الفلسفة الأغريقية ، ويقولون : إن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية الحديثة ، لذلك يوجد بينهما مشابهاة كثيرة ، ومن هنا فقد صار للمجتمع الغربى بعد المسيحية : اضطراب فكرى شديد لتلك التداخلات بين الدين الحق المنزل وبين الفلسفات ، وفى هذا يقول لورد ما كولى : « لم يسلم تابعوا المسيح من النصارى » أن يصيبهم فى إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغبرهم من قبلهم ، فتمثل الإله لهم فى صورة آدمى مثنى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان يبكى على القبور وينام فى البيوت ثم صلب حتى سال دمه على أهواد الصليب فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لعيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ هند التونان وكذلك اتخذوا العذراء وسيدسليا وغيرهما إلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى إلهات لدى اليونان ، وبعد ، فهل استطاعت المسيحية على هذا النحو المغاير أن تعطى المجتمع الغربى كلمة السماء : ألحق أن المسيحية حين وصلت إلى أوربا ، وصلت إليها نظاماً روحياً وإرشاداً خلقيا فقد كانت روما تقوم على القانون الرومانى على الحياة والمجتمع ، ومن هنا فهم لم تستطع أن تتجاوز دائرة العقيدة ، كذلك فإن المسيحية حين اهتمت مفهوم الرهبانية عارضت العمل الدنيوى معارضة شديدة وجعلت الحياة الإنسانية قاصرة على العمل للأخرة ، وفى كلا الأمرين هجرت الدعوة الوثنية التى هبرت إلى الغرب أن تعطى مفهوماً حقيقياً لرسالة السماء .

( ١٠ )

## الامبراطورية الرومانية

استولى القوط الغربيون على روما عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم الميروليون الذى قوضوا أركان الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ وقد ضمت الامبراطورية الرومانية بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت أقصى اتساعها فى عهد الامبراطور تراجان — ١١٧م وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غرباً حتى الفرات شرقاً فشملت

في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وأبيريا وإيطاليا بالإضافة إلى شمال أفريقيا من المحيط الأطلس حتى طرابلس ، وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية : البلقان من آسيا الصغرى وأهالي بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقة وقد امتد نفوذها السيامي إلى ما وراء حدودها التي تسيطر عليها واستوعبته شعوباً ذات حضارة قديمة كالمصريين واليونان . ويرد للمؤرخون قيام الامبراطورية الرومانية إلى عام ١٤٦ قبل الميلاد ومنذ العام ٣١ قبل الميلاد أصبحت الدولة الرومانية امبراطورية . ومن أهم أحداث التاريخ أن للمسيحية ظهرت في عصر الامبراطورية الرومانية وكانت منطقة الشام وفلسطين التي ظهر فيها السيد المسيح تحت سيطرة الرومان وقد تعقب الأباطرة الرومان المسيحية بال مقاومة والأضطهاد الشديدين منذ البداية إذا كانت المسيحية منافسا خطيراً للوثنية التي كانت تدب بعبادة الامبراطور ، وبعد فترة دقلديانوس أشد ما واجه الكنيسة المسيحية ، فقد قدم كثير من الشهداء أرواحهم فداء لرسالة السماء ولكن المسيحية هادت فانتصرت عام ٣٢٥ . وفي عهد قسطنطين الأكبر ٣١٣م الذي اعترف بالديانة المسيحية كإحدى ديانات الدولة المنعقدة في ذلك الوقت ولم تلبث المسيحية أن انتصحت إلى أريوسين واثناسيوسين ، وقد اعترف قسطنطين بالمسيحية بمنهجها مع عبادة الامبراطور ، التي كانت تعتبر مصدراً أساسياً لقوة الأباطرة ونفوذهم وقد أقام قسطنطين قوته السياسية على دعائم رئيسية هي : [ العبادة الامبراطورية + العقيدة الأريوسية + العقيدة الاثناسيوسية ] وقد احتفظ بالعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها كما احتفظ كأسلافه الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم : ويقول المؤرخون : « لقد التقى قيصر والمسيح في المجتهد فانتصر المسيح على قيصر » ولا ريب أن المسيحية قد كسرت حدة الوثنية واليهودية التلمودية ومهدت للتوحيد الخالص خلال ستة قرون كاملة وقد اتخذ قسطنطين : القسطنطينية عاصمة له عام ٣٣٠ وكان من أثر ذلك أنه عندما اجتاحت الغزاة أوربا سقطت دولة روما عام ٤٧٦ وبقيت الدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية حامية للمسيحية حتى اقتحمها محمد الفاتح عام ١٤٥٣ حيث سقطت القسطنطينية نهائياً في أيدي المسلمين وبعد سقوط الدولة الرومانية في أوربا قامت بدلا منها دولة الكنيسة وظهر سلطان البابا سياسياً وديلياً وأصبح له نفوذه الواسع على ملوك أوربا وأخذت أوربا تتجمع في وحدة فكرية مسيحية تحت لواء الكنيسة ، وفي نفس الوقت ظهرت الرهبانية واكتسحت المجتمع الغربي كله وبالمسيحية انتقل الغرب من مرحلة أخرى في الفكر والعقيدة والثقافة . كانت الفلسفة الرومانية قائمة على عبادة الفيصر ، وإطلاق الذات والشهوات ، واستملاء السادة وعبودية العبيد ، فلما جاءت المسيحية هدمت هذه الأسس الثلاث وسارعت بإسقاط المجتمع الروماني فجلة فإن الاعتراف بالمسيحية

عام ٣٢٥ وسقوط روما عام ٤٧٦ مالا يزيد عن قرن ونصف قرن تحول فيها المجتمع الغربى تحولا خطيراً وانتهى ذلك الإطار اليونانى الرومانى الذى قام على الإلحاد والإباحية والعبودية ودخلت أوروبا حينئذ فى مفهوم جديد قوامه عبادة الله وتحريم الإنسان والدعوة إلى الأخلاق غير أن هذه العوامل الثلاثة لم تستكمل وجودها فقد شاب الدعوة إلى عبادة الله إنحراف التفسير الذى قدمه بولس وشاب الدعوة إلى تحرير الإنسان روح النفسك والرهبانية التى نقلت المجتمع الغربى من التحلل الخطير إلى العزلة التامة .

يقول ووبرت بلر فى كتابه تاريخ العالم الحديث : لقد انتشرت المسيحية فى البداية بين الفقراء المحرومين من بهاء الحياة الأغريقية وزهو الحياة الرومانية أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم إلا أن يرجو المسرة على الأقل فى العالم الباقى ، ثم أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى ، ولم يحل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الرومانى يدين بالمسيحية رسمياً ، ودخل فى المسيحية المنسكرون والرجال الذين أخذوا على طاقم توحيد المعتقدات المسيحية مع الفسك الأغريقى الرومانى التقليدى وفلسفته التى مر عليها ألف عام وأهمية المسيحية فى دخولها أوروبا ، أنها جلبت مفوماً جديداً للحياة البشرية ، فإذا قاد الاغريق الإنسان إلى عقله فإن المسيحية دلته على روحه وعلمته أن الارواح منساوية فى نظر الله وأن كل نفس بشرية مقدسة وطاهرة وإذا عرف الاغريق جمال الروح استبدل المسيحيون القنائة الذاتية بثمرات الاعمال البشرية التى كان يؤمن بها الاغريق والوثنيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواصل لله ويشير ووبرت بلر إلى أن المسيحية أحدثت بذلك ثورة ، إذ إليها يرجع الفضل — لا إلى الفلسفة الفعلية — فى تبيد الكثرة من الآلهة والآلات الصغرى والعظمى وأبطال ضحايا الدماء ومملىة التضحية بالنفس ، واختفت بفضل المسيحية عقائد الوثنيين فى آلهتهم المحلية ، أو القبلية أو القومية ، وأصبح على جميع العالم أن يعتد بآله واحد للخلاص من الآثام بعناية إلهيه واحدة تنجيه إليها القلوب ؛ وكان من شأن المسيحية أيضاً : أن كشفت أن الامبراطور فى الدولة الرومانية ليس كما كانوا يصورونه أهلى من كل مخلوق على وجه الارض .

ويقول : لم يكن فى نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس فبعض الآلهة يتصرفون كالناس وبعض الناس أكثر شبيهاً بالآلهة من غيرهم ، فالامبراطور كان يعد فى الحقيقة إلهاً ، « الآلهة قيصر » وقد اقيمت العبادة لقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التى كانت هى العالم نفسه ، وقد رفض



المسيحيون ذلك بشدة وامتنعوا عن قبوله ، وقد هرض القديس أوغسطين : العقيدة بصورة منظمة وواضحة في كتابة مدينة الله ( ٤٢٠ م ) على ضوء قول المسيح : « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كان العالم عالم القيصر ، وكان عهد القديس أوغسطين قد أشرف على الإنهيار فقد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها ٤١٠ م ، وقد كتب أوغسطين كتابه في ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وأن كان العالم تلاشى فإن هناك عالماً آخرأ أكثر خلوداً وأعمية ، وقال أنه يوجد في الحقيقة مدينتان : المدينة الأرضية والمدينة السماوية ، فمدينة الإنسان زائلة ومدينة الله هي الخالدة ، والمدينة الأرضية هي ملك الدولة والأمبراطور ، وملك السلطات السياسية والخاضعين للسياسة ، وقال : أن الإمبراطور إنسان والحكومة ليست أزلية ومطلقة التصرف . وهي خاضعة في الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا ، وأن هذه القوة تقع في مدينة الله ، ولا ريب أن هذا التحول في مفهوم المسيحية قد اتسع في القرون التالية وأحدث تأثيراً بعيد الأثر خرج بالدين الإلهي عن وضعه الصحيح ، وخاصة في مفاهيمه التي تتصل بالصلب والخطيئة والتثليث : وما أشار إليه روبرت بلر : من قوله : ( إن الله نفسه قامى الآلام بهيئته الإنسانية على الصليب ) تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً . ولا ريب أن لهذه المفاهيم أثرها في ذلك التحول الخطير الذي عرفته أوروبا في عصر النهضة خروجاً من الفكر اللاهوتي كية إلى الفكر الوثني اليوناني والروماني وتجديده . واعتباره أساساً للنهضة وللحضارة الغربية القائمة وبرى أدوار جييون أن المسيحية هي أبرز عوامل سقوط الأمبراطورية الرومانية لأنها جاءت بتعاليم جديدة لا يتفق مع القيم التي ورثتها روما عن الوثنية اليونانية والعصور القديمة كلها ، وأن الاتجاه الذي قدمته المسيحية أدى إلى أضعاف الروح الحربية وامتد تأثيره إلى جميع مرافق الامبراطورية مما مكن الجرمان من هجمتهم التي زلزلوا بها أركان الامبراطورية .

( ١١ )

### الكنيسة

تؤلف الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من العقيدة المسيحية . ولم يكن معنى كلمة الكنيسة church مقتصرأ على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد الكنيسة أيضاً المجتمع المسيحي بأسره بملاقاته المادية والمعنوية إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الأواحد من طريق الإيمان ، ولما كان الدين المسيحي يرتكز بصورة عامة على ما جاء في العهد القديم والجديد ، وعلى ما تناقلته

الأسنة مما لا يكتب وتدور العقيدة فيه حول الخطيئة الأولى ( original sin ) خطيئة آدم حينما همى ربه فعوقب بالسقوط إلى الأرض وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت ثم شمل الغضب ( في مفهوم هذه النظرية ) ذرية الإنسان ، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله وإن مهمة كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح كانت الإعداد لإفقاد البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح ، لما كانت الديانة تقوم على هذه النظرية فإن الكنيسة هي الركن الركين في عملية الإيقاد وهي تعتمد في هذه العملية على رموز دينية يشار إليها بالأسرار السبعة saeroments لأنها صلات الوصول الخفية إلى توطد الرابطة الروحية بين المسيح وأتباعه . وعن طريق ممارسة تلك الأسرار تختصن الكنيسة الفرد المسيحي من المهد إلى اللحد وجعلت هذه الأسرار سبعا حددها المسيح نفسه ولأن حياة الإنسان والروحية كحياته الجديدة تتطلب هذا العدد ، ومن أبرز المتطلبات الروحية ( التعميد ) ( Pepsism ) هو السر الذي قصد به إزالة الخطيئة الأولى ومنح الولادة الروحية الثانية ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التعميش . وكان هذا من أهم أعمال الكنيسة وكذلك فيما يتعلق بالتوبة التي تمارس بالاعتراف أمام الكاهن وقد اتبعت الكنيسة في تقسيماتها الإدارية الأنظمة التي ورثتها عن اليونان ، وقد صور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق في الشؤون الروحية وهو المشرع الإلهي ، وليس هنا من مجلس مهما سميت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته وإن كل تشريع يعتمد على موافقته ، ويمكن للبابا إلغاء أى قانون مهما كان قديما لم يشر له في الإنجيل ، ويساعد البابا مجلس من الكرادلة ويتم الإشراف البابوي من روما على سائر الجهاز الإداري في العالم المسيحي بعدة أساليب ، والكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقا ٣٢٥ م وما بعده وعلى قرارات البابوات ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم يقاطع بموجبها المصادرة بحقه دينيا ودنيويا وقد يصدر البابا عقوبات التحريم ضد مدن وأقطار بأكثامها وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر توضحت في سياسة البابا أنوفنت الثالث وظهور فرقتي الفرنسيسكان والدومنيكان ونشاط الاديرة النسيائية ومحاكم التفتيش . وفي عهد أنوفنت الثالث ( ١١٩٨ - ١٢١٦ ) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مرتبة ، فقد تمكن من فرض سطوته على عدة ملوك في أوروبا وأصبحت مملكتهم تابعة بالمعنى الاقطاعي للبابوية ( إنجلترا - البرتغال - الأراكون ) وقد أشير إلى أن البابا وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الأكبر وأعلن أن السلطة السياسية ، وقد كانت

البابوية من الناحية الرسمية هي التي تنطق بلسان الدين المسيحي وكان رجال الدين في الغرب يمثلون نسبة عددية ضخمة بالقياس إلى السكان في تلك العصور وكانت الكنائس والأديرة أملاك وامة وكان عدد من الأساقفة ينحدرون من أسر النبلاء فكانوا يديرون أملاك الكنائس على البط الذي يدير به مراد الإقطاع إقطاعاتهم ، وكان لكل أسقف واسكل صاحب كنيسة جامعة فرماته وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم له ويتسلمون منه قطائعهم ، وكان للكنيسة طموحها السياسي الوامع وأثرها القوي في الحياة العامة .

ومن أكبر أعمال الكنيسة . تلك الحرب التي أثارها على المسلمين في أسبانيا وفي المشرق . ويعمد البابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثاني هما أبرز رجال هذه القضية والبابا جريجوار السابع دوره الخطير في تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوروبا على اختلاف أقطارها وكان لها أثاره البعيدة في حياة أسبانيا الإسلامية . ففي عهد سلفه البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣ اندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة النورمان إلى أسبانيا وانتزعوها حصن ( بريشتر ) من أيدي المسلمين بعد مذبحة هائلة ، أما جريجوار فقد تجاوز التعهيد إلى الدعوة الصريحة بوجهها البابا بنفسه إلى أمراء المسيحية بمحضهم على المشاركة في هذه الحرب المقدسة ويمان مقدما سياذتهم على الأراضي التي ينتزعوها من المسلمين ومن ثمرة ذلك مرقط ( طليخلة ) في ٦ مايو ١٠٨٥ بعد حصار دام سنين ، الحدث الذي استفد بسببه المرابطون من المغرب العربي ووقع معركة الزلاقة المشهورة . أما البابا أوربان فقد كان له دوره أهام في انتقال الحروب الصليبية إلى شواطئ البحر المتوسط وتحريره تلك الجماعات بادعاء غير صحيح على اقتحام عالم الاسلام بأنهم استنفاد بيت المقدس ثم كانت الكنيسة بعد ذلك هي التي تضع علامة الصليب على صدور جنود الغزو الآسياني والبرتغالي وتمطي هذه الجماهير الضخمة مبررات الغزو الإلامى لأراضى الاسلام باسم التبشير ، وخاصة مابعث من شراذم إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيا على نحو ربط بين التبشير والكنيسة من ناحية وبين الاحتلال والاستعمار الغربي كله . وبذلك صك تاريخها بأنها اختارت لنفسها خدمة الطبقات والقوى الحاكمة في عصر الإقطاع وخدمة الاستعمار في عصر الرأسمالية . ويصور نفوذ الكنيسة في هذه المرحلة الكتاب الغربي ( ج كويب أجا كوب ) فيقول : لقد أمتد نفوذ الكنيسة في العصور الوسطى إلى ما هو أعمق من الهيمنة على المجتمع ، مع التسليم بأن رجال الدين فرضوا لأنفسهم حقوقا في ولاء أهل كنيستهم ، وهي حقوق لا أصل لها في الروابط الطبيعية بين رجال الدين وأهل كنائسهم ، لاصلة لها بالجدارة الشخصية المفروضة من رجال الدين ، وقامت

هذه الحقوق على الاعتقاد الديني بأن مملكة المسيح آتت في هذا العالم، ولقد علم أهل القرون الوسطى للكنيسة ولرجال الدين بواسطة الاعتراف والكفارة والتناول الكلي في العشاء الرباني، ثم هير رجال الدين دائماً بالنفاق والإرشاد والفجور، وأن ما تأخذه على كنيسة المصور الوسطى مما نسبته مساوئ أو خرافات هي في الواقع جزء من الفن الذي دفعته الكنيسة لوصولها إلى مرتبة العالمية ولقد أقبل الفرد برغم فطرته الوثنية على المسيحية ودان لها بالتيهية ولم تلبث الكنيسة أن صبغت حياته كلها صبغة تامة، إذ أحس الناس أن الكنيسة هي التي تفسر لهم طريق الحياة لألف مر الكنيسة لم يكن جزءاً من الحياة فحسب، بل هي معنى للحياة، ولقد حاولت الكنيسة أن تسيطر على الدنيا ولم تسكف أبداً عن التأثير فيها ولكنها لم تستطع أن تجعل الدنيا والكنيسة مملكة واحدة هي مملكة الله وقد نادى الكنيسة بأن المسيحية هي تدمير للعالم وأنها الحركة الحية المشيئة الإلهية، هذه هي الصورة كما يرسمها أصحاب الولاء، أما أصحاب الخلاف فإنهم يرمون صورة أشد قتامة، وبالجملة فإن الكنيسة غاصت في السياسة والمطامع الدنيوية وقل اهتمامها بالدين، وفي عصور الغرب المظلمة بسطت نفوذها، على الملوك، وكانت هناك جاهتان منفصلتان : رهبان الأديرة للنصر فبن إلى الصلوات والمعتزين الحياة والقدس الذين كانوا يشتغلون بالسياسة، ولقد كان من الطبيعي أن تواجه الكنيسة رياح التغيير فتنتقم على نفسها وتعيد النظر في كثير من مفاهيمها ويصل الصراع الدموي بين البروتستانتية والكاثوليكية إلى أشده.

(١٢)

## تمزق الوحدة الأوربية

دخل الغرب الأوربي مرحلة جديدة بوصول الاسلام إلى الاندلس وكان لمركة بلاط الشهداء أثرها في صد التوسع الاسلامي من السير إلى غايته ولكن الوجود الإسلامي لم يقاوم من أورربا بل تمكن في مواضع كثيرة في فرنسا وإيطاليا، ومن الاندلس أمتد الفكر الاسلامي إلى عالم الغرب وكانت حركة لوثر ومن بعده حركة كالفن من ثمار التأثير الإسلامي، وبدأت هذه الحركة عام ١٥١٧ حيث أحدثت تغييراً جزئياً في مفهوم المسيحية وإن ظلت الاصول العامة التي قدمها بولس قاعة لم تغيرها الحركة البروتستانتية، أنكر لوثر حق البابا في بيع صكوك الغفران بل وأنكر عليه حق منح الغفران بأي وجه من الوجوه وحطم احتكار الكنيسة لقراءة الانجيل وتفسيره فنوجه إلى اللغة الألمانية وخول لكل مسيحي حق مطالعة الإنجيل ومن هنا تطلق الكهناس

البروتستانتية على نفسها اسم الكنائس الإنجيلية ورفضت حركة البروتستانتية فكرة العشاء الرباني وعبادة الصور والتماثيل وأنكرت على الكنيسة غفران الذنوب وكانت قد سبق لوثر كثير من المصلحين أمثال وكليف في إنجلترا وهوس في بوهيميا فلما ظهر لوثر في القرن السادس عشر جمع كل ما قيل قبله من مسائل الإصلاح الديني وقام بالدعوة إليه وجاهر بالمداء للكنيسة فتبعه خلق كثير وانتشر مذهبه في كل جهة من ألمانيا ومن ثم وقع الخلاف والحرب بين الكاثوليك والبروتستانت وقد منحت البروتستانتية القس حق الزواج ولم يعد هناك رهبانية واستبدلت جميع الكنائس البروتستانتية اللغة اللاتينية باللغات المحلية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية . ودعت البروتستانتية إلى التخلي عن الإحتراف الإجباري وما يتبعه من غفران ينحقق على يد الكليروس لذنوب للمعترف وخطاياهم ، وكذلك التخلي عن فكرة الاعتراف وعن عبادة القديسين وعبادة صريم العذراء وأهلن البرتستانت أنهم لم يعودوا يطلبوا وساطتها من السماء ، وأعلنوا أن للمصدر الوحيد الحقيقي للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس كما أنكروا استحالة مادة القربان إلى فم المسيح ودمه وأعلن لوثر أن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر في تفسيره حسب فهمه له وإدراكه إياه ، ورجا أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية في الإنجيل نفسه ، ورفض القول بأن طبقة الكليروس تمتاز عن العامة وأنب الكرادلة على حياة البذخ والرفاه التي يحبوها كما دعا إلى إنهاء الرهبنة ودعا إلى هدم إناشاء أديرة جديدة وإلغاء الحج إلى روما .

وقد كان لظهور مذهب لوثر أثره في الكنيسة الكاثوليكية التي أجرت كثيراً في محاولات الإصلاح وقد شقت حركة لوثر « البروتستانتية » طريقاً وهاً من للصاعب والأخطار والدسائس وعقدت هديداً من المناقشات السياسية بين حكام المقاطعات وسمعان ما اكتسحت جميع ألمانيا وانتشرت في إنجلترا وامتدت إلى الدنمرك والسويد وفي سويسرا ظهر كلفن ١٥٢٩ م واتخذ من البروتستانتية مذهباً رسمياً لجنيف وانهقدت الكلفنية مع اللوثرية من حيث الاهتداء على الكتاب المقدس وحده في جميع المسائل الدينية وفي خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحي في أوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونفذ ولاءه للبابا وقد كانت البابوية هي صرح المسيحية الشاخ في أوروبا وهو القوة الوحيدة في غرب أوروبا التي استطاعت حماية التراث الروماني بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، وهي القوة التي أثارت الحروب الصليبية وحرضت أوروبا على تلك الموجات المتلاحقة نحو هالم الإسلام منذ القرن الحادى عشر وعلى مدى قرنين كاملين ، أصبحت في القرن السادس عشر تزكى روح الانقضاخ الصليبي بين شعوب غرب أوروبا إزاء الوحد العثماني في البلقان وقد كان من

جاء ظهور البروتستانتية اندلاع الحروب الدينية في أوروبا، في الصراع بينها وبين الكاثوليكية، وقد استمرت هذه الحروب من أواسط القرن السادس عشر إلى العقد الثالث من القرن السابع عشر وقد أضحت البروتستانتية عام ١٥٣٥ حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين وقد أمكن للوتر بعد أن أطلع على ما كتبه نبي الإسلام محمد وما قرأه من كتابات ابن رشد وابن سينا والفارابي أن يقول عن المسلمين « أن نشاطهم الديني مثل يحندي وكذلك حكومتهم الرشيدة وقوانينهم وصدق أخلاقهم وهم يتركون الناس يعتقدون الدين الذي يميلون إليه » ويشير المؤرخون إلى أن مظالم الكنيسة وتعاونها مع الأمراء والإقطاع هو الذي مكن لمارتن لوتر في دعوته فقد انعقد أمل الناس عن طريقها في التحرر من غير المظالم التي فرضتها الكنيسة ولذلك سرعان ما التف الناس حول لوتر وكالفن . غير أن الكنيسة الكاثوليكية ألم تلبث أن شنت حرباً شديدة على «عنتي البروتستانتية» : واشتعلت الحروب الدينية هادرة كاسحة جارفة ومضت بأصحابها في ضراوة بالغة وفي لدد من الخسومة واستطالت هذه الحرب أحقاباً متعاقبة ونشرت الخراب والدمار في كثير من الأقاليم الأوروبية وأصبح الجو العام في أوروبا ( من نهاية القرن ١٥ إلى منتصف القرن ١٧ ) وعلى وجه التحديد عام ١٦٨٤ : هو الجو الديني المحموم المتزمت شعاره المغالاة في التمسب الديني والمذهبي ووسائله المشروعة وغير المشروعة ومضت الحروب الدينية تحصب أرض أوروبا بالدماء وأفراح الموت تقام هلنا في الميادين حيث يحرق أحياء المتهمون بمخالفة المذهب الديني الرسمي للدولة تنفيذاً لأحكام صارمة من محاكم التفتيش، والقوائم تنشر على اللأ متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظور تداولها أو قراءتها، أو اقتنائها والهيئات الدينية القديمة يمداد تنظيمها ومنظمات دينية جديدة تؤسس وجمع ترائنت المسكوني يمد وتطول اجتماعاته على مدى ثمانية عشر عاماً ( ١٥٤٥ — ١٥٦٣ ) وأحلاف دينية عسكرية تتكون وكان يطلق على كل منها « العصبة المقدسة » .

## ( ٢ )

وتعد موقعة « سان برنلي » من أبرز هذه الممارك الدموية الخطيرة التي وقعت عام ١٥٧٢ من الكاثوليك ضد البروتستانت الفرنسيين ، وكان من نتائجها فقدان فرنسا زهرة رجالها من أهل العلم والصناعة ، وسبب هذه المجزرة كما بصورها مؤرخ معروف : هو الحق الديني في أقصى أشكاله ، ذلك أنه لما ظهر المذهب البروتستانتي في ألمانيا واستد إلى سائر ممالك أوروبا أصاب فرنسا منه قسط وتبع طريقه كل من كان نائماً على سلوك الكنيسة الكاثوليكية إذ ذاك وكان من أكبر ما أثر الناس على

فيه ذلك القرن الذي ظهر فيه فجر العلم من أفق البشرية هو حرية البحث فلم يرق في عين المملكة كاترين دومديشي أم ملك فرنسا شارل السابع أن تنشر البروتستانتية في بلادها فمزمت على إحداث مقتلة عامة تسكون سبباً في إفناء البروتستانت الفرنسيين وتقطع دابرهم جميعاً وكانت يد الكنيسة الكاثوليكية في تدبير هذه المكيدة الفظيعة أقوى عامل فيها ودافع إليها ، في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ وهو هيد إحدى حوارى عيسى عليه السلام أمروا الكنائس فدقت أجراسها وكان ذلك إشارة للجنود والمتطوعين من الأهالي المتحمسين الذين باتوا ليلهم ينتظرون تلك الإشارة أمراً صريحاً في البدء في الفتنك بالبروتستانت فدهموا بيوتهم وفي أيديهم المشاهل تفعى عليهم الطريق في الليل الدامس مقودين بأمراء البيت الملوكي وكبراء العائلات الفرنسية وأخذوا يفتكون بأولئك الأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله في تاريخ البشر ، وكانوا يعطون بطون الحوامل ويخرجرن الأجنة ثم يلقونها للكلاب والخنازير ، وكانوا يعطون الأطفال الذين في المهد للصغار الذين في من العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جرأ من أعناقهم في أسواق باريس ، ولم يزلوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء وهجت الأصوات إلى السماء وليس نهر السين حلة أرجوانية وحدث ذلك في كثير من مدائن فرنسا ، ثم حدث أن دقت أجراس الكنيسة مرة أخرى فظن أتباع الحق الديني بأن ذلك أمر ثان باستئناف القتال فأمحوا على إخوانهم قتلاً ونهباً وتمشيلاً بأشد مما فعلوا بالأمس واستمرت الحجرة إلى يوم الثلاثاء وما بعده واستحالت إلى مذابح فردية طوال شهر سبتمبر وأكتوبر وأحصوا عدد القتولين فبلغ ٢٥ ألفاً وكان من نتيجة المقتلة أن تزمزت النفوس للطبيعة من فعل الكنيسة وكثر ضدها الهجوم والقول والهجر ومال الناس إلى تقرير قاعدة في حرية الضمير وحرية البحث وهما قاعدتا المذهب البروتستانتي فكان أنصار الكاثوليكية بسوء سلوكهم في تأييد مذهبهم أكبر مؤيدي مذهب أعدائهم في بلادهم ، وجاءت من بعد ذلك حرب الثلاثين عاماً بسبب الخلاف الديني في بوهيميا واتسعت إلى أن دخلتها معظم الدول الأوروبية بدرجات متفاوتة وكانت ألمانيا هي المسرح الأصيل لهذه المأساة . وبعد البابا كورنيليوس التاسع — ١٥٤١ المسمول من إيجاد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رهبا في العصر الوسيط ، وقد اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطيد الهراطقة للحفاظ على الكنيسة ، وقد اعتمد محاكم التفتيش على التعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف وتدرجت بالقوانين اليونانية وظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون وكانت مصدراً لانفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية ، وقتل ديوان التحقيق في أسبانيا وحدها على قول (ريتاخ) نحو مائة ألف إنسان .

وقد حملت الكنيسة مسئولية فظائع سانت بارتلمى ومذبحة « الالبجواء » وهي طائفة ديلية انتشرت في القرن الحادى عشر بجنوب فرنسا وقد أمر البابا أنيوسان الثالث بإيادتها من آخرها فأبيدت وقتل في حرب الكاثوليك مع البروتستانت ( ١٦٠ ألفاً ) وقتل كذا الدومنيكى الأسبانى وحده ستة آلاف إنسان بالنار ومن ثم واجهت أوروبا صراعاً عنيفاً استمر طويلاً من اختلاف للمذاهب ثم واجهت اختلاف القوميات منها حرب للمائة عام وحرب الثلاثين عاماً . والحرب بين فرنسا وإنجلترا وبيز فرنسا وألمانيا وقامت سلسلة من الثورات ابتداء بالثورة الفرنسية والثورة الشيوعية من بعد .

### ( ٣ )

تمزقت وحدة أوروبا بظهور البروتستانتية وكان ذلك مقدمة لتحويلها عن للمسيحية كلية وعودتها مرة أخرى إلى الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية وكان عصر النهضة علامة هذا التحول فقد كانت النهضة الأوروبية في الواقع ثورة على الكنيسة حيث لم ينجح الإصلاح الدينى الذى قام به لوتر إذ ظلت للمسيحية في الكنيستين متمسكة بالصليب والتخليث والفداء ، وكان من أخطر تحولاتها الآثار العميقة التى أحدثتها اليهودية فيها وهي تتمثل في قبولها تبرير الربا لإرضاء لليهود الذين يعملون فيه ويقول ايف كونجار : أن اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهداء في العصور الأولى كان يرجع إلى وشايات يهودية في عالم كانت اليهودية فيه صاحبة الهيكل والهيكلان تبسط أجنحتها وتنعم بالسطوة والنفوذ كأوضح ذلك مارسيل سيمون في كتابه ( إسرائيل الجرثومة ) إذ ذكر أن نزهة مناهضة السامية في أسفار الكهنه للمسيحيين القدامى كانت تقابل تعاليم العدا للمسيحية في التلود وقد أشار الباحثون وللؤرخون للنصفون أن تعاليم للماسونية كان لها أثرها في تحول الغرب للمسيحي من الدين وأن اليهود كان لهم دورهم في الحروب الصليبية وكانت الماسونية التى أقامتها اليهود في الغرب واحتضنتها البروتستانتية أساساً هي محاولة عميقة بعيدة المدى لتعويض الكنيسة والدين وقد فشلت المسيحية بظهور البروتستانتية والتحدى اليهودى في اعتبار الكنيسة وحدة عالمية تضم جميع المسيحيين ، ولم تصبح الكنيسة هيئة عالمية جامعة بين رجال الدين والعلميين على السواء وفشل ما نادى به في العصور الوسطى بأنها تفسير العالم ، وظهر جيداً كيف أمكن إحتواء الفكر المصيحى وكان لموقف الكنيسة من الحرب مع البروتستانتية من ناحية ومع العالم الإسلامى من ناحية ، أكبر الأثر في أفولها ثم جاء تنازلها عن أصول الدين في تبرير الربا من أكبر ما عرض لها من أخطار .



## ( ٤ )

ويصور ول ديوارنت كيف انحرفت المسيحية في تبريرها الربا فيقول : كانت العقيدة الدينية المسيحية في الربا أكبر العقبات في نمو النظام المعرفي وتقدمه ومصادرها في معارضة الربا : طعن أرسطو على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعي إذ هو توليد المال للمال ، وطعن المسيح على الربا ومعارضة آباء الكنيسة للأعمال التجارية والربا في روما ، أما القانون الروماني فقد شرع الربا وكان بروتس وغيره يتقارضون ربا فاحشا على أموالهم ، وكان أمبروز قد هارض النظرية القائلة بأن من حق الإنسان أن يفعل بما له ما يشاء . ولما هاد القانون الروماني إلى الوجود في القرن الثاني عشر شجعت هودته ( أريرموس ) والشراح في بولونيا على الدافع عن الربا وقد أيدوا حججهم بما جاء في قانون جستنيان ولكن مجلس لاتران الثالث ١١٧٩ جدد هذا التحريم وظل هذا قانون الكنيسة حتى هام ١٩١٧ وكانت ثروة الكنيسة في الأرض لا في التجارة وظلت قرونا طويلة ولما كان جميع المرابين يهود ، فقد تبين أن حاجات التجارة أقوى أثرا من خشية السجن أو الجحيم ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال المتعطل واضطرت الكنيسة على كره منها أن تسكيف نفسها فتقدم القديس تومس أكويناس حوالي هام ١٢٥٠ بجرأة عظيمة بمبدأ كهنوتي جديد عن الربا قال فيه أن من يستثمر ماله في مشروع تجاري يحق له شرعا أن ينال نصيبا من ربحه إذا شارك فعلا في التعرض للخسارة وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر عن أداء الدين عند تاريخ معين بشروط ثم جرى التوسع في هذا الاتجاه من بعد فقالو بشرعية أداء هوض للدائن نظير ما يعصيه من الخسارة لعدم انتفاعه برأس ماله . وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول في إصدار سندات ذات فائدة وبعد هام ١٤٠٠ ألغت معظم الدول الأوروبية ما وضعته من قوانين لتحريم الربا ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهمل يتفق الناس جميعا على إغفاله .

## ( ١٣ )

## الفكر الغربي المسيحي

لم يخلف السيد المسيح أى نص مكتوب ولا أى نص محفوظ ، والأناجيل الموجودة كتبت بعد المسيح بسنوات طويلة وتشكلت على نحو مختلف إختلافاً واسماً عن مفهوم المسيحية المنزلة ، فشتان بين عقيدة المسيح وعقيدة الكنيسة . ومتد دخل اليونانيون أصبحوا هم حملة العلم في الدين المسيحي

وبدخولهم فيه دخلت الفلسفة اليونانية في التعاليم المسيحية ومن ثم احتدم الجدل بين الفلاسفة والنصارى وبين النصارى أنفسهم ، وكان الخلاف الأكبر حول طبيعة المسيح وتركيبه . من لاهوت وناسوت ، وتعلقت الفلسفة اليونانية على « تفسيرات » المسيحية وكان أهم خلاف ذلك ، الذى قاده ( أريوس ) وكان يقول أن للاب والأبن جوهرين متميزين وأن الثانى خليفة الأول وليس هو بأله ودعا قسطنطين إلى مجمع مؤلف من أساقفة النصرانية لحسم الخلاف وكان على رأى ألوهية المسيح وبذلك استعمل نفوذه فى إقرار هذا الاتجاه فى مجمع نيقة عام ٣٢٥ ولكن الخلاف استمر طويلا حتى حسمه الملك تيودسيوس الذى أمر بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا ( أسيوس ) القائل بألوهية المسيح ومن يخالف أمره بعد هراطقيا .

يقول العلامة أبو الحسن الندوى : أن المسيحية امتخت فى ههدها الباكر ( منتصف القرن الأول المسيحى ) بتحرير لا يوجد له نظير فى تاريخ الديانات فى ههدها الأول فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من أفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس ( ١٠ - ٦٥ ) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام لا يشارك الثانى الأول إلا فى الاسم وبعض الطقوس ويتحدث عن ذلك هالم مسيحي هو ( أرنست دى يلسين ) فى كتابه :

#### ASLAM OR TRUE CHIRSTAINTY

إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء به الإنجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ؛ وإن مرد النزاع القائم بين المسيحيين واليهود وبين اليهود والمسيحيين ليس إلى المسيح بل إلى دهام بولس ، ذلك المازق اليهودى والمسيحي وشروحه للمصحف المقدسة على طريقة التجسيم (ESSENIE) والتثليل وملئه هذه المصحف بالنبوءات والأمثلة . إن بولس فى تقليده لأسطفانوس داعى المذهب الإنسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، أنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التى يحتمل هليها الإنجيل اليوم ، والى تعرض المسيح فى صورة لا تتفق مع التاريخ أصلا ، ليس المسيح بل بولس ، والذى جاءوا بعده من الأقباط والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس للعقيدة المسيحية الأثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا . وبقيت المسيحية قرونا طويلا ولا تزال تحمل روح بولس وتحافظ على تراثه ، ولم يظهر فى العالم المسيحى فى هذه المدة الطويلة من يثور على هذا الرضع الطارىء الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذى تركها عليه سيدنا المسيح ومضت أجيال أثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر

لتجديد المسيحية ونجريدتها من الأجزاء الأجنبية حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي فظهر مارتن لوتر في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جزئية وعارض بعض عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية ولم تكن إصلاحاً جوهرياً شاملاً ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ثم لم يخلفه رجل في العالم للمسيحي يرفع صوته ضد انحرافات الكنيسة وإعتدالاتها ويقوم بمثل الدور الذي قام به لوتر على ضعفه ، وظلت الكنيسة تمشي في الدرب الذي اختارته أو بالأصح فرض عليها وضعف تأثير الكنيسة وانجمل سلطانها في العهد الأخير وقامت دولة للمادية في أوروبا وأصبحت الديانة الحقيقية التي خلفت المسيحية وخلفت كل ديانة في هذا العالم الغربي فلم يظهر في الأوساط المسيحية من يحارب هذه للمادية ويعيد للمسيحية إلى مركزها في الحياة ، أو يوجد الفتن بين للمسيحيين بديانتهم وبشيء فيهم القوة الروحية الخلقية التي يقاومون بها اغراءات للمادية القاهرة ويتظاهرون بحياة قاضلة تقوم على العلم والأخلاق والعقائد المسيحية ويواجهون معضلات العصر وأزماته ويحاولون حلها في ضوء الدين ، وبالعكس من ذلك نرى المفكرين ولؤلؤة للمسيحيين في أوروبا يائسون من مستقبل المسيحية ومصابون بمركب الفتن أمام للمادية اللادينية . اهـ . وهكذا نجد أن الفكر الغربي قد أخذ يتشكل بصورة جديدة فيها كثير من ميراث اليونان والرومان وفيها من للمسيحية الوافدة على الغرب بتفسيراتها التي قدمها يولس ، ثم كانت آثار الفكر الإسلامي وقد بدأت في الأندلس وجامعاته وأخذت تنتقل رويداً رويداً إلى قلب أوروبا وكان لها أثرها الواضح في دعوة لوتر . وبذلك اجتمع للفكر الغربي عناصر مختلفة وربما متضاربة هي حصيلة الفكر الفلاني القديم وميراث اليهودية ، وآثار مدرسة أثينا ومدرسة الاسكندرية ، وما جاء به الإسلام ولكن الفكر الغربي ممران ما يشكل نفسه مستمداً من الفكر اليوناني مفاهيمه الاجتماعية في الإحجاب بالذات والأجساد العارية وفلسفة الإباحية المسرفة ، وأخذ من الإسلام للمنهج التجريبي الذي بنى عليه عصر النهضة وعصر العلم ، وقام الصراع بهذا التشكيل الجديد مع للمسيحية والفكر للمسيحي الكنسي الذي كان قائماً على الرهينة وإنكار الذات الحياة وللأمة ، والذي كان في نفس الوقت معارضاً لما حاول العلم أن يقدم من مفاهيم وأساليب ، تتعارض وماتحمله في طواياها الكتب القديمة ، ومن هنا بدأ ذلك الصراع العنيف الذي دفع الفكر الغربي دفعا قويا إلى معارضة الفكر المسيحي ، بل والفكر الديني عامة وكان لموقف الكنيسة في تأييدها للامراء الظالمين والإقطاع ، ثم معارضتها للعلوم أثر بعيد في ذلك التحول الخطير ، فقد واجه العلم أموراً كثيرة ، وأراد أن يفهمها من طريق العقل فجزهن ذلك كالأمرار الدينية السبعة وما يتصل باللاهوت والناسوت . وكان للفكر اليهودي القديم أثر

بعيد في هذه الحركة ، فقد أحكمت السيطرة على هذا الفكر لإخراجه من إطار الدين بصفة عامة ، وذلك حين اندفعت مجموعات من رجال المحافل للمناوئية إلى تصدير الفكر الغربي والدهوة إلى الإلحاد ومعارضة الوحي والدين وإنكار الخالق تبارك وتعالى وكان هذا هو التمهيد لمحاولة اليهودية التي تحققت بالثورة الفرنسية والمعروف أن اليهودية هي التي نشرت المذاهب الفلسفية في العالم لزعزعة أساس القواعد الدينية في صدور المفكرين والعامة السواء ، ومن أجل ذلك عهد اليهود على إقامة أدلة فلسفية تتأول النصوص العبرية ، وخاصة فيما يتعلق بالألوهية والبشر والجزاء ، وهذا ما استطاعت الفلسفة إفراق الفكر للمسيحي الغربي ثم نقله توارثاً إلى الفكر للشالي البديل عن الدين المسيحي فالفكر المادي المعارض لكل ما ينصل بالألوهية أو النبوة أو الرسالات السماوية وقد شكلت أوروبا والغرب منطلقها الفكري على أساس أن الدين « لاهوت » أو عبادة أو علاقة بين الله والبشر فقط ، أما ما يتعلق بالنظام الاجتماعي فإنه لاصلة له بالدين ، وقد جاء ذلك نتيجة أن الدين المسيحي عندما دخل أوروبا كان هناك النظام الاجتماعي الروماني قائماً والقانون الروماني نافذاً ولم تسكن المسيحية نفسها ديناً له شريعة وإنما كانت مجموعة من الوصايا ترتبط أساساً بالدين الذي أنزل على موسى والذي يضم الشريعة ، غير أن محاولة فصل المسيحية عن الدين الموسوي ، واستئصالها ، وإدعاء إنها دين عالمي ، كل ذلك أوجد الخلاف بينهما وبين دين الله الحق الجامع بين العقيدة والشريعة والأخلاق ولقد كان لذلك الصراع الشديد بين الكنيسة والمجتمع الأوروبي أثره البعيد في تعميق هذا الاتجاه وكان لليهود أثرهم الواضح في تنحية الدين المسيحي عن نطاق المجتمع والسياسة حتى يفسحوا لأنفسهم مكاناً في المجتمع الغربي تحت اسم الوطنية والقومية يقول محمد هاشم الهاشمي : إن أوروبا فصلت الدين عن الدولة نتيجة لتاريخ طويل من تبحر الكنيسة التي فرضت الظلم والتخلف باسم الدين فألجأتها إلى الأيدولوجيات فاستبدلت أوروبا بالدين فكراً وقبلاً ولقد أسلمت الشعوب المسيحية قيادتها إلى الأيدولوجيات لأن الدين المسيحي لم يستطع أن يمدّها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطع أن يفسر الأوضاع الاجتماعية في المجتمع وأن يمنحها الأمل والمثل الأعلى في مستقبلها ولكن في الإسلام « الأمر غير ذلك » ويقول توينبي : إن المسيحية اهتمت بالإنسان نفسه مفصولاً عن المجتمع .

(٢)

بين حركة لوتر التي يطلق عليها اسم « الإصلاح الديني » وبين الثورة الفرنسية أقل من قرنين ونصف القرن ( ١٥٤٦ - ١٧٨٩ ) تحول فيها الفكر الغربي تحولا واسما عميقا ، فقد انتقل الغرب من الرهبانية إلى الكشف والعلم ، وتحرر من قيود الكنيسة والدين ، وعاد إلى الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية يجددها ويوجه حياته وفقا لها ويرى أن للمسيحية عامل دخيل وافد قدم إلى الغرب فطبعا بطابع الفسك والزهادة . وجاءت الثورة الفرنسية لتضع الغرب كله على طريق جديد ، كان النصر فيه لليهود أنفسهم الذي حررتهم الثورة من القيود التي وضعتها للمسيحية أمامهم والتي جعلتهم من درجة أقل وحظرت عليهم للمناصب الرئيسية في الدولة والتعامل والزواج . وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى الغاية من الثورة الفرنسية وما تلاها في ثورات في أوروبا ، وكان هدفها الانتقام من النظام الاجتماعي والسياسي الذي جمع أوروبا تحت لواء الكنيسة ، ولم تكمد الثورة الفرنسية أن تعلن حتى سيطر عليها جماعة من اليهود حازوا شهرة فائقة في سفك الدماء وحفظ التاريخ أسماء ( كوتون - دينو كراشة - فوشيه - كلودبرادبوا ) وغيرهم ممن عرفوا بالوحشية والغلظة ، وقد استنطاعت هذه القوة أن تحقق الهدف الخفي وراء الثورة :

١ - إعدام الشخصيات المرموقة في المجتمع الفرنسي . ٢ - احتلال الكنائس والمعابد وسلب ما تذخر به من تحف وأموال . ٣ - تعليق الرؤس على أبواب الكنائس ومداخل لليادين . ٤ - قتل النساء وبقربطون الحبالي . وفي ظل هذه الجازر للتصلة التي كانت تتجدد دوما ولا تتوقف تمكن اليهود من السيطرة على مقدرات فرنسا المالية والفكرية والاجتماعية وبالرغم من إنكشاف دورهم في التحريض على الثورة والقيام بها فإن فرنسا مازالت تحتفل بها كل عام وقد أطلق على الثورة الفرنسية نفس الشعار الذي عرفت به للماسونية ( حرية - أخاء - مساواة ) وتعد هذه الثورة هي الثمرة الأولى والكبرى للنظام الماسوني كله ، وقد تبعها بعد ذلك ما أطلق عليه حركة التنوير وهي علامة على هصر المادية والإلحاد ومعارضة الدين بعامة وخير ما يقول أنصار الثورة الفرنسية أنها قررت الحرية الدينية ، وقضت على الامتيازات الطبقية وهو ما قصد اليهود إلى تحقيقه في مواجهة المجتمع المسيحي وكذلك كان لها أثرها البعيد في القضاء على الوحدة الأوروبية التي قامت على أساس الدين وتحولت أوروبا من بعد إلى صراع هنيف بإسم القوميات العنصرية والعصبيات اللغوية وتحت اسم النظم الديمقراطية بما يحقق لليهودية العالمية تغلفلا أكبر وسيطرة أوسع وكان ذلك

مقدمة للاستعمار ، الذى رافق حركة الانقلاب الصناعى . ولا ريب أن الثورة الفرنسية فى هدفها الخفى ، قد استغلت التعاليم الإسلامية ، فى تحرير الفرد من العبودية ، والدعوة إلى المساواة ، وحرية العقيدة والشورى والعدل ، ولكنها استغلت كل هذه المفاهيم لغايات بعيدة استطاع اليهود بها السيطرة على الأحزاب والأنظمة والبرلمانات وكانت سيطرتهم الواسعة على الفن والآدب والفكر والصحافة وكان معنى تحرير الإنسان فى الثورة الفرنسية هو تحرير اليهود ، وكان معنى القضاء على الاستبداد هو تقليص نفوذ الكنيسة والمسيحية ، وبالثورة الفرنسية والثورات التى تمت بعدها فى أوروبا كلها استطاع اليهود السيطرة على مقدرات أوروبا الاقتصادية وتوجيهها الوجهة التى يهدفون إليها وكان نابليون ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية ، وقد وقع فى براثن اليهود وسخر الدستور ، الفرنسى لمآربهم وصدق على جميع القوانين التى قدموها إليه ، ولما جاء نابليون إلى المشرق دعا اليهود فى العالم كله إلى التقدم لتحضير هذه المناطق واستغلال ثرواتها ، وكان عصر نابليون مقدمة لإثراء روتشيلد وبلجراد ولوب وباروخ ولازار وفاربورج وسلكان ومملوك الذهب فيما بعد ، الذين سيطروا على معظم مناجم أوروبا واستطاعوا تحريك المواد الخام فى العالم أجمع ، وقد ملسكوا زمام الثورات وأشعلوا بيرة نار الحروب منذ عهد نابليون إلى اليوم ، ويقول القس جوزيف لومان فى كتابه ( نابليون الأول واليهود ) : « أن القوانين التى أصدرها نابليون صهرت المصالح الفرنسية فى المصلحة اليهودية والبست الثورة والمصير الفرنسى القفطان السام الذى النصب بالجسم الفرنسى ولم يعد فى الإمكان نزعها إلا إذا نزع منه الجلد واللحم الفرنسى فأصبح ما تملكه المؤسسات اليهودية فى فرنسا ٩٢٪ من الصناعات المعدنية الثقيلة ، و ٩٨٪ من أموال البورصة و ٩٥ فى المائة من مصانع أجهزة الصناعات و ٩٠٪ من التحف الأثرية و ٧٥٪ من مؤسسات الترانزيت والوساطة ، والمؤسسات التجارية التابعة لهم فى باريس وحدها تسيطر على ١٥ ألف وكالة منتشرة فى جميع أنحاء فرنسا ، وفى أبان الحرب العالمية الأولى كانوا يملكون نحو ٢٣٨ مصنعا للأسلحة يمولها يهودى واحد هو ( باروخ ) وقد جنى اليهود أرباحا مذهلة خلال الحربين العالميتين تزيد على ٤٠٠ مليار فرنك من الذهب فى فرنسا وحدها هربوها إلى أمريكا وهذا استنطاد يكشف عن الدور اليهودى فى حياة الغرب فيما بعد نتيجة سيطرتهم على الفكر والمجتمع الأوروبى الذى هو مدين فى عصره الحديث لرجال نشأوا فى الحافل الماسونية ومعهم هدف واضح هو وضع الفكر الغربى المسيحى كله فى قبضة اليهودية التلمودية واحتوائه ، وكان رواد هذا الاتجاه : فولتير وديدرو وروسو ، وجاء من بعدهم بوك ونيشه وليبنز وليسنج وكنت ورينان وكلهم خدام للهدف الأساسى ، الذى يوجه النقد للدين

عامة والمسيحية خاصة ، ويدعو إلى العلمانية والمادية والإباحية والفكر الحر القائم على الإلحاد .  
والتمتع الكامل من الأخلاق والقيم الدينية ، وهذا هو ما أطلق عليه ( عصر التنوير ) وبذلك  
بعدت أوروبا وبعد الفكر الغربي عن الأسس التي قامت بها على حياتها الأساسية وتمحورت تماماً من  
كل قيم الرحمة والسماحة والأخاء التي جاءت بها المسيحية وسيطرت عليها مفاهيم التلود القاسية العنيفة  
التي سيطرت على أوروبا خلال عصر الاستعمار في مواجهة البشرية كلها وإلى هذا الاتجاه يشهد المؤرخ  
أرنولد توينبي : يشير إلى تحول المسيحية إلى فكرة الإله الغيور ، ويحاول أن يبحث . يقول : ما هو  
السبب في تقبل المسيحية مرة أخرى الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الغيور . ويقول : إن  
هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين ، كان الفن الذي دفعته المسيحية  
في كفاحها المرير : كفاح الحياة أو الموت مع عبادة قيصر أن تقبلت فكرة إله اليهود الذي من سماته  
الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح ويقول : إن المسيحية الجديدة قد وأمت بين فكرتين  
متناقضتين : الأولى فكرة البطش وعدم التسامح والثانية : فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها  
دعائم المسيحية الأصلية ١٠٥ .

وقد جاء هذا الاستسلام نتيجة صراع طويل سيطر فيه اليهود التلوديين على الفكر الغربي :  
السياسي والاجتماعي وأقاموا العلمانية أساساً للتعليم والثقافة والجامعات وأهلنوا شأن أمثال نيتشه  
الذي قال أن للمسيحية ما هي إلا أ كذوبة كبرى من أكاذيب اليهود التي اختلفوها في عهد يهوديتهم  
وذلمهم ليقبلوا بها الحقائق ويسبقوا على أنفسهم وعلى من كان في مثل حالهم من العبيد للضطهاد أمواتا  
طبعوها بطابع الإنسانية وما هي في الحقيقة غير تمويه على التاريخ ، ولقد هاجم نيتشه الأخلاق  
للمسيحية التي تدعو إلى الرحمة والإنسانية واعتبرها أخطر ما دخل إلى أوروبا مما يتعارض مع طبيعتها  
التي لا تعرف إلا العنف والقسوة . وقد كشفت أوروبا فعلاً عن هذا الفناء المسيحي ورجعت إلى  
طبيعتها عندما اتصلت بالشعوب في مجال الغزو والاستعمار فارتكبت أشد الألوان الاضطهاد والإذلال  
للأمم ولم تنظر نظرة إنسانية إلا إلى الجنس الأبيض الأوربي وحده أما ما سواه فقد اعتبرته  
مما لا يستحق الكرامة الإنسانية وعادت إلى مفاهيم اليونان والرومان التي نفى عنها الإسلام بعد  
أن بشرت بها المسيحية :

(١٤)

## اثر الإسلام في الغرب

لاريب كان تأثير الإسلام في المسيحية عميقاً ، وفي الفكر الأوربي خطيراً ، فهو الذى قدم التحول الحقيقى للفكر والحياة والمجتمع والحضارة . والحق أنه لا هلاقة مطلقاً بين حضارة أوروبا الحديثة وبين المسيحية لأنها جاءت بعدها بألف عام وبعد قرون من ظلمات العصر الوسيط وإنما هو الإسلام الذى أعطى أوروبا مفاتيح الحضارة بالعلم التجريبي الذى ورثته أوروبا فى الأندلس من طلمطلة إلى قرطبة خلال أكثر من ثلاثة قرون ويزيد وصدق المقاتل : إن المسيحية أدخلت أهل أوروبا الأديرة وأخرجهم الإسلام منها بل إن التقدير الحقيقى للموقف يؤكد أن الإسلام هو الذى نقل البشرية كلها إلى العصر الحديث وليس صحيحاً ما ذهب إليه المؤرخون الأوربيون الذين يخضعون لعنصرينهم على اعتبار حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية حداً فاصلاً بين العصور القديمة والعصور المتوسطة ومن عجب أن تذساق مدارسنا الإسلامية وراهم فى هذا الخطأ التاريخى الفادح واستمرار مؤلفى الكتب التاريخية العرب فى اتخاذ هذا الحادث حداً فاصلاً فى تاريخ الإنسانية متابعة وجرياً وراء الغرب ، وإذا كان الغربيون قد عجزوا بتعصبهم القومى والحلى أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنسانى العظيم الذى غير مجرى التاريخ ، وأنه هو الحد الفاصل ، فإن هنرى بيرين مؤلف كتاب ( محمد وشارلمان ) قد أعلن ذلك فى صراحة ووضوح حين قال : إن الإسلام هو القوة الهائلة التى حوالت مجرى التاريخ الأوربي وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة عرنتان من نمار الإسلام ويقول هنرى بيرين أن القول بسقوط الامبراطورية الرومانية هى القوة التى أدت إلى هذا التحول فى التاريخ الأوربي هو محض خطأ فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تنأوى روما وتنفى عليها ، أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أقوى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ولا سيما فى الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحبوا عن منازل الرومان ليعضوا على سطوتهم وسيادتهم . لقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الوندال حدودها واستقروا فى نواحيها وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها العقلية والمادية شيء من الركود والكساد ولكن لم تسكد تهب ثورة الإسلام وتسير ركائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار ، وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة



جديدة حاصرت أوروبا من الجنوب ، فاضطرت ملوكها أن يواجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوروبا حيث قامت المعارك التى كيفت طريق أوروبا فى العصر الوسيط وأبان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوروبا فلم تقع فيه فى تلك العمود إلا موقعة ( بواتية ) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولاً ظهور الإسلام لظلت الأباطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق وظل البحر الأبيض بحراً رومانياً ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوروبا الحديثة ولا الثورات الفكرية التى تخضت عنها الحضارة الراهنة ١٠١٠ هـ . وذلك الذى يقرره هنرى بيرين فى كتابه ( محمد وشارلمان ) هو الحقيقة التى أصبحت اليوم على كل لسان وقلم ، يقول ابريك بيتان فى بحثه : أثر الإسلام فى المسيحية : لقد اجتذبت الأندلس ومدارسها فى أسبانيا والبرتغال ومؤلفاتها ومكتباتها العالم المسيحى فسكان من درسوا فى مدرسة طليطلة كثيرون ، ظل كتاب ( الزارى ) : ( الحاوى ) المؤلف من عشرين مجلداً المرجع الوحيد المعترف به فى جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر ، أعظم تقدم علمى حققه المسلمون فى علم البصريات . وعندما اكتشف المسيحيون أن الإسلام شئ آخر غير مجرد إلحاد مسيحى أخذوا فى مقاومته بطريقتين : الأولى . تشديد الهجوم المضاد على الدين الإسلامى . الثانية : هى الحملات الفعلية لحاربة الشعوب الإسلامية . ولقد أحدث الفكر الإسلامى حين اقتحم أوروبا ثورة ضد الكنيسة وتعاليمها التقليدية ، وكانت أكبر الآثار هى معارضة ما كانت الكنيسة تنادى به من أنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان وبأنه لا يصل إلى الله دعاء أو صلاة أو استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها ، ومن ثم أمتد القول بأنه لا وساطة بين الله سبحانه وبين الإنسان . يقول أحمد عطية الله : هذه التعاليم التى كانت غريبة عن طبيعة التقليد الأوروبى حتى ذلك العصر والتى افترق ظهورها بما سبقها من حوادث اضطهاد المسلمين فى أسبانيا وتشيت البقية الباقية من سلالهم ومن اليهود الأسبانيين الذين نزحوا جميعاً من الأندلس يجهلون معهم ما يحفظون من تراث الثقافة الإسلامية قاصدين به فرنسا وهولندا وسويسرا وألمانيا . ويرى كليدس وب : إن أثر الإسلام فى المسيحية كان فى الأهل فى ناحيتين متعارضتين .

الاولى : تقوية روح الاتحاد بين الشعوب المسيحية بعد أن ظلت رديحاً طويلاً من الزمن على خلاف فقد وحدة جهودها واتحدت كلماتها مئات من السنين بعد أن أحدثت أنها تواجه قضية مشتركة فى الوقوف ضد الإسلام . الثانية : عن طريق الآراء والأفكار التى اقتبستها مدارس أوروبا المسيحية فى القرن ١٢ إلى القرن ١٦ من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والفزائى وابن رشد ولولا تأثير هذه الأفكار الإسلامية لاتخذت تطورات الفاسفة واللاهوت فى العالم المسيحى طريقاً آخر .

وبصور هذا التاريخ أثر الإسلام في المسيحية الأوروبية عميقاً بعيد الأثر في تحرير الإنسان من قيد اللاهوت العنيف ، فقد نقل الفكر الأوربي مسئولية الإنسان أمام الله بصفة مباشرة ، كذلك حررته في تفسير الكتاب للقدس ، على ضوء ما يليه عليه ضميره ، وقد كان لهذا التحول أثاره البعيدة السياسية منها أنه خلع على الأفراد حقوق السيادة في المسائل الدينية التي كانت تعد أسمى الشئون وأقدسها ، وإذا كان الإنسان جعل على سيادة نفسه في الدين ، فلا أقل من أن يطلب هذه السيادة في الشئون الزمنية واهتبر كل فرد نفسه مكلفاً ، وتطرق الإنسان من ذلك إلى بحث أصول السيادة بجميع مظاهرها مما ترتب عليه أن امتنع الأفراد عن دفع الضرائب التي فرضتها عليهم الكنيسة وبرزت فكرة المساواة الطبيعية والحرية الطبيعية إلى الظهور من تركزة على دعائم علمية ودينية وقانونية ، ومن ثم بدأت فكرة الدولة تحمل محل فكرة الكنيسة المقدسة ، وكان ذلك مقدمة لفكرة القومية . والحق أن عطاء الحضارة الإسلامية لم يكن في العلم بقدر ما كان في القيم الإنسانية : « القيم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقوبية » فقد قدم الاسلام للغرب منهجاً رائعاً في بناء المجتمع على أساس العدل والرحمة والأخاء الانساني .

ولكن الغرب لم يتقبل مفهوم الإسلام تقبلاً كاملاً فقد كانت ثقافته وطبيعته الخاصة وفكره الوثني اليوناني الروماني المعروف الذي لم يلبث أن تجدد وانبعث وهو ليس فكراً مسيحياً رحباً أو عادلاً بالضرورة ، بل فكر تلودى عميق الجذور في الغرب منذ أن امتزجت الفلسفة اليونانية بالفكر اليهودي التلودى في مفاهيمه الحاكمة على الانسانية الراحبة في امتصاصها بالبا وقلتها بالسيطرة واستغلال مقدراتها وتركها تموت جوعاً ، هذه هي الروح التي سيطرت على الغرب بعد عصر النهضة ، فقد استطاعت أن تأخذ الخيط من المجتمع الاسلامي وتحمل لواء العلم التجريبي ، ولكنها وجهته وجهة أخرى سيكون لها أثارها البعيدة المدى في تطور الحضارة والمجتمع ، لقد أدخلت تفسيرات للمسيحية أهل أوروبا الأدبرة وأخرجهم الاسلام منها إلى آفاق من الكشف والاختراع ، فقد ظلت الأرض ثابتة بين يدي الآله أطلس مدة أربع عشر قرناً إلى أن أتى كوبرنيكس ( تلميذ المسلمين في الأندلس ) في أواخر القرن الخامس عشر وحركها بين يديه ، ذلك لأن الاعتقاد بدوران الأرض حول الشمس وهو ما قدمه المسلمون للبشرية كان أسهل من الاعتقاد بأن السكون يدور حول ذرة صغيرة في الفضاء ، وكانت اعتقادات اليونان التي انتقلت إلى أوروبا للمسيحية هي أن الآله أطلس هو الذي يحمل الأرض بين يديه وكذلك حرر الاسلام أوروبا من العنف الذي عرفته في نشر للمسيحية فقد قابل الغرب بالتسامح وأجاز له أن يقبل الاسلام أو يحتفظ بعقائده ، وسمح له أن ينتفع بالعلم والمعرفة

دون شرط أو قيد ، ويدكر في هذا ماحدث في جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى مونفور) الذى توجه بإذن من البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسية ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج رول لاستئصال الديانة الجوسية فيها فأغرقوا الإقليم كله فى أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من الجوس ، وباسم الإصلاح الدينى قامت الحرب فى شمال ألمانيا عتيفة دامية ثلاثين عاماً ، وكان الملوك الأوربيون يسوفون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس بالقوة إلى مذهبهم . هكذا قارن علماء الغرب بين الاسلام حين جاء بالسماحة والرحمة والأخاء الإنسانى فوقف فى وجه كل هذه المحاولات وعلم الغرب الارتفاع فوقها .

## (٢)

وقد أكد للؤرخون الغربيون المنصفون أن دخول الإسلام أوربا هو بداية المصور المتوسطة ونهاية المصور القديمة وليس حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية . وقد أشار إلى هذا المعنى (هنرى بيرين) المؤرخ الفرنسى المعاصر فى كتابه باللغة الإنجليزية (محمد وشارلمان) بمد أن منع الأوربيين تعصبهم القومى والمحلى فى صدر نهضتهم عن أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنسانى العظيم الذى هجر مجرى التاريخ ، وكان حقاً أن يعتبر الحد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة . (ومن عجب أن كتبنا التاريخية للدرسية مازالت منساقة وراء فكرة التنغريب فى أن حادثة الشعوب الجرمانية هى بداية العصر الوسيط وليس الإسلام) .

وقد أشار هنرى بيرين فى إنصاف ونزاهة ، إلى أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى ، إلى الحد الذى يمكن أن يقال معه بأن العصر الوسيط والنهضة هما ثمرة من ثمرات ظهور الإسلام ، وحين يرى أغلب للؤرخين أن الشعوب الجرمانية التى كانت نهيش على تخوم الإمبراطورية الشمالية هى التى اجتاحت حدود الرومان وقضت على دولتهم ، يقول هنرى بيرين إن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياء إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تناوى روما وتقضى عليها ، أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أسباب الحياة ، ولا سيما فى الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم ، وهذا هو الفارق بين الشعوب الإسلامية والشعوب الجرمانية ، فأولئك كان يمدون أنفسهم هبالاً على الدولة الرومانية ، وعؤلاء كانوا يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين

ضعفوا وشاخروا ولقد كان أمراء الجرمان يفخرون بما يمنحه إياهم أباطرة الرومان من الأوسمة والألقاب أما رجال الاسلام فكانوا يأنفون من هذه الرشى ، لأنها تقدم عن هم أدنى منهم ديناً وخلقاً وأصلاً ، وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها من سلبية من أسباب الحضارة : من العقيدة الدينية الراقية فكانت تتخذ حضارة الرومان ودينهم تشبهاً وتقليداً أما الشعوب الاسلامية فكانت ترى نفسها جديدة بأن تمنح الرومانية دنيا جديداً يرشدهم إلى مدينة أخرى .

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد . ولكن لم تسكت هب ربيع الإسلام وتسير كتابه إلى أراضى الرومان حتى تلاشى كل ما كان لهم من المعالم والآثار ، وكأنها كانت رماداً ذرته الرياح وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها لأن يواجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوروبا حيث قامت المعارك وحدثت الوقائع التى كيفت تاريخ أوروبا في العصر الوسيط . أما الجزء الجنوبي من أوروبا فلم تقع فيه في تلك العهد سوى موقعة ( باتيه ) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولاً ظهور الإسلام اظلت الامبراطورية الرومانية قائمة ، وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق وظل البحر الأبيض بمروراً رومانياً ولما قامت الثورات القومية التى خلقت دول أوروبا الجنوبية ولا الثورات الفكرية التى تمخضت هليها الحضارة الراهنة .

وهكذا نجد أن الإسلام هو الذى أخرج أوروبا من الظلمات بعد دخول المسيحية إليها بأكثر من سبعة قرون أو بعد اهتمنت الاسلام رسمياً بسنة قرون ، وأن المسيحية حين دخلت أوروبا حملت على تحرير الغرب من الوثنية منتقلة به إلى الإيمان بالإله الواحد، غير أن تفسيراتها المضطربة هجرت على أن تحقق ذلك ، فلما جاء عصر العلم وجدت نفسها في مواقف المعارضة والخصومة ، فلما جاء الاسلام أعطى الغرب العلم والعقل وتحرير الفرد من قيود الاكليروس ، وهزيمة الرهبانية والاندفاع إلى العمل غير أن الغرب لم يستطع أن يحرر نفسه من الوثنية فاستعارها ، فشكل مجتمعاً مادياً يتقدم من ناحية العلم التجريبي الذى أورثه المسلمون إياه ودمر نفسه لأنه عارض التوحيد والعدل والأخلاق . ولقد عاشت المسيحية في أوروبا خمسة عشر قرناً قبل أن تقوم النهضة التى كانت من أثر العلوم والانسانيات الاسلامية . ولم تلبث أن صرحتها القوميات والأيدولوجيات والعنصرية والوثنية ، في مختلف صورها الحديثة ، وهامت فكرة تقديس الدولة وتمجيدها ، والنظر إلى الإنسان على أنه حيوان حيث حاولت أن تطبق عليه

للمناهج للمادية ، مع أنه نفس وجسم ومادة وروح ، وليس مادة خالصة . وحين حاولت أوروبا أن تقضى على التفسيرات التي جاء بها بولس للمسيحية ، اندفعت إلى نهاية الشوط فقاومت الدين بصفة عامة واستعملت بالعالم وحاولت أن تجعلها عقيدة ودنيا مع أنه يعجز عن أن يعطى الاجابات إلا في مجاله المحدود ، ولو أن الغرب أنجه إلى الاسلام لوجد فيه سعادة المجتمع وسلامة النفس وسلامة الترابط بين قيم الروح والنفس وحسن التوازن بين المعنويات مع الماديات . ولكن القسوى اليهودية التلمودية الصهيونية دفعت الغرب إلى طريق الوثنية للمادية ، واستطاعت بسيطرتها على الفكر الغربي أن تحاوله عن المسار الطبيعي وأن تحتويه وأن تفرض عليه مناهج التلمود مصاغة في أيديولوجيات ومذاهب ونظريات منها التفسير المادى للتاريخ والتحليل الغرويدى والنظرية للمادية والجوهرية وغيرها من نظريات هدمت المجتمع الغربي والنفى وأثارت أزمة الانسان الحديث بعد حربين أوجعتهما الصهيونية فأكلت أكثر من مائتي مليون غربي وفتحت الأبواب للفزع والتدمير لتتمكن من السير إلى الطريق المرسوم الذي رسمته بروتوكلات صهيون بتدمير العالم وأختوائه قبل السيطرة عليه .

ولقد كشف كثير من الباحثين الغربيين : ذلك الأصرار الغربي الشديد على مدافعة الاسلام والحيلولة دون اعتناقه ، والدعوة إلى إيقاف الاسلام عند البواغير دون أن يقتحم أوروبا ورده عن طريق الانداس ثم رده عن طريق البلقان مرة أخرى ومناهضة فكره حتى لا يدخل أوروبا ولا يقتحم أهل الغرب مع إثارة الحجة عليه بالكلمة والاستثمار والاستغلال والسيطرة حتى يظل عاجزاً عن الحياة أو عن القدرة على القيام بحملة جديدة في أفق الغرب يقول الكونت كاتيانى : المستشرق الايطالى فى كتابه ( تاريخ الاسلام الكبير ) : إن الديانة الإسلامية هي أقوى دين فى العالم بعد المسيحية ، والمسلمون يعملون بقوة ايمانهم على صد تيار المسيحية فوق حزاء ذلك تشاد بين هاتين الديانتين ، وما زالت اثاره باقية الى حضرننا الحاضر وسبقى كذلك قروناً ما دامت أوروبا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل المتمسكها .

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على للمسيحية بسبب اهتمام كثير من أتباعها هذه تماماً الديانة الجديدة على حين أن الأمر عكس ذلك تماماً ، فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جليلة للمسيحية إذ لم لو تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يبق أى دليل على نهوضها - أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدينة العرب والمعجم فإذا كان يكون مصير غربي آسيا

وأوروبا في القرون الوسطى للظلمة ، أو لم تحمل النهضة البروتستانتية التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو للمسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء التفضال المستمر بين أتباع هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة وورث الأبداء والأحفاد الحقد الشديد ، ويقول كاتيانى : إن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين ( الإسلام ) ندر أن نجد أمثالها في الديانات الأخرى فتاريخ عيسى وما ورد بشأنه في الإنجيل ناقص لا يشفى العليل ، أما حياة محمد فإن لدينا منها قسماً مهماً حقيقةً بحيث يحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بأن لمحمد شخصية بارزة في تاريخ البشرية وأنه مشرع كبير أحدث أعظم انقلاب في الأخلاق والسياسة بعد المسيحية .

## (١٥)

### الاستعمار

بدخول الغرب عصر العلم والصناعة بدأ عصر الاستعمار والسيطرة على مناطق الخيامات والأسواق في آسيا وأفريقيا ، وقد كان هذا العصر في حقيقة مفهومه : إحكام للسيطرة على العالم الإسلامى للقضاء عليه وتخطيطه واحتوائه فكرياً وعقائدياً وقد جاء عصر الاستعمار بعد أن استولى الغرب على مصادر العلم الإسلامى في الأندلس بإخراج المسلمين منها كلية ، واستغلال حركة الغزو بمهاجمة الشواطيء الإسلامية في الجزائر والمغرب وتونس ، والاتجاه نحو الدوران حول أفريقيا تحت اسم حركة الكشف الجغرافى التي كانت في صميم أمرها حركة صليبية تستهدف القضاء على النفوذ الإسلامى في مختلف موافى أفريقيا وآسيا . وكان العمل الاستعمارى كله يصدر عن خطة أطلق عليها تطويق عالم الإسلام وحصاره وقد بدأت الخطة منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت حتى أمكن السيطرة على العالم الإسلامى كله في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، أهى أن حركة التوسع الاستعمارى امتدت أربعة قرون كاملة حتى أمكن السيطرة على عالم الاسلام ، هذه التي تعمقت بعد ذلك ، وتحولات من الاستعمار العسكرى والسياسى إلى استعمار فسكرى واجتماعى وتربوى على النحو الذى أريد به « إحتواء » العالم الإسلامى كله وصهره في بوتقة الأمية العالمية للقضاء على الإسلام نفسه ، وتمتد حركة الاستعمار الحديث في تقدير الغرب مرحلة تالية للحروب الصليبية التي انتهت قبل ذلك بثمانمائة عام بالهزيمة الساحقة للغرب حتى إن اللورد النبي عندما دخل بيت المقدس لم يستلم أن يحبس شعوره وشعور الغرب كله حين قل: الآن انتهت الحروب الصليبية ، بل أنه يمكن القول أن الحروب الصليبية التي انتهت في جهة المشرق

عام ١٢٩١ استمرت ولم تتوقف في الجبهة المغربية فإنه بعد أن سقطت الأندلس في يد الغرب بدأت معركة استمرت ثلاثمائة عام بين الغرب وبين شواطئ الجزائر والمغرب ، ومنها امتدت حركة الغزو الاستعماري ( البرتغال وأسبانيا ) إلى سواحل أفريقيا ، و ( هولندا ) إلى جزائر الملايو . ثم جاءت المرحلة الأشد خطورة بظهور فرنسا وبريطانيا واندفاعهما إلى السيطرة : الأولى على الجزائر والأخرى على الهند ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى استنطاق الغرب في الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٨ ) وضع يده بالكامل على أغلب مناطق العالم الإسلامي حيث سقطت القدس مرة أخرى في يد الاستعمار البريطاني الذي سلمها بعد ذلك إلى الصهيونية العالمية .

وهكذا نجد أن حركة الانقضاض الغربي على عالم الاسلام لم تتوقف منذ بزوغ فجر الإسلام ، وانها استمرت بصورة أو أخرى على جبهات بيزنطية ، والشام ، والبحر المتوسط والأندلس ، وغيرها ، وان كان الاسلام قد حقق توسعات ممتدة في الأندلس وجنوبي فرنسا وإيطاليا ، ثم في الإستيلاء على القسطنطينية والبلقان . وكانت حركة الغرب كلها في حقيقتها محاولة مستميتة لوقف زحف الاسلام سواء الى أوربا نفسها أو الى الاجزاء المختلفة من العالم ، وكانت الى ذلك حريصة على أن تفسد رأى الغرب في الإسلام نفسه وذلك عن طريق إثارة الشبهات حوله ، والحيلولة دون وصول مفهومه صحيحاً إلى أهل الغرب ، ولذلك عارضت التيار الذي ظهر بعد الحروب الصليبية والذي كشف للغرب سماعة الإسلام وسماعة أهله والذي كذب « الافتراء » الذي كان مصدر الحروب الصليبية كلها خلال مائتي عام وهو القول بأن المسلمين يضطهدون النصارى أو أنهم يسيطرون على بيت المقدس ويحولون بين المسيحيين وبينه . ولقد حملت حركة الاستعمار الحديث لواءين في وقت واحد . ١ - لواء إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام ومفاهيمه حتى لا تصل إلى الغرب . ٢ - لواء التبشير المسيحي في عالم الإسلام لتحويله عن الإسلام .

## ( ٢ )

بدأ التوسع الاستعماري منذ سقوط طنجة في قبضة البرتغاليين عام ١٤٨١ وغرناطة في قبضة الأسبان عام ١٤٩٢ وامتد باسم السكشوف الجغرافية ، حين سيطر فاسكودي جاما على زنجبار عام ١٥٠٥ واحتلال البرتغال لمسقط عام ١٥٠٩ وسقوط مالقة بالملايو في قبضة البرتغاليين عام ١١٥١ واستراخان وجزيرة القمر عام ١٧٧٣ والقوقاز عام ١٨٥٩ واستيلاء بريطانيا على الهند ابتداء من عام ١٨٣٢ وستافورة عام ١٨٣٦ ثم كان احتلال البلاد العربية التي بدأت بالغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٢

والسيطرة على الجزائر عام ١٨٣٢ وهكذا شاركت فيه أسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا وهولندا . ولقد كان هذا الاستعمار باسم الصليبية الغربية التي لم تنس هزيمتها . يقول دكتور حسين مؤنس : إن أوروبا لم تكف عن التفكير في الاسلام والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر ( السابع والثامن الهجري ) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الاسلام بين دولتين مسيحيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما وبين الحبيشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الاسلامية في مصر ثم كيف بدأت توجه إلى الغرب للوصول إلى الهند والوصول إلى بلاد الاسلام . . ويقول باركر : مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات البشيرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين واستعيد بيت المقدس إلى الأبد ، بيد هذا الحلم الخادع قد تهدم من آخره . نعم تلاشى الحلم الخادع الذي كاد يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحية تحصران الاسلام بينهما فلا يصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن أسبانيا وفي جانب من شرق البحر الأبيض ، ذلك أن خانات فارس دخلوا الاسلام عام ١٣١٦ وأسلم من آسيا الوسطى في منتصف القرن الرابع عشر ( الثامن الهجري ) وترفعت على عرش الصين أميرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين في وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعها بعيداً في رقعة الاسلام الذي أدرج شأنا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولما سكن أملا جديدا تراءى للغرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً في أكبر انقلاب عرفه التاريخ ، وتساءل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوروبا طريق البحر . لماذا لا تبحر إلى الشرق تهاجم الاسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على ظهورهم واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة . . وقد كان احتلال بريطانيا للهند وهولنده لجأوه وأرخبيل الملايو . كان هو الخط الأول لتقويض عالم الاسلام وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدءوا فكرة استعمار عالم الاسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٣ وأسس الهولنديون الشركة الشرقية ١٦٠٠ والشركة الغربية عام ١٦٢١ وامتلكوا غينيا وسورينام وركارب سيلان عام ١٦٥٣ وجراثر ملقة وفي عام ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارمة ( أهل حضرموت ) هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام ونشروا فيها الاسلام ، وبمقد أن تمت حركة التطويق فحولت شركتى هولندا وإنجلترا إلى استعمار صريح ، ولم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الاسلام :



« الدولة العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من سنة ١٦٨٤ الى سنة ١٨١٨ خلال مائتي وأربعة وثلاثين عاماً وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا وامتهدت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة واستطاعت بالضبط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمت روسيا ( حين هبّت القوقاز وبسطت سلطانها على أواسط آسيا ) وبريطانيا وفرنسا وتشمل في هذه الحركة الضخمة ، « أزمة الإسلام الكبرى » المسكلة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتي لم تنجمد في جهة المشرق أكثر من ثلاثة قرون يوم تضاهات - ولا نقول توتعت - في أواخر القرن الثاني عشر ( السادس الهجري ) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر ( العاشر الهجري ) .

وقد تمثلت في عدة خطوات :

- ١ - تطويق العالم الإسلامي . ٢ - السيطرة على الهند وأرخييل والملايو . ٣ - تمزيق الدولة العثمانية من الداخل . ٤ - اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية . ٥ - تنازع السيطرة على فارس .

## ( ٢ )

ولم تكن حركة الكشوف الجغرافية إلا حركة استعمارية صليبية : ويؤكد هذا المعنى واحد من كبار هؤلاء المكتشفين ( ولنجستون ) حين يقول في إحدى تقاريره : إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري ، وهذه كلمة صريحة تكشف خلفية الحركة كلها عندما يقول : وهذه حقيقة كلية : إذ أن من المحال أن تسكشف أراضى جديدة دون أن تنبه شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل . وتشير حركة الكشوف الجغرافية إلى الرحلات الاستطلاعية للاستعمار والتبشير التي قام بها : ماركو بولو ، فاسكو دي جاما ، ولنجستون ، وصمويل بيكر ، وفردون ومنهم من سافر إلى فارس وأفغانستان وبكين : ( ماركو بولو - ١٣٢٤ ) ومنهم من أبحر حول أفريقيا ومنها إلى الهند ( فاسكو دي جاما - ١٤٩٧ ) . ومن المعب أن كتب التاريخ والجغرافيا المدرسية تهدف هذه الحملات الاستعمارية بأنها من أعمال الكشف والبطولة . وإن أربابها أسسوا الدول ونشروا أنوار الحضارة وهو ما ليس صحيحاً من الوجهة العلمية البحتة فإن هذه البلاد كلها كانت مكتشفة من قبل وقد أوردتها مؤرخوا ورحالة المسلمين قبل أن يصل إليها هؤلاء بعثات المتنبيين وذلك أنه

منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) انتشر المسلمون في آسيا حتى بلاد الصين حيث حلوا في مواهبها التجارية ومدينتها الداخلية وقد عثر في بلاد أنام (الهند الصينية) على مخطوطات عربية تثبت أن جالية مسلمة كانت تعيش في تلك البلاد في القرن العاشر الميلادي وكذلك وصل العرب ما انقطع من الروابط بين الشرق والغرب بعد إندثار الدولة الرومانية وبقيت الطرق البحرية والبرية مفتوحة للتجارة بين البحر الأصفر والبحر الأبيض ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين لم يكتشفوا الهند فقد كانت هذه البلاد معروفة في أوروبا منذ العصور القديمة ، ومنذ معركة حطين وطرد الصليبيين من البلاد الإسلامية ، أصبح العرب هم همزة الوصل بين آسيا وأوروبا فمن عجب أن تصور السكتب المدرسية التي يقرأها أبنائنا أن هذه البلاد ظلت مجهولة حتى اكتشفها الأوروبيون ، وهو غير صحيح كذلك من العجب أيضاً أن تسكال لهؤلاء البحارة أوصاف المجد والبطولة ، بينما كانوا غاية في البطش والإعتداء والظلم للعرب والمسلمين ، فضلاً عن أنهم أحتلوا هذه السواحل عنوة في أسلوب غاية الشراسة والظلم وإذا كان لنا أن نقول الحق فإن هذه الحملات الاستعمارية التبشيرية هي بمثابة صفحات سوداء في تاريخ الغرب وحضارته ، وإن هذه هي طلائع الاستعمار الذي لم يلبث أن سيطر على العالم الإسلامي كله ولم تسكن هذه الرحلات عملية الطابع وإنما كانت استعمارية المهبط ، بحسب هن الذهب والخامات والتوابل لإتباعها من أصحابها الذين كانوا يرون بمرحلة إغناء قصيرة بعد نضال طويل وحين نستعرض أعمال هؤلاء الرواد نجد أن الصفة الجامعة بين هنرى المسلاح وفاسكو دى جاما ، والبورك ، هو حقدهم على المسلمين والعرب أما هنرى المسلاح فقد حمل في ريعان شبابه على مدينة سبنة التي أنطلق منها طارق بن زياد إلى الأندلس ، ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أهقابه فأدرك حينئذ أن عليه أن يقابل الإسلام من خلف أفريقيا والشرق الأدنى فأسس مدرسة بحرية صليبية نذر أصحابها أنفسهم لقتال المسلمين في حرب صليبية لاهوادة فيها وأعطاه البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء على جميع البلاد التي في طريقه إلى الهند وقد رفع لواء النصرانية في البلاد النائية وأعاد إلى حظيرة الكنيسة أهدائها الألداء كما جاء في خطاب البابا في تكريمه إياه ومع ذلك فهو يوصف في كتبنا المدرسية بالبطولة بينما هو واحد من خصوم أمنا فقد كان ابتداء من عام ١٤١٩ يرسل كل عام بعثة جديدة إلى سواحل أفريقيا الغربية تقاتل أصحاب البلاد وتسيطر عليها . كذلك فقد اتصف فاسكو دى جاما بكرهه للمسلمين كرها شديداً ، ومن موافقه الإجرامية أنه في رحلته الثانية إلى آسيا وقبل وصوله إلى شواطئ الهند أطلق مدافعه الثقيلة على مراكب عزلاء تنقل الحجاج إلى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموالهم وأمتعتهم إلى أسطوله

وبعد أن خطر على رجاله إنقاذ الفرق منهم وفيهم النساء والأطفال حتى هلكوا جميعاً إلا عشرين طفلاً  
 بعث بهم فاسكودي جاما إلى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية . بينما يفعل هذا نلقن أطفالنا  
 أنه حل لواء الكشف في أفريقيا وآسيا والحقيقة أن فاسكودي جاما لم يكتشف شيئاً لأن البرتغالي  
 بارتلمى دياز قد بلغ رأس الرجاء قبله بعشر سنين ولأن عبور المحيط الهندي من سواحل أفريقيا  
 الشرقية إلى آسيا كان معروفاً من البحارة العرب والهنود منذ قرون وفاسكودي لم يصل إلى مدينة  
 كالسوتا كما تقول السكتب للمدرسية المقررة ولكنه وصل إلى مدينة أخرى تسمى ( كاليسكوت ) تقع  
 على ساحل كيرالا أو اللالابار في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة الهند وتبعد بأكثر من ألف ميل عن  
 كالسوتا التي تقع على مصب نهر السكونج في الشمال الغربي من الهند . أما البوكر : فقد كتب إلى  
 ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمي مدينة غوا وجعلهم أكداساً في للمساجد ثم أحرقها ، وفي عام ١٥١١  
 انتهى بفته إلى ( ملاقا ) التي كان يحكمها سلطان مسلم فأعمل النار في سفن المسلمين وخطب خطابه  
 المعروف الذي يقول فيه : يجب علينا أن نقتلع الإسلام من جذوره ابتغاء مرضاة السيد المسيح وأن  
 استولى على تجارة ملاقا حتى يحل الدمار بمسكة والقاهرة . هذا الرجل السفاح تذكره كتب التاريخ  
 المدرسية بأنه فاتح مظفر ، وكان البوكر قد احتل جزيرة سقطرة على مدخل البحر الأحمر ومدينة  
 هرمز على مدخل الخليج العربي واستولى على مدينة غوا في الهند التي أصبحت عاصمة النفوذ البرتغالي  
 في آسيا واستولى على ملاقا وبذلك وضع يده على بحار الصين وأصبح المحيط الهندي كله بحيرة برتغالية  
 واستولى على جزر الهند الشرقية ووصل إلى كانتون على ساحل الصين ، وقد استطاع أن يحقق ذلك  
 لأن هذه المناطق كانت تمر باغفائة طويلة وقد استيقظ الغرب وحمل نتائج العلم الإسلامي والمنهج  
 التجريبي ليضرب به المسلمين في عقر دارهم أما ولنجستون الذي جاء ١٨٣٧ إلى لندن ليحصل على  
 درجة مبشر فقد رحل إلى جنوب أفريقيا حيث بدأ عمله ، وقد نسب إليه أنه قام بأول كشف جغرافي  
 في هذه البقاع ، وقد أعلن عن نفسه أنه إنما يشق طريقاً للدين المسيحي في هذه البلاد ليكون منطلقاً  
 للتجارة الأوربية ومن هجب أن ياتي مثل هذا المبشر تسكريماً من مثل الدكتور محمد كامل حسين  
 الذي يقول عنه أنه شخصية فذة لأنه قاد عدداً كبيراً من رجال الإرساليات في جنوب أفريقيا . وقد  
 وصف صمويل بيكر بأنه مكتشف منابع النيل الأبيض وهذا من خداع الاستشراق ، ذلك لأن منابع النيل  
 الأبيض لم تكن مجهولة عام ١٨٦١ وأن الذين قادوه إليها هم رجال الحملة المصرية ، كذلك ولنجستون  
 حين وصل إلى بحيرة تنجانيقا كان ذلك بمساعدة السيد حامد بن محمد المعروف باسم ( تيبوسيب )  
 أشهر تاجر في تلك الأصقاع . وأنه لما انقطعت أخباره عن العالم المتمدن لم يتمكن ( استافلي ) من

الوصول إليه بمساعدة السيد حامد كذلك . وحول هذا المعنى يقول الدكتور القاسم : الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها المسيحيون الأوروبيون في باطن أفريقيا وعندها أهل أوروبا متأثر هبقرية ووضع أصحابها في صف أعظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودرابش قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ولكن بدون فخر أو وضوء بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب إلى بحيرة تشاد أو إلى الكونغو من القرابة أكثر مما يرى في الذهاب من تونس إلى (غدامس) ولما وصل الأوروبيون إلى تلك الأقطار ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ولم يجدوا في مجاهلها مكاناً إلا وفيه حرب أو آثار للعرب واللغة العربية . وجاءت البعثات التبشيرية البروتستانتية بعد البعثات الكاثوليكية كما جاءت الألمانية وغيرها في شبه صراع عجيب للاستيلاء على الأرض وكانت الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٩٠١ نهضة إسلامية كبرى في أفريقيا اتسع فيها نطاق الدعوة الإسلامية على أيدي الدعاة المسلمون فلما جاءت حركة التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي بدأ صراع شديد انحصر فيه النفوذ الإسلامي عن كثير من المناطق وتوسع التبشير في بناء مراكز وقواعد عديدة وكان الاستعمار أثره الكبير في دهم التبشير المسيحي وإيقاف الزحف الإسلامي .

### ( ٣ )

وتبعت هذه الحركة ، حركة أخرى أشد عنفاً ، تلك هي حركة تهجير ملايين الأفريقيين إلى أمريكا في مأساة من أشد المآسي التي واجهت الإنسانية كلها وكان ضحيتها الأفريقيين هؤلاء . يقول مونتسكيو : إن شعوب أوروبا بعد ما أبادت سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر لم تبدأ من استعباد شعوب أفريقية لكي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الشاسعة . ويقول المؤرخ كاثال : أن شعوب أفريقيا السوداء هي التي دفعت ضريبة جنون حب المال عند الأوروبيين . لقد أفنى المستعمرون الأوروبيون شعب البلاد الأمريكية لاستملاك الأرض الزراعية ثم اقتلوا الأفريقيين من بلادهم ليصبحوا رقيقاً في زراعة الأرض . ويقول المؤرخ جوليان : إن البرتغاليين قد قاموا باكتشافاتهم بعد الحروب الصليبية بدافع انتقامي من التفوق الإسلامي وبدافع استعماري اقتصادي لإيجاد المستعمرات التي هيئت لتسكون مراكز للمواصلات لضرب التجارة العربية في أفريقيا الشرقية والهند لهذا فهذا أول من روج هذه التجارة في القرن السادس عشر ، وقد احتكرها البرتغاليون مدة ليست بقصيرة ثم لحق بهم الأسبان والهنديون في القرن ١٧ وجاء بعد ذلك الفرنسيون والإنجليز في القرن ١٨ ، لقد كانت مناطق تجارة الرقيق الأفريقي عند حذاء سواحل أفريقيا الغربية من موريتانيا حتى الكونغو على ساحل يزيد طوله عن خمسة آلاف كيلو متر .

وقد ساهمت معظم الدول الأوروبية في غزو أفريقيا والمتاجرة بشبابها لأن المستعمرين في أمريكا وجدوا أن الأفريقيين يستطيعون أن يعملوا بدلا من الهنود الهالكين بسبب تشابه المناطق الاستوائية في أمريكا وفي أفريقيا السوداء . وقد احتكر الغرب تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا الغربية ١٥١٧ م بمعدل ٤ آلاف عبد في كل عام ، وفي عام ١٦٩٠ اعتبرت بريطانيا تجارة الرقيق عملا شرعياً ، فنقل الإنجليز إلى أمريكا في القرن الثامن عشر نحو ( ٣٨ ألفا ) أفريقي بينا نقل الفرنسيون ( ٢٠ ألفا ) والبرتغاليون والهولنديون ( ١٤ ألفا ) وعمل في نقل هذه الكتل البشرية الهائلة أسطول ضخم مؤلف من ٨ آلاف مركب . وقد دخل إلى جزيرة هايتي أم مرا كز تجمع العبيد منذ عام ١٦٧٠ م أكثر من ٨٠ ألف زنجي بينا لم يكن فيها عام ١٧٧٦ إلا نحو ٢٩٠ ألف وكان أغلبهم يموت خلال السنين الأولى من شدة العمل المهرق ، وقد أدخل الأسبان الرق إلى الجزيرة لأول مرة عام ١٥٠٢ . وفي القرون الأربعة التي تم فيها النقل ( ١٦ — إلى ١٩ ) قدرت بنحو ٢٩ مليوناً يرفها البعض إلى ٨٠ مليوناً وإلى ١٥٩ مليوناً ، وقد لقي عدد كبير من هؤلاء حتفه قبل وصوله إلى أمريكا بسبب الظروف السيئة التي تعرض لها النقل وقدر عدد المفقودين بنسبة أربعة أخماس المجموع ، فقد كان يصل عبد واحد ويموت أربعة في الطريق ، وكانت مطاردة الشباب الأفريقي تستمر ستة أشهر يموت خلالها عدد كبير ، وإذا أصبر الأب على اصطحاب طفله يقتله التاجر الأوربي إذا كان عمره أقل من ثلاث سنوات ، وعندما يصعدون إلى المركب يقيدون بالحديد لئلا يقدفوا أنفسهم في البحر ، وبما أن الزوج كانوا حرا فإنهم كانوا يهلكون من البرد عندما يتغير المناخ ، ويتناول الرقيق جرابة بسيطة من حساء الذرة البيضاء ، وعندما تصل الباخرة إلى مرا كز التوزيع في جزر ( الأنتيل ) يسجن الأفريقيون في أماكن ضيقة ينتظرون لمن يدفع الثمن الأحسن ، وقد تدوم عملية السفر والانتظار أكثر من عام ويقدر عدد الذين يموتون في جزيرة هايتي سنوياً بثلاثين ألفاً يرهقون بالعمل القاسي ، ولا يبالي بهلاكهم تبعاً إذ كانوا يحصلون منهم على ربح يعادل أثمانهم ، وقد سجلت صور قاسية من التعمرات الوحشية التي قام بها القراصنة الأجانب نحو النساء الأفريقيات بتقصير المسلم من الرقيق ، وقد أبدت الكنيسة هذه الإجراءات الظالمة .

وهكذا نجد صورة الإستعمار قائمة مظلمة بعيدة عن كل عوامل الحضارة أو الرحمة أو التمدن الحقيقي ، وقد جاء ذلك من مصدر أسامي أخذ يمتلك الفكر الغربي وهو الاستعلاء بالجنس واللون على جميع شعوب العالم الملوثة .

( ٤ )

اندفع الغرب بعد أن حصل على الأصول العامة للمنهج العلمى التجريبي الإسلامى متفوقاً على أصحاب المنهج نفسه ، فكانت الانتصارات التى حققها البرتغال والأسبان على المسلمين فى جبهة الأندلس والمغرب ، ومن بعد على المسلمين فى جبهة البلقان وتركيا ، ومنذ اليوم الأول لسطوة قرطبة بدأت الجولة الأخرى المضادة التى زحفت إلى السواحل الإسلامية فى أفريقيا حتى وصلت إلى الهند ، ومنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة الإستعمار الأوروبى فى عالم الإسلام من أجل الإنتقام والسيطرة والاحتواء مسبقاً على الخيامات والأسواق . ولقد حاول الإستعمار الغربى أن يبرر حملته على عالم الإسلام باسم دور الرجل الأبيض مما أطلق عليه حل أمانة « تمدن » البشرية ، وقد جاءت النتائج بعد ذلك لتكشف عن دور من أشد أدوار التاريخ ظلاماً ونجراً وإذلالاً لبني البشر ، الذين لم يقبلوا بهذه المحاولة التى استهدفت احتوائهم ، فكانت الثورات فى كل مكان واستعجاش عالم الإسلام من أعماقه بقوة مبادئه لمواجهة هذه الحملة الصليبية الجديدة المتخفية تحت اسم الإستعمار والاحتلال ، وقد ارتبط الإستعمار السياسى والعسكرى والاستعمار الثقافى ، بل أن الخططوات الأولى كانت باسم التبشير والإرساليات ثم بدأ خلق أجيال موالية لفكر الغرب تعد أهدادا دقيقا لتولى قيادات البلاد الإسلامية فى مختلف المجالات فتحفظ للاستعمار نفوذه الإجتماعى والثقافى حين يسحب من الصورة العامة . وهذا هو ما عرف من بعد باسم التغريب والقرى والثقافى الذى خطط له لويس التاسع منذ وقت بعيد إبان الحملة الصليبية السابعة على للنصورية ، ولقد كان للاستعمار كتاب وفلاسفة ( ولا يزال ) يداونون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه وهم يحاولون وصفه بأنه رسالة عالمية مقدسة : رسالة المدنية والحضارة ، لرفع مستوى الشعوب والأمم وقد تكتشفت وقائع التاريخ عن حرص الاستعمار على إدامة تفنيت الأمم بالإقليميات وجعلها وتبعيتها والحيلولة بينها وبين العلم الحقيقى أو اتخاذ طريقها إلى الوحدة .

وقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك بأن الأوروبى لم يقصد إلى الشرق كمدن بل كستعمور ، حرص أول ما حرص على نقل التراث الإسلامى وسرقته وحرمان أهله منه ، وكانت تلك جولة واسعة حرص فيها رجاله على جمع أكبر قدر منه ونقله إلى الغرب بالإضافة إلى نقل الخيامات والموارد المتعددة ، كذلك عمد الإستعمار إلى أسلوبيين مختلفين فى السيطرة ، ففي مناطق الاستعمار الفرنسى عمد إلى الاستيطان : فاستقدم عدداً كبيراً من الفرنسيين وطنهم فى الجزائر وتونس والمغرب ليسيطن بهم على الاراضى وانتاجها بعد طرد أصحابها الاصليين ، كذلك عمل بناء قلاع ومعاقل حربية للدفاع عن المرافق ومساكن البر والبحر وحراسة مخازن للتجارة ، وعمد الى الحصول على الموارد الاولى والحاصلات الزراعية بالجنس الأثمان لاغراض الصناعة واعادة بعضها لبيعها بأضعاف ثمنه . كذلك عمل

على إنشاء مؤسسات إقتصادية ومصارف ربوية لتوظيف ذهب أوروبا التي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن الماضي ، أو فتح الأسواق لبيع مصنوعات الكيالية والتي تدر قناطير الذهب على الرأسمالية هناك ، هذا بالإضافة إلى الاستيلاء على الأراضي الوطنية ونزحها من أهلها الذين تعاملوا معه بنظام الربا ، ثم عمد إلى أفراض الأمراء وحكوماتهم لتسكينهم بالنفوذ الغربي والسعي للسيطرة بإقامة الامتيازات على مختلف اللوارد الطبيعية كالمناجم والبترول وتسخير موارد البلاد لصالح اللرابين مع الوقوف في وجه أى تصنيع حتى تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصرف منتجات لا تكتشف وبوركشير وليون وباريس ولندن .

ولقد واجه العالم الإسلامى هذا الزحف بقوة المقاومة ، التي استمدتها من روح الإسلام ، حيث وقفت الشعوب العزلاء من كل سلاح لتقاتل بالأجساد المفرصة ، مما دفع الاستعمار إلى تغيير جلده صرعات وصرات في سبيل البقاء بالادعاء بأن الشعوب عاجزة عن أن يدير شئونها بنفسها بينما كانت تدير شئونها في كفاية تامة قبل وصوله بعشرات السنين . لقد كان هدف الزحف الاستعماري الغربي ، الذي هو بمثابة الحلقة التالية للحروب الصليبية العمل أماماً للقضاء على الدولة العثمانية التي كانت قد أصبحت بمثابة الصخرة العاتية في وجه السيطرة الغربية والصهيونية والتي نجمت حولها الدول الإسلامية في وحدة جديدة تحت اسم الجامعة الإسلامية لمواجهة الزحف الغربي العنيف . ولاريب أن الدولة العثمانية هي القوة الإسلامية التي نشأت بعد الحروب الصليبية وحتت العالم الإسلامى من الفزو الغربي خمسة قرون كاملة .

(١٦)

## الدولة العثمانية : سبعة قرون من الدفاع عن الاسلام

(١)

### العثمانيون حول اسوار فينا

انزع المسلمون آخر معاقل الصليبيين في الشرق ١٩٦١ ١٢٩١م بعد أن استمرت هزوة الغرب الصليبية على أفق المشرق الإسلامى قرابة قرنين كاملين وكانت قد بدأت ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦م ظلت تندفق خلالها جماعات الغرب دون توقف على شواطئ الشام ومصر في محاولة السيطرة على

رأس الحربة في بلاد المسلمين ، وعلى مرعى المدافع من مكة والمدينة وقد أثارت الحملة الصليبية القوى الإسلامية ووحدها وحررتها من ضعفها وانحرافها الفكري ورددتها إلى أصالة الإسلام فالتصمت مناهجه وأصاليه وأهلنت الجهاد المقدس ، وعاشت مرحلة المراقبة والقتال والدفاع والمواجهة على مدى ذلك الزمن دون توقف ، وقد انتهت الجولة الغربية بهزيمة ساحقة . وكان رد الفعل الإسلامي قويا وكاسحا ، فقد انبعثت من قلب عالم الإسلام قوة جديدة سرعان ما سيطرت على آسيا الصغرى سنة ١٢٩٩ أى بعد خروج الصليبيين من الشرق بثمانى سنوات ، تدفقت قواتها المسلمة إلى أوروبا فعبثت الدردنيل عام ١٣٦١م وظلت تنوغل في قلب الغرب حتى حاصرت أسوار فيينا ثلاث مرات في خلال مائة وخمسين عاماً بعد ذلك وبقي نفوذ الدولة العثمانية في أوروبا ستمائة سنة ( ١٢٩٩ — ١٩١٧ ) أوقعت خلالها العرب في عالم الغرب ، وسيطرت على بلغراد والمجر والنمسا وبولونيا وجزائر رودس ومالطة وقبرص ، وامتد ملك الإسلام باسم العثمانيين من بودابست على الطونة إلى أسوان إلى شلالات النيل ومن الفرات إلى بحر الزقاق ( بوغاز جبل طارق ) وكان ذلك كله يحكم باسم الله . ويملى من كلمة الله . وكان في حوزة الأسطول العثماني ما يفوق أربعائة مركب حربياً ، وكان سليمان القانوني الذي دخل أبواب المجر وحاصر فيينا يقول : إن خيولنا ليلا ونهاراً مسروجة وسيوفنا مملولة وكان يكتب تحت عنوان ( بناية الله عزته وقدرته وبمعجزات سيدنا أمرة الأنبياء محمد ) وقد دخلت ضمن المملكة الإسلامية العثمانية كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومه : ( دخلت أثينا وأسبارطة والأساتنة وأنطاكية وبابل ، ونيوى ، وبغداد ، وأورشليم ، ودمشق ومكة ، والمدينة ، والاسكندرية ، والقاهرة ، وممفيس ، وطيبة وقرطاجة ) وكانت فرنسا تلقب سليمان في مراسلاتها بالسيد الأعظم أو إمبراطور العالم الكبير ، وبعجز ( شارل كان ) سيد الغرب إذ ذاك عن منافسة سليمان القانوني ولم يجد سبيلاً إلا استرداد ما دخل في حوزة السلطان من بلاد المجر ، وبعد فتح القسطنطينية هو قوة الموقف بالنسبة للغرب فإنه لم يمض أكثر من أربعين عاماً حتى سقطت آخر معاقل الأتدلس عام ٨٩٨م . بدأ السلطان محمد الفاتح بمهاجمة الأسوار الغربية وكانت تمتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمره ، ثم رأى على ضخامة مدافعه أنه لا يستطيع التغلب عليها لمناعتها وعظم سمكتها فعول على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهى الجهة المشرقة على القرن الذهبي ، وكان الروم قد احتاطوا لذلك ومدوا سلسلة عظيمة على مدخل القرن حتى لا تدخل سفن الأعداء لتهاجم الأسوار فلم يبن ذلك من هزم العثمانيين واحتالوا على نقل سفنهم إلى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال من أعجب ماحدث في التاريخ وذلك أنهم مهدوا طريقاً برياً بين البسفور والقرن يبلغ طوله نحو ألفي فرسخين ووضعوا عليه



هو ارض ضخمة من الخشب الذهبي تندرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب ( بكر ) وسيروا فوقها ثمانين سفينة صغيرة من أسطولهم الذي كان بالسفوف فجرت عليها السفن الريح تدفع في شراهم كأنها تجرى على الماء حتى بلغت القرن الذهبي فنزلت فيه بلا عناء وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول بضال حامية المدينة يلحاح على ضربها بالمدافع من باقي الجهات الأخرى . ودخل المسلمون القسطنطينية وسقطت دولة الروم الشرقية ، وسار محمد الفاتح إلى كنيسة أبأ صوفيا فصلى فيها ظهر ذلك اليوم باسم الله أكبر ، صلاة الفتح في ثمان ركعات .

ماذا كان رد فعل فتح القسطنطينية : التي حاصرها المسلمون قبل ذلك مراراً ثم ارتدو عنها ؟ وماذا كان موقف الغرب ؟ يقول البارون كارادفو في كتابه ( مفكر الإسلام ) : إن هذا الفتح لم يقض لمحمد الفاتح اتفاقاً ولا تبسر لمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم فقد كانت المدافع حديثة العهد فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ . وانتدب مهندساً بحرياً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام وكان مدى مرماه أكبر من ميل ، وقيل أنه يلزم لهذا المدفع سبعة رجال ليمسكوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، فلما زحف محمد لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ٣٠٠ ألف مقاتل وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر مكوناً من ١٢٠ سفينة حربية ، وقد سحب جانباً من الأسطول من البر إلى الخليج وأنزلوه على الأخشاب المطلية بالشحم ، سبعة سفينة أنزلها البحر من جهة قائم باشا د المهم هو الكرة والإيمان بها والفرد القائم عليها .

### ( ٣ )

ومن نصر إلى نصر توالى خطوات الدولة العثمانية في قلب أوروبا ( ١٤٥٣ — ١٨٦٣ ) خلال قرنين ونصف بعد ذلك لم يتوقف فيها الزحف والنصر ، يقول : شكيب أرسلان : لقد بقي هؤلاء السلاطين مدة مئتين سنة كاملة يذبون عن الإسلام شرقاً وغرباً وجاء وقت كانت فيه أوروبا بأجمعها ترتعد فرقاً من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوروبا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثماني إلى طولون أو نيس أبطل الأهالي هناك قرع الأجراس في كنائسهم وكان أهالي فينا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم في اليوم التالي رعايا لابن عثمان ( بين محاصرة فينا الأولى عام ١٥٢٩ والثانية عام ١٦٨٣ مائة وأربعة وسبعين سنة ) وبقيت الحجرة ملكاً لابن عثمان مائة وخمسين سنة وبودابست عاصمة

إسلامية . وجاء زمن كان الأسطول الثانى هو الأسطول السادس فى البحر المتوسط ، وكانت ربح تقصف فى البر ومن شاء أن يرى التاريخ الجسم فليذهب ويشاهد جوامع القسطنطينية ومدارسها ويشاهد نخامة تلك الأبنية التى مضت عليها القرون بزلزالها ونوازلها وهى باقية كالأهرام ولم يحتفل آل عثمان بشيء من المباني احتفالهم بالمساجد الشريفة التى صيروها حلة الأستانة وبهاىها ومفخرتها فى أهين السياح الأجانب وهناك من المبرات لهذه العائلة فى الأستانة وتركيا وفى بلاد العرب وفى الحرمين الشريفين نبع خاص لا يحصىه الأتلام ولا تحصىه الأرقام وقد بقى الإسلام مئات السنين فى كفاة آل عثمان وكان الترك والله لا يستحى من الحق هم سيوفهم المسلوطة . ولم يقتصر فضل الترك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم ومن شاء فليقرأ كتب التراجم ولا سيما ( الشفاقي النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من فحول العلماء وأساطين الحكماء وكم لهم من موقف شريف إلى جانب العقيدة والحكمة . وقد كان تشكيل الدولة العثمانية فى جوهره « حربيا » كما يقول كبيرك فى كتابه موجز تاريخ الشرق الأوسط وقد بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساع لما عام ١٥١٧ حين ضمت إليها سوريا ومصر . وكانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بمعنى الكلمة فى تقدير كل المؤرخين والباحثين ، وكانوا يعبرون عن القومية بكلمة الملة وكانوا يقولون على الدوام أن الدين والملة شيء واحد ، وكانت جيوش الدولة تخوض الحروب بحماسة دينية شديدة وكانت عبارتهم المشهورة : أما غازى وأما شهيد . وقد أشار شفيق غربال إلى هذا المعنى فقال : كان إيمان السلاطين فى شن الحرب فى البر والبحر فى أوروبا بصرة الإسلام واثرا لبنوده فى الأرض والذب عن بيضته ولنصرة الإسلام نشأت أمارة عثمان ولاجلها حقق أرخان أداة النصر ( العسكر الجديد ) وفى سبيلها استشهد مراد فى ساحة قوصوه وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسى المسيحية الأخر فى رومه ولصون الاسلام سلك جيش مسلم أوهو المسلك فى الجبال إلى تبريز والصحرى إلى القاهرة وحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر فى ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبى إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوربيين فى اتجاه البحار العربية ، وكانت نظم العثمانيين الأول وما اختطه سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة على جانب عظيم من المرونة والقدرة وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيهما سببا لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية ، فقد كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطنة وواقعها المسلمون عليه . والعثمانيون لم ينزحروا البلدان العربية من أيدي العرب أنفسهم بل من أيدي المماليك ، وكان العرب يطعمون فى وحدة تحفظهم من تهديد الغزو الغربى الذى بدأ وشيكاً بعد انتهاء الحروب الصليبية

على جهة المشرق ، وقد حى الحكم العثماني الأقطار العربية والإسلامية من العدوان الخارجو أربعمائة سنة والعرب هم الذين وضعوا النظام القضائي الإسلامي على أساس الشريعة الإسلامية الإمبراطورية العثمانية وكان لهم أثر بارز في الإدارة الداخلية فيها ، وشيخ الإسلام كان يمثل السلطة التي يحق لها الفتوى الإسلامية ، وكان الإسلام هو الجامع الأواحد بين العرب والترك في رابطة متينة استمرت أربعة قرون وكان العرب كسلمين يعتبرون شركاء للترك وكانوا مثلهم في الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصري وكانت الوظائف العليا سواء العسكرية أو المدنية مفتوحة للعرب ، وكان العرب ممثلون في مجلس المبعوثان وأصبح كثيرون منهم رؤساء وزارة ومنهم كان شيخ الإسلام .

يقول برتارد لويس : كانت الأمبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تتركس قواها في سبيل تقديم شوكة الإسلام وحمايته ضد أي اعتداء خارجي ، وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون في حرب مستمرة ضد الغرب المسيحي ، أولا : لمحاولة فرض حكم إسلامي على جزء كبير من أوروبا وهي محاولة رافقتها النجاح . وثانيا لشن حرب دفاعية تنف في وجه الهجوم المعاكس الذي قام به الغرب وكانت الأمبراطورية العثمانية في نظر الرجل العثماني بمثابة الإسلام ذاته .

### ( ٣ )

مضت عمليات الفوز في أوروبا وأوغلت فيها في وقت كانت موجة الإسلام تنحسر من الأندلس بسقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام ١٤٩٢ م وقام الاتراك بنعويض الخسارة ، وأنهارت معاتل أوروبا تحت مطارق العثمانيين الذين انتقلوا من نصر إلى نصر ، وتوغلوا في قلب القارة الأوروبية ، وفتحوا جبهة بحرية في حوض المتوسط ، حيث انتزعو أهم جزره : رودس ، قبرص ، كريت ، الجزر اليونانية ، وكذلك القواعد العسكرية التي كانت قد اتخذتها أسبانيا والبرتغال على الشاطئ الشمالي لأفريقيا . ثم نقل الاتراك جبهة القتال إلى الحوض الغربي للمتوسط حيث كان الأسبان قد أشعلوا حروبا صليبية بالغة العنف والضرارة ضد القوى الإسلامية في شمال أفريقيا وخاض الترك معارك بحرية ضد الأساطيل الأوروبية المتحالفة . واستطاعت الدبلوماسية العثمانية أن تجتذب فرنسا إلى جانبها تنبذلان المعونة وقدمت فرنسا للعثمانيين ميناء طولون الحربي لتأوى إليه الوحدات البحرية العثمانية ، وكان أبرز الصليبيين : شارل الخامس أو فيليب الثاني . وقد قام الاتراك بعمليات حربية ظافرة حتى وصلوا أسوار مدينة فيناتاصمة النمسا واعتنق الإسلام بفضل العثمانيين جماعات من السكان في أقاليم البلقان ووسط أوروبا وبفضل الأتراك العثمانيين لا تزال تعيش حتى اليوم أقليات إسلامية في بولندا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا وما يؤخذ على العثمانيين أنهم لم

يشعمقوا الإسلام في نفوس أهل أوروبا ، ولم يجعلوا منه محورا تنحجم حوله الشعوب التي دانت لهم عسكريا وسياسيا .

ومن الحق أن يقال أن الدولة العثمانية هي بديل الاندلس ، فإنه عندما أخذ نجم المسلمين يأفل في بلاد الغرب الاوربي كان نجمهم يشرق ويسطع في الجانب الآخر من القارة الاوربية ( بافاريا والمجر والغرب والبلانيا والبندقية ) هذه الدولة التي نمت في بلاد الاناضول ثم تدفقت سيللا إسلاميا هارما على الغرب خلال أكثر من قرن ونصف في مرحلة المد الاولى حتى توقفت همد أسوار فينا بعد أن حاصرتها أكثر من مرة .

ومنذ برزت دولة بنى عثمان ٦٩٩ هـ — ١٣٠٠ م فقد استنطاعت أن ترفع رايه الاسلام ، وبالرغم من الضربة العنيفة التي وجهت إليها من التتار فإنها سرعان ما استعادت قوتها وهادت إلى امتلاك إدارتها وقد كانت ضربة تيمورلنك عام ٨٠٤ بانفاق بين فرنسا والبابا يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتشد الراهب ( فرنسيفوس ) من ملك فرنسا شارل السادس الذي كتب جوابه تيمور بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك أسبانيا يهنئ تيمور على إجهازه على آل عثمان ، وقد دلت وثائق تاريخية كثيرة ظهرت في السنوات الأخيرة على أن الصليبيين اتصلوا بالفاطميين المغول وحرضوهم للحملة على المسلمين ( وكانت أم هولاكو وزوجته مسيحيتان ) وكانت انظاره هي وضع العالم الإسلامي في كسرة البندق بين الصليبيين والتتار ثم الإجهاز عليه ، ومن ثم انطلقت البعثات من البلاطات الاوربية الدينية والسياسية لمخاطبة رد التتار وتعمل بمكر شديد على تحويل أنظارهم عن أوروبا إلى القضاء على عالم الإسلام ، وكانت الحملة على بغداد باتفاق وتحالف كقمة للقيام بجملة مشتركة ضد الدولة السورية المصرية ( جان بورو — الإسلام في الغرب ) ولكن المؤامرة بين المسيحية الغربية والوثنية المغولية فشلت ونجحت دولة الاسلام لتعود معركة طويلة بعد ذلك إلى الغرب أمتدت أكثر من قرنين ونصف ولقد حاول هولاكو في نطاق هذه المؤامرة — أن يتجه إلى مصر ولكنه فشل بعد أن هزمت الحملات الصليبية . تقول أنه بالرغم من هذه الضربة العنيفة فقد استيقظت الدولة العثمانية سريرا وانجحت إلى أوروبا فيما بين ١٣٠٠ — ١٥١٦ ومن خلال حكم تسع سلاطين نشرت جناحها فوق ربوع آسيا الشرقية . وكانت الفكرة الأساسية عند الدولة العثمانية خلال القرون الوسطى وما بعدها أن الاسلام كله في حالة حرب مستمرة مع المسيحية كلها لا يستثنى من ذلك إلا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتي تدفع الجزية وقد وجه العثمانيون جهدهم لفتح أوروبا ونشر لواء الاسلام فوقها وتمسكوا خلال القرنين الأولين من دخول بلاد البلقان

وبلاد المجر والكثير من بلاد النمسا وجنوب البلاد الروسية حول البحر الأسود وتوزوا أمام جدران مدينة فيينا ولولا لطمة المغول وحربه وقهره للسلطان بايزيد عام ١٤٠٣ وما عتب ذلك من فترة خلل عطلت الفتوحات الإسلامية خمسين سنة لبقت الدولة مبلغا عظيما قبل أن توحد أوروبا جهودها وتستعد لمقاومة المسلمين . ويمكن القول أنه منذ عام ٩٠ هجرية والإسلام يقتحم أوروبا من الغرب حتى إذا تدهأت أركانه في أسبانيا اقتحم أوروبا من الشرق ، وفي الأولى استمر ثمانية قرون وفي الأخرى ستة قرون هي عمر الاسلام نفسه ( بل إن غرناطة لم تسقط إلا بعد أن أستولى محمد الخامس على ( اسلام بول ) : القسطنطينية العظمى عاصمة مملكة الروم الشرقية بأربعين سنة . ولقد كانت خطوة الدولة العثمانية في الارتباط مع العرب خطوة هامة ، فإن البلاد العربية كانت تعاني من محاولات هدر أوروبية بعد أن انتهت الحروب الصليبية وكانت لما تزال مشغنة بجراح قرابين كدامين من المقاومة ومن هنا كانت تنظر إلى الدولة العثمانية كمنصير كبير ومظلة ضخمة يحمي تحتها أهل لا إله إلا الله دون نظر إلى المفاهيم التي ظهرت من بعد مما يسمى قوميات أو استعمار . والواقع أن العثمانيين لم يتعرضوا للبلاد العربية التي كانت تحت سلطان الأتراك المماليك إلا بعد أن ظهر تحالف السلاطون قانصوه النوري مع الشاه اسماعيل سلطان فارس ، لمحاربة الدولة العثمانية ، همدئذ اتجهت جيوش العثمانيين إلى الشام ومصر وبذلك أصبحت الأمبراطورية العثمانية تمتد من مدينتي فيينا وبودابست في قلب أوروبا إلى طرابلس الغرب وأحيطت أوروبا بالخطر الأكبر واستعدت لمقاومة جيوش الإسلام المكسفة ، وهنا وقف العثمانيون وجها لوجه أمام دولة أسبانيا التي كانت مهيمنة على أوروبا الجنوبية .

(١٧)

## مرحلة المقاومة الدفاعية في وجه الهجوم المضاد

انتهى المد الاسلامي عند أسوار فيينا وبدأت مرحلة المقاومة منذ هزم العثمانيون في معركة ليبانت البحرية عندما نجمت الدول الأوروبية تحت اسم الإتحاد المسيحي للقضاء على الاسطول التركي ، وقد اشترك في هذه المعركة : إساطيل البابا وأسبانيا والبندقية ومالطة والسافو المتحدة . ويمكن القول أن مرحلة المقاومة بدأت منذ ذلك التاريخ عام ١٥٧١ م وإن كان العثمانيون قد حققوا هديداً من الانتصارات بعد ذلك حتى معاهدة كالور فيتز ١٦٩٩ التي توصف بأنها ختام مجد آل عثمان . هذه المرحلة التي تبدأ من هذا التاريخ وتستمر حتى الحرب العالمية الأولى يمكن وصفها بأنها دشن حرب

دفاعية ، للوقوف في وجه الهجوم المضاد الذي قام به الغرب ، وقد انتهت في خلال عصر السلطان عبد الحميد إلى ( حرب دفاعية سياسية ) بعد أن تخلت الدولة العثمانية من أجزائها الأوروبية ، فقد كان الموقف مشابها تماما للموقف الغربي من أسيانيا ومحاولة تطويق البلاد المغربية بعد استعادة الأوربيين لها ، كذلك فإن الخطة كانت تستهدف بعد تحرير الأجزاء الأوروبية من الدولة العثمانية العمل على تقسيم الامبراطورية وتجزئتها ، كانت هذه الخطة قديمة جداً ومتصلة حتى أن الوزير الإيطالي « جوفارا » أحصاها في مائة مشروع هي مائة مؤامرة على تجزئ الدولة العثمانية والقضاء عليها وقد بدأت هذه المؤامرة منذ وقت باكرواستمرت ستة قرون متتابعة ، فخذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية بدأ الغرب مؤامراته ضد الدولة العثمانية ، ولقد استغل الغرب كل أساليب الحوية والتسامح الإسلامية في العمل على ضرب هذا السكان والانتقام منه ، ولقد واجه الغربيون المسلمين بالعداوة والتعصب بالرغم من تسامح المسلمين وإتاحة الفرصة لهم لإقامة شعائرهم وتعاليمهم الحر . وقد شهد كثير من مؤرخي أوروبا المنصفين بذلك يقول : ( لامنس ورامبوا ) إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك وللقول بعيداً عن كل اضطهاد ديني . وكانت حكومة الترك لا تعارض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة ، ليس هذا وحده شهد به المؤرخون الغربيون ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك . إلى أن هزيمة الدولة العثمانية في الأخير كانت نتيجة تسامحهم مع النحل غير المسلمة : وإن هذا التسامح كان مدخل للمؤامرة على الدول العثمانية ولحتمها وسداها . يشير إلى هذا للمعنى دوجوا فاراً في كتابه ( مائة مشروع ) إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التي كانت تثبت دعايتها القومية ، وتنامسك وتنقض وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية ، بل أنهم ذهبوا إلى أبعد ما أشار إلى دوجوا فاراً ، لقد عملوا على « تفريب تركيا » حتى تكتسب من اليسار إلى اليمين حتى لا يكون الإسلام مجاوراً لأوروبا ، وتكون فاصلاً من عالم الاسلام وبين أوروبا ويرجع كثير من المؤرخين أن مؤامرات العودة إلى منطقة بيت المقدس والسيطرة على العالم الاسلامي بدأت بعد انتهاء الحروب الصليبية مباشرة ومنها الزحف على شمال أفريقيا ومعركة الثلاثمائة عام مع الجزائر بالإضافة إلى الحملات التي وجهت إلى مصر وسوريا ، فضلاً عن أولئك الذين طالبوا ملوكهم بالسيطرة على المنطقة الجامعة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض .

وكان الرهبان ومبشاري الملوك يقومون برحلات سرية إلى هذه المناطق ليحرضوا ملوك الغرب على معاودة الحرب ، ولقد كان البابا جريجورس الثاني عشر قد أعلن فعلاً الحرب الصليبية

مرة أخرى على المسلمين في ٩ نوفمبر ١٤٠٧ إلا أن هذه الخطة فشلت بعد أن استولى الأتراك على القسطنطينية وقبرص . ويركز المؤرخون على معركة ( ليبانت ) التي هزم فيها العثمانيون لأول مرة وبروتها هزيمة على انتهاء مرحلة للد الإسلامى العثمانى فى الغرب وبدأ مرحلة الهجوم للضاد . ولقد كان السلطان سليمان القانونى — ١٥٦٦ أضخم اسم فى أوروبا جاء بعد فتح القسطنطينية : ذلك الحدث الفذ الذى اعتبره أغلب المؤرخين « مبدأ المصور الحديثة » قائم هذا الفتح باقحام ولايات البلقان مما نعرفه اليوم بأسماء ( رومانيا ، بلغاريا ، اليونان ، يوغسلافيا ، ألبانيا ، بلاد الجبل ) وكان البحر الأسود كأنه بحيرة عثمانية وأسطولها يحجب عباب البحر الأبيض متحديا أساطيل البندقية والبابا والأمبراطور شارل الخامس ( شارلسكان ) الذى كان أقوى ملوك أوروبا : امبراطوراً للنمسا وأسبانيا والأراضي المنخفضة ، هذا التوسع لم تصحبه الدعوة إلى دخول هذه الأمم فى الإسلام ولذلك فإنه سرعان ما انهار عندما صعدت بيضة الأتراك الحربية وحين بلغت الدولة ذروتها العسكرية والحربية ، لم تجد أسس التقدم العلمى والاجتماعى والفكرى مساندة لبقائها ، فقد استطاعت أسبانيا متحالفة مع البابا والبندقية أن تنزل بها عزيمة قاذية وتحطم أسطولها فى موقعة ( ليبانتو ) عام ١٥٧١ التى يعتبرها الغرب من المواقع البحرية الحاسمة ، ولكن هذه الموقعة لم تقض على الدولة العثمانية التى سرعان ما استعادت قوتها وحقت انتصارات جديدة وتوسعات كبرى وكان استيلائها على قبرص قطعاً لأحد سواعد البندقية بل أنه بعد بضعة شهور من معركة ليبانت خرج من القسطنطينية ٢٥٠ مركباً حربياً كاملة العدد والعدد وشرعت تتحدى أساطيل العدو والتقى الأسطول الذعر فى قلب البندقية فانسحبت من محالها وأمضت الصلح مع آل عثمان ولم تمض أكثر من مائة عام حتى غزت فينا مرة ثانية عام ١٦٨٢ وكانت الأولى عام ١٦٢٩ وقد أخفقت المحاولة إخفاقاً ذريعاً وبددت شمل جيشها وأجبرت على أن تفلو عن بلاد الجبل جميعاً فقد تألمت أوروبا على الدولة العثمانية وتجمعت قوى النمسا وبولونيا والبندقية ومالطة والبلبار وروسيا وأطلقوا على تجمعهم الحلف المقدس وزحفوا عليها من كل صوب .

هذا ما أطلق عليه الحلف المقدس من الأمبراطور وبولندى والبندقية واستمرت الحرب مشتملة سنين عدة فى البر والبحر ، حتى قبلت الدولة العثمانية معاهدة عام ١٦٩٩ وهى معاهدة كان لها أثر كبير فى تاريخها ففيها لأول مرة رضيت بالتنازل عن مناطق واسعة من أراضيها ، لقد أخذ الغرب موقف المهاجم منذ ذلك التاريخ وأخذت الدولة العثمانية موقف الدفاع . وبدأ العثمانيون مرحلة المقاومة فى صلابة وعناد وجاء محمد كويرىلى الإلبانى الصدر الأعظم فاستطاع أن يوثق هرى

البراطورية من جديد وتمكن من إبعده خلفائه القيام بدور ضخم هدد دول جنوب شرق أوروبا وأنتك خطوط الدفاع في الغرب . ولقد انحصرت معركة الدولة العثمانية مع الغرب في منطقة البلقان . بينما صار الغربيون في قوة للسيطرة على العالم الإسلامي وتطويته . والسيطرة على المحيطات : إلى المناطق الإسلامية في الهند وأندونيسيا وأفريقيا الاستوائية ، على النحو الذي يصوره توينبي . « كان الغربيون يتطلعون بقوة في السيطرة على المحيط وفي السيطرة بالتالي على العالم ، وهكذا لم يكتفوا بسبق المسلمين إلى اكتشاف أمريكا واحتلالها بل توغلوا كذلك فيما كان تراث المسلمين الخاص : أندونيسيا والهند وأفريقيا الاستوائية ، وأخيراً بعد ما طوقوا العالم الإسلامي وألقوا عليه شباكم انطلقوا إلى مهاجمة عهدهم القديم في عقر داره ، وقد افتتح هذا الهجوم المركزي الذي شنه الغرب الحديث على العالم الإسلامي النزاع الحاسم بين المدينتين » . ويمكن القول أن معركة المقاومة التركية والتي استمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى قد كشفت عن ضعف الأتراك العثمانيين في مجال القوة المادية والتقدم العلمي الذي أحرزه الغرب والذي كان قد تدافع ليقاوم بأسلحة جديدة منها المراكب التجارية بينما كانت العثمانية لا تزال على أساليبها القديمة ومن ثم وقعت في هزائم ضخمة وتسكبت خسارة كبرى . وكانت المرحلة الأولى هي تخليص الأجزاء الأوربية من النفوذ العثماني وكانت المرحلة الثانية هي سيطرة الاستعمار الغربي على الأجزاء الإسلامية بدءاً بالجزائر ومصر والسودان وتونس حتى سقطت آخر هذه الأجزاء وهي الشام والعراق خلال الحرب العالمية الأولى ، وفي هذه المرحلة الأخيرة برز دور السلطان عبد الحميد في مقاومة الاستعمار ورفع لواء الجامعة الإسلامية في وجه الاستعمار ومعارضة المؤامرة الصهيونية على أراضي فلسطين . وقد كانت المقاومة في هذه المرحلة سياسية ولكنها لا تقل خطراً عن المرحلة العسكرية السابقة لها ، فقد بذل السلطان جهداً وبراعة واقتداراً في السياسة وفي ضرب دول الغرب بعضها ببعض مما أجل عملية السيطرة الكاملة على المنطقة سنوات طويلة .

## ( ٢ )

كانت الخطة التي وضعها الغرب على المائدة منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية وتوغل سليمان القانوني إلى أوروبا مكونة من شقين هما : أولاً : رد الإسلام عن أوروبا . ثانياً : قمع في بلاده حتى لا تقوم له من بعد قائمة توسع نحو الغرب . قال جود فروا كورت في كتاب عنوانه الصليب والهلال : إن الإسلام قد عمل ما لم يقدر أن يعمل ، بل ما لم يجروؤ أن يعمل دين آخر ، ذلك بأن



الصليب تغلب على كل شيء أمامه وجاء الإسلام أخيراً فتغلب عليه ، ومن هنا نشأت تلك الخطط التي أطلق عليها الوزير الروماني « مائة مشروع لتقسيم تركيا » :

يقول : إن المسلمون كانوا أرحبوا أوروبا وضمفت لهم أسبانيا مع عظمتها ، وفي أواخر القرن الثاني عشر امتد سلطان العرب ( وهم لا يقرلون للمسلمون تعصبا ) من الهند إلى الأطلانتيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وأرقى من حضارة أكس لا شابل وباريس وكان الفرنج تحت قيادة شارل مارتل هم الدين أوقفوا المسلمين في بواتيه وأنقذوا النهرانية ، فن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوروبا إلا تحت اسم بلاد الأفرنج ، وقد بدأت الحرب الصليبية فأخرت فتح الأتراك القسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة ، ودخل الأتراك أوروبا عام ١٣٥٦ فمبروا مضيق الدردنيل وفتحوا أدرنة عام ١٣٦٠ ، وفي فترة ما بعد الحروب الصليبية كان للفيسكرون الغربيون لا يغنأون يهيجون خوطر الشعوب الأوروبية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الإسلام ولا سيما في فلسطين ، وجاءت الدعوة إلى التوقف عن مقاتلة المسلمين بالسيف ومقاتلتهم بالنجارة بما يسمى حرب الإسلام بمشروع كارلوس الثاني ملك صقلية ، وتوالت للمشروعات بعد هودة حكا إلى المسلمين عام ١٢٩١ وكانت كل الخطط تستهدف توحيد الغرب في وجه الإسلام . يقول ( البابا ما كسيميليان ) أن السلطة التركية قد تبسطت تبسطا هائلا بسبب بذلتنا إلى حد أننا أصبحنا لا نقدر أن نقف في وجه أعدائنا إلا إذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو بمناصبته القتال برأ وبحراً ، ولما كنا على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لامندوحة من أن ندهوهم جميعاً .

وتشكل الحلف المقدس تحت زعامة البابا لمقاتلة الأتراك : ٢٥ مايو عام ١٢٧١ وأطلق عليه الحلف المسيحي الثالث عشر : مكونا من البابا بيوس الخامس وفليب ملك أسبانية وجمهورية البندقية ، هدفه إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع اللواقع التي ( اغتصبوها ) من للمسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس . ولما هزم العثمانيون في ليبانت : أرسل البابا يثير المسلمين على تركيا وكتب إلى شاه المعجم يقول : أنه لن يجد فرصة أحسن من هذه الفرصة من أجل الهجوم على العثمانيين ، ولكن هذه الرابطة لم تلبث أن انحلت وصالحت البندقية الباب العالي . ولكن خطط التآمر والاتقضا لم تتوقف ، وفي ظل هذه الحملات الموجهة من الغرب إلى العثمانيين نشأت الأجيال للتوالية في أوروبا على هذا الحقد وهذه الكراهية وتجددت للمشروعات التي ترمي إلى محو تركيا والإسلام بأسره ، وكان نابليون قد درس تقسيم السلطنة العثمانية مع الروس وكان يرى أن يستولى على القسطنطينية وقدم تاليران إلى نابليون في ١٧ أكتوبر عام

١٨٠٥ مشروهاً بتقسيم السلطنة ، وتمددت المطامع والخطط حتى قال فندال : أنه لم يكن في ذلك الدور رجل سياسة إلا وعنده برنامج بتقسيم لسلطنة العثمانية ، محتفظ به لوقت الحاجة . وتوالت منذ ذلك الحين الحروب على الدولة العثمانية في محاولة لاستخلاص الأجزاء الأروبية ، وفي عام ١٨٣٠ بدأت الضربات توجه إلى الأجزاء العربية حيث احتلت فرنسا الجزائر وهدت روسيا إلى السيطرة على الأجزاء المجاورة لها فوصلت إلى أدرنه وأجبرت الباب العالي على قبول شروطها عام ١٨٧٨ هنالك عقد مؤتمر برلين : أخطر محاولة لتمزيق الدولة العثمانية أو « نهب » أملاكها كما صورده كثير من المؤرخين .

يقول أرنولد توينبي : أنه بعد فشل الاتراك أمام فيينا عام ١٨٦٣ كان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربي على العالم الإسلامي في يوم وآخر ، وقد أجاب العالم الغربي على استيلاء الاتراك على للمسيحية والأرثوذكسية الشرقية في القرنين الرابع والخامس عشر بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية عوضاً عن مقاتلتها وجها لوجه وكانت فكرة بصالة المسلمين العسكرية تقرر الخذر على الغربيين وتشدد هزائم المسلمون أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم بأن وراثته أوربا عداوة اترك ما كانت إلا لأنهم كانوا آخر كتيبه من كتائب الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً صدمت جدار الحصن المنيع الذي اعتصمت به أوربا المسيحية منذ عادت أدراجها مهزومة في معركة صليبية ثم نفذت منه وتركت كلمة الله تعلو فوق شواحق جباله .

### ( ٣ )

كان مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ أول محاولة لغرس السكين في جسد الدولة العثمانية فإن بسمارك الذي كان سيد الغرب في هذا الوقت بعد أن هزم فرنسا وضمها إلى بروسيا ، وبعد أن سلم نابليون الثالث سيفه لملك بروسيا وانهارت الأمبراطورية للفرنسية الأوربية عام ١٨٧٠ وحيث أقتطعت الإلراس وجزء من اللورين من فرنسا ، وتضعضت قوة النمسا وانهزمت الأمبراطورية النمساوية البحرية أمام قوة بروسيا ، انبعثت من جديد فكرة التحالف الأوربي المقدس ومحاور اقتطاع أملاك الدولة العثمانية خاصة الأجزاء الأوربية منها في البلقان وآسيا الصغرى ولذلك فقد جمع بسمارك بين إرضاء مطامع روسيا والنمسا بإعطاء الأولى الاشراف على شرق البلقان والاخرى غربي البلقان الى أن تذهب انجلترا إلى شرق البحر المتوسط وإلى مصر وأن تستعيض فرنسا عن الإلراس واللورين سوريا وتونس

وكانت فكرة سهارك تستهدف تقسيم أراضي الدولة العثمانية لارضاء الدول الكبرى في أوروبا محافظة على تفوق ألمانيا في القارة الأوروبية ووجد في وضع هذا الحل المسألة الشرقية وسيلة يسترضى بها الدول الكبرى ، وقد حضر المؤتمر الذي عقدته ألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، وفرنسا ، والمملكة المتحدة وإيطاليا والروسيا وكانت أهم الشروط تحرير بلغاريا والبلقان والجبل الأسود والبوسنة والهرسك والمغرب ورومانيا ، وأن يتنازل الباب العالي لروسيا في آسيا عن أراضي أردهان وطررس وبالطوم وأن يعلن الباب العالي رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني وإلا يجب أن يقف الاعتقاد الديني عقبة في سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القنصل في حماية رعاياهم ، وهكذا كان مؤتمر برلين أقوى ضربة وجهت للدولة العثمانية من حيث :

أولا : تفصيم ممتلكات الدولة في البلقان بين الدول الأوربية . ثانياً : دعم نفوذ الامتيازات الأجنبية في الدول العثمانية ، حيث وسعت نفوذ القنصل ، ذلك النفوذ الذي سيعمل على قتل كل حركة إصلاح صياحي واجتاهي واقتصادي أو تشريعي في الدولة العثمانية وسيعمل على تدهورها النهائي . ثالثاً : فرض حماية الدول الأوربية على شعوبها للمسيحية للقيمة في الامبراطورية وتأليبها على الحكم العثماني (انجلترا البروتستانت فرنسا الكاثوليك ، روسيا : الأرثوذكس ، هكذا كانت معاهدة برلين ١٨٧٨ هي الخطوة النهائية لتمزيق الامبراطورية العثمانية وهذه هي المرحلة التي بدأ فيها القتال بإصلاح السياسة وهو السلاح الذي استعمله بيراة السلطان عبد الحميد خلال الأربعين سنة من حكمه : لقد ثارت الأجزاء الأوربية وعمدت إلى الانفصال ولكن الخطر كان في تدافع روسيا وانجلترا للسيطرة على الأجزاء العربية في مصر والسودان والجزائر وتونس وتدافع روسيا للسيطرة على الأجزاء الإسلامية الآسيوية وهذه هي طبيعة المرحلة التي بدأت ١٨٧٨ واستمرت أربعين عاما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى والتي انتهت بنصفية الأجزاء العربية الإسلامية من الدولة العثمانية والسيطرة الفعلية على العالم الإسلامي كله ، وقد ظهرت حركة الجامعة الإسلامية في محاولة من السلطات عبد الحميد لتجميع المسلمين كرد فعل لهذا للتوتر والأخطار التي تجمعت منه وخاصة الحرب الروسية التركية واتساع أطماع فرنسا وانجلترا ، فقد كانت الدعوة إلى إتحاد المسلمين خارج الدولة العثمانية معها تحت لواء الخلافة من الحركات القوية التي هزت عالم المسلمين تدافعا إلى الوحدة والمقاومة ، كما هز عالم الغرب وآثار مخاوف لاحد لها ، مما دعا إلى العمل السريع على أقصاء السلطان عبد الحميد وهدم محاولته وكان السلطان عبد الحميد قد اتخذ سلاح السياسة وتأليب الخلافات بين دول أوروبا وسيلة للحيلولة دون تجمع الغرب على العالم الإسلامي

وتركيا ومن ذلك عمله في كسب نفوذ ألمانيا بعد بسمارك ، ووضع مشروع سكة حديد بغداد والعمل على ربط برلين باستانبول ببغداد لمقاومة نفوذ إنجلترا في الشرق الأدنى والأوسط ، وقد كان لهذا الاتجاه أثره في مخططات إنجلترا ومطامعها ، مما ادعاها إلى العمل السريع للقضاء على الدولة العثمانية بانتزاع العرب وهم شطر الدولة إلى صفهم وخداهم والقضاء بهم على الدولة العثمانية في الأجزاء العربية (الحجاز — الشام) وكانت الصهيونية من وراء هذا الاتجاه كله ، باعتبارها صاحبة رهوس الأموال الربوية العامة في مجال التجارة ومن حيث مطامعها في السيطرة على فلسطين التي حال السلطان عبد الحميد دون تحقيقها .

(١٨)

### محاذير العزو الفكري

لا نستطيع أن نفهم مؤامرة الغرب على الدولة العثمانية دون أن نكشف عن ذلك الجانب الخطير الذي صورته كثير من المؤرخين بأنه كان عاملا هاما من عوامل هزيمة الدولة : ذلك هو استغلال الغرب سماحة الدولة العثمانية في إعطائها أهل الأديان الأخرى حرية العبادة وإفساح الطريق أمامهم في المساواة الاجتماعية وكان مصدر هذا ومنطلقه منح الامتيازات للدولة الأجنبية ، بمعنى السماح لكل مذهب بحرية ممارسة طقوسه وعبادته وإعلان حرمة الأديان وإعطاء كل طائفة الحق في إنشاء مدارس خاصة بها ، فإن معنى ذلك ، وخاصة بعد أن أعلنت كل دولة في مؤتمر برلين إنها تحمي رعاياها مذهب من المذاهب للمسيحية داخل الأمبراطورية ، كان معناه كما صورته المؤرخون الغربيون أنفسهم ، أنه عامل أدى إلى انهيار الجسور الأخيرة التي ضمت المملكة العثمانية فقد فتحت الباب واسعا لإزاء الطوفان الثقافي الذي نبع من الغرب ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التي فتحتها أوروبا إلى الشرق . ومن أهم من أشار إلى هذا المعنى وأولاه عناية كبرى (بول شنتير) مؤلف كتاب (الاسلام قوة الغد العالمية) حين قال : لقد بدأت حقيقة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذي سيقرر مصير العالم الاسلامي بالنسبة لاستمرار التطور ، فلأول مرة في تاريخ الاسلام ، يصو بين المسيحي والمسلم في قانون مدني في دولة إسلامية ، لقد قصد الباب العالي بهذه التسوية عام ١٨٥٦ أن يلعب بها دورا في الأرجوحة السياسية في عالم الصراع بين القوى الكبرى ، خير أنها كلفته

كثيراً ، فقد انتقصت من سلطاته المطلقة وأضعفت هيئته داخل المملكة وفي أوساط المواطنين المسلمين ، وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا ، ففي أواخر العقد الخامس فوجئ الشعب باصلاحات في القضاء وفي الأجهزة لليلية ولم يتوقف عند هذا الحد بل واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كقمهم راجحة على كفة غيرهم ، وهكذا يرى شتير إن اضطراب الدولة العثمانية تحت ضغط الدول الأوروبية إلى السماح لكل الطوائف بحرية النشر وحرية التعليم لم يحقق أثراً إصلاحياً بين المواطنين بقدر ما فتح أبواباً أخرى أمام القوى الغربية للسيطرة وإن تجربة تركيا التي بدأها السلطان محمود بالاستعانة بالمناهج الغربية كانت وبالاً عليها . ويقول إن : ( العقل الأوربي الذي استعانت به تركيا ليساعدها في تنفيذ البرامج الإصلاحية كي تستطيع الدفاع عن نفسها وتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحسن التخلص منه أبداً ، أعطى الامتيازات ونال من الغرض ما يمكنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض ) .

وقد ظل دعاة التغريب يخادعون المسلمين والعرب في كل مكان بهذه الفكرة المسحومة ، وذلك قولهم : « إن الطريق الوحيد لمحاربة الغرب هي استعمال أسلحته ، ولقد كانت تركيا قد أثبتت بتجربتها فسار هذه النظرية ، ومع ذلك فإن الدول الإسلامية والعربية لاذت من نفس الحجر صرات دون أن تفيق إلا منذ سنوات قليلة وبعد هزيمتها الساحقة عام ١٩٦٧ بل إن خطة السلطان محمود في اصلاح الجيش طبقاً للنظام الأوربي عام ١٨٢٩ م هي التي فتحت الطريق أمام الشباب العثماني إلى أن يقع فريسة القوى التغريبية تحت اسم حرية وإخاء ومساواة وما إليها من مبادئ الثورة الفرنسية وفلسفة كانت وغيره ذلك لأنهم ، ذهبوا إلى أوربا خواء من مفهومهم الإسلامي ومن أرضية فسكرم الأصيل فوجدوا الجو مهيباً لفزوم والسيطرة عليهم تحت أجنحة المحافل الماسونية التي كانت تقربهم وتلقفهم لتحطم بهم الدولة العثمانية والخلافة والجامعة الإسلامية ، وقد أتاحت هذه الفرصة ، فرصة الإيفتاح الثقافي الغربي ، إلى قيام الجمعيات السرية والمحافل الماسونية تحت نفوذ الامتيازات وفي المناطق البعيدة عن الرقابة ، وأفرخت قوى التآمر على الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية في داخلها ، وخاصة في سالونيك ، وعندما تنبه السلطان عبد الحميد إلى هذا الخطط الرهيبة كان الوقت متأخراً ، كان جماعة مدحت ممن سمو الأحرار كانوا قد زادو نفوذهم في داخل الجيش ، وكانت جماعات منهم قد تركزت في فرنسا وغيرها ، وبدأت الحرب أزاء دعوة الخليفة إلى تجميع المسلمين في كل مكان تحت لواء الخلافة ، هذا الخطر الذي هدد الغرب وأفرزه فأسرع بالتآمر على السلطان وانزاعه من مقعده

وكانت الصهيونية قد حاولت معه محاولتها المأكورة في الوصول إلى فلسطين ووتف في وجه المؤامرة سامناً وهو يعلم أنها مستطيع به . يقول شميث : إن السلطان محمود آمن بأن أوروبا لا يمكن أن تضرب وترد إلى ديارها إلا بسلاح أوربي ، وهذا ما يقوله توينبي أيضاً ولكن : غاب عنهما وغاب عن السلطان محمود ، ومن يرى هذا الرأي من زعماء المسلمين أنه لابد من بناء العقل والنفس الإسلامية المؤمنة وفق مفهوم الجهاد في الإسلام والدفاع عن عرينه ، قبل أن تمسك بهذا السلاح الذي لا يستطيع أن يكون إلا سلاحاً إسلامياً ، ولكن الذين ذهبوا للتدريب على الأسلحة الأوروبية ذهبوا وتلقوهم خواء من إيمانهم بأنهم ، لقد ذهبوا وهم جاهلون مدى حقد الغرب عليهم وآمره على دولتهم للقضاء عليها كقذمة لضرب الإسلام نفسه .

وفي الوقت الذي عاشت فيه أوروبا أكثر من مائة سنة يحجى الروح الصايبي المنتعصب أمام الإسلام ذهب العثمانيون التقدميون إلى الغرب وهم عزل من كل سلاح ، ذلك بأنهم لم يكونوا قد آمنوا بأنهم ولا هقيديتهم بالقدر الكافي الذي يحميهم من الاحتواء الغربي لحساب الصهيونية العالمية والاستعمار . وقد نسوا أنهم كانوا يرهجون أوروبا أكثر من أربعة قرون ، وهام قد جاءوها متسولين للسلاح الحديث والصناعة العسكرية ، وكيف يمكن للغرب أن يعطيهم أسرارها وهو الذي سبقهم فيها ليضربهم بها ، فهل يعقل أن يعطيهم إياها ليقفوا على أقدامهم مرة أخرى ويواجهوا الغرب ، إن هذه هي النقطة الوحيدة الفاصلة بين هزيمة العثمانيين وانتصار الغرب أصبحت مدافع تركيا لا تصل إلى الغاية إلا إذا قذفت بألوف القذائف ، أما الغرب فقد تمكن من أن يهزمهم بأقل من ذلك ، لقد استطاع أن يطور أسلحته فتسكون بعيدة المدى ويطور حاملاته فتسكون قادرة على العمل السريع ، ومع هذا التطور « هقيدة » هي مقاومة الغزو الإسلامي ، أما الأتراك في هذه الفترة فقد استنموا إلى الانتصارات الماضية والتاريخ القديم وأخذوا يدخلون مرحلة الضعف . وهذه هي المفارقة : القوى التي سقت الغرب كذؤوس المدلة ، تعود مستجدية ، وتضعف حتى تسمح لأعدائها بإدخال ثقافتهم لفتح الطريق لنفوذ خطير ، تحت اسم سماحة الإسلام ، كيف يمكن للسماحة الدينية في أمور الأقليات أن تسكون وسيلة لضربها من الداخل . إن الاتجاه إلى إقامة علاقات مع أوروبا — كما يقول بول شميث في معالجته الخطيرة لهذه القضية — كان يحمل في طياته محاولة الدفاع ضد التيار الغربي فقد كان الأمل بواسطة هذه المعاهدة أن تمسك الدولة العثمانية بزمام التأثير الغربي الذي يزداد كل يوم وأن تراقبه لتسكون على علم بخطواته ومسالكه التي يتخذها للوصول إلى أغراضه وذلك حتى يمكن إبعاده عن النقطة التي يصبح فيها خطراً

على وجود السلطة الحاكمة لتركيا القديمة . يقول « فهم الباب العالي كيف يلعب بهذه السياسة بين القوى الأوروبية المختلفة ويوقع بينها على مدى عشرات السنين وتحت ظل هذه العداوة التي وقعت بين الدول الأوروبية » ولكن ثبت خطأ هذه التجربة التي أرادها السلطان بنقل الحضارة الغربية إلى تركيا فلم يكن لدى البلاد مقومات استقبالتها وهناصر التفاضل معها ودخل التنفيذ الأجنبي من هذا المنفذ ولم يلبث أن انسم وسيطر عن طريق الإرساليات التي أنشأها هذه الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية التي كانت في الواقع تمثل الغزو الفكري لفرنسا وإنجلترا وروسيا فقد عمدت الدول الثلاث إلى إعلان حمايتها للعناصر الأجنبية ووضعت في موضع ممتاز يجعل لها القدرة على حرية الحركة دون رقابة من الدولة العثمانية وبذلك فتحت طريق آمن للقنصل لضرب الدولة من الداخل . كانت الخطة هي استقطاب الأقليات وهي بطبيعتها خصيصة للدولة الإسلامية تحت دھوة طامحة لإحلال العنصرية التركية مكان الوحدة الإسلامية وقد اختير لها اسماً قديماً هو « الطورانية » وحل في تركيا دعاة إلى إعادة بعث تاريخ الأتراك قبل الإسلام ، هذا بالإضافة إلى الجماعات التي سافرت إلى فرنسا وصيغت في إطار الثورة الفرنسية ، وكانت هناك المحافل الماسونية التي تنمو في سالونيك القادرة على احتضان هذه الجماعات وخاصة جماعة الاتحاد والترقي التي أفرخت حزب تركيا الفتاة . وفي العرف الآخر أثبتت الفتنة في لبنان ، بين الدروز والموارنة على نحو دفع الدول الغربية إلى التدخل وإقامة كيان مستقل بإشرافها تنفصل فيه لبنان عن الدولة العثمانية انفصالاً يمكن الدول الأجنبية من إهدادها لرسالة التبشير والغزو الثقافي حيث سيطرت عليها قوتين : قوة فراسية وقوة أمريكية ، بدأت العمل فور خروج القوات المصرية من الشام ، وكانت الإرساليات الأمريكية قد زحفت نحو استانبول ونحو القاهرة وأقامت قواعدها في ظل الامتيازات وباسم تعليم الأقليات النامية لها ، هذه الخطة التي تمت وأصبحت في عهد السلطان عبد الحميد هام ١٨٦٠ تشكل خطراً معقداً ، قوامه :

- (١) اليهود الدوغة في سالونيك ومحافلهم الماسونية . (٢) الإرساليات التبشيرية في فروعها المختلفة وما تحتويه من شباب المسلمين والعرب . (٣) جمعية الاتحاد والترقي وإحتواء المحافل الماسونية لها . (٤) الأقليات الأجنبية وتعاونها الداخلي والخارجي .

(١٩)

## مخطط المؤامرة

كانت المؤامرة استعمارية صهيونية شيوعية ، أو صليبية يهودية ماركسية ، تجملت فيها كل القوى المعارضة للإسلام والرافعة إلى تمزيق عالم الإسلام واحتوائه . ففي الوقت الذي كانت دول الغرب ( الحلفاء ) تضرب المسلمين الأتراك بالمسلمين العرب ، كان المكسب للغرب لا للعرب ولا للمسلمين ، ولم يمتنبه العرب الذين ضربوا أخوتهم المسلمين لذلك إلا متأخراً جداً ، كان الهدف إفساح المجال لتقدم الصهيونية في فلسطين ، وعندما دخلت القوات العربية القدس خلفاً للأتراك كان الورد النبوي أسبق منهم إلى القول بأن الحروب الصليبية قد انتهت ، وأن همداً جديداً ، ليس هو الدولة العربية الموحدة وإنما هو الاحتلال والانتداب والصاية والتقسيم ، كانت كل خطوات هرتزل قد امتدت في حركات لورنس ، الذي كان يخدع العرب ويلبس لباسهم ويتكلم لغتهم ، والذي كان يستخدم الاستعمار الغربي ظاهراً ولكنه كان في أعماقه يعمل للصهيونية ، لذلك فإن المؤامرة الصهيونية التي هلت يوم دخل الإنجليز القدس عام ١٩١٧ كانت تعرف ما هو متفق عليه بين الاستعمار والصهيونية وهو أن القدس ستسلم إلى أيدي اليهود بعد قليل ، وإن كانت قد سلمت رسمياً بعد خمسين عاماً ، عام ١٩٦٧ ولقد كان النجاح في إسقاط الدولة العثمانية وتعزيزها إنما يعني « إسقاط الدولة الإسلامية القائمة على الشريعة الإسلامية » وإقامة القوميات التي ينظمها القانون الوضعي والعلمانية ومناهج التعليم التي أعدتها الارصاليات مسبقاً ، وحين دخل الاستعمار البريطاني مصر والسودان ، ودخل الاستعمار الفرنسي الجزائر وتونس ، فقد انطوت صفحة النظام الإسلامي بها جميعاً لأول مرة منذ ظهور الإسلام وحل به القانون الوضعي والمصرف الربوي والديمقراطية الغربية بفاهيمها ومناهج التعليم العلمانية . ولذلك فقد كان إسقاط الدولة العثمانية حلماً من أحلام الغرب :

الغرب بمختلف قواه استعمارية وصليبية ، وماركسية ويهودية وصهيونية ، وهو حلم تحقق على مراحل ثلاث : ( ١ ) إسقاط السلطان عبد الحميد . ( ٢ ) تمزيق الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى . ( ٣ ) إسقاط الخلافة الإسلامية ، على مرتين : الأولى بفصل السلطنة عن الخلافة ثم إسقاط الخلافة جملة . وكان ذلك يعني « تدمير » ذلك العقد الذي يربط الأمم الإسلامية ويزيل تلك القيادة ، فتصبح هذه الأمة بدداً و « تمكين » الاستعمار من إلتهاها جزءاً جزءاً ، ولقد كان تسكالب



الغرب على الغنينة واضعاً ، وكانت الدعوة التي بنها التفریب فی تركيا لبعث العرق الطوراني ، مقدمة لمنيلها على الجبهة العربية لازاحة الاسلام وإحياء العنصرية باسم العروبة الجاهلية أو العروبة المملانية ، وكان الهدف من هذا كله هو تدبير القوة الباقية باسم الاسلام والجامعة للمسلمين تحت لواء الخلافة ، والقضاء على النظام الاسلامي كمنهج مجتمع وإثارة العصبية والقوميات والاقليميات في مختلف أنحاء العالم الاسلامي . وقد أمكن تحقيق مخطط كبير في أبعاد خمسة شملت العالم الاسلامي كله تمثلت في : أولاً : تحويل الدولة العثمانية والمسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية وذلك بإثارة الدعوة الطورانية التي وكانت ثمرتها جماعة الاتحاد والترقي التي أسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدعوة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة المدخول في مرحلتها الجديدة التي برزت في صورتها السكاملة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسري . ثانياً : أوقعت الخلاف بين عنصري الدولة الاسلامية : العرب والترك ودفعت الاتحاديين إلى التسلمط على العرب والعمل على تتركهم ودفعها دفعاً للتخاص من رابطة الوحدة الاسلامية مع الترك وإقامه المشاق لهم لتعميق الخلاف والخصومة وكان قائد هذه المعركة ( لوراس ) لحساب الاستعمار الغربي ظاهراً ولحساب الصهيونية أساساً . ثالثاً : مكنت الصهيونية من أن تحقق حلمها في الوصول إلى القدس بعد ثمانية عشر قرناً وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل ، استطاعت جماعة الدعوة المقيمة في سالونيك إعداد خطة طويلة المدى بالمدخول في الاسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامه الحافل الماسونية لتدبير الخلع السرية لضرب الخلافة والدولة الاسلامية والسيطرة على كل الحركات الوطنية والقومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الاتحاديين . رابعاً : لتحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لها أي مصلحة أساسية في صف الألمان وهزيمتها وتزيقها وإعدادها لاسقاط الخلافة وإقامه نظام ديمقراطي غربي يستأصل الاسلام ، ولقد كان القضاء على الوحدة الاسلامية في كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للاستعمار والصهيونية والروس قبل إعلان البلشفية وبعدها . خامساً : تحقيق للدولة الروسية تنفيذ وصية بطرس الأكبر بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الاسلامي والزحف في اتجاه المياه الدافئة والوصول إلى قلب العالم الاسلامي .

(٢٠)

## أولا : الطورانية وتعميق خلاف القوميات

تحويل الدولة العثمانية المسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية ، وذلك بآثارة الدعوة إلى الطورانية ، التي كان ثمرتها جماعة الاتحاد والترقي التي أسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدعوة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة للدخول في مرحلتها الجديدة التي برزت في صورتها السكامة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسري ولقد استخدم الغرب في أحداث هذا الانقلاب الفكري الخطير رابطة العنصرية وآثار حولها الإعجاب الشديد لنحل في النفس التركية بديلا من رابطة الاسلام واستخدم في سبيل ذلك كل وسائل الإغراء والكذب والإدعاء واصطنع لها حشالة من الروس والدولة العثمانية مليئة إذا ذاك بالناصر ، فاستخدم يوسف أقجورة ، وأحمد أغايف ، وضياء ألب ولقد كانت سياسة روسيا العنصرية التي أعلنها بطرس الأكبر والتي تستهدف استعمار الولايات الآسيوية ، وطرد المسلمين من أوروبا وسحق الدولة العثمانية قد ولدت هذا نفر من الحاقدين الذين استفلتهم هذه الحركة التي أدارها الاستعمار والصهيونية من وراء ستار الحافل الماسونية . فانفجرت في الدولة العثمانية حرب العنصريات القومية ، وجرى إعلانها على رابطة الإسلام وحرضهم هؤلاء على العودة إلى التاريخ القديم البائد السابق للإسلام : تاريخ طوران لجده هؤلاء وبعثوه ونشروه أما العثمانيين فاستجاب لهم بعض المخدوعين وقد اتصل هؤلاء بالقوى الغربية تحت اسم الموم المصرية والثورة الفرنسية وأسماء حرية وأخاه ومساواة ، وحات صيحة الجنس والدم هلوأ شديداً حتى يقول ضياء ألب : إن الشعوب الذي يجري في دمي هو صدى ماضي ، وأن أعمال أسلافى الجيد أتحس آثارها في الدم الذي يجري في عروقي وفي فلب أتيليا وجنسكيز خان وهما معجزة جنسى ومظهر عظمة مسارية لعظيمة الإسكندر وقيصر . كانت هذه الخطوة هي نقطة البدء في الفصل بين الإسلام وبين الجنسيات والقوميات ثم كانت مع تركيز شديد عن عوامل الفصل بين العرب والترك وبين العروبة والإسلام وإلاء صيحة الأجناس والعروق والدماء على رابطة العقيدة والفكر والثقافة الجامعة للعرب والترك تحت لواء الاسلام وحضارته . إن القوى الأجنبية لم تسقط الدولة العثمانية عن طريق الناصر وأساليب التهديد قرونا طويلة كما عجزت عن مواجهتها بالحرب وكان في تقديرهم أن

حرباً صليبية عسكرية قد لا تنجح ، ولقد كان السلطان عبد الحميد قد حسب لهذه الخطوات كلها حساباً دقيقاً ، لذلك فقد كان الغزو الثقافي من طريق إعلاء العنصرية والدماء والتفريق بينها ، هو الأسلوب الذى حقق لهم غايتهم ، ولقد أوتيت الدولة العثمانية من وراء قوى لم تحسب حسابها ولم توضع فى ميزان التقدير الصحيح فقد كانت سالونيك وكانت الحافل الماسونية غير خاضعة للدولة وفيها باضت وأفرخت هذه المؤامرات والدعوات ، كان السلاح الذى استغل استغلالاً كبيراً هو سلاح العصر : سلاح القوميات فى الوقت الذى كانت أوروبا كلها تغلى بالنعرات القومية ، وفى البلقان عندما أثارت الدول الأوروبية النعرة القومية ونجحت ، وجدت أنها تستطيع أن تتخذها أسلوباً لضرب وحدة الترك والعرب الإسلامية ، وكانت سالونيك تضرب الدرة فى مركز قيادتها ، وفى بيروت كانت تضرب الجبهة العربية كلها ، ولما تولى الاتحاديون الحكم عمقوا المؤامرة فأهلنوا تقريتك العناصر ، وتقريتك العرب فكان لذلك أثره العميق عند العرب الذين حاولوا أن يرفعوا راية العروبة فى مواجهة هذا الخطر وبذلك استطاع الاستعمار والتغريب أن يدخل القوتين فى نطاق الصراع العنصرى : صراع الدم والعرق . وتدافع المستشرقون يؤلفون ويسكتبون من تاريخ طوران : وما للقبائل التركية القديمة من تاريخ ولفة وخصائص وحياة اجتماعية ومن أبرز هؤلاء الذين تصدر للعمل : غولاوسكى وقره جون وماوان هارتان .

كان هدف الداهين لبث العنصرية الطوارنية : هو تدوير الوحدة العثمانية ولذلك فإنه بعد إعلان الدستور مباشرة عام ١٩٠٨ كتب حسين مجاهد فى صحيفة طنين أن الأمة التركية كانت وستظل الأمة الحاكمة فى السلطنة العثمانية فلا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الأخرى : أى العرب وهذا ما دفع العرب إلى الارتقاء فى أحضان الاستعمار الغربى وقد جاء هذا بعد سياسة عبد الحميد الحكيمة التى كانت تعمل على تقريب العنصر العربى . ولا ريب كانت حركة الوحدة الإسلامية هى الخطر الأكبر الذى أريد القضاء عليه ، فقد كانت الحاحز الأكبر دون تمزيق الدولة العثمانية وتنفيذ الاستعمار لمخططاته ، وتقسيم التركة « ومن ثم كان التركيز على البلاد العربيه وفصلها عن الدولة العثمانية مقدمه لتوزيعها . وفى سبيل إعلاء شأن الطوارنية ، أخذت هذه القوى النازيه تبحث وتنتقب عن آثار الحثيين والمثول وجعلوا يتبرمون من كل أثر عربى أو غريب من دماهم ولتهم ، ويعلمون أنهم كالمصريين والإغريق والرومان والقسما العرب شعب ذو حضارة قديمه وآثار خالدة متأخرين بأنهم ينتسبون إلى جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو .

ومضت حركة المنصرية في طريقها فعمد الاتحاديون الطورانيون الجدد إلى تطهير اللغة التركية من كل ما هو عربى وإلى محو الجنسية العربية وإدماجها في الجنسيات الأخرى وجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام . ويشير أحد الباحثين : د إلى أن أيولوجية النزعة الطورانية هي من صنع المستشرق المجرى ( فامبرى ) بين ( ١٨٦٨ — ١٨٧٤ ) وتبناها الانجليز فعملوا على تكوين كتلة منصرية من الأتراك العثمانيين وأتراك الشرق ليحيطوا بها النفوذ الروسى المتزايد في آسيا الوسطى ثم غير الانجليز سياستهم وأيدوا سيطرة الروس على أترك آسيا . وكتب ( هنرى نورمان ) أثناء الحرب الكبرى عام ١٩١٨ أن اتحاد الترك ، إذا تم تحت إشراف الألمان فإن أترك إبراهيم وأهل قتال مع أترك قفقاسياً فإذا وثقوا علاقاتهم بالعثمانيين فإن ذلك يكون خطراً على مركز الانجليز في الهند . يقول الباحث : د وقد كانت فكرة الجامعة الطورانية وافدة من الحاج وصعوبة التحقيق لانعدام الوحدة الجغرافية والاجتماعية في موطن الترك . كانت الطورانية التي دافع عنها بعض الترك وخاصة ضياء كوك ألب أجنبية النشأة فإن جماعة من المجريين أرادوا التوقف في وجه التيارين القوميين الذان يحدان بهما وهما تيار الجامعة الألمانية وتيار الجامعة الصقلية أبتدعوا لذلك فكرة التوارية ( الترك واللغول ) بينا الشرائط الجغرافية والاجتماعية لا تساعد على إتمام الاتحاد بين هذه العناصر ، وكانت المحاولة في إقامة امبراطورية تركية متجانسة يعتمد الحكم فيها على النظام المركزى ويقوم مقام الامبراطورية العثمانية القيدالية ، كان تحقيق هذا الحكم يقتضى تبريك الشعوب الخاضعة له ولذلك عملوا على تمثيل هذه الشعوب فاصطدم الاتحاديون بالعرب وفي سوريا تعرض العرب بدورهم لسياسة التبريك فلما قاوموها إذاهم يسامون صنوف العذاب والتنكيل على يد الاتحادى المنعصب : أحمد جمال باشا الذى أهدم العرب وعمل على تشوية بطولاتهم في كتابه ( حقيقة المسألة السورية ) فقد زعم أن للمسألة ليست مسألة القومية العربية واسكنها تهما الخيانة العظمى .

ويرد الباحثون هذا التيار الذى حرص الاتحاديون على السير فيه إلى ما قام به المجلس العلمى الفرنسى سنة ١٩١٦ في التنويه بكتاب ظهر عام ١٨٩٦ من تاريخ الترك والمغول في آسيا ابتداء من نشأتهم إلى عام ١٤٠٥ لتونى كاهون ( وهو يهودى ) وكانت هذه التحية من المجلس العلمى الفرنسى إشارة توجيه إلى الاتحاديين الذين أولوا اهتماماً كبيراً بالكتاب واتخذوه دستوراً لخطتهم الطورانية ، وقد كان ظاهر الدعوة أن الأتراك يريدون إحياء الروح التركى القومى مستغلاً عن الإسلام وهم يعتمدون على عبارة مضللة للمستشرق فبرى اليهودى المجرى الذى قال : لا وطن في الإسلام . لقد كان الهدف خطيراً وبعيد المدى في مزيق وحدة الفكر الإسلاميه القائم على جماع

القوميات تحت لواء الإيمان بالله وتحت جامعته لا إله إلا الله التي هي أعلى من كل رباط قومي أو جنسي وكان الهدف أن ينفصل الدين عن الدولة ، وكان الهدف أن ينفصل الترك عن العرب ، وأن تقوم دعوات لكل جنس تحت لواء الجامعه الإسلاميه للمطالبه بكيان خاص وعلى الاستمرار أن يشير هذه الأجناس ويجرئها لتضرب بعضها بعضاً ولقد استعمل هذا الاتجاه من بعد ووصل الغاية وممكن لقومية دخيلة هي القومية اليهودية وكان ذلك تزيقاً لوحده هذه الأمة وتفرقة لسكنتها وتوزيعاً لاجرائها بين اليهود والفرنسيين والإنجليز . وقد كان لهذه الحركة أثرها في إحياء التاريخ القديم السابق على الإسلام ليس تاريخ الطورانية وحدها ولكن الفرعونية والبابلية والفينيقية والآشورية وغيرها ، بعد أن مات هذا التاريخ ووقع الانقطاع الحضارى أكثر من أربعة عشر قرناً ، ولقد كان من أثرها أن اتجه العرب إلى الدهور لعروبهم فالتمسوا مناهج القومية الغربية القائمة على عوامل معارضة لمفهوم العروبة للترابط بالإسلام وإعلاء شأن القوميات والاقليميات في العالم الاسلامى كله ، أى أنه بهذه الحركة دخل العالم الاسلامى مرحلة الصراع بين الوحدة الاسلامية والعنصرية والقوميات والاقليميات . وبذلك انفصلت دولة الخلافة الاسلامية وتاج الاسلام عن اللغة العربية وعن أجداد الاسلام بحثاً عن أجداد قديمة بالية تتصل بطوران وجنكيزخان وغيره من المحرّبين ، ويقول باحث إنجليزى أن الحركة ترمى إلى جعل روح التركى القومية مستقلة عن الاسلام وذلك بناء على القاعدة التي وضعها فبرى — اليهودى الجرجى المعروف وهي أنه لا وطن في الاسلام وحجتهم أنه كان من حال الاسلام تحت تأثير العوامل والتقاليد العربية الفارسية واليونانية والبيزنطية جعل الترك أمة شرقية لها عمران خاص ، وهكذا علت نبرة تعيد تفسير التاريخ القديم كله تفسيراً جديداً وتجدد الحديث عن الديانات الوثنية التي كانت القبائل التركية تعتنقها في بلاد آسيا إلى حدود نهر جيحون ، ولقد ظلت الدعوة تتردد بين يهوديين : أحدهما ( ليون كاهون ) مؤلف كتاب الترك ، والمفول في آسيا حتى ١٤٠٥ وبين نظرية فبرى ، وكان فبرى قد زار القسطنطينية مراراً واتصل بالسلطان عبد الحميد وكتب ممجداً إياه فلما خلع عبد الحميد بدا يردد هذه الآراء المسمومة . فاستجاب لها المثقفون هنالك لأنه منذ ١٨٩٠ وهو موضع ثقة الدولة والصحف ولقد بث الاتحاديون في هذه الآراء روح العداء للإسلام ونفخوا فيها وأخذ كتابهم يجرؤون العرب على الخلاف أمثال جلال فوزى وأحمد شريف وغيرهم وعلت الدعوة إلى اتحاد بلاد العرب كمستعمرات في نظام التنريك الجديد في ظلال الدعوة الطورانية كما دعت إلى أن يتكلم العرب بلغة الأمة التي تحكمهم ، ومضى هذا التحريض الذي كان من وراءه الاستعمار والصهيونية حتى يقع الخلاف ويعمق ، وقد كان ذلك فعلاً ما حدث بعد ، حين علق جمال باشا السفاح زعماء من العرب والترك

الاسلاميين، خلاف عميق مصدره الدماء والأجناس والقوميات العنصرية، وبما اضطرب العرب من بعد إلى الارتقاء في أحضان الاستعمار البريطاني. وقد أشار الباحث الانجليزي (أغسطس ١٩١٦) إلى أن فيري أمضى ثلاثين سنة، يخيّر تركيا إما أن تنفرد (أي تصير غريبة) أو إما أن تهلك، ولما كانت لا تستطيع الثانية فلا مناص من الأولى ثم يقول: أن أحرار الترك اقتبسوا بعض الشيء من الغرب ولكن أخذوه من النظام البروسي (الألماني) المقضى عليه بالناء وقد انتهى سلطانهم ودنت آخره ملكهم يوم رفضوا ضمان الحلفاء لأملأكم. والمعروف أن الاتحاديين هم الذين زجوا بالدولة العثمانية في آتون الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل، وكانوا مصريين على أن تقف في صف ألمانيا حتى تكون خصيصة للغرب (فرنسا وإنجلترا) التي تحق لها النصر من بعد حتى يتم الاجهاز على الدولة العثمانية جملة وإعلان وعد بلغفور لليهود عام ١٩١٧ قبل نهاية الحرب العالمية. وغاية ما فعل الاتحاديون أنهم ذوبوا العالم الاسلامي في آتون الصراع القومي والعنصري على نحو ما زال ممتداً من ذلك الوقت ١٩٥٩ إلى اليوم وما تزال عقابيله وآثاره واضحة في الخطط التي اتخذها ساطع المصري وميشيل عفلق وغيرهم وأنهم أيضاً فتحوا الباب واسماً للصهيونية العالمية للسيطر في فلسطين وبيت المقدس وهذا ما لا تزال تبعته قائمة وممتدة حتى اليوم.

## (٢)

حقق الاتحاديون الشطر الأكبر من آمال الغرب في هدم الدولة العثمانية، ثم تجمعوا مرة أخرى بعد الحرب باسم السكاليين لاسقاط الخلافة. لقد كانت مهمة الاتحاديين التي صاغتها روسيا القيصرية وإنجلترا وفرنسا والصهيونية العالمية الأولى هي تقويض دهايم الأمة الاسلامية بإثارة الثغرات العنصرية داخلها وتفتيتها إلى قوميات حتى تستطيع أن تقسم تركة الرجل المريض وقد نجحت هذه المجموعة: جاويد وطلعت وجمال ليقوموا بعملية التنريك والمناذاة بالقومية الطورانية وجاء رد الفعل من الجانب الآخر فقام خريجو معاهد الاراساليات وأغلبهم من المارون الذين رباهم التغريب لخلعوا اللواء نفسه ودعوا إلى القومية العربية وبقى قوم من المؤمنين برسالة الامة الاسلامية ووحدها والذين يرون أنه لا سبيل إلا سبيل الاسلام نفسه معزولون عن الحركة محجوبون عن القيام بدور ومنهم (شكيب أرسلان ورشيد رضا) وفي نفس الوقت كان سايكس وبيكو (الفرنسي والبريطاني) يجتمعون لوضع خطط تقسيم تركة الرجل المريض، وكانت الصهيونية تسعى للحصول على وعد بلغفور وقد تحققت ذلك كله في نفس الوقت الذي كان العرب تنتزهون أنفسهم من الوحدة العثمانية لينشكوا خلف فيصل

ولورنس لضرب القوى العثمانية حيث استطاع الاستعمار أن يوقع بين هنصري الإسلام فما أن لاحت بوادر النصر بدماء العرب المنتصرين والترك المهزمين حتى سارع اللورد اللبني فدخل « القدس » وأعلن سيطرة بريطانيا عليها وأعلن أن ذلك هو نهاية الحروب الصليبية . وكانت مؤامرة ضخمة بالغة الخطورة ، وكان قد حذر منها ذلك الفريق الذي عزل هن ركب الاحداث .

كانت اليهودية تعرف أنها لن تحصل على شيء ذي بال إلا بعد أن تكسر طوق الوحدة الإسلامية وهو التعبير الذي هبر به ( حاييم وايزمان ) في مذكراته حين قال : أنه هو الذي حال دون أن تبنى المؤسسات الصهيونية لنفسها أي ثمار إيجابية من وراء طول معيها ولذلك فقد استفرغ اليهود كل مالهيم من جهد وعروض وتهديد وأرسل النري اليهودي « قرصو » برقية من إيطاليا لانتزال بعض كتب الترك تحتفظ بالصورة الأصلية لها : « أنت رفضت عرضنا ، ولكن هذا العرض سيكلفك أنت شخصياً وعيكاف مملكتك كثيراً » عندما أجبته السبي إلى « كسر طوق الخلافة » على حد تعبير حاييم وايزمان واعترافه ، حتى إذا تحطم ومزق الشمل تحققت الغاية اليهودية من أيسر سبيل .

أما أخطر ما حدث فهو ( سحق الدولة العثمانية ) على النحر المثير الذي سجلته معاهدة « سيفر » فإن ثانياً نصوصها تكشف ذلك الحقد الأسود وتلك الخالب الدموية .

أولاً : تنخفض الدولة العثمانية من ٦١٣٥٠٠ ميل مربع و ٢٠ مليون نسمة في سنة ١٩١٤ إلى ١٧٥ ألف ميل و ٨ مليون من السكان . ثانياً : ألا يبقى للترك في أوربا غير القسطنطينية مع شقة رقيقة لحايتها . ثالثاً : السماح لليونان بالاستيلاء على الجهة الأوربية من الدردنيل وإدارتها . رابعاً السماح لليونان بالاستيلاء على أزمير إلى أن يقرر مجلس عصبة الأمم ضمها إلى اليونان نهائياً . خامساً : منح الأرمن : استقلالهم وتأييد دولة الأناضول منهم . سادساً : ألا يكون للتركيا أسطول بحري أو جوي وأن تخفض جيشها إلى شرطة فقط . سابعاً : أن تعود الامتيازات الأجنبية إلى صائب عهدا بعد إلغائها في أوائل الحرب . ثامناً : أن تؤدي تركيا غرامة باسم تعويضات وغيرها من الأعباء المالية والاقتصاوية .

ثم وقعت انكلترا وفرنسا وإيطاليا اتفاقاً لحماية مصالحهم الخاصة قسمنا فيه ما بقي من تركيا إلى مناطق نفذت الموافقة على معاهدة سيفر ( ١٠ أغسطس ١٩٢٠ ) ووضعت أسسها موضع التنفيذ منذ شغل اليونانيون في تلك الستة خط ( مورخه — عشاق ) على نهري المنديريس حيث ساهدم

الاطاليون بجيوشهم عند الجناح الأيمن . ثم سقطت ( درنه ) وأنزل الأسطول البريطاني قوة بحرية معها جيش يوناني في رودستوفى تراقيا وباندومه في آسيا مصغرى ثم استولى اليونان بمعاونة إنكلترا على أفيون قره حصار وكوتاهيه ووصلوا زحفهم إلى نهر صقاربه وكوك ، وهكذا بدت روح الانتقام والقدر الغربى فى أقصى صورها ، ولم تستطع تركيا من بعد أن تنخلص من هذه القيود وتستعيد وجودها كدولة محددة إلا بعد أن دفعت الثمن غالياً فى تلك المعاهدة السرية التى وقعتها خلفاء الاتحاديين : مصطفى كمال ، وعصمت اينونو ، وهو د التنازل عن الإسلام ديناً ولغة وقانوناً ونظاماً اجتماعياً الخ . وكان أبرز ما تمثله هذه المرحلة هو : تحول الولاء عن الإسلام إلى القومية والوطن ، ولقد فرح الغرب وأعلن شتماته بالدولة العثمانية عندما سقطت حتى قال كبير الإنجليز ( لويد جورج ) نوفمبر عام ١٩١٤ أنى لفتبط إذ حلت الفرصة لدهوة الأتراك لتأديتهم حساباً أخيراً بعد سلسلة الخنازى الطويلة التى إقترفوها ضد الأسبان : وقال لندون : أنه قد تم طرد الإمبراطورية العثمانية من أوروبا لأنها غريبة تماماً من المدنية ، وهذا كله مشابه ومساو لما قاله الود النبي فى القدس .

## ( ٢١ )

### الفصل بين العرب والترك

ثانياً : أوقعت الخلاف به عنصرى الدولة الإسلامية : العرب والترك ، وتحيض الاتحاديين على التسلمط على العرب والعمل على تزيكهم ودفعها دفعاً للتخلص من رابطة الوحدة الإسلامية مع الترك وإقامة المشاق لهم لتعميق الخصومة والخلاف .

وكان قائد هذه المعركة لورنس لحساب الاستعمار الغربى ظاهراً ولحساب الصهيونية أساساً وكان كسر الوحدة بين العرب والترك بمثابة آخر حلقات مطامع الاستعمار والصهيونية والروس لابتلاع العالم الاسلامى ، وكان التركيز على العرب بالذات هاماً بوصفهم أصحاب الرسالة الأولى ، وقلب العالم الاسلامى وقوته الفكرية والروحية وفيها بيت الله الحرام معقل الدهوة الاسلامية . وكانت المحاولة بالنسبة لفصل العرب عن الترك وفضل المصريين عن العرب قديمة منذ محاولة نابليون الأولى . فقد كانت الحملة الفرنسية هى أول تجربة من الغرب لاقتحام عالم الاسلام فى المشرق بعد الحروب الصليبية والادعاء بأنها الحركة التى ايقظت العرب والمسلمين فى العصر الحديث مع أنها جاءت بعد حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب بأكثر من خمسين عاماً . وقد أدعت الحملة الفرنسية أنها حملة تمدن



ورسالة حضارة ، ولكنها كانت في الحقيقة « هزوة استعمارية ، تكشف عن صراع المطامع بين فرنسا وبريطانيا : أيهما تسبق إلى هذه المنطقة ، وكان عنصر التنصب والحق على الاسلام فيها قائماً وواضحاً بالرغم من محاولة إخفائه حين أدهى نابليون الاسلام ، ولا ريب أن واقعة دخول الخيل الأزهر لتهم دهرى نابليون وتكشف هواه . فقد حول نابليون القاهرة إلى بارات الجنود السكاري ، والماهرين واصطنع طبقة من الخوذة أمثال المعلم يعقوب وأحدث الفقرة بين المسلمين والمسيحيين وأعلى النمرة الدينية لدى القبط .

ولكنه وجد معارضة تامة هنيئة قاسية أزعجت ليااليه وأيامه كلها حتى عاد مهزوما فقد قاومت مصر بثورتين متتاليتين وعشرات المحاولات في القضاء على الجنود الفرنسيين وإذلالهم وسد الطريق أمامهم من الاسكندرية إلى القاهرة وحرمانهم من الماء والزاد وتقديم مسلم عربي غير مصري ليقول القائد العام بعد نابليون باسم الدفاع عن وطن الاسلام ، وقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه رافع الرأس لأنه آمن بما فعل ، ولقد عامله الفرنسيون أسوأ معاملة ونفذوا حكم الإعدام فيه عن طريق الخنازوق ، وبذلك كشفوا عن همجية وتمصب وحقد عميد عن كل ما يدعون من عاف حضاري ، ولقد فتحت الحملة الفرنسية الطريق إلى الاقتباس الغربي على غير أسس صحيحة ، فكان لذلك آثاره من بعد الاحتواء التغريبي الذي أوقعه الغرب بالمسلمين والعرب والمصريين ، لقد قبل المسلمون تسول الحضارة ، وكانوا يستعلمون أن ينقلوها في إطار فكرهم وعقيدتهم ، ولكن كانت لتولى محمد علي الحكم في هذه الفترة وهو ممن لا يعرفون تيارات التغريب أو من لا يابهنون لأنرها في الإسلام ولا لأنرها في مصر ، أسوأ الأثر في الطريق الذي اختطه مصر ، حين غلبت المطامع الشخصية على الغاية الكبرى ، وبدا كان محمد علي يريد أن يدمر الدولة العثمانية لحساب الغرب ، فلما لم يستطع قضى على الحركة الإسلامية الوليدة في شبه الجزيرة ، ولو تعاون معها في إطار الدولة العثمانية لتغير موقف عالم الاسلام ولكن الاستعمار كان يقظاً لضرب القوى الصاعدة بعضها ببعض ، فإنه أوهم العثمانيين بأن الحركة الإسلامية الوهابية تعارضه ، وحرص محمد علي باسم الدولة العثمانية للدلالة منها وبذلك وقعت المعسكرات الثلاث في الصراع الذي قضى عليها جميعاً ولو أنها تعاونت — وهي المسلمة — في طريق واحد لتغير الموقف .

لقد استطاع محمد علي أن يحرز بعض أدوات التقدم العلمي ولكن لم يلبث أن تجمعت الدول الأوروبية في تقاربن لسحقه ، حتى لا تكون قوته حائلادون تنفيذ خطة الغرب في تزيق الدولة العثمانية أو ترك قوة إسلامية هربية جديدة لتنمو ، ولقد أحصى على محمد علي أنه عمل لحساب فرنسا في أكثر

من موضع وموقف . كانت الدولة التي كونها محمد علي تمتد من كريد إلى الخليج الفارسي ومن جبال طوروس إلى أهالي النيل الأبيض ولسكن خطة محمد علي لم تكن واضحة في شأن إعادة مجده الإسلام ، وإنما كانت مطالبه الخاصة هي أبرز وجهاته ولذلك فقد تهدم سلطانه رويداً ، حتى فقد كل شيء في سنوات قليلة لا تزيد عن عشر سنوات ، صحيح أنه لم يطعم في السيطرة على الدولة العثمانية ولسكنه لم يصنع شيئاً بقدراته في سبيل تعزيز هذه الدولة وحمايتها من المؤامرة التي — يجري تنفيذها من أجل تعزيزها . كان — كما يقول المؤرخ محمد رفعت — الفرض الذي كان يعمل له هو تثبيت أقدام أسرته من بعده في حكم مصر ، ولقد كان ميله إلى فرنسا عاملاً هاماً في تأليب بريطانيا وإذا كان محمد علي لم يقدم على دخول القسطنطينية وخلع الخليفة فإنه كان يعلم مما جرت مناقشته بين الدول الأوروبية أبان عام ١٨٣٣ ، وما اتفق عليه من رأى في المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة في أوربا ضماناً للسلام والصفاء بين الدول . وقد كتب السكوت تسار رئيس حكومة روسيا إلى المندوب الروسي في القسطنطينية : « يجب أن لا يصل محمد علي القسطنطينية ويقطب نظام فيها فإن هذا لا تتفق مع مصالح حكومة القيصر وأغراضها فإن محمد علي إذا وحد ملكه في الأستانة كان في حصن منيع ووحدة لا يستهان بها أمام روسيا بدلاً من جار ضعيف منهزم » . وهكذا نجد أن الغرب كان يعمل على الحد من مطامح محمد علي والحيلولة دون تحقيق أمل كبير يحمي الدولة الإسلامية أو يؤدي إلى أن ينبعث العالم الإسلامي من جديد ، ولقد تضامنت بريطانيا مع فرنسا في حمل السلطان على إيقاف محمد علي وقصره في مصر ونزع نفوذه من كل الأجزاء الحجازية والشامية التي كانت معه وكانت تلك نهاية محاولة طامعة لم تكن تستهدف عملياً يرمي إلى إعادة مجد الإسلام وذلك بخلاف ما وقع بالنسبة للحركة التي قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب والتي نمت واتسعت ، وحقت نتائج هامة فكانت أبرز القوى عام ١٩٢٤ بعد إسقاط الخلافة . أما محمد علي فقد فتح أبواب مصر أمام النفوذ الغربي والفرنسي بالذات على نحو شديد الخطر والأثر ، عندما جاء اسماعيل ففتح باب الأستانة وعشش المرابون اليهود في أرض السككاته وتسلبوا عليها .

## ( ٢ )

كانت الحملة الفرنسية على مصر هي الطريقة الأولى على الجدار العربي للدولة العثمانية ، حيث فتح الباب للنفوذ الغربي في مصر وأخطر ما فيه كان حفر قناة السويس وما اتصل بها من مؤامرة اليهود المرابين في السيطرة على مقدرات مصر يقول دكتور محمود صالح رحمه الله وأجزل مثوبته :

إذا رجعنا إلى تاريخ مصر المالى نجد أن اليهود هم المسؤولون عن القروض المشؤمة التي سببت بؤس المصريين وقرر الألمان واستغلالهم فقد استغلوا اضطراب الحال الداخلة في مصر بعد حروب محمد علي فاستولوا على اقتصاديات البلاد وقد بلغت ربويات القروض إلى ٣٦٪ وإلى ٤٨ في المائة كما يذكر مؤلف تاريخ مصر المالى وهذا أخش ما سمع من القوائد الربوية وقد اضطر تآمر اسماعيل على رهن إيرادات السكة الحديد وجمارك والضرائب الشخصية وفي عام ١٨٧٥ اتفق دزائيل اليهودى رئيس وزراء بريطانيا مع روتشيلد الرسمى اليهودى ، على شراء أسهم قناة السويس الذى كلفت مصر ٢٠ مليوناً بمبلغ ٤ ملايين والأموال التي أقرضها اليهود لإسماعيل وقد بلغت ٥٤ مليوناً حسبت على مصر ٩٦ مليوناً ، وقال جابريل شارم . أن اسماعيل قد اقترض في ٢٨ عاماً التي تولى فيها الحكم ٣ مليارات من الفرنكات أى ١٢٠ مليون جنيه ولكن نصف هذا المبلغ بقي في يد المرابين وأصحاب البنوك المضاربين ، وهكذا أتت الغرب على الدولة العثمانية من جدارها العربى في مصر فأعدت للاستعمار البريطانى سنوات ، وفي خلال ذلك كانت فرنسا تضرب الجزائر والجزائر تقاوم ثمان سنوات حتى استولت ( ١٨٣٠ — ١٨٣٨ ) وتدققت إيطاليا على طرابلس الغرب وفرنسا على تونس ، في خطة مزدوجة : إعطاء فلسطين لليهود العالمية وتقسيم العراق والشام بين فرنسا وبريطانيا ، هنالك كان لابد من إقامة الاقتتال بين المسلمين : العرب الترك في المناطق التي كانت الدولة العثمانية تسيطر عليها من أرض الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ، وتلك كانت مؤامرة ضخمة خدع فيها العرب وقتلوا إخوانهم المسلمين الأتراك ثم سلبوا القدس بعد ذلك إلى الورد الذي قال بعد النصر : إن الحروب الصليبية قد انتهت وقال : أن بيت المقدس قد عاد إليهم في كفالة الاستعمار البريطانى .

كان الهدف هو فصل العرب عن الترك وإحلال نفوذ حاكم الحرمين مكان الخليفة ، وحاكم الحرمين هو شريف مكة ولذلك فقد تركزت المحاولات على أن تقوم بريطانيا بمساعدة العرب بإخراج العثمانيين من الجزيرة العربية ومن الشام والعراق . وقد استطاع الانجليز إقرار الاتفاق مع الشريف ووعدوه بدولة عربية عند انتهاء الحرب على أن يعلن الانفصال عن الدولة العثمانية . وكان لورنس هو الموجه الحقيقى لهذه الخطوات بخلفياته الاستعمارية والصهيونية وخدامه العجيب في اصطناع لباس البدو ولهجتهم ، وقد جمع فيصل بن الشريف حسين بين ٧ ، ٨ آلاف من الرجال البدو وقدمت لهم بريطانيا أسلحة وأطعمة ومئات من الليرات وبدأت حملة إخراج القوات التركية من الجزيرة العربية ، بمساعدة لورنس والمراكب الانجليزية ، وقد ظلت هذه القوات تتقدم حتى

دخلت بيت المقدس ودمشق ، دخلت القوات العربية دمشق بقيادة اللورد اللبني ودخل الحلفاء القدس ، ووقف اللبني على أبواب درعا في ١٦ أيلول ١٩١٨ وقد انهزم الجيش التركي السابع والثامن ودخل الحلفاء دمشق قبل أن يصل فيصل إليها وأداروا شئونها واعتبر الحلفاء أنهم محرروها لحقيقيون ، وقد استمرت هذه الحركة عامين تقريبا .

ثم تبين أن الشام والعراق قد قسمت بمقتضى معاهدة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا وأن وعد بلفور قد أعطى بريطانيا الحق في أن تسمح لليهود بالإقامة والهجرة إلى فلسطين وإن وعد بريطانيا للعرب بإقامة حكومة عربية كان وعدا باطلا وزائفا وكان خداه . وقد أكتفت بأن ولت أبناء الشريف حسين حكومات سوريا والعراق وشرق الأردن وخسده لورنس العرب وانكشفت بعد خطته الإجرامية لحساب الاستعمار والحساب الصهيونية في وقت مآخى وصف بأنه العميل المزدوج . . . يقوله البروفسور هوجارث الأستاذ بجامعة أكسفورد وأعظم خير بريطاني في شئون الشعوب الآسيوية والعربية : لم يعد مراة في أن لورنس كان مكلفا بتنفيذ خطة مرسومة بكل دقائقها وبكل تفصيلاتها ، خطة تستهدف تخريب العرب على الثورة ضد الحكم التركي وللإسهام بالتالي في تقويض الامبراطورية العثمانية . وهي خطوة ضرورية لفرض السيطرة البريطانية على فلسطين وافتتاح الباب على مصرعية لإقامة دولة إسرائيل .

وبالنسبة للعمل المزدوج ، فإنه كان على علم بأبعاد دوره وكان يعرف منذ اللحظة الأولى أن الجيش العربي بقيادة فيصل سوف يشارك بالقسط الأوفر في فتح فلسطين ، وقد دخلها بالفعل قبل جيش اللبني لكي تسلم فيها بعد غنيمية باردة للصهيونية العالمية .

« وكان لورنس يعلم أن السياسة البريطانية وقد شارك في وضعها تتعارض تمارضا مباشرا وكاملا مع مفهوم العرب للحرية ومع طراز الدولة التي وعدوا بها وحاربوا من أجلها ، ولقد كانت التقارير السرية منذ بداية الثورة تكشف عن إخضاع العرب للسيطرة البريطانية والعمل على تعميق انقسامهم وتباينهم ، ففي تقرير ( ١٥ يناير عام ١٩١٦ ) أن نشاط حسين يبدو مفيدا لنا لأنه يتفق مع غاياتنا العاجلة وهي فتحهم ( السكتلة ) الإسلامية وهزيمة الامبراطورية العثمانية وتقويض بنيانها ولأن الدولة التي سوف يقيمها حسين خلفا للأتراك ستكون طيبة لنا مثل ما كانت تركيا قبل أن تصبح حليفة للألمان ، وإذا هومت هذه الدولة بالاسلوب الصحيح فإنها ستبقى في حالة تخبط سياسي ، ومما سجله لورنس في وثائقه وكتبه : « إذا انتصرت بريطانيا في الحرب فيسكون وهوذا للعرب كالورقة

للينة ، ولو اننى كنت ناصحاً شريعاً لسرحت رجالى ولنتقمهم من الحاطرة بأرواحهم لمثل هذا ، ومع ذلك فإن الأمانى العربية كانت أداتنا السياسية لكسب الحرب فى الجبهة الشرقية . ويقول : « لقد غامرت بالتضليل الايمانى بأن هون العرب كان لازماً لإحراز نصر رخيص وسريع فى الشرق ، وخير لنا أن ننصر وأن نخلف وهودنا من أن نمضى بالهزيمة » وكان فى تقدير لورنس أنه إذا وافق حسين الشريف نسل الرسول على المساندة البريطانية والثورة ضد الأتراك لكان ذلك رداً على مناداة سلطان تركيا بالجهاد ضد الحلفاء وهى دعوة خليفة بإشغال ثورة ملايين المسلمين من زعابا الممتهلكات البريطانية والفرنسية والروسية ، ويقول فى تقرير آخر ١٩١٦ : « لابد من القضاء نهائياً على سيادة السلطان التركى ، ذلك أن قدرة بريطانيا على أن تنصب خليفة جديداً لا تعدو قدرة اليابانيين على اتباع الكنيسة الكاثوليكية ، وحتى سلطان مصر لا يستطيع أن ينصب نفسه للخلافة لأن فعلته ستكون مثاراً للريبة بسبب علاقته معنا ، أن أكثر المطالبين بالخلافة رجحانا بعد السلطان هو شريف مكة . »

وقد فصل لورانس القول فيما قرره من اختيار فيصل دون آل شريف مكة جميعاً فقال : « عبد الله زكى وزيد بارد ووجدت فى فيصل القائد ذا الحمية المطلوبة ، أما حسين فإنه إذا قرر أمراً فمن العبث أن يحاول للرد إقناعه بالمدول عنه . ويقول : ( هو جارت ) أن فيصل كان يمتدأ على استغلال لورنس لتحقيق الاستقلال العربى ، بينما كان لورنس موقن من قدرته على استغلال فيصل لأحداث الانقسام فى السكتلة الإسلامية ولتدهيم نفوذ بريطانيا فى الشرق الأوسط ، وبذلك تكاملت عناصر المأساة وكان من الضرورى أن تنجلى هن كارثة . ويقول : أن الوقائع قاطعة فى أن لورنس كان يحتقر العرب والوثائق كلها تثبت أنه لم يعرف سوى المقت الأسود للأمة العربية ، فهو يرتدى ثياب العرب ويتحدث لغتهم ويسلك سلوكهم لا لشيء إلا ليكون أقدر على التغلغل فى الوسط العربى : يقول لورنس : إذا كنا نريد أن نكون فى سلام بجنوب سوريا وأن نستولى على جنوب العراق وأن نسيطر على المدن المقدسة فلا مندوحة من أن نمحكم نحن دمشق أو تحكمها دولة أخرى غير إسلامية تكون صديقة لنا ) ويحاول لورنس أن يرسم خطة ما بعد إيقاع الفرقة بين العرب والترك : أن حسين شريف مكة يفكر فى أن يأخذ لنفسه ذات يوم مكان الحكومة التركية فى الحجاز ، وإذا كنا نستطيع أن نرقب الأمور بحيث يكون هذا التغيير مصطبغاً بالعنف ، فإننا تكون قد محونا خطر الإسلام إذ سوف ينقسم المسلمون على أنفسهم وفى قلب الإسلام وسيكون خليفة تركى وخليفة فى الجزيرة العربية وسيعود الإسلام ضئيل القدر شأن البابوية أيام كان البابوات يعيشون فى ( أفينون ) »

ويقول : لقد كان لورنس ماضياً فى خديعة العرب بينما بريطانيا وفرنسا كانتا توقعان معاهدة ( سايبكس — بيكو ) وهى وثيقة مروعة وغمرة الجشع فى أشجع صورة وهى تستغند فلسطين من

عملية التقسيم « ليكون لها نظام دولي خاص بها وإقناع الصهيونيين بأن الفرصة قد أتتحت لتحقيق حلمهم في إقامة وطن قومي لليهود » وقد عملت فرنسا وبريطانيا على إخفاء الاتفاقية حتى سقط النظام القيصري في روسيا في نوفمبر ١٩١٧ وأذاع البلاشفة الاتفاقيات ولما علم الشريف حسين بأخبار الاتفاقية قال : إن الوعد البريطاني كالذهب مما جلوته بشدة فإنه يستطع دائماً ويقول هوجارت : وسوف يأتي يوم قريب يدخل فيه فيصل على رأس قواته إلى القدس ثم إلى دمشق ، ويهتز وجدانه لتحرير العاصمة العربية بعد أربعة قرون من الاحتلال التركي ، وعندها يعلم أن وعود بريطانيا لم تسكن ذهباً وأن سوريا ستكون فرنسية طبقاً للاتفاقية . ولقد مهدت الدماء العربية طريق اللورد اللبي إلى القدس ودمشق وفقد الجيش العربي عشرين ألف رجل وتشير إلى أن المراسلات التي أجراها الشريف مع مكماهون عام ١٩١٥ - ١٩١٦ ثم تبين أن لا قيمة لها لم تنص على دخول فلسطين في المنطقتين العربية وقد نشر مؤلف كتاب (الحبوات السرية لفرنسا في الجزيرة العربية) وثيقة بريطانية بقيت سرّاً مدة ما يقرب من خمسين عاماً هي محضر اجتماع عقدته لجنة مجلس الوزراء للحرب الشرقية في لندن (١٩١٨/١١/٢٨) برئاسة اللورد كرزون : قال كرزون أن وضع فلسطين كما هو يلي :

إذا كان لنا أن نتمجز التزاماتنا فهناك الوعد العام لحسين في أكتوبر عام ١٩١٥ وبموجبه تدخل فلسطين ضمن المناطق التي ألزمت بريطانيا نفسها بأن تكون عربية ومستقلة في المستقبل . ويقول المعلقون : أن الوثيقة لا يمكن أن تكون أكثر قطعاً فقد كانت بريطانيا تعلم يقيناً إنما وعدت العرب أولاً بفلسطين كجزء من منطقة عربية مستقلة . أما لورانس فقد كان يعمل في اتجاه آخر يقول هوجارت : فمنذ أن صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ فهو يسعى ملهماً في تبديد مخاوف العرب بتقبل الموقف . وقد عبر في تقاريره عن ثقته في التأثير على فيصل . « سأحدث مع فيصل لصالح اليهود وسيكون موقف العرب مشوباً بالعطف خلال الحرب على الأقل » أما الشريف حسين فإنه لم يقبل إقامة دولة يهودية في فلسطين . ثم نقضت بريطانيا وعودها للعرب : لن تكون دولة فلسطين عربية ولا مستقلة ، ستكون منحة بريطانيا للحركة الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل ، ويوصى هوجارت حكومته باستعمال القوة ضد العرب ولم تحجب بعدها دماهم المراقبة في سبيل الحلفاء ، وقد تقرر أخيراً بأنه لا مناص من أن تفرض بريطانيا تعميدها للصهيونية بواسطة القوة . كذلك فقد ضمي لورانس لتدبير لقاء بين فيصل ووايزمان زعيم الحركة الصهيونية في فندق كارلتون في لندن ، وكان لورانس قد تقابل مع وايزمان للمرة الأولى في فلسطين عقب سقوط القدس في أيدي الحلفاء وأعجب به إعجاباً فائقاً .

ويقول هو جارت : أن مباحثات كارلتون بين فيصل ووايزمان ، كانت حلقة الختام لمباحثات سابقة بين فيصل والصهيونية بدأت قبل انتهاء الحرب ففى ٤ يونية عام ١٩١٨ قصد وايزمان إلى العقبة ليقابل فيصل ويقول له : « إذا كنت تريد أن تشيد مملكة عربية قوية وغنية فإننا نحن اليهود ، قادرون على معاونتكم ونحن وحدنا ، وسنكون جيرانك ، ولن نشكل خطراً عليك لأننا لسنا دولة قوية ولن نكون . » وكانت المفاوضات مع فيصل كالمباحثات مع السلطان عبد الحميد والإتحاديين من بعد تستغل الحاجة إلى المال ، وفي اجتماع كارلتون « فيصل — وايزمان — لورنس المترجم » تحدث وايزمان عن وجود اتفاق يرمى إلى إرضاء الأطراف الثلاثة : ( ١ ) بريطانيا : تحصل على الوصاية . ( ٢ ) الصهيونية : تحصل على حق الدخول والتوطن . ( ٣ ) فيصل : الحصول على أموال يهودية للتنمية ومساعدة في مؤتمر السلام ثم ثارت عقبات وحاول وايزمان أن يضمن الوثيقة هبارنى : الدولة والحكومة اليهودية وأصر فيصل على استبدال العبارتين بفلسطين وحكومة فلسطين ، كما أصر على إضافة تحفظ باللغة العربية في أسفل الصفحة الأخيرة من الاتفاق : هذا نصه : وإذا استتب الأمر للعرب فسوف أنفذ ما جاء بهذه الاتفاقية وإذا طرأت تغييرات فلن أكون مسئولاً عن عدم تنفيذها .

وبدأ تباين في ترجمة هبار : « شريطة أن يحصل العرب على الاستقلال » بين صيغة فيصل وصيغة لورنس ويضيف النص العربي تحفظاً أكثر : « فلن أكون عندئذ مقيداً بكلمة واحدة مما جاء في هذه الاتفاقية التي تعتبر لاهية وبلا أثر أو مفعول » .

وقد أشار المؤلف إلى أن لورنس أضاف جريمة التزوير إلى قائمة جرائمه وغايته أن يحصل على توقيع فيصل بأى ثمن . والمهم أن تقدم بريطانيا وثيقة اتفاق بين العرب والصهيونية إلى مؤتمر السلام وما دامت بريطانيا تحكم فلسطين والطريق مفتوح أمام الهجرة والصهيونية فإن مهمة لورنس تكون قد تمت . هـ . هذا موجز المؤامرة بقلم كاتب غربي ، ومشارك في الإحداث نفسها ، تكشف عن مدى الخطورة التي استهدفتها محاولة تمزيق وحدة المسلمين : العرب والترك وإيقاع الخلاف بينهم والتسكين للصهيونية في فلسطين والاستعمار في الأجزاء الأخرى والتهديد للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية . ويكشف لورنس في مذكراته للعبارة القوية التي يجب أن تكون موضع تقدير المسلمين والعرب : عن طابع الاحتقار الذي يضيفه على الأحداث لأن العرب قبلوا التبعية للعرب :

« إن العرب قد اقترعوا الكثير من الأخطاء الفظيعة بسبب قبولهم نصائح أوروبية لم يكن في

مستطاعهم أن يدركوها . كان على المستشارين أن يعلموا أن العرب إذا ما ركبوا متن عقيدة وسلوا زمام أمهرم إلى نبي مدجج بالسلح وأركلوا إليه توجيه جهودهم غير المحدودة فإن في استنطاعة الأيدى الماهرة أن تصل بهم ليس إلى دمشق فحسب بل إلى القسطنطينية أيضاً . ولم يكن لورنس هو وحده الذى يعمل للاستعمار والصهيونية في البلاد العربية ، في سبيل تعميق الخلاف بين العرب والمسلمين : وإنما كان هناك قبلي وكلايتون وغيرهم . وقد استنطاع الباحثون الكشف عن مخططات الاستعمار والصهيونية في وثائق كثيرة سرية تسربت في السنوات الأخيرة : قوامها القضاء على الإسلام وتزيقه وتدمير الدولة العثمانية بأيدي العرب أنفسهم الذين حملوا لواء دهوة العنصر والدم إزاء أخوتهم في رابطة لا إله إلا الله فقاتلوهم ، لقد حاول هؤلاء أن يقتنعوا العرب بأن انتفاضهم على الدولة العثمانية يفتح الباب واسما أمام الإستقلال ولكن الذى حدث هو العكس تماما ، وضاع الدهاء العربى في آتون للؤامرة وبعد أن تمزقت الوحدة العربية التركية تمزقت الوحدة العربية إلى إقليميات تتصارع . وقد أشار زهدى الفاتح إلى النتائج الخطيرة : التى تتمثل في أن لورنس مشى على خطأ هرتزل . لقد قال هرتزل : إن أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها . ولقد كانت القوى الاستعمارية الصهيونية قد أعدت خططا سابقة للحرب العالمية الأولى لدراسة هذه المناطق العربية التركية ، والاستعداد للحرب فيها ، تدل على ذلك وقائع متعددة عن جواسيس أمثال لورنس وردوا هذه للمنطقة تحمت اسم التنقيب عن الآثار ، وقد ذهب لورنس نفسه إلى سوريا ١٩١٠ فيما أطلق عليه رحلة علمية للبحث عن الآثار في ترقيش (جربالس) بآسيا الصغرى . وقد ظلت مهمة هذه البعثة سرا دفيناً إلا أن أفرادها كانوا يعملون في مناطق مهمة للغاية عسكريا واستراتيجيا ، هذه البعثات لم تقف هند هذه للمناطق بل تعدتها إلى أرض الحرم للسكى أيضا حيث أدهى واحد من هؤلاء أنه مسلم وأمضى هناك سنوات للبحث وتقييد الأماكن ، وقد قام بهذا الدور العسكرى الذى يوصف بأنه بحث عن الآثار : فيليبى الذى أمضى في الجزيرة العربية سنوات . ولقد كانت معاهد الإرساليات في لبنان هى بمثابة : الركائز الحقيقية للاستعمار والصهيونية تستقبل هذه البعثات وتساعدھا ، وقد توجه لورنس وهو جارت إلى البحر لزيارة السكرمل وقرى البرموك ومن درھا انشقلا قطار خط الحجاز إلى الشام فخص وحلب ، حتى وصلا إلى ترقيش وقد أوتاب الأتراك ، في أمر لورنس وهكذا عندما عاد لورنس ١٩١٦ كان يعرف كل شئ دون حاجة إلى دليل ، فقد ارتاد للمنطقة قبلا واحتفظ بدلائل وافية لها ولعل أهم دراسة قام بها لورنس وهو جارت



وغيرهما هي ما حرص اليهود على دراسته ومازالوا يوالونه حتى اليوم وهو : تجربة الحروب الصليبية وكيف هزمها المسلمون لتفادي الوقوع فيما وقعوا فيه ، ولذلك فإن لورنس كان يعمل على إبعاد أطروحة عن الحروب الصليبية يحاول أن يكذب فيها حقائق التاريخ مما عرف المسلمون من أثر في علوم الهندسة الحربية في الغرب بعد الحروب الصليبية والاعاء بعكس ذلك ، وقد كتب فعلاً أطروحة تحت عنوان ( قلاع الصليبيين ) مشيداً فيها مما أسماه فروسية العصر الصليبي . « راح يتخيل فيما نفسه فارساً صليبياً ولكن لحساب الصهيونية . ولقد كانت رؤيا لورنس واسعة : وكانت أبعاد للموقف الاستعماري والصهيوني واضحة أمامه ، وكان قادراً على معرفة الأبعاد بين : ( ١ ) الدولة العثمانية التي مزقت . ( ٢ ) العرب الذين خدعوا ولن تقوم دولتهم . ( ٣ ) القضاء على الخلافة . ( ٤ ) معارضة القوة الإسلامية الحديثة في شبه الجزيرة « الوهابية » ذلك في حدود هباته التي جمعها زهدى الفناح وحلها : وأخطرها هذه الوثيقة : « أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحدة الإسلامية ، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها ، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعيا للاستقرار من الأتراك فسيتقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك ، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية » . هذه الوثيقة تحت عنوان « سياسات مكة » يناير عام ١٩١٦ تكشف الأفق الذي يراد به عالم الإسلام كله . الهدف « تطويع العرب الذين خدعوا بالفكرة القومية لخدمة الأهداف الغربية ( البريطانية ) وكان ماكس نوردو الزعيم الصهيوني ( خليفة هرترزل ) قد أعلن في أوائل القرن إلى إمكان استغلال ( القومية ) كسلاح لضرب العرب أنفسهم بحطام الإمبراطورية العثمانية والقضاء على الاثنين معا في فلسطين خاصة ، فيدخل اليهود هذه الأخيرة فارغة من السكان « كان ( ماكس نوردو ) يهدف إلى استغلال حركة القومية لتفريغ فلسطين من المسلمين : يقول « إن الحركة التي استحوذت على قسم كبير من الشعب العربي يمكنها أن تتخذ بسهولة وجهة سير نحو فلسطين أيضاً ، وهكذا نصبح أرضاً أبنائنا من جديد » .

وهكذا نجد أن القوى الاستعمارية والصهيونية قد فرضت العنصرية باسم القومية في أرض العثمانيين وأشعلتها تحت اسم الطورانية حتى ضرب الاتحاديون العرب وعملوا على تزيكهم مما دفع العرب إلى التماس نفس السلاح فلما أصبحت القومية بديلاً للوحدة الإسلامية أصبحت قوة تمكن الاستعمار والصهيونية من تحقيق أهدافها . وإذا كان الاستعمار قد قف على القوة الجديدة في

مضر وقضى على الدولة العثمانية ، وفتح الطريق أمام للصهيونية إلى فلسطين فإنه كان حريصاً على أن يدهم مطامع الصهيونية والاستعمار في مكة والجزيرة العربية ولذلك فقد أثبت الدعوة إلى خلافة عربية وإلى جعل الخلافة الإسلامية وفقاً على شخص ينحدر من الرسول العربي الكريم وتحويل مكة إلى كرسى بابوى على غرار روما ، وكان الشريف حسين هو البديل للخليفة العثماني . ولقد سمى هرئيل نحو هذه الغاية غاية استرجاع الخلافة من أيدي الأتراك ، وتحويل مكة إلى كرسى بابوى إسلامي ، وأن يرتبط بين هذا بين حركة القوميين الذين يقودهم فكرياً نجيب عازوري ، الهدف ، كما يقول زهدي الفاتح هو « القضاء على أية محاولة لإحياء السكبان الإسلامي » وإبدال السكبان القائم ببديل ضعيف مهين ، ولقد كان لورنس ممثلاً للصهيونية والاستعمار الغربي معاً في محاولة مساعدة العرب على إقامة دولة قومية علمانية متخلية عن الإسلام في سورية ، لقد تحول الوعد بدولة عربية إلى تعيين أبناء الشريف ملوكاً على دويلات مفككة سواء في العراق أو في شرق الأردن ، أو سوريا . لقد كان لورنس واعياً للهدف وهو الذي يقول في أحد الوثائق التي كتبها : « مهما تخفضت هذه الحرب فنعجد أن تكون نتيجتها القضاء وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركي » . أي القضاء على كل ما تمثله الامبراطورية العثمانية من نفوذ إسلامي ، ومكانة يرتبط بها أغلب المسلمين في العالم كله . ويصور لورنس في وثائقه السرية خطورة الدولة السعودية التي يخشى أن تكون قوة جديدة بعد سقوط الدولة العثمانية « إذا أصر عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود في تبني الوهابية فإننا يجب أن نشن بفرق الجيش الهندي الإسلامية حرباً لاستعادة مكة وقهر الحركة الوهابية ، لقد اقترحت عام ١٩١٨ أن نفعل ذلك بمشردبابات » وهكذا نجد أن لورنس في إطار الاستعمار والصهيونية العالمية قد عمل كثيراً .

(٢٢)

### تحقيق حلم الصهيونية في الوصول إلى القدس

ثالثاً: تمكنت الصهيونية من أن تحقق حلمها في الوصول إلى القدس، بعد ثمانية عشر قرناً، وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل، استطاعت الدوامة للقيمة في سالونيك إعداد خطة طويلة المدى بالدخول في الإسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامة المحافل للاسونية لتدين الخطط السرية لضرب الخلافة والدولة الإسلامية والسيطرة على الحركات الوطنية القومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الاتحاديين .

عندما طرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٣ أصدر السلطان بايزيد الثاني أمراً يقضى بحسن معاملة اليهود في الدولة العثمانية وقد أمر لهم السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧١ م بالاستقرار في استانبول وعين لهم حاخام باشي خلع عليه سلطات واسعة وأصبحت فلسطين وممتلكات الدولة العثمانية ملجأ لليهود للطرودين من أسبانيا والبرتغال والماربين . من الاضطهاد في البلاد المسيحية الأخرى ، وقدر عدد اليهود في فلسطين في القرن السادس عشر بعشرة آلاف نسمة ، وفي منتصف القرن الثامن عشر جاء يهود من برلندا وروسيا إلى فلسطين ( صفد وطبرية ) وفي آخر هذا القرن وجه نابليون ندائه إلى اليهود في آسيا وأفريقيا بمد حملته على مصر ، الذي وعدم فيه بإعادة اليهود إلى القدس وإعادة بناء هيكلهم من جديد إذا ساعدوه في غزو فلسطين . ولكن يهود الدولة العثمانية لم يعيروهم أى اهتمام ، ويقدر المؤرخون اليهود أن نداء نابليون كان هو الحافز الذي حفزهم فيما بعد للتفكير في مشروع تأسيس دولة لهم في فلسطين ، وعندما تم الانسحاب للمصري من الشام عام ( ١٨٥٠ ) بذل بالمارستون مساهبه لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين ولما فشل في ذلك أصدر تعليماته المصرية إلى القناصل الإنجليز بالدولة العثمانية بمنح الحماية البريطانية لجميع اليهود الأجانب وهكذا بدأ الاستثمار يتعامل مع الصهيونية العالمية .

وأعلن بيسارك في ألمانيا عام ١٨٧١ م أنه اتخذ الإجراءات لرفع كافة القيود عن اليهود مما يؤدي إلى حل للسألة اليهودية في المجتمعات المسيحية التي نشأوا فيها ، غير أن اليهود قاوموا سياسة ( الاندماج ) لأنها في نظراهم تقضى على ميزاتهم التي يتفردون بها وقد كان التحول الذي شهده المجتمع الأوربي من التعصب الديني أوائل القرن ١٩ إلى القومية العنصرية في العقود الأخيرة منه ( وكان من أثر ما أحدثه اليهود بالنزوة الفرنسية لإقامة قوميتهم العنصرية ) . وقد كانت خطة مقاومتهم للاندماج في الجماعات القومية ، مقدمة للتنادي بالقومية اليهودية ، وجرى الاتجاه نحو قومية يهودية والبحث عن وطن خاص لليهود وجاءت أحداث ١٨٨١ التي رافقت اغتيال قيصر روسيا لتؤكد هذا الاتجاه بعدها وقد كان القيصر يحاول محاولة الاندماج أيضا السكندر الثالث الذي اغتاله اليهود لإيقاف محاولة الاندماج ، وتلا مقتله هجرة واسعة من روسيا وأوروبا الشرقية نحو الغرب ووصل إلى فلسطين جماعات منهم ، وشهدت فلسطين موجات أخرى في أعقاب فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ بسبب الاضطهاد الذي وقع لليهود أثر فشل الثورة . وقد وقفت الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية موقفا حاسما ، بعد السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين وإن سمحت لهم بالاستيطان في ولايات الدولة الأخرى ، وتدل صحائف التاريخ ومراجعاته إلى أنه في عام ١٨٨٧ بدأت تتحرك من أنحاء العالم جوع من اليهود

مشجعة إلى القدس رجوارها بهدف إعادة تأسيس مملكتهم القديمة وفي ١٨٩٦ سمى هرتزل للاتصال بالسلطان محاولاً اتخاذ نظام هثماني يهودى يساعد السلطان بموجبه اليهود في تطهير مساحة من الأرض مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة والتأثير على رأى العام الأوروبى ليقف إلى جانب السلطان. هرتزل عن فلسطين بمبلغ عشرين مليون ليرة تركية .

وقد رد السلطان بعد شهر من مسمى هرتزل ( يونية عام ١٨٩٦ ) : « إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أبت صديقى فأنصحك أن لا يسير أبداً في هذا الأمر ، لا أقدر أن أبيع ولو قديماً واحدة من البلاد ، لأنها ليست لى بل لشعبي ، ولقد حصل شعبي على هذه الأمبراطورية باراقة الدماء وقد غنوها بعد بدمائهم ، وسوف نعطها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ، الأمبراطورية التركية ليست لى وإنما للشعب التركى ، لا أستطيع أبداً أن أعطى أحداً أى جزء منها ، ليحتفظ اليهود ببلانينهم فإذا ما قسمت الأمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، أننا لن نقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتفريغ أجسادنا لأى غرض كان . » . وحاول هرتزل أن يستميل السلطان ، بوسيلة أو أخرى ، ولكن السلطان تشبث بموقفه للمعارض للهجرة اليهودية خصوصاً بعد انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بال ( أغسطس عام ١٨٩٧ ) وزاد من اهتمامه بشئون متصرفة القدس وقد أبقى السفير العثماني فى وشنطون ( أبريل عام ١٨٩٨ ) إلى يلدز بأن هدف الصهيونية فى فلسطين وإقامة حكومة مستقلة فيها وأن بين يديه اشارة عبرية تبين مطالبهم وبهض يهود أمريكا موالون للفكرة ، وزادت الأنباء مخاوف السلطان فأصدر قراراً ( يونية عام ١٨٩٨ ) بمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم .

وحاول ( هرتزل ) فوسط القيصر الألماني لمكانته لدى السلطان دون جدوى وقد تمكن من مقابلة السلطان بعد أكثر من خمس سنوات ( ١٨ مايو عام ١٩٠١ ) على أساس أنه رئيس لليهود وصحفى وليس كصهيونى ودار الحديث حول مشاكل الدولة الاقتصادية وتصفية الدين العام وما يمكن لهرتزل أن يقدمه من مساعدات مالية ، واستمرت الاتصالات عن طريق ( عزت العابد ) حول عروض منها لإنشاء شركة أراضى تسمح المناطق غير المستقلة ، لتسكن من إسكان الأهالى ، وطلب عزت العابد من هرتزل أن يقدم تعهداً بأن من يدخل من اليهود الأمبراطورية يصبح من الرعايا العثمانيين ، ورفض هرتزل ، وطالب بهجرة غير مفيدة ، ولم تحقق هذه الحادثات شيئاً فقد أصر السلطان على موقفه وإن كان قد أفسح لهرتزل ليعرف طبيعة ما عنده إلى آخر الشوط ، وظل السلطان طيلة حكمه ( ١٦٧٦ — ١٩٠٩ ) عقبة كأداء فى وجه المشاريع اليهودية وبخاصة وصول الصهيونية إلى فلسطين ، وإذا فشلت

الصهيونية مع السلطان واصلت مساعيها مع جمعية الإنقاذ والترقي التي جاءت إلى الحكم بعد حركة ١٩٠٨ ، وتمكنت من تحقيق قسط يعتد به من النجاح بفضل المساعي التي بذلتها عناصر في الحكم من يهود الدعوة الذين تسبوا بالإسلام ولعبوا دوراً بارزاً في الثورة على السلطان ، لذلك رحبت الأوساط الصهيونية بالثورة وأصبح لها نفوذ في جمعية الإنقاذ والترقي . وفي عام ١٩١٣ كان أربعة من يهود الدعوة يحتلون مناصب رفيعة في الحكومة العثمانية منهم : جاويد بك المالية — بساريا أفندي وزير النافعة ، مازلياج : التجارة والزراعة وكان حسين جاهد رئيساً لتحرير جريدة طنين . واستمرت عملية شراء الأراضي من قبل اليهود وحقن اليهود في ثلاث أشهر أكثر مما حققوه في ثلاث سنوات ، وأجرت حكومة الإنحاديين مفاوضات سرية مع الحركة الصهيونية لبيع الأراضي الأميرية في فلسطين وسوريا واستعجبت سلطات الإنحاديين لرغبات الصهيونية تحت وطأة حاجة الخزينة للناس إلى المال . وفي مارس عام ١٩١٤ ألغت حكومة الإنحاديين القيود المفروضة على تملك اليهود للأراضي في فلسطين وبذلك اختفت تماماً القيود التي فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد للوقوف في وجه الهجرة اليهودية بل وأظهرت حكومة الاتحاد والترقي عطفها البالغ على الحركة بإلغاء جميع القيود على الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضي . وهكذا دخلت للسيطرة الصهيونية مرحلتها الحاسمة . وقد جرت هذه المخططات من خلال تنظيم صهيوني ضخم وواسع عرف بحكومة العالم الخفية ، حسبما أشار كثير من الباحثين منهم ( شيرين وسبيريه وفيلش ) في كتابه ( حكومة العالم الخفية ) ومنهم وليام غاي كار في كتابه ( أحجار على رقعة الشطرنج ) . وينطلق المؤلف في كتابه عن اقتناع كامل بوجود هيئة يهودية لها صفة عالمية قدر هدد أفرادها في أوائل القرن العشرين ثلاثمائة حبر يهودي يرأسهم أحدهم ، يعملون وفق خطة قديمة مرسومة للسيطرة على العالم فهم عبارة عن حكومة خفية تحكم الشعوب بواسطة عملائها ولا تتوانى عن قتل أو تخطيط كل مسئول يحاول أن يقف في سبيل تنفيذ مخططاتها ، ولها من القدرة والنفوذ ما يمكنها من إيصال أي حقير إلى الزعامة ، وتخطيط أي قائد يعارضهم ، ويؤكد ( م . كوايد البلسلي ) إن القوة الخفية التي تتحرك من خلف اللامسونية هي الحكومة السرية للشعب اليهودي .

وإن هذه المحاولة تجديد لظهورهم القديم بعد أن سحقت دولتهم مرتين ٥٨٧ ق م . يختنصر ( ٨٠٠ ميلادية الرومان ) وأن اليهود أبان الأسر في بابل قد اخترعوا فكرة الوعد ورسخوا في أذهانهم خرافة ( شعب الله المختار ) ليحافظوا على وحدة الشعب وصفاته العنصرية ويعيدوا إليه

نفته في نفسه وقد بدأت في العصر الحديث من خلال محافل للماسونية بالصهيونية والذي لا يخفى عليه للماسون مع غيرهم هو تسلسل الصهيونية إلى للماسونية واستغلالها وحقى بصحيح الحاضر ، فليس هناك اختلاف على علاقة للماسونية . ولكن فئة كبيرة من الناس تجزم بأن للماسونية بجميع محافلها تدار هن طريق التسلسل من قبل قيادة يهودية لا يدخلها غير اليهود وقد تبين من بعد أن الصهيونية احتفلت عام ١٩٦٤ في فلسطين المحتلة بوضع الحجر الأساسى لأكبر محفل ماسونى فى العالم قال الحاخام الإسرائيلى بالحرف الواحد : ( يحتفل اليوم بوضع الحجر الأساسى لأكبر محفل ماسونى فى العالم وسيضىء الطريق أمام للماسونية لتحقيق أهدافها والهدف هو العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على هذه الأرض وما هذا ذلك فهى أديان باطلة ، أديان الفرقة بين أهل البلد الواحد وبين أى شعب آخر وسيأتى يوم قريب يتحطم فيه الدين المسيحى والدين الإسلامى ويتخلص للمسلمون والمسيحيون من معتقداتهم الباطلة .

ويتصل بهذا ما أشار إليه الحاخام ، أما نويل راينوفينش ، فى تصريح له عام ١٩٥٢ من أن الحرب العالمية الثالثة سيوقدها اليهود للتخلص من الأنظمة القائمة فى العالم الإسلامى وإقامة الدولة اليهودية العالمية . وهكذا نجد صورة التآمر الصهيونى والاستعمارى فى السيطرة على الإسلام : سواء أكانت الصهيونية هى التى تستغل الاستعمار أم أن الاستعمار يستغلها ، فالواقع أن هناك مؤامرة مشتركة بين مختلف العناصر إزاء هذا العالم للوحده ، الذى يحاول أن يقيم المجتمع الربانى وأن مايجرى فى هذا العصر ليس إلا موجة جديدة من موجات ذلك التآمر القديم الممتد فى موجات متوالية وبصور مختلفة على مدى التاريخ ، يشترك فيها اليهودية الحاكمة على الإسلام والغرب الطامع فى مصادر الثروة والنفوذ والاختلاف مع المسلمين فى العقيدة ، ولقد كان اليهود حربا على الإسلام أينما حلوا يؤلبون الأقوام عليه ، وكان الإسلام حامياً لهم فى كل مكان يلوذون به ، فى الأندلس وفى الدولة العثمانية وقد كان اليهود من وراء كل للمؤامرات التى عرفها عالم الإسلام وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة المالية والاقتصادية ويرجع ذلك إلى خضوع عالم الغرب لهم فى هذا المجال .

يقول والتر رانتو : ( الوزير الألمانى الذى اغتيل ١٩٢٣ ) تحت عنوان العامل الخفى فى سياسة الدول الغربية : أن العالم التمدن بأسره اليوم يخضع فى حياته الاقتصادية لطائفة من الممولين كادت فى بعض الدول أن تستولى على السلطة بأكملها فهى فى الواقع تسن القوانين وهى تقرر الحرب والسلام . إن سيطرة كهذه لمن أسوأ أنواع السيطرة فإنها خالية من كل فكرة عالية أو نزعة سامية ولا دافع لها .

إلا المصلحة المادية ولا غرض إلا امتلاك الثروة والسلطة . وتحت تأثير المال والاقتصاد والسيطرة على أجهزة الصحافة استطاع اليهود تجنيد كبار الشخصيات لغايتهم الزائفة التي أقاموها بالباطل . وقد وصفها أحد كبار اليهود ( مورجنو ) سفير أمريكا في الاسنانة بأنها : أعظم تضليل ظهر في التاريخ اليهودي .

وإلى اليهود توجه التهمة بأنهم زعماء الحركات الثورية والانتفاضية ورؤساء الأحزاب المتطرفة وأركان النظام البلشفي ، وأنهم ثانياً ملوك الصيرفة والمال يسيطرون على أسعار الأشياء وعلى تقلب العملة والأشياء المالية ، ويذهب بعض المتطرفين إلى أن هناك اتفاقاً سرياً بين الماليين اليهود ودهاة الانقلابات يقضى بأن يمد الأولون الآخرون بالمال لإحداث الفتن والفلافل بغية استئثار هذه الحالة والاستفادة منها فإن من الأمور المقررة إن حالة الاضطراب كنيرة الملائمة لأرباب مصيرفة والمضاربة . ومن راجع تاريخ الثروات التي جمعتها الأسر لليهودية الشهيرة ( كأسرة ورشليك ) يرى أن منشأها هو الحصول على معلومات سياسية ذات شأن والاستفادة منها قبل انتشارها بين الجمهور وأنهم يعملون على إضعاف الرابطة الوطنية والقومية ، وقد انتشر اليهود بعد الثورة الفرنسية حيث حطموا القيد الذي وضعته الكنيسة هايمهم واستفادوا من المساواة الاجتماعية وأصبح لهم نفوذ وسطوة وقفزوا للسيطرة على قيادة الأهلام والصحافة والسينما والمسرح والفنون والآداب وقد عمل اليهود في العصر الحديث في عدة ميادين للاعداد لخطتهم ، فكان مما عملوا له أن زيفوا دوائر المعارف بحيث تتفق مع غايتهم ، وأذاعوا عن طريق الصحافة والأدب والفكر وقد سيطروا عليها تماماً أن ما يسمونه بالمدنية المسيحية : مدينة أوروبا الحالية على وشك الزوال وبالطبع مستقوم مقامها مدينة أخرى ، هي المدنية اليهودية نتيجة للسيطرة المالية على مختلف أمور العالم ، وقد كان لليهود نجاحهم الواسع في إيقاد نار الحرب العالمية الأولى ثم الثانية التي لم يريج منها غير اليهود الذين أعانوا بقروضهم الجهتين المتقاتلتين ، ثم سيطروا على علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وقدموا فيها نظريات هدامة بغية تدمير القيم التي قدمها الإسلام والمسيحية في العالم .

وقد استطاعت الصهيونية أن تستغل جميع وسائل الأهلام وفنون الحرب الخفية والسافرة لتزريق شمل المسلمين وكان احتلال فلسطين هادفاً إلى شطر الوحدة بين أجزاءه وهذا ما حاوله الصليبيون في المصور الوسطى وهو هدف مقصود لذاته ، وتزريق شمل العالم الإسلامي ومنع قيام الوحدة .

وكذلك العمل أساساً على الحيلولة دون قيام وحدة الفكر فيه (وسندرس في الفصول القادمة أثر الصهيونية في الفكر الغربي والفكر الإسلامى) وكذلك السيطرة على موارد العالم الإسلامى، وإنشاء القوى الهدامة : للامونية والبهايمية لخدمة أهدافها والسيطرة على الأسواق العالمية وعلى البنوك العظمى وعلى وسائل الإعلام ، كذلك سيطرت على معظم زعماء العالم بوسائل التهديد بالإغتيالات أو فضح أسرارهم الخاصة أو شراء ضائهم عن طريق الشركات الكبرى ومن ذلك الانقلاب العثمانى الذى أسقط الدولة الإسلامية الكبرى ورد الخلاف بين الترك العرب إلى العصبة الطورانية طريقاً إلى فلسطين وعزيقاً للبلاد العربية بل إن مخططات لإرساليات التبشير للمسيحى فى العالم الإسلامى كانت فى قسم كبير منها وهو القسم الذى يقع « البروتستانتية » تسيطر عليه الفكرة الصهيونية ويستهدى فى مناهجه على ضوء التلمودية فكراً والصهيونية هدفاً . وقد أشار كثير من الباحثين إلى المخطط الصهيونى للإستيلاء على العالم تتضمن دهوات مختلفة :

(١) الحكومة العالمية . (٢) لغة الأسبرانتو . (٣) الهيئز وقلقى الشباب . (٤) سيطرة اليهود على مقدرات الدول الكبرى العالمية . وتشير كثير من الأبحاث السياسية أن الصهيونية قد تمكنت فى الغرب من احتواء الامبريالية الغربية وسخرتها من أجل تحقيق أهداف إسرائيل ، وما يزال نفوذ الصهيونية نافذاً فى البيوت التجارية وتجارة السفن السوداء ، والجمعيات والمنظمات ، ومصادر الإعلام فى الصحف والتلفزيون وصالات عرض أنلام الجنس ، وأنها من وراء استنزاف ثروات البشرية فى مجال الترف والانحلال حتى تحرم منها الأمم صاحبة الحق فى الانتفاع بها مع ترك للآيين من أبناء تلك الأمم جياعا وهراة . وما تزال دهوة اليهود العالمية فى كل عصر وبئة والى يجدونها فى هذا العصر تحت أسماء عصرية ومذاهب أيولوجية براقية ، هى الربا والأباحية والتفرقة المنصرية واستغلال الشعوب يستخدمون فى سبيل ذلك ما أتموه علوم الأثرولوجيا والنفس والعلوم الاجتماعية ودهوات الانفجار السكانى والأباحيات وغيرها ، لتبقى هذه المجموعة القليلة من المسيطرين على مقدرات الحياة البشرية هم وحدهم المالكين ويبقى العالم بعد ذلك عبيداً لهم وخداما ، المحاولة ترمى أساساً إلى تهويد العالم فكراً وإحلال مفاهيم (للادبة) فى عقول وقلوب الناس إعلالاً لحيوانية الإنسان وإذلالاً لإنسانيته ومنعاً دون قيام المجتمع الربانى وما يزال الصراع بين هذا الفكر البشرى الوثنى الأباحتى المادى وبين الفكر الربانى للمصدر الإنسانى الطابع وسيظل ، حتى يتم الله نوره وحق يتم آياته ويقين للناس أنه الحق . لقد سجل اليهود وجهتهم فى صراحة تامة : « إثارة حملة الأحقاد والكراهية فى الشرق ضد الغرب وأيضاً فى الغرب ضد الشرق ولن نسمح بأى حال بوجود دول



ما تقف على الحياد أو غير منحازة بل سنعمل بكل ما في وسعنا من مرا كزنا في كل معسكرات القوى الكبرى على إرغام الدول التي تفكر في الحياد أو عدم الانحياز أن تلجأ طواعية أو كرها إلى معسكر قائم ، وهذا ييسر لنا العمل في جبهتين متواجهتين نعلم ما بداخل كل منهما وأن تعارضت بطبيعة الحال مصالحهما ، وهذا وحده هو السبب المباشر الكافي لإشعال الحرب العالمية الثالثة عندما تمتدفع هذه المصالح في اتجاهات متضاربة متعارضة . برتوكولات صهيون : وهذا يتفق مع ما ورد من قولهم : سوف نستثمر كل أموالنا لتنفيذ هذا العداء للتبادل بين الشرق والغرب مع استمرار استئثار عطف العالم على اليهود في الوقت الذي ندعم فيه إسرائيل اقتصاديا وعلميا وبشريا على حساب من حولها من العرب الذي يجب أن نشغلهم بالفتن الداخلية حتى لا يتفرغوا أبداً ولا يشعروا بما نفعله من في إسرائيل ، وعلينا أن نبقى إسرائيل بعيدة ما أمكن عن نار الحرب العالمية الثالثة حتى تكون قادرة على ممارسة إقامة الحكومة العالمية في روما بعد انتهاء الحرب . وعلينا أن نضمن لها موازنة البقاء بأن يبقى ارتباطا مع الولايات المتحدة من جانب معين وعلى ارتباطها بالائتلاف السوفيتي من جانب آخر . وفي السنوات الأخيرة بدت ظواهر جديدة : أصدرت الكنيسة الكاثوليكية وثيقة حثت فيها على وضع حد لمعاداة السامية وأعربت بصورة مباشرة عن موافقتها على وضع حد لمعاداة السامية وأعربت بصورة مباشرة عن موافقتها على إقامة دولة إسرائيل . كما أصدرت قراراً بتبرئة اليهود من محاولة قتل السيد المسيح عيسى بن مريم . كذلك تبين مدى العلاقة الجذرية والعميقة العضوية بين الصهيونية والشيوعية فقد تسربت وثائق كثيرة تكشف عن مؤامرة السيطرة المزدوجة عن طريق وضع العالم بين كسرة البندق ، من حيث سيطرة اليهود على العالم الغربي الرأسمالي وسيطرتهم على وليدتهم للماركسية اللينينية المطبقة في روسيا والصين وغيرهما .

كذلك تبين أن فكرة الفصل بين اليهودية والصهيونية هي خدعة ماكرة ، وأن الرأي الصحيح هو أن الصهيونية هي الواجهة السياسية لليهودية ، تلحق إليها حركة العمل وتلصق إليها الخطأ في حالة التراجع أمام العالم . كذلك إنكشفت العلاقة بين الصهيونية من ناحية وبين العلوم الحديثة التي تحاول سحق المجتمع البشري . (١) علاقتهم بالماركسية . (٢) وعلاقتهم بالعلوم الاجتماعية (دوركايم) . (٣) وعلاقتهم بالتحليل النفسي (فرويد) . (٤) وعلاقتهم بالوجودية (سارتر) (٥) وعلاقتهم بالبهائية (عباس البهاء) وبالجملة فإلى الصهيونية ترد متغيرات كثيرة في العالم الحديث تكشف عن جانب من مخطط الغرب كله في مواجهة الإسلام ذلك أن الصهيونية ترى نفسها الوريث الوحيد للاستعمار الغربي على اعتبار أن الشيوعية هي شطرها الآخر . وقد استهدفت تحقيق غايتها

فى السيطرة على فلسطين أساساً لتنطلق منها للسيطرة على العالم كله ، وفى مقدمة هذه المتغيرات والتحولات : الثورة الفرنسية والانقلاب الشيوعى والحربين العالميتين الأولى والثانية ثم بعد ذلك دعوات الوطنية والقومية والفكر الماركسى والوجودية ، والمادية والعصر العطبى ، والطوايع الأباحية العالمية المتصلة بالمرى والفساد والآفات والسبى والفن والمسرح الذى هو عندهم بديل دور العبادة ولقد كانت الماسونية مدخلهم إلى العالم كله ، وإلى هدم الأدين والتقاليد والأخلاق والقيم حتى قال جورج زيدان فى كتابه تاريخ الماسونية العام : « إن الماسونية كانت مصدراً لكثير من التعاليم التى أصبحت من أقوى دعامات تمدن الغرب الحديث » .

(٢٣)

### اسقاط الخلافة

( رابعا ) أمكن تحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى دون أن يكون أى مصلحة أساسية ، فى صف الألمان وهزيمتها وتمزيقها وإعدادها لاسقاط الخلافة وإقامة نظام ديمقراطى غربى يستأصل الإسلام ، فقد كان القضاء على الوحدة الإسلامية فى كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للاستعمار والصهيونية والروس قبل البلشفية وبعدها . إذا كانت الوحدة الإسلامية هى العامل الخطير الذى وقف فى وجه الزحف الاستعمارى وتقسيم ميراث الدولة العثمانية وكان الإسلام هو الذى قاوم الاستعمار فى كل مكان من العالم الإسلامى ، ولذلك فقد عملت قوى الغرب على تخطيط الوحدة الإسلامية بإعداد ثلاثة أعمال متصلة :

( ١ ) إسقاط السلطان عبد الحميد . ( ٢ ) هزيمة الدولة العثمانية وتقسيمها . ( ٣ ) إلغاء الخلافة الإسلامية والحيلولة دون قيامها . وقد سعى الغرب إلى ذلك سعياً حثيثاً واستخدم كل الوسائل وأهمها بث روح الوطنيات والقوميات فى كل أجزاء العالم الإسلامى حتى يشغلها بالبعد التاريخى الإقليمى الخاص بها ويمزها عن فكرة التجمع الأفقى الشامل ومن شأن ذلك فى تقديرهم أنه يقضى على النظام الإسلامى نفسه كنظام مجتمع ومنهج حياة وبذلك سيطرت القوانين الوضعية وهزلت الشريعة الإسلامية تماماً إلا من مناطق قليلة جداً فى العالم الإسلامى .

وجرت الدعوة إلى إلقاء الرابطة العنصرية واللدوية والعرقية والقومية والجنسية ووصف الرابطة

الإسلامية بأنها عامل من عوامل التعصب والتأخر — والهدف من ذلك هو حل هروء الاسلام وكانت  
فكرة الجامعة الإسلامية قد ظهرت كرد فعل للمحاولات الخطيرة حين أخذ الاستعمار يقطع أجزاء  
من العالم الإسلامي ويستولى عليها وكانت للحركة بقيادة السلطان عبد الحميد أثر كبير ، لأنها بيد  
حاكم له سلطانه ونفوذه ، كما أنها كانت تمثل قوة قائمة ، يمكن أن يجمع المسلمين جميعا من خارج  
الامبراطورية العثمانية إلى ظلها . وهذا هو ما تحقق فعلا . وأخذ يؤتى أكله لولا مساهمة الاستعمار  
والصهيونية إلى ( إجهاض ) هذه الحركة بعزل السلطان عبد الحميد والتآمر عليه فقد اهتز العرب  
لفكرة الجامعة الإسلامية التي دها اليها عبد الحميد اهتزازاً شديداً وهاجها كرومر ودرا كور وزعماء  
الفكر الغربيين خوفاً من آثارها البعيدة وألبوا عليها فرنسا وإنجلترا . ولقد حدد الاستعمار  
والصهيونية مرحلتين لتنفيذ المخطط :

المرحلة الاولى : وهي [ مرحلة الاتحاديين ] : الذين حكموا بعد السلطان عبد الحميد وهؤلاء  
حجّبوا الخلافة ونفذوا مشروعا قائماً على « التوحيه » بحيث ترى دعوة ظاهرة إلى التجمع تحت لواء  
الخلافة ، وفي نفس الوقت تجرى دهمى الطورانية من خلفها وتجرى دهمى العرب إلى دهم الوحدة  
العثمانية في نفس الوقت الذي يقتل فيه العرب على المشائى حتى لا يقوم لقاء جزئى الأمة الإسلامية  
( العرب والترك ) سنوات وسنوات لقد عبد الاتحاديون الطريق أمام الخطوة الأخيرة : وكانت  
أعمالهم الثلاث الكبرى من أهم الأعمال . ( ١ ) فتحوا الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين ،  
( ٢ ) سلموا طرابلس الغرب للاستعمار الايطالى ( ٣ ) أدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية  
دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل في صف الألمان . ثم عمدوا إلى تغريك العرب وآثارهم على  
الدولة وتحريضهم على الاتصال والإلقاء بأنفسهم في أحضان الحلفاء وهو ما حدث فعلا . ولما انتهى  
دور الاتحاديين وحلوا مسئولية خراب الدولة العثمانية بما كبدها إياه خلال الحرب العالمية وما بعدها  
اختفوا ظاهرياً ليظهروا في صورة جديدة تحت لواء مصطفى كمال . وكذلك كان الاتحاديون ثم  
الكاليون : نسفاً واحداً . ومخططاً واحداً ووجهة واحدة قسمت نفسها على العمل تحت أسماء  
( نيازى وطلعت وجمال ) ثم تحت اسم ( مصطفى كمال ، عصمت أيونو ) من بعد وهم ماسون ،  
ودعوة ، وأتباع ثقافة الثورة الفرنسية ، والمملون لشأن جنكيز خان ، والسكرهون للاسلام والقرآن  
والعرب ، والمؤمنون بتحطيم الوحدة الإسلامية ، والتفريق بين العرب والترك ، والداعون إلى  
القضاء على الشريعة الإسلامية ، والخلافة ، وقد نفذ الاتحاديون المرحلة الأولى فيها فلما انتهت  
الحرب الأولى بهزيمة الألمان والدولة العثمانية بدأ الغرب يصنع السكيز في الزبد لتقطيع الأوصال

والانتقام على النحو الذى ظهر فى معاهدة سيفر عام ( ١٩٢٠ ) وبدأ الاتحاديون بإسليم السكاليين فى تمزيق وجه الدولة العثمانية من الداخل ونقل الأتراك إلى الغرب نقلاً كاملاً . تمهيداً للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية التى كانت القوة الحامية للإسلام أربعمائة سنة . وقد بدأ السكاليون بالفصل بين السلطنة والخلافة وجعل الخلافة روحية محضة . وكان هذا خطوة فى سبيل إعلان إسقاط الخلافة على سبيل التدرج .

وقد كشف للفكرين للسلمون مدى ما يحمله هذا الخطر الممهد لإلغاء الخلافة . فقال شيخ الإسلام « مصطفى صبرى » : أن الأمامة الكبرى التى يعبر عنها بالخلافة تتضمن حكومة تنفيذ الشريعة الإسلامية ، فتجريد الحكومة من الخلافة والتفريق بينهما يخرج الحكومة عن أن تكون إسلامية ، وهى تهدف إلى قطع علاقة الدين بإجراءات الحكومة حتى لا تمتد يده إليها ويقتضى ملغى من العمل ، ويصور ذلك بأنه محاولة من الاتحاديين وأخلافهم لفتح الحصن من داخله ، وهكذا أقام السكاليون خلافة بغير سلطة لمدة عام وبضعة أشهر ، وقالوا إن الخلافة اندمجت فى الحكومة . « وكيف تندمج الخلافة النبوية فى حكومة أهانتها واحتقرتها كل الاحتقار وابطلت الحاكم والأحكام الشرعية وعدت ربط الحقوق بها ربطها بالخرافات وأعلنت الإلحاد ورفضت أن يكون دين الدولة : الإسلام . ٢ - ١ . هـ . ويشير شيخ الإسلام مصطفى صبرى إلى أن معاهدة سيفر القاسية قد عدلت من بعد فى مؤتمر لوزان وخففت آثارها بعد أن دفعت تركيا السكالية النخس فى تلك للمعاهدة السرية التى تناثرت أخبارها . ( وأنا أنقلها هنا مما أورده مفتى فلسطين محمد أمين الحسينى فى مذكراته ) . قبول تركيا شروط الصلح الذى عقده الحلفاء معها فى لوزان عام ١٩٢٣ وللمرورة بشروط كرزون الأربعة وهى : ( ١ ) قطع كل صلة بالإسلام . ( ٢ ) إلغاء الخلافة . ( ٣ ) إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد . ( ٤ ) اتخاذ دستور مدنى بدلاً من دستور تركيا القديم ( ١٩٠٨ ) يقول شيخ الإسلام مصطفى صبرى : ما سر نجاح عصمت باشا فى مؤتمر لوزان وارتقاء ذلك النجاح إلى كونه نجاحاً تجاه دول لم تغرب الدول الكبرى عن حوزة شمولها ولم تقتصر على اليونان فقط حتى محا الحسابات العتيقة الأمتيازية فقط وكان هاتق الدولة العثمانية يحمل ألقاباً منذ عهد بعيد مع أن عصمت باشا لم يظهر بسلاحه على الإنجليز فى ميدان الحرب وميدانها ولم يضيئ الأرض بما رحبت كما ضيقها على اليونان وكيف عظم ظفروهم فى مؤتمر لوزان ، لقد امح مستشار وزارة الخارجية للبريطانية إلى هذا السر العميق فى برلمانهم بعد ما أتم مؤتمر لوزان عمله وهاد ، قال بعض النواب عن المعاهدة

إنها انهمزام سياسي لم يسبق مثيله في تاريخ الانجليز نجاه الأتراك ولو غلبونا في الحرب العظمى ما أستفادوا بأكثر مما منحوا في هذه للمعاهدة .

قال المستشار : « هليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتي الترك القديمة والجديدة فهي اليوم دولة ملية متحدة » يعنى : مقصورة في هذه الدائرة المحدودة ومنقطعة عن تعلقاتها النفسية العميقة لأقطار العالم باشتغالها على الخلافة الإسلامية الكبرى . وقد باحت جريدة ( وقت ) التركية عن السر العميق الذى ذكرناه آنفا وكانت الجرائد الانجليزية تكتب : أنه مادام شكل الحكومة فى تركيا جامع بين الخلافة والساطنة فإنه لا يمكن تطبيق قاعدة سيفر باسم حقوق الأقليات فهي نتيجة طبيعية لذلك الشكل من الحكومة : أى الحكومة الحائرة للخلافة ، أى أن الثمن هو إسقاط حكومة الخلافة الشرعية وإقامة حكومة لاىينية وكان هذا هو العربون الذى قدمه مصطفى كمال للغرب ، وهذا من أبلغ كيد الغرب ( والحكومة البريطانية بالذات ) للإسلام وللخلافة ولوحد المسلمين ، يقول شيخ الاسلام مصطفى صبرى . إن بريطانيا تترامى مغلوبه أمام مصطفى كمال حتى تعظم فتنته فى إبعصار المسلمين وبصائرهم والرجل من لا تجد الانجليز مثله او جدت فى طلبه من حيث أنه يهدم من ماديات الاسلام ومن أدبياته فى يوم ما لا تهدم الانجليز نفسها فى هام فلما أثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته فى طرد اليونان من الأناضول استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا فما غادرتها حتى استخلفت من يعادينا والاسلام أكثر منها . » ويقول : كان مسعى الانجليز فى أرضنا إعادة أرواح الاتحاديين فى أجساد السكاليين ليمضوا فى إفساد دولتنا . ويربط بين الاتحاديين والسكاليين فى عبارة رائعة هى قوله « هدم الفيرية بين السكاليين والاتحاديين » . « اتسموا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقى وانساقوا خلف أشخاص مثل ( طلمت وأنور وجمال ) وبعد الهدنة جمعوا شملهم المشتت فى حاشية مصطفى كمال فقسموا بالقوى الملية والسكاليين وجمعية مدافعة الحقوق وحزب الخاق وتناسوا باسم الاتحاد وتناكروا هم هم بأهليتهم ولم يدع واحد من الفريقين شيئاً من التنفير والتنافر بينها بل هابأجمعهما حصراً كل جهدهما فى معارضة المخالفين إلى حزبي الحرية والأئتلاف ومخاصمتهم أشد الخصومة ( ك : النكبر على منكرى النعمة والخلافة ) . وأشار إلى أن حزب الاتحاديين هو الذى أشقى الأستانة فى معاهدة اوزان وتركها مع المضايق من غير دفاع ودخوله الحرب الكبرى هو كل خطيئة ، وأشار إلى ما أورده الصحف التركية من سخريه من براءة السكاليين من الاتحاديين وأفعالهم ، وهم شركاؤهم فيها بل هم أنفسهم للتناسخون عنهم ، وقال أنه لا فرق بين السكاليين والاتحاديين من حيث المبدأ فكلاهما متفق على

نزع السلطة من الخلفاء والسلاطين ومنحها لعنايده تحت ستار منحها للأمة وكلاهما لا دنى يترأى للناس تارة بوجه طوراًى متمصب الجفنية وتارة بتقدمات البلشفية وتارة كالجاهد فى سبيل الإسلام وكلاهما مفرض فى دعوى الحرية بلفظه وقائلها بفعله وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق المهرج والمرج غير باذل من كل ذلك هن نفسه وماله. « إن للهنضة الكيالية مرتبة ومدبرة لإحياء مبادئ الاتحاديين بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا هنداً أمانوا الدولة العثمانية الكبرى فى الحرب العالمية ، وإن الاتحاديين الذين هدموا الأمبراطورية العثمانية على ما أعترف به لدى السكاليين ، لو لم يكن السكاليون منهم ومعهم فى أفعال الهدم على ما بينا تم لم يزيدوا عليهم يهدم الخلافة الإسلامية أيضاً كان لهم حق التبجح على الاتحاديين وكلا الحزبين فى الحقيقة من جنس واحد ، وكلاهما غير مستند إلى القوة المشروعة التى تستند إليها الأحزاب السياسية وهى القوة الغير مسلحة ، أهى بها قوة الشعب والانتخاب المبني على المحبة العامة بل منبع القوة فى كليهما عبارة عن الجيش » .

## ( ٢ )

وهكذا مهد الاتحاديون لإلغاء الخلافة وأخروا مصطفى كمال لأداء هذا الدور الخطير : إلغاء الخلافة الإسلامية بعد أربعة عشر قرناً ونفى آل عثمان من تركيا وإلغاء المحاكم الشرعية والمدارس الدينية والأوقاف واللغة العربية وقالت الصحف التركية إن الحكومة السكالية إنما ترمى فى حركتها الأخيرة إلى وداع الشرق وكل ما فيه من التقاليد القديمة التى يمثلها دين الإسلام ، وتقول الصحف التركية على ما نقل مثلاً فى ٢٨ شباط ١٣٤٩ : « إنا عازمون أن ندوس بأقدامنا وأقدامنا ونسف كل موانع وحوائل فى طريقنا التى تذهب بنا من الشرق الذى ودعناه إلى الغرب الذى يممناه ، حتى أن التقرب لا يقتصر على شئوننا الرسمية وقوانيننا بل سنكون أدهقنا وعقليتنا أيضاً غريبة بحنة ، ولا حاجة لنا بعد الآن إلى مقام الخلافة والوزارة الشرعية والمحاكم الشرعية والأوقاف والمدارس الدينية ، إنا تؤدع هذه الأشياء الخلق اللأى تمنعنا من الرقى والتعالى . أن كبير الذنب للحروف العربية لأنها هى التى أخرتنا وجعلتنا وراء الأمم فى العلم والتعليم فيجب علينا أن نخط بحروف لاتينية » وقال مصطفى كمال فى خطبة المجلس الوطنى ( ١ مارس عام ١٣٤٠ ) :

حتم علينا ننتفض فى تغيير بيتنا بكل جريمة على كل تأثير ولا نتردد فى الاندفاع إلى الرقيات الشرقية والطريق الذى نمشى عليه فى الحقوق المدنية وحقوق الأمرة لا يكون إلا هن طريق المدنية

والحضارة ( الغربية ) وكون الأمم مربوطة في الحقوق بالخرافات ومدارات المصالح كابوس يمنعنا من الاستيقاظ ، لكن أمة الترك تأتي أن يركبها الكابوس .

وتقول الصحف التركية : أن الخلافة والسلطنة زالتا زوال كلدان وأشور وبابل ومصر القديمة وزال معهما « الدين » الذي يمنح الحياة والاستقلال بتلقية الباطل فخان لنا بعد هذا إقتباس الحقوق الحديثة المنشقة من حقوق رومية ، ويقول أنا تورك : مبدأى هو إلغاء الخلافة لا لأجعلها لنفسى فأنى رجل لا يتزل إلى قبول المناصب القديمة البالية ، إرتقينا ونجونا مما رميناه اليوم من كناسات التاريخ وجيفه . وهكذا دخلت تركيا السكالية مرحلة جديدة كان عنوانها : قائد لا يفيق من الخمر ، يمرض النساء على الرقص فى المراقص ، ويكتب فى المراقص ، ويكتب بالحروف اللاتينية ويطلق المساجد ويستبدل القبة العلوبوش ، ويكره النساء على السفور ونزع الحمار ويقول : أرقصوا أزواجاً أزواجاً .

وكم أراقى دعاة السكاليين من خور ، وقالوا : تقربنا وأثبتنا استعدادنا للغرب فى مدة قليلة ، وهلت كلمات الجمهورية ، الوطنية ، والإلحاد ، اللاتسكية . ويقول شيخ الإسلام : مصطفى صبرى : أنى أخاف ان تسعد تركيا وترقى بهذه الارادة الحديثة اللاتينية رقباً دنيوا وإن كان ذلك فى غاية البعد والاستحالة فيفتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى توغل فى سبيل الافلاس والاندراس ، وتسكون فتنها هليهم أكبر مما تقدم واشتم ( ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لذلك رحمة ) . وخير ما تقدمه لروح مصطفى صبرى : هو تصريح توينبى الذى « غير » فيه تركيا بأنها تغربت ! وأنها لم تستطع أن تقدم للحضارة أى إضافة علمية أو تكنولوجية وإنما كانت تابعة زادت الغرب تبعا من حل مشكلاتها ولقد خدع المسلمون والعرب حقا فى أول الأمر ولكن الحقائق تسكشت من بعد أن شطراً من أمة الاسلام ، ذاهبون فى التيه سنوات فما هادوا حتى قضى على ذلك الطاغوت الذى كان مثلاً أعلى لبعض الزعماء والقادة . وفى كتاب شيخ الاسلام : مصطفى صبرى التكبير هو منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة ) بيان عن نقطة التحول هذه التى لها خطرهما على الاسلام والعالم الاسلامى والعرب جميعاً والتى كانت مقدمة لعدد من الحركات السياسية والاجتماعية الموهلة فى طريق التغرب . يقول شيخ الإسلام : التزمت فى كتابى هذا لإثبات أمرين : كون السكاليين أعداء الدين وكونهم أهداء الحرية مستبدين ومضطهدين ، والحق أن مصطفى كمال الذى محارم الاسلام خالية من رجال الحراسة والفراصة فركض عليها بخيلها ورجلها كما قال ( تابط شرا ) .

وصادف سهل الأرض لم يكده الصفا

به كدحه والموت خزيان ينظر

قام حزب الحروب أعني حزب الاتحاد باسم جديد كمالى قومة جاوزت قامته الأولى وآثار قيامه العقوبة لى كل من خالفه فى دخول الحرب وسائر المبادئ السياسية والإجتماعية من الأحزاب والرجال ، ويقول : أن الأمة التركية المسكينة المسلمة والتي تفدى دينها بجمعتها منذ إحصار قرون : أصبحت اليوم بين « الإلحاد والسيف » وهو لا يستبعد كل الاستبعاد أن يعد آل هنان مسئولين عن هذه الحالات لأنهم لم يمتنعوا ولم يجتهدوا فى درء الاتحادية السكالية ، ولم ينصروا الذين جاهدوا حق الإهتمام وحق الاجتهاد وحق النصر بل التزموا الحياد وحسبوا أن المدارة والحياد تنفع نجاة فتنتهم التي تأبى إلى أن تهلك الحرث والنمل وإنى أرى أنما لكل مسلم تراخى فى مناوأتهم ومخاذاتهم والمجاهدة فى استئصال شأفتهم التي تعترض دين الإسلام ، ويشير إلى الخدعة التي خدع بها الاتحاديون المسلمين ليؤيدوهم وكذلك حيث ساعدتهم العالم الإسلامى بمئات الألوف من الجنهيات التي أنفقوها على هدم الخلافة والدين . وقد خدع المصريون والعرب بخطوات الاتحاديين أولانهم السكاليين وخاصة عندما كان يرفع مصطفى كمال أبان حرب الأناضول المصحف ويدهو المسلمين إلى تأييده فى جهاده ضد اليونان ، ولكنه سرعان ما كشف عن مخالفه الحمراء الدامية التي أطبق بها على حق الإسلام منذ ما يمتد جميع المؤرخين أنه كان خطة مدبرة تم على خطوات منذ عام ١٩٠٩ حتى أسقطت الخلافة عام ١٩١٤ يشير إلى هذا شيخ الإسلام مصطفى صبرى ثم يعقب قائلا : فلفتح عالم الإسلام عينه وليأخذ حذره من الملحدين الذين دبت هقاربهم ونجحت فى بلادنا تجاربهم فلا ينقده هذا المسالك الذى سلكه : ينام وينخدع بهم إلى ما شاء الله وشاءوا ثم تنبه بعد ما كانت السكائنة ولات حين جدوى لذلك الإلتقاء ، ويعتبر من أولئك الملاحدة كيف يجتهدون فى إنجاح مبادئهم ساهرين خير ساهرين ولنعلم إن الهدى والضلال ليس من الفسكاهات التي يرغب فيها الانسان حين ما انتهى وهوى ويعرض عنها إذا لم يشته وأنى قد أطلت النقد والشد على الاتحاديين والسكاليين فى أوانه لاسمع المسلمين فيتداركوا الخطر قبل تمامه فلم يستجيبوا لى ولم يصدقونى .

وكان شيخ الإسلام للدولة العثمانية مصطفى صبرى قد هاجر من تركيا إلى مصر بعد أن استنحل أمر الاتحاديين وأخذ يقود حملة فى الصحف المصرية ويكتب الكتب لينبه المسلمين إلى الخطر قبل أن يقع ، ذلك أنه عندما بدأت الخلافة تتأرجح وقف كتاب الشعوبية المصريين يؤيدون السكاليين ويهللون لهم وجاء مصطفى صبرى ليكشف هذا الزيف : قائلا إن الذين يقومون بهذا العمل ليسوا هم الأتراك المسلمين وإنما هذه فئة بفت هليهم وعلى الخلافة الإسلامية وأحييت اللادينية على الإيمان والجلسية على الإسلام فإن تعالت العرب وفضلت جنسيتها على إسلامها فسأصرهم أيضاً .



وعسكنا أدخلت تركيا (بحركة الاتحادين السكاليين) العالم الاسلامى فى أخطر مراحل التحدى بين الإسلام والغرب وهى مرحلة استبدال الرابطة الاسلامية الجامعة بالرابطة الجنسية القومية وإحياء اللائقية بدلا من الدين . هذه النار التى امتشيت فى المشرق بعد وعت العالم الإسلامى كله مازال من التحديات الخطيرة والفتن الكبرى التى أوقدها الغرب فى دولة الخلافة .

### (٣)

كانت كل القوى تعمل على التخلص من الخلافة الإسلامية باعتبارها رابطة المسلمين ومصدر وحدتهم وكان للصهيونية العالمية دورها فى ذلك بما يصوره عبد الله النحل فى كتابه (الأنقى اليهودية فى معال الإسلام) يقول : تميز صراع الأنقى اليهودية مع الخلافة الإسلامية بطول مدته وبأن اللقات كانت قاتلة ، أدت إلى هدم هذا المصح الشاى الذى كان المسلمون يلتفون حوله ويعتبرونه رمز وحدتهم وقوتهم وهزيم وحرسهم ، وجهت الأنقى النظر إلى الأسنانه للشروع فى عمليات بث السموم قبل عشرات السنين من ظهور هر تسل نبي اليهودية والصهيونية منذ تكاثر اليهود فى تركيا بأعداد كبيرة على أنز طردم من أسبانيا فى القرن الخامس عام ١٤٩٢ بدأت اللداهات منذ عهد السلطان مراد الثانى ومن بعده السلطان العظيم محمد الفاتى عام ١٤٨١ م الذى اختاله طيبه اليهودى يعقوب باشا المعروف باسم (ميا. تر وجا كوب) باسم كما ثبت أن اغتيال السلطان سليمان القانونى وأحفاده الصغار قد دبته (فوريانو) اليهودية ، استمرت مؤمرات اليهود فى دوائر الحسك العثمانى أكثر من أربعمئة عام . وقد جاء ذلك نتيجة ظور الدعوة (المرتدون) وهم الذين تظاهروا بالإسلام بعد وصولهم من أسبانيا وتجمعهم فى سالونيك ، كذلك فقد عمدت الصليبية الحاكمة على الإسلام بعد ما رأت إمتداد رقة الإسلام ولاسيا بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان الفاتى وزحف الاسلام حتى أبواب فينا وأن وضعت الصليبية الحاكمة نفسها فى خدمة اليهودية العالمية لتسخرها رأس الأنقى اليهودية فى مساهمتها على تحقيق خطط الهدم والتخريب .

ومن أجل ذلك تحالفت قوى الصليبية الأوروبية مع دول حديثة هى بلغاريا ورومانيا والنمسا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا لمحاربة الدولة العثمانية وحرماتها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء وقد أدى الضغط الصليبي المسخر إلى تضيق رقة الاسلام فى أوروبا كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطة التى كانت تمتد من تركيا شمالا إلى حضرموت جنوبا ومن إيران شرقا إلى طنجة غربا فضاعت الجزائر عام ١٨٣٠ مصر دولة تاج السلطنة عام ١٨٨٢ ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب .

وقد أشار عبد الله التل إلى أنه كان من أخطر عمل الأفقي اليهودية بعد رفض السلطان عبد الحميد مطالب الصهيونية هي تلك الدعاية الفاجرة التي صورت الحكم في عاصمة الخلافة في أبشع صورة ، من قلب الخفائقي وإبراز المساويء وطمس للمحاسن ، وقد نجحت تلك الدعاية المضللة على أوروبا وفي العالم بأسره ، وأبرزت وحشية الأتراك وطمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس كذلك حركت غريزة الطمع الإستعماري لا يتلذذ أجزاء غنية من تركة الرجل اللرييض وقد صورت الدعاية اليهودية ( مدحت باشا ) اليهودي الماكر على أنه بطل من أبطال العالم وممته أبو الأحرار ومختر صنف أوروبا وإذاهتها لتمجيد مدحت باشا حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية وهو في حقيقة أمره يهودي متأمر على الإسلام والمسلمين وألة مخربة مؤذية ، وقد تعالت صيحات اليهودية العالمية حين عزله السلطان عبد الحميد ونفاه إلى الطائف واستثارت سفارات الغرب في الاستانة محتجة على قسوة السلطان عبد الحميد ومطالبته بالعفو عنه ، وحين أشعلت الأيدي الصهيونية الصليبية فتنة عام ١٨٦٠ وما صاحبها من مذابح بين الدروز والنصارى في سوريا ولبنان فجمعت الدعاية اليهودية في رمي للمستولية على الأتراك للمسلمين تمهيداً للحصول الصليبيين على امتيازات في ديار المسلمين بمحجة حماية النصارى ، ونجحت الدعاية اليهودية في إيقار صدر المسيحيين في أوروبا كلها حين زورت وقائع التاريخ المتعلقة بحرب البلقان وبخاصة الحرب مع البلغار وجعلت شعوب أوروبا تنادى لنصرة نصارى البلغار مع أن الحقيقة تشير إلى عكس ذلك فقد كان البلغار يبدؤون دائماً بالعدوان ويظهرون أحقادهم الدفينة ضد الإسلام ويبطشون بالمسلمين « ا . ه . » وهكذا نجد أن الإستعمار الغربي ( والبريطاني خاصة ) كان ينفذ مخططه ، وأن الروس كانوا ينفذون مخططه ، وأن الصهيونية كانت من وراء كل المخططات تنفذ مخططها السري الذي تعتبر به نفسها وريثة الإستعمار الغربي كله .

#### ( ٤ )

وإذا كانت القوى كلها متصارعة فيما بينها على ميراث ( دولة آل عثمان ) فإنها كانت متفقة على إزالة الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ، وكانت تعمل على استخدام « الدعوة » وهم اليهود الذين أقاموا في سالونيك منذ طردوا من أسبانيا وأهلنوا إسلامهم تقية وخداها ، في هذا السبيل ، يُدأَم : مدحت وختمهم مصعفي كمال . ومنذ بدأ مدحت حركة الاتحاد والترقي وحشد لها من رجال الحافل الماسونية والدعوة الكثيرون وتعددت المراحل حتى حكم الاتحاديون فيما بين عام ١٩٠٩ — ١٩١٨ ثم جاء السكاليون لينتموا هذه الرسالة بالقضاء على كل لون إسلامي أو عربي في تركيا ، ولقد احتفل الفكر الغربي بمصعفي كمال أتاتورك احتفاك شديدا وألف عنه مئات الكتب وأشادت به أهواء

للأورخين وأعتبرته واحداً من أفذاذ الأتراك لأنه قضى على الدولة العثمانية والخلافة وخذع المسلمين أول الأمر حتى مكن لنفسه ثم فصل بين السلطنة والخلافة ، وقد حكم تركيا منذ عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٨ حكماً ديكتاتورياً عنيفاً ، خلال خمسة عشر عاماً دون منازع أو معارض ، غير فيها كل شيء ، وأزال الواجهة الإسلامية لدولة الخلافة تماماً وذوب النظام التركي كله في أتون العلمانية والاممية العالمية .

ففي ٣ من آذار عام ١٩٢٤ ألغى منصب خليفة المسلمين ومنه ألغيت جميع مؤسسات التعليم الدينية في هاصمة الإسلام ثم أغلقت المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية وأصبح تعلم أصول الإسلام جريمة يعاقب عليها القانون التركي وألغى من بعد الحاكم الإسلامية في جميع أنحاء البلاد ( الشخصية والشرعية على السواء ) وبهذا قضى مصطفى كمال هلى أهم الأصول وللظاهر الإسلامية في تركيا ، ومن العجب أن العالم الاسلامى لم يحرك ساكناً إزاء هذا العدوان ، بل وجد في صحف مصر من يؤيد خطواته ويدعو إلى مثله في البلاد العربية ، ومضى أتاتورك يغير وجه البلاد بصورة جذرية من نظام الأسرة ، وتمدد الزوجات إعلان سفور للرأه وخروجها إلى الحافل وللراهن ، تحریم لبس العاربوش أو العمامة ، إقرار نظام الزواج للذنى ، وضع قوانين جديدة مقتبسة من القوانين السويسرية والألمانية والإيطالية تحمل محل للشرعية الإسلامية ، إلغاء مادة الدستور التى تعتبر الإسلام ديناً للدولة ، إدخال الحروف اللاتينية بدلا من الأحرف العربية ، ثم أصبح التعامل بالدين الإسلامى جريمة تواجه بأشد العقوبات .

ولكن تركيا تغيرت كثيراً بعد وفاة أتاتورك وأخذت تستعيد مسارها الإسلامى فى ببطء شديد وهى الآن بعد خمسين عاماً من إلغاء الخلافة تبدو وقد انتعشت روحها الإسلامية كذلك ، فإن العالم الإسلامى لم ينس هذه الشبهة الإسلامية وقد حملت كل الحركات الإسلامية على النص عليها والدعوة إلى تجديدها ، ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم أقام المسلمون عشرات المؤتمرات التى تدعو إلى الوحدة الإسلامية فى مصر وبا كستان والحجاز ودعا كثيرون إلى استبدال نظام الخلافة بنظام التضامن الإسلامى أو عصبة الأمم الشرقية ، وما تزال القوى الاستعمارية تحول دون تحقيق الخطوات الحاسمة للوحدة الإسلامية ، وهى تحاول أن تجد لها بدائل فى دعوات القوميات والوطنيات والاقليميات :  
ثم ماذا بعد سقوط الخلافة :

عند الغرب إلى إلغاء الخلافة كأقسى ما يمكن أن يوجه إلى العالم الإسلامى من ضربات ، لتزيق وحدته وجعله قطعاً متفرقة لا تلتئم مرة أخرى ، بعد أن أثار فسكرة القوميات الطورانية ، العربية ،

ودعوات الفرونية والفيليقية ، وكلها محاولات لتفريق الصف وتمزيق وحدة العالم الاسلامى وتعميق الخلاف بين العرب والمسلمين وبين العرب أنفسهم ، ولقد كانت توقعات الغرب أن القضاء على الخلافة سيكون خطوة للقضاء على الإسلام نفسه ، وأصبحت التجربة التركية الجديدة موضوعه أمام المسلمين والعرب كتجربة ناجحة وصفها لاملس المستشرق المتعصب بأنها الطريق الوحيد للنجاة من السقوط كان الظن كما وردت في كتابات الكثيرين أنه بعد سقوط الخلافة فإن الإسلام لن يعيش ، ولسكنهم دهشوا عندما استبدل المسلمون والعرب بالخلافة وحدات جديدة ومؤامرات لدهم الأخوة الاسلامية ولم يحدث شيء مما أثير من التوقعات فقد قبل المسلمون التحدى أما الآخرون فقد كانوا على وهم عندما شبهوا الخلافة بالبابوية في العالم المسيحى وقد أشار إلى ذلك لاملس حين قال يحدث إلغاء الخلافة شيئا من العقبات التى كانت يتوقعها داخل الإسلام وخارجه ، ذلك أن هؤلاء كانوا على وهم من تأثير الخلافة في العالم الاسلامى إذا كانوا يشبهونها من بعض وجوها بالبابوية في العالم المسيحى ، وقد هاش العالم الاسلامى فترات كثيرة في حياته الطويلة دون خليفة وعاش مع وجود هذه خلفاء ، وهكذا بعد مئوى سنوات على القرار السكالى بإلغاء الخلافة (آزارعام ١٩٢٤) ترى الإسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا غير أن الكثيرين فسكروا في تأليف هيئة ينزلونها منزلة الخلافة .

( ٢٤ )

## وصول روسيا إلى قلب العالم الإسلامى

( خامسا ) تحقق الدولة الروسية ( تنفيذ وصية بطرس الأكبر ) بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الإسلامى والزحف في اتجاه المياه الدافئة . وكان بطرس الأكبر المتوفى عام ١٧٢٥ م قد أوصى بما يحقق لروسيا انتزاع حصتها من تركة الإسلام الممنطة في الدولة العثمانية بما قاله على النحو التالى : « ينبغي الاقتراب من الأستانة والهند بقدر الإمكان لأن من يستولى على الأستانة قد أصبح قادراً على أن يستولى على الدنيا بأسرها فلا بد من موالاة الحرب مع الدولة العثمانية والدولة الايرانية == ( للمسلمين ) وتحصين البحر الأحمر وضبطه لبناء السفن الحربية ويجب الاستيلاء على بحر البلطيق والاسراع في إذلال إيران وإخضاعها للمرور فيها إلى خليج المعجم وبذلك نستطيع إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة بطريق سوريا والوصول منها إلى بلاد الهند مخزن الدنيا بأسرها فنستغنى من ذهب الكائرا » .

وقد بذل الروس أبان عصر القيصر جهداً ضخماً في تنفيذ هذه الوصية فأرخوا الدولة العثمانية وواصلوا الحملات عليها وكانت أشدها قبل وبعد مؤتمر برلين وهي التي استطاعت روسيا أن تحصل فيها على القرم، والأجزاء الأخرى. وقد توارثت الدولة البلشفية نفس الخطة وسارت فيها وقاتلت المجاهدين وضربتهم بنصف وضمت هذه الأراضي الإسلامية كلها إليها تحقيقاً لوصية بطرس الأكبر الذي لم يغيرها انتقال الدولة من القيصرية إلى الشيوعية. بل لعل الشيوعية كانت أشد مطمعا فقد أعلنت منذ اليوم الأول للثورة عام ١٩١٧ من خطة لجذب الدول الإسلامية إليها وتأييدها في مقاومة الاستعمار الغربي، كمحاولة لإخراج المسلمين من فك الأسد إلى ناب الدب والمعروف أنه منذ عام ١٧٣٦ شرعت الدولة الروسية فتاوى الأتراك العثمانيين وتمتدى على بلادهم وأخذت منهم (أو كزاكوف) و (أزوف) ثم امتدت يدها إلى بلاد القرم عام ١٧٨٣. فضلا عن أنها هاجمت ولايات الدانوب جملة مرات، وكانت تركيا نفسها فريسة جندها الثائرين المتمردين. وجاءت معاهدة برلين فأجازت لروسيا امتلاك قارس وباطوم، وعادت أطماع روسيا تتجدد مرة أخرى بعد أن أوقعتها فرنسا والتجارات بدخولها ضدها في حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٥) إلى الظهور باعتمادها على السلطة العثمانية في حرب عام ١٨٧٧ ومنذ حرب القرم عام ١٨٤٠ كشفت روسيا عن مطامعها ونيتها القديمة مجددة وصية بطرس الأكبر في انتزاع مناطق هامة من الدولة العثمانية، وكان الهجوم الروسي — كما قال بعض المؤرخون — ناقوساً دق على الباب العالي وأيقظ الشعور لديه بأن يعيش فقط على حساب النزاع القائم بين القوى الأوروبية فمنته مرة أخرى إرادة الاعتماد على النفس في الدفاع. فلما جاءت البلشفية: جددت أطماع بطرس وسارت في نفس الطريق وقد كان هدف روسيا الشيوعية هدم النفوذ الغربي في الأقطار الإسلامية وحرمان الدول الاستعمارية مما في يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية وقد ساعدها على ذلك مجاورتها لعدة شعوب إسلامية كبرى (الترك والفرس) فضلا عن المسلمين الداخلين تحت حكمها. ولذلك فإنها سرعان ما عقدت معاهدات مع تركيا وأفغانستان وقارس لدى أوسع، وكانت روسيا هي المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وهدم بلفور وكان ذلك العون أكبر أهمية من العون المادي الذي كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا.

ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية والصهيونية أثرها الكبير في الخط الذي سارت عليه روسيا من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى، وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا الماركسية في السيطرة على البلاد الإسلامية، وقد عمدت الشيوعية إلى تنفيذ خطط غاية في القوة والخطر في العالم الإسلامي في هذه المرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو: (أولا) التفارقة بين

الصهيونية واليهودية ، وإبراز أن الشيوعية والاشتراكية لا تدين للصهيونية بولاء أو تبعية .  
( ثانيا ) مقاومة الإسلام عن طريق التنكيت غير المباشر ، ولقد دعا جارودى فيلسوف الحزب  
الشيوى الفرنسى فى كتابه ( ماركسية القرن العشرين ) إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير  
الشبهات والخلافات فى داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون فى العالم الإسلامى . ( ثالثا ) وصف خصوم  
الشيوعية بالرجعيين عن طريق كون عاصف من الارهاب الفكرى . ( رابعا ) محاولة إغراء كل من  
فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وفقد كل مناهة فكرية وقدرة على التصدى والمجادلة . ( خامسا )  
تطويع الدين : الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية . وقد أشارت الصحف  
الغربية إلى ما أسمته الخط الرسمى الآسيوى عن طريق الإسلام : فقالت أن أوربا اليوم أمام خط أصفر  
جديد ، هذا الخط هو اتحاد روسيا وأقطار الشرق على دول الغرب وتنظيم قواها وتدريبها إلى أن  
يجيء اليوم الذى تجمع فيه جموعها لمهاجمة الغرب وليس هذا صحيحا فى جملته ولكن من وجهة  
النظر الإسلامية : إحكام خطة المؤامرة على العالم الإسلامى ومزقة بين القوى المختلفة الطامعة .

ولقد عمد مصطفى كمال فى حركته التى مزق بها الدولة والخلافة إلى الاستمانة بالدولة البولشفية  
التي أعانته على ذلك وساعدته كما ساعدته دول الغرب وفى مقدمتها إنجلترا وكان أقربها هامل هام  
فى هذه المعونة : وقد عقد مصطفى كمال مع لينين معاهدة حماية لضمان سلامة الأراضي التركية من  
العدوان وإعادة السيادة إلى جميع الأراضي التى كانت فى يد الدولة العثمانية . أما الروس فقد تحرروا فى  
السيطرة على الأجزاء التى احتلوها من اللطالبة بها وأقاموا أربع جمهوريات تحت النفوذ الشيوى :  
« أذربيجان — جورجيا — أرمينيا — داغستان » وعقد الروس مؤتمرا فى عام ١٩٢٠ فى مدينة  
باكو أطلقوا عليه اسم مؤتمر الشعوب الشرقية ، حضره ١٨٩١ مندوبا منهم مندوبين من الأتراك  
والفرس والأرمن والأكراد والهنود العرب وجاء فى هذا الخطاب قول الروس : إن الشيوعية  
الدولية ستعمل على تحرير جميع الشعوب الإسلامية ، ودعت هذه الشعوب إلى التعاون معها ثم قامت  
بعد ذلك بقليل بتلك الإغارة الدموية على الجمهوريات الإسلامية الخمس فقاتلت أهلها وامتنوت هليها  
بالقوة فى أسلوب وحشى أشد وحشية من أسلوب الاستعمار الغربى ، ذلك لأن الذين كانوا يحكمون  
روسيا فى أول هدها البلشفى كانوا من اليهود الصهيونيين الذين يخططون لمدى أوسع وكانت روسيا  
هى المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وعد بلفور وكان ذلك المعون أكبر أهمية من  
المعون للادى الذى كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا . ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية  
والصهيونية أثرها الكبير فى الخط الذى سارت عليه روسيا من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى ،

وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا الماركسية في السيطرة على البلاد الإسلامية ، وقد عمدت الشيوعية إلى تنفيذ مخطط غاية في القوة والخطر في العالم الإسلامي في هذه للرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو : ( أولاً ) التفرقة بين الصهيونية واليهودية ، وإبراز أن الشيوعية والاشتراكية لا تدين لله ، يونية بولاء أو تبعية . ( ثانياً ) مقاومة الإسلام عن طريق التكنيك غير المباشر ، ولقد دعا جارودي فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي في كتابه ( ماركسية القرن العشرين ) إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير الشبهات والخلافات في داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون في العالم الإسلامي . ( ثالثاً ) وصف خصوم الشيوعية بالرجعيين عن طريق لون عاصف من الإرهاب الفكري . ( رابعاً ) محاولة إغراء كل من فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وقد كل مناعة فكرية وقدرة على التصدي والمجادلة . ( خامساً ) تطويع الدين : الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية .

(سادساً) التقليل من شأن القيم الدينية بدهوى أنها مفاهيم هتيفة انتهت مهمتها منذ زمن بعيد لم تعد قادرة على مواجهة مشاكل التخلف . ( سابعا ) ركوب التيار القومي والوطني . ( هن الدكتور دسوقي أبظة مع التصرف ) . ولقد حاولت الشيوعية بعد أن دخلت في العالم الإسلامي إتخاذ لون من الخداع بالدعوة إلى الحياد المصطنع بالنسبة للدين مع حجب مفهوم الأصيل للدين بأنه أفيون الشعوب ، وما أرادت الشيوعية القول به هو ( الدين لله والدين لله والشيوعية للجميع ) وهذا قول محوم ، إذ أن الدين لله والمجتمعات لله والأمم لله وليس هناك شيء خارج عن هذا النظام الرباني الذي رسمه للبشرية ، وقد ارتفعت شعارات كاذبة مضللة تقول أنه لا تعارض بين الشيوعية والإسلام ، وهي تحاول « توحيد » الدين الإسلامي وإبعاده عن دائرة المقاومة للغزو الماركسي ، والإسلام لا يمكن تحييده ، كما جرت المحاولة لتحييد الأديان الأخرى ، ذلك لأن الإسلام ليس ديناً بمعنى العبادة أو اللاهوت فحسب ، بل الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع شامل كامل جامع والدين بمعنى العبادة جزء منه ولذلك فإن كل هذه المحاولات تريد أن تخدع من لا يفهمون الإسلام فهماً صحيحاً ، أما الإسلام فإنه قادراً دائماً على إعطاء البشرية في كل عصر وكل بيئة حلولاً كريمة سمحة لسكل قضاياهم ومشاكلهم وتحيدياتهم ومعضلاتهم على نحو أصدق وأعق وأكثر حيوية وسلامة من كل مناجات به الأيدولوجيات والدعوات والمذاهب البشرية المحدودة المضطربة التي سرعان ما يملوها الاضطراب ويحاول أصحابها تعديلهما بالخدق والاضافة . ولقد كانت التجربة الشيوعية مع العالم الإسلامي مزرية وماكرة وقائمة على التآمر وارتباط بالخطط الجندرية التي ترتبط بين الشيوعية والصهيونية ، ظهر هذا في كل الارتباطات

التي حدثت في أفريقيا وأندونيسيا ومصر البلاد العربية ، وبرز واضحاً في معارك ١٩٥٦ — ١٩٦٧ — ١٩٧٣ في مصر والعالم العربي : لقد كان الهدف هو تمكين إسرائيل من التقدم والسيطرة على أجزاء من العالم العربي ، والعمل على تدمير وحدة العرب وخطط ترابط العالم الاسلامي ، والقضاء على الفكرة الاسلامية نفسها لإثارة الشبهات من كل طريق للحيلولة دون تحقيق قيام مجتمع إسلامي أصيل وفق المنهج الاسلامي .

(٢٥)

## قوى الصهيونية والاستعمار والشيوعية في معركة الصراع حول عالم الاسلام

(١)

### الاستعمار والصهيونية

كانت القوة الربوية اليهودية ممثلة في رؤوس الأموال موجودة في إطار الاستعمار الغربي الزاحف على العالم الاسلامي ، وكانت واضحة في القروض قدمت إلى حكومات مصر وتونس وفي الاغراءات التي وجهت إلى الخليفة العثماني بهدف سيطرة الصهيونية العالمية اقتصادياً على كل ما تحتله الدول الكبرى من أرض وما تستولى عليه من مقدرات . وفي أول محاولة للاحتلال الغربي للعالم الاسلامي وهي محاولة نابليون كانت خطوة اللقاء والارتباط بين الاستعمار والصهيونية واضحة جلية . ولا ريب أن قيام اليهودية العالمية بإشغال نار الثورة الفرنسية كان مقدمة للسيطرة على مخططات المطامع الاستعمارية التي كانت قائمة منذ وقت بعيد وممثلة في القيام بحفر قناة السويس ، فلما سيطر نابليون تكاتف اليهود على الاستعانة به في تحقيق أغراضهم وجددوا عرض مشروع استعمار العالم من طريق إنشاء قناة السويس وقدموا عرضاً بأموالهم التي يضعونها تحت تصرف فرنسا مقابل أن تمنحهم فرنسا الأرض الفلسطينية : وقد أوجب نابليون بالخطبة وكتب لهم يدهوم إلى التجمع ( وأن يجمعوا الأموال فيبتاعوا ذلك الربع من مصر الذي يجاور برزخ السويس والبحر الأحمر ) . أما نحن الذي يقدمونه لنابليون — بعد الأموال — فهم أن يكونوا أداة تخريب واضطراب فإذا استطاعوا من هذا الطريق الدخول إلى عقر آسيا فإنهم إنما يحملون معهم الصناعة والفنون والعلوم الأوروبية ، هذا وأتهم



يقدمون إليك هنمرا استعماريا متينا ثابت الأركان قد يكون ضروريا كجما تقوم في آسيا مقام الامبراطورية الآخذة في الانحلال : امبراطورية العثمانيين ، ويقدم أم الغمانيات لبث الفوضى وإشمال الفتن وإحلال الأزمات لقضاء على الأتراك جملة واحدة ، وهندما رفع باراراس للمشروع إلى نابليون استصوب الفكرة واستعان بعملاء اليهود وخاناتهم على صياغة النداء وقد جاء فيه « أن الأمة التي ينظر أعداؤها إلى موطنكم الوراثة كغنيمة تقاسم وفق أهوائهم بضرية قلم في دوائرها تستعملها حربا لا هوادة فيها ولا مثل لها في التاريخ للدفاع عن كيائها فتناثر للذل الذي لحق بكم منذ ألف عام تقريبا — فإن هذه الأمة — ( أي الفرنسية ) تقدم لكم الآن على الرغم من جميع العقبات ، مهد إسرائيل ، ياورثة فلسطين الشرعيين ، إن فرنسا تنادىكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم واسترجاع ما فقد منكم ، أسرها فإن هذه اللحظة لن تعوض قبل آلاف السنين .

وهكذا منذ بدأ الاستعمار خطواته الأولى في السيطرة على عالم الاسلام كانت الصهيونية هي الأداة والعمول والرفيق بل والشريك : الغرب الاستعماري المسيحي بمخططة واليهود بأموالهم ومؤامرتهم الجاسوسية ليكروا أداة التخريب والفوضى . ولكن نابليون هزم عند أسوار هكا ولم يدخل فلسطين وتراجع اليهود عن خطتهم وإن كانوا قد سجلوا هذه الصيحة الباكورة التي جاءت بعدها خطط عام ١٩٠٧ عندما تقدموا للاستعمار البريطاني على أنهم الجسم الغريب للعازل بين المسلمين والعرب بين آسيا وأفريقيا ثم كانت خطتهم الناجحة مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى والتي كسبوا بها وهدد بلفور بعد أن هجزوا عن السيطرة على السلطان عبد الحميد فعزوه ، وسيطروا على خلفاء الاتحاديون الذين فتحوا لهم باب فلسطين :

وإذا كان الغرب لم يستعبد العالم الاسلامي إلا عن طريق القروض والربا والبنوك فإننا نجد أن الصهيونية كانت وراء كل هذه المحاولات المالية والمغريات لإقراض أصحاب الثروات حتى إذا سقطوا في أيديهم انتزعت منهم أرضهم وأموالهم ، وقد مرت هذه التجربة بعصر بعد عصر الاحتلال البريطاني وقدردت الإحصائيات أن المصريين الذين فقدوا ثرواتهم نتيجة المراهبة والمعاملة مع القروض اليهودية قد حقق في خلال عشر سنوات انقراض أكثر من ثلاثين في المائة من ثروة المسكيات العقارية وهي نسبة عالية تدل على مدى الظلم والفساد في أمور الأقراض وإجراءات انقراض المسكيات وفي السيطرة على أفريقيا كانت الصهيونية وراء الاستعمار وكانت الخطوة التي اتخذتها الصهيونية لأن تكون الجسم الغريب الذي يفصل بين آسيا وأفريقيا بعد المؤتمر الذي عقده وزير خارجية بريطانيا

عام ١٩٠٧ تدل على مؤشر الأحداث بعد ، وفي الحرب العالمية الأولى كانت قروض اليهود لفرنسا وإنجلترا عاملاً هاماً في انتصارها على الألمان ، وقد كان تصريح بلفور الذي قدمته بريطانيا لهم بمثابة هربون لهذا الدور الذي قاموا به والذي حقق النصر للحلفاء . ولقد كانت الصهيونية في كل مراحل الإستعمار الحديث أداته الفاعلة وقوته الضاربة وخاصة في المجال الاقتصادي وفتح المصارف وتوظيف ذهب أوروبا الذي كان يملكه اليهود في القروض وكذلك فتح الأسواق وبيع منتجات الترف الغربية لائق تدر قناطر الذهب الرأسمالية هناك وقد حرص الاستعمار بالإتفاق مع الصهيونية العالمية على السيطرة على الدول عن طريق أقراض أمرائها وحكوماتهم لتكبيهم بالنفوذ الأجنبي ، ومنها شق قناة السويس واستثمار المناجم وآبار البترول وتسخير موارد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف في وجه أى تصنيع حتى تظل البلاد سوقاً مضغوطة لتصرف منتجات الغرب .

ولقد كان من أقوى ما وصل إليه النفوذ الصهيوني مع الاستعمار هو الاستسلام له في وعد بلفور وإقامة الوطن القومي في فلسطين وتأييد روسيا وأمريكا لاسرائيل منذ الساعة الأولى لإعلانها وحماية قيامها بعد ذلك وإلى أبعد مدى . وكانت الصهيونية وواء الاستعمار في الصراع مع الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد وسحق الدولة العثمانية نفسها وهزيمتها وإسقاط الخلافة للوصول إلى فلسطين ، وعندما دخل الأورد الأتني القدس عام ١٩١٧ وأعلن انتهاء الحروب الصليبية كان اليهود يعلمون أنهم سيتسلمون القدس من الإستعمار .

(٢٦)

## الشيوعية والاستعمار

كان الروس قبل الشيوعية جزءاً من خطة الإستعمار التي شاركت بأكبر ما تستطيع من قوة للطامع في هدم الدولة العثمانية والسيطرة على أجزاء واسعة منها والقضاء على كل محاولات التحرر والاستعادة التي جاهد المسلمون بها في سبيل إقصاء نفوذ الروس عن بلادهم ، وكانت أروع صور المقاومة هي صورة الشيخ شامل الذي قام بحركته عام ١٨٠٣ في مقاومة الروس وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدون كانوا الذين تحت لوائه من مختلف القبائل والديار الإسلامية ، وقد أمضى تسعة وثلاثون عاماً متواصلة في ميدان الجهاد ، كبد الروس خلالها مئات الآلاف من القتلى وغرهمم بإتفاق الملايين الوفيرة من الأموال وكانت مقاومته ترمي إلى تحرير أمة تبلغ أربعين مليون نسمة من

يد الإستعمار الروسى الجائر . وقد جاء هذا الاتجاه من الروس تطبيقاً لوصية طاحنة من دبحارس الأكبر الذى كان يهدف فيها إلى القضاء على الدولة العثمانية والنفوذ الإسلامى فلما جاءت البلشفية وسيطرت على روسيا أرادت أن تسير فى نفس الطريق : طريق الطموح إلى السيطرة على أجزاء خطيرة من عالم الإسلام وهم له أشد عداوة من القيصرية ، ولكنهم خدعوا المسلمين بأساليب أدهوا بها أنهم ينصرون حركات التحرر من الإستعمار الغربى فقد أصدر ستالين ولينين فى ١٧ ديسمبر عام ١٩١٧ منشوراً يطمئن الشعوب الإسلامية على دينها وعاداتها وأديانهم وعاداتهم ومبادئهم وثقافتهم ومعاهدكم العلمية والأقومية مصونة من كل اعتداء ، أعتقدوا أن البلاشفة يدافعون عنكم وعن حقوق الشعوب التى تعيش فى روسيا كلها ، أعملوا على الانقلاب وجندوا الثورة وساعدوا حكومة البلاشفة أيها الرفاق ، أننا حين نرفع علمنا هذا إنما نعلن للشعوب المستعبدة فى روسيا شعار الحرية والاستقلال أيها المسلمون نحن ننتظر منكم معاوتكم المادية والأدبية ،

ولم يكن هذا إلا خداعاً : مثل خداع نابليون ثم دخول الأزهر بالخيول . ومثل خداع الأنجليكان الأتراك للعرب وللسوريين ومثل خداع لورنس للعرب . كل هذا كان يجرى فى وقت واحد ، ذلك أن البلشفية لم يكونوا أقل غدرًا وخسة فى أبريل عام ١٩١٨ أصدر لينين أمراً يزحف الجيوش الروسية على البلدان الإسلامية دون سابق إنذار فأخذت تمصّد المدن والقرى وتفكك بالشعب الأهزل الأمن دون تمييز ولم ينته عام ١٩١٨ إلا وجمهوريات (إيدل أورل) و (القوقاز) و (التركستان) قد غدت تحت حكم البلوشفوية المباشرة ، وفى عام ١٩٢٠ أتمت موسكو احتلال شبه جزيرة القرم وفى عام ١٩٢١ هجم الروس على جمهورية بخارى وشرعوا فى تطبيق أنظمتهم الشيوعية فألقوا الممتلكات وصادروا الأموال والثروات وألقوا التعليم الدينى واضطهدوا رجال الدين والزعماء والقادة وحولوا المساجد إلى دور اللهو ومكاتب لرجال الحزب الشيوعى . ولقد هوجمت شبه جزيرة القرم من البحر بستين ألف مقاتل ، ١٩١٨ واجتاز الجيش الشيوعى أراضي القرم لأول مرة ، وقد قاومهم السيد جعفر سيد أحمد ورجاله وصدوا جموعهم المتدفقة وسقطت العاصمة بسقوط رئيس الجمهورية جليبي جهان ووقع المفتى الكبير أسيراً فى يد الأعداء وهو يدافع عن العاصمة بجرأته العظيمة وقد ساقوه إلى الموت ومزقوه إرباً ومثلوا بجنته أشنع تمثيل .

وكان الروس يرون أن شبه جزيرة القرم هى مفتاح السيطرة لروسيا الجنوبية والبحر الأحمر وأن انتهوا من هذا الاستعمار الدموى ، حتى أخذوا يتجهون نحو إيران وأفغانستان وتركيا يعقدوا معها

مماهدات . وكانت دعوهم اغتداة إلى تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار الغربي ومساعدة الشعوب الإسلامية على تحقيق هدف الاستقلال ، هذا هو مدخل الشيوعية إلى العالم الإسلامي . ولقد كانت روسيا تستهدف وهي وليدة الصهيونية أن تضع العالم الإسلامي بين فكي السكاشة ، أما إلى الاستعمار الغربي الذي تسيطر عليه الصهيونية ، أو الشيوعية التي هي جزء من الصهيونية نفسها ، جاءوا بسحر كلمات منمقة وعبارات خادعة ووعود خلافة ، وقد انهاز إليها البعض بحكم الضغط الحربي وفريق استهوت به الوعود السكارية . وبدأت مرحلة من الصراع بين روسيا البلشفية من جهة والدول الاستعمارية من جهة أخرى استمر طويلا وإلى وقتنا هذا ، ويقول الباحثون أن هذا فصلا حديداً من مأساة قديمة قامت بها انكلترا وروسيا تلك التي شغلت تاريخ الشرق الأوسط من القرن الماضي ، حتى أوائل هذا القرن والتي أسفرت عام ١٩٠٧ عن اتفاق لم يطل أجله بين تلك الدولتين لتعيين المناطق الواقعة تحت نفوذ كل منهما . وقد تبين أن هدف روسيا البلشفية هو السعي لهدم النفوذ الاستعماري الغربي في القارة الآسيوية وحرمان الدول الغربية ما كان في يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية ، وهو في مواجهة عالم الإسلام ليس إلا استبدال استعمار بإستعمار أشد قسوة منه . وهو من هذا الطريق أخذت الشيوعية تشر أفسكارها في العالم الإسلامي ، وفي فلسطين وسوريا ومصر ظهرت أفسكار شيوعية بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق الصهيونية وأترياء اليهود في البلاد العربية وقد نشأت أحزاب شيوعية سرية في هذه المناطق كان هدفها :

- (١) تقويض الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . (٢) خلق جو من هدم الثقة بين العرب أنفسهم لمنع أي تسكفل بإسم الإسلام والتركيز على الدعاية على الخطر الصهيوني
- (٣) إذكاء العداوة بين الشعوب العربية وحكوماتها . (٤) إظهار الانحدار السوفيتي بظهور الحليف للعرب . ولقد كان للنحالف الذي قام أبان الحرب العالمية الثانية بين الاستعمار والشيوعية أثره في قدرتها على تكوين خلاياها داخل الأحزاب السياسية في البلاد العربية والإسلامية بما تمحق عنه بعد انتهاء الحرب العالمية من آثار خطيرة كانت تستهدف إسقاط البلاد العربية كلها في قبضة الشيوعية الدولية . ولا ريب أن ( الماركسية والشيوعية والبلشفية ) قد خدعت العالم الإسلامي كله حين أذهت أنها سواء أكانت نظاما أم دولة تستطيع أن تساعد البلاد في كفاح الاستعمار الغربي والصهيونية وذلك بادعاء الانحدار السوفيتي مناصرة حركات التحرر ومعاداتها للصهيونية والاستعمار فقد استطاعت روسيا أن تخفي حقيقة صلتها بالاستعمار وصلتها بالصهيونية وتخضع العرب والمسلمين بالنحالف معهم كصديق حميم لهم وعدو لأعدائهم ، وقد احتاج ذلك إلى وقت طويل حتى يكشف

العرب والمسلمون أن الشيوعية أهدى أعداء الإسلام والعالم الإسلامي وأن الاتحاد السوفيتي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية وهو وليدها. وحين ينكشف أن الماركسية في أصلها هي دعوة صهيونية وأن كبار مؤسسيها هم اليهود الذين هم أشد عداوة للإسلام وأهله لا يكفي هذا إزاء القلوب الغلف والعقول الصم لتحذر، ولكنهم لم تكشف الحقائق إلا يوم وجدت نفسها في ميدان القتال وقد صممت الشيوعية الماركسية السوفيتية أن لا تمكنهم من ضرب الصهيونية في فلسطين، واحتالت لتحطم خططهم وتفسدها بعشرات من الحيل.

( ٢٧ )

### بين الشيوعية والصهيونية

لم تعد الصلة بين الشيوعية موضع جدل كثير بعد أن تسربت في السنوات الأخيرة عشرات الوثائق التي تكشف هذه الحقيقة وتؤكددها، ولقد كشف هذه الحقيقة (فرانك برايتون) منذ سنوات طويلة في كتابه (الصهيونية والشيوعية) الذي يقول بالحرف: «إن الحقيقة الراهنة هي أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبهما واحد وهمايتهما واحدة وجوهرهما واحد والفئة التي تقوم عليهما من وراء الستار واحدة وما اختلافهما الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح في السعي إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت بالنجاح السكامل اتحدتا معاً للسيطرة على العالم. ولاهجرة بهذا الفارق الظاهر بين الشيوعية والصهيونية فيكون اليهودي شيوعياً أو صهيوبياً أو كليهما معاً. وكثيرون منهم كذلك — لا ينبغي كونه يهودياً وليست الصهيونية والشيوعية سوى مظهرين لقومية واحدة: هي القومية اليهودية التي لا تفناً تناوىء سائر العالم غير اليهودي وبقول (فرانك برايتون): الصهيونية والشيوعية مختلفان ظاهراً في ثلاث أمور:

- (١) التسمية: ففي الصهيونية تخصيص، وفي الشيوعية تعميم ليختار المرأ بينهما بحسب مزاجه.
- (٢) مراكز النشاط: مركز نشاط الصهيونية ما اصطلاح على تسميته بالغرب وتزعمه أمريكا (واشنطن) ومركز نشاط الشيوعية الشرق وتزعمه روسيا.

(٣) الأسلوب في العمل: للصهيونية تناجر بالمال وتدعم الهداية عند اللزوم والشيوعية تناجر بالهداية يدعمها المال عند الإقتضاء. . . . . ونجمع المصادر للوثوق بها جميعاً على أن الثورة الشيوعية قامت بتدبير اليهود وتخطيطهم، وكبار زعماء الشيوعية: ماركس ولينين وستالين وفورشيلوف

وبولوتوف كل هؤلاء وغيرهم من أصل يهودى أولهم زوجات يهوديات . وأن أهداف الصهيونية العالمية ، هى نفس أهداف الماركسية الاشتراكية ، أو الشيوعية الليلية ، كلاهما يسعى للسيطرة على العالم وتسخير اليهود : شعب الله المختار .

ويقول أفريكان هيبرو ( كبرى المجلات اليهودية فى أمريكا ) بتاريخ ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠ إن الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود وإنما قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل القلة اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ولسوف تعم للشيوعية العالم كله بسواعدهم ، ويقول موسى « الزعيم الإسرائيلى » : كل يهودى يعلم فى أعماق نفسه من كان أعظم وأحرصهم على صداقة ، أنه الجمهورية السوفيتية . ، ويقول : لا أستطيع أن أتصور يهودياً يقوم بدور العداء للاتحاد السوفيتى ومثل هذا اليهودى غير طبيعى وتشوبه لكل الحقائق .

ومن القرائن القوية والأدلة القاطعة على صلة الماركسية والشيوعية الوثيقة بالصهيونية العالمية واليهود أن كارل ماركس نفسه هو نفسه الخاخام الأكبر واليهودى الذى يمثل فى كل حياته جميع ما تنطوى عليه النفسية اليهودية من أحقاد وكراهية ورغبة فى الانتقام من البشرية كلها .

إذا نظرنا إلى خطوات الثورة الشيوعية الأولى وجدنا هذا السبب واضحاً وقائماً فى مختلف أوضاعها ، فإن مجلس الثورة الذى حكم روسيا بعد عام ١٩٧١ كان مكوناً من عشرة من الأعضاء من بينهم ستة من اليهود ، وأن ليمين وستالين من أصل يهودى وكان ستالين متزوجاً من يهودية وأن أربعة من أعضاء مجلس السوفيت الأعلى من اليهود وأن أنصار الشيوعية فى العالم معظمهم من أنصار الصهيونية وأن ٤٩٪ من المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية ، ولقد كانت روسيا السوفيتية هى أولى الدول بعد أمريكا التى اعترفت بقيام دولة إسرائيل . ولقد عرف اليهود لروسيا هذه المسكرمة وأعلنوها على لسان الكثير من زعمائهم .

ولقد رد اليهود لروسيا هذا الجليل ، بأن سلموها أسرار القنبلة الذرية التى كانت أمريكا وحدها هى التى تعرف أسرارها بعد الحرب العالمية الثانية ، هذه القنبلة التى كانت سبباً مباشراً لإنهاء الحرب مع اليابان بعد إلقاء اثنتين منهما على المدينتين اليابانيتين فى هروشيما وناجازاكي .

(٢)

وقد كشفت الوثائق التي ظهرت في السنوات الأخيرة آثاراً أبعد غوراً من حيث عمل الشيوعية لتحقيق أهداف الصهيونية في تدمير العالم والسيطرة عليه . ويشير الدكتور محمد هزت نصر الله في كتابه الثورة الاشتراكية ، إلى أن الشيوعية التي هاجمت جميع الأديان « وخاصة الإسلام » قد غضت الطرف عن اليهودية وسمحت لها بأن تمارس نشاطها الديني في الاتحاد السوفيتي وقال في تقرير ذلك لينين في تصريح له في ٨ أكتوبر عام ١٩١٧ : « إن حجر الزاوية في رأى كارل ماركس وإنجلترا في الدين هو قولها المأثور ( إن الدين أفيون الشعوب ) لقد كان رأى الماركسية على الدوام في الدين والمعاهد والكنائس والمساجد وكل نوع من أنواع المؤسسات الدينية أنها صدى للرجعية والبرجوازية لا هدف للأديان إلا الدافع من سياسة الاستقلال والتحذير وتشريع تصرفات الملوك التي يتخذها الرأسماليون نحو الطبقات السكادحة ، أما الاغراقات اليهودية وإن كانت لا تختلف عن باقي الأديان ولكن بقاءها لليهود البؤساء أمر ضروري للمحافظة على يهوديتهم حتى ينالوا حقهم ، ذلك لأن اليهود إذا نبذوا دينهم حينئذ يقيمون في الأقوام المجاورة لهم ويمرور الزمن يفقدون إسمائيليتهم ، وللمحافظة إسمائيل كجموعة كاملة ومتمحدة ، فالدين أمر ضروري لحياة الشعب اليهودي المختار ريثما ينالوا حقوقهم . ويقول الدكتور محمد هزت نصر الله : إن هذا التجاوز الشيوعي للدين اليهودي واستثنائه من مخطط محاربة الأديان يبرهن على أن الشيوعية إنما تعمل لتحقيق الهدف الصهيوني في السيطرة على العالم ابتداء من فلسطين العربية المسلمة ، فإذا كانت الحرية الدينية محرمة على المسلمين والمسيحيين ومباحة لليهود ، فإن الأجيال المسلمة والمسيحية القادمة ستصبح بلا دين ولا تعبد غير المادة وذلك بخلاف الأجيال اليهودية التي تستطيع عندئذ أن تسيطر على الشعوب الناهضة التي كانت مسلمة أو مسيحية فيما مضى .

وهكذا يعترف لينين باليهود كشعب مختار ، ويكشف عن هذه الصلة العضوية بين الماركسية والصهيونية ولعل هذا هو الذي دفع الحكومة السوفيتية في بداية حكم لينين عام ١٩١٧ إلى إصدار مجلة قرارات كان أهمها إعلان التأييد الكامل لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين ، يقول الدكتور نصر الله ، وإذا سألنا ما هي حقوق اليهود فالجواب — ماركسيا وصهيونيا — تنفيذ مرامي وأهداف الأيدولوجية اليهودية القائمة على فكرة « الشعب المختار » والدافعة بالتالي لاعتبار : أولاً : أن الأرض وما فيها ميراث لبني إسرائيل ، تلزمهم مشيئة الرب بأن يستولوا عليها . ثانياً : أن كل

شريعة غير شريعة بني إسرائيل فهي فاسدة . ثالثاً : أن كل سلطة على وجه الأرض غير سلطتهم هي مفتعلة . رابعاً أن كل شعب حر ، غير شعبهم ، قابض على ذروة من السلطة غاضب . خامساً : أن الرب حرم عليهم الشفقة والرحمة . وهكذا أصبح حل المشكلة اليهودية يستلزم أن يسيطر اليهود على جميع الناس ويرى كاي مردخاي (كاول ماركس) كما يجب أن يسمى نفسه : أن المشكلة اليهودية لا تنحل نهائياً إلا بالتحويل الاشتراكي للعالم بأسره ، وإذابة الأديان والقوميات في بوتقة الماركسية أو الاشتراكية العلمية أو التقدمية الثورية ، (سما ما شئت) ذلك أن المشكلة اليهودية قائمة تحت ضغط الاعتقاد القائل بأن اليهود هم « شعب الله المختار » وبما أن التقدمية الثورية فكر وحركة وهدف يعمل لاختضاع المجتمع البشري كله إلى (قيادة طليعية) اشتراكية ماركسية واحدة ترتبط بها كل الحركات الماركسية في العالم ، يرى اليهود أنهم أصلح البشر بصفة كونهم شعب الله المختار لاحتلال مركز القيادة الطليعية التي هي الاسم المصري لعقيدة الشعب المختار اليهودية . ولقد استطاع المسكر اليهودي أن يؤسس الحركة الماركسية لنتم السيطرة اليهودية على العالم بالتحويل الاشتراكي وأن يؤسس الحركة الصهيونية لتتولى عملية مخادعة العالم (وخاصة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية) بأن هذه الحركة لا صلة لها بالشيوعية العالمية وأنها تعمل لصالح الاستعمار الغربي وخدمة استراتيجية الدولية العامة وبذلك تتمكن من إحراز عطفه ومساعدته على إقامة الوطن القومي اليهودي ، ثم الالتفاف — بعد تحقيق ذلك ، — للانقضاض على الغرب وتحقيق السيادة اليهودية العالمية بالسيطرة — ماركسية وصهيونية — على العالم كله ، وهكذا يتحقق التصور اليهودي للعقيدة اليهودية ، وما هذا الخلاف الظاهر بين الاتحاد السوفيتي — قاعدة العمل الماركسي — والصهيونية سوى « التكتيك المرحلي » الذي تتطلبه خطة السيطرة اليهودية في الوقت الراهن . وطبيعي أن السيطرة اليهودية لا يمكن أن تتم إلا بعد تهديم العالم الاسلامي وإضعاف الشعوب الإسلامية .

### (٣)

تجمعت في السنوات الأخيرة دلائل كثيرة تكشف تعاقب الماركسية والصهيونية : يقول الدكتور أحمد هوف : إن لينين كان من مخططي الصهيونية ومن واضعي بروتوكولات حكماء صهيون وأنه حضر مؤتمر الحكماء عام ١٨٩٧ في سويسرا وأن الثورة الدولية ليست من طبقة البروليتاريا بل من طبقة اليهود وأن أول رئيس في دولة روسيا هو الزعيم اليهودي : كليمنيف وتلاه الراهب اليهودي صفرولوف وتبعهما زينويف



وقال : إن الذين يحكمون روسيا الآن ليسوا الروس ولكن حفنة من اليهود الارهابيين العالمين وما زال الشعب الروسى يعيش فى فقر وحرمان يقتنى قادة السكرملين السيارات الأمريكية الفارهة ويعيشون حياة القياصرة . ويقول هاريمان لوهر اليهودى فى كتابه الصهيونية ودورها فى السياسات العالمية : أنه منذ ظهور الحركة الصهيونية فقد ظهرت داخلها اتجاهات كثيرة تحاول توحيد فكرة الصهيونية والى اشتراكية وفى عام ١٩٠٠ ظهرت هذه الاتجاهات مع أول جماعة صهيونية أنشئت فى روسيا وهى ( عمال صهيون ) ففى داخلها ظهرت هذه ميارات اشتراكية متنوعة مختلفة ، وقد ظهر أول وأهم هذه التيارات على يد ( سيركين ) وبورشوف ولقد حاول هذا الأخير الجمع بين الماركسية والصهيونية . والمعروف أن التخطيط الاستعماري الصهيوني قد ختم تقسيم ميادين العمل وفرض على الشيوعية أن تملن فى فترات متفاوتة خلافها مع الصهيونية وقد عملت الشيوعية على كسب خصوم الصهيونية بإعلان هذه تصريحات نسب بعضها إلى لينين وإلى غيره من بعده تصف الصهيونية بأنها حركة رجعية هدوانية عنصرية وذلك فى سبيل « حجب » الرابطة المضوية بينهما ولتلهين أولياء الأنظمة الرأسمالية الغربية الذى يسير الصهيونية فى خطهم .

#### ( ٤ )

ومن خداع الصهيونية تلك التفرقة الوهمية بين اليهودية والصهيونية يقول : الكاتب اليهودى ( دافيد بن أهارون ) فى كتابه الصراع بين اليهودية والصهيونية : إن وجود إسرائيل هو تحقيق أمل قديم وأن هذا المشور أو الأمل ينبعث من الدين اليهودى نفسه ، ويرغم ذلك فإن هناك قلة من اليهود يؤمنون بأن وجود الدولة اليهودية أمر يناقض التقاليد اليهودية ويجب نكرانه وعدم الاعتداد به ، إن معظم اليهود يلتصقون بالمبادئ الصهيونية بنفس الطريقة التى عبد بها يهود النوراة المعجل الذهبي أيام النبي موسى عندما خرج بهم من مصر إلى صحراء سيناء . إن الأقلية من اليهود الذين يعيشون فى معظم أرجاء مدينة القدس يطلقون على أنفسهم « حراس المدينة » ويؤمنون بعمق فى كتابات الحاخامات التى كتبت هب القرون . إن حراس المدينة الذين يحيطون بالقدس إحاطة السوار بالمعصم من الصهاينة المتعصبين لا حق لهم فى امتلاك مدينة بها مقدسات أديان أخرى من حق أصحابها أن يجبروا إليها كلما أرادوا ذلك . ولقد خلق اليهود لأنفسهم مشكلة فوق مشاكلهم التى عانوا منها خلال الألفى سنة بتأسيسهم دولة إسرائيل التى لم تترف علىنا رايات السلام مادام يديرها جماعة من الزعماء الذين احترفوا السياسة وأحلوها محل الدين الذى تلاشت تعاليمه بفضى السنين وأصبح من مبادئهم الاختصاب والنمور والإخلال بالنظم العامة وعبادة القوة وحب السيطرة والظهور .

(٥)

وقد كان بين الصهيونية والدولة الروسية صلات قديمة وعميقة وبعيدة الأثر في التاريخ منذ قفى الروس على دولتهم المسماة دولة (الجزر) وبينوا الانتقام لهم وذلك بالأعداد الخطين متسكاملين ما : الشيوعية الماركسية والصهيونية وتشير الوقائع إلى أن المؤتمر الصهيونى فى بال عام ١٩٠٢ أصدر واحدة من أخطر البروتوكولات هى : « إن آخر حصن للعالم وآخر ملجأ من العاصفة هى روسيا فإيمانها مازال جيا ( بالمسيحية ) وأمبراطورها مازال قائماً كحاميتها المؤكد » . يقول الأستاذ على منير مراد : وكان الهدف هو التخلص من هذا الأمبراطور وتدمير ذلك الحصن فأكد لما قرره الحفل الماسونى الأمريكى فى نهاية القرن التاسع عشر وهو الذى يدير الماسونية السكونية وكل أعضائه من كبار اليهود ، فقد تقرر اتفاق مليار دولار فى سبيل قيام ثورة فى روسيا تطيح بالأمبراطور وتسمى الدولة للشيوعية غير عابئين من تضحية أعداد ضخمة من يهود روسيا ، فالشيوعية هى جناح أيدولوجى للصهيونية العالمية ، وإن الثورة الشيوعية فى حقيقةها هى ثورة لليهود ضد القيصيرية وما يظهران لفكر اليهودى الذى يجبر بالمداء السافر للشعوب ، وما أن نجح الخطة الصهيونية بقيام الثورة الشيوعية حتى كان اليهود هم القائمون بالاغتيالات السياسية .

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى التى قدم فيها زعماء اليهود المساعدات المالية الضخمة إلى الحلفاء فى سبيل انتصارهم على ألمانيا وصدر وعد بلفور المشتهر بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين رداً للجميل كانت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي قد استولت على فلسطين وبدأت هجرة اليهود إلى فلسطين وساعدتهم الإدارة البريطانية على شراء الأرض للتوسيع فى إقامة المستوطنات اليهودية والمستعمرات وكانت الشيوعية التى استقرت فى روسيا والتى تزعمها اليهود تعمل على مساعدة اليهود الروس للهجرة إلى فلسطين ، لذلك لم يكن غريباً أن يدفع يهود أمريكا روزنات لمديد المعونة إلى روسيا الشيوعية للقضاء على هذا غير الشيوعى فى الحرب العالمية الثانية لأنه عدو اليهود الأول وما أن تخلت بريطانيا عن إدارتها فى فلسطين عام ١٩٤٨ حتى أعلن قيام دولة إسرائيل وكان الاتحاد السوفيتى هو ثاى دولة تسارع إلى الاعتراف بإسرائيل بعد الولايات المتحدة كما كانت الأسلحة التى أرسلت إليها من تشكوسلوفاكيا والدول الشيوعية فى أوروبا لها أكبر الأثر صعود القوات الإسرائيلية فى وجه الدول العربية التى كانت تسمى لشراء الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية بعد أن امتنعت دول الغرب عن بيع السلاح لها .

(٢)

## التقاء الشيوعية والغرب تحت ظل الصهيونية

يقول كودمين كوهين : أن اسم ترونسكي ورتشيلد يمثلان توجهات العقلية اليهودية : ترونسكي علم الشيوعية ووروتشيلد علم الغرب الرأسمالي . وتكشف التحولات الأخيرة عن تلاقى الشيوعية والرأسمالية تحت ظل الصهيونية وخدمتها ، بل أن هناك تقارباً واضحاً اليوم بين المذهبين : الديمقراطي الليبرالي الغربي والماركسي الشيوعي ، وقد بدأت تقوم التقاطعات بينهما في كتابات سارتر وماركوز وغيرهما وذلك مقدمة لانصهار الأول منهما في الثاني ، وقد جرت محاولات عديدة لربط الفرويدية الغربية بالماركسية قام بها ( سارتر نفسه قبل ماركوز ) وهناك محاولات متعددة لهذا اللقاء ، لعل أخطرها هو أن الفلسفة المادية هي الجذر الأصيل الآن لكلا الفكرين الماركسي والليبرالي وأن التفكير المادي للتاريخ الذي قال به ماركس هو أساس من أساس الفكر الغربي الليبرالي . وأن هذا التحول إنما يجري لتحقيق الرؤيا المستقبلية التي تعد بروتوكولات صهيون للعالم لما عن كل طريق :

(١) عن طريق الأدب والقصة والشعر الجديد . (٢) عن طريق المدرسة الاجتماعية ونظريات النفس والأخلاق . (٣) عن طريق التكامل بين الماركسية من ناحية والفرويدية والوجودية من ناحية أخرى : ونحن نرى الصورة تتحرك في أفق الفكر الإسلامي العربي اليوم بعد أن اتسع نطاق الدعوات الماركسية والوجودية والفرويدية بها وكذلك مذهب المدرسة الاجتماعية دوركايم وكل دعاة هذه المذاهب من اليهود الصهيونيين ولمم علاقات واضحة وعميقة بالحركة التي قام بها هرتزل ، بل أن الخططات التي تقوم بها الرأسمالية الغربية في محاصرة بعض الأقطار الشرقية واضطهادها بعنف إنما تهدف إلى أن تلتقي هذه الدول بنفسها في أحضان الشيوعية ولو كانت الرأسمالية الغربية تريد أن تحررها من الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية التي تمر بها لأنفقت هذه الأموال لأعلى حربها بل على سلمها ، وتجربة أندونيسيا وفيتنام والشرق الأوسط وغيرها يمكن أن تدرس في هذا المجال . كذلك فإن المسيحية الآن تستخدم لخدمة أهداف الصهيونية اليهودية وأن القرارات التي أصدرتها المجامع المسيحية سواء الكاثوليكية والبروتستانتية إنما هي خطوات على نفس الطريق وأن كل حركات التبشير المسيحي الآن في العالم الإسلامي محتواه بالنوراة والوعد المقدس وهو ما يعتنقه البروتستانتية وتقوم به ، بل أن الجماعات والإرساليات الغربية الموجودة في العالم الإسلامي ( وفي بعض البلدان العربية ) وخاصة التابع منها للبروتستانتية فإنها تعمل في خدمة الصهيونية ومن أجل الملاحق عنها

والمعروف أن اليهود قد وضعوا آراء التلمود في نظريات ومناهج ومذاهب عالمية ، في إطار العلمانية والمادية ، وذلك لخداع العالم كله عن هوية هذه المذاهب ولفرضها على الجامعات والصحافة والنظم الاجتماعية .

(٣٨)

## عالم الغرب اليوم إزاء الإسلام

(١)

### تمزق الفكر الغربي

إن القوى الطامعة في السيطرة على العالم اليوم تقف في وجه الإسلام من ناحيتين : تقف في وجهه من ناحية نمائه واتساعه وانتشاره وتمسكه من الحصول على ثرواته وقوته واستعادة مكانه الطبيعي فوق سطح الأرض فتحاول ما تستطيع تمزيق هذه النهضة ووضع الحواجز والمعوقات في طريقها وتبديد هذه الثروة بتوجيهها وجهة الاستهلاك والترف والفساد . والحيلولة دون انطلاقة المتفوق البشري والنمو السكاني بإذاعة دهوات الانفجار السكاني والتهديد بأن النمو البشري سوف لا يجد مادة العيش ، وانتشار دعايات تهديد القتل والإعسار عليها محافظة الاثرياء أصحاب الملايين على ثرواتهم ، ومكانتهم ، وحق تظل الأمة الإسلامية فقيرة عاجزة عن السيطرة على مقدراتها الطبيعية التي تستجيب بها أرضها وبلادها ، ونهب هذه الثروات وترك الفتات لأهلها . كذلك فإن هذه القوى الطامعة في السيطرة تسد الطريق على الإسلام حتى لا يزحف سواء إلى أقطار آسيا وأفريقيا حيث الحشد البشري الضخم الواسع المنعطف إلى الدين الحق وإلى أوروبا والأمريكيتين اللتين تنطلقان إلى منهج حياة وأيدلوجية جديدة ترضى النفس الإنسانية وتحقق الأمن النفسي بعد أن هجرت هذه المناهج والأيدلوجيات عن أن تحقق لها شيئاً . وليس سوى الإسلام قادر على هذا العمل وهو بالغه بقوة (الله) الحق الذي يمثل ارتباطاً بالفطرة والعلم ونواميس الكون والحياة والمجتمعات وبالله بإرادة الله الذي سيرى البشر آياته حتى يعلمون أن دينه هو الحق . والغرب يعلم تماماً أن منهج التجريب الاسلامي هو الذي صاغ الحضارة الغربية ومع ذلك فقد هاش الغرب قروناً متطاولة يفكر لهذه الحقيقة ولا يجد أهله القدرة على الاعتراف بها واليوم وهو يرى الحياة الاجتماعية الغربية وقد فسدت واضطربت وأن

المناهج والأيدولوجيات التي وضعها خلال أربعة قرون لم تحقق شيئاً ، يعلم أن الاسلام يستطيع أن يعطيه إن شاء الأمن النفسى والمجتمع الأمثل ولكن ما زالت الحوائل تحول بينه وبين إقرار هذا الرأى والاعتناع به وإنا لنجد عشرات من الباحثين قد أشاروا إلى حيرة الغرب وتجزئه ، ومنهم من أشار إلى الاسلام هو الأمل المرتجى ولكن القوى الطامعة فى السيطرة ما تزال تمس فى الاسلام منافساً خطيراً لها ولذلك فهم يضره فى فكره وتثير عليه حرباً قاسية عن طريق الاستشراق حتى لا يصل إلى أهل الغرب على نحو صحيح ، وتقعد على أهله فى بلادها ، والمهاجرين إليها من بلاد الاسلام ، حتى لا يشكوا صورة تأخذ بألباب أهل الغرب الذين يتطلعون الآن إلى منقذ .

وما تزال اليهودية الصهيونية التلمودية تحتوى الفكر الغربى المسيحى والفكر النصارى جميعاً وتسيطر على الإنسانيات المتمثلة فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع ، فإذا كان علماء الغرب المسيحيون قد قاموا على هذه المعطيات العلمية التجريبية فى مجال الطبعة والكيمياء والفلك وغيرها ، فإن التلموديون اليهود الذين لم يشتركوا فى هذا الإنجاز إلا بقدر ضئيل ، هم اليوم يحاولون من طريق العلوم الإنسانية والسجود التى يقدمونها من خلالها أن يسيطروا على الفكر البشرى كله وأن يحنوه لإفساد المجتمع الغربى إفساداً يحول بينه وبين القدرة على تاقى أى عطاء جديد . إن الغرب ( باستثناءه المنصرى على المسلمين العرب وبتمصبه على الإسلام وبسيطرة اليهودية التلمودية ) يعمل على محاصرة الإسلام والعالم الإسلامى بأكثر من قوة من قوى التغريب والغزو ممن يسيطرون على مراكز القوة فى العالم وفى قلب الاسلام ومن ذلك نجد أن الحركة إلى اليقظة ومنها إلى النهضة تسير فى ببطء شديد حتى لتكاد تنمحس طريقها وإنما كلما انطلقت إلى هدف جرت المحاولة لتعطيمه أو إخماده قبل أن يحقق غايته .

ولقد كان من أكبر ما حمل لواءه الغزو التلمودى الصهيونى إثارة مشاعر الغرب على الاسلام بالقول بأنه الدين الوحيد الخطر على العالم الغربى فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية . إذ إنها جميعها ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها وهى فى نفس الوقت أقل من المسيحية رقياً أما الاسلام فهو كما يسمونه - دين متحرك زاحف وهو يمتد بنفسه بلا أية قوة مساعدة وهذا وجه الخطر فيه . ولقد حرص الغرب بقواه الثلاثة ( الاستعمار والصهيونية والشيوعية ) على مواجهة حركة اليقظة منذ يومها الأول ، حتى لا تقوى على حمل لواء الإسلام ولكن هذه المواجهة استطاعت أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ومن بين ضرباته وأن يحقق تقدماً فى مجال

الحرية الوطنية والوحدة وفي مجال انتشار الاسلام وتصحيح مفاهيمه . وإذا كان الغرب قد أعلن بأنه لا يقبل مزاحمة الاسلام له في أوروبا وقاومه من الجبهتين على هذا النحو من العنف . فإن الغرب كان حريصاً إلى التسلل إلى عالم الاسلام تحت اسم السيطرة والتسلط ، يبدو هذا واضحاً في قصص أولئك الذين عمدوا منذ وقت بعيد إلى التسلل إلى العالم الإسلامي فمنهم من تسال إلى الحرم المكي ومنهم من تسال إلى الأزهر ، ومنهم من عمل في مجال الآثار ، كل هذا ليضمروا هذا العالم الاسلامي تحت نظرم وتقديرهم ويقيموا وسائل غزوهم على أسس ثابتة ومعلومات يأخذونها من أهل الأوطان بغير حق ، أو أن ينقلوا هذا التراث من المساجد القديمة والزوايا ليسيّطروا به على الفكر الاسلامي فيلشروا منه ما يشاءون ويحببوا ما يريدون ، ولقد روت الصحف قصص كثيرين من هؤلاء منهم برخارت الذي وصف بأنه أولى أوربي مسيحي يدخل إلى الحرم المكي آمنًا مطمئناً ويشارك المسلمين حجهم وصيامهم وصلاتهم وقيامهم ثم يخرج من مكة ليكتب أول وصف من شاهد عيان الأماكن الاسلامية ينشر في العالم الأوربي عام ١٨٢٩ تحت عنوان « رحلات في بلاد العرب تصف الأماكن الحجازية التي يعتبروها الحمديون مقدسة » وواضح من طريقة العرض كما يقول الأستاذ محمد جابر الانصاري الذي نقلنا عنه : إن برخارت لم يكن مسلماً صادقاً على الاطلاق وأنه كان ينظر بالاسلام طوال الوقت فتحقيقاً لغرضه الذي جاء من أجله وإن سوء ظن احوالي التركي به كان في محله ، برخارت أول من مهد الطريق لذلك الرحيل الطويل من المستشرقين والمستشارين الذي أدعوا حب الاسلام كستار يخفي أغراضهم :

وبعد أن أنهى برخارت زيارته الأماكن المقدسة توجه إلى مصر حيث أعطى رجال القنصلية البريطانية ما أرادوه من معلومات وأخذ منهم ما أرادوه من مال بناء على تعاملات لندن للتخطيط لاكتشافه الثاني وإذا كانت رحلته الأولى قد تمت في إطار الاهتمام البريطاني ببلاد العرب وأماكنها بعيدة عن بذور الاهتمامات اليهودية المسيحية الأولى بفلسطين وبأرض التوراة والنبي والميعاد ، فقد قرر برخارت اكتشاف الطريق الصحراوي الذي سار فيه موسى وقومه من بني إسرائيل عندما خرجوا من أرض مصر وذهبوا — عبر صحراء سيناء — إلى فلسطين بجحاش من أرض الميعاد . وقد أنهى برخارت هذه المهمة في حزيران عام ١٨١٦ ويتساءل الباحث هل كان يخطط بلا وعي للطريق المعاكس الذي سوف يتبعه الاسرائيليون من أرض الميعاد إلى مصر في حزيران عام ١٩٦٧ . وفي عام ١٨١٧ شرع برخارت في الإعداد لرحلته الثالثة في جنوب الصحراء الكبرى لاكتشاف منابع نهر النيجر . وهكذا نجد جولته زهر المستشرق اليهودي من بعد يقدم القاهرة ويجاور في الأزهر

ويكتب أسوأ ما كتب مستشرق من الاسلام ونجد لورنس يقدم في تقيده للبحث عن طريق موسى  
ثم يكون بعد ذلك حامل لواء المعركة الفاصلة بين العرب والترك حيث خرض المسلمين العرب على  
الاقتتال لحساب الصهيونية العالمية .

يقول محمد جابر الأنصاري : ليس مهما ما قاله برخارت وما فعله بل المهم أن نرى كيف كان  
العرب يدرس أمورنا من كتب ، ويصل إلى قدس أقداسنا رغبة في معرفة مواطن القوة والضعف  
ورغبة في إدراك الحقيقة ، لا حبا في الحقيقة . ولكن من أجل استخدامها المصالحه ، بل أنه لم يبدأ  
زحفه السياس إلا بعد أن درس ونقب وأكتشف وقيم . هكذا نجد أن الغرب لا يكف عن العمل ،  
ولا يكف عن هرولة كل أسباب التقدم على جبهة الاسلام ، وعلامات هذه المؤامرة قائمة في كل  
الخطوات ، ففرييون الذين هزموا في الحروب الصليبية ينتظرون ثمانية قرون ليحجم من يقول :  
هانحن قد هدنا بإصلاح الدين أو يقول الآخر : الآن انتهت الحروب الصليبية : ولا يعني هذا في  
الحقيقة إلا أن يقول : هذه هي الحرب الصليبية التاسعة التي انتصرت بعد هزيمة لويس التاسع .

## ( ٢ )

وفي مواجهة كل توسع إسلامي نجد المحاولات المبررة من أجل القضاء على كل ما يحصل الاسلام  
عليه من تقدم نجد تلك الخطط الماكرة التي تقوم بها حركة التبشير في عالم الاسلام وفي أفريقيا وجنوب  
شرق آسيا بالذات حيث ينمو الاسلام هناك نمواً كبيراً وتحاول الكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا  
محاولات واسعة في سبيل توقيف نمو الاسلام . يقول لورنس اليكو في بحث له : في عام ١٩٥٥  
ذكرت صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون أن السلطات التبشيرية في روما كانت تأمل في تحويل شعب  
أفريقيا السوداء إلى المسيحية في مديسة عشر عاما ، أما صحيفة لأكرو وهي صحيفة كاثوليكية  
فرنسية فقد خفضت هذه الفترة إلا أن الأحداث في عالم المستعمرات بما في ذلك أفريقيا فقد تطورت  
بأسرع مما كان متوقفاً . ويذكر الباحث أنه في القرن لأول من العصر الاسلامي ( السابع الميلادي )  
أخرج الإسلام المسيحية من شمال أفريقيا كلها بسرعة مذهلة ، ولعله يرى أن هلى المسيحية أن تستعيد  
الآن هذه الأرض . ولكن الباحث يؤكد أن هذا العمل أن لن يتحقق لأن الرسائل تعمل تحت  
لواء الاحتلال وأن الاسلام يعمل تحت لواء التحرر وأن النضال ضد الاستعمار يشن دائماً تحت راية  
الاسلام ، وأن القساوسة والأساقفة دائماً يصاحبون القوا الأجنبيّة الغازية حتى أن الكاثوليكية  
في أفريقيا ينظر إليها على أنها دين المستعمر ، ويقول بيجييرو في كتابه ثورة الشعوب الملونة عام

١٩٥٦ : أن هناك أنجاساً عاماً للنظر إلى المسيحية كأخر بقايا الاستعمار وأن المبشرين يشاركون البيض الآخرين مصيرهم وقد أشار أرتاردت أنه في عام ١٩٥٤ وجد في جنوب أفريقيا ١٢٨٦ كنيسة يقطن إليها ٧٦١ ألف شخص وقال أحد الفلاحين الأوربيين المستوطنين لأهل البلاد : ذات يوم كانت الأرض من نصيبنا وكان الأنجيل من نصيبكم أما اليوم فقد انعكست الآية . ويقول : لقد تشكلت السياسة الإستعمارية للكاتوليكية في القرن الخامس عشر كجزء لا يتجزأ من سياسة الفوز التي كانت تتبعها أسبانيا والبرتغال . وإن أفريقيا قارة مستعمرة وفي مدى ثلاثة قرون قام مجتمع الدعوة للعقيدة وهو جهاز الإرساليات ، التابع للفاثيكات بنفطية القارة بشبكة من الإرساليات ، هذا المجتمع الذي يعمل لحسابه ٣٠٠ ألف شخص يتلقى الإعانات من الدول الأوروبية وذلك لإقطاعات شائعة . وفي كثير من المستعمرات نجد أن الكنيسة هي أحد ملاك الأرض الكبير ويقدر ما يصل إليها به ١٤ مليون دولار سنوياً برغم أنه لا يوجد في أفريقيا ما يزيد على ٢٠ مليون كاثوليكي . ويقول لويس جيليه عضو المجتمع العلمي الفرنسي : لقد أهلنت الكنيسة المملاء على الإسلام وأهله ومعت في ذلك زماناً طويلاً ، وكان رهبانها والقائمون بالأمر فيها يعلمون العلم كله بقيمة الإسلام والحضارة الإسلامية والعلم العربي وكانهم كانوا يمدون إلكار ذلك لونا من التقوى والتدين . فمن ألوان هذا الأفكار حملة رهبان الدومنيكان على ابن سينا وابن رشد وتصويرهما في هيئة تعبر عن انتصار القيس توما الأكويني عليهما ، والمراد بذلك القول بانتصار المسيحية على الإسلام وموقف الكنيسة في هذا يفيض بنكران الجليل والجرأة على الحق . ويقول لورينشي إليكو : إن الحرب العالمية الأولى كانت السياسة الاستعمارية تنفي بالنسبة للفاثيكات غزو المستعمرات وزرع المسيحية كأن الاحتلال الأجنبي يعتبر شيئاً خالداً وكان تحويل السكان المحليين إلى المسيحية وهو أمر لم يجعله صعباً إلا منافسة الإسلام — ينظر إليه على مسألة زمن .

ونجد في الجزء الثالث من كتاب رأس المال الذي كتبه ماركس وصف للأدلوب المستثمر الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية في تجنيد الرجال الذين يعملون لحسابها ، وأشار الباحث إلى النظرة الماركسية المادية التي احتضنتها الكنيسة عن طريق ( باتريس لومومبا ، وكوامي نكراما ) وهم أول من أطلق شعار العلماني : علينا أولاً أن ننجح المملوكات على الأرض . ويشير بيير روندو في كتابه « مصير النصر في الشرق » إلى أناس حماية الأقليات وطرد الغريبيون أقداً بهم في عالم الإسلام ، وأن الإسلام لم يضطهد أهل الكنتار وأنه أدل على تسامح المسلمين من السماح لهم بالاحتفاظ بنهايا كلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلام في الوقت الذي أقرت في الكنيسة في حرب



أوروبا ينحطيم كل وجود المسلمين في أوروبا. ويقول موديس كرزويه : في موسوعته : تاريخ الحضارات العام : ظهر الاسلام المسيحي والنجي والاسيوى بسمو تعاليه ولاسيما بنظرته إلى الله بعيداً عن الحلولية والثنية والاشراك وأن نظرية التعدد قد وقفت دوماً حجر عثرة لدى العقول وحالت دون اعتناق الناس لها أو دون استمرار من أحد القول بها . وعلى العكس من ذلك جاءت عقيدة الاسلام تنطلق عقوبة على مفهوم وحدانية الله فالله هو الكائن الحى الأبدى الأزلى السرمدى ، وهذا الشعور بوحداية الله تعمل في تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن .

وبينا نجد عشرات من المفكرين المستنيرين يفهمون الاسلام الان في أوروبا وبالرغم من تلك الأراء العاصفة التى تواجه التفسيرات الغربية للدين نجد القوى المصادمة للحق تجدد من حملتها للإسلام ولا تنوقف عن إثارة الشبهات حوله . ومع ذلك فالتناجد مثلاً (أونا، ولو) في بحشه عن المسيحية يحاول أن يكشف وجهة نظر العقل المستنير في ضوء العلم لبعض التفسيرات التى وضعها الرهبان والأخبار التى لم تكن أساساً من الدين المنزل على سيدنا عيسى ومع ذلك فهناك قضايا كثيرة في حاجة إلى بحث ومنها قضية « الخطيئة الأولى » وهناك مسألة الصراع بين الكنيسة الغربية والقوى الشيوعية للنامية المسيطرة على أجزاء كثيرة من أوروبا، ومن وجهة نظر الاسلام فإن السيد المسيح هو رسول الله وكليمه وخاتم رسله إلى بنى إسرائيل جاء مكملًا لرسالات أنبياء بنى إسرائيل : تورا موسى ، وزبور داود ، وانجيل عيسى ، كلها متصلة ببعضها وأن المسيح عيسى بن مريم لم يصلب ولم يقتل ولكن رفعه الله إليه ، وإن خطيئة آدم ليست خطيئة لأحد سواه ، وقد تاب الله عليه منها ، وعفاه عنه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، والمسلمون يؤمنون بوحدة الدين من نوح إلى محمد ووحدة الرسالة « قولوا آمنا بالله وما أنزلنا إلينا » وإن سيدنا عيسى جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعده أسمة أحمد .

والمسلمون يؤمنون بكل أنبياء الله وبكل كتبه المنزلة . ولا يقر الاسلام فكرة ( الأبوة ) يفصل بين الألوهية والنبوة وبين النبوة والبشرية وقد أشار أرنولد توينبى ( ج ٣ مخمير دراسة لتاريخ ص ١٦٧ ) إلى تحول المسيحية إلى فكرة الإله الفيور وتساءل لماذا قبلت المسيحية الغربية هذه الفكرة اليهودية الأصل ولقد استظاهت الصهيونية في العصر الحديث احتواء الفكر الغربى لىسجى وكان أخطر ما استظاهت في ذلك هو الايمان بفكرة محرقة هي : وعد الله لليهود وهو في الحقيقة وعد الله لإبراهيم عليه السلام ولأبنائه من بعده ( اسمايل وإسحق ) وأنه ليس قادراً

على أبناء إسرائيل وحدهم كما كتب ذلك لليهود في توراتهم التي حرفوها أبان مجي بابل . ومن ذلك ما يذكره توينبي : من أن إله اليهود : هو ( يهوه ) من سماته الغضب والقسوة والبطش وهدم النساءح ويعنى توينبي أن الغربيين تحت ظل تفسيراتهم الخاطئة للمسيحية قد وأموا بين فكرتين متنافستين : الأولى فكرة البطش وهدم النساءح اليهوديتان ، والثانية فكرة المحبة والنساءح التي يقوم عليها دهائم المسيحية الإصلية وأن الوجه الذي عرفه الناس عنها في ظل الاستعمار والتبشير الذي انطلق خلال هذه السنوات المائة الأخيرة وهن طريق الربا والمصارف هو الوجه الاول الدخيل الذي احذرت به الصهيونية العالمية أنقى وأصفى ما في المسيحية من عناصر . وإذا كان الغرب قد بدأ من المعركة الإسلامية الأصلية : فكرة التجريب فإنه قد تحول كثيراً إلى المفهوم الاجتماعي والسياسي للتلود الصهيونية وفرضت عليه فكرة العلمانية . يقول الكونت كاثيانى : من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية هن طريق غير مباشر خدمات جلى إلى المسيحية إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أى دليل على نهضتها — أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدينة العرب والعجم ، فماذا يكون مصير غربي آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة أو لم تحمل النهضة البروتستانتية التي ظهرت هلى الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في أهوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة هن الآباء وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد .

ويقول الكونت كاثيانى أن النضال هو من ناحية واحدة ، أما ناحية المسلمين فشكلها سلام ورحمة وتكريم للمسيح وأمه ودينه المنزل واعتراف وتجاوز هن كل خلاف ، أما النضال فهو من الذين لا يريدون للإسلام فى أهله ولا فى أرضه أن يبقى ، أولئك دعاة الاستعمار والصهيونية والشيوعية . وأن المسلمون لراغبون إلى التلاقى فى مواجهة أخطأ المادية والشيوعية والإلحاد ولسكنهم يرون أن هوامل التبشير والغزو الثقافى لما تتوقف من الجانب الآخر . وقد أشار العلامة أبو الأهل المودوى إلى مثل هذه المعانى حين خوطب فى مساهى الالتقاء بين الأديان فقال أن المسلمين مازالو يتأذون مما يشنه على الإسلام بعض العلماء والكتاب والمبشرين والمستشرقين على سيدنا محمد ﷺ وعلى القرآن والإسلام ، وهى حملات تقوم على افتراءات واتهامات تدمى القلوب وتمس الكرامات .

بينما يراهم المسلمون كل المراعاة الأدب والتكريم في شأن مريم وهبى عليهما السلام ويعتبرون من وجهة العقيدة الإسلامية كل كلمة تنال من كرامتهما أو تنافي مكانتهما كقراً وأنتم لا تجدوا ولا مثالا واحداً أن مسلماً قد ارتكب ما ينافي الأدب في شأن سيدنا المسيح وأمه الصديقة عليهما السلام ونحن إن كنا لا نعتقد في آلهية المسيح ابن مريم ، إلا أننا نؤمن بنبوته عليه السلام لإيماننا بنبوة محمد ﷺ ولا يكون أحد مسلماً حتى يؤمن بالمسيح وغيره من الأنبياء عليهم السلام كما أننا لا نعتبر القرآن فقط كتاباً منزلاً من الله تعالى بل نعتبر كذلك التوراة والانجيل مما أنزل الله . ولا يتفكر أحد من المسلمين في إهانة هذه الكتب المقدسة . وإن المسلمين اليوم وإن كانوا لا يعرفون يكون الكتاب المقدس في صورته الحالية وحيا منزلاً من الله بأجمعهم بيد أنهم يعتقدون بدون ما ريب أن فيه ما نزل من الله تعالى ولذلك فإن أخواننا المسيحيين لم يجدوا مجالاً للشكوى من أننا قد ارتكبنا إهانة أنبيائهم أو كتبهم المقدسة ( والخطاب هنا موجه إلى بابا روما ) والعكس من ذلك فإننا لا نزال ننال منهم منذ قرون ضروباً من الأذى فيما يشن كتابهم وخطبائهم من الهجوم العنيف على ديننا الكريم وعلى كتابنا المقدس وعلى ديننا الخفيف ، ذلك لأن هذه الدعاية غير الصحيحة تبذر في قلوب عامة المسيحيين أنفسهم بذور الكراهية والاحتقار المسلمين .

كذلك فإن ما تقوم به البعثات المسيحية والمبشرون المسيحيون الغربيون منذ مدة طويلة في نشر الديانة المسيحية في العالم الإسلامي هي أيضاً مما يأخذ المسلمون على أخوانهم المسيحيين ، ذلك لأن المبشرين المسيحيين لم يقتصرُوا على التبشير فقط بل جاوزوا هذا الحد واختاروا الوسائل الأخرى التي ليست من وسائل التبشير في حقيقة الأمر بل هي من وسائل الضغط السياسي والأطماع الاقتصادي والمدم الخلق والعقائد التي لا يقر من فيه مسك من العقل بكونها وسائل تزيهة للتبليغ عن الدين . أنهم في معظم الأقطار الأفريقية حرّموا المسلمين من التعليم بمعاونة من القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم على وجه كل من لا يعتنق الديانة المسيحية أو لا يختار لنفسه الاسم المسيحي بدلاً من اسمه الإسلامي على الأقل . وأن الأقلية المسيحية ذات النفوذ التي خلقت بهذه الطريقة هي التي تسيطر اليوم من النواحي السياسية أو العسكرية والاقتصادية على كثير من الدول الأفريقية التي معظم سكانها المسلمين . وأشار الأستاذ المودوي إلى سبب آخر يحول دون تلاقى الإسلام مع الغرب : فقال إن هناك شعور عام يسود المسلمين نحو العالم المسيحي هو أن العالم المسيحي يكن حقداً شديداً بالنسبة للإسلام والمسلمين والتجارب التي تمر عليها من حين إلى آخر تؤكد هذا الشعور وتعمقه . ومنها ما شوهد أخيراً في الحرب التي اندلعت بين العرب وإسرائيل فإن الارتياح الذي أعرب عنه معظم البلاد

الأوربية والأمريكية بمناسبة إنتصار إسرائيل على العرب ترك في قلوب المسلمين وفي سائر الدنيا أثرًا أليماً وجرحاً لا يندمل ولا تسكاد نجد بلدًا من البلاد الإسلامية إلا وتراه يعتبر ما أبداه العالم المسيحي من سرور وارتياح هلنا يوم انتصار إسرائيل على العرب ظاهرة الحقد والعداء الذين يضمروها المسيحيون في قلوبهم للإسلام والمسلمين . بل أن للعالم المسيحي هو المسئول عن العدوان السافر الفاشم على فلسطين ، بل هو الذي خلق وطنًا جديدًا للشعب الأجنبي في داخل وطن آمن مطمئن وهو الذي ساعد على جعل هذا الوطن المصطنع دولة مستقلة وهو الذي أمد هذه الدولة العدوانية بالدون المالى والسلاح الحربى وجعلها تتمكن من تطبيق خطتها التوسعية وما قد نرى العالم المسيحي يفرق في غمرة الفرح والابتهاج والافتزاز لما حقق لهذه الدولة من انتصارات ، إلخ .

### ( ٣ )

وإننا لنجد أن الصهيونية التلودية التي سيطرت على الفكر الغربى في أوروبا وأمريكا قد استطاعت أن تجند كل المؤسسات الغربية لغايتها فالكنيسة البروتستانتية تؤمن بنبؤة إسرائيل الباطلة وترى لها حقاً في العودة إلى فلسطين ، عن طريق ما استطاعت الصهيونية أن تعمل في سبيل فرض هذه السيطرة على دوائر المعارف ومناهج المدارس . بل إن خملط التبشير المسيحي الغربى في العالم الإسلامى إنما تجرى في إطار الاحتواء الصهيونى فهى ليست دعوة للمسيحية وحدها ولكنها في الحقيقة دعوة لإحياء الفكر التلودى : بمقائمه ونظرياته ومفاهيمه . ويقف كثير من كتاب الغرب في وجه هذه المحاولة الخطيرة لاحتواء الفكر الغربى المسيحي وخاصة بتطويقه بمفاهيم العلوم الانسانية في النفس والأخلاق والاجتماع عن طريق المدرسة الفرنسية ( دور كايم ، لينى بريل ) وغيرهما . ومن طريق الماركسية والوجودية والفرويدية ( سارتر ، فرويد ، ماركس ) وكلها نظريات وأيدولوجيات لا تمثل الفكر المسيحي الأصيل وإنما تمثل الفكر الوثنى المادى الذى ارتبطت فيه التلودية الصهيونية بالفكر الهيلينى اليونانى القديم .

ونجد في كتابات أونوموتو في كتابه احتضار للمسيحية أو كتابات كولن ولسون عن اللامتنى وغيره محاولة لدفع هذا الخطر ومحاولة لإيجاد تيار فكرى مسيحي مختلف ومعارض للغزو التلودى لفكر الغربى بل أن تلك الدراسة الضخمة التي قام بها ( تومبي ) إنما كانت دقاً من المسيحية الغربية باعتبارها هي التي أنشئت الحضارة الحاضرة ، في وجه حملة ( شبنجلر ) وماركس اليهوديين عليها والذين أعلنوا سقوطها وهزيمتها . ويقرر أومانو : إن للمسيحية لا علاقة لها بالأنظمة السياسية

والاقتصادية. وإن المسيحية عاجزة على أن تحمل مشاكل الفقر والغنى أو توزيع الثروات ويمادى أوتومانو جميع الأنظمة البلشفية ويناصر أعداء الثورة الروسية ، ويرى أن البلشفية قد استبدلت ماوكس بالمسيح ودمتويفسكى ببولس والأخوة كرامازوف بأعمال الرسل ويرفض كل محاولة للتقريب بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية المنطقية ويرفض الاستشهاد فى سبيل المبادئ السياسية لأن ذلك إيمان بالأصنام ويرى أن المسيحية تحتضر عندما تتحول إلى حياة إجتماعية أو حركة سياسية أو مدنية والمسيحية عنده لا يمكن إيصاها للآخرين : فهى شيء فردى محض ، كما يستحيل أن تدخل الدين فى سياسة الحزب أو المعرفة الإنسانية فى علم الاجتماع أو علم الآثار ويرى أن الدين أقرب إلى التجربة الصوفية والأسطورة الشعبية ويرى أنه من المستحيل أن تتحول إلى قانون أو تشريع ويركز على أن الدين ( أى المسيحية ) أساساً يقوم على مصالحة الفرد لا مصلحة الجماعة . ومجتمع المسيحية يتكون من مجموعة من الأفراد المتمزجين . ويتصر أوتامونو الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات وبراه علاقة بين الانسان والله لا بين الانسان والانسان الآخر . وعنده أن الديمقراطية المسيحية خرافة وإن الاشتراكية المسيحية خرافة ، وإن المسيح لم يتحدث من المملوكة الفردية إثباتاً أو نفيًا . ويرفض أوتامونو أن يتحول الدين إلى حضارة . وبالجملة فإنه يرى أن المسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا حتى بالسما ، وبالمثل الأعلى للمسيحى عند انامونو هو لراهب وهو يرى أن الدهوى تفصل الدين عند الدولة فى القرن العشرين فى البلاد المسيحية دعوة تقدمية بعد أن استغل الدين لمصلحة الطبقات المتميزة من أمراء ونبل وأشراف .

هذا موجز محاولة « أوتامو » وهى تعارض الفكر الغربى القائم الآن وتغزله عن المسيحية تماماً ، وتؤكد فكرة الانشطارية التى أقامتها التفسيرات المسيحية فى الغرب بين الدين والدولة ، وهى ما حاول تلبعض نقلها إلى أفق المجتمع الاسلامى . ويرى الدكتور الفاروقى فى كتابه الممل المعاصرة : إن اليهود كانوا من وراء هذه الخطة فهى التى حققت لهم الخروج من الجيتو : يقول : علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية فى التنظيم السياسى والاجتماعى إذ أن إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية لا على أساس الدين بل على أساس وجودهم فى الوطن . ويقول الدكتور الفاروقى : إن المسيحى الأوروبى قد قسم حياته إلى دوائر ، وجعل بينها سدوداً تمنع أى اتصال وتجربى الحياة فى هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجربى فى الدوائر الأخرى فالمائلة والأخلاق

الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلاً فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادئ الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد والواقع ليست العلمانية سوى الإقرار بأن هناك مبدأ يشمل حياة الإنسان بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأ الخاص .

وهكذا نجد أن الفكر الغربي قد تبلبل تحت تأثير الاحتواء الصهيوني فاشترطاً ، وخلفت عليه للمادية ، وسيطرت للنزاهة الماركسية والفرويدية والوجودية والمادية والإباحية على درجات وحلقات . وقد جاء ذلك نتيجة صراع طويل المدى بين اليهودية والمسيحية في أفق الفكر الغربي وكانت للفكر المسيحي محاولات لدفع أخطار اليهودية النملودية وتمثل في عشرات من التفسيرات وفي مقدمتها ما كتبه مارتين لوتر في كتابه ( كذب اليهود ) الذي ألفه قبل عام ١٥٤٦م وهو يمثل مدى اتساع الصراع بين المسيحية واليهودية في أوروبا ، وقد رد هذا الصراع إلى سيدين . ( أولاً ) : التناقض الذي لا حل له بين النظرة اليهودية والنظرة المسيحية في موضوع السيد المسيح فاليهود لم يؤمنوا به وما صدقوا برسائله بينما الإيمان به والتصديق برسائله هو أساس الريانة للمسيحية . ( ثانياً ) : من ناحية دينوية رغم إمكانية ربطها بمعتقدات اليهود الدينية وهي ناحية حساسة . وفي مقدمة القضايا التي كانت موضوع الخلاف : قضية الربا والاستثمار اليهودي بالحياة المالية في أوروبا إذ يظهر أن حب اليهود للمال واهتمامهم عليه كمصعب أساسي لسيرتهم الحياتية نحو تحقيق أهدافهم بالنشاط ليس قضية هابرة ولا مبالغ فيها وليست حديثة العهد . وقد كشفت هذه الدراسة عن عشرات الأدلة لعاناة المواطن العادي في أوروبا من الجشع اليهودي الذي كان مجسداً إذ ذاك في الربا وحده وما تنزل قضية اتهام اليهود بالتحريض على صلب المسيح وتبرئتهم من هذا التحريض موضع دراسات عن طريق المحافل الكنيسية والمؤلفات والكتب لم تنوقف منذ ذلك الوقت البعيد . ولقد استغلت اليهودية الصهيونية في أوروبا : نيتشه وريتان وعشرات غيره في الهجوم على المسيحية وعلى السيد المسيح ، وحاول الفكر المسيحي رد هذا الهجوم بتفسير نيتشه مثلاً تفسيراً مسيحياً في المحادثة التي قام بها المسيحي ( بادبرز ) حين حاول أن يجعل من كتابات نيتشه تفسيراً مسيحياً واحياً ، وأن هدف نيتشه كان هو إنقاذ المسيحية من ألد أهدائها . ولست أدري كيف يمكن تبرير إعلان نيتشه كان مريضاً مرضاً عضواً في المنع أدى به إلى الشلل ، وإلى الجنون .

وبحاول توينبي في كتابه « المسيحية من أديان العالم » أن يواجه أخطار الاحتواء اليهودي التلمودي الصهيوني الذي وقعت المسيحية الغربية والفكر المسيحي الغربي في برائته حين يقول : أن

أعظم إنجاز قدمتها التلمودية هما : هديون للمسيحية وهما الشيوعية والقومية : يقول أن الشيوعية والقومية هما العدوين اللذان إذ هما شكلان مختلفان لوضع قاسد إلا وهو عبادة الإنسان لنفسه ، وقال إن العالم كله متفرب ، وسئل تويعي ماذا تسكره في القومية قال : الانعصب الذي يصيح بكثير من القيم الإنسانية ويشير للفن والحروب : والمعروف أنه عندما اختلف العلماء النجرييون في أوروبا مع الكنيسة وتفسيراتها للأرض والسكون ، قامت محاكم التفتيش بمعاينة العلماء واضطهاد هؤلاء الذين بلغوا ثلاثمائة ألف في بعض التقديرات وقد أحرق منهم ٣٢ ألف أحياء وكان منهم العالم الطبيعي برونو والعالم جاليليو .

وبدأ العداء بين العلم والدين وكان في الإمكان حصره في دائرة التفسيرات المغلوطة ولكن اليهودية التلمودية عمدت هذا الخلاف وجعلته نهائيا ، وأثارت على الكنيسة حملة عاصفة وطرحته الفكر المادي ، القائم على سيادة الحصن الحصين وسيطرة العقل على الدين وأخذت تحتوى كل النظريات العلمية لتفسر بها في دائرة الإلحاد كما فعلت بالنسبة لنظرية دارون حين نقات مفهوم التطور من المجال البيولوجي إلى مجال الاجتماع وحين طرحت مفاهيم التفسير الاقتصادي والتفسير الجنسي للتاريخ وبرز أكبر عمليين : ماركس : الذي يقول : إن تاريخ العالم هو تاريخ البحث عن الطعام . فرويد : الذي يقول : إن الفرائز هي التي تحكم الإنسان والروح لا وجود لها .

وجاءت بروتوكولات صهيون لتؤكد هذا الانحياز وتفسره حين قالت : لقد رتبنا نجاح دارون وماركس وتيتشة بالترويج لأرائهم وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر ( غير اليهودي ) واضح لنا بكل تأكيد . والواقع أن الدين الذي دخل المعركة ليس دين الله ولكنه تفسيرات بولس وإن صراع العقل مع الدين هو صراع الفكر البشري مع تفسيرات الكنيسة وإن دوافع هذا الصراع كله هي السيطرة الصهيونية التلمودية على المجتمع والفكر الأوروبيين الغربيين مقدمة للسيطرة على البشرية كلها .

(٢٩)

## فساد المجتمع الغربي

إذا كان الفكر العربي قد اضطربت طريقه فلا بد أن يكون من نتيجة ذلك فساد المجتمع الغربي نفسه . لقد وجد الغرب في التفسيرات التي أقيمت إليه من العقيدة مالا يرضى النفس المتطلعة إلى الاقتناع والایمان وجاءت نهضة العلم فوقفت أمام كثير من المسلمات لتنظر إليها نظرة العقل فلم يجدوها مرضية للنفس أو مؤامة لفطرة فكان عليها أن تضطرب بين وثلية الأهریق، وتلودية اليهود، وإباحية الجوسية وغيرها من آثار الفكر للبشرى المضطرب، وكان الإسلام قد جاء ليعطيها المفهوم الأصیل والطریق الناصع، ولكنها قبلت الفكر التجريبي الإسلامی ورفضت مفاهيم العقيدة في النفس والأخلاق والمجتمع، فضلت طريقها ولم يحقق لها التقدم العلمی مما كانت تنطلق إليه من سلامة المجتمع أو الأمن النفسی . ثم جاءت لتحاصر عالم الإسلام وتحتويه، بعد أن سيطرت عليه إقتصاديا وعسكريا وسياسيا، وحملت معها كل هذه النظريات والأيدولوجيات لضرب به هذه القوة المؤمنة بالله التي تعيش عقيدتها ومنهجها رغبة في إحتوائها ومحاصرتها وتذويبها في آثون الأممیة والعالمیة بحيث تقضى على مقدراتها وقيمها جميعاً . وكان على المسلمين والعرب أن يعلموا أن الحضارة الغربية التي بدأت بالتجريب الإسلامی قد انتهت اليوم بشيء من التوتر والتمزق والعنف والإباحة التلودية، ما يهدد بسقوط الحضارة ويضع المجتمع الغربي كله في نفس الوضع الذي عرفه من قبل بمجتمع الحضارة الرومانية في أبان عظمتها مقدمة لاندحارها وتخطيمها وإنهيارها . وحق أن يقول كريسى موريسون رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم :

لسوف تنتهى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين، ولسوف يتحول النظام إلى فوضى وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماك وتوف يتفشى الشر في كل مكان، إن الحاجة ماحة أن تقوى صلتننا وهلاقتنا بالله . وما يقوله كرلى موريسون اليوم قائله منذ بضعة وثلاثين عاما ( بيتان ) رئيس جمهورية فرنسا في بيانه الذي خاطب به الأمة الفرنسية موضحا أسباب هزيمتها في الحرب الثمانية حین قال : لقد أنت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملات والهو ماشيدته روح التضحية وإلى أدهوكم قبل كل شيء أن تهتموا بأخلاقكم ( ٥ يوليو عام ١٩٤٠ ) ويتساءل الكس كاريل : هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة ؟ ويجب فيقول : إن معارفنا العلمیة في الزمن الحاضر غير وافية فنحن نعرف



كثيراً عن الحياة ولكن لانعرف كثيراً من أنفسنا . عاجزون عن الملازمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكى الذى خلقناه ، والباحث على ذلك خطأ قديم عندما فرقوا بين السكم والنوع وهى بالأول طرتى العلم المبني عليه وكان انتصاره باهراً ، لقد حصرنا مهمهم فى السكم وأهملوا السكيف . فحاستهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى هوالم الطبيعية والرياضة والسكيماء وكان خطأ جاليلو فى التفرقة بين خواص السكم وخواص السكيف وخطأ ديكرت فى انفصل بين الأشياء المادية والأشياء الروحية والاهتمام بالجسم دون العقل هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق التى أنضت إلى انتصار العلم وأنحطاط الانسان وأن منفذو العلم يجب أن يتوفروا على دراسة الانسان من ناحية السكم والنوع وما عليهم دراسة العقل الانسانى وهو المجهول العظيم . أن تقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الأمراض قد تم على حساب النمو العقلى والعقل لا ينحصر فى أساليب التفكير بل يمتد إلى الدين والتصوف والجمال والروحانية ، ولقد صدرت فى أوروبا وأمريكا فى السنوات الأخيرة مئات الكتب أو عشرات الألوف وكلها تتحدث عن السر والخفاء والسحر والقوى الهائلة التى يحرك الانسان دون أن يكون له سلطان عليها إلا إذا عرف سرها يقول السكاتب : إن هناك مشكلات كبرى تحطم وتمزق الضمير والوعى فى أوروبا وأمريكا . إن هذه الشعوب تتمزق وأن الحياة قاسية ولا مفر من الاستمرار فيها وهناك من يهرب منها ومن بين أشكال الهرب : الإدمان والإسراف فى الأكل والشرب والجنس والجريمة وإن الانسان فى أوروبا وأمريكا رغم كل هذا التقدم العلمى لا يزال حائراً أو ان يجهد العلم قاضياً على راحته وعن إسماعيل ورغم مئات الملايين ، وألوف الملايين فى كل مكان فإن الانسان يشعر أنه وحده وإن وحدته تنأ كد كلما وجد الناس من حوله ، إن الانسان الحديث هذه إحساس أنه ليس مالمسك لنفسه ، وأنه مسلوب الإرادة ، إن قوة أخرى تتحكم فيه وإن هذه القوة قد أوجدته .

وهكذا يضطرب الإنسان الغربى لأنه فقد الدين الذى كان يملكه وعجز عن أن يصل إلى الحق لأنه لا يستطيع أن يتجاوز عقبة الهوى والشهوات والمطامع ، ( أفلا أقبح العقبة ) إلى الحق الواضح فى الإسلام . ومع ذلك فهو يريد أن يحتوى الإسلام وأهله وأن يفسد هذا الدين الحق بالشبهات والسموم التى مازال يثيرها لا يتوقف حتى يضع المسلمين فى مناطق الأمية والعلمية والعلمانية التى سقطت فى هونها وعجز عن إخراج نفسه منها . وهو يدعى أنه يستطيع أن يعطى ، وماذا يعطى ، هذه التكنولوجيا التى كان للمسلمين فضل بناء أساسها وقواعدها ، وهى ملك العالم كله ، أما أسلوب العيش الذى يرضاه لنفسه ، وهذه المفاهيم المادية الوثنية العبودية التى يحرك بها الحياة والحضارة فإن الإسلام يرفضها جميعاً .

إن العالم الغربي الذي فقد دينه وهجز عن معرفة الدين ، يواجه ضربات عنيفة عاصفة تمزقه من أعماق كيانه ، يقول الأستاذ إيفان حزرول عضو المجتمع العلمي السوفييتي في ضرخة إنذار : إن الإنهيارات العصبية لم تزل تزايد في العالم والدماغ البشري سائر نحو التعمل العام ، ومعظم العلماء ينسبون إلى الحياة العصرية أسباب الاضطرابات النفسية فإذا كانت هذه الحياة في صحتها ودخاتها وتسكينها لا تسبب الجنون فإنما تسمى الإنسان العصري لجنون . يقول الدكتور الفرنسي لاروش : إن الشر الأكبر في مجتمعاتنا الحالي ليس هو الضجة بمخدراتها ولا التلوث الصناعي بل إنما هو إنكسار التوازن بين أفراد المجتمع ، لقد كسر المجتمع الحالي أشكال التوازن القديم وأصبح يتطلب من الناس مزيدا من المعارف ومجهودا متواصلا للانسجام مع المتغيرات الجديدة كما أنه عزل الفرد عن أسرته وعن قريته الأصلية وحصره في بيت صغير المساحة فصلا عن أن هذا المجتمع صرف الإنسان عن تغذية عقله ونفسه ولم يحمله من للتناقضات المستعصية على ذهنه ، هذه المظاهر الجنونية مرض عصبي ، وأن العوامل الاجتماعية المختلفة تزيد هذا المرض خطورة ونسب الظروف المناسبة لظهور الاضطرابات العصبية واختلال التوازن ، أما علاقات المجتمع الغربي فليست في حاجة إلى كبير بيان . ( ١ ) الانتحار وباء بين شباب أمريكا : صرح ريتشارد سيرين أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بأن انتحار الشباب الأمريكي يتزايد بصورة وبائية وأن السبب يرجع إلى تعاطي المخدرات . ( ٢ ) في تقرير الأمم المتحدة عن خطر مدمي المخدرات وجد أن عددهم يصل إلى الألف مليون نسمة ( نصف سكان الأرض ) بحما عن السعادة المزعومة ، وأن أشد المخدرات فسكا هي التي ظهرت بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا وأهمها حبوب الهلوسة .

( ٣ ) ٣٠ مليون حالة إجهاض في العالم كل سنة ( ٤٠ في المائة اقتصادية ) و ٣٦ في المائة نفسية . وأن إنجلترا سمحت بعمليات الإجهاض مما جعل أكثر نساء الغرب يسافرن إلى بريطانيا ودعت بحملة نوفيل أويسرفانور الفرنسية إلى السماح بالإجهاض في فرنسا ونشرت بكل جرأة اعتراضات سيدات شهيرات مارسن الإجهاض . وتقول الصحف أن ٣٠ في المائة كل سنة يتم إجهاضهن بما يعادل ربع المولودين . ( ٤ ) أفردت الصحف الغربية بحوثا مستقبضة عن تجارة الجنس وعن أرباحها ، ونحدثت نيوزويك عن الأفلام السينمائية والخلاعية والكتب والسجلات المصورة وصالونات التمسيد والملاهي الليلية فضلا عن البقاء التقليدي وقالت أن أرباح هذه التجارة تبلغ مليار دولار في السنة ، وأن مدينة نيويورك أصبحت عاصمة هذه التجارة الراجعة في مدة سنتين انتقل عدد صالونات التمسيد من أربعة إلى ستة وأربعين علما أن هذه التسمية ليست سوى ( تورية ) المدعارة ومحايلة على القانون

وأن ثمن ثمانية ثلاث مسمدات تبلغ مائة دولار وبنفس صالونات التمسيد تستقبل كل يوم مائة رجل ولا تعطل في نهاية الأسبوع . وأشارت إلى أفلام الخطيئة الخلاهية . وإن فلم ديت ثروت «الخنجرة» العميقة در على أصحابه ٣ ملايين دولار ولم يتسكف أكثر من ٣٥ ألف دولار . ٥٠ - لندن ٢٣ -  
ي ب . (الأهرام ٢٤ مايو ١٩٧٣) أن عمليات الإجهاض المشروعة للفئات اللاتي تقل أعمارهن عن خمسة عشر سنة قد ارتفعت في بريطانيا بنسبة الثلث في العام الماضي وبلغ عدد حالات من الإجهاض من بين هذه الأعمار إلى ٢٢٩٦ زيادة ٦٥٤ عنها عام ١٩٧٠ وكشف التقرير الذي أصدرته إدارة الإحصاء البريطانية إن بين هذه الحالات ٣ فتيات لا تزيد أعمارهن عن (١١ سنة) وإن ثمان من الفتيات أقل من سن ١٥ سبق لمن الإنجاب . ٦ - أشارت الصحف إلى تسريح ٣٧٠٠٠ خبير نووي بسبب الأمان من خبراء التسليح النووي لأسباب تتعلق بإدمان الكحول والمخدرات لأنهم كانوا يتعرضون بسبب تصرفاتهم غير الطبيعية إلى الإنذار ٩ - صدرت مجلة جديدة في أمريكا أسماها (بلاي جيل) وصاحبها سيدة جميلة أسماها (توتى هوات) المجلة مخصصة للنساء فقط فهي تنشر صور الشبان وهم عرايا تماماً وتسكتب المقالات والدراسات حول تصرفات الرجل وميوله وأفعاله وكيفية الإيقاع والاحتفاظ به تحت قبضة المرأة . صدرت هذه المجلة لترد على مجلة (بلاي بوي) الشهيرة بنشر صور أجمل نساء الدنيا .

١٠ - مسرح أوبرا كوينهاجن عاصمة الدنمرك عرض باليه (أشعار الموت) المأخوذ من قصة (بوجين أونسكو) وتدور حول أطاع الإنسان ونزعه إلى الدمار - ٢٢٠ راقصاً وراقصة يقفون هرايا تماماً لا تستر أجسادهم حتى ولا ورقة التوت . (١٠) دراسة أجرتها جامعة جونز هويسكتر في بلنيمور حول الجنس والزواج بالنسبة للفتيات الأمريكيات أقل من عشرين سنة (ما بين ١٩٥٥) أجريت التجربة على ٤٦٠٠ فتاة ينطبق عليهن هذا الشرط . تبين أن ٣٠ في المائة من الفتيات دون دون العشرين قد مارسن الجنس بدون زواج وأن ثلث هذا العدد قد أدت ممارستهن للجنس إلى الحمل خبير المشروع .

(١١) وأشارت الصحف إلى تسريح الدكتور روما فولد الذي قال فيه أنه يوجد ٤ ملايين مرضى بالزهرى في العالم كل عام وأن أغلب هؤلاء في أوساط الشباب وأن للأمراض الزهرية خطأً بيانياً متصاعداً منذ الخمسينات وأثناء الخمس سنوات الأخيرة ، ارتفع معدل الإصابة بالأمراض الزهرية إلى ٢٠٠ في المائة من الرجال وخمسة عشر عند النساء ويتراوح السن بين ١٨ ، ٢٤ سنة (١٩٧٥) .

(١٤) ٨٥٪ من طلبة الجامعة في أمريكا يتعاطون الماريجونا ، ٤٠ ألف شخص دون سن ٤٥ سنة يمانون من النوبات القلبية يتوفى منهم ١٥ ألف . (١٣) سرطان الصدر خطر يهدد للمرأة : هذا ما أعلنته صحف الغرب فقالت أن ٢٥٠ ألف امرأة تموت سنوياً بسبب سرطان الصدر ، وأن العدد يرتفع في أوروبا الغربية وأمريكا . وأن امرأة تموت بسبب سرطان الصدر من بين كل ٢٥ امرأة تفارق الحياة بسبب أو بآخر .

ويقول أحد الباحثين : لقد كانوا قديماً يقيمون المذابح ليحرقوا عليها أجساد البشر لإرضاء للآلهة ولكنهم الآن يضحون بالملايين على مذابح آلهة الوثنية الحديثة . آلهة الريح الفانك وصنم الحجر الأعظم ، و كاهن الرزيلة البشع وشيطان السرعة الخفيف ، أن العلم يقدم إمكانيات هائلة للتقدم البشرى ولكن أين هذا : إلى الحروب الجهنمية الحديثة ، ومعسكرات الاعتقال والإبادة والغازات السامة والنايلام . وهذا الذى يقاضيه المجتمع الغربى يرجع إلى انحرافه الفكري . وقد جاء الإسلام ليقدّم له الهدى فردّه ، وقسا فحمل على الإسلام وعالمه وحاول تدوينه فى آتون الإباحية والإلحاد والفساد والوثنية التى يعيش فيها ، واليهودية التلمودية فى هذا التحول الخطير الذى يسير فيه المجتمع الغربى أثر كبير وواضح فهى وراء كل هذه المحاولات لتدمير المجتمعات البشرية ، أنها من وراء دائرة المعارف التى تصدر فى مختلف اللغات الأوروبية ونحوى ٣ آلاف مليون كلمة لشرح الجنس والهيز وعقارات الملوسة ، وهذه الدائرة مقصود بها تدمير الشباب والأطفال ولذلك فقد تصرت عليهما وتقع فى ٢٠ مجلد ويحتوى على ٦٥٦٥ صفحة والتى قام بها ٧٥٠ مؤلفاً وخبيراً متخصصاً فى مختلف المجالات . والقصد هو احتواء الأطفال قبل أن يكونوا شباباً يبعث هذا المعلومات الجنسية للكاشفة والغاسدة لهدم الأطفال ، وتوجيههم إلى الإباحيات : تحت اسم الحب والتحررات وعقار الملوسة . وإلى جوار المكتتب نجد الأفلام : القائمة على الجنس والجريمة معا وقد بلغت إلى درجة عالية من الفساد والانحلال . ويشير الأطباء إلى أن انتشار الأمراض الزهرية فى العالم وخاصة فى أوساط الشباب التى تبلغ ثلاثة ملايين إصابة فى كل عام لا تعود إلى فقدان الوسائل الطبية والوقائية بقدر ما نكن فى التدهور الأخلاقى والانحلال الذى تشهده المجتمعات الغربية . فإذا أنجبنا إلى مجال العلم والتكنولوجيا وجدنا أخباراً مذهلة للانحراف العلمى ، فى مقدمة هذا تلك الاختراعات الحديثة وأهمها « الغاز العصي » الذى وصف بأنه أخطر من القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ، وكذلك اختراع ما سمي بأشعة الموت باستخدام أشعة الليزر ، وهو من القوة بحيث تستطيع أن تدمر أى صواريخ معادية على ارتفاع ١١٢ كيلومتراً كما تستطيع تدمير الصواريخ والدبابات البعيدة المدى .

وهكذا يصل العلم إلى أقصى مراحل تدمير البشرية . كذلك في مجال البيولوجيا : هلت صيحة بعض الذين لم يجرّفهم المادية إلى التحذير من الأخطار التي ينجرف إليها علماء الأجنة يقول اللورد دريكس كالدار أشهر خبراء علم الأجنة : أن هؤلاء العلماء يجرون في تطوير أبحاث إنتاج الإنسان المختبري على النحو الذي يفسد الجنس البشري ويزج بالعالم في آتون عصر أسوأ من عصر المخاوف الذرية ، أن هذه الطريقة التي ترمى إلى ذراعة شريحة من جلد إنسان في أنبوب سوف تؤدي إلى إمكانية إنتاج عدد لا يحصى من الأشخاص الصناعيين الذين ينشأون في كل شيء أكثر مما تنشأ به النواظم وهم بذلك أشبه بعرائس المصنع أو الإنسان الآلي وسوف تجمع بينهم القدرة على قراءة أفكار بعضهم البعض ، بهذا يكون انتاجهم بداية لوفاء خاصية التفرد الذاتي وهذا مجرد تصور لكثرة تحقيق بالبشرية . . وهكذا نجد العلم في يد الغرب يخرج عن رسالته وهدفه من حيث يكون « مدمراً للإنسان » خراً ومرجواناً ومخدراً ، و « مدمراً » للبشرية من حيث هو ذرة وقنابل وأشعة الموت والغاز العصبي ومدمراً للإنسانية من حيث هو إفساد للجنس البشري نفسه . ولا ريب أن تحليل هذه الإحصائيات والأخبار يؤدي إلى حقيقة هامة : هي نجاح النظريات والأيدولوجيات التي طرحها ماركس وفرويد وسارتر ودور كايم ( هؤلاء اليهود ) في هزيمة المجتمع الغربي وتدميره وذهابه إلى أقصى غايات الانحراف والتمزق ووصول العلم إلى درجة اللعب بالنار الخطير الذي يهدد البشرية كلها بالتدمير .

وهذه هي أزمة الغرب الساحقة التي تضع النهاية له ، ولكنه مازال يقاتل وهو في لحظاته الأخيرة حتى يحاول دون أن يصل الإسلام إلى قلوب أهل الغرب فأزمه الغرب الآن هي أزمة عقيدة وإيمان ودين ونفس ، فقد خرج من مفهوم المسيحية المنحرف إلى مفهوم اليهودية الضال فطابع التلمودية واضح الآن في مختلف مناهج ومفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق حيث تسيطر النظرية المادية والفكر التلمودي والآلي والإبادة والوثنية . ولقد كان الفكر الغربي ومازال يقوم على الاستعلاء العنصري والكبرياء السكاذب الذي يدعي أن فكرة العالم وأن تاريخه هو تاريخ العالم وأن رأيه هو الرأي الذي تخضع له البشرية . وأنه صاحب الدم الأبيض الذي لا يهزم وهكذا يظن المفهوم المادي (الإقتصادي الجلسي) على تفسير الحياة الواقعة وتفسير التاريخ ولقد أصبحت مفاهيم التلمودية الصهيونية مصاغة في نظريات ومذاهب وأيدولوجيات ومفروضة على العالم الممزق بين الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية وقوامها النظرة المادية في الفكر والتفسير المادي في الإقتصاد ومعايير وصلت تحاول أن تخضع الرأسمالية الغربية الليبرالية للماركسية الشيوعية حتى يسلم العالم كله للصهيونية التلمودية .

وقد تجددت مفاهيم الغاية والعبودية القديمة إلى عرفها الرومان والقيصرية والأكامرة والفراعنة  
غير أن الحضارة الغربية الحديثة لم تعد تلك إمكان حل أزمتها الخائفة، بعد أن هكمت القربة وفسد  
الهواء، فهى تقفز من حل إلى حل ومن منهج إلى منهج محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى  
منذ أن تركت الدين حين عجز في ظل تفسيرات السكينة عن العطاء للنفس والروح وحالات القوى  
والاساطير التلمودية بين الغرب وبين أن تأخذ مفهوم الإسلام وخبرته في مناهج التلمود فإذا  
انفلت منها فقلته إلى البوذية والنفوسية والسحر. لم يكن هو الدين « ولكن تفسيرات الدين »  
ثم فشلت الفردية لأنها استعملت وظلمت وفشلت الجاهلية لأنها سحقت الإنسان، وفشلت القومية  
لأنها كانت عدوانية لمن جاورها، وفشلت العالمية لأنها عجزت عن الاخاء الإنسانى وكان الخطأ  
في غياب الاساس الثابت : والمنطق الاصيل، كلمة الله الواحدة التى تربط جميع الخيوط، وتقيم  
العلائق بين السكون والحياة والإنسان والمجتمع والدنيا والآخرة، إلى أين يتحرك التطور وإلى  
أى مدى؟ أين وجهته الحضارة وإلى أى مدى؟ أين غاية العلم وماهى رسالته؟ لا بد من وجود  
الاساس الثابت حيث تبدأ منه الحركة وعنده تنتهى : نقطة البداية والنهاية بعد الحركة الواسعة يجب  
أن تعرد إلى أصل ليس من عند الانسان وليس من صنعه .

وهذا أمر لا يعطيه إلا الدين الحق . أن الغرب الذى احتوته التلمودية قد حاول أن يقول بأن  
الدين مرحلة في حياة الأمم وأن الأمم قد تجاوزت هذه المرحلة وأن الدور الذى احتاجت فيه  
البشرية إلى الدين قد انتهى وأن البشرية أصبحت راشدة بالعلم وليست في حاجة إلى وصاية  
الدين وهذا هو « الخطر » الذى أوقع الغرب في أزمة الحضارة والإنسان . وليس هذا القول مفهوما  
صحيحا والإسلام لا يرى هذا الرأى وإنما كان هذا هو رأى الغرب في دينه أو في التفسيرات التى  
حملت إليها من حقيقة الدين، والواقع أن الدين ليس مرحلة فحسب في حياة الأمم ولا في حياة البشرية  
ولكنه عنصر أصيل وكيان عضوى في تركيب الانسان — عقله وروحه وحياته — لا سبيل إلى  
إنفصاله عنه أو انتزاعه منه ، لذلك فإن الدين لم يموت وان يموت وأن الفكر الغربى حين حاول أن  
يتجاهل الدين ( بمعناه الحق ) ويتجاوزته فإنه يواجه الآن أخطر أزوماته . وإن يجرى أوروبا في هذا  
الصدد لا تفيد البشرية بل تسمى إليها ونحن نرى أوروبا بعد أن تركت الدين مازالت تضطرب ذات  
اليمن أو ذات الشمال دون أن تصل إلى شيء . ومن ثم فإن الغرب يأفل الآن ويسقط ولا سبيل له  
حياة إلا إذا عرف الاسلام طريقه في الحياة .

(٣٠)

## الإسلام في دور الفلك

(١)

### ألف مليون مسلم

لا ريب أن الإسلام يتألق الآن في دورة الفلك وإن علامات كثيرة تكشف هذا الدور الخطير الذى يتحرك إليه في المجال العالمى والبشرى والإنسانى وتمثل هذه العلامات في عدة حقائق هامة : أبرزها أن تعداد المسلمين يصل الآن إلى ألف مليون مسلم وأن الإسلام يعود إلى أوروبا مرة أخرى في قوة وثاتها أن امتلاك المسلمين للطاقة والثروة والتكنولوجيا من شأنه أن يركز بناء هذا المجتمع الجديد أما آخر هذه العلامات فهي التفوق البشرى . وتقف القوى للعادية للإسلام ( الاستعمار والصهيونية والشيوعية ) في وجه هذا التقدم الظاهر وتحاول هدمه أو تعزيقه أو إجباضه أو احتوائه . وترى المحاولات التى ترسمها مخططات الغزو الثقافى والتغريب بالاشتراك مع القوى الثلاث : الاستعمار والصهيونية والمذاهب الهدامة جاهدة في عصر ما بعد التضامن الإسلامى والعاشر من رمضان على ضرب النفس الإسلامية العربية في صميمها من طريق : ( أولاً ) إثارة روح اليأس والقلق والتشكيك في قوة المسلمين ومكانتهم وتاريخهم ودورهم للترقب في أداء رسالة السلام والإيمان . ( ثانياً ) التهوين من شأن مقدراتهم الحقيقية وتربطهم وانتصاراتهم والخط الجديد الذى يسرون فيه في مواجهة الاستعمار والصهيونية . ( ثالثاً ) زعزعة الثقة في ذاتيتهم الخاصة وشخصيتهم المفردة التى بناها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً والتى ظلت صامدة وقادرة على مقاومة الفزاة دون أن تمنحنى أو تنهار . هذه هي الأهداف الجديدة المضافة إلى الأهداف القديمة التقليدية التى ترمى إلى انتقاص الشريعة الإسلامية وتاريخ الإسلام وحياة الرسول والقرآن ، وهى تجارة الاستسراق والتبشير المنجدة التى لا تتوقف . ولعل أكبر ما يثير الاستعمار والصهيونية والمذاهب المادية اليوم هو ذلك النمو المتزايد للقوة البشرية الإسلامية ، التى تجرى محاربتها بالدعوة إلى تحديد النسل ، أو عقد المؤتمرات لتخويف المسلمين من هذا « الانفجار » السكانى الذى يحدث في عالم الإسلام بينما يواجهه في عالم الغرب نقص مخيف وتقلص متزايد . ومصدر الخوف هو أن تقل الحصيلة التى تصدر من أراضى المسلمين إلى الغرب عندما ينمو عدد المسلمين أنفسهم أصحاب الثروة الحقيقية . أن الفرض من هذه الصيحات هو أن يظل

المسلمون قلة وأن يظلوا فقراء ، وأن تبقى ثروات المنجنيز والنجاس واليورانيوم والكوئالت وغيرها من الثروات التي تنقل من قلب أفريقيا إلى الغرب والتي وصفها أحد الزعماء المسلمين الأندونيسيين يوماً حين قال : أن ما نهب من أندونيسيا يمكن تصوره بأنه يمثل جسراً من الذهب الخالص يصل ما بين أندونيسيا وهولنده ١ . واليوم تكشف الإحصائيات عن زيادة في عدد المسلمين ، تستشرف الآلاف مليون ولكن الإحصائيات التي تنشر والتي تصل دائماً من دوائر الغرب والتي تقوم أساساً على فكرة مسبقة بانتقاص أعداد المسلمين هذه الإحصائيات تصر على أن المسلمين لا يزيدون عن ٧٠٠ مليون . وتقول التقديرات أن سكان العالم وصلوا عام ١٩٧١ إلى ٣٧٩٦ مليون نسمة بزيادة قدرها ٧٤ مليون نسمة في العام الواحد ( الكتاب السنوي للأمم المتحدة ) هذا الرقم يمثل معدل زيادة سنوية تقدر بنسبة ٢٪ ، لو استمرت بهذا المعدل فسيتضاعف سكان العالم عام ٢٠٠٠ على ما هو عليه الآن ، فيصبح ٧٤١٤ مليون نسمة .

ويقول التقريرين أن شخصاً من كل شخصين في العالم : هو آسيوي ، وأن ٢١١٤ مليون شخص يسكنون القارة الآسيوية وأن الآسيويين يمثلون ٥٦٧ في المائة من مجموع سكان العالم . كما يسكن أفريقيا ٣٥٤ مليون شخص ، أي ٩٥ في المائة من المجموع السكاني للعالم . أما أمريكا الشمالية ففيها ٣٢٧ مليون شخص أي ٨٫٨ . أما أمريكا الجنوبية فيسكن فيها ١٩٥ مليون شخص أي ٥٫٣٪ . وفي أوروبا يسكن ٤٦٦ مليون شخص أي ١٢٫٦٪ . وفي الاتحاد السوفيتي ٢٤٥ مليون شخص أي ٦٫٦٪ وأقل نسبة في العالم من السكان ١٢٨ مولود لكل ألف شخص ( أوروبا والغرب ) . وأعلى نسبة في العالم من السكان ٢٥٣ مولود لكل ألف شخص ( آسيا وأفريقيا ) . ا . ه . أما أفريقيا فإنها قارة للإسلام في القرن الخامس هجر المجرى الذي يبدأ بعد قليل ويمثل بالنسبة للإسلام مرحلة جديدة غاية في القوة والتوسع ولا ريب أن للتوسع الإسلامي يواجهه ويظهره نمو في الثروة الإسلامية التي تنكشف في كل يوم وفي كل بلد والتي هي ملك المسلمين وعناد لهم في مظاهر حريتهم واتجاههم الواضح إلى بناء قوتهم المادية الآن في وجه التحديات الاستعمارية والصهيونية والشيوعية الزاحفة وتدل أحدث الإحصائيات عن تعداد المسلمين أنهم موزعون على ١٩٢ بلداً في العالم منها ٧١ بلداً يمثل المسلمون فيه أكثر من ٥٠ في المائة بالنسبة لعدد السكان : ١٧ بلداً يشكل المسلمون فيها مائة في المائة ، ٢٢ بلداً تبلغ نسبتهم ٩٠ في المائة ١١٠ بلداً تبلغ نسبتهم ٨٠ في المائة ٣ بلدان نسبتهم ٧٠ في المائة ٦ بلدان نسبتهم ٦٠ في المائة ١٢ بلداً يمثلون ٥٠ في المائة و ٣ بلدان نسبتهم ٤٠ في المائة و ١١ بلداً يمثلون ٣٠ في المائة و ٢٠ بلداً نسبتهم ١٠ في المائة فما فوق



و ١٦ بلداً نسبتهم ١٠ في المائة . وهكذا نجد أن الإسلام قد زحف زحفاً سلمياً إلى مختلف أجزاء العالم بقاراته الخمس واتخذ لنفسه فيها مقاماً ، وأن أوروبا قد قاومت الإسلام أكثر من ألف عام حين طاردته من الأندلس أكثر من مائة عام حتى أجلت آخر المسلمين عنها ثم طاردته من البلقان خمسين سنة قد عادت اليوم سرعة إلى قبول جاليات إسلامية كبيرة في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تمثل ( وجوداً ) واضحاً ( وحضوراً ) متميزاً للمسلمين بمعاهدم ومساجدهم وكنائسهم الداني - وفي أمريكا تجد صورة رائمة حين يقول الدكتور محمد عبد الرؤوف أنه لا تطلع الشمس في نيويورك إلا على مسلم جديد ويكون المسلمون السود بها جالية ضخمة .

وبالرغم من كل أسباب الاضطهاد والتنضيق التي يواجهها المسلمون في الغرب فإنهم ثابتون يستمدون قوتهم من إيمانهم . وفي العالم الإسلامي تحارب الأقليات الإسلامية وتخرب بمنف وخاصة في الفلبين وأريتريا والصومال ولكن القوى الإسلامية ما تزال تنمو وتتعزز ويكشف الإسلام دوماً عن حبه للسلام وخير الإنسانية وأنه لا يريد إلا الأخاء البشري الصحيح وإن الدراسة الصحيحة لأحوال المسلمين تكشف حقيقة واضحة جداً هي : أنه منذ ظهر الإسلام وامتد إلى الآفاق فإنه بدأ يقنم أوروبا من ثلاث جهات ، من الجبهة البيزنطية وجبهة الأندلس ، وجبهة صقلية ، ثم زحف إلى الأمريكيتين ومنذ وصل إلى هنالك فقد اعتقر وما زال ينمو وتعداد المسلمين اليوم إنما يمثل حقيقة واضحة هي أن : المسلمين الآن أكبر عدداً من الكاثوليك ومن أهل الصين . وأن أرض المسلمين ما تزال تتميز بالتفوق البشري بالإضافة إلى الطاقة والثروة ومصادر الإنتاج وما يزال العالم الإسلامي مؤثراً قوى الأثر في موازين القوى السياسية والتجارة والاستراتيجية العالمية ، وفي الاقتصاد العالمي وسيظل .

ومن شأن عالم الإسلام اليوم أن يمتلك قوته الذاتية وإرادته الحقة ، لأنه مؤهل لرسالة الإسلام ينشرها في العالمين . ويقدم لكل شعوب الأرض منهجاً صحيحاً سلمياً لبناء المجتمع الإنساني بعد أن فشلت وحجزت عن تحقيق ذلك كل المناهج والأيدولوجيات .

(٣١)

## عودة الإسلام إلى أوروبا

أقفلت أوروبا أبوابها مرتين أمام الإسلام : في بوزاز جبل طارق وفي الدردنيل وعاومت الإسلام في الأندلس ( شبه جزيرة ايبيريا ) وفي البلقان . ولقد أصغر الغرب على أن يرفض مزاحمة الإسلام له في أوروبا ووضع تلك القاعدة التي ظلت وقتنا طويلاً سائدة وهي : أن على المسلمين أن ينتهوا من أوروبا بالهجرة أو بالتنصير من كلا طرفيها . ولكننا ننظر الآن فنجد أن الإحصائيات تذكر أن في أوروبا وحدها خمسة وعشرون مليوناً من المسلمين . وأن الإسلام يزحف على أوروبا كما يزحف على الغرب كله في قوة . يقول دكتور خورشيد أحمد : جاء الاندفاع الإسلامي الأول من الجنوب غير أن هذه اللوجات تراجعت بعد أن وصلت إلى حدود ألمانيا وحدود فرنسا ، أما أسبانيا فظلت جزيرة إسلامية متألفة في أوروبا على مدى ستة قرون ، وكان لها أثر في بقية أجزاء القارة الأوروبية غير أن هذا الأثر ظل جزئياً وغير مباشر ، ثم جاء عصر الحملات الصليبية التي قامت على أساس من الجهل والتعصب وتشويه الحقائق وأسفرت عن سفك الدماء واللعداء . ثم تمت بدور عدم الثقة ونحو ذلك إلى غاية من الأشواك ، ومنذ ذلك الحين ظل العالم الإسلامي وعالم النصرانية متباعدين ، وما تزال الظلال المشتومة تخيم فوق الروس . ومع ذلك ظلت الاتصالات الفردية وآثار الإسلام الثقافية تنتشر . وقد وصلت رسالة الإسلام إلى شعوب أوروبا الشرقية عن طريق التجار المسلمين بل عن طريق الذين وقعوا في الأسر أبان الحروب الصليبية وكان دخول الإسلام أول مرة في أوروبا الشرقية نتيجة لعمل قاض مسلم وقع في الأسر وأخذ إلى بلاد البشناق ( بين الدانوب الأسفل والدون ) في بداية القرن الحادي عشر ولم يفته ذلك القرن إلا وكان شعب البشناق كله قد اعتنق الإسلام : وانقد ساد الأثر الفكري الإسلامي الفترة كلها وما يزال محسوساً حتى الأزمة الحديثة ، ولكن هذا الأثر لم يتمكن من إزالة التعصب ضد الإسلام كما لم يمكن من تمهيد الطريق لتفهم أفضل لرسالة النبي وتبدأ المرحلة الثالثة مع امتداد الامبراطورية العثمانية وبسط سلطانها على أجزاء من شرق أوروبا ولكن هذا المد أخذ ينحسر ابتداء من القرن ١٩ حين بدأت حملة جديدة ضد العثمانية في تلك الفترة كان العمل التبشيري النصراني قد وسخت أقدامه في بقية أنحاء العالم وكانت الدول الغربية تتخذ لنفسها مستعمرات في البلاد الإسلامية ، وكذلك أعدت دراسات نصرانية في مهاجمة الإسلام والتبشير

منه فكات هاملا كبيراً في خلق تمصبات جديدة ونشر خشاوة من المعلومات الخاطئة من الاسلام ولعب نمو الدراسات الاستشرافية دوره في هذه الاساءة الفكرية والثقافية وتدهورت املاات بين الاسلام والدول الأوروبية . أما المرحلة الحالية في العلاقات مع الدول الأوبية بمد بدأت مع انحصار الاستعمار وظهور حوالى أربعين دولة إسلامية مستقلة . وعاشت جماعات من المسلمين في أوروبا ٣ أو ٤ في المائة من مجموع السكان الأصلي . كانوا يشكلون قبل الحرب العالمية الثانية ٦٦ في المائة من سكان ألبانيا ١٥٪ من موطنى يوغسلافيا ٢٤٪ من سكان قبرص ١١٪ في مالطة . ثم جاءت موجات كثيرة من الهجرة إلى إيطاليا وفرنسا وهولندا والمملكة المتحدة كان أهلها من البلاد التي استعمرتها هذه الدول في الماضى ونالت ألمانيا نصيباً من العمال الضيوف الذين جاءوها من تركيا ونجم عن هذه الهجرة جاليات إسلامية كبيرة في عدد من الدول الأوروبية كذلك فقد وفد إلى أوروبا عدد ضخم من الطلاب . وتدل التقديرات أن عدد المسلمين حالياً في أوروبا يبلغ حوالى ٢٥ مليوناً منهم نحو خمسة ملايين من الدول الأوروبية غير الشيوعية والباقي في أوروبا الشيوعية بما في ذلك المناطق الأوروبية في روسيا وهذه التقديرات مبنية على دراسة ( الأديان الحية في العالم : كراشى ) . وهناك بيان يرد المسلمين إلى ٢٣ر٧ مليوناً بما في ذلك روسيا بينما يبلغ عدد المسلمين في روسيا الآسيوية وحدها بين ٣٠ و ٣٦ مليوناً .

وفي الدول غير الشيوعية يظهر أن أكثر من ٢٠٪ من عدد المسلمين يتألف من أطفال وشباب يدرسون وفق أنظمة تعليمية مختلفة . وتحليل السكان المسلمين في أوروبا يبين وجود ثلاث مجموعات رئيسية : ( ١ ) المسلمون المحليون . ( ٢ ) جاليات إسلامية كبيرة مهاجرة تعيش في دول معينة . ( ٣ ) عدد كبير من الطلاب المسلمين والعمال الضيوف . ويقول التقرير : لقد حاول المسلمين في كل مكان تقريباً أن يلمشوا المساجد وأنواها من المراكز الإسلامية وكذلك فقد أنجنت بعض الترتيبات لتوفير تعليم إسلامي للأطفال المسلمين والمشكلة هي كيفية توفير الحماية والحفاظ على الشخصية العقيدية والثقافية للمسلمين الذين يتعرضون لمناخ غير ملائم لهم خلقياً وثقافياً وفي الايات المتحدة تشير التقديرات : إلى وجود جاليات إسلامية كبيرة من الفئات التي تنحدر من أصل لبناني وتركى وسورى وباكستاني وهندى ويوغسلافى وأنه توجد ثلاثمائة منظمة إسلامية فضلاً عن وجود ظاهرة الإسلام المتسمة دوماً بين الزوجات الذين يكونون مجتمعاً يبلغ تعدادهم ثلاثة ملايين مسلم ويقول الأستاذ محمد عبد الرؤوف مدير المركز الإسلامى في نيويورك أنه لا تطلع الشمس على سبع إلا هي مسلم جديد .

(٢)

(٢) لقد الفت ظاهرة عودة الاسلام إلى أوروبا نظر كثير من الباحثين في مقدمتهم جان بول رو الذى يقول فى كتابه الإسلام فى الغرب : لقد قضى إخراج العرب من أسبانيا عام ١٦٠٩ على وجود المستعمرات الاسلامية الدائمة فى أوروبا الغربية وخلال ثلاثة قرون لم تر أوروبا الغربية فى مدنها وقراها خصوصها القدماء . ومع فجر القرن العشرين وبسبب عوامل متعددة بدأ هؤلاء يعودون ببطء ، هل هى عودة عرضية هابرة أم هى بداية موجة إسلامية جديدة . ويقول : إن عودة الاسلام إلى أوروبا هى موجة جديدة لن يقدر على وقفها أو الحد منها أية عقيدة أو مبدأ أو دين . وقال إن وجود الاسلام فى الغرب يرتدى حالياً طوابع أربعة مختلفة :

(أولاً) : إقامة مؤقتة لطلاب جاءوا يكتلون دراستهم العليا فى جامعات أوروبا الغربية أو دبلوماسيون يمثلون بلادهم لدى العواصم الأوروبية . وليس للطلاب ولا الدبلوماسيون نشاط . (ثانياً) : هجرة محدودة للاجئين سياسيين . (ثالثاً) : الأبدى العاملة . (رابعاً) : بعض الأوروبيين الذين اعتنقوا الاسلام . وفى حوالى عام ١٩١٣ فى إنجلترا أهتمت بعض هائلات انجليزية الاسلام وأسست جماعة متماسكة فى « وكننج » منطقة سوارى وبعد ذلك فى فرنسا والنمسا وإيطاليا وألمانيا « قام بعض الأفراد واقنعوا بما حصل فى إنجلترا . ويقال إن هذا العمل فردى وليس له أثر تسمى لا فى العائلة ولا فى الابناء غير أن الاهتانات الحديثة التى حصلت عليها فى ألمانيا مازالت قريبة منا وجامع برلين مديره وسلم ألماني هو الإمام هيوم وقد أحسن وقادنى هند زيارته عام ١٩٥٢ وكان متفانلاً بشأن مستقبل الاسلام فى ألمانيا وقال إن المسلمين يجتمعون فى عدة مدن فى هامبورج ، ترفلين ، لاندشات ، شوترنجين ، ولم تسكن فى أوروبا الغربية أى دعوى إسلامية منظمة أو أية لغة تبشيرية ثابتة شبيهة بذلك التى ترسها بلدان أوروبا المسيحية إلى ديار المسلمين . (١) ونقول السكينة الغربية قالبرى :

فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها بعدها من مدى الإقحام على حين كان الإسلام عجبياً فى سهولته صريحاً فى فروضه وهذا كان سبباً آخر فى سرعته انتشاره بين الشعوب التى اضطربت أخلاقهم كل الإضطراب بما أصابها من الشك المضى لعقائدها الدينية . وكان هذا ولا يزال السبب فى سرعته انتشار الإسلام المتواصل بين الأمم فى آسيا وأفريقيا

لنفورده إلى أرواحهم دون حاجة إلى التطول في شرحه والتكليف في الدطابة له . أولئك الذين يرون أن حظ الإسلام أوفر من حظ المسيحية يعترفون بأن الخوارق في الدين المسيحي ترفى وتسر وتذهل الخيال ولكنها معقدة وليس في الإسلام شيء من ذلك . الإسلام الذى يقول أن الحساب ان يكون في هذا العالم وأن السعادة هذه يجب أن تتحقق على الأرض لتكون مقدمة للسعادة الأبدية . (٤) ويقول هوبير دنشاني : صاحب كتاب الديانات في أفريقيا السودانية أن انتشار دهوة الإسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر وإنما قامت على الاقتناع الذى دعا إليه دهاة متفرقون من المرابطين لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم وكثيراً ما انتشر الإسلام بالنسرب البلىء من قوم فكان إذا ما اهتمقته الارستقراطية وهى هدف الدهاة الأول تبعها بقية القبيلة . وقد يسر انتشار الإسلام أنه دين الفطرة بطبعه سهل التناول لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه وأنه سهل التكليف والتطبيق على مختلف الظروف وأن وسائل الانساب إليه ليس من أى دين .

ويقول الأستاذ أبرم بولسكى ( المدير العام لرابطة موريشيا ) أن الاسلام سيصبح قريباً أحد أديان أوروبا ويصور الدور الذى يقوم به المسلمون الآن في أوروبا بعد أن كونوا فيها جاليات ضخمة نجتمعها صراكر وعيشت على مستويات مختلفة ، ومن بينها المعهد الاسلامى في إنجلترا الذى سيكون له دور حاسم في مستقبل المسلمين في إنجلترا وغرب أوروبا . ويقول : أن المسلمين الذين استوطنوا غرب أوروبا يشعرون أنهم مجموعة تختلف عن بقية المجموعات التى تسكن في هذه المنطقة ، هذا الشعور مبلور في المنظمات والجمعيات المختلفة التى يكونها المسلمون لخدمة أغراض مجموعهم ولربطهم برباط كى لا تمحى ثقافتهم الاسلامية وتجد هذه الظاهرة في المملكة المتحدة وإيرلندا . كما نجد أن المسلمين عشرات الجمعيات كونوها لخدمة ثقافتهم الدينية . ويقول أبرم بولسكى : أن أوروبا تعرف الاسلام منذ ثلاثة عشر قرناً ويوجد على الدوام مسلمون في روسيا وهولندا واليونان ويوغسلافيا ودول البلقان بجانب ألبانيا وتركيا وهما دولتان مسلمتان ولكن المسلمين في كثير من هذه الدول يجدون معاملة قاسية . وكان الغرب على مر الدهور يريد تحطيم الاسلام ومحو الوجود الاسلامى ولكن هيئات له ذلك فدين الله لن يزول من الأرض .

ومنذ أن هرفت أوروبا الاسلام ناصيته العداء وهرفت أن في وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهى مستعدة لأن تنهم الاسلام وتتقبل وجوده بعد أن عرفت أنها تعتمد في وجودها الاقتصادى على الدول الاملامية . إن انتقال المسلمين إلى أوروبا جعل الأوربيين يتفعلون التعايش مع المسلمين مثال ذلك الباكستانيون في بريطانيا والأتراك في ألمانيا والمغاربة في فرنسا ، وهذه

الهجرة إلى أوروبا مستمرة وفي إزدیاد وسيصبح الإسلام بإذن الله أحد أديان أوروبا . في بريطانيا الآن حوالي مليون مسلم وفدوا إليها في الـ ١٥ سنة الماضية واستوطنوها وشجعهم على ذلك الديمقراطية والحسرية لیسكونوا جميعاتهم الإسلامية وصارت مجموعتهم متحدة و متميزة عن بقية المجموعات .

ولقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الإسلام كان شينا في الماضي وانتهى، و ينتظرون بلهف ذلك اليوم الذي سينتصر فيه الإسلام ، لقد كان الإسلام صاحب الجولة الأولى في العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب جولة ثالثة بإذن الله ويعمل المسلمون الآن للحفاظ على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي لكي لا تنمحى شخصيتهم المسلمة المتميزة وهناك حقيقة مؤسفة أن بعض المثقفين والشباب انصرفوا في تيار الحضارة الغربية ساعدهم على ذلك جهلهم بالخطاط الثقافة الغربية وسمو الثقافة الإسلامية . أن من يعيش في الغرب يستطيع أن يعيش لمخطاط المجتمع الغربي وسمو المجتمع المسلم ، والمسلمون في غرب أوروبا يقيمون الإسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام وقيمون فاصلا بين الحياة في ظل الإسلام وبين الحياة في ظل فوضى الغرب وتفسخه . أن المجموعة المتميزة في بريطانيا لها دورها في تبشير العالم الإسلامي بما يعتقدوه الغرب في كثير من نواحي العقيدة الإسلامية وتشكل مجموعة المسلمين في بريطانيا أكبر مجموعة إسلامية موجودة في قطر أوربي ورغبة أفراد هذه المجموعة في الثقافة الإسلامية ستجعل لهم دوراً بارزاً في نشر الفكرة الإسلامية ويتمثل النشاط الإسلامي في ألمانيا ، وإيطاليا ، وفرنسا ، والنمسا في بناء المساجد وإنشاء الجمعيات وإنشاء المصروف ووضع السكن وكذلك يقوم بهذا النشاط اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا وكندا . ويتحدث الدكتور محمد حميد الله في كتابه « نمو الإسلام في أوروبا » فتقول :

يكاد يكون اليوم في كل قطر أوربي من الرعايا للمسلمين عدد ولا يزال للمهندون أقلية والأكثرية من أصل آسيوي وأفريقي ويشغل في كل من ألمانيا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا ونميرها من البلدان آلاف المسلمين كعناصر مساعدة وتجذب كل من إنجلترا أو فرنسا القسم الأعظم منهم . وحتى بدء القرن العشرين كان لا يوجد مبشرون من المسلمين ومع ذلك في بدء الحرب العالمية الأولى يوجد في ووكينج قرب لندن جالية من المسلمين الهنود وقد شيدوا جاما وأخرجوا مجلة باسم المجلة الإسلامية التي مضى عليها أكثر من خمسين عاما . والسنينيون مؤسسات هدية في كل من إنكلترا وألمانيا

وسويسرا وأخيراً يوجد مهتدون للإسلام ممن اعتدوا إلى هذا الدين الخنيف عن طريق النفاة الصوفيون . أن كتابات جونيون وتلاميذه أفضت إلى تشكيل مجموعات إسلامية في كل من باريس وجنيف وأما كن أخرى ، ويظهر أن المسلمين في يوغسلافيا لهم الآن الحرية في النشر والدفاع عن دينهم . ويوجد الآن في جميع الجاهات الأوربية الكبرى كرامى لتدريس الاسلام لكثير من الفروع كاللغات والدين والتاريخ والفن والاقتصاد والاجتماع ويزداد عدد المسلمين في المعاهد الثقافية الأوربية وهم يزدادون دوماً بصورة خاصة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وحتى في البلدان الشيوعية يقرب العدد من ٥٠ ألف طالب ويقول : أن أوروبا متفتحة للإسلام أكثر مما كانت عليه في القرون الوسطى ، ورغمما عن ذلك فهناك بعض العقبات التي يلزم تذليلها ولا بد من الإشارة بأن كثيراً من المؤلفين المسلمين يكتبون باللغات الأوربية إذ يفسرون القرآن وينشرون بعض الكتب عن الاسلام ، وبذلك يزيدون الثروة الدينية وأن الفهرس الاسلامي المعروف ( ايندكس إسلاميكوس ) هو باللغات الأوربية وقد ساهم في تأليفه كثير من الكتاب المسلمين ، ويعتبر هذا الفهرس في أوروبا من الأسفار القيمة والجديرة بالثقة »

ولا ريب أن هذه الملامح السريعة نستطيع أن نعطي اتجاه الريح . ولكن هناك ما هو أهم من ذلك : هو نشأة تيار جديد في الفكر الغربي يحاول أن يفهم الاسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية وأن أوروبا ان تستطيع أن تجد المجتمع السليم ألا إذا اعتنقت أسلوب العيش الاسلامي ، ردد هذا كثيرون في مقدمتهم برناردشو وغيره وهناك من أشار إلى أن الإسلام يحل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة ومن يرى أن الغرب حامل بالاملام وسوف لا يجد محيصاً من التماسه منهجاً لمجتمعه وحياته هاجلاً أو آجلاً .

( ٣٢ )

## الإسلام في الأفق

إن صورة الإسلام في الأفق تتمثل في عدد من العناصر والخطوط العامة بحيث لا تخفى على الرأي أبداً وبحيث لا يستطيع أهل الانتقاض من أقدار الأمم والحضارات إنكار ضوءها ووجعها . وهي تتمثل اليوم في ثلاث عناصر ضخمة :

(١) التفوق البشرى . (٢) إمتلاك الطاقة والثروة . (٣) إمتلاك التكنولوجيا .

تحدث كل الأبحاث التي تقايس المجتمعات والأمم اليوم عن «العرب : القوة الجديدة» تقول إحدى هذه الأبحاث : الزمن تغير فجأة وعلى غير انتظار تبدلت نظرة العالم إلى العرب بعد طول معاملة لهم على أنهم دول متخلفة ، لأول مرة منذ زحفت جيوش الإسلام من الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد لنشر رسالة محمد في العالم تمكن العرب من تحقيق سلسلة من الأعمال الناجحة عسكريا وسياسيا واقتصاديا . وإن الوجود العربي استعاد ثقله القديم وتفجرت قدرات الخلق الفني والأدبي في كل بلاد العرب . لقد رسم الأوروبي صورة مشوهة للإنسان العربي تعطيه صفات البدائي الممجى غير للتحضر ، هذه النظرية ترجع أساساً إلى العصور القديمة عندما وصلت الجيوش العربية إلى أوروبا وفتح الأوروبيون أعينهم على جندي غريب أثار الخوف في نفوسهم وشعروا مع قدومه بما يمثل من خطر على ثقاليدهم ، إن هذا الجندي نفسه هو الذي حمل معه إلى أوروبا : « العلم » الذي كان العرب سباقيين إلى كشف أسرارهِ . جاءت حرب أكتوبر تصيف إلى العربي سمات جديدة بما أحدثته من تأثيرات على شخصيته . والسؤال المطروح في الغرب الآن : كيف سيستخدم العرب قوتهم الهائلة الجديدة ؟ عندما اقتحمت جيوش مصر حصون إسرائيل ، هبر الاسرائيلي الذي تجاوزت غطرسته كل حد ، استطاعت أن تضرب تفوقه القتالي السابق . وقد وضع أقدام العرب على هتبات الطريق فهو مستقبل مشرق ، والعرب ملتزمون بمواصلة نضالهم في سبيل التحرر وسيكون النضال طويلا وبشكل الوسائل وفي كل المجالات . هذه صورة لما يراه الغرب عن الإسلام وأهله اليوم وفي أغسطس عام ١٩٧٤ كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين : إن الفوز التركي لقيصر أعاد إلى الأذهان دفعة واحدة ذكرى قرون غابرة : الإسلام يطرق أبواب أوروبا . العثمانيون ضد الأفريق ، ولم تنور جريدة انجليزية ذات يوم أن تستخدم في عنوانها الضخم كلمة « البرابرة » كل قصص الحكم العثماني في البلقان من جديد . للسألة الشرقية من جديد ، أوروبا مشكلة العالم العربي الإسلامي ، في تلك السلسلة التاريخية والمتصلة الحلقات عبر التاريخ ، مداً وجزراً ، بين شرق وجنوب ، البحر الأبيض من شماله وغربه ، هل عاد الشرق يطرق أبواب الغرب ، بعد دورة من الزمان ولكن بجيوش هذه المرة من لئال الغزير .



( ٢ )

وتقول جريدة نوفيل أو بسرفاتور في ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ : أن غزوة العالم العربي الإسلامي للغرب الصناعي تحدث هزة أعنف من الهزة التي آثارتها ولادة العالم الشيوعي . وتقول : أن غزوة العرب غزوة مالية أو أى شيء آخر إلا أن تكون إسلامية فما الذى يحمل الغربيين إلى النظر للعالم العربي بالمنظار الإسلامى ، ما الذى يجعلهم يرفضون أن يصدقوا أن الإسلام لن يفعل فعلة في توجيه مقدرات « الغرب » وبالتالي في مقدرات العالم كله . ماذا يمكن أن يفعله البترول للإسلام وما يمكن أن يفعله الإسلام بالبترول ثم ما يمكن للإسلام والبترول أن يفعله بالعالم فعلا وهل يمكن أن يحل مشاكل التنمية الاقتصادية والتضخم وأزمة السيولة النقدية وكيف حصل هذا كله ، هذا هو ما يخيف العالم الصناعى الرأسمالى . وتحدث الصحف والأنباء عن الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها أمريكا وخاصة في مجال الطاقة والتضخم للمالى الذى يؤثر على قوت الشعب اليومى ، وتحدث عن إنتاج الدول العربية من البترول وهو يمثل ٦٠ في المائة من الإنتاج العالمى . وأن ١٣٠٠ مليار دولار هو دخل دول البترول العربى عام ١٩٨٥ في الشرق الأوسط ، وتساءل الصحف عما إذا استمر دخلها من البترول بمعدلاته الحالية فما هو التهديد الاقتصادى الحقيقى : إن الدول المصدرة للبترول منحت دخلها صافيا يصل إلى ٦٥٠ مليار دولار خلال خمس سنوات ثم يتضاعف هذا الدخل عام ١٩٨٥ وستكون دول الشرق الأوسط قادرة على شراء كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر العسكرية لتدعيم نفوذها . هذا هو ما يشغل الغرب إزاء الثروة الإسلامية الضخمة وامتلاك الطاقة إلى أمد طويل وتشير الصحف الغربية إلى ما نسميه : قلق عالمى لزيادة دخل دول البترول العربية الإسلامية وأثر ذلك في الاقتصاد العالمى وخاصة فيما يصاحب ذلك من تفوق بشرى في عالم الإسلام بينما يوجد انهيار ضخم في تعداد السكان في الغرب . وقالت مجلة نايم الأمريكية ( ١٩٧٣/٣/٢٩ ) إن الثروة البترولية في الدول العربية في طريقها إلى إحداث تغيير في « تاريخ العرب » وتزويدهم بسلاح لم يتوافر لهم منذ هزود الحروب الصليبية وهو سلاح قوى يمكنهم من استخدامه في التنمية ، وفي مواجهة الإخضرار وإن الدول العربية تمر الآن بشورة في البترول تنتج لها إمكانيات القوة والثراء ، وأن العرب الذين يبلغ عددهم مائة مليون شخص بدأوا يدركون فجأة أبعاد السلاح الاستراتيجى الذى يمكنهم به وقالت أن استهلاك الولايات المتحدة من البترول يزيد بنسبة ٨٧

سنويا وأن الدول العربية تسيطر على ٦٠ في المائة من احتياطي البترول العالمي وإن دخلها الذي وصل إلى أربعة آلاف مليون و ٤٠٠ مليون دولار وسيصل إلى ٤٠ ألف مليون دولار عام ١٩٨٠ وهذا الرقم يزيد عما تحققه الشركات الصناعية الضخمة من البترول وعددها ٥٠٠ شركة ، وقال ولیم فولبرايت : أنه قديماً يوم تقرر فيه إحدى دول الغرب احتلال دول النفط في الشرق الأوسط بالقوة أو ترك ذلك لأصدقائها الأقوياء عسكرياً في المنطقة كإسرائيل : الصحف ( أبريل عام ١٩٧٣ ) .  
واشرت الصحف اليومية في لندن ذات صباح هناوين ضخمة من كلمتين لا ثالث لهما :

### « العرب قادمون »

وقالت : ذلك لأن العرب يملكون القدرة على شراء أكبر شركات الولايات المتحدة وهلات الصحف لجرد أن فريقاً من أثرياء العرب قد حملوا معهم إلى لندن بضعة مئات لللايين من الجنيتات الاسترلينية لشراء الأراضي والمباني في قلب العاصمة البريطانية ( ١٩٧٤/٩/٢٠ ) . وتساءلت الصحف : عن الدوافع التي جعلت للمال العربي ولم تخف سنة هجرية بعد معركة العبور يحول إتجاهه صوب بلاد الفرنجة . وفي وسط هذا الخليط للفتنضار من النظرات وللشاعر نجد العرب يتجهون إلى تأصيل فكرهم الأسامي بالدهوة والعمل على إنشاء البنك الإسلامي وإعداد منهج أصيل للاقتصاد الإسلامي وتوجيه المال الإسلامي وجهة البناء والانشاء ويتحدث الفكر الإسلامي اليوم عن التكنولوجيا ودخولها إلى العالم الإسلامي وتحركها في إطار الفكر الإسلامي نفسه ويجري الحديث حول قدرة المال الإسلامي على شراء العلم نفسه وليس الآلات ، حتى يصبح علماً هربياً إسلامياً يتحرك في إطار اللغة العربية ، خاصة وأن البلاد الإسلامية أخذت تشكل قوتها العسكرية في مواجهة إسرائيل وكل خطر أو غزو استعماري أو شيوعي ، وقد أثبتت حرب رمضان أنه لم يعد لإسرائيل على العرب ذلك النفوذ التكنولوجي الذي كان معروفاً قبل عام ١٩٧٣ . كذلك فإن البحث يدور حول مجتمع الغرب الذي أسرف في الاستهلاك وأسرف في رفع مستوى معيشته وفي ترفه وبذخه ووضع للاقتصاد العالمي قوانينه التي تحكمه وهو يريد الآن من الدول الإسلامية أن تدفع الثمن له في أزماته كما كانت تدفعه في أيام رخائه وازدهاره . وتقول الأبحاث : أن الذين اخترعوا قوانين السوق والعرض والطلب ليس من حقهم أن يتذمروا إذا دارت عجلة هذا القانون مرة لغير صالحهم ، وإن تركوا المسافة تنسم بينهم وبين دول العالم النامية بل شعوبه الجائعة ، وأن العرب لا يريدون أن يدمروا قواعد الاستقرار الاقتصادي في ولاكنهم يريدون فقط حقوقهم ، أنهم يدركون وأجهم نحو المجتمع الدولي ولكن هل المجتمع الدولي أن يدرك واجبه فهوهم ، ذلك أن المجتمع الدولي ليس محتاجاً لحل مشاكله إلا لبعض

التعشف وهو مهما تعشف فسيظل في نعمة ، إذا قيس إلى سائر العالم بأكمله ولكنهم لا يريدون التعشف ويبحثون عن الحل على حساب الآخرين . وتشير الأبحاث إلى تأمر الغرب على نزوة الإسلام . وتقول : أن الخطر للمستحدث بالنسبة للعالم العربي هو الاحتواء الأجنبي والوصاية والتهديد بالمصادرة والاحتلال وأن للعالم العربي ما زال أسير للمؤسسات المالية العالمية حيث تستقطب الحضارة الأجنبية الجزء الأكبر من الأموال العربية وفي الغالب لا تدخل هذه الأموال في الاقتصاديات العربية بل تبقى خارجها .

(٣٣)

### التفوق البشري

من أبرز مظاهر تألق الإسلام في الآفاق : تلك الظاهرة الغضخمة التي تتأكد في مجتمع الإسلام وهي : التفوق البشري ، ومدى الخطر الذي يحسبه الغرب لهذا التضخم والجملة القاسية للمليئة بالتآمر على هذا الخطر خاصة في الوقت الذي يضعف فيه النمو البشري في الغرب ويتضاءل . ويطلقون على هذا التفوق البشري كلمة « الانفجار السكاني » . والظاهرة كما تبرزها التقارير والاحصائيات : إن العالم يضم الآن ٣.٥ مليار من السكان ترتفع إلى ٧ مليارات نسمة في نهاية القرن الحالي وقد زاد الجنس البشري سبعة مائة مليون في السنوات العشر الأخيرة في كل عام يولد بالعالم ١٢٧ مليون طفل ويصل إلى سن التعليم ٩٥ مليون طفل وإن الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هي أكثر الدول تأثراً بهذه الزيادة إذ أن ثلثي سكان العالم يعيش في هذه المناطق وأن خمسة أسداس الزيادة للنتظرة في هدد السكان تكون أيضاً في هذه المناطق وقد أصبح الوافدون يزيدون عن الراحلين في الشهر الواحد بما لا يقل عن سبعة ملايين نفس فالعالم يستقبل كل يوم ٢٠٠ ألف نسمة زيادة صافي بعد الخسائر وقد استغرق العالم ثلاثة آلاف عام بأكملها قبل أن يضاهف تعداده ولكنه الآن يتضاعف تلقائياً كل خمسة وأربعون عاماً .

ولاريب أن لنا نحن المسلمين عبرة في دراسة هذه الأرقام . فنحن نؤمن أن السكون كله لله وإنه هو الخالق وإن ظاهرة التفوق البشري هذه ظاهرة طبيعية في طريق اكتمال صورة السكون والأرض على النحو الذي أشار إليه القرآن لتأخذ الأرض زخرفها وزينتها ولتخرج الأرض مذخورها من معطيات الحياة في قاع البحار وفي قلب صخور الجبال وفي جوف الأرض ، وأن للمسلمين في هذه المائتي ألف

طفل يوميا أكثر من ٢١٩ ألف طفل وهذا يدل على أن ظاهرة التفوق البشرى تمثل جيشانا ضخما في عالم الإسلام بما يدل على تفوق ظاهر لهذه القوة المؤمنة بالله ، بينما نجد أن الانحسار السكاني واضح الدلالة في عالم الغرب . وفي إحصائيات أخرى أن عدد سكان العالم الآن هو ٣٧٠٠ مليون نسمة وأنه إذا سار معدل المواليد على حالته الآن فإن العدد سينضاعف خلال ٢٦ سنة ، أى في نهاية هذا القرن م يكون قد ارتفع إلى ٧٤٠٠ مليون ساكن وأن هذه الزيادة ستكون من نصيب الدول النامية في آسيا وأفريقيا أى أنه من بين ٢٢٤ طفلا يولدون في الدقيقة الواحدة ٢٠٢ طفل للدولة النامية و ٢٢ طفلا للدول المتحضرة . وهكذا نجد انحساراً شديداً في مواليد الغرب ونمواً شديداً في مواليد الإسلام ومن هنا نجد تلك الحركة الضخمة التي تصورها الصحف وتلوكلها دون أن تفهم ما وراءها ، وهي محاولة الغرب لضرب هذه القوة وتدميرها حتى لا ينمو في سنوات قريبة « ذلك العملاق » القى سيقود البشرية في اتجاهها الصحيح . ومن هنا نجد المجتمع الغربى يرفض تحديد النسل ويفرضه على عالم الإسلام ويعلم البابا بيوس الثانى عشر رأيه صراحة في تأييد المسيحية لسكنة النسل وبواجهه المسلمون مع حملة تحديد النسل ذلك التحدى الخطير ، تحدى نمو الصهيونية في فلسطين ونمو المسيحية في أوروبا وفى أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى ، بينما يطالب المسلمون بخفض تعدادهم وهنا تنكشف المؤامرة . أن الخطة مدبرة ضد المسلمين بالذات ذلك أن غير المسلمون يخشون تكاثر المسلمين ويحاولون إيقاف هذا التزايد بكل وسيلة : ومن هنا كانت الدعوة إلى تحديد النسل والحد من تعدد الزوجات . وبينما يطلب ذلك إلى المسلمين تترك الصين ليتزايد سكانها بمعدل ١٤ مليوناً كل سنة ويجرى تهديد العالم الثالث بنضوب الثروات وتلك أ كذوبة كبرى فإن الخطر كله كامن فى سوء توزيع الثروة والعالم الثالث يملك أغلب ثروة العالم وإفقاره إنما يجيء من نهب هذه الثروة وتصديرها للأمم المترفة الاستعمارية المسيطرة التي تأخذ أكثر من طاقتها والتي تقوم على سياسة الاستهلاك المدمرة .

## (٢)

نتحدث الأبحاث عن ظاهرة الانحسار السكاني في الغرب ونصفها بأنها ظاهرة خفية وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال وهي ظاهرة هبوط نسبة المواليد بين الشعوب الغربية والأمريكية بالذات ، فأمريكا تتجه نحو حالة الصفر فى النمو السكاني فهي تقف الآن فى النقطة التي يكون فيها عدد المواليد مساويا لعدد الوفيات . وتتحدى الأبحاث عن هذا الخطر الهائل الذى يهدد الولايات المتحدة والدول الغربية على بعد بضعة أجيال : مما يؤدي إلى انخفاض القوة العاملة وما يؤدي إلى ركود الإنتاج فى حين أن الدول الفقيرة تعاني نمواً هائلاً فى السكان .

وتقول الأبحاث أن عدد سكان أمريكا ٢١٢ مليون نسمة وإن النمو السكاني في أمريكا يصل إلى درجة الصفر ٢٠٢ هـ عندما يبلغ السكان ٢٦٠ مليون نسمة ، وإشارك الولايات في هذه الظاهرة ( السويد ، ألمانيا الغربية ، اليابان ، هنغاريا ، رومانيا ) وإن نسبة المواليد في هذه الدول في هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة . وأن الهبوط كان هائلا في الستوات الأربع للماضية : في السويد ، وفنلندا ، النمسا ، بلجيكا ، الألمان ، أما هنغاريا وبريطانيا قد بلغت درجة الصفر في النمو والقلق ناجم من أن القوى العاملة سوف تتضاءل في المستقبل مما يؤدي إلى ركود الانتاج ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوروبا في قضايا الاجهاض وفرضت عقوبات . ومنع السوفيات تداول الحبوب المانعة للحمل وأعطوا أجازات أطول للزوجة الحامل . ويتوقع الخبراء أن أكثر دول أوروبا ستصل درجة الصفر في النمو السكاني في بداية القرن الواحد والعشرين ، ويرى بعض الخبراء أن نمو السكان إلى درجة الصفر سيؤدي إلى ركود اقتصادي اجتماعي . ويرجع الخبراء هبوط الخصب في المدى البعيد في الدول للنتيجة إلى مجموعة عوامل يطلقون عليها التمتعير أو التحديث ( موردنا برشين ) ويقول الخبراء أن موانع الحمل والاجهاض قد خفضت للمعارضة الأخلاقية لضبط النسل وإن ثلث النساء الكاثوليكيات يمارسن موانع الحمل بالرغم من أن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ترى أن موانع الحمل أمر خاطئ غير مستحب كذلك فإن اللوجة الجديدة للأئوثة قد ساعدت على جعل نسبة المواليد منخفضة حيث شجعت للمرأة على تحدى دورها كربة بيت وأم ، وقال : الدكتور جسون يلدر : إن للمرأة لم تشعر بأن عليها خلق الأطفال لتصبح إنسانا بشريا ، ويرى كثير من النساء أن مساعتهن في المجتمع أو تحقيق اكتفاء ذاتي أكبر يكون ببقائهن في أعمالهن بدلا من البقاء في البيوت مع الأطفال وأن للمرأة تصبح شيئا مهما إذا كانت أما أو ربة بيت ( ٦٥ مليون امرأة عاملة تؤلف ٤٦ ٪ من القوى العاملة في الولايات المتحدة ) .

ويشتر التقرير إلى خطورة امتناع الشباب عن أنجاب الأطفال : يقول بول ابريس في كتابه ( القبيلة البشرية ) عام ١٩٦٨ وكتاب آخر ( حدود النمو ) إن العالم يواجه كارثة إذا تناهى النمو السكاني وقال ولفريد نيكرومان : إن الإنسان قد استخف بمجم للوارد الطبيعية الهائلة في العالم . وهناك إشارة إلى أن التضخم الاقتصادي يعد طائفا في إنجاب الأطفال . وأنه بوجود دخلين في البيت غدا في مقدور الكثير من الأزواج التمتع بالأمور الترفيهية .

(٣)

وهكذا نجد الخلفية الواضحة لموقف الغرب إزاء التفوق البشرى في عالم الإسلام ، أنه موقف الرغبة في إيقاف النمو حتى لا يمتدحز المسلمون ثمرات أرضهم ومقدراتهم التي تصدر إلى الغرب والتي يسيطر عليها عدد قليل من أصحاب الللايين أغلبهم من الذين يمتلكون ويديرون ثروة البشر كلها . ومن هنا كان ذلك الإلحاح الذي نواجهه في الصحف لا يتوقف على ما أسموه الانفجار السكاني وقد استندرجوا إلى الكتابة في ذلك عدد من الذين لا يعلمون ومنهم الافرام الذين ينظمون في اللامونية عن طريق أندية الروتارى والليونز وغيرها فضلا عن هذه الحشود من العلماء الذين تجميعهم مؤتمرات الوالدية في تحديد النسل وتزعم الغذاء العالمى . وقد أكدت عشرات المصادر والدراسات إن الخوف من نمو السكان في البلدان النامية والمتخلفة هو الذى يلقى سادة الغرب فإن هؤلاء يصيبحون قوة عددية تضر بالبلاد الأوربية وآية ذلك في العمل لهذه الغاية تلك المبالغ الم ضخمة التي تصرفها للؤسسات الدولية في إقرار هذا العمل في البلاد المتخلفة ففي تونس وحدها تصرف ٢٠ ملياراً من الفرنكات سنوياً على تأسيس مستشفيات للتعميم .

ويشير الأستاذ خورسيد الأستاذ بجامعة كرانثى عن سوء نية الاوربيين والتخطيط الاقتصادي لإدامة احتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية . « إن آسيا والعالم الإسلامى أكبر مناطق الارض اليوم إزدحاما بالسكان وما عدد السكان في البلاد الغربية بالقياس إليها إلا قليل : أنه هذا التفوق السكاني سوف يقضى على الاسس التي أقامها الغرب لسيادته السياسية في العالم منذ القرون الخمسة الماضية وعلى ذلك التفوق الفنى والعلمى الذى كان له على الشرق والذي به استطاع أن يقيم احتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه ، لقد آمن الاستعمار أن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه ، ولكن الأوضاع الحالية والحقائق الجديدة في العالم قد فتدت هذا الخيال الخطأى وأماطت اللثام من وجه الحقيقة وأنه لأجل التناقض المطرد في عدد سكان البلاد الغربية فقد ظهرت بوادر الانهطاط والأفول في السياسة رغم الشعور بعد الحرب العالمية الأولى خاصة بأن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهين السياسية والإجتماعية، ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العلمية شيئاً فشيئاً وأعلن المارشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الأساسية الرئيسية التي عمات لنوهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية . قلة عدد الأطفال والسكان . وقد بدأت آثارها السيئة

تحدث في حياة إنجلترا وغيرها وأوجست خيفة من آثارها السويد وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وشعرت بحاجة ماسة إلى إهادة النظر في خطتها بشأن عدد السكان ولذا فهي تبذل الآن جهوداً متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلاً من تقليله ، إلا أن الغرب لن يستطيع مع كل هذه الجهود أن يزيد عدد سكانه إلى حد يستطيع معه أن يحتفظ بمكانته السياسية ويبقى متربعا على كرسى السيادة العالمية بل الذي لا شك فيه أنه سيعود عاجزاً في المستقبل عن مقاومة الشرق والعالم الإسلامي مهما بذل من جهوده لزيادة عدد السكان في أقطاره .

وأشار الدكتور خورشيد إلى أن عدد السكان في بلاد الشرق أكبر بدرجات من عدد السكان في الغرب وأن هذا معناه أنه ليس في الإمكان بقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بمسد تدربها على الآلات الميكانيكية وتصنيعها في العلوم الفنية ، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة كسابق النظرة أن تفقد سيادة الغرب على العرب أزمى أيام حياتها وأن تبرر القيادة العالمية في أماكن فيها زيادة السكان ولها في نفس الوقت خبرة فنية وتكتيكية حربية فكل ما يصنعه الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية في مثل هذه الأوضاع خطير للغاية وأن أى محاولة للحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل مسألة فاشلة تماماً . نعم أن هناك محاولة خطيرة بمحاولها الغرب ليقف النمو السكاني والتفوق البشري في عالم الإسلام وكذلك لإيقاف القدرة على استعمال التكنولوجيا والسيطرة عليها في مقدمة ذلك خطة تحديد النسل ومنع الحمل كحل ناجح ، أو تحويل إرادة المسلمين والعرب لتوجيه مقدراتهم وثرواتهم ومقدرتهم الاقتصادية والمالية إلى طريق الإستهلاك والترف . ويقول الدكتور خورشيد « إن هذين أمريكاً وكل ما تبذل من النصائح والموادظ عن مشكلة السكان إنما هو نتيجة إلى حد كبير لشعورها بذلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغير الأحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ويقول آرثر كورمل : أنه لما تعجب الناس في البلاد المتقدمة إهجاباً فطرياً أن يقل عدد سكان الناس في البلاد غير المتقدمة ذلك أنهم يرون في زيادتهم المطردة خطراً داهياً على مستوأم الرفيع في المعيشة وعلى سلامتهم السياسية . وقد أشار ميك كارل إلى هذه المؤامرة الخطيرة لانقاص سكان العالم الإسلامي ، قال : إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً حتى يظلموا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يقتفرونه لأنه أهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولا سيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها وأن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل إلا البلاد التي تتمتع بزيادة السكان وتنحلي في نفس الوقت بالعلوم الفنية وأن محاولة أمم الغرب

للإحتفاظ بسيادتها وقيادتها للعمل هي التي تدعوها إلى العمل على نشر حركة تحديد النسل ومنع الحمل في بلاد آسيا وأفريقيا وفي نفس الوقت تعمل البلاد الأوروبية الآن ما في وسعها لزيادة سكانها وفي نفس الوقت تستعين بأحسن ما عندها من أساليب الدعاية لتقيم حركة تحديد النسل في البلاد الآسيوية والأفريقية وللأسف أن كثيرا من المسلمين يتقدمون ليقعوا في شرك دجلها وقد تنبه إلى هذا اللعق الفيلسوف الإسلامي محمد إقبال : الذي يقول : هناك سيل عرم من السكتب والرسل قد انجرف في بلادنا لدهوه الناس إلى اتباع خطة منع الحمل ونشويهم إلى قبول حركتها ، هل حين أن الغرب في بلادهم يتابعون الجهود الفنية لرفع نسبة المواليد وزيادة عدد السكان .

ويقول الأستاذ هلال الغامى : أضحى أكبر الخطأ أن تدرس حركة تحديد النسل منفصلة عن سياقها السيسى والتاريخى فنحن لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها ولا أن نرسم لأنفسنا خطة عملية راشدة إلا داخل نطاق التحدى . فإذا أضفنا إلى هذا الخطط الصهيونية لإجلاء العرب من الشرق الأوسط وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليه وخلق حركات داخل كل بلد عربى وإسلامى من الأقليات التى يصل بها التعصب أحيانا إلى اللطالبة بالانفصال عن الوطن الواحد عرفنا أن التنقيض فى عدد اللواليد لا يخدم إلا مصلحة الاستعمار والصهيونية .

[illegible]



(٣٤)

## مستقبل الإسلام

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في كتابه ( الإسلام والغرب والمستقبل ) : تستطيع أن تميز بعض للبادئ الإسلامية التي يمكن أن يكون لها في المستقبل القريب أثرها البالغ إذا ما أتت لها أن تعمل عملها في الحياة الاجتماعية ، ذلك أن هناك مصدران للخطر تواجهها الحضارة الغربية هما : الشعور بالانصرمية وآفة الحمر وأن الروح الإسلامية في مكائنها لكل من هاتين الآفتين تستطيع أن تسدّ خدمات اجتماعية وأخلاقية جليلة . إن انطفاء جذوة النزعات الانصرمية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام ؛ وفي العالم المعاصر تبرز الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالانصرمية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سمات العصر الحاضر أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقطع لنفسها — ولو مؤقتاً — حصّة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة . ويشير توينبي أن أخطار النزعات الانصرمية الهدامة التي بلغت أوجها في أفريقيا الجنوبية ، أو في العالم الجديد عبر البحار قد أخذت تعصبا عنصرياً ما زال في تزايد ، وهناك أن القوى التي تدافع عن فكر التسامح العنصري إذا ما أعانتها قوى أخرى ومن المعقول أن تكون روح الإسلام هي تلك القوة المدخرة التي قد تقرر مصير تلك المشكلة لصالح للتسامح والسلام .

ويحدث عن آفة الحمر ومالها من أثرى بين الشعوب البدائية في المناطق الاستوائية التي فتحها الغرب وصارت ميداناً لمشاريعه ويقول : إن الإسلام يستطيع أن يلعب دوراً في هذه المناطق الاستوائية التي فتحها الغرب ، ثم يقول : هنا نستطيع أن نرى أثرين فعالين يمكن أن يحدنهما الإسلام في مناطق وقعت تحت سيطرة مجتمع غربي رعى بشباكه على العالم كله . ولا ريب أن المؤرخ توينبي قد ظلم الإسلام ظلماً شديداً مرتين ، مرة حين تنسك لحضارته ودورها الضخم في بناء مستقبل البشرية كله ومرة أخرى حين أراد أن يقرر دوره في المستقبل على حل مسائل الانصرمية والحمر ، ولا ريب أن يكون توينبي قد صدر في بحثه كله عن ذلك الاتجاه المسيحي الغربي الذي استحل به كل مفهوم والذي حصره دون الأنصاف أو التقدير لكل ما استعجش به للبشرية من قوى جديدة ، ذلك أنه كان يريد الدفاع عن الحضارة الغربية : حضارة الليبرالية الفردية التي صنعها

المسيحيون الغربيون ، وأن يقف في وجه التحديات التي قدمها دروكن وشبنجلر من سقوط الحضارة الغربية وانهارها وقرب أفول نجمها .

ولا ريب أن أرى توينبي في مستقبل الاسلام هو رأى الغرب المسيحي الرأسمالي الطامع إلى استدامة السيطرة ( مع الاحتفاظ بوحدة نظره إلى الصهيونية التي يستمدّها من نظره المسيحية المعادية لليهودية ) ولذلك فهو يرى أن أسلوب العيش الغربي في العالم الإسلامي هو الطريق الوحيد وإن على المسلمين أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا الغربية وأسلوب العيش معها وهذا هو الزيف الذي عجز توينبي عن أن يتحرر من السقوط فيه وهو بشر ولا شك يؤمن بمسيحيته وحضارته وغربته . ولا بصور مستقبلا للبشرية غير هذا الغرب وهذه الحضارة وهو يريد أن يطعمها بكل ما في الديانات أو الفكر الإنساني من أسباب تمسك في عمرها وتجعلها خالدة إلى الأبد وهيئات ، ولذلك فهو يحذر من نقطة الخلافة الإسلامية ، ويحذر من تزعم المسلمين لقيادة العالم ، ويحذر من فريق ثالث ليس هو المتابع للغرب أو المحاصم للغرب . ويقول إذا سبب الوضع الدولي الآن حروبا عنصرية يمكن للاسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى ثم يقول : « وأرجو أن لا يتحقق ذلك » . وهناك اعتذاره عن جرائم المستعمرين وإغفاله دور الماسونية واليهود ( الذنوب ) في إسقاط الخلافة ودهم حركات التفریب وهذا ما لاحظته الأستاذ مسيح خوري في بحثه عن توينبي وبالجملة فإن رؤيا توينبي هي رؤيا مسيحية مستمدة من تفكيره الغربي المسيحي وإن نظره للاسلام قد صدرت عن روح التحيز الذي لا يستطيع التحرر منها ونحن نؤمن دائما بأن التماس وجهة نظر الوافد لا قبلها أبداً في استقراء الأمور وأن الطريق الصحيح هو أن نواجه قضايانا في ضوء العقيدة الاسلامية والايمان بها ومعرفة أبعاد التحديات التي تواجهها . وقد استطاع المسلمون عام ١٩٧٣ م - ١٣٩٣ هـ كسر قيد ظل يحول بينهم وبين التحرك زمنيا طويلا بعد أن أدالوا من الصهيونية في معركة العاشر من رمضان وتلك علامة على طريق جديد في حاجة إلى عمل كبير حتى يتحقق له من النتائج مايكفل دهم هذا المنطلق الجديد ، وأن الخطوة التي قام بها الفكر الاسلامي منذ بدأ مرحلة اليقظة توشك أن تسلم العالم إلى مرحلة جديدة هي مرحلة النهضة . وإن مواجهة الصهيونية العالمية التي اتخذت رأس جسر لها في فلسطين هو بمثابة العمل الذي تتركز فيه القوى وتنصر فيه التحديات التي حملها الاستعمار والشيوعية خلال أكثر من مائة عام ، وإن هذه القوى الثلاث تتكامل اليوم لتحول بين ضربة جديدة لعميقة ، وما تزال قضايا بنجلاديش والفلبين ولبنان وجنوب السودان والتحديات التي تواجه مسلمي أفريقيا والملايو

تشكل أخطارا وتحديات ذات أهمية خطيرة في الخطوة التي تحاول الصهيونية العالمية القيام بها في وجه التقدم الإسلامي الزاحف بقوة مختلفة : الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والتفوق البشري، وتجري المحاولات في كل هذه النقاط لإحداث التزق والانفاد والحيلولة دون تحقيق الغاية المرجاه.

( ٣٥ )

## التحدى الكبير القائم في وجه المسلمين

إن التجارب العديدة التي تمر بالمسلمين، وخاصة تلك التي مرت في السنوات الثلاثين الأخيرة جديرة بأن تلفت أنظارهم إلى حقيقة ماثلة يجب ألا تغيب عن الأذهان لحظة، ويجب أن تقوم كل مخططاتهم ومشروعاتهم ومصالحهم على ضوءها، ويلزم أن تكون عنصراً أساسياً لكل مخطبتهم ومشاكلهم، بل وجدهم ولهموم. ذلك هو ما يسمى بالتحدي الكبير الذي ينتهي، هذا التحدي الذي أسلم الشعوب إلى المزعزعة والتخالف حين فقدت الإحساس به، وغفلت عنه وحين غلب عليها ذلك الإحساس بالأمن والتوقف عن مواجهة التحدي والغفلة عن الحذر الدائم إزاء إخطار الأعداء المتربصين. لقد كان هذا الأمر وهذه الغفلة عن أدوات المقاومة والمحافظة على ثمر الأمة وأطرافها باليقظة والسلاح والمراقبة وتلك الاستنامة عن الأخطار هي مصدر كل ما واجهته من مباحنة على طول تاريخها سواء من الدولة البيزنطية أو الحروب الصليبية أو حملات الفرنجة أو زحف التتار أو تطويق الاستعمار للعالم الإسلامي في العصر الحديث أو هجرة اليهود إلى فلسطين. أن المراجعة لوقائع التاريخ الإسلامي تثبت أن مصدر الأزمات الكبرى كان هذا الأمن، وهذه الغفلة عن الأسلحة والاستنامة عن الأخطار. ولقد كان « الحذر » عنصراً أصيلاً وأصلاً أكيداً مما علم الله سبحانه وتعالى المسلمين في القرآن حين دُعا إلى إقامة الأمة الوسطى وهو جزء لا يتجزأ من كيان هذه الأمة ووجودها فإذا غفلت عنه فقد آن لعدوها أن يصيرها بالفرز والتسلط والاحتلال.

ولقد كانت أكبر معارك المسلمين هي في مواجهة هذا الخطر، وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في بغداد عام ٦٥٦ هو مقدمة الغزو الذي قام به التتار وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في تلك الفترة التي تصل بين حدود الدولة الرومانية وبين بلاد المسلمين وهو مقدمة الغزو الصليبي ثم الغربي، وكان

التراخي في للرابطة في الثنور الاسلاميه على البحر الأبيض في مواجهة أوروبا هو الذي يمكن الدراكب الصليبية من الوصول إلى موانئ الشام وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في الأندلس هو مقدمة انقضاء الأسيان والبرتمال عليهم والقضاء على وجودهم فيها . ولذلك كان الأمن الذي عرفه المسلمون في أبان الدولة العثمانية . هذا الأمن ليس أمنا صادقا ولكنه أمن زائف لأنه يقوم على تجاهل واقع العالم من حول المسلمين ، والنكوص عن الوصول إلى أدوات التقدم والفرق في الترف والمعدات والأهواء ، والانقسام والصراع بين الحسكام . ولقد ولدت أجيالنا في ظل الاستعمار الذي سيطر على العالم الاسلامي منذ أكثر من مائة عام ومازنا نعيش هذا الخطر ، ولقد خيل إلى البعض أن خروج جيوش الاحتلال ونحر الأوطان هو مقدمة لمرحلة من الأمن جديدة ولذلك فإن محاولات التلميح من الخطر كانت مصدر الضربات التي أصيبت بها العرب والمسلمون في السنوات للنوالية هزيمة ونكسة وغزوا وتسلطا وسيطرة على فلسطين وبيت المقدس . وما يزال الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين وبيت المقدس يمثل قة التحدي والخطر الذي لايسمح للمسلمين والعرب مطلقا أن يحسوا بالأمن ، ذلك لأن هذا الخطر ليس محددًا بمكان ولكنه خطر مصحوب بالتوسع والمطامع في بلاد كثيرة ومواقع غاية في الخطورة والحساسية وهو ليس خطراً سياسياً عسكرياً فقط ولكنه خطر فكري وثقافي واجتماعي ، متصل أشد الانصال بالقاتية الاسلامية وكيئونة الأمة العربية وبالنظام الاسلامي والشريعة الاسلامية وباللغة العربية والتاريخ الاسلامي جميعاً ذلك أنه يستهدف استلاب السكبان النفسي الاسلامي المتمثل في العرب أولاً وفي الفكر الاسلامي أساساً وذلك أمر خطير يستدعي أن تظل الأمة بكامل قواها وأفرادها وكفائاتها ومقدواتها قائمة يقظة لا يطارف لها جفن أو تنام لها عين إلى جيل أو جيلين آخرين .

ولذلك فإن من أشد ما يدخل على المسلمين الآن أن ينصروا أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياة الأمن ، أو أن يتوقف الجندر . مادامت هذه الجبهة مفتوحة عليهم جميعاً وأخطارها قريبة من كل أوطانهم . فإذا آمنوا وأقاموا مجتمعاً فيه طابع الرفاهية والترف فإن ذلك سيكون منذراً باجتياحهم من قوى هدية تقربص بهم . ولذلك فعلى المسلمين والعرب أن يوطنوا أنفسهم على أن يعيشوا حياة الخطر والتحدى لا حياة الأمن ، وأن يظلوا قائمين في مواجهة الخطر وفي حالة الجندر ، وأن يكونوا في رباط دائم . وليس هذا غريباً ولا هجيباً ، ولكن الغريب هو عكسه مما حاول خصوم المسلمين أن يلقوه إليهم بالطمأنينة والاستسلام وإلقاء أنفسهم في أحضان عدوهم وقد شهدوا نتيجة التجربة وخطأ التبعية فإن قواين للتغريب والفزو الثقافي أوقعتهم في الهزيمة مرة ومرة ولم ينهتق

لهم النصر إلا حين أخذوا بقوانين أمتهم وعقيدتهم والنسوا الأصالة من خلال مفهوم الإسلام . ولا زال الإسلام كذلك وسيظل منذ أن بزغ فجره وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يمثل هذه القوة الصامدة على أرض الله تحمي رسالته وأمنه في مواجهة كل القوى التي تحاول أن تفتتها سواء جاءت من شرق أو غرب أو شمال أو جنوب ، وذلك موقعها الجغرافي ومركزها الاستراتيجي ومكانتها الاقتصادية ومقدراتها ومعطياتها وثرواتها ، ولأمر آخر ، ذلك أنها تحمل رسالة التوحيد والعدل والأخاء البشرية إزاء عالم يعيش بالأحقاد والصراع والتسلط والسيطرة . ولذلك فقد كانت كل القوى وستظل تحاول أن تنجم لتعطيم هذا الكيان أو احتوائه ، ومن هنا كان على أصحاب هذا الكيان أن يكونوا قادرين بأحدث وسائل العصر وأقوى قوى الإيمان بالله على الثبات في وجه الأعداء والصواعق .

ومن هنا جاءت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاسمة فيما معناه أن هذه البقعة في رباط إلى يوم القيامة . وحين يحاول الباحثون والمفكرون مراجعة التاريخ في سبيل البحث عن سبب التخلف الذي أصاب للمسلمين والمهزبة التي لحقت بهم في الماضي ، نجد أن ذلك يتركز في مصدر واحد هو أقوى من كل المصادر وأبرزها ذلك هو [ فقدان الحذر والاعتدال إلى الأمن ] . وشئ آخر هام : هو تهاوى الإرادة الحاسمة في وجه الخطر . ولا ريب إن تخلف المسلمين على مدى العصور قضية مستفحلة عن الإسلام نفسه كمنهج ورسالة ، ذلك أن المسلمين قد طبعوا الإسلام في مراحل من تاريخهم فوجدوا عظمة التمسك في الأرض فلما خالفوا هذه وجدوا الأزمة التي لا تنكشف إلا بمودتهم إلى التماس منهج الإسلام . ولا عيب في المنهج لأنه منهج رباني المصدر ، قائم على الفطرة والحق والخير وقد جرت تجربته الناجحة المظفرة وسجلت بصماتها على صفحات التاريخ ولن تكون القيم الإسلامية في تقديمها ونصائحها مستوفاة عن التخلف بحال وإنما جاء التخلف من تجاوزها وإهمالها . وسقوط المهزبة وتهاوى الإرادة ، هي مصدر آخر إلى جانب الغفلة عن الأخطار الحادثة من كل جانب ، ويرجع ذلك إلى التهاون في بناء الإنسان المسلم على الصمود والخشونة والانقطاع عن الشهوات بحيث يكون قادرا على الانتصار على النفس فلا تستهويه المتارف والمغريات فيسقط ذليلا أمامها ، ولا بد أن يعود المسلمون إلى بناء الإرادة بالاستعلاء عن الأهواء وبناء الفكر بالنظر إلى مختلف الأبعاد . أن ظواهر التخلف ظهرت في اليوم الذي بدأ فيه المسلمون يميلون إلى الحلول السهلة ويسترخون ويتجاهلون الخطر الحديدي ويستهينون من حياة الوقوف في وجه التحدي والمرابطة الدائمة في الثغور والانحراف عن تطبيق القرآن شريعة أمه ومنهج حياة ، وهم أمة الرباط إلى يوم القيامة كحدث الصادق المصدوق .

لقد فقد المسلمون التحدى فسقطت المعززة وهزلوا عن المجاهدة حين قدوا روح الصلاة ، وطابع  
الايمان واكتفوا بالمظاهر ، وهذا الدين لا يصلح له إلا من يأتيه من جميع أطرافه . عند ذلك  
دارت الدائرة . . يقول المؤرخ أرنولد توينبي : أن الغرب وضع الحبل في رقية العالم الاسلامى منذ  
القرن الخامس وكان يتهيب أن يشده وظل خائفا ثلاثة قرون ، ثم بدأ له أن المسلمين في نوم عميق  
فشد حبله وسيطر . وهلى المسلمين أن ينظروا إلى الطامعين ، وكيف أنهم يعيشون في حالة التحدى  
التي لا تنتهى ، وهم على الباطل فما بال أهل الحق وفي حوزتهم تلك الأمانة التي سلمها لهم الأجداد ،  
كيف يلقون الله وقد فرطوا فيها وكيف يحكم عليهم التاريخ ، هؤلاء في باطلهم لا يستسلمون فكيف  
يستسلم المسلمون ويفرطون فيما يملكون وهم حملة أصدق رسالة وأصحاب حق ، وهم الموكلون بتبليغ  
هذا الدين إلى العالمين . ولماذا لا يشبتون على حقهم ولا يصمدون في واجهة الأعداء الموح ، ولماذا  
لا يعبدون بناء إرافتهم بإقامة صرح التربية الاسلامية ، ولماذا لا يقومون تنذيرات الأمم والمجتمعات  
وقد أعطاهم كتبهم نوايس السكون والأمن والحضارات . أن مسئولية المسلمين في هذا العصر  
جد خطيرة وحساب التاريخ لهم جد هسير .

( ٣٦ )

## الاسلام في دورة الفلك

ترددت في الغرب منذ وقت بعيد أفكار تقول : د أن الحضارة الغربية في طريقها إلى الانهيار  
وأنة لكي يطول أمد إنهارها يجب القضاء على الوريث الوحيد الذي هو الأمة الاسلامية التي تحمل  
بدينها وتراثها وتربطها وموقعها الاستراتيجي كل مؤهلات القدرة على حمل لواء الحضارة على نحو  
أكثر صلابة وعدالة وإنسانية ومن أجل هذا وجهت الخلعط للعمل على تقويت هذه الأمة حتى لا تتمكن  
من القدرة على إمتلاك إرادتها والسيطرة على العالم . هذا المعنى الذي انتهت إليه أبحاث مؤتمر علمى  
جمع صفوة من الباحثين الغربيين الذين درسوا تاريخ الحضارات القديمة وخاصة الحضارة الرومانية  
والفارسية وغيرها ، وما يزال يفرض على مخططات الغرب وجهة معينة في كل ما يتعلق بأمر الاسلام  
والمسلمين ربما لا تبدو واضحة لدارسى الأحداث الفرعية يوما بعد يوم حيث يجسد علامة استفهام  
كبرى أوحلقة مفقودة ، وهذا العمل هو من مخططات الصهيونية والاستعمار والماركسية وهى القوى  
الثلاث التي تتمثل في د قوة قائمة من وراء المذاهب والحكومات والنظم تحاول أن تفرض نفوذ  
أصحابها على واجهة السياسة العامة الظاهرة .

ومن وراء هذه القوى تكمن الدعوة إلى محاولة تقليص للمسلمين بوسائل مختلفة من بينها إضفاء أسلهم وتحديد حقه لا يكونوا تفوقاً بشرياً خاصة وأن الغرب الآن قد وصل إلى مرحلة الانهيار والضعف ثم محاولة تبديد الثروات الإسلامية حتى لا تشكل قوة تجمع وتحشد في مواجهة الغزو الاستعماري والصيوني . ومن طريق « التفريب » والغزو الثقافي حتى لا يلتقي المسلمون على أساس واحد من الفكر والإيمان والاعتقاد . ونحن حين نبحث في كتابات رجال الاستشراق والاستعمار نجد ( توجيهات صريحة واضحة في هذه الأمور جميعاً ، كلها تملن الخوف من الوحدة الفكرية الإسلامية وهناك محاولات تحاول أن تجد صيحات الخوف من الجامعة الإسلامية والوحدة والخلافة ) . ومن أجل هذا يجري العمل في محيط الفكر المطروح في أفق العرب والمسلمين على دعوتهم إلى أشياء كثيرة كلها زائفة . وأخطر ما يدعونه إليه فرض تصور بضرورة التلازم بين الأخذ بعلم وتكنولوجيا العصر وبين اتباع أسلوب العيش الغربي بكل عله وأمراضه . وأي عقل يمكن أن يقبل ذلك : هذا جهاز غربي المصنع من أحدث الأجهزة سواء كان حقلاً إلكترونياً أو آلة سينما أو راديو أو مركبة فضاء كيف يمكن أن يطلب إلى أن أحل داخله فكراً غربياً أنه ( أداة ) ليست سوى منطلق لما أريد أننا أن أقوله عن طريقها أو أحمله عليها . ما العلاقة بين للطبعة أو السينما أو التليفزيون وبين آراء الغرب ومفاهيمه وسوموه ، أن هذه الأدوات إنما استفد منها لتحمل للناس أفكارنا وتاريخنا ووجهة نظرنا فهي أداة فقط مفصولة تماماً عن فكرها . ونحن ننقل أحياناً مترجمات الغرب وأفلامه ورواياته ولكننا نعرف دائماً أن ذلك هو فكر ومثل وأساليب مجتمع غير مجتمعنا ، نطالعها لكي نعرف أساليب عيش الآخرين ولكننا لا نطبقها حيث لنا أساليبنا وتقاليدها وقيمنا . وكيف يمكن أن ننقل أسلوب عيش الغرب والغرب الآن يسير في مرحلة التمزق والانحلال والانهيار الاجتماعي سواء في أسرته أو مجتمعه أو أخلاقه أو أدبه أو فلسفته وكيف يطلب إلينا أن نقبل ذلك . ولو كان الغرب في مرحلة القوة والتماكك اليوم لما كان لنا العذر أيضاً في أن نأخذ أسلوب عيشه ولا أن يبهزنا منهجه ، فإن جذور الخلاف ووجهات للنظر وطريقة التفكير بيننا وبينه هي جد مختلفة من الأعماق . وما نحن بعليلة ديننا وتركيبنا الثقافي والاجتماعي مؤهلون للاندماج أو الانطواء أو الانصهار في المجموعات البشرية الأخرى مع تقديرنا للجامعة الإنسانية التي تربطنا ولكننا مؤهلون في الحقيقة لأداء دور مختلف : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، فهذه الجماعة للؤمننة التي أنشأها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ليست في الحقيقة إلا « جهازاً » جديداً إنما « أهد » ليقدم للبشرية رسالة الله وليؤدي على وجه الأرض كلمة الحق ولتقيم مجتمع الإنسانية السعيدة التي عجزت الابدولوجيات للتعديده عن أن تصل إلى شيء منه ، هذه الأمة إنما تمد لذلك ، ودورها قائم ، وأن

جهل ذلك الكثيرون الذين يرون أنه لا فائدة لنا إلا أن ندمج ونصهر في الحضارة القائمة بخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب ، وما هكذا كانت دعوة قرآننا ورساله لبينا ، وإنما كانت هذه الرسالة لقيادة البشرية إلى الخير والحق . ولا ينتص من هذا الهدف الكبير الضخم الذي لم تنضج بعد الأمة الإسلامية لأدائه وحمل أمانته ، لا ينتص منه ما نرى من « أزمة » وتخلف وتمزق ، ما تزال هقبايله بعيدة المدى وما يزال الضوء الكاشف للفجر الجديد بعيد ، ولكن من يعرف أن هذا السكون يجري أمره على سنن وقوانين لا تتخلف . ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ) . يعرف أن للمسلمين لا يخرجون على هذا القانون مهما كانوا مؤهلين لقيادة البشرية ، ولا بد أن يخضعوا لسنن الله وأن يقابلوها ويتوافقوا معها حتى يصلوا إلى وضع القوة والتمكن : وهذه الحضارة القائمة إنما هي بمثابة حفل التجارب الذي يوضع بين أيدي المسلمين حينئذ ، ليقفوا على ما في التجربة الغربية التي أمتدت منذ أن أسلم المسلمون ميراثهم في الأندلس إلى اليوم . ولبروا ما هي الإيجابيات والسلبيات ولينمكنوا من بعد من تحقيق إرادة الله وتطبيق حدود الله فلا تكون الحضارة صراعا ولا ترقا ولا يندخا ولا ظلما ولا سيطرة ولا غرورا فإذا أحسن المسلمون فهم تجربتهم الأولى وتجربة الغرب اليوم واستقاموا على الطريقة أسلم الله إليهم قيادة البشرية في مستقبلها القريب وإلا فإن سنة الله سوف تلحقهم مرة أخرى .

إن الأمة الإسلامية المؤهلة لقيادة البشرية وذات المعتقد الأصيل الأصل لا يمكن أن تخدع وهي تستطيع أن تأخذ من العلوم ما تشاء على أنه مواد خام وأن نصهر ذلك في بوتقة ( لا إله إلا الله ) متحررة من أطماع العيش ومن أوهام الوثنية وأخطار المادية وفساد الأباحية وهي تعرف الآن معرفة تامة ماذا يريد بها الغرب ؟ وماذا يعد لها ، وتعرف أن الحضارة المصرية على شفا الهاوية ، بالإلحاد والتمزق والتحلل . وسوف تنسكر كل القيود وتنحطم كل المؤامرات التي تدبر لتأخير دور المسلمين وإطالة أمد الحضارة المنهارة ( إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ) يحدث هذا عندما يصبح المسلمون مؤهلين لحل الأمانة قد فطموا أنفسهم عن الشهوات والمطامع وأصبحت الدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم وليعلموا أن ما يعطيهم الله من تفوق بشري وثروة مال وموقع استراتيجي إنما هو في عداد المسؤولية والحجة المقامة عليهم يوم الحساب بأنهم قادرون على إقامة الحق ودفع الباطل .

لاريب أن المسلمين اليوم هم المؤهلون لهذا الدور الذي يقترب حينئذ ولكنهم في حاجة إلى استعداد كبير لحل الأمانة ، وإلى فهم عميق لضرورة تحويل الحضارة في اتجاه العمل الإنساني القائم على الأخاء البشري وعلى المساواة بين الناس وعلى هدم العبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،



وعلى أن تكون ثروة المسلمين في صييل إسماعاد البشرية كلها وليست لخدمة حفنة من أباطرة الاستعمار والصهيونية المسيطرين الآن على مقدرات الشعوب . أن كل الدلائل والعلامات تدل على أن حضارة المجتمعات الغربية سوف تنهار وتندك معاقلمها وسوف ترد أصولها ومقوماتها العلمية إلى أيدي المسلمين — جزاء وفاظ — ليحملوا مرة أخرى أمانة الحضارة الحقة فهل سيكونون على طريق القرآن ونهج الاسلام . ليست المسألة أكثر من مسألة وقت حتى يمتلك المسلمون في أيديهم تلك الأسرار العلمية بقوة ويحولونها إلى أحضان لغتهم التي هي لغة القرآن وأن التحدي الصهيوني ما هو إلا مقدمة لهزيمة المسكر والتأمر التلهودي مهما بدأ الآن وكان الصهيونية قادرة على الحركة .

وسوف تعيش حضارة الاسلام الصاعدة حضارة التوحيد إلى جانب حضارة الغرب الفاربة حضارة الوثنية فلا عيب أن تتجاوز الحضارات ولكن البشرية سوف ترى نموذجاً فريداً .  
فالحضارة الاسلامية ليست عدوانية ولا غازية ولا مستعمرة ولا منسلطة ولكنها سوف تجعل معطيات العلم والتقدم للبشرية كلها وليس للجنس ولا لامة ولا لطبقة . ومهما حاول دهاقين السياسة الغربية من استعمار وماركسية وصهيونية في تأخير هذا الضوء عن ظهوره في مواعيد المقدر له فلن يستطيعوا .

( بل نقذف بالحق على الباطل فيدمعه فإذا هو زاهق ) .

صدق الله العظيم

## الرسالة الثالثة

من الوحدة الإسلامية العثمانية  
إلى : العرب والترك ( والعروبة والإسلام )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مدخل

تفسير جديد للتاريخ الإسلامى المعاصر

انكشفت فى السنوات الأخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيعت أمرار كثيرة ظلت فى على السكتان أهواماً وأجيالا ، وقد كان لظهور هذه الحقائق والأسرار أثرها البعيد فى مجرى الفكر العالمى ، وكان لها بالطبع أثرها العميق فى حركة التاريخ الإسلامى المعاصر جميعاً . ذلك أن وقوع العالم الإسلامى تحت سيطرة النفوذ الأجنبى فى القرون الأخيرة قد خلق حالة من حالات الخطر وأنشأ أزمة بالغة الأهمية بالنسبة لحركة اليقظة العربية الإسلامية التى كانت قد بدأت عملها منذ منتصف القرن الثامن عشر قبل أحداث كثيرة وقعت فى أوروبا وفى الشرق ومنها الثورة الفرنسية والحلمة الفرنسية على مصر ومخططات النفوذ الاستعمارى التى عمدت إلى تمزيق جبهة العالم الإسلامى بتقسيم أفريقيا وآسيا ، ووضع حاجز بشرى بينهما فضلاً عن أطماع الصهيونية العالمية فى الزحف إلى فلسطين والسيطرة على بيت المقدس ، ولقد كان النفوذ الاستعمارى فى مجال الفكر والثقافة والتاريخ والأدب واللغة قد أهد خطة كاملة لضرب الإسلام واللغة العربية والعروبة جميعاً من أجل تثبيت دعامته ، وفى هذه المرحلة توالى قوى النفوذ وتعددت وحاول كل منها أن يسيطر على السابق وأن يفرض سلطانه على هذا العالم الإسلامى الذى هو فى نظر الجميع : مصدر النور الاقتصادية والاستراتيجية ، وقد كانت قوى الاستعمار بما فيها فرنسا وإنجلترا وروسيا ومن ورأهم الصهيونية العالمية كلها تستهدف تقسيم العالم الإسلامى أساساً واقتضاء على الدولة العثمانية باعتبارها القوة الأساسية القادرة على تجميع المسلمين ورفع علم الوحدة أو التجمع أو التضامن الإسلامى ومن هنا فقد كان المخطط يحتوى على عملين أساسيين : العمل الأول : هو بث الشبهات حول القيم الإسلامية العربية فى مجال التاريخ واللغة والعقيدة جميعاً

وذلك من طريق مؤسستين أساسيتين : إحداهما ( مدرسة الاستشراق ) التي كانت تدرس وتضع وتحاول تجميع الشبهات والتناقضات وتذيعها على أنها حقائق وذلك من أجل تدمير معنويات هذه الأمة في نفوس أبنائها وخلق جو من اليأس والتمزق وصولاً إلى أن إثارة الشبهة بأن الإسلام والقرآن واللغة العربية هي جميعاً مصدر ما وصل إليه العالم الإسلامي من ضعف وتخلف وأن الطريق الوحيد هو الانصهار في بوتقة الغرب المالية والدوبان فيها . ( العمل الثاني هو إهلاء ) شأن أوروبا والغرب والحضارة ، والفكر الغربي والجلس الأبيض باعتبارها جميعاً تمثل القوة المسيطرة على مصير العالم . وأن زعماءها وأبطالها ولغاتها وفكرها هو : المصدر الوحيد للنهضة التي يحاول أن يلتصقها العالم الإسلامي . ومفهوم هذا المخطط هو أن يفسخ المسلمون والعرب من تراثهم وقيمهم ولغتهم ، وأن يندوبوا في داخل بوتقة الفكر الغربي المسيحي الطابع الوثني الأفريقي الجوهر المضطرب في داخله وأعماقه بين فلسفات الفردية والجماعية والليبرالية والرأسمالية والشيوعية والذي لم يستطع أن يصل خلال خمسة قرون كاملة إلى منهج اجتماعي أو نفسي يعطى الإنسان المعاصر ذلك التطلمع إلى الآفاق العليا من إيمان وعقيدة فقد بدأت النهضة الغربية من مصادر الإسلام والمنهج العلمي التجريبي الإسلامي أساساً ثم تحولت إلى مناهج الوثنية اليونانية مع إطار من المسيحية فزجت كل ذلك وصاغت منه منهجاً مضطرباً ، قوامه الليبرالية الرأسمالية ثم انبثق منه منهج الجماعة الماركسية الذي تمثل في الشيوعية السوفيتية وقام بينهما الصراع الطويل الذي ما زال مستمراً ، ثم قامت الصهيونية العالمية مسيطرة من وراء المنهجين والمجتمعين في سبيل الوصول إلى وراثة النظامين وإقامة الدولة اليهودية العالمية الكبرى .

وقد واجه العالم الإسلامي صراع القوى الثلاث لأن هذا الصراع دار على أرضه أساساً ثم واجه الفكر الإسلامي صراع المذاهب الفلسفية والاجتماعية المختلفة وكان موقفه منها موقف المتردد في قبول ما فرض عليه بقوة النفوذ الاستعماري أولاً ، ثم تحول من ذلك إلى وهي بموقفه ، ومفاصلة بين مفاهيمه الأساسية العميقة ذات الجذور البعيدة للدي في التربة الإسلامية العربية والنفس العربية الإسلامية والتي بها القرآن ، ورسمها الإسلام ، وأذاها محمد منذ خمسة عشر قرناً ، وبين هذه القيم المضطربة والمتصارعة التي تختلف عن مفاهيمه في أعماق أعماقها وفي أصل جذورها : « التوحيد » ، ولقد كانت البقعة العربية الإسلامية التي انبعثت من أعماق الأمة العربية مجددة لها ومجددة للعالم الإسلامي وفكره جميعاً قد بدأت قبل الغزو الاستعماري الغربي ، وكانت حفية بأن تشق طريقها إلى الامام في قوة لتحقيق هدفها من البعث الإسلامي على النحو الذي حققته الحركات المتوالية في تاريخ الإسلام غير أن اندفاع الغزو الغربي الاستعماري في جولاته الجديدة التي أطلق عليها اللورد النبي

( الحملة النهائية للحروب الصليبية ) بعد سبعمائة عام لم تتوقف خلالها : هذه الابدقاعة فرضت على حركة اليقظة أن تواجه وتقاوم وتحرق المفاهيم وتصبح الأخطاء وتدافع من منطق الفكر تلك الحملة الضخمة من الشبهات والتحديات . فتضاعف حملها وتعقدت مهمتها ، وخاصة بعد أن استطاع النفوذ الاستعماري أن يقيم دائرة مغلقة لدعوته ، وأن يفرضها على أنها هي وحدها فكر التقدم وقد أقامها من خلال معاهد الارشاليات ومدارس وجامعات التبشير ومن خلال خريجيها وأبنائها الذين سيطروا على الصحافة في البلاد العربية ثم سيطروا عن طريق أوليائهم وأتباعهم على فأمسكوا في أيديهم القوى الثلاث :

والتعليم والصحيفة والثقافة ، ولقد كانت لمعونة النفوذ الاستعماري لهذه الدائرة أثرها الواضح في إعلائها وإعطائها القوة والسيطرة في مجالات الحكم والسلطان والدولة ، بينما تقاص ظل الدائرة الأصلية المرة التي قامت أساساً من أحماق الأمة حاملة لواء اليقظة الاسلامية العربية . غير أن حركة اليقظة الأصلية ذات الدائرة للمرة لم تلبث أن وجدت للكثير من الأسانيد والوثائق التي بدأت تنكشف أولاً بأول والتي أثارَت أمامها الطريق إلى معرفة الخفايا المضللة والتلفيات الخطيرة التي يدبرها الاستعمار والصهيونية من أجل القضاء على مقومات هذه الأمة التي لم تستسلم من قبل لغزو ولم تذلل للطامع ، والتي كانت مقوماتها قادرة على أن تمنحها القوة لترد الغزو وتعلم القسطنطين الذي استمر على مدى حقب التاريخ الاسلامي ومراحلها والذي تحرك في صور متعددة من الحروب الصليبية إلى حروب الفرنجة إلى الغزو الاستعماري الحديث . ولقد تسكف للغزو أثر هزيمة الساحقة في الحروب الصليبية وانسحابه مدحوراً بعد مائتي عام من المؤامرة ، أن هذه الأمة لا تغلب عن طريق الحرب ، لأن مفهومها في الجهاد والمقاومة والتبذ على السواء ، والتجمع في وجه الخطر تحت لواء القرآن كل ذلك كان حائلاً قوياً دون فرض سيطرة طويلة المدى ، ومن هنا : خطط الاستعمار وقدر وفكر ودبر حتى وصل إلى نقطة بدء خطيرة : هي العمل أولاً على تدمير مقومات هذه الأمة التي تستمد منها من الاسلام والقرآن ، فإذا تحطمت هذه المقومات استسلمت هذه الامة للغزو وهاشت حاضنة ذليلة للغرب ، وفقدت سمات شخصيتها ، ومعالم ذاتيتها وطابع حضارتها . ومن هنا كان الغزو الفكري من أبرز أعمال الاستعمار عملاً في التبشير والاستشراق والارشاليات وجابحاتها والسيطرة على التعليم والصحافة والثقافة ومن هنا أيضاً كان أبرز أعمال حركة اليقظة كشف هذه المخططات ومعرفة هذه الخفايا وفضحها والتحذير منها وتصحيح المفاهيم التي حاول التغريب أن يفرضها ويذيعها ويدافع عنها ويحميها . ويدخلها في مناهج التعليم والثقافة ، ويضعها في قلوب من النظريات العلمية والدراسات

الناس بحجة حتى تصبح مقررة في النفوس ، توصلنا إلى عملية هدم هذه للقومات ذاتها ، وفرض عقلية غربية مخالفة على مناهج اللغة والتاريخ والفكر جميعاً ، بالإضافة إلى فرض نظريات القانون والنفس الغربية والاجتماع ، ومن هنا فقد كانت مهمة المصلحين المبرزين في هذه المرحلة ، هي تصحيح المفاهيم وكشف مخططات الاستعمار والتبشير والشفوية والتغريب .

وقد كشفت السنوات الاخيرة الكثير من المخططات ، ولكننا كانت نظهر بين حين وآخر نم تخفي غير مخلقة ورأينا شيئاً ، ولما تباعدت بينها الفترات ، لم يكن في الامكان أن نتحدث في الفكر الاسلامي العربي آنراً واضحاً : ولذلك كان لابد من الربط بينها وهرضا على نحو متكامل شامل ، حتى نستطيع أن تبدو في صورتها الحقيقية حيث تمثل تحدياً واضحاً يمكن مواجهته والنظر فيه ، إذا كان الاستعمار يعتمد إلى أسلوب التفتيت أو الذرية في إخفاء هذه المخططات واحداً بعد آخر ، أو التهمين من شأنها ، أو ضرب بعضها ببعض ، اعتماداً على أن العرب والمسلمين لا يجمعون الظاهرات المفرقة ولا يعنون بالنظر نظرة متكاملة . وأما الآن قدر كبير من هذه الظاهرات يمكن أن تشكل مخططاً كاملاً واضح المعالم في عزو الفكر الاسلامي والتمضاء على وحدة العالم الاسلامي ، هذا المخطط هو ما قدره الاستعمار فعلاً ( بالاشتراك مع الصهيونية العالمية ) أو بواسطتها في الازهاب وما نفذته فعلاً وكان منطلقه فيه هو تمزيق الرابطة العضوية العميقة الجذور بين ( العربيه والاسلام ) وذلك عن طريق ضرب العرب والترك داخل الدولة العثمانية لتزويقها وفرض دهوات الطورانية والافليمية والفرهونيه والفيليقية والقومية الضيقة المغلفة وفق المفهوم الغربي الوافد .

وقد امتد هذا المخطط فكرياً واستطاع عن طريق النفوذ الاستعماري أن يحقق نتائجها فعلاً ، على الوجه الذي رسمه الاستعمار والصهيونية والتغريب . وكان علينا أن نعرف أولاً : هل العلاقة بين العربيه والاسلام هي علاقة منحلّة أم علاقة طبيعية لا تفكك منها . إن كل القيم الأساسية للفكر الاسلامي وكذلك الوقائع والأحداث التاريخية تكشف بما لا يدع مجالاً للشك بأن العلاقة بين العربيه والاسلام علاقة جذرية :

( ٢ )

## الترايط الجذرى بين العروبة والإسلام

إن بين العروبة والإسلام ترايطاً جذرياً عميقاً قديماً ممتداً عبر خمسة عشر قرناً من الزمان التقي فيه (العرق) مع (الفكر) ثم انصهر العرق في دائرة الفكر فأصبح قوة عاملة حملت الأواء وقادت الحركة . هذا الترايط هو أخطر ما واجبه الاستعمار الحديث ، فقد كان من أخطر العوامل في تحطيم حركة الحروب الصليبية ودحرها ، ثم كان عامل المقاومة الخطير في وجه الغرب الزاحف بعد الحروب الصليبية وذلك بقيام أكبر وحدة إسلامية عربية بين العرب والترك ، وهي وحدة وليست استعماراً ، وقد بلغت هذه الوحدة أقصى مداها وقوتها ، حين تجسدت في حركة الجامعة الإسلامية التي قادها السلطان عبد الحميد ووقف بها في وجه الاستعمار فكانت أكبر التحديات التي واجهت الاستعمار الغربي وكادت تقضى على مخططاته لولا تأمره بالسلطان عبد الحميد وتبدير خطة إسقاطه كخطوة أولى لتدمير هذا الترايط الجذرى بين العروبة والإسلام الذي تشكل في جبهة شاملة تقف في وجه الاستعمار وتهدد بالمقاومة الشاملة ، ليس في حدود الدولة العثمانية وحدها ، بل في نطاق العالم الإسلامي كله الذي يدين باخلافة الإسلامية .

لقد كان هذا الترايط هو أكبر أزمت النسيج الإسلامي المعاصر ، والفكر العربي الإسلامي الحديث ، وهو أعرق « بؤرة » النقاء وأعظم قوة ركز النفوذ الأجنبي حربة عليها ، وجند لها قواة في مجال السياسة وذلك عن طريق تمزيق الدولة العثمانية والوحدة العربية التركية وإلغاء الخلافة الإسلامية ودحر حركة الجامعة الإسلامية التي كادت تنجم تحت لواء الخلافة ( العالم الإسلامي ) كله ، القائم خارج نطاق الدولة العثمانية . ولقد كانت الدولة العثمانية هي نقطة الارتكاز الحقيقية في الدعوة . ومن هنا لقد كان من أخطر ما استهدفه الغزو الثقافي ودهـوات التغريب والشعوبية من طريق مؤسسات التبشير والاراساليات وحركة الاستشراق هو فصح هذه العروة ، ودحر هذه القوة ، وتمزيق هذه الوحدة ، ومحاولة القضاء على هذا الترايط الجذرى بين العروبة والإسلام ، ولقد كان من الضروري لكي يتم ذلك في مجال السياسة والجغرافيا والاستراتيجية ، أن يبدأ أساساً في مجال الفكر والدعوة والصحافة والمدرسة والثقافة .

وقد حمل لواءه أول الأمر دهاة من الأجانب الغربيين ثم تولى بعدهم أبناءهم ونلاميذهم من العرب

والمسلمين . وقد بدأ ذلك واضحاً في دهوات عديدة متفرقة ولكنها تشكل في مجموعها هدفاً واحداً وتكون أيديولوجية متكاملة : ( أولاً ) الدعوة الطورانية : في تركيا استمداداً من جنكيزخان . ( ثانياً ) الدعوة إلى الوحدة العربية ( المحصورة أولاً في الشام ) انفصالاً عن الخلافة ثم في الشام والحجاز ( ثالثاً ) الدعوة إلى خلافة عربية بدلاً من خلافة إسلامية . ( رابعاً ) الدعوة إلى العمامية . ( خامساً ) الدعوة إلى الاقليمية الضيقة وعزل مصر عن الأمة العربية . ( سادساً ) عزل المشرق العربي عن المغرب العربي . ( سابعاً ) دعوة المحاور الثلاث : الصحراء ( الحجاز والأردن ) والمشرق ( الشام والعراق ) وأفريقيا ( مصر والمغرب العربي ) . ( ثامناً ) الدعوة إلى الفيليقية في لبنان ، والكيان اللبناني . ولقد كان خطط الفصل بين العروبة والإسلام مرسوماً على درجيتين : ( أولاً ) إنشاء جيل يحمل لواء الدعوة في تركيا وهم الاتحاديون الذين تربوا في أحضان المحافل للماسونية خمسين عاماً . ( ثانياً ) إنشاء جيل يحمل الدعوة في العالم العربي وهم خريجو الارساليات في بيروت وهم الذين اصطفاهم الاستعمار لحل لواء الصحافة في العالم العربي كله وفي مصر بالذات . وقد بدأت الخطوات على الوجه الآتي : ( أولاً ) الايقاع بين اللوارة والدروز لعزل لبنان وإقامة كيان خاص به كما تم ١٨٦٠ . ( ثانياً ) رفع لواء الدعوة إلى العروبة انفصالاً عن الترك ، والدعوة إلى الخلافة العربية لعزل سوريا عن الدول العثمانية .

( ثالثاً ) إسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الجامعة الإسلامية التي كانت أخطر رد فعل واجه الاستعمار من حيث تجميع العالم الاسلامي خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة الاسلامية والبيرق النبوي . ( رابعاً ) إعلاء شأن الاتحاديين في تركيا لتمزيق الوحدة بين العرب والترك داخل الدولة وذلك بتعليق المشانق للعرب واتهامهم بالخيانة . ( خامساً ) إعلان الدعوة الطورانية وتتركب العناصر بما فيهم العرب ، حتى يضطر العرب ، إلى إعلان الدعوة إلى الانفصال . ( سادساً ) إدخال تركيا العثمانية الحرب العالمية للقضاء عليها وتمزيقها . ( سابعاً ) تقسيم الأجزاء العربية بين الحلفاء . ( ثامناً ) تحويل تركيا إلى المغرب كلية بعد الحرب العالمية الأولى للانفصال عن العرب والاسلام . وقد تم هذا في مجال السياسة بعد أن مهدت له القوى الاستعمارية في مجال الفكر بالدعوة إلى فصل هوية الترابط الجندري بين العروبة والاسلام ، التي هي قوام وحدة العالم الاسلامي والترابط الحقيقي المحدد لموقف العرب من العالم الاسلامي ، ومن الاسلام ومن المسلمين ، ولوقوف المسلمين من للعرب والاسلام .

تلك هي أضخم التحديات التي واجهت العالم الاسلامي الحديث من أجل السيطرة النفوذ الاستعماري في موجاته الثلاثة المتوالية المتداخلة المتصلة :

(١) الاستعمارية الغربية الرأسمالية . (٢) الشيوعية الماركسية البلشفية . (٣) اليهودية الصهيونية الاسرائيلية . ومن هنا كان على الباحثين أن يكشفوا هذه المخططات من خلال التقارير الرسمية للاستعمار والصهيونية ، ومن خلال الوثائق التي رفع عنها الستار في خلال السنوات الأخيرة . وهي وثائق كثيرة متعددة يمكن إذا تجمعت ، أن تشكل صورة كاملة لخطة الغزو ، ومداه ، وغاياته . ولاشك أن كشفها وتصويرها على نحو متناسق من شأنه أن يعين المفكرين المسلمين والعرب في التعرف على هذه التحديات ومواجهتها . كما يعين كذلك على تفسير الأحداث الواقعة والمستمرة والخطوات التي تجرى بها السياسة الغربية الاستعمارية والصهيونية العالمية وكل القوى الطامعة في غزو العالم الاسلامي والسيطرة عليه . ولاريب أن ترابط الاسلام والعروبة (سياسيا وفكريا) هو أخطر قوة واجهت المؤامرة العالمية : (١) أما الترابط السياسي فيتمثل في ( الوجود الاسلامي العربي ) القائم في الدولة العثمانية فعلا ، بالإضافة إلى الخطة التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد من أجل تجميع المسلمين خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة الاسلامية كقوة موحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الصهيوني الزاحف .

٢ — أما الترابط الفكري فيتمثل في الدعوة إلى تحرير العقيدة الإسلامية وهي الخطة التي هرقت ( بحركة اليقظة العربية الإسلامية ) والتي دعت الى تصحيح مفاهيم الإسلام وبعثه والنهوض ينابيعه الإسلامية بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع قائم على أساس التوحيد مخالف في ذاتيته كل المخالفة للدعوات والمذاهب والفلسفات الوثنية ، ولقد عمدت المؤامرة العالمية للسيطرة على الإسلام والعالم الاسلامي ( وتضم هذه المؤامرة الاستعمار الغربي وروسيا والصهيونية ) ووحدت خططها في سبيل ضرب هذه الوحدة الأساسية ( وحدة العروبة والإسلام ) عن طريق مؤسسات الصحافة والسينما والأزياء ، وكلها تتخذ مادة عملها من مخططات الاستشراق والغزو الثقافي والتفريب ممثلة في اذاعة عشرات من الفلسفات والدعوات والمذاهب لتدمير مقومات الفكر الإسلامي وقيمه الأساسية واغراقه في تيه من التيارات والشبهات التي لا حدها . ولقد جرى العمل من أجل تنفيذ مخطط المؤامرة العالمية في مجالين :

(١) في ضرب الوجود الاسلامي العربي الموحد القائم في دولة العثمانية فعلا (٢) وفي حركة الجامعة



الإسلامية وذلك بإثارة مذاهب الجامعات القومية في تركيا وفي سوريا وفي لبنان وفي مصر وهي المناطق المرتبطة بحركة الوحدة الإسلامية . ولذلك فقد كانت الدولة العثمانية هي أكبر أهداف المخططات الاستعمارية بوصفه الكيان القائم الجامع ، والوجود المجسد للرابطة الإسلامية ، والحامل للواء التجمع الإسلامي في وجه الغزو الاستعماري . وهذا هو العمل الضخم الذي قامت به المؤامرة العالمية أولاً . وقد تم هذا العمل على مراحل وفق خطة دقيقة مرسومة قوامها : ( أولاً ) بناء تشكيلات : داخل الدولة العثمانية أحدها في سالونيك يحمل لواء الدعوة الغربية للتجزئة والانفصال وإهلاء شأن الجنس التركي وربطه بمجذوره القديمة السابقة للإسلام والتي أطلق عليها من بعد اسم ( الدعوة الطورانية ) . والثاني في بيروت يحمل لواء التجزئة والانفصال باسم العروبة أو الأمة السورية أو الدعوة الفيليقية . والثالث في القاهرة يحمل لواء مصر المصريين ثم الدعوة الفرعونية . وكانت الصهيونية العالمية من وراء هذا المخطط كله من أجل فتح الطريق أمام اليهود الى فلسطين ، ومن ثم كانت لها فلسفتها ومخططاتها وشبهاتها في محاولة إفساد حقائق التاريخ العربي والإسلامي وجغرافيته من أجل إقرار فكرة ضخمة هي أن اليهود كان لهم وجود تاريخي في فلسطين وأنهم حين يذهبون اليه اليوم انما يجرون مع تيار التاريخ ، وكان ذلك العمل من أخطر أهدافهم .

( ٣ )

## الدولة العثمانية

### أ كبر أهداف الاستعمار والصهيونية

ان كثيراً من الأخطاء والشبهات قد وضعت في وجه التاريخ الإسلامي المعاصر من أجل الوصول الى تقرير أمور يراد بالتركيز عليها تنفيذ مخطط بعيد المدى في تمزيق وحدة العروبة والإسلام كوسيلة لتمزيق وحدة العالم الإسلامي وانتزاعه من قيحه ومقوماته . ولقد كان من أكبر ما ركزت عليه الشبهات والحملات : دور الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي وهلاكها بالعرب ، ولقد انبعثت كتابات الغرب في هذا المجال عن أسلوب غير علمي وغير منصف ، فقد كانت قضية الدولة العثمانية بالنسبة لأوروبا من العوامل الخطيرة في تشكيل العقل الغربي الحديث ، ومن هنا فقد صدرت هذه الكتابات وكما تعصب وحماة دون أن يستطيع أصحابها إلا القليلون منهم مواجهة البحوث العلمية والتاريخية مواجهة أصيلة صادقة .

ذلك أن الغربيين نشأوا يحملون مع ابن الرضاع تلك الكراهية المنعصبة الحاكمة للدولة العثمانية التي حطمت آمال أوروبا خمسة قرون في السيطرة على العالم الإسلامي، وحالت دون تحقيق مؤامرتهم في إعادة الغزو بعد هزيمتهم في الحرب الصليبية. والثابت تاريخياً أن الغرب الأوربي (ملوكا وكنيسة) لم يتوقف بعد الانسحاب النهائي عام ١٢٩١ م حتى قامت الدولة العثمانية ١٣٥٦ وفي خلال بضعة وسعين عاماً، لم يتوقف عن محاولات الغزو وإعادة السيطرة على العالم الإسلامي وخاصة في مناطق الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فلما برزت الدولة العثمانية تغير الموقف تماماً وقام ذلك الصراع العنيف بين أوروبا والدولة العثمانية الزاحفة في قلب أوروبا حتى أسوار فينا، وامتد هذا الصراع خلال خمسة قرون ونصف للقرن حتى انتهى عام ١٩١٨. من هنا يجيء التفسير الصحيح للحاقة والحقد والكراهية التي تقسم بها كتابات المؤرخين والباحثين الغربيين حين يتصل الأمر بالحديث عن العلاقات بين الدولة العثمانية وأوروبا، ومن هنا تنكشف تلك الصفحات الخفية التي كتبها (دجوفارا) في كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا). Cent Projets de Pasloge de le Turquie.

وهو من الوثائق الهامة التي كشفت النقاب عن حقائق خطيرة في الثلاثينات من هذا القرن، وصححت في نظر الباحثين العرب والمسلمين الكثير من المواقف الخفية وأزالت تلك الدھشة التي اعترت الأذهان فترة على أثر تصريح اللورد اللني في القدس بعد أن احتلها الإنجليز عام ١٩١٨ حين قال: «الآن انتهت الحروب الصليبية». ذلك أن أوروبا والكنيسة كانت تخطط منذ ذلك الوقت البعيد للعودة إلى العالم الإسلامي والأخذ بشأر هزيمتها في الحروب الصليبية، والاستيلاء على هذه المنطقة تحت اسم (الدفاع عن بيت المقدس): هذا الحلم العجيب الذي ظل يراود الساسة والكنيسة منذ عام ١٢٩١ أي بعد ستة قرون ونصف، والذي يبدو واضحاً في هذه المشاريع المائة التي ظل الساسة يرمونها سنوات طويلة، والتي كان وجود الدولة العثمانية حائلاً دون تحقيقها حتى في أشد فترات ضعفها. ومن هنا يتكشف ذلك المخطط البعيد المدى الذي بدأ سقوط السلطان هيد الحيد ١٩٠٩ وتسليم الدولة للانحاديين أتباع الحافل الحافل الماسونية وتلاميذ المدارس الاستعمارية الغربية والذين دفعوا الدولة بغير مسوغ إلى الاشتراك في الحرب العالمية بما حقق تمزقها وسيطرة أوروبا مرة أخرى على الشام والعراق وبيت المقدس بهيئاً لتسليمه إلى الصهيونية. وبذلك تحقق ما أسار إليه اللورد اللني حين وقف في القدس مذكراً بالحالات الصليبية ومكملاً لها ولقد أشار (دجوفارا) في كتابه إلى هذا المعنى حين قال أن معظم هذه المخططات كانت تقول «علينا أن نقوم بحرب دينية نستخلص بها القوي المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحي وحماية الدول العظمى».

وقال : إن كتاب النصرارى والمفكرون منهم لم يكونوا يتوقفون عن تهيج خواطر الشعوب الأوربية وتحريضها على القيام بعمل مشترك لدحر الإسلام ولا سيما فى فلسطين . وقد شملت هذه المخططات الحرب والقتال كما دعا البعض إلى قطع الطريق على متاجر المسلمين وإعداد الأساطيل لهذا الحصار البحرى وتوالت المشروعات التى كان يرسمها البابوات وملوك أوربا وكانت فى أغلبها تدهو إلى الاستعانة بالأرثوذكس فى الشرق ليكونوا مع الكنيسة الكاثوليكية يدا واحدة فى وجه الإسلام ، غير أن هذه المشروعات جميعا لم تجد سبيلا إلى التحقيق ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ولم يعد فى استطاعة أوربا الزحف من هذا الطريق . وهنا نشأت تلك الفكرة بتطويق عالم الإسلام عن طريق الالتفاف حول أفريقيا والوصول إلى الهند ومحاصرة الإسلام من الخلف ، ووضع الحبل حول عنقه تمهيدا لشده فى الوقت المناسب حسبما يعبر أرنولد توينبى فى كتابه [ الغرب والعالم ] . وهنا يبدو مدى دور الدولة العثمانية فى حماية الإسلام والعالم الإسلامى خلال خمسة قرون ويزيد بالوقوف فى وجه الغزو الأوربى الزاحف . فقد جمعت الدولة العثمانية شتات الشرق الإسلامى بعد أن ضعفت دولة المماليك فى مصر ولم يكن هذا التجمع فى حقيقته استعمار أو سيطرة أو احتواء حسبما يريد الكتاب أو يصفوه خطأ أو تعصبا لأوربا والاستعمار نفسه . ذلك أن كلمة الاستعمار هى اصطلاح خاص ينطبق على تلك الحركة التى قامت بها أوربا بالزحف على دول العالم الإسلامى والسيطرة عليها فحاربا ثم سياسيا وما صاحبها من مخططات التبشير والغزو وغيرها أما الدولة العثمانية فلم تفعل ذلك ولم يكن هذا أسلوبها ، وإنما كان بين العرب والترك أمرة ضخمة هى الاسلام وهى كبرى الروابط إذ ذاك والمقدمة على غيرها ، والسابقة لدعوات القوميات والعناصر والأجناس التى عرفتها أوربا فى القرن التاسع عشر . ولقد كان التقاء مصر والشام والمغرب كله بالدولة العثمانية هو التقاء الترابط الفسكرى والروحى الذى يدهو إلى تجميع الشتات للوقوف فى وجه الخطر الأوربى الزاحف :

وقد امتدت هذه الصلة قرونا ومع ذلك لم تحمل فى يوم من الأيام صورة الاستعمار ، ولهذا فإن محاولة تصوير هذه الرابطة بكلمة الاستعمار التركى إنما هى من عمل النفوذ الغربى الذى يحاول أن يصور الرابطة بين العرب والترك على أنها رابطة سيطرة واحتلال واستنزاف للقوى وهذا ما ليس معلوما بالطبيعة فى تاريخ هذه الرابطة فقد كان العثمانيون يدهون لسكل قطر حرية نظامه وحكمه ويكتفون بالرابطة العامة تحت لواء الخلافة . وتكشف كل كتابات المنصفين زيف دهوى الغزو الثقافى والتغريب ، بل إن الذين هاشوا هذه الفترة وهم أقرب الناس إلى فهم هذه الحقائق يؤيدون

صدق ماذهب إليه . وفي هذا يقول العلامة محمد جميل بهم أنه بعد د انحساب الصليبيين وضمف الممالك تطلع العالم الإسلامى إلى قوة حامية ومنقذة تقف في وجه الغزو الغربى الذى كان يصير على متابعة الحروب الصليبية في للشرق وفي للغرب جميعاً ، كان العالم الاسلامى يتطلع إلى منقذ ينقذه من الهاوية التى سقط فيها فلما خرج آل عثمان إلى ميدان الكفاح وظهرت بوادر نجاحهم في حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية علق المسلمون عليهم الآمال وأنجسوا بقلوبهم إليهم . وقد خلفت الدولة العثمانية العرب على سيادة البحار ففدا البحر الأسود بحيرة لتركيا وقد بسطت السلطنة سيادتها على البحر الأحمر وحليج فارس فضلاً عن أنها أصبحت سيده البحر المتوسط على أثر انتصار أسطولها في (جوار برة فيزا) عام ١٥٣٧ على أساطيل الدول الأوروبية والبابا (بجتمعة) . ومن هنا نعرف كيف أن الدولة العثمانية كانت منقذة العالم الاسلامى وليست مستعمرة له بفهوم الغرب الذى يحاول تصوير هذه العلاقة بأنها شبيهة بالاستعمار الأوروبى ولذا فإن القول بأن العرب انتقلوا من الاستعمار التركى إلى الاستعمار الأوروبى بعد الحرب العالمية الأولى قول مضلل . والواقع أن العثمانيين قد وقفوا وقفة صلبة عنيدة في وجه الزحف الأوروبى ، وأظهروا احتراماً لمعلمهم في الدين (العرب) وأعطوهم حرية واسعة . ولقد ظل العثمانيون ينظرون إلى العرب على أنهم لواء الاسلام ، وأصحاب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، ولم يظهر إلى وقت طويل جداً ذلك الفصل بن الاسلام والعروبة الذى كان من مؤامرات الاستعمار الغربى والصهيونية العالمية ، وهذا ما يصوره الدكتور يوسف هز الدين حين يقول : « إنهم لم يكونو يفرقون بين العروبة والاسلام لأنهما كانا شيئاً واحداً متلازماً لا يمكن الفصل بينهما وقد بقى هذا الوعى العربى متصلاً بالاسلام فترة من الزمن لأن العرب هم أهل الاسلام ولأن محمداً رسول الله إلى الناس أجمعين عربى الأرومة ، ولأن القرآن دستور المسلمين عربى اللغة ، وتلك مقومات وأسس ترضى الشعور الاسلامى والعربى للامة العربية .

ولقد كان بين العالم الاسلامى والترك رابطة إعجاب بفتوحهم في أوروبا ، وكان بين العرب والترك حرية فكرية ، حيث اختلط العرب بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقد استمرت هذه الروابط أربعة قرون (١٥١٧ - ١٩١٨) وشملت العالم العربى كله ما عدا مرا كش ولا شك أن أية مراجعة لوقائع التاريخ بعد تصفية الإمبراطوريات الصليبية في فلسطين تكشف عن أن الالتقاء بين العرب والدولة العثمانية كان أمراً طبيعياً وضرورياً ذلك أنه لم يمض غير قليل من الزمن حتى بدأت حركة لتحريم الانجبار مع الممالك مهددة بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف هذا الحصار بما قاموا به من حسن معاملة تجار الأفرنج . لذلك هاد الصليبيون إلى إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكرياً وقد

انجبت خطتهم إلى الأسفلاء على الاسكندرية والرحف منها على القاهرة ومن ثم قامت الحملة التي قادها بطرس الأول ملك قبرص ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ واضطرت للإنسحاب بعد بضعة أيام ثم بدأت الصليبية الأوربية حركة ضخمة للسلب والنهب والأمر في حوض البحر الأبيض ، وبدأت غارات القراصنة بالتعاون مع القبارصة وفرنسا الاستعمارية في (رودس) على السواحل والنفور للصرية والشامية والترص بسفن التجار المسلمين في عرض البحر ومن ثم قام المماليك بالغزوات الانتقامية ضد رودس وقبرص والأسفلاء على قبرص . وبعد أن برزت الدولة العثمانية وبدت خطراً داهماً على أوروبا حاولت الصليبية الاجهاز على العثمانيين والمماليك . غير أن سيطرة الدولة العثمانية السريعة على البحر الأبيض المتوسط ردت الصليبيين إلى العمل عن طريق البرتغال وأسبانيا للوصول إلى الهند والخشب وذلك بهدف انتزاع تجارة المسلمين ، وهنا بدت تلك الدعوة الواضحة التي أذكمتها روح الجهاد والوحدة والتضامن بين المسلمين في جميع الجهات بمصر والشام والانتقاء بالدولة العثمانية في قوة موحدة مما أحبط مشروعات الفرنج الصليبيين وخططهم ، وبذلك أعادت الدولة العثمانية مرتبطة بالعرب الوحدة الإسلامية وجمعت بلاد الشرق الإسلامي إلى لواء اخلافة من جديد ووجدت الشعوب الاسلامية قوة تمهدها وترد عنها الغزوات الأوربية الصليبية ، وحققت وحدة سياسية كبرى بعد تفكك العالم الإسلامي بسقوط الدولة العباسية ، مما أوقف النفوذ الغربي من التوغل في البحار العربية وبالتالي أنقذ الشرق العربي من الخطر الاوربي .

ولقد كانت الدولة العثمانية قوة إسلامية جديدة أخذت تزحف على أوروبا من الشرق بعد أن توقف للمسلمين من الاندلس وقد أزعجت أوروبا ازهاجا شديداً وكشفت على قدرة للمسلمين مرحلة بعد مرحلة في آفاق التاريخ على صد العدوان الزاحف ودحر الغزو الغربي المترص الذي لم يتوقف منذ ظهور الاسلام حتى اليوم ولا شك أن الدولة العثمانية كانت فخراً للمسلمين خلال هذه القرون الخمس وأن النظرة إليها يجب ألا تكون جائرة ولا متحيزة من حيث النظر إلى مراحل الضعف الاخيرة وإنما يجب تصحيح الامر بمراجعة موقف هذه الدولة في نظرة كلية شاملة تكون أقرب إلى إحقاق الحق وإلى الاسلوب العلمي المنصف ، أما هذه النظرة الجائرة التي تتردد في مؤلفات كتابنا بالتركيز على مرحلة الضعف وهي لا تزيد عن مائة عام في مرحلة مديدة طولها خمسة قرون ونصف ، فهي نظرة أوربية متعصبة ، تابعنا نحن فيها خصوصاً وخصوصاً الدولة العثمانية وكنا أسلحة لهم ومخالب قطع . من الحق أن يقال كظاهرة هامة أن تاريخ الدولة العثمانية لم يبق النظرة العلمية أو الانصاف العلمي

وأن معظم ما كتب عنه كتبه المفرضون من خضوم الدولة العثمانية ومن أتباع الغرب الذين لا ذوا بالإرساليات التبشيرية ومعاهدها وكانوا حرباً على العرب والمسلمين ، ويؤيدنا في هذا الدكتور حميد العزيز الشناوى الذى يقول :

« إن الظاهرة الواضحة هي أن تاريخ الأتراك العثمانيين في هذه المرحلة من تاريخ أوروبا [ مرحلة التوسع العسكرى الإقليمى الذى قام به العثمانيون في أوروبا ] لم يأخذ من تاريخ أوروبا من مؤلفات معظم المؤرخين الأوروبيين الحجم أو الحيز الذى يناسب الدور الكبير الذى يقوم به العثمانيون سواء في الميادين العسكرية أو في المجالات السياسية . « وقصر المؤرخون الأوروبيون اهتمامهم على الكتابة في إفاضة عن الدولة العثمانية حين دخلت دور الاضمحلال شأن كل الامبراطوريات التى عرفها التاريخ . وطالب لم أن يسهبوا في تاريخ حقبة الاضمحلال وأن يبرزوا في كتاباتهم القلب الذى أطلقه الساسة الأوروبيون على الامبراطورية وهو : [ رجل أوروبا المريض ] هو أن ينسجوا حوله مزيجاً من الحقائق والأساطين للإساءة إلى الباب العالى وإلى الدولة وإلى رعاياها المسلمين بوجه خاص ، ونعتوا الدولة بأنها نعمة على الحضارة والإنسانية وغير ذلك من نعوت أملت بها عليها روح التمعصب ، ووصفوا رعايا الدولة المسلمين بأنهم جماعة من المتبريرين ، وبما لا مراعاة فيه أن الأتراك العثمانيون يحتلون مكانة كبرى في تاريخ أوروبا ، سواء أراد جمرة المؤرخين الأوروبيين أو لم يريدوا وجاء حين من الدهر كان العثمانيون هم القوة العسكرية الأولى في أوروبا ، وكانت تمنحوا للسلطان العثمانى جباه ملوك أوروبا وأمراءها . « أما الأوروبيون الذين عاصروا هذه الفترة الذهبية من تاريخ الدولة فقد ربطوا بين الإسلام وبين العثمانيين ، واعتقدوا أن العثمانيين هم الرمز الحى لمجد الإسلام في مطلع المصور الحديثة ، فباسم الإسلام استولى السلطان محمد الثانى على عاصمة الدولة البيزنطية واستبدل باسمها القديم وهو القسطنطينية اسمها فريدا هو ( استانبول ) أى دار السلام وحول كارتدائية القديسة صوفى إلى مسجد بعد أن أدى فيه صلاة الظهر جماعة مع قواد جيشه ، وباسم الاسلام حمل العثمانيون البحر الأحمر « بمروراً إسلامياً » مغلفاً في وجه السفن غير الإسلامية وأصبح محرماً عليهم الابحار في مياهها فيما وراء نهر ( نخا ) في بلاد الصين من تسلس البرتغاليين إلى الأراضى المقدسة الإسلامية في الحجاز ، والذين كانت قد احتوتهم أحلام اليقظة فاعتقدوا أن في استطاعتهم نبش قبر الرسول ﷺ ثم التوغل شمالاً في مياه البحر الأحمر حتى السويس وعلى ذلك اتجهت حملة برتغالية بقيادة لويه سوايز إلى جده .

وقد فشلت هذه الحملة لأنها تعرضت لريح صرصر هاتية وارتطمت سفن الحملة بعضها ببعض

وتحطمت قبل أن تبلغ غايتها وقام البرتغاليون بعد ذلك بهجوم بحرى على ميناء السويس ولكنهم فشلوا أيضا فى تحقيق أهدافهم ، ثم جاء التشريع العثمانى ليحول بين البرتغاليين وبين ما كانوا يشتمون ، وظل هذا التشريع نافذاً حتى نهاية القرن السابع عشر ثم سمح للسفن غير الاسلامية بأن تعد رحلاتها فى البحر الأحمر حتى جنده وبقىث المنطقة الواقعة بين جنده والسويس منطقة محرمة على السفن المسيحية . حتى أذن عام ١٧٦٨ لهذه السفن أن تعد رحلاتها البحرية حتى ميناء السويس وما تزال كتب التاريخ : تصور هذا الترابط بين العرب والترك على أنه استثمار وقد واجه العثمانيون فى حروبهم تسكتلات دولية حتى أنه لما سمعت فرنسا وهى فى محنتها إلى التحالف مع الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان وتلاقت مصلحة الدولتين على محاربة شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأنكر الرأى العام الأوروبى على فرنسا هذا التحالف بين دولة مسيحية ودولة إسلامية وأطلق عليه التحالف المدنس احتفظ العثمانيون بروح الإسلام : العزة والكرامة والشمم والإباء وصلابة الضربة والتصميم على إحراز النصر ، ولم يتخلفوا عن هذه الخصال إبان الفترات التى بدت فيها النذر الأولى لاضمحلال دولتهم . وتعطى معركة ليبانت البحرية فى أكتوبر ١٥٧١ صورة صحيحة لمدى اقتدار الدولة العثمانية فى مواجهة حدث من أخطر الأحداث ، حيث نسكت الصليبية الأوربية المتمثلة فى البابوية وأسبانيا والبندقية وجنوه وسافوى وتوسكانيا وفلورنس ومانتور وبارم وغيرها بالبحرية العثمانية ، فضلا عن فرسان القديس يوحنا الذين اتخذوا من جزيرة مالطة مقاما ومقلا ومركزا للانقضاض على السفن الاسلامية وهى فى أهالى البحار . وقد انطلق العثمانيون فى همة ونشاط محموم يعمدون ببناء قواتهم البحرية ، واستطاعوا قبل هام أو بعض هام أن يعاودوا جولاتهم فى البحر المتوسط ، ويتحرشوا بالدول التى وقفت موقفاً معاديا فى معركة ( ليبانت ) بل أخذ الأسطول الجديد يبحر فى المياه الإقليمية الإيطالية دون أن تجرؤ لإحدى الدول أو فرسان يوحنا على التعرض لأى من وحدات هذا الأسطول ، واستطاع العثمانيون أن يفرضوا عام ١٥٧٣ على جمهورية البندقية صلحا كان مهينا بالنسبة لها وبعد ثلاث سنوات من معركة ليبانت أى عام ( ١٥٧٤ ) انتزع العثمانيون تونس من أسبانيا وأعادوا هذا الاقليم إلى رحاب الكتلة الاسلامية .

هذه الصفحة لاشك هى من مفاخر تاريخنا الاسلامى المعاصر . ولا قدرة لنا على تفسير الأحداث والوقائع التى واجهنا حتى الآن من الصراع بين الاستعمار الغربى والعالم الاسلامى بفهم هذه المرحلة وتبينها . وقد كانت هذه المواقف كلها اسلامية أساسا .

د فباسم الاسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التى كانت قواعد عسكرية

صليبية . « وباسم الاسلام فتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية . « وباسم الاسلام قاد السلطان سليم المشرع سنة عشر حملة عسكرية فى جوف أوروبا ووصل بها إلى أسوار فينا . « وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة المسلمين فى شمال أفريقيا فى كفاحهم ضد الأسباني « ويرى الدكتور الشناوى : أنه قد استقر فى أذهان الأوروبيين إن أى نصر تحققه القوات العثمانية سواء فى البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام ، يقول « وهى ذلك فإن الحروب الصليبية التى شهدتها الشرق الإسلامى لم تنته بسقوط حكا آخر معقل للصليبيين فى يد المسلمين فى عهد السلطان خليل بين فلارون فى ١٨ من مايو ١٢٩١ بل استمرت متجددة منتقلة فى نفوس الأوروبيين فى العصور الحديثة وأن احتلت ميادينها وشخصياتها والدول التى شاركت فيها والأسلحة التى استخدمت « ويصل الدكتور الشناوى إلى ما وصلنا إليه من أن « الانتصارات العسكرية الرائعة التى أحرزها الأتراك العثمانيون على الأوروبيين قد أضفت هالة من المجد فى أرجاء العالم الإسلامى ونظر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلمها الظليل . « وهذا ينبنى نفيًا قاطعًا ما أطلق عليه الاستعمار التركى أو الغزو العثمانى ، فى محاولة لإثارة نفوس العرب المسلمين على أشقيائهم الأتراك المسلمين ولحساب الصهيونية العالمية والاستعمار العالمى . وتكاد المصادر الموثوق بها تجمع على هذه الحقيقة التى تقول بأن العثمانيين كانوا حماة الشرق العربى من الخطر البرتغالى الصليبي الاستعمارى الذى كان قد استفحل أمره ، وأنهم حين وصلوا إلى حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية دفعوا عنه خطر البرتغاليين ، وانخذلوا من اليمن بصفة هامة وعدن بصفة خاصة مراكز استراتيجية للقضاء على النفوذ البرتغالى فى البحر الأحمر والزاحف من المحيط الهندى ، كما أنهم جعلوا من البحر الأحمر بحرًا إسلاميًا فعليًا لا تدخله السفن غير الإسلامية لأنه يطل على الأماكن المقدسة فى الحجاز . ومن الحق أن يقال أنه عندما تراجع لصوص هذه العلاقات بين العرب والعثمانيين فى هذه المرحلة فى كتابات أمثال ساطع الحمصرى وسليم سر كيس والبستاني وجرجى زيدان وأصحاب المقطم والمقنط فجد تحاملا واضمحًا ومحاولة خفية لمدارة صفحات النصر والقوة والعظمة وهم لا يصورون هذه الظروف التى فرضت على العرب الانحياز بالدولة العثمانية ولكنهم يصورون الأمر كله على أنه احتلال واستعمار .

ولقد دافع الكثيرون عن هذه الشبهات والاتهامات التى حاول بها أولياء الصهيونية والنفوذ الاستعمارى والسكرهين بحكم التنصب واختلاف الدولة العثمانية أن تنير الشبهات حول سلاطين آل عثمان - يقول الأمير شكيب أرسلان : لقد بقى هؤلاء السلاطين يذبون عن الإسلام شرقًا وغربًا مدة سبعائة سنة كاملة ، وجاء وقت كانت فيه أوروبا بأجمعها ترتعد فرقًا من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوروبا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثمانى إلى طولون أو نيس أبطل الأهالى هناك قرع الأجراس



في كنائسهم ، وكان أهالي فينلا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم في اليوم التالي رعايا لابن عثمان وبقيت الحجر ملكا لابن عثمان مائة وخمسين سنة ، وبودابست عاصمة إسلامية ، وجاء زمن كانت الأسطول العثماني هو الأسطول السائد في البحر المتوسط وكانت ربح الإسلام تعصف في البحر كما تعصف في البر وبقي الإسلام مئات السنين في كفالة آل عثمان وكان الترك هم سيوفه المسلحة ، ولم يقتصر فضل الأتراك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم مالا ينسكرون شاء فليقرأ كتب التتراجم ولا سيما ( الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من فحول العلماء وأساطين الحكماء . هذه هي حقيقة الدور الذي قامت به الدولة العثمانية وهو يكشف في وضوح مفهوم العلاقة بين العرب والترك وأنها لم تكن « استعماراً » بحال ، كما يكشف كيف ذاتت الدولة العثمانية من العرب الغزو الغربي وأخرته أربعة قرون ، وكيف أصبحت الدولة العثمانية هدفاً ضخماً من أهداف الاستعمار يرمى إلى إزالتها وتدميرها وحياسة المؤامرات للقضاء عليها وتمزيقها وتقسيمها بين الدول الأوروبية . وهذا كله ولا شك يعطى ضوءاً على المرحلة القادمة من البحث : مرحلة الوحدة الإسلامية التي حمل لوائها الخليفة عبد الحميد وهي كبرى الحركات الإسلامية في هذا العصر .

## ( ١ )

### الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية

#### كبرى الحركات الإسلامية

لا ريب أن هذا العمل الخطير الذي رفع لواءه السلطان عبد الحميد قد هز قواعد الاستعمار الغربي والصهيونية ، وقلب مخططاتها وتقديراتها عما دفع قوى الغزو إلى التكتل لإسقاطه أو أخذه له فقد شكل بهذه الدعوة حاجزاً ضخماً ظل يقوى وينماصك حتى أوشك أن يكون سداً منيعاً لا قبل للاستعمار الغربي باقتحامه ، هنالك لم يجد الاستعمار سبيلاً لمقاومة هذه الحركة إلا بالتآمر للقضاء على قائدها وحشد الخصوم من داخل الدولة العثمانية وخارجها لدمره وعزله . ومن العجيب أن هذه الصفحة ما زالت مطوية حتى الآن ولم تكتب على نحو مفصل وقد مضى عليها أكثر من مائة عام ، وأن قضية هذه المؤامرة ما زالت محجوبة ، ووثائقها ما زالت خفية وما يعرف في هذا الصدد وما يذاع وما يملأ كتب التاريخ المقررة في المدارس والجامعات في العالم الإسلامي كله إنما هو الزيف والكذب والتضليل الذي يمثل وجهة نظر الخصوم ، والسلاح القوي لتحريق الرابطة الجندرية بين العرب والإسلام والحيلولة دون التقاء العرب بالمسلمين تركا وفرنسا وهندوا وغيرهم وهي من أقوى خطط العدو المفتصب المتمثل في الاستعمار والصهيونية . فما زالت الكتب التي تدرس بالمدارس ، والكتب

تنشر في محيط الثقافة ، وما تزال الصحف والمجلات والأبحاث التاريخية جميعاً تحمل هذه الأخطاء : « الاستعمار العثماني » . « الاستبداد العثماني » . « السلطان الأحمر » . إلى غير ذلك من العبارات الموحية التي وضعها الاستعمار والصهيونية والشيوعية والتي تشكل جميعها : ( المؤامرة العالمية للسيطرة على الإسلام والمسلمين والعرب ) والتي أريد بها حجب الحقائق التاريخية وإخفاء الخطة الخطيرة التي دبرت خلال أكثر من ثلاثين عاماً من أجل القضاء على حركة الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية . ولقد كان المخططون للمؤامرة ، المنظمون لتاريخهم الزائف المكشوب قد وجدوا في رجلين من أكرم رجال العرب والمسلمين مقلباً لهذا العمل وهما : جمال الدين الأفغاني وهبند الرحمن الكواكبي . وقد كان التركيز يرمى إلى جعل جمال الدين الأفغاني بديلاً للسلطان هبند الحميد ومواجهاً له ، بل أنه بعض النصوص كانت تحاول أن تصور جمال الدين وهو صاحب الفكرة الأساسية للجامعة الإسلامية وأن الخليفة العثماني هبند الحميد هو الذي تلقفها منه ثم حاول أن يطويه تحت جناحه ثم انتهى الأمر به أن دس له السم في فسكه وقضى عليه .

وكل هذا زيف لم يثبت بالبرهان أو الدليل أو بالوثائق الصحيحة ، ومن أجل هذا أهلى إلى حد كبير ، أكبر من الواقع ، قدر جمال الدين الأفغاني ، وكان أكبر العاملين لتسجيل فكرة وإذاعة آرائه هم الماسونيون ، وفي مقدمتهم ( محمد الخزومي باشا ) صاحب كتاب ( خاطرات جمال الدين ) الذي يكاد يكون المرجع الوحيد لأفكار جمال الدين والذي كان رئيساً لمجمل دمشق في سنوات ما قبل الحرب ، ولقد كان هذا التخطيط يهدف إلى إغلاء شأن رجال آخرين من أصحاب الولاء للماسونية والصهيونية ( سواء دروا بذلك أم جهلوا ) من أمثال مدحت ، وغيره وهدماً لرجال كان لهم دورهم الكبير في الحركة إلى جوار السلطان من أمثال أبو الهدى الصيادي وغيره ، ولقد ظلت تكال لعبد الحميد عبارات الحقد والكراهية في مؤلفات العرب وكتبهم وأبحاثهم إلى وقت قريب جداً ، ربما إلى عام ١٩٦٥ عندما ظهر أول تصحيح علمي وثنائي لهذه المفتريات وهو كتاب الجنرال جواد رفعت الذي صدر في بغداد وهو الكتاب الذي كشف بعض هذه الحقائق ثم تنابعت الأبحاث وظهر كثير مما كان مستوراً من حفضه أصحابه في صدورهم وخاصة من لا يزالون أحياء منهم في الشام وغيرها ولقد تواترت هذه الحقائق وانتشرت في السنوات الأخيرة وخاصة بعد نسخة ١٩٦٧ على نحو يشكل تياراً واضحاً قوياً من شأنه أن يصحح زيف تلك الكتابات الخاطئة والمبطللة التي تواترت على مدى هذه الأروام السبعين منذ اعتزال السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ والتي ما تزال تتردد على ألسنة غربيين العرباليات التبشيرية من خصوم الإسلام والعروبة ودهاة التفرقة بينهما ، ولا شك أن

بروز هذه التيارات واندفاعه اليوم ممثلاً للحق القدي ظل حبساً هذه السنوات الطويلة يؤكد ما قاله الباحثون جميعاً من أن التاريخ قادر على النصفه وإحقاق الحق ودحض الباطل على المدى الطويل ، وأنه لا يمكن مطلقاً أن كذباً مضللاً مهماً أحييت بالسبك والإحراج البارح أن تستمر طويلاً إلا في غفلة الحق ، فإذا انكشف الحق وتنبه الناس له انهارت تلك الأباطيل ودحضت كالضوء الساطع يدحض الظلام .

واليوم نرى أن كتبنا التاريخية التي تعلم في المدارس والجامعات ومن ورثها كتب التاريخ والثقافة العامة والأدب والدراسات القومية وغيرها إنما تحمل خطأ كبيراً يوجه مسار البحث العلمي كله ناحية مضللاً بما يحول دون تبين وجه الحق في المراحل المتصلة من هذا التاريخ ، وبما يحقق لأصحاب المؤامرة الكبرى — في تدمير الإسلام والتفرقة بين العرب والمسلمين — استمرارية زيفهم ، ولذلك فنحن ننادي بتحرير هذا النص وكشف زيفه ونعتبره أكبر خطأ في تاريخ الإسلام المعاصر وأخطر مسلة ترتب عليها أبعاد الأثر في الإنحراف عن فهم الوقائع والحقائق . ولعل من أخطر الوثائق التي تناولتها الأيدي في السنوات الأخيرة وكانت بعيدة المدى في هذا السبيل ذلك النص الذي أدلى به السلطان عبد الحميد في الرد على مؤامرة الصهيونية حين طمعت في أن تدفع للدولة العثمانية ملايين من الجنهات من أجل السماح لها بالإقامة في فلسطين وكيف رفض السلطان عبد الحميد ذلك في هزة وإباء ، وفي قوة وصمود ثم كيف أخفى هذا النص سنوات طويلة حتى لا يعرف أحد هزيمة هذا الرجل وبهله بما يتعارض مما وجه إليه من إتهام .

ولقد كان هذا الرفض القاطع بعد أن توالى الإغراءات والمطامع عاملاً حاسماً في مجريات الأحداث حيث وجهت جميع الخطط للقضاء عليه وتخطيط هرشه وخلعه من ملسكه ، وكان هو يعرف جيداً مدى خطر ما ذهب إليه ومدى أثر ذلك في القوى التي تحركها الصهيونية من داخل البلاد ولكنه قبل النتائج في يقين وصدق لأنه كان يعرف أنه على الحق ، وأن خصومه إذا استطاعوا أن يخفوا هذه الحقيقة زمناً وقد أخفوها سبعين عاماً فإنها لا بد أن تظهر يوماً وأن تدحض كل الزيف الذي أحيط به تاريخه وسلوكه وهذا هو اليوم الذي نحن فيه . ومن العجب أن خصوم الإسلام والمسلمين كانوا يعرفون هذا النص ويعلمون هذا الموقف ولكنهم حين يذكرونه ، كانوا يرضونه في شيء كثير من التويه فيقول محرر الهلال مثلاً ( ورفضت الدولة العثمانية مطالب الصهيونية ) أو ما شابه ذلك من العبارات بينما لم يكن الموقف على هذا النحو من البساطة ولكنه كان تهديداً خطيراً للسلطان عبد الحميد ودهوته إلى حل لواءها . وحين يحاول خصوم العرب والإسلام أن يكتبوا تاريخ السلطان عبد الحميد

ويدعون أنهم يصطنعون المنهج العلمى فى البحث فإلى ماذا يرجعون من مصادر ؟ : ليس لهم من هذه المراجع غير : بروكلمان ، الماوتن ، جورج أنطونيوس ، الموسوعة الأمريكية ، توينبى ، سليمان البستاني ، محمد أنيس ، ونحن نعرف أن كل هؤلاء خصوم لعبد الحميد بوجه من الوجوه ودعاة المخطط التاريخى للظالم المفروض على مناهج الدراسات العربية ، وأن مصادر هؤلاء جميعا إنما تقبع اتجاهاتهم ومذاهبهم ، وأهواءهم ، وهل ينتظر من أوربى أو غربى أو ولى من أولياء الفكر الغربى ما يمكن أن ينتصف لعبد الحميد الذى كان فى نظرم ممثلا للدولة العثمانية التى أخضعت الغرب خمس قرون ، والذى حمل لواء الإسلام فى مواجهة زحفها للسيطرة على العالم الإسلامى وأحدث فى سنوات قليلة فى سبيل الوحدة الإسلامية الأعاجيب . لقد اتفقت كل الأطراف الاستعمارية : الروسية والغربية والصهيونية على مقاومة هذا الخطر ، وعلى توسيد تاريخ يظل حاملا لهذه المفاهيم أمداً طويلا حتى يتقرر فى النفوس موقف الكراهية والامتنان لرجل قاوم ودافع ووقف فى وجه الخطار وهو يعرف حجمه ومداه ، على النحو الذى يحقق وقوع اختلاف بين المسلمين والعرب واستمراره وتممه على النحو الذى يحول بكل وسيلة دون إلتقاء العروبة والإسلام ، هذا اللقاء الذى يمثل الخطار الجاثم فى وجه الغرب كله من أجل نفوذه الاستراتيجى والاقتصادى القائم ، وخوفا من المستقبل القريب أو البعيد ، أما كتاب العرب المعتمدون لهذه المراجع فهم تابعون للفكر الغربى الزاحف بشقيه ولهم هوى فى كراهية هذه الوحدة وهذا الالتقاء .

## ( ٢ )

### ماهية الحركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد

لكنى نعرف حقيقة هذه الحركة يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وقد بلغت الدولة العثمانية والعالم كله أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها وإفلالها . وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعا بالإضافة إلى البابوية تشترك فى رسم هذه الخطط وفى انتزاع الأجزاء الأوربية من الدولة واسترجاعها . والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية فى الدولة وهى الشام والعراق والجزيرة العربية . وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى فلسطين وتحقيق حلمها فى إقامة هيكل سليمان . فلما ولى السلطان عبد الحميد

الحكم : خليفة المسلمين وسلاطنا للدولة العثمانية ، واجه الموقف هل فهو مختلف عما واجه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه ، وكانت مواجهته حادة حاسمة . وكان إحساسه بالنبعة كبيرا وكان ذا كؤود وسعة فكره وإلمامه بالتيارات المختلفة بالغا ، ومن هنا قد جرى من الأحداث في طريقها المرسوم شوطا ثم لم يلبث أو وضع خطته المحكمة التي رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة هذا الغزو الاستعماري الزاحف ، والمتشكل داخل الدولة العثمانية في مؤسستين خطيرتين : إحداهما المحافل الماسونية في سالونيك وتركيا الفتاة التي سميت بعد (الاتحاد والترقي) والتي ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكري الغربي وخاصة الفرنسي ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا مبدل أمام الدولة العثمانية لتصل إلى التحرر والقوة إلا بالتماس مناهج الغرب إلتامسا كاملا وطرح أسلوها وفكرها ومنهجها الاسلامي القديم والخاص منه إلى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن أن تقف وحدها ، فاضطرت إلى التماس العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها ووجهتها الوجهة التي ارتضتها في القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو :

إن الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعماري هو تجمع المسلمين في كل مكان تحت لواء الخلافة الإسلامية الذي تحمله الدولة العثمانية الجامعة في كيانها بين العرب والترك . ومن هنا فقد كان على السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين أن ينادي المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه في صف واحد في مواجهة النفوذ الغربي ومن هنا كانت صيحته المعروفة للمشهوره التي هزت الغرب كله : « يا مسلمي العالم اتحدوا » . ومن هنا بدأ الخطر الذي واجهته الدول الأوروبية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية في عنف وأخذت في التماس كل وسائل التآمر والغدر في سبيل تحطيم الخطة والقضاء على الفائق بها ، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتا طويلا ، ذلك أنه وكان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء في قوة في مواجهة هواف السياسة الأوروبية ثلاثون عاما كاملة دون أن ينزول أو يضعف . لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوروبا والغرب المنجم المتآمر العنيد ، ولذلك فقد اتخذ من هذا الأسلوب الخطير ، أسلوب التجمع باسم كلمة ( لا الله إلا الله ) وتحت لواء الخلافة قوة هارمة خشيت بأسها أوروبا وحسبت لها ألف حساب ، فقد كان للمسلمون اللواون للسلطان تحت النفوذ الغربي يحشدون في عديد من الأقطار التي احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات

أهمية خطيرة . ولقد مضى السلطان في تنفيذ مخططة في قوة ومصرعة بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية وذاعت في كل مكان وحلت معها عملاً إيجابياً نافعاً ، قوامه للدارس والمثقات في كل صقع من البلاد الإسلامية . وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما أنبثوا في كل أطراف العالم الإسلامي إلى الهند والصين وجزائر المحيط ، ومصر وأفريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية . كما عقد مع الأمراء المسلمين في شتى هذه البقاع مراسلات وعقود وعق رابطة الود والإخاء الإسلامي فيما بينهم وبين الخلافة ، حتى قيل أنه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفاً من هذه الدعوة . وقد جعل السلطان عبد الحميد أمامه أمرين هامين :

الأول : هو أن يكون العرب هم ساقية هذه الدعوة وحملة لوائها ومن هنا فقد أخذ من كل قطر عربي مشيراً له لجمع حوله علماء وأمراء من الجزائر والشام ومكة ومنهم أبناء الأمير عبد القادر الجزائري وغيره من أمراء المسلمين . الثاني : هو إنهاء الخلاف الذي أوجبه الاستعمار بين السنة والشيعة أو بين الأتراك والفرس وقد استخدم لذلك علامة كبيرة هو السيد جمال الدين الأفغاني وأجرى صلحاً مع شاه فارس وصنى أمر الخلافات القديمة كلها .

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها وإنما جعلها واجبة لعمله الكبير الذي بدأه في بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله وقد استقدم بمئة ألمانيه ، ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين من شباب العرب من العراق وسوريا ومصر ، وقد مضت الخطة إلى غايتها للرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط ، وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دعاة الفكرة الإسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربي الزاحف والخطر الأوربي القيصري الصهيوني جميعاً وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وتراپطت الدول الإسلامية وأهلها حول هاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة « فكانوا يذكرون اسمه في خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية ويتحدثون باسم خلافته على المسلمين كافة » وكلهم من رهايا دول أوربا في الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقيا ، وكان هنا أخذ السلطان يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها أحياناً ملحوا بسلاح الجهاد الديني . وكان للصحافة الإسلامية في العالم الإسلامي دور كبير في حمل بذور هذه الدعوة والإشارة إلى الإصلاحات التي أقامتها في مختلف البقاع من إقامة المعاهد والمساجد والمستشفيات وغيرها واستطاع السلطان عبد الحميد أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز المسلمين في مجال الفكر أو السياسة وفي مقدمتهم : خير الدين التونسي

وجمال الدين الأفغانى وأبو الهدى الرفاعى (الصيادى) وأبناء الأمير عبد القادر الجزائرى . وأقام من العرب فرقة خاصة ضمها إلى الحرس السلطانى وولى كثيراً منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم أحمد عزت المابى .

وكان من أكبر أعمال السلطان عبد الحميد فى هذا الصدد : إنشاء سكة حديد الحجاز التى تربط بين دمشق والمدينة وكذلك ربط سكة حديد الحجاز بسكة حديد بغداد وقد وجد هذا العمل تقديراً بالغاً من المسلمين فى كل مكان وتبرهوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية فسكان من أخطر المشروعات التى عجلت بالقضاء على السلطان إذ كان نذيراً بتغيير الاستراتيجية الغربية الاستعمارية ، وقد استهدف هذا المخطط أساساً القضاء على دسائس الإنجليز ومؤامراتهم فى البحر الأحمر والجزيرة العربية وكان من أخطر مواقف الحركة الإسلامية الواحدة هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين والعالم الإسلامى كله ومواجهتها . ومن هنا انطلقت الصحافة الأوربية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والى قاد حركتها خيريجو الارشاليات التبشيرية من أمثال : سليم سر كيسى ، وفارس نمر ، ويعقوت صروف ، وفرح انطون وغيرهم للتشهير بالسلطان عبد الحميد ومعارضته وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وإثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الإسلامية وبين العناصر المختلفة فى الدولة العثمانية وخارجها وكان من أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر اللورد كرومر الذى حمل على الجامعة الإسلامية حملة ضارية ودعا الدول الأوربية فى تحريض سافر إلى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدهوة .

يقول دكتور توفيق برد فى كتابه : ( العرب والترك ) وفى الحقيقة شعر الأوربيون بخطور هذه السياسة على نفوذهم وأنبرى رجال لهم شأن فى تاريخ الاستعمار كالسيو هانوتو ولورد كرومر واللورد غراى إلى مهاجمة الجامعة الإسلامية واعتبارها بؤرة التعصب الدينى وأنه ليس المقصد منها سوى تحدى قوات الدول للمسيحية ودعم الأوربية إلى مراقبتها مراقبة دقيقة والحذر منها ، وقد حملت جريدة اللقطم فى مصر لواء مهاجمة هذه الدهوة ، كما هب أقطاب العرب والترك يدافعون عن الجامعة الإسلامية ، يتغون عنها صفة التعصب الدينى ، وقد تضمن رد محمد عبده الذى وجهه إلى كرومر دفاعاً عن السلطان عبد الحميد إذ وصف دولته بأنها أكبر دول الإسلام .

ورد البرلس صباح الدين على ما رده اللورد غراى فى مجلس العموم البريطانى على صفحات جريدة التيمس ( ١٣ أغسطس ١٩٠٦ ) من قول لورد غراى أن الجامعة الإسلامية ليست أسطورة من أساطير بل تسمى باللغة الاجتماعية : « رد فعل الشرق ضد الغرب » هذه الأعمال التى لم تكن

على الدوام تحمل الطابع السلمى . وقد شهد كثيرون بأصالة هذه الحركة وقوتها وأثرها : فبرى ( الدكتور برو ) أنها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية الأوروبية الطاغية كما أشار إلى أن قاذتها كانوا من الدعاة المبرزين « وقد أذكرى ناز هذا الشعور أءءء من أأضل العلماء أمثال : جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا ، ( الذين قاموا ) باستغلال هذا الشعور فى سبيل توحيد سيطرة السلطان فى الداخل وتقرير مكانة الدولة فى الخارج ولذلك فلا عبءة بما حاول بعض السكتاب المتغربين فى القاهرة من الغض من أهمية هذه الحركة أو تجاهلها أو القول بأن هذه الحركة كانت المدعاية الشخصية للسلطان عبد الحميد ، والمعروف أن أية حركة لابد أن تركز على حامل لوائها كأساس لها فليس هناك ما يعاب أن يذكر الدعاة السلطان أو يجمعوا القلوب حوله أو يؤيدونه فى موقفه الصامدة إزاء الغرب ومخططاته وتجمعه فى وجه الدولة العثمانية والإسلام والسلطان ولقد كان السلطان عبد الحميد ، سياسيا قديراً ، وقرما من أقرام السياسة الدولية ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجه هذه الرياح العاتية إذ كان قادراً على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات . وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى الذى يؤججه الاستعمار عن طريق حزب تركيا الفتاة وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية وتوجههم لاصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية وأوجه الخلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست أستطيع أن أصور هذا المعنى بأعظم مما صوره جمال الدين الأفغانى : الذى التقى بالسلطان ساعات ومرات ودراسة شئون العالم الإسلامى ومخاطر السياسة الأوروبية ومخططاتها فهو القائل : « رأيتة يعلم دقائق الأمور السياسية ، وصرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلاً ، وأعظم ما أدهشنى ما أهده من خفى الوسائل وأمضى العوامل ، كى لا تنفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ويربها عيانا محسوسا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب يعم الأمم الأوروبية بأسرها » . وقال : إن ما رأيتة من بقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوروبا وحسن نوياء واستمداده للتهوض بالدولة قد دفعنى إلى أن أمد يدى له فبايعته بالخلافة والملك . إلخ . ولقد أكد كثير من المؤرخين والباحثين فى إنصاف : إن السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بها الإسلام عن وجوده العالمى وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية . ومن الحق أن يقال أن الحركة التى حمل لوائها السلطان عبد الحميد فى تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة الإسلامية كانت أتجاها طبيعيا وأملا يملأ كل النفوس ولذلك فقد حققت نجاحا كبيراً ، أزعج الاستعمار والصهيونية إزعاجا شديداً على النحو الذى دفعهم إلى تدبيرها من الداخل واستهداف القضاء على حامل لوائها أصلا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .



(٣)

## التحديات في مواجهة الحركة

كان السلطان عبد الحميد يعرف القوى التي يواجهها، ويعرف المؤامرة التي تدبر له للبيعة محل لواء الدعوة إلى الوحدة الإسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي والصهيوني وكانت أخطر القوى التي تواجه السلطان هي من داخل الدولة العثمانية وتمثل في ثلاث فئات : ١ — فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم المعاهد الغربية . ٢ — حركة الارساليات الأجنبية في لبنان ٣ — حركة الحافل الماسونية في سالونيك . وكان السلطان يعرف أن كل هذه القوى إنما تعمل لتخلص من مشروعه الخطير بالتخلص منه هو شخصياً على أنه هو حامل اللواء . ولذلك فقد عمد السلطان إلى مواجهة ذلك بعمل كامل دقيق لمراقبة هذه التحركات ومعرفة اتجاهات المؤامرة، ومقاومتها، وليس من المقول مطلقاً أن يقف السلطان (أو حكومته) مسلوب الإرادة أمام عمليات التجسس الخطيرة التي تقوم بها كل هذه الدول : البريطانيون والفرنسيون ومن ورأهم الصهيونية العالمية ولذلك ما تردده كتابات خصوم الغرب والاسلام وما تروجه من القول بأن هناك شبكة تجسس ضخمة داخل المملكة العثمانية كان من الأمور الطبيعية إزاء هذه الحالة وإزاء مجتمع متهدد الأديان والأجناس والنفوذ الأجنبي عليه سلطان كبير ومن شأن ذلك أن يهرك الكثير من المؤامرات .

فضلاً عما كانت تثيره الدول الغربية من اتهام للعرب — بالتآمر على السلطان بالدعوة إلى الخلافة العربية — وهم القوة الجديدة التي اتخذها السلطان أداة لدعوته السكهرى، وإذا كان السلطان قد عارض أهداف حزب تركيا الفتاة فقد كان عالماً بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية وهي أداة الصهيونية العالمية، ولقد كان عبد الحميد عالماً بأهداف الصهيونية وقامها لخططات الحافل الماسونية وكان وقوفه في وجه الاتحاديين وتركيا الفتاة ومعارضتهم وتخطيط مخططاتهم ليس نابعاً من كراهية لهضة تركيا ولسكنه كان عمقاً في النظرة إلى ما وراء ذلك من تبعية وولاء وعجز في مواجهة براعة المستعمرين الغربيين ومراوغتهم في إخفاء أهدافهم وراء مظاهر براقة زائفة من الدعوة إلى التحرر والتمرد وغيرها، وليس دليل أصدق بعد نظر السلطان عبد الحميد مما وقع فعلاً، ومما قام به الاتحاديين من بعد من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لخططات الاستعمار والصهيونية جميعاً مما كشف عن أصالة

عبد الحميد وبعد نظره وتقدير موقفه الحاسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية وفي نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التي كانت تحمل مظهرآ براقا هو « الإصلاح » على طريقة الغرب ، بينما كانت تحمل في أعماقها إيمانا بالغناء في الغرب كله . ولقد استنطاع الغرب مرتين خداع المسلمين والعرب : خدعهم بالانحاديين حتى اتهم الدول العثمانية وخدمهم بالذين وثقوا بعود مكماهون ولورنس حتى اتهم البلاد العربية . إن مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ، فقد كانت اتصالاته الواسعة ومعلوماته عن مخططات الغرب الاستعمارية وتطلعات الصهيونية أكبر مما كان معروفا في الأفق السياسي العام إذ ذاك . ومن خلال لحات خفية يستطيع الباحث اليوم أن يستوعب مدى هذه الأخطار التي كانت واضحة أمامه ، ولقي كانت تدفعه إلى براعة الحركة واختيار الطريق الأصح ، بالرغم مما يبدو على السطح من أن ما كان يدعو إليه الانحاديون وتركيا الفتاة هو أكثر بريقاً وأزهى في العيون .

ذلك أن الدعوة إلى الحرية والتقدم كانت هدفاً حقيقياً لكل مصلح ، ولكل حاكم يريد الإصلاح وكان عبد الحميد من القلة القليلة الصادقة في طلب الإصلاح واستنفاد الحركة المنقطة التي ورثها ، ولم يكن له هو يد فيها وما تجرى به الأنظار من اتهامات للسلطين قد تصدق وقد تجور ، ولكن للوقوف بالنسبة للسلطان عبد الحميد لا يدخل في نطاق النظرة المعممة ، ويجب أن يفرد بالنظر ، فلم يستطع خصوم السلطان عبد الحميد أن يحصوا عليه اتهامات واحداً بالخيانة أو الاخلال أو معاونة غاصب ، أو السماح لدخيل ، أو للمراهنة بالوطن والأمة والدولة ولم تكن له في جانب للطامع الشخصية وبجال الذات والشهوات مسكان ما ، وكل ما استنطاع خصومه أن يقولوه عنه . هو أنه كان دكتاتوراً أو حاكماً مستبداً وأنه خلق حركة ضخمة من حركات رصد تنقلات المدوحي ما كان يطلق عليها « النجس » وتعرف في المعصور الحديثة باسم استخبارات دواهي الأمن وهي من أزم ضرورات الأمم وأشدّها أهمية في حماية مصير الدول .

وليس عبارة النجس أو استخبارات الأمن بالأمر الذي يضرب قائداً طموحاً له مخططاته في وجه العدو يعيش في دولة مفتوحة على الغرب المتآمر الطامع في إسقاط المملوكة وتقسيمها وتدمير مقوماتها ، وبين أجناس متعددة يستغل النفوذ الغربي فيها كثيراً من أمحباب الديانات والمذاهب ويلتقط الكثير من المسلمين الأتراك الذين يهلون إلى معاودة العسكرية أو المدنية في أوروبا ليجندهم ضد دولتهم وضد المخطط الضخم الصاهق الذي أزعج أوروبا جميعاً وهو « لواء الوحدة الإسلامية »

وقد اختار النفوذ الاستعماري لذلك بديلاً أطلق عليه اسماً خامساً له بريق وإث كانت الوثائق والأحداث قد كشفت عن زيفه من بعد واتصاله بمخططات الماسونية واليهودية العالمية وهو ما أطلق لأول مرة على الثورة الفرنسية التي صنعها اليهود : [ حرية ، إخاء ، مساواة ] كما تكشف من بما لا يدع مجالاً للشك أن الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد كانا هدفين أساسيين للنفوذ الغربي والصهيونية العالمية . وأما هنا فنحن نرى خطير أوردته الدكتور محمد علي الزحبي في كتابه ( الماسونية في العراق ) لا يحتاج إلى مراجعة كبيرة للاقتناع به وهو : « كان اليهود يرون السلطنة العثمانية وهي شبح مخيف للخلافة الإسلامية ، خطراً على مستقبلهم وقد زار هرتزل السلطان وعرض عليه عروضاً مغرية ثم قرر الحقل الكوني خلع عبد الحميد وكلف فرسان تركيا الحكياء المتسترين بالإسلام ( الدوغم ) بتنفيذ القرار فنفذوه سنة ١٩٠٩ » .

ولقد قادت الصهيونية هذه الحملة على السلطان عبد الحميد تمهيداً لعزله ، في محاولة لخلق رأي عام ضده في كل مكان وخاصة بين الأتراك من ناحية وبين أهالي الشام بالذات وفيهم جانب كبير من خصومه وخصوم الدولة والذين أثبروا من ناحية جمع كلمة المسلمين في العالم كله وتصويرها على أنها خطر على وجودهم . أما الاتهامات التي وجهت للسلطان من قتل واستبداد وغيره فقد انكشف زيفها حين أعلنت الحقائق التي أخفيت بعد زمن وتبين أنها لم تكن إلا من صياغة المتآمرين . يقول الدكتور سميد الأفغاني أحد كتاب سوريا والذي كان في زيارة بلاد الأتراك عام ١٩٥٠ وفي لقاء مع المسؤولين بها : « لما ذكر أحدنا الألوف من الأحرار الذين لا يحصون ممن أغرقهم السلطان عبد الحميد في مياه البوسفور ابصر رئيس الهيئة في رقة ولطف طالباً تسمية عشرة فقط من هذه الألوف التي لا تحصى فلما أخرجنا قال : يا إخوتي : لم يثبت غرق إنسان واحد في البوسفور ، لكن كتباً وبحوثاً ظهرت في السنين العشرين أزال من نفسي كل ما كان رسخ فيها منذ الصغر عن عبد الحميد حتى ما حفظناه من قصيدة حافظ :

مشعب الحوت من لحوم البرايا      وجميع الجنود نحت البنود

والواقع أن هذه الروايات لم تكن وقائع حقيقية بقدر ما كانت عبارات يرددها أمثال جرجي زيدان وصروف وفارس نمر وسليم سركيس وهم جميعاً من أبناء المحافل الماسونية الذين يتحركون وفق مخطط مرسوم ، أما الحقيقة فقد ظلت مخفية لأنها لم تجد سبيلاً إلى الكشف عنها أو إذاعتها خلال هذا الوقت الطويل . وقد عرف اليهود بالقدرة على افتراء التاريخ بذكائهم وأساليبهم في المنشر والمصحافة على النحو الذي استطاع تسميم أفسكار جيلين أو ثلاثة من أجيال المسلمين والعرب ،

فكتبوا هذا التاريخ المغلوط الذى جعل من إخراج عبد الحميد علامة نصر وفرح للسذج قصيرى النظر . ولقد استطاع عالم مؤرخ غربى منصف هو المؤرخ « فبرى » المجرى أن يكشف هذه الحقائق ولكن صوته ضاع إذ ذاك فى وسط الزحام ، وغطت عليه عشرات من الأكاذيب المصرغة فى قوالب براقة ، والتى كثر ترددها وتعدد واستمر ذاتها بعشرات من الصور حتى أصبحت فى نظر بعض الناس هى الحقائق ، يقول فيها يتعلق بالرقابة : ١ — قيل لى أن للسلطان ألف جاسوس ، وأخبرنى آخرون أن له ألف وستائة جاسوس ينقدم الأموال الكثيرة كل شهر ، وأنهم منبثون بين أهالى الاسنانة كلهم من وطنيين وأجانب بل فى مخادع النوم وغرف البيوت فلما سمعت هذا الكلام بمحت طويلا واستقصيت طويلا ثم رجعت وقد أيقنت أن كل ما سمعته اختلاق ومبالغة وغلو .

٢ — ويقول فى اتهام السلطان بالنمصب ومعاداة المسيحيين من قومه وغير قومه : « الحال أنه اتخذ كبير أطبائه من المسيحيين وجعل وزير ماليته دولتو أغوبيان المسيحى الأرمنى ، وعهد بكثير من مهام سلطته إلى غير المسلمين من رعيته . وهو أول سلطان من سلاطين آل عثمان خرق الحواجز القديمة ودعا رعاياه المسيحيين عدا ملوك أوروبا وسفرائها وكبرائها ووجهائها إلى ضيافته والجلوس معه على مائدته . وبالإضافة إلى ما فعله لتعليم شعبه وتنوير أذهانهم وتنقيف عقولهم . وإذا استمر الأتراك سائرون على المنهج الذى نهج لهم سلطانهم ، يلفوا مبلغاً يذكر يوطد أساس ارتقايتهم العقل والاقتصادى . وأن من يقرأ ما كتبه فبرى عن حياة السلطان يصل إلى الحقيقة التى أخفاها أعداء السلطان طويلا عن حاكم يعطى أمور الحكم أهمية بالغة فى صدور وصدق يقول : « إنه يقضى يومه من الصبح باكراً إلى أن يقضى للنساء منها بقضاء أشغال الدولة ، ومهام السلطنة ناظراً فى كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يفتى محنته ويعاونه وزير الحكومة . ولقد دخلت يوماً فوجدته جالساً على دبوانه من يمينه عدد من الجرائد التركية وترجمات من الجرائد الأجنبية قد تراكم بجانبه كوما هالياً وعن يساره ما يضاهاها من أوراق الحكومة المعروفة حملته لجلالته لمراسمتها والتوقيع عليها . ثم يعرض لمفاهيمه فى السياسة العالمية :

« لا أرى أسد من كلامه حيث قال لى يوماً إن أوروبا قد غرقت أرضها ومهدت تربتها أهواماً وهصوراً حتى جاءت بما تراه فيها من مصادر الحرية والمؤسسات الحرة ، والآن تطالبون إلى أن أقلم فسيطة من منابت الحرية التى فيها وأغرسها فى أراضى آسيا الوعرة القاحلة . دهونى أتعهد هذه الأرض قبلاً بما يحسنها فأقلم أشواكها وأرفع أحجارها وأقلم تربتها ، وأحضر الأتنية لإروائها ثم أقبل تلك الفسيطة إليها وأكون أول من يطيب نفساً ، ويقر هيناً بنائها ونضارتها .

ونفى استخدام الجواميس وقال : ان كل ما سمعه من هذا القبيل اخلاق أو مبالغة وغلو وأصل تلك الأقوال كلها أن رجلا من أهل البلاط يستخدمون الجواميس سرّاً ويرصدون العيون خفية لإجراء دسائسهم ومكايدهم الشريرة وتنفيذ مآربهم الفاسدة ، وجلالته عالم بمكرهم ودعائهم ، ولكن كشف حيلهم وإظهار دسائسهم ومكايدهم ليس بالأمر السهل عليه كما يتوهم الأوروبيون في بلادهم . ، ا ، ه .

ولم يكن « فبرى » وحده هو الذى أنصف عبد الحميد ولكن كثيراً من الباحثين الذين لم يتعون تحت طائلة النفوذ الأجنبي والصهيونية أنصفوه فقد وصفه الأستاذ ( أدون جرنور ) الأمريكى وكان من أساتذة جامعة بيروت الأمريكية وصفا لا يوصف به إلا أعظم الملوك وأعداهم فقال : أنه جواد كريم يهتم بخير رعيته وليس بين الملوك من يجاريه في الجود على ذوى البأساء ، وقال ( ده سومس اليونانى ) . أنه سائر على خطة محمد الفاتح وسليمان القانونى وقد عاضد العلوم والفنون وهو وديع أنيس كريم مستنير زكى الفؤاد عالى الهمة كثير الاشتغال بهام السلطة سديد الاحكام فيها . وقال صموئيل كولس سفير أمريكا في تركيا عنه : إنه ملك بكل معانى الكلمة ويستحق أعظم مدح على ما يبديه من المقدرة في سياسة بلاده والتوفيق في شئونها المختلفة الأجناس والمذاهب . . وفى تقدير شخصية عبد الحميد لم يستطع حتى أشد خصومه ضراوة أن ينكروا عليه عظمته فيقول الدكتور شبلى شميل بعد عزل السلطان :

« لا ريب أن عبد الحميد من أشهر مشاهير هذا العصر وسيمد له التاريخ صفحة كبيرة فقد استطاع أن يعيش كل فترة حكمه سلطانا مطلقاً ، ويقول الأخلاقيون أنه تمكن من ذلك لأنه على جانب عظيم من الدهاء والذكاء حتى أجاز على رعاياه وسائر الأمم فوز أغراضه ، بل هو في نظر البعض أعظم داهية في هذا العصر ، ولا ينكر عليه أن قواه العقلية مترابطة في صراميتها متناسقة في استنباطها ثم قال : عبد الحميد يعتبر اليوم في قوة فهمه أعظم ممثل للذكاء في الشرق القطرى الذى قضت عليه التريبة العلمية الحديثة . وفى سلوكها أعظم ممثل للسياسة القديمة الشرقية المكتسية من تربية الشرق الاجتماعية والتي كان آخر ممثل عظيم لها في السياسة . . ولم يستطع جرجى زيدان وهو من أتباع المحافل للاسونية أن ينكر مكانة عبد الحميد السياسية بالرغم من ترديده عبارات الاستبداد والتجسس وقتل الألوفا مما كشفنا زيفه : فقال أنه من الرجال الذين واجههم غلادستون وبسارك ، ولقد كان عبد الحميد في ذكائه السياسى ومخلص الوجهة لا نقاذ الدول العثمانية وحمايتها ورفض نفوذ الصهيونية

في فلسطين والحيولة دون تحقيق مشروعات الاستعمار بتمزيقها إنما يقف في وجه هذه للؤامرة العالمية الخطيرة التي كانت ترى في بقاء الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية عقبة في وجه تنفيذ مخططاتها ، فإذا ما أخاف إليها السلطان عبد الحميد مشروعه في الوحدة الإسلامية الذي وجد قبولاً لا حده في نفوس المسلمين خارج الدولة العثمانية وحقق نجاحاً باهراً ، كل هذا أزعج للقوى الاستعمارية ودفعها إلى التمعل بالتمخلص من عبد الحميد بالذات بوصفه قائد هذا الاتجاه وحامل هذا اللواء . وقد جرت للؤامرة عليه من طريق إثارة العناصر من ناحية والايقاع بينه وبين العرب ، وإغراء مجموعة من الأتراك أنفسهم لحل لواء تحرير الدولة العثمانية ، عن طريق دهبوين ( ١ ) الخماس المناهج الغربية كاملة في الحضارة والثقافة ممآ ( ٢ ) إذاعة النمرة الجنسية بالدعوة الطورانية وتترك العناصر . هذا هو المخطط الذي كان السلطان عبد الحميد يقاومه ، ويمارضه ويحول بينه وبين إفساد مخططة ودعوته التي كانت قد حققت نجاحاً كبيراً وأوشكت أن تؤتي ثمرتها المرجوة . ولقد كانت سعة أفق السلطان عبد الحميد وذكائه وبرودة أعصابه هي التي مكنته من السيطرة بالاصرار والقوة هذه السنوات الطويلة ودحر كل مناورة أو مؤامرة . ويصور هذا المعنى الجنرال جواد رفعت وهو ضابط تركي من أصدق الأتراك إيماناً بالإسلام وبحما عن الحقيقة في ذلك الركام المضخم من الأكاذيب التي لفقها النفوذ الاستعماري والصهيونية فيقول د أن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه الذي عرف حقيقة الصهيونية والسبائانية وقدر أضرارها على الترك والإسلام وخطرهما الحديق تماماً وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدبة لتحديد شروطهم هو السلطان العثماني الثالث والثلاثين السلطان عبد الحميد الثاني فقط ، إن هذا السلطان التركي العظيم كافح هذه للمنظمات الخطرة مدة ثلاثة وثلاثين سنة بذكاء وهزم وبارادة مدهشة جداً كالأبطال والكفاح لمدة طويلة كهذه مع هؤلاء تعتبر فوزاً عظيماً نجاح شبكتهم للببثوة في جميع أنحاء العالم ومنظماتهم التي أحدثوها في الأرض ووسائل وأسلوب دعاياتهم وافتراءاتهم الكاذبة الشنيعة من هنا قاوم رحمة الله في كفاحه هذا إلى آخر حياته وأن شرف الكفاح لمدة طويلة كهذه مع هذه المنظمة الحقودة لحساب الأتراك والإسلام لم يكن ميسراً لأحد في التاريخ سوى السلطان للذكور فقط . ولقد كذبت الأحداث ما زيفوه من اتهام حول رباطة جأش السلطان ، فقد ثبت في موقفين حاسمين كيف تصرف السلطان في شعاعة فائقة : أما أحدها فحين ألقيت عليه قبيلة وهو في طريق عودته من صلاة الجمعة واهتزت الجموع وثبت السلطان على نحو هز للراقبين والشعراء .

أما الحادث الثاني فندع خصاً من خصوم السلطان يرويه ، وهي المؤلف (للاونان) صاحبة كتاب ( عبد الحميد ظل الله على الأرض ) تقول :

» في ١٩٠٤ في حفل الاستقبال السنوي في قصر ضوليفشة حيث كان (السلطان) يستقبل ضيوفا من أنحاء العالم وقع زلزال شديد فتحطمت النوافذ وانشقت أرض القصر ، ونهاوت الثريات من السقوف ، فقفز الوزراء والباشوات من النوافذ واستولى الذعر على كل الموجودين ، ما عدا عبد الحميد الذي ظل واقفاً منتصباً رابط الجأش وسط الغرفة المتأرجحة . . هذا وقد عمد كل الذين كتبوا عن عبد الحميد أن يصفوه بالضعف والمرض والوهن وأنه هلى وشك الموت وقد كذبت الاحداث كل ما قالوا فقد هاش بعد عزله ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٨ عشر سنوات كاملة ، ولو كان كما يقولون كما هاش كل هذه السنوات التي كان خلالها في أقصى درجات اليقظة والوهى والوقوف على الاحداث ومراقبتها .

#### ( ٤ )

#### عبد الحميد والصهيونية

إن موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية لا يزال من أشرف المواقف وأبرزها في حياة هذا الرجل الذي ظلمه التاريخ الزائف المعاصر طويلاً ، حتى انطوى أكثر من خمسين عاماً قبل أن ينكشف الستار عن بعض الحقائق التي تبريء ذمة هذا الرجل ، وتضعه في مكانه الحق في مواجهة أخطار الصهيونية وقوتها الخطيرة : للمساوية ، هذا بالإضافة إلى مؤامرات النفوذ الأجنبي الاستعماري من روسيا وفرنسا وبريطانيا الطامحة في تمزيقها وانزعاج أجزاءها الأوروبية والعربية جميعاً ، ولقد ترددت روايات كثيرة حول موقف عبد الحميد من الصهيونية ، من لقاءات متعددة ، أو محاولات متوالية لأغراء السلطان أو تهديده أو التوسط لديه من أجل إتاحة الفرصة للصهيونية لإقامة معسكرات لهم في فلسطين وتقديم عروض مغرية سخية للدولة ولخزينة الخليفة نفسه ، وكلها نجمت على المواقف البالغ التقدير والشرف والكرامة من السلطان إزاء هذه المغريات مما أغلق الباب نهائياً أمام الصهيونية وأقدم كل أمل فيه وأياسهم منه نهائياً فسكان قرارهم بالقضاء عليه ، هذا القرار الذي نفذته رجال الماسون الأتراك الذين كانوا يتجمعون تحت أسم تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي وكانوا أداء في يد الصهيونية العالمية ، في نفس الوقت الذي كانت الصهيونية والاستعمار تقدم لتولى زمام الأمور في تركيا ، خدعة وتآمراً على تصفية هذه الامبراطورية الضخمة تصفية نهائياً على مرحلتين : مرحلة ما بين ١٩٩٠ و ١٩١٨ عن طريق الاتحاديين ، وفيها استولى الاستعمار على البلاد العربية وفيها بعد ذلك هلى أيدي السكاليين بالغاء الخلافة وفصل تركيا نهائياً عن العالمين العربي والاسلامي والحاقها

باوربا ، والابقاء عليها مضمونة حتى لا تكون هاملا من عوامل الخطر في وجه أوروبا .  
وهناك لقاءان ترددا كثيراً في كتابات المؤرخين والباحثين : ( أولاً ) لقاء اليهود الثلاثة  
( مزراحى قرامو د جاك — ليون ) الذين قدموا إلى قصر يلدز ، وقدموا عرضاً بوفاء ديون الدولة  
العثمانية وبناء أسطول لحماية الامبراطورية العثمانية وتقديم قروض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية  
دون فائدة لإعاش مالية الدولة ، وذلك مقابل إباحة دخول اليهود إلى فلسطين في أى يوم من أيام  
السنة للزيارة والسماح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل بها أبناء جلدتهم قرب القدس . ( ثانياً ) لقاء  
تيودور هرتزل ومعه الحاخام موسى ليوى ( حاخام اليهود في الدولة العثمانية إذ ذاك ) وقد استقبلهما  
السلطان ومعه منهما ما عرضاه وكان يدور حول السماح لليهود بشراء بعض الأراضي التي لبست  
مملوكة لأحد في فلسطين على أن يدفع بدلها نقداً ومع الزيادة وبالذهب . ويقول مستر كريس أن  
هرتزل قدم فكرته وهي أن الصهيونيين يتعهدون لقاء نزول اليهود للضطهدين في أنحاء العالم  
بفلسطين أن يدفعوا المدين العثماني البالغ ٢٢ مليون ليرة إنجليزية ويتعهدون كذلك ببناء أسطول  
كامل للدفاع عن أراضي الدولة العثمانية .

( ثالثاً ) وهناك محاولة أخرى قام بها السفير اليهودي غوش ، وهي سابقة في التاريخ على المقابلة  
التي قام بها اليهود الثلاثة أشار إليها الصحفي البريطاني كريبي في مقابل أرسل به إلى جريدة أقسام  
التركية . وقد تمت هذه المقابلة ( ١٩٠٠ / ١٩٠١ ) قال د كان الدكتور هرتزل في ذلك العهد رئيس  
تحرير القسم الأدبي من جريدة ( نيوفرى ) في فيينا فأرادنى أن أسمى له في مقابلة السلطان عبد الحميد  
بعد أن بسط لى بحزن شديد كيف أن غليوم الأول والسبراس دى بيلوف خدعاه لما رافقاهما في رحلته  
الامبراطورية إلى فلسطين ، فقد وهذه هذا الأخير أن يقدمه إلى السلطان ، فلما وصلوا إلى الاستانة  
اكتفى السبراس بأن عرفه إلى حزب باشا العابد .

وقد أشارت مجلة المشرق : إلى هذه المقابلة . فقالت : « لما كان اللورد غوشى الإسرائيلي سفيراً  
بالاستانة عرض على الحكومة السلية أن تجعل تلك النواحي ( ملقاد ومؤاب وهبر الأردن ) التي  
مساحتها نحو ستائة ألف هكتار مستعمرة لليهود تحت نظارة الباب العالي يسوسونها كما يشاؤون ،  
بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغاً عظيماً من الدراهم لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات .  
غير أن الدولة السنية لم تلب دعاء غوشى وأغنياء اليهود فذهبت آمالهم أدراج الرياح وكانت خايتهم  
أن يمهّدوا الطريق لأبناء جلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة بالأراضي المقدسة كما كانت قبل المسيح » .



وفي هذه للرحلة بالذات ، وكان ذلك خلال حكم السلطان عبد الحميد ، تحدثت صحف الأستانة مواجهة أنظار الحكومة والأهالي إلى هذا الخطر ، واشترت جريدة معلومات ( ونقلت منها جريدة نمرات الفنون ) عدد صفر ١٢٢٤ ١٣٥ حزيران ١٨٩٩ م تحت عنوان (اليهود في سوريا وفلسطين) « . . لليهود ميل شديد تقادم فيهم لمجاورة القدس ، لأن تلك الأقطار كانت مهداً لاحتلاء مجدهم في الأزمنة الغابرة ، وقد جذبتهم معتقداتهم الدينية إلى مجد أسلافهم ، فقام الكثيرون على المهاجرة إلى أنحاء القدس وتوطن فريق منهم في تلك الجهات وصار لهم قسم كبير من الأراضي وما زال الكثيرون يرغبون في الهجرة وشراء الأراضي وهذا مما يضر بصالح الدولة والأمة معاً ، إذ تصبح القدس في يوم من الأيام بين اليهود فقط ، وقد سمعنا أن الدولة شعرت بالخطر فأصدرت أمراً إلى متصرف القدس ، حظرت فيه بيع الأراضي الأميرية إلى أولئك المهاجرين كما نصحت الأهالي بأن يحافظوا على أراضيهم ولا يبيعوها لليهود . . وبهنا أن نعرف بعد ، ماذا كان موقف السلطان عبد الحميد وإجابته الحاسمة لمثل هذه المحاولات المنكورة ، لقد وقف السلطان عبد الحميد ، أشرف موقف ورفض رفضاً باتاً كل ما عرضة اليهود بل رفض وساطة أمبراطور ألمانيا وهو نصير تركيا في ذلك الوقت في وجه خصومها الفرنسيين والإنجليز والروس . وهذا ما قاله السلطان عبد الحميد رداً على ذلك بالنص :

« ليعتظ اليهود بأموالهم والدولة العلية لا يمكن أن تحتجب وراء حصون بنيت بأموال أهداء الإسلام . . . لست مستعداً لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني للمسلمون بحمايتها . . » إن ديوان الدولة ليست طاراً لأن غيرها من الدول هي الأخرى مدينة مثل فرنسا . . » إن بيت المقدس قد افتتحه للمسلمون أول مرة بخلافة سيدنا محمد بن الخطاب رضي الله عنه ولست مستعداً أن أتحمل في التاريخ وصمة بيعه لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني للمسلمون بحمايتها . . وقد أورد هرتزل في مذكراته التي طبعت بالألمانية في تل أبيب سنة ١٩٢٤ (يراجع النص) قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة : أن السلطان بعث له وساماًاليا ومعه خطاب جاء فيه : بأنوا الدكتور هرتزل ألا يبدل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر (الوطن بـفلسطين) فإني لست مستعداً لأن أتحمل على شبر واحد من هذه البلاد لنذهب إلى الغير فالبلاد ليست ملكي بل هي ملك شعبي روي تراها بدمائه فليحتفظ اليهود بعلايتهم من الذهب . . كانت هذه العبارات الشريفة للقاطعة الصريحة كفيلاً بأن تدفع الصهيونية العالمية وأداتها للماضونية إلى تنفيذ الخطة التي انتهت بمزل عبد الحميد بعد مؤامرة قتله التي فشلت . وما تزال هذه العبارات نبأ مضيئاً ، وتاجاً لامعاً ، وشرفاً ما بعده شرف يتوج جبين عبد الحميد ويرد عنه كل ما روجوه حولة من إشاعات

وشبهات من أجل تخطيطه في نظر العالم وتصوير نهايته على أنها كانت من صنع قومه وأهله وشعبه ،  
حسبما فهم الناس وردد الكتاب في مؤلفاتهم دون وعي — وقد كنا خدعنا مثل غيرنا بالوقائع  
المزيفة قبل العقد السادس من هذا القرن حيث ظهرت بروتوكولات صهيون وانكشف الستار عن  
مخططات مؤامرة قلب الدولة العثمانية وإنزال السلطان عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه  
الجريمة البشعة التي سنوالى رسم حلقاتها في هذا الكتاب ، لنكشف الستار بذلك عن المؤامرة العالمية  
لتدمير الرابطة العضوية بين العرب والإسلام بعد أن ظهر عدد كبير من الوثائق والمقررات والأسانيد  
التاريخية التي تلي الضوء على الحقائق التي كانت مخبوءة في المواقف الغامضة التي سيطرت عليها  
الماسونية اليهودية وحجبتها ردحا من الزمن عن الصحافة والأقلام حتى أتيج لها بشكل أو بآخر أن  
تنسرب وأن تصل إلى الناس وأن تشكل في مجمرها خطا واضحا بعيد الأثر في إعادة تفسير التاريخ  
الإسلامي المعاصر وإلقاء الضوء على كثير من الفجوات والفواض ، وكشف الحقائق التي يجب أن  
تكون بين أيدي الباحثين في فترة من أدق فترات حياة العالم الإسلامي والأمة العربية ، ولقد كان  
واضحا أن النفوذ العربي بالاشتراك مع الصهيونية العالمية كان يعمل منذ وقت بعيد على تدمير الدولة  
العثمانية ، ولكن اختلاف الدول الأوروبية على القنائم وارتفاع نفوذ بعضها على البعض ، وحرص  
بريطانيا على ألا تحصل روسيا على نصيب الأسد كان يؤخر هذا الإجهاز ، غير أن الصهيونية العالمية  
عندما أحست بأن طريقها إلى بيت المقدس وبناء هيكل سليمان وهو العمل الذي ترتب له مرأى على  
نحو دقيق ومتصل من خلال المنظمات الماسونية لبنداء من هام ١٧٦٠ تقريبا بدأت بإنشاء أول محفل  
ماسوني في بريطانيا الزاحفة إلى العالم الإسلامي للسيطرة عليه ، وعندما قل عبد الحميد كلمته الحاسمة :

« قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بي مرة أخرى » كان ذلك حكما من السلطان عبد الحميد على  
نفسه بأنه أصبح صريع الماسونية العالمية وضحية من ضحاياها ، وقد كان يعرف هو الكثير عن هذه  
المخططات ولكنه لم يبال ذلك عندما جاء وقته من أجل (شرف الكلمة) وبراءة التاريخ الذي سجل  
له في هذا الموطن أروع صفحة وأنعم كلمة . لقد حددت الصهيونية العالمية موقفها تماما من السلطان  
عبد الحميد ونفذته على مراحل ، المرحلة الأولى : تلك الصفحات العاصفة من الدهاوة ضده وتصويره  
وتصويره بصورة المستبد القاتل الذي يلقي بضحاياه في البسفور وأطلقت عليه اسم السلطان الأحمر  
إشارة إلى الدم والقتل وظلت تنشر ذلك في كل مكان واختيرت مصر مقراً أساسيا لهذه الدهوة  
فقامت المقطم والحلال وروايات الحلال ومجلات سر كيس وفرح أنطون وغيرها بالحديث عن الاستبداد ،  
واستغلت كتابات عبد الرحمن الكواكبي في وقت كان الخلاف قد وقع عن السلطان والخديو عباس .

ثم امتدت هذه الحركة إلى باريس ولندن وحمل لواءها المسيحيون اللبنانيون . وفي مقدمتهم : صابونجي ومراش وعازوري حيث أنشأوا الصحف في العاصمتين وظلوا يحملون عليه ويسربون كتاباتهم إلى البريد العربي والتركي ليصل إلى أيدي المسلمين والعرب في بلاد المملكة العثمانية . وقد رد الباحثون للنصفون هذا الاتجاه ، وما بذلوه في سبيل إشاعة الكره ضد السلطان في كافة أنحاء العالمين الإسلامي والمسيحي إلى نص وارد في البروتوكولات للمادة الخامسة : يقول : « وجوب تلفيق الوقائع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم ومن هنا كاف ذلك المخطط الواسع الدقيق في تلفيق الوقائع ، للوهمة من قضايا القتل والإعدام والإحراق والاغراق » مما لا يزال يصدقه الكثيرون لمرورده سنوات دون أن يتعرض له أحد بالنصحيح أو التكنذيب . ( ثانيا ) استيعاب للمنظمات والجمعيات السرية وخاصة منظمة الاتحاديين ( تركيا الفتاة ) ودعها عن طريق أموال الدولة في سالونيك وفتح أبواب المحافل للماسونية الداخلة في حماية القنصليات ضمن قوانين الامتيازات الأجنبية المعهودة حتى يكونوا في مأمن من السلطات التركية ودفع هذه للمنظمات إلى العمل في الخارج أيضاً .

( ثالثاً ) محاولة تدبير مؤامرة لإغتيال السلطان التي قام بها بعض الأرمن . ويرى جواد رفعت هذه المحاولة فيقول : أن للماسونية الصهيونية عثرت على يهودى معروف بأعماله المدممة في الثورة الروسية ، فاتفقوا معه واستطاع هو أن يمتزج على بعض الأرمن ، الذين أغروهم بأن اغتيال عبد الحميد سيحقق لهم قيام ( أرمينيا الكبرى ) فألقوا قنبلة على موكب السلطان وهو في طريقه لصلاة الجمعة فأدت إلى استشهاده رجلين من رجاله ونجا السلطان الذي كان قد تأخر بضع دقائق . ولقد ترددت في كتابات جرجى زيدان وصروف والكاتبه أولاً ولكن وغيرهم عبارات تفيض بالخرى من ما وصفوه بضعف السلطان وخوفه وتوجسه وغير ذلك مما لفقوه ليبرروا به ما قالوه من إتساع نطاق الرقابة وإجراءات الأمن ولكن ماذا كان موقف السلطان حقيقة من مثل هذا الحادث الذي وقع في مواجهة المراقبين والسفراء ومندوبي الصحف وكالات الأنباء : لقد دهش الجميع لمدى رباطة جاش السلطان وحزمه ، وجراته ، فقد وقف صامداً دون أن تبدو على وجهه أى علامات الاضطراب ويصور ذلك جواد رفعت فيقول : « إن الشجاعة وبرودة الدم اللتين أظهرها السلطان في أثناء وقوع الحادثة قد حيرتا كافة رجال السلك السيامى الأجانب الذين كانوا يشاهدون المراسيم من دائرة التشريفات ، وأظهر لأملاً قاطبة كذب الدعاية الصهيونية القائلة بوجود « التوجس في السلطان » والمعروف أن الصهيونية العالمية عندما هجرت في مجال الاغتيال ، رتبت خطتها على أساس تدبير انقلاب عسكري فيه

كثير من الخداع والتآمر . وفي مواجهة الموقف اتخذ السلطان عدة إجراءات حاسمة : ( أولاً ) أمر السلطان باتخاذ إجراءات حاسمة بشأن الوجود اليهودي في فلسطين والقدس ، ووضعت حكومة الاسنانه قانون ( الجواز الأحمر ) وكان خاصاً بكل يهودي يدخل فلسطين بقصد السياحة أو الزيارة كما منعت أملاك اليهود للأرض أو استيطانهم فيها . وأرسل السلطان إلى ( متصرف القدس ) ليقوم بالتجري عن اليهود في فلسطين ولا سيما في القدس ، ولا يبقى في الأرض المقدسة احداً من الطائفة اليهودية غير الذين قدموا إليها بقصد الزيارة العابرة ، وألا يسمح لهؤلاء بالملكوث فيها إلا بمقدار الزمن المحدد لهذه الزيارة . ( ثانياً ) عزز السلطان دعوة إلى الوحدة الإسلامية واتخذ من العرب هصبية له ، وقد اعتمد في هذا المشروع أساساً على خير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ثم قرب إليه فريقاً من مشايخ الأمصار العربية من أمثال : أبو الهدى الرقاهي من سوريا ، محمد ظافر من الجزائر ، أحمد القيصري من المدينة ، فضلاً عن أشراف مكة وعده كبير من العلماء والأشراف كما عهد إلى بعض أبناء زعماء المسلمين والعرب بالمناصب الكبرى في العاصمة : أحمد هزف العايد ، شفيق المؤيد ، شفيق الكوراني ، سليم ملحمة ، نجيب ملحمة ، شكرى الأيوبي وكل هؤلاء من سوريا ولبنان وطالب النقيب وأحمد الزهير من العراق . كما وضع عدداً من ضباط العرب في درجات عالية ، وكان في عداد ياورانه : فريقان من العرب هما محمد وحى الدين ولدا الأمير هيد القادر الجزائري وفؤاد باشا المصري كما اتخذ من أبناء المروبة حرساً خاصاً له ألبسه العمام الخضراء وأنزله حول قصره وصاهر السلطان العرب فزوج أميرتين من أسرته من شابين رقاها إلى رتبة ( دامار ) أى صهر ، هما هيد الحميد بن شريف على حيدر وصالح ابن خير الدين التونسي ، وإنشأ مدرسة المشائو التي فتحت أبوابها للعرب والمسلمين في كافة الأقطار .

( ثالثاً ) أسرع في أنمام الخط الحديدي بين دمشق والحجاز . وكان هذا العمل من أخطر أعماله بعد الدعوة إلى الوحدة الإسلامية الجامعة تحت لواء الخلافة ، فقد هز الدوائر الاستعمارية الصهيونية . وكان قد تكشف له أن اليهود ربما سيخرجون جنودهم إلى عراق البحر الأحمر مثلاً كجدة وبقوة ، ومن أجل ذلك اذعن أن إنشاء الخط الحديدي الحجازي ، عملاً استراتيجياً هاماً لمواجهة هذه الاحتمالات لكي لا توثق يد الخلافة في حالة قيام الانجليز بمثل هذه المخاطرة . وهو من ناحية أخرى عامل هام في تمكين المسلمين بين أداة فريضة الحج ، وتأمين المواصلات مع البقاع المقدسة . ( رابعاً ) كان من الطبيعي أيضاً أن ينظم السلطان إدارته على نحو معين ويوسع دائرة استخباراته ليعرف إلى أي مدى ستمحاول الصهيونية العالمية والاستعمار توجيحه

الضربة إليه وخاصة بعد محاولة اغتياله وليس في هذا من بأس على السلطان ولا على الدولة إزاء هذه المؤامرات الضخمة التي انكشفت بعد ذلك والتي لم يكن في الإمكان الكشف عن أسرارها للناس . أما بالنسبة للحملات التي وجهت إلى شخصية السلطان عبد الحميد فقد باوت بالفشل جميعها . فلم تكن مكاة عبد الحميد في نظر العالم الإسلامي موضع ريب أو شك بالرغم من كل ما أثير حوله من شبهات وحملات ، فقد كان أمل المسلمين وكانت خطته التي أعلنها قد لقيت رضا وتقبلا لا حد له ، لأنها جاءت متسجمة مع طبيعة النفس المسلمة والمزاج المسلم ولم تكن متعارضة معها على النحو الذي جاء بعد دهوات الاقليمية والتعصب الجنسي والمذهبي ، ولذلك فإن الذين يقولون إن عبد الحميد كان يسبح ضد التيار كانوا مخطئين ، لقد كان يسبح في الاتجاه الصحيح ، ولم يكن من اليسير أن تتم محاولة تطويقه لو أنه قضى على خصومه في الداخل ، الذين كانوا سلاح الصهيونية في القضاء عليه ، أما بالنسبة للدول الأوروبية فقد كان قادراً على أن يحطم كل خططهم وقد حطمتها فعلاً وضرب بعضهم ببعض الآخر وبلغ في ذلك ما وصفه جمال الدين الأفغاني بدقة حين قال : « أعظم ما أدهشني ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل كي لا تنفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ويربها عياناً محسوساً أن تجزئة — السلطنة العثمانية لا يمكن ( أن يتم ) إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها ، ومعنى هذا أن جمال الدين الأفغاني وهو السياسي الداهية قد عرف من محادثاته مع عبد الحميد كيف كان هذا الرجل يواجه خطر النفوذ الأجنبي وليست ثقة المسلمين في السلطان عبد الحميد ، وضع شك فقد شهد بها خصومه وأنصاره على السواء ، وهي الصخرة التي حاول الاستعمار والصهيونية تخطيطها خلال حياته وبعدها دون جدوى .

ولقد حاولت جريدة النيمس أن توجه للسلطان عبد الحميد بعد إنشاء الخط الحديدي بعض مسموما حين قالت . كان عبد الحميد يرى أن إنشاء هذا الخط ، من شأنه أن يعزز المنصب الذي كان يدعيه لنفسه من أن الزعيم الروحي للمسلمين ، وكان يخافه شعور قوى في نفسه أن إنشاء هذا الخط الحديدي استراتيجيية عظيمة ، لا سيما إذا اتصل هذا الخط بالخطوط الحديدية للوادية إلى بلاد الأناضول وقد هلق هذا الاستاذ زين زين فقال : ما كان للسلطان أن يخافه شكوك وخاوف من رعاياه العرب مادام الأمر يتعلق بالخلافة ، فلم يكن يخطر في بال الغالبية الإسلامية العربية أن تعمل على تفويض أركان الخلافة لأن ذلك كان بمثابة تفويض لأركان الإسلام ذاته . وقال : لقد كان قادة الفكر العرب ينظرون إلى للمؤامرات والدسائس التي كانت تحركها الدول الأوروبية ضد الامبراطورية العثمانية نظرة شك وتحوف من أن يؤول الأمر إلى تجزئة الامبراطورية العثمانية واقتسامها فيما بينها

مما قد يؤدي إلى زوال الخلافة وبالتالي إلى انفصال العرب عن الامبراطورية الإسلامية . ولقد هزت خطة عبد الحميد الدوائر البريطانية بالذات حتى ليقول سفير بريطانيا لدى الباب العالي في تقريره عام ١٩٠٧ . عن خطة الجامعة الإسلامية التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد عشر سنوات ( من ١٨٩٧ — ١٩٠٧ ) . يمكننا أن نقرر بأن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام : ( أولاً ) خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم في ثوث الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى ( ثانياً ) هلاقة عبد الحميد بامبراطور ألمانيا ( غليوم الثاني ) الذي زار تركيا ١٨٩٨ وكان له دوره في بناء خط سكة حديد الحجاز . والواقع أن السلطان أستطاع بداهته السياسي البارع أن يحطم الحلف الأوربي المقدس الذي تجمع من ( روسيا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا ) على الدولة العثمانية ، وذلك بأن عقد صلات المودة مع الامبراطور غليوم فتحطم ذلك الحلف ، وبدأ خطر جديد يمتدح من بريطانيا على القيام بعمل مع حلفائها ضد السلطان والدولة العثمانية . ولا شك أن هذه الأعمال المتمردة :

أولاً — حركة الجامعة الإسلامية . ثانياً — إنشاء الخط الحديدي . ثالثاً الاتفـق مع امبراطور ألمانيا . رابعاً — رفض مطلب الصهيونية : كانت بميدة المدى في التمتعيل والقضاء عليه رغم كل ما أحاط به نفسه من خطط وحماية خاصة إذا أضيفت إلى ذلك ، تلك الكلمة التي كان عبد الحميد يحتفظ لها للوقت المناسب والتي ترددت الشائعات حولها كثيراً في عديد من أحداث السفراء والدبلوماسيين وهي ، رفع لواء النبي والدعوة إلى تجميع المسلمين حوله : يقول العلامة محمد جميل بهم وهو من معاصري هذه الفترة : كننا نسمع أثناء وجودنا في المدارس أن السلطان ( عبد الحميد ) سيشرع العلم النبوي في اليوم العصيب فيزحف المسلمون وراعه من كل صواب ، كما أشار إلى ما ليبت مال المسلمين من فريضة على حجاج بيت الله ، ولا بأس أن يكون أداء تلك الفريضة بتقديم الجواهر والأحجار الكريمة وكلها وهن أوامر الخليفة يوم يضطر لإخراج العلم النبوي ودعوة المسلمين للجهاد وكل هذا كان يهز دوائر الاستثمار ويزعجها ، حتى إننا انكثرا وفرنسا اللتين كانتا تمكيان أكبر عدد من المسلمين شعرت بمخرج الموقف إزاء التفاف العالم الإسلامي حول الخليفة وحسبت له ألف حساب ولا سيما حينما أبدته ألمانيا العدو اللدود لهذه الدو وخاصة عندما منح الخليفة ألمانيا امتياز الخط الحديدي الذي يصل الأستانة ببغداد وينتهي بمخليج فارس . لقد كانت خطة

السلطان عبد الحميد ومشروعه بإنشاء الجامعة الإسلامية من الأعمال الكبرى التي تمثل فلسفته ومفاهيمه وأيدولوجيته التي عاش لها حياته في الخلافة والسلطان ، وعلى الرغم من أهمية الخطوات التي اتخذت والتحديات التي واجهها هذا المشروع فقد خرس كل الكتابات التي قدمها الذين أرحسوا لسلطان وكشروا عنه ، من استعراضها أو مجرد الإشارة إليها لأنها من الأعمال المشرفة التي يجب حجبها وإنكارها فإذا عرض لها بعضهم تناوّلوا من حيث هي عمل معارض للمصر أو للعناصر في المملكة أو من جهة اعتراض فرنسا وإنجلترا عليها كأنما كان على السلطان أن يرضى هذه الدول المتآمرة على الدول العثمانية والمسلمين بتقبل أهواءهم ووجهات نظرهم والتسليم لهم . ومن الحق أن يقال أن السلطان عبد الحميد يسلّم حتى آخر لحظة وهو يعلم كل المؤامرات التي تحاك من أجل قتله أو انتزاعه من مكانه ، غير أن الكاتبة المذكورة الماوتلن في كتابها ( عبد الحميد ظل الله على الأرض ) وبالرغم من تجاهلها البغيض شأن أبناء جنسها إزاء الإسلام والعرب والدولة العثمانية قد هرست للجامعة الإسلامية مشروع عبد الحميد في بضع صفحات من كتابها على ذلك النحو المعروف من الكتابات الأوروبية ذات الموى والتمصب ، فقالت أن نداء عبد الحميد للوحدة الإسلامية كان ضد أمم الأرض الكبرى ، وضد تيار المادية الغربية الجارف ، وقالت إن مذهب الجامعة الإسلامية ذاته لم يكن جديداً فقد كانت هناك الوهابية والمهدوية .

وقالت إن برنامج الجامعة الإسلامية تضمن طبع آلاف النسخ من القرآن الكريم جرى توزيعها في أنحاء البلاد ، وأن الدعوة كانت بمثابة تكييف مبادئ الإسلام بحيث يتفق مع الأغراض السياسية . ولا شك أن الكاتبة تجهل مفهوم الإسلام الحقيقي ولذلك فهي تتخطى فيما تقول . وتقول الكاتبة أن السلطان عبد الحميد وصف تركيا بأنها « نافذة الإسلام » النافذة التي سيذبح منها النور الجديد ، فقد كان رمزاً للإسلام والشرق ، وقد وعد بقيادة المسلمين إلى مستقبل أفضل ، وكان أول من فجر بعد مائتي عام من الهزيمة والتمهق على تمسكهم بالعالم الغربي . وفقاً للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٠ حسباً أوردته الكاتبة : « يجب أن لا ندع الغرب يبهزنا فإن الخلاص ليس في المدينة وحدها » لقد أدى تعلقه بهذه الآراء التي كان يرددتها باستمرار إلى أن يؤمن بها الناس وبه ، وقد أخذت تصل إليه آلاف الخطابات والوثائق الرسمية من كل أطراف العالم حيث كان يعيش المسلمون وفيها يعلن مئات الملايين ولاءهم للسلطان وتعلقهم بحركة الجامعة الإسلامية . وتقول : لقد كان يرى أن واجبه الأول هو إقناع آسيا بتفاهة المدينة الأوروبية وإنشاء عصر جديد من هصور الاستقلال في الشرق وأشارت إلى أن الدعوة الجديدة إلى الحركة الإسلامية استغفقت مبالغ طائلة للانفاق على

تفلات الدعاة ، وعدد من المبشرين الكبير ، وللأسافات الكبيرة التي كان عليهم أن يقطعوها للوصول إلى الجماعات الإسلامية للتمفرقة وقد كان السلطان ينتظر اشتداد ساعد حركة الجامعة الإسلامية فيسنتطيع أن يتحدى أوروبا وأن تقاومه مع الألمان قد جر عليه خصومة فرنسا وإنجلترا .

(٥)

### عبد الحميد وجمال الدين

حاولت المخططات الصهيونية والاستعمارية أن تتخذ من شخصية جمال الدين الأفغاني موقفا مقابل السلطان عبد الحميد فكان مما رددته : أولا : أن جمال الدين الأفغاني هو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية وأن السلطان عبد الحميد اقتنص الفكرة وحولها لحسابه لتأكيد وجوده ونفوذه . ثانيا : أن السلطان عبد الحميد كان حريصا على أنه يجتذب إليه كل شخصية لامعة من شأنها أن يتجمع الناس حولها حتى يفرد هو بالسلطان ، ثم يمتجر هذه الشخصية أو يقتلها . وكذلك وصفت علاقة جمال الدين بالسلطان عبد الحميد ، فقيل أن السلطان ظل يفرى جمال الدين بالحضور إلى الأستانة فلما «استسلم» جمال الدين أقامه السلطان في قفص من ذهب وحال بينه وبين الاتصال بالناس وليس في ذلك كله الذي روى شيء من الحقيقة ، فإن محمد الخزومي باشا يذكر في كتابه (خاطرات جمال الدين) أنه كان مصاحبا للأفغاني طوال مدة إقامته في الأستانة وإلى آخر لحظات حياته وأن كثيرا من أصحابه كانوا على اتصال به دون انقطاع والواقع أن هناك خلافا واضحا بين شخصيتي عبد الحميد وجمال الدين من هذه وجوه :

( الأولى ) من حيث أن الأول سلطان حاكم والثاني ، صلاح فيلذوف . ( الثانية ) من حيث أن السلطان كان غاية في ضبط النفس وهدوء الأعصاب والقدرة على مواجهة الأمور بالحكمة بينما كان جمال الدين الأفغاني دمويا لازاجا عنيفا ، يشتغل لأقل الأمور ، ويثير الغبار من أجل أبسط المسائل ، ولا يصبر ولا ينتظر . وتكشف عن هذا كله تلك الأحداث التي وقعت بين السلطان والسيد جمال الأفغاني وما يرويه في هذا الصدد محمد الخزومي في كتابه خاطرات جمال الدين «خف جمال الدين يوما وطلب من السلطان لأحد الأخوان المصريين للوجودين في الأستانة ممن كان يتردد على السيد — رتبة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بامضاء ذلك فأتى جمال الدين وبشر الرجل بمحصول طلبه .



مضت إيام ولم تصدر الإرادة السلبية بما طلبه فكاتب السلطان يذكره ويستنجزه وعده، ولكن حينئذ انتظر، فأحتم جمال الدين غيظاً وأكبر الأمر، وطلب خطاً أن يؤذن له بالمشول — وهذه أول مرة طلب بها الإذن بالمقابلة، إذا كان السلطان هو الذى يدعو جمال الدين إليه. فواصل الطلب بالاستئذان حتى أصرع الحاجب (القرنا) يدعو السيد الحضور فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ، رخصتنا سوء العقوبة، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه ودخل على السلطان فاستقبله حسب هادته بوجه طلق بشوش، وجمال الدين بوجه هبوس قمارير. فاستجوبه السلطان قائلاً: خيراً إن شاء الله، ماذا حدث مع حضرة السيد قال: لاشئ، إنما أتيت لاستسمح جلالتك أن تقياني من ييمى لك لأنى رجعت عنها، فانتفض السلطان واهتم لهذا النبأ وقال: ياسيد: هل أفستكرت بما تقول: قال: نعم، بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد، بيد جلالتك الحل والمقد، وبإمكانك أن لاتعد، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء، وقد رجوتك بالأمر الغلافى ووعدت بأنك تمضيه ولم تفعل. هتدئد سكن غيظ السلطان وبهت برهة مطرقاً يهز رأسه، يميناً وشمالاً ثم قال: سبحان الله يا حضرة السيد.

إن أمراً طفيفاً مثل هذا، يحملك على نهجم على نقض ييمى لأجله ١: أما كان يحسن بفضلك، أن التمس لى هندراً بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرنى قبل نقض البيعة، ساعك الله وأحسن جزاءك ثم أصدر أراذله حالاً بما طلب جمال الدين وآتته كثيراً وبأسطه — قال جمال الدين: الحق يقال أننى شعرت بتسهرى، وعرفت خطئى كأأنى عرفت للرجل كبير فضله وسعة صدره، وهند جروجه تقدم الحاجب من جمال الدين وناولته كبساً من الحمل الأحمر، فيه دنانير، فتردد جمال الدين وقال: يا حضرة البيك، أن نعم السلطان من قصر وفرش وخدم وحشم، ومركبة لم تترك مجالاً لمثل هذا المسال. قال القرين: يا حضرة السيد، هطاء السلطان لا يردده إنسان. فأتانا جمال الدين ويده السكيس ونص هليتنا ماجرى وقال: هد هذه الدنانير، فإذا هى خمسمائة ذهب عثمانى. تسكنى هذه القصة وهى من مصادر أولياء جمال الدين للكشف عن الفورانى الهائلة الضخمة بين النفسيتين والعقليتين، ومدى المراس الصامد المعجيب فى عهد الحميد ومدى العنف المندفع فى جمال الدين. من أجل ترقية تطلب من رجل تشمله ما أوردناه من الأمور والأخطار، يخلع جمال الدين بيعته ١. ثم يستردها بعد كلمات قليلة ومباشرات:

أما الأمر الآخر فهو محاولة الربط بين دعوتين: إحداهما لجمال الدين والآخر لسلطان عن الجامعة

الإسلامية ، والواقع أن جمال الدين لم يتحدث عن الجامعة الإسلامية إلا قليلاً وأن دهوة جمال الدين الحنفيكية والتي أنفق فيها أغلب وقته وأحاديثه كانت عن مواجهة الاستعمار وتنكيس أهلام بريطانيا والدهوة إلى الحرية والدستور والنظام النيابي والتقريب بين الأديان الثلاثة وتحرير الإسلام من الإضافات والبدع والالتقاء بين السنة والشيعة والتقارب بين أجزاء العالم الإسلامي ولكنه ما كان قد أهد برنامجاً كاملاً للوحدة الإسلامية على النحو الذي كان عبد الحميد قد اضطلم به ولم يعرف عن جمال الدين مشروها في الجامعة الإسلامية منفصلاً عن الخلافة العثمانية ولم يرد عنه أي نص في هذا الأمر ، وقد سجل ذلك السيد رشيد رضا بوضوح كاف في كتابه عن ( تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : نقلاً عن تراجم مشاهير الشرق لجورجي زيدان ) إن الغرض الذي كان يصبو نحوه أعماله والمحور الذي تدور عليه آماله توحيد كلمة المسلمين وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا نفس كسباً . واستدرك رشيد رضا على جورجي زيدان فقال : الصواب أنه كان له في حياته مقصدان ( أحدهما ) علمي : هو تنبيه المسلمين إلى الإصلاح الديني والعلمي بالسكينة والخطابة ( وثانيهما ) سياسي اجتماعي وهو ما يبينه الأستاذ الإمام ( محمد عبده ) في ترجمته وهو ترقية دولة إسلامية ، أية دولة كانت وحسبك أنه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمى إلى تمدينها وتميزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كما حسن البلاد الأوروبية ثم تعلق أمه بالسودان ثم بلاد إيران ثم بالدولة العثمانية .

وهذا يكفي في إلغاء ذلك التضارب التي حاولت المصادر الأجنبية والصهيونية أن تاتي ظله على للوقوف بين السلطان عبد الحميد الذي طفقت تصوره بصورة المستبد الظالم بينما أهلت شأن جمال الدين حتى لقد نسبت إلى السلطان قتله والتملص منه وهو ما لم يكن من الوقائع المضبوطة المصادقة بجمال والواقع أن جمال الدين الأفغاني كان حلقة في دائرة الحركة إلى الوحدة الإسلامية الكبرى التي رفع لواءها السلطان عبد الحميد وأنه قام بدور ضخم كان له أبعد الأثر في دعم هذه الوحدة فقد حل جمال الدين لواء التقريب بين السنة والشيعة ، وبين الدولة العثمانية والدولة الفارسية وبينهما تاريخ طويل من الخصومة ، كان للاستعمار الأثر الأكبر في تأريته ومولاته حتى لا يتجمع المسلمون على وحدة كاملة ، وقد كان لدور جمال الدين أهميته الضخمة ، وأشار إليه كثير من المؤرخين والسكاتب ، وذكرته الدكتور الماوتلن في كتابها عن عبد الحميد ، كما ذكره على أصغر شتم في كتابه ( إيران في عهد الدولة القاجارية ) .

فقد استطاع جمال الدين أن يقرب الوشائج بين الدولتين وبين السلطان والشاه، وكان لمراسلات جمال الدين مع عدد من قادة إيران وأصرائها أثر بعيد في إزالة النلوج المتراكمة في طريق الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين وكان مما يقوته جمال الدين : ( أن السم القديم يجب ألا يسرى في جسد آسيا القوى وعلى السنيين والشيعية أن يتحدوا لمقاومة أوربا في محاولتها قهر العالم ) .

وقد كان من أعظم ثمار هذا العمل في نطاق وحدة العالم الإسلامي أن زار شاه العجم الباب العالي عام ١٩٠٠ وحضر الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة مرور خمسة وعشرين سنة على ولاية السلطان عبد الحميد ووصفت الماوتلن هذه الحادثة بأنها غيرت مجرى التاريخ بالنسبة للإسلام والشرق وأنها تحذير لتلك الشعوب الأوروبية التي أخذت تتجه الآن شطر آسيا بعد أن أتمت إخضاع أفريقيا، لقد أنهى تصافح السلطان والشاه الخلاف الذي كان منذ مدة طويلة ينخر في عظام العالم الإسلامي .

غير أن الأمور لم تجري رخاء ، فقد كان هذا العمل بعيد الأثر في نظر مخططات السيطرة الغربية الصهيونية ، ولذلك فإن اللقاء بين السلطان والسيد لم يدم طويلا .

وكان السلطان قد وجه إلى السيد جمال الدين وهو في لندن كتاباً أرسله عن طريق رستم باشا السفير التركي في لندن فاهتذر السيد عن قبول الدعوه ثم جاءه خطاب آخر من السلطان فغادر السيد لندن إلى الاستانة عام ١٨٩٢ وكان قد زارها للمرة الأولى ١٨٧٠ قبل أن يلى السلطان عبد الحميد الحكم عام ١٨٧٦ ، ومن الحق أن يقال أن جمال الدين كان في هذه الآونة قد وصل إلى مفترق الطرق فقد طارده ب بريطانيا في كل قطر إسلامي وفشلت مخططاته في مصر والسودان وإيران وعجزت طبيعته الغنيمة الدوية عن أن تمارس الحكم وكانت مشروعاته وتحركاته توصف بالخلاوة على الملوك والأمراء وقد وصفه محمد عبده : أهرف تلاميذه به أصدق وصف حين قال : « إن الحدة فيه تهدم ما تبنيه الفطنة » . ولذلك فإن دعوة السلطان عبد الحميد كانت في الحق هي سببه الأخير أو أوله الأخير في تحقيق دعوته من خلال مشروع السلطان عبد الحميد للوحدة الإسلامية الكبرى .

ولسكن طبيعة الرجلين المختلفة ، عنف جمال الدين ، وحذر السلطان عبد الحميد ، كلاهما ، كالأمان العواويل التي عجلت بوقوع الخلاف والنفرة بينهما . وألح حادث مقتل الشاه ناصر الدين في فارس وما أشير إلى صلة جمال الدين به قد زاد في الحذر من ناحية السلطان . وكان السلطان قد رجا جمال الدين أن يكف عن الطعن في ناصر الدين بعد أن وقع الخلاف بينه وبين الأنفاني في فارس .

لقد تلقى السلطان عبد الحميد جمال الدين بقدر كبير من الاحتفاء والاكرام شهد به مؤرخه

( محمد المخزومي ) واستهل جمال الدين هذه الملاقة بتصوير عجيب للسلطان قال فيه أنه لو وزن مع أربعة من أوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء وسياسة ودهاء .

وقال : رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري ، ورأيت أنه يعلم دقائق الأمور السياسية ... الخ ثم قال : إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، وإعداداته العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداداته للنهوض بالدولة - الذي فيه نهضة للمسلمين عموما - قد دفعني إلى مديدي له فبايعته بالخلافة والملك ، لأنني أعلم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شرار أوروبا ولا من السعي وراء إضعافها ونجزئتها ثم ازديادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عومي ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم .

وقد كان السلطان يدهو إليه جمال الدين بين حين وآخر ويفيض في الحديث معه ، وكان جمال الدين صريحا غاية الصراحة ، ومن أهم ما عرضه جمال الدين الدين على السلطان : ( أولا ) التخلص من الحاشية . والخاصة جميعا ، أقص الخائنين من خاصتك ، خفف الحجاب عنك واظهر الملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، وأهتقد أن نعم الحارس الأجل . ( ثانياً ) تقسيم المملكة إلى خديويات ، وقد عرض السلطان على السيد مشيخة الاسلام فاهتذر عنها . وكان يقول : ما سائبات وزيراً بآخر إلا ورأيت من مساوي الخلف ما أسفت معه على السلف ولا مناص مع الصبر ، ويقول : لا بد من كارثة تحدث فتشغل أوروبا هنا ونفتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعشنا . ( ثالثاً ) استبدال التركية بالعربية لغة الدين الحنيف : وقال إنه إذا تم هذا فإن الامبراطورية العثمانية كدولة إسلامية والسلطان كخليفة المسلمين يزادان قوة ومنعة ونفوذاً في العالم العربي والاسلامى .

( ٦ )

## المؤامرة على الدولة العثمانية

— ١ —

### الدوامة

لما كانت الدولة العثمانية هي أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية ، وكان إسقاط السلطان عبد الحميد رآفم لواء الجامعة الاسلامية هو الحلقة الأولى في مشروع هدم الدولة العثمانية والقضاء الخلافة وتزريق وحدة الاسلام والعروبة ، ولما كان موقف السلطان عبد الحميد بالحزم والقطع على رفض مشروع هرتزل ، وإيجاد الباب نهائياً في وجه الصهيونية العالمية للوصول الى فلسطين ، فقد كان على ( قوى المؤامرة العالمية على الاسلام ) أن تزيج السلطان من الطريق وتطمع مشروعه للضمخ بدم الوحدة الاسلامية وتفتح الطريق أمام تصفية الدولة العثمانية عن طريق القوة التي خلقتها ونمها خلال أكثر من ثلاثين عاماً ، داخل المحافل الماسونية ، في سالونيك ، وبواسطة اليهود الدوامة : ذوى الباع الراسخ والنفوذ الاقتصادي والاجتماعي القوي ، هؤلاء هم ( الاتحاديون = تركيا الفتاة ) الذين احتضنتهم الصهيونية العالمية . ومن ثم فقد كان دور الصهيونية العالمية عن طريق ربيتها الماسونية واضحا في ازاحة السلطان وتسليم الحكم الى الاتحاديين . وقد كشفت الصهيونية دورها بوضوح في هذا الموقف اذ كان يمثلها ( مزراحي قراصوه ) هو أحد الثلاثة الذين قدموا الى السلطان في ٧ آذار ١٩٠٩ قرار الننازل عن الولاية الشرعية ، وكان مزراحي نفسه على رأس وفد اليهود عام ١٩٠٢ الذين كانوا يطالبون بالسماح لهم بالدخول الى فلسطين ، وفي ذلك اشارة واضحة الى قوة الصهيونية وأثرها في تنفيذ مخطط ازاحة السلطان ثم ازالة الدولة العثمانية ، وازالة الخلافة الاسلامية من بعد ومن هنا كان علينا أن نلقى الضوء على هذه الحلقة الخفية من المؤامرة العالمية على الاسلام .

كان من أخطر ما منيت به الدولة العثمانية ذلك الجيب الخطير من اليهود المستترين باسم الإسلام في مقاطعة أزمير وفي مدينة سالونيك بالذات : هؤلاء الذين أطلق عليهم من بعد كلمة ( الدوامة ) —

أى المرتدون . ولقد حاول بعض الباحثين رد ( ظاهرة الدوئمة ) إلى أيام السلطان بايزيد الثانى ( ١٤٦١ — ١٥١٢ ) وربطوا بأحلام اليهود من أسبانيا للسلمة بعد سقوطها فى يد الفرنجة . فقد ردها المؤرخ جواد رفعت إلى الخاخام اليهودى ( ساباتاي سيوى ولد مردخاى ) المولود فى مردخاى فى أزمير ١٦٦٥ م والذى كان قد أعلن أنه المسيح الذى ينتظره اليهود وحوكم ، وأعلن إسلامه نقيّة كما أسلمت طائفته وسموا بالمرتدين ( الدوئمة ) وبدأوا يعملون لهدم الإسلام وتمزيق وحدة المسلمين ، وقد ضبط بعد ذلك يعظ باللغة العبرية ويدهو دعوته فنفى إلى أسبانيا فاستقر فى ( سالونيك ) ومنذ ذلك الوقت أصبحت ( سالونيك ) مقراً للمرتدين الذين أصبحوا من بعد مثفى الشعب التركى وقادة الفكر فيه فضلاً عن سيطرتهم على التجارة والصنائع والمعارف . وكان السلطان بايزيد قد سمح لليهود الذين هاجروا من أسبانيا بالإقامة فى بلاده بحسبان أنهم يملكون ثروات ضخمة ، وظل اليهود المتسرعين بالإسلام خلال ذلك الوقت الطويل يرسمون خططهم للسيطرة الكاملة على الدولة العثمانية وقد نجح لهم ذلك فعلاً ، على نحو ما يشير ( جواد رفعت ) أنهم من كانوا يسيطرون على الطباعة والتجارة والمؤسسات الخصوصية للمعارف ، وأنه ( كان لهم دور كبير فى جميع الحوادث الجارية فى بلادنا وبالأخص فى تاريخنا القريب ) كما أشار جواد رفعت إلى أن السلطان عبد الحميد هو الذى كشف خطر هؤلاء المرتدون السباتائيين وكان قد أصدر أوامره بأن يبقى هؤلاء المرتدون فى سالونيك ، والحيولة دون إفساح المجال أمامهم فى الأستانة . ولما لم يستطع الدوئمة التأثير على السلطان عبد الحميد عادوه هداوة شديدة وقاموا بالدعاية ضده لدى الشعب والجنش ، وقال إن الدور الذى قام به قره صو وجاويد فى حادث خلع السلطان كان كبيراً جداً ، وأن الدوئمة هم الذين قاموا بالدور الهام فى تأسيس ونوسيع جمعية الاتحاد والترقى المرتبطة بروابط متينة بالتشكيلات الماسونية التى أسست بمال وذكاء اليهود .

ويقول جواد رفعت : هؤلاء المرتدون يحملون اسم الإسلام وهم ليسوا بمسلمين وأنهم أعداء الفكرة القومية فى الوقت نفسه يتمسكون بقوميتهم ويقرينهم إلى أقصى حدود التمسك وهم يستعملون الإسلام كقناع لجرد سلب الأتراك ووضع اليد على مقدراتهم . ويمكن القول بأن الدوئمة قد شكلوا أنفسهم فى حزب الاتحاد والترقى ومن بعده فى حزب السكاليين . وأنهم سيطروا سيطرة كاملة على المناصب والفكر . وبشوا سمومهم فى سبيل تمزيق وحدة الإسلام والعربية ، وكاف لهم دورهم الخطير فى الدعوات القومية والإقليمية مما ذخرت به البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى . وتؤكد أكثر المصادر على أن الدوئمة قد أحدثوا أثراً كبيراً فى تاريخ الدول العثمانية

ولذلك فإن تاريخهم لا يمكن أن يدرس منفصلاً عن مخططات الصهيونية العالمية فهم قطاع من أهم قطاعاتها . وإذا كانت القوة الخفية اليهودية قد استطاعت أن تغير من مجريات الأمور في العالم كله فإن أبرز أحداثها يتمثل في أعمال ثلاثة كبرى : الأول : أعمال الثورة الفرنسية في فرنسا ثم أعمال ثورات أوروبا كلها من أجل كسر القيد الذي كان مفروضاً عليهم بهزلهم من تسنم المناصب الكبرى والمامة . الثاني : أحداث الانقلاب الألماني ١٩٠٩ باعتباره الخطوة الأولى في تحقيق هدفهم الأكبر الذي هاشت للمنظمات الماسونية تجميع حوله غير اليهود ولا تطامعهم عليه إلا بعد أن يصلوا إلى الدرجة ( ٣٣ ) وهو بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى والصخرة وقد كان تجميع اليهود في سالونيك بالذات وفي منطقة أزمير كلها وكان إهلائهم الإسلام بمثابة جزء هام من هذا المخطط الذي جرى تنفيذه من بعد خطوة بعد خطوة . الثالث : أحداث الثورة البلشفية ١٩١٧ على الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا وكانت من أقوى مراكز المسيحية في العالم الغربي وكان لتجميع اليهود في المناطق المكنانة من القرم على البحر الأسود إلى بحر البلطيق في الشمال أكبر الأثر في تحقيق هذه الحلقة الثالثة من مخططات الصهيونية . ولاشك أنه كان الدوغة الذي نظدوا أنفسهم في سالونيك وما حولها داخل إطار المحافل الماسونية وكانوا يبلغون حوالي ٥٠ ألفاً — كان لهم دور كبير في خطة الانقلاب الألماني وتدمير الدولة العثمانية وإزالة الخلافة الإسلامية من بعد ، فهم الذين حملوا العبء الأكبر في تنمية وحماية ( الاتحاد والترقي ) وكانت أبرز شخصياته منهم ، وكانت موارده ومصارفه مما كانوا ينفقونه عليه فضلاً عن أنه تشكل داخل محافلهم الماسونية الموضوعة تحت الحماية الأجنبية والتي لا تخضع لرقابة الدولة . والدوغة هم الذين أحدثوا حادث ( ٣١ مارس ١٩٠٩ ) الذي أنهى حكم السلطان عبد الحميد ، إذ ثبت دخول الضباط المرتدين في صفوف الجيش بزي الجنود وتمريض الجنود للقيام بالثورة ، فبعد إعلان المشروطية عام ١٩٠٨ دخل هؤلاء الاستانة على هيئة قوافل وأخذوا التجارة الداخلية بيدهم في مدة وجيزة .

وقد أكد أكثر من باحث هذه الحقيقة التي تقول بأن قيادة النفوذ السياسي في تركيا من خلال المنظمات السرية ( الاتحاد والترقي ) وخلال حكم الاتحاديين وبعده كانت بيد ( الدوغة ) . وقد أشار الكاتب الفرنسي المسيحي ( سبيير هيبس ) في كتابه جمهورية إسرائيل العالمية التي طبع في بيروت ، بعد أن رفضت المطامع الأوروبية الأمريكية طبعه بسبب سيطرة الصهيونية العالمية هناك قال : إن الدوغة ويعني بهم اليهود الذين أسلموا كثيرون ، منهم مدحت باشا حاكم ولاية الذنوب الذي كان ابن حاخام هنغاري وهو الذي أنشأ للمدارس اليهودية في الشرق الأدنى وكان

قادة حزب الاتحاد والترقي من الدعوة وكذلك مصطفى كمال والدكتور ناظم وفوزي وطلعت ونعوم وغيرهم . وأشار الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب ( حاضر العالم الاسلامي ) إلى هذه الحقيقة فقال : إن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الإدراك أن تركيا الفتاة تدير سفيتها حصبة من الجعدة الغربيين غالبهم ليسوا من المسلمين إلا إسماعيل هم من زنادقة اليهود في سالونيك طائفة يقال لها ( للدعوة ) أي العائدون المنيبون أصلهم يهود من مهاجري أسبانيا ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء كان أثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهمل فمكان منهم أناساً يمدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقي . وقد أشار جبران شامية إلى الدور الذي قام به واحد من أبرز الدعوة ( مصطفى كمال ) في وضع نهضة تركيا الحديثة على أساس العلمانية والنخاص من الاسلام .

وأشار إلى ذلك ( أسامة هيتاني ) فقال : أن الدعوة يعترفون كثيراً بالانورك ويعتبرونه واحداً منهم وحجتهم في ذلك أن أتانورك أمفر عن نيائه ضد الاسلام حين تولى الحكم ورسمت أقدامه فيه ، فقد أنقذ التعليم الديني وأغلق عدداً كبيراً من المساجد وهدم أحدها في ( هيبلي أفا ) لأن المعازفين على الموسيقى أوقفوا عزفهم احتراماً للأذان . وأشار إلى هذا المعنى ( محمد عزة دروزه ) في كتابه تركيا الحديثة : أن الدعوة بدأ في تحويل عطلة الأسبوع من الجمعة إلى الأحد وإبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية وإلى هذا المعنى أشار صالح جودت في مجلة للمصور على أثر زيارة له لتركيا عام ١٩٦٣ حين قال : إن سلطان الدعوة على الصحافة والجيش والتعليم والسياسة في تركيا السكالية مازال واضحاً ملموساً رغم أن كمال أتانورك مات منذ أمد بعيد وكان رشدي اراس وزير خارجية تركيا قد أدلى إليه بمحديث قال فيه : إنه مسلم من أبوين مسلمين ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً أن يعلن أنه ينحدر من صلب أجساد يهود وأنه يعطف على الصهيونية وأهدافها . ومن المعروف أن الدولة التركية كان لها دور خطير في حماية قيام إسرائيل في العالم العربي . وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى الدعوة فقالت إنه لا يزال في سالونيك إلى اليوم نحو ألف أسرة يبلغ عددها عشرة آلاف نسمة ( ١٩٣٠ ) ولأنك أن هناك علاقة وثيقة بين الدعوة والصهيونية العالمية ، وبين اللادونية التي هي أحد أجهزة اليهودية العالمية وبين الاتحاديين وذلك يكشف بوضوح عن الدور الذي قام به الاتحاديون بعد إسقاط السلطان عبد الحميد من فتح الطريق للصهيونية إلى فلسطين حتى استطاعت أن تنجم فيها بأعداد كبيرة في تلك الفترة القصيرة ما بين ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ .



( ٢ )

إن أعظم ما استطاع الدوغة في الدولة العثمانية أن يفعلوه هو قيادة الفكر السياسي نحو الدستور والمشرورية والجامعة الطورانية والجمهورية وإلغاء الخلافة من بعد . وكان أبرز ما حملته قيادة الفكر السياسي الصهيوني على طريق الماسونية إلى الأتراك هو التفور من الدين هامة ، والتشكر الإسلام ومحاولة وصفه بأنه مصدر للتأخر الذي وصلت إليه تركيا والدعوة إلى الجامعة الطورانية كبديل للجامعة الإسلامية ، وإعلاء شأن المجلس التركي ومحاولة الإغراء ببطلولات جنكيزخان وهولاكو لإحلالها محل بطولات خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص . وهذه الفلسفة في هي جواهرها التي سادت الفكر التركي وبدأت تسيطر في أواخر عهد عبد الحميد على مجموعة من المثقفين الذين أغرتهم الماسونية باسم الحرية والتقدم هي الخط الواضح الصريح المستمد من بروتوكولات صهيون ومن أهداف الصهيونية العالمية .

ولقد كان طموح هؤلاء الشبيبة العثمانية كما يسميهم البعض يتطامع إلى الغرب ، إلى أوروبا ولكنه بتوجيه الماسونية الصهيونية كان يركز على الفلسفة الغربية التي وضعتها الصهيونية كنواة لتوجيه الفكر الأوربي والغربي والعالمي جميعاً . وقد انفصل عن نفوس وعقول هذه الجماعات ، القدرة على الموازنة والربط والموازنة بين الماضي والحاضر ، والقديم والجديد ، والواقع والوفاة وجعلوا الخطة المثلى لتجديد الأمم حين تتقبل من الجديد ما يزيد واقعها قوة ولا تقبل منه ما يحول شخصيتها وكيانها من واقعها الأصيل ، لقد كانت مهمة الماسونية في الدولة العثمانية أن تخلق قيادة فكرية من الدوغة تستطيع من بعد أن تسيطر على العقلية التركية والفكر السياسي والاجتماعي التركي وتعمله حينئذ من مصادره الإسلامية وتلقى به في شباك الفلسفات الغربية الوثنية التي صاغها اليهود على النحو الذي يمكنهم من تدمير النفس الإنسانية والأمم والدول جميعاً . لقد اتجه المثقفون الأتراك إلى أوروبا ، والفكر الأوربي وأعجبوا بالنورة الفرنسية وطربوا أشد الطرب لشعارها البراق ( حرية — إخاء — مساواة ) ولم يكونوا عالمين خفايا هذه النورة ولا ما يحيط بها ، وكيف استطاع اليهود أن يجعلوها مثلاً عالمياً للأمم والشعوب الراحية في التحرر ، ثم كيف سيطروا من قبلها ومن بعدها على صياغة الفكر الأوربي وإخراجه من القيم التي ورثها من المسيحية الشرقية ومن مقدرات الإسلام التي كان لها أبعد الأثر في تحريره ونماه . ولقد استطاعت الصهيونية فيما بعد النورة الفرنسية أن تسيطر على الفكر الأوربي وتحوله من قيمه المسيحية والإسلامية لتدفعه إلى الإلحاد والإباحية بخطى وثيدة .

وقد سجل هذا جواد رفعت حين تحدث عن تطلعات الأتراك إلى أوروبا : « الواقع أن الأوروبيين قد أعطوا زمام أمورهم إلى اليهود منذ قرن واحد ، فاليهود يخططون مناهجهم السياسية والاقتصادية ويوجهونهم كما يشاءون ، فلذا كانت تلك الدعايات تصدر من المناهج اليهودية في ذلك الوقت . » ويسمى جواد رفعت ثلاثة من أهلام الدعوة بالذات كانوا يسيطرون على الحركة الماسونية في تركيا هم ( قاره صو - منير سالم - جاويد ) وكانوا يروجون دهمى تقول أن الدول الأوروبية تجري محادثات لتقسيم تركيا ، يقول : أن منير سالم وقاره صو وجاويد أساذة الماسونية صحروا عيون الأتراك الثوريين المحبين للترقى فرداً فرداً بالماسونية ، وذلك بمسد ترويجهم تلك الشائعات فأخذهم تحت قيادتهم وأدخلوا كافة زعماء انقلاب المشروطية ( ١٩٠٨ ) ورؤساء جمعية الاتحاد والترقى ومؤسسيها في المحافل الماسونية .

ويؤكد جواد رفعت ما عليه اليوم إجتمع المؤرخين من أن خطة الانقلاب التركي المسماة بالمشروطية كانت من أجل النخلص من الإسلام في الدولة العثمانية أساساً ، وينقل نصاً ما نشرته مجلة ( بيوك دوغو ) عدد مارس ١٩٤٨ وتقول « أن المشروطية كانت أنراً من آثار اليهود والماسونية والمرتدين ، ومنظمتها التي صغرت أرواح قسم من طائش مقدونيا واستثمرتها فإن تلك المشنقة المتكونة من العواميد الثلاثة المسماة ( باليهودية والماسونية والارتداد ) كانت لأجل شنى الإسلام فقط فسيتمعرف المؤرخون المحايدون يوماً ما ، بأن عبد الحميد الثانى كان هدفاً لحركة المشروطية ، قد ذهب ضحية كفاحه كفاحاً منظماً ضد اليهودية والإمبريالية والامتيازات ، لصون الإسلام والشعب التركي من الانقراض والوطن من الاستعمار » ويملق جواد رفعت على ذلك فيقول : أت الذين يطالعون التاريخ ويسبرون خور قضية الصهيونية ويسيشفون أسرارها من بين طيات صحائفه المظلمة يقدررون حقيقة تلك الإدعاءات حق قدرها أن السلطان عبد الحميد كان يعرف كل تلك المؤامرات الدائرة حوله وكان يعلم بقرب الانقلاب والثورة ضده ولو كان قد قام باستعمال نفوذه وقوته لكان بإمكانه أن يحول دون وقوع هذه الحركة أو كانت الحركة تكلف الثوار غالباً حيث أن السلطان بقى فى كرمى سلطنته غير أنهم تمكنوا من إيصال الاتهاديين إلى الحكم بواسطة الماسونية الذين كانوا يؤيدون الاتهاديين وبفضل مساححة الاتهاديين لهم تمكنوا من وضع أسس الامبراطورية الصهيونية فى فلسطين حيث أنهم باشرروا حال مجيء الاتصهاديين إلى الحكم بتأسيس المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى مدة وجيزة .

( ٧ )

## مخططات اليهودية العالمية

إن هدف الماسونية الحقيقي هو خدمة اليهودية العالمية وتأمين سيطرتها على العالم والماسونية أهداف محددة هي فتح الطريق وإزاحة القوى المسيطرة من أمام اليهودية العالمية في طريق السيطرة على العالم من طريق الوصول إلى بيت المقدس وبناء هيكل سليمان . ولذلك فإن أبرز هملين قامت بهما الماسونية هما : ( الثورة الفرنسية والانتقال العثماني ) : الأول في أوروبا لإزاحة القيود التي كانت تكبل اليهود في ( الجينو ) ونحول بينهم وبين السيطرة على مراكز القيادة في الدول والأمم وقد تحقق ذلك تماماً بهذه الثورة والثورات للنسبالية التي قامت في أوروبا بعدها والتي فرضت النظام الذي بعزل العنصر الدينية عزلاً كاملاً ويحل بدلاً منها صفة للمواطنة . ومن هنا فإن منطق الفلسفة الصهيونية اليهودية أساساً هو : عزل الدين عن الدولة . فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية قد وضعت مراسم حاسمة لعزل اليهود عن المجتمعات الأوروبية نتيجة لعوامل كثيرة ، فاستطاعت الثورة الفرنسية صنع أيديهم أن تدمر هذه الحواجز ، وذلك بعد أن حملت أفلام كتاب للماسونية الكبار : ( فولتير وديدو وروسو ) هذه المفاهيم إلى الفكر الأوروبي وغزوه بها سنوات طويلة تمهيداً لتنفيذها . وبالثورة الفرنسية حققت اليهودية العالمية هدفها وتمكنت من استيعاب الفكر الغربي للمسيحي واحتوائه ، وبث مفاهيمها وفلسفتها في إطوائه وإخراجها من قيده للمسيحية والإسلامية التي قام عليها ورده إلى الوثنية الإغريقية إلى الإلحاد والإباحة بمختلف صورها وفي مجالات الأدب والفن والاجتماع والاقتصاد والسياسة . أما العمل الثاني فهو الانتقالب العثماني الذي أزاح من طريق اليهودية العالمية أكبر قوة تقف في وجه السيطرة على فلسطين ونحول دون تمزيق وحدة العرب والإسلام وتدمير مقومات الفكر الإسلامي وغزوه من الداخل بمفاهيم تكفل الفصل بين الدين والدولة ، بين الإسلام والمجتمع ، وبين العرب والمسلمين بعشرات المذاهب والمفاهيم المليئة بالشبهات حول اللغة والتاريخ والقرآن والسنة والقوميات والإقليميات وغيرها .

وكان رد ( حبيون ) في كتابه ( المخططات الإمبراطورية الرومانية ) سقوط روما إلى نفوذ اليهود وكانت يوبيا زوجة نيرون يهودية مرتدة . ولقد كانت الماسونية هي المدرسة الفكرية الحقيقية التي حملت وراء تحقيق هذه الأهداف . وكانت اليهود قد سيطروا على الدولة الرومانية بعد القرن الثاني

للميلاد ووضعوا في أيديهم كل مقدرات المجتمع ، وكانت أبرز أعمالهم تجارة الرقيق . وخلال العصور الوسطى التي امتدت من ٥٠٠ إلى ١٣٠٠ بعد الميلاد كان التجار اليهودي مسيطراً على أوروبا بأسرها ، وقد شملت هذه السيطرة الإشراف على طرق التجارة الشرقية المؤدية إلى بلدان المشرق ، غير أن الكنيسية الكاثوليكية لم تلبث أن تنبعت إلى هذا الخطر فأصدرت سنة ١٢١٥ قيوداً ضخمة على حركة اليهود كانت الغاية منها كبح جماحهم ، فحتمت هذه القرارات على اليهود الإقامة في أحيائهم الخاصة وحرمت عليهم تهرباً تاماً استخدام النصارى أو الاشتغال بأكثر من نوع واحد من التجارة وقد شن كثير من الأوربيين حملات عنيفة على الخطر الذي تتعرض له أوروبا المسيحية من النفوذ اليهودي وفي مقدمة هؤلاء الكتاب الأوربي الأشهر ( سليكا ) الذي هاجم روماني عصره لمحاكمتهم اليهود ثم بدأت حركة لإجلاء اليهود من أوروبا في القرن الثالث عشر كحل وحيد وحاسم للمشكلة فأجلوا عن إنجلترا وفرنسا وطردها من أسبانيا والبرتغال . ومنذ عام ١٥٠٠ حتى ١٥٦٠ م كانت أوروبا الغربية بأسرها باستثناء بعض المناطق في إيطاليا وألمانيا قد تخلصت من اليهود ، وكان اليهود في هذه الفترة قد تجمّعوا في الامبراطورية العثمانية ويرى الكثيرون أن هذه الفترة التي عاشتها أوروبا بدون اليهود هي فترة عصر النهضة التي ازدهرت فيها العلوم والفنون ، والتي بدأت خطاها من شمال إيطاليا — ويؤكد فرنك لي برتون أن عصر الانبعاث في الحضارة الأوربية لم ينحدر إلا بعد أن انتزعت الأمم الأوربية السيطرة التجارية من اليهود . غير أن اليهود لم يلبثوا بعد ذلك أن هادوا إلى أوروبا ، وأقاموا في أحيائهم الخاصة في هوامم المدن الكبرى « الجيتو » الذي لم يكن مفروضاً من الدول على اليهود بقدر ما كان ضرورة أساسية تحتمها الفلسفة اليهودية . فقد كان الجيتو مجتمعاً مستقلاً بكل معنى الكلمة فيه حافظ اليهود على ثقافتهم ودينهم وتقاليدهم من الانهيار في المجتمعات المسيحية ( وفيه غذوا حقد المقديم على الحضارة المسيحية قدم عهد نشأة المسيحية ) والواقع الذي تسجله المصادر التاريخية أن اليهود قد رفضوا الاندماج في الثقافة المسيحية والحضارة المسيحية ، وقاوموها حتى استطاعوا بعد ذلك أن ينفذوا إليها ويسيطروا عليها ويحتويها فكرهم التلودي على النحو الذي عرف بعد الثورة الفرنسية .

ومن هنا فقد حق أن يقول بعض الباحثين « أن هناك قوتان تعطرهان من أجل السيادة العالمية هما : المسيحية واليهودية » . ويرجع ذلك إلى قدرة اليهود على الاحتفاظ بفلسفتهم الخاصة المنفصلة عن المسيحية والتي تقوم على مفاهيم التلود والتوراة المستحدثة . وقد بدأ بعد هودة اليهود إلى أوروبا أن هناك صراعاً ضخماً بين شعبين ، وبين ثقافتين . وكانت الماسونية هي المنظمة الدينية والتربوية

الجامعة لهم وهي التي مهدت لهم استيعاب الفكر والثقافة الأوروبية واحتواء المفاهيم والقيم المسيحية والتأثير فيها وخاصة عن طريق إقامة المنظمات الماسونية — أولاً في الدول البروتستانتية التي كانت ترفض مفاهيم اليهود وتفسيراتهم للعهد القديم بنزوة العودة إلى فلسطين وإقامة هيكل سليمان . إن اضطهاد اليهود في أوروبا إنما يرجع أساساً إلى سيطرتهم على المال والاقتصاد وتعاملهم بالربا واحتكار رموس الأموال وقد قرنت اليهودية بالأرباح غير المشروعة حتى أن شكسبير خلل هذه القضية الخطيرة في رواية تاجر البندقية . ومن هنا كانت كراهية المجتمع الأوربي وحقد هليم . وقد وقع الصراع بين اليهودية والمسيحية في أوروبا على نحو آخر . فقد كان اليهود ينظرون إلى المسيحيين على أنهم صرندون ، ومن هنا فقد عمدت الكنيسة إلى فصل تقاليدھا على التقاليد المشتركة مع اليهود ، وهذلت توقيت أعياد الفصح والقيامة . كما منعت الكنيسة الاختلاط الاجتماعي باليهود ومواكبتهم ومشاربتهم وذاع القول بأن اليهود يذبحون أطفال الانصارى قربانا . ومن ثم فرضت الكنيسة نظاماً خاصاً لليهود في المعاملات التجارية والحقوق المدنية ونوع المهنة ، وقامت مذاهب فلسفية تفصل بين الآرية والسامية وهي تدعو اليهود بالعزلة عن الحضارة الغربية . يقول تشمبرلان : أن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية وأن روحه لا تلائم روحها وعندما يفيض له فإنه يتحكم فيها وقد يقضى عليها حقداً . وأشار كثير من الباحثين في مجال هذا الصراع إلى أن اليهودية تضطرم قسوة وهنفاً وجوداً وهي حل نقيض المسيحية الرحيمة المحبة التي أعطت البشرية فكرة التسامح . وجرت المحاولات لإثبات أن المسيح وبولس الرسول ليسا من العرق اليهودى وأهلزت الأبحاث من شأن الشعب البتوتونى وقالت أنه أرسنة طراطة البشرية وأن المدينة الأوروبية من نتاجه ، ودعا بيجل وغيره إلى هضم العناصر الغربية في المجتمع الأوربي أو أبادتها ، وحل الجرمان على الدماء الغربية (خنه وقليبر) ومجد نبشه القوة وهاجم اليهودية والمسيحية وقال إن كلاهما دين الضعفاء والصماليك .

كانت هذه العوامل دافعاً قوياً لليهودية العالمية إلى احتواء الحضارة الغربية والسيطرة عليها وتفريضا من مقوماتها المسيحية والإسلامية التي قامت عليها وإلحاقها إلحاقاً كاملاً بالوثنية الإفريقية وإحياء مفاهيمها المختلفة من الجنس والعصبية والإلحاد والإباحة وكانت الماسونية هي المدرسة الكبرى لهذا الفكر ، حتى لممكن القول بأن مختلف النظريات الفلسفية التي ظهرت في السنوات المائة الأخيرة بأفلام كبار الأسماء اللامعة في الفكر الغربي لها جذورها وأصولها في المقررات الماسونية .

( ٨ )

## الثورة الفرنسية

كشفت الوثائق التاريخية عن حقيقة الثورة الفرنسية ، ودورها في تنفيذ مخططات الماسونية من أجل تخطيط القيود التي فرضتها البابوية أمام اليهودية العالمية فقد تبين « أن الثورة الفرنسية ترجع إلى جهود الجمعيات السرية الخطيرة ولا سيما محافل البناء الحلي ( للماسونية ) وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دوراً عظيماً لاضرام نارها . وقد أشارت بروتوكولات صهيونية إلى ذلك صراحة حين قالت في البروتوكول الثالث : « تذكروا الثورة الفرنسية التي اسميها السكهرى ، إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروف لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا » . ولتسد ألقى مسيو جوترو ( Gautherot ) في عام ١٩١٧ محاضرات عديدة في باريس كشف فيها هذه الحقيقة وقال : إن الثورة الفرنسية كان ضابط أزمته الماسون وأنهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة أدوارها . وما كان قتل لويس السادس عشر سوى تنفيذ لأحد مآربهم التي كانوا اتفقوا عليها في المحافل السرية . وقال : وبعد أن ملأ الماسون فرنسا دمماً ، عمموا الثورة في كل أنحاء أوروبا بواسطة جيوش الجمهورية ، لقد نفخت الماسونية روح الثورة ، وثالث العروش وقلبت الدول واستعانت بالاشتراكيين والفوضويين والأنجليست . وقد أحصى الإحصائيون هدد الملوك والرؤساء الذين قتلوا في مائة سنة فإذا هو يزيد على الثلاثين . ولقد كانت سيطرة الماسونية العالمية بالغة على حق أوروبا كلها على أثر الثورة الفرنسية وذلك لتحقيق ما استهدفه منها ، ففي الاجتماع الذي عقد عام ١٧٨٩ لوضع الدستور الجديد لفرنسا كان هناك ثلاثمائة عضو ماسونى .

وإن أهم ما حققته الثورة الفرنسية هي أنها رفعت قيد المسيحية والكنيسة وأطلقت اليهود ليحتلوا أعظم المناصب في مختلف الدول الأوروبية ويسيطرون في الاقتصاد والسياسة والثقافة جميعاً . غير أن هوامل جديدة زادت في اضطهادهم أهمها : الربا والسيطرة الاقتصادية على المجتمع الأوروبى . وبعد سقوط نابليون استطاعت الطبقة اليهودية من داخل البرجوازية أن تكون الحاكمة الآخرة في معظم بلدان أوروبا ، وبما أن الطبقة الغنية من اليهود كانت جزءاً هاماً من نواة البرجوازية ، فقد استطاعت أن تلعب بعفدرات أوروبا وتسيطر على كل حركة سياسية . وهكذا بدأ الصراع من جديد

بين اليهودية والمسيحية في أوروبا . ولقد استطاعت الماسونية التي ألحقت بتنظيماتها السرية أغلب أصحاب النفوذ في ميادين القانون والفكر والسياسة في أوروبا أن تحتق عن طريقهم نتائج هامة وخطيرة فسدت القوانين الحديثة للقضاء على التشريعات الكنيسية الأوروبية : ومنها شرائع الطلاق وإضفاء سلطة الوالدين في تحرير التعليم والتربية من الدين وإتاحة الفرصة للأبناء على نبذ أوامر الدين ونشر التعليم اللاديني وإكراه الآباء على وضع أولادهم في المدارس المخالفة لمذاهبهم الدينية . هذه القوانين لم تقدم إلى المجالس النيابية إلا بعد أن صادق عليها أتباع اليهودية العالمية في المحافل الماسونية ثم أتاحتم لهم اليهودية الفرصة لأن يلوا مناصبهم في المجالس النيابية وكان قد أقرها مسبقاً . وبالجملة فإنه بالثورة الفرنسية سار الشعب الفرنسي ثم شعوب أوروبا كلها في الطريق الذي رسمته له اليهودية العالمية .

(٩)

## احتواء الأديان

يجمع معظم الباحثين في مخططات الماسونية وعلاقتها باليهودية العالمية إلى أن أبرز أهمالها هو رسم المخطط لتدمير المسيحية وبرهان ذلك قولهم : أن الكنيسة هي عدونا الخطير وبروتوكولات صهيون تكشف على ذلك في وضوح وفي بشاعة . وأعظم ما ذهبت إليه اليهودية وجمعت منطلقه عن طريق المحافل الماسونية التي ضمت الألوف المؤلفة من المسيحيين هي تزيف الدين المسيحي ومحاولة النيل من البابوية . ويكشف إيليا أبو الروس في كتابه اليهودية العالمية وحررها على المسيحية عن « ظاهرة الحرب المنظمة السرية والعننية على المسيحية لأن في زعرهنا نصراً لليهودية وسيطرة لها على العالم » وقال إن هذا ما تفسره مقررات حكماء صهيون . وأشار إلى الإيماءات التي تشير إليها مسرحية المائب (Le Vicaire) التي يمثلونها على مسارح باريس ونيويورك ولندن منهمين البابا بيوس الثاني عشر بالتعاون مع النازية ، ويقول المؤلف أن مع دوافع الأسمى والخطري أن لا يثور الغرب المسيحي على هذه الإيماءات وأن المسرحية تمر بأرق المسارح والمسيحيون في الغرب لا يحركون ساكناً ، كما أشار إلى حركات اليهود الدينية المنتهية لتدمير المسيحية وخاصة حركة « شهود يهوه » ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل البعض يذهب إلى أبعد من ذلك فيشير إلى ما نقله « بولس » عندما أراد تعميم المسيحية وأثره في عقيدة الثلاث التي كانت من عقائد قدماء المصريين وما يتصل

بذلك من خلاف بين أنصار آريوس واثناسيوس حول طبيعة السيد المسيح . ويشير أميل الخورى حرب فى كتابه ( مؤامرة اليهود على المسيحية ) الى الخلاف الجذرى بين اليهودية والمسيحية ، حيث تقوم المعتقدات اليهودية القومية على أساس : أن اليهود هم شعب الله المختار وأن الرب أعطاهم أرض الميعاد ووعدهم بملكوته العالم ، ويشير الى أن ما ورد فى الكتاب القديمة من أرض الميعاد إنما كان وهذا من الله لإبراهيم ونسله وأن ذلك قد تحقق فعلا . وأشار الى المعركة التاريخية بين اليهود والمسيحية ووصفها بأنها معركة ضارية ، « حيث وجهت اليهودية هزائنها الى الفصح والذم وتلميح المسيحية بأنفسهم دون أن تكشف عند الفرصة من اللجوء الى القتل » .

وأشار الى أن أخطر ما قامت به اليهودية هو محاربة للمسيحيين بالمذاهب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تهدم الروح المسيحية وتقوض أركان الدول المسيحية وبذلك تحقق اليهودية غرضها بصورة غير مباشرة دون أن تصطدم بها وجها لوجه . وقال : إن اليهودية قد نجحت بهذه الخطة إلى حد بعيد . وأشار أميل الخورى إلى مئات من المجلات والكتيبات التى كتبها اليهود وأتباعهم والى تطعن فى المسيح والمسيحية والقديسين والكنيسة والأمرار . وقال إن معالم هذه السياسة بدأت تظهر فى أواخر القرن ١٨ مع انتشار الروح الثورية فى فرنسا وبعد أن انتقلت الجمعيات السرية الخاضعة لنفوذهم من العمل من وراء ستار إلى العمل فى وضوح النهار . وكانت الخطة هى ( محاربة المسيحية باسم المبادئ والمذاهب ) . وهناك عدد من المؤلفات التى يتصل بهذا مثل : \* اليهودى واليهودية وتهود الشعوب المسيحية : جوخنود ، موسو . \* المأساة الماسونية والمؤامرة اليهودية على العالم المسيحى : كوبان البانسلى . \* الكنيسة الرومانية أمام الثورة : كرتنوجولى . كما أشار الكاتب إلى نص لسكانب غربى ( الس ) يقول « إن الكتاب الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى كانوا فى طليعة الداهين إلى المذاهب المناهضة للدين والآداب والمجتمع . « وفى الثورة الفرنسية لعب اليهود دوراً كبيراً بارزاً بالنظر لقلّة عددهم وكانوا ممن نظموا نهب الكنائس » . وأن اليهود ابتداء من الثورة الفرنسية حتى نهاية القرن ١٩ ( ١٥٠ سنة ) عمدوا إلى نشر المبادئ الهدامة وإشغال الثورات . « وفى بحث الدكتور بيلمان ( تحت عنوان اليهود المعاصرون ) يقول : « لقد حاول اليهود أن يهدموا حضارتنا » .

ويقول بوكهارت : إن الأدب العالمى قد يكون مدينًا لبعض كتاب اليهود ، فإن مؤلفات ماكن نوردو ، فرويد ، هوبمان ، توماس مان وأخيه هنريش مان وداملسكى وديزرائيل ومورو أضافت



ثروة لثروات العقول ولكن شرها أكبر من نفعها وإثمها أكثر ، فإن ( هينيه ) أنشد أخلاق باريس و ( نوردو ) حلل المبادئ والنظم التي تدهم المدنية وأظهر فسادها وتعنفها و ( أوزفالد ) أنذرنا بترب زوال الحضارة أما ( فرويد ) فقد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاء الشبق السكمان في حنايا ضلوعهما فالتهمتك الجلدى لا حدة له في رأيه والولد يغار على أمه من أبيه أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاحتلام وهلاقة الجنس فيها شفاء من كل داء . وبرر توماس مان عشق الذكور في قصة ( الموت في البندقية ) ووصف مرضى الصدر بأنهم حيوانات متعاقبة تتخذ من يأس الشفاء هذرا للتساقط . ولا ريب أن هذه النصوص جميعاً تعطى مفهوماً واضحاً للأثر الذي أحدثته اليهودية العالمية في الفكر الغربي جميعاً واحتوائه وتدهيره ، وهو الفكر الذي نقل إلينا نحن العرب والمسلمين منذ أوائل هذا القرن وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وعلمت عليه المذاهب الفكرية والسياسية والأدبية والاجتماعية في بلادنا وكنا في غفلة عن أخطاره ومتموسه والمخططات التي يقوم عليها والأهداف التي أريد له أن يحققها في كل فكر يتصل به وخاصة في الفكر العربي الإسلامي . وقد يدعش كثير من الباحثين حين يرون أن أصولاً أساسية للنظريات التي أفرغت في قوالب العلم إنما كانت في الأصل أهدافاً أساسية لليهود العالمية وقد حملتها الماسونية وألقتها إلى قلوب وعقول أتباعها وروجتها في محافلها قبل أن تحملها أفلام هؤلاء السكتاب وتروجها في العالم كله . وفي نشرة الشرق الفرنسي ( الماسوني ) ١٨٩٥ ما يلي : أن العشرة الماسونية تأبى اعتقاد أى حقيقة دينية كانت . وينص الحفل الأكبر في برلين على « أن العلم هو الأساس الوحيد لسكل معتقد فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي . وتشير النشرة الماسونية الألمانية ١٨٦٦ بأنه يقتضى على الماسون أن يقيموا أنفسهم فوق كل اعتقاد بالإله أيا كان ، وأن قال الماسون بوجود الإله فأنما يريدون به ( الطبيعة ) وقواها المادية فهم يجعلون الله والإنسان كشيء واحد .

ويقول ويستهوريت : « نشيء الماسونية المنورة » كل شيء هو مادي ، فالله والعالم ليسا إلا شيئاً واحداً وجميع الديانات هي خيالية وغير ثابتة اخترعها ذوو المطامع . . وأن نظرة واحدة إلى هذه الوثائق الثابتة منذ هذا الوقت البعيد لتكشف عن روح النظريات والفلسفات الحديثة جميعاً من فرويدية وماركسية وبهاية ووجودية وتؤكد تجميع كتابات الذين كشفوا حقائق الماسونية ممن كانوا فيها ثم تخيلوا عنها أن الماسونية ترى أن الديانات خرافات وأن الله عز وجل بلا معنى وأنه لا يوجد في العالم غير الطبيعة المادية .

ويقول كلافن من أساطين الماسونية : إن معنى الماسونية العظيم بأن تمحو بين البشر كل تمييز بينهم كشراف الأصل والأديان والمذاهب والأوطان وأن الماسونية مدعوة لسحق الرؤس الثلاثة : الدين والسلطة والعسكر . ويشير عبد الله كلافن في كتابه ( خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ) إنه في خلال إجتاع اليهود في بال بسويسرا ١٨٩٧ دعا ممثل جماعة بنائى يرث : إلى تخريب المدينة المسيحية والإسماع في نشر الفوضى . ويقول كلافن دوسليكي في كتابه حرب اليهود في العالم .

تمحور كثير من اليهود من قيود أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية لينتمكوا من الاندماج في الأوساط المسيحية المعاصرة كما حدث منهم عند الفتح اليونانى على يد الاسكندر المندونى ( تأفروا ) أى صاروا إغريقاً في أسمائهم وعاداتهم وتحننهم وقسوتهم وتقليد اليونان سادتهم في الألعاب الرياضية والتمتلك في عبادة الجسد وقد وصلت بهم هذه المصير الحديثة إلى درجة الكفران وانتحال الدين المسيحى ليندمجوا . وقد دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على أن البلاد الذى ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والترأحم من بينها وحلت القسوة فيها محل الحنان والمعدل حتى أن الفقير لميت جوها ولا يبعد من يسهفه . وترى الحضارة الأوروبية اليوم صبغت بألوان اليهودية ففتت فيها الأطماع المادية حتى صاروا لا م لهم إلا جمع المال . وكان من أبرز ما أثار اليهود في الحضارة الأوروبية الدعوة إلى تفكك الأخلاق بتسهيل سبل الشهوات في المصاريف وملاعب القمار والملاهي وصنع أشرطة الصور المتحركة ، الحركة للشهوات المنحطة والحث على الجرائم والذات البهيمية ، واختراع أنواع الرقص الخليلج بأنواعه ، المشارلسنون والسكرابوكا وإعداد المغانى والغوانى والقنانى والراغبين ، وابنداع مسابقات الجمال والأنجبار بها واختيار ملكات الحاسن في الشرق والغرب ، والمادة المادية في كل شيء ، ونشر صحف المحجون والفسوق مثل جاذبية الجنس وما لا يجوز تلاوته إلا بين هاشة بين والنصارى التى هى أقبح وأخطر من الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة ونشر الصحف الكاشفة الكفاح عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائى وما هى إلا تحريض خفى لقراءها بطريفة الإيهام التى يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات والأفراد بفضل شيخ الطريقة المظلة : فرويد وقصص الفسوق التى حذق تأليفها أمثال موريس ديكوبرا وجوزيف كسيل وأندريه موروا وعشرات أمثالهم ولا بد أن نذكر هنا ما سجلته البروتوكولات :

نحن الذين هيأنا لنجاح دارون وماركس ونييتشه ولم يمتينا تقدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود . وقد لاحظ كثير من الباحثين أن علماء اليهود يعملون ما في وسعهم

على هدم الأديان من طريق المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية والبيولوجية وفي مقدمها ، مذهب دور كيم ، وماركس ، ومذاهب الوجودية ، والانتطور والسريرية وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم الأديان المقارن . ويدخل اليهود في هذه المذاهب غاياتهم وأهواءهم ويصيفونها في دقة ومكر ، صياغة هدية لا تفتن إلى زيفها إلا العقول الراجحة ، وتظل موضع الجدل الطويل بين الباحثين والهرع القوي المستمر بين الأمم والدول ، وهم يسخرون من الجميع . والغاية من وراء ذلك هو تشكيل الناس في الديانات عن طريق النقد وبعد علم دراسة الأديان المقارن من أخطر هذه العلوم . وتعتمد اليهودية العالمية على نظريات قديمة من الوثنية اليونانية أو على نظريات لم تجد سبيلها الصحيح ، كالمسيحية الفيلية وغيرها . فهي تركز في الأذهان أن التنكر للأخلاق الماضية هو خير وسيلة للنجاح السياسي وأن السياسة لا تتفق مع الأخلاق ، وأن على الذي يحكم أن يلجأ إلى الخيلة والنفاق في السياسة وينص البروتوكول الأول على هذه المعاني : ( الخيلة والنفاق هما القاعدة ، لا ترد أمام شراء الذمم والغدر والاحتيال ) وهي تستغل فاسدى الخلق لترويج دعوتهما كأنه تستغل الضمير الإنساني في إخضاع الناس لمبادئ الهدامة ، أمام إغراء المال والذات والأطعام . ( يجب ألا تعلق أهمية على ما هو طيب وخالق ) . وهي تعلق أهمية كبيرة في القضاء على نظام الأسرة ، والقضاء على روابط الولاء بين أفرادها . والعمل على تشكيل العقول باستخدام التعليم والثقافة والصحافة في تنشئة أجيال جديدة لا تؤمن بالفضائل وللثقل الأخلاقية العليا وهدم عقائد الأمم الدينية والقومية . والهدف من هذا كله هو القضاء على الكنيسة البابوية في أوروبا والوحدة الإسلامية في الشرق .

(١٠)

## اليهودية العالمية في العالم الإسلامي

(١)

إن يهود سالونيك (الدرونة) هم الذين حملوا لواء الحركة السياسية للزيادة لانتهاج الجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد بالمعارضة والمضادة والدعوة إلى التخلص من الإسلام ومن الوحدة العربية الإسلامية وإعلان شأن الجامعة الطورانية . وقد كانت المحافل للماسونية هي للؤسسة الحقيقية التي احتضنت هذه الدعوة ضمن مخططات اليهودية العالمية للقضاء على الدولة العثمانية وفتح الطريق إلى فلسطين . كانت إزاحة الدولة العثمانية من طريق اليهودية العالمية هدف من

أضخم الأهداف، وهو المرحلة التالية لما حققته الثورة الفرنسية في أوروبا، وإذا كانت اليهودية العالمية قد حظمت الفكر الأوروبي المسيحي واحتوته لندفعه في العريق الذي رسمته وفق مقررات حكماء صهيون من أجل إقامة الحكومة العالمية اليهودية، فقد كانت الخطورة الثانية هي إزالة الإسلام - ممثلاً في النظام السياسي الذي تمثله الدولة العثمانية التي تضم العرب والترك والتي ترفع لواء الخلافة على مسلمي العالم جميعاً، وإزالة الإسلام ك مفهوم متكامل قوامه نظام المجتمع ومنهج الحياة، يربط بين الإسلام والعروبة وبين الدين والدولة.

ومن هنا كانت هذه المعركة من أخطر المعارك التي قامت بين اليهودية العالمية والاشتراكية الغربي من ناحية وبين الإسلام والعالم الإسلامي والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية. وكان تجمع اليهود في الدولة العثمانية بعد طردهم من أوروبا وأسبانيا بالذات من العوامل الهامة في الإعداد لهذه الخطوة وخاصة بعد إعلانهم الإسلام وقيامهم في سالونيك على بوابة الغرب وبعيداً عن النفوذ السياسي التركي، وكان لإنشاء المحافل الماسونية التي تقوم في حماية الامتيازات الأجنبية للدولة الأوروبية، أثره البالغ في حرية التحرك، ومن خلال المحافل الماسونية وفي أحضانها نشأت حركة تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) وصبغت بصيغتها وتبلت مفاهيمها العامة التي تمثل فلسفة اليهودية العالمية في مواجهة الإسلام والأديان عامة وفي مواجهة مفاهيم الاجتماع والسياسة والتربية والأخلاق وغيرها. لقد ظلت جمعية الاتحاد والترقي في نظر الكثيرين هي دعوة حق ومصدر نور وذلك بحكم ما أحيطت به من دهاية مضللة وتهويل ضخم، وبقدر ما وضعت الأهداف الخطيرة التي تحملها في ثوب براق وهبات طلحة وتحت أضواء ساطعة باهرة تفتش العيون وتخدع القلوب الفارغة من يقين الإيمان فقد وصفت بأنها ضد الاستبداد ونصيرة الحرية، ومحررة الدولة العثمانية من التأخر والجمود والرجعية وأنها حاملة لواء الدستور والحريات. ثم لم تلبث الوثائق والأسانيد والوقائع التاريخية الصحيحة المدفونة التي تكشف تماماً بعد هام أن أزال هذا الزيف، وهرت هذه الزخارف وأعلنت الحقيقة كاملة وهي حقيقة مريرة، لا تعدو أن تكون خدعة كبيرة إذا امتطعت الدعوة في سالونيك أن تحتوي هذه الحركة وأن تصورها في بوتقة الماسونية وأن تحولها كاملة لخدمة مخططات اليهودية العالمية بعد أن لواء فلسفتها وأهدافها وحقت بأيديها مطامع الصهيونية في إزاحة هذه القوة الضخمة وهذا المكيان الجامع بين العرب والترك وبين العروبة والإسلام.

( ٢ )

يقول (أراست ر. افردر) مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٩٨ وهو مسؤول تمام للولاية الاتحاديين وأهدافهم معاد كل المعاداة لأهداف الوحدة الإسلامية والسلطان عبد الحميد وترايط العرب والإسلام ، يقول في صراحة عجيبة : لم يمض وقت طويل على للتأمرين في سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا قائم منظمة أخرى وهي الماسونية ، إذ لما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الأمبراطورية فإن المعامل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع بطريقة سرية طبعاً وضمت إلى عضويتها هدداً ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد . « لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافظ الماسونية في سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة ، وعلى ما يبدو أن الجمعية استعملت تلك الخافض أو ربما جميعاً لتسكون محلات الاجتماع وضمت كثيراً من أعضائها واستخدمت الفن الذي نراه الماسونية في اختيار المرشحين للعضوية .

ومضى المؤلف في كشف الموقف الغامض الذي ظل خفياً على التاريخ الإسلامي المعاصر وقتها طويلاً فقد أخته اليهودية العالمية كما أخذت بزوتوكولات صهيون أكثر من خمسين عاماً من العالم الإسلامي والعرب فيقول : « من المؤكد أنه كان سالونيك عدد من اليهود وكان كثير منهم ماسونيون وهذا وضع يثير بالطبع كثيراً من الشكوك وخاصة في نفوس من كانوا يرون في الماسونية محاولة تقوم بها اليهودية العالمية للسيطرة على العالم وقد أدى هذا إلى أن هدداً كبيراً من الكتب تصور فيها ثورة تركيا الفتاة كظهور آخر لهذه المؤامرة الشريرة العالمية التي يقوم بها الماسون واليهود وهكذا نجد مثلاً المؤلفة التي أثبتت أن الثورة الفرنسية ما هي إلى أول نماذج تلك المؤامرة متبعة في ذلك هو نفسها تعلن : « أن حركة تركيا الفتاة نبتت في الأصل من المحافظ الماسونية في سلانيك بإدارة ( الشرقي الأعظم ) الإيطالي الذي أسهم فيما بعد بنجاح مصطفى كمال . ويؤكد لنا دارس آخر للحالة في حوالى ١٩٠٠ قرر الشرقي الأعظم الفرنسي إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ بمحبة لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها . كما نشر فردريك وختل في مكان آخر من كتابه مشيراً إلى نقاط ولسون الأربعة عشرة واصفاً إياها بأنها ( برنامج ولسن الماسوني للسلم العالمي ) ثم يلاحظ محل آخر : « يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية كلها تقريباً من عمل مؤامرة يهودية ماسونية . ويقول المؤلف بعد أن استشهد بهذه المصادر جميعاً لتأييد رأيه في الصلة بين حزب تركيا الفتاة وبين الماسونية العالمية :

أخذت هذه الصلة بين الماسونية وأعضاء تركيا الفتاة طابعاً شبه رسمى بعد الثورة مباشرة . وصرح رفيق أحد قادة الاتحاديين بعد تولى الحكم : « حقاً إننا وجدنا سنداً معنوياً من الماسونية وخاصة الإيطالية فالخزائن الإبطليان قدما لنا خدمة حثيثة ووفرنا لنا الملاجئ فكنا نجتمع فيها ككاسوبيين فكان العمل السرى يجرى فى سالانيك فلما يثير الشكوك فى القسطنطينية كما أن عملاء الشرطة حاولوا هبشاً دخوله » .

هذا النص اقتبسه المؤلف من النيمس عدد ٢٠ آب ( أغسطس ١٩٠٨ ) للبرهنة على اعتقاده بأن ثورة تركيا الفتاة هى مؤامرة ماسونية وهو يقول على الأثر ( أن المبالغة فى دور الماسونية يدخل بين آتية وأخرى كما هو الحال فى الوصف الروائى لتاريخ حياة أتاتورك الذى ألفه اره : وهذا الكتاب يسمى ( Grey wolf ) الدب الأزرق ويقول المؤلف أما فيما يتعلق بأعضاء تركيا الفتاة فى أوروبا يبدو أن عدداً منهم ارتبط بالحزب الماسونية لما كانوا فى المنفى والنص من رسالة الدكتور أرنست باك ( إلى المؤلف ) . وبعض المؤلف فى تأكيد العلاقة الماسونية وتركيا الفتاة فينقل على كتاب *The rise of nationality* لمؤلفه ستيرن واطسن : وهو رجل معروف باطلاعه على أحوال الشرق الأدنى قوله « أن الأدعنة الحقيقية فى الحركة كانت يهودية أو يهودية مسلمة ، وقد جاءت مساهمتها المالية من الدولة الأغنياء ومن يهود سالانيك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين فى فينسا وبودابست وبرلين وبرما فى باريس ولندن أيضاً . كما أشار المؤلف إلى شخصية هامة فى هذه الحركة هى ( أما نوبل كاراسو ) وهو يهودى من سالونيك كان أستاذاً أعظم فى محفل مقدونيا ونسب إليه بعض الفصل فى أنه حتى بفكرة استدعاء أعضاء تركيا الفتاة للاجتماع فى المحافل الماسونية و ( كاراسوا ) هذا هو أحد أعضاء الوفد الذى نقل إلى هيد الحيد نبأ هزله عام ١٩٠٩ وكان عضواً فى البرلمان التركى » . هذه شهادة مؤرخ أجنبي له ولاء مع الاتحاديين ( تركيا الفتاة ) وهى تؤكد الحقائق التى تناثرت السنوات الأخيرة عن حقيقة الدور الذى لعبته بالأشراك مع اليهودية العالمية عن طريق المحفل الماسونية فى تمزيق وحدة العروبة والإسلام .

( ٣ )

والمعروف أن الاتحاديين تولوا الحكم عام ١٩٠٨ في العام الأخير لحكم السلطان عبد الحميد ، ثم تأمروا على هزله في ( مارس ١٩٠٩ ) وظلوا يحكمون الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . واقتدبرت الماسونية للاتحاديين استقبالا بارعا عندما تولوا الحكم وبعد أن أسقطوا عبد الحميد ، لكن تصرفاتهم وأعمالهم لم تلبث أن كشفت القناع عن وجهم الحقيقي . لقد أعلن الاتحاديون الدستور ( المشروطية ) وبرهوا في القول بأنه كان ارضااء لكل العناصر ، وأنه دوى بين جميع الأديان والأجناس ولم يكن الواقع إلا شيئا واحداً وهو أنه أعطى اليهود حق المواطن في الدولة العثمانية وفتح لهم بذلك الطريق واسعاً إلى بيت المقدس ، لقد أعطاهم الدستور العثماني في العالم الإسلامي ما أعطاهم الثورة الفرنسية في أوروبا وقد سجلت ذلك مجلة الكلمة الصادرة في تشرين ١٩١١ . فقالت : إن الدستور العثماني ككل دستور آخر خطته يد الماسونية فقد منح لليهود حق المساواة فلم يلبث اليهود في تركيا أن أخذوا يظهرن للملا ماذا يصنعون بهذه المساواة فقبل كل شيء انسلوا إلى الوظائف العالية في المملكة ثم لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة هم ( يهود ) وبوجه فإن إعلان الدستور في تركيا قد ملأ قلوب بنى إسرائيل أجمعين فرحاً عظيماً ، وأخذوا بواسطة أهوانهم يثيرون كوامن البغضاء بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية وكلماروا أن نيران البغض بين الطرفين تكاد أن تخمد أوارها بأدروا وزادوها وقوداً . وبما هذه الحقيقة أن جريدة ( التيمس ) الانجليزية إحدى الجرائد المشهورة لليهود رأت أن تذكر اليهود بالدور الذي لعبوه في تهيج التنصاري ضد الإسلام وبإشراكهم مع الأولين في ذبح الآخرين ، لكن منابح سوريا ومنابح الآسمانة ولا سيما منابح أدنه ، ثم تذكرهم بما استعاده اليهود من وراء هذه المنابح الأخيرة هو أن أراضى الذين ذبحوا أو هربوا من الأرض قد استملكتها أحد اليهود المسمى جاويل وأسكنها يهوداً من روسيا على أن تظاهرهم الوقح بلباسهم مالبث أن أهاج سكان فلسطين ولا سيما الأعراب المسلمين ضد الدولة العثمانية الدستورية وخصوصاً ضد جمعية تركيا الفتاة التي أمست من جراء استلامها للنفوذ اليهودي مكروهة في أكثر أنحاء المملكة العثمانية .

هذا ماجعل جريدة التيمس الانجليزية المذكورة آنفاً تبادر إلى تحذير اليهود في كل مكان ولا سيما في تركيا من رخامة عواقب استعجالهم في التظاهر بأمانتهم اليهودية . ولكن قات هذه الجريدة وسائر الجرائد التي على شاكلتها أن تلك الأمانى اليهودية مهما سعى اليهود واحتلوا بواسطة أعوانهم

على تحقيقها هيئات أن تتحقق ما دامت الأمة اليهودية موصومة بوصمة اللعنة الإلهية ، ا . ه .

( ٤ )

أما عن تأييد جمعية الاتحاد والترقي لليهود في بلوغ مآربهم داخل الدولة العثمانية من الوصول إلى فلسطين فإن هناك عشرات الأسانيد والوثائق .

يقول هارف الماراف في كتابه ( للفصل في تاريخ القدس ) : « اندس عدد غير قليل من الدونمة في حكومة الاتحاد والترقي أمثال جاويد بك وزير المالية من ( سلانيك ) وبساريا أفندي وزير النافعة من رومانيا واسيم مازلباخ وزير التجارة والزراعة وكان هذا ممثلاً للجمعية الصهيونية وحسين جاهد ( بالتشين ) رئيس تحرير جريدة طنين التركية فنقل هؤلاء في الحكم حتى أصبحت كلمتهم هي العليا وعن طريقهم وغيرهم من رجال الاتحاد والترقي سنت الحكومة قانوناً يميز للجمعيات أن تمتلك الأراضي في فلسطين ، وسنت أيضاً قانوناً آخر أجازت بموجبه بيع للزراع السلطانية ( الجفلك ) وكانت مسجلة باسم السلطان عبد الحميد وهي كثيرة بالمزاد العلني وعن طريق هاتين الجمعيتين تمكن الصهيونيون من شراء أراضي فلسطين قبل وقوع الحرب العالمية الأولى . فهذه واحدة من الحقائق الكبرى التي خفيت على « التاريخ العربي الإسلامي للعاصر ذلك الوقت الطويل والتي كشفت معها ما هو أشد خطراً إذ تبين أن أقطاب حزب الاتحاد والترقي كانوا من يهود سلانيك وقد أخفوا ذلك في مهارة فقامت المناهج المدرسية في البلاد العربية جميعاً على نحو يخفي هذه الحقائق ويظهر غيرها . وهذا ما تنبه إليه العرب في السنوات الأخيرة وما يصوره الأستاذ سعيد الأفغاني الأستاذ بجامعة دمشق : « درس معلونا في حدائهم الشيء الكثير عن ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني واقتنونا له تاريخاً أسوداً حافلاً بالإرهاب ونحن صغار ، كما تلقوه هم أيام الاتحاديين آخر العهد التركي . ونشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن ، هذا التاريخ عند جبهة جيلنا من المسلمات التي لا يعترها ارتياب . ثم انجملت الأيام لذوى البصائر من خلافه ، فتبين للناس أن حزب الاتحاد التركي الذي قام ضباطه بالثورة المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقة ، تبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقيين كانوا من يهود سلانيك وأنهم افترروا تاريخاً يوافق نزعاتهم وما يلتوون فرضوه فرضاً على الناشئة في المدارس ، تاريخاً كله من صنع أيديهم توصلوا إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والإخاء والمساواة . وتلك كانت شعاراتهم يومئذ فتبعهم المتحمسون من الشيبية أفراداً وجماعات لكن الغرض الحقيقي لم يكن يعرفه



إلا عدد قليل جداً من هذا الحزب انضخ بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل في إنكشافه للنكبة الكبرى : نكبة فلسطين فقد شرحت حوادث كثيرة سابقة وصححت نظرات خاطئة .

( ٥ )

لم يلبث الاتحاديون في الحكم إلا قليلا حتى حملوا لواء الدعوات المتطرفة فدعوا إلى الطورانية وأذكوا العداوة بين عناصر المملكة العثمانية من أكراد وأرمن وشركس وأرناؤوط ، وكان هذا هو الديناميت الذي بمنزلة أركان هذه الإمبراطورية الضخمة ، وكان الهدف هو اختصاب فلسطين التي لم يكن في الإمكان إلا بتمزيق الإمبراطورية العثمانية . وقد كشفت أعمال الاتحاديين عن هذا المخطط الخطير : مخطط تسليم الإمبراطورية للدول الأوروبية ، ومن أبرز هذه المواقف : ( أولا ) تسليم طرابلس الغرب لإيطاليا ( إيطاليا التي كان الاتحاديون في حماية محافلها الماسونية ) وقد كشفت الوثائق حقائق هامة في هذا الصدد مؤداها أن الاتحاديين كانوا قد قبلوا بالاتفاق مع إيطاليا التنازل عنها ولما لم يستطيعوا إعلان ذلك فقد أضعفوا حاميتها وذلك لتمكين إيطاليا من احتلالها وقد تقدم في هذا الصدد إلى مجلس المبعوثان العثماني تقريراً يطالب بمحاكمة حتى باشا الذي كان سفير الدولة في روما عاصمة إيطاليا ثم أصبح صدراً أعظم ( رئيساً للوزراء ) للدولة . وكان يسهر أكثر لبياليه في سفارة إيطاليا يقام مع الرجال والنساء ( المنار م ١٤ ) . وقد استجاشت الحوافز في العالم الإسلامي كله لمساعدة طرابلس الغرب وكان للعرب دورهم الكبير والمصريين دور هام وقصرت تركيا تقصيراً شديداً في هذا المجال ، ووقفت جمعية الاتحاد والترقي من القصة كلها موقفاً مريباً هو أشبه بالخيانة . ( ثانياً ) إدخال الدولة العثمانية الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا وكان لليهود ومحافلهم أكبر الأثر في الضغط على الاتحاديين بينما كان اليهود إلى جانب إنجلترا وفرنسا يمولون الحرب وكانت هزيمة ألمانيا هي نهاية الدولة العثمانية وإعلان وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وإعلان انتداب بريطانيا عليها توطئة لتسليمها لليهود .

ويكاد ينفقد الاجماع على فساد خطة الاتحاديين وعلى تبعيتهم لليهودية العالمية والاستعمار البريطاني — يقول جلال رفعت « إن الثوريين الذين استولوا على الآستانة وخلفوا السلطان عبد الحميد باعوا بلادهم كالأسارى إلى الألمان ، إن أنور وطلمت جعلوا أنفسهم من تلقاء أنفسهم وبرغبتهم آلة للألمان وأن ثورة تركية سببا لتقويض إمبراطورية تركية ، فيمكن القول بعزم إن الثورة التركية كانت

أثراً من آثار إفساد اليهود والماسون حيث أن شباب تركيا الفتاة — الذين كان اليهود يحضنونهم مع الماسونيين الأوربيين القديين كانوا يدبرون الأمور — لم يواجهوا النجاس . إن المبادئ اليهودية والماسونية أثرت كثيراً على منشئ جمعية الاتحاد والترقي ، والذين حافظوا تلك المبادئ والتقاليد حتى بعد الثورة أيضاً حتى أن رئيس المجلس أحمد رضا بك رفض استعمال كلمة ( الله ) المندرجة في القانون الأسامي عند أدائه اليمين القانوني في المجلس بتأثير تلك المبادئ حيث أنه كان رجلاً مادياً وهناك مسألة جديرة بالتدقيق والتأمل هي أن اليهود المنتسبين لفرقة الاتحاد والترقي أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ في جمعية الاتحاد والترقي . وأن أعضاء تركيا الفتاة قاموا بتقليد الثورة الفرنسية بمختلف أشكالها . ومن جهة أخرى كانت تركيا الفتاة تقوم بالضرب على النقود كلمات ( حرية — إخاء — مساواة ) ومن جهة ثالثة تقوم بتطبيق المادة الأولى من اللبروتوكولات اليهودية القائلة ( نحن اليهود قديماً لأول مرة بتلقين كلمات الحرية والأخاء والمساواة إلى الإنس منذ القدم وأن العناصر غير اليهودية شاكرون لنا عملنا هذا ، وفي نفس الوقت وبهذه الأوس حطمتنا أسس كافة الشعوب غير اليهودية :

وقد أكد هذه الروابط بين الماسونية اليهودية وبين الاتحاديين أكثر من وثيقة وفي عام ١٩١٠ احتفلت المحافل الماسونية ببعض زعماء الاتحاديين وتسجل مجلة المقتطف هذه المناسبة بالنص فتقول: خطب برتوبك بالتركية وقال : أثنى الشفاء العاطر على الحكومة الانجليزية والأمسة الانجليزية لأنها ساعدتنا نحن العثمانيين في هذا الانقلاب المبارك الذي قوض أساس الاستبداد ووطد أركان الحرية في الممالك العثمانية .

وقال : نحن العثمانيون مدينون للماسونية بأكبر دين لأنها هي التي بثت في نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقي روح الحرية وبها اقتدوا في إنشاء جمعيتهم التي فككت قيود استبدادهم . وقال : أن الماسونية هي الحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقي .

( ١١ )

## دولة الاتحاديين

حكم الاتحاديون من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٨ تقريباً ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة التحويل الخطير من تركيا الإسلامية حاملة لواء الخلافة والوحدة الإسلامية إلى تركيا الغربية المنحرفة من روابط الإسلام والإخاء الإسلامي . وقد أعلن الاتحاديون منذ اليوم الأول معارضتهم التامة للمخطط الإسلامي وأنجهوا إلى فكرة إقامة دولة مدنية دستورية على أساس مبادئ الثورة الفرنسية وشعارها : ( حرية ، أخاء ، مساواة ) . وسارعت الدول الأوروبية بإثارة الأجزاء الأوروبية من الدول العثمانية لفصلها فاضمت النمسا إلى المهرسك والبوسنة وانزعت اليونان جزيرة كريت والتمت إيطاليا طرابلس الغرب وأعلنت ألبانيا استقلالها واكتسحت دويلات البلقان الجانب الأوربي تركيا وأطلقت يد فرنسا في مرا كس . واستعملت العناصر غير التركية داخل الدول العثمانية نتيجة لتأجيج نيران العصبية والجنسية فتحركت هذه العناصر للتأمر وإثارة الاضطراب . ولم تنحفي الحرية التي طالما نعدنوها عن فقدانها من قبل ، بل أن الأمور بدت أشد قسوة فقد أعلن الحكم العراقي في الدولة العثمانية ووضعت الحريات الصحفية والاجتماعية تحت رقابة شديدة بمجة مراقبة من أمموم رجعيين وإبعاد كل من كانوا على ولاء للنظام الإسلامي .

يقول الأستاذ محمد جميل بيهم : الواقع أن التبدل قد وقع ، ولكن على أسوأ حال فبينما كان السلطان عبد الحميد يعتمد على الجامعة الإسلامية التي تضم ( ٣٥٠ مليون نسمة ونيق ) ويؤلف بها قلوب قرابة تسعين في المائة من رعيته شرع الاتحاديون يعملون على جمع شمل الأتراك حولهم حيث كانوا في روسيا وبوغسلافيا وفيينا والمجر وبلغاريا وغيرها فيثيرون بذلك حقائق الدول ذات العلاقة ويخسرون الرعايا للمسلمين غير الأتراك . ولقد عمد الاتحاديون إلى إقصاء الضباط العرب عن البلاد العربية وتدخلوا في انتخابات المجلس النيابي عام ١٩١٣ حتى لم يتمكنوا العرب من إرسالي أكثر من خمسين نائباً إلى المجلس على حين كان عدد نوابهم سبعة . واتخذ الاتحاديون أسلوباً للمساوية في تركيز نفوذهم وهو أسلوب العنف . يقول محمد كرد علي في مذكراته : إنهم أخذوا يعملون على انتقال المعارض لسياساتهم من أرباب الأقلام في الآستانة ، وأحبوا أن يجرؤوا هذه الطريقة في الولايات وكان الدستور الذي وضعه خادماً لنظريتهم في الاستعلاء على العرب وغيرهم من العناصر ومقدمة

لما جاء بعد ذلك من هودتهم إلى الجامعة الطورانية . وقد سجل كرد على ما أورده أحمد رضا في هذا الشأن حين قال : إن الدستور الذي نطالب به فيه التفوق للأتراك على أى حال ولا ينال سائر العناصر شيئاً من الحقوق التي تضر بسلامة المملكة . والمعروف أن مجموع الدولة العثمانية كان ( ٣٠ مليون ) العنصر التركي فيهم لا يمثل إلا ٤ ملايين بينما يمثل العنصر العربي ( ١٥ مليوناً ) والباقي من أجناس مختلفة ( اكراد . بشناق ، شركس ، روم ، أرمن ) . ولا ريب أن الدستور العثماني كانت صناعته ماسونية وكانت بنوده جميعاً مرسومة في دقة لخطة اليهودية العالمية وما يروى في هذا الصدد أن الحاخام باشي ( رئيس الحاخامات في الآستانة ) في يوم الاحتفال بمرور عام على إعلان الدستور في المملكة العثمانية أخذ من شدة فرحه بالحرية الدستورية يدوس برجليه أوراقاً منتزعة من كتاب الإنجيل المقدس . أما فلسطين فقد كانت أكبر هدف في التخطيط كله ، إن الضربة التي وجهت إلى مخطط الوحدة الإسلامية والترابط بين العربية والإسلام كانت تستهدف فتح الطريق إلى بيت المقدس . وكان الاتحاديون قد حلفوا البمين في المحافل الماسونية على تحقيق أهداف البنائين الأحرار ، الذين سيعيدوا بناء هيكل سليمان وما كان لهم إلا أن ينفذوا قسمهم . يقول جواد رفعت أن السلطان عبد الحميد كان قد منع بيع الأراضي إلى الصهيونية في فلسطين وكافح طيلة مدة سلطته لعدم إعطاء الامتياز بذلك بكل ما أوتي من قوة في هذا السبيل وهو يأتي في رأس الشخصيات النادرة في التاريخ ، وعند مجيء الاتحاديين إلى الحكم بفضل دسائس اليهود وأموالهم بعد إهلال ( المشروطية ) برزت إلى الوجود مستعمرات يهودية معمورة ومنظمة جداً في مدة وجيزة في فلسطين وذلك بفضل تعاون الاتحاد والترقي والماسونية حيث استفاد اليهود الذين كانوا يتربصون الفرض منذ سنين ( وقد شاهدنا هذه المستعمرات في الحرب العالمية الأولى ) . وأوضح مثال لتعاون الاتحاديين مع اليهود الذين كانوا يسمون إلى تمزيق تركيا وتأسيس دولة إسرائيل ، هو تعاون تركيا الفتاة مع الجمعية الإسرائيلية .

( وقد جاء أحمد رضا إلى مصر ١٩١٧ وانصل بهذه الجمعية التي شاركت في الاجتماع الذي عقده تركيا الفتاة في باريس ) . وخلاصة القول أن أساس دولة إسرائيل قد وضع من قبل جمعية الاتحاد والترقي وفي خلال ست سنين ، أحدثت مستعمرات معمورة ، أصبحت كمخافر أمامية لليهود في الأرض الموهودة . ويمكن تلخيص السبب الرئيسي في هزيمة الجيش التركي في فلسطين وسوريا ، هذه الهزيمة المنكراء التي لا مثيل لها في تاريخه رغم البطولة والخوارق التي أظهرها في كلّة واحدة : هي خيانة اليهود فقط ، كان اليهود في حيفا ويافا والناصرية وطبريا جواسيساً علينا وعلى جيشنا

والرجل الذي كان يدير هذه الشبكة هو (أرانسون اليهودي) الذي عين والياً هاماً على القدس مباشرة بعد فتحه من قبل اليهود، وإلى هذا المعنى أشار خليفة التولسي في مقدمة كتابه (بروتوكولات صهيون) حين قال : إن موقف تركيا منذ الانقلاب تجاه الأتراك والعرب واليهود لا يفسره إلا نفوذ اليهود في تركيا فلو بقيت الخلافة العثمانية رغم ضعفها لما أمكن قيام وطن يهودي في فلسطين فنسكب اليهود تركيا لذلك بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب الأولى . وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها ، ولكن اليهود على رأسهم وايزمان وبمساعدة بعض النشاةم الذين حاولوا قنن الصلح بينهما حتى تخرب تركيا وتشعل خلالها وكشف من أن حاجة بريطانيا إلى اليهود كانت أكبر ، كما كان لهم نصيب كبير في إلغاء الخلافة وكان لنفوذهم هناك أكبر الأثر في طرح تركيا دينها الإسلامي وقوانينها الإسلامية ومحاربة اللغة العربية والتبرؤ من صلاتها بالعرب لأن اليهود ولا سيما الدعوةم الداهون إلى الجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام واللغة العربية وصلة الترك بالعرب وكان لهذا أثره في تلوين حكم مصطفى كمال بهذه الألوان وكان حاخام اليهود في مصر من بعد (حام ناحوم) هو الذي فتح لهم باب الهجرة إلى تركيا ليكنوا بالقرب من فلسطين وهو مبعوث مصطفى كمال إلى مؤتمر لوزان .

(١٢)

### الماسونية في الدولة العثمانية

ظلت للماسونية تعمل في طي الكتمان في العالم الإسلامي وقتاً طويلاً ولم تكن مخططاتها معلنة خلال تلك الفترة التي نظمت فيها وجودها في سلاطيك لابتلاع الدولة العثمانية وتحطيمها . فغير أن خيوطاً قليلة أخذت تظهر بعد أن تولى الاتحاديون الحكم ونحطمت الآمال العربية المكاذبة الذي علقها عليهم العرب والمسلمون المحدثون بأنما البديل الأحسن من حكم السلطان عبد الحميد . وكان أبرز من كشف مخططاتها السيد رشيد رضا في (النار) والأب لويس شيخو اليسوعي في (المشرق) .

وفي حوالي عام ١٩١١ أي بعد استيلاء الاتحاديين على السلطة بماين أخذت تتكشف هذه الخطة ، وقد أشار السيد رشيد رضا في وضوح إلى صلة الاتحاديين بالماسونية إذ قال : أن زعماء جمعية الاتحاد والترقي المشهورين من الماسون وأن الماسونية قد راجت بسعيهم وأنهم أسسوا لها شرقاً وغرباً رئيسه طلعت بك الذي كان ناظر الداخلية وهو الآن رئيس فرقة الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان

وقالت المنار : كان السلطان عبد الحميد هدوا للجمعية الماسونية لاعتقاده أنها جمعية سرية وأن غرضها هو إزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض جميعاً وهي تتحفظ بالخلافة الإسلامية وتحرض عليها ، وقد تنفس الزمان الماسون بعد الإطراب العثماني الذي كان لهم فيه أصابع معروفة فأسسوا شرقاً هنانيا ( كندا ) ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا يرضاه في إدارته التي استغاثت منها المملكة بالسنة ولآياتها كلها إلا ولاية سلايك وسلايك الآن هي مركز للسلطة الحقيقية في المملكة وإنما الأسنانه مركز للتنفيذ، وكان حظ عبد الحميد أن تكون السلطة الحقيقية حيث يكون ( هذا إشارة إلى أن عبد الحميد نفي إلى سالونيك ) . وأولى الأب لويس شيخو اهتمامه بالماسونية فكاتب فصولاً مطوية في المشرق مجلد ١٣ و ١٤ وجمعها في كتاب واحد من بعد كما كتب كثيرون منها من خصوصاً والكاشفين من خطرهما أمثال رشيد رضا ومن مؤيديها ودعاتها أمثال جرجي زيدان وشاهين مكاريوس وصروف وقد أشار جرجي زيدان عام ١٨٩٩ إلى الماسونية في الدولة العثمانية فأكد أن السلطان عبد الحميد كان في ريبة من أمرها وأن مظاهرها لم تخدعه ، ولكنه هاد فأشار أن الماسونية مخلصه لجلالته ولسائر الأمة والوطن وقد هلق الأب لويس شيخو على ذلك فأشار إلى أن هذا الإخلاص قد تحقق فملا حيث تفخر الماسونية بأنها هي التي قلبت سلطته . وأنها حين تشرفت برضائه قد عملت على تقويض هرثه .

وقال شيخو : إن هذه المحافل قد أخذت تشتغل في الظلام كما يعرف هادة البنائين الأحرار حتى صار الانقلاب العثماني الأخير فأخذت تباهى وتنسب إليها الحكم الدستوري ، ولم ترض الماسونية بالإسحاب فاستندت إلى جمعية الاتحاد والترقي واهتضت بالجيش وجعلت تلقن مندوبيها في مجلس العموم مآربها لينفذوها على حسب مبتهاها . فجرى ما جرى بسبب هذا الاستبداد ولم يزل الأمر يتفاقم والشر يستفحل حتى سُم العقلاء هذه الأحوال . ولعل سائلاً يسألنا : أجمعية الاتحاد والترقي ماسونية ؟ والجواب عن ذلك أن هذه الجمعية في أول أمرها كانت تتركب من ضباط ورجال سُموا من حالة الدولة ولعل الماسونية سمعت في جميع كلمتهم وهم لا يدرون من أمرها ولا سببها وأن هؤلاء الضباط كانوا في حاجة إلى المال والدرهم لتنفيذ ما قصدوه من قلب الهيئة الحاكمة فلما تم الانقلاب الدستوري رفعت للماسونية رأسها وهزت الفوز إلى مساهبها وصورت جمعية الاتحاد والترقي كجمعية ماسونية محضة ، وكان أعضاؤها إذا ساروا إلى هوامم أوروبا يبحثون عن المحافل للماسونية ويسلمون على رؤسائها كما فعلوا في باريس وبودابست . على أن هذه المظاهرات فتحت أعين العقلاء فأحسوا بما أوقعتهم فيه المشيرة الماسونية من التهلكة وبالخصوص لما رأوا أن بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي

يريدون الضغط على مبعوثي الأمة إلى مجلس العموم لينقادوا إلى أوامرهم التي يتفقون عليها في مخافهم السرية وكأن الدستور آلة في أيديهم . وأشار السيد رشيد رضا إلى هذا المعنى حين قال عن زعماء الاتحاد والترقي : إن هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون في نشرها وجعل رجال الحكومة من أعضائها كما ينشرونها في ضباط الجيش ، وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين ونجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية . وإن من لوازم تشيعهم الماسونية قوة نفوذ اليهود منهم وفي الدولة وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استثمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد . ومن أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوسل بقوة الدولة إلى اضعاف اللغة العربية وإماتها في المملكة وتترك العرب مع بقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذنبذبة اللسان ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم وجعلها لغة علمية ، وهذا من المقاصد السرية التي لا يعترفون بها على استعجالهم بتنفيذها بالعمل وبكتابة جريدة وطن .

وأشار إلى المعارضة التي قامت في وجه حزب الاتحاد والترقي ، من صادق بك وجماعته في مقاومة مقاصد الجمعيات المؤسسة في السر وكان لهذا للطلب ( إغنى مقاومة الجمعيات للماسونية ) وقع كبير في النفوس ، وانكشف الحجاب عن أهين كثيرين عن فساد للماسونية . وأشار المشرق نقلاً عن مجلة الصباح التي تطبع في طنجة إلى صورة ( اليمين ) أي القسم الذي يتحتم على كل من يدخل جمعية الاتحاد والترقي أن يقسمه ليتأتى له الاطلاع على أسرار الجمعية فإذا هو شبيه بيمين الماسون في بعض أمورها فن جملة ما يقسم عليه الداخل قوله : ( أقسم بدينى وشرفى بأن لا أبوح بسر من أسرارها وأحلف بأن أتمم بالتدقيق جميع الواجبات التي تفرض على وأطيع طاعة عياد الأوامر التي تنفذ بى إليها الجمعية وبأنى لا أخون مصالحها ولا أحنث بيمينى وبأنى مستعد بأن أفك بالخلوة حالا عندما تبلغنى الأوامر وبأنى مستعد لتصحى حياتى وتسليم رولى ) . وعرض المشرق للماسونية اليهودية في البلاد العثمانية فقال : إن سالونيك بها من اليهود نيف وسبعون ألفاً فلما أنشئت جمعية الاتحاد والترقي تحت سيطرة الماسونية كانت للضباط وجندهم القوة العاملة ، أما التدبير لتنفيذ العمل وإخراجه إلى حيز الوجود فكان في أيدي الماسونيين الذين تعهدوا بدفع المبالغ المالية اللازمة لذلك المشروع ، ثم نفذ بالفعل فأسرع الماسون وتربعوا مع الضباط في دست الحكم وقاسمهم الغنائم الحميدية ، ثم تماطلت بيد ذلك حركة الماسون حتى استاء منها المحافظون وقاوموها بعزم أدى إلى سقوط جاويد بك وإلى وضع حد لعمل بى إسرائيل ونقل المشرق وما نشرته الأهرام عن ( جريدة الموزنيج بوست ) التي قالت

تخلقت جمعية الاتحاد والترقي بعد خلع عبد الحميد بأخلاق الماسونية واليهودية ولبست ثوبها ولما خمدت ثورة أبريل ١٩٠٩ نالت العناصر اليهودية أهمية أكبر ، فجاء يد بك وزير المالية وطلعت بك وزير الخارجية السابق ورئيس الجمعية وجاهد بك محرر طنين ومستشار جاويد بك المخصوصى وكلهم ماسون وأولهم من سلالة يهودية فاستاء ضباط الجيش والأتراك كثيراً لتفوق بعض الأفراد ، الذين ليسوا أتراكاً حقيقيين والذي تحسب علاقتهم مع يهود أوروبا سهلة للشرب الجامعة الصهيونية ويعتقد الأتراك أن الغرض من الجامعة الصهيونية هو تأليف مملكة في آسيا الصغرى ويتوجهون من المستعمرات اليهودية المنشأة في سوريا ويخافون بأن تكون مراكز لنفوذ الأجانب . وذلك أن الأتراك لاحظوا من أمد طويل أن اليهود ولا سيما الاشكناز منهم أى اليهود ( البولونيين ) والروسين والألمانيات إنما هم من محبي الدولة الألمانية . لذلك استيقظ حزب الاتحاد والترقي وتنبه لحرج الموقف ووجه صادق بك كل همته لمقاومة جاويد بك وزير المالية الذى ساءت الظنون لوفرة علاقته بالمضاربين ولإسباغة النعم على آله وصحبه وخبرهم من اليهود المسلمين . ويعتقدون أن سبب نهوض حركة تركيا الفتاة وعدم سقوطها عدم اعتدال لليهود الأتراك سواء كانوا مسلمين أو يهوداً أحـراراً فهم يحاولون أن يحصلوا على نفوذ كبير من غير أن يفتكروا بأن سمعهم بشير خيرة الأتراك وحسدهم ، وأعظم غلطه ارتكبوها أنهم رضوا بأن ( كاسو أفندى ) الماسونى اليهودى يكون من الوفد الذى حمل الفتوى إلى عبد الحميد بخلعه وقد ارتكبوا بعدها عدة أهلاط والآن صارت الأهلاط تبدو وتظهر . ومرض الأب لويس شيخو إلى المدافعين عن الماسونية في الدولة العثمانية فذكر فيليكس فارس وأمين الريحانى وسليمان مندر وأديب مظهر وأبى حلقه كما ذكر يوسف الحاج وأشار إلى شعارها الذى وضعه أكبر زعمائها « فولتير » : أ كذبوا أ كذبوا فلا بد أن يملق فى العقول شيء من كذبكم وقال أن الماسونية في هيئتها الحاكمة قد انشئت في انكلترا لتأييد البروتستانتية ومناهضة الكمئلكة ويقول : أن الماسون ويطلق عليهم اسم ( الفرسمون ) ينقسمون في أمور كثيرة إلا فى أمر واحد وهو مقاومة الكنيسة الكاثوليكية وأربابها .

وقال : أن هدفها التحرر من ربة الشرائع وقبود الآداب ونوابس الدين وأنهم يعملون على نقض أركان الهيئة الاحتمائية وخراب صرح المدينة والعمران . وقد صدق جواد رفعت حين قال : إن فرقة الاتحاد والترقي قد ولدت فعلا في المحفل الماسونى ( ماكدونيا ) المؤسس من قبل ( قازه صو ) اليهودى السلانيكى . وبعد فهذه هى المقدمات الحقيقية لتمزيق وحدة العرب والمسلمين والفصل بين العرب والإسلام ومحاولة تحطيم تلك الرابطة التى كانت على ضعفها في الفترة الأخيرة مصدر قوة ،



والتي أخذت تنمو من جديد حين حمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة للتجمع باسم الخلافة الإسلامية غير أن القوى الاستعمارية واليهودية العالمية كانت حريصة على أن تحطم هذا المصرح الضخم ، تحطيمها سياسياً يمزق الدولة العثمانية ذاتها واجتماعياً يمزق الفكر الإسلامى نفسه. ولذلك فقد ارتبطت الحملة على الجامعة الإسلامية بالدعوة إلى القوميات وإعلاء شأن الأقليات ونعرة الجنس والدم والعصبية العنصرية فأخذت تغذى دهوات متعددة في وقت واحد في مختلف أجزاء الدولة العثمانية والبلاد العربية وأهم هذه الدعوات : الجامعة الطورانية في تركيا والحركة الفيليقية في لبنان والمصرية للفرهونية في مصر وبذلك بدأ ذلك الانقسام الفكرى والصراع القومى ، يزعزع مقومات الرابطة العربية الإسلامية ويهرزها من الأعماق .

وقد حدث هذا في نفس الوقت الذى بدأت فيه اليهودية العالمية تبرز دهواتها الخطيرة القومية الصهيونية وتحاول أن تركز نفوذها في فلسطين بعد إسقاط السلطان عبد الحميد توطئة لما نفذ. بعد الحرب العالمية الأولى من مخططات انتهت بعزل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإقامة تركيا الحديثة بدلاً منها وإصدار وعد بلفور لإقامة وطن قومى لليهود في فلسطين .

(١٣)

## رجال الاتحاد والترقى

إن أدنى مراعاة لشخصيات رجال تركيا الفتاة والاتحاد والترقى تكشف بوضوح عن حقيقة هذه الحركة وأهدافها . ولعل من أبرز شخصيات هذه الحركة : أحمد رضا الذى قاد الحركة سرّاً في أوروبا ورأس بعد الانقلاب مجلس النواب وهو من أبرز الماسون في سالونيك وأوروبا وقد وصفه أرنست راضور مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ بأنه أبرز رجال الحركة فقال أن أمه متساوية أما أبوه فكان يعرف باسم ( انكليزى على بك ) نظراً لميوله للإنجليز وحبهم ، أما من حيث المظهر فكان أبعد ما يكون عن تصور الأوروبيين للأتراك ، وكان من الذين وقعوا تحت سطوة فلسفة أوجست كنت فأصبح من أتباع الفلسفة الوضعية في باريس ، وكان له عليه سلطان بعيد الأثر في حياته وتصرفاته جميعاً ، وقال أرنست في هذا : أن أحمد رضا باعتباره مؤيداً طليعاً للفلسفة الوضعية لم يكن مسلماً صالحاً لأن أوجست كومت لم يكتف فقط بإعادة تنظيم العالم لأتباعه ، بل وضع لهم أيضاً تعاليم خاصة بالدين : لقد كان دين الإنسانية الذى نادى به كومت في هذه الفترة له عدد من الأتباع في

فرانسا يفودم ( بيير لافيت ) إلى أن مات سنة ١٩٠٥ وفي إنجلترا كانوا بقيادة ( فريديريك هاريسون ) .

وكانوا يقيمون شعائر دينية منظمة ، وقد استطاع أحمد رضا أن يقنع نفسه بأن الإسلام يشبه فلسفة كومت أكثر من أي دين آخر ، وأعلن أن الإسلام لهذا السبب مستمد أكثر من أي دين آخر لتسكييف نفسه لفكرة كومت القائلة بالدين العالمي الذي مركزه باريس شأن مبتدعات كومت الأخرى . لقد كان للنيل الأعلى له : مزج كافة أجناس الأبراطورية للمسلمين واليهود في أمة واحدة لها حكومة مركزية على الطراز الفرنسي . ويقول : « لقد أطلق أحمد رضا على الأشهر والأشياء أسماء رجال اعتبرهم كومت أهم من في تاريخ العالم فأخذ أم ثلاثة عشر منهم وأطلق أسماءهم على الأشهر وقد استخدم رضا التقويم الغريغوري أيضاً ولكنه تجاهل التقويم الهجري الآسيوي » . هذا النموذج على النحو الذي صور له المؤلف الأوروبي يكشف بوضوح عن الاتجاه التفريبي للسرف في الانتماء إلى أوروبا وإلى الفكر الغربي » بحيث ينجل أولئك الذين يدعون أن هؤلاء الحلائع إنما كانوا يريدون تحرير الدولة العثمانية من التأخر بينما كانوا يريدون أن يجعلوها أشد غربية من أوروبا نفسها . ويكشف خطاب أحمد رضا على قبر ( بطرس لافيت ) في باريس عام ١٩٠٦ إلى أي حد بلغ اندفاع زعماء الانحداد والترقى إلى التفريب ومحاولتهم الانفصال عن الشرق والإسلام والفكر الإسلامي . يقول :  
بني ديني الأهزاء :

إن العرب من أبناء الجيل الثاني في الإسلام كانوا يعتقدون أن السفر إلى أقاصي الأصقاع لزيارة مكة والإصغاء إلى ما يلقى عليه الخطبة من كلمات محمد التي انطفا نورها قبل مدة واجب مقدس وكانوا يمدون أيضاً هذا الواجب لسعادتهم . وكأنما كان لي من هذه السادة نصيب حتى لمت شرف رؤية خليفة دين آخر في باريس والاستماع له لأنني بواسطة ( بطرس لافيت ) كنت مظهر سعادة التعرف بأغست كونت وإدراك درجته وقدره . كانت آرائي في دين ( البوزينفيرم ) هند وصولي إلى باريس مضطربة وناقصة وأن كتاب الدكتور روبينه — اللهم الذي كان مبدأ معارفي — لم يكن بعد قد زلزل ما في نفسي من عبادة المادة بالمادة بدرجة كافية ، ذلك لأنني وإن كنت قد تخلصت من عقائدي الدينية الماضية ولم أكن قد تهيأت حقيقة لقبول دين جديد ، ومن أجل ذلك تأثر اثنان أرثوذكسيان تطعبي التي ألقيتها على قبر أوغست كونت عام ١٨٩١ وقد صرح لي هذان الرجلان بأنها لم يجدا في نفسي أنراً كافياً للدين في أني لم يكن لديني بدرجة غير كافية فقط بل إنني لم أكن متدينا قط وبعبارة أصبح لم يكن شعوري الديني قد توازن في نفسي .

فن الواجب علينا احترام هذا المجتمع الفيلوري (يعني بطرس لافايت) لأنه وفق إلى نشر ديننا  
المتين، والتبشير بكل ما تقتضيه عظمته. وتسكنى هذه النصوص لتصوير حقيقة ما ذهب إليه  
الاتحاديون، فهم لم يكونوا كما حاولت بعض المصادر أن تدافع عنهم يريدون أن يحرروا أو طائهم  
أو يحرروا فكرهم وإنما كانوا قد انغمسوا في ولاء خطير لفكر غريب يخرجهم إخراجاً كاملاً من  
أمتهم وفكرهم وقد علق على هذه الخطبة مترجماً السيد محب الدين الخطيب فقال: «لم يكن أنصار  
الإسلام يقدررون عام ١٩٠٦ ما سيكون لإلحاده وإلحاد أمثاله من نتائج في تركيا، بل كانوا حتى عام  
١٩٠٨ يظنون أن الدولة التي هؤلاء بعض رؤسائها هي عصمة الإسلام ومناط عزه، وبما لا شك فيه  
أن البندور التي بذرها هؤلاء هي التي أنشأت فيها بعد كل الأحداث التي تمت في عهد السكاليين، ومنشأ  
ذلك كله أن النمليم كان يخرج متعلمين يجولون الإسلام ولا يشعرون بالوفاء لرجاله.

وتمطى شخصية أحمد جمال [الذي أطلق عليه من بعد اسم السفاح] وجهاً آخر لزعماء  
الاتحاديين، فقد كان من المشيعين بالترزة الطورانية، وقد عين قائداً عاماً في جبهة القتال مع  
سلطات فوق المادة لحكم سوريا بأجمعها وقد خدع العرب حتى اقتنص زعمائهم فتفى الصغير وشنق  
الكبير، وكان قد بدا حكمه في دمشق على نحو أشد ما يكون مكرراً فتعجب إلى العرب وأثار حماسهم  
القومي حتى إذا وضع يده على زعمائهم ساقهم إلى ديوان المجلس العربي العسكري. وكان قد دبر  
المنذبة الأولى في أدنة إذ كان والياً عليها بعد الدستور وهو الذي قتل الجيم الفخير من كبار الأستانة  
المخالفين للاتحاديين، وقد اختاره الاتحاديون لتنفيذ ما توعدت به سوريا جريدتها طنين من قبل.

( ١٤ )

## تمزيق العالم الإسلامي

( ١ )

### الإرساليات التبشيرية

كانت خطة تمزيق « الدولة العثمانية » هي الحلقة الأولى في الغزوة الاستعمارية التي بدأتها أوروبا منذ القرن الخامس عشر بعد سيطرة محمد الفاتح على القسطنطينية ، غير أن الأمر لم يكن من السهولة والبسر إزاء قوة هذه الدولة الإسلامية الكبرى وسيطرتها ومن هنا فقد أجهت الغزوة الاستعمارية إلى تنفيذ المشروع الذي أطلق عليه : « تطويق العالم الإسلامي » . ويرى إلى الوصول إلى القدس من طريق الهند ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت سيطرة كاملة على شرق البحر المتوسط ومن هنا فقد كانت السيطرة عليها هي آخر للراحل في هذه المعركة المبررة التي امتدت نيفا وأربعة قرون . ومن ثم أصبحت الدولة العثمانية هي الهدف الأخير . وكان تمزيق الدولة العثمانية هو الهدف المشترك بين الاستعمار الغربي واليهودية العالمية الجارية في ركابه والتي يهدفها هدف واضح هو : الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين بعد أن تقوم قوات الاستعمار بتخليصه لها من أيدي المسلمين والعرب . وقد كشف ذلك تصريح اللورد القنبي في القدس عام ١٩١٧ عندما أعلن أن الحارب الصليبية قد انتهت ، ثم جاءت الكاتبة اليهودية ( برباره توخمان ) لتقول : إن دخول الجنرال القنبي إلى القدس حيث نجح فيما أخفق فيه ( ريكاردوس قلب الأسد ) قد جعل ( إسرائيل ) الآن قد أصبحت حقيقة واقعة ، وقالت « وكذلك لم يكن بإمكان القنبي أن ينجح لولا محاولة رينشارد ، أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت في أصل الأساس الذي يحمل النصراري على التعلق بالأرض المقدسة ، وإن من غريب التهمك أن يكون اليهود قد استعادوا موطنهم وإلى حد ما بفعل الدين أعطوه للأميين » . لقد بدأ الاستعمار خطته في سبيل السيطرة على العالم الإسلامي بتعطيل الدولة العثمانية واقطاعها جزء بعد جزء ، بادئاً بالجزائر لفرنسا ومصر لبريطانيا . غير أنه فيما بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٨٢ اقتطع جزءاً آخر له أهميته الكبرى وهزل من الدولة العثمانية وأقام عليه مركز خطير لتنفيذ المخطط الاستعماري اليهودي كاملاً ، ذلك الجزء هو ( لبنان ) . فقد عمد النفوذ الاستعماري فيما

قبل عام ١٨٦٠ إلى عزل هذا الجزء من العالم الإسلامي ليكون نواة حركة الفزو العسكرية والشماني في الأرض العربية . فقد أثار الصراع بين ساكنيه الدروز والمارون ( أو بين المسلمين والمسيحيين ) إلى الحد الذي حقق للدول الأوروبية التدخل باسم حماية العناصر . ومن ثم أمكن فرض نظام جديد يجعل من لبنان « كياناً خاصاً منفصلاً عن الدولة العثمانية » . أما الأحداث فقد كانت مفتعلة بشهادة كل المؤرخين المنصفين من خلال النصوص الموثوق بها وفي مقدمتها تقرير سير ريتشارد وود ينكشف الهدف الحقيقي لهذا الصراع الذي غذاه الإنجليز مع الدروز وغداه الفرنسيون مع المارون حتى اقتتلا وهنا لتحقيق الهدف وهو تدخل الدول وعزل لبنان عن الدولة العثمانية وتخريبها تماماً من نفوذها وفتحها على مصراعيها على الغرب حيث أخذت تؤدي دوراً تاريخياً بعيد الأثر في مزيق العالم الإسلامي والدولة العثمانية من طريق التبشير والإرساليات الأجنبية والمنظمات الفرنسية والأمريكية والحافل الماسونية . وكتب السيد ريتشارد وود الذي كان قنصلاً للدولة البريطانية في دمشق عام ١٨٦٠ هذا في تقريره الذي رفعه إلى دولته ونشر عام ١٨٧٨ قال : « إن الذي يبحث دقيقاً عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في الشرق يعلم أن الباءت الوحيد على حدوثها هو أصبح السياسة الأجنبية التي تنهز الفرص لإيقاد ناذ الفتن بين ذوي الأحقاد ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة ، وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين أن الاهتداء إنما يبتدىء من جانب النصاري » . وقد تعرض الكثيرون لهذه الأحداث وكشفوا افتعالها أساساً وأبانوا عن مصادرها الخارجية وقد أشار ( زين الدين نور الدين ) في كتابه ( نشوء القومية العربية ) إلى أحداث سنة ١٨٦٠ فقال إن الحوادث كانت مفتعلة ، وأنها كانت مقدمة لفصل لبنان عن العالم الإسلامي ، فقد « طالب الموارنة بالانفصال التام عن الامبراطورية العثمانية » .

وعارض الكاتب ما قاله ( جان ريمون قنصل فرنسا في بغداد ) حين ادعى أنها حركة قومية ولم تكن حرباً طائفية . وقال إن هذه الأقوال الجارفة خاطئة ولا مبرر لها ، لأن الحركة المناوئة للأتراك في لبنان في القرن ١٩ كانت بوجه الإجمال مارونية لبنانية ولا يمكن اعتبارها ثورة عربية وطنية في الشرق العربي ضد الحكم التركي فلم تكن غالبية المسلمين الساحقة في الولايات التي يحكمها السلطان ترهب إذ ذاك في الخروج على الحكومة الإسلامية والقاء عليها ، وأشار إلى هدف الغرب من هذه الحركة وهو جعل لبنان « ممراً رئيسياً يعبره الفكر الغربي والحضارة الغربية إلى البلدان العربية في الشرق الأدنى » . ذلك أن لبنان كانت « أشبه بمر تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الإسلامية في الامبراطورية العثمانية » وقد كان معظم المسيحيين يتجهون بأبصارهم نحو

الغرب المسيحي ولا سيما فرنسا على أنها منارة من منائر الحضارة الغربية . ومن هنا فقد ركز الغرب على لبنان في إقامة الإرساليات وللعهاد التبشيرية التي « حملت لواء ربط اليةظة العربية بالغرب وبالقومية الإقليمية . » وكان المهدف الغربي واضحاً من رواء ذلك هو كما نلخصه ( زين الدين نور الدين ) :  
 أولاً — « أهمية الغربية الغربية في إيقاظ العرب السيامي ، ونشر الأفكار الديمقراطية الغربية هن طريق للعهاد التبشيرية والبعثات التبشيرية من فرنسية وأمريكية وروسية . » ثانياً — العمل على تنشئة جيل جديد على أسس غربية في الشرق الأدنى ومن هنا قد بدأ اليسوعيون عام ١٨٣١ في سوريا ولبنان معاً وكان الأمريكيون قد سبقوهم عام ١٨٢٠ . وأمر العمل الواسع : الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية) ١٨٦٦ وجامعة القديس يوسف البسوعية ١٨٧٥ . ولم يقتصر عمل هذه الإرساليات على النشاط الهدي وحده وإنما أدى إلى :

أولاً — إثارة الشك والريبة في نفوس غالبية السكان من المسلمين في هذه الديار . ثانياً — كان سبباً في إثارة النزاع الطائفي بل إذكاء نار العداوة والبغضاء بينهم . ومن للقرر أن بعض الإرساليات « كان لها مصالح في الشرق الأدنى » ، وكانت ترى أن من واجبها تقرير النفوذ السيامي لدولها في المنطقة ورعاية مصالحها فيها ، مما جعل أفرادها يحاولون بنشاط وهمة غرس محبة أوطانهم في قلوب تلاميذهم الذين يؤمنون مدارسهم . بل أن مناهج الدراسة في هذه الإرساليات كانت تشمل بشكل واضح وشامل : تاريخ الديانات والتوراة ، ودراسة الكتاب المقدس دراسة أساسية . وقد كانت هذه للؤسسات تتنافس فيما بينها على اجتذاب أكبر عدد من الطلاب نحو غاياتها وأهدافها القومية الأجنبية بالطبع . وقد نوه كثير من الكتاب بجهود الإرساليات ودورها الهام الخطير وأشار إليها فليب حقي في كتابه لبنان في التاريخ وقال إنها كانت الحافز الأول في إيقاظ الحياة الفكرية وأنه بواسطتها ( كان النصارى من سكان البلاد أول من نال قسطاً من الثقافة الغربية ) وأبدى العجب من أن العون للمالى كان يرد لليسوعيين من وزارة للعارف الفرنسية بينما اليسوعيون مطرودون من بلادهم وذلك في عام ( ١٨٨٢ تقريباً ) . وأشار هنرى لافتليه في كتابه تاريخ تركيا إلى أهمية هذا العمل فقال : إن إرساليات التبشير التي ارتادت الشرق الأدنى تألفت بابتظام من قبل هنرى الثالث وترعرعت ونمت في عهد هنرى الرابع ولويس الثالث عشر وبلغت ذروة الانتشار في حكم لويس الرابع عشر ( ١٦٦٠ — ١٧١٥ ) الذى ألقى على عائق الحزويت هذه للمهمة . فالقى على هائقم مهمة سياسية خطيرة ذلك أنه كان عليهم لقاء إدراك الخطوة ألا يقتصروا على التبشير فحسب ، بل كان عليهم أن ينتقلوا إليه المعلومات عن عادات البلاد ولغاتها ومحاصيلها وتجارها وتاريخها ، كما أنهم كانوا يتلقون منه

الأوامر والتوجيهات ولا تبتا من وزارة الخارجية التي كانوا يواصلونها بالتقارير والمخططات . وهذا النص وحده كاف في الكشف عن خطورة المخطط وهدفه ودقته في تمزيق العالم الإسلامي والسيطرة عليه فكرياً وسياسياً عن طريق مؤسسات ثابتة في أرضه تجمد حماية ضخمة ورعاية مادية كبرى . كما أشار كمال الصليبي إلى « الدور المهم الذي لعبته البعثات التبشيرية الأوروبية في البلاد » في كتابه : تاريخ لبنان الحديث . هذا العمل الذي بدأ عام ١٨٢٠ تقريباً فما كاد ينتهي القرن ١٩٠٠ حتى أصبح لبنان « بلا منازع أكثر أجزاء السلطنة العثمانية تقدماً في مجال التربية العامة » على حد تعبيره . حيث أصبح به ١٣ مطبعة في بيروت وجبيل لبنان يتدفق منها سيل من الكتب العربية في مختلف الموضوعات فضلاً عن ٤٠ نشرة دورية وخمسة عشر جريدة صدرت بين ١٨٧٠ إلى ١٩٠٠ . ويتساءل ( هنري بجنر ) في كتابه سوريا ولبنان منذ نصف قرن : لماذا اختيرت بيروت وليست دمشق مركزاً للمؤسسات الأوروبية ويورد الحجج التي ترجح كفة بيروت . أما عبد العزيز محمد هوض في كتابه ( الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ) فيشير إلى أن « النشاط التبشيري قد تركز في ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان ، وقد بلغ مجموع المؤسسات التبشيرية في بلاد الشام عام ١٩١٢ ( ٣٨ مؤسسة ) من دول أوروبية متعددة . كما استطاع الفرنسيون أن يؤسسوا اثني عشر إرسالية في شمال ووسط سورية مستخدمين فيها رهباناً معظمهم من الفرنسيين ، كما انتشرت كذلك الإرساليات الأمريكية وبدأت تمارس نشاطها منذ بداية القرن ١٩ في جميع أنحاء بلاد الشام من الشاطئ السوري حتى بداية الشام ومن القدس جنوباً حتى حلب شمالاً أكثرها في مدن القدس وبيت لحم » .

وقد وجدت الإرساليات التبشيرية في البلاد العثمانية حرية كاملة للعمل نتيجة للحقوق التي حصلت عليها من الدول الأجنبية عن طريق « الامتيازات الأجنبية الممنوحة لها ضمن الرعايا الأمريكية أو الفرنسية » ومن خلال هذه الامتيازات استطاعت أن تمارس نشاطاً تبشيراً واسعاً ، ولم تتوقف هذه الامتيازات إلا عام ١٩١٤ حينما ألغتها تركيا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى . غير أن الدولة العثمانية واجهت هذا الخطر ، خاصة خطر استئصال نجاح المعلمين الأجانب في كسب الناشئة لتكوين ولاء بينهم وبين البلاد صاحبة الإرساليات . وقد سارعت الدولة العثمانية إلى فتح مدارس كثيرة في المناطق التي انتشرت فيها مدارس التبشير ، واستخدمت عدداً من الموهبات لتلقين هشائر البدو مبادئ الإسلام والرد على افتراءات المستشرقين ، كما أقامت العراقل أمام للبشرين وفرضت عليهم رقابة شديدة . ولكن الأمر كان في ( متصرفية لبنان ) غير ذلك تماماً فقد كان النظام الذي فرضته الدول عام ١٨٦٠ وبعد عام ١٨٦١ قد كفل الإرساليات في بيروت وما حولها حرية العمل ، واستطاعت أن تفرى كثيرين من شباب المناطق المختلفة في سوريا وفلسطين وغيرها من المسلمين .

(١٥)

## لبنان مركز التجمع

لماذا أختيرت لبنان لتسكون مركزاً لأخطر تجربة في خطة تمزيق العالم الإسلامي : لقد كانت لبنان بتركيبها الطائفي وصلاتها مع أوروبا قاعدة خطيرة لهذه الحركة التي كانت بعيدة المدى في تحطيم الرابطة الجندرية بين العروبة والإسلام ولها أبعد الأثر في تمزيق الوحدة العربية التركية وإسقاط السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية حتى ليكن أن يقال أن هذا العمل الذي احتضنته لبنان وهو « فتح العالم الإسلامي سلمياً » هو الشق الثاني لمخططات الماسونية وهو المكمل لها . لقد وصفت حركة التبشير من قبل القاعين بها بأنها إجراء تؤدي إلى فتح العالم الإسلامي وهي ترجمة حرفية للكتاب الذي ألفه ا . ل شامليه من مخططات التبشير تحت عنوان :

( La Conquête Monde Musulman )

ويرد الباحثون علاقات فرنسا بالموارنة في لبنان إلى أقدم من القرن السابع عشر ، يردونها إلى عام ١٢٥٠ م . ويسجل ذلك كتاب من لويس التاسع ملك فرنسا أرسله من عكا إبان الحروب الصليبية إلى أمير موارنة لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة : هذا نصه : « إن قلبنا امتلأ فرحاً حينما أقبل علينا ولدكم سمعان على رأس خمسة وعشرين ألف مقاتل يحمل إلينا الشهادة الحسنة على مواطنكم الطيبة . نحن موقنون أن هذه الملة التي تنسب إلى القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية » . وقد أشار بطرس حبيقة في كتابه ( الأحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية ) إلى الصلة بين لبنان وفرنسا إبان الحروب الصليبية وقال « وكان لهم منها الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التي كانوا ينتقلون لفتحها من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم » . والمعروف أن ( الموارنة ) جماعة من السريان السوريين ينتسبون إلى الراهب ( مارمارون ) كانوا يقبعون الكنيسة الشرقية ثم اتبعوا الكنيسة الغربية ، وقد أخذت الجمعيات الكاثوليكية الغربية وفي مقدمتها جماعة الجزويت تحتضنهم وتتولى تعليمهم اللغة الفرنسية عن طريق ثبات المدارس التي قامت بإنشائها فازدادوا بذلك ميلاً نحو فرنسا وأصبحوا أداة طيعة في يدها وكان لذلك أثر كبير في حوادث ١٨٦٠ . والمعروف أنه لما انتهت الحروب الصليبية بالسيحاب الصليبيين من سوريا كتب اسكندر الرابع رسالة إلى البطريرك سمعان ( أو شمعون ) ١٢٤٥ م يوصيه فيه خيراً ، بالافرنج المزمومين في انطاكية الذين فروا إلى لبنان وأن يرغام ويحميم .



وهكذا ظلت العلاقات قائمة وسارية طوال هذه الفترة ، وكانت الدول الأوروبية واليهود يعملون على إضعاف الدولة العثمانية من أجل العودة إلى بيت المقدس ، ثم انتمشت فكرة استرداد بيت المقدس منذ القرن ١٧ . وأخذت فرنسا تنجبه إلى تركيز بعثاتها التبشيرية في لبنان ، ريقرر محمد جميل يهيم أن فرنسا والموارنة كانا يهدفان إلى تنصير الدروز حتى لا تبقى في لبنان قوة معارضة إذا منحت الفرصة للاحتلال ، والمعروف أن فرنسا كانت قد أعلنت أنها حامية الطوائف الكاثوليكية في الشرق ، وقد شغفت هذه الحماية بإرسال البعثات التبشيرية . وقد أشار فيليب حتى إلى أهمية لبنان في مجال الغزو للعالم الإسلامي والبلاد العربية بالذات حين قال : إن لبنان أول بلد حر نفسه من يوثقه القديم فإنه أصبح مركز إشعاع فكري ، يشع منه نور الفكر والتحرر إلى البلدان العربية ومع نجاحه مع الحضارة الأوروبية يختلف لبنان عن تركيا في أن تركيا فرضت الحضارة الغربية على أبنائها بقانون كانت تعاقب بموجبه من لا يتقبل الحضارة الغربية . ثم أكد هذا الهدف مرة أخرى حين قال : إن جميع الأحداث والتغيرات التي طرأت عليها ( البلاد العربية ) من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية وهقلية يمكن ردها مباشرة أو بالواسطة إلى هذا العامل .

والواضح أن عمل الإرساليات التبشيرية قد تركز في المدرسة والجامعة وفي المطبعة والصحافة وإنه عمل معه لواء فكرة جديدة حاول بثها والدعوة إليها بشق الوسائل وليست هذه الفكرة في حاجة إلى إيضاح طويل إذا كان قد تقرر أن هذه الإرساليات التي أوفدتها فرنسا وأمريكا كانت تهدف إلى إهداد أرضية فكرية وخلق جيل جديد يجعل الأمور سهلة من أجل تمزيق الدول العثمانية وإحلال فلسفة جديدة بدلا من الجامعة الإسلامية على أن تكون هذه الفلسفة عاملا هاما في تمزيق الرابطة الجنزية بين العرب والإسلام وخلق دموع إقليمية أو علمانية عربية ، يكون التركيب فيها على الفصل بين العرب والترك من ناحية ثم بين العرب أنفسهم ، وذلك عن طريق طرح مناهج جديدة عن القومية السورية والسكان اللبناني والدعوة الطورانية والدعوة الفرعونية والدعوة الفيليقية وهكذا من ناحية أخرى . ١ — أما المدرسة فقد حملت من خلال مخطط دقيق قوامه : (١) إعلاء شأن التوراة والصلاة المسيحية التي تفتتح بها الدروس وتختتم .

(٢) دراسة الأديان دراسة مقارنة من وجه نظر الفكر الغربي . (٣) التنسك والتسخرية والتحقيق للتاريخ العربي والإسلامي . (٤) رفض القول بأن هناك فلسفة عربية أو فكر عربي إسلامي أساساً . (٥) امتنان القيم الأساسية للإسلام والتاريخ واللغة العربية . (٦) إعلاء

شأن البطولات الغربية والمسيحية . (٧) الفصل بين العروبة والإسلام ، وبين العرب والترك .  
 (٨) إذاعة مفهوم قومي علماني للعروبة وإعلان شأن الإقليمية السورية . وأمامنا نص خطاب دابال  
 بلس مؤسس الكلية السورية في بيروت عندما فتحت أبوابها ١٨٧١ وهو قاطع في تهديد هذه  
 السياسة ، قال : إن هذه الكلية هي لكل الأحوال ولكل أنواع البشر دون أى اعتبار للون أو  
 القومية أو الجنس أو الدين ، فيمكن لأى رجل أبيض كان أو أسود أو أصفر ، مسيحياً كان أو يهودياً  
 أو مسلماً أو وثناً أن يدخل الكلية ، ثم يخرج منها مؤمناً بآله واحد أو بآلهة كثيرة أو غير مؤمن  
 بأى إله ، غير أنه يستحيل على أحد من الناس أن يبقى عندنا طويلاً دون أن يعلم ما يؤمن أنه حق  
 والأسباب التى تدعونا إلى هذا الإيمان . إن نظام ١٨٦٩ هو الذى أعطى الدول الأوروبية حق  
 الإشراف والنحكم والسيطرة داخل لبنان ، الذى يحكمه منصرف مسيحي من غير أهله يعاونه مجلس  
 مؤلف من طوائفه على أساس للمساواة .

ولا شك أنه كان ولاء المارونيين والطوائف غير المسلمين لفرنسا عاملاً هاماً فى مقاومة حكم  
 الدولة العثمانية وخاصة بعد أن أعلنت خطة الجامعة الإسلامية ، فكان هدف الإرساليات أن تكون —  
 وقد استطاعت أن تكون فعلاً — جيلاً لبنانياً يحمل الحقد والكراهية للعروبة والإسلام والدولة  
 العثمانية واستطاعت أن تقيم هذه الكراهية على أساس فلسفة علمية قوامها استقلال الشام أو سوريا  
 العربية منفصلة عن الدولة العثمانية وعن مصر وعن الجزيرة العربية كما صور هذه الدولة المرتجاة ،  
 نجيب طازورى فى كتابه ، كان المهم فى نظرم هو إسقاط عبد الحميد وتمزيق الدولة العثمانية وفتح  
 الطريق لليهودية العالمية إلى القدس : ولقد استطاع الاستعمار الغربى من طريق هذا المركز القوى  
 هدم الرابطة الجندرية بين الإسلام والعروبة ، ومواجهة الوحدة الإسلامية بفكرة العروبة المحدودة ،  
 أو للعروبة السورية وكانت مدارس الإرساليات فى مناهجها تقدم هذه الدهوى كما حملتها حركتنا  
 التبشيرية والماسونية . وكانت هذه الخطة هى نقطة البدء ، فى الفصل بين العروبة والإسلام وبين العرب  
 والترك وبين لبنان والأمة العربية وإعلاء نزعة الأجناس والعروق والدماء على رابطة الفكر  
 الجامع للعرب والترك باسم الإسلام وحضارته .

٢ — ولقد بدأت هذه الإرساليات خطتها على نحو معين ثم لم تلبث أن غيرته ، بدأت دراستها  
 باللغة العربية ثم لم تلبث بعد سقوط السلطان عبد الحميد أن تحولت عنه فقد كان ذلك وسيلة مرحلية  
 من وسائل الفصل بين العرب والترك . أما التحول الآخر فهو اقتناع العاملين فى الإرساليات « إن

التبشير الديني الذي تميزت به جهود المسلمين في بادئ الأمر أخفق لأن هذه الرسالة الدينية لم يكن لها في نفوس الناس الأثر أو الصدى الذي يترقبه المرسلون ، فبدأ التبشير الديني يحتل مرتبة أدنى أخذ المرسلون يدركون أهمية السيطرة على مناهج التربية والتعليم . ومعنى هذا : أنه لكي تستطيع هذه المعاهد والجامعات أن تستوعب المسلمين الذين رفضوا الاتصال بها وعارضوا مراراً في قراءة التوراة وإقامة الصلاة المسيحية كل صباح ، فقد هدلوا مناهجهم وركزوا على التربية والتعليم واتخذوا من الفلسفات المادية وغيرها وسيلة إلى هدم العقائد الإسلامية في نفوس الشباب دون أن يواجهوا بالتبشير صراحة . وقد هاجم رشيد رضا الأثر السوء الذي تركته هذه الإرساليات وقال إنها تهدف إلى تعليم صغار التلاميذ من العرب أن يحتقروا تاريخهم وأن يجدوا كل شيء غريب . وقال : إن المتخرجون من هذه المدارس يحرفون ثورة الأمة إلى جانبها ويقدمون بالفجور والنفوذ الأجنبي من كل جانب فينالون منها جميع المآرب يحقرون لها سلفها ويعظمون في نفسها كل ما هو أجنبي عنها وهم الآلات التي يستعين بها الأجانب على إدارة أمر البلاد لأنهم تربية مدارسهم أو الجيش السلي لشكنتهم لا يتم لهم ما يسمونه ( الفتح السلي ) بدونهم .

٣ — أما المطبعة فقد بدأت عملها بترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العامية . قام بالترجمة غالي سميت وكورنيوس فان ديك وهو أول عمل للإرساليات الأمريكية ١٨٣٤ وراجع الترجمة العربية ( البستاني — اليازجي — يوسف الأسير ) وهم نواة العمل التبشيري والدعوة إلى العربية الإقليمية في مواجهة الجامعة الإسلامية ومن بيروت . وقد حرص المترجمون أن تبقى الترجمة في إطار العامية لا تنعدها وكان أول كتاب أصدرته المطبعة الكاثوليكية هو ( سفر المزامير ) ١٧٥١ وقد أولت اهتمامها الفائق لطبع ألف ليلة وقصص عنتره والوزير سالم . ولا ريب أن ترجمة التوراة ونشرها على نطاق واسع بين قراء اللغة العربية له هدفه الواضح من مخطط التبشير فضلاً عن تدريسها دراسة واسعة مستفيضة للمسلمين في مدارس الإرساليات وإجراء دراسات التاريخ ومقارنات الأديان كلها حول نصوصها ومضامينها بحيث يفهم الطالب المسلم أنها هي المصدر الأساسي لكل قضايا الفكر والاجتماع . أما المؤلفات الأخرى التي هئيت بنشرها مطابع الإرساليات فقد استهدفت تدمير مقومات الفكر العربي الإسلامي أساساً وذلك بتوسيع نطاق المؤلفات التي يريد المستشرقون والمبشرون أن يجعلوها مصادر للدراسات الأدبية مثل الأغاني وألف ليلة وغيرها . وهذا أيضاً من الأعمال الهامة ضمن خطة التبشير والإرساليات .

٤ — أما الصحافة فقد برز جهد هذه الإرساليات في تخريج كبار الصحفيين الذين ظهروا في هذه الفترة وحلوا إرث الحركة السياسية في مختلف أجزاء العالم العربي وفي مصر بالذات التي جعلتها

حركة التبشير والغزو الثقافي منطلقاً لها فقد تحررت من نفوذ الدولة العثمانية منذ ١٨٨٢ وأصبحت تعمل في مجال خدمه أهداف الاستعمار البريطاني ومن ثم استغلت القاهرة لأكبر حركة لمواجهة تمزيق الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد ، والفصل بين العرب والترك والقضاء على وحدة العربيه والاسلام .

وبمراجعة أسماء الصحفيين الذين خرجتهم مدارس الإرساليات في بيروت نعرف حجم هذا الخطر ومدى أبعاد هذا الغزو الفكري السياسي لحساب الاستعمار البريطاني واليهودية العالمية ومن هؤلاء سليم نكلا ، بشارة نكلا ، سليم مركيس ، فرح أنطون ، حرجي زيدان ، قارس نمر ، يعقوب صروف ، شاهين مكاريوس ، مارون نقاش ، داود بركات ، أما المقطم فهو الجريدة اليومية الأولى التي حملت لواء الدفاع عن الاحتلال البريطاني وحملت في نفس الوقت حملات شعواء على الجامعة الإسلامية والسلطان عبد الحميد ورابطة العرب والترك وكانت أكبر خادم لحزب الاتحاد والترقي والماسونية اليهودية والإرساليات التبشيرية وهي القوى التي عملت على تمزيق العالم الإسلامي .

( ١٦ )

### الدور الذي قامت به الإرساليات

أشار كثير من دهاة الاستعمار الغربي إلى أهمية الدور الذي قامت به الإرساليات التبشيرية فقال ( غمينا ) في بحثه المطول عن التبشير وأثره في العالم الإسلامي : ( إن الكوردينال لافيغري والمرسلين التابعين له في سوريا قد أدوا لفرنسا خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديه ، نعم خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديه أو أسطول ، نحن نريد سوريا كلها من غزة إلى أدنه ومن لبنان إلى الموصل ) وعندما أرسل وزير خارجية فرنسا عام ١٨٨٧ ( ٨٢ منحة ) لتعليم اللبنانيين في فرنسا قال في خطابه إلى القنصل الفرنسي في بيروت ، د تقترح أن يكون هدفنا مزدوجاً ، أولاً أن يكون لنا أصدقاء وعلماء في العائلات التي فاز أبناؤها بهذه المنح ، وهدفنا الثاني تشويق روساء المعاهد والطلاب على الآفة الفرنسية .

نحن ينبغي أن نقيم علاقات طيبة مع العائلات ذات النفوذ والعائلات التي يتعلم أبناؤها في مدارسنا فإن لم ينشأوا على حب فرنسا فعلى الأقل يكونون من الذين لهم معرفة ببلدنا وتاريخنا . كما أشارت المصادر إلى تلك الرابطة القوية بين مصالح الامبراطورية البريطانية بمصالح جمعيات الكتاب المقدس

في سوريا . وقد كشف أحد الباحثين أهمية الدور الذي قامت به الإرساليات في البلاد العربية فيبلغ به ذلك إلى القول بأن هذه الإرساليات قد حققت ما عجزت عنه الحروب الصليبية . يقول : بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناء الامبراطورية كان أيضاً مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشده أن تنجز عن طريق ( الكلمة ) ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف وبعبارة أخرى تلشد احتلال مهد للمسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح ، إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن ١٨ والسنوات الأولى من القرن ١٩ ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرست نفسها لحل الإنجيل إلى جميع البشر ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات دولة الرجل المريض ، ومن المحتمل جداً أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختبار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري . « ولا بد أن يكون اختيار المبشرين لبيروت ناتجاً من موقعها على ساحل البحر إذا كانت آنذاك الميناء الصالح الوحيد على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ) ويحلونها من الملابس اللازمة لوجود الآماكن المقدسة التي تخضع للامتيازات وصالح دينية معينة برهنت فيها بعد على أنها ذات قيمة عظيمة وأهمية بالغة للأمريكيين .

كان في عزمهم إن يتمكنوا في كنائس الشرق الناهضة من كسب ( السكفار ) إلى دين المسيح غير أنهم سرعان ما وجدوا أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين وصمم المبشرون منذ البداية على استعمال ( الكلمة ) حيث فشل استعمال السيف وفي سبيل هذه الغاية أخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة وهكفوا على إنجاز هذه المهمة العظيمة وهاجت هذه الحنة بالظهور على العالم العربي كله وبدأت حركة أدبية جديدة كان لها آثار بعيدة المدى . « ثم وصف هذا العمل بأنه « الثورة الفكرية التي غرس بذورها البروتستانت الأمريكيون وحملوا شعلتها إلى آفاق العالم العربي » ثم إن أهم الخدمات : هي انطلاق لبنان في مجال العروبة وقيامه بالدور الرئيسي في رفع لواء اليقظة العربية الحديثة فذلك الدور الذي ما زال لبنان الحديث محافظاً عليه . « كما أشار إلى ما قامت به البعثات التبشيرية « التي عملت على ظهور لغة قوية دارجة موحدة هي وسط بين اللغة الفصحى واللغة العامية » . وقال : إن هذه المدارس كانت القوى التي استطاع الشباب العربي أن يرى من خلالها مظاهر الحضارة الغربية ويتصل بها . «

وأثار الباحث إلى الإرساليات خرجت منذ ١٨٧٠ إلى اليوم ٥٧٠٠ خريجاً من بينهم ١٤٠٠

طبيب ورؤساء وزارات وأساتذة وقضاة وأطباء وسياسيين وصحفيين في جميع أرجاء العالم العربي والأقطار المجاورة له . وأن طلاب الإرساليات ٣٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة وأكثر من أربعين طائفة دينية : « نبيه أمين فارس » . وهكذا تكشف الكتابات الأخيرة التي أطلعت نفسها من التحفظ القديم : الهدف الحقيقي للإرساليات التبشيرية ، هذا الهدف المشترك بين دعاة المسيحية ودعاة الاستعمار ودعاة اليهودية المالية في إخضاع المسلمين والعرب وتدمير مقومات فكرهم ، وإخضاعهم لهذا النفوذ كله مشتركاً . وأما مجموعته من آراء الاستعمار والتبشير أن تكشف أهمية الخططات التبشيرية جملة .

« إن هدف بعثات التبشير هو تثبيت الأفكار الأوروبية » . « إن الغرض من التبشير هو قتل الإسلام لاستبعاد المسلمين » . « إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات وعضدها في كثير من الأمور المهمة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيراً من العقبات » . « إن الكثيرين منا قد شبعوا على كراهية الإسلام وقد ارتضوا ذلك في لبنان أمهاتهم » . « إن فرنسا تعد العدة في سراكش لإشياء جيل جديد لا صلة له بالماضي ، هذا الجيل تصنعه وتنشئه على الإيمان بها فيفهمها ويقدرها وبذلك يتم لها عن طريقه وضع يدها على البلاد » . « إن هؤلاء الطلاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أهوانا في بلادنا » .

« إن المغرب يواجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بفرض إذلاله وتحتيره وإشعاره بالضآلة والخنوع » . « إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق دولي وأن ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات » . « إن الغاية التي نرمى إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً أي لا تكون له عقيدة يدين بها . « يجب أن يتم تبشير المسلمين بواسطة رسول من بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » . « إن تربية الرهبان لبنات المسلمين توجد للإسلام داخل حصنه المنيع حداوة لءاء لا يمكن للرجل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على أحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الإسلام وتربي أولاده على غير دين أبيهم » . « إذا اتحد المسلمون في امبراطورية هربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بدون قوة ولا تأثير » .

## (١٧)

### الترباط بين التبشير والماسونية

كان أكبر أهداف حركة الإرساليات التبشيرية في — لبنان بعد أن أصبح مستقلاً عن الدولة العثمانية ، وقائماً تحت إشراف الدول الكبرى — هو ضرب الدولة العثمانية ، من هذا الموقع الحصين المفتوح على الشام والعراق والجزيرة العربية وهي الأجزاء العربية التي لم يسيطر عليها الاستعمار الغربي بعد ولما كان الشام يضم سوريا ولبنان فهي أخطر هذه المناطق لأنها طريق بيت المقدس وما حوله . وقد كشفت كتابات الكشغرين عن خطة الاستعمار واليهودية العالمية في التركيز على لبنان بوصفها مركز الإشعاع الفكري كما وصفها ( فيليب حتى ) بحق ومضاهفة هذا التركيز بعد عام ١٨٦٠ الذي استغلت أحداثه وقتاً طويلاً لإعلان الحرب على الدولة العثمانية وتأريث العداء في نفوس أهله . يقول جورج أنطونيوس : انتشر التعليم الغربي في بلاد الشام في عهد عبد الحميد على نطاق أوسع جداً مما كان في العهود السابقة وأدى إلى قيام شبكة من المدارس والكتليات امتدت في أنحاء البلاد ، ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما تنشئه فرنسا وأمريكا وبريطانيا بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والإيطالية والألمانية ثم قال : أصبح هذا أداة من أدوات التغلغل السياسي بالإضافة إلى أنه وسيلة للثقافة وأسوأ من ذلك كله أنه يسهل السبل لرجال الدين المسيحي ليمتلكوا أسباب القوة السياسية بل كان أحياناً يدفعهم إلى ذلك عمداً ، ومعنى هذا أن مضاهفة الإرساليات بعد ولاية السلطان عبد الحميد وبعد إعلانه من دعوته إلى الوحدة الإسلامية كان عملاً منظماً يراد به تحقيق الغاية التي تحققت من بعد ، وهي إدخال فكرة جديدة كبديل للدعوة إلى الوحدة الإسلامية وتسريبها عن طريق التعليم الذي تركزت أوليته في بيروت مفتوحاً على أبوابه للمسلمين والنصارى واليهود والبيض والموود كما أعلن ذلك دانيال بلس في خطابه المشهور :

لقد ركزت الإرساليات على خربجها في صنع نواة الدعوة المضادة واستغلت في الصورة العامة ثلاثة من الدعاة هم : البستاني واليازجي والأسير : وكان الأول والثاني أبرز جهداً في مجال العمل الأدبي والصحفي الذي كان منطلق الدعوة الجديدة ، ثم تركز الاهتمام كله في محيط الكتليات عن طريق أساتذة ذوي إقتدار في هذا المجال ، ثم انبثق من هذا العمل كله جماعة سرية في بيروت .

أما الداهية الأكبر فقد كان (الياس جباليين) الذي كان يدرس للطلاب في الكلية الانجيلية السورية اللغة الفرنسية ، فكان يختصر الدرس سريعا ويتحدث في السياسية فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الظالمة وقد وصفه أبرز كتبه الجماعة السرية وأكثر الطلاب حماسا وهو الدكتور فارس نمر في مذكراته في كثير في المقتطف « بأنه كان رجلا مارونيا ثم انضم إلى محفل ماسوني ، وكان قد قرأ فولتير » وقال « أن كثيرين من أحرار سوريا النابضين يمتدحون بالفصل في خدمة الحرية للمرحوم الياس جباليين » الذي « وقف جهده على ارضاهم لبان الحرية واضرام نار البغض في ضلوعهم لسلطة التركية وشاركه في هذا رجال العشيرة الماسونية في سوريا من مسلمين ومسيحيين فياطالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لاعداد أبناء سوريا لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية » وقال زين زين فيها أورده شفاها عن فارس نمر « وهكذا أصبح طلبة ( أي طلاب جباليين ) وجميعهم نصارى من أشد اتباعه إخلاصا وولاء فكل واحد منهم يطمح أن يكون ( جباليينا ) يبرز أستاذه وراحوا يلشرون أفكاره بين الطلاب » . كما كان جباليين في الكلية الانجيلية السورية كذلك كان هناك أيضا سليم عمون ، وكان قرأ رواية اسكندر ديماس ( الفرسان الثلاثة ) فراح يؤلف جمعية غايتها « تحرير لبنان من الحكم التركي » ويعتقد فارس نمر أن الأفكار الثورية التي كان يأخذ بها عمون وأصحابه في الكلية السورية الانجيلية كانت أفكاراً فرنسية المصدر ، ومن هذه النصوص نستطيع أن نصل إلى ما حققته الكلية مما وصف فيها بعد بأنه أول دعوة للقومية العربية ، وهو قول مبالغ فيه ، فإن هذه الجماعة السرية التي أغراها أستاذة الكلية ودفعوها إنما كانت تدهو إلى شيء واحد فقط هو ( تحرير لبنان من الحكم التركي ) .

وإن هذه الجمعية السرية التي تشكلت من فارس نمر وشاهين مكاريوس وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الخوراني ويعقوب صروف هي التي قادت هذا المخطط التنفيري كله فيما بعد وإلى آخر المدى وخاصة بعد أن انتقل فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف إلى مصر وأصدروا المخطط والمقتطف وكانوا اسانا للاستعمار البريطاني والماسونية وحربا عوانا على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد والوحدة الإسلامية والخلافة وكانوا دعاة توهين الوحدة والترابط بين الإسلام والعروبة في تاريخ امتد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى . أما إبراهيم اليازجي فهو الشاهر الممد لوضع نشيد الدهوة الجديدة ، ليداع في البلاد العربية كلها ويزاحم بقوة أهداف الجامعة الإسلامية ويحاول أن يفسد بقوة الاستعمار واليهودية العالمية الخطة التي كانت تعمل من أجل توحيد العالم الإسلامي والوقوف في وجه



النفوذ الاستعماري الزاحف . ولقد حاول الكثيرون - وفي مقدمتهم جورج أنطونيوس الذي يعدون كتابه ( بقضة العرب ) أم مصدر لهذه الدعوة ( وهو كتاب خبيث ماكر مليء بالغالطات ومسكتوب من وجهة نظر الاستعمار والتفريب واليهودية المالية جميعاً ) حاول أنطونيوس وجري على خطوه دون وهي أو يقظة أغلب الذين حاولوا التأريخ للوحدة العربية - أن يحمل من هذه الجماعة السرية التي أنشئت في أحضان الكلية الإنجيلية السورية وسمح لها برفع صوتها على منابرها ، نواة للدعوة العربية بينما تدل كل الدلائل على أنها لم تكن إلا محاولة لعزل ( لبنان ) عن الدولة العثمانية والأمة العربية . ومن مراجعة النصوص المختلفة حول هذه الجماعة يتبين : أن الجماعة كلها من النصاري الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية ، وهذا هو الهدف الطبيعي الأول للإرساليات التبشيرية التي أخذت تؤتي أكله ويتسع من بعد نطاقه حتى ليقول فارس نمر في إحدى تصريحاته عام ١٩٢٣ أن وضع لبنان تحت النفوذ الفرنسي إنما تم بين جدران الكلية السورية . كانت مطالبة الجماعة « تحرير لبنان من الحكم التركي » أنشئت الجماعة ١٨٧٦ من الدفعة الأولى في الكلية وكان حبالين هو المشرف الثقافي والداعية الأول . غير أن الجماعة تعثرت ولم تستطع أن تحقق شيئاً إلا بعد أن راوغت في هدفها لتشارك معها بعض الدروز الذين هم فرقة من فرق المسلمين .

ولما كان ذلك عسيراً إذ أن المسلمين لا يشتركون في عمل ما ضد الدولة العثمانية فقد اتخذت خطوات غاية في المكر والانتهاز . الأولى : طرح كلمة « العربية » . الثاني : استغلال أعضاء المحافل الماسونية المسلمين الذين تورطوا في هذه المنظمات وأصبحوا لا يستطيعون الإفلات من تحقيق توجيهاً فاهز دعاة الفكرة وقادتها إلى هذه المنظمات ومن ثم برزت الجماعة في ثوب جديد وفيها مسلمون : هم هؤلاء الماسون . ولكي نكون صادقين في تصوير هذه المرحلة فأننا نعود إلى ما ذكره الدكتور فارس نمر الذي قال : لم ينقضى زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصاري ( يقصد نفسه ومن معه ) إنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يكونوا لهم سنداً وهوتاً فقد كان من الحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك جبهة واحدة مترابطة . ولم يكن هناك من قاسم مشترك بين المسلمين والعرب والمسيحيين العرب سوى « العربية » فالعروبة كشمارة ، كان في وضعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية وإن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقبين على الأتراك وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعية السرية أن السبيل الوحيد هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة . ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى وهي إدخال بعض الوجوه المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت وكان بعض الأعضاء البارزين في الجمعية

السرية قد انضم إلى عضوية هذه المحافل الماسونية وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية للانتماء إلى الجمعية السرية ، وفي الواقع انضم عدد قليل من المسلمين إلى المحافل الماسونية ، وعللوا بوجود جمعية سرية ، وقد اتفق الجانبان المسلمون والمسيحيون على محاربة الظلم التركي على أساس العروبة . . وهكذا تصل الى نفس الوضع في الدولة العثمانية : جماعة الاتحاد والترقي تلتحق من داخل المحافل الماسونية في سالونيك وجماعة المقطم المارونية ( بحكم ماسيكون ) تلتحق من المحافل الماسونية في بيروت . ومعنى هذا أن الماسونية أولا وأخيراً هي صاحبة الدهوة إلى الانتفاض والاضمار بالدولة العثمانية في نطاق الأتراك وفي نطاق العرب . وإذن بالخصط واحد والعمل هنا يكمل العمل هناك . ومن هنا فإن القول بأن هذه الجمعية التي خلفتها جمعية أخرى اشترك فيها بعض المسلمين الذين كانوا في المحافل الماسونية ووصلوا إلى الدرجة التي عرفوا معها هدف الماسونية من تمزيق الدولة العثمانية وفتح الطريق إلى بيت المقدس ، هذه الجمعية لا يمكن أن توصف مطلقاً بأنها نواة الفكرة القومية العربية أو أنها أو محاولة منظمة لبعث الحركة العربية القومية كما ادعى جورج أنطونيوس وساطح الحصري ومن ورائهم كتاب اليهود والغريب والتبشير والاستشراق .

ومعنى هذا أن الحركة كانت إقليمية لبنانية وهي ما عرف من بعد باسم (الكيان اللبناني ) وأن طابعها العربي كان تمويهاً لتصويرها للناس في إهاب حركة عربية جامعة حتى يقال أن الحركة العربية بدأت من الكلية السورية وحمل لواءها جماعة المقطم المارونية . وتبدو الرؤية واضحة تماماً حين توضع الصورة كلها في إطار المحافل الماسونية التي كانت قد نشأت في بيروت على النحو الذي شكلت فيه في ( سالونيك ) . وقد أشار جورجى زيدان إلى نشأة الماسونية في لبنان فقال أن أول حفل تأسيس في مدينة بيروت كان عام ١٨٦٢ تحت رعاية الشرق الاسكوتلاندى وترأسه قنصل جنرال دولة انكلترا وانتظم في سلسلة جم غفير من أعيان البلاد وأسرها ثم تجدد هذه الحفل ١٨٨٨ وعاد إلى العمل (ويبدو أن ذلك تم في ظل حركة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية) . وفي عام ١٩٦٩ تأسس في بيروت حفل آخر تحت رعاية الشرق الفرنسى انضم إليه كثيرون من أعيان البلاد وعلماء ورجال حكوماتها على اختلاف مذاهبهم . وأشار إلى مهاجمة جماعة الجزويت للماسونيين حتى أن العامة فرس في أذهانها الكره والاحتقار بلهاة الماسون « حتى أصبح إسمهم مرادفاً لأدنى صفات الاحتقار هتدم » يقول جورجى زيدان : أما الآن (والكتاب مؤلف عام ١٨٨٩) وقد ازدهرت سوريا وعلى الخصوص مدينة بيروت بالعلم والفلسفة وتعددت فيها المدارس والجرائد وانتشرت فيها حرية الأفكار ففسد

أصبحوا ينظرون إلى الماسونية نظرة الاحتقار . وأشار المؤلف إلى المحافل التي أقيمت في دمشق وحمص وحلب وصيدا والاسكندرية وأنطاكية . كما أشار إلى أول محفل ماسوني في فلسطين تأسس في مايو (آيار) ١٨٧٣ واسمه محفل سلسان الملوكي الأساسي . وقد أشارت مجلة المشرق إلى أن المدارس اللادينية في لبنان « هي إحدى نتائج الأعمال الماسونية ، فالغاية واحدة والوسائل جديدة » وقالت إن لدينا من البراهين على ذلك شاهد حي وهو « نوط » يعطى لكل تلاميذ من تلميذ المدرسة على أحد وجهيه رقم من الأرقام وعلى الوجه الآخر الشعار الماسوني (الزاوية والبركار) . وهكذا تلتقي الإرساليات التبشيرية مع الماسونية في الخطة والعمل ، في سالونيك من أجل إسقاط عبد الحميد وعزيق الدولة العثمانية وفي بيروت من أجل إقامة بديل للحكومة الإسلامية على أساس هزل لبنان وتحييده كنطلق الدعوة النغربية الاستعمارية .

## (١٨)

### ثمار التبشير والماسونية

كانت الدعوة المنطلقة من الإرساليات التبشيرية في بيروت : دعوة إقليمية لبنانية مسيحية ( ذات طابع عربي للتبشير ) وهي التي رفعت شعار العروبة خدعة وعملت في أحضان المحافل الماسونية وهي ليست على أي صلة ما أو ارتباط بما عرف بعد ذلك بالدعوة العربية التي فرضت نفسها في مواجهة النحدي الذي وضعه (الاتحاديون) بالدعوة إلى الطورانية ومحاولة تفرتك العناصر العربية عام ١٩١٦ تقريباً .

أما هذه الدعوة فقد كانت عملاً في طريق تجزئة الدولة العثمانية ، ففي كل قطر دعوة : الاتحاد والترقي في تركيا ، تحرير لبنان من الحكم التركي ، مصر للمصريين في مصر . إذن فلا صلة مطلقاً بين هذه الدعوة الإقليمية الضيقة التي حملتها الكلية السورية في لبنان وبين الحركة التي قامت بها سوريا ( وليس لبنان ) فيما بعد في مواجهة الدعوة الطورانية . ولبنان لم تكن أبداً مركزاً للحركة العربية لا في ذلك الوقت ولا بعده ، ولم يكن في لبنان أي نوع من الرقابة أو أي أثر لحكم العثمانيين بعد أن انفصلت بنظمتها الخاص عام ١٨٦٠ وإنما كان قيام هذه الدعوة يرمي أساساً إلى اقتطاف ثمار الإرساليات التبشيرية وتحويل مفاهيمها الثقافية إلى عمل ، وإقامة مؤسسة لها طابع الحركة إلى جوار أعمال التعليم في الكليات ومنها يكون الانطلاق إلى البلاد العربية لإذاعته هذه الآراء وأشر هذه

المخططات وهو ما تحقق بالفعل أن تحركت أول دفعة من الإرساليات إلى مصر ، وعل رأسها أصحاب الجمعية السرية الماسونية الداعية إلى تحرير لبنان باسم العروبة .

ووضح من جميع النصوص الواردة في الكتب التي أشارت إلى هذه الجمعية ( وخاصة بقظة العرب لانطونيوس ) أن أرضية العمل كانت ممثلة في قصيدة اليازجي ( تياظوا واستيقوا أيها العرب ) ودهوة بطرس البستاني في مجلة نغير سوريا إلى ما أسماه ( حب الوطن من الإيمان ) والعرب هناك اللبنانيون والوطن هنا هو لبنان . وقد اتفق اليازجي والبستاني على إنشاء الجمعية التي كان من أعضائها إلى سميت وقان ديك والكلونييل نثرشل ، وبلغ أعضاؤها خمسون عضواً أكثر من انصارى السوريين ، ويقول انطونيوس قنلا من محضر محفوظ في ملفات البعثة التبشيرية الأمريكية أن الجمعية تنسكون من قائدك واثنين من التبشرين ثم أسس اليسوعيون : الجمعية الشرقية على الأساس نفسه وكان المحرك لها الأب ( ديورونبير ) فوضح هنا رهاية للبشرين لما تبين الجمعيتين ، بالإضافة إلى حضارة المحافظ للماسونية . وقد حاول هؤلاء المؤرخون أن يصوروا قصيدة اليازجي على أنها النشيد الوطني ، وأنه تمريض للثورة على العثمانيين والتفنى بأجناد العرب ومفاخر آبائهم ( ومعلوم فيما بعد أن التفنى كان بأجناد الآشوريين والكلدانيين والفينيقيين ) وكلمة السوريين في القصيدة إنما تعني للمسيحيين اللبنانيين فقد كان لبنان جزءاً من سوريا . وقد كشف نجيب هازوري أحد خريجي الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية من هذا الهدف في كتابه ( بقظة الأمة العربية ) وهم يوردون اسمه هكذا لينفون بعض إيماءاته وإنما اسمه الحقيقي ( بقظة الأمة العربية في آسيا الغربية ) وفارق كبير بين الاسم الحقيقي والاسم الزائف ، وقد كشف هازوري هدف دهوته الحملة بأوزار الشبهات حين طالب بملكيتين عربيتين في آسيا واحدة في سوريا الطبيعية والأخرى في شبه الجزيرة العربية مع استقلال ذاتي للبنان . وهكذا تبدو الحركة كلها وهي إقليمية مفرقة في الانفصالية غارقة في التعصب الطائفي . أما ما يعيبه خصوم العرب والإسلام على الكواكي فهو أصبح ما جاء في كتاباته ، وأكثرها أصالة وذلك أنه لم يفصل الفكرة العربية عن الفكرة الإسلامية إذ لا سبيل إلى هذا الفصل ، وإلا لم يكن عبد الرحمن الكواكي وإنما كان نجيب هازوري . فقد اعترف بواقع عربي مصدره الإسلام ، وكل ما تمحس لإعلانه فهو إن دعا إلى أن العرب في مقدمة الأمم الإسلامية ، وذلك بفضل اللغة العربية ، طالب بعودة زهامة الإسلام والخلافة إلى العرب ومن هنا لا وجه للمقارنة بين هازوري والكواكي ولا سبيل إلى الجمع بينهما في خط واحد . وقد كشف ( إدوار عطية ) من حقيقة أساسية في دعوة خريجي الإرساليات التبشيرية حين قال : كان السوريون المسيحيون يكرهون السيادة التركية ويتطلعون نحو التحرر منها لا بقصد تأليف

دولة سورية مستقلة ، لأنهم يكونون في هذه الحالة مضطرين لأن يخضعوا لحكم يشكل فيه المسلمون أكثر ساقطة ، وعندئذ يتعرضون حسب اعتقادهم إلى الاضطهاد والظلم ، وعليه كانوا يتطلعون نحو التحرر من السيادة الإسلامية بمساعدة دولة أوروبية تطرد الترك من البلاد ويحكم سوريا بدلا منهم ، وكان ذلك عندهم إذا تحقق ، لا يمد خضوعاً لسيادة أجنبية طالما أن الدولة الأوروبية المسيحية هي من نفس الديانة التي يعتنقونها .

(١٩)

## أعمال الإرساليات

كان عمل الإرساليات من أهم الأعمال التي ركزت النفوذ الاستعماري في العالم الإسلامي وهي الجناح الثاني المؤامرة الضخمة في السيطرة المشتركة بين الاستثمار واليهودية العالمية ، أما الجناح الأول فهو المحافل الماسونية ، وقد تسكف اشتراكما معاً في كل المخططات والأعمال . لقد كان أبرز أعمال الإرساليات : فصل الأقليات عن الدولة العثمانية وإثارة الخلاف بينهم وبين المسلمين ، واحتضانهم واتخاذهم سلاحاً للعمل ، وحائلا دون الوحدة . ولقد اندفع أبناء الإرساليات إلى مصر بالذات لإقامة ركيزة أخرى مواجهة لركيزة بيروت تحمل لواء الصحافة وتوجه الرأي العام كله في البلاد العربية على النحو الذي رسمه النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية . فقد كان أبناء الإرساليات أكثر اندفاعاً في الدعوة إلى التغريب ، وكانوا يرون بينهم وبين الفكر الغربي صلة وثيقة تلقائية لا تنفصل عنه في أي جهة من جهاته . ولم يكن كذلك المسلمون الذين كانت تحسبهم قيمهم الإسلامية الأساسية التي تختلف وقد تتعارض مع الفكر الغربي في مقوماته وأساسه . وقد صور هذا كمال الصليبي تصويراً صحيحاً حين قال : إن المجددين المسلمين في تركيا ومصر رأوا أن على المجتمع الإسلامي للوقوف في وجه الغرب أن يكتشف عناصر قوته وازدهاره ويفتش عنها ، وسر هان ما تبين لهم أن مثل هذا الاقتباس لا يتم إلا بالتغاضي عن كثير من جوهر التراث الإسلامي ، ولم يكن هؤلاء المجددون على استعداد للتخلي عن هذا الكنز .

أما المفكرون المسيحيون في لبنان فلم يضطروا إلى إبداء مثل هذا التحفظ تجاه الغرب فبالإضافة إلى وحدة الدين بين الطرفين وما لهما من أهمية كبرى ، كان النصراني في لبنان يعتبرون الغرب حامياً لهم وسنداً لفضيتهم ، وكانوا يرونه في امتداد نفوذه في السلطة العثمانية مدعاة للاطمئنان لا تهدياً .

لذلك كانت الحركة الفكرية في لبنان في القرن ١٩ من حيث زعامتها المسيحية على طرف نقيض للتطورات المعاصرة في تركيا ومصر والبلدان الاسلامية الأخرى فلم يشعر النصارى اللبنانيون كما شعر المسلمون العثمانيون بمسئولية الحفاظ على دولة في طريق الانهيار (الدولة العثمانية) أو على دين مهدد بانظـر (الاسلام) وهم أيضاً لم يأفـقوا عن الأخذ من الغرب المسيحي واعتماد طرـفه .

هكذا كان حال المسيحيين في لبنان ، لذلك لم يشعر رجال الفكر منهم في القرن ١٩ بذلك القباي والانكماش الذي خالـج صدور زملائهم المسلمين في مختلف الأقطار ومن هنا ظهرت هذه الطائفة أولى نمار الارساليات التبشيرية وانتقلت إلى مصر لتصدر الصحافة والفكر والثقافة والرأى العام

- \* شبلى شميل : الدعوة إلى الفلسفة المادية ونظرية دارون .
- \* فارس نـر : المقطم والولاء البريطانى .
- \* جورجى زيدان : يزييف التاريخ الاسلامى والدعوة إلى الماسونية .
- \* يعقوب صروف : المقننـف والتغريب .
- \* سليم سركيس : محاربة الدولة العثمانية والاسلام .
- \* فرح أنطون : الدعوة إلى الفكر الغربى .

وكانت الخطة الفكرية التغريبية ( التى تنطوى فى أحـقابها على الدعوة إلى التوراة والاضطهاد الذى أصاب اليهود فى العالم كله وعلى مدى التاريخ ) تبدو واضحة فى صحف الهلال والاهرام والمقتطف وللقطم والجامعة ولسان الحال وغيرها وهى خطة واحدة الهدف ، هذا الهدف الخفى بدقة من وراء كل الدعوات والكتابات وهو تعزيز الرابطة بين العربية والإسلام . ولما كان هؤلاء جميعاً يجمعون بين أنهم من خريجي « الارساليات التبشيرية » ومن أعضاء « المحافل الماسونية » فقد كانت كتاباتهم مخططة وفق أهداف الاستعمار واليهودية العالمية . وكان العالم الاسلامى والدولة العثمانية والعرب والمسلمون جميعاً خصوصاً لهم . ولذلك فقد أيدوا الاستعمار البريطانى فى مصر والاستعمار الفرنسى فى سوريا ، وعاونوا الصهيونية العالمية ومهدوا لها الطريق الفكرى فى كتاباتهم كما حملوا لواء الخصومة العنيفة للسلطان عبد الحميد وآزروا من بعد الاتحاديين وكانوا طوال هذه الفترة يدسون سموما خطيرة فى كتاباتهم ، وقد أعلن الميثرون فى عديد من اجتماعاتهم « أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر » ومن خريجي هذه الارساليات من دعا إلى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ومنهم من دعا إلى أن تكون لبنان وطناً للنصارى فى الشرق الأدنى .

( ٢٠ )

## الاتحاديون وليس السلطان

استطاع النفوذ الغربى الاستعمارى واليهودية العالمية ممثلاً فى مؤسساته ومراكز قواه :  
« الإرساليات التبشيرية والحافل المارونية » ومن طريق الجمعيات والصحف والمدارس أن  
يعزق ذلك التجمع الفكرى المتمثل فى الوحدة الإسلامية العربية والرابطة العربية التركية والتجمع فى  
كيان سياسى واحد هو الدولة العثمانية ، حاملة لواء الجامعة الإسلامية تحت اسم الخلافة وكان عمل  
النفوذ الغربى واليهودية العالمية لذلك مرتباً حلقة بعد حلقة يشتمل أكبر ما يشتمل ، ضعف الثقافة  
العربية الإسلامية والغفلة عن إدراك أبعاد المسائل وخلقياتها ، والظنرة البشرية المخاطفة السريعة .  
وكان سقوط السلطان عبد الحميد هو الضربة الأولى التى هى نصف المعركة ، إما ما جرى بعد ذلك  
فقد كان يسيراً وسهلاً ومؤدياً إلى النفاة فى أقصر طريق ، وما هجزت هذه القوى الاستعمارية  
واليهودية العالمية خلال أكثر من نصف قرن لصمود السلطان عبد الحميد ، إذ يمكن تحقيقه خلال  
فترة قليلة ما بين عام ١٩٠٩ - ١٩١٨ على أيدي القوة التى أعدها ورباها ووجهها على الطريق  
المرسوم ، تلك هى قوة الاتحاديين فى الدولة العثمانية تعاونها قوة الإرساليات التبشيرية فى لبنان  
وتديرها قوة الصحافة المكتوبة بالعربية الصادرة من مصر .

وفى مخطط واحد ، جرت الدعوة إلى الطورانية فى تركيا العثمانية والفيليقية فى لبنان ، والفروانية  
فى مصر ، وفرضت الدهوة الطورانية على العرب أن يحملوا لواء الدهوة إلى المروبة المنفصلة عن  
الدولة العثمانية وبذلك أمكن عند نهاية الحرب العالمية الأولى أن يقال إن الكيان السياسى الضخم  
الذى تشكله الدولة العثمانية جامعا للعرب والترك قد إنتهى ، وإن الفكرة الجامعة بين المروبة  
والإسلام عند المسلمين أنفسهم قد أصابها التصدع نتيجة للتحديات والإغراءات التى قسمت الفكر  
العربى الإسلامى وأصابته بالتزق . الاتحاديون إذن وليس السلطان عبد الحميد : هم الذين أحدثوا  
هذا التصدع والتزق وخربوا وحدة المروبة والإسلام فى الصميم ، وقضوا على تلك الرابطة القوية  
الجامعة وأسلفوها إلى دهرات العناصر والأجناس وإلى صراع الدماء والعروق بين عرب وترك .  
وبين مصريين وسوريين ولبنانيين وهرقيين . ومن ثم يمكن أن يقال أن فكرة تصعيد دهوة  
القوميات فى الدولة العثمانية إنما أدخل وأغرى به وأفصح له الطريق لى يشكل تمزقا صحيحا

في هذه المرحلة : مرحلة السنوات العشر الجماف التي قاد بها الاتحاديون سفينة الإسلام والعروبة حتى ارتطمت بالصخرة التي فرقها ولم يكن الاتحاديون في هذا إلا أداة النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية لفتح الطريق إلى القدس ، وكانت الحافل الماسونية والارساليات التبشيرية هي أدوات هذا العمل الخطير ومؤسساته الساهرة في غفلة الأمم الحاقدة التي سمحت كل الآبار ودمرت كل المواقع الحصينة في المجالين معاً : مجال الكيان السياسي ومجال الفكر والعقائد .

وقد كانت هذه الأجهزة تعمل وكان كل منها مستقلاً منفصلاً ، ولكن اليد الخفية كانت تديرها جميعاً ، وتسيطر عليها وتوازن بين خطواتها ، سواء في سالونيك وبعدها في الآستانة ، أم في بيروت ودمشق والقاهرة . إن الذين كتبوا تاريخ السلطان عبد الحميد وتاريخ الاتحاديين كانوا بطبيعتهم غير منصفين ، ولم يكونوا على مستوى الحقيقة التاريخية أو للمنهج العلمي ، بل كانوا مفرضين خصوصاً ، ولذلك فإن شهادتهم لا تقبل ، لقد سيطر التبشير والاستشراق والماسونية والارساليات على رسم تاريخ العالم الإسلامي والدولة العثمانية في هذه المرحلة ، ووضعوه أمام الباحثين ، بل فرضوه فرضاً على للمعاهد والجامعات والمناهج الدراسية وجرى على الألسن والأفلام كأنه حقائق لا سبيل إلى نقضها وقوام هذا المنهج هو إثارة هذه الشهادات والأضاليل .

١ — السلطان عبد الحميد : مستبد قاتل عاش على العجاسومية والقتل . ٢ — الدولة العثمانية هي التي وضعت العرب في أسوأ الأوضاع الاجتماعية والسياسية وهي التي قتلت رجالها الذين طالبوا بالحرية عام ١٩١٥ و ١٩١٦ . ٣ — محاولة القول بأن سوريا هي التي حملت لواء مقاومة الدولة العثمانية . ٤ — محاولة نسبة الحركة العربية إلى الكلية السورية الإنجيلية وخريجياتها . وكان أبرز من كتب ذلك المستشرقون ، والمبشرون ، وكتاب الغرب ، ثم جرى في خطوطهم ساطع الحصري وجورج أنطونيوس وأنيس صايغ وفيليب حقي . وهي كتابات مليئة بالحق والدسائس والكراهية والنشني من السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فإذا تضرعت للاتحاديين بدت مشقة تلتمس الأهدار ، وإذا كان الإنصاف هو الحكم العلمي الصحيح فإن أخطاء الاتحاديين لا تقاس أبداً بصنائع عبد الحميد ، ولكن لما كان الاتحاديون هم مقلب القط الذي حقق الغايات العديدة فقد ألتمست لهم الأهدار وهضت أمورهم في رفق وتسامح شديدين . إن تاريخ هذه المرحلة قد زيف تزيفاً شديداً فقد كتبه اليهود والمستشرقون وحجبوا كل الحقائق خلال خمسين سنة كاملة ظلت خلالها المناهج الدراسية خاضعة لهم ، وما تزال المؤلفات التي في أيدي من كتاباتهم ، وهي كتابات أريد



بها إخفاء الحقيقة من ناحية والتسلط على الرجل الذي وقف في وجههم والتوجيه في الإشارة إلى ظلم الدولة العثمانية بينما اظلم الحقيقى الذى وقع على العرب هو ظلم الاتحاديين بنفوذهم الذى هيئته لهم اليهودية العالمية والاستعمار فقطعوا الروابط التى استمرت أربعائة سنة بين الإسلام والعروبة ، وبين العرب والترك .

ولا شك أن هذا يكشف خصومة هؤلاء الكتاب للعرب والإسلام ، وحقدهم عليه وتعاونهم مع خصوم هذه الأمة على تأكيد وقائم مضلة وإرساء باطل زائف فإذا كان هؤلاء الكتاب منصفون فى موقفهم من عبد الحميد فلقد كان أولى لهم أن يكشفوا عن الصفحات السود التى صنعها الاتحاديون والتى بلغت أعنف ما روى من تاريخ العلاقات بين العرب والترك . ولماذا يستعمل مقياسين وأسلوبين ومنهجين فى موضوع واحد ، ولماذا يكون الهوى حاكما فلا تقال كلمة الانصاف هنا أو هناك ، إن موقف السلطان عبد الحميد من اليهودية العالمية سيمثل طاقة من النور ينوج جبين هذا الرجل ومع ذلك فانهم لا يعرضون لهذه الواقعة فإذا عرضوها زيفوها وأفسدوها . إن هذه الكتابات الزائفة التى فرضت على العرب والمسلمين أكثر من خمسين عاماً واعتبرت أساساً لمناهجهم فى التاريخ إنما كانت مضلة ولم تقم على أساس منهج علمى ، ولم تضع الأمور فى نصابها ولم تكشف الحقائق كاملة . وإنما قامت على الحقد والنشئ الواضح للأتراك والعرب والعروبة والإسلام جميعاً فلم يعرف أن الاتحاديين سقطوا سقوطاً شنيعاً وهم على أخف الأقوال المنصفة باعوا المملكة العثمانية وأسلموها للاستعمار وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها أو تبريرها . وقد دحض كثيرون من المنصفين محاولت كتابات التغريب ودعائه اتهام الدولة العثمانية به وخاصة فى محاولة تصوير العلاقة بين العرب والترك فى الدولة العثمانية فى تاريخها الطويل بصورة الصراع . وكذلك فيما يتعلق بالاتهام الذى وجه إلى الدولة العثمانية بأنها كانت سبباً فى تأخر العرب .

يقول هار ولد بوون : فيما يتعلق بالتعاطف الجارفة التى كانت تصدر عن بعض الكتاب فائنا نلاحظ أن معظمهم كانوا يجبطون خبط عشواء وإن التعصب كان يخفى الحقيقة عن عيونهم ، إن كثير من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر فى القرن الثامن عشر آراء خاطئة . ويقرر الدكتور زين هذه الحقائق : أولاً : إن جميع التعاطف والعبارات الجارفة التى صدرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أولئك الذين يعنون بهذا الأمر ، والتى تتعلق بالكرهية والشحناء التى كانت تتميز بها العلاقات بين هذين الشعبين : التركى والعربى مبالغ فيها كثيراً

كقول أحدهم مثلاً (إن الأتراك كانوا يفضون العرب ولا يشقون بهم) . فضلاً عن أن مثل هذه الأقوال الجارفة لم تكن لتنتطبق على واقع العلاقات كما كانت عليه في القرن الأول للحكم التركي ، إن معظم الذين ألفوا في التاريخ التركي لم يكونوا يجهلون وفرة الوثائق التاريخية التي يجب أن يطلع عليها الباحث في هذا الحقل وحسب وإن كانوا بصورة عامة على كثير من التحيز والتعصب .

ثانياً : لم يحاول الأتراك تبريك الأهرام البشرية التي دخلت في نطاق امبراطوريتهم وقد كان العرب أكثر هدأ ، والواقع أن الأتراك ظلوا ( غرباء ) في المناطق العربية التي أصبحت جزءاً من امبراطوريتهم والذين توطنوا منهم في الولايات العربية كانوا أقل ، ومن الإنصاف القول بأن الأتراك لم يحاولوا دمج العنصر العربي أو تريكه إلا بعد استيلاء جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم سنة ١٩٠٨ . ثالثاً : كانت الامبراطورية العربية والخلافة العباسية من الانحلال والتجزؤ بحيث أصبح العرب في حالة ضعف ووهن ، حتى ليصح القول بأن الحكم العثماني حتى الأقطار العربية والإسلام من التمدد الخارجى قرابة أربعمئة سنة . رابعاً : مما لا شك فيه أن الإسلام كان أهم عامل يجمع العرب والأتراك في رابطة متينة طيلة أربع قرون . خامساً : ليس صواباً القول أن العرب والمسلمين ظلوا طوال أربعمئة سنة أمة مستضعفة تحت نير الأتراك أو أن البلدان العربية نهيت خيراتها وخيم عليها الفقر من جراء الاحتلال التركي ، كذلك ليس صواباً القول أن العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم أن يتقلدوا سلاحاً أو أن ينضوا تحت العلم العثماني للخدمة العسكرية ذلك لأن جيوشاً عربية وضباط عرب من ذوى الكفاءة العسكرية العالية كانوا يعملون في الجيش العثماني وقد برهنوا على قدرة ومهارة في الممارك الحربية .

سادساً : ليس هناك من دليل تاريخي على صحة ما يشاع في القرن العشرين من أن الأتراك وحدهم هم المستوولون عن « التخلف » وعن « التأخر الحضارى » الذى ألم بالأقطار العربية ، طوال أربعمئة سنة بل يبدو أن بعض البلدان العربية أفادت في القرون الأولى من الانتقام للتركي . وقد صور هذا الباحث حقيقة العلاقة بين العرب والأتراك وردّها إلى الإسلام نفسه وأثبت هجر كتاب الغرب عن فهم الحقائق نتيجة تجاهل هذا المصدر الأصيل . يقول : « إذا كان الأتراك قد استطاعوا أن يحكموا هذه المنطقة مدة أربعمئة سنة . فان السبب يعود إلى أن الأتراك مسلمون فقد استمر السلاطين العثمانيون في العمل على نشر الإسلام بعد أن كانت مقدرات الإسلام قد وصلت إلى أدنى درجات الانحلال بعد خراب بغداد ١٢٥٨ للميلاد على يد هولاكو وجيوشه المغولية . فقد استطاع

الأتراك أن يجتاحوا أمتاسا من أوروبا، مركز المسيحية ، وأن يرفعوا رايات الإسلام عالية  
 أينما وصلوا حتى مشارف فينا ، وهذا مما جعل العرب المسلمين يفخرون بعظمة الأتراك ومكانتهم  
 العالية ، فقد كانت الامبراطورية العثمانية امبراطوريتهم تماما كما هي للعثمانيين ، هذه الحقائق يجب أن  
 تؤخذ بعين الاعتبار إذا ما حاول أحد أن يدرس تاريخ العلاقات التركية العربية ، أو إذا ما حاول  
 أن يفهم موقف العرب من الدول الأوروبية ، ولكن مما يؤسف له كثيراً أن هدداً كبيراً من الذين  
 يعنون بتاريخ العرب المعاصر ينقسمون إلى فئتين : فئة لا تعرف هذا التاريخ معرفة صحيحة . وفئة  
 تنظر إلى هذا التاريخ من خلال زجاج ملون بالألوان السياسية والقومية العلمانية فيتجاهلون عدداً  
 وبالتالي يعجزون عن إدراك أهمية العامل الديني في تاريخ العرب ، ذلك العامل الذي كان له أكبر  
 الأثر لمدة قرون في تسكوين الشرق الأدنى السيامي والاجتماعي ، وفي تقريره مصيره : أهني الإسلام .  
 إن السبب الرئيسي للعجز والفشل في تفهم الشرق الأدنى العربي هو هدم فهم العنصر البشري والقيم  
 الإنسانية في هذه المنطقة فإذا أراد المرء تقييم الوضع في هذه البقعة من العالم تقييماً صحيحاً فإن عليه  
 أولاً أن يفهم : تلك القوة الروحية التي هي مصدر جميع الحوافز وجميع الأعمال التي تصدر من  
 غالبية السكان العرب في الشرق الأدنى وبدون هذه المعرفة يستحيل عليه أن يدرك جوهر القضايا  
 والمشكلات العميقة التي تعانيتها المنطقة ، إذ أن كثيراً من هذه المشكلات السياسية  
 والاجتماعية منها ترتبط ارتباطاً محكمًا بالدين فالإسلام كقوة روحية سياسية له أثر عميق  
 والاجتماعية فيها ترتبط ارتباطاً محكمًا بالدين ، فالإسلام : كقوة روحية وسياسية له أثر عميق يفوق  
 أثر القومية العلمانية ، وهذه حقيقة أساسية يجب على المؤرخ ألا يتغاضى عنها وألا يتجاهل خطورتها .  
 وقد آن للمؤرخين الغربيين أن يتخلوا عن بعض ما خلقه نفوسهم من أوهام وأخطاء حول حقيقة  
 العلاقات بين العرب والأتراك .

( ٢١ )

## الحركة الطورانية

( ١ )

### الجامعة الطورانية

ولقد كان النفوذ الغربي قد هباً « الاتحاديين » فعلا منذ وقت بعيد ، من خلال محالل الماسونية للدور الذي سيقومون به لتزويق الدولة العثمانية والتمضاء على ترابط الاسلام والعروبة . ولذلك فقد ألقى كثير من المستشرقين في طريق الفكر العثماني مغريات كثيرة لحملة على الانتقال من الوحدة الإسلامية إلى العصبية الجنسية والعرقية وقد ظهرت المغريات على فترات متوالية وكان أهمها : ( أولا ) إعادة طبع كتاب عن تاريخ الترك والمغول منذ أقدم الأزمنة إلى سنة ١٤٠٥ للميلاد وهو من تأليف كاتب يهودي هو (ايون كاهون) وهو روائي إستغل موضوع قضية غزوات وغارات المغول السكبار مثل جيكيوز خان وتيمور لنگ فصورهم بصورة الأبطال العظام . وقد أعلن في هذه الفترة في ضجيج كبير أن الأكاديمية الفرنسية قد توجت هذا الكتاب ، فالتفت إليه الأنظار وحمله السفند الفرنسي إلى واحد من كبار أعضاء جمعيه الاتحاد والترقي هو ناظم بك الذي قرأه وأهجب به ووضعه أساساً للنهضة الطورانية . ( ثانيا ) طرح المشرق اليهودي المنفاري فبري نظرية خطيرة تقول إن الاسلام يناقض مع فكرة الجنسية ، وإن الاسلام هو الذي حال دون نشوء حضارة الأتراك ، ودعا العثمانيين إلى الاهتمام بما بينهم وبين أتراك أواسط آسيا من صلة رحم . ( ثالثاً ) اشترك في هذه القصة مستشرقون آخرون منهم فون لوكرك من حاولوا رسم خطوط الأصول العرقية للترك . ومنذ اليوم الأول لتسلم الاتحاديين للحكم بدأ وضع خطوط هذه للفلسفة موضع التنفيذ واتصدى لذلك رجال من خارج تركيا حملوا لواء الجامعة الطورانية م : ١ - يوسف اشقورا اوغلو : ٢ - أحمد أخايف وقد عملا في الأستاذة وأساسا مجلة المواطن التركي ( ١٩١١ ) . ٣ - ضياء كوك الب : الذي أطلق عليه رسول القومية التركية وكان عضواً في جمعية الاتحاد والترقي وأستاذاً للعلوم في جامعة الأستاذة ، وظهر لأول مرة في المؤتمر السنوي للجمعية عام ١٩٠٩ ، أخذ يكتب عن فكرته في صحيفتين وأسس جمعيتين ، وكان مقر عمله سلاويك .

ومن العجب أنهم وثلاثهم روضيو الأصل ولبسوا عثمانين . ٤ — حسين جاهد : رئيس  
تحرير جريدة طنين التركية : وهناك أيضاً مؤلف كتاب قوم جديد ( عبد الله ) وجلال لورنى مؤلف  
كتاب تاريخ للمستقبل . وبدأت الصحف التركية تعهد للحركة الجديدة وتمتد النفوس لها على نحو منير  
فيه تمائل كبير على العرب والإسلام جميعاً ، ومن الحق أن يقال أن المحافل الماسونية والإرساليات  
التبشيرية والمبشرين كانوا جميعاً من وراء هذا العمل الخطير ، غير أن الحكومة الانتحادية كانت  
لا تكشف أوراقها تماماً ، وتحاول أو تبدو ظاهراً وهي منقسمة على نفسها إزاء الجامعة الإسلامية ،  
والجامعة العثمانية والجامعة الطورانية حتى لقد اختص كل واحد من رجالها بالدعوة إلى إحدى هذه  
الجامعات . ويمكن القول أنها كانت تسير أساساً إلى الهدف بخطى بطيئة ولكنها تخطى ذلك أمام  
سكان الدولة العثمانية بهذا التضارب والتعارض . ولقد حاول بعض الكتاب للوالين للاتحاديين أن  
يؤخروا ظهور الدعوة إلى عام ١٩١٦ ويربطوها بأحداث الحرب العالمية الأولى ولكن هناك من  
النصوص والوثائق ما يؤكد أن الدعوة الطورانية كانت هي السكينة الأولى في حكم الاتحاديين عام  
١٩٠٩ . ويشير إلى ذلك دكتور زين زين الذى يقول إنه ( بدءاً من ١٩٠٩ ظهر ما أصبح يعرف  
بالاتحاد الطوراني Pan - Turanianism وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب  
التي تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الانتحادية . وقد بدأت الحركة في الصحافة والجامعات  
تهدف إلى تحليل التراث التركي من للآثار الفارسية والعربية وخلق صلة قوية دائمة بين أتراك  
الأمبراطورية العثمانية والأتراك خارج الأمبراطورية وإعلان تفوق العنصر التركي وسيادته على  
الأجناس في الدولة العثمانية .

وقد هب ضيا كوكالب عن فكرته فقال : إن مواطن الأتراك ليس تركيا ولا تركستان : إنه  
أرض طوران العظيمة الخالدة . إن تسألنى عن قومي فإن أمتى قائمة منذ خمسة آلاف سنة ، وأن تسألنى  
عن نسي وأرومى فلسبى للترك . إذا قطعنا الحراب فليس لنا غنى عن وحدتنا . جئنا كلنا من صلب  
واحد ، يجمعنا الدين واللسان . يا ابن الترك لا تقل أنا ، أنت ، هو ، كل هذه إن هي إلا كلمات  
زائلة ويجب أن تضمحل وتلاشى أمام طوران الكبير . وقد مضت الأقلام الجندة للفكرة تدهو  
الأتراك إلى العودة إلى فضائلهم القديمة وتعود بهم إلى أصولهم وتقاليدهم قبل الإسلام ، وقطع الصلة  
بالتاريخ الإسلامى وميراثه وكانت هذه الدعوة تزعم أن الترك هم أقدم أمة الأرض وأنهم الجنس  
للغوى الذى كان واحداً في الأصل ويلزم أن يعود واحداً ليس فقط ترك سيبيريا وتركستان الصين  
وفارس والقفقاس والأناضول والروم بل للغوى في روسيا وإيران والصين الذين يبلغون ٣٥ مليوناً .

وظهرت أناشيد وطنية وأشعار كلها تمجد الطورانية وتفتخر للإسلام والعثمانية ، وتدعو إلى تغيير الأسماء والألقاب الإسلامية واستبدالها بأسماء طورانية فضلاً عن إعادة النظر في التاريخ للدون وإلى إنصاف جينيكيز خان وهولاكو وتيمورلنك وأتتلا وغلا كثيرين فقالوا نحن أترك كيهنتنا طوران . وقد كانت الدعوة إلى الجامعة الطورانية تجري على أقلام دعايتها دعوى متعصبة هنيئة تحمل الحقد والمكرامية للقوميات الأخرى وللعرب والإسلام . وكان الاتحاديون من وراء تأجيج نيران التعصب القومى والحلّة على العرب وانتقاصهم كما حملت على تشويه العنصر العربى على جميع العناصر فى الدولة العثمانية . ودما ضياء كوكب الب وأحمد أغايف إلى أن تخضع العناصر المختلة فى الدولة لتركى خضوع التابع المتبوع . كما وصف جاويد اليهودى وزير مالية الاتحاديين: العرب بأنهم العرق الأسود كما ظهرت المنشورات السرية التى نهجى الإسلام ويقول « إن هذه البدعة الخيالية التى يسمونها الأمة الإسلامية التى ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه هام وذون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه عام هى فى طريقها الآن إلى التفتك والزاوال . ونشأت فى هذه الحركة ، أنظمة خطيرة أهمها نظام السكشافاة التركمية التى اتخذت لها شعار ( الذئب الأخير ) إشارة إلى المواطن الأول للترك . كما شكلت جماعة ( ترك يوردس ) التى كانت تقاوم كل كاتب تركى أو غير تركى لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم ، ونشر الكتب القومية والأناشيد الحماسية وتدرّس التاريخ الطورانى القديم فى المدارس والجامعات .

## ( ٢ )

لقد شعر العرب فى الدولة العثمانية منذ اليوم الأول لنولى الإنهاديين الحكم بالخوف والحذر والشك فقد كانوا موضع ريبة أشملهم من جميع النواحي ، ذلك لأنهم كانوا جميعاً بلا استثناء من الماسون ، ولأن أبرز أسمائهم كانت من يهود سالونيك ( الدونمة ) . وذلك يتفق تماماً مع ما كتبه ( سنون ومسون ) حين قال إن الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير تركية وغير إسلامية ، فنجد تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركى صاف ، فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندى مرتد ، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة باسم دونمة وكان كراسو من اليهود الأسبان القاطنين فى مدينة سالونيك وكان طلعت بلغارباً من أصل عبرى اهتنق الإسلام ديناً أما أحمد رضا فكان نصفه تركياً والنصف الآخر مجرباً إلى جانب كونه من أتباع مدرمة كانت الفلسفية .

وقد كشفت الأيام الحقيقة وأكدها الأحداث ، التي فضحت الخباط اليهودى للماسونى للعد مسبقاً والذى خططه مستشرقون وأجانب وأقموه للصهوة . ومن الحق أن يقال أن الحركة الطورانية لم تكن فى حقيقتها إلا ركة لأمرين : الأمر الأول : تحدى العرب ودفعهم إلى ركب مركب القومية والانفصال عن الترك . الأمر الثانى : هو إعادة تركيا للمرحلة التالية وهى خلق تركيا اللاهينية التى قام على إنشائها كمال أتاتورك . فقد كان الأهرار فى الدعوة الطورانية وهو ما تملت منه بعد ذلك الدولة التركية السكالية — هو الهدف الأساسى لإثارة العرب ، ولدفعهم إلى الخروج على الدولة ولذلك ركزت عليه الحكومة الاتحادية فلما لم يحقق الغاية كاملاً ، لجأوا إلى أخطر من ذلك ( وأخسر الدواء للكي ) فملقوا العرب على المشائى فكان ذلك هو السكين الحاد الذى شطر الوحدة بين العربىة والإسلام أو بين الترك والعرب شطرين لا سبيل إلى التقائهما إلى أمد بعيد . ولكن العرب كانوا إلى الملاحظة الأخيرة غاية فى الإخلاص والارتباط بالوحدة الجامعة فكانوا يطلقون شعار الامركية ويدعون إلى ارتباط الترك والعرب تحت خلافة واحدة بل إن عدداً من أبرز كتابهم ومفكرهم ظلوا إلى أواخر الحرب الكبرى الأولى وهم يصرون على الارتباط بالدولة العثمانية لا ينفكون عنها إيماناً بأنه من أخطر الأخطار تركها للتمزق . وكان الشيخ محمد عبده وعبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان ممن يقولون بذلك وينسبون به حتى لقد أثر عن الشيخ عبده قوله . إن الدولة العثمانية هى ثالثة العقائد . ولكن الاتحاديون كانوا يعرفون ما تريد المحافل للماسونية تماماً وهو كسر هذه الرابطة وتمزيق هذه الوحدة وفتح الطريق إلى القدس بين شطرى العربىة والإسلام وفصل الترك والعرب . وفى هبة توفيق الناطور أحد قادة العرب البارزين فى سوريا ما يؤكد ذلك حيث قال « إن فكرة العربىة لم تكن قد تبلورت وقويت ، جل ما كنا نحن العرب نطلبه هو أن نتمتع فى الامبراطورية العثمانية بنفس الحقوق والواجبات التى كان يتمتع بها الأتراك وأن تقوم الامبراطورية على ركنين : الشعب التركى والشعب العربى .

وكان مشروع عزيز المصرى يقوم على هذا النحو ، وكذلك كانت فكرة محمود شوكت ، وكان ذلك رأى الكثيرين : دولة مزدوجة ( تركية — عربية ) يرأسها خليفة تركى وتضم الأناضول التركى وهرستان ، غير أن الاتحاديين ما كانوا يقبلون ذلك أو يرضوه ، إنما كانوا يريدون التزيق الكامل ولذلك أفرأوا رجلهم ( أحمد جمال باشا ) بأن يقوم فى سوريا بذلك الدور الذى لا يوصف بأقل من المكر والتآمر حين حل راية الوفاق بين العرب والترك ، وظل يفسح لزعماء العرب حتى وضع يديه

عليهم جميعاً ثم هلقهم على المشائق عامى ١٩١٥ — ١٩١٦ فأنهى كل رابطة يمكن أن تقوم بين العرب والترك ودفع العرب دفعاً إلى الانضمام إلى صفوف الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) بعد أن دخلت الدولة العثمانية الحرب في صف ألمانيا. ولقد أحس العرب فعلاً أن الاتحاديين (وليس الترك) كما يرد على أقلام الكتاب الذين يريدون أن يلتصقوا لهم المعنرة ويدافعون عنهم — يقيمون الدليل على رغبتهم في فرض اللغة التركية على بقية العناصر العربية في الدولة بشكل يقضى فيه القضاء الكامل على لغاتها القومية وأنهم استغلوا كل مناسبة لتنفيذ هذه الخطة في كل مكان من بلاد العرب. لقد دعا جمال باشا شباب العرب في دمشق عقب وصوله إليها عام ١٩١٤ إلى الاجتماع به وألقى فيهم خطاباً تعرض فيه للجامعة الطورانية فقال موهماً مطمئناً خادعاً ما يلي: « يجب أن نتقوا بأن مشروع الجامعة التركية الذى سمعتم عنه وعن وجوده في استانبول وفي الجهات الأخرى الآهلة بالترك لا يتنافى مع الأمانى العربية بشكل من الأشكال. » أنتم تعلمون أن هناك في الامبراطورية العثمانية حركات بلغارية وبولندية وأرمينية كما تقوم هناك حركات عربية، أما الأتراك فقد نسوا وجودهم بناتناً أو تناسوه إلى حد أنهم كانوا يعدلون هن ذكر جنسهم مما أدى إلى وكود الروح الوطنية بينهم حتى بقنا نتوجس خيفة من ثلاثى الشعب التركى تلاشياً تاماً لذلك وتداركا لمثل لهذا الخطر الدام خفف رجال تركيا الفتاة بفيرة تستحق الإعجاب إلى السلاح، قصد إثارة الروح الوطنية وما يرافقها من الفضائل في صفوف الأتراك ».

غير أن هذا كله كان خدعة ونمويها، ولكن أحمد جمال مضى في الخطة إلى غايتها فقال في اجتماع آخر قولاً أكثر مكرراً في طريق محاولة لإدخال بعض العثمانيين إلى خطته التى يكتسبها ويحاول أن يخدع بها على النحو الذى يوقع الوطنيين في الفخ. ومما قاله وردده على ما يرويه عبد الرحمن شهبندر: إنه الصديق المصدق للعرب، وإنه لا يتنزل إلى قبول العدواة في بلاد لا يطالب أهلها بمحقوقهم القومية. إنه هو الذى قانج سفير ألمانيا بدخول الدولة العثمانية إلى جانب الدولتين المركزيتين وأنه هو الذى أصر على مصالحة فتیان العرب وهلى عقد تلك المعاهدة معهم وأرسل مدحت باشا شكرى إلى باريس لمفاوضة أعضاء المؤتمر العربى ١٩١٣ برئاسة الزهراوى وكان ذلك كله من أخطأ أنواع التآمر، فإنه لم يلبث قليلاً حتى كشف زعماء العرب وعلقهم على المشائق منهم إيام بأخطأ التهم. وقد إقترف بهذا العمل أسوأ خيانة في التاريخ، فيها وحدها قطع كل العلائق وأثار الحفائظ والأحقاء، ولولاها ما استطاع نائر من العرب أن ينور على الترك ويرفع السلاح في وجههم، وهو إلى ذلك لم يتورع من أن يلجأ سراً إلى إنكلترا وفرنسا لیساعدها على ذلك حصون الخلافة وتزريق أوصالها هذا فضلاً عن



كذب ما أذاهه جبال وزملاؤه الاتحاديون من أن موقف العرب هو سبب لإنهزام دولة الخلافة وتقلب الحلفاء على ألمانيا مع أن تاريخ الحرب العامة يدل على غير ذلك تماماً. ولقد طوى الجنرال لودندرون رئيس أركان حرب الجيش الألماني عنق الإتحاديين بالعار حين قال في مذكراته : « إن الحكومة التركية استمرت على موقفها العدائي نحو الأقوام العثمانية الأخرى ومع كل ما بذلته بنفسه من الالتماس والاستعطاف ، فالترك ( وهو بقصد طبعاً الاتحاديين ) لم يبدلوا سعياً واحداً لصرم حبال السياسة القديمة التي سلكوها مع العرب. بل أن للارشارال هندنبرج زعيم ألمانيا إبان الحرب صور ذلك بوضوح حين قال : كان في وسع العرب الافلات بسهولة من نطاق السلطة في الدولة العثمانية خلال حكم الاتحاديين إذ كان عليهم أن يرفعوا سلاحهم فقط ويتمشوا في خنادقهم إلى جبهة العدو ومع ذلك لم يعملوا شيئاً من هذه الأعمال ويقول الدكتور شميندر إن هذه العصبة ( أى الاتحاديين ) قد تأمروا على سلامة الدولة العثمانية فساقوها رغم أنها إلى حرب ١٩١٤ .

### ( ٣ )

هناك إجماع على فساد النظام السياسي الذي إقامه الاتحاديون ، وليس أدل على ذلك من عبارة بعض الكتاب ( إن سجل السنوات العشر ١٩٠٨/١٨١٨ ) يبدو لأول وهلة سجلًا قائماً وإنهم لم يكونوا أكفأ لحل الرسالة التي بذلوا أنفسهم لها وهناك إجماع على أن تفكيرهم كان مضطرباً مشوشاً ، وأنهم وقعوا في تناقض خطير ، ذلك أن فكرة الطورانية بدعوتها إلى تمجيد المنصرمة التركية وإبرازها لروابط القربى بين الأتراك في الدولة العثمانية وإخوانهم في الجنس في آسيا الوسطى تنقض فكرة الوحدة العثمانية التي كانت ترمي إلى توحيد الأجناس المختلفة في أمة واحدة على أساس المساواة بين الجميع ، لقد عجزت جمعية الاتحاد والترقي عن إدراك التناقض بين الفكرتين أو أنها أدركته فاختارت سبلاً غير مجدية بمحاولة التوفيق بينهما ولم تنجح هذه المحاولة إلا في إثارة الأجناس الأخرى وخاصة العرب إلى الإهتقاد بأن معناها الوحيد هو حلهم على النخيل من أمانهم الفكرية العربية وأن يبيعوا لأنفسهم أن « ينتركوا » من أجل الوحدة .

كما أخذ عليهم ما وصف بأنه خطأ فاحش وهو « إتباعهم نظام المركزية وهو نظام استثماره كما استعاروا كثير غيره من أفكارم الرئيسية من مبادئ الثورة الفرنسية ولكنهم حين استثماروه أخفوا فارقاً جوهرياً بين حال ١٧٨٩ وحال الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ . فضلاً عن أنهم « تخلوا عن مبدأ

المساواة والقوة ، ولجأوا إلى سلطتهم بأساليب كانت أحياناً إستفزازية وتدل على الحق ، لئلا يرجع المصلحة التركية والاضرار باخوانهم العثمانيين وحكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركي ولقد كنت أود أن ننظر في هذه الأخطاء جميعاً ، وتقارن بين أعمال الاتحاديين وبين أعمال السلطان عبد الحميد ، لنعرف أيهما أصدق إيماناً بالدولة العثمانية وأيها كان خائناً وجلادها ، . وحقيقة أخرى طالما أخفاها مؤرخو الاتحاديين والسلطان عبد الحميد ، هي القويمة في المواقف التي يتعرض فيها الاتحاديون للمواخذة فيجعلونها مبهمه أو يصيغونها في صيغة معجزة ، والمواقف التي تكشفه هذه الوقائع جميعاً والذي نستطيع أن نصل إليه أن « الاتحاديين » وليس السلطان عبد الحميد هم الذين كانوا مستبدين ، ظالمين ، هم الذين ساقوا العرب إلى أشد المهانة ، وحاولوا تحطيم روحهم للعنوية ، وإذلالهم وتزريكهم ، وهم الذين قدموا في السلاسل ليلسواهم إلى الاستعمار الغربي وسيطرة اليهودية العالمية .

وحقيقة أخرى هي أن المواجهة العربية والردى على التحدى إنما كان أصلاً موجهاً إلى أحمد جمال وإلى الاتحاديين أنفسهم وليس إلى الدولة العثمانية أو الأتراك الذين كانت تجمعهم بالعرب أسرة قوة لا تنقسم . وغاية القول أننا يجب أن نفرق في هذه المرحلة بين عهدين : عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ وعهد الاتحاديين الذي امتد من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ وكان مقدمة لخطوة أشد عنفاً وقسوة وهي مرحلة الانقلاب التركي الذي قام بين مصطفى كمال في وجه الإسلام والعروبة جميعاً . وكان هذا هو التخطيط الاستعماري اليهودي الذي تم على مرحلتين . والمعروف أن مصطفى كمال كان عضواً في الماسونية وعضواً في الاتحاد والترقي ورفيقاً لقادة ما قبل الحرب ( طلعت وأنور ونيازي وغيرهم ) والسكنه « حجب » لأمر ما في الفترة الأولى ليقوم بالمرحلة الثانية . ولقد كشفت النصوص والوثائق المعلنة تبعية الاتحاديين لكل خصوم العرب والإسلام ، ويسجل المقتطف ( مارس ١٩٠٩ ) برقية مرسله من الاتحاد والترقي إلى جريدة التيمس يقول : « على كل ما صدر أعظم أن يتبع سياستنا الصريحة الوداد لانكلترا طبقاً لمشيشة الأمة العثمانية كلها . ونحن واثقون مع ذلك أن صداقة انكلترا القديمة العهد العظيمة للمستمره لبلادنا لا ننظر فيها إلى الأفراد بل إلى الأمة بأسرها واثقون أيضاً أنه يمكن لحكومتنا أن تعتمد على ميل انكلترا إليها لكونها أمة صديقة لها » .

(٤)

كانت أولى خطوات الاتحاديين في الحكم بناء منهج سياسي وفكري للدولة العثمانية مستمد من النظرية الغربية العلمانية جرياً وراء الخطة التي رسمتها الماسونية في الثورة الفرنسية وإلغاء المفاهيم الإسلامية وإحلال مفاهيم غربية خالصة بدلاً منها . ولذلك فقد سارع الاتحاديون بإصدار تصريحات تقول بعزل الدين عن السياسة وقد قال أحدهم : ( انه لا محل للجامعة الإسلامية في برنامج تركيا الفتاة فضلاً عن استسلامهم لبريطانيا استسلاماً كاملاً بعد أن أعلنوا أنها آذرتهم في انقلابهم . وقد وصف ذلك فريد وجدي في ذلك الوقت فأشار الى « نكران هذا الحزب للعاطفة الدينية وسعيه في تكوين دولة مختلطة بإهمال الصبغة الإسلامية . وقد أشار كثير من الباحثين إلى خطة الاتحاديين في اللجنة الدولة العثمانية وهي خطة أسروها وعملوا لها في الخفاء حتى يتمكنوا من « توفير اللجنة » بأقل ما يمكن من المعارضة وبدون أن يشعر الناس أن اللجنة أمر يتعارض مع الإسلام » . وقد جاءت « الحركة العلمانية في تركيا تقليدياً للحركة العلمانية في أوروبا ، وقد كانت تستهدف أساساً لجنة « التربية والقضاء » كما عمدوا إلى تخطي العصر الإسلامي والذهاب إلى أبعد مدى في الجاهلية الأولى ، وهي نفس الخطة التي وضعها القنود الأجنبي والتبشير والماسونية في مصر ولبنان وغيرها . وكما ارتبطت دعوة الاتحاديين بالعلمانية والنظريات الغربية ، فقد ارتبطت بقبول الاستعمار الغربي الذي سيطر على بعض البلاد العربية كإقرار الاحتلال البريطاني في مصر وهو ما كان رأى خريجي الإرساليات التبشيرية أمثال الدكتور شبلي شميل داهية النظرية المادية والذي كان في نفس الوقت ممالاً للاحتلال البريطاني .

(٥)

فتحت الأبواب بعد سقوط عبد الحميد لكل الأفكار ولكل الدعوات للمعارضة للوحدة الإسلامية واختلافة الإسلامية والإسلام نفسه ، وأتيحت الفرصة لكل الغلاة ولخصوم العرب والإسلام في أن يذبحوا كل مامن شأنه أن يحقق للاستعمار الغربي واليهودية العالمية مطامعها وأهدافها . وخرجت جماعات خريجي الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية لتسيطر على الفكر من طريق عدد من الصحف : في مقدمتها أقدام وترجمان وجون ترك وحقيقة .

وكانت الإرساليات التبشيرية في الآستانة قد تركزت منذ القرن السابع عشر عندما سمح للبعثات

الكاثوليكية بالإقامة في أراضي الدور العثمانية ثم تعددت فأصبحت هناك إرساليات للأرمنيكين والإنجليز واليسوحيين والعاشرين والبروتستانت وكانت هذه للدارس كلها متمثلة بالحرية في بث مناهجها . وكان هؤلاء الذين قادوا الفكر التركي يصدرون من مفاهيم التبشير وللناسونية ، وهي ترفض الدين رفضاً أساسياً وتعتمد أنه مصدر التأخر ، وأن الإسلام هو مصدر تأخر الدولة العثمانية ، ولم يكونوا قد تبينوا حقيقة ما يريدون أو ما ألقى إليهم ، ولو بحثوا لعلوا أن الدين بمفهوم الإسلام لا يكون مصدر تأخر وأن مصدر التأخر هو ما كانوا يطبقونه وأن أسلوب العمل الأمثل ليس هو رفض الإسلام بل تطبيقه على أصوله الصحيحة . وكان هذا هو الغزو الحقيقي للدولة العثمانية . وللعرب والمسلمين منطلقاً من فلسفة واضحة مرسومة تنفذها الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وكلها تنضح بالكراهية والحقد على الإسلام والعرب وهدفها القضاء على دولة الإسلام الكبرى وإلغاء الخلافة ونزق الدولة العثمانية وابتلاعها واستعادة ما أحرزه محمد الفاتح والانتقام من سيطرة الدولة العثمانية على أوروبا . كانوا يربطون أنفسهم بالثورة الفرنسية التي صورت لهم على أنها أعظم حدث في العصر الحديث وأنجسوا إلى الفلسفات الغربية فاهتنتقوها حتى كان أمثال أحمد رضا تلميذ أوجست كوت يرفض أن يذكر اسم الله في القسم وقد بلغ ذلك إلى الحد أن هانوتو قال : إن تركيا الفتاة من اللغة الفرنسية .

ومن هنا يمكن القول أن كل هذا الاضطراب الفكري والسياسي الذي حدث وكان على حساب العرب والترك إنما كان نتيجة الإرساليات والناسونية ، وأن أهلاماً كباراً لمعت أسمائهم هنا وهناك كانوا ضحية خدعة كبرى فبرت لهم ووضع لهم مظهر براق أغشى العيون وسيطر على العقول والقلوب . وكان ذلك كله في خيبة مفاهيم الإسلام وقيمه التي كانت قد ضعفت في هذه المرحلة ضعفاً شديداً ، مما أخرى القيم الغربية لخدمة الاستعمار واليهودية العالمية بالسيطرة وقيادة اللاتوقف كله . ولم يكن ذلك التحول هو نهاية للطف في أمر العرب والترك ولكنه كان مقدمة لمرحلة أشد خطورة بعد الحرب العالمية الأولى .

## (٦)

واجه العرب خطورة الاتحاديين في قوة وكتب الصحف تكشف مخططاتهم وكان في مقدمة الكتاب السيد رشيد رضا في مجلة للنار وكان هو قد سافر إلى استانبول فأقام عاما كاملا إبان حكم الاتحاديين وفهم أن خطة تفريك العناصر العربية هي عمل ماض لا يتوقف : « وأنهم لا يرجعون عنه

وأنهم جازمون بسهولة تهريك بلاد سوريا والعراق في ضنين مفردة وما يعسر تهريكه الآن في جزيرة العرب يعد من للمستعمرات التي يوضع لها قانون خاص لإدارتها ، وقال إنهم : أرسلوأطائية من طلبية الترك إلى أوروبا من أجل دراسة قوانين الاستعمار . وأشار إلى موقف العرب أمام التحدى وبرر اتجاههم للعمل في مجال العروبة وقال : ما أعاد العرب إلى العصبية بعد أن أبعدهم الإسلام عنها إلا الاتحاديون بباحث العصبية التركية . فقد بعث الاتحاديون بمصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب تأثير العصبية المربية وأحيوها بعد موتها . قال : لقد أزال الإسلام من نفس العرب عصبية الجفسية وما غلبت عليهم البداوة إلا بما توارثوه من الفرائز والأخلاق لا يخضعون إلا لسلطة رؤسائهم . وقال إن العرب أبقوا الشقاق بينهم وبين الترك حتى لا يقضى ذلك إلى زوال الدولة واستبدلاء الأجانب عليها ، أما وقد وقع الأمر من قبل الاتحاديين فلا مفر لانقائه وقد حصل ، وخلفه للمقتضى لاحتيا هذه الجفسية وهو وجوب المحافظة على اللغة العربية والأمة شرعا .

وأشار إلى خطة الاتحاديين في تسليم طرابلس الغرب وبرة إلى الايطاليين ، فضلا على عقد الاتفاق بينهم وبين الدول الكبرى على الاعتراف لها بالنفوذ الاقتصادي في أعظم الولايات العربية ليقترضها عشرات الملايين من الجنيهات . وأشار إلى أن الاتحاديين وضعوا الدولة في الأحكام العسكرية العرفية ، وجعلوا من ذلك وسيلة التشكيل بالعرب والأرمن حسب خطتهم للقررة منذ سنين فصلبوا في سوريا جميع من عرفوا من المطالبين بالإصلاح من تابعي العرب ونفوا من البلاد أرباب البيوتات وصادروا أموال الناس وفعلوا مثل ذلك في العراق ثم تحرشوا بالحجاز ، ا هـ .

## (٧)

وكان هناك مفهومان للعروبة في علاقة العرب بالدولة العثمانية (الأول) مفهوم لبناني يقوم على ذلك الشعور الذي نماء الاستعمار والإرساليات في نفوس غير المسلمين بالخوف من أي وحدة إسلامية أو هربية وهو ما يدهو أساسا إلى إقامة كيان خاص في لبنان بعيد عن أي تجمع يحمل للسيحيين أقلية . هذا المفهوم هو مفهوم اللبنانية ، الخاصة الذي يحمل معه تاريخ العرب قبل الإسلام ويحاول أن يعلى من شأن الفينيقيين ودورهم التاريخي وقد اتخذ من اللغة العربية سلاحا ومن العروبة مظهرًا حتى يجمع إليه بعض الطوائف الإسلامية كالدرورز وغيرهم . وتقوم فلسفة هذا الاتجاه على المفهوم العثماني الخالص الذي يرفض كل ما يتصل بالإسلام أو تاريخه أو قيمه في نظام المجتمع أو الحكم أو غيره وهذا هو ما اتسع نطاقه من بعد ذلك تحت إلحاح الارساليات التبشيرية والحافل الماسونية حتى أصبح

مفهوم القومية العربية التي أريد لها أن تشمل العالم العربي كله وتقضي على للمفهوم العربي الأصل ذي الجذور الاسلامية الأساسية والمفتوح على الشعوب المرتبطة بالفكر الاسلامي . ولقد كانت هذه الدعوة المنبعثة من وضع لبنان الخاص وظروفة وتحدياته قد أريد لها تحت النفوذ الاستعماري الثقافي أن تعمم وتشيع وتذاع حتى قامت على مفهومها أحزاب ودعوات حمل لواءها غير للمسلمين وعملت على أن تسيطر على العالم العربي كله ولا تقف عند لبنان وحدها . وكان من وراء هذا المفهوم النفوذ الاستعماري الذي كان يخشى مفهوم العروبة الأصل .

( الثاني ) هو مفهوم العروبة للستمد من التحديات التي واجهها العرب بعد اتساع نطاق الحركة الطورانية وتمحيداتها إزاء العرب وانهم وتاريخهم والتي وصلت إلى أسوأ مظاهرها على أيدي الاتحاديين بتعليق الدعاة إلى العروبة على المشائق وقتلهم في ساحات بيروت ودمشق عام ١٩١٥ و ١٩١٦ . وهذا المفهوم بدأ أساساً في دمشق على أيدي طاهر الجزائري ومحب الدين الخطيب ومعهم كثيرون وكان هذه الحلقات قد تشكلت فعلاً في خلال حكم الاتحاديين وبدأت تخطو في ظل حركة اليقظة الاسلامية العربية التي كانت قد بدأت فعلاً قبل ذلك وحملت لواءها جماعات كثيرة كالوحديين الوهابيين في الجزيرة العربية والسعودية في طرابلس الغرب والمهيدية في السودان وجمال الدين ومحمد عبده في مصر . وكانت بشهادة مؤرخيها تركز على اللغة العربية وتؤكد دور العرب في التاريخ مرتبطاً بالاسلام وبالدولة العثمانية . وقد أشار السيد محب الدين الخطيب والأمير شكيب أرسلان وعبد العزيز الدوري إلى أن هذه الحلقات كانت تدعو إلى دراسة تاريخ العرب وقواعد العربية وآدابها وتهدف إلى بث العروبة من حولها . وكان ذلك عملاً ضرورياً في مواجهة حملات التشكيك التي قامت بها الارشاليات الأجنبية بالإضافة إلى ما اندفع اليه الاتحاديون من تبريك العرب والقضاء على اللغة العربية . وقد كان مفهوم العروبة هذا في الحقيقة هو نقطة البدء الحقيقية للوحدة العربية الحديثة وإن كل ما سبق ذلك من دعوات ومحاولات حملت اسم العروبة أو اللغة العربية وخاصة ما عرف في بيروت وبدأ من المدرسة الانجيلية السورية لم يكن يمثل مطلقاً اتجاهها عربياً أصيلاً .

وأما كان دعوة إلى إقامة السكك الحديدية اللبنانية بمبدأ من الدولة العثمانية والعروبة جميعاً وقد اتخذ اسم العروبة والحديث عن اللغة العربية « غطاءً » يغري به بعض المسلمين وخاصة من كان منهم متصلاً بالمخالف الماسونية . وكان ذلك مقدمة لابرار نظرية للعروبة موالية للغرب ، تستمد مقوماتها

من أصول غربية وتنعزل تماماً عن مفهوم العروبة الأصيل ذى الجذور الإسلامية . أما الدعوة إلى السكبان اللبناني فذلك أمر له طبيعته وظروفه وواقعه التاريخي الذى بدأ منذ عام ١٨٦٠ ومضى فى طريقه إلى اليوم . هذه النظرية التى أقامتها الإرساليات والقوى التنفيرية والمستشرقين والماسونية ، وقصد بها أول الأمر لبنان ذاته ، من الخطر ومن الاستهانة بالفكر العربى الإسلامى كله أن تفرض وتعمم ويحاول بعض معتقبيها من ذوى الولاء الغربى أن يفرضوها نظرية عامة للعروبة تأخذ بها الأمة العربية كلها . وقد أشار فيليب حتى إلى موقف لبنان من العروبة فقال : أما النصارى فى لبنان فانهم كانوا يؤثرون القومية اللبنانية بالرغم من أن أعداداً قليلة من المفكرين كانوا يظهرون العروبة .

وهنا يبدو ذلك للنحنى الخطير بين تيارين يواجهان العروبة فى ذلك الوقت البكر — خلال حكم الاتحاديين وقبل وأثناء الحرب العالمية الأولى — هو محاولة الدعوة الطورانية التى ترى إلى أن نزيل من العرب وجودهم الفكرى واللغوى والتاريخى ، ثم محاولة الدعوة اللبنانية للانبثاق من الإرساليات والمحافل للماسونية التى تهدف أن نزيل عن العرب تراثهم مع قيمهم الأساسية التى أقامها الاسلام والقرآن والفكر الإسلامى وأن تضعهم فى قالب من نظرية غربية فى القومية فرضتها ظروف وتحديات فى أوروبا لاتنصل بالعرب بسبب ، ويختلف موقفنا منها تماماً فالعرب قد قبلوا بالعروبة إزاء تحديات الاتحاديين ودهوتهم الطورانية وكانت الحركة العربية أساساً منبعثة من دمشق لا من بيروت ، وقد بدأت بعد ظهور الحركة الطورانية لاقبلها ، واقتصرت على الشام والعراق والجزيرة العربية وكانت فى آخر مراحلها خلال الحرب تنطلق إلى دولة تضم هذه الأجزاء وهو ما لم يتحقق ، فالعروبة التى قامت فى سوريا العربية منفصلة تماماً عن الدعوة اللبنانية التى أرادت أن تقيم كياناً لبنانياً معبراً عن مختلف تيارات الجامعة الإسلامية أو العروبة التى تشمل أكثر من دولة . وكانت هذه الدعوة اللبنانية دعوة ضرورة عليها ظروف هذا الجزء وتاريخه وكانت امتداداً لوضع فرضه النفوذ الغربى عليه منذ ١٨٦٠ حين هزله عن الشام وعن الدولة العثمانية وعن سوريا وأرادته منطلقاً لخطط واسع المدى فى وجه وحيدة العروبة والاسلام . فليست الدعوة اللبنانية إلا ضرورة لظروفه الخاصة ، أما محاولة فرض هذا المفهوم على «العروبة» نفسها فإنه ليس طبيعياً ولا يتفق مع مفاهيم وثقافة ومقومات المجتمع كله الذى يقوم فى أغلبه على الاسلام وتربط فيه اللغة العربية بالقرآن ارتباطاً وثيقاً .

ولقد كان الخطأ الوحيد وللقصود هو تفريغ العروبة من مقوماتها التاريخية والشفافة والعائدية

وجعلها مفهوماً وافداً خالص الاستمداد من النظرية الأوروبية للقوميات والتي تقوم أساس العلمانية في القانون والتربية والتي تفصل بين الدين والمجتمع . لقد كان لأوروبا ظروفها الخاصة في هذا الصدد . بل إن القومية نفسها في أوروبا إنما قامت على أساس إزاحة السكبان للوحدة الذي أقامته الكنيسة الكاثوليكية . لقد بدأت القومية في أوروبا في مواجهة الكنيسة ، وكانت نظريات الأجناس والعروق هي الدعوة التي أريد إحلالها محل الروابط الدينية ومن هنا بدأ ذلك الصراع بين الأديان والعروق وقد جعلت اللغة منطلقها . والدعاة إلى القوميات : مبادئها وحقوقها كانوا في الأغلب من أتباع اليهودية العالمية والماسونية وفي مقدمتهم ما كس أوردو الذي استشهد به (ساطع المصري) ووصفه بأنه المفكر الألماني الشهير وحاول أن يخفي حقيقته كغفليسوف يهودي وما استنبج ذلك من اختياره خليفة لهرتزل في جمل لواء الصهيونية بعد وفاة صاحب كتاب الدولة اليهودية عام ١٩٠٤ . ولقد غلا نوردو في تقديس القومية حين قال : إن الذين فقدوا البصيرة هم وحدهم الذين يزعمون أن أن الفكرة القومية هي من الآراء الطارئة التي لا نلبث أن تندثر . إن الوعي القومي من الأمور التي تحدث بالضرورة وبصورة طبيعية في مرحلة معينة من التطور البشري في الأفراد وفي الجماهير إنما من الظواهر والحوادث الضيقة التي لا يمكن تأخيرها ولا سبباً منعها مثل حوادث الجزر والمدن في البحر وحرارة الشمس في موسم الصيف . . ولقد تعددت في أوروبا نظريات القومية ، فأقامها (لختة) على أساس وحدة اللغة وأقامها (أرلست وينان) على أساس المشيئة وأقامها (ماتالين) على وحدة الأرض واللغة والثقافة والاقتصاد . وقد طرحت هذه النظريات في العالم الإسلامي دون تقدير للفوارق الفكرية والاجتماعية بين أوروبا وبين العالم الإسلامي . فقد كان الغربيون قد حددوا موقفهم من الكنيسة بعد الثورة الفرنسية ، وعزلوها عن مجال التأثير السياسي والقومي وكان ذلك مقدمة لبروز القوميات لتخلق الصراع بين الأمم والدول ، مما يمكن لليهودية العالمية من السيطرة على كل أمة على حدة . وبما يقضى على النفوذ الديني المسيحي الذي حاولت القوميات استبداله بعلمانية القانون والتربية . ولذلك فلم يقع هناك من الخلاف في شأن مفهوم القومية ما وقع في العالم الإسلامي .

ولقد أشار الباحثون إلى عدم تقييد القوميات في البلاد الأوروبية بالأديان والمذاهب إنما كان نتيجة طبيعية لتعاليم الانجيل التي تفرض فصل الدين عن الدولة ، وفق القاعدة التي تقول : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، أما في الإسلام فإن ما لقيصر هو لله أيضاً ، وأن العمل بمبدأ فصل الدين عن الدولة بصورة فعلية لم ينتشر في أوروبا إلا بعد أن تقرر مبدأ حرية الاعتقاد بصورة نهائية بعد سلسلة طويلة من الأحداث الدامية والحروب البطاحنة والتطورات الفكرية والاجتماعية الخطيرة .



ولقد كانت طبيعة التركيب الاجتماعي والسياسي للعالم الإسلامي تتعارض مع تصور القومية على المفهوم الأوربي، لذلك لم يتغلغل في نفوس الشعوب الآسيوية والأفريقية وكان الاستعمار الغربي هو الذي بشر بها وأراد بها تمزيق وحدة العالم الإسلامي وضرب الأجناس والعناصر والعروق بعضها ببعض كوسيلة لإقرار نفوذه الذي يتمرد بقاؤه في ظل الوحدة الشاملة، وفي مجال الأمة العربية كذلك نشر مفهوم الأقليات الضيقة حتى يحول دون تجمعها. ولا شك أن مسألة العلاقة بين الدين والسياسة في البلاد الإسلامية أمر جوهري وجذري وحاسم ولا سبيل إلى إقرار مفهوم القومية الغربية فيه، فضلاً عن أن كل أمة من شأنها أن تشكل مفاهيمها إزاء القضايا التي يطرحها الفكر الغربي من واقعها ومن مصادره الذاتية. وليس صحيحاً ما يردد ساطع الحصري حين يقول (إن الخلط بين الدين والسياسة استمر في البلاد الإسلامية) فهو تعبير يدل على غفلة واضحة لحقائق أساسية في الفكر الإسلامي لا يجوز أن يتجاهلها الفكر الغربي مسلم، ولكن ساطع الحصري كان امتداداً لمفهوم الانحاديين في القومية المستمد من الفكر الغربي. لقد كان ذلك مبدأ الصراع في الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، بين الجلسيات والأديان، وخاصة بين أصحاب الدين الواحد: «الترك والعرب والفرس» وأخذت الدعوات تتصارع بين ثلاث محاور: الجاهلية الإسلامية والعروبة والأقليات. ولقد كانت دعوات العروبة والأقليات في أساسها محاولة لخلق ذلك الصراع التي يعزق الجاهلية فلا يلتئم شملها أبداً. لقد كانت دعوة القوميات القائمة على الأجناس والدماء والأعراق قد شنها اليهود في أوروبا من أجل القضاء على وحدة الكنيسة في أوروبا وإثارة الصراع بين الأمم جميعاً، ثم لقد نقلوها إلى العالم الإسلامي من أجل تمزيق وحدة فكر المسلمين والعرب. ولقد قال جان نيتو: إن نظرية الأجناس ستحتل مكاناً هاماً في تاريخ أضراليل الفكر البشري. ولقد أشار فيليب حتى إن دعوة القومية التي طرحها في العالم الإسلامي مستوحاة من الفكر السياسي الفرنسي ولا سيما ذلك الفكر الذي تجسد في الثورة الفرنسية. وفي مبادئ الحكم في الجمهورية الثالثة، ولا شك أن نظرية القوميات بصورتها هذه كانت مخالفة لمفهوم الإسلام.

لقد تقرر ذلك حتى يقول فيليب حتى: «إن الإسلام لا يعترف بمواجز جغرافية وفوارق طائفية والإسلام دين شامل في نظريته ودولي فوق الدول والتوكيد في الإسلام قائم على القيم الروحية التي تربط بين المسلمين لا على المسائل الاقتصادية». ولكن ولأمره لدينه قبل كل شيء. ولقد أشار (حتى) إلى مفهوم القومية في الغرب وكيف أنه لا يمكن أن يكون مقبولا في العالم الإسلامي، حين أشار إلى أن القومية الحديثة في نظر أهلها «أشد رسوخاً في نفوس معتنقيها من ولائهم لدينهم» وقوله «إن

القومية الحديثة لا تستطيع العيش إلا في جو علماني . وإن هذا الصرب من القومية في شكلها المتطرف في العلو يصبح بذاته ديناً يعتقد الناس . ويعلق ( حتى ) على ذلك فيقول : ولهذا السبب فإن الروح القومية كحركة وأعيه ذات أهداف معينة لم تنجح في العالم العربي ولم تلتشر فيه إلا بعد الحرب العالمية الأولى . والمعروف أن أوروبا قاومت الكنيسة والمسيحية بعد أن وقفنا في وجه النهضة العلمانية أما الإسلام فليس كذلك بل هو مبدع المنهج العلمي التجريبي . والواضح أن الكنيسة حاولت أن تحكم في الغرب وأقامت الدولة البيروقراطية ، ولكن الإسلام لم يعرف حكومة رجال الدين ، وليس فيه رجال دين أصلاً ، لم نفوذ أو مؤسسة تفرض إرادتها . ومن هنا فإن اختلافاً بعيداً بين موقف أوروبا وموقف العالم الإسلامي من القوميات ومن الأديان على السواء ، ولقد كان الإسلام منذ نزوله قائماً على الترابط بين العقيدة والشريعة ، وبين الدين والمجتمع ، ولقد نهى الإسلام عن تعصب الجنسيات والعروقي وإعلامها وأعلى من شأن الأخاء الإنساني العام . وهناك وجه آخر من أوجه الاختلاف بين مفهوم الجنسية في العالم الإسلامي وفي الغرب ، فالقومية في نظر الشعوب الغربية ضيقة شرسمة متعصبة مفرطة بالتمسك بالهوية الإنسانية ، تشيع فيها روح الاحتقار الشديد بين مختلف القوميات الغربية بعضها تجاه البعض الآخر ، فهي تتضارب وتتصارع ولا نلتئم بينها في ضوء القرآن وقيمه ومفاهيمه . فهي جنسيات مفتوحة ترتبط بوحدة فكر تملو على رابطة الدماء والأهراق . ولقد علمت روح العنصرية في القوميات العربية بما لم تستطع روح المسيحية أن تحسد منها أو تلتفها ، ذلك لأن المفاهيم الوثنية التي غلبت على الفكر الغربي والحضارة الغربية حتى حدثت من طابع المسيحية الإنساني .

ولقد كانت الروح الغربية أساساً متعصبة وغير متسامحة ، فلما جاءت المسيحية حاولت أن تصلحها ، غير أنها لم تستطع ذلك ، ومن هنا علمت في أوروبا صيحات الأجناس : واستعلاء الجنس السامي على الجنس الآري ، وفكرة شعب الله المختار عند اليهود وفكرة ألمانيا فوق الجميع عند الجرمان ولقد أخذ الغربيون هذه المفاهيم من اليونان القدامى الذين يقول فيلسوفهم الكبير أرسطو ( الحمد لله الذي جعلني يونانياً لا بربرياً ) وعن اليونان برزت تعبيرات ( الوطنية ، والعصبيه الجنسية ) ثم أخذتها القوميات الغربية وطبعها بطابع التعصب ضد القوميات الأخرى ، ومن ثم قامت المذابح والمشارك الدموية واتسمت بالقداسة والذومية ، وبمثل هذا لا تجده في مفاهيم المسلمين والعرب ، ولا تتقبله فكرة العروبة ولا ترضاها النفس العربية . وهناك من الآراء ما يحاول أن يشكف عن أن اليهودية التي تغلبت في الفكر العربي وسيطرت عليه هي التي أرادت بتعميق القوميات في الغرب القضاء على

روح المسيحية الموحد الجامع وأن اليهودية أفادت بذلك الصراع بين القوميات المسيطرة عليها جميعها وضررها بعضها ببعض لتكون هي المسيطرة عليها .

( ٨ )

## دعاة الطورانية

كان أبرز دعاة الحركة الطورانية في الدولة العثمانية مهاجرون من الروس ، هم الذين حملوا لواء هذه الدعوة في مقدمتهم اقشورا أوغلي يوسف وأحمد أغايف وأبرزم : ضيآل كوكب الب . وكان الب تلميذاً مختصاً لدور كيم ، يرى أنه ينبغي على تركيا أن تقتبس من المدينة الغربية على أن تحتفظ بشخصيتها القومية دون اهتمام بالإسلام وحضارته . وكان يتردد بين آراء دور كيم الاجتماعية وفلسفة برجسون الروحية . وقد ظهر في « جو » تحرك الاتحاديين الواضح نحو الغرب حيث أغرق الفكر التركي الإسلامى بسيل من ترجمات الماديين في القرن التاسع عشر : وفي مقدمتهم بختنر وأرنست هيكل وكثرت المناقشات حول آراء فولتير وروسو وكان الاتحاديون بلا استثناء من العلمانية اللادينيين الذين نضجوا في الحافل الماسونية أو معاهد الإرساليات التبشيرية . وكان هو من أول المنادين بالطورانية كأسلوب للجامعة التركية أو القومية التركية وذلك في تمهيد واسع للبلاد العربية وغيرها من الأمم المرتبط بالدولة العثمانية .

وقد نادى بأن تكون لغة الأستانة العامية هي اللغة العامة بين جميع الأتراك في الشرق والغرب كي تناسس بين عامه الأتراك وحدة أديبه وبدأت الصحف في قازان وبأكو تصدر بلغه الأستانة . ومن جماع هذه الآراء يبدو أثر التبعية الواضح في فكر الب واتجاهاته ، فيعطى صورة لما كان النفوذ الاستعماري يدهو إليه في مصر وغيرها ويحمل لوائه ويلسكوكس ولطفي السيد وطه حسين ومسلمه موسى وغيرهم . ويمكن أن يقال أن آراءه كانت الإرهاصات التي حققتها حركة الاتحاديين الكبرى بعد الحرب بقيادة مصطفى كمال ، فقد دعا إلى إلغاء المشيخة الإسلامية والحاكم الشرعي وإلغاء المعاهد الدينية العلمية وتأسيس مدرسة للأهليات في الجامعة ودعا إلى استقلال الخلافة وفصلها عن السلطنة وهرفها بأنها الأمانة الكبرى ، وبأنها رئاسة جميع الأئمة الذين يصلون بالمسلمين في جميع أنحاء عالم الإسلام وهذا لا شك مفهوم غربي كنسى ، لا يدل على فهم حقيقى للإسلام من حيث أنه دين ودولة ونظام مجتمع كامل . وقد قبع في سالونيك بعد الانقلاب العثماني وأصدر مجلته المسماة ( كنج قليمير )

أى الأفلام الفنية وعاد إلى استانبول عقب نشوب حرب البلقان وهين مدرسا بجامعة استانبول حيث قام بدور خطير في تنظيم الجامعة على نظام الجامعات الأوروبية وأصدر ديوانين من الشعر عرض فيها آراءه الخاصة في المجتمع التركي وفي نهاية الحرب العالمية الأولى نفي إلى جزيرة مالطة ، وبعد الانقلاب الكمالى هين رئيساً للجنة التأليف والترجمة بوزارة المعارف التركية وأصدر مؤلفاته : تاريخ التمدن التركي ، الضوء الذهبي ، وأسس القومية التركية وبعد الب : الأستاذ والمرشد والموجة الأستاذ ساطع الحصري الذى تتلمذ عليه خلال هذه المدة فى الأستاذة وسالونيك ، والمعروف أن ساطع الحصري كان من أقطاب الاتحاديين وقد تولى بعد الحرب عدة وظائف فى التعليم وقد نقل خطط وأفكار وفلسفة كوك الب فى القومية التركية الطورانية إلى دراساته التى كتبها عن القومية العربية وبعد كوك الب أول من قال أن المسلمين ليسوا أمة ، لأن الأمة تعرف بلفتها الواحدة . ومن تلاميذه فؤاد كوبرى أحد الثلاثة الذين أسسوا الحزب الديمقراطي فى تركيا .

ولا شك أن كوك الب كان وراء هذه المدرسة الفلسفة الجديدة التى قادها مصطفى كمال ونقل بها الترك نقلاً كاملاً من الفكر الإسلامى إلى الفكر الغربى . وقد كانت التيارات الغربية خلال السنوات العشرة التى تعد مرحلة الانتقال من الجامعة الإسلامية إلى الجامعة الطورانية المعتدلة ، حافلة بالتيارات الغربية المضاعطة إلى الحد الذى كان يصعب على أى صوت من أصوات الفكر الإسلامى أن يرتفع أو يعلو ، أو يكشف الحقائق أو يصحح الأخطاء . فقد اندفعت الأفلام فى الاتجاه الغربى المادى اللادىنى إلى أبعد حد وذلك من أجل إذابة تلك الآثار الإسلامية التى ارتبطت بها العقلية التركية لتحريرها منها نهائياً .

( ٢٢ )

### الاقليميات الضيقة

فى نفس الوقت الذى كانت الدولة العثمانية تنقسمها الطورانية فى تركيا ، والاقليمية فى لبنان ، كانت هناك الإقليمية المصرية ذات الطابع الفرونى فلقد وزعت الدعوة إلى الإقليميات الثلاثة فى وقت واحد كبديل للجامعة الإسلامية والرابطة العربية الإسلامية واختير لها هذه الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ، أو السنوات العشر التى تمتد من ١٩٠٧ فى مصر و ١٩٠٩ فى بيروت واستانبول والتى أفضت إلى هدمها للرسم بعد الحرب العالمية الأولى فغيرت العقلية العربية

الإسلامية ودفعتها نحو تبني الانفصال والتمزق بين العروبة والإسلام بعد أن سقطت الدولة العثمانية التي كانت بمثابة الكيان الجامع للعرب والترك . والإقليميات الثلاثة كانت تقوم على أسس ثلاث : ( أولاً ) النظرة القائمة على الإجناس والدماء والأعراق الغالية في الجنسية ، الخاصة للأجناس الأخرى المحقرة لها ، العملية لأجناسها إلى أبعد الحدود وإلى ما تكذبه وقائع التاريخ . ( ثانياً ) العمل على تخطي أربعة عشر قرناً من الإسلام والعروبة لمعاودة الاتصال بتاريخ قديم بائد من طورانية ، أو غسان أو فرعون مع أن الإسلام قد أزال كل آثار هذه الحضارات القديمة التي لم يبق لها كيان يمكن إعادته فضلاً عن تعارضها تعارضاً كاملاً مع دعوة التوحيد . ( ثالثاً ) كانت هذه الدعوات جميعها في الواقع المعاصر ترتبط بالفكر الغربي الليبرالي ، القائم نظريات زائفة عن الثورة الفرنسية ومفاهيم مغلوطة عن الحرية والديمقراطية والقومية تستمد وجودها من واقع الغرب المختلف تاريخياً وحقائدياً عن واقع العالم الإسلامي .

ويكاد يرى الباحث المؤرخ أن الدعوة إلى الإقليميات الضيقة ظهرت كلها في وقت واحد استهدفت إعداد العالم الإسلامي وخاصة ما كان منه في نطاق الدولة العثمانية إلى مرحلة جديدة هي نهاية المؤامرة الكبرى التي بدأت بعزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ والتي انتهت ١٩١٨ بسقوط الدولة العثمانية وتمزقها والتي جاءت عام ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة الإسلامية وكانت فترة ما بين عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ هي فترة خلق هذا البديل الذي طرح في آفاق الفكر الإسلامي تركيا ومصر وبيروت على ثلاث دعوات إقليمية مختلفة الطوايع والمناهج ، بينما كانت الدعوة إلى العروبة في سوريا تمثل كياناً جغرافياً محدداً وتمثل طابعاً إقليمياً أيضاً في الصراع مع الطورانية والأتراك ولم تكن ذات مفهوم قومي صريح أو شامل . كان الهدف هو إحلال بديل إقليمي أو قومي محل ذهوة الجامعة الإسلامية أو الرابطة العربية التركية التي استهدفتها النفوذ الأجنبي . ولما كانت مصر قد سقطت في برائن الاستعمار منذ وقت مبكر فقد أهدت لكي تكون البوتقة التي صيغت منها كل الأفكار والدعوات والمفاهيم والتي عقدت أوامر التناق وال إرسال بينها وبين مركز آخر أقيم في بيروت . ففي بيروت تركزت الإرساليات التبشيرية وعملت لتخرج أولى نماذجها ، ومصر كانت البيئة الصالحة لكي يحمل هؤلاء الخريجون أضخم رسالة وهي رسالة الصحافة والثقافة . وقد كان صروف ونمر وشبلي شبيل وخبرهم من أوائل الخريجين في معاهد الإرساليات وهم الذين حملوا لواء الصحافة في مصر ورفعوا شعارات الفكر الغربي من إقليمية وقومية وليبرالية وحوّلوا ما كانت الحافل الماسونية تقرر كأصول

لدهوتها ، وما كانت المعاهد التبشيرية تدرسه كناهج جديدة لصياغة الفكر العربي على أساسها . وإعداد أبناء اللغة العربية لتقبله ، وكان هذا هو الشطر الثاني للخطة التي تنفذ في سالونيك واستانبول داخل الدولة العثمانية على هذا النحو . وبينما كانت تحمل هذه المخططات التي أعدتها الماسونية وإرساليات التبشير دهوات الغيبيات والغرهونية وإحياء التاريخ القديم البائد السابق للإسلام كانت هذه المخططات نفسها تحمل في داخل الدولة العثمانية دعوة الطورانية وإحياء محمد جنكيز خان وهولاكو . ومن هنا كانت الخطة موحدة في الحقيقة على مستوى الدولة العثمانية كلها والبلاد العربية جزء منها ، لرسم مخطط طويل المدى بدأ تطبيقه فعلا بعد الحرب مباشرة واستهدف قيام كيان غربي في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودي ، وبه حققت اليهودى العالمية أقوى أهدافها التي بدأتها منذ الثورة الفرنسية وأعدت لها في دقة وأحكام طوال أكثر من سبعين عاماً . وفي مصر كان اللورد كرومر في الحقيقة هو قائد هذه الدعوات التغريبية ؛ وهو أكبر هدو مقاتل في وجه الجامعة الإسلامية ، ولذلك فقد مضى في خطوات واسعة :

( أولاً ) إتاحة الفرصة لخريجي الإرساليات التبشيرية في بيروت بالقدوم إلى مصر والسيطرة على الصحافة : وكان بعضها قد سبق الاحتلال البريطاني كالأهرام ، غير أنه بعد الاحتلال أمكن التركيز والإعداد لغزو البلاد العربية كلها من مصر عن طريق الصحافة . ويمكن القول أن معظم الشخصيات التي عملت في هذا الميدان قبل الاحتلال وبعضه عليها ظل من الشبهة ويحيط بها غرض وشكوك في مقدمة هؤلاء : أديب إسحق وسليم عنجورى ولويس صابونجي ، ثم جاء دور أصحاب المقطم ومعهم سليم سر كيس وجورجى زيدان وشبلى شبل وكان لهؤلاء ولاء واضح في مختلف كتاباتهم للاستعمار وكانت دهواتهم إلى التحرر دعوة مشبوهة لأنها كانت تستهدف اقتلاع العرب والمسلمين من جذورهم واحتوائهم كلية في ولاء فكرى وسياسى إلى الغرب المستعمر . وقد أشار إلى هذه الشبهة رجل لا يشك أحد في ولائه لهم هو أنيس صايغ . الذى يقول : « لم تنهم أكثرية السوريين في مصر بالعمل في سبيل عقيدة سياسية معينة بقدر ما أهتمت بالسعى وراء الرزق ومنافسة المصريين ومسابقتهم على مصدر الثروة ومعاونة الأجانب عليهم ومهاجمتهم وهم في صراعهم القومى . »

« ولذلك وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم « منحة من السماء » وأنهم « خيرة البلاد » ووصل بعضهم إلى أعلى المراكز الإدارية وبلغ عددهم في أواخر القرن الماضى ثلاثين ألفاً ، وكان معظم المحاسبين والتراجمه منهم ، ومنهم من اشتغل في الربا . »

\* وأشار إلى صحيفتي المقتطف والمقطم اللتين أصدرهما فارس نمر وبقوب صروف واسكندر مكاريس فقال : « كانت الصحيفتان اللتان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظي تأييد ومهاجمة من معان ، وكتب هؤلاء الثلاثة يدافعون عن حق الانكليز بمصر ويصفون حسنات الاستعمار ويعجبون أبطاله . ويظالبون باستمراره ويدعون أهل مصر إلى الرضوخ إليه لأنه يحميهم من داء الوطنية ١ . ولم تمر بمصر حادثة واحدة إلا وقفوا منها موقفًا معارضًا لأمانى الشعب ، فطلبوا سجن الأحرار وعارضوا توظيف الوطنيين ، بل إنهم رحبوا بإعدام الأبرياء أثر حادثة دنشواي وكانت سلطات الاحتلال تهمي المقطم بطبيعة الحال . وجريدة الأهرام نفسها التي كان لها مواقف وطنية معروفة ، آذرت الاستعمار مدة طويلة فعملت لحساب المصالح الفرنسية ورحت بالنفوذ الفرنسي في البلاد » . وهكذا يكفى لتصوير حقيقة الدور الذي لعبه خريجو معاهد الارساليات التبشيرية اللبنانية في مصر والتي كانت تعمل لاعداد الأرضية « القوة التي يقف عليها دعاة من مصر نفسها ، والتي تشكلت من بعد باسم حزب الأمة والجريدة ومدرسة لطفى السيد الفكرية والتي جاءت استجابة للمقررات التي رسمها لورد كرومر في تقاريره للنخالف الفكرى المصرى الذى يقوم على فكرة المصرية المنتهية للغرب ، المنحرفة من العروبة ومن الرابطة العثمانية ، ومن الاسلام فكرياً واجتماعياً وسياسياً . وقد حمل لواء هذه الدعوة بإصدار الجريدة عام ١٩٠٧ وشكل مدرسة فكرية انضم إليها كثيرون فى مقدمتهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى . وتبنت الكثير من الشباب الذين برزوا بعد الحرب العالمية الأولى .

كان هذا الاتجاه ضربة قوية لدعوة الوحدة الاسلامية الجامعة بين العرب والترك من ناحية وللحركة الوطنية التي حمل لواءها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش والتي كانت تضع مفهومها فى ضوء الاسلام وتحدد موقفها كجزء من حركة اليقظة العربية الاسلامية الممتدة . غير أن الموالاة الضخمة التي احتضن بها دعوته المرسومة وفق مخططة قد حال كثيراً دون نمو الحركة الأصلية وغلب عليها الفكرة التي رسمها وقتئذ والتي كانت منهج العمل السياسى والثقافى والوطنى فى مصر والبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى وخلال فترة ما بين الحربين . لقد انطلق كرومر من منطلقين كبيرين عام ١٩٠٧ . (أولاً) من منطلق ( الجريدة ) ولطفى السيد لرسم فكرة الإقليمية الطبقية المنزلة عن العروبة والعالم الاسلامى سياسياً وعن الفكر الاسلامى ثقافياً . (ثانياً) من منطلق نظارة المعارف وسعد زغلول لاقرار المناهج التعليمية والتربوية التي تقرأ اللغة الانجليزية وتقاوم اللغة العربية ، والاسلام ، والعروبة جميعاً .

وبرزت فكرة (مصر المصريين) واضحة ، مع الحملة العاصفة على فكرة الجامعة الإسلامية ، وبحقق ما طمع فيه كرومر وهو الالتقاء بالمصريين في منتصف الطريق ، وحل لطفى السيد لواء الفكر الغربى في مختلف مجالات القانون والقريبة الاجتماع وتنكر تماماً لكل قيم الفكر العربى الإسلامى . كما أنجبه لطفى السيد إلى وجهة الليبرالية والديمقراطية الغربية وعزز كلمات الأمة المصرية والوطن للمصرى والشخصية المصرية ، ودعا إلى تمصير القيم وفى مقدمتها الأخلاق والعادات بعد أن كانت عربية إسلامية . ودعا إلى التضامن بعامل الوطنية والمنفعة القومية لا بعامل آخر من عوامل الدين أو الجنس الأصلى ولس الموضع الذى طالما تحاماه دعاة الإقليمية هو الحديث عن الدين أو الإسلام وقال إن وحدة الاعتقاد سبب من أسباب المشابهات بين الأفراد وعامل من عوامل التضامن ، ولسكى أفكر أشد الإنكار أنها تصلح لأن تكون فى القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية التى يجب أن تبقى على المنافع لا على المعتقدات ، . وقد أهلى لطفى السيد من شأن المصرية فى مغالاة شديدة حتى دعا إلى تمصير اللغة وهاجم هبة المصريين إزاء غزو إيطاليا لطارلس الغرب وكتب سلسلة مقالات تحت عنوان ( سياسة المنافع لاسياسة المواطن ) .

دعا إلى نبذ هذه المفاهيم العربية الإسلامية ، وقال إنه لا شىء يربط مصر بجاراتها العربيات بل أن مصلحة مصر تناقض مصالح تلك الجارات . وهاجم دعوة شكرى العسلى إلى الوحدة العربية . وحاذى لطفى السيد فى منطلقاته جميعاً ، أهداف لورد كرومر ومنهجه الذى رسمه للفكر السياسى والاجتماعى فى مصر وكان أساس دعوته فصل مصر عن العرب والدولة العثمانية سياسياً وعن الإسلام فكرياً واجتماعياً . ويقف لطفى السيد على رأس الدعوة إلى المصرية الإقليمية المنفردة عن العروبة والإسلام ، وقد تمت هذه الدعوة من بعد واتسع نطاقها فترة ما بين الحربين .

## ( ٢ )

وفى مصر جرى العمل فى كثير من ميدان فيينا كان لطفى السيد يؤكد على العزلة عن العروبة والإسلام . وكان سعد زهلول يؤكد اللغة الإنجليزية : كان هناك رجلان آخران يعملان . أما أحدهما فهو دنلوب وأما الآخر فهو زويمر . ١ - كان دنلوب يعمل فى مجال التعليم ويقف له أخطر القواين التى ماتزال آثارها سارية إلى الآن فى العالم العربى كله ، فقد كان دنلوب مبشراً اسكتلندياً وقسيساً وقد اختاره كرومر لهذا العمل فسيطر عليه سنوات طويلة امتدت حتى أوائل الحرب العالمية



الأولى ١٩١٤ وكان قد عين مفتشاً للتعليم ١٨٩٧ ثم أصبح مستشاراً للوزارة خلال سبعة عشر عاماً. وكان المستشار الإنجليزي أقوى من الوزير المصري. وكان يعمل من أجل تحقيق الهدف الذي رسمه كروس في تقاريره، وهو تعزيز وحدة العروبة والاسلام والقضاء على طوائع العروبة والاسلام في التعليم والثقافة العربية. وكان أبرز ما عمل له هو إزالة اعتقاد الشباب المسلم في كتاب الله ومحاربة شعور الطلبة وإحساسهم الوطني والديني، وطعن روح الشباب وحماسته، واضطهاد كل طالب يظهر ميلاً أو عاطفة نحو بلاده، وكان يحرم على الطلبة كل معلم أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئاً، كما يحرم على الطلبة الصحف الوطنية وتاريخ الإسلام. وكان يدوس جميع المواد باللغة الانجليزية، ومنها الرسم والكيمياء والرياضيات والتاريخ بحيث لا يتاح للطلاب فرصة لدراسة اللغة العربية. وقد اضطهد أساتذة اللغة العربية وعلماء الأزهر. وقد أشار لطفي جمة في ذكرياته بأنهم كانوا يعلمونهم أن مصر لم تحكم نفسها أبداً، وأن الجيش المصري هزم في التل الكبير وأن المصريين ذبحوا في ليلة ١٤ سبتمبر التي كانت قمرية كما تذيب الخراف وفر قادم هراي. وقد أبطل دنلوب مختلف السكتب العربية الهامة التي كان قد ألفها على مبارك وعبد الله فكرى قبل الاحتلال لأنها تتحدث عن الاسلام والأخلاق الاسلامية كما رفع كتب عبد العزيز جاويش ونصوصه من المناهج واستبدلها يكتب تحمل خرافات لافونتين مكتوبة في أسلوب سقيم وعبارة هابطة. كما ألغى الباب الوارد في مناهج التعليم تحت عنوان (العقائد والعبادات الاسلامية). ولما عورض في هذا العمل قال إن كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ماله مساس بالدين. وقد أشارت جريدة اللواء إلى هذه الأخطار التي تهدد الثقافة العربية الاسلامية في مجال التعليم فكتبت تقول: إن دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كروس لتعطيل التعليم في مصر وأصعب مقاومة لرق البلاد في باب المعارف.

والمعروف أن دنلوب وكروس قد نقلوا مناهج مدارس الارسلالات التبشيرية وطبقها في مدارس المصرية وكان أبلغ اهتمامهم محاربة اللغة العربية والاسلام ووحدة العروبة والاسلام وإحلال مفاهيم إهلاء الاقليميات واللغة الأجنبية وبطولات الغربيين وفكرهم بدلاً منها. ٢ — وفي الجانب الآخر كان زعيم كبير المبشرين يعمل في إنشاء خلاياه ومفاهمه في مصر والبلاد العربية جميعاً وذلك بالتأليف والخطابة والدعوة وعقد مؤتمرات التبشير في القاهرة ١٩٠٦ وفي غيرها. وكانت دعوته إلى المبشرين في المدارس والمستشفيات هي عدم محادثة المسلمين بالبراهين العقلية بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب هواطفهم واستمالة أهوائهم ومواساة فقرائهم. وقد حملت كتاباته الكثير من الشبهات والمغالطات التي أراد بها إثارة الشكوك في نفوس المسلمين والعرب.

وكان زعيم من أكبر دعاة تمزيق الوحدة الجذرية بين العروبة والاسلام ، وتمزيق وحدة العروبة بالاقليميات وقد اهتز طربا لسقوط السلطان عبد الحميد واعتبر عهد الاتحاديين همراً ذهبياً انطلقت فيه الاراساليات التبشيرية في البلاد المختلفة دون رقيب كما انبثقت له طبع الكتب المسمومة التي كان يقوم بتوزيعها في كل مكان . وقد امتد دور زعيم ، ودلوب ولطف السيد بعد الحرب العالمية الأولى وزاد قوة وكان من أهم أهدافه العمل على تعميق القطيعة بين العرب والمسلمين وبين المصريين والعرب وبين الترك والعرب وتشويه مفهوم الاسلام الفكري والاجتهاد والسياسي . وقد كانت مهمة الاراساليات التبشيرية التركيز على هذه المعاني واتخاذها منطلقاً لهدفها المشترك مع الماسونية بخدمة أهداف الاستعمار واليهودية العالمية . وقد كان ولیم ولسكوكس من أخطر العاملين في ميدان الدعوة إلى إعلاء العامة ولبند العربية الفصحى بهدف تقطيع أواصر العرب وإحاطتهم إلى إقليمية تصطنع لهجاتها بديلاً للغة العربية . وكان ولسكوكس إلى ذلك مبشراً ترجم أجزاء من الانجيل إلى اللغة العامة منها كتابه : ( الأكل والايمان ) . وكان قد ألقى محاضرة في أواخر عام ١٨٩٢ في نادى الأربكية عنوانها :

لماذا لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ، زعم منها أن قوة الاختراع تأتي من القوة المفكرة ويرثها الانسان عن آباءه وقال إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع إنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو ألفوا وكتبوا باللغة العامة لصاروا مخترعين واستدل على ذلك بأن الانكليز كانوا يؤلفون باللاتينية فلم يكونوا مخترعين فلما اختاروا لغة الفلاحين الانجليز وكتبوا بها صاروا مخترعين . وقد واجهت دعوة ولسكوكس هجوماً حاصفاً ، وكان قد سبقه ولحقه إلى مثل هذه الدعوة بعض المستشرقين والأجانب من أمثال ولور وغيره . غير « أن لطف السيد » لم يلبث أن احتضن هذه الدعوة وتبناها ودها إلى تمصير اللغة العربية والتقريب بين العامة والفصحى . وجرى في هذا الاتجاه سلامة موسى وكثيرون من بعد . هذه هي الارهاصات الخطيرة التي نجمت في مصر في السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى وهي نفس الفترة التي ابعثت فيها الدعوة إلى الطورانية في تركيا وإلى الاقليمية الفيليقية في لبنان ، وفق مخطط واحد تديره يد قادرة مهيمنة من أجل هدف واضح هو تمزيق رابطة العروبة والاسلام في الدولة العثمانية والبلاد العربية . فإذا أضفنا إلى هذا : الدور الذي قامت به المحافل الماسونية في هذه الفترة في مصر وبيروت واستانبول وضحت أمامنا الصورة على نحو صحيح .

(٢٣)

ما بعد عبد الحميد

ما إن سقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الأمر في الدولة العثمانية وفي البلاد العربية إلى شيء خطير ، وزارة في الدولة العثمانية بها ثلاث وزراء يهود بعد أن رفض عبد الحميد ممثل اليهود وشجب مطالبه ومن ثم إنفتح طريق الهجرة إلى فلسطين وأُتيح لسامرة بيع الأراضي العمل في حرية كاملة ونشط اليهود الصرحاء والدعوة والماسون ومن ورائهم للعمل وبدأت الحركة الطورانية تشق طريقها في تمزيق وحدة العرب والإسلام ، وتحدثت لبنان عن دعوة إقليمية في مواجهة الدولة العثمانية والعروبة جميعا ، ومضت مصر في موقفها الذي حل لواءه لطفي السيد في ، معارضة العروبة والدولة العثمانية جميعا . وانفتح الطريق أمام المحافظ الماسونية فانسع نظامها كما إندمجت جمعية الاتحاد والترقي إلى إستيعاب العرب والترك جميعا في سبيل غاية ليست لحساب المسلمين والعرب بالتأكيد ، أما الرسائل التبشيرية فقد إنفتح أمامها الطريق إلى العمل في حرية في جميع أنحاء البلاد العثمانية والعربية وأعلن مؤتمر المبشرين في بيروت ١٩١١ أن إعلان الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر أكثر امكانا وسهولة . وفي الوقت الذي كانت فيه « الجاهة روسيو الأصيل » حملة لواء الطورانية يوسف أجنوره ، وأحمد أغايف ، وضيا كوك الب يعملون في ( مجلة المواطن التركي ) لتمزيق مفهوم العروبة والإسلام ، كان أتباع ويلسكو كس يعملون في القاهرة لتحطيم رابطة المصريين بالعرب والترك جميعا والدعوة إلىصرية خالصة وبينما كانت جريدة طنين في تركيا تدهو الأمة التركية إلى الاستسلام على العناصر الأخرى ومنها العرب ، كانت [ الجريدة ] في القاهرة تدهو المصريين إلى الانفصال عن الترك والعرب .

وبينما كانت الطورانية تذهب بعيدا إلى تاريخ جنسكيزخان وتيمورلنك كانت المصرية تذهب بعيداً إلى تاريخ رمسيس ونحتمس ، وكانت الفساسة في بيروتا تذهب بعيداً إلى تاريخ الفينيقيين ؛ وقد كشف المبشرون في مؤتمر لسنو ١٩١١ عن أثر سقوط السلطان عبد الحميد في فتح الطريق أمام مخططاتهم ودهوتهم . فقد أشار دكتور زويمر في تقريره إلى أهمية الانقلابات السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي وخاصة الانقلاب العثماني ، فقد « صار التجول في البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجينا في سلايك » وقال إن السلطة السياسية على أكثر المسلمين إنتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا وأن هدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً . وقال القس نلسن أن حركة الجامعة

الإسلامية قد ضعفت كثيراً بعد خلع السلطان عبد الحميد ولكن لا تزال في الأهالي روح تضامن مع ملازمة للإسلام وقال : إن الألوف من مسلمي الأرض يتجهون في كل سنة إلى مكة ويشربون ماء زمزم كما جرى بحث موقف الإرساليات التبشيرية بعد الانقلابات العثمانية ، وقال استورد كروفورد : إن الأمة العثمانية بمحصولها على بعض الحقوق الوطنية بالمصرية قد أخذت تتدرج في مدارج نهضة عظيمة . وأشار إلى دهمى الإرساليات في « تنشيط للمسلمين لاقتباس الأوضاع الجديدة وترقيتها على وجه يشبه الأوضاع التي تباعى النصرانية بها . وقال : القسيس ثرويديرج : أن بيع كتب التبشير في الدولة العثمانية أصبح الآن مباحاً بسبب حرية النشر التي أعقبت الدستور فيبيع في السنة للأضحية للمسلمين ما يزيد على ٩ آلاف نسخة من هذه المكتب المخصصة بانتشار التبشير . وهذا واجب آخر قدمه الاتحاديون لحركة الغزو الغربي والتغريب في البلاد العثمانية ، هذه الحكومة التي حسبها توردته تقارير للبشرين كانت خيراً وبركة وفتحاً جديداً للإرساليات التبشيرية .

( ٢٤ )

## الإسلام والجامعة الطورانية

كيف يسعى الاتحاديون للاشاعة الحضارة الإسلامية . في خلال بضع السنوات الأخيرة في تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة بنى طوران أو الطورانية الحديثة وغرضها هدم للمدنية الإسلامية وإحياء المصيبة التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية النهرية والشعوب المنتهية إليها ومنها الأمة البلغارية أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعداوتهم للإسلام ولعصهم له ، وكثيراً ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك بحجة أن الإسلام يسمى لقتل المصيبة القومية وبحول دون اشوء المدنية التركية ، ولذلك فهم يسعون لجعل الجلسية التركية مستقلة عن الإسلام كل الاستقلال .

ومما يقولونه أن الاسلام لا محل له في المدنية ولا يمكن أن يعيش طويلاً إلا إذا أدخلت عليه عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية . ويعلق السيد رشيد رضا على هذا التقرير ويقول : وقد أفتت في الآستانة سنة كاملة اختبرت فيها الاتحاديين اختباراً كاملاً ولا أزال أرى في كل من الآيات ما يؤيده ويقنعني بأنني قد سبقت إلى إدراك ما لم يدركه العثمانيون ولا الأجانب . إن الذين يعرفون مقاصد الاتحاديين الاحادية من العرب قليلين جداً ولعلمهم لم يكثرثوا إلا بعد أن رأوا خواص العرب في سرورية مصلوبين في أعظم ميدان .

إن قراء المنار يعلمون أن الجرائد الاسلامية الهندية هي أول من رمى الاتحاديين بالكفر والاحاد  
وكانت المنار أول الصحف الاسلامية دفاعاً عنهم ولما كثرت الخلاف رحلنا إلى الآستانة . كان مقصد  
الاتحاديين خفياً ثم عرف رويداً رويداً ثم اشتهر وتواترات أخباره في جميع الأمم . ولهذا النهضة  
وجهتان : إحداهما أدبية والأخرى سياسية . فغاية الوجهة الأولى تمجيد للشعوب الطورانية ولشر  
تاريخها المجيد . وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية . فجنكيز خان في نظرهم هو نموذج  
للملوك ورجال السياسة . والعرب يجب القضاء عليهم وإدماجهم في الترك حتى ينسى العالم تاريخهم  
وقاليدهم ، أما لغتهم فلا بد من محوها وإحلال اللغة التركية محلها في كل صقع وناد . والحكومة  
الاتحادية الآن تؤيد جمعية ( بنى طوران ) وتمزجها بالاعانات المالية العديدة وتسمى تلك الإعانات :  
إعانات المالية التركية وجميع كبار الاتحاديين أعضاء فيها وهم بعيدون عن الاسلام . ليس هناك من  
ينسرك فضل الاسلام على العالم وما كان لمدينته من الآثار المجيدة . أما الشعوب الطورانية فليس في  
التاريخ ما يدل على أنها عملت عملاً واحداً أفاد الإنسانية بل على العكس كانت جميع أعمالها تدميراً  
وتخريباً فالطورانيون لم يستطيعوا شيئاً للمنفعة بل كانوا حينما حلوا يخربون معالم المدنية . ا . ا . ا .  
الأهرام ١٤/٨/١٩١٦ .

## ( ٢ )

تبنى الاتحاديون النظرية التي روجها المستشرق اليهودي الجري « فبري » والتي : تقول إن  
الاسلام يناقض فكرة الجنسية فالاتحاديون يقولون إن الاسلام بالاتحاد مع العوامل العربية والفارسية  
والرومية والبيزنطية قد جعل الأتراك ( مسلمين ليقتاتين ) وحال دون نشوء حضارتهم . على أن هذه  
الدعوى هي عكس المعتقد تماماً فإن الأتراك الذين جاءوا أصلاً من حدود الصين وانتشروا في مجاهل  
آسيا حتى ضفاف ( الأكدوس ) لم يكن لهم دين معروف أو حضارة راقية لأنهم كانوا قبائل رحل  
يؤجرون سيوفهم لكل من يطلب معونتهم . فالاسلام لم يحل دون نشوء الحضارة التركية إذ لم  
يكن للأتراك حضارة هو بفضل الاسلام ، ذلك إن العنصر الطوراني لم يشتهر بشيء من قوة الابتداع  
وما تاريخه سوى تاريخ تدمير . ومما تسعى إليه النهضة الطورانية إنشاء إمبراطورية حربية واسعة  
الأرجاء تضم تحت ألويتها جميع قبائل التتر والمغول الخاضعة لروسيا أو لدولة أخرى . أما الجنسية  
العربية فيجب إبادة وإدماجها في الجنسية التركية لأنها خطر كبير .

( ٣ )

عن جريدة نبراست الانجليزية ( يناير ١٩١٧ ) ظهرت في تركيا حركة جديدة هرفها القوم باسم ( بنى طوران ) أى طوران الجديدة إليك بيان الغايات التى ترمى إليها من مساهمها وأعمالها :  
أولاً : أن تجعل الأتراك أمة قائمة بذاتها مستقلة عن الدين الاسلامى تمام الاستقلال حتى يتم لها أن تربي فيهم ذلك الشعور القوى الذى ذكره الدكتور ( الفرد تونج ) في مقال نشره في جريدة ( اندرونوخ ) الألمانية على أثر حديث دار بينه وبين زعماء الاتحاديين .

ثانياً : تطهير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية من آداب هاتين اللغتين ولهذه الجمعية مطعم آخر ترمى إليه وإن لم تجهر به رسمياً وهو تركيك العرب وإدماجهم في الترك حتى لا تبقى لهم قومية قائمة بذاتها . وأكبر آمال هذه الجمعية أن تجعل التركي العثمانى يعد نفسه تركيا قبل كل شىء ، أما كونه مسلماً فيعد عنده من المسائل الثانوية التى لا تهمه كثيراً . أما هذه الجمعية فانها تقوم بتلك الأعمال بإيعاز من السلطة الحاكمة التى تؤيدها بكل وسيلة ممكنة وتدفع لها كل ما يلزمها من المال لأجل بلوغ هذه الغاية . وقد بذلوا غاية الجهد في تدريس التاريخ القومى للطورانيين وأفرغوا كل هناية للنشر في المدارس العالية . وأخذوا بتأليف قوة كبيرة من فتيانهم سموها بالتركية ( ايزجى ) أى قافية الأثر ، أما الأولاد الذين أسماؤهم مأخوذة من العربية فقد استبدلوا بها ألفاظاً تركية محضة . وطبعوا كتباً وروايات كثيرة أهمها ( بنى طوران ) وهى الرواية التى كتبها خالدة أديب وقد حبذت فيها تلك الحركة الجفسية . ومن مقتضيات هذه الحركة استقلال العنصرية التركية عن الاسلام .

هذه الحركة مقصورة على جمعية الاتحاد والترقى ومبيلة على نظرات أستاذهم الجرى ( فبرى ) لما خلق ذهنه من المزايم القديمة البالية من أن الاسلام ينافى الوطنية وهى أنه لا وطن في الاسلام ، ويزعم الاتحاديون أن الاسلام باختلافه مع التقاليد والمؤثرات العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية قد حول الترك إلى عنصر شرقى مسلم ليس له مدينة خاصة به ، وقد أجاب أصحاب ( قوم جديد ) فقالوا إنه سيبقى لهم أترك حوران والاسلام بصورة جديدة فيكون ديناً وطنياً أهلياً . ومما لا ريب فيه أن التركي يخاف العرب أشد الخوف وبدأت ( الجمعية ) في استعمال كل الوسائل لجعلهم أتركا ومحو قوميتهم تقليدياً لما فعله ( سولويك هولستين ) مع ولايات الدانرك التى انضمت لألمانيا . وقد صرح بذلك جلال نورى في أحد كتبه فقال : ( إن البلاد العربية بأسرها ولا سيما العراق واليمن يجب تكون تركية في اللغة والجنس وأن تكون لغة الدين عندهم التركية أيضا والاسراع في تركيك البلاد العربية من أهم الأمور لحفظ وجودنا ) .

( ٤ )

الانحاديون في رأى الصيد رشيد رضا (م ١٦ للذار ١٩١٣ ) لاني أعرف من أمر هذه الجمعية مالا يعرفه أحد في القطر المصري وقد بلوتها واخذت بها في الآستانة سنة كاملة رأيت من زعمائها ورويت منهم بالأسانيد العالية المتصلة منهم مالا يتفق مثله إلا لقابيل من الناس ثم أيدت أحاديث جرائد العالم وحوادث الدهر ووقائمه أول لما سقط عبد الحميد ونزا على الدولة بعده أولئك الاغيلة المتخرجون ما علمته فيهم من ملاهي غلطة وبيو على وسلانيك وباريس ، أفسدوا كثيراً من ضباط الجيش وجعلوا بقوتهم الدستور آلة لتفريق عناصر الدولة وذريعة لحو اسمها من لوح الوجود . وأول ماقرر زعماء هذه الجمعية البدء به من الأعمال هو إزالة كل قوة للمسلمين في هذه الدولة . كان الناس يفهمون من اسم جمعية الاتحاد والترقي أنها جمعية غرضها أن تجعل بين العناصر العثمانية وحدة أساسية اجتماعية بالمساواة بين الترك وغيرهم من الحقوق الشخصية والحقوق العامة كمناصب الدولة ووظائفها . وأن هذا هو المراد من كلمة الاتحاد والترقي الذي يتبعه الترقى في العمران . فلما صار النفوذ في هذه الجمعية لأمثالي الدكتور ناظم وطلعت وجاويد ورحى وجاهد وأضرابهم ظهر للباحثين أن مرادهم بالاتحاد هو أن يدغم العرب والأرمن والترك وغيرهم في الترك وتغى لغاتهم وجنسياتهم فيهم فيكون جميع العثمانيين تركا . إن محو جنس من البشر بإدماخه في جنس آخر قد صار في هذا العصر محالاً وأن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تجعل غير الترك فيها تركا ، لأننى وأنا مسلم أرى أن الإسلام لا حياته إلا بحياة اللغة العربية وأنما حياتها بجملها لغة الخطاب والعلم عند أهلها . من أوائل مقاصدهم أتريك العناصر العثمانية ومن مقاصدهم إزالة سلطة الدين وقوته في الدولة ، ولكنهم يظهرون للمسلمين أنهم يريدون القيام بالجامعة الإسلامية على أن سيرتهم وأعمالهم تسكذب هذه الدعوى وحسبك أن جميع زعماء الجمعية من الماسون وأصول الماسون تنافى الجامعة الدينية . وقالوا إنهم لا ذوا بالاسونية لإحياء كلمة الوطنية ومخادعة الشعوب المسيحية والدول الأوروبية وصدق بعض أهراز المسلمين كلامهم .

وقد نشرت جريدة الطان الفرنسية أنهم يعمرحون بانتقاد الاسلام . والدكتور ناظم صاحب النفوذ الأعلى في الجمعية يصرح بأن الدولة لا يمكن أن ترقى مادامت متمسكة بالاسلام . فضلا عن تفريط الانحاديين بحقوق الدولة في خليج فارس والعراق الطرف الشرقى من جزيرة العرب والنزاع إلى الإنجليز ونقل الصحف عن محمود شوكت وأحمد مختار أنهما قالا :

إن الدفاع عن طرابلس الغرب خيانة لأننا لا نجد طريقاً لذلك ، وقد هب عرب طرابلس للدفاع عن بلادهم ، وهب العالم الإسلامي لمساعدتهم فبدأ جمعية الاتحاد ما لم تكن تحتشبه أو أوجبت أن تستفيد من هذه الأريحية الإسلامية وكانت قد باعت طرابلس وبرقة الإيطالية على شرط أن يأخذوها بالفنح السلمي بعد أن يخرج منها العسكر العثماني والسلاح . وهب للمسلمون كافة المساعدة بالمال ، وقال المبعوثون المناصرون للاتحاديين بتهمومهم بالحيانة ويطلبون محاكمة الصدر الأعظم حتى باشا وناظر الحربية محمود شوكت ولما رأوا ذلك أرسلوا بعض الضباط وأمدوهم بأموال الإغاثة وبما يمكن من السلاح خوفاً من إنكشاف السر .

م ١٦ للنار سنة ١٩١٣

(٢٥)

## بديل للخلافة العثمانية

(لورنس والمباشيون)

كان هدف الاتحاديين الأساسي هو دفع العرب إلى إحضان الغرب وفصلهم عن الدولة العثمانية وقد بلغوا في سبيل ذلك أقصى وسائل التحدى : في مجال الفكر والصحافة عن طريق الانتقاص من تاريخهم ودينهم وجنسهم وفي مجال السياسة عن طريق تعليق البارزين منهم على للشقاق واتهامهم بالخيانة . ولما كان الاتحاديون قد دفعوا الدولة العثمانية إلى دخول الحرب في صف ألمانيا فقد أغرى العرب بالتماس طريق خصومهم البريطانيين الذين يمدون الفريسة للوقوع في الأمر وذلك بإغراء الشريف حسين باقامة دولة عربية تضم سوريا والعراق والجزيرة العربية بعد انتهاء الحرب حيث جرت محادثات في ذلك مع مكاهون ممثل بريطانيا في مصر . وكان ذلك آخر حلقة في خطة تخطيط الوحدة العربية الإسلامية ، والرابطة بين العرب والترك ، وهذه الرابطة كانت تشمل بالرغم من ضعف الدولة العثمانية قوة كبرى وجداراً حصيناً في وجه الزحف الاستعماري والغزو الصهيوني . وكانت إثارة دهورى القوميات ونقل مخططاتها الغربية إلى العالم الإسلامي عملاً من أهق أعمال الاستعمار لتزيق وحدة الفكر العربية الإسلامية وإحلال دهوات قائمة على الأجناس والعناصر والدماء والعروق في مجتمعات كانت أعمدة منذ وقت بعيد على أنصهار الأجناس في وحدة فكر عربية إسلامية . ومن ثم كانت مرحلة السنوات العشر التالية بعد سقوط عهد الحميد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى مسرحاً لدعوات



متمدة : طورانية وإقليمية ذات طابع عربي ، وعربية إقليمية وفرنسية وفيليبينية وكلها دهنات تشجب الرابطة العضوية بين العروبة والإسلام بما تحمله من تحديات ومن طوايع تقوم في الأغلب على العلمانية المنكرة لروابط العقائد والفكر والقيم الأساسية التي ظم عليها المجتمع العربي الإسلامي منذ قرون . وكانت المنطقة كلها قد وضعت تحت نظر المستشرقين باسم دراسة الآثار التاريخية القديمة وذلك لدراساتها استراتيجيا بما يحقق للجيش البريطانية الزحف والاستيلاء والسيطرة بصدد دفع المسلمين العرب إلى الاقتتال مع إخوانهم المسلمين الترك من أجل إجلالهم وإتاحة الفرصة للجيش البريطانية والفرنسية من احتلال الشام كله ( سوريا ولبنان وفلسطين ) تمهيدا لتقسيمها فيما بينهم وإتاحة الفرص للصهيونية العالمية لإقامة وطن قومي لها في فلسطين كنواة للدولة لليهودية العالمية للترقية التي كانت تطمح في بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى . وكذلك أتيسح لضباط البريطانيين لورنس أن يستكشف صحراء العرب وصحراء الشام في دراسة علمية طبوغرافية وتاريخية للبحث عن الآثار والفلاع الصليبية القديمة ، قبل شهور قليلة من الصدام بين العرب والترك في هذه المناطق بعد أن أعلن الشريف حسين الانفصال عن الدولة العثمانية وجاء لورنس ليعمل مع العرب من أجل دفعهم إلى الحرب وهو يعلم تماما أنهم موضوعون في خدعة كبرى لن يتحقق لهم منها شيء في النهاية وأن الشريف حسين ووهود مكاهون ، وإفراءاته للبدو ، ومخادثاته مع فيصل كل ذلك سينتهي في النهاية لأن يقف اللورد الانبي قائد الجيش المتحالفة في القدس عام ١٩١٨ ليقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

وقد تحقق الاستعمار الغربي واليهودية العالمية أمور عدة : \* تمزيق وحدة العروبة والإسلام . \* القضاء على الدولة العثمانية . \* تمزيق وحدة العرب والترك . \* نقل العرب من ترابط مع الدولة العثمانية إلى احتلال فرنسي وبريطاني : وقد حمل ذلك كله أسماء براقة لامة هي الحركة العربية والوحدة العربية والدولة العثمانية . وقد قامت الحركة جميعها في ضوء مخططات مشبوهة تفصل الإسلام عن العروبة وتضع للقوميات طابع العلمانية الغربية وتقيم الصراع العنيف بين العرب والترك وبين المصريين والعرب وبين الفساحنة والهاشميين ، وبين الهاشميين والسعوديين وهكذا . لقد دخل العرب الحرب إلى جوار بريطانيا على أمل زائف كانت كل المخططات تعارضه وتكشف عن زيفه ، وكانت هناك معاهدة سايكس — بيكو بتقسيم المنطقة بين فرنسا وإنجلترا وكان هناك وعد بلفور بشأن تسليم فلسطين للصهيونية . إن خطة العروبة التي قامت في دمشق قد وجدت نفسها في موقف ليس معه اختيار لتقبل الانضمام تحت لواء الشريف حسين ولكن كثيراً من زعماء العرب كانوا

مشحورين من حفظان : حتى يقول شكيب أرسلان : لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد ستصبح نهياً مقسماً بين إنجلترا وفرنسا وتكون فلسطين واثناً قومياً لليهود ، وهذا التمكن كان عندنا مجزوماً به حتى أنني كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول ، وكذلك كان رأى ياسين الهاشمي الذي قال لرسول النوار العرب وهو يدهو للانضمام إلى الملك فيصل ولورنس : « إن الإنجليز غير مخلصين لا لفيصل ولا لوالده فهم بعد أن عاهدوا على إنشاء دولة عربية اتفقوا مع اليهود وأصدوا وعد بلفور ، كما اتفقوا مع الفرنسيين على إعطائهم سوريا وربطوا العراق بالهند . ومن الحق أن يقال أن ما أطلق عليه الثورة العربية بقيادة الشريف حسين لم تكن إلا منافرة ضخمة للقضاء على الدولة العثمانية وكان منطلق المناورة إحلال بديل في نظر مسلمي الهند وغيرهم ، يحل محل خليفة المسلمين العثماني في تركيا ، وقد تفتت الحيلة الماكرة على اختيار « شريف » من أهل بيت النبي ليحمل اللواء ويقف مع بريطانيا ، أو على حد التعبير القائل « إذا كان خليفة المسلمين ، لك البيرق النبوي فقد جند الإنجليز إلى جانبهم ابن النبي شخصياً ، وإذا كانت استانبول إنحازت لألمانيا فإن الإنجليز معهم مكة المكرمة قبلة المسلمين » نعم ، لم يكن الأمر يهدف إلى تحقيق أي أمل للعرب ، بل لتنفيذ مخطط الاستعمار في تمزيق الدولة العثمانية ، ونصوير الدولة العثمانية والخليفة في صورة هدواية ، فضلاً عن عزل العرب عن الرابطة الإسلامية كقمة لعزلهم عن الإسلام نفسه . ولم تكن هذه الحركة العربية في حقيقة أمرها انفصالياً باسم العروبة عن الإسلام ، بل كانت على العكس من ذلك امتداداً لمفاهيم الفكر الإسلامي فقد كان إعلان الشريف حسين بالثورة على الاتحاديين ( لا على الدولة العثمانية ) مطبوعاً بطابع إسلامي ، وليس له أي مظهر يحمل مفهوم القوميات فهو أولاً : موجه إلى المسلمين هامة وليس إلى العرب ، وهو يعزز الانتفاض على الاتحاديين الذين « جاوزوا صراط الدين منهج الشرع الشريف وفرقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية ، وأن الاعتداء على العرب اعتداء على الإسلام فضلاً عن أن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه » .

ومن نصوص هذا البيان يبدو الترابط الواضح بين العروبة والإسلام ويكشف عن أن الحركة جاءت من داخل الينظة العربية الإسلامية لا من خارجها وأن مبدأ الحركة : « نصر دين الإسلام والعمل على إلاء شأن المسلمين على أساس أحكام الشرع الشريف » . غير أن موقف الشريف حسين كان ضعيفاً إلى أبعد الحدود ، لقد كانت الخطوة هي أن تكون هناك ثورة حقيقية ، لا أن تكون هناك نقطة انفصال حريبه عسكريه دمويه بين الغرب والشرق لتفتيح الطريق للجيش البريطاني الزاحف إلى احتلال فلسطين ودمشق وبيروت .

وكان ذلك كله مناورة ضخمة لمسلحي الهند وأفريقيا باختيار شريف مكة الهاشمي في مواجهة الخليفة العثماني . كانت للؤامرة واضحة : تتركز في فصل العرب عن الترك ثم اغتيال كل منهم على انفراد . لقد كان دور لورنس في هذه الحلقة الخطيرة من العلاقة بين العرب والدولة العثمانية ، وبين العرب والاسلام بالغ الأهمية والخطر ، إذ كان هو نفسه « الخدعة » التي أغرى الاستعمار بها العرب للانقضاض على الدولة العثمانية وإعلان الحرب حتى تتسلم فرنسا وبريطانيا هذه الأراضي وتحتلها ويعلمن مندوب بريطانيا في القدس : إن الحروب الصليبية انتهت ، كما يعلم مندوب فرنسا في دمشق : إنهم قد طردوا بإصلاح الدين بعد أن أخرجتهم . ويقول لورانس وضوح وصراحة بالذين في كتابه أعمدة الحكمة السبعة : لقد كان رأيي منذ البداية أننا إذا كسبنا الحرب فإن هودنا للعرب ستصبح « أوركاً مينة » ولو كنت رجلاً شريفاً وناجحاً أميناً لصارحتهم بذلك وسرحت جيشهم وجنيتهم التضحية بأرواحهم ولأمرتهم بالعودة إلى بيوتهم ، وعدم المخاطرة بحياتهم في مثل هذه الحرب ، أما الشرف فقد فقدته يوم أن أكدت لهم بأن بريطانيا ستحافظ على هودها . غير أن الاندفاع العربي كان وميلتنا الرئيسية في كسب الحرب الشرقية ، وعلى ذلك فقد أكدت لهم أن بريطانيا سوف تحافظ على هودها نصاً وروحاً ، فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال للدهشة ، ولكني في الواقع بدلا من أن أشعر بالفخر لهذا الذي فعلته ، كنت أشعر دائماً بنوع من الخجل والارادة . كما أعلن (وايزمان) في كتابه : « التجربة والخطأ » شكره وتقديره للخدمات الجليلة التي أسداها السكولونيل لورانس للقضية الصهيونية « إن علاقته بالصهيونية علاقة إيجابية على الرغم من ظواهره البليبل للعرب » . وقد ظل اسم لورانس مع الأسف وقتاً طويلاً يدرى في الصحف العربية على أنه ملك العرب غير المتزوج « مصوراً » من خلال مقابلة مضحكة « وعمل بطولي » . لم يكن لورنس إلا ضابطاً في قلم المخابرات البريطانية وضع في قالب مخطط واسع من أجل تزيق الدولة العثمانية وخدمة النفوذ الأجنبي واليهودية العالمية فقد كان واحداً من الذين أخنبروا الاستكشاف الأرض العربية تحت علم الآثار وبعثات التاريخ القديم فقد أرسل إلى هذه المنطقة عام ١٩١٣ متخفياً مكلفاً بدراسة الطريق العسكرية التي يمكن أن تستعملها بريطانيا للدفاع عن سيناء فتوغل في صحرائها باحثاً عن كل الطريق والآثار والموانئ ، وكان البحث العلمي الذي تخفى خلفه يطلق عليه اسم « البحث عن الطريق الذي سار فيه النبي موسى » وكان هذا عميداً للعمل الضخم الذي كلف به من بعد .

وكان إيمان الانجليز بعد إعلان الحرب العالمية بأنهم قادرون على خداع العرب وفصلهم عن الدولة العثمانية أكيذاً وواضحاً ، وكانت فكرة الاستعمار أن أحسن الطرق لزهرة الامبراطورية

العثمانية وتمزيقها وبالتالي تمزيق وحدة العرب والإسلام هو تحريض العرب على الاستقلال عن تركيا ، وإثارة هوامل القتل لسكبرائهم وزعمائهم بما يقيم بين العرب والترك خصومة دائمة تمتد زمنًا طويلا ، وتؤثر تأثيراً بالغاً في الروابط العربية الإسلامية وفي العلاقة بين العرب والإسلام ، وتناقى ظلمها على التاريخ والأدب والفكر العربي كله بما يعمق ذلك العداء والحقد والكراهية التي من شأنها أن تزيد في إثارة البغضاء وإهلاء القوميات والأقليات . ولم تلبث بريطانيا بعد أن أحست بأن الشريف حسين قد تم إغراؤه على الانفصال أن أرسلت لورانس إلى الحجاز معلناً إيمانه الأكيد بحق العرب في قيام دولة لهم . وقد كان هذا الاتجاه بديلاً لأمرين : بديلاً في نظر العرب للحركة العربية التي كانت تقوم في دمشق ، والتي ترى إقامة حكومتين عربية وتركيا تحت لواء الخلافة ، وبديلاً في نظر المسلمين من دولة الخلافة ، وذلك بابرار حاكم الحرمين وشريف مكة وحفيد نبي الإسلام على أنه في صف بريطانيا والحلفاء ، وذلك لتنطعية على فكرة خليفة المسلمين ، وملطان الدولة العثمانية التي انضمت إلى ألمانيا .

وكانت هذه الخطوة عام ١٩١٦ حلقة ثانية في المخططة بدأت بإسقاط السلطان عبد الحميد هام ١٩٠٩ في طريق تمزيق الوحدة العقائدية بين العرب والإسلام وخلق منطلق جديد في البلاد العربية يستمد نفوذه الفكري من فلسمة الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية ويهدف إلى إهلاء « النزعة العربية » ودحر المفهوم العربي الإسلامي المتكامل . ومع أن الحركة العربية الإسلامية كانت متيقظة إلى هذا الخطأ ، فقد ظلت مدرسة العروبة المرتبطة بالإسلام تدعم خطواتها إلى وقت طويل دون أن تؤثر فيها دعوى العروبة العلمانية على مفهوم القوميات العربية . بدأ يشق طريقه قبيل الحرب العالمية الثانية على أيدي الأحزاب والهيئات التي قادها عرب غير مسلمين والتي اتسمت بارتباطها بالإرساليات أو بالهول الغربية أو النظرية العلمانية التي تشكر الارتباط الجندري بين حاضر العرب وماضهم عبر أربعة عشر قرناً من خلال روابط اللغة والفكر والثقافة والتاريخ . ولقد كان من أكبر المؤامرات التي حققتها بريطانيا أنها أجهضت الحركة العربية التي قام بها الشريف حسين وفيصل بمجرد إعلانها ، فقد حاصرها الإنجليز ومنعوها من التوسع خارج الجزيرة العربية واكتفت بريطانيا بأن أذاعت إعلان الشريف حسين بأن بلاده انفصلت عن الدولة العثمانية انفصال تاماً ومن ثم وضعت بريطانيا يدها على المنطقة وقامت القوات العربية بمحاربة القوات التركية وإخراجها من المنطقة تحت قيادة فيصل . وكان دور لورانس الذي لبس الملابس العربية وشارك البدو الحياة في خيامهم وطعامهم ، وهو وضع خطط الهجمات الصاعقة على مرافق الطرق والمواصلات التي كان يسيطر عليها الأتراك :

وقد تقدمت الجيوش العربية حتى وصلت العقبة في يوليو ١٩١٧ فأنهت نقطة إنطلاق وظلت القوات العربية تقاتل حتى استولت على دمشق ودخلتها في أول أكتوبر ١٩١٨ وفي أثرها دخلت القوات البريطانية فاحتلت فلسطين وسوريا ولبنان وتسلمت زمام الأمر من القوات العربية . وفي نفس الوقت الذي كان لورانس يخادع فيه فيصل والعرب كانت اتفاقية سايكس بيكو توقع بين الحلفاء بتقسيم المنطقة : العراق لإنجليترا وسوريا لفرنسا ، وإقامة إدارة دولية في فلسطين . لقد كشف لورانس عن حقيقة الخفية في كتابه حين قلل من شأن العرب ، الذين لم يكن مؤمناً أساساً بمحقتهم في دولة مستقلة لأنهم في حاجة إلى حماية بريطانية . وهو أيضاً لم يكن مؤمناً بحق العرب في الاتحاد لأنه لم يكن يراهم أمة واحدة ، وقد كان متعاطفاً مع هدف الصهيونية ، وقد اعتبر فلسطين أرضاً يهودية منذ بدأ التاريخ ، وكان مؤازرته للصهيونية واضحة حين دفع فيصل إلى الاجتماع مع وبزمان في العقبة ولندن وباريس . كان اتجاه لورانس من خلال مفهوم فلسفي واضح ، أقامه الاستعمار واليهودية معاً هو إعلاء النزعة اليهودية في صراع القوميات ، وكان لا بد وقد انفصل العرب عن الدولة العثمانية من خلق زعامات عربية جديدة في الحجاز وسوريا والعراق . وكان البيت الهاشمي هو اللؤلؤ في هذا الاتجاه .

وبينما سيطرت الدهوة للظورانية في استانبول ، واجتاحت تركيا وانهضت بعد الحرب في حركة مصطفى أتاتورك ، فإن النزعة العربية صبغت على أكثر من وجه ومفهوم ، حتى لا تشكل وحدة فكرية عربية ، فكانت في لبنان دعوتها إلى الإقليمية اللبنانية المستمدة من الفيلينية القديمة ، وكان في مصر دعوتها إلى الفرعونية وكان في دمشق وبغداد والجزيرة العربية دعوة عربية محدودة قاصرة على هذه المنطقة التي قبل لها الشريف حسين دولة عربية ، ثم تمزقت إلى سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن والمملكة العربية السعودية من بعد ، لقد كان الهدف واضحاً وراء المخطط : فصل العرب عن الدولة العثمانية . ثم فصل كل قطر عربي إلى كيان خاص وإعلاء مفهوم إقليمي أو قومي ضيق خاص به بحيث لا تتمكن الوحدة من الجمع بينها ، وخلق كيانات إقليمية لها أهلاً وعلمتها وحكوماتها وجوازاتها في كل دولة . وقد كشف لورانس من موقفه من الوضع العربي بعد تمزيق الدولة العثمانية وانفصال العرب حين قال : لا أمل في قيام وحدة عربية لا في الحاضر ولا في المستقبل . فالدوريون يطالبون بإقامة مملكة عربية أما المسيحيون الكاثوليك في لبنان فيطالبون بحماية أوربيه .

لقد وضعت التمهيدات منذ اللحظة الأولى على لبنان وفلسطين وأبعدت مصر عن الموقف كله :

وفي لبنان أقيم السكان اللبناني امتداداً لدور لبنان التاريخي منذ ١٨٦٠ وفي فلسطين فتح الطريق للصهيونية العالمية لإقامة دولة أطلق عليها أول الأمر خداعاً للعرب « وطن قومي لليهود ». وتوزعت العراق وسوريا ولبنان بين الفرنسيين والإنجليز احتلالاً وسيطرة . وقد كانت نظرة لورانس إلى خلق الزعامات الجديدة في البلاد العربية وفق الاتجاه الذي رسمه الاستعمار صحيحة ، ويبدو ذلك من تصريحات فيصل التي أعلن فيها أن نهضة العرب « تتطلب استمارة أفكار أوروبا ، ومعرفة خبرة أوروبا ، هذه الخبرة لكي تغدو صالحة لنا يجب أن نترجمها من الشكل الأوربي إلى الشكل العربي وإن نجد في العالم من يصلح لأداء هذه المهمة من اليهود الذين يمتلكون كل معرفة أوروبا . وكانت سقطة من لم يمكن يملك وضوح الرؤيا في هذا الوقت للبكر ، لقد استطاع التنفيذ الاستعماري واليهودية العالمية من ضرب العرب بالترك ، وتمزيق وحدتهم ، ثم تحويل كل منهما إلى طريق جديد ، اصطارعت فيه أصول الفكر الإسلامية العربية بالدعوات الغربية للشحونة بالأخطار .

ووقع كل من العرب والترك في فخ كبير واندفعوا إلى تحول خطير وكان منطلق الانهيار والتحول كله هو ضرب وحدة العروبة والإسلام ، وتمزيق هذا السكان الضخم الذي كان يطلق عليه « الدولة العثمانية » بأيدي الترك والعرب أنفسهم ومن خلال تشكيل هذه الطلائع من طورانية وفينية وفرونية وحائرة بين العروبة والاقليمية . يقول لورانس : وبذلك إنهارت الدولة الإسلامية التي طالما عمل على تدعيمها السلطان ، ويقول : لقد كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً غيقاً ، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستعزق الدولة العثمانية شذو مذر . قال لورانس : إن الثورة العربية هي في الحقيقة تقطيع أوصال الدولة العثمانية ١ . ومن هنا يمكن التعرف على حقيقة الانطلاق العربي من هذه النقطة والذي سمي في بعض الأحيان بالثورة العربية الكبرى وجرت الإشارة فيه بدور فيصل ، وبدور لورانس ملك العرب خير للتوج ، ودور الشريف حسين . وكيف تبين من بعد أن الشريف الهاشمي ملك الحجاز كان قد وضع تحت أنظار مسلمي الهند وشمال إفريقيا كبديل أكثر أصالة من الخليفة العثماني . ولم تكن هذه الحركة تمثل فكرة ( الوحدة العربية ) بأى صورة ويمكن أن يقال أنها كانت تمثل دولة عربية يحكمها الشريف ، فقد استبعدت لبنان وفلسطين ومصر واستبعدت أفريقيا الغربية واكتفت بتلك الأجزاء الآسيوية الواقعة بين سوريا والحجاز . ولعل حقيقة دور لورانس ينكشف في وضوح ويعطى مفهوماً أعمق في النفوس إذا سجلنا من مذكراته هذه العبارة : « إنني أكثر ما أكون خجراً أن الدم الانجليزى لن يسفك في المعارك الثلاثين التي خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوى في نظري موت إنجليزى واحد ، لقد جازفت بمقدية

العرب لاعتقادي أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن في الشرق ولاعتقادي أن  
كسبنا الحرب مع الحنث بعودنا أفضل من عدم الانتصار .

(٢٦)

تمزيق وحدة العروبة والإسلام

(١)

## الإقليميات

### الطورانية والفروانية والفينيقية

مهبت السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى السبيل للإقليميات الثلاثة التي هبت  
واستحصدت : الطورانية في تركيا ، والفروانية في مصر ، والفينيقية في لبنان . كانت البذور قد  
وضعت في التربة عن طريق المحافل للماسونية وإرساليات التبشير والقوى الاستعمارية اليهودية العالمية .  
فظهرت في تركيا حركة الاتحاديين الداعية إلى الطورانية ، وظهرت في مصر حركة لطفي السيد  
وأصحاب للقلم الداعية إلى « مصر للمصريين » . وظهرت في لبنان حركة السكيان اللبناني الخلال  
الأزلي الذي لا يرتبط بالدولة العثمانية ولا العرب . وقد ابتغشت الدعوات الثلاث التاريخ القديم ،  
تاريخ طوران وخسان وكلدان وحاولت أن تربط للمسلمين والعرب به بعد أن انفصلوا عنه انفصالا  
جذريا بظهور الإسلام وسيطرته الفكرية والسياسية والاجتماعية على هذه الأقطار كلها خلال أربعة  
عشر قرنا صيغ فيها العقل الإسلامي والنفس العربية جميعاً بالقرآن صياغة جديدة بعدت بهما أماداً  
واسعة من الوثنية القديمة والأساطير وحرب البسوس . وقد تصدر الدعوة إلى هذه الحركاب الثلاثة  
من لبسوا من أصحاب الأصالة الفكرية أو الدين الغالب أو الوطنية الصادقة فقد كانوا دعاة في تركيا  
روسا وماسون ودونمة كلهم حرب على تركيا والعرب والإسلام ، وكان دعاة في البلاد العربية من  
خارجي معاهد الإرساليات ومن لهم خلف هقائدي وتمصب وحقد على السكيان الأغلب والمخارة  
الإسلامية .

( ١ )

## الطورانية الكالية

اهتبر كثير من الباحثين الوضع الذى آلت إليه تركيا بعد الحرب العالمية الأولى من حيث سقوط الدولة العثمانية وتمزقها ، وقيام الدولة التركية التى سيطر عليها مصطفى كمال بمشابة امتداد للحركة الطورانية التى بدأت عام ١٩٠٨ وانتهت عام ١٩١٨ وردد كثير منهم فى وصف هذه الحركة اسم الحركة الطورانية الصفرى ، وأما ما وقع بعد الحرب هو الحركة الطورانية الكبرى ونحن نؤيد هذا الرأى ونؤكد . ذلك أن كل ما حدث فى فترة السنوات العشرة السابقة للحرب إنما كان تمهيداً لما جاء بعد ذلك سواء فى تركيا أو مصر أو لبنان وذلك فى ضوء التحول الخطير الناتج عن إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها وهذا قد تحقق بالفعل نتيجة لدخول الاتحاديين الحرب العالمية فى صف الألمان فكانت هزيمة الألمان فى الحرب هزيمة لهم وفرصة سانحة لتحقيق حلم طاش الاستعمار أكثر من مائة عام تخطط له مع اليهودية العالمية . وقد كان العمل الذى تم بالفعل هشية هزيمة الدولة العثمانية من شقين : ( الأول ) احتلال الأجزاء العربية من الدولة العثمانية سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق . و ( الثانى ) السيطرة على تركيا وإذلالها وفرض نفوذ فكرى سياسى غربى عليها حتى لا تصبح يوماً عاملاً إسلامياً مهدداً لأوروبا فى هذا الموقع ، وقد تحقق العملاق على النحو الذى أرادته الاستعمار وكان المخططات التى نفذها الدوثة والإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وأثرها الواضح فى سهولة تحقيق هدف واحد خطير هو : تمزيق وحدة العرب والإسلام وتفريقهما من المضمون الإسلامى الحقيقى . كانت الدولة العثمانية هى بؤرة الوحدة العربية الإسلامية ومصدر الجامعة الإسلامية التى ضمت تحت لوائها مسلمى فارس وأفغانستان والهند بالإضافة إلى مسلمى تركيا والعرب ولذلك فإن العمل لإسقاطها وتمزيقها لم يكن يكفى ، وإنما يتطلب تغيير الذهنية والفكر والاتجاه والخصائص ، إلى نحو يحول بينها وبين أن تكون مرة أخرى منطلقاً للإسلام إلى أوروبا أو مصدرراً للخطر أو جرثومة لنجم إسلامى جديد ولذلك فقد كانت فترة السنوات العشرة للاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك وتمهيداً للمخطط التفريبي العنيف الذى نفذته مصطفى كمال بقوة القانون وقد كان مصطفى كمال واحداً من الاتحاديين وزملاء طلعت وجمال وأنور ، ولكنه لم يلعب تحت الأضواء فى هذه الفترة ، فقد استبقى ليصبح بعد الحرب امتداداً لهم ونقطة تجمع لهذه القوى لتتشكل مرة أخرى على نحو آخر بعد أن حققت أكبر هدفين وهما : إسقاط الدولة العثمانية وتمزيق وحدة



العرب والترك التي هي مظاهر وحدة العروبة والإسلام . وقد كان أتاتورك واحداً من رجال سالونيك ومحافلها الماسونية ومن أبرز رجال الاتحاد والترقي ، مؤمناً بتلك المبادئ والمخططات التي نفذت فلم يكن حرباً هليماً ولكنه كان أكثر واقعية إذ أنه قصر الدعوة الطورانية الواسعة وكانت مخططات أحمد أغايف ويوسف اشقوره وضيا إلب هي رائدة له بل إن كثيراً مما كان حلاً لدى هؤلاء المهاجرين الروس والذين لم يكونوا تركاً في الأصل قد أصبحت حقائق ، بل إن أتاتورك هذا إلى خطو أوسع من أحلامهم وأبعد مما كانوا يتصورون تحقيقه . وإذا كان الاتحاديون قد حطموا الدولة العثمانية وفرقوا رابطة العروبة الإسلام فإن أتاتورك قد حقق هدلاً واحداً في التاريخ الإسلامي أشد قسوة من كل عمل هو إلغاء الخلافة الإسلامية وتحويل تركيا من دولة إسلامية تحمل لواء الجامعة الإسلامية وقيادة الأمم الإسلامية إلى دولة غربية خالصة تنكر لكل ما هو عربي أو إسلامي ، وتولي وجهها شطر الغرب على نحو كامل جازم غير متردد وفق ثلاث قواعد أساسية .

(١) لغة تركية منتقاة مصفاة من ما هو عربي تسكتب بالحروف اللاتينية . (٢) قوانين أجنبية غربية مستقاة من المصادر المسيحية والرومانية بعيدة كل البعد في منطلقها وأهدافها عن الشريعة الإسلامية . (٣) تنسك كامل لكل مخططات العروبة والإسلام الجغرافية والتاريخية والانتهاه إلتناء كاملاً إلى أوروبا وعالم الغرب . ويؤكد أرنست ا . رافور وصديقه أرنست باك وبمراجعة كتاب أرمسترونج الذئب الأغبر من حياة مصطفى كمال أنه كان ماسونياً وأن المحفل الإبطالي الذي ساعد الاتحاديين عام ١٩٠٨ على نجاح حركتهم كان معيناً له في نجاح حركته ولعل آية الصديق في ذلك أنه ألقى الجمعيات الماسونية في البلاد بعد تقلده لواء الزمامة والحكم فيها ، فالحاجة إليها بعد أن تحققت كل أهدافها وهو عمل قام به كثير من القادة العرب والمسلمين . ولا شك أن العنف الذي واجه به مصطفى كمال مؤسسات الإسلام وما قام به من دحر لنفوذه في تركيا يكشف بوضوح أنه كان من أخلص رجال المحافظ الماسونية بل يصل إلى أبعد من ذلك عندما يؤكد ما رددته كثير من الباحثين من أن مصطفى كمال نفسه من أصل يهودي ومن الدعوة المقيميين في سالونيك . وأنه قد تخفى بالمكرو والخديعة في مماركة حتى كسب قلوب المسلمين فأرسلوا له من التبرعات والأموال الشيء الكثير حتى إذا تمكن من أزمة الأمور سحق الإسلام سحقاً والواضح من دراسة تاريخ حياة مصطفى كمال أمور هدية : ( أولاً ) لم يكن هو قائد معركة التحرير ضد القوات الأوربية واليونانية وإنما هو الذي سيطر على هذه القوات من بعد وسحب أسماء الأبطال الذين بدأوا هذه المماركة وكان لهم دور كبير في تحقيق النصر من أمثال بكير وغيره . ( ثانياً ) إن أوروبا قد سلمت

لمصطفى كمال بزهامة تركيا وانسحبت أمامه بعد أن وقع على موافيق رسمية دولية في مؤتمرات الصلح التي عقدت قرر فيها إزالة الإسلام والخلافة وإخراج زعماء المسلمين والحكم بالقوانين الغربية وإلغاء اللغة العربية والشريعة الإسلامية . ( ثالثاً ) إن هذه البطولة التي حيكت له أنوابعها ووضعت في هذا للطابع من الروعة والبهاء إنما كانت خدعة النفوذ الاستعماري لتأكيد وجوده وسلطانه ومنحه القوة على تدمير كل المؤسسات الإسلامية حتى لا يبقى منها شيء يخيف أوروبا أو يزهج اليهودية العالمية التي كانت تطمح منذ وقت بعيد إلى أمرين : القضاء على الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية طريقاً للوصول إلى فلسطين .

ولقد دفع مصطفى كمال تركيا دفْعاً قوياً إلى العثمانية وفصل الدين عن الدولة واضطهد للمسلمين والإسلام أشم أضطهاد وقتل العشرات وهلك جنثم على أهواد الشجر ، وأُفلق المساجد ومنع الأذان والصلاة باللغة العربية وأعاد مسجد أباصوفيا كنيسة ومتحفاً واستبدل بالشريعة الإسلامية قانوناً وضعياً ، واستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية وألغى تدريس الإسلام في المدارس الجامعات وأقام قومية طورانية هرقية متصلة بالأواصر بالوثنيين السابقين للإسلام .

ولقد كان منفذاً أميناً للمخطط الذي رسمه الاستعمار واليهودية العالمية في مقابل التحرير وهو إزالة الخلافة وفصل تركيا عن العالم الإسلامي والأمة العربية . وبذلك حقق مصطفى كمال في العالم الإسلامي وفي مواجهة العرب أخطر حركة استفراب West erinisation وفرضها فرضاً على الأمة التركية ولم يحققها تدريجياً أو على نحو التقبل والتطور وللرونة ، فقد كان مدفوعاً من القوى الأجنبية إلى تحقيق ذلك في أقصى مدى ، وإقامة هذا النظام على أساس السلطة الحاكمة والقوانين والادهاب الديموى ، وذلك حتى لا توجد ثغرة من بعده لاقتح على الإسلام أو القرباط بين العرب والترك . وللعرف أن الاتحاديين قد جمعوا شملهم للشنت بعد الحرب العالمية خلف مصطفى كمال ففسدوا بالقوى للملية والسكاليين وجمعية مدافعة الحقوق . وقد واجه الاتحاديون مصيراً قاسياً بعد ذلك الدور الخاطيء الذي قاموا به فقتل منهم من قتل وفر أغلبهم بدمرة أجنبية عن طويق البسفور وسلموا الأمة إلى الاهداء ولقد جرت محاولات للهجوم على الاتحاديين في عهد مصطفى كمال أو التفرقة بين الطورانية التي حل لواءها الاتحاديون وبين القومية التي دها إليها مصطفى كمال ونفذها : هذه القومية المحددة بمحدود الأناضول وهي غير المدعوة الطورانية التي كانت تحاول جمع الشعوب التركية . وهو كلام ساذج قد يخدع البسطاء ذلك لأن جوهر الطورانية والسكالية واحد وهدفه واحد ، بل لقد كانت الطورانية دعوة فكرية مترددة . أما السكالية فقد أعطت نفسها القوة العسكرية التي استطاعت بها أن تفرض

رأيها ، ولا فارق بين الدهويين في أبرز مظاهرها ومخططاتها وهو إعلاء العنصرية التركية واللبالغة في التنفي بالأبجداد ، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وتنفيذ نظام سياسي واجتماعي غربي لاديني منفصل عن الاسلام وللشريعة والقيم والمعتقدات الاسلامية التي هزتها الدولة العثمانية أكثر من أربعائة سنة . والالتناء إلى الغرب الذي كان هو للنخالف الفكري للاتحاديين منذ أحمد رضا أغايف إلى مصطفى كمال نفسه . ولقد كان انتهاء تركيا إلى الغرب سبة في تاريخها لم تسلم من قلم مؤرخ أو فيلسوف ، فإذا استطاعت تركيا أن تعطي الحضارة الغربية عندما انتهت إليها ، كما أعطتها شعوبها لاشيء ، إلا أنها كانت ولا تزال ذبلا لها ، وقد أشار توبلي إلى ذلك صراحة في موسوعته وقال إن تركيا حين تقربت لم تقدم شيئا إلى الغرب أو جديدا إلى الحضارة وعاشت عالة على القوانين وللنظما الغربية .

ولعل هذه عبرة الدهاة الذين طامحوا دعو العرب والمسلمين إلى التفرير وحاولوا التويه كذبا وادعاءً وتبعية بالقول أن الحضارة الغربية لا تؤخذ وحدها وإنما تؤخذ مع الفكر الغربي وأساليب العيش الغربية ، وإن كل حضارة مثل كل طريقة حياة هي كل لا يتجزأ . كذلك أشار توبلي ، وردد ذلك أحمد أغايف في تركيا وطه حسين في مصر . لقد اصطفت تركيا قسراً بالحضارة الغربية : فكراً ومجتمعاً فإذا حققت غير التخلف الذي سيظل طامعاً لها إلى أن تراجع عن هذا الخطط الزائف ، وتجد طريقها الصحيح للضيء في ضلال الاسلام ، إن العرب المسلمين يستطيعون أن يأخذوا العلم التجريبي ويترجموه إلى لغاتهم ويقيموا مجتمعات ذاتية قوامها فكرهم ومفاهيمهم فهم ليسوا في حاجة إلى قوانين الغرب وشرائعه ، ولا إلى مفاهيمه الاجتماعية المتحللة في بحال التوحيد أو النفس أو الإقتصاد أو التربية . خاصة في مرحلتها الحالية التي وصلت فيها إلى أحط درجات الاضطراب والإجابة إن محاولة إخراج المسلمين من الاسلام باسم خروج أوروبا من الدين مقارنة باطلة فإن المسلمين والعرب قد شكلوا نفسياً واجتماعياً بهذا المركب الجامع بين الدين والحياة ، وهذا الترابط بين الاسلام والدولة وهذا الامتزاج بين العروبة والاسلام فأى محاولة لإخراجهم من طرازم النفس وذاتيتهم هو قضاء عليهم . والعبرة واضحة في الدولة التركية والانقلاب السكالي . لقد كانت الدولة العثمانية تستطيع أن تتجدد وتقف موقف الأمم الراقية دون أن تدمر مقوماتها فلم يكن الاسلام هو مانعها من الرقي ولكن التخلف عن فهم حقيقة الاسلام هي مصدر التخلف . إن كل ما أصاب الدولة العثمانية أو العرب والمسلمين من تخلف إنما يرجع إلى تجاوز مفهوم الاسلام والحضارة الاسلامية في مقوماتها الأصلية وكل ما توصف به الدولة العثمانية أو العرب من ضعف أو جمود أو فساد أن تحجر إنما جاء نقيحة الهوة التي قامت واتسعت بين الأسامية وبين الواقع المخالف .

لقد كانت الكلمة للضللة التي اتخذت مفتاحاً لكل هذا التحول هي أن الإسلام حائل دون النهضة وأن القانون السويسري هو مصدر النهضة وقد فعلوا والنتيجة واضحة ليست في حاجة إلى دليل . لقد كشف كثيرون دور الصهيونية العالمية في التحول الخطير كله الذي شمل تركيا والبلاد العربية وأهدافه الأساسية : يقول عبد الله النل : إن اليهود لم ينسوا أن السلطان قد رد هرتزل وأيقنوا أن لا أمل لهم ولا فائدة من السلطان فقررت حكومة اليهود المستورة القضاء على الخلافة وحينما نجح اليهود في تحطيم الخلافة لم يكتفوا بذلك وإنما رسموا لتركيا خططاً للمستقبل وقرروا أن تتخلى تركيا عن الخلافة وعن اللغة العربية وأن تتخلى عن الإسلام نمناً لتأييد دول الخلفاء لها في ثورتها التحررية التي قادها مصطفى كمال . لقد كان الوسيط الذي أشرف على اتفاق الخلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام حاييم ناحوم الذي كان في تركيا قبل انتقاله إلى مصر حاكماً أكبر ليهودها . نعم لقد رسم اليهود الخلع لقيام الدولة التركية على أساسين : [اللا دينية Laïcisme والقومية nationalisme . ليسكون ذلك عازلاً كاملاً دون العرب والمسلمين والإسلام في القانون والمجتمع والعلاقات الخارجية . امد جاء أوان قطف الثمار : ثمار الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وكان على زعماء اليهود في تركيا أن يضعوا الخطة ، وكان حاييم ناحوم مع وستراوس ، ومرجانيو سفيري الولايات المتحدة يعملون من أجل دعم الوجود الاسرائيلي في فلسطين وفي البلاد العثمانية . ولقد كان هو الوسيط القوي الذي أوفده مصطفى كمال إلى دول الغرب في مؤتمر لوزان فحقق لتركيا ما أراد للغرب . ونشهد ترجمة الحاخام الأكبر إنه كان مدرساً للادب بمدرسة المدفعية الهندية في استانبول حيث كان من تلاميذه ( عصمت اينواو ) رئيس الحكومة السكالية وعدد كبير من ضباط الجيش التركي .

يقول عبد الله النل : يا لها من مصادفة عجيبة أن يلتقي في تركيا المهزومة أساطين اليهودية العالمية وأساتذة الماسونية من أمثال ستراوس ومورجانتو اليهوديين ليتعاونوا مع حاييم ناحوم على رسم طريق المستقبل للدولة التي كانت إلى زمن قريب تميز العالم وتفرع بمجنودها الأبطال أبواب غرب أوروبا ، ونجح أساطين اليهودية العالمية بمساعدة عدد كبير من الأتراك الذين يحملون أسماء إسلامية وهم من يهود الدونمة مثل مصطفى كمال باشا وجاويد بك وحسين جاهاين بالنشين ؛ نجحوا في القضاء على الخلافة وفي إلغاء الدين وغدت تركيا دولة لادينية بفضل اليهود الذين نزهوا عنها ثوب المجد الوحيد الذي أوصلها إلى قمة العزة والمجد والسودد ، نزهوا عنها ثوب الاسلام فأصبحت تركيا منذ سنة ١٩١٨ حتى يومنا هذا تتمسك في دياجير ظلمه حالكة تعجز مئات الملايين من دولارات اليهود عن إثارة الطريق أمامها اليوم وسنظل دائماً ما دامت تسيرها اليهودية العالمية - كمية مهمة في الميزان الدولي وفي ميزان

الحياة ، ليس لها رسالة إلا خدمة اليهود وهبئهم من دول الغرب الكبرى . والحق أنه بنهاية الحرب العالمية الأولى طويت صفحة من تاريخ العرب والاسلام فقد سقطت الدولة العثمانية وتمزقت . وخرجت حكومة تركيا من إطار الاسلام ومزق العالم العربي بين نفوذ بريطانيا وفرنسا ومكن للصهيونية العالمية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

## ( ٢٧ )

### الخلافة الإسلامية

كان إلغاء الخلافة الاسلامية هو آخر المراحل التي تطلع إليها الاستعمار واليهودية العالمية من أجل تمزيق وحدة الاسلام والعروبة ، والقضاء على آخر صرح جامع للعرب والترك يحمل لواء الجامعة الاسلامية ويتنادى بالمسلمين في كل بقاع الأرض . لقد كان إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الأحداث في العالم كله ، وسيظل من الأعمال الكبرى ، وسيحمل لاسم مصطنع كمال أكبر التبعيات في حكم التاريخ فقد فتح الباب واسعاً أمام صراع الاقليميات والقوميات التي تتحرك في فراغ دون أن ترتبط بدائرة أساسية هي دائرة الفكر الاسلامي أو الوحدة الاسلامية الجامعة في مجال الجغرافيا أو في مجال الفكر . غير إن إلغاء الخلافة الاسلامية لم يحقق ما توقعه الاستعمار واليهودية العالمية من تمزق الاسلام أو اضطراب المسلمين والعرب الذين أهرقوا على التوفى أتون الأجناس والعصبيات والعنصرية بقصد تعميق هوامل الخلاف ودعمها والحيلولة دون قيام وحدة فكرية أو إجماعية بينهم . ومن الحق أن يقال أن هذه الأحداث التي نالت من أجل تمزيق وحدة العروبة والاسلام إنما جرت تحت سلطان قاهر هو النفوذ الاستعماري الذي تحكم بواسطة مؤسساته المختلفة في الدولة العثمانية وفي البلاد العربية جميعاً . وكانت هذه المؤسسات هي :

( أولاً ) الاحتلال البريطاني في مصر . ( ثانياً ) السكيان اللبناني القائم في حماية دول الغرب في بيروت . ( ثالثاً ) الاتحاديين ومن بعدهم السكاليين في تركيا . ( رابعاً ) الاحتلال الغربي للدول العربية والتي شمل العالم الاسلامي كله بعد الحرب الأولى . وعن طريق هذه القوى وما تدفعه من فكر سياسي واجتماعي هن طريق الجامعات والمدارس والمحافل الماسونية والصحف والأنظمة السياسية الواقعة تحت نفوذ الاحتلال والتي تخرج رجالها في الأغلب من الارشاليات التبشيرية والمحافل الماسونية فرضت مفاهيم مغايرة لطبيعة الفكر العربي الاسلامي وجرت المتابعة والسكرار واللاحاح مع تنبئتها من الأذهان لتصبح بعد خمسين سنة حقائق لا مفر منها ولا معارضة لها .

لقد ركزت هذه الدعوات التغريبية على الازدراء بالخلافة العثمانية والجماعة الاسلامية وعلى إثارة الصراع بين الاسلام والغربية ، وبين القومية والوطنية ، وبين الاقليمية والقومية ، وبين العناصر المختلفة ، وبين الأديان وللذاهب وذلك كله لاذابة كل هدف سليم واضح تطرحه حركة اليقظة الاسلامية للسير في الطريق الصحيح إلى معرفة الحقيقة وإلى إتخاذ الأسلوب الأمثل لمواجهة الأخطار. لقد كانت الحملة الضخمة أساساً موجبة ضد الاسلام واضعة إياه في قفص الاتهام بأنه مصدر الضعف والتخلف للعالم الاسلامي ، وكانت الحملة الضخمة مركزة على مفهوم الاسلام الجامع بين الأمم والشعوب الداهي إلى الوحدة والأخوة . وكانت حملة أخرى أشد قوة موجبة إلى التشرية الاسلامية ومهاجتها وذلك لاحتلال مبدأ فصل الدين عن الدولة في أنظمة الحكم ومفاهيم التعليم وفي أنظمة القانون ، واستبدال الشريعة الاسلامية بالقوانين الغربية وبذلك يمكن إخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقوماتهم وشخصيتهم ، والتسكين للاستعمار الغربي والنفوذ اليهودي في فلسطين . ونتيجة للضعف السياسي الذي كان يمر به العالم الاسلامي فقد هجرت قادة المسلمين عن إعادة بناء الخلافة الاسلامية مرة أخرى بعد أن أسقطها مصطفى كمال وإن ظلت منهزمة أساسياً في مناهج الدعوات الاسلامية وخطة واضحة في برنامج حركة اليقظة العربية الاسلامية . وما زال للمسلمون والعرب يبحثون عن صيغة جديدة تحمل لواء الوحدة بدلاً من الخلافة لا تحول دونها قوى النفوذ الاستعماري للسيطر ، ولقد كانت مكة وجامعتها في أيام الحج ، وكان الأزهر من القوى التي ساندت حركة اليقظة العربية الاسلامية بعد سقوط الخلافة وكان إلتعاش الوهابية الجديدة في الجزيرة العربية واليقظة الاسلامية في مصر والباكستان وغيرها من علامات النمويض السريع .

وقد صور الدكتور عبد الوهاب عزام الإثارة التي ترتبت على إلغاء الخلافة في العالم الاسلامي فقال : إن عمل السكاليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يسكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى في سلسلة مصنوعة والخطوة الأولى في خطة موضوعة : خطة أملاها عليهم الروس والانجليز وأوروبا . لقد كان إلغاء الخلافة في هذه الخطوب للكفجرة ، حل رباط حزبه من التعصب في ربح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلغت أهداهم أبعد غاية ، ولا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم وأحسب أن الانكليز كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليلبثوا الغاية التي يلغونها إياها السكاليون بغير بذل ولا كد . وتسكاد تجمع الأبحاث التي عرضت على أن على الخلافة الاسلامية هي مؤامرة اسلامية مدبرة ، وأن هناك ارتباط بين مصطفى كمال والنفوذ الغربي على ذلك وأن مواداً قانونية في معاهدات دولية قد أقرتها تركيا تنص صراحة على إلغاء الخلافة كضمن لتحريرها من الاحتلال

اليوناني والبريطاني . ولا شك أن إلغاء الخلافة كان عملاً مرضياً لروسيا وفرنسا وإنجلترا واليهودية العالمية ولأوروبا جميعاً التي ما تزال تذكر تاريخ الدولة العثمانية وفتوحاتها في قلب أوروبا والتي وصلت إلى أسوار فينا وكان مفهومها أيضاً أنه جزء من مخطط تمزيق العالم الإسلامي إلى قوميات وإقليميات تحول دون تجمعه أو ترابطه وبذلك تقسائط في أتون الحضارة العالمية عندما تتحول كل قومية وإقليم إلى تبعية كاملة للفكر الغربي : هذه التبعية التي تكون نقطة البدء فيها فصل العروبة عن الإسلام وفصل الإسلام عن المجتمعات باقاة قوميات هلمانية . وهناك إيمادات واضحة تشير إلى أهداف المخطط الذي رسمه الغرب واليهودية العالمية والذي تفنيد المحافل الماسونية ورساليات التبشير تبدو واضحة في أقوال بعض دهاقين السياسة الأوروبية فالورد كرزون يخاطب في مجلس الأعيان البريطاني بعد محادثاته في مؤتمر لوزان مع الأتراك فيقول : لقد قلت للترك بأن توجههم وجوهرهم إلى جهة إيران ولأفغان مضربهم ، وأنه ينبغي لهم أن يوجهوا وجوههم نحو الغرب وقيموا أنظمتهم على أساس الحضارة الأوروبية . ويقول ( لويد جورج ) السياسي البريطاني وهو من كبار رجال الماسونية العالميين معلماً على إلغاء الخلافة : لقد تحررت الأديان المسيحية من إشراف الحكومات في قارة أمريكا الشمالية كلها وفي الممتلكات البريطانية وفرنسا وقد حذت تركيا اليوم حذو هذه البلدان . وقد أشار مصطفى كمال إلى اتجاهه فقال في صراحة : إن وجهتنا هي السير من الشرق إلى الغرب ، اهملوا أننا لأننا اضطررنا إلى اختيار موطن لنا في الشرق فقد وقع اختيارنا على موطن غربي بقدر الإمكان لما للغرب من علاقة بمنشأنا الأول : فإذا كانت أجسامنا في الشرق فأنظارنا ما برحت متوجهة إلى الغرب : إن فكرة الجامعة الإسلامية لا نصيب لها من الحقيقة .

وقالت جريدة ( توحيد أفكار ) التركية : أن على الغربيين أن يقيموا الدليل على أن أنظمة الحضارة الأوروبية خير من أنظمة الحضارة الشرقية . وأكد الفيلسوف التركي رضا توفيق تبعية تركيا للفكر الغربي الفرنسي فقال : أن التفكير التركي يتجه إلى الناحية الفرنسية والمدرسة الفرنسية الآن التي هي تفوق الروح التركية لأن الآداب من مبتكرات العقل الفرنسي وسبق الروح الفرنسية هي التي عملت على الحياة التركية العسكرية وقد عرف القاريء بأن الثورة التركية وليدة الثورة الفرنسية . وهذا كلام واضح يضع النقط فوق الحروف بالنسبة إلى نسب الثورة التركية ، وليدة الانقلاب العثماني للاتحاديين وكلاهما مستمد من مصادر الثورة الفرنسية الأصيلة ألا وهي المحافل الماسونية التي حققت بالانقلاب التركي الهدف الثاني من أهدافها السكبار وهو ازاحة الوحدة العربية الإسلامية والرابطة بين الترك والعرب والصله بين الإسلام والمجتمعات باسم القومية الإلاديه المستوردة

من النظريات الغربية والمفروضة فرضاً بقوة السلاح وسلطان الحاكم الديكتاتور . ولا شك أن إلغاء الخلافة وإقامة النظام الجديد كان يتركز أساساً على فصل الدين عن الدولة في تركيا . فقد صرح مصطفى كمال أن الدين يجب ألا يعتمد على المعابد وأن حرية الفكر هي أساس حرية الدولة ولكل أنواع الحرية . وطالب كثير من النواب بإلغاء المواد التي تشير إلى الدين في الدستور التركي وأعلن مصطفى كمال أن المادة التي تنص على أن الإسلام هو دين الدولة لم تعد صالحة لهذا العصر وأنه يجب حذفها من الدستور في أول فرصة . ولا شك أن الدين الذي يشير إليه مصطفى كمال والذي يجب ألا يعتمد المعابد ليس هو الإسلام الذي نعرفه والذي يعرفه المسلمون : والذي هو نظام مجتمع ومنهج حياة ، وذلك أن هذه العبارات قد كتبت تحت ضوء أحداث وقعت في أوروبا وصف الدين فيها بهذه الصفات ثم نقلت نقلاً لنقال عن الإسلام . ولقد تدرج مصطفى كمال في إلغاء الخلافة ومادة الإسلام من الدستور التركي على مراحل متعددة ، فألقى الخلافة الرمنية أولاً ثم أقام خلافة روحية على نسق البابوية حتى إذا تأكد من أن هذه الخطوة قد مرت بإسلام عاد فألقى الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤ وكذلك فعل بمادة الإسلام التي ألغاهما نهائياً عام ١٩٢٨ بعد أن أثبتها في الدستور الأول . ولقد كان عهد العزيز جاويز من أقرب الناس إلى أحكام أنقرة في هذه الفترة وكانت له محادثات طويلة مع مصطفى كمال ولذلك فقد جاءت نظراته إلى الأمور بعد إلغاء الخلافة غاية في الدقة والوضوح . وفي بحث له تحت عنوان [ القنبلة السكالية تصيب كبد الإسلام وتركيا ] يقول : الذين يزينون لمصطفى كمال ما فعل إنما هم فئة من التتار التي دسها روسيا القيصرية بين الترك لقطع ما يصلهم بالإسلام ، جاء هؤلاء المفسدون إلى الأستانة قبل الدستور العثماني فزينوا للاتحاديين مسألة النصرانية والتباعد عن الإسلام .

لقد وسوسوا للاتحاديين بأن سبب تألب أوروبا على تركيا إنما هو الإسلام وقيام الخلافة فيها ثم أخذوا يزينون لهم أن تعتبر غير البلاد التركية من الإمبراطورية العثمانية مستعمرات ملوكه وأن يكون للعنصر التركي وحدة حق الحكم غير مشترك . ساقوهم إلى الطورانية وزينوا لهم أن ذلك يمكنهم من ضم عشرات الملايين من الأتراك البقاعين في أذربيجان وتركستان . كما استندرجوهم إلى محاربة اللغة العربية بعد أن صارت نحو ٧٠ في المائة من اللغة العثمانية وإلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، ثم أشار عبد العزيز حلويش إلى خلو المملكة العثمانية بعد الحرب من المصلحين المفكرين مما وضع الأمور كلها في يد هذا التفرع من التتار المارقين فمالبثوا أن بطشوا بيد مصطفى بطشهم بالإسلام وتركيا جميعاً .



ولكن هل سارت الأمور حتما على هذا النحو الذى صوره عبد العزيز جاويز : أن الخلفيات التى كشفنا عنه في هذا البحث تعطى صورة أكثر دقة للمخططات البعيدة المدى التى لم يكن فيها أمثال يوسف أشقورة وأحمد أغايف ورضا الب إلا مجرد أدوات ، بل كان فيها مصطفى كمال نفسه بإرادته كواحد من الدوغة واللاسون ، وبما أريد له ورسم من مخططات إقامتها النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية ؛ كان فيها مصطفى كمال نفسه مجرد أداة ضخمة استنفرت في شخصيته للبيئة بالفرور والكبرياء والتطلع إلى الزعامة كل خواص الانتقام والهدم والتغيير لتحقيق هدف كبير ، أبعد كثيرا من مطامع كتاب التتار أو مصطفى كمال نفسه . ولقد كان من أطماع مصطفى كمال أن يكون خليفة ولكن النفوذ الأجنبي كان يرمى إلى قطع هذه الشجرة من جذورها ، وقد حقق ذلك وبلغ فيه إلى أقصى لدى . وذلك فإن المحادثات التى دارت بين عبد العزيز جاويز ومصطفى كمال في أمر الخلافة لم تكن من أجل الوصول إلى رأى فيها بقدر ما كانت لكسب جاويز إذا أمكن إلى وصفه ، وهو لم من أهلام الإسلام يكون لرأيه وزن ، ولذلك فإن مصطفى كمال ما كاد يرى اصرار عبد العزيز جاويز على موقفه الصحيح من الخلافة حتى أدارة ظهره ، وسحب كل وهوده في الانتفاع به في الأعمال الكبرى في الدولة . ولقد حاول مصطفى كمال أن يرجع أمر الهزيمة التى منبت بها تركيا إلى الخليفة وهذه مغالطة ضخمة فإن الانماديين كانوا هم الحكم وهم الذين أصدروا قرارهم بالدخول في الحرب ولم يستطع الخليفة من رأيهم مخالفة . ويبدو ذلك واضحا في الحديث الذى دار بين مصطفى كمال وعبد العزيز جاويز والذي سجله هذا الأخير :

مصطفى كمال — ما رأيك بأنلآن في أمر الخلافة وفصلها عن سياسة الدولة ؟

عبد العزيز جاويز — ليس في الإسلام خلافة بلا قوة كما أنه ليس في الإسلام خلافة مستبدة .

مصطفى كمال — أوليس أولئك الخلفاء هم الذين كانوا مصدر شقائنا وبلائنا أو ليسوا هم الذين ساقونا إلى تلك الحرب الطاحنة .

عبد العزيز جاويز — إن الخلفاء الذين أقاموا في السنوات الدستورية لم تطلق أيديهم في تدبير البلاد ولا كانوا مستبدين بأمرهم بل كانت تجري الأمور في المملكة لا يحيطون بها همسا ، وإذا كان لهؤلاء الخلفاء في زمن الدستور شيء من الامتيازات القانونية فما ذلك إلا لكون الدستور جعلهم خلفاء على الأصول الرومانية لا خلفاء وفق الشريعة الإسلامية .

مصطفى كمال — كيف ذلك ؟

عبد العزيز جاويز — إن الإسلام أنكر الفروق الطائفية وامتيازات الطبقات والأفراد بعضها عن بعض في الأحكام والتكاليف الشرعية ، بل أقام سائر العوالم البشرية في مستوى من تكاليفه تتعاضد فيه الأقدام والرؤوس فلا يمتاز في أحكام دين الإسلام رجل عن امرأة ، ولا أمير عن سواه ولا فقيه عن غيره ، بل كلهم خاضعون للقانون السماوي :

« ليس بأمانيكُم ولا بأمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزيه ولن تجده من دون الله ولياً ولا نصيراً » . وبذلك شوى الإسلام بين الرعاة والرعايا في سائر الأحكام والتكاليف فقضى بمجازاة من يعدون حدود الله بلا تفرقه ولا تفاوت ، فإذا أصاب أمير أو سلطان أو خليفة أى فرد بأذى كان عليه من الجزاء مثل ما على غيره من عامة الناس سواء كان ذلك الأذى هدواناً على نفس أو حاجة أو هرض أو مال . فليس في دين الإسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا خليفة ولا سلطان ولكن تركيا التى قتلت أوربا اقتبست من القوانين الرومانية قاعدة أن الخلفاء فوق القانون والشرائع فأصبح الخلفاء بهذا خلفاء رومانيين لا خلفاء مسلمين ولو قتل رجال النهضة الدستورية إذاك أدرکوا ذلك الفارق البعيد بين دين يقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . ويقول « إن الحكم إلا لله يقض الحق وهو خير الفاصلين » . وبين شرائع قامت في أقوام كانت تمجد للولك والأباطرة وتعدم مصدر الاشتراع والحكم فرقمتهم إلى مقام الإله الذى هو وحده يحكم ولا معقب لحكمه . أوجب دين الإسلام طاعة أولى الأمر ولكن هل شريطة ألا يأتروا بما يخالف أوامر الخلق ، ثم أبان لنا أنه إذا وقع تنازع بين الراعى والرهية وجب أن يتعاضدا إلى كتاب الله وسنة رسوله فلم يبيح لأحد منهما مهما بلغ سلطانه وصولته إن يحكم الناس بما تنهوا عنه وتستهطيمه شهرته حتى لقد أجاز للناس الخروج على خير العبدول الذين لا يقفون عند حدود الله من السلاطين والأمراء مبيحاً لولى الأمر مقاتلتهم وقتلهم . يقول جاويز : بأن مصطفى كمال لم يصبر بعدوهم ، فهم بالوقوف إيداناً بالانصراف فانهضت ، ثم أوعز إلى فرقة في المجلس أن تدهون الاستقبال رسمياً وجائى خطاب من جلال نورى أن أكون بمركزها يوم ٢ يناير ١٩٢٣ وهناك تحدث جاويز فقال : إن سبب شقاء الترك وتأخرهم لم يكن دين الإسلام ولا قيام الخلافة في بلادهم كما يزعم لهم النصارى والواغول ويتوهمه الرهط للارقون ولكن الأمراض الاجتماعية والجهالة الفاشية الفاعلة فيهم ما تعجز عنه الأوبئة الفتالة . أراكم تنكلمون عن الرئاسة الروحية والرئاسة السياسية كأنى في طائفة من الكاثوليك يشكلون سلطات البابا وخلفائه من القساوسة ويألمون لما أصابهم من تصرف هذه الطائفة في حقولهم ووجدانهم . لقد كنت أنتظر من قوم نبتوا في الإسلام ودانوا به أن يدركوا ما بين الدينيين من الفروق الواسعة

والصفات التي لا يجتمعان على شيء منها ، ليس في الخلافة ولا في الإسلام ما توهمهم من العيب ولكن « كيفما تكونوا يول عليكم » . لقد كانت تقام الأحكام باسم الله الحكم العدل حتى دب في مقلدة الغرب من المسلمين ذيب الوثنية الرومانية فصاروا فيما يسمونه بمعصر للديانة التي اتبعوا فيها أوربا بشيراً وبذراعاً وبذراع ، فقبلوا وهم أهل دين التوحيد الكامل ما جاءهم من الرومان الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركون ملوكهم بتلك الآلهة بل الذين كانوا يعتبرون في أساطيرهم صورة العلي الكبير الذي لا يسأل عما يفعل . لقد نما الإسلام ما كان بين طبقات الحكام وشعوبهم من الفروق والأحكام والشرائع كما حارب الطوائف الروحانية بما أنجى الإنسان من شرورهم ومفاسدهم . أبطل الإسلام عقيدة إرث الخطيئة وأزال الحجب والحواسر التي أقيمت بين الله وبين خلقه فأنهض مصرأى باب القدس لكل مستفتح ومأنها رضوانه وجنته لكل طالب . بهذه الأحكام الرشيدة أنقذ الإسلام أتباعه من شرور رجال الدين الذين كانوا يحاولون الحيلولة بين الله وبين خلقه ليلجئهم إلى أن يتخذوا منهم شفعاء ووسطاء ، حتى إذا ملكوا معاقل قلوبهم ساموهم العذاب . ويقص علينا تاريخ القرون الوسطى من هول سلطان الكنيسة ما تقشعر له الأبدان فن حرمان من الإيمان إلى فادح من اللغز إلى إحراق بالنار إلى استئثار بالغفران إلى استباحة الأغراض إلى إفراط في الشهوات . ولم يكن المسيحيون في ذلك السلطان الديني القاهر يدعوا من الأمم والملل فقد فعل اليهود من قبلهم شيئاً من ذلك ، كما أن إبراهيم في الهند لا سيما في القرنين الخامس والسادس قبل المسيح بلغوا من الاستبداد بالأمم في العامة ما أمكنهم من رقابهم وأموالهم إلى أن ضجت الإنسانية وبرز للمصلحون . من ذلك السلطان الروحاني ( كما تدعونه ) جاء الإسلام ليخلص القبائل والشعوب ويحرر النفوس البشرية وما كان لدين جاء لهذه الغاية أن يغسل الدم بالدم ويمحو الاستبداد بالاستبداد وينسخ الجور بالجور . هل اخضع دين الإسلام الخليفة بمصمة من خطأ أو أثم ؟ هل منحة حق الاستئثار بتفسير كتاب أو سنة ؟ هل خوله النيابة عن الله في هجران ذنب أو طرد من رحمة أو تحكيم في عقيدة أو سيطرة على وجدان ؟ لم يحدث شيء من ذلك بل أوجب الإسلام على الخليفة إقامة العدل طبعاً لما نصت عليه الشريعة ثم جعله مسئولاً أمام عامة المسلمين سؤاله أمام رب العالمين فجعل لهؤلاء إذ لم يعدل الخليفة عن الحق أن يخلعوه وأن يقتلوه .

نعم إن أحكام الإسلام أحكام دينية ولكنها ليست من النوع المعروف في تاريخ الأديان ( بالثوقرسي ) فإن هذا النوع معناه أن يكون الحاكم نائباً عن الله في الحكم والاشتراع على الناس طاعته وليس لأحد أن يخطئه أو يخالفه بل ولا أن يناقشه ، ذلك لأن الرئيس عندهم معصوم لا ينطق

هن الهوى فكل ما يأتيهم به من شرع ودين من عند الله لا يجارى فيه ولا يجادل فيه ، ذلك ما كانت تفهمه الأمم الغير مسلمة . كلما ذكرت عبارات : السلطنة الدينية ، السلطة الروحانية ، سلطة الكنيسة . ولقد التبس الأمر على غير الواقفين على أسرار الإسلام وأصوله فأخذوا يحاكمون الأمم الأخرى الحق لم تسمع إلا بخلها أطواق سلطة الكنيسة للذكورة آنفاً من رعاياها . وإننى على ثقة أنه لو كان في الدين النصرانى من الأحكام الهادفة للفروق الطائفية مثل الذى جاء به الإسلام لما اصودت صفحات الكنيسة بما فعلت في القرون الوسطى ولما أريقتم قطرة دم في معالجة أطرافها والتخلص من سلاسلها وأغلالها .

## ( ٢ )

لا ريب أن خطة فصل الإسلام عن العسروية وفصل الدين عن الدولة كانت من مخططات الاستشراق والاستعمار كمقدمة لإسقاط الخلافة الذى تم عام ١٩٢٤ بعد فصل السلطة الدينية والسلطة السياسية عام ١٩٢٣ وإن ذلك كان مبدئياً منذ وقت بعيد ولقد جرى الإعداد الفكرى لذلك منذ وقت بعيد ، فقد حملت جريدة المقطم لواء هذه الدعوة منذ عام ١٨٩٩ حين أوردت رأى المستشرق جبرائيل شارم الذى دعا إلى فصل الخلافة عن السلطة فيكون الخليفة غير السلطان ، وقوله : إن فصل السلطة الدينية عن السلطة الدستورية في الإسلام يكف أوروبا عن مناوأة الخلافة إذ لا يبقى محل لاستخدام مصالحها السياسية بالمصالح الإسلامية فيزدهر الإسلام وينتشر لزوال كل حائل صيالى من طرائفه وما استشهد به للمستشرق المذكور هو انفصال الكنيسة عن الحكومة في كثير من الممالك الأوروبية انفصالاً كان نتيجة تقدم القوتين الدينية والدستورية تقدماً لم يسبق له نظير .

وقد أحدث هذا الرأى مناقشة وجدلاً طويلاً . وقال أحد الذين تصدوا لمعارضة هذا الرأى الذى طرحه للمقطم . « إنه إذا انفصلت الخلافة عن السلطنة العثمانية سقطت منزلة العثمانيين أمام الدول الأوروبية فلا تعود قادرة على التسلح بسلاح الإسلام فتزول من نفسها وهذا ما لا يرضاه لها إلا أعداؤها . وأن الخلافة لم تنفصل عن السلطنة إلا لما كان الإسلام ضعيفاً مشفقاً وكانت غزوات الانتار يتلو بعضها بعضاً وكان الانشقاق قد تعاظم بين الامارات الإسلامية ، ولكن لما ظهرت الدولة العثمانية بظهور القوة واهتزت بفتوحاتها الجيدة إخضاعها للأمم استنحت لكونها أسمى دول الإسلام هبية وأعظمها صولة حينئذ أن تكون الخلافة والسلطة في قبضة يدها ، فإذا ما انفصلت الخلافة عن السلطة فيكون ذلك ابتداء موت الدولة العثمانية لأن حياتها تتوقف على تقربها بين الأمم الإسلامية

لتميز شوكتها وشد أزرها . وقال : إن الفصل يقضى على الدولة . والجامعة الإسلامية لا تتم إلا بتقوية دعائم للمالك الإسلامية . وإيلاء أخرى خطيرة حول فصل الإسلام عن العروبة والدين عن الدولة والمجتمع تكشف عنه كتابات المقطم في هذه الفترة وإلحاحه على تعميق هذا المفهوم والدعوة إليه ومن نماذج ذلك قوله : يجب على الخاصة منا أن يملأوا العامة التمييز بين الدين ودين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان اللذين نحن فيهما فإذا لم تدركه هامتنا كان الخطر محيطاً أبداً بمخاضتنا .

لو سألت عامتنا اليوم هذه لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة والدولة لا تقوم إلا بالدين وكلاهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهذا خطأ مبين لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التي تسعى إليها في زماننا هذا هي غاية دنيوية محضة وأهني بها تأمين الناس على أرزاقهم . أما الدين فالغاية المقصودة منه واحدة على اختلاف الزمان والمكان وهي صلاح الناس في هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم في الآخرة ، فهو الصلة بين الأفراد الذين يدينون به وبين خالقهم ولكل إنسان دينه ، ولقد واجه المفكرون المسلمون هذه المغالطة الواضحة في تصوير الإسلام في العالم الإسلامي وفق مفهوم الغرب المسيحية الغربية ، على أساس القول المضلل بأن الإسلام دين لاهوتي خاص بالعلاقة بين الله والإنسان ودحض هذه الشبهة بالقول بأن الإسلام دين ودوة ، ونظام مجتمع ومنهج حياة وأن محاولة تفريقه من مفهومه الأصيل حرب عليه يراد بها تسميعه أو ضربه في أقوى مقدراته وأعظمها : والذي يعيننا اليوم بعد هذا الوقت الطويل المار منذ ١٨٩٩ حتى ١٩٢٤ عندما أُلغيت الخلافة الإسلامية أن مصطفى كمال أتاتورك لم يسقط الخلافة مرة واحدة ولكنه فصل أولاً بين السلطة السياسية والسلطة الدينية وأقام خليفة روحاني على نمط البابوية . وكان ذلك تطبيقاً لهذه الارهاصات التي سبقته بأكثر من ربع قرن وكذلك قام عالم من الأزهر مثل الشيخ علي عبد الرازق فردد ما ذكرته المقطام ورجاها خريجي معاهد الرسائل التبشيرية في لبنان ودعاة الاستشراق والماسونية وفق مخططات اليهودية العالمية . جاء الشيخ علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) فردد هذه القرية الكاذبة وأدعى أن الإسلام نظام روحي لاصلة له بالملك ولا بالحكم ولا بتنظيم المجتمع أو السياسة . ومن ثم وضع جرثومة خطيرة عاد المستشرقون بعدها ودعاة التفريب والعاقلون من المسلمين يرددونها على أنها مذهب إسلامي ما دام قد أعلنه رجل من الأزهر ومن سن سنة خبيثة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . ولقد تصدى الشيخ مصطفى

صبرى شيخ الاسلام السابق للدولة العثمانية إلى خطة مصطفى كمال بإلغاء الخلافة الزمنية وإقامة الخلافة الروحية بكتاب ضخام عنوانه (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) تصدى فيه لهذا الانحراف في الفصل بين الدين والدولة ، وتصور الاسلام على هيئة الكنيسه والبابويه من هزل السلطة المدنية عن السلطة الروحية ، كما ظهرت كتب كثيرة بعد إلغاء الخلافة في الرد على ما أثاره كتاب تركيا السكاليه وهى عبد الرازق من تفسير خاطئ للإسلام الجامع بين الدين والدنيا وبين اللاهوت ونظام المجتمع .

### ( ٣ )

ولا شك أن إلغاء الخلافة كافى من أعظم المنجزات التى حققتها اليهوديه العالميه والاستعمار من أجل القضاء على وحدة المسلمين ، وكان مصطفى كمال أتاتورك المنفذ لما بعد أن عاشت فكرة تتردد على ألسنه والصحف بمبدأ لتحقيقها سنوات طويلة . وقد ذاعت هذه الأقوال عن الفصل بين الخلافة والسلطنة فى أيام السلطان عبد الحميد ثم ترددت فى أيام الاتحاديين حتى جاء مصطفى كمال فحققها . وقد أشارت جريدة الأهرام عام ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة إلى هذا المعنى حين قالت : إن ما نراه اليوم من إلغاء الخلافة والاتحاد وطرده آل عثمان ليس ابن ساهته بل نتيجة لمقدمه سياستهم منذ عام ١٩١٠ وقد رد ذلك مصطفى كمال قبل أن يقدم بخطواته تلك فى تصريحات متعددة منها قوله : إننا عازمون على أن ندرس بأقدامنا وناسف كل مواقع وحوائل فى طريقنا التى تذهب بنا من الشرق الذى ودعناه إلى الغرب الذى يعمناه حتى إن « التغريب » لا يقتصر على شئوننا الرسمية وقوانيننا بل ستكون أدمقنا وعقليتنا أيضاً غريبه بجنه ولا جالجه لنا بعد الآن إلى قيام الخلافة والوزارة الشرعيه والمدارس الدينيه .

وقد كشف مصطفى صبرى العلاقة الوثيقة بين الاتحايين والسكاليين ، فقال : ان هدم الفيريه بين السكاليين والاتحاديين هو الحق الذى لا شبهة فيه لنا ولا لأحد يتعرفهما من قريب ، وقد تسدوا إلى نهاية الحرب السكبرى بعنوان الاتحاد والترقى ، وبعد الهدنة جمعوا شملهم فى حاشية مصطفى كمال فقسما بالقوى الملييه والسكاليين وجمعية مدافعة الحقوق وتناشوا اسم الاتحاد وتناكروه وهم بأهينهم ثم قال : ولا فرق بينهما أيضاً من حيث المبدأ : فكلاهما متفق فى نزع السلطة عن الخلفاء والسلاطين ومنعها لصناديدهم تحت شارة منحها للأمة ، وكلاهما لا دينى يترأى للناس نراه بوجه طورانى متمصب

الجنسية وتارة بتفجعات البلشفة ، وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق المهرج والمزج وكلاهما خائف في غمرات الظلمة والبنى وإن تميزت حقوقهما بسياسة الشدة والتدمير .

ويعلم الله وكل واحد في تركيا أن غيرهما ( يقصد السلطان عبد الحميد ) لم يأت بعشر عشر من معشار ما أتيا به من الشدة والتعسف . وصفوة القول أن السكاليين ليسوا بأخيار الاتحاديين وأن النهضة السكالية مرتبة ومدبرة لإحياء مبادئ الاتحاديين بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أقاموا الدولة العثمانية الكبرى في الحرب العالمية ( الأولى ) وأن الاتحاديين الذين هدوا الأباطورية العثمانية على ما اعترف به لدى السكاليين لو لم يكن السكاليون منهم ومعهم في أفصال الهدم على ما بينا ثم لم يزيدوا عليهم بهم الخلافة الإسلامية أيضاً . وأشار الشيخ مصطفى صبرى إلى الاتحاديين هم الذين أوقدوا نار الحرب في داخل المملكة وبين عناصرها من ألبانها وأكرادها وشراكستها وعربها بل وتركها . وبدلوا في عشر سنين أكثر من عشرة أصدقاء وأعداء لهم من الدول حتى دخلوا الحرب الكبرى من غير ضرورة وغلبوا فيها إلى أن ملأوا الآستانة وهي عاصمة الامبراطورية بأيديهم إلى عساكر الأعداء ، ويكفى في هذا الصدد أن تشير إلى ما أورده حسين لببيب في كتابه تاريخ المسألة الشرقية حين قال : يكفى أن الدولة العثمانية في عهد الاتحاديين بدخلها الحرب العالمية قد فقدت مليون رجل بين قتيل وجريح وأسير . وأنها خسرت خمسة آلاف مليون جنيه ، ويردد مصطفى صبرى الحقيقة القائلة بأن خلع السلطان عبد الحميد كان جزءاً من مؤامرة اغتصاب فلسطين وأن ذلك لم يكن ممكناً إلا بانحلال الامبراطورية العثمانية وأن اليهود شوخوا سيرة عبد الحميد وشنعوا به وجازت فرينهم على المسلمين مع أن الرجل كان يقاوم النظم النيابية لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من ملاحدة الفرنجة الواقعين في أحابيل الصهيونية العالمية . وأشار إلى أن السكاليين والاتحاديين ليسوا سوى حزب واحد وأنه ليس بينهم خلاف على المبادئ ولكنه خلاف شخصي مبغض للتنافس على الزعامة وهم المسئولون عن ضياع الامبراطورية العثمانية منذ وضعوا أيديهم على الدولة بعد خلع عبد الحميد . ويرى الشيخ مصطفى صبرى أن الانجليز تشددوا في معاملة السلطان وحيد الدين حتى أعجزوه ثم تساهلوا بعض ذلك مع مصطفى كمال ليجمعوا منه بطلا فتعظم فتنته في أبصار المسلمين وبصائرهم ، والرجل من لا تجد الانجليز مثله ، فأوجدت في طلبه من حيث أن يهدم من ماديات الإسلام ومن أدبياته في يوم مالا يهدم الانجليز أنفسهم في طام فلما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا ، وآية ذلك أن مصطفى كمال عندما حضرته الوفاة اقترح أن يكون السفير البريطاني في تركيا رئيساً للجمهورية بدلاً منه . ولا شك أن

قبول مصطفى كمال لرغبات القوى الاستعمارية في لوزان في بروتوكول صرى لالغاء الخلافة وهمدم الاسلام هو الذى سهل له كل الأمور حتى أعلن مندوبيهم (رضا نور) أن الفرض من فصل السلطنة عن الخلافة هو إلغاء الخلافة وإبطالها على التدرج . وأشار مصطفى صبرى إلى أنه من طبيعة الاتحاديين والسكاليين أن لا يجدوا من الدين « (الاسلام) ما يحول بينهم وبين ما يرون تحقيقه فالدين يمنعم من طغيانهم وعدوانهم ، فهو مانع يمنعم من حريتهم واستعبادهم ، وان موقف الدين في عاصمة تركيا لسنوات كان غريباً في وطنه عند أبنائه الذين تربوا بلبان للعارف الأوروبية ولا سيما بعد تشككهم إلى شكل سياسى يرمى إلى هدف معين ظاهرهم الاتحاديون وباطنهم البناءون الأحرار » .

#### ( ٤ )

أن إلغاء الخلافة الاسلامية كان أسراً مقررأ منذ اليوم الأول للاقتلاب العثمانى الذى قام بإسقاطه السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ولكنه نفذ على مراحل وأخذت إجراءاته واحدة بعد أخرى حتى تم تنفيذه على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ بعد أن أسقط الخلافة الزمنية وأقام بدلاً منها خلافة منفصلة عن السلطنة توطئة للاجهاز عليها جملة .

وفى خلال هذه الفترة أنفذ السكاليون الكثير من التعليقات والتبريرات وفى مقدمتها كتاب ( خلافت وحاكيت مليه ) الذى نشرته الحكومة التركية بدون توقيع شأنها فى ذلك شأن إصدارها من كتاب ( قوم جديد ) . ولقد اعتمد على هذا الكتاب الشيخ على عبد الرازق اعتماداً كلياً عندما وضع كتابه ( الإسلام وأصول الحكم ) الذى قصد فى الغزى السياسى محاربة المحاولة التى قام بها للملك فؤاد للمناداة به خليفة للمسلمين تحقيقاً لهدف بريطانيا التى كانت من وراء معارضة حزب الأحرار الدستوريين ، هذه للمعارضة التى أرادت أن تتخذ لها أسلوباً أقرب إلى الطابع العلمى الفقهى فاصطنعت أحد رجالها فى هذا الصدد . غير أن هذا الكتاب أثار بإدرة خطيرة وفتح فتناً جديداً فى تحريف مفاهيم الإسلام والتعرض بالخلط والخطأ لقاعدة ضخمة أساسية من قواعد الإسلام وعنده الأصيلة وهى قاعدة فصل الدين عن الدولة أولى ركائز الإسلام المخالفة به وللمتميزة عن الأديان الأخرى التى أقرت هذا للمنى واعتمدته نتيجة لطابع دينها . فليست الأهمية هنا فى القول بالخلافة كنظام ولكن الأهمية فى القول بالقاعدة الإسلامية الكبرى التى تعد معارضتها أو محاولة النيل منها أو إلغائها تحريفاً خطيراً منعمداً لأصل من أصول الإسلام . ولقد كان من آثار هذا الكتاب أن وجد



للمنشرون وللشروط ودعاة التفريب تكأة خطيرة اعتمدوا عليها بعد ذلك في مباحثهم ، مزقت الجبهة الإسلامية الفقهية للوحدة بالقول بأن هناك رأيين : أحدهما يرى أن الإسلام دين ودولة والأخرى يرى أن الإسلام ديناً روحانياً خالصاً وهو الرأي الزائف للتحريف عن الأصول الأصيلة والذي قال به على عبد الرازق وحمل تبعته وتبعة من سار وراءه أو حاول الاهتداء عليه . وهذا هو السر في ذلك الاهتمام البالغ والتقدير المعجيب الذي يحيط به خصوص الفكر الاسلامي هذا الكتاب الذي ليس من المنهج العلمي أو الحقيقة للنزعة من لدن الله في شيء وقد أكد العلماء والباحثون خطأ ما ذهب إليه على عبد الرازق ووصف هذا العمل السيد محمد رشيد رضا بأنه هدم لحكم الإسلام وشرعه من أساسه وتفريق لجماعته وإباحة مطلقة لعصيان الله ورسوله في جميع الأحكام الشرعية الدنيوية من شخصية وسياسية ومدنية وجنائية وتجهيل للمسلمين كافة من الصحابة والتابعين وأنه يخالف لما لا يحصى من النصوص القطعية المجمع عليها للمعلومة من الدين بالضرورة .

وأن جل مادته من بعض كتب الافرنج التي كتبوها عن الخلافة وأنها مادية مجموعة من كتب لا تمت إلى الفقه الاسلامي بصلة مثل كتاب الأغاني وكتاب العقد الفريد ولم يكن منها صحيح البخاري ولا صحيح مسلم ولا موطأ مالك ولا مسند أحمد ولا شيء من كتب السنن . وقد أجمع علماء المسلمين على أن كتاب على عبد الرازق قد جانب الواقع والحق والشرع في سبعة مواضع : ( الأول ) جعل الشريعة الاسلامية شريعة روحية محضة لا هلاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا . ( الثاني ) وأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين ولا لا بلاغ الدهوة إلى العالمين . ( الثالث ) وأن نظام الملك في عهد النبي كان موضوع غموض وإبهام واضطراب وموجبا للحيرة .

( الرابع ) أن مهمة النبي كانت بلاغا للشريعة مجردا من الحكم والتنفيذ ( الخامس ) إنكار إجماع الصحابة على وجوب تنصيب الامام وعلى أنه لا بد للأمة من يقوم بأمرها في الدين والدنيا . ( السادس ) إنكار أن القضاء وظيفة شرعية . ( السابع ) أن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعدهم رضوا الله عنهم كانت لادينية .

(٢٨)

## الدعوة الإقليمية المصرية

كانت مصر معدة بعد الحرب العالمية الأولى لأن تسير في التيار للمصرى الوطنى لتنفصل عن العروبة والجامعة الاسلامية من الناحية السياسية وعن الاسلام فكراً وهقيدة من الناحية الأخرى . فقد سقط الحزب الوطنى قبل الحرب وكان يحمل لواء الوطنية المصرية ذات الاتجاه العربى والارتباط بالجامعة الاسلامية والخلافة العثمانية وقد واجه هذا الاتجاه حملة ضخمة فى السنوات السابقة للحرب ومن أجل ذلك كان إنشاء حزب الأمة وصدور الجريدة وتصدر لطفى السيد الدعوة للمصرية التى وصلت إلى أعلى صور الإقليمية بالدعوة إلى تمصير اللغة والتعليم ولتقى هاجمت الاتناء العربى والفكر الاسلامى هجوماً شديداً حتى وصف لطفى السيد بأنه العدو الأكبر للجامعة الاسلامية والعروبة. كان التخطيط الاستعمارى يهدف إلى عزل مصر عن الدعوة العربية التى كانت قد تحركت فى سنوات الحرب لاقامة دولة عربية من الحجاز وسوريا وقد اعتبرت هذه الدعوة « مصر » خارج لمطاق العروبة . وكانت الدعوة الوطنية قد أخذت تولى من شأن الفرعونية كرد فعل على إتهام الاستعمار لمصر بأنها ليست أمة ، وأنها كانت محتلة بالرومان وغير الرومان على تاريخها الطويل كما اتخذت مصر منسداً لاحتلالها مركزاً لطورانيين والأتحماديين خصوم السلطان عبد الحميد وكانت صحافة مصر التى يصدرها خريجو معاهد الارصاليات التبشيرية فى لبنان قد قادت حركة فكرية تحمل طابع العزلة السكامة لمصر عن الدولة العثمانية وعن العروبة ، ثم جاءت كشوف الحفريات الفرعونية مادة جديدة لاهلاء شأن الإقليمية للمصرية ذات الماضى الفرعونى .

تولى الحكم فى مصر خلفاء حزب الأمة وكان سعد زغلول ولفطفى السيد هما أبرز قادة الفكر والسياسة فى هذا المجتمع الجديد وهما المؤهلين منذ عام ١٩٠٧ لهذه القيادة حينما اختير لطفى السيد لقيادة أكبر حملة صحفية نحو مصر للمصريين وفصل مصر عن العروبة والاسلام جميعاً وكان سعد زغلول هو ناظر المعارف الذى حمل لواء الدفاع عن اللغة الانجليزية ، وكان كلاهما من أولياء النظرية التى رسمها كرومر فى تقاريره وجماعها هقيدة للحكم المصرى المقبل ، لتبنى قادة امصر على أساسها وهى تقوم أساساً على . (أولا) خلق طبقة من المصريين المتفرنجين والمستعربين من الوجهة الأوربية والمدنية الحديثة ، هؤلاء وصفهم كرومر بأنهم « جديرون بكل تنشيط ومعونة وهم فى تقدير الخلفاء

الأوربي المصلح ، وهم حزب يبنى وطنه ويبنى دينه ولكن ليس على صيغة الدعوة الإسلامية وهم يساعدون الأجانب على إدخال التمدن الغربي إلى البلاد .

( ثالثاً ) إنهم يعملون على كسب التقدم الدستوري بطرق معتدلة ويدعون إلى تحقيق الأمانى الوطنية باتفاق يحدث بين الاحتلال وأهليان المصريين وحدهم لأنهم أصحاب المصالح الحقيقية . ( ثالثاً ) إنهم يؤمنون بما يؤمن به كرومر من أن المسلمين لا يمكنهم أن يرتقوا في سلم الحضارة والتجديد إلا بعد أن يتروكوا دينهم ويلبذوا القرآن وأوامر ظهرياً لأنه يأمرهم بالتحول والتمتعص وبيت فيهم روح البغض لمن يخالفهم وأن القرآن هو العقيدة الكدودة في سهيل رقى الأمة وإن الإسلام يناهض مدينة العصر ( رابعاً ) تسمية الوطنية المصرية بعيداً عن دائرة الجامعة الإسلامية والعروبة وفي نطاق الفكر الأوربي الليبرالى في مجال السيامية والتربية وانشاء حكومة تنفصل فيها السياسة عن الدين تماماً . وإذا كان النظام السيامى في مصر خلال ما بين الحربين قد تشكل من خلال « الوفد المصرى » بقيادة سعد زغلول وانقسم إلى عدد من الأحزاب أو الزعماء المستقلين فإن هذه الأحزاب على ما بنفت من خلاف وصراع كانت تتبنى هذه الأفكار وتفصل فصلاً واضحاً بين مصر والعروبة وبين مصر والإسلام وبين العروبة والإسلام وتقيم منهجها السيامى على أساس الفكر الليبرالى الغربى العلمانى مع الاحتفاظ ببعض المظاهر الإسلامية التى كانت تستمد وجودها من مفهوم غربى أيضاً — وليس مفهوماً إسلامياً — وهو أن الإسلام دين وعبادة ومساجد وهو مادة في الدستور تعطى مظهراً إسلامياً في الأعياد والمناسبات فحسب . أما فهم الإسلام على حقيقته : نظام مجتمع ومنهج حياة فقد كان ذلك مما انفقت الأحزاب جميعاً على إبعاده ، فضلاً عن الانتهاء العربى أو الوحدة الإسلامية . غير أن حركة اليقظة الإسلامية التى كانت مصر قاهدة هامة من أبرز قواهدها وهى التى كانت تمثل الكيان الاجتماعى للأمة فقد كانت تحمل لواء هذه المفاهيم وتدعو إليها وتؤكد ترابط العروبة والإسلام . وفى خلال هذه المرحلة اتسعت حركة التبشير وأحدثت إرتباطاً كبيراً فى أفق المجتمع الإسلامى المصرى كان له ضجيج ضخم ، وكان من العوامل القوية فى إعادة تشكيل الفكر الإسلامى ودفع حركة اليقظة العربية الإسلامية إلى الأمام خطوات .

وقد ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى على أساس إن مصر هى مركز الثقل فى العالم العربى كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملاً هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء . وكان لمعاهدة ليران التى عقدت عام ١٩٢٩ بين السكسى اليابوى والحكومة الإيطالية والى حصلت

الفاثيكان بموجبها على تعويض ضخم (مئات الألوف من الجنيهات) أعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه إلى دعم الحركة التبشيرية، كان لهذه المعاهدة أثرها الواضح فإنه لم تسكد تمس على ذلك شهور معدودة حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة من طريق بعض المعاهد الكبرى للرساليات وبعض مستشفياتها، ولم تلبث أن كشفت الحركة عن أحداث خطيرة وكان الهدف هو إضعاف معنويات الشعب باضفاف عقيدته. وقد تبين من إنعقاد مؤتمرات التبشير بعد الحرب الأولى أن خطوات جديدة قد اتخذت وأن تحولا أخطر قد أخذ طريقه إلى مجال العمل التبشيري، فقد كشفت التقارير على أن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين في دين آخر، وإعما هو إخراج المسلمين من دينهم فيصبحوا لادينيين ومادى الفكر وبذلك يسرى فيهم الإنحلال وتتحطم مقومات الفكر الإسلامى وقيمه من ناحية التطبيق على الناس، وتغلب طابع التفرنج الذى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية.

وكان تركيز الاستعمار عن طريق التبشير إلى دعم « الإقليمية » والدفاع عن « الفرعونية » التاريخية وإعلاء شأنها وإذاعة تاريخها والدفاع عن « العامة » وضرب اللغة العربية الفصحى بها والدفاع عن النظام الليبرالى الغربى والحضارة الغربية وإثارة الشبهات حول الإسلام وتاريخه وأبطاله والتموين من شأنه في مجال الحضارة أو الفكر أو الاجتماع وذلك كله لدعم الإقليمية والقضاء على الترابط الجندرى بين العربية والإسلام وحتى تظل مصر معزولة عن كل حركات العربية أو الجامعة الإسلامية وتبقى تحت شكلها الفرعونى الموهوم وارتفع في هذه الفترة صوت المصحف الكبرى (كالأهرام والمقطم) والمجلات البارزة كالهلال والسياسة الأسبوعية إلى الفرعونية والمصرية والاليمية واجتاحت البلاد حركة ضخمة من حركات التبشير بالتاريخ الوثنى القديم، والفرعونية. ولقد واجه دعاة اليقظة العربية الإسلامية هذه الحركة مواجهة حاسمة: وعملوا في ميدانين متكاملين: (أولاً) الكشف عن فساد دهوة الفرعونية والإقليمية والتركيز على عروبة مصر. (ثانياً) دعم الترابط الجندرى بين العربية والإسلام وتأكيذ الرابطة الإسلامية بين العرب والمسلمين. غير أن الدهوة الفرعونية لم تلبث أن اصطدمت بالواقع وانكشف أنها لا تستطيع أن تفرض وجوداً فكرياً لأنها لا تحمل تراثاً تاريخياً ولا ترتبط بالمصريين في العصر الحديث بأى رابط من اللغة أو الفكر أو للمعتقد. وكان لأصالة الفكر الإسلامى في مصر وعق الانتماء العربى الإسلامى أثره في القضاء على هذه الموجه التى انهارت عندما طلعت أضواء الحقائق. وقد وازت هذه الدهوة في مصر دهوات أخرى في سوريا ولبنان والعراق والمغرب غير أن أكثر هذه الدهوات تمسكنا من البقاء هى الفيليقية في لبنان ولذلك أسباب واضحة

هي وجود ركائز من المسيحيين المارونيين الحريصين على أن يجعلوا من هذه الدعوة سنداً فلسفياً للعزلة عن الأمة العربية وعن الرابطة الإسلامية الجامعة ولقد كانت لبنان قد ركزت على هذا الاتجاه منذ وقت طويل وحمقته ، فلم تكن موجة الفيليقية إلا غلاًفاً مؤقتاً لحقيقة واقعة .

( ٢٩ )

### الفيليقية اللبنانية

إن مخطط تمزيق العالم الإسلامي عامة والدولة العثمانية خاصة قد رسمت له خطة سياسية وخطة عسكرية عقائدية ، اعتمدت الأولى على إثارة انطلاقات والمؤامرات وتحريك الأحداث على النحو الذي يحقق الفصل والتجزئة على النحو الذي حدث في إثارة فرنسا وإنجلترا للمنصرين المتمايحين في لبنان منذ مئات السنين وذلك تمهيداً لعزل هذا الجزء من الدولة العثمانية وإعلان نظام خاص به وتأهيله لأداء دوره الخطير في حركة تمزيق الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية وما أطلق عليه من تعبير الوحدة العربية . ولكي يتحقق هذا المخطط ويصل إلى غايته فإن لبنان هي التي تقود حركة الإرساليات التبشيرية ومعاييدها الفرنسية والأمريكية الضخمة على اختلاف ما بينهما من اتجاهات ولسكنها تتجمع في بؤرة إبعاد العالم العربي بعد انفصاله عن الدولة العثمانية ليكون واقعاً تحت تأثير الفسك الغربي ويكون خريجاً هذه المعاهد بحسبة الطلائع والقيادات السياسية والفكرية للبلاد العربية . وقد تحقق ذلك في سرعة فورية بتخريج جماعة المقطم والأهرام والحلال في مصر وكان لهم دورهم الخطير في عملية التفریب وفي تمزيق وحدة العروبة والإسلام .

وبعد سقوط الدولة العثمانية ١٩١٨ وانتهاء المرحلة الأولى من عمل هذا المركز الحيوى الخطير ، كانت هناك مرحلة أكبر أهمية وخطراً ، استتبعت تحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير بضم أربع ولايات من سوريا إليه وتشكيله على نحو جديد متوازن ، القوة العليا فيه للطائفة المارونية وبقيّة مراکز النفوذ موزعة بين السنة والشيعة من المسلمين على نحو يجعل دائماً ميزان القيادة السياسي والفكرى بأيدي القوى الكاثوليكية المسيحية وأكبرها المارون ، هذه القوى ذات الروابط العميقة البعيدة منذ مئات السنين مع كنيسة روما ومع فرنسا ومع الساحل الأوربي وتجارة وثقافة . وكان لا بد أن يصاغ هذا السكيان اللبناني صياغة فلسفية قوية تجعله قادراً على الدفاع عن نفسه في مواجهة الأحداث والدعوات وخاصة في مواجهه النفطة العربية الإسلامية والعروبة بالذات بحيث يظل

منغلقة على نفسه ازاء هذه الدهوات والحركات قادراً على القيام بدوره المؤهل له والذي بات يوصف بأنه السائر في طليعة البلدان العربية في حل لواء النهضة العربية الحديثة من أوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . وهو دور لا يقره الكثيرون على هذا النحو ولا يعترفون به قائداً أو رائداً وربما وصف بأنه أقوى مرا كز التوجيه الغربى أو قيادة الغزو والثقافى والتغريب وحل جميع جرائم الشبهات والتحديات التى حاولت اشاعة البلبلة والخطأ فى وجه الفكر الإسلامى ، والتاريخ واللغة العربية والتراث والفقه والقرآن . ولا ريب أن حركة اليقظة العربية الإسلامية ذات الجذور العميقة فى نمو الفكر والثقافة الإسلاميين ونحريهما من الجلود القديم والتبعية الغربيه هى صاحبه الدور الأصيل فى العمل فى العالم الإسلامى كله وهى امتداد طبيعى للفكر الاسلامى الذى يستمد مناهجه من المنابع الأصيلة ويرتبط أساساً بالقرآن والتوحيد المخلص .

ومن هنا فإن الكثيرين لا يقرون هذه الدهوى لقيادة لبنان للفكر العربى أو زعامته أو ما يمكن أن يوصف بأنه دور لها فى الطليعة أو النهضة ، الا اذا وصف دور الرسائل التبشيرية ومعايدها وصحفها ودعائها بأنه هو وحده العمل الذى يقود النهضة العربيه الاسلاميه المعاصرة . ولا نذهب فى ذلك الى القول بما يقول به بعض المتحمسين — وربما يكون بعيداً عن الحقيقة — من أن لبنان قد أراد له الاستعمار والنفوذ الغربى واليهوديه العالميه أن يكون رأس جسر خطير للغزو ومركز حصين للقضاء على اليقظة العربيه الاسلاميه الحقيقيه ومقوماتها وضربها دوماً بالضعف والكتب والدهوات والمذاهب التى تظهر فى ورق براق لامع وضجيج كثير .

ذلك أن الدهوة التى تحملها إرساليات التبشير فى لبنان وتنثرها على العالم الإسلامى كله وتحاول أن تجعلها عقيدة يعتنقها العرب والمسلمون من خلال احتضانهم للدهوات القوميه والليبرالية والديمقراطية وغيرها ترمى إلى هدف واحد هو عزل العربيه عن الإسلام وتعميق الهوة بين المجتمع العربى الإسلامى وأقوى عناصر وجوده قوة وأعماقها جذوراً وهو الإسلام وذلك عن طريق كثير مما يروجون له من الدهوة إلى القومية العلمانية أو اهتناق الحضارة الغربيه أو الدعوة إلى وحدة الثقافة العالميه أو فصل الدين عن الدولة أو إثارة الخلافات بين العناصر والأديان والمذاهب المختلفه التى كانت مؤلفة موحدة فى إخوانه وصدق قبل أن تصل إلى العالم الإسلامى طلائع الفزاة ومعهم المستشرقون والإرساليات . لقد رسمت مخططات الغزو والتزريق ما سمى بالسكيان اللبنانى على هذا النحو السيامى الذى تم بفصل لبنان منذ ١٨٦٠ وجعله مركزاً للإرساليات ثم بخلق لبنان الكبير بعد الحرب العالميه الأولى وارتفاع الصيحه الفلسفيه للقائلة بأن لبنان كيان خاص قائم على أساس أمة ليست من جنس

العرب ولا يشتركون معهم في شيء إلا في اللغة. ولقد استعارت هذه الدهوة بعد الحرب باسم الفينيقية ووضع لها المستشرقون الفرنسيون أيديولوجيتها كما وضع غيرهم من قبل فلسفة الطورانية وذلك من خلال شبكة الماسونية العالمية التي أهدت مع الإستعمار النموذج « البديل » الذي يقدم للشعوب والأمم في نفس الوقت الذي ينتزع منها « الواقع الأصيل » ولقد كانت الخطئة أن يكون البديل هو مبدأ القوميات ذات الطابع الغربي القائم على العنصرية والصراع والاستعلاء بالعنصر والدم والقوم بديلاً عن الوحدة العربية الإسلامية السائدة الجامعة التي كانت تنظم المسلمين والعرب ، ولقد دفعت هذه القوى الاتحاديين في الدولة العثمانية لرفع لواء الطورانية التي كانت تتفق مع طبيعة المشفقين الأتراك الذين كانوا قد جردوا من ثقافتهم الإسلامية وغمسوا في ثقافات الثورة الفرنسية وخاصة أوجست كونت ودينه الذي تعبد له غير واحد من كبارهم مثل أحمد رضا وكذلك صنعت الإرساليات في لبنان عقلية جديدة منسكرة للمفكر الإسلامي ، قد شحنت بالنعصب والكراهية والحقد على العرب والمسلمين ودعيت إلى الانجاء إلى الفينيقية ، مع الارتباط الغربي القديم : ارتباط الكنيسة والثقافة والتجارة ، وقامت الدهوة إلى ثقافة البحر المتوسط الجامعة بين لبنان وفرنسا .

ولم يتوقف لبنان عند اعتناق هذه النظرية لنفسه ، بل أصبح داهياً للعرب جميعاً واسم كل من يرد موارد الإرساليات إلى حل لواء أمرين : ( الأول ) إحياء العنصرية البائدة القديمة من فينيقية وكلدانية وكنعانية وحيثية وأشورية وآرامية وفرعونية وذلك لاتضاء على الواقع المفكّر العربي الإسلامي المسيطر والمشكل للعرب والمسلمين خلال أربعة عشر قرناً رغبة في إزاحته وتجزئته — والثاني : الولاء للمفكر الغربي ثقافته وبطولاته وتاريخه ولغته والإشادة بهظمته. وقد وصل هذا الأمر إلى حد استطيع أنه أن تروى هذه الواقعة : يقول السيد محب الدين الخطيب : لما كنت تلميذاً في السنة الأخيرة من مدرسة بيروت الثانوية الأميرية التحق بمدرستنا في من أمراء آل شهاب اللبنانيين تعلم على يد الكاثوليك الفرنسيين في مدرسة قرية ( عين طورا ) فكان يسمى بيت الخلاء (بسمارك) وكان إذا ارتفعت الراية الفرنسية على القنصلية الفرنسية يوم الأحد يأخذ بيدي فيضعها على قلبه ويقول لي : — ألا تحس بقلبي كيف يخفق مع خفقاتها في الهواء . وكان له شعر بالفرنسية يمتنى أمثاله من أبناء سنة الفرنسيين لو يكون لهم مثله وكان أشد تعلقاً بفرنسا وأدبها ودينها واستعمارها من أي قسيس فرنسي . وهكذا صنع الفرنسيون بلبنان منذ الاحتلال الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى من أجل إعداده ليكون مركزاً للتفوذ المفكّر الغربي وقائداً لحركة الفوز الفنزيري في الوطن العربي كله .

( ٢ )

والدهوة إلى السكان اللبناني الخاص تحمل طابع الأقلية اللبنانية، ذات الماضي الفينيقي، والحاضر الغربي الخاص، وهي قومية تقوم على الطائفية، وتعتمد على وجود طائفة نصرانية مارونية كبرى في لبنان بالإضافة إلى طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد يشكلان معاً مظهراً طائفيّاً ضخمًا، مسيطراً على كل أوجه النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي. وتقول الأيدولوجية اللبنانية أن اللبنانيين ليسوا من حيث الجنس عرباً بل فينيقيين أما حضارتهم فهي حضارة البحر المتوسط، وهم لا يمتنون للعرب بصلة ولا قرى إلا بالغة، وقد كانت الدهوة موجودة منذ ١٨٦٠ وربتها الاتصالات ونمتها بالحديث عن الروابط بين الصليبيين اللبنانيين ثم هيئت لأن تصرح على أفق واسع بعد الحرب وفي قدر مشترك مع الفرعونية في مصر والطورانية الجديدة في تركيا. فقد أقيمت فراسا الكبير وضمت أربعة مناجق من سورية إلى لبنان وجمعت من المتوسطية دطمة للفينيقية. وقد كتب منهج هذه الفكر من بعد : أسدرسم وفؤاد اقوام البستاني. ويقوم طابع لبنان الماضي على أساس الدهوة إلى انفصالة عن البلاد العربية والاشادة بطمة الفينيقية والنقنى بأجسادهم، وقد جرى ذلك الانجاء وعمق في كتابات سعيد عقل وأحبا (قدموس) والدهوة إلى بث العامية اللبنانية واتخذها أداة للمكتابة ولقد لقيت الفكرة نجاحاً في أوساط معينة كلمها من المثقفين الفرنسيين وخرجي المدارس اليسوعية وكانت الدهوة تركز على أن اللبنانيين لهم قبة هي «المتوسط والغرب» بينما لغبرهم قبة هي الصحراء والشرق.

وقد جرت هذه الدهوة في إطار الدهوة إلى الأقليات والقوميات المقامة على المنصيرية والجناس ولكنها ركزت في لبنان على تاريخ قديم أهدت تشكيلة من جديد بحيث يرضى غرور النفس اللبنانية ويشكل منها فكراً كاملاً يمتد من الفينيقيين إلى الغرب على أساس الربط بين الحضارات القديمة التي قامت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط في شواطئ الجنوبية والشمالية، وقد رسمت مؤلفات كثيرة من للسفشرقين صورة زائفة ترمي إلى القول بأن لبنان واليونان قد ترابطا في حضارة قديمة قبل للمسيحية ثم جاءت للمسيحية فربطت بين لبنان وروما، وبين الكنيسة الكاثوليكية ولبنان والواقع أن هذه المحاولة الفيليقية الاقليمية إنما كانت مخططاً مرسومًا ليزل لبنان عن الترابط العربي الإسلامي وقد أشار إلى ذلك عدد من الباحثين، فنند سيطرت فرنسا على لبنان بدأت تعمل على تكريس الطائفية بحجة المحافظة على التوازن الطائفي ووضعت القواعد والأسس التي لا زالت قائمة حتى اليوم



وأهمها أن تكون الرثاسات الكبرى موزعة على الطوائف حسب أهميتها واعتبار «العروبة» حركة معادية للغرب عموماً وأنها تهدف إلى أحياء التقاليد والحضارة الآسيوية لتقف في وجه الإشعاع والتقدم الغربي الذي يحمل لواءه فرنسا وتبشر به بعثاتها الدينية والتعليمية المنتشرة في هذه المناطق والنظر إلى العروبة على أنها حركة إسلامية متعصبة لذلك يجب أن يقف المسيحيون في وجهها صفّاً واحداً، وشجعهم على ذلك البعثات التبشيرية في سوريا ولبنان، كذلك جرى العمل في مجال الثقافة والتاريخ والكتابة على إهلاء شأن لبنان الوثني والمسيحي والحديث عن هياكل قدموس والزهراد والترابط بين هشتروت وجوبيتر والحديث عن الكنعانيين ومدينة راميثا وترددت أسماء آرام وفينيقيا وباسل وكلداني وسريان ويقصد بها شيء واحد هو الإنساف الذي هاجر من الجزيرة العربية قبل التاريخ وبعده. وذلك كله من أجل إهلاء شأن للأرض اللبنانية للمند إلى الفينيقية والذي كان بعيد الأثر في أوروبا وكيف أنه هاد إلى الترابط مرة أخرى بالغرب والحضارة الغربية والكنيسة الكاثوليكية. ويؤكد أكثر من باحث أن الكيان اللبناني لم يكن بعيداً عن التصميمات الاستعمارية وأنه باستقراء التاريخ اللبناني نجد أن الطائفية لم تدخل لبنان إلا عقب الاستعمار الغربي الذي فرض في منتصف القرن التاسع عشر على لبنان وكانت سياسة فرنسا هي العمل على تشجيع الطائفية في لبنان.

ويقول زكي النقاش: أن اللبنانيين لم يعرفوا الطائفية في عهد المعنيين بالرحم من أنه امتداد قرابة قرنين من الزمان في ظل الحكم العثماني مما يدل صراحة على أن الطائفية إنما جاءت من الخارج على أيدي الإرساليات والاقتصادات والسفارات المختلفة. ويرى الدكتور حمدي بدوي أن سياسة لبنان تقوم على جعل لبنان دولة تقوم على التوازن الطائفي على أن يظل الموارنة مسيطرين عليها دون أن يكون لبنان مارونيا خالصاً وأن دستور لبنان ١٩٢٦ الذي منحه فرنسا جعل الطائفية نصّاً في الدستور فيما يتعلق بتوزيع المناصب على أساس طائفي. وهذا كله مما يؤكد القول بأن الإقليمية اللبنانية على هذا النحو والتي صنعها الاستعمار الفرنسي قد خططت بحيث تجعل لبنان بعيداً عن أي ترابط عربي بل أن هذا التخطيط لم يخلق قومية لبنانية بالمعنى المعروف. وفي هذا يقول كمال جنبلاط إن القومية اللبنانية غير موجودة حتى الساعة إلا هذا المفهوم الامتدادى للرباط السياسي والشعور الجماهيري للطوائف المسيحية وهم لا ينشدون من وراء تعميم هذه التفكير إلا تركيز لون معين من وجهة الإدارة والسياسة والاقتصاد، والخطأ الكبير هو للزج والخلط بين المسيحية ولبنان فالواقع اللبناني وجد قبل أن توجد النهرانية ووجد بعدها وانكناً أمام تيار الفتوحات الإسلامية ويرى محمد هزه دروزة أن صلة لبنان الوثني بالعروبة قائمة منذ أقدم الأزمنة حتى الآن وأنها أصيلة فيه، إذ أن الفينيقيين

والكنعانيين والآراميين الذين يمتد إليهم سكان لبنان القدماء هم من الجنس العربي يقينا . غير أن الأمر ليس هو في الحقيقة التاريخية ولكن في الزيف الذي فرضته الإرساليات فأصبح هو الحقيقة الواقعة ، ذلك أن هذه الإرساليات قد أشربت المتعلمين تاريخ فرنسا ولغتها ومحبتها وتلقوا فيها « أنهم ليس من العروبة في شيء وأن العروبة بمعبر إسلامي وعداوة متوحشة وأن العرب ليسوا إلا غزاة طارئين كسائر الغزاة وأن الفيليقية هي الأصل الذي يجب أن ينسب إليه اللبنانيون ويتمسكوا بها وأن الفكرة العربية القومية ليست إلا سناراً يخفي وراءه السيطرة الإسلامية وأن الديانة الإسلامية ليست ديانة وطنية ، وإنما هي دخيلة ، وأن الديانة الوطنية هي المسيحية لأنها نشأت في الشام . ومن هنا فقد سيطر على الأذهان من هذه المغالطات والتلفيقات أن « الفيليقية هي الأصل الذي يجب أن ينسب إليه اللبنانيون ويتمسكوا به . يقول الدكتور حمدي بدوي للظاهري أنه كان لهذه التلفيقات المستمرة على ما بها من زيف ومناقضة للحقائق التاريخية والعلمية والواقعية آثار إيجابية في بعض الفئات المسيحية التي نشأت أجيال عديدة منهم في المعاهد والمدارس الفرنسية وجعل هؤلاء يعلنون الحرب على الفكرة العربية حيث أعلنوا رغباتهم في أن يكون لبنان منزلاً تاماً عن البلاد العربية » وقد أورد لكثيرون لهذه النظرية أخطاء تاريخية ومغالطات جغرافية وأهمها ما أورده نبيه أمين فارس حيث أضنى على بيروت أهمية لم تكن لها في العصور التاريخية وقد يستغرب ذلك من كاتب مثله ولكن الصراع بين الفكر الفرنسي والفكر الأمريكي في بيروت كان يدفع كل طائفة إلى محاربة دهاوي الطائفة الأخرى .

ولا شك أن التعليل في لبنان لتنازعه الثقافتان الفرنسية والانجلو أمريكية ، وتعسد الثقافة الفرنسية من أقوى الثقافات الأجنبية ، حتى أنها تنازع اللغة العربية بينما يبدو نشاط الثقافة الانجلو أمريكية في الدراسات المتصلة بالقومية العربية والحضارة الفرنسية . وقد استتبع هذه السيطرة الواسعة وجود ولاء غربي كامل واهجاب بالفكر الغربي والحضارة الغربية وانتماء عقائدي قوامه الحضارة والسكنيسه معاً . ويشير الدكتور حمدي الظاهري الى أثر هذه الإرساليات فيقول أن بعض الجامعات في بيروت تتخذ العلم ستاراً لكي تؤثر على واقع لبنان من الناحية السياسية فهي بضمانها ولاء خريجيها لها تقنعهم بأنها تؤدي دوراً حضارياً يرتبط بدورها التاريخي في تلك البلاد . وقد أدى ذلك إلى نتائج بعيدة المدى هي التأثير في الحياة الاجتماعية والقانون والفتاوى والمعادن والأخلاق مما يمكن للنفوذ الغربي بعد زوال الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية للاحتلال . وما تذييع الإرساليات وتحاول أن تقنع به خريجي معاهدها هو التهدير الشديد للعرب من خلال

دراسة تاريخهم والتهوين من شأن اللغة العربية ، ومن هنا تواصل الطائفية لمجدياتها على العروبة والاسلام وتدهو إلى تمزيق هذه الرابطة وتقف في وجه العروبة . وقد حرص الاستعمار على تركيز المتنقضات بين لبنان الطائفي والوحدة العربية بهدف تجميد لبنان من طريق حركة اليقظة العربية الاسلامية أو الوحدة العربية وما يزال فكرة لبنان الخالدة ولبنان الأزلي ولبنان السرمدي ، تغذى بكتابات جديدة حتى لا تتوقف ولا تنهار أمام قوة اليقظة العربية ، وقد فشلت إلى حد كبير فكرة الفيليقية والمتوسطية وأن بقيت فكرة الطائفية الاقليمية . ويصور نبيه أمين فارس نتائج هذا الفشل فيقول : « وإذا فشل أصحاب هذه المحاولة ( الفيليقية للمتوسطية ) في جر السكافة إلى حركتهم طادوا إلى العمل يدفعهم حقد الهزيمة وخبرة للبيد ان إلى جهود جديدة جبارة في سبيل الوصول إلى غايتهم ، وانصرفوا بعد أن أدركوا هتم المهجوم المباشر إلى أساليب غير مباشرة ، فقالوا : بالطابع الخاص وأخذوا يلقون هذه الفكرة الانفرالية بجلباب العلم والأدب » . ومن أخطر ما تردده الدهوات النباشيرية هو انتقاص دور العرب والمسلمين في الحضارة العالمية ومحاولة تصويرهم على أنهم جزء من حضارة البحر للمتوسط الفيليقية اليونانية القديمة وكأنهم امتداداً لها ولم يزد دورهم على أنهم حملوا إلى الغرب ثقافات الفرس والبيزنطيين والأقباط والنصارى واليهود وطائفة حران الوثنيين ؛ وفي هذا يقول أمين فارس : استولى العرب على ملاحاة البحر الأبيض المتوسط غير أن حضارته استولت عليهم فدخلوا في مجراها وصبو اقداحاً كانوا قد استقوها من مياه الثقافات الأخرى ولا شك أن هذا ظلم وحطاً مبين ، ذلك أن العرب الذين حملوا رسالة الاسلام لا شك قد قدموا للانسانية فكرًا جديدًا وثقافة ذات طابع توحيدى خالص يختلف أشد الاختلاف عن الثقافات التي كان تعيشها ولا ريب أن الإسلام قد قدم للانسانية جرعه من أصدق مقومات البشرية في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وهي جرعه تغذت بها الحضارة الغربية والفكر الأوروبي الحديث على نحو واضح لا صرية فيه وأبرز معالم المنهج العلمى التجريبي ومنهج المعرفة الاسلامية القائم على الروح والمادة وهو ما يختلف اختلافاً واضحاً مع منهج الاغريق الوثني ومنهج النوصية الشرقية القائم على الوجدان وحده أما القول بأن الاسلام حمل ثقافات الأمم إلى الغرب فحوض اغتراء ، ذلك أن الاسلام قد صب خير ما في هذه الثقافات في كيانه وصهرها وأحالتها شيئاً جديداً دون أن يخرج هذه المعاصر عن دائرة كيانه الصحيح القائم على التوحيد والحق والعدل . وهو حين ترجم الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية لم يقبل بها تسلية ولكنه ناقشها ورد منها وأخذ ولكنه لم ينصهر فيها ولكنه صهرها في داخله وظل محتفظاً بجوهره ثم أقام منهجه ومنطقه وذاتيته الخاصة دون أن ينحرف كما انحرفت أديان وثقافات أخرى سبقته استطلاعات الفلسفة اليونانية أن تحتويها .

## الصهيونية واليهودية العالمية

بعد الحرب العالمية الأولى دخل عنصر غريب في نطاق الدولة العثمانية والعالم الإسلامي تركزي منطقة فلسطين التاريخية وقريباً من (بيت المقدس) وكان هذا العنصر اليهودي قد بدأ يتسلل منذ وقت بعيد ولكنه استطاع أن يكشف وجوده بعد سقوط السلطان عبد الحميد حيث استطاع من خلال الاتحاديين الذين كانوا على الاطلاق ماسونيين عاشوا في احضان الدعوة إلى إعادة بناء هيكل سليمان من خلال مخططات وطقوس واصطلاحات كلها تعمل من أجل تجميع أكبر قدر ممكن من المسلمين والمسيحيين لخدمة أهداف اليهودية العالمية ممثلاً في ذلك النظام السري الرهيب الذي كان له دوره الخطير في ثلاثة من أكبر الأحداث في العالم كله في مقدمتها : الثورة الفرنسية وتوحيد سلطان الكنيسة وإطلاق اليهود من الجيتو كمواطنين لم يلبثوا أن سيطروا على دفة السياسة في أوروبا كلها من خلال المحافل الماسونية ، ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن قادوا حركة الفكر الأوربي ووجهوها لخدمة أهدافهم باذنين باحتواء الفلسفات الغربية المسيحية وإخراجها من جوهرها وفرض القيم الوثنية الاخرية عليها من أجل تدمير مقوماتها وتحقيق الأهداف التي رسمتها برتوكولات صهيون .

ثم كان العمل الثاني في هذا المخطط هو إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها وقد تم ذلك على خطوتين أولاً إسقاط السلطان عبد الحميد ومعه دعوة الجامعة الإسلامية وإحلال الاتحاديين في تركيا رابعين لواء الجامعة الطورانية ثم خلق رأس جسر تفريبي خطير في لبنان يتركز في الإرساليات التبشيرية ذات المحتوى اليهودي الصهيوني من خلال الفكر العالمي والغربي ، هذا الذي انتهى بإقامة نظام خاص مستغل في لبنان يفسح المجال لتركيز أعمال المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي والبلاد العربية وكانت مصر التي سقطت تحت الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ نتيجة القروض اليهودية الأوربية ، قد أهدت لتكون مسرحاً للحركة الفكرية اليهودية الاستعمارية من خلال الصحافة التي قادها خريجو الإرساليات ووجهت مخططاتها منذ اليوم الأول لتزيق وحدة العرب والإسلام وتصديق الخلاف بين العرب والترك وإثارة نمرات القوميات والإقليميات الضيقة وفي مقدمتها القومية المصرية أو الفرعونية ، بالإضافة إلى القومية اللبنانية أو الفينيقية ، وبذلك تمحق في نهاية الحرب العالمية الأولى سقوط الدولة العثمانية وإنفصال البلاد العربية عنها لتقع فريسة الاحتلال الفرنسي البريطاني مع قيام وطن قومي لليهود في فلسطين بنساء على تصريح بلفور عام ١٩١٨ . وبذلك تم تحقيق الخطوة

الأولى من مخطط الصهيونية العالمية الذي تقرر في مؤتمر بال ١٨٩٧ والذي نشرت من بعده وثائقه المسماة « بروتوكولات حكماء صهيون » والذي استهدف سيطرة اليهودية العالمية على العالم كله في خلال مائة سنة . ولقد كان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ هو أقوى خطوات التمزق الذي أصاب البلاد العربية التي ظلت تتخبط خلال هذه الفترة بين الاقليات والقوميات وبين دهوات الفرعونية في مصر والفيليقية في لبنان والأشورية والبابلية في العراق وسوريا . وقد حلت هذه الدهوات محل الجامعة الإسلامية التي انتهت بسقوط الدولة العثمانية وتحولها بعد الحرب العالمية إلى دولة تركية علمانية وفق ما أطلق عليه « الطورانية الجديدة » ومنذ ذلك الوقت إختفت كلمة « الجامعة الإسلامية » تدريجياً وتقلصت من الاصطلاحات السياسية والفكرية ، وخاصة بعد أن أسقط مصطفى كمال الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ نهائياً ولم يستطع المسلمون إعادتها أو إقامتها مرة أخرى ، وأن يحقق كثير من أهدافها من خلال خطوات التصحيح التي تمت في ظل حركة اليقظة العربية الإسلامية الممتدة بالرغم من مخطط التفریب المسيطر ثقافياً بالصحافة وتعليمياً بالتبشير من خلال معاهد الإرساليات فكان قيام الوهابية الجديدة في الحجاز ، و بروز دور الأزهر ومكة وحركات الإصلاح والتجديد الإسلامي التي قادتها جمعيات الشبان والإخوان المسلمين في مصر والشرق العربي . وهذا بالإضافة إلى المؤتمرات الإسلامية العديدة قد أوجد مرتكزاً جديداً مؤملاً لتقنين الأخوة الإسلامية ودعمها . ولقد كشف قيام إسرائيل عن حقائق كثيرة صححت وقائم التاريخ المعاصر وربطت بين مخططات اليهودية العالمية والمحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي كله كما كشفت مخططات النفوذ الاستعماري التي أقرها منذ عام ١٩٠٧ بإيجاد حاجز بشري بين آسيا وإفريقيا ليكون حائلاً دون الوحدة والتجميع ، وقد كانت فلسطين هي نقطة الحشد التي ركزت عليها الصهيونية العالمية محققة بذلك هدف الاستعمار في تمزيق الرقعة العربية في أدق أجزائها والحيلولة دون خطوة للتوحيد الأولى على طريق الرابطة الإسلامية وهي التجميع العربي على أساس أن الوجود الموحد هو أساس لليقظة وأكبر عناصر التجميع الإسلامي الواسع .

وكان من بين ما كشفه قيام إسرائيل حقيقة موقف السلطان عبد الحميد من اليهودية العالمية ورده الحاسم في مواجهة مخططات الصهيونية العالمية للاستيلاء على فلسطين ، والدور الخطير الذي لعبته « الدعوة » في الدولة العثمانية لتحطيمها وإعداد قيادة سياسية تتحرك من خلال مخططات الماسونية في محافلها ، تلك هي قيادة الاتحاديين التي عمقت الخلاف بين العرب والترك وقطعت آخر الخيوط بينهم ثم ما كان من دور طليعتهم الجديدة مصطفى أتاتورك كما كشفت الحقائق دور لورانس في

هذا المخطط الصهيوني الزاحف ، ودور معد زخلول ولطفي السيد وجامعة المقطم ، وفق المنهج الذي رسمه كرومر ، وكروزن ، وما كانت تخفيه دهوات الفرعونية والفيليقية وغيرها من أهداف خدمة إقامة إسرائيل وتركيز الصهيونية العالمية قوايدها في فلسطين تمهيداً للسيطرة على القدس ، التي احتلتها الانجليز عام ١٩١٨. وأعلنوا فيها أن الحروب الصليبية قد انتهت ، وجاء اليهود ليقولوا أنهم قد تسلموا القدس فعلا منذ ذلك اليوم ، وأن نجاح الأورد الانبي إنما كان خطوة على طريق تحقيق الهدف الكبير ، والذي وصل بالفعل إلى أيدي الصهيونية العالمية عام ١٩٤٧ باستيلاء اليهود عليها نهائياً وتأهبهم منذ اللحظة لبناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى . ومما كشفتته الوثائق في هذا الصدد ذلك الخطاب الذي أرسله لأمريكي الماسوني ( جريدي س . تردى ) إلى ما أسماه ( مجلس مسجد عمر ) والذي ينص على أن الماسونية تعتبر أن مسجد عمر في القدس هو مقر هيكل سليمان وهو في حساب الماسونية المحفل رقم واحد في العالم كله ، وهذه حقيقة كشفت عن هدف الماسونية الأساسي وعن سر تسميتها باسم البنائين الأحرار وإصرارها على بناء هيكل في كل محفل ماسوني على هيئة هيكل سليمان .

وهي حقيقة قد عرفها الماسون القدين بلغوا الدرجة الثالثة والثلاثين قبل أن تقوم إسرائيل في فلسطين ، قبل أن تسيطر إسرائيل على القدس . ولا شك أن كتابات كثيرة في الصحف والمجلات المهرية وغيرها منذ إنشاء المئتطاف ١٨٧٥ والحلال ١٨٩٧ تكشف عن إيماءات واضحة لمخططات الماسونية وفلسفتها المادية الواضحة . أما البروتوكولات فقد ظهرت في العالم كله ما عدا العالم الإسلامي منذ عام ١٩٠٢ . أما في مصر والبلاد العربية فإنها لم تعرف قبل عام ١٩٥٠ أي بعد قيام إسرائيل بالفعل في فلسطين وهي حينئذ لم تكن بدقّة تكشف عن نصوص صريحة وردت في كتابات كثير من كتاب البلاد العربية وخاصة خريجي معاهد الإرساليات التبشيرية أو المبعوثين العائدين من فرنسا وبريطانيا وأمريكا منذ أوائل هذا القرن وفي كتابات جورجى زيدان وسلامه موسى وطه حسين . كما تكشف ذلك في الرابطة التي ظهرت جليلة بين هر نزل وفرويد ، وبين الصهيونية العالمية ومنهج علم النفس التحليلي وما تبع ذلك من آراء دور كايم وسارتر وليفي بريل وغيرهم . وهذه المخطوط كلها تستند في الحق إعادة النظر في الأدب العربي المعاصر كله وفي نظريات الفكر الغربي الوافد سواء في مجال التاريخ أو الأدب أو الاجتماع أو السياسة وخاصة في تلك التعريفات الواضحة التي حفلت بها دوائر المعارف والموسوعات التاريخية في محاولة تزييف حقيقة وضع المسلمين والعرب في فلسطين وإضافة أكاذيب تجعل لليهودية بعض الحقوق التاريخية الرائجة وما تزال هذه الكتب في

أبدى الباحثين لم تصحح بعد ولعلها من المراجع التي يعتمد عليها وفي مقدمتها بروكلمان والمنجد ودائرة المعارف الإسلامية والموسوعة العربية الميسرة .

لقد كشفت هذه الوثائق عن ذلك الترابط بين الدعوات الإقليمية والقوميات الضيقة ، كما كشفت عن ذلك التلاقى بين المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية على أهداف واضحة ، ذلك أن هذا الجسم الغريب لم يكن ليحيى أو يستمر إذا ما صححت المفاهيم وعادت الرابطة الأصلية بين العروبة والإسلام وبين الإسلام والمجتمع الإسلامى ومن هنا سر الحملة المستمرة على الشريعة الإسلامية واللغة العربية والتاريخ الإسلامى ومحاولة الفصل الواضحة بين حضارة عربية وحضارة إسلامية وتاريخ عربى وتاريخ إسلامى وأمة عربية وأمة إسلامية ومحاولة التركيز على النظرية الغربية فى القومية لإحلالها محل مفهوم العروبة الذى تنصل جذوره بالإسلام والقرآن ، وهى نظرية وافدة لها ظروفا فى الشكل التاريخى والاجتماعى الغربى ، وإذا كانت القوميات أو الوحدة العربية سلاحا شهده العرب فى وجه الاستعمار ولواء نشره لتتجمع لمقاومة الاحتلال بديلا عن شعار الجامعة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية فإن الغزو الفكرى الغربى يحاول بكل الطرق أن يحول بتننا وبين اهتمامنا مفهومنا الأصل للستمد من مزاجنا النفسى وذاتيتنا التى كونها أربعة عشر قرناً من الحضارة والفكر الإسلامى للتصل الحى للتفاعل .

وقد تكشف لنا أن إحياء القوميات المحلية والإقليميات الضيقة إنما هو هدف مقصود وغرض واضح يهدف إلى الحيلولة دون تجمع العرب والمسلمين فكرياً وسياسياً ، والمعروف أن وحدة الفكر هى أساس الوحدة السياسية وفى هذا يقول لورانس برون بشكل واضح : « إن الخطر الحقيقى كان فى نظام الاسلام وفى قدرته على التوسع والاختضاع وفى حيويته ، إنه الجسد الواحد الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى وإذا ما اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً وأمكن أن يصبحوا نفمة له أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون بلا قوة ولا تأثير » . ويكشف الكتاب الغربيون أهداف المخطط الصهيونى الذى لا يتبع له إقامة وجود يمكن أن يستمر عشرين عاماً فى قلب البلاد العربية بإجراء خطير هو إطلاق صيحات القوميات الضيقة والإقليميات فيقول إمرى ريفرى فى كتابه قضية السلام « إن الوحدة التى احتفظ بها القرآن قروناً بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب الإسلامى قوميات شتى » .

( ٢ )

إن إطلاق مبدأ القوميات في أوروبا كان من وراءه مخطط واضح هو : أولاً : إثارة دول البلقان باسم القوميات على الدولة العثمانية وقد بلغ ذلك مدى لا حد له وآرزت الدول الأوروبية والبابوية الرومانية في سبيل تحقيق كل ما تملك من قوة في سبيل هدم القسم الأوربي من الدولة العثمانية . ثانياً : إثارة العرب على الدولة العثمانية وإثارة الأتراك على العرب ، وخلق ذلك الصراع باسم القوميات ، تحت لواء الطورانية في تركيا والفرهونية في مصر والعربية في سوريا والعراق . ثالثاً : كان إعلان صيغة القوميات هو أول الخطوات لإبراز القومية اليهودية التي نص عليها وعد بلفور صراحة بعبارة « وطن قومي لليهود » .

وقد أعلن ذلك قبل أن يكون لليهود قومية حقيقية لها دعائهما من الله والأرض والأمة . ولم يتم بناء الجامعة العبرية على جبل الزيتون من أجل إحياء اللغة العبرية إلا بعد ذلك ، وكانت جماعات المهاجرين اليهود إلى فلسطين حتى ذلك التاريخ لا تشكل قومية ولا أمة . وفي عام ١٩٠٩ عندما هزلت الماسونية لليهودية الصهيونية من داخل الاتحاديين السلطان عبد الحميد لم يكن اليهود في فلسطين وجود يمكن أن يحقق هدف إقامة وطن أو تشكيل أمة . غير أن الاتحاديين لم يلبثوا أن فتحوا الباب واسماً للصهيونية العالمية فبلغت مبلغاً لا حد له في خلال هذه السنوات العشرة لحكمهم إلى قيام الحرب العالمية حيث كانت الطورانية والاتحاديين وانتقال ١٩٠٨ في تركيا هي الحلقة الأخيرة في سبيل الوصول إلى فلسطين ومبدأ الاتجاه الحاسم في شراء الأراضي فقد سمح الاتحاديون لليهود بشراء أراضي الدولة وفي مقدمتها الأراضي الفسيحة المعروفة باسم ( الحفلك ) واستطاع اليهود أن يحملوا حكومة الاتحاديين على سن القوانين والأنظمة التي تمكنهم من الشراء تحت أسماء شركات تحمل أسماء عربية لمدة ثانية .

والمعروف أن الصهيونيون كان لهم في الحكومة الاتحادية ثلاث وزارات هي الأشغال العامة والتجارة والزراعة واليومنة والتلغراف . وكان جلوبد ناظر المالية من الدعوة هو صاحب الحسول والاطول في الاقتصاد العثماني . وقد تعالت صيحات العرب من خطر الصهيونية في البرلمان العثماني بعد الانقلاب الذي حكم به الاتحاديون ومن أبرز من تحدثوا عن هذا الخطر روجي الخالدي وشكري العسلي ونجيب نصار . ولننجيب نصار كتاب عن الصهيونية أصدره سنة ١٩١١ وكانت فصوله قد نشرت في جريدة السكرمل منذ عام ١٩٠٨ . ويقول عجاج نويهض في كتابه عن بروتوكولات صهيون في هذا



الصدد : كان زعماء الصهيونية قد استطاعوا أن يقطعوا مسافة طويلة في الوصول إلى فلسطين عن طريق استانبول العثمانية في مدة الست سنين التي انقضت من يوم إعلاني الدستور العثماني ١٩٠٨ إلى صيف ١٩١٤ وهي السنة التي وقعت فيها الحرب وسبب نجاح السياسة الصهيونية في المملكة العثمانية هو تمسكهم من استمالة عدد من كبار السياسة الأتراك المسلمين الذين يرجعون بأصولهم الدموية إلى اليهود الذين أخرجوا من أسبانيا آخر القرن الخامس عشر وعرفوا باسم الدونمة فخيوط الدهاة الصهيونيين جعلت تمتد إلى عصب الدولة لا منذ سنة الانقلاب فصاعداً بل من وقت قام هرتزل في العقد الأخير وقبل ذلك ولولا تنبه النواب العرب في البرلمان العثماني واشتداد صيحاتهم لقفز الصهيونيون قفزات أطول مما استطاعوا نيله، ويكفي أن نقول أن الغلو في الحركة الطورانية أو الصهيونية الجنسية الطورانية كان بالنال حافظاً للترك الطورانيين للوقوع في النهاية بين متخيلين ، خباب ألمانيا الناهضة لاستعمار معظم المملكة العثمانية عن طريق مشروع سكة حديد ( برلين بغداد ) والوصول إلى اليمن عن طريق مشروع سكة حديد الحجاز الذي تم إنشاؤها عام ١٩٠٨ ومخلب الصهيونية الطامعة في فلسطين .

وقد فشلت ألمانيا في الوصول إلى الشرق عن طريق استانبول . وفشل الأتراك الطورانيين في إنشاء إمبراطورية طورانية ينضوي تحتها الأصل التركي من بلغاريا إلى جنوب أوروبا إلى أقصى القزكستان شرقاً في آسيا الوسطى . ورجح الصهيونيون . ولا ريب في أن اليهودية العملية كانت قد رسمت خطة ذات مراحل للوصول إلى فلسطين وإلى بيت المقدس ، وأنها استخدمت في ذلك مؤسستين هما الصهيونية والماسونية . وإسرائيل هي قفاز اليهودية الخارجى أو مخططها الأول . ولقد كان سر القوة اليهودية هو قدرتها على إخفاء أجهزتها عن العالم ، غير أنه أسقط في يدها عام ١٨٩٧ في مدينة بازل بسويسرا هندما دهمها نفر من الشرطة القيصيرية الروسية القاديين من موسكو فأشعلت البناء في البناء بفرض إخفاء البروتوكولات ، التي أمكن الحصول على قدر كبير منها والتي تكشف عن هدف اليهودية العالمية في التسلط على العالم بحكومة يهودية بمد تخريب روسيا المسيحية الأرثوذكسية وأوروبا الكاثوليكية والبابوية ثم الاسلام . كشف الغطاء عن ذلك المخطط اليهودي السرى المرتبط بمقائد يهودية صهيونية مستمدة من التوراة الخرفة ومستقاة من التلمود . يقول هيجاج أويغس : أن البروتوكولات هي المخطط الذي وضعه رجال المال والاقتصاد اليهودي لتخريب المسيحية والبابوية ثم الاسلام ، ويقول إنها عصابة كبار اليهود السريه التي تجدد كيانتها الخفية في أثناء الثورة الفرنسية ووالدت سيرها في منتصف القرن الماضي في أيام كارل ماركس ونشطات نشاطاً

خاصا في روسيا القيصرية في الرابع الأخير من القرن الماضي ، ثم هددت مؤتمرها الصهيوني العالمي  
بزعامة (هرتزل) ١٨٩٧ . ويعتقد أن واضع هذه البروتوكولات هو ( اشرجنز برج ) من يهود أودسا  
المشهور في عالم الكتاتبة اليهودية باسم ( احدها عام ) . ومنذ بدأت الحركة الصهيونية وقد تضافرت  
جهود العلماء اليهود على محاولة إيجاد سند للوطن القومي في فلسطين ، يبدو ذلك في كتاب الدكتور  
إسرائيل ولغزنس ( أبو ذئيب ) في بحثه عن اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام الذي أعده تحت  
إشراف الدكتور طه حسين في الجامعة المصرية ونوقش علنا في حرم الجامعة عام ١٩٢٧ وقوامه أن للمستعمرات  
اليهودية في الجزيرة العربية قد أثرت تأثيراً قويا في الحياة العقلية والأدبية للجاهلية من أهل الحجاز .  
وقد عنيت دوائر الأدب العربي في مصر وعلى رأسها أدباء كثيرون وصحف كثيرة بالدفاع عن حق  
اليهود في فلسطين وترديد دعاوى الاضطهاد وفي مقدمة ذلك مجلتي المقتطف والحلال . وكان للدكتور  
طه حسين دوراً هاماً في هذا المخطط فقد ألقي عدداً من المحاضرات حاول أن يثبت لليهود حقاً في بلاد  
العرب ، ودوراً في الأدب العربي كما هي بالاعتماد في أبحاثه على كتب في إسرائيل من أجل إقرار  
أكاذيب ، أو تزيف حقائق وفي مقدمتها كتابي طبقات ابن سعد ، وأساب الأشراف وهما مما طبعته  
للطابع الإسرائيلية واستهدفت به إخفاء شخصية عبد الله بن سبأ اليهودي ودوره في الفتنة التي لحقت  
بالمسلمين أيام عثمان وقد جرى طه حسين على هذا النحو وأنكر وجود شخصية عبد الله بن سبأ في  
كتابه الفتنة الكبرى وسخر من المؤرخين الذين أشاروا إلى دوره الخليل .

وكذلك لقي ماكس نوردو اهتمام العقاد والمازني واسماعيل مظهر وترددت آراؤه على صفحات  
المجلات المصرية واحتوتها مؤلفاتهم والمعروف أن ماكس نوردو هو خليفة هرتزل على الحركة  
الصهيونية بعد وفاة الآخر عام ١٩٠٤ . وقد هاجم نوردو الحضارة الغربية باعتبارها حضارة مسيحية  
في كتابه ( الأكاذيب المقررة ) الذي وزع على أوسع نطاق . وهاجم امبراطورية هابسبورج ( النمسا )  
التي كانت تضم بولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وإيطاليا ، وقد ركزت دهوة  
للقوميات على تحطيم هذه الدولة وذلك لغرض خاص باليهودية العالمية التي كانت تشكل قوة كبرى في  
بولونيا ثم انفصلت بعد تمزق هذه الامبراطورية . كما قام عدد آخر من مفكرى اليهود الذين أتبعوا  
لهم السيطرة السكالة على الفكر الغربي بوضع نظريات معينة من شأنها أن تفرض نفوذ اليهودية  
العالمية وتحطم كل النظريات والقيم الاجتماعية المتعارف عليها والتي أقرتها الأديان السماوية وفي مقدمة  
هؤلاء ماركس وبرجسون وفرويد . .

جواد

نهي تصوير

( ٣ )

اعتمدت فلسفة الصهيونية على نصوص من التوراة الحالية وهي غير التوراة المنزلة على موسى ،  
وفسرتها على نحو معين ، متجاهلة التطور التاريخي الذي جاء بعد ذلك وذلك لعدم اعترافها بالمسيحية  
والإسلام . وقوام هذه النظرية أن اليهود هم شعب الله المختار وأنهم هم وحدهم أبناء إبراهيم الذين  
وعدوا بالأرض الواقعة بين النيل والفرات وهذا سر الحملة العنيفة الجائرة على السيد المسيح واحتضان  
كل الكتب المتعسفة التي تعرضت له أو للمسيحية من أمثال ما كتب رينان ونيشة بالإضافة إلى  
عمليات التخريب من الداخل التي قامت بها اليهودية في الفكر المسيحي وتدمير قيمه ومقوماته وهو  
عمل امتد من وقت بعيد وكان له أثره الكبير على الفكر الغربي كله ولما كانت اليهودية لا تعترف بالمسيحية  
ديناً سماوياً منزلاً لاجاء لتعديل ما وصل إليه اليهود من انحراف ، وتصحيح مسار اليهودية المنزلة حسبما جاء على  
لسان السيد المسيح : ما جئت لأتقض الناموس وإنما جئت لأكمل .. أقول لما كانت اليهودية لا تعترف  
بالمسيحية فهي تدهي أن لها مسيحها الذي سيحيي آخر الزمان من نسل يهودا وهو ليس مسيح  
النصارى ، وكذلك أنكر اليهود ما في التوراة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقد تناولوا هذا  
المعنى في الانسكولوجيا اليهودية مؤكدين أن خطوتهم التالية هي إظهار مسيح اليهود في الدنيا . ويقول  
جورج بوس : أنه ظهر بين اليهودية أربعة وهشرون مسيحاً كذاباً وأشهرهم ( بر كبه ) الذي عاش  
في القرن الثاني للميلاد وادعى أنه ملك اليهود وثار بهم على الدولة الرومانية فقتل منهم في هذه الثورة  
أكثر من نصف مليون يهودي . وآخر المسحاء الكذبة : يهودي ألماني اسمه ( مردخاي ) ظهر عام  
١٦٨٢ م واشتد اضطهاد النصارى لليهود بسببه فتوارى . ويقوم مفهوم الفلسفة اليهودية التي تعتبر  
الصهيونية واجبتها السياسية والماسونية أداها الكبرى في التفرير بأهل الأديان الأخرى ليسكنوا  
خدماءها ، تقوم على أساس الاستملاء العنصري والجنسي فهم يهود وكل العالم جويم أو أميون ويحل  
لهم الرب يأخذونه من الجويم ، كما يحل لهم كل ما يملكه الأميون ، « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه  
بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دامت عليه قاعاً ذلك تأثم قالوا  
ليس علينا في الأميين سبيل » وإله اليهود كما تصوره التوراة الزائفة والتلمود والمشنا ، هو إله الحرب  
وهو رب الجنود الإله يوه : الشرير المتوحش للشعوب بإراقة الدماء . وأخطر مفاهيمهم إنكار  
البعث واعتبار الحياة الدنيا هي كل شيء وإن على كل إنسان أن يسارع إلى التناط كل لذة ممكنة .  
وهم يقررون مبدأ الغاية التي تبرر الوسطة بعيداً عن القيم والأخلاقيات فلا بأس بالفرد والقيمة  
والكذب في تحقيق أي نجاح وقد دعا ذرائع اليهود رئيس وزراء بريطانيا الدولة الإنجليزية أن

تتخذها قاهدة ذهبية لسياساتها مع الشعوب ولا سيما في المستعمرات. وقد وضع اليهود الاقتصاد العالمي على أساس الذهب بمحتكرونه لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى. ووفق هذه الفلسفة المطبقة إلى السيطرة على العالم كله وإقامة مملكة يهودا في القدس وبناء هيكل سليمان يبدو مخطط الفكر الغربي العالمي واضحاً اليوم في كل تياراته ومخططاته. وذلك في تفسيرها مبادئ الحرية والمساواة وإفساد الحكام وزعماء الشعوب والاستعانة في هدم كل قوة جديدة بالنساء والمال والسكيد أو إجهاضها قبل أن تكتمل والعمل على إفساد الشباب والقضاء على الغنائر والأديان ونظام الأسرة. وأبرز دعاوهم فصل الدين عن الدولة، وفصل المجتمعات عن الدين، وإعلان حرية التدين التي تسكن في إنكار الأديان السبوية وإنكار الرسل والأنبياء والوحي والكتب المنزلة وإغراء الناس بالشهوات وإفساد المرأة وإشاعة الرذيلة والانحلال حتى يسقط الأيميون خاضعين لنهوض اليهودية العالمية وهم من أجل ذلك عززوا نظرية دارون وحولوها إلى الاتجاه الذي فتح عصره من المادية التلودية ثم دعموها بنظريات ماركس وفرويد في الاقتصاد وعلم النفس ودفعوا نظرية فرويد الانحلالية دفعاً باعلاؤها على كل نظرية أخرى معتدلة أو معقولة من أجل تدمير مقومات الأمم، ثم فرضوها على الآداب والقصة كما فرضوا التفسير المادي للتاريخ على كتابات التاريخ والاقتصاد والاجتماع. وهم الذين عززوا مذاهب القوميات في أوروبا والعالم الإسلامي من أجل تحطيم الدول الكبرى وتمزيق الأمم عن طريق العقائد والفكر، وهم أيضاً دعاة الاقليمية وفي نفس الوقت دعاة العالمية وهم المشاركون في الأنظمة الرأسمالية والأنظمة الشيوعية وقد كشف أحد زعمائهم عن هدفهم الواضح من ضرب القوى العالمية بعضها ببعض وهو إيقاع الغرب والشرق في حرب عالمية ثالثة لتحطيم القوتين معاً وإزالة جميع العوائق نحو سيادة اليهود للعالم. وقد كشف الخطاب الذي ألقاه الحاخام عمانوئيل راينوفيتش هام ١٩٥٤ من نوايا اليهود العالمية التي تملخص في :

(أولاً) إشعال نيران حرب عالمية ثالثة.

(ثانياً) تخريب الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي. (ثالثاً) اعتبار زعماء الدولتين مجرمي حرب.

(رابعاً) القضاء على الأجناس غير الاسرائيلية. وقد رتبت اليهودية العالمية ذلك منذ وقت بعيد بالاشراف على الصحافة في دور النشر ووكالات الأنباء، والسيطرة على مذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما والجامعات ونظم التعليم والاستيلاء على البنوك والشركات والبورصات واحتكار الذهب والفسلطة على اقتصاديات الدول الكبرى كأمريكا وروسيا وفي بروتوكولات صهيون إشارة واضحة إلى أن الأدب والصحافة قوتان في طليعة القوى التوجيهية الهامة وإلى أنه «يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق، وأن تعمل لتخريب وإثارة المشاعر التي هي في حاجة إليها من أجل أهدافهم.

ولا شك أن سيطرة اليهودية العالمية على صناعة السينما في هيو لود والعالم كله تقريباً وإدارة للمسارقات العالمية لأحسن الأفلام كلها تحت إشرافهم أمر واضح . وقد برزت مقومات الفكر الصهيوني كله في الكتابات للماسونية التي تعطي للمنتسبين إليها فلسفة كاملة متحررة في الأديان السماوية وقائمة على أساس دمج وصياغته كل أساطير الأولين في قالب براق قوامه وحدة الوجود وما تزال واجهات الشيوصوفية والروحية الحديثة والبهائية من أبرز مؤسسات اليهودية العالمية حتى يستخدع الناس في مجال الدعوة المادية الروحية جميعاً . وقد سيطرت اليهودية العالمية على حركة الاستشراق التي تقوم على بحث الكتب القديمة ، والتي كان من آثارها إعادة نشر الكتب ذات الصفة المعينة بآثاره الخلاف بين الطوائف وللذاهب والأديان ، وإعادة التبشير بالدعوات الهدامة التي مضت وانقضت كالباطنية والمردكية والزرادشية وكذلك بحث الكتب ذات المحتويات الثناوية والمفككة ونشر كتب السحر والأساطير والخرافات والبهت والطالع التي تصاغ الآن في أساليب فنية تخدع القارئ البسيط الساذج الذي لا يعرف أبعاد الدعوة المسمومة .

ولا شك أن من أهم الأهداف إذاعة التفاهات ودفعها إلى السيطرة على برامج الإذاعة والتليفزيون والصحف ، مع ما تحمله بين توجيهات مقصودة لهدم مقومات الدين في الأسرة والمجتمع والفرد ، ونشر الاباحية والإلحاد والتحرر من الأخلاق . وليس من الحق أن يقال أن اليهودية العالمية قد قامت وحدها بأعداد ذلك كله ولكنها شاركت فيه ووجهته وانتفعت به في سبيل تحقيق غايتها البعيدة وهي تدمير مقومات الأمم حتى تقع فريسة في مصيدة الامبراطورية اليهودية المرتجاة . ويباهي اليهود بعد إقامة إسرائيل بكثير من أعمالهم التي كانت خفية في الماضي ويكشفون عنها فهم يؤكدون أنهم دمروا المبقرية الروسية ، وأسقطوا الخلافة الإسلامية العثمانية ، وكذلك للملكيات في ألمانيا والنمسا ورومانيا وأصبانيا وإيطاليا وأنهم كانوا مدبري الحرب العالمية الأولى والثانية التي فقدت فيها أوروبا للملايين من أبنائها والملايين من الجنسيات وخسرها الغالب والمغلوب ولم يظفر بفنائمها غير اليهود .

(٣١)

## العروبة ومفهوم القوميات الوافد

( ١ )

### القوميات

في الفترة ما بين الحربين العالميتين انفصلت البلاد العربية انفصالاً تاماً عن الدولة العثمانية حاملة لواء الخلافة والجامعة الإسلامية . ثم سقطت هذه الدولة بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وبروز الكيان العربي السياسي الذي كان قد انفصل خلال الحرب عن تركيا في ظل التحدي الذي حل لواء الاتحاديون بالدعوة إلى الطورانية ومحاولة تبريك العناصر العربية وأنجاه العرب إلى رفع لواء العروبة كدعوة للتجمع وللقاومة ومواجهة حركة التنريك . ثم اتسع نطاق دعوة العروبة بعد الحرب مباشرة أثر الفضل الذريع الذي منى به العرب بعد أن آزرروا بريطانيا وفرنسا خلال الحرب بناء على وعد بقيام الدولة العربية ثم تبين لهم زيف هذا التناقد وقيام الدولتين باحتلال البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية وهي ( الشام بأجزائه الأربعة ) والعراق ، وانكشف مخطط الاستعمار الذي تضمنته معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور . ومن ثم أصبحت أغلب البلاد العربية تحت سيطرة الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي . ومن خلال هذا الاحتلال بدأت الدعوة الإقليمية الضخمة على النحو الذي عرف في إلهاء الإقليمية المحلية : كالمصرية والسورية واللبنانية والعراقية وغيرها ومحاولة إعطاء هذه الإقليمية طابع القوميات . ثم برز طابع العروبة الذي كان هو منطلق سوريا والعراق والحجاز في مواجهة الطورانية أولاً ثم في وجه الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والبريطاني للعراق وبدأ صوت الدعوة إلى العروبة يعلو ويؤكد ذاته في ظل التحديات التي فرضتها قضية فلسطين والدور الذي قامت بها بريطانيا في سبيل تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

غير أن « العروبة » في ذلك الوقت كانت تعبيراً تلقائياً لمواجهة النفوذ الأجنبي وكلمة لتجمع بين الأقطار العربية المحتة ولم يكن يحمل أى معنى معاني القوميات التي عرفتها أوروبا ويمكن أن يقال بحق أنه تجمع هذه المنطقة في دائرة أقل من الدائرة الإسلامية التي سقطت بسقوط الدولة العثمانية والتي كانت نجمها أكبر في وجه النفوذ الاستعماري أساساً . لقد كانت البلاد العربية في هذه المرحلة تنحرك في دائرة الوحدة السياسية الإسلامية الجامعة فلما سقطت تحولت هذه الدائرة إلى رابطة فكرية

ثقافية ونشأ من داخلها تشكيل هربي سياسي جامع ثم هزز الاستعمار المعنى الإقليمي الذي كان ظهوره واستعلائه يمثل رد فعل للحركة الضخمة التي كانت تستهدف القضاء على الوجود المعنوي للوطن والأرض والأمة جميعاً . ومن هنا فقد تحرك العرب بين الحربين في ثلاث دوائر متداخلة غير منفصلة وغير متعارضة وهي دائرة الوطن ودائرة العروبة ودائرة الفكر الإسلامي . واستطاعت الدائرة الوطنية أن تقاوم الإقليميات والقوميات الضيقة ، واستطاع المفهوم الإسلامي العربي المترابط الموحد أن يعطي الدائرة الوطنية قوة وفعالية دون أن يسقط في فخاخ الإقليمية المنصوبة لها لإخراجها عن طبيعتها وإغراقها في الطريق الوثني القديم السابق للإسلام وقد سقطت فعلا دهوى القهرونية في مصر والأشورية في العراق والفيلينية في سوريا أما في لبنان فقد كان لها منطلقها الخاص الذي انخس من الفيلينية جداراً لتعزبز كيانه المنفصل عن العروبة والإسلام جميعاً . ولقد كانت حركة اليقظة العربية الإسلامية ممثلة في جمعيات الشبان المسلمين في مصر وشباب محمد في سوريا وما تفرع منهما من جمعيات الهداية والتمدين والأخوة وغيرها قد استطاعت أن تفرغ مفهوم التحرك الفكري السياسي العربي في قالب جامع بين الوطنية المحلية لكل قطر وبين العروبة والإسلام على أساس أن الدوائر الثلاثة تتحرك من داخل بعضها دون أن تتعارض وأنها تلتقي جميعها على واجه واحد هي مقاومة النفوذ الغربي الزاحف والصيروني الجديد والتماس منابع الفكر الإسلامي في ثقافة المجتمع وأنظمته ومقدراته ؛ ولقد عملت الهيئات الاجتماعية والإسلامية المختلفة خلال هذه المرحلة في الدوائر الثلاث دون تعارض أو تضارب بحسبان أنها قوى ثلاثة تسلم كل واحدة منها إلى الأخرى وأن الوطنية تتعلق بالأرض والعروبة تتعلق بالأمة والإسلام يرتبط بالفكر ومناهج الحياة والمجتمع . وهذا نموذج من الأيديولوجية التي هزمتها مرحلة ما بين الحربين في ترابط الوطنية والعروبة والإسلام لأحد قادة اليقظة في هذه المرحلة .

« هذا الوطن العربي الممتد من الخليج الفارسي إلى طنجه هل سمع أقطاره وانفساح مداه وحدة جغرافية لا تفصل بينهما حواجز طبيعية ، ولا تعزقها تضاريس أرضيه حتى إن الراكب ليستطيع أن يقطع من أقصا إلى أقصا من غير تعب ولا هناء ، وهو مع ذلك أهمل بقاع الدنيا هواء ، وألطفها مناخاً وأهدبها أنهاراً وإله ليؤكد يستغنى بخيراته وثرواته الطبيعية عن كل ما سواه .

« وهو كذلك وحدة روحية بمرئان الإسلام في هلق أبنائه جميعاً ، فالسودون منهم يقدرسون الإسلام كمقيدة ودين وغير المسلمين يعترفون به كشرعية قومية عادلة ونظام اجتماعي فاضل ثبت في أرضهم ، وعاش في بلادهم وترعرع في أوطانهم واشتركوا جميعاً في حياته وحمايته والذود عنه والانتصار له الإسلام نفسه مع عظيم سلطانه على المؤمنين به وعمق تغلفه في قلوبهم أوسع المقاسد

صدراً وألینها قلباً وأرفقها بالمخالفین ما لا يؤذینهم ، ولا یهینهم ولا یعندی علیهم حتی فی حال السکراهیة والغضب ، وإعما هو العدل الشامل والرحمة السکالة لکل ذی کبد رطبة .

« وهذا الوطن وحسنة لغوية بـسريان لغة العرب في أبنائه ونشوها بينهم تقدسها الحاريب في الصلوات ويخلدها كتاب الله في آيات بينات ، وتحوطها قلوب غير المسلمين بأرق المشاهر وأجل الذكريات . [ ففي قلوب يوم الدين يحرسها وفي قلوب يقوم الحب والولع ] وهو وحدة فكرية ثقافية بما أنه منبع الفيض الروحي في العالم كله ومصدر الفلسفات ومهبط الوحي والنبوءات ومهد الشرائع والديانات : « وهو وحدة اجتماعية بتشابه العادات والتقاليد فيه تشابهاً يكاد يكون تاماً في شعوبه وسكانه ويؤلف بين أبناء هذا الوطن بعد هذا كله للصالح العملية المشتركة ولا شك في أن كل شعب من شعوبه يدرك مدى الفوائد العظيمة الجليلة التي تعود عليه بعودته إلى هذه الوحدة وهودتها إليه وبخاصة في الزمن الذي لا تعيش فيه إلا الأمم المتجمعة والشعوب الموحدة المستكنة . وإذا كانت مرحلة ما بين الحربين هي مرحلة الوطنية فإن حركة العروبة فيها لم تكن واضحة ولذلك فإن معركة أيدولوجيتها لم تظهر إلا في السنوات الأخيرة السابقة للحرب العالمية الثانية . غير أن هذه الفترة حققت نتائج هامة في مواجهة الإقليميات وتصنيفها واحتواء الفكر العربي الإسلامي لها على أنها جزء منه وليست معارضة له .

غير أن قضية فلسطين فرضت وضوح مضمون العروبة بين مضامين الوطنية والإسلام كجزء منها وحلقة وسطى تجمع بينهما وكان من أبرز المظاهر في هذا الشأن أن السياسيين المصريين اتجهوا نحو العروبة بحسب التقارب الذي بدأ بين مصر والشام أساساً . وكان ذلك علامة على انتشار الطابع الاقليمي الذي ظل مسيطراً فترة طويلة ومغلقة للأبواب بين مصر : وبين العروبة والعالم الإسلامي جرياً على الخطة التي رسمها لطفي السيد عام ١٩١١ والتي امتدت بعد الحرب الأولى ثم علت وبلغت درجة في الغلو والانحراف عن المفهوم الطبيعي للوطنية : وقد جرى ذلك مع الانحياز الطبيعي الذي حملت لواءه حركة اليقظة العربية الإسلامية التي اعتمدت أساساً في حركة التحديد الإسلامي على الأمة العربية باعتبارها القوة المرجحاة لقيادة اليقظة والتي حملت لواء الإسلام ونزل القرآن بلغتها وبعث رسول الإسلام من ذروة أعراقها . وكان مفهوم « العروبة » واضح تماماً في أنه تجمع من أجل مواجهة الاستعمار ومن أجل نهضة العالم الإسلامي كله ودخوله في مرحلة جديدة من مراحل اليقظة والبعث . غير أن هذا المفهوم لم يكن قائماً على تعظيم أو تقديس للعروبة أو استعلاء جنس أو عرق أو عنصر ، ولم يكن هادفاً إلى إقامة حواجز بين العرب وبين الأمم الإسلامية التي تجمعها بها وحدة



العتيدة أو الفكر . وإنما برز هذا المعنى في المرحلة التالية لذلك وكان مصدره انحراف مفهوم العروبة عن مكانه الأصل ، ودخول المفهوم الغربي الوافد للقوميات واستعلائه ومن ورائه قوى النفوذ الاستعماري التي كانت حريصة على أن تخلق أجواء الخصومة والتضارب والصراع بين العرب والترك والفرس على النحو الذي قامت به مما وقع بين العرب والترك . وخلاصة القول أن الاتجاه إلى العروبة كان موقفاً طبيعياً غير مفروض ولا دخيل لإزاء الواقع السياسي الذي وجد العرب أنفسهم فيه بعد صراع الاتحاديين لهم لتفريكم من ناحية ثم بعد سقوطهم في أسر الاحتلال الغربي وسقوط فلسطين تحت النفوذ الصهيوني . كان لا بد للعرب من تجمع جديد من خلال حلقة أكبر من الوطنية والإقليمية التي فرضها النفوذ الاستعماري ونماها وخلق لها فلسفتها ، ومن ثم فقد كان التنادي بالوحدة العربية والتجمع العربي وكان الفكر الإسلامي هو مصدر الضوء في تشكيل هذا التجمع تحت لواء « العروبة » .

ولم يكن هذا في الواقع هو الامتداد أو المثيل لما كانت تنادي به المصباحات في القرن التاسع عشر في لبنان ومن أمثال إبراهيم البازي أو البستاني أو نجيب عازوري فإن ذلك كانت دهوة باسم العروبة القبطية والفسانية للقدبة التي تحاول أن تملأ المفاهيم السابقة للإسلام كصيحة تنادي بين الموارنة والعرب المسيحيين في ظل ما حاول النفوذ الأجنبي أن يلقى إليهم أو يدهوم إليه للتشكل بعيداً عن العروبة والإسلام جميعاً في كيان خاص حاول الاستعلاء بأنه مقدس وخالد وأزلى ليحافظ على وجوده الخاص . ولكن الدهوة إلى العروبة كانت صيحة الجامعة العامة وكانت تستمد وجودها ككل حركات العالم الإسلامي السياسية من جوهر القيم الأساسية التي كانت تفسح للمسلمين والعرب التشكل في مواجهة الأحداث على النحو الذي يمكنهم من مدافعة الأخطار ومن إهادة بناء الأساس لقد كانت الجامعة الإسلامية التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد هي « أداة المواجهة للنفوذ الاستعماري على مستوى الدولة العثمانية فلما أسقط الاستعمار هذه الدولة ، كانت التحديات الخطيرة التي تلت ذلك تحكم على العرب أن يتنادوا تحت لواء الواقع القريب وضمن الحلقة الوسطى : « حلقة العروبة » وكان هذا التنادي تلقائياً ولم يطلق عليه أي اسم آخر ، وكلمة القوميات وغيرها كانت غريبة ومستحدثة ولا تمثل أبداً ذلك التشكيل الفكري والاتجاهي والسياسي الذي يجمع العرب باسم الجامعة التي تجمعهم وهي الفكر العربي الإسلامي بما صاغ من ذاتيتهم ومزاجهم وبجنتهم . ولم تكن اللغة العربية في الحقيقة هي الرابطة ذلك لأن اللغة العربية ليست رابطة قومية على عتبات الأوربية وإنما هو القرآن في الحقيقة الرابطة القومية والإنسانية والوطنية الجامعة على المستويات الثلاث ومن

خلال كل تشكل وطني أو على مستوى الأمة أو على مستوى الفكر . وقد كانت العروبة على السنة الدعاة والمفكرين والسياسيين في ذلك الوقت رابطة تجمع ولا تفرق ، وهي رابطة لا تعلى معنى التعصب أو التفرقة العنصرية ، ولا تقيم الحواجز بين العرب والفرس والتürk والأفغان والمنود والجاويين على أساس أن رابطة وحدة الفكر الجامعة للعرب هم نفسها للمتمدنة الواسعة وإنما كان يدهم هذه العروبة عاملان كبيران :

( العامل الأول ) هو أن اليقظة العربية الاسلامية تجددت صيحتها من قلب الجزيرة العربية علامة على أن العرب سيقودون نهضة العالم الإسلامي . ( العامل الثاني ) هو ذلك لليشاق المعان والجهد والتي تجدد فعلا في هذه الفترة وهو إيمان المسلمين في مختلف أنحاء العالم بأنه وإن تسكن سقطت الخلافة فان العرب وهم أصحاب اللغة والفكر والسكينة والأزهر والقرآن هم المرجعون لليقظة الاسلامية وحركة جديدة من حركات التشكل للعالم الإسلامي كله : وهذا هو الخطر الخطير الذي واجه الاستعمار الغربي بعد أن سقطت الخلافة والدولة العثمانية حينما أحس بأن العروبة ستشكل قوة فكرية واحدة تدفع إلى الأمام حركة اليقظة . ومن هنا بدأت عملية المقاومة العنيدة المظلمة التي حدثت لها الأقسام والأذهان الاستعمارية والتفريبية والصهيونية والماسونية لإلتهاء مفهوم فلسفي يعزق جوهر العروبة الأصل ويذيب مضمونها ويفرقها بين أكثر من مذهب ودعوة ومن هنا كان طرح مفهوم القومية العلمانية الغربية الوافدة .

( ٣٢ )

### طرح النظرية الغربية في القوميات

لم تلبث حركة التفريب إذ رأت كيف أخذت فكرة «العروبة» طريقها الأصل كحلقة وسطي بين رابطة الأرض ( الوطنية ) وبين رابطة الفكر ( الإسلام ) أن تدخل إليها تحريفا ينشعب بها ويفسدها ويصيبها بالاضطراب والعجز عن طريقها الحق ، البسيط ، الداني ، التلقائي ، الفطري ، ولما كانت «دهوة الإقليسيات» قد فشلت في تحقيق التزق الفكري والاجتماعي والسياسي للعروبة والاسلام فقد جاءت النظرية الغربية الوافدة في القوميات عاملا هاما في زهزعة المقومات الأصلية والقيم الاساسية ونعريه العروبة ، من كل ما يتصل بها سواء على صعيد الفكر كالثقافة والتاريخ واللغة ، أو على صعيد السياسة كالترباط والانفتاح بين الامم الاسلاميه ذات التاريخ والثقافة والعقيدة

الواحدة والتي تجمعها منذ خمسة عشر قرناً أرضية ثابتة ورصيد ضخم . فكانت النظرية الغربية في القومية تريد أن تحمل معها ثلاث محاذير خطيرة :

١ — طابع الاستعلاء الجلسي المتفاق في مواجهة الأمم الإسلامية . ٢ — طابع الانزوال الكامل من التاريخ والتراث والمنومات الإسلامية . ٣ — خلق وجود معاصر منفصل تماماً عن الإسلام وعن العالم الإسلامي متصل بالغرب ، مندغم في تفسيراته وقيمه وطوائمه . وقد غاب عن الذين طرحوا النظرية الغربية في القومية أن هناك عاملاً ضخماً لا سبيل إلى تجاهله أو إغفاله في أي نظرة علمية ذلك هو الطابع الفكري العميق الذي صاغه الإسلام للتشكل العربي في أولى مراحل وجود العرب كأمة بعد أن كانوا مجموعة من القبائل المتفرقة للتصارع وأن هذا الطابع قد أقام حداً فاصلاً عميقاً ( فكرياً وسياسياً واجتماعياً ) بين ماضي العرب وللمصريين والشاميين والعراقيين والمغاربة جميعاً وكل من عاش في هذا العالم للمتمد الذي سيطر عليه الإسلام وشكله الفكر الإسلامي وخاصة تلك المنطقة التي تعربت وأصبحت تسمى الأمة العربية أو بحال العروبة . وأنه لا سبيل إلى إطادة هذه الأمم إلى ماضيها القديم بعد أن نقلها الإسلام تلك الثقل الواسعة من الأساطير والوثنيات والعصبيات والصراع الفكري والفراغ الاجتماعي إلى ذلك الطابع للتشكيل من التوحيد والعدل والحق والمقومات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية الواضحة في ذلك النظام الذي نزل به القرآن ورفع لواء الإسلام . وأن أية معاودة لإحياء تلك المصفحات القديمة سواء في الجاهلية العربية أو الوثنية الفرعونية أو الفينيقية أو حتى خارج محيط الأمة العربية في الوثنيات الفارسية والهندية فإن ذلك أمر مستحيل غاية الاستحالة مهما أطلق عليه اسم القوميات أو الإقليميات . وربما كان ذلك مبسوراً في أوروبا التي لم تغير للمسيحية تشكيلها الفكري أو العقلي والذي كان قائماً في إطار الفلسفة اليونانية والقانون الروماني أساساً . أما في العالم الإسلامي وفي الأمة العربية بالذات التي حملت لواء الإسلام وأذاخت به في العالمين شرقاً إلى الصين وغرباً إلى أسوار فيينا وإلى نهر اللوار فإن هناك استحالة ذلك التحول واستحالة نقل التجربة الغربية أو تطبيق ظاهرة تاريخية في مجتمع غير المجتمع الذي جرت فيه مع اختلاف عميق وجذري في كل الظروف والملابسات والأماكن والمعتقدات والصور والأمم . في عام ١٩٤٠ تقريباً بدأت عملية طرح النظرية الغربية في القوميات على الفكر العربي وظهرت أقلام تتحدث عن فلسفة القوميات وتشكلت هذه الفلسفة في هيئة مؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية وبدأت نقطة انطلاقها من لبنان ومن خلال غريبي مهاد الإرساليات والعائدين من بعثات تعليمية في فرنسا واتخذ بعضهم الأسلوب المجنح الحالم الصوفي الذي يحاول أن يعطى كلمة

القومية العربية مفهوم العقائد الدينية ، ويروج لها في إطار من المزامير والموسيقى والأناشيد والتراتيل  
 على نحو يؤثر في نفوس الشباب الطامح للتوقد حماسه إلى مثل أعلى وفكرة ومنهج فسكر وحمية .  
 وقد شاء أصحاب الدعوة أن يرجعوا التاريخ المكتوب الذي عاشته العروبة والاسلام ، أن يرجعوه  
 التهمري من جديد ليدخلوا فيه كلمة القومية التي لم يكن يعرفها والتي لم تجر على الألسنة والأقلام إلا  
 في أوائل هذا القرن والتي يندر أن يوجد لها مكتوب لأديب أو مفكر أو شاعر يتخذ من كلمة  
 ( ق و م ) شعاراً له أو منطلقاً في قصيدة أو مقال أو كتاب . وحيث لم يكن في التاريخ العربي الاسلامي  
 الممتد ما يشير إلى نفس هذا المعنى بوصفه دعوة إلى تجميع الأمة أو العنصر أو الجنس مما لم يكن  
 موجوداً بطبيعة هذه العصور ولم تكن الحاجة إليه بطبيعة التحديات التي فرضت وجوده في السنوات  
 الأخيرة . ذلك أن أصحاب الدعوة لم يسكنهم أن يقولوا كلتهم اليوم ولسكنهم حاولوا أن يقيموا لها  
 تاريخاً طويلاً بعيد المدى يسبق ظهور الإسلام ويمتد من خلاله ويقم تاريخين وفكرتين وكتابين :  
 أحدهما اسمه الأمة العربية والآخر اسمه الأمة الإسلامية . ولا شك أن ذلك تاريخياً وعلماً أمر زائف  
 أشد الزيف ولا صحة له ، ولا يمكن تقبله أو إقراره ، ذلك أنه بالحق لم تكن هناك أمتين أو عنصرين  
 أو دعويتين عربية وإسلامية ، بل لم يكن من الممكن إيجاد ما يمكن أن يمزج ما بين العرب والمسلمين ،  
 خلال هذا التاريخ الطويل الذي كان العرب والمسلمون فيه كلا متكاملًا ، وكانت العروبة الإسلامية  
 جماع مصمت ، وتشكل مترابط جذري ، ولو قد حاول هؤلاء الدعاة أن يوجدوا للعرب تاريخاً منفصلاً  
 لما وجدوا ، فلقد بدأ تاريخ العرب حقيقة في نفس الوقت الذي شكلهم فيه الإسلام وبنام كآمه  
 وأهلهم ليحملوا رسالته .

وتاريخ العرب قبل الاسلام لا يمكن أن يعطى أية حجة أو أى دليل على مفهوم القومية واسكنه  
 يمكن أن يعطى ألف دليل على مفهوم التعصب والقبلية والعصراع الدموي بين العروق والقبائل .  
 ولقد كانت فكرة دعاة القومية المجنحة واضحا ، فقد كانوا يريدون بمزاميرهم وتراثيلهم أن يواجهوا  
 دهوة اليقظة الفكرية العربية التي كانت قد استحصدت وقويت وقطعت مراحل طويلة ودخلت في  
 دور من أهم أدوارها من خلال الجملعات والهياث وأن يصارحوها . كما كان هدفهم الأكبر من رفع  
 لواء القومية العربية لإحياء الجاهلية ، والعودة بالعرب إلى كنعان وغسان وآرام وإحياء هذا التراث  
 القديم بعد أن سيطر الفكر الاسلامي أربعة عشر قرناً كاملة على هذا العالم الواسع واستوعب في أعماقه  
 كل فكرة صالحة وكل نظرة صائبة من الفلسفات والمذاهب القديمة التي عرقتها العرب أو الفرس أو  
 الهنود أو اليونان ثم صاغها من داخل بنائه الجديد فلم يمد هناك غير صورة واحدة جامعة هي الفكر

الإسلامى الذى يختلف عن الاسلام نفسه ، فى أنه كان عبارة الفكر البشرى مصانفا فى إطار الاسلام والتوحيد ومبنيًا فى ضوء القرآن ثم اتسع نطاق طرح النظرية الغربية الوافدة فى القوميات على ألسنة هديد من الكتاب وتعددت المذاهب المطروحة وحاولت أن تستمد مفاهيمها ومقوماتها من الولاء لإحدى النظريات الغربية أو إلى الأخرى ، وفى الغرب كانت قد ظهرت بضع عشرة نظرية فمن هؤلاء الدعاة من أخذ نظرية ( اللغة ) ومنهم من أخذ نظرية ( رسالة الأمة ) ومنهم من أخذ نظرية ( المشبته ) . وتضاربت وجهة الرأى بين أصحاب هذه النظريات وما زالت حتى اليوم دون أن تحقق اتفاقا على نظرية معينة أو تشكل كامل وقد اختلفت عند الدعاة باختلاف ولائهم والمدارس الفكرية التى نشأوا فيها أو الأهداف التى يحملون لواءها والتبعية التى يعملون لها . ولكن النظرة العامة تعطى إشارة إلى أن النظرية وافدة وغربية وليست منبعثة من وجودنا ، وليست تتمثل ففكرنا أو كياناتنا أو جوهر قيمنا ولعل سر ذلك راجع إلى أن الذين حملوا لواء هذه النظريات إما أنهم لم يعرفوا الاسلام معرفة عميقة وإن كان بعضهم يحمل أسماء إسلامية ، أو أنه متابعاً لمفهوم الغرب عن الاسلام ، أو أنه كان من غير الغالبية العربية ديناً أو فكراً أو متابعاً لفهم الغربى للاسلام . أما أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعاً أنهم صدروا فى قيادة الأمة العربية وفى التقنين لها فى مفهوم القومية ، وفى رسم مناهج مجتمعاتهم وفكرها من داخل النظرية الغربية الواضحة ومن إطار المسيحية الغربية أو الفهم الغربى لها وهو أن الاسلام دين روحى محض ، مثله كمثل المسيحية ، وأنه لاهوت خالص وعلاقة بين الله والفرد ولا صلة له مطلقاً بأنظمة المجتمع ولا الأخلاق ولا منهج الحياة .

ومن الأمور التى تحتاج إلى نظرة عميقة أن كل الداهين إلى مبدأ القوميات كانوا غربى النظرة أو على ولاء غربى أو كانوا لا يفهمون حقيقة الاسلام الجامعة بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياة وأن دعاة القومية لم يكونوا أكثر إيماناً بهذه الأمة من دعاة الاقليمية حتى لم يمكن أن يقال أن دعوتهم الى القومية إنما تمثل طابعا اقليميا فى النظرة ، وأبأن أخطائهم ذلك الالتباس الذى يشيرونه ويذكرونه بين الروبه والاسلام ، وذلك الفصل بين الاسلام والمجتمع . وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الواقع والمفهم العميق للاسلام والروبه . وإن محاولتهم فرض مفهوم غريب دخيل وافد ، إنما كان سببا فى ذلك العجز وذلك الفشل وذلك الاضطراب الذى لازم الدهوة العربيه خلال هذه السنوات الطويلة حتى بدأ فى نظر الكثيرين فشلاً ذريعا لهم للافكرة التى تستطيع أن تشق طريقها إذا ما التمت جوهرها وذاتيتها وفطرتها فى ضوء الواقع الذى يقرره الفكر الاسلامى البالغ السقاهر والذى لا يمكن تجاوزه أو التحرك منه إلى خارجه .

وخلاصة ما تقرره النظرية القومية الوافدة : ١ — إنكار أثر الاسلام للعنوى . ٢ — إنكار  
الترايط بين العروبة والاسلام . ٣ — إنكار الترايط بين الاسلام والمجتمع . ٤ — اعتبار الاسلام  
مرحلة من تاريخ العرب . ٥ — إنكار بحث الماضي أو ما ليس له . ٦ — القومية هي الأساس ووعاها  
بضم الاسلام . ٧ — الاسلام يؤلف إحدى الخصائص للوضعية للأمة العربية . ٨ — الاسلام لم  
من قلب العروبة . ٩ — للأمة العربية رسالة مقدسة . ١٠ — تسميته مرحلة من التاريخ العربي  
بالعهد الاسلامي . ١١ — تجاهل النظام السياسية الاسلامية . ١٢ — الاسلام هو الايمان بالقضاء  
والقدر والله واليوم الآخر .

١٣ — اللغة هي مقوم القومية والتاريخ مقوم آخر . إن الذين حملوا لواء النظرية الغربية في  
القوميات كانوا في الأغلب من خريجي معاهد الإرساليات أو من أساتذتها ، أو من الذين عملوا مع  
الانحاديين دعاة الطورانية ، أو من الذين عملوا في الأحزاب الشيوعية والاقليمية وقد تمثل أغلبهم  
بطابع واضح من التعصب للعروبة الأصيلة والاسلام ومنهم من كان على ولاء واضح للدولة الأجنبية  
ومنهم من كان من زعماء الحائز الماسونية والواقع أن دعاة القومية بمفهوم الغرب الوافد ينقصهم  
إكتمال النظرة وربما يعوزهم الانصاف والبعد عن التعصب . وقد حملوا مفهوماً غريباً طرح في بعض  
أقطار أوربا في ظل تحديات تختلف اختلافاً جوهرياً عن التحديات التي تواجهها الأمة العربية وقد  
التبست النظرية أساساً بطابع الأهداف التي حملتها الإرساليات وأبرز معالمها هي : ١ — السخرية  
بالاسلام وقيمه وأنظمتها واعتباره ديناً لا هو تياً صرفاً . ٢ — اعتبار اللغة العربية لغة أمة تخضع لما  
تخضع له اللغات الغربية . ٣ — القول بأن أوربا هي التي أيقظت العرب وللسلمين . ٤ — الإهجاب  
البالغ والتقدير للتاريخ الغربي والحضارة الغربية . ٥ — الدعوة إلى أسلوب الفكر الغربي أسلوباً  
لفكر العربي .

٦ — انتقاص البولات الإسلامية والعربية . ٧ — القول بأن الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية  
مكتوبة بحروف عربية . ٨ — القول بأن الاسلام مرحلة في تاريخ العرب وأنه ثقافة المعصور الوسطى .  
٩ — القول بأنه ليست هناك إلا حضارة واحدة قام بها اليونان ثم الأوروبيون في العصر الحديث .  
١٠ — النظر إلى رسول الاسلام على أنه بطل عربي أو أنه زعيم اجتماعي . ١١ — مهاجمة التاريخ  
والنظر إليه على أنه عامل معوق . ١٢ — الحملة على القديم كله وازدراءه والتهنى عنه . وتستطيع أن  
تجد ذلك واضحاً من خلال كتابات دعاة النظرية الغربية في القومية وتشم من هذه الكتابات روح

السكرامية والشهامة والحقد والتعصب . ولقد كشف الباحثون الغربيون مدى التلغيق الواضح في نظرية القومية التي حمل لواءها دعاة يكتبون بالعربية وردوها إلى أصول أجنبية محضة . وأبرز هذه الدلائل : ( أولا ) إن القول بأن لكل أمة رسالة خاصة بها عليها أن تقوم بها هو مضمون نظرية هرذر . ( ثانيا ) التأكيد على التاريخ وعلى الوجود القومى هو مضمون نظرية هيجل . ( ثالثا ) القول بالارادة العامة هي نظرية جان جاك روسو ( رابعا ) الأساس الاقتصادى للسياسة مأخوذ من نظرية ماركس . ( خامسا ) واضح في النظرية أثر المذهب الحيوى الذى نادى به بيرجسون .

( ٣٣ )

### مبدأ القوميات في أوروبا

ظهر مبدأ القوميات في أوروبا على أثر الصراع الذى نشأ بعد ظهور البروتستانتية وانقسام المجتمع الأوروبى بعد أن كانت تجمعه وحدة الكنيسة الكاثوليكية . ولقد كانت الثورة الفرنسية بعد البروتستانتية عاملا هاما في ظهور القوميات وسقوط الامبراطورية الكبرى وإعادة تشكيل الدولة في أوروبا على أساس رابطة اللغات والقوميات والأجناس ، وكانت صيحة القوميات في البلقان تحت أسماء اللغات من العوامل الهامة في محاولة انفصال هذه الأجزاء عن الدولة العثمانية . وكانت الحملة الضخمة التى شنتها الماسونية على المسيحية عاملا هاما في هذا التشكل الأوروبى ، خاصة بعد عصر التنوير وظهور الفلسفات المادية التى هاجمت الدين بصفة عامة وأعلنت من شأن العناصر والدماء والأعراق . ولقد كان لليهودية العالمية مأرب ضخم من وراء هذا التحول الذى بدأ بالثورة الفرنسية واجتاز طريقه على صراع القوميات وإعادة تشكيل الدول وإسقاط الامبراطورية البووانية التى كان لليهود يمثلون جزءا منها . ولا شك أن إسقاط النفوذ الموحد الذى كان تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية من أهم العوامل في تأكيد سيطرة اليهودية العالمية على الاقتصاد والسياسة والفكر بعد أن انكسر قيد العزلة اليهودية باعلان مبادئ الماسونية العالمية في أول ضربة قوية هي الثورة الفرنسية التى حملت المبادئ ( حرية ، إخاء ، مساواة ) والتى أنهت بها هزة اليهودى وانكسار القيد الذى كان مفروضا عليه في المجتمع ومن ثم انفسح المجال أمام اليهود للسيطرة على القيادات السياسية في فرنسا ثم في أوروبا جميعها بعد الثورات المشابهة والمعككة للثورة الفرنسية . وكان على اليهودية العالمية أن تخطم قوة ضخمة أخرى تقف في طريقها للوصول إلى القدس وبناء هيكل سليمان هي الدولة

العثمانية والخلافة الإسلامية ، ونقل مبدأ القوميات من أوروبا إلى الترك والعرب والفرس والأفغان والهنود جميعاً لاحتلاله مسكان رابطة الجامعة الإسلامية . ويقول هانس كسبن في كتابه « عصر القومية » . إن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام ألقت بأوروبا في أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أى حرب مضت منذ هددت الحرب الدينية فقد ظهرت الزعامات القومية لأول مرة في إيرلندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنرويج .

وأشار إلى أثر ظهور البروتستانتية ومطالبتها بتلاوة الكتاب للقدس مما أعلن على ترجمته إلى اللغات الوطنية ، فكانت هذه الترجمة نقطة البداية التي انطلقت منها اللغات والآداب القومية في طريق التطور والترفيع . ومعنى هذا أن البروتستانتية كانت مقدمة للقوميات التي قامت في أوروبا على أساس اللغات منفصلة عن الكنيسة وعن الفكر للسيحي العام . ومن الواضح أن الدعوة إلى القوميات ، على هذا النحو الخطير الذي اجتاحت أوروبا كان مقدمة لبروز القومية اليهودية التي لم يكن لها أى مقوم من مقومات القومية : وهما الوطن أو اللغة . ولقد غزت اليهودية العالمية الدعوة القومية في أوروبا حتى أصبحت هذه الدعوة كما يقول هانس كسبن : « أصبحت القومية هي القوة السياسية والثقافية الحاسمة بين جميع الشعوب والحضارات على وجه الأرض وأن القرن العشرين هو أول فترة في التاريخ اتخذ منها جميع الجلس البشرى خطة سياسية واحدة هي القومية » . غير أن هانس يعقب على ذلك بأمرين يقرر فيهما النتائج التي وصلت إليها الدعوة إلى القومية التي بدأت في أوروبا وانبتت في العالم كله : أولاً : إن انتشار القومية لم يمهّد السبيل لإيجاد مجتمع إنسانى يسوده التعاون والاتحاد . ثانياً : إن القومية على الرغم من كونها منصرفاً عالمياً وروحاً حراً هي عامل قوى من عوامل الانقسام بين الشعوب ما لم تمارحها روح حرة من التسامح والوفاق أو نزعة عالمية إنسانية ذات عقيدة سياسية ، وأن تأكيدها للسيادة القومية وللميزات الثقافية لا يساعد على تعزيز التعاون بين الشعوب . ويقول نقولاً زيادة : « إن عصر النهضة الأوروبية هي نقطة الابتداء في عودة القومية » . « تحررت أوروبا من سلطان الكنيسة القوي للسيطر على الفكر وتحررت من سيطرة اللغة اللاتينية التي كانت تستبد بسبيل التعبير عن الأفكار فتركت اللغة اللاتينية جانباً واستعملت اللغة المحلية » . وهو يرى أن فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة الجامعة واللغة اللاتينية قد زالت ليحل محلها الانتقال إلى الفكرة الجديدة : أصبحت الجماعة التي تسكن بلداً واحداً تشعر أنها تتكون من أفراد متشابهين فيما بينهم مختلفين عن غيرهم ، أى أنهم أمة . هذا هو للناس الذى نشأت فيه القوميات في أوروبا والعوامل التي



أثرت فيه قبل هو نفس للتناخ الذى نشأت فيه فكرة « العروبة » فى المشرق . وهل كان العرب فى حاجة إلى الانفصال عن الدين الجامع أو اللغة الجامعة - الواقع أن التحديات يختلف وأن أبرز التحديات فى قيام العروبة هو التجمع على أساس الأمة بعد أن سقط المعامل الجامع الأكبر على أساس الفكر وهو الدولة العثمانية بمعنى التجمع فى وجه النفوذ الأجنبي الزاحف . ولقد كان العرب قد تجمعوا تلقائياً ومن خلال ذاتيتهم ووفق مفاهيمهم وقيمهم على « العروبة » للربط بالاسلام : فكراً وأماً أما ما ألقى إليهم وطرح عليهم من نظرية وافدة باسم القوميات مستمدة من واقع العرب ومن تجربة قائمة فى مضامينها على تشكىل لا يطابق الفكر ولا العقلية ولا الذاتية ولا للزاج العربى الذى شكله الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ولم ينفك يؤثر فىه ويرتبط به ارتباطاً عضوياً ، أما هذا الذى ألقى إليهم فهو شيء مختلف .

(٣٤)

## من التبعية الغربية إلى الأصالة الإسلامية

( ١ )

### وحدة الفكر العربى الإسلامى

طرح على الفكر الإسلامى ووليدته الثقافة العربية فى الأربعينات وما بعدها نظرية القوميات الوافدة كما طرحت من قبل نظريات عديدة فى السياسة والاجتماع والقانون والأدب . وقد واجه الفكر الإسلامى هذه النظرية على النحو الذى واجه به مختلف النظريات الوافدة التى جاءت مع النفوذ الغربى ، حيث بدأت المواجهة بالنفحص والنظر ، فحسباً لا يخلو من الإيجاب بالبريق ، والتأثر بالمصدر ، ومحاولة تحليل الأصول ، وظل دهاء نظرية القوميات يعارحون من أفكارهم : المتشاكل والمتعارض . من عديد من المذاهب التى عرفها الغرب فى تحليل هذه القضية حيث توجد عشرات المفاهيم الألمانية والفرنسية والإيطالية مما جرى البحث عنها بأقلام العديد من فلاسفة الأجتناس والقوميات والعناصر والدماء والأهراق ، منذ هبت هذه الموجة المعاصرة فى أوروبا بعد الثورة الفرنسية واشتد تحت تأثير تحديات مختلفة وتوجيه قوى متعددة ، تحاول أن تشكل المجتمع الغربى تشكيلاً جديداً من جميع نواحيه السياسية والعسكرية .

وقد كان طبيعياً أن تفضل نظرية القوميات الغربية الوافدة مطروحة في العالم الإسلامي الذي كان قد واجه بعد الزحف الاستعماري وسقوط الدولة العثمانية والخلافة موقفاً بالفسا في الدقة والخطر ، أفرز اتجاهين أساسيين لتغطية الفراغ وإعادة تشكيل القوى المتجمعة : أما أحد هذه المواقف فهو التجمع الوطني المرتبط بالأرض ثم بالأمة كعامل من أبرز عوامل المواجهة ، وقد بدأ هذا في ظهور العروبة كعامل تجميع للبلاد العربية بعد أن انتهى تجميعها بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .

وقد كان هذا الاتجاه طبيعياً وتلقائياً وفق القاعدة التي دار فيها التاريخ الإسلامي العربي منذ ظهور الإسلام إلى اليوم بين حلقات ووحدات متداخلة هي وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر . فهو يتجه من الأولى إلى الأخيرة ويكر من الأخيرة إلى الأولى على مراحل ووفق التعديلات التي تواجهه والأخطار التي يتعرض لها أو مصادر القوة التي تدفعه إلى الأكمال .

ولكنه لا يخرج عن هذه الحلقات الثلاثة ولا يتوقف عند مرحلة منها باعتبارها الغاية أو النهاية إلا إذا بلغ الوحدة الكبرى : والوحدة في مفهوم الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي هي وحدة فكر وقيم وهقائد بالدرجة الأولى ، وليست وحدة أرض أو جنس قائمة بذاتها أو وحدة لغة أو تاريخ منفصلة عن وحدة الفكر نفسه . ذلك أن الفكر الإسلامي كان منذ نشأته متكاملاً وشمولياً وقائماً على اجتماع العناصر المختلفة لا على تفرقها ، وعلى أساس ارتباط العقل والقلب والروح والمادة أساساً . ومن هنا فإن العروبة بوصفها حلقة من وحدات ثلاث متداخلة كانت في ظهورها استجابة طبيعية وتشكلاً تلقائياً للمقاومة ضد الاستعمار كأسلوب لإقامة «تجمع» في دائرة الأمة بعد أن سقط التجمع الأكبر الذي كان قائماً بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .

هذه العروبة — وليست القومية — لم تكن استجابة لمبدأ القوميات الغربية الوافدة ، وإنما كانت تطوراً طبيعياً لحركة اليقظة العربية الإسلامية في مرحلة من أدق مراحلها اضطرت فيها نجياد ظروف الغزو الاستعماري إلى التحرك مرتين : الأولى إلى دائرة الوطن وهي مرحلة استمرت خلال فترة الحربين العالميتين ، ثم انتقلت إلى دائرة الأمة بمجرد أن اتضحت حركة الاستقلال الذاتي وأسرع بها إلى هذه الحلقة الوسطى ، تهدي الاحتلال اليهودي لفلسطين العربية الإسلامية ، مما سارع بالتحرك الوطني الإقليمي الذي فرضه الاستعمار إلى تشكيل جماهي في دائرة العروبة . غهد أن النفوذ الاستعماري لم يدع حركة اليقظة العربية الإسلامية تجري في طريقها الطبيعي أو تنطلق إلى غايتها دون أن يضع لها القيود والمراقيل ويفرض عليها البلية والاضطراب وذلك يطرح هشرات

من نظريات القوميات والاقليميات الغربية التي اهتمتها عدد من رجالة الذين تملأوا في الغرب أو تخرجوا من معاهد الإرساليات التبشيرية فأصبح كل منهم علم على نظرية سواء أكانت إقليمية الوطن أو إقليمية القومية ، أو قومية اللغة ، أو قومية الأرض أو قومية الرسالة الخالدة . وكانت هذه النظريات للطروحة إنما تريد أن تفسد التحرك الطبيعي لحركة البقعة من دائرة الوطنية الإقليمية التي ركز عليها الاستعمار طويلا بنظريات الفرونية والفيليقية والبربرية والآشورية ، وغيرها ثم سقطت هذه النظريات بعد قليل في ضوء كاشف هو أن العروبة الحقيقية كانت منذ وقت بعيد تندافع موجاتها من الجزيرة العربية إلى العراق والشام ومصر والمغرب لتتشكل في أسماء مختلفة يجمعها في النهاية جامع واحد منذ ترابطت هذه المنطقة المريقة تحت اسم واحد ، وروح واحدة ، كان للاديان السايوية المنزلة بها أبعاد الأثر في صياغتها وتوحيدها . لقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلا لكلمة العروبة ، حملا على خلق الصراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكمل وجودها أو تحقق ارتباطها الطبيعي . ولقد كانت هذه المناهج الغربية الوافدة إنما تحاول أساساً أن تجهض هذه الحلقة الوسطى وهذا التشكيل العربي الحقيقي ( الجامع للفكر والعقيدة والعرق والأرض واللغة ) أو تقضي عليها . فقد رأى الاستعمار أن الدهوة إلى العروبة قد بدأت تشكل بأصالة في مكانها الطبيعي من حركة البقعة ، فلم يلبث أن طرح هذه المذاهب في هذه المرحلة كما طرحها في المرحلة السابقة وفشلت ونهطت ، وأدخل إليها مفاهيم غريبة عنها حاول بها إبعادها عن دائرة الفكر العربي الإسلامي الجامع عقلياً وروحياً من ناحية ، وعن العالم الإسلامي الذي يتكامل مع الأمة العربية جغرافياً واقتصادياً وفكرياً أيضاً ويستحيل أن يفصل عنها . ولم يكن للعروبة إزاء ذلك لتحقق وجودها إلا أن تلتصقه من داخل مفاهيمها هذه المرتبطة بالقيم التي أعطتها إيها ذلك الفكر الجامع الموحد . نعم ، لم يدع لنا النفوذ الغربي قدرة على النظر والاختيار ، ومراجعة هذه الدهوات بل نفذ بها إلينا من طرق فرضها فرضاً على مناهج التعلم وعلى أساليب الثقافة ، وعلى كتابات الصحافة ، وذلك عن طريق تلك الأجيال التي ربّاهما أساساً في معاهد الإرساليات ولقنها هذه النظريات ثم أتاح فرصة القيادة الفكرية في دائرة التفريب الزاهية ، وهذا يبدو واضحاً في طرح مفاهيم القومية الغربية في الدولة العمالية أولاً تحت اسم الطورانية ثم في البلاد العربية من بعد أن تشكلت حلقة العروبة طبيعياً وتلقائياً ، مستمدة وجودها من للقيم الأساسية الجامعة للفكر الإسلامي غير منفصلة عنه .

وربما تكون نظريات القوميات الغربية الوافدة التي فرضت نفسها قد أضرّت بعض الذين

لا يتعمقون الفكر الاسلامي الاصيل ولا يعرفون قيمة أبعاده ، غير أن السنوات الطويلة التي انقضت في المراجعة والمواجهة ، كشفت عن حقيقة واقعة : هي أن هذه النظريات متعارضة مع طبيعة النفس العربية والعقل العربي ، وأنها بادية الزيف ، وبادية الاختلاف مع المزاج النفسى ومع الذاتية الأصيلة ومع العقائد المؤصلة التي تشكلت عليها هذه الأمة منذ أربعة عشر قرناً ، ولقد كان هذا شأن الفكر الاسلامي دائماً في مواجهة النظريات الوافدة ، يصارعها على مهل ، ويأخذ منها ما يتفق مع كيانه الاصيل ثم يدفعها برفق لتندحرج بعيداً . لقد كشفت الحقيقة الواقعة أن هذه النظريات الوافدة لا تتفق مع طبائع الأمة وأصولها وإن الزيف لا يستطعم أن يحمل على الأصالة ، مهما بدأ له من بريق ساطع ، أو أصوات تملو وتردد ، وتعمد ، لقد كشف جوهر الفكر الإسلامى العربى عن أن هذه النظريات الوافدة تنعارض معارضة أصيلة مع الذاتية العربية الإسلامية والمزاج النفسى للامم التي شكلها الفكر الإسلامى ، وإن هذه الأمم لابد أن تعود لجوهرها الاصيل بالرغم من كل القيود والقوى التي تحاول أن تقمعها في أوضاع محددة . ويبدو ذلك واضحاً في كل البلاد الإسلامية التي اعتنقت نظرية القوميات الغربية الوافدة ، ويبدو جلياً واضحاً في المنطقة العربية ، والتي تمد منطلق اليقظة العربية الإسلامية في العصر الحديث إنطلاقاً إلى نهضة شاملة والتي كانت نظريات الإقليميات والقوميات الإقليمية الوافدة عاملاً على تعويقها وتحطيم طريقها ومن هنا فقد آن للفكر العربى الإسلامى أن يكشف عن جوهره ويصدر عن نظرة أصيلة تقوم على « وحدة الفكر » أساساً للعروبة ، إيماناً بذلك الترابط العضوى بين العروبة والإسلام الذى شكلته هلاقة امتدت خمسة عشر قرناً وقام على أصول نفسية واجتماعية تشمل الذاتية والمزاج والروح العربى الإسلامى التي يختلف اختلافاً جذرياً عن القاتبية والمزاج والروح الأوروبى الغربى .

قوام هذه النظرة : أن وحدة الفكر والقيم هي أساس العروبة الحثيفية ذات الجذور العميقة التي تشكلت في هذه المنطقة منذ تأملت لرسالات السماء والتي مضت تصحح نفسها مرحلية وفق ذلك التكميل الاصيل بين الروح والمادة والقلب والعقل والدين والدنيا فجاء مفهومها الفكرى ، قائماً على أن أساس أن الفكر الإسلامى هو فكر جامع للمجتمع والأخلاق والعقائد ، وبمحبته فكر العروبة الحقيقية الجامع بين الأديان السالوية جميعاً التي هي من مصدر واحد فهي عروبة ذات أرضية من الفكر الاسلامى والاسلام من غير المسلمين فكر ، والمسلمين دين وفكر ، وهي عروبة مفتوحة ثقافياً على التاريخ والتراث والقديم ، ومفتوحة جغرافياً على العالم الاسلامى والأمم الاسلامية . وهذه العروبة

حلقة من وحدات ثلاث متداخلة متكاملة هي وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر كل منها تسلم إلى الأخرى بترتيبها الطبيعي . وإذا كان مفهوم التكامل على مستوى الأمة في هذه النظريات يقوم على أسس متعددة تعدد النظريات وتعدد الأمم التي ظهرت فيها هذه النظريات انطلاقاً من الفكر الغربي الأوربي المنجزاً القائم على الانفصال بين القيم ، فإن الأمر يختلف تماماً في الفكر العربي الاسلامي . فحيث تكونت وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة المفاهيم الاجتماعية أو وحدة العادات أو وحدة التقاليد ، كل منها وحدة قائمه بذاتها ؛ نجد أن هذه العناصر المختلفة يجمعها في الفكر الاسلامي ما يسمى « وحدة الفكر والقيم » ولذلك فنحن لا نأخذ النظرية الغربية التي تركز على اللغة وحدها كما شاع أخيراً ودفاع ، ذلك لأن اللغة في مفهوم الفكر الاسلامي هي أداة الفكر فليست هي بنفسها التي تصنع الأمم إنما يصنعه ذلك الفكر الذي تحمله اللغة . هذا فضلاً عن أن مفهوم اللغة يختلف لدينا عن مفهومه في الغرب ، حيث يقولون إن الأمة تسقط إذ سقطت اللغة ، ولكن التاريخ الاسلامي العربي المعاصر يشهد بأن أمة بالذات هي الجزائر لم تسقط بعد أن سقطت اللغة ، لأنها استندت أساساً على الفكر فجماها ، فلم تكن اللغة العربية هي التي حفظت لجزائر كيائها الضائع في وجه النفوذ الاستعماري وإنما كان الفكر الاسلامي أساساً الذي كان سندها وعمادها ومصدر قوتها ومنطلق انبعاثها

## ( ٢ )

### وحدة الفكر لا وحدة اللغة

فمن وجهة النظر العربية الاسلامية . تقوم وحدة الفكر والقيم أساساً لوحدة الأمة ، وليست اللغة وحدها هي التي تمثل جزءاً من هذا السكل المتكامل الجامع ولكنها أحد عناصر الفكر : إن اللغة هي وعاء الفكر لا الفكر نفسه فكل عناصر الفكر إنما تتشكل في اللغة ، ولذلك فإن الفكر هو الذي يصنع اللغة وليست اللغة هي التي تصنع الفكر . ولقد كانت اللغة العربية قبل الاسلام على ما بها من قدرة استيعاب لا تحمل إلا مشاعر قبليه فلما جاء الاسلام ونزل بها القرآن خلقها خلقاً جديداً حتى يبدو الفارق بعيداً جداً بين مضامينها وما ألقى إليها من قيم ومفاهيم . ومن هنا جاءت استحالة ترجمة القرآن لأن الحصيلة التي أعطاهها القرآن للغة جعلتها لغة قرآنية خالصة . ومن هنا أصبحت لغة فكر ولغة أمة ، وأصبح من المستحيل الفصل بين وجهيها وكان القرآن هو التفسير في بقائها وامتدادها وحياتها إلى هذا الوقت على النحو الذي نستطيع به أن نفهم ما ألقى إليها منذ خمسة عشر قرناً . فالفكر أساساً هو الذي

صنع اللغة العربية ، والفكر هو قوامها ومضمونها . هذا المعنى لا يرد على خاطر القاصين إلى أن الأمة العربية تجمعها اللغة ، إنما يرد بدلا منه القول بأن اللغة أداة تعبير . إن الفكر الاسلامى العربى وليس اللغة هو الذى صاغ فكر العرب ووجه أذواقهم وغرس نماذج القيم الكبرى فى نفوسهم . فالفكر الاسلامى وليست اللغة هو الذى صنعت وتصنع وحدة النظرة إلى الحياة والآثار المكتوبة ومضامينها من شعر وقصص وأمثال وحكم وهى التى تمثل وحدة الاستجابة وليست اللغة .

والتشابه العقلى وللزاجى والتكوين النفسى ليس إلا نتيجة الفكر لا اللغة ، وإذا قيل إن اللغة هى أداة وحدة الأمة ، فإن اللغة العربيه لم تكن كذلك بدون القرآن الذى حفظ اللغة من التفتك إلى عاميات وكذلك حفظها من الانقراض . وهو الذى حد من تطور اللهجات الإقليمية العامة وبذلك حفظ الإسلام عاملا هاما من عوامل العروبة . والقرآن وهو مصدر الفكر العربى الإسلامى — هو الذى حال دون تطور اللهجات العربيه إلى لغات مستقلة قائمه بنفسها ، ذلك إن وحدة الأمة الروحية والفكرية وللعنوية القائمة على القرآن بقيت سليمة بعد أن تجزأت سياسياً . وليست اللغة ولكنه الفكر العربى الإسلامى الذى حقق وحدة العرب ( مسلمين وغير مسلمين ) فجعلهم متشابهين فى نظرهم إلى قيمة الشخصية الإنسانية وإلى العمل الإنسانى وإلى الوقت وإلى المرأة وإلى فهمهم للشرف والشهامة وقصة العرض والوفاء والسكرم والضيفان وحماية الجار . وبالرغم من تأكيد بعض دعاة نظرية القومية الواحدة على اللغة كأساس لوحدة الأمة فإن أحدهم يقول : إن القرابة بين الأمم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسدية ومادية ، وإن أقرب العوامل التى تؤدى إلى تكوين القرابة للعنوية هى اللغة والتاريخ ، فإن الاهتمام بوحدة الأصل إنما تكون فى الدرجة الأولى من الوحدة فى اللغة والاشتراك فى التاريخ .

ولو كان هذا الباحث منصفاً لوصل إلى أن الجوهر فى القرابة للعنوية والنفسانية بين الأمم هو وحدة الفكر الكبرى ، الذى يدخل إليها عناصر لا تحصى ولكن الالتئام للنظرية القربية وحدها والدوران فى فلكها قد حال دون اكتشاف العوامل العديدة التى تشكل للعروبة والتى تضمها جميعاً وحدة الفكر . وإذا كانت اللغة كما يقول ساطع الحمصرى هى واسطة التقام وهى آلة التفكير لأن التفكير ما هو إلا نكلم باطنى والتكلم إنما هو نوع من التفكير الجهرى . فمالنا لترك الأصل ولتمسك بالفرع . نترك الفكر نفسه وهو الأصل الذى جاءت اللغة واسطة له وآلة ، وتمسك بالآلة الواسطة ، وتركز عليها . ولكن أمر ذلك معروف فإن ساطع الحمصرى ، ربيب الطورانية والأتحاديين ، والحافل

للمساوية ، والفكر العربي لا يستطيع أن يفتح باباً خطيراً ، هو باب الفكر العربي الإسلامي لأن ذلك من شأنه أن يحطم كل ما يذهب إليه من خلاف وما يدعيه من تعارض بين العروبة والإسلام . وليس صحيحاً ما يقوله ساطع الحصري من أن الأمم تتميز بلغاتها في الدرجة الأولى ، وإنما الحقيقة إن الأمم تتميز بفكرها ، هذا الفكر الذي تصنعه مقومات مختلفة ، كما أنه ليس صحيحاً ما رده من أنه إذا ضاعت لغة أمة فقد فقدت الحياة ، ذلك أن فكر الأمة هو في الحقيقة مصدر ضياعها أو بقائها . ولقد ضاعت اللغة العربية في الجزائر ولكن الفكر الإسلامي استطاع أن يبتعثها من جديد واستطاعت من طريق فكرها أن تسترد وجودها ولغتها . ولماذا يتحدثون عن اللغة وعن التاريخ كأنهما قيمتان مستقلتان والفكر بجمعهما . وما هي اللغة العربية بغير الإسلام والقرآن إلا سجع الكهان ، وما هو تاريخ العرب إن كان لهم تاريخ إلا تاريخهم الإسلامي ، إن الاستعمار لا يحارب اللغة وحدها ولا التاريخ وحده ولكن يمحى الفكر كله . ويركزون على التشابه العقلي ولزاج والتكوين النفسي ووحدة النظرة في شؤون الحياة ووحدة الاستجابة للمؤثرات الخارجية ، ويردونهما جميعاً لغة ، فكل من الحق ، إنما ترتبط باللغة أم أنها ترتبط بالفكر أساساً . وإن النظرة العربية إلى مختلف القيم الأساسية في الحياة والمجتمع إنما سردها إلى تلك الأصول والقيم التي شادها الفكر الإسلامي العربي ، والتي ترتبط بنزول الأديان السماوية في هذه المنطقة وفي نفسية العرب وخصائصهم التي كونت عقليتهم . إن وحدة الفكر الإسلامي العربي في الحقيقة قد صنعتها الأديان والثقافات التي هرفت هذه للمنطقة والتي تشكلت في وحدة واحدة ، وهي التي صاغت وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة التقاليد ووحدة العادات ووحدة النظم الاجتماعية .

ومن هنا فإن مفهوم نظرية القوميات الواحدة ، هذا المفهوم المغلق المحدود باللغة والتاريخ منفصلين عن الفكر الإسلامي وما شطر منه ، لا يستطيع أن تجاوب مع النفس العربية الأصيلة ، فهي محدودة وناقصة من ناحية لأنها لا تستوهد الفكر الإسلامي في شموله وتكامله ، وهي مغلقة لأنها تريد أن تنفصل عن ذلك الأثر الضخم الحى المتفاعل الذي تركه الإسلام في الأمة العربية وما تزال مرتبطة به في مختلف نواحي التاريخ والثقافة والتراث والسياسة والحضارة . وهي في نفس الوقت نظرية حائفة لأنها تعارض وتخاصم امتدادات الأمة العربية المرتبطة بوحدة الفكر الإسلامي إلى الفرس والترك والمزود مبعثرة أوجه الخلاف مؤججه نار الخوصومة على نحو ( يوم بعث ) . ثم هي بعد ذلك دخيلة مستوردة وافدة تحاول أن تمحايل بأجزاء ومزق من عشرات النظريات في القوميات تجميع وتشكل ثم لا يستطيع أن تواجه وهج الحقيقة ولا ضوء الفكر العربي الإسلامي الساطع .

إن العرب من حيث تربطهم وحدة فكر منفتحون على البربر والفرس والتürk والزواج والاكراد وعلى الفيليبية والفرهونيه والآشورية ، بحكم أنها موجات أو سلفات في هذه الرابطة العربية الخنيفية . إن الفكر الاسلامي لا الاجناس والعرق والدماء هي أساس وحدة العروبة فإن الفكر الاسلامي المستمد من القرآن لم يصنعه جنس معين ، وليس هو للعرب وحدهم ، ولم يكن من صنائه عروق وانما هو وليد مناخ اسلامي أصيل ، وفكر مستوعب للعقول والقلوب جميعا ، فلا عبرة بما يقال بتقديم جنس على جنس في العالم أو الحضارة الاسلاميه العربيه ، ذلك أن القرآن أساسا هو صانع العقل العربي الاسلامي والفكر كله . إذن فالفكر لا الأمة ولا اللغة ولا الأرض - ارتقاء فوق نظرية العنصرية العرقية - هو أساس الوحدة ، وفي بوتقته صيغت اللغة والتاريخ وتشكلت النفسية والعقلية ، وللشبيبة ، وتكلمات وحدة الماضي والحاضر . وخطأ التعارض بين اللغة والفكر وما يسمى « بالدين » والدين كلمة لم تفهم في الفكر الاسلامي فهما صحيحا فهي مازال تحمل مفهومها الفكر العربي المسيحي اللاهوتي الذي لا يمثل الإسلام الذي جاء جامعا للدين والاجتماع والحضارة - فالإسلام هو الصورة النهائية لأديان السماء التي نزلت إلى هذه المنطقة منذ جاء إبراهيم بالخنيفية السمحاء فهو قد تشكل في صورته المتعددة حتى استوفى صورته السكاملة في الإسلام بفعل حامل التنكسين النفسي المشترك ووحدة التاريخ بين العرب والمسلمين ، وبين المسلمين والعرب غير المسلمين فنحن إذن أمام وحدة الفكر الجامعة : التي تضم كل عناصر الوحدة المفرقة التي تحاول النظريات الغربية الوافدة أن تقدمها منفصلة .

إنها جماع العقلية ، واللغة ، والتاريخ ، والتراث ، والمشاهير والعواطف والتقاليد والقيم والتحديات . والفكر هو كل هذه القيم جميعا مجتمعة مترابطة . ولقد صيغ مفهوم العربية والعروبة مرتبطا بالإسلام منذ أول الإسلام على نحو واضح صريح . فالعربي ليس من يتكلم عربيا بل من يفكر عربيا ، وإنما العربية اللسان فن تكلم بالعربية فهو عربي ومن هنا كانت الدعوة إلى تعريب المسلمين أي أن يصبح كل مسلم عربي الفكر باللغة والقرآن ، والفكر الاسلامي كان دائما مصدور الوحدة وليس العنصر أو الجففس . واختفاء اللغة لا يحول دون بقاء الأمة ، وصالح الدين الكردي والظاهر بيبرس المملوكي وهيد الكريم الخطابي البربري كلهم من داخل نطاق وحدة الفكر الاسلامي الجامعة ، للكردي والفرس والبربر والمسلمين والمسيحيين واليهود ، وللسنة والشيمة ولكل الفرق والاجناس والأديان التي تحتويها منطقة ( العروبة الخنيفية ) ليست هناك ثقافة للمسلمين وحدهم ، وليس هناك فكر للمسلمين وحدهم ولكنها ثقافة جامعة وفكر جامع .



ولقد وجدت نظرية اللغة ردوداً ومعارضات تاريخية وعلمية أسقطتها ولم تجد أمامها دفاعاً ، فإذا قالوا إن اللغة أس الأساس لوحدة الأمة فقد كانت اللغة مشتركة بين بريطانيا وأمريكا وأيرلندا وفي سويسرا ، ثلاث لغات وفي بلجيكا لغتان وكانت هناك قوميات لها أكثر من لغة ، فالانحداد في اللغة لا يقضى حتماً نشوء وحدة أو نشوء قومية ، وسقوط اللغة لا يقضى على الأمة ، فالفكر وليس اللغة أساس الوحدة . ولذلك فإن الانتماء يحاول أن يحطم وحدة الفكر الإسلامي بإدخال فكره ومترجماته . لقد ركز ساطع الحمري على اللغة استمداداً من ماكس نوردو اليهودي الذي خلف هرتزل في قيادة الحركة الصهيونية والذي دعاها بالعالم الفيلسوف ، والمعروف أن هرتزل إنما كان يستهدف هو وقومه بالدهوة إلى القوميات إذاعة القومية اليهودية ولذلك فقد صنعوا النظرية في مواجهة أمرين : معارضة العروبة وتمزيقها وإقامة ميهودية وبناءها . ولم يكن لليهود لغة قائمة في ذلك الوقت ولكن دعاة القوميات جميعاً أكدوا أن اليهودية دين وقومية ولو لم يكن لها لغة أو أرض أو وطن . فلا عبرة بما قاله ماكس نوردو ، ولا هيردر ولا رينان فقد كان هؤلاء يصيدون من مشاكل أهمهم الخاصة ويضعون النظريات في ضوء تحديات مجتمعاتهم وعصرهم ونكون نحن أبعد الناس من الحق حين ننقل من أمم صاغت أفكارها في ضوء ظروفها وأوضاعها وفي مواجهة تحدياتها ولنا من ظروفنا وأوضاعنا ومفاهيم أفكارنا ما يأذن لنا بأن نحدد مكان العروبة ، في بناء الفكر العربي الإسلامي وفي مجال اليقظة العربية الإسلامية .

( ٢ )

## ما هو الفكر العربي الإسلامي

من حقنا وقد نقرر أن وحدة الفكر هي أس الأساس في العروبة التي هي حلقة وسطى من حلقات ثلاث : تتحرك بينها الأمم في ظل التاريخ العربي الإسلامي قوة وضعفاً ، وتتجمع في أحدها في مواجهة الأحداث والغزو ، ومن حقنا أن نتساءل : ما هو الفكر العربي الإسلامي الجامع وما علاقته بالأديان والثقافات . إن الإسلام بطبيعته دين ومنهج حياة ، وقد أقام منذ اليوم الأول لظهوره حضارة استوعبت ثقافات الأمم التي دخلت في نطاقه ، وفلسفتها بعد أن استعصت جوهرها وأذابتها في بوتقته وشكلها من جديد في إطار التوحيد الذي هو القيمة الأساسية العليا للأديان السماوية التي نزلت في هذه المنطقة .

ولقد كانت هذه المنطقة العربية الحنيفية بؤرة رسالات السماء منذ أنزلت وكان أهلها دعائها وحملتها ، وكان الإسلام خاتماً وخلاصتها للمصفاة . ولقد أقر الإسلام تلك العقيدة الواضحة ، القائلة : « لا إكراه في الدين » ومن ثم فقد ترك جانب العقيدة أو اللاهوت في الإسلام المسلمين وحدهم كما ترك العقائد في الأديان المختلفة في صورتها الواقعة ، ونشأت هناك حصارة عقلية واجتماعية استحصفت كل ما حصله العقل البشري والفكر الإنساني من علوم وثقافات وأفكار وفلسفات وكان قوامها ما عرف بالفكر الإسلامي العربي الذي لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم ولكنه أصبح فكر هذا العالم الحنيفي الذي نزلت فيه الأديان وانفتحت آفاقه على الفرس والترك والهنود وغيرهم . ومن هنا فقد أصبح الإسلام بحكم طبيعته ومن واقعه الفكري والثقافي ديناً ومنهج حياة ، فهو لا يحاكم مطلقاً على نحو ما يحاكم الأديان اللاهوتية التبعيدية التي اقتصرت على توثيق العلاقة بين الله والإنسان . وهذه هي نقطة الخطأ للمتعمد أحياناً في محاولة محاكاة الإسلام والفكر الإسلامي إلى مواقف مشابهة لفكر الغربي من المسيحية أو غيرها من الأديان . ومن هذه النقطة الدقيقة نجيء جميع الخلافات الخاصة بالقوميات الإقنايميات والخاصة بالديمقراطية والاشتراكية ، والخاصة بالأدب والقانون والسياسة والاجتماع . فالإسلام دين ، ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع وحصارة وفكر مستوهد كامل لأبعاد الحياة المختلفة . وهو دين للمسلم ولكنه أيضاً فكر وثقافة وحصارة وهرف وتقاليد وقيم أنير للمسلمين ، الذين انصهرت ثقافتهم وفلسفاتهم في الفكر الإسلامي منذ وقت طويل وتشكلت حياتهم الاجتماعية على هذا النحو فلم يكن لهم فكر مستقل منذ بزوغ الإسلام ولا تاريخ مستقل بل مشاركة كاملة أخذاً وعطاء في اللغة والقانون والاجتماع والتربية :

ولقد كان المسلمون والمسيحيون وكل الطوائف والعناصر ، دينية وهرقية قد صاغت نظرية كيانها الاجتماعي والعقلي والروحي في شكل واحد وصورة واحدة ، لا تختلف إلا في أمر واحد هو أن يذهب للمسلم إلى المسجد والمسيحي إلى الكنيسة ، وكل أمر بعد ذلك تواجهه نفوس قريبة التناقي والاحساس والمشاعر ، بحيث يمكن أن يقال هناك مزاج نفسي واحد عربي إسلامي ، شكلته الأديان منذ إبراهيم ، ووضع في صيغته النهائية منذ جاء الإسلام الذي لم يفرق بين مسلم وغير مسلم ، ولا بين عربي وعجمي ، في تنظيم واسع مفتوح صرن ( ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء ) : لقد انصبت كل القيم الفكرية والثقافة والاجتماعية الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والابريقية في بوتقة الفكر الواحد الذي صاغ منها وتشكلت منه كاملاً . والمسيحيون في هذه الجماعة مشاركون في هذا الفكر واللغة والتراث ، وتتكون ثقافتهم من تعاليم دينهم المسيحي مع ثقافة الإسلام الجامعة ،

هذه القيم الفكرية التي هي قيم كل مسلم ومسيحي ويهودى فضلا عن تشابه القيم الروحية بين أهل الأديان في أنها جميعا رسالة السماء ومصدرها واحد هو الحق تبارك وتعالى وهدفها هو الحق والخير والعدل . « ومن هذه القيم والمعاني التي تبلورت في بوتقة الفكر العربى الاسلامى تبدو ( وحدة الفكر ) مقدمة على وحدة الجنس ، وهي تصوغ ( روح الأمة ) ولقد أفصح كثير من الكتّاب المتصنين عن هذا المعنى .

ومن هنا يبدو الخطر البالغ الذى تثيره نظرية القوميات الغربية الوافدة في الفضل والتجزئة بين المفاهيم ، فإنه وحدة فكرنا تتمثل في امتزاج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كلها متكاملة وليست منفصلة وليس فكرنا العربى الاسلامى روحيا خالصا وليس ماديا خالصا ، فهو فطرة متكاملة إنسانية شاملة تمتزج فيها ، العروبة والاسلام ولا ينفصلان . ومن هنا يبدو الخلاف الواضح بين النظرة الغربية الاسلامية إلى « القوميات » ، وخاصة في القول الذى يركزون عليه : « إن الدين ليس من مقومات وحدة الأمة » . ويصدق هذا القول إذا أريد بالدين ، أى دين لاهوتى تعبدى ، أما الاسلام فإن الموقف بالنسبة له يختلف ، لأنه يجمع بين هذا الجانب الذى لا يرتبط به إلا أهله ولا يفرض على غيرهم وبين شقه الآخر المتكامل معه ، وهو أنه نظام مجتمع ومنهج حياة وحضارة وفكر إنسانى جامع لفكر الأمم والأديان والأهراق والعلاقات التي شاركت فيه ، هذه الثروة التي صبت جميعها في بوتقة الاسلام فصاها في إطار التوحيد . وقد كشف كثير من الكتّاب المسيحيين هذه الحقيقة وأفاضوا في التعبير عنها وما قالوه : إن الاسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجدى مفصح عن شعورهم السكونى ونظرتهم إلى الحياة ، سوف يعرف المسيحيون العرب أن الاسلام لم ثقافة قومية يجب أن يشبعوا بها حتى يفهموها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على أمن شيء في عروبتهم . هذه هي وحدة الفكر العربى الاسلامى التي ربطت العربى غير المسلم بالمسلم العربى في قيم أساسية ومقومات أصيلة ، فالفكر الاسلامى يشمل العروبة والاسلام جميعا ، وإن نصرانية الذين لا تحول دون إسلامية الفكر ، وإن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تقف في الوجه المضاد وإن التجربة الغربية للدين والقومية قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق فإن مفاهيم فكرنا العربى الإسلامى تختلف في جذورها عن مفاهيم الفكر الغربى أساسا . وإن وحدة الفكر العربى الإسلامى هو ذلك الانفعال الوجدانى والعقلى إزاء الأحداث والأخطار والتصرفات اليومية .

(٤)

## خاصية الفكر العربي الإسلامي

إن أبرز خاصية للفكر العربي الإسلامي تلك التي تفصله عن الفكر الشرقى الروحى نتائج فلسفات (زرادشت وبوزا وكنفوشيوس) وعن الفكر الغربى المادى نتائج فلسفات (دارون وماركس وفرويد) يبدو بينهما الفكر الإسلامى جامعاً للروح والمادة، والعقل والقلب، فى شكل ممتزج متكامل : والفكر الإسلامى وحدة كاملة عناصرها : الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون واللغة والتاريخ هذه الوحدة لا سبيل إلى فصمها ، بإعلاء عنصر منها على مختلف العناصر أو إقراره بالحركة والواقع أنه لا يوجد قطاع من الفكر الإسلامى يمكن فهمه أو التعامل معه لو أخذ بمفرده ، وهزل هن القطاعات الأخرى . ولذلك فإن أخطر محاولات التفريب كانت تنصب على تمزيق وحدة الفكر الإسلامى إلى مقومات مستقلة وإعلاء بعضها . ومزية الفكر العربى الإسلامى هو شموله واتساع آفاقه ورعايته فى تقبل الجديد دون الخروج عن جذوره وأصوله ، والتسكيف مع واقع الينثات وأوضاع المجتمعات . وأبرز هوامل التكامل فى الفكر الإسلامى ارتباطه بالتراث والجذور والماضى والتاريخ فهو لم ينفصل عن الماضى ، بل استمر متصلاً ، ولم يتحول ، إلى تراث متعفى ثم أهيد إحيائه بل ظل متفاعلاً حياً خلال هذه القرون المنصلة وكانت حلقات التاريخ العربى الإسلامى مؤجات متوالية تسلم إحداها إلى الأخرى وهو فكر قادر وفق قانون الأساسى أن يتجدد من الداخل وتلتبس منابعه الأساسية فى كل أزمة تلم به ، فيعيد تشكيل نفسه من جديد ومن أبرز مميزات أنه أقام «وحدة فكر» اجتمعت عليها الأجناس والأمم والثقافات ثم انصهرت فيها . واللغة والأدب والتاريخ كلها قطاعات من هذا الفكر للتكامل ، ولا نستطيع هذه العناصر أن تتحرك إلا من داخل الإطار الموحد .

وقد فرق الفكر العربى الإسلامى بين المعرفة والعقيدة فالأولى عامة للبشرية، والثانية خاصة بكل أمة، كما فرق بين العلم والفلسفة ، فالعلم عام للأمم وهو نعمة التجربة ، والفلسفة نظرية عقلية خاصة بأمة أو عصر .

ويجمع الفكر العربى الإسلامى بين الفردية والجماعية فى تعامل صادق ، كما يجمع بين الثبات والتطور فالقيم الأساسية فيه ثابتة الجذور ، متطورة الفروع ، ثابتة الاطار متحركة الأجزاء ، ولقد رسم الفكر العربى الإسلامى إطاراً صرناً واسماً وترك حرية الحركة تجري من داخله .

وفي الفكر العربي الإسلامي لا ينفصل الدين عن المجتمع ، ولا الجديد عن القديم فالجديد صورة  
أخيرة لتطور القديم والقديم خلاصة خبرة السابقيين ، وأبرز مظاهر الفكر العربي الإسلامي الأخلاق ،  
ذلك القاسم المشترك على جميع عناصر السياسة والاجتماع والتربية والقانون . وكان الإيمان العميق بالله  
أساس الفكر العربي الإسلامي هو العامل الأكبر الذي جنبه الانقسام إلى جانب ديني وجانب  
هكلي . وقد رجح الفكر العربي الإسلامي وحدة الفكر أساسا على عصبية الجنس أو العنصرية .  
وقد كانت عقيدة التوحيد هي التي ألهمت العرب والمسلمين فكره الحسية الشخصية والدينية ،  
حررت قلوبهم من الوثنيات الموروثة وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لسكان  
من كان إلا الواحد الأحد . فالفكر العربي الإسلامي كيان هضوى متكامل ، وكائن حي ذو وحدة  
متعددة الجوانب تلتقي الانسجام والتوازن والتعاون ، وفي داخله تتربط القيم الدينية والاجتماعية  
والسياسية والمقومات كاللغة والتاريخ والتراث .

\* \* \*

( ٥ )

## الفكر الإسلامي والثقافة العربية

إن الفكر الإسلامي هو الأصل الذي منه خرجت الثقافات: العربية والفارسية والتركية والهندية  
وغيرها : والثقافة منذ نشأت ارتبطت باللغة والأمة ، فالثقافة العربية وليدة الفكر الإسلامي ومنبثقة  
من مقومات واسعة غير منفصلة عنه إلا بحسبانها ثقافة أمة ، قوامها اللغة العربية . ويضم الفكر بحسبانها  
فكر العالم الإسلامي ، كما تضم الثقافة على أساس أنها ثقافة الأمة العربية : وحدات أساسية أبرزها :  
الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية والعلم والدين والأخلاق والقانون .

وأم قوانين الفكر الإسلامي والثقافة العربية إن هذه الروافد متكاملة وإنما جميعها تتصل  
بالمجتمع والانسان تنمو جميعها في بناء كامل لا ينفصل ولا يتجزى . بل تتواصل وتتكامل ، تقوم  
أساساً على التوازن والشمول فلا ينمو منها رافد على حساب رافد آخر ، ولا يستعمل قطاع على حساب  
قطاع آخر .

وبمثل الفكر الإسلامى ( كما تمثل الثقافة العربية وليدته وللمستمدة منه ) نظرة شاملة متكاملة إلى الحياة والمجتمع والحضارة يمكن أن يطلق عليها أبولوجية مرتنة .

### الحلقات الثلاث فى روابط الإلهم والشعوب

يدور الفكر الإسلامى فى ثلاث حلقات متكاملة متداخلة طوال تاريخه كله : الرابطة الصفرى : الوحدة الوطنية . الرابطة الوسطى : العروبة . الرابطة الكبرى : وحدة الفكر . وقد مرت الحضارة الإسلامية بالروابط الثلاث على التدرج فى تاريخها الطويل وفى حالات الأزمات والتحديات وعندما يقع الانفصال بين التجمعات الكبرى تلمس الرابطة الصفرى ثم تنتقل منها إلى الرابطة الوسطى . وهى فى مختلف هذه الحلقات تلمس مفاهيم الفكر الإسلامى الجامع الموحد ، المفتوح على التاريخ والنراث ، والمفتوح على الأمم والشعوب التى تربطها وحدة هذا الفكر . ولقد كانت رابطة الانتماء إلى فكر موحد أو ثقافة موحدة هى أوسع هذه الروابط وأعقبا وآخرها ظهوراً بعد أن استحصدت العائلة البشرية وارتفعت فرق القبلية والإقليميات وتعصبها . فقد شككت وحدة الفكر رابطة كبرى بين الأمم التى تلافى على ثقافات تربطها أصول واحدة من العقائد والقيم والمنومات ، وكانت الرابطة العربية الإسلامية أقوى هذه الروابط وأوسعها نطاقاً وماتزال كذلك لأنها تقوم على عقد اجتماعى مكتوب هو « القرآن » الذى لا يزال هو اللغة الجامعة الموحدة ( دون اللغة العربية واللغات الإقليمية ) فالقرآن لغة وتاريخ وفكر جامع . ووحدة الفكر هذه ليست ملكاً للمسلمين وحدهم ولكنها ملك لأهل هذا العالم الواسع الجامع بمن فيه من أمم وأديان وأعراق وعقائد ولغات لأنها كلها قد صهرت أفكارها وثقافتها فى هذه الوحدة الجامعة : وحدة الفكر العربى الإسلامى .

(٣٥)

### ترابط العروبة والإسلام

إن التكامل بين العروبة والإسلام أمر طبيعى يصل فى قوته وعمقه إلى درجة الترابط العضوى الذى إذا فهم انتهى به أمر العروبة والإسلام معاً وهو ما يصعب تصوّره أو القول به . وليس من اليسير فهم أبعاد هذا التكامل أو الترابط إلا بدراسة واسعة عميقة مستوعبة لمفهوم العروبة ومفهوم الإسلام . فالعروبة هى الوعاء الذى ظهر فيه الإسلام أول مرة ومنه أمتد واتسع فى الأفق ، ومن هنا فقد بقى هذا الوعاء قائماً منذ شكله الإسلام ، ولا يزال على مدى التاريخ له مكانته القيادية الواضح

من حيث أنه هو « الأم » التي أصدرت وأوردت وحملت اللواء وأنداحت به في العالمين ، عائدة بالمسلمين جميعاً إلى قبلة واحدة ، ومركز ثقل واحد لاسبيل إلى التجمع حول غيره أو انفراطه باهتباره مركز الدائرة . ولقد كانت هذه المنطقة منذ قرون بعيدة سابقة على الأديان الثلاث الكبرى قد تأهلت لرسالة السماء ولبعوث الأنبياء ولدعوة التوحيد وكان أبرز هذه المعالم « الحنيقة السمحاء » التي حملها إبراهيم ومنها امتدت إلى أبنائه ( إسحق ) جد اليهود والمسيحيين و ( إسماعيل ) جد العرب وظلت هذه المنطقة الممتدة من العراق إلى آسيا الصغرى إلى فلسطين إلى مصر على أيدي هذا الجنس أو هذه الأمة أو هذا الأعراق وكان الإسلام هو صورتها النهائية والعالمية في « الإسلام » المنزل على محمد بن عبد الله ديننا ونظام مجتمع قوامه كتاب عربي مبين هو القرآن . هذا هو الترابط الجندري العميق تحت اسم العروبة الحنيقية : هذه الأمة التي انطلقت من الجزيرة العربية موجات بعد موجات منذ خمسة آلاف عام ، إلى مصر وإلى الشام وإلى العراق وإلى المغرب ومنها كانت هجرات الأكاديين والآشوريين والكنعانيين والآراميين والأنباط والمناذرة والغساسنة والهجرة الإسلامية الكبرى وهجرة الأكراد والآراميين الحديثة والشركس والتركمان والأتراك . وذلك لا عجب أن تكون هناك أُمم وحضارات ومذاهب تشكلت داخل هذا المعترك الضخم مما ظهر أخيراً تحت أسماء الفينيقية والبابلية والفرعونية والآشورية والبربرية وكلها ذات مصدر واحد ، وكلها انصهرت في الإسلام ، هذه الأجناس وهذه الدماء والأعراق في [ وحدة الفكر ] كاملة انتهى معها ذلك التشكيل العنصري الذي ابتدئته من جديد قوى الغزو الاستعماري والتغريب الفكري من أجل تمزيق وحدة هذه الأمم التي انصهرت في الفكر الإسلامي بفلسفاتها ومذاهبها وقيمتها ومفاهيمها ولم يعد لها منذ أربعة عشر قرناً تاريخ منفصل ولا مجتمع منفصل ولا ثقافة منفصلة ، ولا استجابة للأحداث إلا ذلك الطابع الموحد المشترك الذي صنعه الفكر الإسلامي الذي أصبح فكراً عاماً شاملاً للأديان والعقائد والأعراق والأجناس والمذاهب والفرق عنصرية كانت أم ديلية .

ولا ريب أن عملية الانصهار الكبرى هذه التي شهدتها « العروبة الحنيقية » قد تشكلت عقائدياً وجنسياً على نحو متكامل متداخل بحيث لم يعد من اليسير الفصل بين وحدة الأديان ووحدة الأجناس فالمنطقة كلها لها أم واحدة هي الجزيرة العربية ، ولها دين واحد هو دين إبراهيم الذي تفرعت منه اليهودية والمسيحية والإسلام . وهذا هو السر العسر الشديد لتطبيق نظرية القومية العربية الوافدة أو تلاقيها مع طبيعة هذا التشكل الذي يطلق عليه « العروبة الحنيقية » . إن الخطوط العامة لطبيعة هذه الأمة وهذا الفكر وهذه القلة قد شكلها ميراث ضخم صنعه الأديان وأعراق الأمم والأخلاق

والشيم والمروءات أبرز مظاهر التوحيد (وقوامه الايمان بالله وهما من الأخلاق). هذا هو طابع هذه المنطقة التي نزلت فيها الأديان قبل المسيحية وقبل الاسلام بأكثر من ألفي عام وليس هو الذي صاغها ولكنه هو الذي وضعها في الصورة الأخيرة بعد أن حرقها هوامل كثيرة. هذه المنطقة نزلت فيها الأنبياء والتقت على حدودها الحضارات والثقافات التي جاءت من الهند وفارس ومن اليونان والرومان وانصهرت فشكلت «وحدة فكر» تم تشكلت الثقافات التي استمدت مقوماتها من الفكر الاسلامي فقامت على أسسه وقيمه لا تنفصل وإن اختلفت. هذا هو الكيان العملاق المصنم الذي لا يوصف بأنه قومية، ولا أمة، إنه تشكل ضخم قوامه العربيه والاسلام، إنها قوة إنسانية ضخمة على قاهرة عريقة، لها امتدادها الطبيعي اللغوي والفكري الذي يمثل الجناح الأيسر من المغرب العربي، ولها امتدادها الفكري الذي تمثل فارس وأفغان والهند والملايو وتركيا. إنه تشكل ارتبط بالعقول والقلوب والنفوس فكون «وحدة فكر» لها طابعها المختلف عن فكر الغرب كله، من حيث قيامه على التوحيد إنه تشكل يتمثل في حلقات وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر الجامعة؛ لا يعرف مفهوم الاقليميات ولا القوميات الوافدة، ولا يتشكل فيه، هذا الكيان الفكري القائم، عميق الجذور فهو الممتد الراسخ، يواجه التحديات ويتشكل إزائها بما يحفظ له كيانه وذاتيته وبما يدفعه إلى الخروج من الأزمة. وقد تنبه إلى هذا للعن كاتب عربي واسع الأفق هو الأستاذ اليان فانير فقال: إن كانت الوطنية في البلاد العربية أو الاسلامية قابلة للمفاهمة مع الأجنبية صابرة تحت الحجير متخذة لبعض الوسائل العصرية فهي لا تفعل ذلك نزولاً عن شخصيتها وإنما تفعل ذلك لتنهض وتقوى وتجتاز هذه الفترة الصعبة وحينئذ تستعمل سلاحها ضد مستعبدتها وتظهر مميزاتا الجنسية وتؤسس مرة ثانية تلك الامبراطورية بمجدها السالف.

فالمسلمون سواء كانوا في الشرق الأدنى أو في شمال إفريقيا أو في الجزيرة أو في فارس أو في الافغان أو في الهند أو في أواسط إفريقيا يولون وجههم شطر قبلة واحدة هي مكة، وما مكة إلا رمز الاسلام واللغة العربية فهم مرتبطون بهذه العروبة التي لا تنقسم، فرقهم السياسية بحدودها المصطنعة وما دار في قفار الصحارى حاد اللبس ينطق بالضاد وتؤذن فيه مثذنة تسيح باسم الله. وهذه الرابطة العربية الاسلاميه الخافية عن الاعين موجودة، فليقل الغرب ما شاء وليحاول تكسير هذه الكتلة المشبته للسندة إلى إعتقاد عميق فيها فل فإن الاجزاء تعود لوحدها عن طريق سبيل العرب جاهلها. هذا هو البعد ينبغي دائماً عن طرحوا مذاهب القوميات والاقليميات الغريبه الوافدة وحاولوا أن يصبوا الفكر العربي الاسلامي والعروبه في قوالبها ظانين أن هذا الفكر بمعقه وجسارته



وأبعاده يمكن أن يتشكل على النحو الذي يريدونه ، ينتزع منه شيئاً ويضيف شيئاً ، وما يطلب إليه أن ينتزعه هو أرسخ أعدته التي قام عليها .

إن هذا التشكيل العربي الاسلامي قد برز في التاريخ منذ تسعة قرون في وجه محمد خطير هو الغزوين الصليبي والمغولي ، واستطاع أن يؤكد وجوده وأن يحطم الغزو ويسحقه ، عندما عاد إلى مقوماته الأصلية واستلم ذاتة ومزاجه الأصيل وعاد إلى مفهومه الأساسي في وحدة الفكر والقيم الجامعة . هذا الكيان هو الذي تشكل في وجه الاستعمار ، في الاقليميات تارة وفي الوطنيات تارة وبالتجمع حول الأمة والعنصر والدم والعرق ، فإنه لا يلبث أن يستعيد طوابعه ومقوماته ، وهو هكذا دائماً ينتقل بين حلقات الوطنية والأمة والفكر راجعاً في حالة الضعف ، أو ظافراً في حالة القوة . وكل ما أريد أن أقول أن هذه أمة لها ذاتية خاصة لا تخضع لمقاييس الفكر الغربي الوافد أو مذاهب العنصرية الأوروبية التي أقامتها اليهودية العالمية ، لتوضع داخلها ، ولخير المنصفين أن يواجهوا واقع هذه الأمة وجوهر فكرها ثم ينظروا كيف يتشكل كيانها . إن الفكر العربي الاسلامي قد وقف من نظريات الاقليميات والقوميات الغربية الوافدة موقفه من مختلف المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية المطروحة ، أخذ منها ما يتفق مع طبيعته ثم تخاص من الفضلات . وفي العصر الحديث عندما زحف الغزو الاستعماري كانت مختلف حركات المقاومة هوية إسلامية سواء كانت باسم الوطنية أو باسم العروبة . ويشهد بذلك ( الفرد كاتول سميت ) حين يقول : هذه الحركات القومية التي تهدف إلى التخلص من التدخل الأجنبي ، لم تسكن هذه الحركات مطابقة للإسلام بحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام ، فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الفرنسيين ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر ، ومن هذا القبيل قيام الأتراك بطرد اليونانيين عام ١٩٢١ والبرانيين للقضاء على منظمة النفوذ الروسية الانجليزية كانت جميعها خطوات نحو إحياء الاسلام فكل المسلمين مسلمون اجتماعياً وسياسياً ، وإذا كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح .

وتداخل العروبة والاسلام ، وتكاملهما وترابطهما ليس موضع خلاف حتى بين أصحاب نظريات القوميات الوافدة بل هو حقيقة مؤكدة وفي نظر كثير من الكتابات الغربيين ، يبدو هذا الترابط

وأضحاً جلياً : يقول موردببرجر : لم يميز العرب المسلمون بين ديانتهم وقوميتهم ، وظل هذا القرآن بين الدين والقومية قائماً حتى يومنا هذا . وهكذا أن الاسلام لم يتقدم إلى العرب وحسب ، بل إنه البناء الذى صيغ فى داخله العرب ولقد نهام القرآن فى آيات كثيرة عن التمييز العنصرى والقومى والقبلى والاختلافات الأخرى بين أنفسهم لأنهم جميعاً مشتركون فى وحدة تحتضن كل هذه المشارب التى تميزها الآن .

(٣٦)

## الإسلام صانع العروبة

الإسلام هو صانع العروبة ومفشطها ، وهو المقوم الأساسى لوجودها الذى تشكلت به بعد الإسلام فى وحدة لسان ووحدة أمة . والإسلام إلى ذلك منهج حياة ونظام مجتمع ومنطلق حضارة إنسانية وثقافة علمية ، بما يقدمه من عطاء ضخم فى مختلف مجالات السياسة والاجتماع والقانون والتربية واللغة والاقتصاد ، فكيف يمكن القول بأن الاسلام عربى أو إنه عنصر من عناصر العروبة . وكيف يمكن أن يتحول للشكل وللضمون إلى درجة يصبح فيها جزء من الكيان الذى صنعه . إن وضع الاسلام فى مثل هذه الصورة التى يرددها بعض دعاة للذاهب القومية الغربية الوافدة إنما يكشف عن هجز كبير فى مجال فهم الاسلام ومكانته وموضعه من الأمة العربية ومن العالم الاسلامى ومن الانسانية عامة . وإذا كان الاسلام قد ظهر فى الأمة العربية وبلسان العرب فإن ذلك من شأنه أن يرفع شأن العرب والعربية ، أما الاسلام فإنه لم يكن ديناً «عربياً» بمفهوم الأديان الأخرى ، أو أنه دين قومى ، أو أنه دين على ، أو أنه دين لاهوتى ، ذلك كله حين يردده الثغريبيون فأعاهم ينتفضون أنفسهم وأقصادهم وفهمهم ويكشفون عن هجزم الكبير فى التصدى لقضية لا يعرفون أبعادها ، أو أنهم يتناولونها تناول غير العلماء من أصحاب الأهواء والاحقاد واللطامع السياسية والاستعمارية وإنهم بذلك إنما ينتفضون أنفسهم ومكانهم فى انظر أقرب الناس إليهم فإنه من المستحيل أن يصدق أحد من العرب أو للمسلمين أن الاسلام دين قومى للعرب ، عنصر من عناصر قوميتهم ، أو أنه دين لاهوتى قاصر على العبادات .

ذلك أن الاسلام أمر خطير فى تاريخ العالم كله لافى تاريخ العرب والمسلمين وحدهم فهو باعتراف

عشرات من أهلام التاريخ والسياسة والفكر في الشرق والغرب : هو الحد الفاصل بين تاريخ العالم القديم والحديث . وأنه منذ بزوغ فجره لم يقض أمر من أمور هذا الكواكب من دونه . وهو في منهجه الجامع المتكامل حامل رسالة الحق والعدل إلى الانسانية ، متفاعل مع التاريخ البشري أخذاً وعطاء لم يتوقف أثره ، ولم يجمد منهجه ، قادر على العطاء الدائم ، فيه الحلول الجذرية لازمات البشرية ومعضلاتها ، وهو المفتوح على الثقافات والحضارات ، القادر على الاخذ والعطاء والحركة ، على نحو خالد ، على نحو لا يعرفه دين ولا فلسفة ولا نظرية ولا مذهب من مذاهب الدنيا كلها وهو في مفهومه الصحيح دين ودنيا ، ونظام متكامل يربط الإنسان بالله وبالإسان وبالجموع وبالسكون ، مندفع في قوة لا تحطمه القوى ، ولا يشيخ ولا يهرم ، متجدد دائماً لأنه يقوم على أساس التوحيد الذي لا يعرف الغناء ، تبلورت في فكره فلسفات الأمم وعقائدها ، وانصهرت في بوتقته ثقافات البشرية ، من فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية فصاغها من جديد وشكلها خلقاً آخر ، ولم تستطع أى فلسفة من هذه الفلسفات أن تصوغه أى تحويه فهو القائم بالحق ، عملاقاً حاكماً ، لا تنسب الفلسفات إليه ولا يقتطع منه ولكنه نظام متكامل ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وما زال كتابه « القرآن » النص الوحيد للوثائق الباقى على وجه الأرض من رسالات السماء ، وهو للنهج الجامع الذى يحمل بين دفتيه كل علوم الدنيا والدين والآخرة ، وفيه من كل ما فى السكون من نظرات ومنهج ، أصل أصيل « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » . هذا الإسلام ، ليس من الحق ولا من العالم بأقل دقائقه أن يقال منه أنه « دين عربى » ولقد حاول أحد الكتاب المسلمين أن يصور عطاء الإسلام للعرب فقال :

\* كانوا قبائل متفرقة فاذا الإسلام يجمعهم برابطة متينة فى دولة واحدة . \* وكانوا يتنافسون ويتصارعون ويقتل بعضهم بعضاً فاذا الإسلام يحرم دماءهم . \* وكان يقتتلون إلى اللوث لأتفه الأسباب فاذا الإسلام يوفر دمهم إلى اللقصد الأسمى . \* وكانوا يتحدثون لهجات متعددة محدودة الانتشار فاذا الإسلام يكرس إحداها لغة للجميع تصبح بعد وقت لغة العالم المعروف لهم ، سياسة وحضارة . \* كان شعارهم الشار فأصبح الجهاد . \* كانوا فى عزلة عن العالم فاذا الإسلام يجعلهم محور العالم . \* كانوا بحكم العزلة فقراء ضعفاء فاذا الاسلام يحكمهم على قسم واسع ممن كانوا يحكمونهم من قبل . \* تحقق فلک فى ربيع قرن وأبعدهم عن حياة الجاهلية ، ما كانت يتم لولا الاسلام ألا يقرون .

\* أبطل الدم بمنصر التوحيد بين أفراد الجماعة الواحدة وأحل محله الإيمان بالله . \* ألقى ابتعاد الجماعة الواحدة تحت سائر الجماعات وجعل ذلك الإيمان نفسه عروة وثقى بين مختلف الجماعات مثلما هي عروة وثقى بين الأفراد . \* منع حديث للمبارك القدوة ورواية أشارها ووضع مكانها آيات قرآنية في الوحدة والجماعة . \* نقل العلاقات ضمن الأمة من صعيد نفسى عقدى روحى هذا ما أورده كاتب عربى غير مسلم عن أثر الإسلام في العرب فكيف بأثر الإسلام في العالم كله والعرب اليوم على أكثر التقدير عشرة ملايين من بين ألف مليون من المسلمين . هذا هو ما نمنيه من خلة الكتاب التفريريين حين يتكلمون عن (إسلام عربى) . ٢ — وخطأ آخر أشد خطراً وظلماً من الخطأ هو القول بأن الإسلام قد أدى دوره التاريخى وقاد الأمة العربية إلى الجدد ولم يعد يصلح أساساً للحياة العربية في الوقت الحاضر والمستقبل . وتبدو في هذه الكلمات مرارة الحقد ، والبغض ، والبعد عن الحق والانصاف ، فإذا كان الإسلام قد فعل ذلك بالعرب في الماضى ، أفليس هو أقدر اليوم والانسانية تمر في أزمة مادية عنيفة ، إن يردّها إلى الحق وأن يقدم لها بلسم جراحها . إن البشرية اليوم تنطلع إلى أفق مضى ، ولن نجد أفقاً بعد هذه التجارب التى أجرتها والنظريات التى صاغتها وأثبتت جميعها فشلها في تحقيق المجتمع الناجح ، لن نجد غير هذا الأفق : الاسلام . أما الأمة العربية فأنها تعلم أن لا حياة إلا بالاسلام ، فهو الذى بوأها مكانها في التاريخ وهو الذى أعاد إليها وحدتها القومية واللغوية فكان هذا الوطن العربى ، وبالإسلام أوجد العرب أعظم نهضة وأرحم إدارة وأهدل تشريع وبالإسلام صد العرب طغيان الصليبية وردوها إلى وطنها . إن طاح كتاب التفرير ودعاة مذاهب القوميات الغربية الوافدة لن ينحرق وسوف يرتد على أعناقهم صافراً ، ولن ينصهر الاسلام في نظرية القوميات ، كما انصهرت أديان أخرى ، وسيبقى الاسلام أساساً من أسس السكيات العربى ، لا تقوم العربية إلا به ، ولن تقوم منفصلة عنه ، وإذا حاولت ذلك فلن نجد شيئاً تقوم به غيره ومهما ذهبت وراء اللغة أو التاريخ أو الروابط الروحية أو النفسية فإنها كلها تعود إلى الفكر العربى الاسلامى الجامع الذى هو مصدر الوحدة الحقيقية .

ليس الاسلام ظاهرة تاريخية عابرة ، وليس الاسلام رسالة موقوتة مضت ، أبداً ، بل هو قوة أساسية في أعماق العرب والمسلمين . ولن نجد هذه المفاهيم الغربية الوافدة إلا صدى قليل عند أولئك الذين شكلتهم معاهد ارساليات التبشيرية ، أما هذا الجمع الضخم المائل من العرب ومن ورائهم المسلمين الذين يمتدنون في مصادر ثقافتهم وأصول فكرهم على منهج القرآن ومفهومه فإنهم لن يرو محمداً بطلاً عربياً ولا نبياً للعربية ولكنهم يرونه رسول الله المؤيد بالوحي ، ولن يرو الاسلام

مرحلياً ولا هربياً ولا مرحلة من التاريخ ولا مجرد حركة وطنية عربية على النحو الذى يراه هؤلاء  
ولسكنهم يرونه : ذلك العملاق المجيب للمعجز الذى قلب موازين القوى وصنع من العرب أمة  
ضخمة والذى تقدم إلى العالم فصاعه من جديد فى أقل من مائة عام وما يزال يصوغه فى فكره وذاتيقته  
ومزاجه النفسى وعقليته . وسيظل ما دام القرآن قائماً يتلى وينظر فيه . وأن أثر الاسلام فى البشرية  
لهو واحد من اللوضوعات الخطيرة التى تناولها الكتاب الغربيون فى ضوء حضارتهم وأديانهم ، ومن  
أبرز هذه الدراسات كتاب ( محمد وشارلمان ) الذى ألفه ( هنرى بيرين ) والذى قصد به تبيان  
أن الاسلام كان القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى حتى ليتمكن أن يقال بحق أن العصر  
الوسيط والنهضة الحديثة هما ثمرة من ثمار ظهور الاسلام . ويرى المؤرخون أن نقطة التحول فى  
التاريخ الأوروبى هى سقوط الامبراطورية الرومانية وأن أغلب المؤرخين قد أجمعوا على أن الشعوب  
الجرمانية التى كانت تعيش على تخوم الامبراطورية الشمالية هى التى اجتاحت حدود الرومان وقضت  
على دولتهم ، أما ( هنرى بيرين ) فيرى أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى  
الدرجة التى تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر ببالها بل ما كانت ترغب  
أبداً أن تناوى روما وتقضى عليها . أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرق وأسمى من الرومان  
فى جميع أسباب الحياة ولا سيما فى الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم  
يجمعوا من منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم وهذا هو الغارق بين الشعوب الجرمانية  
والشعوب الإسلامية حينذاك . فأولئك كانوا يعدون أنفسهم عبيداً على الدولة الرومانية وهؤلاء كانوا  
يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين ضعفوا وشاخوا وكان أسراء الجرمان يفتخرون بما  
يمنحه إياهم أباطرة الرومان من الأوسمة والألقاب أما رجال الإسلام فكانوا يأتفون من مثل هذه  
الرشى لأنها تقدم ممن هم أدنى منها ديناً وخلقاً وأصلاً . أما الشعوب الإسلامية فكانت ترى نفسها  
جديرة بأن تمنح الرومانيين ديناً حديثاً وترشدتهم إلى مدينة أخرى ، ولم تسكد تهب ثورة المسلمين  
وتسير كتائبهم إلى أراضى الرومان حتى تلاثى ما كان هؤلاء من للعالم والآثار وكأنما كانت رماداً .  
وهكذا يصل هنرى بيرين — وهو قول يردده كثيرون غيره من المنصفين إلى أن الإسلام : هو  
القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى حتى يمكن القول بأن العصر الوسيط والعصر الحديث  
هما ثمرة من ثمار ظهور الإسلام .

ويقول على الطنطاوى فى الترابط بين العروبة والإسلام : من قال بالعروبة قال بالإسلام لأن العربية لم  
تسكن شيئاً مذكوراً لولا الإسلام ومن قال بالإسلام قال بالعربية ، لأن الإسلام دين نبيه هربى وقرأته

عربي. وليس من المستطاع تجريد العربية من الإسلام. والإسلام هو الذي أسقط الجنسية وحاربها ومنع كل دعوة إلى عصبية جنسية أو قلبية وأسقط حواجز القوميات. ولم يطمس الإسلام الوقائع التي تجعل مسكاناً ظاهراً لنبي عربي والعرب قومه والقرآن كتاب عربي والحج عربي ولولا الإسلام ما انتشرت لغة العرب. وتاريخ العرب هو تاريخ الإسلام، ولو يؤخذ منه الإسلام وماشأ عنه لم يبق للعرب شيء، واللغة العربية قطبها القرآن ودهاء الإسلام بلغاه العرب والعربية والإسلام ذاتا ريتين: صغيرة وكبيرة إحداها وسط الأخرى فالعرب ولد مجدهم وتاريخهم يوم مولد محمد. ويصور الدكتور اسحق الحسيني العروبة بأنها عروبة العقل وعروبة اللسان وعروبة القلب وإن إسقاط أي ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة ويفسدها.

ولذلك فهو يرى كل من استنظل بالفكر العربي الإسلامي عربي: شوق السكودي الأصل للمصري الجنسية، وصلاح الدين وهكندا. ويطابق هذا ما قاله أرسول: إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعروبة فهو عربي: ويقارن حسن السكودي بين موقف الديانة المسيحية في قول البيوت وبين موقف الإسلام، يقول البيوت، أن الديانة المسيحية هي أكبر جامع موحد للثقافة الغربية ويتساءل هل يصبح أن يقال أن «الإسلام» هو أكبر جامع وموحد للثقافة العربية ويقول: إذا لم يفعل الإسلام ذلك فما هو الذي يجمع بين العرب. ويؤكد الدكتور المهدي المنجرة استحالة فهم أمور العروبة بعيداً عن الإسلام فيقول «من الصعب إن لم يكن من المستحيل فهم الشئون العربية بدون اعتبار أثر الإسلام كدين وفلسفة وكحضارة وكأسلوب في الحياة، ذلك لأن الحركة العربية ظاهرة إسلامية والعرب في غالبيتهم مسلمون» وإذا قرأنا الإسلام بالديانات الرئيسية الأخرى فإننا نجد أن الإسلام يهتم أكثر من أي شيء بالإيمان، وبينما ينظر المسيحيون إلى دينهم كبراث، ينظر المسلمون إلى دينهم كحقيقة حية وكغذاء روحي حقيقي، لا يفرق المسلمون بين المسائل الروحية والزمنية كما يفعل المسيحيون لأن الإسلام نظام تمام، هيكل عضوي يتجلى في مظاهر التشريع الإسلامي والحكم ومفهوم الدولة من المسلمين، وهنا تبدو أهمية التشريع الإسلامي كقوة موحدة تتجلى في أنه حامل أساسى يصهر المجتمع الإسلامي في جماعة ملتزمة.

(٣٧)

## موقف الاسلام من العروبة

أن منهج الفكر الإسلامى فى سعيه ويسره واتساع آفاقه كاطار مرئ قادر على تقبل مختلف الأنظمة والمذاهب والظريات لم يتوقف به أمام أى نظرية غربية تطرح عليه فى العصر الحديث ، سواء أكانت فى مجال السياسة أو الاجتماع ، ولكن التحفظ الوحيد الذى كان دائماً موضع النظر ، هو التماس جوهره ، والحيلولة دون الانصراف فى أى بوتقة ، والحفاظ على مقوماته وذاتيته مع الانفتاح كامل وتقبل سمح لسكل ما يطرح عليه .

ومن هناك كان موقف الإسلام من العروبة ، فالإسلام لم يحارب التشكل العربى ولكنه حفظ له أصالته وقبله فى دائرة وحدة الفكر العربى الإسلامى ، وقد شهد بذلك [ هاملتون جب ] حين قال : « الإسلام لم يحارب المبدأ اللومى ولا انظر العلماء إلى فكرة الأمة العربية على أنها شئ غريب دخيل منافس للدين ومخالف له . لم تكن الأمة العربية قد تحولت إلى تجربة ( القومية العربية ) حتى يشعر الفكر الإسلامى بوحشة واستغراب ، ولم تنف فكرة الأمة العربية ضد الإسلام . وإنما وقعت الفكرة العربية أمام الفكرة العثمانية تناظرها وتجادها وتنصدى لها وتطالب بحقيقتها ثم تعتبرها مقصرة فى حق الإسلام . ويخرج الإسلام من المعركة ، وكأنه فوق الصراع بين الولاء العربى والولاء العثمانى توضيح للعربى المسلم أمراً هاماً هو أنه يمكن أن يكون مسلمانى الذين عربياً فى السياسة ، يلتقى مع التركى والمهندي فى العبادة ويلتقى مع المسيحي العربى فى الوطن والدولة .

ومهما يكن فى عبارة ( جب ) من قصور فى فهم ترابط الإسلام ديناً ودولة وترابط العروبة والإسلام واسكنه يوحى بما نريد أن نقوله من صلة الإسلام بالعروبة وشبيه به ما قاله جاك بيرك : من أن الروح العربية لا تزال تحتفظ حتى اليوم بمزيج ذاتى لها أو تلتشى من جديد استقلالاً ذاتياً فى الاحساس والتعبير لا يصبح معه لأى نظام خارجى أياً كانت قدرته على الاغناء أن ينازعها فيه ، والذى لم يقله جاك بيرك أن هذا المرجع الذاتى : هو الإسلام . ومن الحق أن أثر الإسلام فى العرب بعيد المدى وعميق . حتى ليسكن القول بأن العرب لم يكن لهم وجود أمة قبل الإسلام ، فقد أعطاهم الإسلام صفة الأمة ووحدهم ثم أعطاهم الرسالة التى حملوها إلى العالم كله ، واتى أعطاهم الزعامة الدينامية ،

ثم حفظ الاسلام اللغة العربية وأمدّها بقدر ضخم من المضمون والأداء معا ممثلا في القرآن الكريم .  
ومن ثم فإن الاسلام هو الذي أعطى للعرب مفهوم الحضارة والعلم ، فليست هناك حضارة عربية أو  
علم عربي أو فسر عربي أو لغة عربية وإنما هناك حضارة عربية إسلامية وفكر عربي إسلامي وعلم  
عربي إسلامي ولغة عربية إسلامية والذين يقولون بحضارة عربية أو فكر عربي ، يقصر فهمهم أو  
يقصر إنصافهم ، وكذلك من يقولون بأن الحضارة العربية الإسلامية حضارة دينية أو أن فكرهم  
ديني أو أن لغتهم دينية ، أولئك لا يفهمون مضمون الفكر العربي الإسلامي ولا مقوماته الأساسية ،  
ذلك أنه فكر متكامل شامل يضم الدين واللغة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد . وليس الدين فيه  
إلا عنصر من العناصر ، التي يشكلها الاسلام ؛ ذلك أنه لا سبيل إلى تصور حضارة أو ثقافة أو فكر  
عربي منفصل عن الترابط العربي الإسلامي أو وحدة الفكر الإسلامي العربي الجامعة ، لقد حقق  
الاسلام وحدة العرب كما حقق القرآن وحدة اللغة وتركيب العروبة والاسلام : أمة وفكر بجامع ما بينهما  
( العروبة الإسلامية ) وهو جامع تاريخي تطور فأصبح كيانا ، وهو كيان مفتوح على القيم وعلى الأمم  
فالكيان العربي مفتوح الأبعاد بالعالم الإسلامي ، انفتاح فكر أساسي فشكل مسلم عربي باللغة والفكر  
والتراث والقيم .

ولابن تيمية في ذلك دراسة واسعة ، فالمعجم هم الذين حرروا العرب من التتار والصليبيين  
والماليك هم الذين سحقوا التتار في عين جالوت وصلاح الدين ، وقطر والظاهر بيبرس ، والسلاجقة  
لهم دورهم الواضح في الحروب الصليبية والبربر لهم أثرهم الكبير في فتح الأندلس واستعادته  
و كذلك للأكراد دورهم .

( ٢ )

## العروبة ومكانها من الاسلام

أن مكان العروبة من الاسلام لا يحتاج إلى تفصيل كثير ، فالعرب هم مادة الاسلام ومكانهم  
في المجتمع البشري هو علامة على مكان الاسلام فإذا ذلوا ذل الاسلام وقد كانوا حملة الرسالة والدعوة ،  
قاموا بنشرها إلى أبعد نقطة في الملايو وهبوا البحر إلى حدود نهر الفوار وإلى الصين وإلى أسوار  
فيينا . ويرى شفيق غربال أن العروبة صورة خاصة من الجامعة الإسلامية والثقافة الإسلامية ومن هنا  
فلا تعارض بينهما . يقول : الاسلام دين وهو جامعة جمعت وتجمع الشعوب الإسلامية وهي جامعة



لم تقتض ولا تقتضى وجود الادارة أو السلطة المركزية كما تفهمها ، بل أن أقاليم العالم الاسلامى حتى فى المصور الأولى للخلافة تمتعت فى الواقع بمقدار من الحركة مكنها من التمتع بحياة إقليمية خصبة متميزة . والاسلام أيضاً ثقافة بمعنى أ. ( طريقة حياة ) أو كما يقول السلف ( آداب ) وقد شرح ذلك ابن خلدون فى قوله : الحياة الاسلامية ثقافة بهذا المعنى الشامل لأمر الدين والدنيا ، وبينما تقتنوع الثقافة الاسلامية تنوعاً عظيماً إذ هى من وراء ذلك التنوع تمثل الطابع الاسلامى المشترك . وقد كان بناء الثقافة الاسلامية على هذا النحو من أعجب فصول التاريخ الانسانى وأعظمها فهى ثقافة واسعة سمحة مكنت الشعوب التى عملت فيها من أن تجارى مزاجها الخاصة أو تنصيرها القومية ، وقبلت شعوباً على درجات متفاوتة من الحضارة أو كانت تنسب لسلالات بشرية مختلفة ولأصول تاريخية متباينة والثقافة الاسلامية بقيت سمحة وبقيت إسلامية .

كما أشار شفيق غربال إلى محاولة تجريد العروبة من الاسلام فقال : يظن أن اختلاف العرب ديناً يقتضى تجريد حركتهم من عنصر الدين حرصاً على جمع الكلمة وهذا وهم أولاً لانه يناقض ما أثبتته التاريخ من مشاركة غير المسلمين فى بناء الثقافة التاريخية . وثانياً : لانه يناقض ما أثبتته التاريخ الحديث من مشاركة غير المسلمين فى بناء الحركة العربية التحريرية الاستقلالية . وثالثاً : لانه يعطل المصلحة الكبرى وهى جمع الكلمة على إصلاح دينى إسلامى مسيحى يصد الاتحاد والمادية . ويحاول اسبا هيل مظهر أن يصل إلى هذا المعنى : معنى ترابط العروبة والاسلام فيقول : إذا قل أحدنا ( الجامعة الاسلامية ) فإنما يعنى جامعة عربية روحها الاسلام ، وإذا قال أحدنا ( الجامعة العربية ) فإنما يعنى جامعة اسلامية روحها العروبة وكل قول يبين هذا القول خطأ وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعبية خبيثة .

ثم يفصل هذه للمعادلة فيقول : « افترن الكلام فى العروبة بالاسلام لأن الثابت الذى لا الجاس فيه ولا ريب بداخله إن الاسلام لم ينزل بلغة العرب فقط وإنما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا فالعربى انصهر فى مسلم بصفاته العربية والمسلم عربى بما فى الاسلام من روح العرب . » أقول مملوء ثقة بصحة ما أقول أن الاسلام فكرة جامعة ومعنى أنه فكرة جامعة أنه ( دين ودولة ) وبما قيل اليوم بمكس ذلك ومهما حاول البعض أن يجرى من الاسلام هذه الصفة وبما قيدت انظمامات الحكم فيظل الاسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة فى فكرة واحدة وهى فكرة الدفاع عن المجموع الذى يستظل بالاسلام .

د مهما تفرقت فيه النحل واختلفت للذاهب وتباينت النزعات فان حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبه إلى مجاراة روح النظام الحديث في المدينة الأوروبية ففصلت بين الدين والدولة فإن هذا الفصل ينبغي ألا يتعدى أنه فصل في الأراضع لا في الروح، فكل حكومة من حكومات الإسلام في هذا العصر، وإن كانت قد قبلت على ذلك نظامها المدينة فإنها قد نصت في دساتيرها على أن دين الدولة : الإسلام . د ولست أعرف حقيقة الباعث الذي حث بالذين وضعوا هذه الدساتير على إثبات هذا النص، فالدولة شخص معنوي والنص على أن ذلك الشخص المعنوي له دين اسم الإسلام أمر لا يخلو من التناقض ولكني أعتقد أن هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الإسلامية إلا استجابة لوعى خفي مستمد من روح الإسلام وأنه دين ودولة معا ، أملت على أولئك المشركين روح إسلامية لم تحب في أنفسهم يوم شعلتها وإن كانت قد استخفت فإنما كان استخفافها تحت ظروف لا حاجة لنا إلا الإفاضة فيها . كل هذا لأقول أن روح الإسلام : تلك الروح التي نشأت بنشوء الإسلام وستظل باقية ما بقي الإسلام والتي أنشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدجمتهما معا هي روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد بل أنها روح تقدر الحرية أولاً وتحمي رعاياها حماية بلغت منتهى التسامح في تاريخ الدنيا . ويرى بعض الكتاب الغربيين أن الابتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وهذا ما يردده مور وبيرجو الذي يقول د قد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام ونفس الشيء يمكن أن يتكرر حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة في أفريقيا . ويؤكد ( لبييه أمين فارس ) على اثر الإسلام في قيام المروية ووجودها نفسه ويصور موقف العرب خير المسلمين من عبقرية الإسلام يقول : فالعرب إنما دخلوا التاريخ العام وأصبح لهم وجود تاريخي كدأمة وشاركوا في الحضارة الإنسانية مشاركة نيرة بظهور النبي محمد بن عبد الله مبشراً برسالة الإسلام ، وإذا كان المسلمون يعتبرون محمداً رسول الله الأعظم وخاتم النبيين فإن العرب يعتبرونه بطلمهم القومى وأعظم إنسان أخرجته الأمة العربية ، وإذا كان المسلمون يقدسون القرآن الكريم لأنه كلام الله للوحى به إلى رسول محمد فإن للعرب يعتبرونه مثال البلاغة العربية الأهلى وأعمودج الكلام المبين والحارس الأمين الذي حفظ عليهم لغتهم سليمة من العجمة والركاكة والاندثار والقويان في الهجات العامية الاقليمية على الرغم من الانحلال الذي أصاب العرب ومن الأمم الأجنبية التي أخضعت العرب لسلطانها فإن إعتز المسلمون بالحضارة الإسلامية ومجدوا أبطال المسلمين الخالدين وخلقاتهم الهادين المادلين فإن العرب ( يقصد من هم غير المسلمين ) يعتزرون بهذه الحضارة لأن عبقرية أمتهم العربية كان النصيب الأكبر في خلقها ولأن لغتهم العربية كانت الإقبال الذي ظهرت

فيه وعجودون هؤلاء الأبطال لأنهم أبطالهم القوميون . ولما كانت العربية هي قوام الإسلام ومادته ولغة قرآنه ونيبه ، فقد امتد أعجاب المسلمين إلى كل ما هو عربي وإلى كل هربى خدم اللغة العربية وأغناها وشارك في الحضارة مسلماً كان أو غير مسلم . ثم يقول : وهكذا تتشابك العروبة والإسلام في التاريخ القديم تشابكاً عضوياً متفاعلاً لا مجال إلى فصل الوحدة إلى الأخرى . ونحن نقول للكاتب : وما يزال هذا التشابك قائماً ومستمرّاً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم فإن من الاستحالة التي تخالف نوااميس الكون ، وقوانين الامم في بنائها وتطورها أن تنقسم العروبة عن الإسلام ، مهباطرحت الاستعمارية الغربية عشرات النظريات في الاقليميات والقوميات الوافدة التي لا يقبلها المزاج العربي الاسلامى ولا النفس العربية الاسلامية والتي ثبت فشلها وسقوطها بعد هذه السنوات الطويلة والمحاولات الضخمة من بنها ومحاولة إقناع المسلمين والعرب بها بينما هي لا تتفق مع طبيعتهم وذايتهم وأصول ثقافتهم .

ثم يقول : نبيه أمين فارس « وكذلك يتشابك الإسلام والعروبة في التاريخ الحديث تشابكاً عضوياً متفاعلاً لا مجال إلى فصل الواحدة عن الأخرى في نفوس كثير من القادة والقوميين بل جمهور المسلمين وهل كانت النهضة العربية الحديثة إلا تياراً من النهضة الاسلامية في القرن التاسع عشر » . وهذه كلمة منصفه من كاتب عربي يعترف بها بالرغم مما له من آراء أخرى مسدومة مفرضة وبعد فمقطع القول أن الإسلام صانع للامة العربية ( أولاً ) كقيادة له ثم هو الإنسانية كلها من بعد ، رسالة حملتها أيدي العرب وأفلامهم ولغتهم وشقت بها الآفاق إلى كل مكان وقد مضت رسالة العرب وليكنها لا تزال تتجدد فالعرب أعرق فهما للإسلام حيث فهم اللغة العربية : لغة القرآن وفيهم المفهوم الوسط القائم على مفهوم السنة الصحيح الجامع بعيداً عن الفلسفات والنصوف والشعر وبعبداً عن مذاهب الاعتزال والحلول والباطنية وغيرها . فهم أصدق تمثيلاً للإسلام وأقدر أناس على حمل دعوته إلى الآفاق .

( غير المسلمين من العرب وموقفهم من الإسلام ) أن موقف كثير من المفكرين المنصفين غير المسلمين من العرب من مفهوم ( وحدة الفكر والقيم ) وترباط العروبة والإسلام يبدو واضحاً جلياً لا تشوبه شائبة التعمدى التي تفرضها تلك الأفلام الثابتة وذات الولاء الغربي . وتكشف هذه الأفلام المنصفة عن حقيقة أساسية هو أنه ليس هناك لمجتمع مسلم ومسيحي في ( العربية الخنيفية ) على هذا النحو الذي يصوره عيسى البندك : « العربي كان أم مسيحياً تربطه بالإسلام والعربية ، واللغة التي

يشكل بها والأخلاق التي يتخلق بها، والتي يزاو لها، وما يعتز به من إباء وشهامة ومروءة، أراد أم كره، إذا ما أراد عربي أن يزعم أنه غير ذلك فقد نبذ بطوعه واختياره جميع هذه السجايا الطبيعية الممتازة، بل يكون قد فرق بينه الحالة المادية التي ضربت على خيره قوصا مشعا بأنوار السكامة والجحد. أننا ومن إيماننا قاطعا بأن كيان النصراري جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب وإن مصالحهم مصاحبتنا.

ويستجلى على أقلام كتاب العرب غير المسلمين فهمهم للعلاقة بين العروبة والإسلام، والعلاقة بين القومية الغربية والمسيحية، فهم يرون أن الفكرة القومية المجردة في الغرب إنما فصلت بين القومية والدين «لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق، لم ينزل بلفهم القومية ولا أفصح عن حاجات بيتهم ولا امتزج بتاريخهم. في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية ولا هو أخلاق مجردة. بل هو ثقافة قومية.

(٣٨)

## مبدأ القوميات بين أوروبا والعالم الإسلامي

كانت صيحة القوميات في أوروبا من مخططات اليهودية العالمية للقضاء على نفوذ الكنيسة الموحد والقضاء على حقوق الملوك وامتيازات رجال الدين. وإذا كان أي رد فعل إنما هو نتيجة فعل مساو له في القيمة فإن ظهور القوميات (كظهور الاشتراكية) إنما جاء نتيجة تحدى خطير، هو تمتع الملوك بسلطة مطلقة في التصرف وتأييد الكنيسة لهذا التصرف تأييداً مطلقاً، وكان في ذاته عاملاً لإقرار طابع المسيحية الأصيل وهو انفصال نفوذ الكنيسة عن الدولة تخلصاً من طغيان الملوك. ذلك أن المسيحية لم تكن في الأصل ذات نفوذ سياسي تجاه الدولة، إلا حين حاولت الكنيسة أن تقيم فلسفتها على هذا الأساس ولا شك أن هذه الصورة بكاملها لا توجد في المجتمع الإسلامي الذي يراد له أن يتطعم بنظرية الغرب الوافدة في القومية. ذلك أن الإسلام كان بطبيعته ديناً ودولة، وكان نظام مجتمع شامل وكان داهية العدل والحق، وكان قائماً كالريف المصات في وجه الملوك والأمراء، فضلاً على أنه لم تكن له كنيسة ولا حكومة ثيوقراطية ولا طبقة كهان أو رجال دين لهم نفوذ خاص ولا وصاية على الحكومات أو المجتمعات. لم يعرف للعالم الإسلامي الذي طرحت عليه

نظرية القومية العربية الوافدة . مثل هذه العوامل ، ولذلك فإنه لم يتقبل نظرية مفروضة لا تتفق مع ذاتيته ومزاجه النفسى ولا تتشكل من خلال فكره العربى الإسلامى الذى له طابعه وقيمه ومفاهيمه فى مختلف العلاقات وأبرزها علاقة العربوة بالاسلام . وتوالى روابط الأرض والأمة والفكر دون تضارب فيما بينهما . فى ظل هذه الأوضاع الأوضاع الاجتماعية ، ومن خلال الطابع الفكرى والثقافى الذى يجمع بين فلسفة الاغريق وشريعة الرومان وإطار المسيحية فى كل تضارب ، وفى مجتمع تنهار فيه الرابطة بين المجتمع والسكنية مع انفصال السكنية إلى كتيبتين ، مع ضربات مطارق اليهودية العالمية التى تتمثل فى تأجيج نيران القوميات ، وخلق تعصبات الجنس والدم والعرق والأرض والأمة تبدو القوميات الأوروبية مغلقة هدوانية . ولعل هذا أوضح طوابع التفاوت بين العربوة والايرانية والتركية والهندية التى يجمعها رباط أكيد وجذور عميقة من القرآن والفكر الإسلامى ووحدة النظرة والتوحيد . هذا التفاوت يصوره أحد الباحثين فيقول :

القومية فى نظر الشعوب العربية ضيقة شرسة متعصبة مفرطة بالنعصب ، مغلقة نحو الانسانية : ( تنسم ) بشيوع روح الاحتقار الشديد بين مختلف القوميات العربية بعضها تجاه البعض الآخر على ما بها من الروابط العديدة وليست النظرية الألمانية وحدها ذات الطابع الذاتى العميق ، بل كل القوميات على درجة متفاوتة فى العمق والشراسة والتاريخ السيامى الغربى أكبر شاهد على ذلك لأنه غارق فى الدم . ويرى الباحث أنه نتيجة لقوة تغلغل روح العنصرية فى القوميات العربية لم تسلم روح الدين المسيحى أن تؤثر فى هذه القوميات أو تلتطف منها . د والمسيحية ليست متعصبة واسكن النعصب فى الرسومات الوثنية التى عتمها التراث اليونانى القديم خلال عصر النهضة الأوروبية . إن حقيقة الروح التى تسير القوميات فى الغرب ناشئة عن العنصرية المتغلغلة فى أعماق النفوس وليست منعكسة عن العنصرية المتغلغلة فى أعماق النفوس وليست منعكسة عن المسيحية الصحيحة . د ويقول أحرار الفكر من الغربيين : إن المسيحية ديانة لم تلائم الشعوب العربية لأنها ديانة شرقية شامية والتفسير الملى لهذا التقرير هو أن المسيحية ديانة إنسانية - وطابع الروح الغربية معلق غير مفتوح وغير متساح لم تسطع روح المسيحية أن تؤثر فيه . د إن اليونانيين القدماء كان يحسبون أنفسهم الشعب المختار وكل ما عداهم برابرة حتى كانت فيلسوفهم أرسطو يقول باطمئنان : الحمد لله الذى خلقنى يونانياً لا بربرياً ورجلاً لا امرأة . هؤلاء اليونان كانوا يقدمون المدنية وأخذ الرومان بهذه النظرية وعندهم اقتبس الغربيون تعبهم الوطن الأم وحقوقه ، فعلمت

أحاسيس الوطنية الاقليمية الضيقة والعصبية المفرطة، حتى طبعت القوميات بطلابعها حيث لا تسمع مع القوميات الأخرى . « وهذا لا تجده له مثيلاً في النفسية العربية . » المسيحية لم تستطع التلاقى مع روح القومية المتعصب ، وقد اضطر صلابة القوميات الغربية وشرستها أن تسير في ركابها أينما سارت ، بل زادت على ذلك فأضفى رجالها على مذابح القوميات المتطاحنة القداسة المسيحية .. ١٩٠٨ . ( مجلة الأزهر م ٣٠ / ٢ ) . وعندنا أن اليهودية العالمية التي تشكلت فلفتها الهادمة للمسيحية في محافل الماسونية وفكرها وكتاباتها ، قد استطاعت بعد الثورة الفرنسية التي قادتها لحساب هدم الطابع المسيحي الغربي أن تجعل من مبدأ القوميات التي ابتكرته أكبر هادم للوحدة الغربية المسيحية . وإنها أرادت بعد ذلك نقل المعركة إلى العالم الاسلامي والدليل على ذلك أن الدولة العثمانية التي كانت تضم قوميات متعددة كالعرب والترك واليونان والبلغار والألبان والأرمن والشركس والأكراد هي التي تدعو إلى الطورانية وإن العنصر الحاكم هو الذي يثير صراع القوميات ويعزق الدولة ، وكان العنصر الحاكم الذي أهدته المحافل الماسونية لهذا الغرض في تركيبهم الاتحاديين والسيكاليين .

أما العرب فإنهم لم يحاولوا الانفصال عن الدولة العثمانية ، إلا بعد أن اغتلم الاتحاديون باسم الطورانية ، ويزعم الله عبد الحميد الزهراوى الذي داخله الماسون حين قال بلسانهم إن الرابطة الدينية هجرت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية . وهل كان حقاً ما بين العرب والترك رابطة دينية وهل الرابطة الاسلامية يمكن أن توصف بأنها دينية إلا على السنة خصوصاً ودعاة التفریب . قبل الاجابة على هذا السؤال علينا أن نعرف كيف واجهت أوروبا مبدأ القوميات .

### نظرية الدم

إن مبدأ القوميات في أوروبا لم يأخذ شكلاً واحداً ولكن أخذ عدداً من الصور والأشكال منها العنصرية والعرقية . أو نظرية الدم . وقد انتشر مذهب العرقية في أثناء المائة سنة الأخيرة في معظم أنحاء العالم وبلغ أوجه في ألمانيا وفلسفة التاريخ في ألمانيا قبل الحرب الأخيرة كانت تقوم على المذهب العرقى دون غيره ، فهم يقررون أن الحضارة لا تنشأ ولا تزدهر إلا على يد الشعوب الآرية ولا سيما الفرع النوردىكى الشمالى منها ، لذلك ينسبون نشوء جميع الحضارات بما فيها الهندية الفارسية إلى فنوحات آرية . والعرق فكرة بيولوجية لا ثقافية ، لذلك فإن تصنيف العروق وتبويبها يقوم على أساس الملامح الجسدية كالقامة ولون البشرة ولون العيون وشكل الرأس وحجمه ولا يصح تصنيف

العروقي على أساس اللغة أو نوع الحضارة . ونشوء الفكرة العنصرية في ألمانيا قديم بدأه أوتر دي جوبنيو ( ١٩١٦ - ١٨٨٢ ) وشارك فيه فاشيه دى لا يوج وهوستون تشمبرلين . ويقول جوبنيو : أول من وضع أصول القومية الإحيائية الجديدة في بحث له تحت عنوان ( مقال في بيان للتفاوت بين الأجناس البشرية ) إن الدم ذو أهمية عظمى وإن الناس يتفاوتون في العنصرية ، وإن الحضارة لا يمكن أن ينتقل من شعب إلى شعب ، ولذلك فإن الأجناس المتأخرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى أرفع وأن الشعب الألماني هو الشعب المختار إذ المبقرية هنصرية مرهونة ببقاء الدم ، وقد شجع جوبنيو مذهب عبادة الأسلاف باعتباره وسيلة للحفاظ على بقاء الأجناس الراقية وتمكنها من الاطلاع برسالتها في زعامة العالم . وقد أجمع فلاسفة نظرية الدم على أن الجنس الآري النورديكي هو أرقى جنس وهو الذي خلق المدينيات .

### الحلقات الثلاث

وهكذا علمت صيغة الدم ، صيغة العناصر ، صيغة الأجناس ، ومحت العالم كله . وقد واجهت أوروبا مضطرب هذه الصيغة ، وفتحت أبوابها للدراسات وكتابات اتجهت كل وجهة ، فقد أراد بها البعض إحياء العصبية القديمة كالألمان والإيطاليين وأراد بها اليهود خلق عصبية جنسية ليست موجودة جغرافيا ، ولكنها وجدت بالهجرة المنفصلة إلى فلسطين .

أما العرب والمسلمين فقد كان موقفهم واضحا من كل دعوة إلى العنصرية والأجناس ، فقد أعطاهم الاسلام مفهوما واضحا صريحا لذلك ، فغير أن سيطرة الغرب على العالم الاسلامي وفرض مفاهيمه ونظرياته عليه ، قد أقام هذه الدعوات إلى القومية ولكنه عجز أن يفرض مفهومه عليها فقد استمدت القوميات الاسلاميه مفاهيمها من داخل فكرها واتخذت من القوميات وسائل للقوة والنمو والتحرر من النفوذ الاجنبي ولكنها رفضت مفهوم القومية العدوانية التي تصارع جيرانها من القوميات الأخرى ، ونما في ظل ذلك مفهوم « العروبة » الذي أعاد تجميع الأجزاء العربية التي فنتها الاستعمار باسم الاقليميات ، ولم ير العرب بأسا من إحياء الوطنيات في الداخل مع الترابط العربي ، وفق مفهومهم الواضح الذي يربط الحلقات بعضها ببعض . ذلك إن الفكر العربي الاسلامي يؤمن أساسا بالترابط والالتقاء بين الوطنية للربطة بالأرض والعروبة المرتبطة بالأمّة والاسلام الجامع لوحدة الفكر . ونظرا لمرونة الفكر الاسلامي وسماحته وبالارتباط مع مقوماته الأساسية القائمة على التكامل ، فإنه لم يكن هناك شيء من التصادم أو الصراع أو التعارض ، بين أن تسير الحلقات الثلاث في طريقها دون

أن تتعارض ، فإنها ستلتقي على الطريق الصحيح ، ففي فترات الضغط الاستعماري الشديد لجأت الأجزاء الإسلامية والعربية إلى مرحلة الوطنية والارتباط بالأرض ولكنها لم تنفصل عن العروبة ووحدة الفكر ، ثم استطاعت أن تتحرر من الاستعمار وتدخل في الحلقة الثانية ( أى في مرحلة العروبة وارتباط الأمة ) وهي الآن على أبواب المرحلة الثالثة الجامعة : مرحلة وحدة الفكر .

### محوران في العقائد والدماء

والنجم البشري عادة يدور حول محورين : محور الفكر والعقائد ومحور الدماء والعروق . فالإسلام هو : «وحدة فكر» لأهله و«وحدة عقيدة» لمتنقيه . وهو وحدة فكر لأنه ليس ديناً فحسب ، ولكنه في الجانب الآخر ( غير الدين اللاهوتي ) حضارة ومنهج حياة ونظام مجتمع . وهو في هذا يخالف المسيحية التي هي دين لاهوتي خالص ومجموعة من الوصايا . ولقد كان الإسلام كوحدة فكر يرتبط باللغة العربية ، غير أن النفوذ الاستعماري قد حال بين جريان اللغة العربية مع الإسلام حينما ذهب إلى الناس عقيدة وفكرًا وما يزال يؤثر في هذه الأمم والشوب بتغليب لغاته الأجنبية أو اللغات الإقليمية حتى يحول دون ذلك التكامل .

مع ذلك فإن العالم الإسلامي لا يؤمن بوحدة اللغة ولكنه يؤمن بوحدة الفكر الجامعة ويرى اللغة طريقاً إلى ذلك تمهد لها السبل وترفع العقبات . لقد جاء الإسلام عقيدة إنسانية عامة انصهر في داخله فكر الأقوام وأجناس التي اعتنقته وتلك التي عاشت داخل إطاره . فتشكل فكر واحد جامع ، غير أن الإستعمار هو الذي عمل على تمزيق هذه الوحدة وابتعت دعووات التواريخ القديمة السابقة للإسلام ونمساها وغذاها بالحفريات الأثرية وإحياء اللغات والفلسفكور والتاريخ والقصص والأساطير حتى يحول دون ذلك التشكل الجامع الذي أقره الإسلام أربعة عشر قرناً . وجملة القول أن القوميات في أوربا قد ارتبطت بأمرين خطيرين يتعارضان مع العالم الإسلامي : ( أولاً ) العودة إلى الجذور القديمة مع تقدير الآثار القومية التي غيرت كل شيء . ( ثانياً ) ارتباط القومية اللادينية أو نفي أثر الدين مع أن الدين جزء من ثقافته وله ارتباط باللغة والتاريخ .



( ٣٩ )

## الخصومة في وجه وحدة العروبة والإسلام

إن هناك محاولة دائمة تلقى جو من الاضطراب والتناقض بين العروبة والإسلام في سبيل غاية محددة هي : الحيلولة دون وحدتهما أو تلاقيهما ومن هنا فإن هناك دائماً عمل بالخصومة لا ينقطع حتى لا يتم هذا اللقاء ولا يتكامل ولا يحقق نتائجها . ولا ريب أن اليهودية العالمية بل على سبيل القطع إنها هي التي أثارت في العصر الحديث محاولة إيجاد صراع وتناقض بين العروبة والإسلام وبين الدين والقومية ، وإن الاستعمار الغربي الحديث هو الذي طرح هذه القضية في العالم الإسلامي رغبة في التجزئة والإقليمية التي تحقق له هدفاً ضخماً هو : « الحيلولة دون وحدة العرب والمسلمين » وما يتوقع من حظ لهذه الوحدة . ولما كانت وحدة العرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة الممددة في الفكر الإسلامي وفي القرآن نفسه ، فقد طرحت عشرات للذاهب والقضايا والدعوات والأنظمة والنماذج التي حدثت في أوروبا لنقطية هذه للمنطقة ودوام تحريك هذه القضية وإثارتها فترة بعد أخرى ، وإذاعتها ونحويلها إلى عقائد عن طريق معاهد الإرساليات أو الجماعات والهيئات التي قام عليها بعض خريجي هذه للمعاهد ، واتخذت من الشباب النضال الذي كان مع الأسف قد أفرغ فكره تماماً من مفاهيم الفكر الإسلامي وأصوله ، ومن ثم فقد أمكن تشكيله — وهو في مرحلة التشكل والانطباع إلى للثل الأعلى وفق عبارات رمزية براقة لإنشائية ذات أسلوب رومانتيكي ، مجنح ، قائم على الظلال والأضواء ، مما يكتبه بعض المنصدين باسم « القومية » على هيئة أناشيد الترواة وذلك في محاولة لإعطاء هذه للمفاهيم طابع القداسة ومضاهات الرسائل المنزلة من السماء .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعاً وباءت فاشة قوط التدريب لأنها لم تحسب أصول الظلمات والأمزجة التي شكلها الإسلام والعروبة وقد تمددت مثل هذه المحاولات وتنوعت واستهدفت أساساً الحيلولة دون ترابط العرب والمسلمين وعزل العرب عن المسلمين وعن الإسلام جميعاً ، ودن قيام « وحدة فكر » تكون مقدمة لوحدة سياسية ، وهي دهوة دائمة عن طريق الأساليب الزائفة المنسوجة في قوالب ذات مظهر علمي إلى تأريث الخلاف الدائم بين العروبة والإسلام وبين العرب أنفسهم ، وبين القوميات والإقليميات ، وبين الأمم والشعوب وبين وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة الفكر حتى لا يكون هناك لقاء إن الهدف من تأجيج نيران القوميات والإقليميات إنما يستهدف تأخير الوحدة القادرة

على مقاومة العدو، ومواجهة الغزو وإغراق العرب والمسلمين في دحوات متعددة . ولكن النتيجة الواضحة أنه قد فشلت كل محاولة ترمى إلى إدخال واقعنا العربي الإسلامي في القالب الغربي عن طريق استيراد النظريات وخاصة نظريات القومية الأوروبية التي تنظر إلى الإسلام كدين، والدين مستبعد من خصائص القومية ، ذلك أن منطلق فكرنا وتاريخنا يقوم على العروبة وليس على القومية الوافدة . والعروبة بمفهومها العميق التاريخي الواسع المفتوح على الإنسانية والعالم الإسلامي . هذه العروبة ليست استجابة لمبدأ القوميات الذي يحتاج العالم ولكنه لقاء مع حقيقة ليس إلى تجاوزها من سبيل في بناء النهضة ، وهي إذا كانت صيغة التجمع في وجه النفوذ الاستعماري وتحدياً له فمن المستحيل أن تشكل على النحو الذي يحاول أن يفرضه ليعسد هدفها ، أو يخلق للصراع في داخلها ، وحتى لا نستطيع أن تستكمل وجودها أو تحقق هدفها .

إن التماس للنهضة العربية للوحدة على النحو الذي تحاول أن تصوره للمذاهب الغربية هو غريب هنا ولا يلتقي معنا لأنه في الصورة التي عرفتها أوروبا ، إنما استمد تشكله من واقع وظروف وتاريخ يخالف كل المخالفة للواقع الذي تواجه به هذه الأمة تحدياتها ، فإن التمسنا لواقعنا هذه المذاهب الوافدة فإننا نكون قد مهدنا لإجهاض حركة الوحدة والقضاء عليها ، ذلك أن الاستعمار حين رأى أن الدعوة إلى الوحدة على أساس العروبة الحنيفية صعد إلى طرح هذه النظريات لبعثرة القوى وإذابة المزاج النفسي للموحد الذي منه تستمد الأمة إنجاحها الأصيل ، وذلك بمحاولة إبعادها عن الإسلام فكراً وخلق حدود صفيقة وعدوالية بين الأجزاء العربية والأجزاء الإسلامية . وهل تستطيع العروبة أن تحقق وجودها إلا من داخل مضامينها ، هذه المضامين للترابطة بقيمها الأصلية وتاريخها للمند وما يفرضان من واقع وأسلوب عمل — أن محاولة هزل العرب من الماضي ( التاريخ والتراث والفكر ) هي محاولة هزل كل رصيده النفسي والاجتماعي وامتداده الحى وهي أخطر ما تحاوله حركات الغزو الاستعماري ، من أجل التبعية سواء استهدفت هذا للفصل بين الدين والمجتمع أو بين الدين والدولة أو أهلاء وحدة اللغة والتاريخ أو وحدة الجنس والعرق . وإذا كان لنا أن نقاسم لما اضطربت الدعوة إلى الوحدة طويلاً قبل أن نحقق شيئاً ذي بال ، كان لنا أن نقول أن ذلك وقع لأنها التمسست المفهوم الغربي الوافد لجانابت الفطرة ، ومن ثم فقد أصابها التعقيد حين استسلمت لحاذير الفكر الغربي عن طريق التعريب ، وهذا هو ما كان يريد لها الاستعمار حتى لا تحقق غايتها وتظل غارقة في تبة الصراع لا تخرج منه ولو بعد أربعين عاماً . إن هدف الوحدة عن طريق مفهوم العروبة الأصيل واضح وتلقائي ومنه من أصالة وحدة الفكر العربي الإسلامي ومن أعماق الذاتية وفي ضوء المزاج النفسي الاجتماعي

أما نظريات القوميات الوافدة ( ما يركز منها على اللغة والتاريخ وحدها أو يركز على الأرض وحدها ) فهو نبت غريب ، لقد كانت العروبة هي صيغة التجمع في نطاق الامة بعد سقوط حصن التجمع الرابط بين العروبة والاسلام ، وكان هدفها « التماس » قوة جديده تواجه الاستعمار وتكتل القوى وفق قيم الامة العربية الاسلامية الفكر لا وفق مفاهيم العلمانية والمادية الغربية . وإنما لجأ العرب إلى « العروبة » كأسلوب من أساليب التجمع في وجه الغزو بعد أن سقطت « وحدة الفكر » الجامعة بين العرب والمسلمين ، وكان ذلك إتجاهاً طبيعياً في حلقة أكثر استحكاماً وأقل تعرضاً للمخاطر وأكثر تقارباً في الأرض والعرق ، وهي في نفس الوقت « بؤرة » التاريخ الإسلامي الأولى التي انطلق منها هذا الضياء إلى العالم كله ، ويمكن أن ينطلق منها مرة أخرى . يقول بايندر : « استعمار الشرق العربي الفكرة القومية من الغرب ( والحق أنها فرضت عليه وما استعارها ) كوسيلة يدخل بها العالم العصري كما حدده الغرب المسيطر ، لكن عقول المثقفين العرب ولا سيما أولئك الذين عرفوا بعض الشيء عن المعرفة التقليدية لم تكن من النوع الذي يقبل كل شيء » .

ويرى بايندر أن « المحتوى » في العالم الإسلامي ، كان يختلف إختلافاً ملحوظاً ، وهذه أن فهم الطريقة الخاصة بالتطور القومي في مصر والبلاد العربية تعتمد أساساً على « معرفة الأثر الإسلامي في فهم الأفكار الغربية » ويقول : لم تكن القومية العربية عند المسلمين هي الرد الفوري على الضغوط الغربية فعلى النقيض من ذلك جرت المحاولة أولاً ببعث إسلامي سياسي ثم تلحقها محاولة أخرى لإصلاح النظرية القانونية في الإسلام ، ومن الحق أن يقال أن الخصومة التي أثارها الصهيونية والاستعمار عن طريق حركتي التغريب والشعوبية في وجه المفهوم الأصيل للعروبة كانت حادة وهنيفة ، وكانت هادفة أساساً إلى إفساد الأصيل بطرح البديل وترويجه في السوق على النحو الذي يجعله السلعة الوحيدة المعروضة في محاولة لتغطية التيار الأصيل وردمه نهائياً . ولكن إصالة الفكر الإسلامي كانت قادرة دائماً على مواجهته كل واحد ، وقد كشفت عن مقدرتها في مواقع كثيرة ، منها حملة الترجمة اليونانية في القرن الرابع ، وفي مواجهة ما طرح من نظريات في السياسة والاجتماع والتربية والقانون منذ سيطر النفوذ الاستعماري على العالم الإسلامي ؛ ومن هنا كان موقفها من النظريات الوافدة في مجال القومية والاقليميات بالرغم مما صيغت به هذه النظريات على نحو براق يرضى النفوس البسيطة والعقول المحددة ذلك أن هذه النظريات كانت بطبيعتها متعارضة مع الفطرة ومع المزاج النفسي العربي الإسلامي الأصيل الذي يؤمن بالآفاق الواسعة المفتوحة ولا يؤمن بالصراع أو التناقض أو التجزئة .

( ٤٠ )

## تحديات التكامل بين العروبة والاسلام

### أولاً : محازير مبدأ القوميات الوافدة

ماهى المفاهيم الاساسيه التى يتميز بها مبدأ القوميات الغربيه الوافدة وماهى محازيره :

( أولاً ) الابواب المعلقة على الامم بالعداء والاستعلاء والمنافسة فى أوروبا أى أنها قومية الصراع والتنافس والاستعلاء . وهذا المفهوم من العسير قيامه بالنسبة للعرب كأمة كانت هى قاعدة للعالم الإسلامى سياسياً وفكرياً ، ثم عقدت مع هذه الامم الاسلاميه روابط فكر ومجتمع أمتدت أربعة عشر قرناً ، لقد ارتضت أوروبا القومية بعد أن حررت نفسها نهائياً من الدين كعقيدة جامعه وكانت قد ترجمت الانجيل وانقسمت إلى كاثوليك وبروتستانت ثم سيطرت اليهودية العالمية على البروتستانت كمحاوله لتدمير المسيحية الغربية من الداخل . وكذلك بعد أن اتهمت من وحدة اللغة لم تعد فى أوروبا لغة جامعة ، فقد سقطت اللغة اللاتينية نهائياً . ومن هنا نذكر محاولات الاستعمار فى إثارة الخلاف بين العرب والفرس ، وبين العرب والترك لإغلاق باب الالتقاء وتدمير مفهوم العروبة الأصيل ونحويله إلى مفهوم القومية العسوانية الوافدة الذى طبقته أوروبا ، إن أكبر ما هدفت إليه نظريه القومية الوافدة هى هزل الأجناس فى العالم الإسلامى من بعضها البعض وإقامة حواجز سياسية وفكرية وثقافية بينها ثم خلق أسباب الفرقة والتنازع والصراع حتى لا تلتقى على وحدة فكر أو وحدة سياسية أو اجتماعية ، وخاصة هزل العرب عن الأتراك بعد ترابط دام أكثر من ثلاثمائة عام

ثانياً : العرف أنفسهم لم يكن لهم وجود حقيقى كأمة أو كوحدة قبل الاسلام وليس فى تراثهم شاعر واحد تحدث عن العروبة بل كانت القبيلة هى الاساس ، ومن هنا فإنّه من العسير على الباحث أن يجد تاريخاً للعرب بعيداً عن تاريخ الإسلام أو يجد قبا وكياناً للعرب بعيداً عن الاسلام ، أو يجد حافظاً للعرب غير مرتبط بالاسلام .

ثالثاً : خطأ محاولة التفضل على الاسلام بأنّ العرب فيه ، والعكس هو الصحيح فالاسلام هو الذى جعل العرب عرباً وليس العرب هم الذين جعلوا الاسلام إسلاماً ، وإنما كان لهم دورهم الواضح المعترف به لاشك فى نشر الاسلام .

ولقد كانت للمفاهيم واضحة وقائمة منذ وقت بعيد من أن العرب مادة الإسلام وإنه إذا ذل العرب ذل الإسلام . ومن هنا يسقط قول القائلون بتفديس الأمة العربية ، والذين يصفونها (تجربة رحمانية) أو أنها (هقيمة) أو يعطون المعنى القومي الوافد طابعاً فلسفياً لاهوتياً أو صوفياً أو مثالياً على هيئة للزامير التي يراد بها إغراء الشباب وتقلهم من الدين إلى القومية باعتبارها دين جديد . هؤلاء الذين يقولون بأن ظهور الأمة على مسرح التاريخ كظهور الإلهام على مسرح الوجدات مع الاهتمام بالجاهلية والتركيك عليها ووصف اللغة العربية بالعبرية أو وصف محمد بالبطولة . هذه الدعوة التي تهاجم بعنف الفارسية والتركية وتضرب الامتداد الإسلامي للعروبة وتثير حوله الخصومات والأحقاد ، هي دعوة زائفة ، لأنها لا تستمد مقوماتها من إصالة المنابع ولا من صفاء المزاج النفسى الأصيل ، أما العروبة فإنها تحرر الأمة من التعصب والعنصرية والقداسة والاستعلاء وتلتبس مفاهيم العرب والمسلمين على النحو الذى فهمه الإمام الشافعى والإمام ابن تيمية .

رابعاً : ليس الإسلام عنصراً مرحلياً فى تاريخ العرب أو فى تاريخ الإنسانية ، فالإسلام فى حقيقته مبدأ التاريخ الحقيقى للعرب والانسانية جميعاً وأنه حين جاء تحددت الحدود والفواصل بين عصر وعصر ، بين عصر الاضطراب الوثنى المادى الذى تصارعت فيه الفلسفات اليونانية مع الأديان المنزلة ، وانحرفت مفاهيم الأديان وتغيرت ، واضطرب أمر السكتب السماوية ومفاهيمها وشانت البشرية لحظة العبور إلى مفهوم السماء المتجدد فكانت رسالة الاسلام أتم الله بها الدين وكان القرآن خاتم السكتب السماوية ومحمد خاتم الأنبياء والرسل ، وما زال القرآن منذ نزل من السماء إلى اليوم (وسيطلاً) النص الموثق الذى لا يأتية التحريف ، والذى يرسم للإنسانية طريقها إلى الحق . فلن يكون الاسلام عنصراً مرحلياً ، بل ستكون المذاهب والفلسفات هي النظريات المرحلية المتغيرة ، وتبقى للإنسانية القيم الثابتة ، والقوانين الأساسية ممثلة فى القرآن والاسلام .

خامساً : لم يتفق أصحاب مذاهب القوميات الوافدة على مفهوم واحد ، هناك عشرات وكلها وافدة ودخيلة : منها القومية العلمانية ونظرية المشرق والمغرب ونظرية الاقليم البنانية مطروحة للعقل العربى ولتنطبيقها على العرب جميعاً . ومن العسير تحرير طبيعة الفكر العربى الاسلامى الأصيلة لتقبل مفهوم أو مذهب يحاول إرضاء طائفة من الطوائف ، لأنه الفكر الغالب السامع هو الذى يجمع ولا يفرق ، أن الطوائف قد عرفت منذ التاريخ الطويل كيف امتدت الحماية والحضانة فأخذت حريتها فى مجال العمل والعبادة ، ولم تتحرك هوامل القلق إلا حين حركها النفوذ الأجنبي الاستعمارى

الذى يريد أن يفرق ويمزق ، ويحول دون قيام النهضة على أصولها ، ودون أن يبدو دوره واضحاً ظاهراً ، بل يبقى خفياً ، من وراء من يدفعهم ويشير في نفوسهم المخاوف التى لم تصح أبداً . وهذه الطوائف تعرف أنها جزء من هذا التشكل العربى الإسلامى وأنه ليس لها فكر ولا تاريخ ولا تراث ولا قيم مستقلة خارجة عن هذا الفكر والتاريخ . يقول عزيز ميرم : إنما تقدم الغرب على الشرق فى فكرة بناء الوحدة القومية على أساس وحدة الدم والتاريخ والوطن لتمصب الغربيين لأديانهم فتقاتلوا من أجلها دهوراً أما فى الشرق فلنساهل الدين الإسلامى وتسامحه لم يمنع الإسلام الطوائف غير الإسلامية من المعيشة والانتشار إلى جواره وقد وضع الإسلام منذ نشأته قاعدة حرية الدين وأجاز للطوائف غير الإسلامية حق مباشرة شؤونها الداخلية بنفسها وفقاً لأحكام أديانها ( الأهرام ١٩٢٢/٣/٨ ) . ولا شك أن أصحاب المذاهب القومية الواحدة ليسوا على استعداد لقبول أى شيء ذلك أنهم لا يريدون البحث الحر النزيه ، بل هم يدهون إلى الشكل الذى رسمته القوى الأجنبية وتشكل فكرهم مأساساً على الاعتقاد به وقد اتخذوا أماكنهم القيادية فى العالم العربى بفضل هذه الدعوات وفى ظل ألويتها .

سادساً : خطأ المحاولة التى تطرح العروبة كبديل للإسلام من حيث هو فكر ونظام ومجتمع . ولا ريب أن عروبة الفكر تعنى إسلاميته فليس هناك فلسفة عربية فى الفكر غير مستمدة من القرآن . وأن محاولة خلق فلسفة عربية معاصرة معزولة عن الإسلام هى محاولة لن تحقق كثيراً من النجاح ولا الاستمرار إلا فى الظروف التى تساندها فيها الدعايات ومن يفرضونها أو يحمون وجودها الزائف . إن محاولة خلق وجود عربى ، أو عروبة ، أو فكر عربى على النحو العلمانى المنفصل عن الإسلام أمر بالغ الاستحالة ، وبالغ الابتعاد عن القانية العربية والمزاج النفسى الذى عرفته هذه الأمة . وإن هذا الفصل المتعمد بين الفكر وبين الإسلام هو فصل غير طبيعى وأبلغ خطأ أن يراد به الفصل بين العروبة والدين ، فليس الإسلام ديناً نحسب ولكن دين وحضارة ونظام مجتمع .

إن عزل العروبة عن الإسلام أو خلق عروبة غير إسلامية هى إحدى وسائل الدفاع عن وجود إسرائيل فى العالم الإسلامى والبلاد العربية ، ذلك أن العودة إلى ترابط العروبة والإسلام فذلك الترابط العضوى الجذرى هو أول معول فى وجود إسرائيل والنفوذ الأجنبي الاستعمارى والعصبيون معا .

سابعاً : أهم أخطاء النظرية القول بأن الإسلام دين وأن العروبة قومية وأن ما تطبته أوروبا يصالح للتطبيق في العالم الإسلامي . وهي عبارة أخرى : محاولة وضع القومية في مواجهة الدين ، وحتى إن صح هذا فإنه من المستحيل أن توضع العروبة في مواجهة الاسلام فالعربية لغة لا يمكن أن تذهب إلى المنحرف كاللاتينية لأن لها جذورها وارتباطاتها القائمة المتصلة بفكر وثقافة وعبادة ألف مليون مسلم ، والاسلام كدين لا يمكن أن ينضوى في المسجد لأنه دين متكامل هو دين ونظام مجتمع والقرآن لا يمكن أن يترجم بوصفه القرآن بل باعتباره ما يترجم من معاني القرآن ، وهناك الفارق بينه وبين ترجمة الكتاب المقدس في أوروبا أن أكبر الأخطاء في فهم القوميات وفي فهم العروبة ، هو تجاهل ذلك الفارق الدقيق بين كلمة دين وكلمة عروبة ، فإذا فهمت هذه النقطة بوضوح بدا أن كل ما كتب أو أغلبه كان محمولا على خطأ هذا الفهم غير المقصود أو المتعمد ، ليست هناك في العالم الاسلامي حركة قومية خالصة وحركة دينية خالصة ولسكنها كلها حركات عروبية إسلامية ، ليست هناك حضارة عروبية أو حضارة إسلامية ولسكنها حضارة عربية إسلامية .

ثامناً : من الاستعانة بنجاح الدعوة إلى العودة لما قبل الاسلام : الفينيقية والفرعونية وقد انتهت التجربة المصرية إلى الفشل السريع ، فإن الفرعونية لم تجد الجذور الأصلية التي اجتمها الاسلام وأقام بدلا منها عالما آخر مختلفا كل الاختلاف . وكذلك فإن ما تحاوله الفينيقية إنما يعبر بقوة دفع خارجية وليست له إصالة حقيقية إلا على اعتبار أن الفينيقية فرع من العروبة قديم وكذلك الفرعونية . ذلك أن الاسلام كان عاملا حاسما في الفصل العميق بين عالمين : عالم ما قبل الاسلام في هذه المنطقة وعالم ما بعده . والواقع أن إعادة العرب والمسلمين إلى ما قبل الاسلام معناه فكرا العودة إلى الوثنية الفكرية التي يتعارض معها التوحيد ، تلك الوثنية التي تؤمن بالقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح ، وكذلك إلى الفنون القائمة على أساس التهاويل والأساطير والخرافات التي أفسدت العقل الانساني وحرر الاسلام منها البشرية تحريراً تاماً ، ولا شك أن هذا فكر قد اندثر وباد ولا يمكن أن يعود العقل الاسلامي كرة أخرى إليه . ولا شك أن الأشورية والبابلية والسكلمانية والآرامية والفينيقية والفرعونية ، كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية ونزحت من موطنها الأولي وانداحت في هذه المنطقة العربية الخنيفة ، وأبناء هذه العروق جميعا هم العرب الذين نزلت فيهم الأديان قبل أن تغلب العنصرية على الخنيفة . ناسعا : خطأ نقل المعادلة بين القومية والدين إلى العروبة والاسلام ، فالاسلام دين ونظام ومجتمع ، والعروبة دعوة تجمع أمة ذات تاريخ ولغة ووجود شكله الاسلام فكرا وقوميا .

والقومية لا تمتلك منهج حياة ولا نظام مجتمع ، وإنما هي حلقة من حلقات ثلاث هي ( الوطنية — الأمة — الفكر ) ، الوطن رابطته الأرض والأمة رابطته اللغة والجنس والفكر رابطته البناء الاجتماعي والعقائدي . عاشر آ . الشخصية العربية هي شخصية إسلامية لها لون عربي ، ليس هناك شخصية عربية مستقلة أو منفصلة وإن تكون ، لأنها بطبيعتها وتركيبها وجودها نشأت من وجود الإسلام نفسه الذي أهمل لغة العربية القرآن مصدراً خالداً للتشريع والبيان جميعاً ، وأعطاهما وحدة اللسان ووحدة الفكر ، ونقلها من شتات القبيلة إلى وحدة الأمة ومن صراع الجاهلية وثنياتها إلى الوحدة الالهية والأخاء والعدل . حادى عشر : يختلف المجتمع الاسلامي عن المجتمع الغربي : بأنه جامع بين عقيدتين أو دينين : دين أغلبية ودين أقلية ، ولكن الاسلام — الحضاري — غير العقدي واللاهوتي هو للمسلمين معاً ، فالمسيحيين هل حد تعبير أحد دعاة يرون في الاسلام ثقافة قومية لم « يجب أن ينشئوا بها لأنه لا تنصل بطبيعتهم وتاريخهم ، وكان أحد زعماء السياسة القدامى يقول : أنه مسلم وطنياً نصراني ديناً .

ثاني عشر : زيف القول الذي طرحه الصهيونية العالمية للامونية من أن عصر الأديان قد انتهى وقد جاء عصر القوميات ، أو عصر اللادينية ، والقوميات في أوروبا تركت تاريخاً سيئاً وانعابها آثراً دنيئاً وانتهت منها أوروبا ثم صدرتها للعالم الاسلامي ، وإذا كان مردودوا هذا يصدقون على أديانهم فإنهم واهمون إذا كانوا يقصدون الاسلام . ذلك أن الاسلام ليس ديناً أرضياً ، وليس ديناً لاهوتياً ، ولكنه حركة اجتماعية شاملة تفهم ثقافات وعقائد وقيم المسلمين والمسيحيين جميعاً ، قد آمنوا من الاسلام للثقافات والفلسفات التي هرستها المنظمة كلها من قبله وهي ما تسمى بالثقافة الحنيفية . ولا شك أن هذه المحاولة التي تسمى بالقومية العلمانية التي تهدف إلى إقصاء القيم الفكرية والروحية التي جاءت بها الأديان من الحياة الاجتماعية وتحرير الفرد والأمة من رابطة العقائد والأخلاق ، هذه العلمانية هي أساس في النظرية القومية الوافدة ودعوات الأجناس والعروق ، ومن هنا فإنها تتعارض معارضة أساسية مع مفهوم الإسلام الجامع بين العروبة والإسلام تحت لواء « وحدة فكر » . ثالث عشر : إن أمر الجنسيات والقوميات يختلف في العالم الإسلامي عنه في العالم الغربي في أشياء كثيرة أهمها : إن الإسلام حين جاء قطع تلك الأصول القديمة كلها من فرعونية وفينيقية وأشورية وبابلية وصهرها من جديد في « وحدة فكر » . ومن المصعب أن أغلب هذه الفروع قد جاءت من الجزيرة العربية أصلاً فهي لا تختلف من حيث مبدأها . إن قوة الإسلام في القضاء على هذه الأجناس وإذابتها لا تقابل ، وإن إحياؤها من جديد لا يعني شيئاً أكثر من تشككها من جديد في دائرة الإسلام نفسه ، فالاسلام رابطته



هقيقة الجذور صبرت الفكر الإنساني كله في أعماقها واستصفته وشكلته من جديد في دائرة التوحيد ، ونفت ما سوى ذلك .

وما تزال رابطة وحدة الفكر أكبر من رابطة الأجناس والدماء ، بل إن رابطة الأجناس في ظل الدهوات الجديدة قد أخذت تنهسر ، فهي في الفكر الإسلامي منهجرة وما تبقى منها محتفظاً بذانيتها فإنه لا يستطيع أن يتفصل عن المفهوم الواسع لمفاهيم اللغة والتاريخ والثقافة وكلها ذات جسدور إسلامية هربية . والواقع الملموس أن هناك اتصال وترايط بين العربيه والإسلام لا سبيل إلى تمزيقه ، أنه ترايط جنسرى ضخيم قد تشكل منذ قرون بعيد على ما يمثل الإسلام من حيث هو هقيقة ومأتمثل العربيه من حيث هي أمه والسر في ذلك أن الإسلام ليس ديناً بمعنى الدين الذى عرفته أوربا حين وضعت نظرية القوميات ، فهو دين ونظام مجتمع ومنهج حياة ، وهو هقيقة وشريعة وفكر وحضارة . ولقد تأكد فساد نظرية الدم في البلاد العربيه وفساد القومية المسندة على أساس العنصرية حيث تقوم النظرة الإسلامية على حرمان التفاضل بالأجناس والأنساب والطبقات حيث لا فضل لأبيض على أسود ولا عربى على هجيبى ، فالإسلام ينكر فوارق الجنس ، وفوارق اللون ، وفوارق العقيدة . رابع عشر: إن العلمانية في محيط العرب والإسلام دهوة لا ضرورة لها ولا نتيجة ترجى منها ، فليس في هذا المحيط هيئة تقسوم مقام الكنيسة وليس علماء المسلمين هم رجال دين ، وليس في الإسلام حكومة ثيوقراطية قامت أو تقوم ، والمجتمعات الإسلامية قد مزجت الإسلام بالمجتمع مزجا كاملاً هقدياً وهضوبياً لا سبيل إلى نزعة فقد شكلت الأمة على هذا النحو ولن تستطيع التحرر من ذلك إلا بإعادة خلقها من جديد .

والمسيحيون مسلمون فكراً أو مسيحيون هقيقة ، فالفكر والثقافة والتاريخ العربى إنما كان بعضى كله من خلال قناة واحدة ، لم تنفصل ولم تقع في خلاف أو صراع أو تعارض أو تضاد إلا حين فرض الاستعمار نفوذه وطرح شبهاته . وكل المخاوف التى تثار لا تنقض الروابط العميقة بين أبناء الأمة الواحدة ، وهى ليست إلا محاولات النفوذ الغربى لنصهم هروء الوحدة بالتخويف : ومن حيث أن الإسلام دين ونظام ومجتمع . فإنه يستحيل على العلمانية أن تنجح ، ذلك أن الإسلام تقدم للانسانية نمطاً عالمياً من التشريع والنظم في مختلف مجالات القانون والتربية والسياسة والاقتصاد .

## ثانيا : تحديات التكامل بين العروبة والإسلام

واجه الالتقاء بين العروبة والإسلام تحديات عدة أهمها :

(١) تحدى الطورانية (٢) تحدى الاستعمار (٣) تحدى تزييف الفكر الإسلامى بطرح الشبهات والنظريات الوافدة ، ولقد كان الهدف من طرح هذه الشبهات والنظريات إغراق المسلمين والعرب فى دعوات متعددة متضاربة حتى لا تتشكل لهم وحدة فكر جامعة ، ومن ثم كانت دعوات الإقليمية والقومية اللادينية والعالمية تستهدف جميعاً محاصرة البقعة العربية الإسلامية لتحول دون تشكلها فى حركة كاملة وتعميلها بدعوات متعددة متضاربة حتى يضيع خطها الأصيل ، ويبدو نافهاً ضئيلاً وباهتاً بين هذه الخطوط المتعددة . غير أن الفكر الإسلامى استطاع فى ظل هذه التحديات أن يستكشف جوهره وأن يؤكد وجوده وأن يصحح مفاهيمه ، ويحرر مقوماته من التقليد والجلود ، والوافد والدخيل ملتصقاً بأصوله الأصيلة وقيمه الأساسية ومنابعه الأولى من القرآن والسنة الصحيحة قبل أن تختلط بالفلسفة أو الاعتزال أو تفاريع الفقه أو التصوف لينتخذ منها قاعدة لانطلاقه مؤمناً بأن رحمة هذا الفكر الجامع لأهل العروبة الحنيفية التى تمتد على الأرض العربية مفتوحة على العالم الإسلامى كله جغرافياً وعلى الفكر الإسلامى تاريخياً . ومن ثم فقد انخفضت حرارة ذلك التيار الذى كان غالباً فى الإيمان بالحضارة الغربية أو الاحجاب بالفكر الغربى ، وحل محله إيمان بالذات والكيان وقد جاء ذلك على أثر ضربات المعاول وانكشاف الزيف التى حملته نظريات وشبهات التفریب التى كانت تعتمد إلى تركيز النفوذ الاستعمارى بسلب الذاتية العربية الإسلامية جوهرها الأصيل وتشويه القيم الأساسية .

وهندنا : إن العرب والمسلمون قد خرجوا فعلاً من مرحلة التبعية الفكرية ودخلوا ساحة الرشد والذاتية الأصيلة . ولا ريب أن وضع ( العروبة ) فى مواجهة ( الإسلام ) هى محاولة استعمارية ، وأن وضع القومية فى مواجهة الدين ( فى نطاق الفكر العربى الإسلامى ) هو خطأ بالغ فى فهم الإسلام والعروبة معاً . قد لا يتفق الدين والقومية فى الغرب ولكن الإسلام والعروبة لا يتحلفان ولا يتعارضان . ومن هنا يمكن القول : إن النظرية للمطروحة للقومية هى نظرية هنصرية أصلاً ، أما نظرية العروبة الحنيفية ، فإنها تستمد وجودها من إصالة الفهم للأواقع العربى وامتداده على أرض الشرق الإسلامى ، متصلاً بذلك الكيان الفكرى العميق الجذور الذى شكل مختلف الوحدات والنجمات التى هرفها

العرب والمسلمون خلال أربعة عشر قرناً . إن الفكر الإسلامى لا يجد تعارضاً بين دائرة الوطن ودائرة الأمة ، ولكنه يعارض التحرك من خارج دائرة القيم الأساسية ، على هذا النحو من « التشكل » الزائف وفق نظرية وافدة مما يطرحه تلامذة الثقافات الأجنبية والارسلاليات التبشيرية . إن بيننا وبين نظريات الغرب محاذير عدة أهمها : أولاً : إن الغرب له وجهة نظر فى أمور بما تتفق مع نفوذه فهو لا ينظر إلى القضايا العربية الإسلامية نظرة تجريدية أو علمية خالصة . ثانياً : إن فكر الغرب يقوم على إنشطار فى المعرفة بين العلم والدين والقلب والعقل . ثالثاً : إن الغرب يبنى كل منطقاته الفكرية على أساسين ( ١ ) العلمانية التى ترفض الأديان ( ٢ ) العنصرية التى لا تعترف بالوجود إلا للجنس الأبيض ولا ترى لغير أوروبا ذرراً فى الحضارة . رابعاً : إن أى حركة فكرية عربية ( سياسية أو إجتماعية أو فكرية ) لا بد أن تبدأ من اللبائغ ، هذا فضلاً عن أن هناك من المنصوص للتاريخية للوثوق بها ما يؤكد أن دعوة القوميات الغربية إنما صدرت من جائحة الأجناس والدماء والأهراق التى شنتها اليهودية على العالم كله من أجل القضاء على وحدة الكنيسة فى أوروبا ووحدة الجامعة الإسلامية للربطة بالدولة العثمانية فى العالم الإسلامى لاثارة الصراع بين الأمم جميعاً ، وتركيز وجود زائف للجنس اليهودى فى فلسطين . ولقد أكد كثير من علماء الغرب هذا المعنى حتى قال واحد من أساطين الفسكرة القومية هو ( جاك فينو ) « إن نظرية الاجناس ستشغل مكاناً هاماً فى تاريخ أضراب الفكر البشرى » .

ولا شك أن تأريث دعوة العنصرية الغربية الجائحة والاستعلاء بالاون والحضارة والتفوق المادى كان مقدمة لما وقع فى أوروبا وترك أثره بارزاً فى العالم الإسلامى . ولا شك أن طرح مفاهيم العنصرية الغربية فى مجال العالم الإسلامى هو الذى فتح باب التنازع بين العناصر التى جمعها وحدة فكر ( عربية إسلامية ) الأكراد والعرب والسنة والشيعة والمسلمين والمسيحيين والبربر والفاخرة . ومن هنا فقد كان على المثقفين العرب والمسلمين أن يتيقظوا إزاء ما تطارحه الدوائر الاستعمارية ومعاهد الارسلاليات فهو ليس صحيحاً فى جملته ، وهو مصبوغ بصبغة معينة يراد بها الفصل بين الوحدة الفكرية للعرب والمسلمين ، فعلى الذين خدعهم هذه الفلسفات والآراء طويلاً أن يتحرروا منها وأن يعرفوا أن العدو لا يقول الحق ولا يريد الخير ، وأن أهل المنظمة كانوا من قبله يشكون وحدة أخوة ومحبة وصيكونون كذلك رغم كل دسائسه ومكره وخداعه لبعض من يستمعون له أو يصدقونه ، ولقد كان الفكر الإسلامى العربى على مدى العصور سمحاً كريماً داهياً الى حرية الرأى والعقيدة وسلامة الصدر واليد .

ولسكن واقعيين في النظرة حين نرى أن بنية الفكر العربي الاسلامي وطبيعة المجتمع العربي الاسلامي ترفض كل فكرة وافدة زائفة ، إن كثيراً من الثقافات تستطيع أن تتقبل الفكر الوافد وتشكل فيه ولسكن الفكر العربي الاسلامي بمراقته وإصالته وذاتيته الواضحة يستحيل عليه التماثل أو الاحتواء أو الذوبان . وقد يبدو - وقتئذ - في ظل ظروف القاهرة أو سلطنة قاهرة ، أنه قبل النظرية الغربية المطروحة أو كاد ، سواء في مجال الإقليمية أو القومية أو الديمقراطية أو غيرها ، ولسكنه لا يلبث أن يستجيش من أعماقه ويستكشف ذاتيته وي طرح عنها المفروض والوافد ويستنهض ما يتفق مع طابعه فيمنعه ويحيله إلى كيانه دون أن يفقد طابعه الأساسي . وفي ضوء هذا يبدو هسيماً ما يبدو إليه بعض الكتاب من تحرير مفهوم « العربية » من أي التباس مع المفهوم الاسلامي وهم يعرفون استحالة ذلك وهجر أقدر نكاسة القومية عنه وفشل أي نظرية مهما بلغت براعة صاحبها ، من تحقيق هذا الفصل ، وأن ذلك في ذاته مخالف أساساً لناموس للسكون ومنع الاجتماع والتاريخ ، ذلك أن الارتباط العميق الجذري القائم بالقرآن وقيمه ومفاهيمه ، هذا الارتباط لا سبيل إلى فصله أو إزالته .

### خاتمة

لقد آن للفكر الاسلامي أن يصدر عن نظرة أصيلة في ترابط العربية الإسلامية يستمدّها من فهم عميق وأصيل للجذور الحقيقية والقيم الأساسية لمفاهيم العقيدة والتاريخ واللغة وفهم أصيل لإلاّت الوطن والأمة والفكر . وأن يجري هذا الأمر بعد أن هدأت تلك الضجة الشديدة التي أثارها دعاة الإقليمية ودعاة القومية الغربية الوافدة وأصحاب المفاهيم التي تستهدف تدمير ما بين الأمم الإسلامية وبين العرب العرب من ناحية وبين الإسلام والمسلمين والعرب من روابط فكرية ونفسية وإجتماعية لها أثرها العميق الممتد عبر أربعة عشر قرناً والذي شكلها أساساً منذ ظهرت دهوة الإسلام في قالب الحزيرة العربية وامتدت منها إلى الآفاق — شكلها على مفهوم جامع ، وقد كان لابد من القيام بمراجعة كاملة للنظرية الغربية الوافدة في القوميات والإقليميات ومعرفة مدى نفعها واختلافها مع واقعنا . وكيف يمكن أن تلتقي مع كياناتنا هذه الذي شكله القرآن منذ نزل بالحق ، وقامت على أساسه أصول نفسية واجتماعية تمثل الذاتية والمزاج والروح العربية الإسلامية التي تختلف اختلافًا واضحاً وعميقاً وجذرياً عن مثيلها في الفكر الغربي .

قوام هذه النظرة إن ( وحدة الفكر والقيم والقائد ) هي أساس الحنيفية ذات الجذور العميقة التي

تشكلات منذ تأملت هذه الأرض لرسالات السماء ومضت تصحيح نفسها مرحلة بعد مرحلة ، وقد انطلقت من قلب الجزيرة العربية تلك الموجات التي انداحت من العراق حتى إفريقيا فكانت بمثابة التوسيد العميق لرسالة الإسلام حين جاءت لتلتقي مع أمة هربية تحمل لوائها إلى العالمين فهي هروبة حنيفية منذ انطلاقتها تحمل جذور التوحيد والعدل والرحمة ، فلما جاء الإسلام صقلها وناقها وبرأها بما ألم بها على مدى العصور من وثنية أو شرك أو انحراف ، وأعادها حنيفية إسلامية وهي هروبة مفتوحة ثقافياً على التاريخ والتراث ومفتوحة جغرافياً على العالم الإسلامي والأمة الإسلامية ، وهي في أعماقها ثلاث حلقات متداخلة لا تنقسم هي : الوطن والأمة والفكر كل منها يسلم إلى الوحدة والتكامل وهذا هو الفارق العميق بين مفهوم العروبة ومفهوم القومية الوافدة ، فضلاً عن الخلاف بين الدين بمفهوم الغرب لا هو تآخراً خالصاً بين الدين بمفهوم الإسلام نظاماً جامعاً بين منهج حياة وعقيدة . ولا ريب أن الغريب كان خفياً بأن يفضل بين العروبة والإسلام ، وأن يطرح البديل الغربي ، وقد بدأت هذه النظريات في معاهد الرسائل ومحافل الماسونية وركزت الأضواء على الذين حملوا هذه الدعوات ليصبحوا أهلاماً ومنازل تفرى الشباب الغض الذي لم يكن قادراً على أن يفهم حقيقة فكره الإسلامي وصلته بالعروبة ، وكان الهدف هو الحيلولة دون وضع ( حركة اليقظة الإسلامية ) على طريقها الصحيح والعمل دون وصول العرب حمله الرسالة الإسلامية إلى مكائهم الحق .

وقد تبين أن فكرة العروبة جاءت في مواجهة التحدي بفكرة الطورانية ، واسكنها كانت هروبة ذات مضمون إسلامي ، وكانت استجابة المقاومة ضد الاستعمار بعد سقوط الدولة العثمانية في محاولة لا تامة تجمع أصغر في دائرة الأمة بديلاً عن الوحدة السياسية التي سقطت : هذه العروبة لم تسكن في صدور الداهين لها أولاً استجابة لمفهوم القوميات الغربية الوافدة وإنما كانت منطلقاً إلى الوحدة الإسلامية مرة أخرى عندما تزول غمة الاحتلال والسيطرة الأجنبية ، وكانت تطوراً طبيعياً فرضته الأحداث حين اضطرت حركة اليقظة إلى التحرك تحت ظروف الإسلام في دائرة الوطن أو الأمة كمقدمة لبلوغها مرحلة الوحدة الكبرى ، غير أن النفوذ الاستعماري لم يدع الطريق خالها ، وإنما دفع إليه دعوات ومفاهيم ونظريات معوقة لي محاولة إخراجها من واقعها وأساسه أو بليتها وإفساده فقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلاً لكلمة العروبة عملاً على خاق الصراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكمل وجودها أو تحقق ارتباطها الطبيعي ، ولقد كانت هذه المناهج الغربية التي طرحت نظرية القومية العربية الوافدة إنما تحاول أن تجهض هذه الدعوة أو تنقضي عليها ، فقد رأى أن الدعوة إلى العروبة قد بدأت تتشكل في أصالة لتأخذ مكان الفكرة الإسلامية فسرعان ما غزاها

بمفاهيم غربية عنها حاول بها إيمادها عن الإسلام فمكرراً وفصلها عن العالم الاسلامى جغرافياً .  
غير أن السنوات الطويلة التى انقضت فى المراجعة والمواجهة كشفت عن حقيقة واقعة : هى أن طبائع  
الاشياء وأصولها الاصلية لابد أن تحمل محل الزيف الذى يبدو حين يطرح وله بريق ساطع . ثم يتكشف  
جوهره من غشاء كغشاء السيل فإذا به معارض لذاته الاصلية والمزاج النفسى للأمم فلا تلبت  
الامة الاسلامية أن تلفظ ذلك كله وترفضه وتعود إلى جوهرها الاصيل بالرغم من الفيود التى تحاول  
أن تحجزها فى أوضاع محددة .

## ( ٢ )

كانت النظريات الاقليمية والقومية الغربية قد صاغت أحقاد الصهيونية والاستعمار وهى تحس  
بقوه الترابط بين العروبة والاسلام ، وأن غفلت بطابع زائف من العلم أو بريق من الصناعة . وكان  
أ كذب المقاييسات مقايسة الاسلام على الأديان الأخرى دون النظر إلى طبيعة الاسلام المختلفة عن  
طبيعة الدين بمعنى العبادة ودون التفرقة بين كلمة دين وكلمة اسلام وبين كلمة قومية وكلمة عروبة : ودون  
بيان الفارق بين صلة القومية بالدين فى الغرب وبين صلة الاسلام بالعروبة فى عالم الاسلام ، وكان  
الخطأ الكبير هو افتراض أن النظريات الأوروبية فى القومية أو فى غيرها صالحة للتطبيق أو صالحة  
لمقايسة واقع العرب والمسلمين . ومن السذاجة أن يظن البعض أن يتخذ العرب من مبدأ القوميات  
ديناً يضعون له قداسة الاسلام ، والذين قالوا بذلك أو دھوا إليه كانوا جده غافلين من مفهوم لاسلام  
وجوهر فكره ولكنهم اهتمدوا على أن الارساليات والمدارس الوطنية قد علمت الدين للعرب على  
أنه عبادة وليس على مفهومه الحقيقى منهج حياة كامل . والواقع أنه لن تصبح القومية ديانة للعرب  
والمسلمين أبداً وإن يكون لها قداسة العقيدة ، فإن العرب والمسلمين إنما يشكون أنفسهم فى ضوء  
التحديات وظروف الأزمات من خلال فكر واسع عميق قادر على العطاء فى كل الأحوال ، مفتوح  
على التلقى ، قادر على الأخذ والرد ، لا ينصهر ولا يذوب ولا يحتوى . ولذلك فقد سقطت محاولات  
بت القومية على أنها عقيدة روحية تستطيع أن تخلف الاسلام أو تحل محله . وتكشف بعد قليل  
أن القومية بمفهومها الغربى محاولة لصدام العروبة محتواعا الاصيل ذلك أن فكرة العروبة بمفهوم  
الحق إنما تقوم فى نطاق أخلاق معترفة بمكانها من الاسلام مفتوحة على الفرس والترک والأمم  
الاسلامية جميعاً متكاملة بها . وما تزال الثقافات العربية والفارسية والتركية تصدر إطار الاسلام  
ولا تستطيع الاقليات أو القوميات الوافدة أن تبلغ منها مبلغ المنعصب الذى عرفته القوميات الغربية

ولن تستطيع العروبة أن تخرج من مفهوم الإسلام مهما أوقد لها التفريب النار - في الإستعلاء بالماضي الوثني أو الإنفلاق عن الأمة الإسلامية .

أن أقوى أهداف النفوذ الأجنبي ( كانت وما تزال ) وضع للمسلمين والعرب في قوالب الفكر الغربي وإخراجهم من مناهج فكرهم ومفاهيمهم الأصلية ، وقد إستطاع التفريب ذلك عن طريق فرض سيطرته على التعليم والثقافة والصحافة بواسطة معاهد الإرساليات وغيرها التي خرجت مجاميع من القادة والكبراء ولكن هذه المحاولة قد اكتشفت اليوم تماماً وتبين مدى أثارها على الأخطار والتحديات التي واجهت المسلمين والعرب في ربع قرن الأخير . كذلك فقد فشلت ( العلمانية ) ولم تستطع أن تحقق شيئاً كما فشلت الديمقراطية الليبرالية ومن بعدها الماركسية ، ذلك لأنها فرضت دون تقبل حقيق في ظل ظروف وتحديات ولم تكن منبثقة أصلاً من داخل السكان العربي الإسلامي ، ووقفت العلمانية والمادية والليبرالية والماركسية في وجه المفهوم العقائدي الإسلامي الشامل الجامع ونبت أن يقظة العرب والمسلمين لا تتم أبداً من خلال الثقافات الوافدة أو النظريات الأجنبية . كما تبين مدى ترابط الفكر الإسلامي في قيمه ومفاهيمه إلى الحد الذي لا يمكن الفصل فيه بين اللغة والتاريخ والعقيدة والتراث . إن الذين طرحوا نظرية القومية الاقليمية والعلمانية ( ساطع الحصري ، ميشيل هلقى ، أنطون سعادة ، فيليب حقي ) لم يكونوا من نتاج هذا الفكر الإسلامي الأصيل ولذلك جاءت نظرياتهم معارضة للمفهوم التلقائي الذاتي الأصيل المنبعث من الفطرة الصافية وكانت دهوراتهم تستهدف تمزيق وحدة هذه الأمة الإسلامية تحت نظريات اللغة والأرض والمشيئة والعلمانية . وتبين بوضوح أن الهدف هو إبقاء المسلمين والعرب في انفصال وصراع في داخلهم ، فضلاً عن ذلك الجسم الغريب المغروس في قلب الوطن العربي وليكون ذلك كله حائلاً عن الانتقال من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة والتجمع والتشكل الحقيقي المستند من القيم الأساسية .

وقد جاءت الحقيقة واضحة بعد تلك المعركة الواسعة الضخمة مع مفهوم القوميات والاقليميات الوافدة لتقول أن الفكر الإسلامي لا يقر صراع الأديان أو الأجناس وأنه من الخطأ وضع الإسلام في مواجهة القومية أو القومية في مواجهة الإسلام ، وأن حركة العروبة هي موجة من موجات اليقظة العربية الإسلامية فهي وليدتها ومتصلة بها وعمدة لتحقيق هدف الوحدة الكبرى . وتبين أن العروبة هي بالإسلام وأن الإسلام هو الذي أعطى العرب وجودهم وكيانهم وأن مذاهب العلمانية أو القومية لن تستطيع إخراج الفكر الإسلامي عن ترابط العروبة والإسلام ، أو الروحي والمادي ، أو التمسك بالجامع وستسقط النظريات الوافدة في القومية والاقليمية والعلمانية والمادية والماركسية .

وأن نظرية القومية العربية هي دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات بين جامعة المسلمين وقد هجر مبدأ القوميات في أوروبا أن يحقق لها شيئاً إلا التمزق والتضارب والصراع . لقد كان هدف الاستعمار والتغريب والغزو الأجنبي تفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات ، ولذلك فقد أبعد التربية الإسلامية عن برامج الدراسة والتعليم لهدم الأجيال الناشئة وأبعد القيم الإسلامية عن الحياة الاجتماعية وأهمها الإيمان والأخلاق وأبعد الشريعة الإسلامية وفرض قانوناً أجنبياً وأبعد فكرة وحدة الفكر الجامعة وأبدلها بالاقليميات والقوميات المتصارعة . وحاول التشكيك في مقدرة اللغة العربية على ترجمة العلوم وسيطرة العاميات واللهجات الأجنبية عليها ، كما عزلها عن التاريخ الإسلامي ببطولاته ومواقفه وحصرها في التاريخ الاقليمي ، كما حاول عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب الإسلامي وفرض مناهج التفكير الغربي وهذه كلها محاولة واحدة للقضاء على وحدة الإسلام : وتزيق جبهته ، ولكن المسلمين والعرب قد تنبهوا إلى هذه المحاذير وهذه التحذيرات وواجهوا كتابهم ومفكرهم وكشفوا عن أخطارها وأخطائها واتمسوا طريق الأصالة والمنابع الأولى وكانت قضية التفرقة بين العروبة والإسلام من آخر هذه القضايا والتحذيرات وكان لا بد أن تقال فيها كلمة واضحة صريحة . تكشف الزيف المتراكمة والأخطار القائمة .

### الوثائق

عندما بدأت حركة الاستعمار الحديث عملت الدول الكبرى على رسم مخطط كامل للاستعمار ظلت تنميه وتطوره حتى تكامل في صورة خطة عامة ، وقد ظلت وثائق هذا المخطط سرية ممنوعة من التداول حتى لا تقع في أيدي المفكرين ودعاة حركة اليقظة العربية الإسلامية مما يؤدي إلى كشف الخطة أو إفسادها قبل إكمالها ، وتنفيذها . غير أن صراع الدول الكبرى وتعارض ملامحها ، وظهور حركة الغزو الصهيونية الماسوية كمخطط مستقل مختلف عن مخططات الاستعمار قد كشف كثيراً من الدوافع والأغراض والخلفيات المستورة ، وألقي هذه الوثائق بين أيدي الساسة والمفكرين في العالم الإسلامي ، ومنها وثائق ظلت محجوبة عن العالم الإسلامي أكثر من خمسين عاماً ، ووثائق أخرى كشفتها مطامع الصهيونية المتضاربة مع مطامع الاستعمار نفسه ، وقد تكشف أغلب الوثائق بعد قيام إسرائيل في قلب الوطن العربي عام ١٩٤٨ . وقد تبدو هذه الوثائق وهي مفرقة غير ذات قيمة كبيرة ولكنها حين تتجمع وترابط تستطيع أن تشكل صورة واضحة لمخطط كامل خطير لمزو العالم الإسلامي وتزيقه وتغريب الفكر الإسلامي وتدميره كقائمة لفرض النفوذ الأجنبي الاستعماري عليه .



ولا شك أن منطلق هذه المخططات وأبرز معالم هذه الوثائق يبدأ بتفكيك الروابط بين العربية والإسلام وبين الدولة العثمانية والعرب ويعمل أساساً على فصل الوحدة الجذرية والترابط العضوي بين العرب والمسلمين وهو ما تم تنفيذه فعلاً، بتدمير الدولة العثمانية من الداخل وفرض الدعوة الاتحاديين عليها ثم تمزيق الدولة وإسقاط الخلافة ثم مضت حلقات العمل خطوة بعد خطوة .

#### وثيقة رقم ١ بروتوكولات صهيون

نشرها سرجيوس نيلوس بالروسية ١٩٠٣ وأعيد نشرها عام ١٩٠٥ ونزجت إلى الألمانية ١٩١٩ ونشرتها جريدة التيمس باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠ ثم نشرتها جريدة اللورننج بوست ، وكانت قد أودعت للمتحف البريطاني منذ عام ١٩٠٦ .

أما في العالم الإسلامي والبلاد العربية فإن أول ما أشير إليها هو ما نشرته مجلة الرسالة عام ١٩٤٩ وما كانت ترجمه روز اليوسف ١٩٥١ ثم جاءت كتابات نقولا حداد في الرسالة ١٩٥١ وكان د محمد خليفة التونسي ، أول من ترجمها في مجلة الرسالة سنة ١٩٥١ ، وقد ظلت هذه البروتوكولات سرية منذ أن عرضت في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ حتى اقتضح أمرها في أواخر القرن التاسع عشر وقال سرجيوس نيلوس عندما طبعها عام ١٩٠٥ أنه أسلمها عام ١٩٠١ مترجمة إلى الروسية من أصل فرنسي . ثم وردت نسخة من طبعة سرجيوس نيلوس إلى للمتحف البريطاني عام ١٩٠٦ ثم عثر عليها ( فكتور مادسون ) مراسل اللورننج بوست في موسكو أثناء الإثقال الروسي وطبعها جمعية الطباعة البريطانية ، ونشرت جريدة نيويورك ورلد سنة ١٩٢١ تعليقا على هذه الطبعة ، وقال هنري فورد معلقاً عليها : إنها تصدق على ما هو حادث الآن في العالم ، لقد مر على نشرها نحو ستة عشر عاماً وهي تصدق على حالة العالم في هذه الفترة ، وفي ١٤ يوليو ١٩٢٢ نشرت جريدة جويش كرونيكل اليهودية بعض مذكرات تيودور هرتزل وفيها خلاصة حديث مع الكولونيل جولدميث ، وقد لمح هذا اليهودي للتنصير لهرتزل بما يستفاد منه أن ثلاثمائة شيخ من شيوخ إسرائيل معروف بعضهم لبعض يقررون مصير القارة الأوروبية وهم ينتخبون خلفائهم . وقد أشار محمد خليفة التونسي في أول ترجمة له للبروتوكولات إلى اللغة العربية إلى أن هذه البروتوكولات هي من أسرار اليهود التي يحرمون على إخفائها أشد الحرص ثم اقتضح أمرها منذ نصف قرن تقريباً إذ وصل خبرها إلى أحد وجوه الروس في عهد القيصرية وهو سرجي نيلوس وهي مكتوبة بالروسية فقام بطبعها عام ١٩٠٥ وكتب لها مقدمة وتعقيباً كانت قد وصلت إليه عام ١٩٠١ وأنها ترجمة صحيحة لأوراق مخطوطة

سرقته سيدة من أحد رؤوس الماسونية الأحرار في نهاية اجتماع ماسوني عقد في باريس ونحوى بروتوكولات صهيون مخططاً كاملاً للخطة التي تدبرها الصهيونية العالمية للسيطرة على العالم في خلال مائة سنة وتكشف على الوسائل التي تتخذها من طريق الصحافة والمدرح والنظريات الفلسفية لتدمير العالم قبل السيطرة عليه.

#### وثيقة رقم ٢ تقرير كامبل بترمان ( ١٩٠٧ )

وجه كامبل بترمان رئيس وزراء بريطانيا إلى لجنة من علماء التاريخ والقانون والسياسة خطاباً قال فيه : « إن الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تخل رويداً رويداً وتزول . والتاريخ مليء بمثل هذه الأمثلة وهي لا تتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وأشور والفراعنة وغيرها . فهل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهاره أو تأخره أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن الذروة . وبعد أن أصبحت أوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معالمها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية » .

#### ( تقرير الخبراء )

وقد كتب العلماء المتخصصون تقريراً خاصاً إلى وزارة الخارجية البريطانية جاء فيه : والخطر ضد الاستعمار في آسيا وأفريقيا ضئيل ولكن الخطر العظيم يكمن في البحر المتوسط وهذا البحر همزة الوصل بين الغرب والشرق وحوضه مهد الأديان والحضارات ، ويبعث في شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تنوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان ، وكل مقومات التجمع والترابط . هذا فضلاً عن نزعاته الثورية وثوراته الطبيعية . فإذا تكون النتيجة لو تقامت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانات الثورة الصناعية الأوربية وانتشر التعليم بها وارتفعت الثقافة . إذا حدث ما سلف فتحل القضية حتماً بالاستعمار الغربي ، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي : ( أولاً ) على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة وتأخرها وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجبل . ( ثانياً ) ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي ، وتفتتح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوى وغريب يحتل الجسر البري الذي يربط آسيا وأفريقيا . وبحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة .

وثيقة رقم ٣ : خطاب ليننيز إلى لويس الرابع في ١٥ مارس ١٩٧٢

أريد أن أحدث إليكم يا مولاي في مشروع غزو مصر ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة منه على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، وهي تستطيع أن تلعب هذا الدور بسهولة استيعابها لعدد كبير من السكان وبسبب أرضها المفعمة المثال . ولقد كانت في ماضى الأيام مهداً للعلوم ومحراباً للنعمة الله ولكنها اليوم معقل للديانة المحدية التي تفقد بنا ولائى داع تحسّر للسيحية تلك الأرض للقدسة التي تصل آسيا بأفريقيا والتي جعلت فيها الطبيعة حاجزاً بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومدخلا لبلاد الشرق بأجمعها ومستودعا لكنوز أوروبا والهند . وإذا كانت القسطنطينية قلعة لجيوش الامبراطورية العثمانية إلا أن الهجوم للباغت لن يفرك لها فرصة النجدة لبعده الشقة بينها وبين أوروبا ، ومصر تكتنفها صحراوات فسيحة فلا يمكن إغاثتها بالجيوش ولذلك فإنكم حينما تغزون مصر ستقوضون على الامبراطورية التركية القضاء للبرم .

وثيقة رقم ٤ : برتوكول معاهدة لوزان للعقود بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣  
( للمروفة بشروط كرزن الأربعة )

أولاً : قطع كل صلة بالإسلام . ثانياً : إلغاء الخلافة . ثالثاً : إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد . رابعاً : اتخاذ دستور مدنى بدلا من تركيا القديم للتؤسس على الإسلام .

وثيقة رقم ٥ : خطاب السلطان عبد الحميد في الرد على هرتزل

« بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر ( التوطن بفلسطين ) فإننى لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لنذهب إلى الغير ، فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبي ، روى تراياها بدمائه أما ديون الدولة فليست عاراً لأن غيرها من الدول هى الأخرى مدينة مثل فرنسا فليحتفظ اليهود بأموالهم ، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمى وراء حصون بليت بأموال أهداء الإسلام » .

وثيقة رقم ٦ : خطاب من باخ لبنى الصهيونى إلى كارل ماركس

( مجلة باريس : أول يولييه ١٨٧٨ )

« يقتضى التنظيم الجديد للانسانية أن ينتشر أبناء إسرائيل على سواحل الأرض وينسلوا في كل مكان زمام الأمور خصوصاً إذا نجحوا في فرض إشراف شديد على الطبقة العاملة واثانى الحكومات

الإسرائيلية حينئذ للملكية الفردية وتفرض رقابتها في كل مكان على الأموال العامة .

وثيقة رقم ٧ : رأى كرومر في الإسلام والجامعة الإسلامية

من تقاويره أهوام : ١٩٠٣ - ١٩٠٥ - ١٩٠٦

في مصر اليوم جيل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة فيمكن أن تحدثه نفسه يوماً بأن يعد إلى تلك الأركان القديمة بدا لا تعرف حرمة القديم فيكون أشد عليها من يد حكومة تعدها اليوم طبقاً لأرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر ( يعني الأنجليز ) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجداد بأبناء اليوم أن يشرعوا في الإصلاح ويلافوا الأمر قبل حلوله . إن الساهين لأرجاع مجد الإسلام يحاولون أن يمجوا في القرن العشرين المبادئ التي تكونت قبل أكثر من ألف سنة لقيادة أمه بدوية في حالة الفطرة ، أن من تلك المبادئ ما يخالف الفكر المعصري ويناقضه مثل إباحة الاسترقاق وما جاء من العلاقات بين الجفسين . إنني لا أصدق أن المسلمين يتحدون معا ويتعاونون متى خرجت مسألة الجامعة الإسلامية من القول إلى الفعل ، وثانياً لأنني أثق بقوة أوروبا واقتدارها عند الانقضاء على تلافى هذه الحركة من الجبه المادية .

وثيقة رقم ٨ : النشرة اليهودية عام ١٨٦١

« إن روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية في معتقداتها الأساسية لها نفس المثل التي تنسب طريق إسرائيل وتدعمه ومكان تنويعها هو سبب العبادة البديعة ، حيث تسكون القدس رمزا وقلباً ومنصراً » .

وثيقة رقم ٩ : ( كتاب تاريخ الترك والمغول في آسيا منذ بدأ نشأتها إلى عام ١٤٠٥ )

Inroduction a L'histaire de L,Asia 'Turcs et Mongals de Origines ei 1405

الكتاب ظهر عام ١٨٩٦ من تأليف لتوني كاهون ( اليهودي ) .

وفي عام ١٩١٦ أعلن المجلس العلمي الفرنسي اهتمامه بهذا الكتاب ونوه به ولفت النظر إليه في تركيز بالغ ، وكان ذلك الحدث مقترناً بالحركة الطورانية في الدولة العثمانية .

وكانت الفكرة الطورانية قد أنشأها لأول مرة : المستشرق المجري اليهودي ( قام-بري ) بين ( ١٨٦٨ - ١٨٧٤ ) وقد تبناها الانجليز فعملوا على تكوين كتلة عنصرية من الأتراك العثمانيين

وأترك الشرق ليحطموه النفوذ الروسى المتزايد فى آسيا الوسطى ثم خير الانجليز ضياعهم وأبدوا  
سيطرة الروس على الترك آسيا .

وهكذا كانت فكرة الجامعة الطورانية وافدة من الخارج وهى نفس الفكرة التى حل لواها أناس  
ليسوا من الترك وهى رأسهم ( ضيا كوك الب ) فالفكرة أجنبية المنشأ والذين حملوا لواها ليسوا  
أتراكا ، وكانت تهدف أساساً إلى تعميق الخط المنصرى الإقليمى مستقلاً عن الاسلام ، وهى الفاعلة  
القديمة التى وضعها ( فبرى ) المستشرق المحرى اليهودى بدعى أنه لا وطن فى الاسلام .

وثيقة رقم ١٠ : ( الماسونية والاتحاد والترقى )

فى احتفال عقد فى القاهرة خلال شهر يناير ١٩١٠ نقلته ( مجلة المقتطف ) فى عدد فبراير ١٩١٠  
تحدث برتو بك بالتركية : وهو أحد أعمدة جمعية الاتحاد والترقى بعد اسقاط السلطان عبد الحميد :

قال برتو بك : نحن العثمانيون مدينون للماسونية بأ كبير دين ، لأنها هى التى بثت فى نفوس  
أعضاء جمعية الاتحاد والترقى روح الحرية ، وبها اقتدوا فى إنشاء جمعيتهم التى فككت قيود استبدادهم .  
كما أثنى على الحكومة الانجليزية والأمة الانجليزية لأنهما ساعدتا العثمانيين فى هذا الانقلاب المبارك  
الذى قوض أساس الاستبداد ووحد أركان الحرية فى الممالك العثمانية . وقال : أن الماسونية هى المحرك  
الأول والمرشد الأكبر لجمعية الاتحاد والترقى .

وثيقة رقم ١١ : ( التبشير فى العالم الإسلامى )

ألقى الدكتور صمويل زويمر كبير المبشرين فى العالم الإسلامى خطاباً فى مؤتمر لكتنو التبشيرى  
عام ١٩١١ فأشار إلى الانقلابات السياسية التى حدثت أخيراً فى العالم الإسلامى فشكر الله على حدوث  
هذه الانقلابات فى غرب آسيا وقال أنها كانت : « موجبة للاعجاب والاستغراب وقد بددت معالم  
التنجس ( يقصد سقوط السلطان عبد الحميد ) وإنما أقامت الحرية على أنقاض الاستبداد ، وصار  
التجول فى البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجيناً فى دنانيك وقال  
إن عدد المسلمين الذين تحت سلطنة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب انقلابات قريبة المحصول  
وبذلك تزداد مسئولية الملوك النصرانى فى مهمة تبشير العالم الإسلامى .

النص فى كتاب الغارة على العالم الإسلامى اسمه بالفرنسية :

Lo Conquete du Monde Mosalman .

## وثيقة رقم ١٢ : مدارس الإرساليات

قرار مؤتمر ونبرج للتبشير سنة ١٩١٠

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة تركيا على أن معاهد التعليم الثانوي التي أسسها الأربيون في البلاد الإسلامية كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها .

( شاتليه ) : الغارة على العالم الإسلامي

## وثيقة رقم ١٣ : الحروب الصليبية

« من كتاب الأحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية ( بطرس حبيقة ) . ترجع مسلات الموارنة بالفرنسيين إلى الحروب الصليبية وكان لهم فيها الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التي كانوا ينتقلون لغتحتها من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم .

وثيقة رقم ١٤ : خطاب من لويس ملك فرنسا إلى أمير موارنة لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة

« إن قلبنا امتلأ فرحاً حينما أقبل علينا ولدكم سيمان فهو الشهادة الحسية على عواطفكم الطيبة .  
نحونا موقنون أن هذه الملة التي تنسب إلى القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية » .

وثيقة رقم ١٥ : قرار المؤتمر الاستعماري في برلين ١٩١٠

« إن ارتفاع الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطار عظيم لذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة . والمؤتمر الاستعماري يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير .

وثيقة رقم ١٦ : جريدة ألمانيا - ٢٥ ديسمبر ١٩٠٩

كتب الملبونير اليهودي : والتر راثنو يقول :

هناك ثلاثمائة رجل كل منهم يعرف زملائه الآخرين يتحكمون في مصر أوروبا ، إنهم ينتخبون خلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم . وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التي تمكنهم من القضاء على أية حكومة لا يرضون عنها .

#### وثيقة رقم ١٧ : الماسونية

قال جرجى زيدان في كتابه : تاريخ الماسونية العام : كانت الماسونية مصدراً لكثير من التعاليم التي أصبحت من أقوى دعائم المدن العربي القديم والحديث .

#### وثيقة رقم ١٨ : فولتير والماسونية

يقول جرجى زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام : في ١٧٧٨ انضم للفيلسوف الشهير فولتير إلى الماسونية وكانت امتحاناته مقصورة على بعض مسائل أدبية مع أغفال الامتحانات الأخرى ثم نقل إلى الشرق الأعظم وكان من أهم أعضائه .

#### وثيقة رقم ١٩ : مائة مشروع لتقسيم تركيا

Cent piroJets departege de La Turquie تأليف الوزير الروماني : دجوفارا

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٠ وضم وصفاً لمائة مشروع حاولت أوروبا إنقاذهما من أجل تمزيق الدولة العثمانية في الفترة التي آلت ظهور هذه الدولة وتوسعها في أوروبا عام ١٣٥٦ بعبورها مضيق الدردنيل والاستيلاء على أدرنة ١٣٦٠ وهذه المشروعات تدعو إلى مقاتلة المسلمين والأتراك بالسيف والتجارة وتدهو إلى التجمع والنخطيط للفرز من البحر الأبيض أو من الحبشة أو من غيرها وتركها كلها على استعادة بيت المقدس .

وثيقة رقم ٢٠ : خطاب بلفور رئيس البعثة البريطانية في ١٨ أيار ١٩١٧ إلى وزير الدولة الأمريكي

لا شك أن القضاء على الأمبراطورية العثمانية قضاء تاماً هو من أهدافنا التي نريد تحقيقها وقد يظل الشعب التركي - ونأمل أن يظل - مستقلاً أو شبه مستقل في آسيا الصغرى ، فإذا نجحنا فلا شك أن تركيا ستفقد كل الأجزاء التي يطلق عليها عادة اسم البلاد العربية وستفقد كذلك أهم المناطق في وادي الفرات ودجلة كما أنها ستفقد استانبول .

وثيقة رقم ٢١: مذكرة وزارة الخارجية الفرنسية (أول سبتمبر ١٩١٦)

« إن إعلان الثورة العربية في الحجاز هو في مصلحة الحلفاء من عدة وجوه ، فأما من الوجهة السياسية فإن اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمينية الصغرى وتحرير هذه الشعوب من النير التركي يهيء لفرنسا أسباب التدخل في شؤون هذه للقاطعات كما تشغل من الوجهة العسكرية الجيش التركي ، أما من الوجهة الأدبية فإنها تعود للجانب الأكبر من رعاياها للمسلمين إلى اعتبار الترك كمتعدين على الأماكن للقدسة فيزداد تعلقهم بفرنسا لأنها تكافح الترك وحلفائهم وتزيدهم إخلاصاً لها . بناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة وصيغتها بصيغة إسلامية » .

وثيقة رقم ٢٢ : لورنس (أحمد الحكيم السبحة)

إننى أكثر ما أكون خجراً إن الدم الانجليزى لم يسفك في المارك الثلاثين التى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تسكن تساوى في نظرى موت انجليزى واحد . لقد جازفت بخدمة العرب لاهتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن في الشرق ولاهتقادى أننا كسينا الحرب مع الحثب بوهودنا أفضل من هدم الانتصار . وليست الجيوش البريطانية الزاحفة على فلسطين وسوريا والعراق إلا طليعة الغزو الأوربى لطريق البترول .

وثيقة رقم ٢٣: انتهت الحروب الصليبية (عن كتاب ديدل المطبوع سنة ١٩٣٧)

وصب لويد جورج فتوح فلسطين بأنها الحرب الصليبية الأخيرة ، وقال اللورد اللبى في خطبة سياسية في لوندبارك بمصر الجديدة عام ١٩٢٢ : أن فتوح بيت المقدس تعد حرباً صليبية أخرى . ووصف ديدل لورنس بأنه محارب صليبي Crusader

وثيقة رقم ٢٤ : قال القاضى أومسترونج في كتابه الخوثة الصادر سنة ١٩٤٧

إن فكرة قيام هصبة الأمم والأمم المتحدة وتلقبها امبراطورية صهيونية عالمية قد طرحت بهذا الترتيب الزمنى على بساط البحث في المؤتمر الصهيونى في باذل عام ١٨٩٧ . لقد أعلن الصهيونيون المجتمعون في هذا المؤتمر ، أن هدفهم يرمى إلى إخضاع الشعوب المسيحية في العالم وتأسيس امبراطورية صهيولية برأسها ملك يكون إمبراطوراً على العالم كله .



وثيقة رقم ٢٥: معاهدة لتران

عقدت بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية يوم ١٠ فبراير ١٩٢٩ معاهدة لتران التي تقرر بمقتضاها أن تدفع الحكومة الإيطالية ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوق الفاتيكان المالية التي توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة في المائة اقترض لإسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية . وصرح الكاردينال جسباري كبير البطارقة أن الفاتيكان تعتزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال في تقوية نفوذ الكنيسة المعنوي وبث الدعوة الكاثوليكية وتقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا .

وثيقة رقم ٢٦: تقرير الدكتور زويمر للدكتور التبشيري عام ١٩٢٧

« إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق دولي وأن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات ، وأن الغرض من التبشير هو قتل الإسلام واستعباد المسلمين وإن الغاية التي نرعى إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليسكون أما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يسكون مسلماً أي لا تكون له عقيدة يدين بها ويجب أن يسكون التبشير بواسطة رسول من صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

وثيقة رقم ٢٧: الدعوة والاتحاديين

يقول كارل بروكلمان في كتابه الإسلام في القرن التاسع عشر :

تلقي المتآمرون الذين دهموا أنفسهم ( جمعية الاتحاد والترقي ) مساعدة مالية من ( الدعوة ) وهم يهود سالونيك الداخلون في الإسلام والذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في تلك المدينة .

وثيقة رقم ٢٨: مؤامرة الحلفاء بالعرب

يقول الأمير شكيب أرسلان :

لو كنت أعلم أن هذا الحلم سينتحيق لما سبقني في هذه الحلقة سابق وكنت أول من يدهو إلى الانفصال عن الترك ، لأن الأمة العربية يجب أن تكون متبوعة لاتباعه وكنت أعتقد أن الحلفاء سيفقدون بالعرب ويتفاسمون بلادم بعد انفصالهم عن الترك وبعض العرب سن الندم على نيتهم

بانككترا ، فانا أختار أهون الشرين وارى خطر التترك على العرب أخف بما لا يقدر من خطر الأفرنج . كنت أهرف أن هناك مؤامرة فصل العرب عن التترك والاتغصاض على بلادهم ثانياً لتقسيمها مستعمرات للحلفاء ووطناً قومياً لليهود .

وثيقة رقم ٢٩ : أخطاء التاريخ

يقول هاملتون جب وهارون بودن : في مقدمة كتاب المجتمع الاسلامى والغرب : أن كثيراً من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا وعصر في القرن الثامن عشر آراء خاطئة ، آراء كنا نحن أيضاً نأخذ بها عندما أقمنا على كتابة هذا البحث ، لذا نرى أن واجبتنا الأول هو عرض الوثائق وللحجيات التي جعلتنا نبذل رأينا في هذا الأمر تبديلاً تاماً .

وثيقة رقم ٣٠ : الدولة العثمانية

يقول برنارد لويس في بحثه : الإسلام في تركيا : كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تسكرس قواها في سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أى اعتداء خارجي ، وكانت الامبراطورية العثمانية في نظر الرجل العثماني التركي بمثابة الإسلام ذاته ، وكانت الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية تعتبر ذاتها أولاً وأخيراً شعوباً اسلامية ، وكانت لفظة « عثمانية » تعنى اسم السلالة المالكية ولم تصطبغ لفظة « عثمانية » بصبغة ذات مدلول قومي إلا في القرن التاسع عشر . وذلك تحت تأثير الفكرة الليبرالية الأوروبية .

وثيقة رقم ٣١ : تقرير هنري مورجنيو السفير الأمريكي

إن أعضاء تركيا الفتاة لم يكونوا دولة بالمعنى الصحيح بل كانوا حزباً غير مسئول أو نوعاً من الجمعيات السرية التي تسلمت الوظائف الحكومية العامة عن طريق الدسائس والترويع والاختيال .

وثيقة رقم ٣٢ : تركيا الفتاة

يقول برنارد لويس : إن سجل السنوات العشر من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ يبدو لأول وهلة سجلاً قائماً ، إنهم بالرغم من التجارب الذين قاموا بها ، قد انتهت بهم إلى الدكتاتورية وإنهم يلاون على أمور عديدة قاموا بها .

وثيقة رقم ٣٣ : يقول أنتوني ناتنج ( مجلة الغرب ) لندن ١٩٦٤

منذ أن جمع محمد أنصاره الأولين في مطلع القرن السابع وبدأ أول خطوات الانتشار العربي أصبح على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض. إن قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ألف وثلاثمائة سنة في نهضته وانهياره .

وثيقة رقم ٣٤ : مصطفى كمال أتاتورك

يقول اليهودي إيلي ليفي أبو هسل في كتابه يقطعة العالم اليهودي ( ١٩٣٤ ) : أظهر مصطفى كمال سمعة المصدر نحو البعض من اليهود الذين نبذتهم ألمانيا وفتح لهم باب تركيا على مصاريحها واستعان بهم في تنظيم الجامعة التركية على أحدث الأساليب العلمية العصرية ، هذا القدر من الاعتراف الذي أبداه نحو اليهود كان غريباً في نفس مصطفى كمال .

وثيقة رقم ٣٥ : العرب ونجربة الترك

يقول المستشرق : هاملتون جب : إن العرب إذا اتبعوا الأتراك في منهجهم اللاديني حطوا أنفسهم بأيديهم ، لأن ذلك ما ينطوي عليه من إضعاف رابطة الإسلام بينهم أو وضعه في وضع ثانوي سيؤدي بالطبع وبالضرورة إلى إحياء العصبية الجاهلية بهم ويفتح الباب للعنصرية الوطنية المحلية ويحل محل القومية العربية الشاملة التي وضع أسسها بتوحيد شعوبها في ظل إمامته وشريعته ولغة قرآنه .

وثيقة رقم ٣٦ : التبشير والعراق

« من الشروط التي اشترطت على العراق لكي تلتحق بمصبة الأمم عام ١٩٣٠ أن تكفل حماية البعثات التبشيرية في الشرق .

وثيقة رقم ٣٧ : لبنان والصليبيين

يقول الدكتور نبيه أمين فارس في كتابه « العرب الأحياء » : « ... حتى إذا أطلقت طلائع الصليبيين على لبنان أمكن أن يدوم بثلاثين ألف نبال أجمع الفرقة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم فالمارونية بلب لبنان ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونيين » .

وثيقة رقم ٣٨ : البعثات التبشيرية

من كتاب المستر ما كاب أصدرته شركة هالدمان ويوليوس للتبشير في ولاية تكساس الأمريكية سنة ١٩٣٢ . « إن جمعيات التبشير البروتستانتية في الولايات المتحدة وبريطانيا تجمع من التبرعات خمسون مليون ريال في العام للدهوة المباشرة أو غير المباشرة إلى التبشير ، فإذا أضيف إلى ذلك ما يجمع من ألمانيا وهولندا وغيرها فإن البعثات التبشيرية تحصل مائة مليون ريال . يقول : إن هذا ما ينفق سنوياً منذ عشرين سنة على التبشير فكأن هذا العمل قد كلف الدول الغربية في هذه الفترة الأخيرة ألفي مليون ريال أو أربعة مليون جنيه . هذا في عشرين سنة وبغير نظر إلى ما أنفق منذ القرن السابع عشر . وإذا كانت الهيئات الدينية المنظمة قد كسبت عدداً من الوثنيين في القرن الماضي فإن الانتشار العظيم الذي فاز به الإسلام لم يكن إلا بالإقناع لا بالهدايا والمنح فالإسلام يفتو في أفريقيا ويغلب كل تبشير .

ثم قال : إن الحماسة في سبيل التبشير ليس لها سند للنطق لأنها صناعة متكلفة وقد قال السير لوجارد في كتابه ( إفريقيا الاستوائية الإنجليزية ) إن الإفريقي الذي يعلمه للبشرون لا يعمل عليه وقال مستر ما كاب إن إن التبشير كان في كل حال يريد الاستعمار ودهوته ورسوله وإن للبشرين بذروا التبأفض بين الشعوب .

وثيقة رقم ٣٩ : خطاب الحفل الماسوني الأمريكي ( ١٩٦٨ )

إلى مجلس عمر الأمان : مدينة القدس : إنني ورفيقي أودي مورني عضو في الحفل الماسوني الذي يحمل شعار ( للماسونيين القدماء ) الأحرار ، المرضيون ، وأنتم تدركون أن هيكل سليمان كان الحفل الماسوني الأصلي وأن الملك سليمان كان رئيس الحفل ، وقد دمر ذلك الهيكل سنة ٧٠٠ م . إنني أعلم أن مسجدكم هو المائل الحقيقي الشرعي لذلك الهيكل وإن مسجدكم هذا واقع على هذا الملك هو والصخرة التي قدم عليها أبونا إبراهيم ولده إسحق قرباناً لله . وإنني أعلم أنكم معشر العرب أبناء إسماعيل قد قمتم بحماية تلك الصخرة هبر القرون فلنقدم بشكراً لله على هذا . إنني كمسيحي وعضو في النظام الماسوني أترأس جماعة في أمريكا تطمح أن ترى هيكل سليمان وقد أعيد بناؤه وإذا سمح مسجد عمر لمنطقه بالقيام بذلك المشروع فإننا سنقوم بجمع مائة مليون دولار لذلك الغرض أو أي مبلغ من المال لإعادة بناء الهيكل . إن مسجدكم إن يفقد الإشراف على الهيكل . وعندما يكتمل الهيكل سيندر لله وللملك سليمان وللنظام الماسوني ويعلى لكم مجاناً . وبالإضافة إلى ذلك

وبساح من هيأتكم سيمنح كل أخ ماسونى يساهم فى إعادة بناء هيكل سليمان عضوية فى محفل الملك سليمان الماسونى رقم (١) فى مدينة القدس وكل ماسونى العالم يحبون أن يكونوا أعضاء فى محفل الملك سليمان الماسونى ... الخ . (جريدى ترى)

وثيقة رقم ٤٠ : خطاب السلطان عبد الحميد إلى أبى الشامات

كشفت الوثيقة التى أعلنت عام ١٩٧٢ عن حلقة مقودة فى حياة السلطان عبد الحميد ، وذلك عن موقفه من محاولة الصهيونية العالمية فى نزعه عن ملكه وما جاء بعد ذلك من أحداث . كتب هذه الرسالة السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٩ هـ وأرسلها إلى الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية بدمشق . قال : لئن لم أتحل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم — اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة . إن هؤلاء الاتحاديون قد أصروا وأصرروا على بأن أن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة أنجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القاطع الآتى :

«إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً — فضلاً عن (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً فلن أقبل بتسليفكم على وجه قطعى ، ولقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل تسليفكم بوجه قطعى أيضاً . وبعد جوابى القاطع لاتفقوا على خلعى ، وأبافونى أنهم سيعيدونى إلى (سلايك) فقبلت بهذا التكليف الأخير . هذا وحمدت المولى وأحمد لئن لم أقبل أن الطغ الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار الأبدى الناشئ عن تسليفهم بإقامة دولة يهودية فى الأراض المقدسة : فلسطين وقد كان بعد ما كان ، ولهذا فإنى أكرر الحمد والثناء على الله المتعال واعتقد أن ما عرضته كاف فى هذا الموضوع العام وبه أختتم رسالتى هذه . يا أستاذى العظيم : لقد أطلت عليكم التحية ، ولقد دفعتى لهذه الإطالة أن تحيط بمتاحتك علماً وتحيط بجاهتكم بذلك علماً أيضاً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .»

خادم المسلمين

فى ٢٢ أيلول ١٣٢٩

عبد الحميد بن عبد المجيد

نشرت هذه الرسالة عام ١٩٧٣ ولكن الأحاديث التي كشفت عن حقيقة موقف السلطان عبد الحميد كانت قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل . وقد ارتبط موقفه بدراسات قضية فلسطين وموقف الصهيونية العالمية وجاءت مذكرات هرتزل للكشف عن محاولات اللغاء والتفهم التي قام بها هرتزل منذ عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٢ والتي تحقق فشل جدواها وأرسل إليه السلطان الرسالة المشهورة التي نشرها هرتزل في مذكراته فكانت شهادة العدو ، ثم تبين بعد ذلك مما حصل عليه الأستاذة : طه الولي وسعيد الأفغاني من وثائق ومذكرات وذكريات سلامة هذا الانجاء ، وكأنا آن الأوان لتصحیح موقف هذا الرجل الكريم وفي الملئقى الإسلامى فى الجزائر وعلى مدى ثلاث سنوات متوالية لم يتوقف البحث فى هذا الأمر وكانت أغلب الدراسات تحمل لواء الإنصاف لهذا الرجل ( سنوات ١٩٧٣/١٩٧٤/١٩٧٥ ) كما وقع ذلك على منبر رابطة العالم الإسلامى بمسكة المسكرة عام ١٩٧٤ . يقول الأستاذ سعيد الأفغاني : ( وشهادته هامة لموقف الشام من الدولة العثمانية خلال حكم الاتحاديين :

درس معلونا فى حدائهم السوء السكبر عن ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة العثمانى واثقونا له تاريخاً أسود حافلاً بالإرهاب ونحن صفار كما تفاقوم أيام الاتحاديين آخر العهد التركى وأنشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن : هذا التاريخ عند جبهة جيلنا من المسلمين التي لا يعترها ارتياب ، ثم انجبت الأيام لذوى البصائر عن خلافه ، فتبين للناس أن حزب الانحصاد التركى الذى قام ضباطه بالقوات المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقة ، وتبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقين كانوا من يهود سلايك وأنهم افتروا تاريخاً يوافق نزعاتهم ومايتنون فرضوه فرضاً على الناشئة فى المدارس . تاريخاً كله من صنع أيديهم توصلا إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والعدالة والإخاء وللأساواة ، وتلك كانت شعاراتهم يومئذ فتبهمهم المتحمسون من الشبيبة أفراداً وجماعات ، ولكن الغرض الحقيقى لم يكن يعرفه إلا قليل جداً من هذا الحزب اتضح بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل فى انكشافه للنكبة الكبرى : نكبة فلسطين .

وأشار الأستاذ سعيد الأفغاني : إلى قدرة اليهود على افتراء التاريخ بذكائهم وحديدتهم ونازهم يوم كانوا يسبرون الحزب الحالك فى تركيا وإنهم كانوا من الدهاء والكيد والمعذرة على تسميم الأفسكار كما يشاؤون .

ويذكر الأستاذ سعيد الأنفاني : إنه لما خلع السلطان ووضع في قصر في سلاطيك كان من الحراس الذين أقيموا عليه أحد تلاميذ الشيخ أبي الشامات وعن طريقة تم المواصلات السرية الكتابية بين الشيخ والسلطان الخلع ، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التي أرسلها السلطان إلى الشيخ وفيها البيان الصريح عن سر خلع كشفه لشيخه . احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سرّاً مكتشوماطوال حكم الاتحاديين حتى إذا زال الحكم التركي عن سورية أطلع عليها بعض خلعائه ، ثم حافظ عليها بعد وفاته أبناءهم من بعده إذ كانت من أنفس التحف التي يحرس عليها الحريصون لا يطمعون عليها إلا الثقات من أهل ودم ، حتى إذا قدم العهد وظهر عليها آثار الأيام ضنوا بها على الجميع وقد سعى بعض وجهاء دمشق من أبناء الشيخ حتى أنعمهم باطلاعي عليها إذ لا يجوز كتمان أمرها الآن حتى لا يضيع الحق وحتى يصحح كثير من الباحثين والعلماء خطأ ورطتهم فيه الدعايات الباطلة فلي الورثة الطلاب مشكورين وإعازرونيها في مطلع هذا العام ٧٢ ريثما صورتها وردتها لهم . أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها صديق لهم من أهل العلم بنص اللغتين العربية والفارسية هو الشيخ أحمد القاسمي .

وما أظن الوثيقة بحاجة إلى تعليق فليس بعد بيان السلطان بنفسه عما جرى له بيان ولا بعد هذه الصراحة بوقاحة اليهود وعلائهم الاتحاديين صراحة ونحن الذين نعيش هام ١٩٧٢ بعد أن رأينا تنابع الأحداث منذ عهد بلفور سنة ١٩١٧ وما لحقه صححنا كثيراً من نظراتنا السابقة إلى الحلفاء ومواهبهم وألمنا بأثر اليهود في الحوادث العالمية إلماً نظرياً وصرناً نرتاب بل نخاف أشد الخوف كلما رفع حزب شعارات نهشها بعد أن علمنا علم اليقين ما كان وراء شعارات ( الحرية والمساواة ) التي رفعها حزب الاتحاد والترقي من استعباد واضطهاد وتفريق إراقة دماء وشق ضحايا . لقد كان ( الاتحاد ) الذي سمي به الحزب نفسه تشقيتاً للأمة الواحدة وتمييزاً بين عناصرها وإضاعة لبعض بلادها ، وكان ( الترقي ) انحداراً إلى الهاوية حيث لفظت المملكة عندها نفسها الأخير .

( نشرت الوثيقة في مجلة العربي د ديسمبر ١٩٧٢ )

## مراجع البحث

- حاضر العالم الإسلامي : شكيب ارسلان  
 ماذا خسر العالم : أبو الحسن الندوي  
 تاريخ الجزائر : أحمد توفيق المدني  
 حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وأسيانيا: المدني  
 التذكير على منكري النعمة والخلافة: مصطفى صبري  
 لورنس العرب على خطى هرتزل: زهدي الفاتح  
 بحث عن الحروب الصليبية: حسين مؤنس  
 مواقف حاسمة : محمد عبدالله عنان  
 نيه وأصالة : مولود قاسم  
 الاستعمار : الأمير مصطفى الشرفاوي  
 التوجيه السيامي للفكرة العربية : محمد رفعت  
 العرب والترك : توفيق برو  
 الخطر الحثيث بالاسلام : جواد رفعت  
 خاطرات جمال الدين : محمد الخزومي  
 الماسونية في العراق : الدكتور الزغبى  
 مؤامرة اليهود على المسيحية: إميل الخورى حرب  
 إشواء القومية العربية : زين الدين نور الدين  
 فلسفة التاريخ العثماني ( ج ٢ ) : محمد جميل زينهم  
 لبنان في التاريخ : فيليب حقي  
 الإدارة العثمانية في ولاية سوريا: عبدالعزيز محمد عوض  
 نقطة العرب : جورج أنطونيوس  
 خطر لليهودية على الإسلام والمسيحية: عبدالله النمل  
 البروتوكولات : هجاج نويهم  
 بروتوكولات صهيون : محمد خليفة التناوي  
 تاريخ الماسونية العام : جورجى زيدان  
 الفكرة العربية : أنيس صايغ

## المصادر العامة

- سيرة الرسول : محمد بن اسحق  
 كتاب الطبقات الكبير :  
 سيرة رسول الله : ابن هشام  
 تاريخ الأمم والملوك : الطبري  
 تجارب الأمم : ابن مسكويه  
 السكامل في التاريخ : ابن الأثير  
 البداية والنهاية : ابن كثير  
 مروج الذهب : المسعودي  
 فتوح البلدان : البلاذري  
 تاريخ دول الإسلام : الذهبي  
 المقدمة - العبر والمبتدأ والخبر : ابن خلدون  
 السلوك لمعرفة دول الملوك : المقرئ  
 نفح الطيب : المقرئ  
 العواصم بن القواصم : ابن العربي  
 مختصر تاريخ البشر : أبو الفداء  
 بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن اياس  
 النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى  
 المعجب في تلخيص المغرب : المراكشي  
 الاكليل : الممداني  
 الأخبار الطوال : الدينوري  
 مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي



مذكرات محمد كرد علي ج ١

لمضارة العربية : ناجي معروف

مصور الوسطى الأوروبية : دكتور هيد القادر  
أحمد اليوسف

نظام السياسية الحديثة : أحمد سويلم العمري

هذا العالم العربي : أمين فارس

الصحف والمجلات

مجلة البيان ١٩٦٩

مجلة المقتطف : م ١٤

مجلة المنار : م ١٠ ، م ١٤ ، م ١٧

مجلة الهلال : م ١٧

مجلة دهوة الحق : ١٩٥٩ / ١٩٦٣

مجلة الرابطة العربية : أبريل ١٩٣٨

مجلة المشرق م ١٣ ، م ١٤ ، م ١٥

مجلة الفتح م ١٧

مجلة الأبحاث م ١٩٥٨

جريدة الأخبار ( ٦ مارس ١٩٢٤ )

عبد العزيز جاويز

المراجع الأجنبية

الصهيونية والشيوعية : فرنك لي برينون

لويس السادس وماري انطوانيت : فستاويستر

تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ : ارنت ر ، افردر

العالم والغرب : أرنولد توينبي

الإسلام قوة الفد العالمية : بول شتر

تاريخ الإسلام الكبير : السكوت كاتيل

دراسة في التاريخ : أرنولد توينبي

سقوط الامبراطورية الرومانية : جيبون

قصة الحضارة : ول ديورانت

تراث المصور الوسطى : كويب - جاكوب

محمد وشارلمان : هنري بيرين

موجز تاريخ الشرق الأوسط : كيرك

الإسلام في الغرب : جان بول ريو

مائة مشروع ليقسم تركيا : دجوفارا

المجتمع الإسلامي والعرب : هاملتون جب

المجلد الأول : الفكر الإسلامى (مصدر)

المجلد الثاني : تاريخ الإسلام منذ فجره إلى اليوم . ( هذا المجلد )

المجلد العاشر : حركة اليقظة الاسلامية

مطبعة النعمان

تاكيفون ٤٦٠٤١

رقم الايداع ٣٩١٤ - ٧٩

4/10/21 4/11/21 4/12/21 4/13/21

المجلد الثاني

# تاريخ الإسلام

\* من فجر الإسلام إلى العصر الحديث .  
\* عالم الإسلام وعالم الغرب .  
\* من الوحدة الإسلامية العثمانية : إلى الترك والعرب

يقدم هذا المجلد دراسة متنوعة كاملة لتاريخ الإسلام : منذ طلوع فجره وبزوغ نجمه إلى اليوم مروراً بمراحله المختلفة وأحداثه الكبرى وتوسعاته في قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا ، كاشف عن أكبر أحداثه في مواجهة الحملات الصليبية والمفولية والغزو الفرنجي على جبهات الأندلس والمغرب والشام وبيت المقدس ومصر وعلاقة الإسلام بعالم الغرب من خلال الاستعمار الغربي والصهيونية والشيوعية كاشفاً عن علاقات الترك والعرب من خلال دولة الخلافة العثمانية والعروبة والإسلام ومحاولات القوميات الضيقة والاقليميات والوحدة الإسلامية والتضامن وبزوغ عصر النهضة انطلاقاً إلى عصر النهضة على مشارف القرن الخامس عشر الهجري .

أنور الجندى

دار الأندلس

دار النشر والبيعت راسية شارع النهضة ٤٤٤٤  
طبع في بيروت ١٤١٥ هـ

- ب -  
آفاق للبحث

الموضوع	ص	لإنصهار المجتمع الاسلامى	١٠٤
الرسالة الأولى		(١٤) دور الاسلام فى العلم	١٠٦
من فخر الإسلام إلى العصر الحديث		(١٥) انتشار الاسلام	١١١
أطار البحث	٩	(١٦) مرحلة الغزو الخارجى (باب)	١١٥
(١) الاسلام والتاريخ	٥	(١٧) أزمة الاسلام	١٢١
(٢) بناء الجماعة الاسلامية (باب)	١٠	(١٨) الروم وعالم الاسلام	١٢٦
الجماعة الاسلامية فى مكة	١٣	(١٩) الحروب الصليبية فى المشرق	١٣٠
الجماعة الاسلامية فى المدينة	١٦	المقاومة	١٤٠
(٤) تسكامل مفهوم الاسلام	٢٤	(٢٠) غزو الفرنجة للمغرب	١٤٢
(٥) بناء الاسلام وتوسعاته (باب)	٣٢	(٢١) الغزو المغولى الشرقى	١٤٦
(٧) الاسلام والحرب	٤٣	(٢٢) موجة السلاجقة	
(٨) مرحلة الإنصهار والبلورة	٥٠	(٢٣) موجة البربر	١٦٥
(١٠) أزمة الحضارة	٥٨	(٢٤) موجة المماليك	١٧١
عصر عثمان	٦٢	(٢٥) انتشار الاسلام فى مرحلة الغزو	
الامام على	٦٥	الخارجى	١٧٥
حركة المعارضة	٦٨	(٢٦) الفكر والثقافة فى مرحلة الغزو	١٧٩
دعاة المثل الأعلى (الخوارج)	٧٠	الخارجى	
دعاة العاطفة (آل البيت)	٧١	الحركة الموسوعية الكبرى	١٨٤
دعاة النقد الاجتماعى	٧٣	الفكر الاسلامى يقاوم تحديات الغزو	١٨٧
الوافيوت	٧٥	الفكر لا الأدب هو أداة المقاومة	١٨٩
(١١) النظام السياسى	٨٠	(٢٧) مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية	١٩٤
الدولة العباسية	٨٤	(باب)	
(١٢) المؤامرة على الاسلام	٨٨	(٢٨) القوى الاسلامية الثلاث	٢٠٨
(١٣) حركة الدافع عن الاسلام	٩٤	(٢٩) الاسلام والأندلس	٢١٠
المعنزلة والدافع عن الاسلام	٩٦	(٣٠) الثقافة فى عصر الوحدة الاسلامية	
		العثمانية	٢١٦

٣٤٠	(١) الاسلام بفتحهم أوروبا (جبهة بيزانطة)
٣٤٨	(٢) هلى جبهة الأندلس
٣٥٧	(٤) أوروبا فى الاسلام
	(٥) أجنحة المعركة - من الأندلس
٣٦١	إلى الشام
٣٧٦	نظرة الغرب إلى الاسلام
	(٩) أوروبا والغرب من المسيحية إلى
	الاستعمار (باب)
٣٨٨	أوروبا المسيحية
٣٩٨	(١٢) تمزق الوحدة الأوربية
٤٠٣	(١٣) الفكر الغربى المسيحى
٤١٠	(١٤) أثر الاسلام فى الغرب
٤١٦	(١٥) الاستعمار
٤٢٥	(١٦) الدولة العثمانية وسبعة قرون (باب)
٤٢٥	العثمانيون حول أسوار فينا
٤٣١	الدفاع فى وجه الهجوم المضاد
٤٣٨	محاذير الغزو الفكرى
	عالم الاسلام فى قبضة الغرب (باب)
٤٤٤	الدولة العثمانية - الطورانية
٤٥٠	(٢١) العرب والترك
	(٢٢) الصهيونية والوصول إلى القدس
٤٦٨	(٢٣) اسقاط الخلافة
٤٧٨	(٢٤) وصول روسيا
	(٢٥) قوى الاستعمار والصهيونية
	والشيوعية المتصارعة (باب)
٤٨٤	(٢٦) الشيوعية والاستعمار
٨٤٧	(٢٧) الشيوعية والصهيونية

٢١٩	الحركة الصوفية
٢٢٥	(٣١) الينظة العربية الاسلامية (باب)
٢٣١	(٣٢) تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار
٢٣١	(٣٣) حركات الينظة والتجديد
٢٥٠	الينظة فى عالم الاسلام
٢٥٢	(٣٤) الاسلام والغرب
٢٥٦	(٣٥) الغرب والاسلام
٢٦٢	(٣٦) انتشار الاسلام
٢٦٧	(٣٧) بين العرب والترك
٢٦٩	مراحل اختلاف
٢٧٣	الحرب الصليبية الجديدة
٢٨١	معالم أساسية فى تاريخ الاسلام (باب)
٢٨٧	(٣٩) العرب مادة الاسلام
٢٩٤	(٤٠) انتشار الاسلام ذاتياً
٣٠٠	(٤١) مفهوم البطولة فى تاريخ الاسلام
٣٠٤	بطولة الحرب
٣٠٨	بناء الدول
٣١٢	تكريم العلماء
٣١٢	(٤٢) المرأة فى تاريخ الاسلام
٣١٧	(٤٣) عوامل التأخر ودوافع التقدم
٣٢١	(٤٤) فلسفة تاريخ الاسلام (باب)
٣٢٤	تسكامل مفهوم التاريخ الاسلامى
٣٣٠	حركة التاريخ الاسلامى وغائتيه
٣٣٨	أبرز وقائع تاريخ الاسلام
	الرسالة الثانية
	عالم الاسلام وعالم الغرب
٣٤٠	مدخل

- ٦١٤ الارصاليات التبشيرية
- ٦١٨ (١٥) لبنان مركز التجمع
- ٦٢٥ (١٧) الترابط بين التبشير والماسونية
- ٦٢٩ (١٨) نمار التبشير والماسونية
- ٦٣١ (١٩) أعمال الارصاليات
- ٦٣٣ (٢٠) الاتحاديون ولبس السلطان
- ٦٣٨ (٢١) الحركة الطورانية (باب)
- ٦٥٤ (٢٢) الاقليميات الغنيقة
- ٦٦١ (٢٣) ما بعد عبد الحميد
- ٦٦٢ (٢٤) الاسلام والجامعة الطورانية
- (٢٥) بديل للخلافة العثمانية (لورنس)
- ٦٦٦ والهاشيون
- (٢٦) تمزيق وحدة العروبة والاسلام (باب)
- ٦٧٩ (٢٧) الخلافة الاسلامية
- ١٩٢ (٢٨) الدعوة الاقليمية المصرية
- ٦٩٥ (٢٩) الفيزيقية اللبنانية
- ٧٠٢ (٣٠) الصبونية واليهودية العالمية
- (٣١) عروبة ومفهوم القوميات الوافدة (باب ٦)
- (٣٢) طرح النظرية الغربية في القوميات ٧١٦
- (٣٣) مبدأ القوميات في أوروبا ٧٢١
- (٣٤) من النجعة الغربية إلى الأصالة
- ٧٧٠ الوثائق
- ٦٣٦ (٣٥) ترابط العروبة والاسلام
- ٧٤٠ (٣٦) الاسلام صانع العروبة
- ٧٤٥ (٣٧) موقف الاسلام من العروبة
- (٣٨) مبدأ القوميات بين أوروبا والعالم ٧٥٠
- الاسلامى
- ٤٩٤ عالم الغرب اليوم إزاء الاسلام (باب)
- ٥٠٦ (٢٩) فساد المجتمع الغربى
- (٣٠) الاسلام في دورة الفلك
- ٥١٣ ألف مليون مسلم
- ٥١٦ (٣١) هودة الاسلام إلى أوروبا
- ٥٢١ (٣٢) الاسلام في الأفق
- ٥٢٥ (٣٣) التفوق البشرى
- ٥٣١ (٣٤) مستقبل الاسلام
- الرسالة الثالثة
- من الوحدة الاسلامية العثمانية إلى الترك ٥٤٠
- والعرب
- تفسير جديد لتاريخ الاسلامى ٥٤٠
- ( ١ ) الوحدة الاسلامية تحت لواء الخلافة ٥٥٥
- ( ٢ ) ماهى الحركة التى تحمى لوائها ٥٥٨
- ( ٣ ) التحديدات فى مواجهة الحركة ٥٦٣
- ( ٤ ) عبد الحميد والصهيونية ٥٦٩
- ( ٥ ) عبد الحميد وجمال الدين ٥٧٨
- ( ٦ ) المؤامرة على الدولة العثمانية
- الدعوة ٥٨٣
- ( ٧ ) مخططات اليهود العالمية ٥٨٩
- ( ٨ ) الثورة الفرنسية ٥٩٢
- ( ٩ ) إحتواء الأديان ٥٩٣
- (١٠) اليهودية في العالم الاسلامى ٥٩٧
- (١١) دولة الاتحاديين ٦٠٥
- (١٢) الماسونية في الدولة العثمانية ٦٠٨
- (١٣) رجال الاتحاد والترقى ٦١١
- تمزيق العالم الاسلامى (باب ١٤)